

كارستن نيبور

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها



الجزء الأول



V O Y A G E
EN
A R A B I E

A son retour par le capitaine,

par

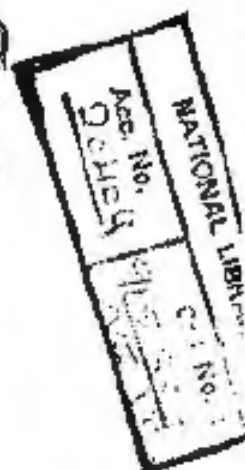
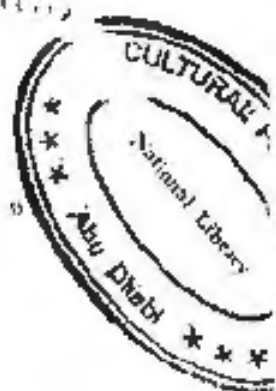
C. N I E B U I R.

TOME PREMIER.

Traduit de l'Arabe.



À AMSTERDAM chez N. J. BAALDE,
À ROTTERDAM chez J. VAN NICHOLHOVEN & Comp.
M D C C L X V I.





مرکز تحقیقات کلام و فقه اسلامی

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية والى بلاد أخرى مجاورة لها

الجزء الأول

كارستن نيبور



مركز الدراسات الإسلامية

ترجمة عبير المنذر

جمع داري اموال

مركز تحقيقات کامپیوتری علوم اسلامی

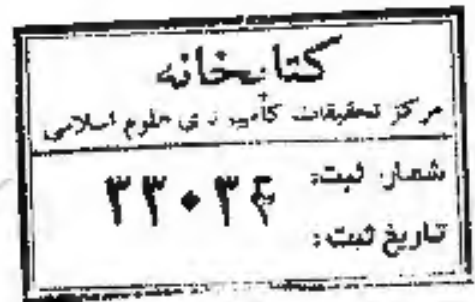
ش-اموال ۵۱۶۹۸



Arab Diffusion Company

كارستن نيبور

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية
والى بلاد أخرى مجاورة لها



ص ب 113/5752

E-mail: arabdiffusion@hotmail.com

www.alintishar.com

بيروت-لبنان

هاتف: ٩٦١-١٦٥٩١٤٨ فاكس: ٩٦١-١٦٥٩١٤٠

ISBN 9953-476-83-7

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

المحتويات

١١	المقدمة
١٥	الرحلة من كوبنهاغن إلى القسطنطينية
٣٠	ملاحظات من القسطنطينية
٣٩	الرحلة من القسطنطينية إلى الإسكندرية
٤٤	ملاحظات من الإسكندرية
٥٢	الرحلة من الإسكندرية إلى القاهرة
٥٧	رحلة دمياط، والعودة إلى القاهرة
٦٦	ملاحظات حول خط سير الرحلة بين الرشيد، والقاهرة ودمياط
٨١	أسماء المدن والقرى التي ذكرها السيد فورسكال خلال رحلته من القاهرة إلى الإسكندرية
٨٣	مواقع بعض المدن المصرية القديمة
٩٠	وصف القاهرة، وبرلاق، ومصر الحقيقية والحجيرة
١٠٦	سكان مدينة القاهرة وشكل الحكم والتجارة فيها
	الآلات التي تعمل على الماء، الطواحين، محاصر الزيت، آلات الزراعة، أفران النشادر وآلات نفثيس
١١٧	البهز في مصر
١٢٢	لباس أهل الشرق
١٤١	التمارين والتسلية التي يقوم بها الشرفيون في أوقات فراغهم

١٥٨	آثار مصر
١٨٤	سير الرحلة من القاهرة إلى السويس وإلى جبل سيناء
٢١٨	الرحلة من السويس إلى جدة
٢٣١	ملاحظات في جدة
٢٤١	الرحلة من جدة إلى مخيخ
٢٦١	رحلة من مخيخ إلى بيت الفقيه
	رحلة من بيت الفقيه إلى غلقة والحديدة والزبد والحيثا (Tahate) والتحة (Kahhna)
٢٦٩	وهدة إلى الجبال المتجة للبحر
٢٨١	سير الرحلة من بيت الفقيه إلى عدن وجيلة وتعز وحاس
٢٩٣	الرحلة من بيت الفقيه إلى المخا
٣٠٢	الرحلة من المخا إلى تعز
٣١٥	الرحلة من تعز إلى صنعاء
٣٤١	الرحلة من صنعاء إلى المخا
٣٥٣	سير الرحلة من المخا إلى بومباي
٣٥٩	سير رحلة هولندي في مناطق يمنية لم تذكر في الصفحات السابقة
٣٦٥	ملاحظات حول الجو في كل من القسطنطينية والقاهرة، وشبه الجزيرة العربية وبومباي

لائحة اللوحات

الصفحة	لهرس اللوحات
٢٣	١ - منظر الشواطئ قرب جبل طارق وسبتة (Ceuta)
٢٥	٢ - منظر لمدينة مرسيليا
٢٣	٣ - خارطة مدينة القسطنطينية، وغالاتا (Galata)، وسودار (Scudar)
٢٦	٤ - كتابات هيرغليفية على مسلة في القسطنطينية
٤٧	٥ - قياس بعض المسلات وأهرام مصر
٥٣	٦ - منظر لمدينة الرشيد
٥٩	٧ - خارطة مدينة دمياط
٦٢	٨ - منظر لمدينة دمياط
٦٤	٩ - قلعة على مصب النيل
٨٥	١٠ - بعض الآثار المصرية
٩٤	١١ - منظر لياب الفنوش، أحد أبواب القاهرة
١٠١	١٢ - مخيم الحجاج قبل انطلاقهم إلى مكة
١١٨	١٣ - بعض الآلات المائية في مصر
١٢٠	١٤ - رسم وصورة لطاحون في القاهرة
١٢٢	١٥ - صورة لفرن ملح النشادر، وآلات أخرى مختلفة
١٢٤	١٦ - صورة فرن، لتفقيس النض

- ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠ - لباس الرأس عند الشرقيين
- ١٢٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦
- ٢٢ - لباس نساء الإغريق في الإسكندرية
- ١٣٩
- ٢٣ - ألعاب الشرقيين المختلفة
- ١٤٣
- ٢٤ - الآلات الموسيقية عند الشرقيين
- ١٤٧
- ٢٥ - رسم للراقصات في القاهرة
- ١٥١
- ٢٦ - رسم لموكب عرس في القاهرة
- ١٥٥
- ٢٧ - رسم لعرب مصر
- ١٦٠
- ٢٨ - كتابات هيروغليفية على صندوق قرب قلاع الكيش
- ١٦٦
- ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣ - كتابات هيروغليفية على صندوق من الرخام في بولاق
- ١٦٨، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥
- ٣٤ - كتابات هيروغليفية على مسلات مكسورة
- ١٧٦
- ٣٥، ٣٦ - كتابات هيروغليفية على أوان صغيرة من الرمر
- ١٧٧، ١٧٨
- ٣٧ - كتابات هيروغليفية ورموز على صندوق مومياء
- ١٧٩
- ٣٨ - كتابات هيروغليفية نقش على الخشب والحجر
- ١٨٠
- ٣٩ - رموز وأشكال من الكتابات الهيروغليفية
- ١٨٢
- ٤٠ - رسم لبعض الآلهة عند المصريين
- ١٨٣
- ٤١ - منظر للصخور في الطريق نحو جبل سيناء
- ١٩٦
- ٤٢ - منوع الدبر على جبل سيناء، وإحدى المقابر
- ١٩٩
- ٤٣، ٤٤ - كتابات هيروغليفية على مقامر في الصحراء
- ٢٠٢، ٢٠٦
- ٤٥، ٤٦ - منظر الدبر على جبل سيناء
- ٢٠٨، ٢٠٩
- ٤٧، ٤٨ - كتابات على طريق السويس نحو جبل سيناء
- ٢١٢، ٢١٤
- ٤٩ - منظر لمدينة السويس والطور (Tôr)
- ٢١٦
- ٥٠ - محيط الطور
- ٢٢١
- ٥١ - منظر لمدينة بنبع (Janbo) ولمدينة جدّة
- ٢٢٧

٢٢٨	٥٢ - صورة لحاج تركي
٢٣٥	٥٣ - خارطة مدينة جدة
٢٣٩	٥٤ - صورة لصياد في جدة
٢٤٢	٥٥ - صورة لامرأة من جدة
٢٤٧	٥٦ - وضع مدينة ينبع والنفذة (Ghūmfude)
٢٥٤	٥٧ - صورة لامرأة عربية من تهامة
٢٥٧	٥٨ - خارطة لمدينة مخيخ
٢٦٢	٥٩ - منظر لمدينة بيت الفقيه ومحيطها
٢٦٧	٦٠ - خارطة لمدينة بيت الفقيه ومحيطها
٢٧٨	٦١ - منظر في محيط قرية بلقاص (Bulgace)، وللجبال التي تنتج البن
٢٧٩	٦٢ - صورة لامرأة عربية من الجبال المنتجة للبن
٢٨٢	٦٣ - منظر لهدية (Hâdie)
٣٠٥	٦٤ - خارطة مدينة تعز
٣٠٦	٦٥ - منظر لمدينة تعز
٣٢٩	٦٦ - منظر لقصر يريم، والمنزل في بحر القصص
٣٣١	٦٧ - تصوير لجلسة بحضور إمام صنعاء
٣٣٨	٦٨ - خارطة لمدينة صنعاء
٣٣٩	٦٩ - لباس أصحاب الشأن من العرب في اليمن
٣٤٦	٧٠ - وضع مدينة المخا (Mochha) ومرضاها



المقدمة

هذه الرحلة الشهيرة حيزاً مهماً في التاريخ الأدبي لقرنا هدا، حتى أن إحدى الأمم التي حاولت أن تستأثر بالفتون والعم حسدت عظمة هذه الرحلة. واحم علماء البلاد فاطمة بنجاح هذه المهمة فحاولوا قطف ثمارها دون أن يتقاسمونا مخاطرهما. وعاد السيد نيور وحده من شبه الجزيرة العربية من بين الخمسة الذين تشرفت الدائمك بإرسالهم بكنوز علمية أهم من فروة كورلشيد الذهبية الشهيرة، وقد حاول بعض النمامين الحساد الادعاء أن مرت زملاء الأول أودى بشمار الأبحاث كافة، لكن ما إن أصدر وصفه لشبه الجزيرة العربية حتى سارع العلماء البارزون إلى مدحه والثناء على ملاحظاته المفيدة والبناءة.

ولا بجهل أحد في عالم الأدب انطلاقاً هذه الرحلة وتطوراتها ونتائجها، كما نجد هذه المعلومات مفصلة في مقدمة أسئلة السيد ميكائيليس ومقدمة وصفه شبه الجزيرة العربية، مما دللنا إلى الاكتفاء بما لم يرد في مقدمة الأعمال السابقة التي انتشرت وبالت الإعجاب

استهل السيد نيور عمله بالإشارة إلى أن سكان اليمن، أي سكان الجزء الجنوبي لشبه الجزيرة العربية، الذي يعرفه الأوروبيون باسم العربية السعيدة Felix Anahra، كانوا في العصور القابرة متحصرين ومشهورين بتجارهم مع الأجانب. وأضاف إن هذا البلد لا يزال الأهم بنظر العلماء، لذا استحق أن يعرف بدقة أكبر. وكنا قد استعدنا من اللغة العربية في ترجمة مقاطع عدة من الكتاب المقدس، لكن هذه اللغة ننسب إلى لهجات محلية عدة شأنها في ذلك شأن اللغات القديمة المستخدمة في بلاد شامسة، وتبقى لهجة اليمن نغزاً يحتر علماء أوروبا. ويمكن لشبه الجزيرة العربية أن تشكل حقلاً واسعاً للاكتشافات بالنسبة لعلماء الطبيعيات، فقد يجد مترجمون في الأسماء التي يطلقها العرب على النبات والأحجار وغيرها تفسيراً لأسماء كثيرة وردت في الكتاب المقدس وتحدد الجغرافيا فوائده عدة من رحلة كهذه، إذ نكثر عندنا الكتب العربية القديمة حول التاريخ والجغرافيا التي ينبغي معرفة وضع الجزيرة الحالي لفهمها، كما أتت الكتابات المقدسة

على ذكر مدن عربية عدة. ويمكننا ذكر أسباب اخرى جعلت محبي العزم يتمسكون أن تقوم بفتح عملاء
برحلة كهذه.

وبعد ذكر أسباب الرحلة وتائجها في مقدمة وصف شبه الجزيرة العربية، يضيف الكاتب «بالرغم
من أن الموت غيب رفاقي، فلا يعني اعتبار أعماليهم وكأنها هباء منثوراً، إذ إن السيد فورسكال قد قام
بعمل جبار حتى مرض، ورؤيتي بمعلومات مهمة حول التاريخ الطبيعي، كما ترك السيد دي هافن
معلومات دقيقة حول الرحلة من كوبنهاغن إلى القاهرة، ومن السويس إلى جبل سيناء».

ويضيف السيد بيور: «إن الذين يقرؤون العمل للتسلية وإرجاء الوقت، يستمتعون حين يروى لمسافر
قصصاً مزلة عن طريقة حياة القرياء، وعن الصعاب التي واجهها الخ». ويعترف قائلاً «إن هذا أكثر إمتاعاً
من وصف جفاف النملس والطرق التي مرت بها العثة، وليسهل على جمع عدة كبير من هذه القصص
اللافتة والممتعة، فلقد تكبدت مشقة كبيرة حين رسمت غرائط المدن ووضعت تفاصيل الطرق. لكن معارضة
لسلبه القاريء استدعيني إلى إهمال الأبحاث المفيدة هدف الرحلة لكني لم أتمكن من كبت شعوري حين
وجدت أن العرب لا يفتقون إنسانية عن الأمم الأخرى التي تدعي الأدب والتهديب، ولقد أصعبت في البلاد
التي زرتها (كما ينبغي أن يتوقع كل مسافر) أياماً ممتعة وأخرى مزعجة. وكنت قد كتبت دراسة الجغرافيا،
والذين يعرفون هذا الميدان، يقدرون ما ينبغي تكبده من متاعب لجمع معلومات في بلد غريب، ولا يحسبون
أهمية مهمتي، وبالتالي يستطيعون إطلاق حكم سيم حول مدى إنجازي لها».

وأدرج السيد بيور في نهاية عمله، رواية رحلات المرشد الهولندي الذي جال في مناطق عدة من اليمن
وهي المناطق التي لم يتمكن من زيارتها بنفسه، ثم أتت ملاحظاته حول الجو لاحقاً، على أن يتركها للجزء
الثاني، وهي ملاحظات سجلها بين كوبنهاغن وبومبي.

ثم تراجع عالمنا مع عدد من الصحافيين الذين أوردوا مقتطفات من عمله، فأثنى على الذين تحدثوا عنه
بإنصاف وعقلانية ومنطق، ولكنه لم يجران عن تشييد الذين أطلقوا عليه حكمهم - دون أن يسموه -
بالسراج (Seradji)، فقال: «لا بحق لهم أن يُصنِّحوا حكماً شرعياً على الأدباء، على غرار السراج بين
قضاة مصر». واستفاض بلوم الصحافي دي ليمو (de Lemo) الذي أسند إليه ملاحظات بعيدة كل البعد
عن تلك التي عرضها، وقد أورد أمثلة عدة على ذلك. يقول الصحافي «نستنتج من روايات الكتاب أن
الجو في شبه الجزيرة أقل صفاء من جو أوروبا، وأن أهل الزرج يعتبرون الزوجة إرثاً لا يتزل إلى أبدي
غريبة، وأن بطليموس لم يبلغ لغة الفراعنة كما فعل بلغة الأقباط، وأن القرآن كتب على الأرجح بأحرف
قبطية، وأن الأناسي غطيرة بوجه الإجمال في شبه الجزيرة، وأن العرب لا يستأطرون من البرص انطلاقاً من
قناعة دينية، وأن المرء يكثر بعد تساقط الأمطار بغزوة، وأن الخصوبة تصاعف بألف، الخ...». وإن راجعنا

وصف شبه الحرية العربية، لكوننا فكرة مغايرة عن الموضوع. ويرى كاتبنا بفصاحة أن مقتطفات كهذه تسيء إلى العمل، ويجب ألا تفضى أقوال كاتب بهذه الطريقة الميعة، ينبغي أن نتوقع أن يقوم البعض بإسناد ستار خداع على أسلوب كتاب يريدون مدحه، انطلاقاً من نحر أعمى ومتصلب، فيما يقوم آخرون بالسخرية من العمل عبر إظهار نقاط ضعفه وحسب. ولقد عني هؤلاء، طلب السيد ليور من السيد ميكائيل إسناد حكمه، ويدون لنا أن هذا الأخير أجدر الناس بالحكم على العمل لأخلاقه، وبالتالي يمكننا إلقاء نظرة على المقتطف الذي كره عن وصف شبه الحرية العربية والذي ورد في آخر أسنته.

نأمل أن يلاقي هذا العمل إعجاب القراء. وأن يسمي أبناء عصرنا ورثة الاكتشافات العظيمة، وأن يهتموا بالأمور المفيدة، ولا نشك في أن كتاباً كهذا يسلط الضوء على جزء من فكرة الأرضية مثير للاهتمام ومجهول، لذا سيقام بين هوة المعلومات الحقيقيين التقدير والإعجاب.



الرحلة من كوبنهاغن إلى القسطنطينية

إلى القسطنطينية

بعثنا التي أعدت العدة لנסافر إلى شبه الجزيرة العربية في كوربهاغن، وتلفت الأمر من ذلك بالترجى إلى أن نمر على متن أسطول حربي فركبنا السفينة في ٤ كانون الثاني ١٧٦١. وبين لنا أولاً أن نشتم بكافة وسائل الراحة والتسلية الممكنة أثناء هذه الرحلة، وكانت السفينة بقيادة السيد هنري ميشر، فجهز لنا غرفتين واسمتين بقدر ما تسمح به السفينة، واعتدنا تناول طعام الغداء والعشاء في غرفة القبطان، وقد برهن هذا الأخير فضلاً عن ضباط الصاقم عن نطف وتهذيب فائقين. ولقد اضطررنا إلى البقاء في المرنأ



ليومين بانتظار رياح مؤاتية فلم يبحر إلا في السابع من شهر كانون الثاني، ففي ذلك اليوم هبت رياح جوية مؤاتية لكها كانت عادة بلنغا بصحوبة مرفأ هلسينغوري (Helsingör) عند المساء بالرعم من التيار وفي الأيام التالية، استعالت الرياح قوة، وبالرغم من أن رفا الأشرعة في ٤ كانون الثاني، لم يدم الرياح اندوائية طويلاً، فهبت في الليلة التالية عاصفة هوجاء، استمرت دون توقف حتى صباح السادس عشر من الشهر نفسه. ودعت في هذا الوقت خطر شديد، فاجو مظلم، وقد استحال علينا تحديد موقعنا بسبب التيار الذي يجره في الكاتفيت (Kattegat) تارة نحو الشمال وطوراً نحو الجنوب. وفي صباح السادس عشر من كانون الثاني، تخشينا أن نكون قرب شواطئ السويد، لكن الشمس التي بانست قبلاً عند الظهر سمحت لنا بتحديد موقعنا قرب جزيرة ليسويه (Læsø)، وبما أن الريح لم تكن مؤاتية، عاد لحو مظلماً من جديد، قررنا في السابع عشر العودة إلى هلسر، فوجدنا في مرفأ السفن التي عاقرته بها، واعتقدنا

أن السفن التي لم تعد إما التجأت إلى مرافئ أخرى أو عرقت. وعندما عاودنا هلسينغور، عبرنا سوند (Sund)، أطلقاً ثلاث طلقات مدفع تحية، ردت، عليها قلعة كورسبرغ (Corenberg) بثلاث طلقات، وقلعة هلسينغور بأربع طلقات، فالسويديون يحيون بطلقات مدفعية، فيما يحيي الدنماركيون بعصافير معدة، لكن هذه العادة لم تتبع عند عودت، لأننا حاولنا مراراً العبارة، فالأساطيل البحرية التي تمر في سوند لا تحيي إلا في المرة الأولى التي تبحر فيها وبعد العودة من رحلتها.

واقدر حرصت في الرحلات كلها على قياس ارتفاع القطب عند الظهور وفي المساء، واستخدمت لهذه الغاية ثعبنة^(١) هادلي (Hadley) ولملاحظات لمسجلة فوق البحر فائدة كبرى وإن كانت لا تتمتع بدقة تلك التي تسجل على الأرض وبالتحديد حين يكون الطقس شتاء حيث لا ترتفع الشمس كثير فوق الأفق. ويمكننا تحديث الخرائط الجغرافية والبحرية وجعلها أكثر دقة إذا ما تأكدنا من موقع الأماكن الرئيسة وسعدني أنني تمكنت من تحديدها بدقة كبيرة، ولكن لا جدوى من إدراج الملاحظات والحسابات العسكية التي سجلتها في عرض البحر هنا، وسأكتفي بذكر تلك التي سجلتها قرب الشواطئ وأرلها في ١٨ كانون الثاني حيث كنا قرب هلسينغور جنوباً. وحددت ارتفاع القطب على $55^{\circ} 07'$ ، وكانت الإبرة المغطاة تقيس 14° درجة نحو الشمال.

ثم في ٢٦ كانون الثاني (يناير) عاودنا هلسينغور بسرة الثابتة، وكان الريح مواتية، وفي اليوم التالي حل الصباب طيلة النهار مرأياً في الشمال عند الظهور فوس فرح صبايياً، لا يختلف عن القوس قرع العادي إلا بكونه أبيض ومن غير ألون. وعند ظهر اليوم التالي، في ٢٨ كانون الثاني، تبين لي أن ارتفاع القطب يبلغ $57^{\circ} 47'$ ، واستنتجت ذلك من انحراف الإبرة المغطاة التي تميل في هذا المحيط بحر الشمال إلى 14° درجة ونصف. وحين بعد المكان الذي نحاول تحديد ارتفاع القطب منه، يسمى التحدي بظفرة ناقية وخبره لتحديد مسافة الفاصلة بين المكان والسعيية، وبما أنها رحلتي الأولى راجعت الصباح والملاحين مرراً لأنهم أصحاب خبره أكثر مني في هذا الميدان واعتبروا أننا بعد 3 أميال ونصف عن مارشاند (Marstrand)، لذا تم تحديد ارتفاع قطب قلعة مارشاند على 57° و $49'$ ، فيما قطب سكاغن (Skagen) على 57° و $38'$ حسب تقديرونا.

وساعدتنا الرياح حتى أواخر كانون الثاني (يناير)، فتمكنا من اجتياز الكاتغيت (Kattegat) ووصلنا بحر الشمال وفي بداية شهر شباط (فبراير) عاكسنا الرياح، وعصفت بقوه في ٢ شباط (فبراير) والليله التالية حتى ألسا سم نجرؤ على إشعال النار في السعيية. لكننا جالدنا، لأننا علمنا أنه لا بد من تحمل هذه المشقات في البحر. ونأسفنا بعددنا أحد البحارة بعد أن وقع عن السعيية ونم نتمسك من إنقاده بسبب الظلام الدس والأمواج العاتية. وهدأت العاصفة، لكن الرياح بقيت معاكسة فراجعنا بدلاً من أن نتقدم.

وصعد على متن السفينة في ٥ و ٦ شباط/فبراير ريثان من براكفيا (Brackefia) وآخر من فلكرود (Fleckeröe)، لكن قائد السفينة رفض المساعدة التي عرضها عليه لاعتقاده بأن السفينة في مأمن ولا داعي للجوء إلى أي مرفأ. وفي ٨ شباط/فبراير تعرضنا لعاصفة هوجاء أخرى، وطلبنا المساعدة، بما يشنا أن رأينا مركباً صغيراً يتجه نحونا من الشاطئ، لكن العاصفة ازدادت حدة وتساقطت الثلوج بعزّة فاضطربنا إلى العودة نحو عرض البحر ولم نعد نرى المركب. واستمرت الرياح تعصف بي اليوم التالي، ولم نعد نتوقع تحسناً في حال العاصف، أو تأمل باللجوء إلى أحد مرفأء الشرج، فاجتزنا بحوالي ٣٠ ساعة المسافة التي أخذت ما ١٥ يوماً عند الانطلاق، فرسونا في ١٠ شباط/فبراير قرب حصن كروننبرغ (Cronenburg).

في ١٢ شباط/فبراير، تبين لي أن ارتفاع القطب، على بعد ربع ميل إلى الجنوب من كرنبرغ هو ٥٥° و ٥٩'، لذا يستنتج أن ارتفاع قطب هذه القلعة الواقعة إلى الشمال وقرب مدينة هلسنبوري هو ٥٥٦°.

وعانى البحارة الأرمين من جراء العاصف الرديء، فمات بعضهم ومرض بعضهم الآخر، وبما أنه لا يجوز القيام برحلة طويلة كهذه مع كل هؤلاء المرضى، كتب قائد السفينة إلى كوبنهاغن طالباً الصبح، فخلق الأمر بالعودة. وفي أثناء ذلك، تحولت الرياح جوية - شرقية وجتوية كما قمنا بعد فترة، فأرسلوا إلينا بسرعة المريد من المؤن والبخارة كي لا نخسر. لكن يبدو أنه كتب علينا أن نكون لعمري في بد الرياح التي عصفت غرباً قبل أن نتمكن من رفع المرساة. ويدعي البعض أن الهواء في هذا المحيط يعصف من الجهة الغربية لهاجرة خلال تسعة أشهر من السنة، وهذا الأمر محتمل للغاية إذ، ما أخذنا بعين الاعتبار كم أوجأت هذه الرياح رحلتنا

وأصيب رفاقي الأربعة بدوار البحر، لكنهم رفضوا ترك المركب باستثناء السيد دي هافن الذي لم يتأقلم مع السفر بحراً. وبما أن السفينة منترسو في مرسيل، طلب إداً من المنث كي يسافر إلى هذه المدينة برأ، وما إن حصل على الإذن حتى غادر السفينة في ١٧ شباط/فبراير. ولم أعان كالآخرين لأنني لم أصيب بدوار البحر حتى خلال الموصف الهوجاء، كما سلّمت أمرى للرب واتكلت على مهارة صياطي وبحارتنا، كننت آوي إلى فراشي كلما هبت عاصفة في حين كان هؤلاء يجاهدون للحفاظ على السفينة رغم البرد والمطر والرياح.

وفي ١٩ شباط/فبراير مساءً، تركت مرفأ هلسنبوري لسفرة الثالثة، أملين أن تساعدنا الرياح المواتية، لكن ما إن وصلنا سكاجن (Skagen)، حتى تحولت الرياح إلى عريّة وأجبرتنا على الإبحار في قناة الكائنات. وفي ٢٢ ظهرآ، كان رأس كون (Kall) على بعد خمسة أرباع الميل إلى الشرق، وكان ارتفاع العاصف ٥٥٦° و ٢٠'، وبالتالي ارتفاع قصب الرأس ٥٥٦° و ١٩'؛ وعند المساء، أكنيت المرساة قرب هلسنبر.

منذ عاودنا كوبنهاغن، قطعنا ٤٥٠ ميلاً لكننا لم نعثر من البحر المتوسط إلا ٤ أميان، ونكتشف

تقدم المخاطر التي يتعرض لها من يسافر بحرًا وكم يصعب على البحار تحديد زمن وصوله ولا سيما في هذه المناطق الشمالية حيث الرياح غير منتظمة بعكس مناطق المدارية.

واستأنسا لعودتنا للمرة الثالثة، نكن ما يشاء أن سرورنا بوجوده في مرفأ لأن عاصفة هوجاء هبت في اليوم التالي، فحمتنا الشواطئ من عصف الطبيعة، لكننا اضطررنا إلى زلزل عارصات الصاري ونصواري كمي لا تعاني السهينة من الرياح العاتية. وأخذت الأمواج تنظم السهينة بعصف كما لو كنا في بحر الشمال، فأنزنا مرسة نالفة خوفاً من ألا تكفي الأوليان لإيقاف الباحرة. وهبت الرياح من المغرب ودامت حتى الخامس من شهر آذار/مارس ثم هدأت تدريجياً

كان لا بد لنا بحسب تقديرنا وبحسب يوميات مسراع^(١)، من أن نتقدم أكثر نحو الشمال عند معادرتنا ونحو الجنوب عند عودتنا، فربيت اسراع، وبين لي أن خطه قصير بعض الشيء وأن الرمل لا يسير إلا ٢٩ دقيقة، واعتقدت أن في الأمر خطأ ما، لكن تبين أن اباحرة قلصو خط المسراع عمداً لأنه يمتد لاحقاً بعد الاستعمال. وبالتالي يتم تصحيح الخطأ الناتج عن قصره تلقائياً أما سبب عدم سبيلنا زمن النصف دقيقة ٣٠ ثانية فيعود إلى عدم إمكانية إيقاف الخط في الوقت المحدد الذي تعطى فيه الإشارة ولا سيما حين تكون السهينة مسرعة. إذ، بهذه التصحيحات فائدتها، خاصة في عرض البحر وحين تكون الرياح مواتية، ونجعل البحار أكثر انتبهاً حين يغشى الضرر في مكان خطر، أو حين يدفع التيار السهينة بشكل ملحوظ. لكن حين تكون القناة ضيقة كالكتافيت، وحين تعاكس الرياح سير السهينة كما حصل معنا، قد تؤدي هذه الوسائل إلى نتائج غير محدودة، لأننا نرد الخطأ عادة إلى قوة التيار ونوعه. ومهما حاولنا اتباع القواعد الواردة في كتب الملاحة بدقة، نطالع صعوبات جمة عملياً فلا يمكننا تحديد مكان تواجدنا بدقة حين تتعدد الرياح المعاكسة وحين يتبدل اعتماد الملاحظات الهندسية للتأكد من تقديراتهم، فمراقبة القمر تسمح بتحديد خط الطول في عرض البحر بدقة. واعتمد البروفسور ماير هذه الطريقة التي تنتشر بين الإنكليز، فقد صادفت في بومباي رتبان سهينة وبحراً من مركبين مخلفين تابعين لشركة الهند العربية يستعملان هذه الطريقة بحاج كبير وقد تمت بمسعى بدراسات عدة خلال الرحلة، فأرسلني من مرسيليا إلى البروفسور ماير الذي سعد بتلقيها، وأمر بإرسالها إلى إنكلترا وهو على عرش الموت ليبرهن فائدة ألوحه القمرية وعبثت هذه الدراسات في إنكلترا مرفقة بلوائح السيد ماير المصححة.

في ١٠ آذار/مارس عاودنا مرفأ هسنبوري للمرة الرابعة. وعند الظهر أصبح رأس كول على مسافة ميتين وثلاثة أرباع ماء، ما بين الجنوب الشرقي وجنوب الجنوب الشرقي، وأصبح ارتفاع انقصب ٥٦° و ٧٧°، أي يعني أن ارتفاع قصب رأس كول يبلغ ٥٦° و ١٨° وفي ١٢ آذار/مارس، أصبح ارتفاع القطب ٥٧°، ٥٨°، على بعد ٤٠ ميلاً نحو الغرب، إلى الشمال من سكاجس (Skagen)، وبين لنا هنا

أن الإبرة الممغنطة تميل نحو الشمال 517° ، كما لاحظنا أن المياه أصبحت أكثر ميوحة كلما قربنا من بحر الشمال وأشار لمكحاح لندني في المياه العذبة إلى 326° وفي مرفأ كوبنهاغن إلى 330° ، وعرب هلسنوري إلى 331° ، وقرب رأس كونا إلى 332° ، وقرب نيس (Nesse) إلى 333° إلى 338° حيث كفا. وبما أن السيد فورسكان كان يملك مكحاحاً أكثر دقة من مكحاحي ويعمل على تسجيل درجه ملوحة المياه بدقة، سم آبه كثيراً بالموضوع. كما بحث عن سبب وميض المياه للملحة وأظنه اكتشف السبب خلال الرحلة، فقد اعتاد أن يجمع أنواعاً عدة من الحيوانات البحرية ومن بينها أنواع محتفئة من الميڤورا (فنديل البحر)^(١)، وبعد رمي بعض منها من المائدة ليلاً لاحظنا أن شرارات صغيرة تظهر على كل ما نلمسه المياه التي تعيش فيها هذه الحيوانات. ثم أعاد تجربته وتأكد قلته بأن وميض مياه البحر ناتج عن هذه الحيوانات الصغيرة اللزجة التي تكثر في البحر.

وبما أن ارتفاع القطب بلغ 60° و 29° ، وحوالي 8° و 43° ، نحو غرب هاجره باريس، لاحظنا في ١٦ آذار/مارس أن الإبرة الممغنطة تميل نحو 22° و 30° . أم في ١٨ آذار/مارس صالت 25° ، وفقاً لدراستنا، علماً أن ارتفاع القطب 60° و 24° ، وحوالي 11° و 10° نحو غرب هاجره باريس واستمرت الرياح مواتية لنا أكثر مما كانت عليه في الرحلات السابقة العقيمة، وعندما اقتربنا من نيس، وبدلاً من أن نعود إلى هلسنوري كما فعلنا سابقاً، هبت في ١٢ آذار/مارس عاصفة مناسبة جعلتنا نعلم بيلين ونصف ايل في بعض الأحيان. لكن في ١٩ آذار/مارس هبت رياح معاكسة استمرت حتى آخر الشهر وعمت في بعض الأحيان، ووقع بحاران عن الصاري فكسر ساق أحدهما وجرح الآخر لكنه ما لبث أن عاد إلى أعماله. ولم تعرض لخطر عظيم لأننا لم نعرض البحر وعلى متن باخرة متية، ولم نشعر بعنف حركة المركب إلا حين هبات العاصفة فجأة، فعندما تعصف الرياح لا يميل المركب إلا من جهة واحدة، لكن حين تتوقف الرياح فجأة، لا يمكن للسفينة إلا أن تتبع حركة المياه حتى يهدأ البحر الذي أثارته العاصفة.

ودفعنا الرياح المعاكسة حتى 63° ونصف من ارتفاع القطب أي قرب شواطئ إسبانيا، وبدأت طلائع الريح تظهر في ٣١ آذار/مارس عمرنا أجمل وقت في العالم، لكن الهدوء ساد طويلاً فلم نتمكن من التقدم. وبلغ ارتفاع القطب 61° ، 18° ، وحط الطول العربي في باريس حوالي 14° و 30° ، وتبين لنا وفقاً لدراسات عدة وللنتيجة الوسطية أن الإبرة الممغنطة تميل نحو 23° ، 16° وربما أن السماء في المناطق الشمالية نادراً ما تكون صافية، لم نر أي شفق قطبي شمالي، علماً أن رؤيته أمر شائع على اليابسة في هذه المنطقة. وفي ٣ نيسان/أبريل مساءً، شاهدنا قوس قزح متعدد الألوان، لكن السحب ما لبثت أن غطته وحرمتنا من هذا المشهد الرائع. في ٥ نيسان/أبريل، وأثناء عاصفة هوجاء، لاحظنا من أعلى الصاري سوراً خفياً يطلق عليه البحارة عادة اسم القديس جرمان أو

(١) جنس من الحيوانات البحرية الهلامية.

دار القديس أيلم (St Elme)، لأن الاعتقاد ساد في الماضي أن هذه إشعلة الخاتمة هي علامة ظهور القديسين، لكن منذ اختراع الكهرباء توصلوا إلى تحديد هذه الظاهرة بشكل أصح. وعصفت الرياح الجنوبية الغربية التي معها من التقدم ميلاً وحداً طويلاً، لكن في ٦ نيسان/أبريل أصبحت الرياح مواتية فقطعنا ٣٩ ميلاً ونصف أميل خلال ٢٤ ساعة وفي اليوم التالي، قطعنا مسافة أطول، لأنها في السابع من الشهر نفسه، عند الظهر، كنا على خط عرض ٥٧ وخط طول ٣٦، وفي الثامن من نيسان/أبريل كنا على خط عرض ٥٤ وخط طول ٤٩ وفي ١٦ نيسان/أبريل لاحظت أن الإبرة المعطلة تميل إلى ١٦°، و١٧°، ونحن على خط عرض ٤٢ وخط طول ٣٩. في ١٨ نيسان/أبريل رأينا سونو البحر وسمكاً يعرف باسم نورديكاير (Nordkaper)، فاستنتج الصايط مع أنها دلائل عاصفة قادمة، ما يشب أن هبت بعد الظهر. وخلال هذه العاصفة، لاقى أحد البحارة حتفه بعد أن سقط في البحر ومعهنا لأموح العاتية وسرعة السفينة من إنقاده.

ثم مرت أيام لم نر فيها اليابسة، لكن في ٢١ نيسان/أبريل، وعند المساء، شهدنا رأس القديس هسان في الجنوب الشرقي، على بعد خمسة أميال ونصف أميل. وكان الصايط والتلاصحة ليحريون واملأحوب قد حددوا موقع السفينة استناداً إلى يوميات المسراع، لكن تقدير قائد السفينة كان الأكثر دقة لأنه سم يحطىء إلا بحوالي ٤٤ دقيقة وهي تعادل ثلاثة أرباع الدرجة. وأعطاني القائد نسخة عن تقديراته فظهر موقع السفينة اليومي عند الظهر من الحادي عشر من شهر آذار/مارس وحتى الحادي والعشرين من شهر نيسان/أبريل، وسأدرجه هنا حتى يتمكن من تحديد مسارنا عبر بحر الشمال على الخارطة كل من أراد ذلك. رد على ذلك، أنني لا أرى ضرورة رسم خارطة هذه الرحلة وبالتالي زيادة عدد الرسم، عما أرى وصحت تقديره للضريق التي سبكا وسجلته على الخارطة الهيلبروغرافية

تحديد لموقع السفينة، يظهر موقعها يومياً عند الظهر من الحادي عشر من آذار/مارس ١٧٦١ وحتى الحادي والعشرين من شهر نيسان/أبريل.

١٩ آذار / مارس كانت هناك سكاغن (Schagco) إلى الجنوب الغربي عند الظهر، على بعد ٧ دقائق أو ميل و ٤/٣. وتقع سكاغن حسب الخارطة على خط عرض ٥٧° و ٣٩°، إلى الشمال							
خط العرض	خط العرض	شهر الهاميرة	بحر الشمال	نهر	انتهاء اليوم	المسار المتوقع	المسافة
٥٧° ٥٢	٥٧° ٥٩	٤٩ ٥٢	٥٢ ٤٩	٢/١ ٥٩	٥٨ ٥٢	ع ٢	١٠ ميلاً ونصف
٥٩ ٣٤	—	٥١ ٥١	٥١ ٤١	٤/٣ ٥٩	٥٧ ٥٠	ع ٢	٣٦ ميلاً ونصف
٦١ ٨	—	٥٣ ٥٠	٥٥ ٢١	٢ نقطة	٥٧ ٥٢	ع ٢	٢٩ ميلاً

في ١٤ آذار، نقل الرأس من الخارطة المسطحة إلى خارطة بحر أسبانيا المصعرة وتواجدت على خط عرض ٥٩° ١٨ شمالاً وخط طول ١٦° ٨.

الرحلة من كورنيل إلى القنطرة

شهر أذار (مارس)	خط العرض المقدر	خط العرض المسجل	الانحراف خلال ٢٤ ساعة	خط الطول المقدر	مغير الارتفاع	ارتفاع البرج المسجل	لسمانه
١٥	٥٢° ٥٩'	—	١١١ ميلاً	١٢ ١٩	٢ نقطة	ج ٧٧ ٠ غ	٢٩ ميلاً
١٦	٥٢° ٥٩'	٢٨° ٥٩'	١٠/٥ ٨٤ أميال	١ ٢٧	٢ نقطة	ج ٨٧ ٠ غ	١١ ٤/١ ميلاً
١٧	٥٢° ٥٩'	—	١٠/٤ ٥٠ أميال	٧ ١٧	٢ ٤/١ نقطة	ج ٨٧ ٠ غ	١٢ ٠/١ ميلاً
١٨	٥٢° ٥٩'	٣٠° ٥٩'	١٠/١ ١٨ أميال	٧ ٨	٢ ٤/١ نقطة	ش ٥٢ ٣٠ غ	٦ أميال
١٩	٥٢° ٥٩'	—	١٠/١ ٤٨ أميال	٥ ٢٢	٢ ٤/١ نقطة	ج ٨٠ ٠ غ	١٢ ٤/١ ميلاً
٢٠	٥٢° ٥٩'	٢٣° ٥٩'	١٠/١ ٢٣ أميال	٤ ٤٥	٢ ٤/١ نقطة	ش ٦٢ ٤٠ غ	٦ ٢/١ ميلاً
٢١	٥٢° ٥٩'	—	١٠/١ ٢٩ أميال	٢ ٤٤	٢ ٤/١ نقطة	ش ٢٣ ٦٠ غ	١٣ ٤/١ ميلاً
٢٢	٥٢° ٥٩'	—	١٠/١ ٧ أميال	٣ ٢٩	٢ ٤/١ نقطة	ش ٩ ٣٠ غ	١١ ميلاً
٢٣	٥٢° ٥٩'	—	١٠/١ ٤٦ أميال	٥ ٨	٢ ٤/١ نقطة	ج ٢٤ ٠ ش	١٢ ميلاً
٢٤	٥٢° ٥٩'	٥١° ٥٩'	٢٩ ميلاً	٦ ٨	٢ ٤/١ نقطة	ج ٣٠ ١٥ ش	١٤ ٢/١ ميلاً
٢٥	٥٢° ٥٩'	—	١٠/١ ١٥ أميال	٥ ٢٦	٢ ٤/١ نقطة	ش ١٦ ٠ غ	١٣ ٤/٣ ميلاً
٢٦	٥٢° ٥٩'	—	١٠/٢ ٩ أميال	٥ ٢٦	٢ ٤/١ نقطة	ش ١٦ ٠ غ	١٣ ٤/٣ ميلاً
٢٧	٥٢° ٥٩'	٨° ٥٩'	١٠/٢ ٧ أميال	٤ ٢٩	٢ ٤/١ نقطة	ج ١٥ ٠ ش	٤ ٤/١ ميلاً
٢٨	٥٢° ٥٩'	٢٦° ٥٩'	١٠/٢ ٣ أميال	٤ ٢٩	٢ ٤/١ نقطة	ش ٥٥ ٠ غ	٩ ٤/١ ميلاً
٢٩	٥٢° ٥٩'	٥٠° ٥٩'	١٠/٢ ١٠ أميال	٤ ٤٦	٢ ٤/١ نقطة	ج ١٦ ٢٠ غ	٣ ٤/٣ ميلاً
٣٠	٥٢° ٥٩'	٣٩° ٥٩'	١٠/٦ ١٧ أميال	٤ ٨	٢ ٤/١ نقطة	ج ١٧ ٤٠ غ	٥ أميال
٣١	٥٢° ٥٩'	—	١٠/٦ ٢٣ أميال	٤ ٢١	٢ ٤/١ نقطة	ج ٧٥ ٠ غ	١٠ ميلاً
١	٥٢° ٥٩'	—	١٠/٢ ٧٧ أميال	١ ٢٧	٢ ٤/١ نقطة	ج ٧٣ ٠ غ	١١ ٤/١ ميلاً
٢	٥٢° ٥٩'	—	١٠/٢ ٢ ميلان	١ ١٧	٢ ٤/١ نقطة	ج ٢ ٣٠ غ	١ ٤/٣ ميلاً
٣	٥٢° ٥٩'	—	١٠/٤ ٧١ أميال	٨ ٤٩	٢ ٤/١ نقطة	ش ٧٣ ٠ غ	١١ ٤/١ ميلاً
٤	٥٢° ٥٩'	٥° ٥٩'	١٠/٥ ٦٠ أميال	٥ ٥٠	٢ ٤/١ نقطة	ج ٦٥ ٣٠ ش	١٦ ٤/١ ميلاً
٥	٥٢° ٥٩'	١٢° ٥٩'	١٠/٨ ٧١ أميال	١ ٦	٢ ٤/١ نقطة	ش ٢٥ ٣٠ ش	١٢ ٤/١ ميلاً
٦	٥٢° ٥٩'	٢٥° ٥٩'	١٠/٢ ٢٢ أميال	٢ ٢٣	٢ ٤/١ نقطة	ج ١/٣ ٠	٣٩ ٢/١ ميلاً
٧	٥٢° ٥٩'	٢٨° ٥٩'	١٠/٢ ٢٢ أميال	٩ ٤٢	٢ ٤/١ نقطة	ج ٨ ٠ غ	٢١ ٤/٣ ميلاً
٨	٥٢° ٥٩'	٢٤° ٥٩'	١٠/٥ ٤١ أميال	٩ ٣٥	٢ ٤/١ نقطة	ج ٢ ٣٠ ش	٢٢ ٤/١ ميلاً
٩	٥٢° ٥٩'	٥٣° ٥٩'	١٠/٦ ١٤ أميال	١٥ ٣٦	٢ ٤/١ نقطة	ج ٥ ٠ ش	٤ ميلاً
١٠	٥٢° ٥٩'	٢° ٥٩'	١٠/٢ ٣٨ أميال	٩ ١٥	٢ ٤/١ نقطة	ج ٩ ١٥ ش	٢٨ ٢/١ ميلاً
١١	٥٢° ٥٩'	٢٦° ٥٩'	١٠/١ ١٨ أميال	١٨ ٤٨	٢ ٤/١ نقطة	ج ١١ ٣٠ غ	٢٣ ٢/١ ميلاً

شهر آذار (مارس)	خط العرض بالقوس	خط العرض بالسجل	الانحراف خلال ٢٤ ساعة	خط الطول المقدر	تغير البوصلة	بما البوصلة تتغير ارتفاع	المسافة
١٣	٢٥ ٤٥	٢٧ ٤٥	١٠ ١٠/٢ أميال	٢٣ ٠	١ ٤/١ نقطة	ج ١٥ ٤	٤/١ أميال
١٤	٢٦ ٤٣	٢٨ ٤٣	١٠ ١٠/٢ أميال	٢٧ ١	١ ٤/١ نقطة	ج ٢٥ ٢	٢٦ ميلاً
١٥	٢٦ ٤٢	٢٩ ٤٢	١٨ ١٠/١ أميال	٢ ٢	١ ٤/١ نقطة	ج ٨ ٢	١٤ ٤/٣ ميلاً
١٦	٢٦ ٤٢	٣٥ ٤٢	١١ ١٠/٣ أميال	٧ ٧	١ ٢/١ نقطة	ج ٢٩ ٣٠ شق	٢١/١ ميلاً
١٧	٢٥ ٤١	٣٤ ٤١	١٧ أميال	٢٠ ٣	١ ٢/١ نقطة	ج ٦٠ ٦٠ شق	٢٥ ٢/١ ميلاً
١٨	٢٧ ٤١	١٦ ٤١	٣١ ١٠/٤ أميال	٢ ٤	١ ٢/١ نقطة	ج ٤٠ ٤٠ شق	١٧ ٤/٣ ميلاً
١٩	٢٣ ٤٠	٢٠ ٤٠	٣ ١٠/٨ أميال	٧ ٤	١ ٢/١ نقطة	ج ٥٠ ٥٠ شق	١٠ ٤/٣ ميلاً
٢٠	٢٦ ٣٨	٢٥ ٣٨	٤ ١٠/٤ أميال	١ ٤	١ ٢/١ نقطة	ج ١/١	٢٦ ميلاً
٢١	٣٧ ٣٧	٣٧ ٣٧	٢٥ ١٠/٦ أميال	٢٥ ٥	١ ٢/١ نقطة	ج ٤٦ ٤٦ شق	٢٤ ٤/١ ميلاً
٢١ - ٧	٣٧ ٣٧	١٠ ٤/١	١ ٦ ميلاً				

في هذا الوقت عينه كان رأس الغدس فسان على بعد ٥ أميال إلى الجنوب الشرقي. وشغل موقع هذا الرأس على الخارطة على بعد عرض ٢٦° ٤٥' ، أي إن الفرق ٤° وصفر.

أضحت رحلتنا أكثر إمتاعاً في البحر المتوسط، بعد أن أمضينا شتاء عاصفاً في الكانتيت وبحر الشمال، دخلنا هذا المناخ اللطيف في أجمل فصل من فصول السنة. وفي حين لم نر في المناطق الشمالية - حيث أمضينا الشتاء - إلا بعض جبال البعيدة، شاهدنا هنا جبالاً تارة على الساحل الأوروبي وطوراً على الساحل الإفريقي، وأحياناً على الساحلين في آن واحد، ونصف هذه الجبال على المنظر العام جمالاً. وإن صابقت العواصف في بحر الشمال، فلقد أزعجت الهدوء التام أحياناً في البحر المتوسط، ولا سيما وأن المياه العذبة شحنت على متن السفينة، لكن ضباطنا لم يجدوا هذا الأمر سيئاً كمايأ لدخول مرفأ ما. واكفى السيد بورنفند (Baurenfeind) يرسم بعض المناظر ومنها جبل طارق ومبنة اللدان رؤس على الدوحة الأولى وفي ١٤ أيار/مايو، رسونا قرب سان أستاش (St Estache)، على بعد ميل ونصف إلى الغرب من مرسيليا، وصادفنا هناك سفناً حربية من إسبانيا وهولندا والسويد ومالطا وكان مرفأ مرسيليا يعج بالسفن التجارية الفرنسية التي لم تكن تجرؤ على معادرتة بسبب الحرب بين فرنسا وإنجلترا. فضلاً عن سفن البلاد المحايدة التي استأثرت بالتجارة بين فرنسا والشرق وبلاد أفريقيا، كما صادفنا مراكب إنكليزية بعيداً إلى مرسيليا سجناء حرب فرسبون. دخلنا المدينة عند المساء، والتينا رقيب السيد دي هاس الذي عاصر السمية في ١٧ شباط/فبراير ووصل مرسيليا عبر البر بعد أن اجتاز ألمانيا وفرنسا.

سعدنا بالإقامة في مرسيليا بعد هذه الرحلة الطويلة، وعملنا على زيارة المكاتب ومتاحف الهواة وأولئك الذين يجمعون حيوانات البحر ويبيعونها للهواة وصيادي المرجان الأحمر، فضلاً عن الأيوين



اليسوعيين الشهيرين السيد بريناس (Pezenas) والسيد لاغراج (La Grange) اللذين يمكن مرصداً مجهرًا بأفضل المعدات الإنكليزية. ولا حاجة هنا للحديث عن التجارة المدهرة بين مرسية والشرق، وعن رصع هذه المدينة، ومرفئها وحصونها وحوائثها العناء وغير ذلك من الأمور، لأنها رصمت سابقاً بشكل مفصّل، لكن السيد بورنعد رسم انديية قبل معادرتنا سان استاش. فطلبت تثبيت هذا المنظر على النوحة رقم ١١ لأنني لم أشاهده في مكان آخر.

صادفنا هنا ثلاثة مراكب تجارية دائمة على استعداد لمرافقتنا إلى أوربي، صعدنا على متن السفينة في أواخر شهر أيار/مايو على أن نبحر من سان استاش مع هذه المراكب الثلاثة، لكن أبجر سفينتنا انقطع ومضى النهار بأكمله قبل أن تتمكن من رفع المرساة. وفي اليوم التالي، عاكسنا الريح، فلم تمكن من الإبحار قبل ٣ حزيران/يونيو، وفي الخامس منه، من بعد الظهر شاهدنا من بعيد أربع سفن وتبين لنا من الأعلام المرفوعة أنها سفن إنكليزية وكنا قد صادفنا خارج مصيق جبل طارق إحدى سفن الأسطول التابع للأميرال سندرر (Saunders). ونوفعنا أن نصادف سفناً أخرى تابعة لهذا الأسطول في البحر المتوسط. ولم تكن الحرب معدة بين الداعرك وإنكلترا، لذا لم نتوقع أي اعتداء على سفينتنا، لكن بما أن سفننا التجارية كانت في مرفأ مرسي، ولم يكن نعلم إن كان الإنكليز سيفتشونها، اتخذ قائد السفينة الإجراءات اللازمة لمخبرهم. وبقيت سفننا التجارية ملازمة لنا، وتمّ تحصير المدافع، وتوزيع الأسلحة. ووصفت الأسرّة في ذلك أسره الضباط والمسافرين في شباك الخناريس، وودعت المرسات حيث يجد وضعها، وباختصار تحضروا للقتال عند المساء، سمعنا صوت مدفع، رددنا عليه في الحال، لكن الهدوء مع الإنكليز من الوصول إليها في ذلك اليوم، وبعد منتصف الليل، رحلت إحدى سفن الأميرال سندرر الأربع بقرب، وبعد معارصات قبيلة تابع كل ما طريقه. وفي السابع من الشهر نفسه، عند المساء، تحضروا مجدداً للقتال، لأن رأينا عشر سفن في البعيد، نكها ابتعدت خلال الليل ولم نرها منذ ذلك الحين. وفي اليوم الثاني، طلب قبطان إنكليزي، وهو آمر سفينة بحرية، زيارة سفننا التجارية، لكن قائد سفينتنا رفض السماح له بذلك. وعندما رأنا على استعداد لمدافع عنها، انسحب على مضض.

في ٦ حزيران/يونيو، راقب علماء الفلك ظاهرة نادرة وهي مرور كوكب الزهرة أمام الشمس، وتحضر العلماء لدراسة هذه الظاهرة في أوروبا، كما أرسل علماء إلى أماكن مختلفة من العالم، ونلتصّب الأمر بمراقبة هذه الظاهرة أينما كنت. وبما أن السفينة لم تكن قد ابتعدت كثيراً عن اليابسة، لن تكون لملاحظاتي فائدة كبيرة كما لو كنت على اليابسة، وصعب عليّ القيام بهذه الدراسة بالدقة المطلوبة، فحركة السفينة وإن كانت بطيئة تؤثر في عمل كهذا. وبما أن البحر كان ساكناً لأيام عدة، فإني استعديت لدراسة هذه الظاهرة بأفضل طريقة ممكنة، وسأورد ملاحظاتي، عندما أن أخبرك أن يستفيدوا منها إلا إذا أردوا معرفة مدى خطئي. وفي ٦ حزيران/يونيو، وعند شروق الشمس، كان كوكب الزهرة



أمام قرص الشمس، وبما أنه كان معطى بهيمة سميكة عند انجلاء القسم الأول لهذا الكوكب، لم أُر سوى انجلاء القسم الأخير منه. بعد مراقبه الكوكب، قست ارتفاع الشمس مراراً واحتسبت ارتفاع القطب حيث كذا، ثم صبحت الساعة بعد مراقبة القطب في اليوم الثاني عند الظهر. وتبين لي من هذه الدراسة، الوقت الصحيح أن انجلاء الجزء الأخير لكوكب الزهرة عن قرص الشمس هو لساعة ٩ و ٣ دقائق، و ٥٣ ثانية، على خط العرض ٤٠° ٦، قرب خط مدينة مارسيليا

وصلنا جزيرة مالط في ١٤ حزيران/يونيو، ورسونا في المرفأ الكبير بالمدينة، لأن عاصمة هذه الجزيرة مفتوحة إلى مدن عديدة صغيرة، محاطة بمجموعة حلجان تشكّل مرفأ آمنة. ويبدو منظر المدينه رائعاً من هذه الناحية، وقد بيّنت منازلها على الطريقة الشرقية، أيّ مسطحة من الأعلى وتسد إلى مرتفعات وعرة، وهي من الحجر المقصوب، حتى الحصون بُيّت بالطريقة نفسها أو حُفرت في الصخر أما الصخر الذي تقوم عليه الجزيرة فمن الحجر الكلسي اللين الذي يمكن حفره بسهولة كالخشب ولا ينبغي أن تستغرب إن وجدنا الكثير من الكنائس والقصور الرائعة لأن الجزيرة غنية بالمال وبالمهندسين الماهرين^(١) وبقي كنيسة القديس يوحنا أبيه كنائس مالط، فقد سحا عليها سادة مدينة الكبار ورسوها بقبورهم الرائعة ويقال إنها جمعت كبراً لا يصدق، من صحنه ربة ذهبية وقصبة ثقيلة الورد كالتماثيل والثرثرات وغيرها فضلاً عن شمعان كبير مع سلسة ذهبية يقال إنها كانت ٥٠٠,٠٠٠ قطعة نقدية من نقد مالط. ويعد العديد من الأشياء الثمينة ضمن الكنوز المحفوظة في الكنائس المتاخمة، ومن بينها صليب من الذهب الصافي، وزن ٢٤ ليرة، وجزء من مهد يسوع لمسيح الموضع بالأحجار الكريمة باختصاره فإن ثروة هذه الكنيسة تفوق كنوز الكعبة في مكة، كما تفوق كنوز صريح محمد في المدينة ويعد في مدينة مستشفى جيداً، يستقبل كافة المرضى من دون استثناء ويُسمى بهم، ويقال إن الطعام يقدم بأطباق من فضة، ولعل هذا الأمر الأخير يحصر به المراسم المرضي أو ذوي الشأن أما الحريات المحطة الكبرى لمحمودة في الصحراء ويتم جزّ ليها إلى المدينة من بيع يبعد عنها ثلاثة أيام تقريباً، وذلك بواسطة أنابيب بيت في بداية القرن السابع عشر. يبلغ طول جزيرة مالطا أربعة فرسج وثلاثة أرباع أما عرضها فمستحان وربع. وتتميز الجزيرة بشاطئها المتعرج في الجرب وشاطئها المستقيم في الشمال، حيث يجد العديد من الخلجان، وحيث تمّ بناء العديد من الأبراج والحصون لصد هجوم الأعداء، فأصبحت الجزيرة بالثاني محصنة كلياً ولا يجد سوى مساحة صغيرة مرروعة، لكنها أرض عبة بكافة الفواكه الشهية، ويكثر

(١) يجد في الحجر الكلسي في مالط الكثير من الأصداف والمحار والسمكة والأسماك التي يطر عنها الطبيعة أنها أسنان أسماك، وأسمير عبرن الأسمي التي يرتكها صائغو المدينة في الحقول. أو هي السلاسل الذهبية المشعرة بطريقة برعة والتي يبيعونها للأجانب. يقال إن السلة لأسمي هذه وعبونها ترهش أن القديس بولس طرد هذه الحيوانات السائبة من مالط، لكن نعل هذه الأسمي لا يمكن أن تعيش على هذه الأرض الجاهلة والمغطاة بالصخور ولا بد من وجود جرد صغيرة أخرى بم يطلها القديس، ولكن لا وجود للأسمي بها

السكان في هذه الجزيرة بسبب الحرية التي يتمتعون بها

وشاهدنا في مرفأ مالط السفينة اخرية التركية، التي فر بها العبيد المسيحيون من جزيرة ستانشيو (Stanchio) في ١٩ أيلول/سبتمبر ١٧٦٠، حين كان القبطان التركي ومساعدوه على الياسة وبقي العبيد العذرون في جوار هذه الجزيرة، حتى بحث إليهم أهالي مالط الذين لم يمهوا كيف تجرات سفينة تركية على الاقتراب من جزيرتهم. ووعده المييد بتسليم السفينة والمدافع شرط أن يسمح لهم بمقاسمة باقي الغنائم، فدخلت السفينة المرفأ في ٦ تشرين الأول/أكتوبر من السنة نفسها. وعاد العتلاء من المييد إلى موطنهم مع حصتهم من العبيد، في حين بقي قسم آخر منهم في مالط وعملوا جاهدين على تذبذب حصتهم. وعثر على متن السفينة على ٨٣ مدعاً، ٦٦ منها من البروز، وصنع عدد منها في الامبراطورية وعدد آخر في البندقية وعدد في المصانع التركية. وقد سبي المركب على العزاز التركي وبطريقة متينة للدية، ونجد قرب الصاري مجلساً صغيراً اعتاد الضباط اجلوس فيه، كما نجد في وسط السفينة ومن الجهتين مقاعد مشابهة، لأن الأتراك لا يحبون التزه على متن السفينة أو على الياسة. أما متن السفينة فصيق، ونجد بين العرقة السفلية والعباءة ثلثان عشرات مدافع، ومصب بعض منها على الكوثر^(١) حيث ينام المييد. مزوب المسيحيون هيكل السفينة وجعلوها على النمط الأوروبي. لكننا علمنا لاحقاً في مصر، أن فرنسا اشترتها وأعادتها للسلطان كهدية. وبدا هذا الأمر مستغرباً حتى نفرضي الشرق، نظراً إلى أن أمتهم بأسس الحاجة للمال والسفن لمقايمة الحرب ضد الإنكليز، لكن الفرنسيين يسعون إلى مراعاة السلطان بقية تسهيل تجارتهم مع الشرق. ويدور أن ديانة مالط، التي لا تسمى إلى القضاء على الكفار، لم تمنع كثيراً في إعادة السفينة. ونخوف أهالي مالط كثيراً من غضب السلطان، بدأ يعملون جاهدين على ترميم القلاع الصغيرة الواقعة على شاطئ البحر، ويمرون سكان الجزيرة، ونجد لديهم ثلاث سفن حرية فيها ٦٤ و ٦٢ و ٢٠ مدعاً و ٤ سفن شراعية حرية فضلاً عن السفينة التركية، وقد جهزت كل سفينة شراعية بثلاثة مدافع وخمسين مجدياً بحركتها سجناء قيدوا بها وهم من الأشقياء ومن العبيد المسلمين من أفريقيا وتركيا.

وقلنا نسمع بمالطين يأمرون أتراكاً أو يتغلبون عليهم منذ أن حرمت عليهم المعاهدات بين ملط نابولي والسلطان دخول الأرحيل، لكننا نجد بين المسيحيين أناساً لا يظلمون أكثر من القتال من أجل الدين حين لا يجدون فرصة أخرى لجمع ثروة، لأن الأمل بالضيقة يفرق عندهم حسانتهم الدينية المسيحية. يقال في الشرق، إنهم حين يحصلون على سفينة مجهزة لا يتقصهم سوى إحد مرور أو أمر من أمير موناكو أو أي أمير إيطالي آخر يُعرف باستعداده لشحارة المسلمين المسلمين الذين لا يعرفونهم على الأرجح، كما قيل لي إنه يسمح لكل صاحب سفينة مسيحي بإحضار غنائمه إلى مالط ولا ينبغي أن

(١) مؤخر السفينة.

يستغرب أن يسبب انتمسبون إلى الماطلين ما نسبته نحن إلى المعاربة، والجزائريين والتوسيين والعربانيين، إذ يعيش هؤلاء البرابرة على الأقل بسلام مع بعض الأمم المسيحية في حين أن فوسان مالمه يعادون الأمم الإسلامية كلها.

زوت والسيد هورسكال الملاحات التي تبعد أميال $4/3$ الميل عن المدينة، وهي مربعة من ١٦ مربعا، يبلغ طول وعرض الواحد منها ١٠٠ قدم وكلها مطلية. يتم مدؤها بماء البحر مرتين أسبوعياً، فتتبخر المياه خلال شهر تاركة الملح في القعر، ويُقال إنه يتم جمع ٧٠٠ سم كل مرة، ويبلغ ثمن السلم الواحد ٤ سكودي (Scudis). وبالتالي، يكسب السيد الأكبر الذي يعود إليه هذا المردود حوالي ٥٦٠٠ سكودي أسبوعياً من ماء البحر. ويُجد بالقرب من هذه المربعات، ملاحات أخرى غير مطلية وتنتج بالتالي منتجاً سيئ النوعية يستخدم لتصليح السلك ودفع أجور العمال وبرى الفقراء في أماكن أخرى، يجمعون مياه البحر إلى الصحور ويجمعون القليل من الملح الذي تتركه بعد تبخرها. ويلاحظ قرب الملاحات وجود قبة صغيرة على صفاء البحر يمكن وضع زورق صغير تحتها، ويقال إن سقبة القديس بولس عرقت في هذه المنطقة، فتم بناء كنيسة تحمل اسمه ويبلغ طولها ٥٥ قدماً وعرضها ٤٥ قدماً. وقصدنا في يوم آخر سان أنطوان بوسكيه (St. Antoine, Bousquet)، وهما منزلان ريفيان للسيد الأكبر، تحيط بهما الحدائق وأشجار الليمون، ويقربهما كهف جميل للعبادة.

لا تبعد بيت - قشيباء عاصمة الجزيرة كثيراً، لكنها لم تعد هبة بالسكان، وبلغت الأنظار فيها بعد رابع يعلوه كهف صغير، يقال إن القديس بولس التجأ إليه خلال الأشهر الثلاثة الأولى بعد عرو سميته. ولا نرى في هذا الكهف لصخرة سوى تمثال للقديس وكومة من الحجر الصخري الذي حفرته فيه المعارة، ويدعي البعض أن لهذه الصخرة قدرة عجائبية، وأن من يحمل معه قطعة منها لا يحشى شلبيه من لسعة الأفاعي، لذا قرسل قطع من هذه الحجارة إلى كافة بلاد العالم التي تدعى بالديانة الكاثوليكية - الرومانية. كما يعرض في المعبد تمثال للكونت روجر النورماندي الذي طرد العرب من مالطا. وتقع في جوار المعبد قلة يقال إن القديس بولس وعظ من أعلاها ودعا الناس إلى الدين، وإحياء هذه الذكرى أقيم له تمثال وهو يحيط ويُجد في محيط بيتا - قشيباء الكثير من المساكن المحفورة في الصخر، وقد سدت مدخل العديد من الممرات كي لا يضيح المرء داخلها. وتتألف هذه المساكن من عدة غرف صغيرة. فضلاً عن قبر كبير يبدو وكأنه استخدم لتجمعات، وتطلعت آثار طاحونة صغيرة في مكان آخر. ومهما كان هدف هذه المساكن المحفورة في الصخر، لا بد أنها كانت مأوى مناسباً لسكان قديماً في زمن التقيظ ولا سيما وأنهم لم يعادوا العيش في ترف ولم يكونوا ليخشو النهب والسرقة. وحافظ أهالي مالطا على كتابة مبنية نقشت على حجر لكنني لم أرها بنفسي. رجسنا ملاحظات حول طول جزيرة مالطا وعرضها، أوردت ذلك في يوميات وملاحظات الفيزياء والرياضيات وعلم النبات للأب فاي (Feuille).

وقد حصلت على نسخ من خارطة المدينة وخارطة جزيرة مالطا وجزيرة غورن (Gosen)، لكنني أعتقد أن هناك خرائط دقيقة مطبوعة، ولم أشأ زيارة اللوحات المحفورة.

عادنا جزيرة مالطة في ٢٠ حزيران/يونيو ولم تر الأرض حتى الخامس والعشرين من الشهر نفسه وعند ظهر ذلك اليوم، كنا على خط عرض 36° ، $11'$ وكانت جزيرة ساينزا (Sapienza) بحسب تقديرات الريان على بعد سبعة أميال نحو الشمال، يستتج من ذلك أن ارتفاع قطب هذه الجزيرة هو 36° ، $39'$. ودخلنا مجموعة الجزر في ٢٦ حزيران/يونيو، وبعد مراقبة دقيقة للشمس في الهاجرة، تبين أننا كنا على 36° ، $10'$ في ذلك اليوم ونقدر الرتاد المسافة التي تفصلنا عن الجزر المجاورة، ووفقاً لتقديراته تقع جزيرة سريغوتو (Serigotto) على خط عرض 35° ، $52'$ ، أما جزيرة أومو (Ovo) فعلى 36° ، $9'$ ورأس سان أنجيلو (St. Angelo) على 36° ، $26'$ وبعد هذه الجزر على مسافة أبعد نحو الشمال على خارطة الأرخبيل التي وضعها السيد دانفيل (D'Anville) باتباع ودكاء والتي نشرت في باريس سنة ١٧٥٦ وكنت أتمنى أن أتابع ملاحظاتي ودراساتي الجغرافية، لكن نزهاً حاداً أصابني، حتى أنني فقدت الأمل في رؤية القسطنطينية وحتى شبه الجزيرة العربية لكنني شكرت القدر الذي أصابني بيلة، في وقت أمكنني فيه الحصول على المساعدة والراحة، وبالرغم من أنني عانيت من الحرارة لكنني كنت بين أوروبيين، وقد قدم لي قائد السفينة كل المساعدة التي يمكن الحصول عليها على متن سفينة. في ٣ تموز/يوليو، وصلنا والمراكب الثلاثة التي رافقتنا من مرصلياً إلى مرسى أزمير، ونزل رفاقي إلى الباسية، لكنني لم أفك من مغادرة السفينة واكتفيت بمشاهدة هذه المدينة الشهيرة بتجارها من زجاج عرفتاً. في ١٠ تموز/يوليو، رفعا المرساة ورحلنا في ١٣ من الشهر نفسه قرب جزيرة تنادوس (Tenados) حين رأينا بعض الآثار التي نظن أنها تعود لطرودة (Trois). وهنا تلقى الأمر بمغادرة السفينة والتوجه إلى عاصمة الأمبراطورية العثمانية برفقة المترجم الذي أرسله للقائنا سفير الملك في القسطنطينية السيد دي غابر (De Gähler). ولم أتمراً على القيام بهذه الرحلة على متن مركب صغير مكشوف يمكننا من الوصول بسرعة، كما لم نتعكن من إيجاد مركب مزود بقرعة في جزيرة تنادوس، فاضطررنا إلى انتظار مركب آخر من الدردنيل. وما إن وصل، حتى استأد قائد السفينة وصباطها الذين شاركناهم أوقاتاً صعبة ومط المواصلات الهرجاء والرياح العاصفة وأوقاتاً طيبة أخرى. وجزبنا للمرة الأولى السفر مع المسلمين، إذ صعد العديد من الأتراك على متن المركب حين كنا قرب تنادوس ومن بينهم رجل ذو شأن جاء لتدقيق خمر قائد سفينتنا. بدت لنا لغتهم، ولباسهم وطريقه عيشهم غريبه للغاية حتى أننا لم بعد تأمل بقضاء وقت ممتع بين الشرقيين. ولم تساعدنا الرياح في رحلتنا بين تنادوس والقسطنطينية التي لم نصلها إلا في ٣٠ تموز/يوليو، ورسونا قرب غلطة (Galata) ومنها رافقنا المترجم إلى منزل السيد دي غابر في بير (Pera) مباشرة. وقد قابلنا هذا الوزير بطلب وطيبة لا مثيل لهما، حيث قام بإيوائنا جميعاً في بيته، وقدم لي كل ما يمكنه أن يساعدني على استرداد صحتي وعافيتي.

ملاحظات من القسطنطينية

وردنا الكثير من الوصف للقسطنطينية أو اسطنبول، كما يسميها الأتراك، فلا يسعي إضافة أشياء جديدة ومهمة ولا شيئاً لم أبق في اندية وقت طويل، كما لم تنس في فرصة رؤية الكثير فيها وما إن تحست صحتي حتى انتقلنا إلى مصر، لكن بما أنني عرفت عن كتب وفي طريق العودة عسى مكان إقامة السلطان سأورد هنا بعض الملاحظات ويسرني أن أذكر أموراً لم تكن معروفة من قبل.

إن مدينة القسطنطينية كبيرة بلا شك، لكن إذا ما اعتبرنا كاراغاش (Kara Agash) وعلمه (Galata) وبيرا (Pera)، ودوما باعش (Doma Bagsche) وغيرها، وهي واقعة في الجهة الأخرى لجميع فضلاً عن أسكدار (Scudar) فاصي كروي (Kadi Kari) الواقعتين في الجهة الأخرى للبحر وبالتالي في آسيا، مدناً أو قرى بحد ذاتها، لا يمكننا عندها مقارنة مساحة القسطنطينية مع مدينتها أجب (Ajub)، والأحياء الواقعة خارج الأسوار على سفوف البحر بمساحة لندن أو باريس ولا يمكن تحديد عدد سكان مدن الشرق، لأن عادة إحصاء المواليد والوفيات غير متبعة بعد، وأقصى ما يمكن أن يعمل المسافر في هذا الإطار هو تحديد مساحة المدينة ومعرفة إذا ما كانت مسكونة بالكامل. أعتقد أن مدناً مكتظة بالسكان أكثر من مدن الشرق، أما صفوف المنازل في الشرق فمحصنة مقفرة مع المداخل الأورورية، ويحلو لشرقيين ترك مساحات خضراء وراء منازلهم. أما المسافرون الذين يعتبرون مدن الشرق مكتظة لعناية يعتمدون في حكمهم هذا على العدد الهائل للأشخاص الذين تصادفهم في الشوارع التجارية لكن ينبغي الانتباه إلى أن الشرقيين لا يحبون اصطحاب الأجانب إلى المنازل التي تقيم فيها عائلاتهم، مما مع دخول التجار والحريين إليها ويحل هؤلاء الآخرون في محال صغيرة على طول الشوارع التجارية، لذا لا نرى في بعض الأحياء سوى تجارين في أحد الشوارع، وحدادين في شارع آخر، أو صائعين أو تجارحرير أو تجار جرح أو صائعي أمشاط أو غيرهم ويتوجه الآلاف من هؤلاء إلى القسطنطينية صباحاً، ليفادروها عند المساء إلى منازلهم القائمة في صواح بعيدة أو في قرى واقعة على انصبق قرب البحر الأسود. هذا الكم الهائل من الأشخاص الذي لا يرى إلا القليل منه في شوارع أوروبا، هذا الحشد من الرجال والنساء الذي يؤم الشوارع التجارية للعمل أو للتسلية يندر استثنائياً بالنسبة لأجنبي لأن الشوارع صيقة لعناية، لكن لو اعتاد المسافرون زيارة الأحياء البعيدة ما صادفوا الكثير من الناس كما في مدن أوروبا.

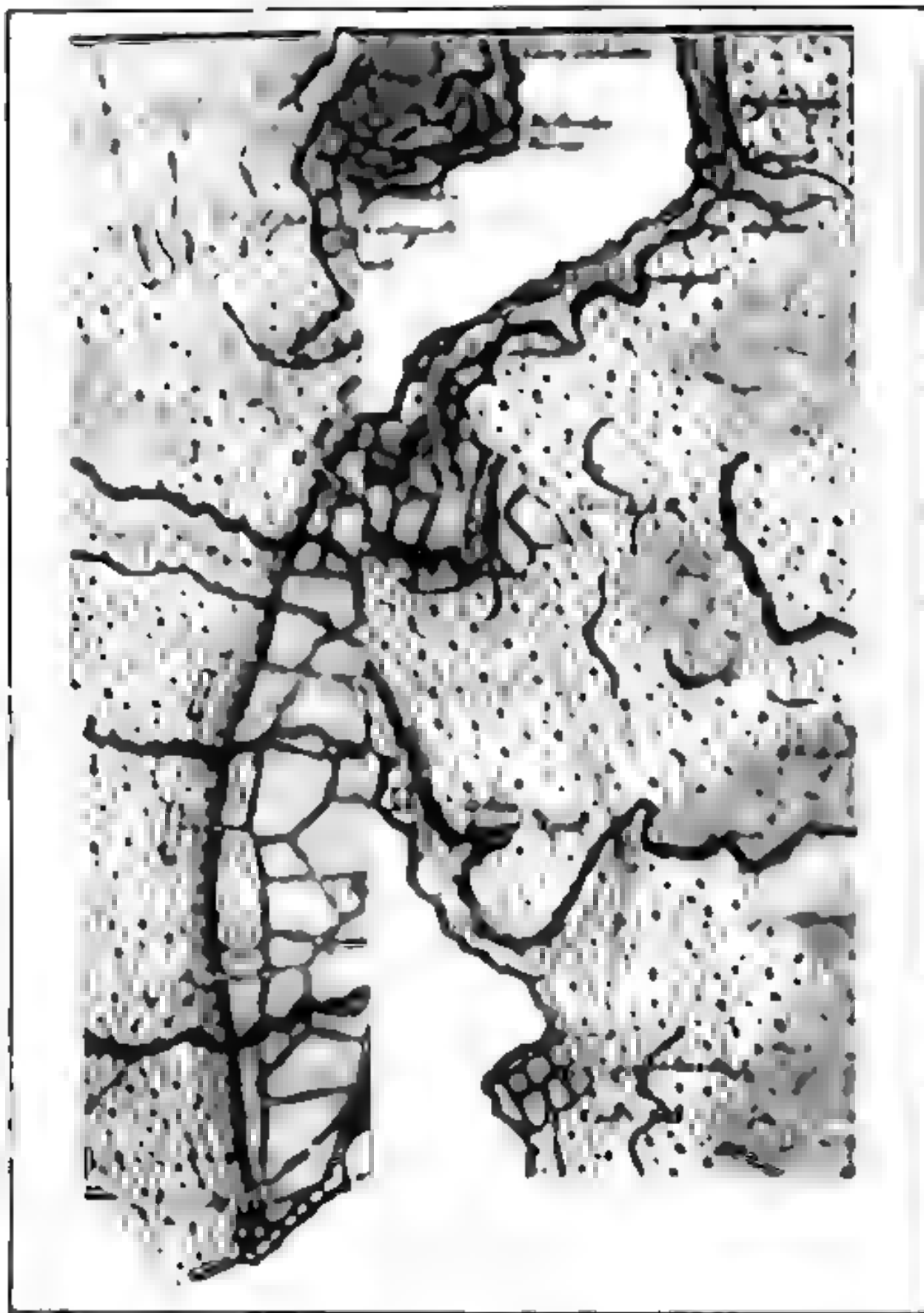
وبقي خارطة القسطنطينية التي وضعها القبطان الأفعل بين الخرائط التي شاهدتها كلها، لكن

للمقياس الذي اعتمدته صغير بحسب رأيي بما أظهر المدينة أكبر من حجمها الطبيعي وقد تبدو الطريقة التي اعتمدتها لقياس المدينة غير دقيقة بالنسبة لعلماء الرياضيات لأنني لم أستخدم إلا البوصلة وأقدامي. وبما أنني قست الخطوط الأساسية كلها أي محيط المدينة والعديد من الشوارع في القسطنطينية والصوحي والمدن المتاخمة، لا أظن أن الخطأ سيكون فادحاً، ولعلني أخطأت ببعض أقدام وحسب، لكن هذا الخطأ ليس بحجم الخطأ الذي يمكن أن ارتكبه لو كنت قد حددت مساحة المدينة استناداً إلى الرواية المقصدة من خارج الأسوار. أظن أنه لا يمكن للطلب من المسافرين إلى بلاد الشرق قياس المدن بهذه أكبر من نتيجة القياس الذي يعتمد البوصلة والقدم، لأنه يصعب وضع خارطة لمدينة دون إذن من القاضي. ولن يبحث أحد عن كفاية الشوارع في خارطة مدينة شرقية، لكن ينبغي أن تكون بمساحتها وموقعها وساحتها الكبرى، وهذا ما نجده في الخارطة التي وصفتها للقسطنطينية على اللوحة الثالثة، فضلاً عن حرائط مدن الشرق الأخرى، وأعترف أن معظم الشوارع في خارطة القسطنطينية مسجلة اعتباطاً ولملاء الفراغ. وإليك تفسيراً للأرقام المسوّدة على هذه اللوحة (١) باصحة قيو، (٢) بالغب بارار قيو، (٣) ريدان قيو، (٤) نودون قيو، (٥) آيارمه قيو، (٥) أون قياسي، (٧) حيالي قيو، (٨) أب قيو، (٩) يكي قيو، (١٠) يسري قيو، (١١) قمر قيو، (١٢) بالاد قيو، (١٣) عيون سداي قيو، (١٤) أكري قيو، (١٥) أدريه قيو، (١٦) طوب قيو، (١٧) يكي قيو، (١٨) سنوري قيو، (١٩) يدي قلعه قيو، (٢٠) أدريه قيو، (٢١) ساماطيه قيو، (٢٢) داود باشا قيو، (٢٣) يكي قيو، (٢٤) قوم قيو، (٢٥) غاتلادي قيو، (٢٦) أهور قيو، (٢٧) بالوق حال قيو، (٢٨) داعماني خان قيو، (٢٩) طوب قيو، (٣٠) يالي يوسف قيو، (٣١) دمر قيو، (٣٢) صانوق جيسم قيو، (٣٣) بابا حمام قيو، (٣٤) دامو قيو، (٣٥) وليد يامع، (٣٦) مسرجرشي (Misrischarshi) (٣٧) قصر الزورير أو الباب، (٣٨) مسجد آي صوفيا، (٣٩) مسجد آي صوفيا الصغير، (٤٠) السلطان أحمد الجمري والهدان، (٤١) حظيرة للحيوانات المنوحشة، (٤٢) الترسانة، (٤٣) العمود المحروق، (٤٤) عني باشا الجمري (Jamasi)، (٤٥) عثمانبي جمري، (٤٦) السلطان بحرات جمري، (٤٧) وزير خان، (٤٨) يرستان أو شوارع تجارية مقبية ومحال تجارية، (٤٩) السراي القديم، (٥٠) سالياسي جمري، (٥١) قصر آغا الإنكشاري، (٥٢) القساء، (٥٣) شاء راد جمري، (٥٤) السلطان سليم جمري، (٥٥) كنيسة البطريركية للروم، (٥٦) فاتي جمري، (٥٧) آثار قصر قسطنطين، (٥٨) أدريه قيو جمري، (٥٩) السلطان محمد جمري، (٦٠) ابندان أو حتي الإنكشاريين، (٦١) حتي آخر للإنكشاريين، (٦٢) مستشفى المجانين، (٦٣) علي باشا جمري، (٦٤) دنود باشا جمري، (٦٥) لأبراج السبعة، (٦٦) دهردار أسكاه سي، (٦٧) مسجد وب، (٦٨) الماء العذب، (٦٩) بابو، مكان حجر العيد، (٧٠) ميت أسكاه سي، (٧١) مقر إقامة صغير الدنامارك، (٧٢) مقر إقامة صغير السويد، (٧٣) مقر إقامة صغير إنكلترا، (٧٤) مقر إقامة صغير برنسيا، (٧٥) مقر إقامة سمراء هولندي وروسي وهولندي والبنديقي وبرنسا وميبا، (٧٦) أح أعلن سروج، قصر يرى فيه عدد كبير من الخدم، (٧٧) خزان مياه لقناة السلطان محمود، (٧٨) كوجلنك فوليه قيو سي ريبوك فوليه

قوسى، ويحد في غطه عشرت أبواب أخرى وهي: طوب حده قبر، كرج قبر، أكري قبر موم حده قبر، نور بشونلي محرن، نره كوي قبر، يالق يوزار قبر، أسكي باغ قبان، كور كحي قبر، أرب قوسى (٧٩). مارن السطان الرهية، L L إشارة إلى المقابر.

ويلع ارتفاع فطب سري السلطان ٥٤١، ١، لأن ارتفاع فطب بير، بحسب دراساني، يلغ ٥٤١، ٢ ٢٦ أما شكل مدينة القسطنطينية فثبت، غير متساوي الأصلاخ وغير مستوي، ولا يتعدى حرم المدينة، وفقاً لقياسي ١٣٠٠٠ قدم مردوح، علماً أن معظم الرحلات تعتبره أكبر وتحيط بالمدينة أسوار، لا تنفع بدفاع عنها، وبظن الأتراك أنهم محصون بفضل الحصون الأربعة الصغيرة الواقعة على القناة من جهة الأرخيل، والأربعة الأخرى الواقعة على القناة من جهة البحر لأسود علماً أنها حصون غير ذات أهمية. ويحد على طول امرفاً أو اخليج، حارج أسوار المدينة، ومن صاحبه أبواب وحتى السراي طريقاً واحداً، كما يطالعا من حين إلى آخر مارل ببيت الوحده وراء لأخرى، وبعضها في ادء جزئياً. ويتم ردم المرفأ يومياً في بعض الأحيان، لزيادة المساحة وبالتالي للبناء مما يجعل الأسوار غير محدية للدفاع عن الشعب والمدينة. وفي السنوات الأخيرة، قام الأتراك بدم مساحات شاسعة وبناء أحياء كبيرة قرب بعض الأبواب، انطلاقاً من السراي وحتى الأبراج السبعة، لكن أسوار المدينة في معظم هذه الأماكن لا زالت قريبة من البحر. ويحيط بالمدينة من جهة اليابسة بدءاً من الأبراج السبعة وحتى صاحبة أبواب سور مردوح وحفرة واسعة، واكتفى السكان مد رمن اليوند بتصليح السور، أما الحفرة فقد ردمت تقريباً وأما القصر المسقى الأبراج السبعة بصغير ويصح في حاله اليوم، كمسج. أكثر مما يصلح للدود عن المدينة ويغنى مدخل امرفاً والمصين الواقع من جهة البحر الأسود الأكثر تحصيلاً، فقد جهز، بالمدايع التي نصبت بحجاب السراي قرب طوب خدان وفي كيس كلسي، (Kiss Kültür)، بكنها غير قادرة على الدفاع عن المدينة بشكل فقل صد أسطول، يهاجمها من الجهة الأخرى، بعد أن يختار الدرديل ويعتبر هذا الجزء من القسطنطينية الواقع من جهة امرفاً والبحر كثير السكان، ويعمر هذه الشعور باكتظاظ المدينة البيوت المتكئة على التلال التي تبدو وكأنها متلاصقة أما من جهة اليابسة، بين أدور ميو والأبراج السبعة فنجد العديد من الحدائق الكبيرة داحن الأسود. وتعطي سراي السلطان، والسراي القديم وهو مسكن ارامن السلاطين، فصلاً عن المساجد الكبيرة والعديده مساحه شاسعة، كما يعمون على بناء مساجد جديدة، لكن عدد السكان ين يتزايد مع تزايد عدد دور العبادة ويؤكد البعض أن القسطنطينية اكتظلت بالسكان في السنوات الأخيرة مما اضطر السلطان إلى إبعاد عدد من الناس إلى المقاصد والريف

وتطل هذه المدينة على مناظر رائعة لا سيما من جهة البحر، وتتكىء القسطنطينية والمدن والقرى المجاورة على التلال حيث يسي على همتها أجمل المساجد، ويفصل بين المازن عدد من الحدائق المروعة بالأشجار. لكن هذا المنظر الجميل لا يمتق وداخل المدن حيث الأثرة ضيقة وطريقة البناء سبعة وعشوائية،



وتبنى المنازل من الخشب الرقيق حتى ليظن المرء أن هيكلها أقدم من تطوير، أما الجدران فمن الحجر غير المشوي. وتبنى القصور والأبنية العامة من الحجارة وبشكل متين، لكن لا يظهر منها من جهة الشارع إلا الجدران الشاهقة، وللقصور والمنازل العادية مساوئها. فبالمنازل المبنية من الحجر تدفن من فيها عند أقل هزة أرضية، والقصور المصاغة بالمشاعل تحرق ساكنيها. وهناك السوان من الحوادث شائعة في هذه المدينة. ويصعب مرفأ القسطنطينية أجمل مرفأ في العالم، وهو يمتد على مساحة شاسعة، ويمكن للسركب أن ترسو في أي جهة منه وبأمان تام، كما يمكنها الاقتراب من الشاطئ، وتحميل ما جاءت من أجله. إن موقع القسطنطينية بين البحر الأسود والأرخبيل، فضلاً عن الأعمال المدهرة التي تجذب سكان الضواحي والمدن المجاورة تجعل من هذه المدينة محطاً للنسفن والمراكب، حتى أن البحر يبدو وكأنه مروض بها.

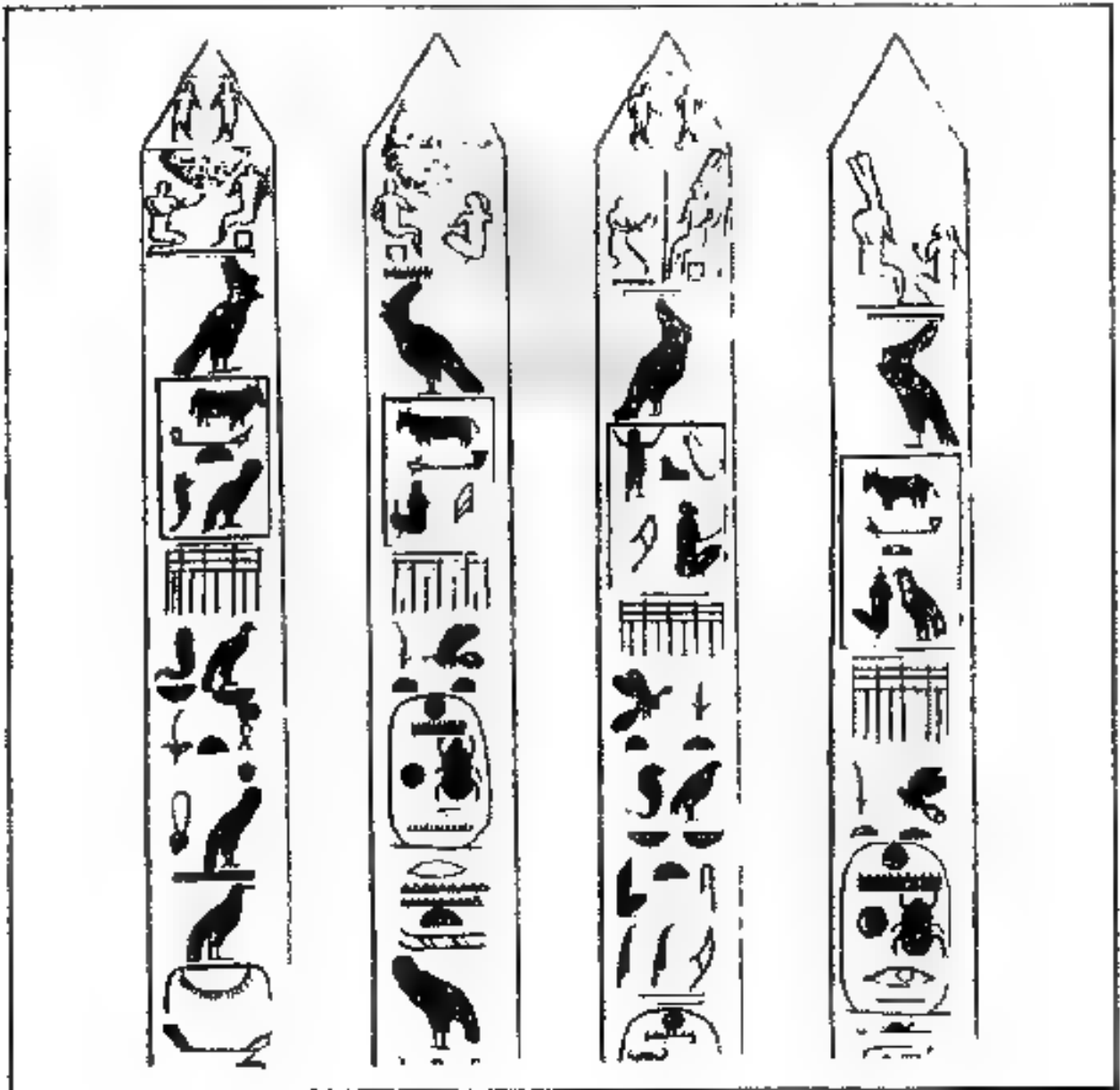
يقع سراي السلطان على مرتفع عند الطرف الشرقي للمدينة، عند مدخل المرفأ. أمام المصيق الممتد إلى البحر الأسود أي اليوسفور، وهو بالتالي مطلقاً على مناظر جميلة من كافة الجهات، كما نستنتج من الخارطة التي أوردتها هنا. وبمصله عن المدينة سور عال، يمكنه أن يدفع عن السلطان غصب وعياه لكنه لا يحمي المدينة، لكن تحيط به من جهة المياه مجموعة من المدافع القادرة على الدفاع عن مدخل المرفأ والصين الممتد نحو البحر الأسود. ويمتد السراي على مساحة شاسعة ويضم الكثير من الجنائن، وتبنى الأبنية العامة كلها وكأنها مطلية بالرخام لم ألح سوى السواء الخارجي للسراي، فلا يسمح بالدخول إلى حرمة، لم أر فيه ما يلفت الأنظار سوى بيت المال السيء البناي فضلاً عن بعض الأسطبلات. نقرأ في بعض الأعمال التي وصلت «قسطنطينية أن عبارة «الباب» أو «الباب العثماني» المستخدمة في أوروبا تأتي من مدخل هذا السواء الخارجي لكن ليست أدري عما استندوا في حكمهم هذا. يصدق الأتراك على الباب اسم قبر كما يطلقون الاسم نفسه على القصر، لكن يشار بهذا الاسم في القسطنطينية إلى قصر الوريث. وقيل بي إنه إذا ما أرادوا استخدام هذه الكلمة للدلالة على قصر السلطان، ينبغي أن يقال سلطان قبوسي، كما يقال آغا قبوسي للدلالة على قصر آغا الاكشاريين. ويقصد مترجمو السفراء الأوروبيين يومياً تقريباً الباب أي قصر الوريث، لأنه محل إقامة مترجم السلطان كما يبقى قريباً من الوريث أو الرئيس أفندي إذا ما أراد محادثته أو التكلم مع مترجم أوروبي. ولعل الأوروبيين الذين سمعوا أولاً بالباب أو بمحكمة الوريث، ظنوا أن القصور هو بلاط السلطان، لذا أطلق اسم الباب العثماني على بلاط سلطان العثمانيين. ولست على اطلاع على اللغة التركية للدعاء بأنه من الخطأ الإشارة إلى بلاط السلطان باسم الباب، لكن لا أظن أن أصل الكلمة يعود إلى الباب الخارجي لبلاط السلطان.

إليك أسماء المساجد الكبرى أو مساجد السلطان كما تسمى هناك: آيا صوفيا، حقل الأتراك هذا

المسجد الذي بناه الإمبراطور جوستنيان إلى مسجد، ونجد في كتب عدة رسومات لهذا المسجد، ويمكن انطلاقاً من هذه الرسوم تكوين فكرة واضحة عن شكل المساجد الأخرى التي سبّني على ذكرها، إذ يبدو أن هذا المسجد يشكل نموذجاً لكافة المساجد التركية. مسجد السلطان أحمد وليد، وقد بناه هذا المسجد والده السلطان، مسجد السلطان عثمان، السلطان بايزيد (Bajazet)، السلطان سليمان، شاه زاد وقد بني هذا المسجد في عهد السلطان سليمان، السلطان سليم، السلطان محمد، مسجد بناه محمد الثاني الذي فتح القسطنطينية، وقد دمره الزلزال كلياً في عام ١٧٦٦، أدرك قبر جمري، مسجد بنته إحدى بنات السلطان سليمان وقد تضرر كثيراً من جراء الزلزال نفسه. ولا يمكن مقارنة أي من هذه المساجد مع أيها صولها من حيث البناء، لكن العديد منها يفرق الأخير من حيث المساحة. وتضفي هذه المساجد على المدينة جمالاً، وقد بنيت على أعلى مرتفعاتها، وطليت قبتها ومآراتها المتعددة بالرخام. وتقوم هذه المساجد وسط مساحات عامة واسعة، محاطة بحائط أو بمساكن لأولئك الذين يهتمون بها وللقراء، وتبنى المدارس قرب المساجد حيث توزع يوماً الصلوة إما من الخبز وإما من المأكولات. ويتم دهن مشيدي المساجد فيها، حتى أننا قلماً نجد اليوم أضربة رائحة للعائلات الكبرى في أية مدينة من العالم كما نجد في القسطنطينية. كما نرى في هذه المدينة العديد من المساجد التي بناها السلاطين وزعمروها، لكنها ليست محط أنظار كتلك التي أثبت على ذكرها. نجد في مدينة أسكودار (Scudar) وحدها أربعة مساجد بنتها سبلات مسنات من العائلة الحاكمة، وبالرغم من أن السلاطين غير مزمين بناء مسجد إلا حين ينتصرون على أعدائهم ويستولون على مساحات كبيرة من أراضيهم كتابة للإنعاق على المسجد وعلى الأشخاص الذين يخدمونه، بنى السلطان مصطفى، الحاكم اليوم، مسجدين، الأول في أسكودار على مرتفع يواجه السراي وبنوا والثاني في القسطنطينية، وهو مسجد صغير أما مسجد أيوب فأهمها لأن السلاطين الجدد يُقَلَّدون فيه السيف عند وصولهم إلى العرش، ونجد في القسطنطينية العديد من مساجد الوزراء والأعيان الجميلة، فضلاً عن كنائس الروم التي حوّلت إلى مساجد، ونجد مسجداً صغيراً في كل حي تقريباً. وتنتشر في المدينة الخانات أو الفنادق العامة، والبزستان أو الشوارع التجارية المنيعة، فضلاً عن الحمامات الرائعة مما يزيد من جمالها ويسهل الحياة فيها. كما نجد في المدينة منزل توزع لبنا مباناً، ويقع أحد هذه المنازل أمام الباب الخارجي للسراي، وقد بني بلوق رفيع وهندسة رائعة، فهو مفتوح من كافة الجهات وطليت قضاياه الحديدية بالذهب، ونجد في داخله أناساً يحملون أواني من النحاس الذهبي مربوطة بسلاسل ومعلقة بالماء.

إن هذه المدينة تنفذي بالماء العذبة من ثلاثة بحارئات كبيرة. يبعد الواحد منها عن الآخر ثلاثة أميال، وكل بحران منها هو صورة مصغرة عن مد مأرب الشهير، لأن المياه للتدقية من الجبال المجاورة والمتجمعة في الوادي بحجزها حائط منير، ويتم تصريفها تدريجياً. لكن كلفة بناء السدود أمام الخزانات لا تقارن مع الكلفة الباهظة لنقل المياه إلى قصور الحكام، فالأمر غير مستوية، مما يتطلب جر المياه تارة عبر التلال

وطوراً من حولها، وحيث توجد الوديان، ثم بناء سدود عالية ومنيعة لنقل المياه إلى غارات أخرى كبيرة في القسطنطينية، وتكم صيانة هذه المنشآت على نفقة السلطان. ولعل البعض يعتقد أن الأتراك يدينون لليونان بهذه المنحدرات الرائعة، لكن أكدوا لي أن أحد الخزانة التي ذكرتها - الواقع إلى شمال قرية برغاس (Burgás) - قد بناء السلطان الحاكم حديثاً، وأن خزان الماء قرب يابجه قوي والفساة الممتدة حتى القرى قرب البوسفور وحتى غلطة بها في عهد السلطان محمد. والدليل الآخر على أن سلاطين الأتراك لا يهملون رعاياهم كلياً، أمر السلطان مصطفى، الحاكم حالياً، ببناء بركات عند طرف السراي ومن الحصن الأخير في الجهة الآسيوية وحتى البحر الأسود، كي يمكن البحارة من سحب المراكب بسهولة، ولا سيما وأن التيار قوي للغاية.



ونعلم من الروايات التي وصلتنا بوجود مسلة ضخمة وأمس ثلاثة مشوكة في الميدان قرب مسجد السلطان أحمد، كما وردت في الكتب الرسوم المنقوشة على قاعدة المسلة، فضلاً عن الكتابات اليونانية المحوكة جزئياً لأنها مغطاة بالتراب. لكنها لا نجد نسخة عن الحروف الهيروغليفية، ولعل السبب يعود إلى أن أحداً لم يجرؤ على نقلها في ساحة عامة وسط المدينة وقرب السراي. وأعترف أنني خلال إقامتي الأولى في القسطنطينية، لم أجرؤ على تفحص هذا النصب التاريخي، بسبب الأخيار التي سمعتها من المسلمين، لكن في هربس العونة، نقلت الحروف الهيروغليفية المنقوشة على المسلة كلها (اللوحة الرابعة) من دون أن أحشى أكثر من ١٥٠ تركباً تجمعوا حولي لمشاهدة عملي. ونكفي الإشارة في خارطة القسطنطينية إلى موقع الصرح الذي تحفظ فيه الخيرات البرية، وإلى الميدان، وقصر قسطنطين، والعمود المحروى وساحات أخرى استفاض الآخرون في وصفها. ونجد في القسطنطينية منازل فسيحة تحت الأرض أو أقبية تسندها أعمدة عدة يطلق عليها اسم ألف عمود وعمود، ويمش الحائكون في هذه الأقبية التي تبدو وكأنها كانت فيما مضى خزانات مياه. وشاهدت في أحد الأقاليم ٢٢ عموداً من الرخام على الطراز الكورنثي، كما رأيت في إقليم آخر عدداً من الأعمدة العالية غير المتناسقة أُنشئت في أن تكون من صنع مهندس معماري يوناني، أو من عمل الأتراك، وقد رسمتها على اللوحة الخامسة، أ. ونجد في جوارها باباً مسدوداً، يؤكد البعض أنه يمكن الانتفال منها إلى غاليللي عبر ممر تحت الأرض، وهذا ما اعتبره تضخيماً لكل ما يتعلق بالعصور القديمة.

ويحيط بمدينة عظمه سور، لكن يرى فيها آثار حائضين قديمين وتبين، يقسمانها إلى ثلاثة أحياء أو إلى ثلاثة حصون خاصة. وتستند هذه المدينة إلى مرتفع وعمر. قبالة القسطنطينية وهي مكتظة بالسكان، ويمش فيها معظم التجار الأوروبيين والمسيحيين الشرقيين. ويقيم السفراء الأوروبيون في بير وهي ضاحية من ضواحي غطه، ومهم سفير بلاط فرنسا وسفير بلاط إنكلترا، وسفير جمهورية الأقاليم المتحدة فضلاً عن بايلو البندقية (Bano)^(١)، وسفراء الدانمرك، والسويد، وناپولي وبروسيا والقاصد الرسولي، وسفير روسيا المقيم. ولقد قدم أول سفير بروسيا أوراق اعتماده إلى السلطان في العام ١٧٦١ قتل وصولنا بريم مندوب الجزائر وتونس وطرابلس وراغوز (Ragusa) في القسطنطينية وإنما ليس بشكل مستديم، ولا يحترهم الأتراك سفراء أجناس شأنهم في ذلك شأن معوصي أمراء مولدايا اليونانيين والاشيا وبرسو أسطول السلطان في قوس خاتنه (Ters Chana) (قرب الترسانة)، في خط مستقيم قرب الشاطئ، وهو في حالة مزرية بالرغم من أن المراكب مطية بشكل جميل، ونجد في طرب خاتنه، مبنى كبيراً تصنع فيه المدافع، بجواره مسجد رائع. إن عدد السكان في أيوب، وناره أعاش، وغاسكوف، وفاسم باشا، وبيراء وسان ديمتري، وطوب خاتنه، وندفلي، وقيداش قليل للغاية.

(١) يطلق شعب البندقية اسم بايلو على سفيرهم في القسطنطينية، وشاء التماساً الأوروبيون في الشرق أن يحبروا سفراء فلتعبدوا لنفسهم القليل نفسه، لأن العرب (عني الأقل مكان البصرة) يطلقون اسم بايلو على القنصل حتى اليوم.

ويقع نسم من إسكودار في وادي، وقسم آخر يستند إلى نلال والقسم الثالث يعلوها، وتكثر في هذه المدينة الحدائق، ومجد عارح أسوارها مدائن واسعة مزروعة بالسرور. ويقع قس قولبي أو البرج على صخرة صغيرة في الماء، أما قاضي كوي (Kadi Koy)، فيما بعد حقدونية، فلم تعد سوى قرية كبيرة، وأجمل مدينتها كنيستها اليونانية، حيث عقد المجمع الديني الشهير.

ويملك السلطان العديد من المنازل الريفية في أيوب، وقره أعاش قرب الترمانة، ومرل السلطان محمود في دله باعجه، ومرل السلطان مراد بين إسكودار وقاضي كوي، كما يملك العديد منها على مضيق البحر الأسود. لكن السلطان الحالي قلما يزرع هذه المنازل باستثناء مرل قره أعاش حيث يباه عذبة، ولأنه منمرد وبالتالي كئيب لا يتلاءم ومزاج السلطان. وتندعي المنازل الريفية الأخرى، حتى أن السلطان أمر بهدم بعض منها بغية استخدام المواد لبناء المساجد والحمامات.

واللروم في القسطنطينية ٢٣ كنيسة، أما الأرمن عليهم ثلاث. كما تملك هاتان الأمتان كنائس في غلطة والضواحي. ويقوم في بيراج رجل دين برتبة مطران ويقوم في بيراج وعمله رهبان من الروم الكاثوليك ينمون ٦ رهبانيات مختلفة، لكل منها كنيستها التي تقع تحت حماية أحد سمرات أوروبا، كما يملك كل من سمر انكترا وهولندا والسويد كنيسته الخاصة ويملك اليهود العديد من المعابد في القسطنطينية والمدن والقرى الأخرى المذكورة أعلاه، وغالبية يهود تركيا من القلموديين، لكن القرائين (Karaites) يملكون معبداً في عاسكوف، ويقال إنه ممنوع على أي طائفة أجنبية، إسلامية أو وثنية، بناء معبد فيها، لكن العديد من الطوائف تجتمع هناك من دون أن يكثر الحكوم للأمر.

الرحلة من القسطنطينية إلى الإسكندرية

ما إن تحسنت صحتي حتى أخذنا بالأهبة لمقادرة القسطنطينية، قاصدين مصر، وكان بإمكاننا الحفاظ على لباسنا الأوروبي في الإسكندرية، لأن سكان هذه مدينة معتادوا رؤية الإفرخ أي الأوروبيين. لكن لباسنا هذا والمعايير لبساسة لباس العرب يمكن أن يمرضنا في القاهرة وفي شبه الجزيرة لأسئلة مزعجة ولسخرية السكان، فضلاً عن أنه سيشكل عبئاً علب في غياب القاعد ووسائل الراحة الأخرى التي نجدها في أوروبا. وحصلنا في القسطنطينية على ملابس طرية كتلت التي يرتديها الشرفيون. وشترينا عدة لنصيح، ومؤناً ضرورية لرحلتنا المقبلة. ورؤدنا السيد دي عابله، الذي أحسن وفادتنا في القسطنطينية، بإذن مرور من السلطان، ووسائل توصية، وتقود مصرية، وفي ٨ أيلول/سبتمبر، أبحرنا على متن سفينة من دليسيو (Dulcigno)، وهو مرفأ بحري على الخليج الأدرياتيكي، غير بعيد عن جمهورية راجوس. وكنا نأمل بالانطلاق في اليوم الثاني، لكن الرياح العاكسة أعاقتنا وأخرنا القبطان الذي لم تكتمل حمولة مركبه. وغادرت السفينة المرفأ وبتعدت عنه، لكن الصائغ استمرت تصل إليه حتى في أثناء الليل ولم نطلق بالفعل إلا في ١١ أيلول/سبتمبر، لكن الرياح لم تسف، فلم نصل إلى الدردنيل ولم نرش قرب قوم قلّة لمي الحصن الواقع في الجهة الآسبورية إلا في ١٥ من الشهر نفسه. ويصعد على متن السفن الآية من القسطنطينية، رجال من الجمارك لمرة ما إذا كانت تحمل شيئاً نازين أو بضائع لم ينع عنها جمرك القسطنطينية. ومرر اليوم الثاني في التفتيش مما مرنني، لأننا لم نتوقف إلا لساعات قليلة في هذا المكان، في طريقنا إلى القسطنطينية، وكنت مرهضاً للغاية فلم أتمكن من النزول إلى اليابسة، فحملت عذتي، وتمكنت من دراسة هذا المكان الشهير.

ومساحة قصور الدردنيل ليست بالكبير الذي نتوقعه، بالقصر الواقع من جهة آسيا لا يتعدى كونه مربعاً صغيراً من الأسوار السمكة والمحاطة بالأبراج. أما المدافع التي تحمي فصخرة للغاية، بيد أنها نصبت على الأرض مباشرة أو على أخشاب غبيلة، وقد عانيت بعضها قصير لمي أنها لم تعمل منذ أمد بعيد، وحشي بعضها الآخر بقذائف من حجارة مغطاة بالرمل والخراب. ومضيق الدردنيل ضيق فإذا ما قصفت للمدافع من جهة وصلت القذائف إلى الجهة الأخرى، وهو متعرج للغاية، فيصعب اجتيازه في ليلة واحدة حتى وإن كانت الرياح مؤاتية. وبوسع الأتراك تصويب مدافعهم على تمرجات المضيق بكثرة متديّة، وبالتالي لا يمكن لأسطول معاد أن يمر ويهاجم القسطنطينية من جهة البحر، وإذا افترضنا أن جيوشاً ساندت الأسطول برأ وهدمت القصور ومدافع المضيق وأقت تراجعه، يخشى على الأسطول الغرق عند

أدنى عاصفة إذ تكثر المراتح غير المدخصة القمر بين السرديل والقسططية. وإذا ما أرادت القرى المسيحية إسقاط عاصمة الأمبراطورية العثمانية من جهة البحر، ينبغي أن تفرس عليها حصاراً وتمنع عنها المؤن التي تصلها من ما وراء البحر الأسود أو الأرخبيل، فإذا ما شئت بعض المواد الضرورية وارتفعت الأسعار قد يستسلم الأتراك. وتبقى خرائط السيد دي أنجيل التي تحمل عنوان: شواطئ اليونان والأرخبيل أفضل الخرائط التي وصلتنا من تلك البلاد. وتقع قتيه قالة على خط عرض ٤٠°، ٨٠.

ثم أبحرنا مجدداً في ١٧ أيلول/سبتمبر، وفي الثامن عشر من الشهر نفسه مررنا أمام القصرين الواقعين عند مدخل المضيق، وقيل لي إن اسميهما القصر القديم والقصر الجديد، ويعلمان عن الدرديل حوالي ٣٦ ميلاً وفقاً لقياس التركي. وصادفنا قرب تندوس (Tendos) سبعينين حريتين تركيتين جاءنا لنقلهما السفير إلى القسططية، إذ اتفق السلطان وجمهورية البندقية، على أن لا تتجاوز أية سفينة حرية مصيق السرديل وأن ينقل السفير الذي يتعير كل ثلاث سنوات إلى تندوس ومنها إلى القسططية على متن سفن تركية، وذلك إثر خلاف حول بعض السفن من البندقية في مرافئ القسططية.

في ١٩ أيلول/سبتمبر ظهر لي أن جزيرة ساموس (Samos) تقع على خط عرض ٣٧°، ٤٦°، وجزيرة مورنا (Furna) على خط عرض ٣٧°، ٤٢°، وجزيرة أيكاري (Icaria) على خط عرض ٣٧°، ٤٤°. وفي ٢٠ أيلول/سبتمبر، مررنا أمام جزيرة ستشيبير (Stanchio)، وأراد قبطان السفينة التزود بالمياه العذبة، لكننا لم نتوقف لأننا ننقل على متن سفينة قبطان ينبغي أن يسلم قيادة سفينة حرية في رودس، ولأن الرياح مواتية للعابدة. وفي ٢١ أيلول/سبتمبر، رسونا في مرفأ مدينة رودس، والتقىا الكاهن ياشا أو قائد أسطول السلطان، مع بعض السفن البحرية، فحينئذ بثلاث طلقات مدفع ورذاً بطيفة واحدة.

ولا نحب أية مدينة في الشرق تلقى ردة أسطول السلطان، لأنه ينبغي تقديم هدايا قيمة لقائده، ولعدم انصياف البحارة. ولقد نزلت والسيد فورسكان والسيد بورميتدر إلى الياسة ما إن وصلنا إلى رودس وذلك بعية التحدث إلى قصص فرنسا، لكن مرله كان مقللاً لتجنب سوء تصرف البحارة، وما مسحرونا بالدخول لأننا مرتدي الثياب التركية ولم نلتقي بمصادقة براهب كبوشي ردتنا من حيث جدد. وأرسل القبطان معنا مرافقاً ليتجول في المدينة، لكن سمعنا الكثير من الأخبار السيئة حول الأتراك فجنبنا كثرة التجول. لاحظنا أن منازل هذه المدينة مبنية بشكل متين، وفي الشارع المسمى شارع العرسان، رأينا البعض يرتدي درعاً، أما قصر السيد الأكبر فمهدم تقريباً. وبما أن الأتراك لا يوالو يذكرون كلعة الاستيلاء على هذه المدينة، ويعتبرونها صعبة الشال، بالرغم من أنهم تركوا التحصينات في الحالة نفسها التي أضححت عليها حين استولوا على المدينة، وتركوها فيما بعد لتصبح أنقاضاً. لكن يبقى رودس أسع قلاع الأمبراطورية العثمانية، وكان التمثال الشهير المحصن للشمس يقوم قرب هذه المدينة فيما مضى، لكن يصعب تحديد موقعه حالياً، ويقوم عند مدخل المرفأ من كل جهة، ويعتقد أن هذين المرجين قاعدة نقدي التمثال، لكن يعد الواحد عن الآخر حوالي ٤٠٠ إلى ٥٠٠ قدم، وهي مسافة كبيرة تحمل الأمر غير قابل للتصديق.

وقررنا للمرة الأولى أن نأكل في مقهى تركي، كان الطعام شهيماً إنما مكثفاً، أكلنا على منضدة واسعة من الخشب، في الشارع، من دون سكين أو شوكة وفي طبق من الأجر السيئ، ثم انتقلنا زيارة يهودي، يروء الأوروبي بالبيد. كانت عنده فتاتان، يدعي أنهما ابتاه، وهما تتكلمان الإيطالية، وقد قدمتا لنا أكياساً ممتلئة من خبثهما بنفسهما، وفاقّت كلمة هذه الزيارة اليهودية كلفة الغذاء التركي.

لا زال العديد من اليونان يعيشون على الجزيرة، لكن لا يحق لهم البقاء في مدينة رودوس (Rhodus). في اليوم التالي، رافق السيد دي هانن والسيد كرامر بعض اليونانيين الذين أرادوا زيارة المطران المقيم في قرية قرب المدينة، وما إن وصلوا، حتى لحق بهم بعض الموسيقين الأتراك، لكن المطران لم يكن يهتم بموسيقاهم، فرفضوا المائدة من دون أن يكسبوا بعض المال. وقام خلاف بينهم وقيل أن يغادروا، استبدل أحد الموسيقيين حذاء السيد دي هانن الجديد بحذاءه القديم. ولو عدنا إلى أوروبا مباشرة بعد ذلك، لما شكرنا بهذه العادة - عند الشراب - التي تنصي بزعر الحذاء قبل دخول المنزل. لكن أمراً مماثلاً لم يحصل لأي من رفاقنا فيما بعد، فلم نعد ننظر إلى هذه الحادثة كأمر كبير.

وأراد قبطان سفينتنا الإبحار في ٢٢ أيلول/سبتمبر صباحاً، مما سمي من تحديد ارتفاع بعض النجوم ليلاً، أما على متن السفينة فيقتصر أمراً على الهجرة، لأن جزيرة رودوس تقع إلى الجنوب واليافة قرية منا نحو الشمال. لكن بما أننا لم نبحر إلا قزاة الظهر، استخدمت التسمية لتحديد ارتفاع الشمس في أوقات مختلفة، كما سجلت الوقت بين ارتفاع وآخر استناداً إلى ساعة التي تعمل بالثواني، وتبين لي أن سفينتنا قرب رودوس كانت على بعد عرض ٣٦°، ٢٦'.

ولم نتعد طوال الرحلة عن شواطئ القارة أو الجزر منذ القسطنطينية وحتى رودوس، لذا لم أجد داعياً لتسجيل ملاحظات حول الطريق الذي اتخذته السفينة. وعندما سمع أحد أرى اليافة بين هذه الجزيرة ومصر، ظننت أن قائد السفينة سيستخدم التسمية، لكن تبين لي أن الأتراك لا يستخدمون هذه الوسائل. ولقد كان المركب مزوداً بمفرائط بحرية جيدة، ورمال، وسراع، وبوصلة عادية فضلاً عن بركار مسطح، لكنهم لم يستخدموا المعدات التي أخذوها عن قبطان أوروبي منذ سنوات.

ولعل قبطان سفينتنا سرق هذه المعدات كلها، لأن الأتراك متهمون بأنهم يدعون كونهم جزائريين أو تونسيين أو طرابنسيين فيستولون على سفن الأمم الأوروبية العاقبة معاهدات سلام مع الأتراك، وحين لا يتجرؤون على سرقة السفينة بأكمها، يصنعون على سبب الخرائط والبوصلات وبعض المؤن، وقد تحدثت في الإسكندرية إلى قبطان تعرض لعملية سطر كهذه. وكان قبطان سفينتنا يحشى أن يقع في الحيلة نفسها على هذه الطريق، لأن الشائعات تسري أن مالطين أو بالأحرى قرصنة، يحسبون جوازات مرور ويرمونها على بعض الأمراء الإيطاليين، يجزلون شواطئ مصر وسوريا. ولقد كان مركبنا مثقلاً بالحمولة، ولم تكن للدافع الموجودة على متنه لتنعما لأنها مربوطة جزئياً بحبال، وسلكت القبطان الطريق مباشرة من رودوس نحو الإسكندرية، وكان الهواء مواتياً، وإلا لما وصلنا إلى المرفأ دون التعرض

خطاظر عدة، لأن شواحيء مصر منخخصة للعامة بما يجعلها حصرة جداً بالنسبة إلى المراكب القادمة. واعتدت قياس ارتفاع الشمس كل يوم عند الظهر، وكنت أدلّ النبطان على مكان وجودنا على الخارطة وأحدد له كم بعدد عن الإسكندرية، بما أسعده، فطلب من أمين سره أن يراقب هو أيضاً الشمس ليحدد المسافة التي تفصلنا عن المدينة، لكن حين رأى هذا الأخير أن هذه الدراسة تنصب جهداً كبيراً والكثير من الحسابات لتحديد ارتفاع القطب فضل الاكتفاء بالوسائل القديمة.

يتكلم كل من القبطان وأمين سره والبحارة القليل من الإيطالية، وقد رار أمين سره البندنية ومرغىء أخرى في إيطاليا حتى أنه وصل إلى فينسا. وررى له الكاثوليك أخباراً عن غيرهم من المسيحيين أغرب مما يرويه السنته عن غيرهم من المسلمين. وسألتهم يوماً، إن كان هناك وثنيون في البلاد الواقعة تحت حكم السلطان فأجابني بوجود الكثيرين منهم في ألمانيا وهنغاريا ويطلق عليهم هناك اسم اللوثريين، وليس لديهم أدنى فكرة عن الله وأنبيائه، إلخ. وأظهر، خلال مناقشات حول الدين، أنه مسمم حقيقي، وحاول أحد العلماء في بحثه إقناعه بحقيقة الدين المسيحي، فعادر قائلاً إن من يؤمن بعير الله هو ثور وحمار. وهكذا أعلمنا الرجل بضرورة ترك كل شخص لإيمانه، ولاعتقاده بأن ديانه هي الأفضل عدداً لا يشك هو بالأمر، لكن حين راجعت لاحقاً بعض المسلمين حول مبادئ دينهم، طلعهم بعض الشيء على الديانة المسيحية، من دون أن أشير إلى أنها أفضل من مبادئ القرآن، ولم ينصب بالتالي أحد منهم.

وكان أمين السر يقوم بجهام الإمام على من السفينة، فبعد أن يتحضر المسلمون للصلاة، أي بعد الاعتسار وفقاً لأصول معينة، يمسك الإمام أمام الآخرين سجادته على أن يستقبل مكة. يصطف الآخرون جنباً إلى جنب، وراء الإمام، كي يتمكنوا من رؤية حركاته، ويوجهوا وجوههم شطر مكة وعند بدء الصلاة، يصيح الإمام لإبهايم وراء أذنيه، للإشارة إلى أنه يتعالى عن الأمور الدنيوية ويحصر فكره بالله وحده، ويقلده كل من يصلي وراءه. كما يقلدونه حين يركع ويسجد، ويرددون وراءه كلمة الله أكبر حين يقولها. وباختصار، يقتد المسلمون في أثناء الصلاة من يؤمنهم، وبأني، لم أكن أعرف هذه الأتمة عن كثب، خشيت أن أثير استياءهم إن حضرت صلاتهم. نكهم لا يخرجون من تواضعهم أثناء الصلاة ولا من الشعائر التي يتبعونها عند ذكر الله، ولهذا السبب، لا ينشغلون عن صلاتهم بوجود أجاب يحسون ديانة مختلفة عن ديانتهم. وكنت مرة في سرن حاكم السويس، وعند وصول الإمام، وبما أخذ بحضور في التحضر للصلاة، أردت المغادرة، لكن الحاكم نفسه أشار بإمكانية البقاء. وبقي الشعب هو الوحيد الذي لا يحتمل وجود مسيحي في المسجد ولا سيما في أوقات الصلاة. ونرى الكثير من المسلمين الذين يصلون في منازلهم، فلا يتوجهون دائماً إلى المساجد أو إلى أماكن التجمع حيث يكون الإمام، إنما يصلون في مكان تواجدهم ساعة الصلاة وإن كانوا في الشارع. وهكذا يصلي كل منهم على من السفينة حين يتسنى له ذلك أثناء النهار. وكانت صلاة المساء تم جماعة، بعد مغيب الشمس مباشرة، ويختصمونها قائلين: «اللهم اجعل رحلتنا سعيدة».

حجزنا لأنفسنا حجرة القبطان، مع حجرة أخرى طويلة وصغيرة تحتاز السفينة، مما يسمح لنا بالابتعاد كلياً عن الأتراك حين نخل رقتهم. وتقع فوق حبرتنا، حجرة أخرى مخصصة للنساء من القيان المبررات أي الدواتي يربن كنساء كرميات السب في تركيد. كان لقائد السفينة والبحارة حجراتهم تحت حجرة القبطان التي نقيم فيها وأمام تلك التي نقيم فيها النساء. ويقي النجار والركاب الآخرون أياً ما أكملها، على سطح المركب. وتجس القيان في راوية تحت سطح السفينة، أما الرجال فيحاولون إيجاد أماكن لهم من دون إزعاج الآخرين، وتتم معاملتهم بشكل جيد، لأنهم أعدون للبيع في مصر، لذا يحاول أصحابهم الوصول بهم إلى مصر معافين. كنت رائسيد فورسكال يجلس غالباً بين حنايا للقراءة أو للكتابة، وفي يوم ما سمعنا فوقنا صوت بعض النساء، ولم نتمالك أنفسنا من النظر عبر النافذة لاكتشاف المزيد، وبما أن القيان لم يعتدن هذه الخشبة، وحين كنشهن أننا أجنب (لأننا لم نعتد اعتماد العمامة في غرنتنا كما يفعل الشرقيون) أخذن بالصراخ، وبإطلاق الشتائم. لكن ذلك لم يحنه، حين رأينا إحداهن تحاول تهديئة الآخرين، واعتدن تدرجياً على رؤيتنا. وعرضنا عليهن أنواعاً عديدة من العواكه والساكر المصنعة في أوروبا، فكن ينزلن محارمهن من النافذة كي نصنع فيها ما استطعين، وقدمن لنا بدورهن بعض الهدايا البسيطة. ولم نكن نتكلم التركية ولم يكن يتكلس أية لغة أوروبية فاكفينا بالإشارات، ورددت لي أجمالهن بعض الكلمات، فسألت أمين سر السب عن معنى الكلمات التركية، لنفهم ما قالته، فسمعت أنها أشارت إلينا بضرورة توخي الحذر وعدم الظهور إلا في أوقات الصلاة، وحتى في وقت كهذا قد نتعرض لمعاجاة. أخيراً، اعتدن إعلامنا عدم يكن وحيدات بالصرب على نوافذهن، وهكذا تسليت ورائسيد فورسكال مراراً، لكن لا أصبح أحداً بأن يحاول التعرف على القيان التركيات وإن كان بهدف التسلية مثل ما فعله. ولم يكن من السهل أن يرانا ركاب السفينة وصافحها لأن نوافدها من جهة الكوكل، ولو اكتشف أمرنا، لأوقعنا حشرتنا في مأزق.

في ٢٥ أيلول/سبتمبر ظهراً، وبعد أن قست ارتفاع القطب، علمت أننا لا رنا بهدين عن الشواطئ المصرية، لكن قائد السفينة اعتقد أننا اقتربنا، فأمر بإتزال الأشرعة في الليلة التالية. ولم نر اليابسة إلا في السادس والعشرين ظهراً، وكنا إلى الشرق فيما الرياح تتحول نحو الغرب فلم نصل ميناء الإسكندرية إلا في المساء وبعد جهد جهيد. وللمدينة مرفأ، أحدهما يسمى القديم وهو الأكبر والأعمق والأمن، فرسونا فيه، فيما تضطر السفن الأوروبية إلى الرسو في المرفأ الشرقي السيء. ولم نعادو السفينة إلا في اليوم التالي، بينما نزل معظم الركاب الآخرين فور رسو، أما النساء العبيد، هن نقلهن بيلاً وبسرقة تامة. وتومي سنة إلى ثمانية أشخاص من ركاب السفينة أثناء هذه الرحلة القصيرة ومن بينهم ملاح اعتاد التردد عبناً في الأيام الأولى، ويعتقد أن الطاعون قصى عليهم، لكن لعل أسباباً أخرى عيجت بموتهم. ولم تصب بمشأ، بمصل الرب، بأي مرض معدٍ بالرغم من أن طبيباً عاد العديد من المرضى.

ملاحظات عن الإسكندرية

تقع مدينة الإسكندرية أو سكندرية كما يسميها العرب والأتراك على سفان أرض بين شبه الجزيرة وأسوار المدينة القديمة وبين المرفأين، على خط العرض ٣١°، ٢١'. أما الأرض التي ببيت عليها المدينة فمختلطة حتى يقال إن القسم الأكبر منها غمرته مياه فيما مضى، ونضفي المساجد وأبرج المدينة وبعض الصروح الكبيرة، وبها أسوار المدينة القديمة، وعمود بومبي (Pompee)، ومسلة كليوباترا، وأشجار النخيل حبة جميلة على المدينة، كما يراها القادم من أوروبا. ولقد أشرت سابقاً إلى أن المرفأ القديم واسع وعميق وأمن، على عكس المرفأ الجديد حيث ترسو سفن القادمة من أوروبا، فهو غير صالح تقريباً، ويرداد سوعاً يوماً بعد يوم أما قاعه فمليء بالحجارة، حتى أن البحارة يصطرون إلى ربط العرصات والسوامت بالمرسة لإبقائها ممدودة ولتبع احتكاكها بالحجارة. ونجد في المحيط بقايا أسوار قديمة، وأعمدة مكسورة وحجارة ضخمة، لكن هذه الأمكنة الرائعة وغيرها التي ذكرها الكتاب القدامى، تغيرت للغاية فلم يتمكن من التعرف إلا على القليل القليل من الأشياء استناداً إلى وصف هؤلاء الكتاب، بما يجزمي على رء الذين يتوقعون الحصول على تفاصيل حول هذا الموضوع إلى كتب أخرى ولا سيما كتاب بوكوك (Pocock) الذي درس الآثار بحرص وانتباه.

وتقع أمام الإسكندرية الحديثة ومرفأيه شبه جزيرة كبيرة، يطلق حالياً على الجزء الغربي منها والواقع أمام المرفأ القديم اسم رأس الثين. ولم أقع فيها على أثر يستحق الذكر سوى قلعة صغيرة، هي مسكن متداع، وملاحة والكثير من أشجار التن، وبها نال هذا الجزء من الجزيرة اسمه. ونجد في الطرف الشرقي شبه الجزيرة حصناً يربط به ٥٠٠ انكشاري، ويقع هذا الحصن على صحرة صغيرة، ويشغل على الأرجح حالياً مكان القناة القديمة الشهيرة. ويمتد سدٌ يبلغ طوله حوالي مئة قدم من هذا الحصن حتى مدينة الإسكندرية الجديدة، وبما أن الأمواج ترتطم بهذا السد بعنف عند هبوب الرياح الشمالية، تم بناء جسر كي تصب المياه في المرفأ. وبعد قبالة هذا الحصن، وعند مدخل المرفأ حصناً آخر صغيراً قائماً على صحرة، ويمكس العبور إلى اليابسة من فوق سور يبلغ طوله ١٥٠٠ إلى ١٦٠٠ قدم، وتم فتح ثغرات فيه كي تسكب المياه فلا تهدم.

ولقد بحثنا عبثاً عن دلائل على مساحة مدينة الإسكندرية كما كانت حين أمست. لأن لأسوار الحالية للمدينة القديمة يدها العرب، ويتجلى ذلك في الكتابات العربية المنقوشة عليها، وفي هياكلها، وفي أبراجها المزودة بأعمدة رخامية. إن مساحة حرم الأسوار القديمة، كما هي عليه اليوم، أصغر من مساحة

التي نسيها المؤرخون للإسكندرية الكبرى، لكن هذه الأسوار التي بناها العرب عظيمة وعالية وطويلة ووجدت أن ارتفاعها يبلغ ٤٣ قدماً، إلى ٥٠ قدماً، أي في ذلك الحاجر أي قرب باب الرشيد، لكن هذه الأسوار مهدمة في مواقع عدة، وتتم الحراسة في بعض الأبراج كما أشار بوردون وبروكوك وغيرهما^(٥٠). ولم تهجر الإسكندرية فجأة، إنما تراجعت تدريجياً، مع تراجع عدد السكان وافتقارهم. ولم يتركوا من القصور القديمة الرائعة إلا ما لم يكن بالإمكان نقله أو استحداثه في أبنية جديدة، كما تم نيل أساسات الأسوار، لذا يرى الكثير من الآثار القديمة، وبما أن الإسكندرية الجديدة تعتمد للمياه العذبة باستثناء نيل التي تجمع من النيل والأمطار، يضطر السكان إلى الاهتمام بعدد كبير من الخزانات تكفي مياهها لحاجتهم اليومية، ولهذا السبب، يعملون على منع انسداد القنوات التي تحصل مياه النيل إلى الخزانات. وبالرغم من أن القناة الممتدة من النيل والتي تجري قرب أسوار المدينة غير قابلة للملاحة منذ سنوات، يقومون بتخليصها سنوياً وفتحها، بعد أن يرتفع منسوب النيل إلى حد معين. وتم حفر المياه من الجهة الشرقية للمدينة عبر قناة صغيرة تحت الأرض لتصب في الخزانات وحين تملىء هذه الخزانات، تخرج المياه الزائدة في قناة صغيرة عبر أسوار المدينة القديمة لتصب في المرفأ القديم.

أما أفضل أثر من الآثار القديمة الموجودة داخل حرم المدينة والذي لم يتمكن المسلمون من نقله هو مسلة كليوباترا، وهي من العرايت الصلب الأحمر اللون، مكونة من قطعة واحدة ككل المسلات التي اكتشفت قرب قصور ومعابد المصريين القدماء. وقد عاص قسم من المسلة في الأرض، لكن بقي منه ٦١ قدماً، و١١ بوصة من حيث لارتفاع، و٧ أقدام و٣ بوصات من حيث العرض^(٥١). ويسمى عبق بعض الكتابات الفرعونية المنقوشة على المسلة بوصة واحدة، ويبدو من ذلك، أن المصريين القدماء سحوا لتخليد كتاباتهم، لكن خلفاءهم لم يتمكنوا من قراءتها، وقد رسم السيد بوردون هذه المسلة بشكل جيد. وبعد مسلة أخرى قرب الأولى، ويبلغ عرض كل جهة منها ٦ أقدام و٣ بوصات، وهي غير متصصة من مكسورة ومغطاة جزئياً بالتراب.

ولم يبق من معبد الإسكندرية القديمة الرائعة ما يستحق الاهتمام سوى كنيسة سان الباناز (St. Albanase)، وهي كنيسة واسعة للعبادة، ويدعى البعض أنها مريمية بعدد كبير من الأعمدة الجميلة، وأنها تضم مجموعة غنية من الكتب اليونانية. لكن تم تحويل هذه الكنيسة الجميلة، منذ زمن، إلى مسجد، لذا يمنع دخولها على المسيحيين. ونلاحظ قرب الكنيسة على بعض الأعمدة العرايت الحمراء، وبقيت قصر واسع.

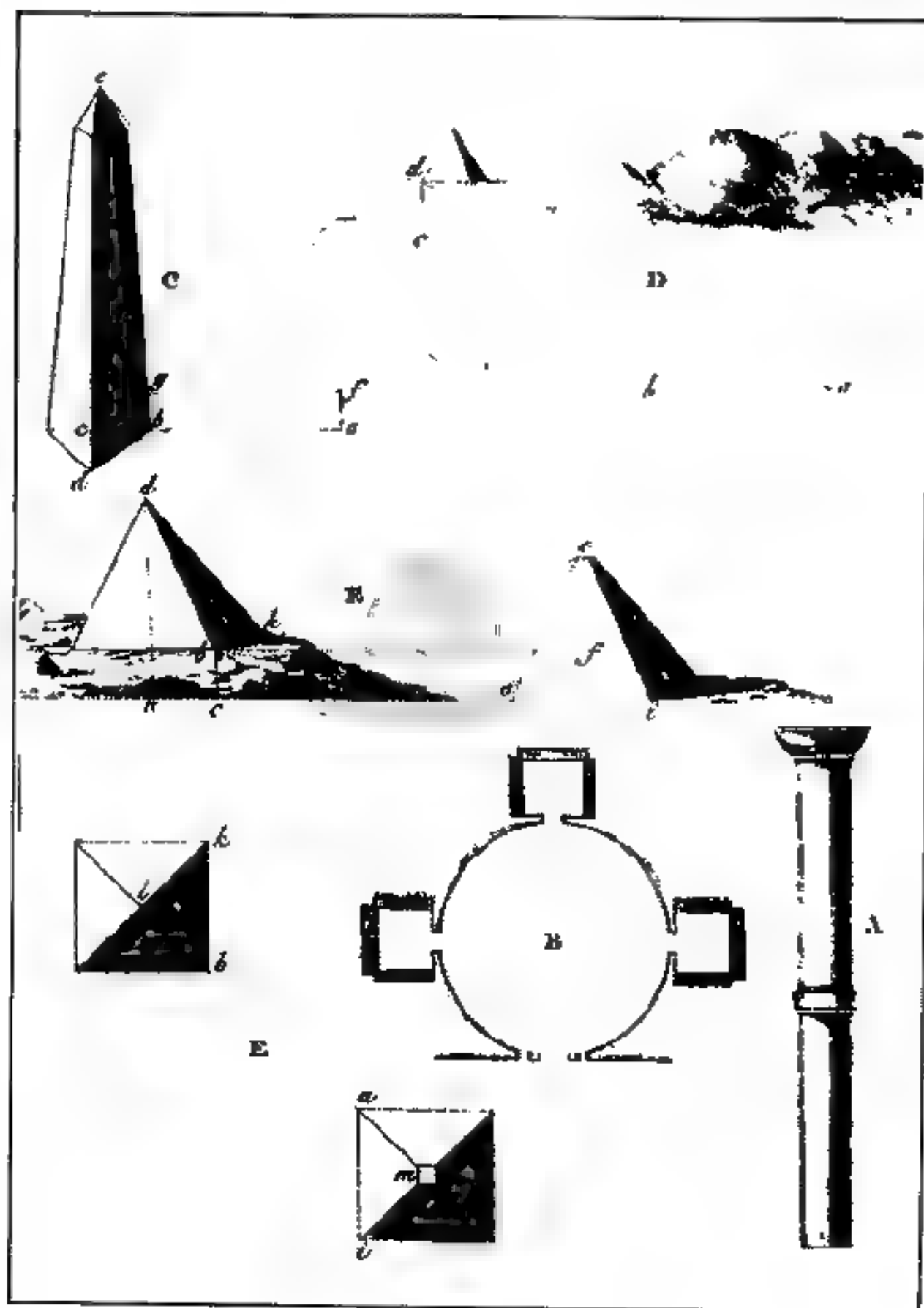
(٥٠) لا بد أن هذه الأسوار كانت في حالة أفضل منذ ٣٠٠ عام، لأن رفاق السيد بريدباش الذين سحوا على السور الخارجي رؤية المتاحق والأبراج والمواقع المصنوعة، أكدوا أنهم لم يروا يوماً مدينت أكبر تحسباً من الإسكندرية وكان داخل المدينة مرفأاً بمضماره أو أكثر فيه المزارع المتعددة.

(٥١) لا يمكنني التأكيد، إنما ما كان عرض كل جهة من المسلة ٦ أقدام و٣ بوصات، وإذا ما كان عرض ذلك الجزء الواقع في الأرض قرب الأول ٧ أقدام و٣ بوصات من كل جهة وبالتالي، يبلغ ارتفاع المسلة المتصصة ٦١ قدماً.

ولا تتميز كنيسة القديسة كاترين التابعة للروم، بكبرها أو بروعة هندستها، إنما بحجر الرخام الأبيض المرقط بالأحمر الذي بيث منه، ويدعى الرهبان الروم أن رأس القديسة كاترين قطع على هذا حجر، وهذا كمن أهميته، وما النقاط الحمر إلا دليل على ذلك. وتقع كنيسة القديس مرقس الإنجيلي، التابعة للأقباط على مقربة من الأولى، ويعرض فيه قبر هذا القديس الذي لم يعد يفتح لأقباط، لأنهم يقولون إن رجالاً من البندقية استولوا على رأس الإنجيلي، فيما يؤكد الروم الكاثوليك أنهم تمكنوا من تحصيل الجثة بأكرمها من معجى المحدثين وأن الأقباط يستولون إليهم حين يتشعرون أن رجال الدين من الروم لم يأخذوا إلا رأس القديس، ويتذكرون التدابير الحذرة التي اتخذها إخوانهم لنجاح في هذه المهمة يُقان إنهم قطعوا الجثة ولغوها، وأوهموا الجميع أنها لحم حبرهم كي لا يكتشف اسمعون واليهود عند اجتماعهم هذا الكثر العظيم فيستردوه من جديد ويصعب إرسال الجثث من الإسكندرية إلى البلاد المسيحية، وقد منع الأتراك نقل المومياة لأنهم يعتبرون ذلك حشوية لا طائل تحيها هي التي تدفع الأوروبيين إلى نقل هذه الجثث انقضية من مكان دفنها، لكن، بما أن اليهود يسيطرون حالياً على الجمارك في الإسكندرية أصبح نقل الجثث إلى خارج مصر أسهل من إرسالها إلى أوروبا على متن المركب الإيطالية. وقد وصلت صاديق عدة، تحمل مومياة إلى متن المركب بأمان، لكن البحارة أرادوا معاداة المراكب إن لم يعد القبطان جثث الكفرة هؤلاء، لذا اضطر السيد ماريون المكثف بإيصال المومياة إلى أوروبا إعدادها، كما اضطر القبطان الإيطالي الآخر الذي نقدها إلى إخفاء أمرها وحقيقتها عن بحارته. وتعرض في كنيسة القديس مرقس كرسى، يقال إنه صنع تماماً كالكرسي الذي جلس عليه الإنجيلي وهو يعظ ويشتر، ونحس الإشارة إلى أن بعض الرونسمانت ذهبوا في هذه الكنيسة. ونجد ضمن حرم أسوار الإسكندرية التي بناها العرب ديراً لرهبان الفرنسيسكان وبعض منازل العرب المتداعية فضلاً عما ذكرته عن المسجد الكبير والكينسين، أما باقي المدينة فموحش.

كان عمود بومبي جزءاً لا يتجزأ من المدينة في زمن اليونان، لكنه حالياً خارج الأسوار وعلى بعد ربع ساعة من مدينة الإسكندرية التي بناها العرب، وقد أحسن بوردن رسم هذا العمود وبما أن الجميع غير متفق حول ارتفاع هذا الصرح، عمدت إلى قياسه بنفسي ووجدت أن طوله (من دون الأساسات) يسع ٨٨ قدماً و ١٠ بوصات^(٥). إذاً، واستناداً إلى رأيي الخاص، لا يبلغ هذا العمود الارتفاع الذي يدعيه المسامرون الآخرون، لكن هذا لا يمنع اعتباره قطعة رائعة من العصور القديمة لأنه مصنوع كنياً من

(٥) تلمع أسلاك من وسط الآلة حتى الأساسات ٧٤ قدماً، ٧ بوصات وحوالي ثلثي بوصات، ٥١ بوصات انطلاقاً من الأساسات وحتى أسفل تاج العمود الذي أردت قياس ارتفاعه، أي إن مسافة القاعدة تبلغ ٧٤ قدماً وكانت الزاوية من طرف القاعدة حتى تاج العمود ٤٨° ٥٠' وبالتالي يبلغ العمود أطول من الآلة بثمانية وثمانين قدماً وكان اتقى الآلة عند قاعدة العمود من صفر إلى ١٠ بوصات، أي إن ارتفاع العمود ٨٨ قدماً، ١٠ بوصات أما الأساسات من الجهة الجنوبية فبعض ٤ أقدام، وبعض، ولي جهة الشمال ٤ أقدام، ٩ بوصات.



العرايت الأحمر، ونسب هذا العمود إلى ثلاثة أقسام، كل منها صممه للغاية؛ لم أستصع تغيير إلا القليل من الكتابات المحفورة على الجهة الجنوبية الغربية من العمود، ولقد حاول السيد دي هاس جهده، اكتشاف المزيد، لكنه لم يتمكن من معرفة القدر الذي يدعي الآخرون اكتشافه فيه. يبدو أن المهندس المعماري اليوناني لم يشأ تخليد اسمه بهذه الكتابات أو أنه لم يكن يعرف طبيعة الحجر كما عرفها المصريون القدماء، لأن اليونان لو حفروا هذه الكتابات على العمق نفسه الذي حفر فيه المصريون الحروف الهيروغليفية على المسلات لأمكن قراءتها. ونلاحظ أن قدماء المصريين اعتادوا الكتابة على جهات المسلات الأربع، أما اليونان فقد كتبوا على الجهة الوحيدة من العمود التي عانت الأكثر من عوامل الزمن. وكانت أساسات العمود قد تعرضت للكثير من الأضرار، عند وصول نوردن، وقد عمل تشريتشي على إصلاحها، لكن لا يمكن أن نستنتج أن العمود الكبير قائم على عمود آخر أصغر حجماً كما يؤكد بعض المسافرين. وهذا دليل على أن المسلمين لا يعملون جميعاً على إلحاق الضرر بالآثار، ونجد الإشارة إلى أن العديد منهم يحاول الاستعادة من هذه الآثار، ولا يختلفون في ذلك عن الأوروبيين. ولنفترض أن رجلاً قديماً وجد في حديقة منزله عموداً أثرياً جميلاً، إذن لآثر جعله رحي يستفيد منه. وتواري زوايا مسألة كليوباترا الأربع أركان العالم الأربعة، لكن زوايا قاعدة عمود بومبي تنحرف حوالي ١٢ درجة، إذاً، يحتمل أنهم اعتمدوا على موقع الصروح المحيطة ببناء هذا العمود وليس على موقع الهجيرة كما حصل عند بناء الأهرام.

ولقد لاحظت خلال إقامتنا في الإسكندرية، أن العرب يسكنون حول المدينة بين الآثار، ولم أشأ التعرض للسلب عند وضع غارطة للمدينة، ولا سيما وأنا نملك واحدة ممتازة وهي تلك التي وصفها السيد نوردن. وبما أنني أستطيع رؤية جزء كبير من أسوار المدينة القديمة من على المرتفع الذي يقوم عليه عمود بومبي، فست بقياس بعض الزوايا من هذا المكان على أمل أن أسجل قياسات أخرى من أماكن مختلفة. ودفعت الحشرة أحد التجار الأتراك الحاضرين لنظر عبر المنظر الذي رجته نحو المدينة، فتخوف من رؤية برج مقنوب، وشاعت الأخبار أنني جئت المدينة لأقلبها رأساً على عقب، ووصفت الشائعة إلى أذني الحاكم. ورفض الانكشاري المحمص الحرسني مرافقتي وأنا أحمل معي معداتي، وبما أنني كنت أعتقد أنه لا يسمح لأوروبي الخروج في المدينة دون أن يرافقه انكشاري، لم أكن عملياتي الحساسة. وفي وقت لاحق، رأى عربي في رشيد مركباً مقلوباً عبر متطاري فكاد يرميه في الأرض، مما دفعني إلى توخي الحذر في أعماقي، واضطرت إلى ذلك طاماً لم أتمكن من التحدث معهم جهلي لفتهم. وحضر فلاح شريف ورزين الدراسات الملكية التي قسمت بها على الطرف الجنوبي للبلد، وبكي يرى أمراً شيراً، أدركت المنظر ناحية القرية، فهلج عند رؤيته المنار المقلوبة، وسأل خادمي عن السبب فأجابته أن الحكومة مستاءة من سكان القرية فأرسلني لأدمرها، فأصيب الرجل بالجزع وطلب مني الانتظار كي يضع زوجته وأولاده ويقره في مكان آمن، وأكد له خادمي أن أمامة ساعتين فأمرع عائدًا

إلى منزله، وأفلت عاتداً إلى الباحرة ما إن اجتازت الشمس الهاجرة. ولا ينبغي أن يفاجأ المرء من ردة فعل المسلمين إزاء أمور كهذه، إذ ما نكر في أن الأوروبيين، منذ وقت غير بعيد، كانوا يعتبرون أي شيء لا يفهمونه سحراً.

كان يتم دفن الموتى فيما مضى غرب الإسكندرية، وبجد حالياً الكثير من المدافن هناك. أما نوعية التربة بكنوعية التربة في مالطا، كلسية ولزجة معطاة بطبقة خفيفة من التراب والرمل، لذا يتبين لنا عند التجوال على ظهر جوارد أن الأرض مفترقة في بعض الأماكن وعلى مقربة من عمود بومبي، وقرب مصلى صغير، دخلت سراديب للأسموات شبيهة بتلك التي وصفتها بوكوك في هذا المكان، أصغر من التي شهدتها. وتتألف السراديب من غرفتين محمورتين في الصخر، إحداها خلف الأخرى، وللأولى ١٢ فجوة من كل جهة على مستويين، ويبلغ ارتفاع كل فجوة قدمين ونصف، أما عرصتها فتقدمان وعرضها حوالي ستة أقدام، وقد سميت كلها كمدافن، لـ ٤٨ شخصاً أما في الغرفة الثانية فلم أجد سوى ٦ فجوات، ورأيت في عمق العرفة قبالة المدخل، فجوة صغيرة في الحائط، يصل ارتفاعها إلى ٤ أقدام وعرضها إلى قدمين ونصف وعلى بعد فرسخ من الإسكندرية، نحو الغرب، ورنا سراديب أوسع وأبهى، وكان المدخل شبه مسدود بالردميات، وحتى في داخل السراديب اضطروا أحياناً إلى الزحف لتجنبها. ولقد رأينا في أعلى الممر الأول، بعض الكوى التي يمكن أن تكون قد استعملت لوضع الشموع أو القناديل منقوتة في الصخر، ثم انتقلنا إلى غرفة مربعة، لها من كل جهة باب، وبعض الزينة الهندسية البسيطة أما الباب الشمالي فيختلف عن الأبواب الأخرى لوجود باين صغير بجانبه، لكن بما أن الركائز التي تفصلها عن الأول قد دثرها الزمن، لم يعد يشكل معه سوى مدخل وحيد. وبذات الغرفة من هذه الجهة مستديرة ومنفية، ويبلغ قطرها ٢٠ قدماً وشاهدنا ثلاث غرف صغيرة إلى جانب العرفة الكبرى، وهي تشبه المقابر السورية القديمة ومقابر الملوك قرب القدس. لأن هناك فجوات في الجدران، يتم وضع الموتى فيها، وقد رسمت على اللوحة الخامسة، الحرف ب ثم انتقل من العرفة، التي ذكرتها، عبر باب آخر وممرات عدة يصعب سلوكها حالياً، إلى مساحة واسعة لمعابة، لكنها استحالَتْ واطقة بسبب كميات العمار والرمال التي ملأها والتي دخلتها من فتحات غير معروفة، ولعلهم اعتادوا تخزين القمح في هذا المكان. وبما أن هذه الساحة كبيرة جداً، سئدت بمصروف من الركائز التي يبيع حجمها ٣ أقدام مربعة، صنعت من الصخر دون أية زخرفات. وبجد هنا أيضاً العديد من الممرات والأقنية التي حفرها في الصخر، لكنها أصبحت ملجأ للحشرات المفترسة فقررت عدم المخاطرة. ربيعي التردد بصوت لربارة هذه السراديب، كما يتم إطلاق النار قبل دخولها لطرد الحيوانات المفترسة التي قد تتواجد فيها. ونجد غرب هذه السراديب مرفأ صغيراً أو خليجاً، ويبدو وكأن قصرأ قد شيد على أحد شواطئ الخليج فيما مضى، لأن بعض على الكثير من قطع الرخام التي استعملت على الأرجح لرصف الأرض أو تزيين الجدران. وشاهدنا أيضاً غرفتين حفرتهما في الصخر وكانتهما عزتاناً للسياة، لأن التزوي إليهما، يتم عمودياً عبر فتحة صغيرة، تعلو

درجات تمتد على جهتي الصحرة التي حفرت فيها بعض الأماكن لدجنوس بعيداً عن الشمس والقيظ مع التمتع بمنظر البحر كما نطالعنا أدراج طويلة أخرى حفرت في الصحرة بعضها، ولعل أهم الآثار حمامات بومبي (Pompée)، وهي مؤلفة من ثلاث غرف متحادبة ومحفورة في الصخر، ولكل غرفة باب من جهة لمراً تدخل منه مياه البحر، أما الغرف الأخيرة فهي آخرها فتحة صغيرة في الصخر تسمح للمياه بأن تسيل، وتركزت مقاعد حفرت في الصخر وسمّنت إلى سبة ارتفاع أو انحدار من مياه في هذه الأماكن، لكنني أعتقد أنها تصل إلى مستوى المقاعد، وتستتج من ذلك، أن مسوب لديه لا يخصص كثيراً قرب الإسكندرية.

ولا يتعامل الأجانب مع سكان الإسكندرية، لكن السفن التجارية القادمة من أوروبا وأفريقيا إلى مصر ترسو أمام هذه المدينة فضلاً عن تلك التي تأتي لتحميل البضائع من مصر لتسفلها إلى أفريقيا وأوروبا، مما يجعل مردود اعمارك مهماً للغاية. ويقوم في الإسكندرية العديد من التجار الأوروبيين، فضلاً عن قسطنطينوس والسيدانية وهولندا وراغور، ويمثل إنكلترا، فنصل هولندا أيضاً، أما السيد ماريون فثائب فنصل الدانمارك والسويد وتوسكانه والبندقية. ويكلم أهالي الإسكندرية ومصر عامة اللغة العربية، أما الأجانب الذين يجهلون هذه اللغة فيضمون اللغة الإيطالية، وقد صادفت في الإسكندرية وحدها مسلمين يتكلمون العربية، والدانماركية والسويدية كما لو أنهم ولدوا في تلك البلاد. وهذا ما يجعلني أميل إلى الاعتقاد بأن أهالي الإسكندرية أكثر قابلية لتعلم اللغات الأجنبية من باقي المسلمين، لكن يبدو أن أمل الكسب والربح فضلاً عن عدم التمسك بالدين يدفعهم لتعلم هذه اللغات ويستحيل أن يمارس منهم شعائر دينية بين البحارة الأوروبيين، وبارعهم من ذلك نجد إسكندرانيين يعملون لسراوت تحت أمرة قبطان مسيحي، وحين يتمكنون اللغة يكتسبون بالتالي الكثير من المال، وبسهولة.

بخصم حاكم الإسكندرية بوصاية القاهرة، وبالتالي لسلطان القسطنطينية. وتذبح القبائل العربية التي تجول في مصر مبالغ مبهمة للحاكم التركي، وهي مسألة أسياً، تنصرف كحليف للأتراك لكنها تعود وتتمرد فيصير الحاكم إلى إرسال المئات بل الآلاف من العسكر لطردها إلى داخل البلاد وحلّ إقامت في الإسكندرية، اقرب هؤلاء الرّحل من المدينة وأخذوا يرعجون الفلاحين العرب. وفي ١١ تشرين الأول/أكتوبر، ضرب لقات منهم غياهم على بعد نصف فرسخ من المدينة، وبعد الصباح، أراد قبطانان من السديّة رؤية عمود بومبي، فأوقعوهما البدو وأمروهما برفع ثيبيهما وتنسيب كل ما يملكان، فقال بهم الانكشاري الذي يرافقهما، إن هذين الأوروبيين لم يسبوا لهم وإن كان هناك حساب بينهم وبين الحاكم قليصموه، فتركوا القبطانين وشأنهما وحاولوا سلب الانكشاري الذي لم يسج منهم ولا بعد أن تمزقت ثيابه. وحين يأتي هؤلاء العرب المدينة لتسوق، يدخلونها الواحد تلو الآخر كي لا يلاحظهم السكان، لكن في ذاك اليوم، دحوا الإسكندرية بأعداد كبيرة، وجرت حادثة لم أر مثلاً في رحلاتي كلها، وقد

ذهب ما جرى من شرفة منزلنا أو من على سطحه: يقول البعض إن سكان الإسكندرية أحبث شعب في
 الأمبراطورية العثمانية، حين رأوا أعداءهم، أرادوا الانتقام من الوحش التي حلتها هؤلاء خارج المدينة،
 فيما يعتقد البعض، أن ابن أحد الشيوخ، اشترى رصاصاً وباروداً، وأراد تجربة بندقيته في المدينة، فأطلق
 النار على الملل المقابل للمتجر الذي اشترى منه. عندئذ، رجع إليه صاحب المنزل كلاماً فقط كما لو أنه
 من العامة، ورد عليه الشيخ الشاب كما لو أنه يخاطب أحد أتباعه في الصحراء، قدب الخلاف بينهم
 أولاً. وهب عرب آخرون لمساندة الشيخ، وسارع سكان المدينة بمساعدة جارهم، تجمعوا في ساحة
 كبيرة قرب منزلنا ومن الجهة التي يبيع أن يمسح العرب منها وكان يكثر للرماس بينهم أن يسحبوا
 بسهولة، لكنهم رفضوا ترك رفاقهم الراجلين، فأخذوا يكرزون بأفراسهم على جماعات الأعداء يشتبهوا،
 لكن ما أن يسحبوا حتى يرشقهم أهالي الإسكندرية بالحجارة إلى أن يصل بعضهم مسلحاً وعندما تبين
 للحرب البدو أن أهالي الإسكندرية يهفونهم عدداً، حاولوا ألا يقتلوا أحداً، لكن أعداءهم لم يعاملوهم
 بالمثل، فقتلوا فارساً رشحاً بالحجارة وآخر بالرصاص. وأخيراً، فر البدو بعد أن فقدوا خمسة عشر رجلاً
 وبعض الخياد، وأساء الإسكندريون معاملة السجناء، فزعمي اثان منهم من كثرة الضرب عدها، حاصر
 العرب المدينة، وسلبو السكان الكثير من الماشي، لكن السلام استتب بعد يومين وأعيدت العنائم إلى
 الطرفين.

الرحلة من الإسكندرية إلى القاهرة

يسلك الأوروبيون، الذين نشروا أخبار رحلاتهم من الإسكندرية إلى القاهرة، الطريق نفسه، فيقصدون رشيد أولاً ثم يتعلون إلى القاهرة، مبحرين نحو عالية النيل، وكما يؤذ السفر برأ رؤية المناطق انصرية التي لا تزال مجهولة لكننا نعلم بما عذم أن العرب الرخل يجعلون هذه الرحلة مستحيلة، إلا إذا كما لا نكرث إن تعرضنا للهب وهذا ما عانى منه لاحقاً أحد رفاقنا، وهو السيد فورسكال الذي أراد التوجه من القاهرة إلى الإسكندرية برأ، فأجبر على إعطاء اللصوص الأعراب كل ما يملك. ولم يعيدوا إليه سوى ثيابه الداخلية.

استأجروا مركباً صغيراً لتوجه من الإسكندرية إلى رشيد، وعدادنا المدينة في ٣١ تشرين الأول/أكتوبر، لكن الرياح المعاكسة لم تسمح لنا بالتقدم كثيراً، فتوقفنا في أبو قير (Abukir) على بعد أربعة فراسخ من الإسكندرية. ويوجد هـ خليج، ترمو به السفن التي لا تستطيع الوصول إلى مرفأ الإسكندرية، فصلاً عن حصن صغير فيه بعض الجنود قرب القرية ثم في ١١ تشرين الثاني/نومبر، كانت الرياح ما تزال معاكسة، بما دفع رفاقنا إلى الانضمام إلى بعض الأتراك الذين انتظرو الرياح المواتية طويلاً، ومتابعة الطريق عبر البر، فاستأجرو رزقاً صغيراً لعبور بحيرة تصب فيها مياه النيل وتصب هي في البحر المتوسط، ثم اجتازوا منطقة رملية على ظهور الحياض والحمر، ولم يحدوا فيها ما يلمت الانتباه سوى عشرة إلى اثني عشر صموذاً حجرياً، تدل على الطريق حتى رشيد وعلى الرغم من ذلك، لم يصلوا قلي بكثير، فقد هبت رياح مواتية، روصت إلى امدية في ٢ تشرين الثاني/نومبر

إن الطريق من الإسكندرية إلى رشيد خطيرة جداً في الشتاء، إذ يحرق العديد من السفن في مصب النيل، وبالرغم من أن منسوب المياه في النهر لم ينخفض كثيراً، فاعتذر قبطاننا قائلاً إن مجرى النهر يتغير غالباً في هذا المكان. ولا خوف على المصريين من هجوم من معادية عبر ساعد النهر هذا، ولذا أعتقد أن المصريين، تركوا الحصون، المحيطة بتداعى. لكن، بقي حصن على الضفة الغربية للنيل بين المصب ورشيد، وهو حصن قديم وعال، إنما مهجور كلياً، ولا يفت الأنظار فيه سوى بعض «كتابات المربه وبعض المدافع الحديدية القديمة، كما نجد حصناً صغيراً غير جدير بالاهتمام، على الضفة الشرقية للنهر.

واشتهرت مدينة رشيد، أو رزرويت كما يقول الأوروبيون، في تاريخ شبه الجزيرة العربية منذ القدم، لكن يبدو أنها اردهرت بعد تراجع التجارة في مدينة موه الواقعة على النيل بحر الشمال وهي اليوم مخزن للبصائع التي تنقل من القاهرة إلى الإسكندرية ومن الإسكندرية إلى القاهرة، لأن السفن الآتية من



القاهرة تصل حتى رشيد فقط، ويطبق لأمر نفسه على تلك المنطقة من الإسكندرية ورشيد مدينة كبيرة، تقع على الضفة الغربية للنيل، وعلى مرتفع يطل على النهر من جهة وعلى مصبه من الجهة الأخرى، وهي على خط عرض 31° ، $24'$. ويجد في جنوبها مرقباً قائماً على مرتفع، رسم من أعلاه السيد بورنسد موطراً للمدينة حفر على اللوحة السادسة وعلى مقربة من هذا المكان، قرب قرية أبي مسدور، يتمزج النيل بشكل جلي، وفي هذا المكان، تم اكتشاف ٢٠ عموداً من الرخام منقلبت إلى القاهرة، وطن الأوروبيون سقيمون في رشيد أنهم وحدوا في هذا المكان مدينة كانوبوس (Canopus) وتقول الروايات المصرية إن ساعداً كبيراً للنيل يمتد من هذه المنطقة بحر العرب، ويمر عبر بحيرات صغيرة أشربا إليها في النوحة العاشرة، ليصب أخيراً في البحر قرب «بوقير»^(٥)، لكن هذا الممر مسدود كلياً بالرمال التي تحملها الرياح بسهولة والتي تكثر في هذه المنطقة.

ونقيم في رشيد قصص لرسا والبديهة وبعض التجار الأوروبيون الذين يؤمنون بقل بصائع أصدقائهم بين القاهرة والإسكندرية، وقد أقعنا في لمدينة عند الآباء العرسيسكان وشيد الأوروبيون بتهديب وبقا سكان هذه المدينة، لذا يمكن أن نقيم فيها مدة أطول من تلك التي نخصيها في المدن المصرية الأخرى حيث لا يمتنع الأوروبيون بالاحترام اللازم. نكتا سارعنا بالوصول إلى القاهرة، ففي ٦ تشرين الثاني نوفمبر، غادرنا رشيد على متن مركب صغير ووصلنا في اليوم نفسه إلى منتود (Mentûdes)، وأجبرنا الهواء المعاكس على الإرساء هناك.

في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر مساءً، بغيا بدسة ديروط، محميت ساعتني وبرت إلى اليابسة، لأن بحر صاف ولا يُحشى عني من سكان المنطقة، وبعد مراقبة ارتفاع نجمة في الهاجرة، وجدت أن ديروط مع على خط العرض 31° ، $13'$ ، وحاولت مراراً القيام بدراسات فلكية، لكن محاولاتي باءت بالفشل، فاضطررت إلى الاكتفاء بملاحظة معرجات النيل والوقت الذي لزمنا للانتقال من مكان إلى آخر، وسوء الحظ التفت بأصحاب مراكب رفضوا إعطائي أسماء القرى أو كانوا يجهلونها، إذ ينبغي اجتياز هذه المنطقة مراراً لحفظ كافة الأسماء. وسافرنا في بعض الأحيان ليلاً، فلم نستطع رؤية القرى كلها. وبما أن المسافة بين ديروط والقاهرة أكبر من أن يضع امرء خدرة جيدة يجرى النيل من دون أن يسجل ارتفاعات القطب المختلفة، حددت خلال رحلات قصيرة قمت بها لاحقاً عندما كنت في القاهرة، موقع وردان على خط عرض 30° ، $3'$ ، وسأوردها لاحقاً بشكل أوضح في الدراسات الفلكية

(٥) ولعل السيد بريتنباخ (Breitenbach) أبهر على هذا الساعد من رشيد إلى أبو نيرة عام ١٤٨٣، وهو الذي أسس عليه الأمير رادزيفيل (Radzivil) مدة عام من القاهرة إلى الإسكندرية. ولعلهم مروا على هذا الساعد الذي يصب بحسب رواية عمر جر (Granger)، في البحيرة الواقعة قرب «أبي قير» ولم ألاحظ ساعد النهر هذا لأنني على الأرجح مررت غربه ليلاً أو إن بعض الجزر حجته عني.

في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر، مررنا أمام مدينة فوه، وقد قبلت هذه المدينة مجدها ووردها السابقين. يقال إننا يمكن أن نرى حتى اليوم الجمارك، ومزل قصص الهندية الذي أقام في هذه المدينة. ويحد بالقرب منها قناة، تتحد مع أخرى أكبر من منها رشماني، ويحد ري الحقول المجاورة، وملء خزانات المياه في الإسكندرية، تصب في البحر قرب هذه الأبنية غالباً، وكوّنت هذه الأبنية تلالاً لا يجدها في أماكن أخرى في هذا البلد المسطح. وترسو السفن، المتوجهة من رشيد ودمياط إلى القاهرة في مرفأ يولاك الذي وصلناه في ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر مساءً.

إن الرحلة ممتعة للغاية في هذا الفصل حيث يكتسي الريف ثوباً أخضر، وتحيط بالنهر القرى على الضفتين. وبالرغم من أن المنازل حفيرة بشكل عام، لأنها مبنية من الحجر غير المشوي ومسطحة من الأعلى، يحيط بها الكثير من أشجار الحبل، وتكثر أريج احصم لعميزة في هذه البلاد، مما يقتضي على لشهد العام طابعاً ممتاً وغريباً بالنسبة لأوروبي وحصل البلاد لتوه. ونشاهد قرب العديد من القرى، بقايا مدن قديمة، كما نجد قرب تيران (Terane) كميات كبيرة من الملح أو ملح البارود الذي يستفد من أماكن مختلفة، لنفذه عبر النيل، وإرساله إلى الخارج. ولم أُرَ قماشيع في هذا النهر بين رشيد والقاهرة ودمياط، ويعتقد المصريون، أن صحاباً وضع في السور في المكياس (Mikkas) قرب القاهرة يمنع هذه الحيوانات من التوجه نحو أسفل مجرى النهر.

ولكل مركب وإن اختلف قليلاً عن غيره اسم مختلف في اللغة العربية كما في اللغات الأوروبية، أما تلك التي تقتصر رحلتها على الإبحار بين الإسكندرية والقاهرة فسميرة ومسطحة الفعر. وغنما يرحلتا بين الإسكندرية ورشيد على متن مركب يحمل اسم شرم (Scherne)، وبه حجرة واسعة مريحة، وكان يتم جره حين يكون الطقس هادئاً، لذا لم تستغرق رحلتنا طويلاً. ويكثر الحديث عن قراصنة بحريون النيل، لكنهم لا يثيرون القلق، شرط أن تقوم بالحراسة بيلاً، وأن تطلق النار غالباً، كي يذكروا، أننا نحمل أسلحة نارية. وتبقى عادة مصباحاً مساءً أثناء الليل، ليعرفوا أن المركب يحمل أوروبيين، وهم يعلمون أنه يصعب مفاجئتهم وهم ينام. وفي شهر آذار/مارس من العام ١٧٦٢، تم تهيب ثلاثة مراكب على ساعد النيل هذا. ويسود الاعتقاد بأن هؤلاء القراصنة أُلْمُوا بهاجمون مركباً بأكمله، إلا إذا علموا مسبقاً بأن عدد ركابه قليل أو إذا كانوا على اتفاق مسبق مع الرئيس (Reis). وهناك أمثلة على (رياس) تقاسموا العبيد مع القراصنة، لذا ينبغي على المسافرين الاستعلام بحرفة لمن يسم أمره. ويعرف قراصنة النيل عنهم جيداً، وبما أنهم تعلموا السياحة كثافة سكان ضفاف النهر، إما لقضاء ساعات حرة في أثناء عهد اشتداد القبط أو لاجتياز النهر بأقل كلفة، يصعد هؤلاء على متن مركب حين لا يجرون على الظهور مع مراكبهم الخاصة، ويحملون كل ما تقع عليه يدهم على سطح السفينة ثم ينقلون إلى الماء مع ما سلبوه ولدينا أمثلة على أنهم هم يدخلوا المركب في بعض المرات، بل اكتفوا بمذأيهم، وسرقة الأغراض من تحت

رؤرس اليام. ويروي الأثر القصة التالية عن أحد القراصنة. خيم أحد البشوات، الذي وصل حديثاً إلى مصر، على ضفة النيل، وقام رجاله بحراسه جيداً فألقوا القبض على لص أراد مسيهم متاعهم. وعند الصباح، حضر اللص أمام البشا الذي هذده بقتله على الفور، فلم يطلب المسجين مري إذن القيام بلعبة خفة قريده، على أمل أن يبال عفو البشا على حد قوله. وسمح هذا الأخير بذلك بعد أن دفعه حب الاستصلاح إلى تعلم هذه اللعبة، عندما جمع اللص ثياب الباشا وما وحده في الخيمة بي صرة، كما ينف المصريون ثيابهم عندما يريدون الانتقال من ضعة إلى أخرى سباحة. وبعد أن قام بالعاب خفة عده، ألقى بعمه في النيل، وعز إلى الضفة الأخرى وهو يحمل غيمته على رأسه قبل أن يتمكن الأثر من جلب بنادقهم لإيقامه

رحلة دمياط والعودة إلى القاهرة

بعد أن رسمت ساعد نهر النيل المتحد من القاهرة إلى البحر الأبيض المتوسط، شمرت برعجة في رؤية الساعد الآخر الذي يمر بمحاذاة دمياط وذلك في مسيل رسم خارطة صحيحة لهذا الجزء من بلاد مصر الذي يسميه الأوروبيون اليوم الدلتا؛ هذا هو الجزء الناقص على الخارطة التي رسمها السيد نوردن لجرى النيل، بدءاً من الشلال الأول ووصولاً إلى البحر. وكنت على استعداد لسفر إلى دمياط فور وصولي إلى القاهرة ولكنني اضطررت لإرجاء هذه المهمة إلى شهر أيار/مايو من السنة القادمة لأن الطقس الماطر والقائم كان يمنعي من الرصد الجوي. ولكنني لم أدم على تأجيل الرحلة، لأنني استعدت من هذه الفترة وحاولت أن أتقرب من الشرقيين نظراً لجهلي التام بعاداتهم ولغتهم

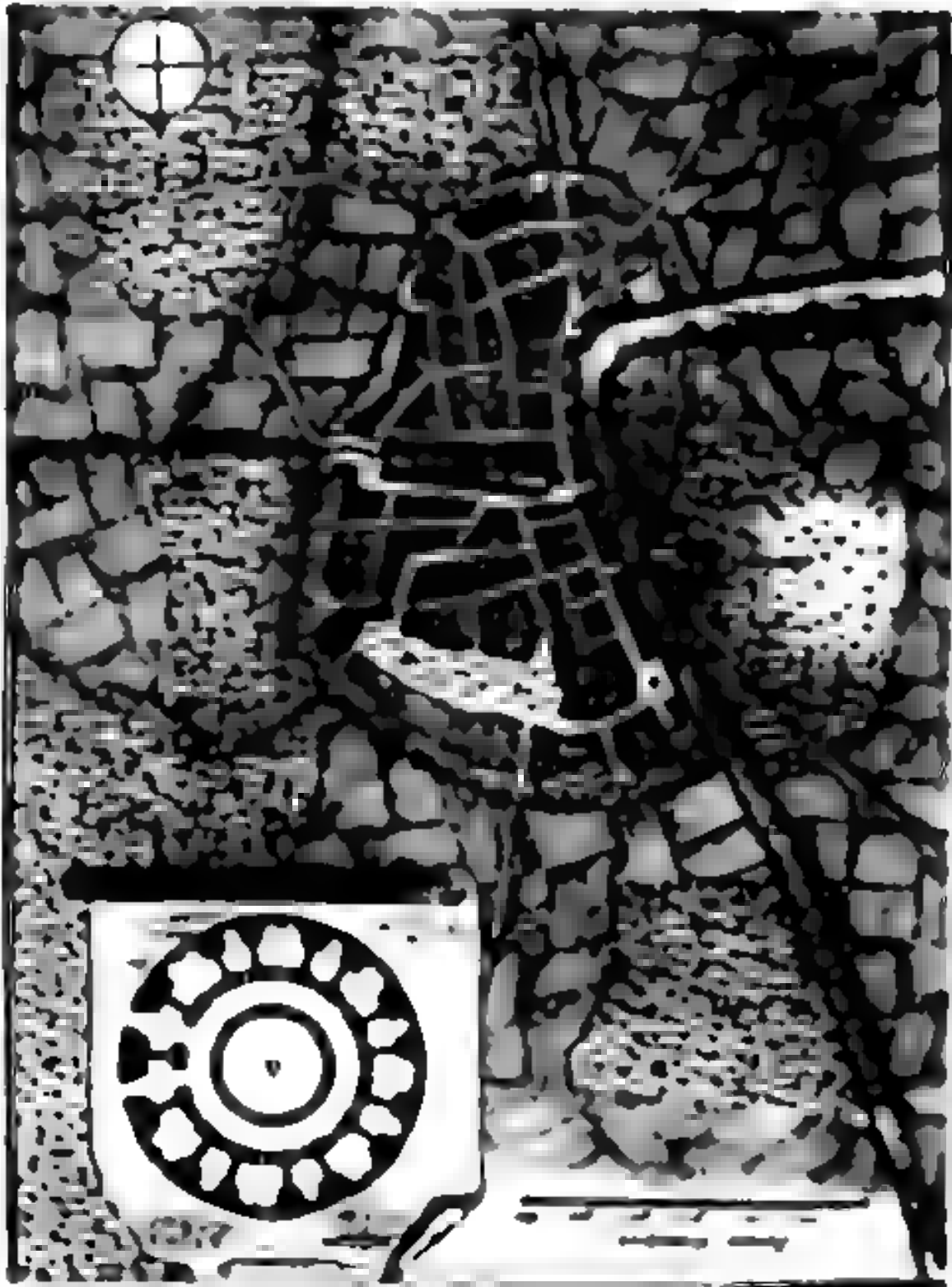
يطلب الأوروبيون الذين يسكنون في هذه البلاد الحماية من الحاكم ظناً منهم أنه من المسحجين الثقل بأمان إن لم يعط الحاكم قادة السفن والأشخاص الذين يؤجرون الجبال للسفر برّاً الأمر بالاعتناء بهم. وعالياً ما يقوم أحد خدم الحاكم باستدعاء أول ربان يصادفه أو ينتظر منه هدية؛ وحين يصم هذا الأخير أن شخصاً مرموقاً يطلب منه الاعتناء بأحد المسافرين، يخال أنه سيحني ثروة طائلة؛ فيستعمل الفرص لتقديم خدماته للشخص الموكّل إليه، ويحاول أن يمتلئ المخاطر في كل مكان، حتى يثبت شجاعته. ولطالما اعتقدت أن اللجوء إلى كبار التجار في هذه البلاد، هو الحل الأنسب في الظروف المماثلة؛ فهم يدركون أكثر من سواهم المخاطر التي قد تنعرض لها في الأماكن التي تنوي زيارتها؛ كما وأنه يصل لحسابهم قادة سفن وجنالك ينقلون لهم البضائع، ويسعون نيل حظوة لدى التجار أكثر من لدى حاكم لا يجنون منه شيئاً. ومن الصعب رسم خارطة صحيحة لبلد غريب، خاصة إن كان المرشد لا يعرف أسماء القرى التي يمر بها، أو أنه لا يريد إعطاء أسمائها بترجالة. ولقد كنت أبحث عن ربان قطع عدة مرات الطريق المؤدية إلى دمياط، ويعرف القرى جيداً ولا يحيد السفر ليلاً، حتى تناح لي فرصة مراقبة مواقع القرى ونعرجات النيل. فطلبت من أحد التجار أن يعطيني موعد سفر الربان الذي يتتبع بالصفات المطلوبة، فأوصاني بربان ماهر للغاية، أما السيد بورانقيد الذي لم يفادر القاهرة إلا لماماً خلال إقامته فيها فقرر مرافقتي في هذه الرحلة. فاستخدما انكشارياً للسهر على راحتنا وعادماً آخر لتحضير الطعام لنا، وعدنا إلى بولاق في ٣٠ نيسان/أبريل ١٧٦٢. كان المركب الصغير الذي نقلنا إلى دمياط يحمل اسم كنج، وتتوافر فيه كافة وسائل الراحة التي نعلم بها في المركب الذي سافرنا به إلى رشيد.

وفي صباح الأول من أيار/مايو عادنا بولاق ولم أستفق إلا بعد أن قطعنا عدة أميال ولكنني لم يقنني

شيء لأسى اجتزت هذه الطريق من قبل وعند الطرف الجنوبي لندلتنا شاهداً قصر القاهرة. ويطلق العرب على هذه البقعة اسم بطن البقرة؛ وهم يؤمنون بالأسطورة القديمة التي تقول إنه في زمن الوثنيين، عثر في هذه البقعة، على تمثال ضخيم، على شكل بقرة. ويمتد النيل بسعته وكثرة جزره بدءاً من القاهرة ووصولاً إلى الدلتا. ويؤدي ارتفاع منسوب مياه النهر إلى جرف هذه الجزر من مكان إلى آخر؛ ولما كانت مياه النهر تملو وتتخفّض جداً في هذه البقعة، لاحظنا أن عدد الحمر قد زاد عن شهر تشرين الثاني/نوفمبر؛ وذلك لأن منسوب المياه ينخفض في شهر أيار/مايو. وكما نشهد في القرى المحاذية لنهر النيل، حصر مهنتهم لإعلام الناس بوصول بواخر القراصنة. لكن سكان بعض القرى كانوا يرسلون مراكبهم ليلاً، وكل من يطلب حمايتهم يعرض للسلب. في ذلك اليوم، ألقيا المرساة قرب تبيل (Tabble) لأن الزبان كان يخشى القرى الأخرى؛ فأمرت المزرعة لأحمد ارتفاع القطب؛ وكني لاحظت أن الدقران مكسور. فأعدت الأداة إلى مكانها دون أن أتمكن من تدوين أي ملاحظة.

عادنا تبيل صباح الثاني من أيار/مايو؛ لكن الرياح القوية أرغمتنا على الإرساء في «مصدر الشادر» ولما كنت قد أصلحت آتني، استطعت بصعوبة تحديد بعد الشمس عن خط لمراقبة العمودي حتى تمكس من تقدير بعد هذه البلدة عن خط العرض. ومع اقتراب المغرب، بلغنا «بيت العطار» ورغم هدوء الرياح مع حلول المساء، عادت لتهب بعد نصف ساعة من الجهة الجنوبية - «الرية» حاملة معها عواصف قوية، وغباراً ورمالاً. ولما كانت مراكب النيل مزودة بأشرعة كبيرة لا يحسن العادة التحكم بها، فعالب ما تؤدي العواصف القوية إلى قلبها، وفضلنا بالتالي أن نلقي بالمرساة في تلك الساعة.

عند الساعة الخامسة من صباح الثالث من أيار/مايو، ناهنا طريقنا وبنينا قرية «زفتة»، حيث رصدنا ظهوراً ارتفاع الشمس. ويتبين لي أن القرية المذكورة تبعد عن خط العرض ٣٠ دقيقة و١٢ ثانية. وتبعد بلدة زفتة عن ساعد النيل، الممتد من القاهرة إلى رشيد ٦ فراسخ وهي تقع بين القاهرة ودمياط، وفقاً لحسابات رهبنة السفن. يحكم هذه البلدة والي من القسطنطينية، يقيم في القاهرة حيث عين قائم مقام له؛ ويجد فيها ٣ جوامع وقبة مبنية على قبر سي مقدسه الناس. ويريد عدد منازل الأقباط فيها على ٣٠٠ منزل؛ وقد وجهوا لي دعوة لزيارة كنيستهم المتداعية. تغطي أرض هذا المنبع حصى قدرة تتكاثر فيها البراعم من شدة الحر وتجد فيه عدداً كبيراً من الحشرات التي يستند عليها الأقباط خلال إقامة شعائهم؛ ويظن الأوروبيون أن هذا الأمر يسيء لزينة الكنيسة حامية وأن لرحلات الأقباط قبيحة لمغاية؛ فقد شاهدت في إحدى كنائس مصر العتيقة لوحة ليسوع المسيح ومريم العذراء وبعض القديسين، وهم يمتطون حصناً. ولعل الأقباط يرون أن الحسب لا تتلاءم مع هذه الشخصيات المقدسة رغم أنه يحظر عليهم ركوب حواب أخرى في القاهرة. تتميز كنيسة زفتة بعتبة بابها التي كانت قديماً تمثالاً لأحد آلهة الإغريق. تقع مدينة ميت عمر على الضفة الشرقية للنيل قبالة مدينة زفتة ويجد فيها ٦ جوامع وكنيسة للأقباط. وبالرغم من



أن جميع منارات الجوامع مستديرة الشكل، لاحظت أن إحدى منارات ميت عمر مربعة، مما يدعوا للظن أنها كانت قديماً جرس كنيسة.

مما لا شك فيه أن السكون الذي يسود عند المساء، يساعد البواخر القادمة من القاهرة على الإبحار ليلاً، دون أن يحشوا ردة فعل سكان القرى المحاذية للنيل، وخاصة وأن الرياح الشمالية تهب في النهار؛ وفي ذلك اليوم حالت الرياح العوية دون متابعة طريقنا، لكن بعد أن هدأت ليلاً عادونا زحمة، ترفقنا باخرتان أخريان. وما كدنا نقطع مسافة صغيرة، حتى رأينا سفينة للقراصنة متوجهة نحونا؛ لكنها بعت وجهتها بعد أن أطفقنا النار عليها وشاهدنا لاحقاً، في ظل الأشجار، وخلف الجزر الصغيرة، زوارق مختلفة، ظن الارتان أنها تابعة للقراصنة؛ ولكن لم تجازف أي منها بقطع العريق عينا. وفي اليوم التالي، رأينا عوامات محملة بالأواني والأباريق الفخارية، من مصر العليا. وفي سهل صنع عوامة بمائلة تعلق الأواني وتربط إلى جانب بعضها تحت عشب النجيل الخفيف الوزن، وتراوح طولها بين ٤٠ و ٧٠ قدماً وعرضها بين ربع ونصف قدم؛ يقودها ٦ أو ٧ رجاء، يستعملون أعصان الشجر لدفعها، ويحملون عليها كل ما يلزم تحضير الطعام في تدبير أمورهم. ويقال إنهم يقنون في الأواني الفخارية بصائح عالية الثمن. لكن لا يبدو لي ذلك مسيحياً، لأن المياه تنسرب إلى الأواني وتلف كل ما فيها. والجدير ذكره أنه هؤلاء الرجال يستعملون (النقافة) سدفاع عن أنفسهم ضد القراصنة وبعد أن يبيعوا الأواني الفخارية والعوامة، يعودون إلى مصر العليا مشياً على الأقدام. وفي ذلك النهار، لم يلمت نظري إلا بلدة المنصورة حيث سجن لويس الحادي عشر. ومع أنها لا تبدو أكبر حجماً من دمياط إلا أنني لم أستطع مشاهدتها إلا عند مرورنا بقربها. فقد بني على هذه الضفة من النيل، سور كبير، يمتد حتى بحيرة بهر، وهذا السور يحول دون تدفق المياه بكثرة لري الأرياف المجاورة القبية بالأرز. ثم عند وصولنا إلى المنصورة، هبت الرياح الشمالية وأجبرتنا على بلوغ الشاطئ. فاعتصم هذه الفرصة لتحديد ارتفاع القطب على بعد نصف ميل من البلدة الشمالية - الشمالية الشرقية؛ تبين لي أن المنصورة تقع على بعد ٣١ دقيقة و ٣ ثوان من خط العرض. وفي الخامس من أيار/مايو أنهينا رحلتنا إلى دمياط. وبم يلمت اتجاهنا في الطريق، سوى ٢٠ مركباً، محملة بالنخل؛ وكان متحجق المنصورة قد حط رحاله مع ٤٠ هيداً وحادماً بين قريتي بنوي وكفر بدوي بعية تمصيل أرياح النخل؛ إذ كان كل مركب يحمل ٢٠٠ خلية نخل، مما يعني أن العشرين مركباً كانت تنقل ٤٠٠٠ خلية، يبلغ طول كل واحدة منها ثلاث أقدام، وتطرها قدم واحد

مما لا شك فيه أن موقع بلدة دمياط ملائم للتجارة، شأنه في ذلك شأن بلدة رشيد؛ فالصائع الآتية من سوريا والبلدان المجاورة تمر في دمياط حتى تنقل بعدها إلى القاهرة. وفي المقابل لا نجد فيها تجاراً أو كهنة أوروبيين، رغم أنها تضم بعض الموارنة والمسيحيين الشرقيين الذين ارتبطوا بالكنيسة الرومانية، ويحكى أنه كان يقيم قديماً في دمياط قنصل وتجار فرسيون؛ لكن بعد أن لاحظ السكان تعلق الأوروبيين

بمساء المسلمين، قرروا قتلهم جميعاً، ومنذ ذلك الحين، مع ملك مرسا رحايا من الذهب إليها فكانوا يتدبرون مفرصين عنهم للاهتمام بمصالحهم في تلك البلدة، أو يجرّون تبادلاتهم التجارية على سطح السفن. غير أنني قابلت رباتين فرنسيين مقيمين في تلك البلدة؛ وكان يبدو عنيهما الخوف من السكان الذين لم يسمو الحملات الصليبية، ولا الخادنة التي أنبت على ذكرها أنفاً. وأكّدا لي أنهما لم يتجرأ على إخبار سفير فرنسا في القسطنطينية عن سوء معاملة السكان لهما، كما وأنهما لا يتوقمان أن يساعدهما أحد. ولاحظت أن هذين الرباتين يتمران عمامة على رأسيهما ويرتديان الأرياء التركية، ويستعملان اللغة المحكية في المنطقة، حتى لا يحاول الرعايا إسائة معاملتهما. كنت أحمل رسالتي توصية إلى تاجر إغريقي وآخر إيطالي، كان قديماً تاجراً معتمد في القاعدة؛ وبعد أن عرق في الديون، لم يتجرأ على العودة إلى بلاده وفضل اعتناق الإسلام. وكان يأمل أن يجمع ثروة طائلة في مصر خاصة وأن واحداً من كبار البهاوات في القاهرة، تكفل بحمايته. ولكن بعد أن فقد صديقه هذا حظوته اكتفى الإيطالي بأنه بشغل وظيفته في جمارك دمياط. ويقال إنه كان يعيش حياة مترفة من جراء تعامله مع الأوروبيين؛ فهو يسهل عليهم عملية نقل البضائع التي يرسلونها عبر دمياط أو يرعى مصالحهم في هذه البلدة ورغم اعتناقه الإسلام منذ عدة سنوات، لم يكف عن محاملة الأوروبيين عندما أن ارتدى عن الدين يكرهون الأوروبيين أكثر من المسلمين الأصليين.

يتبين لي من خلال الرصد الجوي أن بلدة دمياط تقع على بعد ربع ميل شمالي رشيد وعلى بعد ميلين من البحر الأبيض المتوسط، أي إنها أبعد من رشيد الواقعة على الضفة الأخرى لليل. واستناداً إلى تقرير أحد الربنة الذي يرئد عالياً السواحل المحتلة بين دمياط ورشيد، يقع رأس بروس على بعد ميل ونصف الميل شمالاً. ومنذ قتره وجيزه، ارتفع عدد اللصوص في هذه المنطقة، وبانت طريقها مفعوفة بالمخاطر فس اتجهت العربية للهند، بدءاً من دمياط شمالاً، وصولاً إلى مصب النيل، ورأس بروس غرباً، ثمند طبقة رقيقة من الرمال، تجعل الأرض قاحلة. لم أر أثراً لأسوار مدينة دمياط؛ ولعل أحداً لم يحاول إعادة بنائها، بعد أن دمرت عام ٦٤٨ للهجرة استناداً لأقوال أبي الفدا. ولكنني استطعت رؤية المكان الذي سبّه به مجرى نهر النيل بسلسلة؛ فعلى الضفة الشمالية داخل البلدة، نجد برجاً قديماً حيث لا يريد عرض النهر على ١٠٠ قدم، كما ونجد على الضفة العربية، أنقاض برج مماثل مدرّ كلاً

وبما أنني لم أقض وقتاً طويلاً في دمياط، لم أتمكن من تحديد مواقع شوارع هذه المدينة كلها. وبعد أن قست طول السوق، الذي يحترق البلدة كلها، وطول السور وضعت الخارطة التي نراها على اللوحة ٧. كما ورسم السيد برانبيد منظرًا عاماً لبلدة (راجعوا اللوحة ٨). وتكثر في المناطق المحيطة بدمياط قنوات المياه المخصصة لري حقول الأرز فيها وتشير الأحرف الموصغة على خارطة مدينة دمياط إلى مواقع الأماكن التالية (١) برج قديم مرود بنقوش عربية، (خارطة الطابق الثاني للبرج)، (٢) بقايا قصر نديم، (٣)

كنيسة حزلها أنفسهم إلى جامع؛ ويقال إنها تضم لوحات من عهد الإفرنج (١) مسلسل القنطرة (٥) مقار، (٦) جامع بناء السلطان، (٧) انشبة، (٨) مكان دفع القواب، (٩) مظقة شيخ عمار، (١٠) دير الإفرنج، (١١) الحمامك، (١٢) الجامع الكبير.

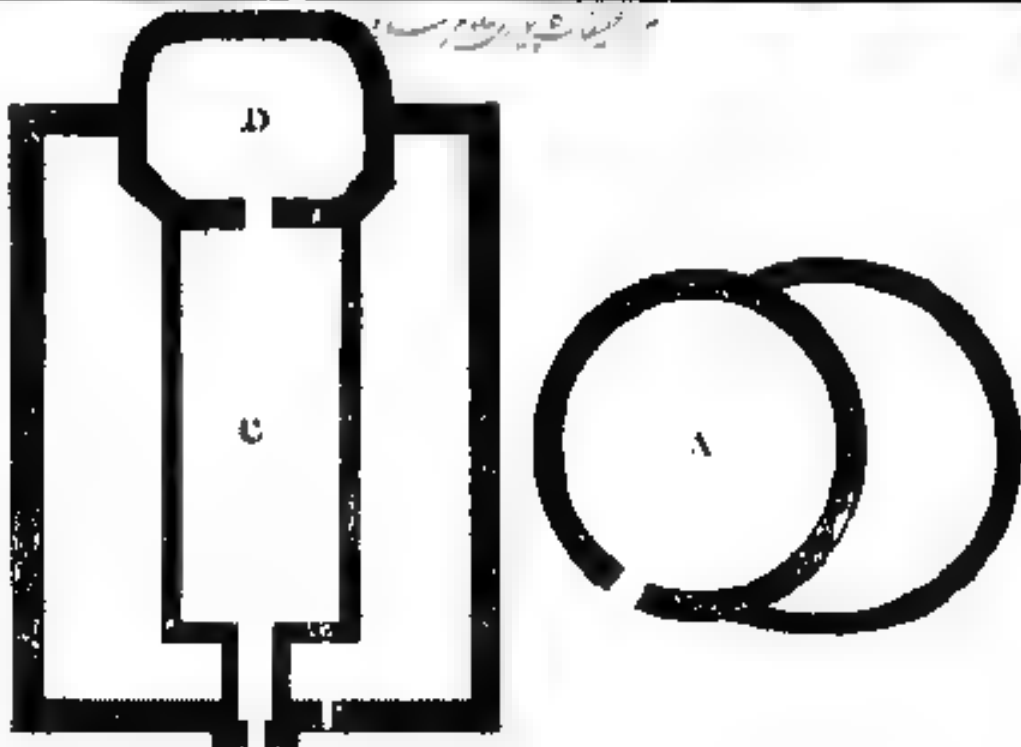
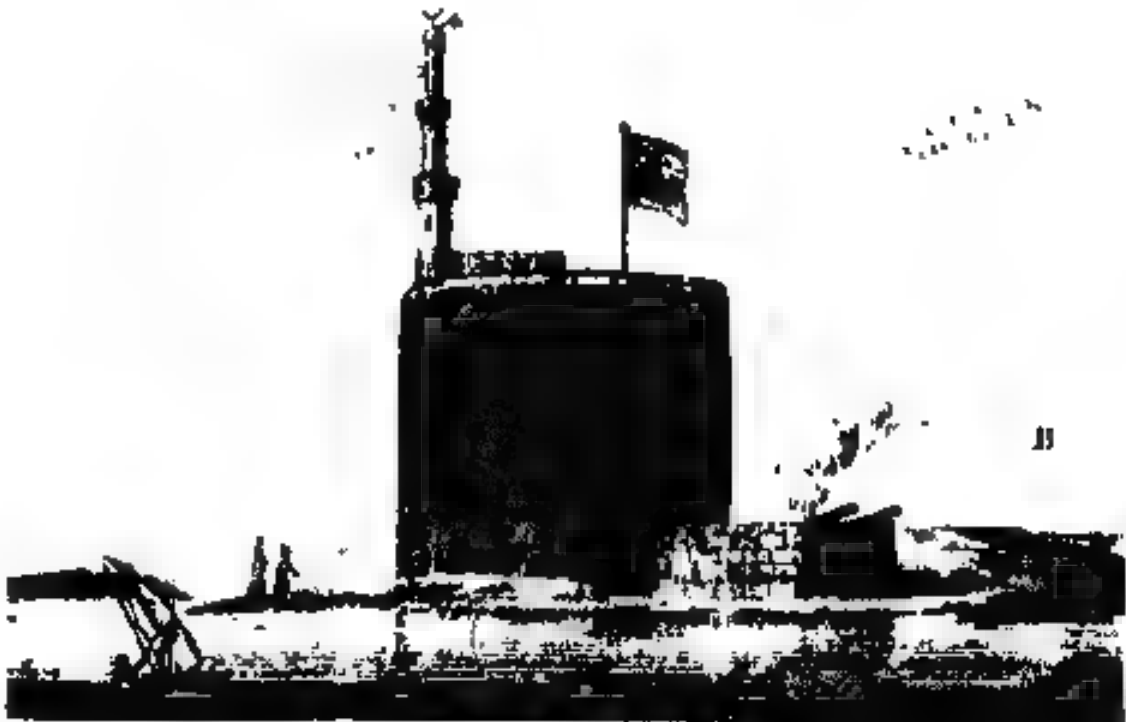


ولمت برحلة صغيرة من دمياط إلى مصب النيل أو بوجار (Boghar) وحللاً لمصب رشيد، لا يشكر هذا المصب عتراً على البوارج، إذ تكثر فيه الأرصعة الرسمية واسارات ورواري الإنقاذ، معدة لإغاثة البحارة الضحايا. تمتاز هذا المصب بوجار ضخمة متوجهة نحو البلدة؛ لكن نظراً لانخفاض منسوب المياه على هذا الساحل، تلقي معظمها الرساة على بعد مول عن اليابسة. تمثل اللوحة ٩ حصناً قديماً يبعد عن البحر ٦٠٠ قدم. وقد لست هذه المسافة بدقة حتى يتمكن الرحالة للباحثون من تحديد بُعد مصر عن البحر. ويبلغ طول هذا الحصن ٥٨ قدماً وعرضه ٢٣. ويرسم عمادي أنه قرأ تحت النقوش على بوابة الحصن ١٦٩٩.

ولم يذكره أن لا أحد يجرى على السكك في هذا الحصن عتراً من لأشباح؛ فعد الثرائنا منه، راح المسجون يتون السنوات. وعند وصولنا، تلوا صلاة أخرى قرب انداع الصخرة؛ فاضطرت للعودة معهم إلى المركب دون أن أشهد الجزء الداخلي من الحصن، كانت هذه المرة الأولى التي أشاهد فيها مسجونين محاطين من الأشباح. ولم أنجرأ على ذكر الموضوع أمام العرب. ونرى غربي النيل، نحو الجنوب، على بعد ١٥٠ قدماً عن الساحل حصناً جديداً مأهولاً، من العام ١١١٦ أي إنه سم يمس على وجوده ٥٩ سنة قسرية. يخلط هذا البناء شكلاً مستدير كما يدر على الخارطة أوب عن اللوحة ٩. ونرى عند الأسفل قاعدة مستديرة فيها مدفعان برونزيان، وثلاثة حديدية كما ولجم خمسة مدافع صغيرة في الطبقة الثانية من البنى، وإن تقدمنا أكثر نحو الجنوب نرى برجاً قديماً متداعياً، مأهولاً بالسكان. أما في الجهة الشرقية، قرب قرية القولي، نرى قواعد مدنية مهدمة طولها ٢٠ قدماً، ولها مدفع قديم مكسور، وآخر أكله الصفا.

أثيت على ذكر بحيرة باجر، في وصف شبه الجزيرة العربية، تمتد هذه البحيرة من دمياط شرقاً وصولاً إلى غسا (Ghassa) نشاهد على جمر هذه البحيرة بقايا بلدات قديمة. وقبل سنوات خلت، لدم مضيئاً لربان فرنسي كتاباً مطبوعاً بالأحرف الأوروبية، وحجارة من هذه الجزر، موضوعة في صندوق حديدي؛ وحين أقول إن الكتاب مطبوع بأحرف أوروبية، ألتصد أنها أحرف غريبة عن مصيئنا، لأن الشرقيين يعتبرون كل حرف أو نقش لا يهسون من أصل أرربي. وشاهد على مقربة من المتوسط، قرب قرية معارد، أنقاض بلدة ستانوس أو تنوس، التي تحمل اسمها إحدى مصبات النيل. سمعت الناس يتحدثون عن أنقاض هذه البلدة، ولكن لم يرها أحد منهم. وعرفت أنه يمكننا السفر براً إلى دمياط والعودة منها بعد ثلاثة أيام. فمع ارتفاع عدد اللصوص، باتت هذه الطريق محفوفة بالخطار أكثر من طريق باجر؛ فسكان هذه المنطقة فقراء ولا يجهلون أن يعود الرحالة بحفاليهم كلها، وتنف في الجهة الجنوبية غرب دمياط بلدة ديشي حيث يصنع النسيج، ولا تزال حتى اليوم بلدة لباس ضيقة عن التعريف، ولكن أحداً لم يحدثني عن مولها؛ وهي تضم عدداً وارباً من النصب القديمة^(٥)

(٥) شاهد حراجر بقايا تنوس ويط على بعد ستة فراسخ شرقي للقاهرة.



كنت أتمنى أن أشاهد بقايا تسوس قبل مغادرة هذه المنطقة، فضلاً عن زيارة ديمشلي ومصل،
ولرور ياحر للذهاب إلى المصورة ولكنني أحاطر بخسارة معداتي، وخاصة وأنها زيارات ثائرة،
وعلياً التوجه لاحقاً إلى شبه الجزيرة، التي تشكل أساس رحلت. لذلك غادرت والسيد بورانيد
ديباط في ١٢ أيار/مايو. ولما كنت قد رصدت ارتفاع القطب خلال توجهي إلى ديباط، اكتفيت
في طريق العودة، بمشاهدة تمرجات النين، ونقل أسماء القرى والمسافة التي تفصل بينها بنية التحقق
من ملاحظاتي الأولى. والجدير ذكره أن الرياح أضعفت كثيراً في طريق العودة، حتى أننا بلعنا القاهرة
في ١٥ أيار/مايو.

ملاحظات حول سير الرحلة من رشيد إلى القاهرة ودمياط، استناداً إلى الخارطة على اللوحة ١.

يتحدث التاريخ القديم عن بلاد مصر الشهيرة المكتظة بالسكان؛ ويأتي التاريخ الشرقي على ذكرها عدة مرات. لكن علماء الجغرافيا يسعون إلى دراسة بيئتها الحالية، بعبء مهم الوصف الذي أعطاه المؤرخون القديمي لها. فما لا شك فيه أنه تتوافر لديها خرائط مفصلة ومرسومة بدقة؛ لكنني لا أظن أن واضعها استطاع الاعتماد دوماً على الأبحاث التي مستعملوها لتتبع عملهم ومن يرب كل الأشخاص الذين زاروا مصر، لم يستطع أحد رسم خرائط دقيقة لها مثل الأب سيكر والكابتن نوردن؛ ولكن مع منح الفرصة لأي منهما للتحقق من صحتها من خلال الرصد الجوي عبر أن مراقبة خطوط العرس وخاصة في مصر، تساعد على وضع خرائط جغرافية صحيحة؛ إذ تقع الأماكن الأكثر أهمية على صفاة النيل، أو على مقربة منه، وهو يجري بشكل مستقيم من الجنوب إلى الشمال ويمكننا بالتالي قياس المسافة التي تنصل نقرى بعضها عن بعض انطلاقاً من خطوط العرس المختلفة.

ولا يمكننا ألا نطلب من الرحالة الذي لا يقيم في مصر إلا لفترة وجيزة أن يضع خارطة للبلاد، ولا أظنه يقدم لنا معروفاً بأن يفلح خارطة قديمة ويدخل عليها بعض التعديلات. وفي هذا الإطار وصفت خارطة لسير رحلتي، وأشرت إلى ابتداء التي استعملتها في رسمها وخلافاً للخرائط الأخرى، لا نجدون عليها عدداً كبيراً من القنات والأنهر والبحيرات الصغيرة إن الشرف الإدرسي يتحدث عن أنهر طويلة، لا تزال موجودة حتى يومنا هذا، كما وأكد لي المصريون أن بلادهم تحوي عدداً كبيراً من القنات والبحيرات الصغيرة، التي تظهر عند ارتفاع منسوب مياه النيل؛ بيد أنني لم أشاهد ذلك في الأماكن التي رأيته، بأمر عيني أو تلك التي حدثني عنها أشخاص يعرفون البلاد جيداً؛ فلو حاول الرحالة كنهم أن يحددوا حدودي، لاستطعنا أن نقدر الخدمات التي يقدمها كل واحد منهم بعبء جغرافية الحديث. ربي أفتخر بعيني أنني استطعت أن أحدد بدقة مجرى الفرعين الأساسيين لنيل، من القاهرة إلى المتوسط، فضلاً عن موقع البساتين والقرى المحيطة له. ولعن الرحالة الآخرون قد يرورون المطلق المصرية الأخرى ويرسمون خرائط مماثلة عن سير رحلاتهم.

إنني أتمنى على الأوروبيين كافة الذين يروون البلاد أن يكسبوا صداقة الأناس الذين يمشون أسماء سر أو محاسين لدى البهاوا، لأنني واثق بكل الثقة أنه من الصعب الحصول على لوائح كاملة بأسماء

القرى التي تخضع لنفوذ أربابهم. مكسي لم أحاول سلوك هذه الدرب، وأظن أنكم ستعدرونني لأن مغارطة مدينة القاهرة أحدثت الكثير من وقتي فضلاً عن أنني لم أجرو على توطيد علاقاتي بسكان البلاد والاستعلام عن الأمور كلها. وما لا شك فيه أن الرسم المعطل لمصر الحديثة يساعد الرحالة على تقديم وصف جغرافي دقيق لبعض المناطق وأظن أن بعض علماء أوروبا سيجمعون هذه التفاصيل لرسم خرائط كاملة لهذا البلد.

لاحظت في مقدمة كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية» أنه من الصعب كتابة أسماء مدن والقرى بلغة واحدة إن كان يلفظها أشخاص يستعملون لهجة مختلفة، ولا يحسنون لغتهم الأم، لهذا السبب، كتبت أسماء القرى نفسها بطريقة مختلفة، معتمداً بذلك على لفظ عدة أشخاص. وإليكم ما فعلته للحصول على الأسماء العربية لقرى ومدن في مصر، بعد أن دونتها كتبها خلال الرحلة باللغة الأجنبية، طلبت من لعوي عربي في القاهرة أن يكتبها لي بالعربية وفقاً للسان القوم الذين رافقوني. وإني لعجوز بنفسني لأنني استطعت كتابتها بلغة عربية صحيحة، حتى يتمكن كل أوروبي من أي بلد كان أن يكتبها بلغة الأصلية. وعلى كل شخص يحمل لائحة بأسماء المدن انصرية أن يترجمها على نفسه ليعد كتابتها بالأحرف الأوروبية. وغالباً ما يكتب العرب الأسماء العربية المألوفة عندهم من دون نقادها أما الأقباط فيبدلون مكان النقط أو يتسبون وضعها. لهذا السبب يتعدى على الأجبي قراءتها بشكل صحيح، كما يتعدى على المترجم كتابة الأسماء بشكل لائق وسأذكر فيما يلي الأسماء الواردة في كتاب «جغرافية السودان»، علماً أن معظمها مشوه للغاية حتى أن الأشخاص الذين لا يحسنون كتابة العربية لن يتمكنوا أبداً من التعرف عليها.

الأصل	الترجمة	اللاتيني
دمياط	Dumot	Damiat ou Dumot
فارسكور	Farskor	FarskuYr
سرساج	Sersasah	Sersasah
كشكاش	Sersas	Scherinka
طرخا	Tucha	Talcha
أوبى البحر	Nase el bagiar	Nasat el bahha
جوجور	Guger	Ghaghar
مبة عسان	Maniat Ossa	Met Ossa
الياب	Thobama	Ri tharte
مدينة مسانور	La Ville Semesud	SamanuYd

الأصل	الترجمة	اللاتيني
مسنود	Senenud	Mist Samonu'ud
جراح	Gerah	Djerihh
أبصار	Butar	Abarr
بها	Banna	Bemba
منه بدر	Manua' Bedr	Miet beddre habue
شبرا	Sabra	Schu'Yhbra el Semem
سبات	Sanbat	Sunbad
دمشقي	Damass	Demou
عنة أسا	Maniat Anna	Miet Ischne
حانوت	Hanout	Hannu'ud
دقرون	Dacartus	Dacodux
منه وقي	Maniat Racaba	Sisto
منه غير	Maniat Amr	Mist GHrammer
صحرست	Sahorast	Sáhradsj
منه الحرون	Maniat el Haran	Mist el haru'Yn
مذود	Vazura	Wassu'Yra
منه	Manba	Senih
منه الحروي	Maniat el Hauce	Miet el Housem
حجر	Hangar	Gangara
أزيت	Anzit	Atrb
بها المال	Banna el Asal	benba assel
جدة	Gedua	Dighu
صحرست	Samarice	Smoharif
أبصر	Aniula	Abu Tauski
منه ليطار	Maniet el Altar	Miet al Altar
منه ليطار	Maniat el Aadi	El a'Yif
الصخرية	Satebin	Salhne
خطا	Trot	Tent
روية	Rafina	Sufetu

ملاحظات حول سير الرحلة من رشيد إلى القاهرة ودمياط، استناداً إلى الخارطة على اللوحة ١٠

الأصل	الترجمة	لاحي
شلفان	Selfan	Schafakayn
أمرقانة	Herzanie	Chorakanie
شوس	Tisnak	BauYa
شيرة	Scabra	SchuYbba
أله ديتار	Om dugar	Om dugar
درونة	Dhorua	Daruae
الأخصاص	Achsa	Ul achsa
ستيمون	Saudum	SenduYm
عرا	Fim	Fue
ميج	Malig	Mchaljet Malik
المريش	Horus	DajaYreich

ولعلني لم أرى القرى حين أدرجت أسماء المدن وقرى الولاية على طرفي النيل، في وصف سير رحلتي من الرشيد إلى القاهرة، ومن القاهرة إلى دمياط، فجمعت بالتالي هذه الأسماء، ونهرجات النهر في قسم منعزل، حتى يتمكن الجميع من مراجعتها وقد يظن البعض أن إدراج اللائحة برمتها، غير ضروري، خاصة وأن بعض القرى متلاصقة للغاية، وذكرها كلها يتعصب خارطة أكبر. وسأني أيضاً على ذكر رحلة السيد فورسكال من القاهرة إلى الإسكندرية. وأظن أنه لي كامل الحق في ذلك، لآسي أعطيت صديقي هذا بوصلة قيل انطلانه، ورجوته أن يدون لي أسماء القرى التي يمر بها. ويحدد لي مواقعها؛ وعند عودته سألني هذه اللائحة بنفسه.

وبما لا شك فيه أنا أستطيع الاستفادة من هذه المعلومات كلها، لرسم خرائط محدّدة، إن جمعتنا معلومات وافرة عن مصر السفلى.

خلفي النيل	طرفي النيل	نهرجات النهر	أسماء المدن والقرى الواقعة على الضفة النيل من دمياط إلى القاهرة
			القولبي، بلدة صغيرة
١			جزيرة البرج، عند مها مركز جندرك
٢			الشيخ درعان،
٣			جزيرة كروية
٤			جزيرة النجم
٥			دمياط

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى

شرفى النيل	غربي النيل	ممرجات النهر	اسمه للثمن والقرى الواقعة على حفة النيل من دمياط إلى القاهرة.
	١		سكافيه
٧		جنوب - غرب	الميه: تكثر فيها مصانع الخشب
٨			السمره: تكثر فيها خنايا مخصصه إلى بحر بخره و كذلك يكثر فيها الملح الذي ينقل إلى قنطرة الجبل
٩		شمال - غرب	الغاديه
١٠		جنوب - غرب	كفر ريح
	٢	جنوب - جنوب - غرب	كفر البطيخ: على مفرقة من النيل
١١		غرب - جنوب - غرب	بستان: يكثر فيها السمره ربيعه ساعه من بخر
١٢		غرب - جنوب - غرب	حوالي
١٣		غرب	سب المنيع: على بعد مرسح من بخر
	٣	جنوب	كفر يوسف
١٤		جنوب - غرب	البيد
١٥			كفر أبو عصي
	٤		كفر سليمان
١٦		جنوب - غرب	طاب سكون
١٧			كفر العرب
١٨		جنوبي - جنوبي - عربي	كفر الشناوي
١٩		غربي	شرايا
	٥		سب أبو غالب
	٦	جنوبي - جنوبي - غربي	كفر سب أبو غالب
	٧	جنوبي - جنوبي - شرقي	السواك
٢		جنوبي - جنوبي - غربي	بريه
٢		عربي - جنوبي	دقيسلي
٢١			السرو قلعه صغيره
	٩	عربي - شمالي - جنوبي	كفر النرجس القديم
	١	جنوبي	كفر النرجس الجديد
	١١	جنوبي - جنوبي - شرقي	المنصوره
٢٢			أحمد البحري
٢٤		عربي	الزرقه
	١١	عربي - جنوبي	كفر شيخ عطيه
٢٥		عربي - جنوبي	سب الخوي

ملاحظات حول سير الرحلة من رشيد إلى القاهرة ودمياط، استناداً إلى الخارطة على اللوحة ١٠

شوقي النيل	عربي النيل	موجات النهر	أسماء المدن والقري الواقعة على صفا النيل من دميطة إلى القاهرة
٢٦			قرا عرجه
٢٧			الزعايزة
٢٨			سوم ساج
	١٢	غربي	المعمودة
٢٩			بساط
	١٤		كوكا
٣٠			محلة مشاق
	١٥		سوين
	١٦	جنوبي	كفر المظنين
٣١		شمالي - غربي - شمالي	مبة ترقيس
	١٧	غربي	كفر القديوس
	١٨	جنوبي	بانرا
٣٢		شرقي	بلاوي
٣٣		غربي	كفر بقويها نجد فيها جزيرة صخرة تتأرجح حولها سكان هاتين البلدتين
	١٩	جنوبي	دهاسط
٣٤		جنوبي - شرقي	كفر البرامون
٣٥		جنوبي - جنوبي - غربي	روصون
	٢٠		الطويلة
٣٦			حديثة
	٢١		شرقياس
٣٧			بقالا
	٢٢		بيت حنظل
٣٨			فلنجيل
٣٩		غربي	دمعرونة
	٢٣		بالا
	٢٤	غربي - جنوبي - غربي	كوكرة يقال إنه عيان كمية كبيرة من النقص تحت الأرض ونجد فيها أيضاً نقاش مدينة قديمة.
	٢٥	جنوبي - غربي	بيت الورقا
٤٠			سبع ومطاد الموجه
٤١		جنوبي	بيت بلوي شميس

شرق النيل	غرب النيل	مخرجات النهر	أسماء المدن والقرى الواقعة على ضفة النيل من دمياط إلى القاهرة
	٢٦	غربي - جنوبي - غربي	ميت دابة
	٢٧	غربي - جنوبي - غربي	قماطر ديش، وهو جسر على ساعد النيل يمتد حتى برونوس
٢٢		جنوبي - غربي	رواس
٢٣			كفر شينير وهي قرية صعيدية بميت الحسام
	٢٨		ميت حساس
٢٤		جنوبي - جنوبي - غربي	بوابة البحر
٢٥			رواسي العياط
٢٦		غربي	منبجة
	٢٩	جنوبي - غربي - غربي	كفر التمامية تحت قناة من مملكة إلى مدغنا
	٣٠	جنوبي - جنوبي - غربي	سلونود، بعد قربها من مدغنا، البلدة الأصلية في غاربية وري قربها قناة نهر الدلتا
٢٧		جنوبي - جنوبي - غربي	ميت سمانودا بعد خمس ساعات استقلت بعضها على كفات للكائنات المسببة
	٣١	جنوبي - شرقي	ميت النصارى
٢٨		جنوبي	جرح
	٣٢	غربي - جنوبي - غربي	أبو سحر
٢٩			ميت أبو الحارث
٣٠		جنوبي - غربي	سلابة
٣١		جنوبي - غربي	ميت بزا
	٣٣	غربي	ننه
٣٢		جنوبي	كفر المنصورة
٣٣			منصورة
	٣٤	غربي	ميت بدر خلاري
	٣٥	جنوبي - جنوبي - غربي	شبرا الخيمة
	٣٦		كفر شهر الخيمة
٣٤			ميت دميس
	٣٧	جنوبي	ديياط
٣٥			كفر ميت أشي
٣٦			ميت أشي
٣٧		جنوبي - جنوبي - غربي	كفر حسان
	٣٨	جنوبي - غربي	كفر حسان

ملاحظات حول سير الرحلة من وشيد إلى القاهرة ودمياط استناداً إلى المخرطة على النوبة ١٠

شوقي النيل	عربي النيل	تفرجات النهر	أسماء البلد والقرى الواقعة على حافة النيل من دميّاط إلى القاهرة.
	٣٤		جانث
٥٨		جنوبي - جنوبي - شرقي	سراياك
	٤٠		دندوي
٥٩		جنوبي - جنوبي - شرقي	والكاكارس
	٤١	جنوبي	رفا
٦٠			ميت شمر
	٤٢		سنديهت
٦١			دورديت
٦٢		جنوبي	كفر أمهيبي
	٤٣		القريب
٦٣		جنوبي	المعرة
٦٤		جنوبي - شرقي	سراج
	٤٤		ميت وصيف
٦٥			كفر ميت الفز
	٤٥	جنوبي	ميت امارون
	٤٦		كفر خارو
	٤٧		تمهي
٦٦			كفر أبو ميه
٦٧			الصفير
٦٨		جنوبي - شرقي	المنية
	٤٨		كفر الدمرداسي
	٤٩	جنوبي - شرقي	كفر ميت المصبي
	٥٠		ميت المصبي
٦٩			ميت السراج
٧٠			كفر شاكل
٧١		شرقي - جنوبي	سنا
	٥١	جنوبي - جنوبي - شرقي	ميت بوا
٧٢		جنوبي - شرقي	كفر حلاوي
٧٣		جنوبي - جنوبي - شرقي	بشير
٧٤		جنوبي - شرقي	ميت حراشي

شرفى النيل	عربى النيل	توجت شهر	أسماء المدن والقرى الواقعة على الضفة النيل من دمياط إلى القاهرة.
٧٥		جنوبى - غربى - غربى	كنكة
	٥٣	جنوبى - غربى	دمياط بعد عبادة هذه البلاد، ساعدت نوبة مو الذى يعصب في باهر كفر السمحة
٧٦		جنوبى - غربى	كفر موسى
	٥٥		درورة
٧٧			أزرب
	٥٦		بلا
٧٨			بها لعل
	٥٧		كفر بجراب
	٥٨	غربى - جنوبى - غربى	أبو الطوالى
٧٩		غربى - جنوبى - غربى	رملة
	٥٩		بحر
٨٠			ميت المعار
	٦٠		مسيد الخلدو
	٦١	جنوبى - جنوبى شرقى	أم السرم
٨١		جنوبى	طحا
٨٢			كفر طحاه
٨٣			وهو لسنوت غلت وكل من يمر في هذه المنطقة يجرى للسب، إلا إذا دلع رسم الميرة وأظن أنها المنطقة نفسها التي أسماها الأب سيكار فلهو في كتاب مذكرات (الرسائل في الشرق)، الجزء الثاني
	٦٢	جنوبى	كفر المعلى
	٦٣		كسركه
	٦٤		كفر القرمي، تحريين حاشى القرمي فناء لمسب قرب محله الديان والسمالى. وتكثر في المنطقة من الغطاء القرى الصغيرة.
	٦٥	جنوبى - غربى	ميت جنوب
	٦٦	جنوبى - شرقى	منطقة حصن صخر ميني فوق الجزيرة
٨٤			كبداء كانت تكثر في المنطقة المصاير الصغيرة التي بس أعشاشها على ضفة النهر الوعرة.
٨٥		جنوبى - جنوبى شرقى	حبيب
	٦٧	عربى	كفر الرجولة

ملاحظات حول سير الرحلة من رشيد إلى القاهرة ودماط، امتداداً إلى المخارطة على اللوحة ٩٠

شوقي النيل	خروج النيل	تفرجات النهر	أسماء المدن والقرى الواقعة على حمة النيل من دماط إلى القاهرة
		بحري - جنوبي - جنوبي - بحري	كفر الفرعية، يمر بها قناة تصب في شادى، على قاعد الأسر النيل
٨٩			كفر سفي
	٦٩	جنوبي - جنوبي - شرقي	ساقية أبو شعرة
٨٧			برشوم التينة، كثر شربها لغير الصغرة
٨٨			الصالحه
	٧	جنوبي	كفر الحسي
٨٩			كفر المعالي
٩٠		جنوبي - جنوبي - شرقي	شره الهاديه
٩١		جنوبي	دحمى
٩٢			شلاقان
٩٣		جنوبي	عراقية
	٧		جلامية
٩٤		جنوبي	أبو المظ
	٧٢		قرواية
٩٥			بسوس
	٧٢		الوراق
٩٦			دمهور
٩٧			شره المكاه
٩٨			لميرة
٩٩			بولان
	٧٤		مراة
١٠٠			مصر

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى

شركي النيل	عربي النيل	ممرجات النهر	أسماء المدن والقرى الواقعة على ساحل النيل من رشيد إلى القاهرة (٢)
١			عزبة المعديه
٢			عزبة النصار
	١		رشيد
٣			المطف
٤			البركي
	٢		الشيخ أبو منصور
٥			أبو الكردي
٦			اللاوات
٧			النصر
٨			عزبة الكر
	٣		جدة
٩			البردي
١٠			بكرة
	٤		رحلة الأمير
١١			برمال، يسها جان نو درباله
١٢			مب الرميد
	٥		جدة
١٣			مبة القباب
	٦		دوبي
١٤			مطولا
١٥			كوم شريف
	٧		فلا
١٦			سندوب
	٨		دروط
١٧			جدة
	٩		المطف
١٨			عزلة يسها السيد برباخ (طوى)

(٥) لا يمكن الاعتماد كلياً على هذه اللائحة على خلاف اللائحة السابقة نظراً لجهل الأشخاص الذين وقعوا من جهة، ولأنني لم أكن أحسن خلال رحلتي من الرشيد إلى القاهرة، لغة المسلمين ومعرفةهم في التفكير من جهة أخرى.

ملاحظات حول سير الرحلة من رشيد إلى القاهرة ودحايا، امتداد إلى العاظة على الفرحة ١٠

شولي النيل	غربي النيل	ممرجات النهر	أسماء المدن والقرى الواقعة على ساعد النيل من رشيد إلى القاهرة
١٩			شرقا
	١٠		شرقية
٢			شرقية
٢١			المنالية
	١١		كفر شعب
٢٢			محلة مائل
	١٢		درشاي
٢٣			دسوق أولهم أو سيدي إبراهيم
	١٣		الرحمانية
٢٤			دحمون
	١٤		مركز
٢٥			محلة أبو علي
	١٥		منية سلامة
٢٦			دمدك
٢٧			كفر ميجر
	١٦		أم الحكيم
٢٨			شبرا الشهاب
٢٩			صاي
	١٧		محلة يش
٣٠			محلة دوش
	١٨		كفر حيدى
	١٩		شبرا حيت
٣١			محلة ثناء
	٢٠		المصرة
	٢١		حروش
٣٢			كفر وطوان
	٢٢		حليما
٣٣		جنوبي	سلمجى
	٢٣	جنوبي - جنوبي - شرقي	كفر شهاب الدين
٢٤			الكداية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى

القرى التي	غربى النيل	ممرجات نهر	أسماء مدن والقرى الواقعة على ساحل النيل من رشيد إلى القاهرة
٢٥		جنوبى - جنوبى - غربى	الفرست
٢٦		محلة النيل ^(١)	كفر محلة النيل
	٢٤		دكة
	٢٥	جنوبى - جنوبى - شرقى	شبينه
٢٧		جنوبى - شرقى	بحون
	٢٦	جنوبى - جنوبى - مرقى	داهية في بلد قري ٣ جزر متلاصقة
	٢٧	جنوبى - جنوبى - مرقى	كثينة
٢٨			نوم
	٢٨	جنوبى	كفر العيس
٢٩			شيخ عني
	٢٩	شرقى - جنوبى - مرقى	كفر داهية يتفرع النيل نحو الجهة الشرقية - السبابة الشرقية ويغترف من نومه
٣٠		جنوبى - غربى	كفر الزيات
٣١			أهدجمان
		غربى - جنوبى	شاور
	٣٠	مرقى	
٣٢		غربى - جنوبى - غربى	كفر مسوات
	٣١	جنوبى - جنوبى - غربى	كفر سلامون
	٣٢		سلامون
٣٣		جنوبى - جنوبى - شرقى	كفر البهيدة
	٣٣	جنوبى - مرقى	كفر العرم
٣٤			المنية
٣٥			كفر محروق
	٣٤	جنوبى - غربى	الحلي بحون رابته المس إلى هذه المنطقة تقع في منتصف الطريق بين الرشيد والقاهرة.
٣٦		جنوبى - شرقى	كفر العكروب
٣٧		جنوبى - جنوبى - شرقى	ميشلا
٣٨			السيك

(٥) بعد في هذا المكان فناء تبع من ساعد النيل وتمر أمام دسباط وطعنا، حيث دفن أحمد البدوي وهو ولي مصر في شهر. وبعد أن اعتدلت من الحاجاج لزورون يوماً فمر النكور حيث يدام سوق كبير. وهذا سبب وجيه لجذب الأجانب.

ملاحظات حول سير الرحلة من رشيد إلى القاهرة ودمياط، استناداً إلى الخارطة على الصفحة ١٠

شولي النيل	عربي النيل	لمرجت النهر	أسماء المدن والقرى الواقعة على مسامع النيل من رشيد إلى القاهرة
	٢٥	جنوبي	صوفه
٤٩		جنوبي - جنوبي - شرقي	حطب
٥٠		جنوبي	الحسيني
٥١		جنوبي - جنوبي - شرقي	عمروس
	٢٦		كوم شريت
٥٢			الطظامية
٥٣			دوكة الحسني
	٢٧	جنوبي	الطيرة
٥٤		جنوبي - جنوبي شرقي	نافور
	٢٨		أبو دكاوي
٥٥		جنوبي شرقي	كفر دميت
٥٦		جنوبي - جنوبي - شرقي	كفر جعفر
	٢٩		عقلم
٥٧			ساوادة
٥٨			نادر
٥٩			كفر نادر
٦٠			شبهه
	٣٠		دمشلي
٦١			جميه
	٣١		الريجات
	٣٢	جنوبي	كفر دلوود
٦٢		جنوبي - جنوبي - شرقي	جرجاني
	٣٣		الطراي
٦٣			وزف
٦٤			وزوه ردي
	٣٤		الحمامي
٦٥			أبو عروش
	٣٥		أبو شلبي
٦٦			طهوه
	٣٦		المنيا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى

شرفي النيل	مصر النيل	مصرجات النهر	أسماء المدن ونقري الراقعة على ساحل النيل من رشيد إلى القاهرة
	٤٧		ب سلامه
	٤٨		أولاد فرج
٦٧		شمالى - شرقى	موسيه
	٤٩	شرفى - جنوبى - شرقى	فوس
	٥٠	جنوبى - شرقى	أبو شوب
٦٨			المنشيه
	٥١	جنوبى - جنوبى - شرقى	دارفان
٦٩			جروش (تغطي هذه المنطقة الرمال، ويسمونها البعض القصيم)
	٥٢		السوانى
٧٠			كفر أبو علي
٧١			لسب
	٥٣	شرفى - جنوبى - شرقى	كفر أبو عاب
٧٢			كفر المسانيه
	٥٤	جنوبى	الكهنة
٧٣			مديني لإبراهيم
٧٤		جنوبى - شرقى	كفر عالي
٧٥		شرفى	ميه العروس
	٥٥	شرفى - شمالى - شرقى	الرقاوى
	٥٦	شرفى	كفر منصور
٧٦			ششود
	٥٧		أم دياره عند ارتفاع نسبة مياه النيل، لشاهد ضايق كبيره تجد من هذه المنطقه إلى وودوك
٧٧		شرفى - جنوبى - شرقى	تلوا، تقع قرب بطن الكور أو رأس الدقه.
	٥٨		الأخصاص ذكرت بالقرب الأخرى في اللائحة السابقة.

أسماء المدن والقرى التي ذكرها السيد فورسكال حلال رحلته من القاهرة إلى الإسكندرية^(٥) من القاهرة إلى الإسكندرية

باب البكري (١) منية السرج، جنوبي - عربي القاهرة (٢) شبرا امكاسة، جنوبي - عربي القاهرة (٣)
دسهور (٤) باسوس، عربي - جنوبي - عربي الأهرام (٥) أبو الفيض، جنوبي - عربي - جنوبي الأهرام، أبو
المنجج جسر (٦) حرقانيه، جنوبي - عربي الأهرام (٧) بهده (٨) معيته، مساعد النيل الذي يمر أمام دميوط
(٩) شبرا الشهيد (١٠) كفر الحمة (١١) شادان؛ يمتد الطريق نحو الشمالي - عربي (١٢) فرعانيه -
شمالي عربي الأهرام (١٤) سمان لا ترى منها الأهرام الخمسة (١٥) قلته، مساعد من ساعدي النيل
(١٦) تلونا (١٧) فيشه النصارى (٨) سرس قلته (١٩) صوب العلا (٢٠) تشا وعمريس (٢١) صبه الواط
(٢٣) سلون عشة (٢٤) دمنه شمالي - شمالي - عربي أبو كلس (٢٥) بشادي (٢٦) عمروس، على
النيل - كومار (٢٧) طنوب (٢٨) الزعيرة؛ يمتد الطريق شمالاً على مقربة من النيل (٢٩) النجينة، شمال
النيل؛ تقع في منتصف الطريق بين القاهرة والإسكندرية - مليحة (٣٠) كفر بريم، شمالي - عربي - عربي
بلافوش (٣١) بريم (٣٢) تقيده (٣٣) صبه العب (٣٤) أبراج بعمام (٣٥) رمسيس، شمالي - عربي -
شمالي دندوقة - البقراش (٣٦) البيرة، شمالي - عربي (٣٧) أبو رينة، شمالي - عربي بهاي (٣٨) دسناد،
شمالي - عربي - شمالي عوجه (٣٩) سوس (٤٠) دسهور البحيري الواقع في ثلثي الطريق بين القاهرة
والإسكندرية (٤١) القروي (٤٢) بركة عطس (٤٣) كربول، شمالي - عربي - شمالي شو (٤٤) عكريشة
العجور (٤٥) كفر سليم؛ تقع بلدة أبو قير على شمالي - عربي هذه المنطقة (٤٦) بيضه، وهي مدينة
مهدة (٤٧) الإسكندرية.

من الإسكندرية إلى الرشيد

بحيرة سيحة عراما؛ حصن أبو قير؛ سدا؛ بحيرة انعدية؛ قرية الروية القريبة من قرية الشيخ حصر؛
أدكوي، العلامات، أو ١١ دهامة حجرية على طريق الرشيد.

(٥) ألفت على ذكر بعض الأسماء التالية في لائحي، وتكنكم ملاسطة الفرق بين الكتابة الدائرية والسويدية، فالقوي لعري
نسه الذي دؤن لي اللامحين استناداً إلى معط الربانية، كتب أيضاً لائحة السيد فورسكال في حضورنا، واستاداً للفظ سابق
معنا، لكن الأسماء التي تحمل علامة (+) تكتب بأحرف مختلفة، لكن إلى كتب العربي الأسماء بعضها بطريقة مختلفة وفقاً
لفظ مواطنيه، لن يلموني أحد لأنني لم أشتأ كتابة الأسماء بنفسى بأحرف عربية.

من الرشيد إلى القاهرة

(١) شيخ منصور (٢) سمية (٣) محنة الأمير (٤) ديبى (٥) ثعينة ساعد الليل الذي يمر أمام الرشيد (٦) أمطوبس (٧) شمنيرة (٨) سديون؛ في منتصف الطريق بين الرشيد ومحنة الكبير (٩) هوا (١٠) محنة العمري (١١) محنة مالك (١٢) سلمية (١٣) شرقا (١٤) سيدي إبراهيم الدسوقي (٥) دماجون (١٦) محنة أبو علي لعينة (١٧) جمنية (١٨) شباس الشهدة، الواقعة شرقي - جنوبي - شرقي الطريق (١٩) شباس الأمير، شرقي - جنوبي - شرقي الطريق (٢٠) طوية، شرقي - جنوبي - شرقي الطريق - شبح حدرس الهدوي (٢١) روية السطاح شرقي جنوبي لطريق (٢٢) سحا، شرقي جنوبي شرقي الطريق (٢٣) جنوبي - شرقي شرقي الطريق (٢٤) كمر، شرقي - جنوبي الطريق (٢٥) مهتدية، جنوبي - شرقي الطريق (٢٦) سدسيس (٢٧) محنة الكبير (٢٨) شربابل (٢٩) العجارية، جنوبي - شرقي الطريق (٣٠) متحاسي، جنوبي - شرقي الطريق (٣١) شراب، جنوبي - جنوبي - شرقي، عربي النيل - مياط، (٣٢) دهنور حانوب (٣٣) دمسيس، شرقي النيل (٣٤) أبو ليهان، جنوبي - شرقي الطريق (٣٥) عشة جنوبي شرقي النيل (٣٦) نعلال (٣٧) كمر نعلال، قبالة مساط (٣٨) سركه، قبالة داكورا (٣٩) كمر سركه، على مقربة من النيل (٤٠) أبو نعا (٤١) دقادوس (٤٢) ميت عمر (٤٣) رقة، عربي النيل (٤٤) ولاد عباد؛ يمتد بعدها الطريق جنوبي - جنوبي - عربي الدلتا (٤٥) فرسين (٤٦) ميت الرجا (٤٧) شربخوب (٤٨) بقسه (٤٩) ميت بره؛ يعطف بعدها الطريق إلى داخل البلاد (٥٠) ميت الحوفين (٥١) دملج جنوبي - عربي - جنوبي النيل (٥٢) بره (٥٣) وروره (٥٤) كمر بخراو (٥٥) بطا (٥٦) عرب أرمل (٥٧) مسيل الحضر، عربي النيل (٥٨) طحلج شرقي النيل (٥٩) كمر مرحلات؛ يرى الأهرام جنوباً (٦٠) أسيد، جنوبي - عربي الطريق (٦١) بحراب (٦٢) أكهور الورود جنوبي - عرب الأهرام (٦٣) قرنيل (٦٤) سدسيس (٦٥) كمر الحبرث جنوبي - شرقي الطريق (٦٦) كمر الجديد جنوبي - شرقي الطريق (٦٧) قلبوب، جنوبي - شرقي الطريق، وجنوبي - غربي الأهرام، وجنوبي القاهرة جسر أبو اسكه (٦٨) المكامة (٦٩) ميه السراح (٧٠) مصر القاهرة.

مواقع بعض المدن المصرية القديمة

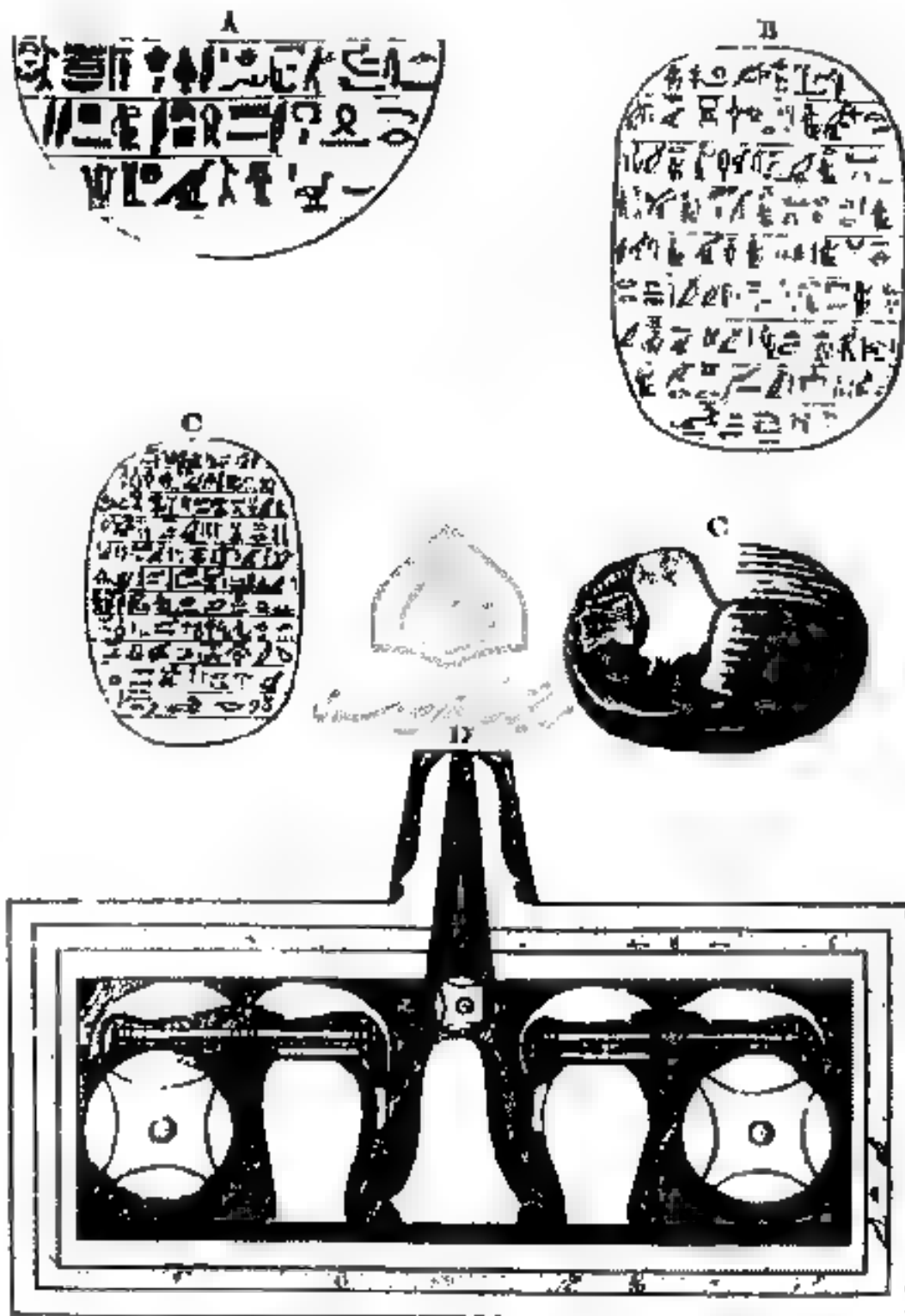
تكثر في الكتب المصرية القديمة أسماء مدن شهدت تغيرات جذرية، حتى أننا لم نعد نستطيع تحديد مواقعها؛ وسمع اليوم الناس يتحدثون عن دمياط والمنصورة ومحلة الكبير وورقة وميت عمر ورشيد وهوه ومنوص وكالجوب، وغيرها من المدن التي لم تظهر إلا منذ وقت قصير. ولما كانت الإسكندرية قد قضت على ممفيس ومسطاط الإسكندرية ومسطاط القاهرة، سقطت المدن المصرية الأخرى تباعاً وحلت محلها مدن أخرى، دخل معظمها طي النسيان أيضاً. أما بالنسبة لمدن الأخرى، فقد شهدت بدورها تقلبات كبيرة؛ فبعد ترسيخ الدور السياسي في البلاد، اتحد السكان وحققوا سماً ازدهاراً صاعقاً باهرًا ولكنهم ما لبثوا أن دخلوا عهد الانحلال. واللافت للنظر أن مدن الدلتا كلها عرفت تغيرات جذرية؛ يقول هيرودوتس في كتابه الثاني، إن يوفوريوس (المعروفة اليوم بأبو صير)، كان تقع في وسط الدلتا ويبدو أن هذا الجزء من مصر الذي كان يعرف قديماً بذلك كان أكثر اتساعاً منه اليوم، وأنه كان يحده من الشرق تارة موبس، حيث تصب القناة الكبيرة الممتدة بين قطرب والقاهرة في بحيرة باهر. أما عند المدن المصرية الحالية، فلا يوازي عدد المدن التي كانت موجودة قديماً في البلاد؛ وهذا الأمر لا يثير الدهشة، لأن الفرس واليونان والرومان والعرب والأتراك الذين حكموا مصر تباعاً عمدوا إلى تدمير هذا البلد المخصب، من خلال حكمهم، بعد أن جنوا منه أموالاً طائلة، فراحوا يفلصون سبل عيش السكان، الذين اضطروا للهجرة منه والتخلي عن قراهم ومدنهم.

لا أظن أنه من السهل تحديد موقع معظم المدن المصرية القديمة التي ازدهرت خلال الألفي سنة الماضية. لكننا نستطيع استرجاع موقع عواصم بعض الأقاليم والمدن، مع الأخذ بعين الاعتبار السدود التي شيدها المصريون القدماء، لحماية أنفسهم من فيضانات نهر النيل، وخاصة تلك التي بندها قرب بقايا المدن القديمة، من هضاب وقطع صوان، ورغام وخرف، والجدير ذكره أننا لا نجد في مصر السفلى كميات كبيرة من المعالم القديمة الجميلة، فقد غطى التراب معظمها مع مرور الزمن، كما ونقلت كافة نلوان، حتى المدفونة منها تحت الأرض، إلى مناطق أخرى، لتستعمل في تشييد الأبنية الحديثة. ولم يكف المصريون عن التنقيب في الأماكن الأثرية بغية استخراج الحطارة اللازمة لبناء الجوامع والمنازل وحتى الأكواخ المتواضعة، كما وأنهم يبحثون عن كنوز أسلافهم الأثرياء فيخربلون الأرض المغمورة بحثاً عن الفضة والذهب والحجارة المصقولة. وسأذكر لكم المناطق التي ورثها في مصر السفلى حيث تم العثور على بقايا مدن قديمة. ويمكنكم مقارنة مواقعها على خارطتي. أما بالنسبة للأسماء فسأترك للعلماء الذين يحسنون قراءة كتب المؤلفين القدماء، عاء تحديد ما.

عند وصول المسافر إلى هذه الجهة من مصر، يرى آثاراً قديمة قرب الإسكندرية الجديدة؛ ولقد قدمت

وصفاً معصلاً لها سابقاً؛ وأخيراً ذكره أن اسم هذه المدينة غير مشكوك فيه لأنها تعرف تماماً من بناءها، وأنها احتفظت باسمها الأصلي ورغم أن هذه المدينة تعدّ بديهة مقارنة باندن الأوروبية ومدن مصر الحديثة، فهي تعتبر حديثة مقدره باندن القديمة في هذه البلاد؛ كما وأن بابها شخص عريب أتيت على ذكر بلدة كابريوس ويقال إنها كانت تقع قرب بلدة أبو مندور في الجنوب، في جوار رشيد، وإنها معطاة اليوم بطيقة من الرمال الرقيقة، جرحتها الرياح شيئاً فشيئاً وبشاهد على مقربة من هذا المكان، بقايا بلدة قديمة في جوار مسوس؛ لم أشاهد هذه البلدة رغم أنني سمعت عنها في القاهرة. أحبرني السيد هورسكال أنه حلال سفره برا من القاهرة إلى الإسكندرية عثر على بقايا بلدة قديمة، عري الليل، بين دسهور وبريم على مقربة من قرية رمسيس. وغلاوة على ذلك، رى اليوم آثاراً قديمة قرب مسحجر في الدلتا؛ يعود اسم هذه البلدة إلى أصل عريب، لكن البلدة التي كانت تحمل هذا الاسم اذهبت ومن المصريين القدماء وشاهدت في بولاق صندوقاً من الصوان عليه أحرف هيروغليبية، منقولاً من ملحجر مساهرت إليها خصيصاً من القاهرة بعد أن أكدوا لي أنها تحوي آثاراً قديمة رائعة. لكنني لم أر إلا معالم البلدة التي تحدثت عنها آنفاً، وبعض الأعمدة الشبيهة بتلك التي رسمها بوردن وبوكوك في مصر العليا، ولني استعمالها سكان هذه القرية الفقراء لدعم منازلهم. اكتفيت برسم الحجارة التي عثرت عليها أمام معصرة للزيت (راجعوا النوحة ١١، د) وتدل الرسوم الهيروغليبية على هذه الحجارة، على أن المصريين القدماء قاموا بحرقها؛ فهي منقرشة عليها شأنها شأن الرسوم التي رأيتها على حجارة الأخرى؛ وبكى اللامت للظفر هو أن الصور الوسطى كانت بارزة أكثر من غيرها وحلال هذه الرحلة شاهدت قرب قرية انقم مرتفعات ضخمة، قبل لي إنها بقايا مدينة قديمة

تكثر في الجهة الشرقية لذلك معالم مدن قديمة. ذكرت سابقاً أنه في مدينة ستانسوس المطلة على البحر، نجد معالم مدينة قديمة كثيرة، وأنا أستطيع بالتالي تحديد موقع بلدة تانسوس القديمة. وذكرت اسم بلدة أبو صير الصغيرة، الواقعة على ساعد النيل الذي يمر أمام دمياط، واسم بلدة بوسير الشهيرة؛ تقع قرب هذه اسطقة بلدة بعليت حيث شاهد بوكوك وسيكارد معالم رائعة الجمال. ويقال إن الآثار القديمة تكثر قرب بيت بعد وفناهر الويش، والعال وسمرور. ومن الواضح أن هذه اسطقة من الدلتا مبررة جداً وتستحق أن يتوقف فيها الرحالة لمقايام بأبحاثه؛ ويرغم أنه في عهد هيرودوس كان المصريون يحججون إلى هذه الشوارع؛ ويور الأقباط سواً كبسة في حميان، ويمكننا مرافقة هؤلاء الحجاج خلال سفرهم دون التعرض للمخاطر. فهم يرلون في سماتود؛ إنها بلدة صغيرة جداً ولكنها تقع في الموقع نفسه الذي كانت تقع فيه قديماً بلدة سيانتوس؛ ونجد صوب الجنوب مرتفعات ضخمة في جوار قرية قطريب وهذه المرتفعات هي بقايا بلدة قفريس وبعد عاء طويل، أقيمت ريان السعية بالبناء المرساة فيها، لأن سكانها من القراصنة. وأدركت لاحقاً أنهم نقلوا الحجارة التي يكثر استعمالها ولم يتركوا إلا الصوان والرخام. كان سيد هذه المنطقة، صديقاً لي، ويقوم بأعمال التنقيب في هذه المنطقة؛ حتى أنه كان يعبرل الأرض بحثاً عن حجارة أو خواتم أو شيء من هذا القبيل. فقدم لي خمسة دهبية، استخرجها مؤخراً من



الأرض. (ترونها على اللوحة ١١ ح) من الصعب قراءة الأحرف المكتوبة عليها وكأنها نقشت بواسطة إرميل شبيه بذلك الذي يستعمله الحانون اليوم. ولقد شاهدت خمسماء في البصرة، عند السيد ربيع، ونكتها لا تضاهي هذه جمالاً. ورى في الصورة أ، قطعة من لحرف السماع، وكأنها غطاء وعاء ما وأظن أن الصور محفورة بالنطين، وهي شبيهة بالصواري التي برها على أعلف الكتب؛ وهذه يشب أن المصريين القدماء عرفوا الإرميل والطبعة.

حدّد علماء الجغرافية القديمة وأحدثون موقع بلدة هليوبوليس بدقة شديدة ورى نفاياها قرب بلدة مطاره في الجهة الشمالية - الشمالية الشرقية، على بعد برسخين من القاهرة أو ٣ فرسخ من مسطاط أو مصر العتيق ولكن لم يتفق منها، لا سدود كبيرة ومرتفعات من الرحام والصوان والحرف وبقايا سمكس (أبو الهول)، ونصب عمودي، لم يتمكن السكان من نقله نظراً لثقله، فهو مصنوع من الصوان ومعطى بالرسوم الهيروغليفية على جهاته الأربع؛ أم روايه فهي موجهة نحو جنوب - جنوب - الشرقي، وشمال - الشمال الغربي، والشرق - غرب شرق، والغرب - جنوب - غرب. قاربت الصورة الأصلية برسوم نوردن واتصح لي أنها صحيحة. ثم في ٢٤ كانون الأول/ديسمبر كانت المياه تعمّر المكان، فلم أستطع الاقتراب جيداً من النصب العمودي لرؤية النقوش وبروز في الصورة ج، من اللوحة ٥، أني حاولت قياس الارتفاع كما يلي رست خطأ من أ إلى ب طوله ٨٤ بوصته؛ ومن ب إلى د طوله ٥ أقدام و٧ بوصات؛ مما يعني أن القاعدة طولها ٨٨ بدماً و٨ بوصات، ويبلغ طول الرواية هـ - ر - من ٣٠ درجة؛ كما يسع طول النصب فوق الأفق ٥١ بدماً و٤ بوصات، والخط من ب إلى س ٦ أقدام و٩ بوصات ويتعالي يسع ارتفاع النصب من الطبقة السمي ٥٨ بدماً وبوصة؛ وضعت هذه القطعة الأثرية الجميلة في المعبد الشهير المخصص لعبادة الشمس، في بقعة منخفضة جداً. حتى أن مياه النيل يصل إلى ارتفاع ٥ أقدام و٨ بوصات عند بوعها دورة عوها. ورسم أن المعبد بشكل جزء من البدة، إلا أنه كان محاطاً بمرتفعات ضخمة لحمايته من فيضانات النيل. ويقول السكان القدماء إنه تم بناء بعض المنازل على هذه المرتفعات. وقد حاول الدكتور شو في الصيغة الجديدة لكتاب رحلاته، أن يثبت أن هذا الجزء من مصر المعروض بمبصّنات النيل قد ارتفع كثيراً منذ عهد هيروودوس. فلا بد إذن من الحفر قرب هذا النصب لمعرفة الارتفاع الذي غطى فيه البلاط بالتراب. لكن الشعب المصري لا يحب أن يفت الأوروريون في الأماكن التي تكثر فيها الأثریات، فلنأسمهم أننا نبحث عن الكنوز. لكنهم لم يمانعوا حين ذكرت لحاكم المنطقة الأسباب التي تحقّقنا على التقييم بهذه الأبحاث. حالياً منه مساعدة الفلاحين لنا. ومما لا شك فيه أني أثرت حصول سكان مطاره وأنا أقوم ارتفاع النصب؛ فوقفوا على مقربة من المكان. لأنه حقل لهم أني سرّمي هذه الحفنة من الحجارة في الهواء وأحد الكبر المدفون تحتها. لكنهم لم يوجهوا إلي أي عبارة منّة، بما أن اتصح لهم أنهم أعطوا الطن. ويسمى الكتاب العرب هليوبوليس عين شمس ومصر

ونشاهد على بعد فرسخين شمالي - شرقي هيليوبوليس، آثار قرية قديمة، يطلق عليها العرب اليوم اسم تل اليهود أي مقبر اليهود، ونما لا شك فيه أن أرض حصن بشكل جزءاً من هذه المنطقة، ولعل مصد اليهود الشهير الذي بناه أوباس، يقع في هذه المنطقة وليس في هيليوبوليس، كما يظن البعض. فمن الممكن بالتالي العثور في الجوار على آثار يهودية. ولم أشاهد هذه الهضاب إلا بعد انطلاقي من القاهرة، على بعد فرسخين منها. وقالوا لي إنه تقع قرب قرية سبتس وميت الدعانة.

أعطى سكان بلدة فايديه، المجاورة للقاهرة، السيد فورسكال أسماء المناطق الأخرى الواقعة في هذا الأقليم، التي كانت مجهولة، نظراً لكونها مأهولة باليهود، ولما كانت هذه المناطق تستحق الزيارة، سأذكر فيما يلي الأسماء التي جمعها السيد فورسكال: (١) ليلب (Lilhab)، عين سيدنا موسى، على بعد فرسخين ونصف من قاعدية. ويقال إنه وجد قديماً في هذا المكان عين مياه عذبة (٢) مراقب سيدنا موسى، على قمة جبل، على بعد فرسخ ونصف من ليلب، من جهة مصر العتيق. (٣) طرطور اليهود، على بعد ٤ أو ٦ فراسخ من قاعدية؛ وشاهد فيها بقايا قصر قديم (٤) ناسكينا البطقية (Faesqua bataquia) الواقعة على بعد فرسخين من قاعدية، على الجهة الشمالية - الشرقية. وتكثر في هذا المكان ينابيع المياه، والثروة الخمراء التي تعطي الأراضى والحدائق (٥) تور مرعون أو جبل فرعون، الواقع على بعد فرسخ من قاعدية، نجر الشرق (٦) مقبر اليهود على بعد ٦ فراسخ من قاعدية. ولقد وجدت قديماً، في هذا المكان، بلدة كبيرة مأهولة من اليهود (لعلها البقايا نفسها المذكورة أعلاه في قرية اليهود) (٧) فعدة راي على بعد ٧ أو ٨ فراسخ من قاعدية. وجدنا هنا بقايا قصر قديم من عهد موسى. ويصيف السيد فورسكال، أنه أخبر هؤلاء العرب، أن أولاد إسرائيل اجتازوا البحر الأحمر، جنوبي السويس، قرب عين سيدني موسى.

من الملاحظ أن العلماء الحديثين، ترددوا في تحديد موقع بلدة ممفيس، نظراً لكثرة البقايا من زمن (أبو العباس) والشريف الإدريسي؛ كما وأن الكتاب العرب والأوروبيين، حددوا موقع هذه البلدة بدقة شديدة. أما السبب الذي حال دون أن نسمع شيئاً عنها، فيعود إلى أننا نسبنا أن العرب أطلقوا على عاصمتهم اسم مصر، بينما كانوا يسمون العاصمة القديمة مصر العتيق وسموا بالتالي مصر، كلاً من هيليوبوليس، وممفيس والفسطاط والقاهرة، بينما تحمل اليوم القاهرة كلاً من الأسماء التالية: مصر، وفسطاط ومصر العتيق. تقع مدينة ممفيس على الضفة الغربية للنيل، على مسافة يوم يكامنه من مصر، استناداً لرأي أبو الفداء لكن الشريف الإدريسي يقول إنها تقع جنوبي مصر، أي الفسطاط، أو عاصمة مصر في تلك الحقبة. ومن جهة أخرى يؤكد بنيامين ذو تودلا أن ممفيس تقع على بعد فرسخين من فسطاط العام ١٦٩٧، ولقد شاهد ماني (Manlet) بقاياها حيث كان يتم التقيف عن لمبابة؛ فطلب شهادة بليبيوس الأكبر (Planc)، الذي قال صراحة إن الأهرام تقع بين ممفيس والدلتا بما يعني أن ممفيس تقع جنوبي

لأهرام التي لا تبعد كثيراً عن الجزيرة. ولقد شاهد بوكوك في هذه المنطقة بقايا مدينة قديمة حسبها بقايا مدينة ممفيس^(٥) أما أنا فلم أشاهد إلا الأهرامات الأوسى، لأنني لم أقصد جنوبي مصر؛ نعم أو بالناسي معانم بلدات أخرى. لكسي سمعت أنه في جوار سفاره يرى بعض معالم مدينة ممفيس، كما وأسي رأيت في القاهرة، حجارة مستخرجة من هذه الأنحاء، استعملت في بناء المنازل الحديثة والجوامع في العاصمة الجديدة. ولما أدع لرأي السيد شو، الذي يدعي أن ممفيس كانت تقع في الموقع نفسه الذي تقع فيه اليوم لجزيرة، رغم بؤره من بوكوك وكل من يعارضه الرأي حول هذا الموضوع. وسأحاول مناقشة بعض المقاطع، التي نقلها هذا العالم عن عدة مؤرخين، وذكرها في الصفحة ٢٩٦، من كتابه «رحلات وملاحظات» المطبوع في لندن العام ١٧٥٧؛ رغم أنني لا أظن أنها تثبت شيئاً مما يريد إثباته وفي سبيل ترسيخ فكرته، يستشهد الدكتور شو، بـ (ديودور Dodore) ديودورس الصقلي (ص ٢٩٦) الذي يقول إن ممفيس تقع في النقطة التي ينقسم فيها النيل إلى عدة مروج وهكذا فاستناداً إلى هذا المقطع، لا يمكن القول إن هذه المدينة تقع في موقع الجزيرة، بل في الجهة الجنوبية؛ لأن النيل لا يبدأ بالتفرع عند الطرف الجنوبي للندى، بل في اليقعة الواقعة بين الجزيرة والأهرام وهو يقول في الصفحة ٢٩٧، إن مدنا حدوداً ثابتة وغير متغيرة، على ما سأل من ممفيس؛ بيد أنني لا أوافق على الرأي؛ رغم أن حدود الدلتا هي بطر البقعة أي في جوار قرية صرودة، فمن الممكن القول إن حدود الدلتا كانت تمتد قديماً نحو الجنوب. فبعد لنيل الذي رسخته على الخارطة، بدأ من م ديار وصولاً إلى الوديان ليس قناة صيقة، بل ممر عريض، يجتاز السفن المسافرة من بولاق إلى رشيد، نظراً لعمقه. ومن الممكن القول إذن إن حدود الدلتا كانت عديماً قرب الوديان أو سواها. وما كان هذا مجرد تخميني، سأراجع ملاحظات بطليموس التي يستعين بها الدكتور لإثبات وجهة نظره. أما بطليموس فيقول إن ممفيس تقع على بعد ٢٩ دقيقة و ٥٠ ثانية من خط العرض، والدلتا على بعد ٣٠ دقيقة منه؛ يسا يبلغ ارتفاع الجزيرة ٣٠ ذبيرة أيضاً؛ إن كانت ممفيس تقع على بعد ميلين وربع الميل جريباً، لا يمكن القول إنها كانت تقع في موقع الجزيرة، ويحاول الكاتب تحديد مرفق ممفيس وفقاً لبعدها عن الأهرام (ص ٢٩٨). وبمكنا الاستنتاج أن هذه المدينة كانت واقعة جنوبي النيل على مسافة متساوية من الأهرام. أما سترابون فيؤكد أننا نستطيع رؤية الأهرام من بابل وأن ممفيس واقعة قبالة هذه المدينة؛ ويحاول الدكتور شو أن يثبت، استناداً لهذا المطلق (ص ٢٩٩) أن ممفيس كانت واقعة في البقعة التي يشاهد فيها اليوم الجزيرة وصحيح أننا نشاهد الأهرام من قصر القاهرة القديم أو بابل القديمة. لكن الكتاب الذين أثبت على ذكرهم أنباء، والذين شاهدوا بأب عيهم بقايا ممفيس، يؤكدون أن

(٥) إن الاعتقاد الأكثر صحة هو أن هذه المدينة مجسدة بيت على مدخل هذا السهل الرمي المعروف اليوم بسهل موميناو، الواقع شمالي الأهرام. فالأنقاض المذهلة التي أراها في هذا المكان، تشير إلى عظمة المدينة وموقعها الصحيح. يقول ريتشارد بوكوك في كتابه وصف الشرق، إن هذه المدينة تقع بين مكانين متواحيين، على الطريق بين القاهرة والقيوم، على الجهة الغربية للنيل، وأقرب إلى أهرام سفاره منه إلى أهرام الجزيرة.

هذه المدينة كانت تقع جنوباً على سفينة من مسطاط، وبابل؛ وهذا ما يحثنا على الاعتقاد أنها لم تكن واقعة غرباً، بل قرب بابل. ولقد أُرِدَ استرجاع القول إن ممفيس كانت تنح قبالة بابل؛ وهو يستشهد بهيرودوس، الذي يؤكد أن ممفيس كانت تقع في القسم الصيق من مصر. انطلاقاً من هذا المبدأ، بحثت عن موقع المدينة في الجهة الجنوبية، خلافاً للدكتور شو، رغم أنه يدعي أن الجزيرة واقعة في القسم الصيق؛ لأسى اكتشفت أن هذا المكان يقع جنوباً، في أرض مكشوفة، محاطة بهصب، ببت عليها الأهرام، التي تشكل القسم الأكثر صيقاً في مصر. وإن صبح القول إن الأهرام واقعة في جوار ممفيس، فذلك يعني أنها أخذت عنها ليعتبرها وبعبارة أخرى، أظن أن الكتاب الذين ذكرهم الدكتور شو، لا يقدمون لنا البراهين اللازمة، بلقول إن مدينة ممفيس كانت واقعة في المكان نفسه الذي يرى فيه اليوم الجزيرة، بل يحاولون إقامة الدليل على أنها كانت تقع بين الأهرام وسفاره. ولكن المدهش في الأمر هو أن هذا العالم الكبير لم يلاحظ في كتاب «جغرافية السودان»، ولا في كتاب «وصف الرحلة»، اللذين يذكرهما في الصفحة ٣٠٦، لتتحقق من موقع مدينة هيلوبوليس، أن موقع مدينة ممفيس، محدد فيهما، كما أنه لم يحاول مقارنة وجهة نظره بشهادة مؤلفي هذين الكتابين.

ويبدو أن اختلاف وجهات النظر بين شو وبوكوك، حول موقع مدينة ممفيس، أثر خلافاً بين العلماء الإنكليز. وإليك ما يقوله مؤلف «التاريخ العالمي الحديث»، الجزء الأول، (ص ٣٢٨): «كانت مدينة ممفيس تقع في موقع الجزيرة الحالي نفسه؛ وهذا ما يؤكد ما الدكتور شو، الذي تعتبر ملاحظاته الجبرفة حول مصر وشبه الجزيرة العربية، جديرة بالقرابة أكثر من سواها. نظرٌ لصحتها ودقتها، واستناداً إلى أبحاث علمية سليمة، وانتقدت سوية. وبعبارة أخرى سيصمد كتابه في وجه الحملات الموحدة صده، وبعد أن يدخل كل من حمل قلمه وحاول تقييده أو اعط من صدره طي السيان، أو يواجه باردراء، جدير به انحصار كلها».

وبما أنني كنت أعجل السبب الذي حث العلماء الإنكليز على إصدار هذا الحكم التعسفي بحق الرحالة كافة، واعتبار الدكتور شو رعيماً لهم، فلن أستطيع أن أقدم تفسيراً ملائماً لهذا القرار. ولكني أقر بأن لا نجد رصفاً للرحلات عالياً من العيوب، أو رحالة معفى من الأحكام المسبقة؛ لذلك من لأفضل عدم الدفع عن آرائنا بهذا. ولئن بهود وأقباط مصر يستطيعون تحديد مواقع مدن هذه البلاد القديمة، نكس الأوروبيون لا يسمعون أبداً لشرطيد صداقتهم بهذا، الأشخاص وبمصلون استشارة سواهم، في حال سم بعضهم، أول شخص يصادفونه، أجربة مرضية.. ولم أحاول أبداً الاستفادة من هذه الفرصة؛ ولكنني أصبح الرحالة اللاحقين، باستغلال هذا الأمر.

وصف القاهرة وبولاق ومصر العتيقة والجيزة

شهدت المناطق المحيطة بالقاهرة تغيرات جذرية خلال الأحد عشر قرناً الماضية، أي بعد أن حكم المسلمون مصر ودمروا بعض المدن، وأهملوا أخرى، وبوا بعضها الآخر في مكانها بعيد وصولهم إلى مصر، استنوا على مدينة مصر، بعد أن عادر المقوقس ولا يزال موقع هذه المدينة غير محدد، رغم أن مؤلفي «التاريخ العالمي» يؤمنون بأنها مدينة مميس الشهيرة. ولكن استناداً إلى رواية المؤرخين الشرقيين، انسحب المقوقس مع حاميته إلى إحدى جزر النيل فيما ملك اليونانيون الذين كانوا يساندونه الطريق منقابه باتجاه الإسكندرية^(١).

كانت مصر تقع إذن على الضفة الغربية للنيل، فيما يقع كل من مميس والإسكندرية على الضفة الشرقية منه. وعند معادرتهم هذه المدينة، سم يصطر اليونانيون لاجتار النيل، حتى يعودوا إلى الإسكندرية ولعل مصر هذه هي بابل، التي تحدث عنها المؤلفون اليونان، والواقعة جنوب القاهرة، بين جبل المقطم والنيل، إنه نجد في هذه المنطقة، أنقاض كائنات قديمة، يجلبها الأباطرة كما وأن اليهود الذين كانوا كثيراً في مصر^(٢)، يملكون مقبرة في هذا المكان، رغم بعده عن القاهرة، وحضرة بسيل المؤدية إليه.

أطلق المسلمون على مدينة الأولى التي بوها اسم القسطنطينية وتحدث بعض المؤرخين العرب عن أصلها^(٣)، فبعد أن استولى عمرو، قائد الخليفة عمر، على هذا القسم من مصر كان يستعد هو ورجاله لتتقدم نحو الإسكندرية. ولكنه ترك في تلك المنطقة خيمة، بب عبيد حمامة عشها، فقال العرب إن هذا الأمر غل حس، وارتأوا بناء مدينة في تلك البقعة. ولكن كانت لديهم أسباب أخرى للاستقرار في هذه المنطقة؛ فالمسلمون الذين وصلوا حديثاً إلى تلك البلاد، فضوا عدم الإنعام داخل المدينة، بين السكان المسيحيين وارتأوا أن يسوا مكاناً لهم خارجها، حيث حظوا رحلتهم، وذلك في سبيل حماية أنفسهم. فاستقر قريتهم العرب الذين كانوا يعملون في مصر، فضلاً عن المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام، فأدى ذلك إلى ولادة مدينة القسطنطينية والتي كان اليونان والرومان قد جعلوا من الإسكندرية عاصمة البلاد نظراً لغربها، بعد اختار العرب صواحي القسطنطينية للسبب نفسه. كما أن الحاكم المقيم في وسط

(١) التاريخ العالمي الحديث، الجزء الأول من ٣٢٨ - ٣٢٥ المجلد الثاني

(٢) سير رحلة بنيامين تودالاسيس، ص ١١

(٣) جغرافيه السودان، الجزء ٣.

البلاد، يستطيع أن يرسل الجيوش، من هذه البقعة إلى الأقاليم كافة، إن دعت الحاجة لذلك وبعد أن أصبحت القسطنطينية عاصمة بلاد مصر، سميت مصر؛ ولكنها لم تستمع طويلاً بهذا الشرف، إذ بدأت تضعف شيئاً فشيئاً، والقاهرة تزداد قوة وبعد أن تحولت القاهرة إلى عاصمة للبلاد، أُسِّمَتْ مصر أيضاً، بينما عرفت القسطنطينية، التي كانت تحمل هذا الاسم أصلاً، بمصر العتيقة. ورغم ذلك حافظ المصريون على الأسماء القديمة، وأطلقوا على مدينة مصر، اسم القاهرة، وعلى الشارع الطويل المثل على النيل، والذي يشكل جزءاً من مصر العتيقة، اسم القسطنطينية والأوروبيون وحدثهم بذلك اسم هذه المدينة الأخيرة؛ فهم يستعملون القسطنطينية أو مصر العتيقة. القاهرة القديمة، رغم أن سكان البلاد الأصليين لم يسموها أبداً القاهرة.

نعم جيداً أن مدينة القاهرة قد بنيت عام ٣٥٨ أو ٣٥٩ للهجرة، على يد جوهر، قائد جيش الخليفة العاطلي المزمع^(٥) ولكن هذه المدينة الجديدة لم تعتبر صاحبة القسطنطينية إلا عام ٥٧٢، بعد أن سورها صلاح الدين، وبني فيها جوامع جميلة، ومدارس ومستشفيات؛ فالشريف الإدريسي، الذي وضع كتابه قبل هذه الحقبة، لم يأت على ذكر القاهرة، واكتفى بالتحدث عن القسطنطينية، التي كانت معروفة يومها بمصر. نشاهد اليوم في القاهرة بقايا سورين من أسوار المدينة؛ يقع السور الداخلي بين باب الفتوح وباب نصر وباب غرب وباب الشرق وباب العولي؛ ويقع السور الخارجي بين باب الحديد وباب الشرقي بين باب الشرق والقصر، قرب باب القراة. وأنا لا أعرف أي من هذين السورين بناء صلاح الدين لأسى لم أنقر أية نقوش عربية من هذه البنية، رغم توافرها بكثرة، ولكنني أعتقد أنه بين السور الداخلي. وكانت حدود مدينة القاهرة كما وضعها جان ليو، على النحو التالي. تشمل ضواحي هذه المناطق، والأماكن الواقعة خارج باب الفتوح وباب النصر وباب العولي؛ فهذه البوابات الثلاث تضاهي الأضرحة عظيمة وجمالاً. ولاحظ الأمير راندزفيل الذي وصف حدود القاهرة كذلك، أن الشارع الممتد من باب العولي إلى القصر بعد من الضواحي. ويقول السيد جان وابلد الذي قضى عدة سنوات في القاهرة في بداية القرن السابع عشر، إن المدينة كانت مسورة؛ وأظهه يقصد السور الخارجي.

ومن الصعب أن يعرف إن كانت مساحة مدينة القاهرة قد زادت أو نقصت خلال القرون الأخيرة، ولا نمك خاطئة لها.

ثم إنه من خلال وصف جان ليو لهذه المدينة، يمكننا القول إنها لم تشهد تغيرات جذرية منذ عهده؛ ورغم أن شارع تيلون (Teilon) قد صغر بعض الشيء وأن القراة تصمم علداً أكبر من المغاير؛ ورغم أن عدد المنازل بين القاهرة وبولاق ومصر العتيقة كان في تلك الحقبة يعوق عددها الحالي؛ علي أن تأخذ بعين الاعتبار أن هذا المؤلف لا يأتي على ذكر شوارع كثيرة واقعة على الطرف الآخر للمدينة ولعل الضواحي لم تكن متلاصقة ولا قريبة من القاهرة، كما هي اليوم. وهو لا يشير إلى تاريخ هذه المدينة

(٥) وصف عهد الحكم لمصر، وتاريخ الحكام المصريين.

أهدأ، ولذلك ما كنتي بالتحدث عن موقعها ومساحتها انطلاقاً من هذا المنظار، رسمت حارسة للقاهرة والمدن المجاورة بولاق ومصر العتيق وخيبره (اللوحة ١٢). واتخذت ذكره أن تعيد هذه الحارسة تطلب عناء ضوئلاً، كما وأن عطاظة سكان القاهرة تجده كل من يتبع ديانة محتفة عن دينهم، ردت الأمر خضورة ولا إحال أن أحد الأوروبيين يحاول الإقدام على هذه الخطوة من قبل ولكي جارت بقياس الشوارع، خاصة تلك التي لها منعدان، وتحديد موقعها بواسطة بوصلة صغيرة. يجد بين هذه الشوارع الرئيسية أحياء مخفية، تصمم شوارع صغيرة لها منفذ على الشوارع الرئيسية. ويقطع في هذه الأحياء لحريون والسكان الفقراء الذين يعملون في المدن الشرقية في دكاكين صغيرة في السوق. وما كان الزوج يعيب عن مرله طواف النهار، ولما كان الشرقي غير معتاد على ريدة روجة صديقه أو ابنته، فالأجنبي الذي يشاهد في حي محائل، هو حتماً تائه، ويحاول أول شخص يصادفه، إعلامه بأن لشارع لا يبعد إلى الطرف الآخر وعليه أن يعود أدراجه. وبالتالي لا يتسكن الأجني إلا من ريدة الأحياء المنفصلة. بيد أن أنيحت لي فرصة رؤية بعض الأحياء الشعبية، وقد أشرت إليها على خارطتي. لأعطي مثلاً عن مواقع شوارع القاهرة المميزة. وعلى غرار كافة المدن التي رأيتها في الشرق، عمدت إلى الإشارة إلى موقعها ومساحتها وأبوابها على الحارسة. هي حين أنه قلما يهم الأوروبيين التعرف إلى شوارع مدن شرق، ولا أحد يجبر الرحالة على التعرض لهذه المأصر من أجل مسألة صغيرة إلى حد الحد. وسأشرح لكم في ما يلي معنى الأحرف والأرقام التي تشاهدها على اللوحة المذكورة.

على خارطة مدينة القاهرة أو مصر

أ - محل إقامة الباشا الحاكم، ب - حي لانكشاريين أو بمعنى آخر، القصر، ج - حي العربيين؛ تقع لأماكن 'وب ج على صخرة، تسمى القصر أو الحصن، د - محلة فره ميدان، هـ - محلة الرميطة، و - قبة الكش؛ وهي عبارة عن قصر متداع، يقع بقرية جامع طولون - سلطان حسن؛ وهو عبدة عن جامع رائع، على مقربة من سوق عقان، حيث يجتمع التجار كلهم، ح - جامع لأهر، وهو جامع ومعهد، ط - بطركية الأقباط؛ يقيم بها بطرك مصر الإغريقي، ي - كنيسة القديس بولس البوذية؛ ويحد على مقربة منها عقان سمراوي، ك - كنيسة قبطية مبنية فوق أنقاض كنيسة أرمية، ل - كنيسة ومقر أسقف جبل طور اليوناني، م - مقر القاضي، ن - خان الخليل، س - المارسان أو الحجر نصحي، ع - مقر القنصل الفرنسي والتجار الفرنسيين، ف - مقر قنصل البدية، ص - حي اليهود و - قبة العربيين. كانت قديماً مقر جيوش العربيين، وفيها حصن وجامع كبير؛ لكن في هذا المكان يستقبل سكان القاهرة الباشاوات الذين يصلون برّاً، ر - مقابر البسقيين والأقباط، ش - المسلح، ت - فرد لتفقيس البيض؛ ويحد أيضاً في هذا الحي مصنعاً للبرود، ث - فرن الكلس

أسماء الجصور على القناة التي تجتاز القاهرة

أ - قنطرة دم الخنيج، ب - قنطرة الجبة، ج - قنطرة السباع، د - قنطرة أمرشي، هـ - قنطرة الجماهير،
و - قنطرة سفر، ز - قنطرة عبد الرحمن كحيا، ح - قنطرة باب الخرق، ط - قنطرة الأمير حسين،
ي - قنطرة ابوسكي، ك - قنطرة الجديدة، ل - قنطرة باب الشعبة، م - قنطرة الحروي، ن - قنطرة
الصاهر بيرس.

أسماء البرك

س - بركة الشيخ قمر، ع - بركة الرطلي، ف - بركة الليرنكية، ص - بركة المواله، ق - بركة أبو
شوارب، ر - بركة النصر، ش - بركة المصارين، ت - بركة أيوب به، ث - بركة العين

أسماء أبواب القاهرة

١ - باب النصر، ٢ - باب الفتوح، (راجعوا النوحة XIII) ٣ - باب اندبج، ٤ - معمل الشبي،
٥ - باب الشعبة، ٦ - باب البكري، ٧ - باب الشيخ شبيب، ٨ - باب الحديد، ٩ - باب ولاد عثمان،
١٠ - باب الهوى، ١١ - باب الفوالة، ١٢ - باب سوق البكري، ١٣ - باب المدايق، ١٤ - باب الشيخ
ريحان، ١٥ - باب الناصرية، ١٦ - باب غيط الباشا، ١٧ - باب أيوب به، ١٨ - باب صفى ريس، ١٩ -
باب طولون، ٢٠ - باب الخلفي، ٢١ - باب القرافة، ٢٢ - باب الجبل، ٢٣ - باب ليسان، ٢٤ - باب
قره مبدن، ٢٥ - باب العرب، ٢٦ - باب الانكشارية، ٢٧ - باب الوزير، ٢٨ - باب الخطاب، ٢٩ -
باب المعروف، ٣٠ - باب العرب، ٣١ - باب السويلي.

في بلاقي ومصر العتيقة والحديثة

٣٢ - الهالة، صرح متداع يستقبل فيه سكان القاهرة اليشارات الذين يعبرون النيل ٣٣ - متجر
خشب ٣٤ - مستودع قديم للأسلحة ٣٥ - متجر الملح ٣٦ - الحمامك ٣٧ - سوق كبير أو قيسارية
٣٨ - مصنع آجر ٣٩ - أسكن تنزل فيها حجارة ممعيس، وغيرها من المدن القديمة، ويقف منها سكان
القاهرة مياه النيل على الجمان ٤٠ - منزل به ريفي كان يقيم فيه الباشا الذي عرله سكان القاهرة
٤١ - المصطبة حيث يتعلم أسباده القاهرة لعبة رمي القوس. ٤٢ - كهر العين، صرح كبير يسكن فيه حانياً
الدرابوش ٤٣ - منزل متواضع يزل فيه الباشا عند حمر سد القناة؛ وتشيده الحرس بين النيل والسد، صد
تنظيف القناة ٤٤ - كنائس ومقابر قبطية؛ ويقال إن الهياكل العظمية تتحرك فيها مرة في السنة
٤٥ - صرح شاهق، له خمس نواعير، ترفع بواسطتها مياه النيل، لتنقل بعده إلى حزان قرب القصر ٤٦



- جامع كبير ٤٧ - جامع أبو زكي، بابي القناة ٤٨ - كنيسة قبطية ٤٩ - جامع عمرو ٥٠ - بقعة مسورة، يسكن فيها المسيحيون ٥١ - متجر يوسف للفسح ٥٢ - البزار ٥٣ - الجمارك ٥٤ - رن في الجيرة ٥٥ - مصانع فخار.

سم أرسم سوى مياه البرك، التي سم يكن جافة في شباط/فبراير وآذار/مارس. ولم أستطع تحديد سعة الجناش المعلقة على هذه الحارطة؛ ولكنها تكثر في الأماكن التي رسمت فيها أشجار، وتمثل إشارة L.L. المقابر حسب، وتحمل شوارع القاهرة أسماء الأبواب والجمور المحددة لها.

تقع بلدة القاهرة، مصر أو القاهرة الكبيرة، كما يسميها الأوروبيون، على بعد فرسخ عن بولاق والليل، في بقعة رملية، على منح جبل المقطم. ويمكننا رؤية المدينة جيداً من قمة الجبل علماً أنها محاطة من الجهات الأخرى مرتفعات من الأقدار التي تجمع يوماً من المدينة وتنقل إليها على ظهر الحمير ورسم أن القاهرة مدينة كبيرة، لا يمكننا القول إنها مكتظة بالسكان أكثر من لندن الأوروبية التي تواربها مساحة. نجد في هذه العاصمة المصرية مستنقعات كبيرة، تتحول إلى بحيرات صغيرة عندما تمتلئ، بأبواب وتحتل الجوامع المساحة الأكبر من هذه المدينة. وري في بعض الأحياء كمعي باب القوي وصولون وحمي وباب اللوق، والتي لا أعرف شوارعها الأساسية جيداً، رغم أنني أشرت إليها على خارطتي، حماائق مسيحة وأماكن فارغة خاصة بين القناة وبركة العزال، التي عاينتها عن كثب. وعلى خلاف المنازل الأوروبية، لا تتميز منازل القاهرة بارتفاعها. كما وأن معظمها مبني من القريد غير المشوي ولا يتألف إلا من طيفة واحدة. يخال، بعض الأوروبيين، أن مدينة القاهرة مكتظة بالسكان، عندما أنهم لم يعمروا مواقع الأحياء انتباهاً. ففي بعض الأماكن، يستطيع جاران، أن يتبدلا الأحاديث من خلف مزيلهما، رغم أنهما يقطنان في حيين منفصلين؛ بينما يتوجب عليهما قطع ربع فرسخ ليتفيا معاً؛ إذ إن الحي له منعذ واحد على الشارع الرئيسي وبالتالي، يرى الأجسي هذه الشوارع الكبيرة مكتظة بالناس خلال النهار، خاصة وأنها تشبه شوارع مدن الشرق كلها من حيث ضيقها. لكننا غالباً نجد الطرقات الأساسية خالية من الناس، خاصة وأنها بعيدة عن وسط المدينة، ولا يكتر فيها الحرفيون؛ ويبدو الفرق جلياً عند دخولنا إلى الأحياء المنفصلة.

قدمت لنا الكتابات الأخرى شرحاً مفصلاً لعناية عن أحياء مصر وأبنيتها، حتى أننا نستطيع الاكتفاء بذكر موقعها على الحارطة ولكنني سأضيف بعض الأشياء على ما سبق وذكر. يقع القصر بين المدينة وجبل المقطم على صخرة منفصلة عنه. ولا يمكننا تحديد رسم تشيده على هذا الارتفاع ويقال إنه كان مأهولاً بالسكان وبشكل جزئياً من يابن مصر، التي كانت خاضعة آنذاك لحكم اليونان يطلق بيامين دوتودالا على القصر اسم الصوان؛ ويبدو أن يهود مصر كانوا يعتقدون أن مدينة زوان، المذكورة في

الكتاب المقدس، كانت تقع في هذه المنطقة^(٥) واللائم للنظر أن موقع هذه الصحرة ملائم لمعاينة، حتى أن البعض يظن أن المسلمين وجدوها حصينة. لعام ٢١٧ للهجرة، ولقد بنى الخليفة المأمون على جبل المقطم، قبالة القصر المذكور، قصر قبة الهوى، ولكنه مهجور تماماً^(٦).

يتألف القصر من ٣ أقسام؛ جناح الباشا، جناح الانكشاريين، وجناح العمارة. أما جناح الباشا، فمهدم كلياً، ولا يليق بحكام مصر. ولما كان الشاوش لا يطيلون البناء في منطقته وحده، لم يحاور أي منهم بناء قصر جديد؛ وبالتالي فهم يترنون في أماكن لا تليق بهم. يتصل هذا الجناح بالجناحين الآخرين، عبر باين منفصلين؛ ولكن الباشا لا يحتفظ بمفتاحيهما، بل بمفتاحي البابين اللذين يؤديان إلى الميدان، والحل واحقول. وعملاً بتقسيد هذا البند، بعض الأبواب بدلاً بواسطة أفعال خشبية وبعد في جناح الباشا، فسماً لصك الأموال، تصرب فيه عملة سكين الذهبية، والباردة الفضية، والورب النحاسية؛ ولكنها لا توارى الأموال التي تصرب في القسطنطينية قيمة. يشبه جناح الانكشاري قلعة منيعة؛ فهو محاط بسور محصن بأبراج شاهقة على عرار القناعات التركية الأخرى. يتكفل السلطان بدفع رواتب الانكشاريين؛ ولما كان معظم الضباط عبيداً عند عليّ القوم في القاهرة، راحهم أكثر تعلقاً بأسياهم من السلطان. وهم يلجؤون إلى صرد الباشا الذي يعينه المصريون، إن رفض الانسحاب خلال الفترة التي يحددها له البهاوت. لكن العرب لا يحشون الانكشاريين، لأنهم يسرقون لأماكن المجاورة للقصر، والمأهولة بالسكان. ويقع في هذه المنطقة، ينبوع يوسف الشهير والذي يزوره الرحالة كنهم. وم لا شك فيه أن بناء هذا ينبوع يتطلب عنة ومالاً وفيراً، لأنه عميق جداً ومنحوت في الصخر؛ ولكن الصخر حجارة من البكسر البين والمعمل عليها لا يتطلب عناء كبيراً، مقارنة بالمعالم التاريخية الأخرى، مثل الباغود في الهند، المحفورة في الصخور الصلبة. ورسم نوردن صورة واضحة جداً ينبوع يوسف. يعتبر قصر يوسف أكثر الأماكن جمالاً في جناح العمارة؛ وتصنع فيه الأقمشة الفاخرة (الكسوة)، التي ترسل سنوياً إلى مكة على حساب السلطان؛ وترى اليوم في هذا البناء، أنقاضاً كثيرة تدل على عظمتها السابقة. فقد رمت جدران جناح النساء بصور أشجار ومنازل وخلعها وسيفساء من عرق اللؤلؤ، والخجارة الكريمة والرجاج الملون. وترى اليوم في الغرفة التي كان يطرر فيها القماش، بعض البعوش على الجدران، وشهد في غرفة ثالثة، رسومات جميلة على السقف. أما فوق هذا الجناح من القصر، حيث البناء مدعوم بسور ضخم فتصادف شرفة معطاة تطل على الأهرام والمجيرة ومصر العتيقة وبولاق، وتشرف على منظر قاتن. والملاحظ أن تقع في هذا المكان، على أسماء بعض حكام مصر القدامى، محفورة على الجدران. ويقال إن خلفاء مصر وسلاطينها أقاموا في هذا القصر؛ والمدهش أن الحكام الأتراك لم يحذروا حذوهم، ولقد رآني المشرف على العمال،

(٥) يعتقد برناب أن هيلوبوليس كانت تسمى قديماً روان، راجعوا كتاب ملاحظات حول التاريخ القديم.

(٦) التاريخ العالمي الحديث، الجزء الثاني من ١٣٩

الذين يصنعون القماش المذكور آنفاً، وأنا أتأمل القصر، مدعاني لشرب القهوة في منزله. فسأله عن يوسف الذي يحمل هذا البناء الجميل والينبوع المذكور اسمه آنفاً، فقال لي إنهما بها منذ ٦٠٠ سنة، على يد صلاح الدين. وهذا الأمر ليس حاليّاً من الصحة لأن الأمير المذكور هو عدة أماكن عظيمة. وكان يسمى يوسف والد المظفر ابن أيوب. أما الأسماء الأخرى التي حملها، مثل السلطان والمنك والنصر، وصلاح الدين، فهي ألقاب شرف، وتشاهد قرب قصر يوسف هذا حوالي الثلاثين عموداً من الترانيت الأحمر، ولكنها لا تصاهي عمود بومبي، في الإسكندرية، جمالاً وعظمة. أما الطريق المؤدي إلى صف الأعمدة هذا فهو محفور في الصخر، وشاهد على سور أحد الأبنية صقراً منقوشاً عليه، رالت ملامحه مع مرور الزمن.

لم تعد القرافة مأهولة بالسكان؛ لكننا نرى فيها جوامع جميلة مهدمة جزئياً، وأضرحة ملوك مصر التتائي وفي هذا المكان بالذات، دفن الشافعي، مؤسس أحد المذاهب الأربعة التابعة لأهل السنة. وكانت النساء مسلمات تزرن هذا المكان، خاصة نهار الجمعة، إما للعبادة أو للتزود في الجهة الأخرى للقصر، بين جبل المقطم والمدينة، تشاهد عدداً كبيراً من الجوامع المتناحرة، ودور عبادة مجاورة تصور لاسلمين الأثرياء، والتي يبلغ طولها حوالي المثل^(٤).

ونجد أنفسنا أمام خيارين: إما اعتبار قاعد به سيئاً، بين هؤلاء الأثرياء المدفونين أم إنه كان يدرك أن الآخرين لم يتلوا جامعه؛ لأن المعبد الذي شيد في هذا المكان هو في حالة جيدة وقد بنيت حوله عدة منازل وباتت تشكل قرية كبيرة. برقد البزيت الذي شيد جاساً كبيراً بالقاهرة، في الشارع الذي يحمل اسمه في أحد جوامع قاعد به، في الجهة الشمالية - الشرقية، وصريحه معاهد بعدد وافر من المنازل. فيبدو جلياً أن أسياذ المسلمين في مصر، أسرفوا في بناء المعابد شأنهم شأن سلاطين القسطنطينية؛ ولعلهم بالغوا أكثر منهم. سمعت أنه يوم كان ملك البلاد يقيم في القاهرة، كان الشيوخ الفقراء يتقلون من جامع إلى آخر، حيث يؤمنون لهم الطعام والمأوى مجاناً.

يتميز حي طولون بجامعه الكبير، الذي يبلغ طوله ٢٠٠ قدم، وبقلعة الكيش القديمة. بنى هذه القلعة المدعو أحمد بن طولون، الذي تار، عام ٢٦٥ للهجرة في وجه خليفه بعدد. مما يعني أن هذا القصر أقدم من مدينة القاهرة^(٥) ومن بين جوامع هذه المدينة كلها، بعد جامع الأزهر أقدمها وأعنى وأكبرها مساحة، حيث يؤمن يوماً للأكمل والمأوى بعدد كبير من الفقراء. ويجد هنا معهداً إسلامياً شهيراً، على

(٤) يسمى منزلي هذا المكان الصحراء وهو لا يتحدث عن شريح قاعد به مسبب، بل عن جوامع وأضرحة في القاهرة وضواحيها.

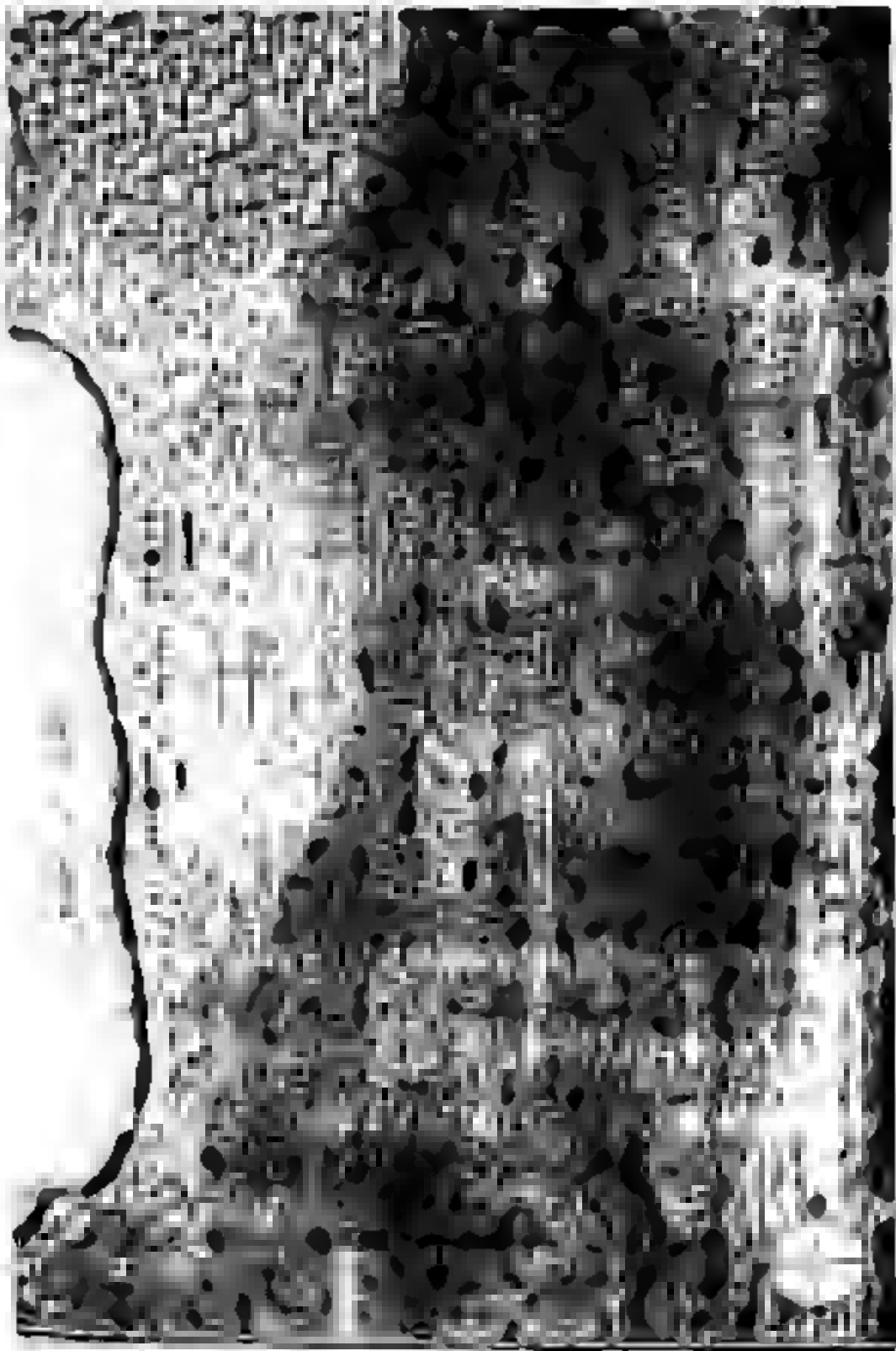
(٥) وصف تاريخي لأفريقيا، جان لون التاريخ العالمي الحديث، الجزء الثاني، ص ١٨٢. وكان يعطى ملوك مصر، منزلي يقول هذا الأخير إن أحمد بن طولون بدأ تشيد جمعه عام ٢٦٣، وانتهى منه عام ٢٦٥، وأن السلطان المنصور روفه بأموال طائلة، وأنه بنى قرب الجامع مدارس كثيرة.

رأسه ٤ ممتين يمثلون المذاهب الأربعة: الشيعي، والحنفي، والحنبلي والمالكي. يدير جامع السلطان حسن، الواقع على مقربة من الرمين، بجماله وارتفاعه وصلاته. وإذا كان يستعمل قديماً كبريى للمدافع، أحيطت بوابات المعبد بالأسوار والجدران دكره أن عدد الجوامع في القاهرة كبير جداً، وأعلى أن تعدادها وذكر أسمائها والإشارة إلى موقعها على الخارطة قد يشير ملل القارىء. سأكتفي إذن بالقول إن عدد كبير منها له أكثر من منارة، محاطة برواق أو أكثر، تستعمل لدعوة الناس إلى صلاة بقول المسلمون، إن رين الأجرى خاص بالدواب؛ يصوب أجراس صغيرة باخمان والعمال التي تستعمل في القنابل. وتقتصر ربة الجوامع على السجاد الفاخر أو الحصر البسيطة، والقوش الذهبية على الجدران، التي تتضمن نبات قرابة وقناديل غير جميلة معلقة أفقياً بسلسلة من الخلفات ومن الجهة لمقبلة مكة، يرى كوة من المرمر، تسمى القبلة، وصنع أمامها شمعندان كبيرين فيهما شموع طويلة وحلال الصلاة يوجه المسلمون كلهم وجوههم نحو القبلة. أما المارستان فهو مستشفى المجدين والمرضى ويهون إن مررت أعرب تحدث تفصيلاً عن عائدات المستشفى والجوامع الكبيرة واللائت للنظر أن المشرفين على إدارة هذه الأموال يحضون بسرعة، يسا تعثر احوامع شيئاً شياً، ولا أن يظهر ورثة جدد يحاولون إصلاح الأضرار التي تسببها هذه العمليات. ومن لا شك فيه أن هذا المستشفى محجر بكل ما يحتاجه المريض حتى الموسيقى. ومن المعروف أنه لسواب خلت حرم المرضى من هذه التسلية؛ ولكن العصف يعود بعد الرحى الكحيا في التمتع بها ثانية. ونم أر من هذا السبى إلا جاح المرضى الذين كانوا قنة، مقاربه بكبر مساحة المدينة وتكثر في القاهرة المباني الحجرية الصلبة المجهزة بعرف صغيرة ودكاكين للتجار ومن الملاحظ أيضاً أن عدد الحمامات العامة مرتفع جداً ورغم أن مظهرها الخارجى ليس لائقاً إلا أنها فسيحة ونظيفة من الداخل. فالأرض معطاة بنمر العاجر وبسهر لخدم بها على راحة لزوار وجميع دكره أن الاحتمالات التي يهيمون بها مع الذين يرتادون الحمام، تبدو لي عايه العربية بالنسبة للأوروبي، حتى أنه يحالهم يسحرون منه. لكن هذا ليس من شيم الشرقيين. ومن لأفصل أن يذعن المرء لإرادتهم، ويحاول الاسترخاء، يجد في داخل السبى عرفة صغيرة، وضع في وسطها عمود حوله حوالي مدمين ونصف القدم، يجلس عليه كل من يشاء اقتراع الشعر عن أعصائه الساسية بواسطة مرهم يباع في الحمامات. وما لعت «نباي في هذا المكان، هو أسى رأيت بين رسومات القدامى صوراً لأشخاص عرة جالسين على هذا العمود. وهذا الأمر يدعني للاستساح أن هذه العادة الرائجة اليوم في الحمامات، هي قديمة العهد ومن ين المباني العامة في القاهرة، بذكر أيضاً لحدول لتي يمدم أهلها يومياً الماء مجاناً للمارة. وتتميز بعض هذه الماز، بمظهرها الجميل؛ ويحتفظ أهدا على الشرقات بكؤوس نحاسية نظيفة مملوءة باناء، تقدم للمارة وتكثر في القاهرة أيضاً البرك التي هي عبارة عن أماكن محفصة. تتحول في غضون ١٢ شهر إلى بحيرات صغيرة، لتصبح بعدها حدائق عناء ومروجاً خضراء ثم لتسبى نجيراً صحراء. ويقام في هذه المناطق، وخاصة في محيط بركة العيل، أسياذ المذهب. لكن المسلمين لا يظهرون أبداً عظمتهم على صرلهم؛ ولهذا السبب لا يرى من قصرهم إلا الأسور الشاهقة.

تحدثت سابقاً عن أنقاض هيلوبوليس، التي تراها على بعد فرسخين شمالي الشمال الشرقي للقاهرة. ونجد على مترية من هنا قرية مطاره، حيث نرى أشجار جميز يحلها مسيحيو الشرق؛ إذ يُزعم أنها فتحها أغصانها لتحيى يسى العائلة المقدسة، خلال هروبها من مصر، إلى أن مر مصطفى دوها. تحدث السيد بريتساح والأمير رادفيل، وغيرهما من هذه الأعجوبة ولكن يجدر بنا ألا نتوقع العشر هنا على الشجرة نفسها التي يزيد عمرها على ١٨٠٠ سنة. ويقول الأمير رادفيل إنها شاهقة وكثيفة ومشقوقة؛ بينما يدعى ويند أنها مقسمة إلى ٣ أقسام ولا أذكر أنني شاهدت شجرة تحمل هذه المواصفات؛ مما يجعلني أشك بأن الشجرة التي كانت تُجنى منذ ٢٠٠ سنة، لا تزال موجودة حتى اليوم. ولكن المسيحيين الذين يعبرون من هنا، يأخذون قطعة من هذه الشجرة التي يزعمون أنها مقدسة. ونرى بالقرب منها يبرعاً تدفقت منه المياه العذبة، عند مرور العائلة المقدسة بمحادثته. فضلاً عن شجر البان، الذي قصي عام ١٦١٥ بفعل فيضان مياه النيل، وفقاً لكلام هنري رانزوف؛ ومنذ خصص مصر لحكم الأتراك، لم يتكبد أحد عناء زراعة نباتات جديدة من هذه العvisية من الأشجار.

وعلى بعد ٤ فراسخ شرقي القاهرة، تقع بركة الحاج، التي تصب فيها مياه النيل؛ ويتجمع سنوياً حولها الحجاج قبيل اضطلاعهم إلى مكة، وبعد عودتهم منها. وتكثر حول هذه البركة القرى والنازل القروية المتدنية، التي تعود لسكان القاهرة، وبعض بساطين البلح؛ وهي تتميز بالبقعة الفسيحة التي يخيم فيها الحجاج. وبعد عودتي من دميصة في ٢٠ أيار/مايو عام ١٧٦٢، أي قبل يومين من انطلاق الحجاج، أسرعت لمشاهدة هذه القوافل الشهيرة قرب بركة الحاج ووصفت مشروع التخييم (راجعوا اللوحة ١٤) بيد أنني لم أنقل بصورة صحيحة الموضع التي كانت تقع المحيم؛ فكل مسافر يصب خيمته حوشاً يحلو له. لكن أمير الحج وحده هو الذي كان يملك خيماً كثيرة، كان يصحبها بشكل منظم. وإليك شرحاً للأحرف المشار إليها على الخارطة المذكورة آنفاً. أ - خيم أمير الحج، وفي وسطها خيمة صغيرة يوضع فيها القماش الناعم، الذي سيقبل إلى مكة، ب - مقر الأمير خلال النهار؛ نجد أمامها ٣ مدافع صغيرة؛ وأربعة أمام المقر (ج)، د - خيم بالمي الخزن. وتمثل الخطوط المستقيمة الخيال التي تربط بين الخيول والجمال، هـ - قرية فقيرة، و - منازل قروية ملك أسياء القاهرة. تشير الأحرف المتيقة إلى خيم مستديرة ومستطيلة. وإني لم أشاهد هذه القافلة وهي تغادر القاهرة؛ ولكن تناول بعض الكتاب هذا الموضوع بتعصيل دقيق. وينصم إلى هذه القافلة المقريون أو عرب الغرب، ويتبعون رحلتهم برفقتها؛ علماً أن المقريين الذين يدرسون الأعمال التجارية، يسافرون مع المصريين؛ أما الجزائريون والتونسيون، وأهالي طرابلس الغرب، فيسبقون الآخرين أو يحطون وحالهم بهم يرم واحد؛ كما وأنهم لا يقدمون رسم العبور للحكومة المصرية.

يقام في بلاق بازار كبير يعرف بالكيساري (Kissari)؛ أخبرني صديق لي مقيم في القاهرة، أن الأباخرة الإغريق أو الرومان أطلقوا عليه هذه التسمية. ولكننا نجد في مدن أخرى، كبيروت مثلاً، أسواقاً هائلة، تسمى كيساري (Kissari)؛ فهذه التسمية مرادفة إذن للبرستان في التسطنطية، وعمان في



القاهرة^(٥). وتعد بولاق اليوم مدينة مهمة، ومرقاً أساسياً من مرافق القاهرة؛ إذ تمر فيها كل البضائع التي يرسل عبر النيل، من «مياط ورشيد إلى العاصمة، أو إلى المتوسط؛ مما يعني أنها تجد فيها أهم مركز للجمارك وتكثر في بولاق مستودعات الأرز، والملح، والبارود الأبيض والخشب، والزعفران، الذي يصر في مصر العليا، ولكن الزعفران الذي تنتجه مصر الوسطى يصدّر إلى القاهرة. وتجد أيضاً في بولاق مستودعاً خاصاً بالسلطان، يجمع فيه القمح الذي يرسل سويلاً من مصر إلى مكة والمدينة وأخر قديماً، يوضع فيه عتاد السفن المائدة إلى الحقة التي كانوا يملكون فيها أسطولاً في السويس.

تعد القسطنطينية أو مصر العتيقة - كما اعتاد الأوروبيون على تسميتها، مدينة يحد داتها ... ولكنها صغيرة جداً مقارنة بمدينة القسطنطينية القديمة، التي كانت عاصمة مصر. وتجد فيها مركزاً للجمارك تدفع فيه رسوم عبور البضائع المرسلّة من مصر العليا، فضلاً عن مكان فسيح محاط بسور حصين تجمع فيه الحكومة القمح في انهواء العلق؛ ولقد شيد هذا البناء في عهد الخلفاء المسلمين. أما المؤلفون الذين يؤكدون أن يوسف بنى مستودع القمح هذا، فقد عدّدهم بيمين دونولا، الذي يقول في سير رحته (ص ١٠٤) إنه وجد في مصر العتيق بقايا مستودعات قمح، بناها يوسف. ولكنه يتحدث عن مميس الواقعة على بعد فرسخين من مصر العتيق ويقع اجمع الذي ساء القائد العربي، عمرو بن العاص، بين مصر العتيق وجبل المقطم. يروى عليه القوم في القاهرة مرة في السنة احتفاءً بذكرى بناء المسجد الأول في المكان نفسه؛ ويرى في سجلات بناء محاصراً بسور قديم، راجعوا الصورة على الصفحة ١٢) ولعل حصن مدينة مصر، المذكورة في حديث العرب عن عمرو مصر، كانت مبنية في هذا المكان؛ والجدير ذكره أن هذا الحصن المتداعي مأهول اليوم بالمسيحيين. وتجد في هذا المكان أيضاً عدة كنائس ومقابر إغريقية وقبطية وديراً للسنة الأقباط، ومقبرة مقدسة، إذ يقال إن العائلة المقدسة أقامت فيها لبعض الوقت. يحتفظ الإنكليز والفرنسيون بمقبرة هنا، وكنيسة صغيرة، يقيم بفرها راهب فرنسيسكاني. تشتهر كنيسة القديس غريغوريوس الإغريقية بمجائبها الكثيرة، يقال إن المجانين من المسلمين والمسيحيين على حد سواء، يستعيدون رشدهم إن أوثقوا بقللاً مربوطاً بأحد أعمدة الكنيسة، وتليت الصلوات لراحة أنفسهم. وعلى مقربة من الكنيسة، شاهدت براً عتيقاً، يملأ سويلاً بالمياه عند ارتفاع منسوب مياه النهر. وقبل لي، إن ضعة النيل، كانت قديماً في هذه البقعة؛ وهذا الأمر ليس بغير تماماً من الصحة، إن أخذنا بعين الاعتبار تغير مجاري الأنهر مع مرور الزمن، خاصة في النعاط التي تمر فيها أمام المدن. وبالتالي فالقناة الممتدة بين القسطنطينية وجزيرة الروضة تبقى جافة عند انخفاض منسوب المياه. ولقد أشار الأمير رادرفين، أنه منذ حوالي ٢٠٠ سنة كان الناس يعبرون من مصر العتيق إلى جزيرة الروضة مشياً على الأقدام؛ نظراً لانخفاض منسوب المياه. ولعل صفة النيل الشرقية لم تشهد تغييرات ملحوظة منذ عدة قرون.

وعُملت على الخارطة القناة التي تنفل بوسطها مياه النيل إلى قصر القاهرة، والتي شُيّدت حسب

(٥) تسمى الأبنية العامة في بلاد مصر كساري (Cassene) ١) تلويح بلاد الجبر، يار دانا، ص ٦٨

تقرير عراقي على يد السلطان القوري الذي استلم الحكم العام ١٥٠١ ميلادية، وجد على الصفة الأخرى للعتاة التي تحتل القاهرة وعلى مقربة من النيل، صرح كفر العين الذي تعلوه قبة ويشير السرايش الذين يقطرون فيه حالياً - ويجتوب منه مبالغ طائلة - إلى البعثة التي قتل فيها السلطان سليم. كما وأنهم يذكرون طرائق أخرى بحفنة فوق باب هذا الدبر، ومنها حذاء يسبح طويلاً ٢٢ بوصة، قبل أن درويشاً يدعى إبراهيم ارتداه في عهد السلطان بيبرس؛ وغليون رأسه كبير، وغيرها من المواد التي جمعتها هذه الأحياء خلال رحلاتها، واحتفظت بها بذكرى. وعلى مقربة من هذا الدبر، اعتاد أسبغ القاهرة وأفراد عائلتهم، الثوب بالبنادق والأقواس، بهاري الأرباع والسبت؛ إذ أقام بعض منهم في هذا المكان حجارة تدل على بعد مرمى السهام.

تقع مدينة الجيزة على الضفة الغربية للنيل، قبالة مصر العتيقة؛ إلا أنني أجهل أصل هذه المدينة، ولكنها ليست بجديدة نظراً للارتفاعات المحيطة بها التي تشكلت بعض القمامة التي تجمع من الطرقات وتنقل خارج المدينة. وأحالتها بررت مع بروز مدينة القسطنطينية، وانحلت مع انحلالها أما سكانها فمعظمهم من الحرفيين، الذين كانوا يعملون في القسطنطينية، وارتأوا العودة إلى القاهرة، بعد انحلال القسطنطينية. لم يفت انتباهي في الجيزة إلا المنازل القروية وبعض المصانع.

تقع جزيرة الروضة بين مصر العتيقة والجيزة. وخلال القرون العشرة الأخيرة، لم يطرأ أي تغير على مساحة هذه الجزيرة؛ وإن شئت وصف مساحتها وصورتها، عليه أن نقرأ كتاب الشريف الإدريسي ففي زمن هذا المؤلف شهدت مصر العتيقة ازدهاراً مرموياً. بينما كانت تصب هذه الجزيرة حدائق غناء ومزارل قروية جميلة، ونظراً لتكاثر أعمال سكان العاصمة على الضفة المقابلة للنيل، بني جسر يمتد بين القسطنطينية والروضة وبين الروضة والجيزة. لكن أصبحت القاهرة العاصمة، وهدم الجسر الذي يصل القسطنطينية بهذه الجزيرة؛ إذ نقل سكان القاهرة منازلهم القروية إلى مصر العتيقة وبولاق، وبركة الحاج. وبالتالي، فقدت الروضة معالمها المميزة باستثناء سور كبير على الطرف الجنوبي، وبعض الصروح القديمة ومنها الجامع الذي يحوي المقياس الشهير. رسم عدة رجاله هذا الصرح؛ ولكن توردن وحده الذي أجاد رسمه. والمدير ذكره أن الصورة أجمل من الأصل الذي نقلت عنه.

لست أدري إن حاول أحدهم قياس عرض النيل؛ ولقد قسمته بواسطة قاعدة طولها ٢٣٣ قدماً وراويتين مثلاًصتين فوجدت أن عرض النيل قرب الجزيرة يبلغ ٢٩٤٦ قدماً بما فيها عرض جزيرة المقياس التي ظهرت منذ سنوات قليلة. لكن يبلغ عرض النيل قرب رشيد ٦٥٠ قدماً وربع دمياط ١٠٠ قدم في الواقع ويرتفع منسوب النهر في شهر حزيران/يونيو لمدة ٤٠ أو ٥٠ يوماً حتى يعود وينخفض شيفاً فشيافاً؛ إذ إن السماء تمطر بغزارة خلال أشهر الصيف الحارة، في الحبشة والجهة الغربية لجبال اليمس، مما يؤدي إلى فيضان مياه النيل. كما وأن أنهر اليمس تفيض في الموسم نفسه، لتصب في البحر أو تنصبها الرمال؛ بينما تتجمع الأنهر والجداول في الحبشة لتشكل نهراً واحداً يجتاز بلاد مصر كلها. وهذا لم يسمح لي بقياس انخفاض منسوب المياه قرب المقياس، بحيث في الجزيرة على أحد الجدران الوعرة على دليل عن أعلى

سنة لميضان مياه النيل الأخير، ووجدت أنه في ٣٠ كانون الثاني/يناير ١٧٦٢، كانت على ارتفاع ١٥ قدماً، فوق سطح المياه، وانخفضت بمعدل ٢٤ قدماً في الأول من حزيران/يونيو التالي. من المؤكد إذن أنه في صواحي القاهرة يرتفع مياه النيل بمعدل ٢٤ قدماً. يسعد أكندو لي في دمياط والقاهرة أن ارتفاع منسوب المياه لا يزيد على الأربعة أقدام، فإن تأملنا في فيضان النيل، نرى أنه في البقعة التي يضيق فيها مجرى يرتفع منسوب المياه في أكثر من جهة المتوسط ودب بعد أن يروي الحمول اليابسة المجاورة للقاهرة، ويملاً البرك أو البحيرات الصغيرة ويقسم إلى مروج صغيرة. ولكن لا أحد يتوقع هذا الفرق في ارتفاع منسوب المياه ضمن هذه المسافة الصغيرة. وعند ارتفاع منسوب النيل، تمتد وتنشط القنوات التي اشتقت من النهر الكبير لدى الأرباب المجاورة؛ ولا تفتح إلا بعد أن يبلغ منسوب المياه ارتفاعاً محدداً. مقياس جزيرة الروسة وحده الذي يحدد هذا الارتفاع وقد أوكلت لأحد الشيوخ مهمة الإعلان عن ارتفاع منسوب المياه. ويسارع الفقراء الذين يسمعون الخبر في مصر العتيق والفسطاط إلى القاهرة لنشره في شوارعهم وأحياتهم. ويعودون بعدها إلى الفسطاط، ليصرح لهم الشيخ من جزيرة الروسة عن مقدار ارتفاع منسوب المياه. فيشر هذا الخبر أيضاً إلى أن يبلغ النيل الارتفاع المطلوب، لفتح القناة التي تحتلز القاهرة؛ وهذا يعني أنه يتوجب دفع الصرية للسلطان، وأنه لا داعي للخوف من الجفاف. ولكن لا أحد يعتمد على الأخبار التي تزداع حول فيضان النيل. الشيخ وحده يقترب من المقياس، ويعلن في البداية عن ارتفاع يسعد لمنسوب المياه، ليخبرهم لاحقاً عن تدفقها بشكل قوي؛ فإن لم يرتفع المنسوب كثيراً، فلا يخشى السكان من عدم بلوغه الارتفاع المطلوب قبل فتح القناة. شاهدت مصيها في القاهرة، وحاولت مراقبة اختلاف ارتفاع منسوب المياه على سور وعمر، وفي اليوم نفسه قبل في البداية أن منسوب المياه يرتفع ٣ مرات أكثر مما كنت أظن. وكنت أظن أن يشيد يوماً ماء نحر أوروي من القاهرة، أو أحد رهبان هذه المدينة، أو رحالة أوربي، مقياساً شبيهاً بمقياس المسلمين. واليكم أفضل طريقة للقيام بذلك بعد بلوغ منسوب المياه أدنى ارتفاع، يقاس علو السور المحادي للنهر، ونحصى الحجارة التي تعلو سطح المياه، ومراقب ارتفاع منسوب المياه يوماً بيوم. خلال ارتفاع منسوب المياه، ملاحظ أحياناً انخفاضه بشكل فجائي، ولعل ذلك عائد إلى سحب المياه في أحد القنوات. وقد يؤدي إلى اختلاف واضح في فيضان النيل. في السنة التي قصدت فيها بلاد مصر، شر للمرة الأولى في ٢٩ كانون الثاني/يناير أن منسوب مياه النيل بدأ بالارتفاع؛ وبشر في ٨ آب/أغسطس أن ارتفاعه بلغ ١٦ ذراعاً. بعد ذلك شُيد سد القناة التي تحتلز القاهرة، في ٩ آب/أغسطس، ورافق ذلك احتمالات تقليدية تحدث عنها مطولاً عدة مؤرخين. انتظرنا طويلاً لنشاهد تدفق المياه في المدينة؛ ولكن انتظرنا ذهب سدى؛ لأن القناة لم تنظف جيداً ثلث السنة، ولم نشاهد تدفق المياه إلا مساء العاشر من آب/أغسطس. وأثار هذا الحادث الاستثنائي بليلة بين سكان القاهرة؛ وقيل إنهم سينزلون العقاب لكل من أساء تنظيف القناة؛ ولكنه دفع مبلغاً كبيراً للملك، وبس على حسابه سداً جديداً للقناة، ووضع حجر الأساس له في ١٢ آب/أغسطس، بعد حفر قناة القاهرة، فتمت القنوات الأخرى شيئاً فشيئاً؛ إذ لا يحق لكل منطقة بنزع ماء النيل عند ارتفاع منسوبها.

ولهذا السبب وضع المصريون قوانين خاصة بهم تنظم عملية سد القنوات الصغيرة وتبني مجاري اليرك في القاهرة وصواحيبها مسدودة ثلاثة أيام حتى تصب مياهها في القناة التي يختار القاهرة، وفي تلك السنة، لم تصل المياه إلى بركة البرهكي إلا في ١٨ آب/أغسطس.

بين سد القناة التي تبحر القاهرة والنيل شيد عمود من التراب في وسط القناة؛ ويطلق المصريون على هذه حصة من التراب اسم العروس. وقد علمت أن المصريين الوثنيين كانوا يقدمون مسواً عذراً كأضحية لنيل. لكن المسلمين أرادوا بناء مئذنة للشعب من خلال عمود العروس هذا؛ قبل أن يبني السد، فمجرى المياه ليس قوياً كفاية إذ لم يصل لغلب العروس التي تدل على مدى ارتفاع مسسوب مياه النيل. لكن بعد اقيام بناء السد أمكن التحلي عن خدمات عروس؛ ولما كان المجرى يقوى كثيراً في القناة خاصة في الأيام الأولى للمياه متقلبة حتماً وذكر عابريال سيرينتا في ملحق كتاب الشريف الإدريسي، أن المصريين يجرون احتفالات لتحديد ارتفاع مسسوب مياه النيل مسبقاً ويقام في بلاد مصر، ١٧ من مساء ١٧ حزيران/يونيو إلى ١٨ منه، يبدأ مسسوب مياه النيل بالارتفاع في الخيشة، أو تسقط النقطة التي تسبب فيضان النيل وهي الليلة المذكورة، تصنع النساء عجياً على سطوح منبرهن؛ فإن راد ورنه بدلت يشير إلى سقوط النقطة؛ ومن خلال هذه التحريك، يحاول المصريون تحديد مدى ارتفاع مسسوب مياه النيل وأسعار العاكهة للسنة المقبلة. ولما كانت حرارة في بلاد مصر، معتدلة جداً، فقد يتساقط الندى ليلاً في ذلك الفصل ويؤدي إلى زيادة وزن العجين. ولما كانت النساء تعرضن العجين للمرة الأولى في الليلة المذكورة، عدت يمر إيمانهم بصحة احتبرهن بيد أن النساء لم يتفقن تلك السنة حول الليلة التي سقطت فيها النقطة؛ إذ إن بعضاً منهن لم يحسن الترتيب الزمني القبطي من المؤكد إذن أنه تجري كل سنة في بلاد مصر، تجارب لتحديد من ارتفاع مسسوب مياه النيل والسبب بالجداف أو برره مياه. لكن علماء المسلمين يعتبرون هذا الأمر مجرد تسمية سائبة. وقال بي أحدهم إن علماء الفلك العرب يسمون النقطة دخول الشمس في برج سرعان، ويعمل هذه التسمية تحت الناس على القيام بهذه التجارب الثانية. وأظن أن السيد فورسكال قام بنفسه ببعض التجارب؛ وإليكم شرحه لهذا الموضوع

وفي ليلة ١٧ حزيران/يونيو ينتظر سكان القاهرة سقوط النقطة؛ ولما كانت أشهر اسميين لا تصادف دوماً في موسم نفسه فهم يبعون الترتيب الزمني القبطي. بعض المصريون أن انقضاء تتساقط من السماء في الليل في النيل، وتؤدي إلى فيضان النهر بعد أسبوعين أو ثلاثة. ويتم التكهن حول فيضان النيل المقبل، وخصوصية السنة القادمة في هذه الليلة بالذات. وإليكم ما يعبونه بوضع رجل من الطين في وعاء عتيق، يضاهي إليه رجل من ماء النيل وشركة يوناخ حوال الليلة التي تنوع فيها سقوط النقطة سواء داخل المنزل أو خارجه. فإن شرب الطين الماء كانت السنة جافة؛ لكن لا بقي بعض الماء كانت السنة غنية بمياه. تمت بعصي بهذا الاحتبار عدة مرات؛ وكانت المياه تبقى في الوعاء دوماً غير أني لا أظن أن تراب

النيل، يمتص كمية كبيرة من المياه؛ والدليل على ذلك ميضاب نهر النيل مسويًا. فالكمية المتبقية من المياه لا يصح شيئاً غير أن كل إنسان يحاول التكهن بما يحلو له

والحكم طريقة أخرى للتنبؤ: تصنع ١٢ علبة صغيرة من الورق، ويكتب على كل منها اسم شهر قبطي. ويوضع في كل علبة حبه فصح من الورق نفسه. لكن إن راد ورن إحدى العلب، قيل إن مياه النيل ستفيض في الشهر المذكور على العلية. بيد أنني أجدهم الاختبار أكثر غرابة من الأول.

ويقال أيضاً إن المعجينة التي توضع في الهواء الطلق عشية سقوط النقطة، تتحول إلى خميرة وإن شاء أفراد العائلة أن يتسلوا وضع كل واحد منهم قطعة من المعجين في محض مفرد؛ ومن ترفخ عجينة أكثر سيسعد أكثر من سواه. أجريت هذا الاختبار عدة مرات. وفي الليلة التي سبقت ١٧ حزيران، يوليو، لم ترفخ المعجينة؛ ولكن في الليالي الثلاث التالية رفخت كثيراً. ربما لا شئت فيه أن ارتفاع الحرارة هو الذي أدى إلى ذلك، وليس النقطة المجائية.

ذكرت لكم سابقاً أنهم ينظفون قناة القاهرة مسوياً، لتستعمل بعدها كشوارع؛ غير أن ذلك لا يسوم طويلاً، لأن السد سيحرق مريعاً. خلال الأشهر التالية، ويستمتع أصحاب المنازل الواقعة على الضفاف بمياه الجارية؛ ولكن سرعان ما تتكدس عندها أوساخ المنيعة كلها باعثة رائحة كريهة بلقاية.

لا تنافر مياه الشفة في القاهرة؛ وهي تنقل إليها يومياً من المناطق النائية، على ظهر الجمال والحمير. وتجد تحت المساجد الكبيرة مخازنات عامة، تملأ بالمياه لتزود المدينة بها، عند ارتفاع منسوب مياه النيل، وتعكر صعوها. لكن إن ترك داخل الأوعية باللوز أصبحت المياه صافية وصالحة للشرب. ويقال إن مياه النيل تسبب طفحاً جلدياً، في أحد فصول السنة؛ غير أنه ليس مرجحاً ولا يعبر بالصحة



سكان مدينة القاهرة وشكل الحكم والتجارة فيها

إن غالبية سكان القاهرة من العرب والأتراك وغيرهم من أَسْمَاء من كافة الولايات التركية. وهناك المنريون أو عرب بلاد البربر والأمريقيون والشر والعارسون. والمسلمون أباً عن جد هم من أهل السنة وينتمون بمالبيتهم إلى المذهب الشافعي. ويعتبر الأقباط المسيحيون الأكثر عدداً بعد المسلمين. وهم ينحدرون من المصريين القدماء والأتراك يدعواهم بسحرية؛ خلف فرعون. ويسكن الأقباط في الشوارع الكبيرة المحيطة لمكة البرهكية (Birket el Jüsbekie) ولقنطرة الشرق (Kantaret el Charq) ولباب شيخ زمان (Bâb Schech Ribân) وفي أماكن أخرى لهم كنيسة في القاهرة وعدة كنائس أخرى في مصر العتيق (Mast el atik) وهي المدينة التي اتخذها البطريك القبطي مسكناً له علماً أن كافة الكهنة لأقباط في مصر يخصصون له كما ويرسل إلى ليطيشة رئيساً للإكليروس

أما اليهود فيحلون المرتبة الثالثة من حيث العدد بعد المسلمين والأقباط. ينقسم اليهود إلى فرسيين والتموديين وأيضاً الفرثيين (Karaites) وهم كنيس خاص بهم بالرغم من صغر عددهم. يحتل التلموديون مركزاً جيداً في مصر، فلقد وضعوا يدهم منذ عدة سنوات على كافة الجمارك في يولاق (Bulak) ومصر المتبعة والإسكندرية ودمياط. ولهذا السبب، يمكنهم أن يحصلوا على الحماية والدعم في مصر أكثر من ولايات الإمبراطورية التركية حيث يكون رجال الجمارك من جماعة الباشاوت أو مدير عام الجمارك الذي يسكن في القسطنطينية. ونذكر من أهم الأدلة على نفوذ اليهود في الجمارك أن الدوائر الجمركية تقفل أيام السبت في وجه كانه البضائع سواء كان أصحابها من المسلمين أو من المسيحيين. واليونانيون كنيسة في القاهرة يستقر في إحداها مصريوهم وفي الثانية مطران جبل سيناء ويقل عدد الأرمن في القاهرة لكن لديهم كنيسة صغيرة جميلة تابعة لكنيسة الأقباط في قنطرة جديد. أما فيما يتعلق بالجماليات الأوروبية فهناك قنصلية فرنسية في القاهرة وأخرى هولندية وثالثة إيطالية كما وتجد تجاراً فرنسيين وإيطاليين، أما التاجر الهولندي الوحيد الذي كان قد استقر في القاهرة قبل مجيئ إليها بقليل ضد عاد إلى إزمير ونحن لا نزال في القاهرة. ويكثر الكهنة في هذه المدينة من يسوعيين وكبوشيين وآباء التبشير وآباء الأرض المقدسة والفرنسيسكان يجدون للحصول على أتباع لهم وغالباً ما ينجحون في هداية بعض مسيحيي الشرق إلى الكنيسة الرومانية. ومع أن هؤلاء المهتدين الجدد يسوء سلوكهم كمواطنين على حسب ظن المسلمين، إلا أن الحكومة لا تتدخل في مع انبشرون الأوروبيون لأن التجار غالباً ما يمدح بين المهتدين الجدد والمخلصين للكنيسة القديمة فيصطر الفريق المعادي إلى دفع حرمة

لباشاوت وأحياناً يضطر الرهبان أنفسهم إلى دفع مبالغ طائلة.

يلتزم زمام الحكم في القاهرة باشا لكن سلطته ليست كبيرة مثل الباشاوت في الولايات الأخرى، ذلك لأنه يخضع خضوعاً شديداً كأي جمهورية أو لندون الجمهورية أي للبهوات ورؤساء الجيوش المصرية ولغيرهم من المديرين في القاهرة. ولأن عطية تمكيز المصريين يختلف عن نمط تمكيز الباشا، يعتبر هؤلاء حائراً ويقصونه عن الحكم عندما لا يكون سياسياً محتكاً يعرف كيف يحزض الأحزاب بعضها على بعض وعندما كنت في الإسكندرية، قام أهل القاهرة بطرد أحد الباشاوت. أما مصطفى باشا فقد عين مرتين وزيراً كبيراً ثم مرة ثالثة لاحقاً. وكان قد تنقّل بالأمر بالتوجه إلى جدة لكنه ادّعى المرض ولم يذهب مع القافلة الكبيرة التي كانت متجهة إليها بل أرسل مكانه وزيراً معروضاً مطلق الصلاحية وبقي في مصر. ثم بعد ذلك اختاره المصريون باشا عليهم وتصرفوا بطريقة جمعت السخطان يعينه حاكماً على مصر بالرغم من استيائه من مصطفى باشا ومن المصريين. إلا أن هذا الأخير لم يشغل منصبه إلا مدة سبعة أشهر إذ أرغم على التخلي عنه لصالح باشا آخر قادم من القسطنطينية إلى القاهرة. ونوع الاثنان كمايجي باشي (Kapıdaşı Başçı) لكن الباشا الجديد توفي فجأة أثناء الليلة التالية. وهكذا فقد توالى على الحكم ثلاثة رجال في الفترة القصيرة التي مكثت فيها بمصر. كما يستبدل قاضي القاهرة الأول كل ستة بقايس آخر من القسطنطينية. ولست أدري إذا ما كان هناك مناصب أخرى في القاهرة تخضع مباشرة لقرار السلطان أو المفتي الكبير.

بعد منصب الباشا أو حاكم السلطان، يأتي مباشرة منصب البهوات. ومع أن السلطان هو الأمر النهائي في موضوع تعيينهم إلا أن المصريين هم الذين يقترحون أسماء المرشحين. وكثيراً ما يكون هؤلاء من المسيحيين الذين أحضروا في سن مبكرة من جورجيا إلى القسطنطينية ومنها إلى القاهرة فسبوا بسنين أو مئة قرش إلى البهوات والمسؤولين الكبار في القاهرة فيصحبهم هؤلاء وكأنهم أبائهم قائماً كما كان الأسياد المسلمون المحترمون يناملون عبيدهم. ثم كانوا يديرون لهم وظائف مدنية أو عسكرية في فرقهم الخاصة إذا ما وجدوهم أهلاً لهذه المناصب إذ كان لكل به حراسه الخاص أو حتى جيش صغير خاص به كمؤثر على عظمتهم وكوسيلة لحفظ الأمن في الولاية وللقاطعات التي يسيطر عليها. ولأن هؤلاء العبيد يدينون بكل ما لديهم لأسيادهم، يخدمون بخصيصون لهم الإخلاص كله. وعندما يلاحظ أحد الأسياد في عبيده قدرات واعده وإخلاصاً كبيراً يسخره في تنشئة ويصرف عليه أموالاً تفوق الأموال التي يصرفها على نفسه لأنه يساهم بهذه الطريقة في تعزيز شأنه في الحكومة. ولقد عرفت أحد التجار الأعيان وكان لديه خادم واحد وحمار واحد يخطيه عندما يخرج لإدارة أعماله. لكنه كان قد وضع بعض عبيده في مناصب ضباط رفيعي المستوى في الجيش المصري وكانوا يظهرون بأنهم وجلال في الشروع لكن ذلك لم يجعل دون نفاقهم في الدفاع عمن أحسن إليهم. يحكي عن رجل يدعى حسن الكخي (Hassan)

(Kichja) أوصل عبيده إلى مراكز ربيعة جنداً. ومن بين هؤلاء رجل هو عثمان الكخيا كان بدوره سيداً لميل هو إبراهيم الكخيا وقد دفع هذا الأخير أموالاً طائلة لتسليم عبيده رخصته ووضعهم في أرقى المناصب حتى استطاع في السنوات الأخيرة أن يحكم تقريباً مصر مكانها مع أن منصبه الشخصي كان متواضعاً فقد كان (الكخيا) أي كان يشغل المنصب الأول بعد آغا الإنكشاريين في وقت الذي كنت فيه بمصر كان يحكم لبلاد عبد الرحمن الكخيا ابن حسن الكخيا الأنف الذكر. ولم يكن لديه يعود كبير لكنه كان مسوداً من قبل عدد كبير من البهوات والاعاوات لأنهم كانوا يديون بقرائهم بعائلته ولأنه كان عبياً ولديه فرق عسكرية عديدة وحائزاً على احترام رجال الدين والشعب ويقال إن بهوات مصر كافة يحذرون من أهل مسيحيين وإنهم يبعوا كعبيد في سي مكررة. لكن ثمة بهوات مسمونون أن عن جد وبم يكونو يوماً عبيداً وهذه قائمة بأسماء بهوات مصر كافة في الوقت الذي مكثت فيها خليل بي، اشتراه إبراهيم الكخيا ورباه، وعام ١٧٦٢ تولى منصب دفتدار مصر أي أمين الصندوق.

٢ - حسني بيه وكان في العام نفسه وأمير الحج (Emir Hadsj) أو فائد قافلة مصر وقد كان عبداً عند إبراهيم الكخيا.

٣ - علي بيه، من عبيد إبراهيم الكخيا، كان يحمل منصب شيخ البلد أو حاكم مدينة القاهرة كان يطلق عليه اسم الصُّكَّير أو علي بيه الصمير في السنة التالية قام هو وحزبه لإجبار الباشا أن يأمر عبد الرحمن الكخيا الذي كان يصحب رفاقه إلى بركة الحاح (Birket el Hadsj) في طريقهم إلى مكة ألا يعود إلى القاهرة وأن يرجل هو والقائلة وهكذا أصبح علي بيه أكثر نفوذاً من عبد الرحمن الكخيا إلا أن سلطته لم تدم كثيراً إذ أخرج هو لآخر من مصر وأرسل إلى عزة عام ١٧٦٨ عاد إلى القاهرة وقتل أربعة بهوات في ليلة واحدة وأرغم الباشا على عدم السماح لأربعة بهوات آخرين بالعودة إلى القاهرة بعد أن كانوا قد هربوا منها ومنذ ذلك الحين أصبح رئيساً لحزبه الذي لم يكن قد حُلَّ، ولأمر الناهي في القاهرة. ولقد علمت من التجديدات أنه طرد الباشا وأعلن نفسه صد السلطان إلى أن جاء محمد أبو الذهب وطرده فلجأ إلى الضاهر عمر (Dahher Omar) وإلى عكا. ولم أرق في معرفة المناصب التي كان يشغلها البهوات الآخرون لكن إليكم أسماء البهوات الثلاثة الذين ذكرتهم تماً.

٤ - عثمان بيه وكان من عبيد إبراهيم كخيا.

٥ - حسن بيه وكان عبداً عند سليمان آغا.

٦ - حسن بيه من عبيد عمر بيه الألكتار (Electear) وكان يسمى حسن بيه رضوان لشقيقه عن حسن بيه السابق.

- ٧ - خليل بن الملقب بالبيهي (Belfie). كان والده يدعى إبراهيم بنه وبالتالي كان ينحدر من أصل مسلم. وقد كان رجلاً مبرراً.
- ٨ - حسن بن الملقب باسم دماذ (Damūd) كان عبداً عند سليمان آغا
- ٩ - صالح باشا وكان من عبده مصطفى بن الكرد (El Kerd)
- ١٠ - عثمان بن الملقب بأبي سيف لأنه يحسن استعمال السيف كان تركي الأصل من القسطنطينية ولم يكن عبداً قط كان في خدمة إبراهيم كحيا الذي رفاه إلى أفضل المناصب في الجيش ثم أعطاه لقب به.
- ١١ - خليل بن الملقب بالسكرا، كان عبداً عند حسين بن أمير الحج
- ١٢ - أحمد بن السكرى، أبوه بائع سكر مسلم في القاهرة. فهو لم يكن مسيحياً قط ولقد نشأ في منزل إبراهيم كحيا، وفي أيامه كان حاكم السويس.
- ١٣ - إسماعيل بنه، من عبدة إبراهيم كحيا.
- ١٤ - محمود بنه، من عبدة عثمان كحيا
- ١٥ - حمزة بن ابن حسن بنه عبادة وهو **إسلام الأصل**
- ١٦ - محمد بن الملقب باسم حفي كان عبداً عند سليمان آغا.
- ١٧ - محمد بن دالي (Dālī). هو ابن إسماعيل بنه الدالي أي مسلم لأصل
- ١٨ - علي بن الملقب بعلي بنه الكبير لتمييزه عن شيخ البلد، ولأنه كان واسع النور في القاهرة منذ بضع سنوات. عندما كنا في مصر، أرسل إلى غزة ثم عاد إلى القاهرة قبل رحيلها ومات بعد ذلك بقليل، وبعري موته إلى عبادة مبطنة بفرو مسموم أهدها لهاها أحد أصدقائه البهوات. علي بنه كان من عبدة إبراهيم باشا، اشتراه هذا الأخير وأنشأه عنده يقال إن والده كاهن من جيورجيا وإن أهله وأشقائه وشقيقاته كانوا يأتون لزيارته في القاهرة وقد بقيت عنده شقيقة وشقيقان من أشقائه وبعد أن تظاهر هذان الأخيران باعساق الدين الإسلامي، عنيهما علي بنه حاكمين على مقاطعتين صغيرتين.
- إن عدد البهوات في مصر هو ٢٤ لكن هذا العدد لم يكتمل أبداً ربما لأن عائلات البلد لم تعد كافية كما في السابق أو ربما لأن الباشاوات والبهوات يقتسمون فيما بينهم عائدات الآخرين ومداخلهم. واليكم أسماء الذين يتبعون البهوات في ديوان القاهرة.
- ١ - الآغا أو رئيس موح استفرقة (Metafarraka) أما الشخص الذي يشغل حالياً هذا المنصب فلقد كان عبداً عند إبراهيم كحيا

- ٢ - (Katschuda Tsjauschân) وكان عبداً عند عثمان كحيا.
- ٣ - آغا فوج العلمان (Dsūmān)، كان عبداً عند إبراهيم كحيا.
- ٤ - آغا فوج التمكشان (Teffekschan)، من عبيد إبراهيم كحيا.
- ٥ - آغا فوج الشرکس (Tsjaraksa)، من عبيد عثمان كحيا.
- ٦ - آغا الانكشيري، إن الشخص الذي يشغل هذا المنصب كل سنة من عبيد إبراهيم كحيا.
- ٧ - آغا فوج أفسب (Assab)، من عبيد إبراهيم كحيا.

وبالإضافة إلى هؤلاء كلهم، هناك أشخاص آخرون يقيمون في ديوان الباشا كحكيا الأمواج وعدد كبير من رجال القانون ورجال الدين ولاي لا أعلم شيئاً عن مهامهم، من أستطيع أن أقول أحبارهم كنت أتمنى لو أن السيد ماتييه (Maillet) دخل في تفصيل شكل الحكم في مصر لأنه ألقى سموت عديدة في هذا البلد وعرف على أهم رجاله لما فهو من سبق أحباره ويبدو أن شكل الدولة لا يزال حتى اليوم كما هو وكما وجدته الأتراك وكما لم يستطيعوا تغييره بالرغم من كبريائهم وسلطانهم

قد يظن البعض أن الأمن يتعلم في القاهرة لأنه معقل عدد كبير من الطغاة المتناصرين فيما بينهم على السلطة. لكن الجدير بالذكر أن أخبار السرقات وحرائم القتل هي أقل بكثير في القاهرة من غيرها من المدن الكبيرة في أوروبا. وإلى جانب القاضي الكبير، هناك قصاة آخرون مجبرون على عقد جلسات يومية في الشوارع التي تعبر لهم وفي بعض حمارل لإحقاق الحق. وللانكشيري وجود في كافة الشوارع للحفاظ على الأمن. ولكن مهمة خير محلف يعرف كل الدين يعملون فيه وحتى فتيات النهوى والنصوص لديهم محتابهم في بلاد الشرق، لكن لا يحق للنصوص السرقة، لا أنه عدم يشتكي أحد الناس من سرقة شيء ما يتوجه إلى مختار النصوص يمكنه غالباً أن يستعيد الشيء المسروق لقاء مبلغ ما^(٥) ويقوم مسؤولو العدالة والشرطة بالتنقل ليلاً ونهاراً في شوارع المدينة مراقبة الكليل والقياسات والبصائع المتوجهة نحو السوق وللقصص على الأشخاص المشتبه بأمرهم بضربهم ولشتمهم حداً من دون أي محاكمة في حال وجدوا صليسين. وهكذا، فإن الخوف من القصاة ومن هذه الإجراءات الصارمة يرمي الرعب في قلوب المشاعين ولقد لاحظت الدمر بين المصريين عندما يصادفون أحد هؤلاء المسؤولين في الشارع وكان حادمي المسلم يمتنى أن يعود أذراجه في كل مرة يصادف فيها أحد هؤلاء المسؤولين في الشارع خوفاً من أن يشاهدوه بصحبة غريب في شوارع لا يمر بها الأوروبيون ولولا

(٥) علمت أنه في طرابلس الغرب، يختار العبد السود مختاراً لهم ويعطى نفسه أمام السلطة. وشير التجارب إلى أن وجود من هؤلاء الأشخاص ضروري جداً لهم يعرفون نظرتهم كافة ويقفون عياً ساهرة على نشاطاتهم فإن حدث أن فر أحد العبد من سيده، يلق هذا الأخير مختار العبد الذي لا يتأخر في معرته الطريق التي هرب إليها العبد

إصراري على الذهاب إليها ما وافق على مرافقتي. ويساهم عدد الأبواب الكبير في المناطق المفصلة وفي الشوارع الأساسية من المدينة في زيادة اضطراب سكانها لأنها تغلق كل ليلة ما عدا شهر رمضان وأمام كل باب يقف بواب، ولقاء أجر رهيد يفتح الباب لكل من يأتي في عملي ما إلى المدينة أثناء الليل حاملاً بيده غنديلاً، إلا أنه يعلق الباب في وجه الأشخاص المشبهين. وهكذا فإن اللصوص الذين يخرجون أثناء الليل لسرقة لا يمكنهم الاضداد كثير. وعلى كل حال، هناك غرف بالقرب من هذه الأبواب تمنع الانكشاري أو اثنين. ولا أحد يعرف متى تنتهي نوبة حراستهم وهم لا يقدمون السلاح عند مرور أحد شخصيات المدينة ويمكن أن يشعلوا مصباحهم هذا لمدة سنوات أحياناً فيمضون أيامهم في التدخين ولعب الشطرنج... ويأمن أحدهم على الأقل في الغرفة أثناء الليل. وإن واجب هؤلاء هو حفظ الأمن في الأحياء مقابل أجر محدد. وعندما يهملون واجبتهم بخسرون مبردين. وهم يلعبون دوراً بارزاً في الشجارات التي تنشأ بين كبار شخصيات المدينة. في هذه الحال، تغلق الأبواب لمنع الناس من التجمهر. ويقال إن البهوات يتعاركون دائماً في المدينة وفي الريف، من دون أن يؤدي عراكهم إلى أي شعب بين صفوف الجوزجوزيين.

كنت قد ذكرت في وصف شبه جزيرة العرب، أنه لا يسمح لليهود أو النصارى وحتى الأوروبيين بامتطاء دابة غير الخمار في القاهرة وإنهم يجبرون على التبرجل عن دوابهم عندما يلتقون بأحد البهوات أو أهلي المدينة. هؤلاء لا يظهرون في الشارع إلا على ظهر أحصنتهم ويتبعهم أحد خدمهم الوقحين حاملاً بيده عصاً عليظة فيقول لليهودي أو المسيحي الذي يصادفه في الطريق قاتلاً: إذا لم ينزل من تلقاء نفسه. وفي حال عصي أمره يادبه الخادم بالصرب مباشرة دون أن يكلف نفسه عناء تقديره مرة ثانية. وسد سنوات، تسببت حادثة مماثلة بعطب تاجر فرنسي بقيته حياته. كما ويعرض طيننا لنشتم لأنه لم يترجل في الوقت المناسب. لقد لا يمكن لأي أوروبي أن يخرج على ظهر دابته إلا إذا لم يرافقه رجل يعرف الأسياد كنهم الذين يفرضون على أبناء الديانات الأخرى أن يترجلوا لدى رؤسائهم. وكنت أجعل انكشارياً يسبقني وحامداً يتبعني وكان كلاهما من اسمين، يبقيان على حماريهما يسبقا أترجس وحدي. ولشدة ما كنت أشعر بالذل من هذا الأمر، قررت أن أخرج دائماً مشياً على قدمي وفاتني أن أذكر أن اليهود والنصارى لا يجزؤون على البقاء على ظهر مطيئهم أمام بيت القمامي الكبير وأمام ٢٤ بيتاً آخر حيث يعمل القصاص، وقرب باب الانكشاريين وجامع الأهر والمساجد الأخرى، ويسمح لهم بالمرور أمامها على أنفاسهم. غير أنه لا يسمح لهم بالمرور سوء مترجلين أو غير مترجلين بالقرب من مسجد الست زيب بجوار منطرة السبع (Kantarotes Sabá) بالقرب من مسجد مجاور لباب مصر ومسجد أخرى لحكام القاهرة السابقين، ولا حتى في شارع القرافة (El Karáfe) بل يحتم عليهم تغيير وجهة سيرهم. ولقد لاحظت وجود مساجد كثيرة من جهتي هذه الشوارع. ولا بد أن عامة الشعب تعتبر المرور بين هذه مساجد مقدماً. ولست أكيداً من أن يمنع على الأوروبيين امتطاء الخيل. فمقد تروى غير بعيدة، عاش في

المدينة فصل إنكليزي ثري وكان يرتدي ربي سيد تركي ويحتطي الخيل. وكانت ثروته الكبيرة تسمح له بتقديم الهدايا والولائم لكثير شخصيات القاهرة الذين كانوا يعاملونه بالمثل عندما كان يظهر في الشوارع، كان يوزع الأموال على الناس فكان الشعب يحبه. أما اليوم مما عاد القاصد ينتظرون الخيل إلا يوم يذهبون للجنوس في حضرة الباشا، فيرتدون الزي الأوروبي ويزينون أنفسهم بأبهى ربة. ولا أتفاجأ قط عندما أجدهم يسمعون آلاف الشنائم تنهر عليهم من قبل عامة الشعب إذ إن الشرقيين يعتبرون لباسا القصير غير محتشم خاصة أن أهل القاهرة لا يربون ثيابهم لا ذهباً ولا فضة. وفي الأيام العادية يرتدي القاصد لباس الأتراك الطويل وعيهم - شأنهم شأن التجار الأوروبيين والصمري الشرقيين واليهود - أن يخرجوا عن حميرهم عند مرورهم في المناطق الآتفة الذكر، أو عند مرورهم بسيد مسلم.

ومع أن كثافة السكان في مصر قد انخفضت، إلا أن منتجات البلد لم تنقص، ولأنها العاصمة ولأنها تقع في موقع استراتيجي بالنسبة للتجارة، بها عدد كبير من التجار الأعيان الذين يتصاؤون التجارة مع أوروبا وآسيا وأفريقيا. تتلقى مصر عبر الخليج العربي كافة منتجات الهند وبلاد فارس وشبه الجزيرة العربية. ويسهل النيل التجارة مع السودان ومن جهة البحر المتوسط مع سوريا وتركيا وبلاد البربر وأوروبا. أما القواهل الكبيرة التي تأتي سنوياً من الأنطار والتي تصل برأ فهي تقايط بصالح بلادها الفاشرة بما ينقصها من بضائع أخرى. ومع أن أضخم عمديات التجارة في بلادنا تجري عن طريق المراسلة وأنه في المدن الكبيرة يجتمع التجار بالسوق في ساعة معينة من النهار إلا أن التجار الشرقيين بغالبيتهم يساهرون بنفسهم أو يرسلون عبيدهم وعندهم. وكل الذين يأتون من القطر نفسه والذين يحملون البضائع بنفسها، ينزلون في المكان نفسه كل على حدة كمنسحي القهرة الذين يقيمون في الحي نفسه أو بجوار بعضهم البعض. وهكذا يعلم الناس مقر التجار الأجانب. ويكثر عدد السماسرة ويوسطنهم بكثف الباعة معارفهم كما ويسهل على الزبائن إيجاد البضائع. ولا شت أن المسافرين يوصلون انكوت إلى جانب بعضهم لأنهم بذلك يؤدون بعض الخدمات بعضهم.

لست مؤهلاً للحديث على كافة تفاصيل التجارة عند المصريين. لكني نرمت عن كتب على الاستيراد والتصدير بفصل المعلومات التي أعطاني إياها تاجر فرنسي وسوف أنقلها إليكم ليعرف ما هي المنتجات التي تعزز في هذه البلاد وذلك التي تستورد من الخارج.

يشكل الجلد الخام إنتاجاً مهماً تصدره البلاد. في كل سنة، تصدر ٧٠ إلى ٨٠ ألف قطعة من الجلد منها عشرة آلاف قطعة من جلد الجاموس تذهب إلى مرسيليا. وتصدر كميات أكبر من الجلود إلى إيطاليا منها جلود الجاموس والثور والبقر والحميل. تصدر جلود الجاموس إلى سوريا خاصة وتتميز هذه الجلود بأنها ليست كبيرة بن أكثر سماكة وورناً من غيرها. ولعل أفضل جلود هي التي تأتي من مصر السفلى حيث المراعي الشاسعة، ويستحسن قطن الحيوانات في أشهر كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير وآذار/مارس

ونيسان/أبريل لأنها ترعى العشب في هذه الآونة بينما تأكل من العلف في الأشهر الباردة. يمكننا الحصول على الجلود الخام على مدار السنة وخاصة بعد عيد الأضحى عندما يجتمع الخجاج في مكة وعلى جبل عرفات. في هذه الأيام تذهب كميات هائلة من المواشي في مصر كما في سائر الدول الإسلامية. وفي أيام إبراهيم كنجيا الذي حكم مصر وحده مدة عشر سنوات تقريباً، ترسخت هذه التجارة ثم أنشأ المزارعون متجراً في الإسكندرية لبيع الجلود بالمفرق وصاروا يتحكمون بسعرها. ومنذ سنوات، عادت هذه التجارة لتصبح حرة لكننا لم نجد شئراً أن الأسعار تخطف كثيراً.

يحصد الزعران في نهاية شهر أيار/مايو ومطلع شهر حزيران/يونيو. ينقل الزعران الذي يحمده في القاهرة إلى السوق لكن لا يستطيع التجار الحصول عليه إلا مع نهاية شهر حزيران/يونيو ومطلع شهر تموز/يوليو. ويشر الحصاد عن ١٥ إلى ١٨ ألف قطار من الزعران تذهب كمياته الكبرى والأنص بوعاً إلى مرسيليا وليغورن والبنديقية أما الباقي فينتج نحو لزمير وسوريا وجدة لأنه لا يستهلك في مصر. وفي مصر أكثر من عشرة أصناف من الزعران لكنه يصنف وفقاً لتسميات أربع هي: البليدي والقبلاوي (Keblawi) والبحري (Bahhari) والصعيدى. يعتبر الصنف الأول الأفضل من حيث النوع ويرى حول مدينة القاهرة، أما الصعيدى فهو الأسوأ.

يحصد الكتان في شهر تموز/يوليو ويعتبر الشتاء الفصل الأفضل لشراؤه. تشتهر منطقة رشيد بتجارة الكتان وتنقل الكميات غير المستهلكة منه إلى تركيا وليغورن، وتركيا وسوريا وجدة وحتى اليمن، ويكون نسيج الكتان على عدة أنواع. يزرع القطن في مصر السفلى ويحصد في شهر تموز/يوليو، ويعتبر شهراً كانون الأول والثاني/ديسمبر ويأخر الفترة الأكثر ملائمة لشراؤه. ينقل القطن الذي لا يستهلك في مصر إلى مرسيليا وليغورن. أما حصاد الأرز فيكون في شهر تشرين الأول/أكتوبر لكن الأرز الجديد لا يباع إلا في شهر كانون الأول/ديسمبر. ولا يسمح للأوروبيين اليوم بتحميل الأرز إلا إلى دمياط ولقد توطدت تجارته منذ بضع سنوات تختص مصر العليا بزراعة قصب السكر الذي يحصده في شهر حزيران/يونيو لكن سعر السكر لا ينخفض إلا في شهري تشرين الثاني/نومبر و كانون الأول/ديسمبر أي في الوقت الذي ينقل فيه من الصعيد إلى القاهرة. ومن غير المتفق عليه في مصر كمية تحصيل السكر من القصب، وعلى كل حال يمكن للأوروبيين الحصول عليه بالسعر نفسه من أميركا. ويمكن شراء الملح بسعر أدنى من رشيد، وخاصة في فصل الشتاء. ويحمل ثلثا الملح إلى مرسيليا وليغورن بينما يوزع الباقي على الولايات التركية. ولقد ارتفع سعر الملح كثيراً في الآونة الأخيرة لأن تركيا طلبت كمية منه تفوق المعتاد.

بشكل الصمغ العربي إحدى البضائع التي تمر بمصر والتي يشتري منها الأوروبيون. وفي شهر تشرين الأول/أكتوبر من كل سنة، تحمل قاملتان أو ثلاث قوافل مؤلفة من العرب القادمين من طور سيناء من سبعة إلى سبعة قنطار من الصمغ إلى القاهرة. تنحصر هذه التجارة بالتجار المسلمين ولا يدخل هؤلاء

بضاعتهم إلى المدينة بل يعمدون على بعد ربع ميل من القاهرة ثم يصطرون المصريين إلى الخروج لملاقاتهم ولا يبيع هؤلاء الحار بضاعتهم وفقاً لورث معين بل في جنوب صحيرة غير محاطة وقلب يسمعون المشتري أن يمنح قطعة الجلد قبل إنهاء الصفقة وفي حين لم تمنحه البضاعة لا يقلون أن يردّها إليهم. وبعض هؤلاء العرب يحتطون الصمغ بأحجار صهيرة أو بالرمل واخشيت وهم عادة لا يبيعون بيع أحيد بالدين بل يقايضون بضاعتهم نقاء ثياب وأسدة وأشياء أخرى يحتاجون إليها ويحسبون معهم إلى الصحراء. ولست أدري ما إذا كان كل ذلك يدل على أن العرب يصابون أم تجار تنقصهم الخبرة وهم يحبون الحرية ويكرهون الخطابات الطويلة. وأجدد بالذكر أنه يمكن تكرير صمغهم ثم يبعه بأسعار تفوق أسعار الشراء بكثير. يحتل القسم الأكبر من هذه البضاعة إلى مرسية وليغور. في أشهر نيسان/أبريل وأيار/مايو وحزيران/يونيو من كل سنة، يصل عدد أكبر من القوافل الإفريقية التي تحمل معها أصنافاً ثلاثة محتلفة من الصمغ بالأصناف إلى الحاج والنمر الهندي والعبد المحصين وغير المحصين، وطير البيضاء ومرصنة الذهب وفي المقابل تحمل معها في طريق العودة سيج لكتان والآلء المربعة وأحجار المرجان والعتير الأصغر والخشجر وكافة أشكاف الملابس التي يهداها المصريون حصيصاً لقار إعجاب الإفريقيين. ولقد انحصر قبل بضع سنوات سعر الصمغ العربي أو قن الإفريقي كثيراً فلم تحمل القوافل معها منه إلا كميات قليلة. لكنه عاد وارتفع فصارت تصل منه كميات تتروح ما بين ٤ إلى ٥ آلاف مطار وحتى الآن تصل كميات للصمغ من الحبشة إلى جدة ومنها عبر السويس إلى القاهرة إلا أنها ليست جيدة النوعية مثل التي تحضرها القوافل كما ويقتل قدم منها إلى أوروبا

أما السع التي تبحر من جدة إلى السويس فهي تحمل معها سوياً بين ٢٢ و ٢٥ ألف طرد من البن اليمني. ولأن القهوة هي شراب بمفضل عند الأتراك، يجمع استيراد البن من أميركا أو من أوروبا كما يقار في الشرق كما يبيع تصدير البن العربي إلى أوروبا. إلا أن هاتين التجارتين تدرسان ويحكمي لتحقيق ذلك إرسال الهدايا إلى الحكومة وإلى مسؤولي الجمارك وهكذا، تمر ما بين ٤ إلى ٥ آلاف طرد من البن العربي سوياً من مصر إلى البدقية وليغور ومرسية. أما السفن القادمة من جدة والقوافل الآتية من مكة فتحمل معها كافة أنواع البهارات من الهند، وأوراق السنف من اليمن والحبشة، والمر بمكاوي، وما يتروح بين ألفي وثلاثة آلاف طرد من البخور اليمني والعربي. وفي هذه الأيام، انحصرت كمية البخور التي ترسل إلى مرسية وأصبحت من النوعية الأكثر تدنياً وتأتي كميات أخرى إلى البدقية وليغور أما الباقي فيرسل إلى تركيا. وتأتي كميات كبيرة من السع من مصر أيضاً وترسل القسم الأكبر منها إلى أوروبا. إن هذه التجارة تعود على الحكومة سوياً ما يعادل ٦٠ بورصة عما أن كل بورصة تساوي ٥٠ قرش.

في أيامنا هذه، يركز الفرنسيون تجارتهم في المشرق على لسانج لانغدوك (Languedoc) الذي تحتاج

من مصر كل سنة ما بين سبعة وثمانئة طرد. يشتد لطلب على هذا القماش في شهر رمضان خاصة لأن الأعياء والعقراء في هذه الفترة يرتدون ثياباً جديدة بمناسبة عيد النصر والقاهرة التي تطل من القاهرة إلى مكة في السابع والعشرين من شهر شوال من كل سنة تحتاج وحده من ٦٠ إلى ٨٠ طرداً من هذا القماش حيث يستخدم أمير الحج أو قائد العرب معصمه في حياطة الثياب التي يعي إعطاؤها للعرب الذين يمتزجون في أراضيهم ولسكان مكة. وإن تجارة هذا القماش تدر أموالاً طائلة على التجار الفرنسيين في القاهرة الذين باتوا يمسكون بها إلا أن هذه التجارة كانت حرة في فرنسا أثناء الحرب الأخيرة مع الإنكليز وقد قام المسيحيون الشرقيون بشحن كمية كبيرة من أقمشة مرسيليا إلى بيروت وسها إلى مصر. وقد ساهم انقضاء تجارة الفرنسيين مع الهند الشرقية أثناء هذه الحرب بالتأثير على تجارتهم مع المصريين، ففي نهاية الحرب كانت تمر بجدّة من ميني إلى ثلاثئة طرد من القماش وكان أعينها يصل إلى بلاد الهند. يستخدم أهل القاهرة كثيراً أقمشة الحرير مصنعة في أوروبا وخاصة سد بدأت جزيرة سيوه (Sio) بصناعة أقمشة ناعمة من الذهب والفضة. ومن الملاحظ أن هذه الملابس تروق لأهل الشرق أكثر بكثير مما تروق للفرنسيين والإنجليز. لد تحتاج مصر في كل عام من ٦٠ إلى ٨٠ بر أميال من الشرائق، وأثناء الحرب الأخيرة كانت تصل إلى الهند حمولة ٢٠٠ بر ميل عبر مصر وتخصر مصر من فرنسا كل سنة ٤٠٠ طرد من البهار يتألف الواحد من ٣٠٠ رطل ومد وقت غير بعيد، بات جزء من هذه البضائع يصل عن طريق جدة وتصل إلى القاهرة من أوروبا كميات من كيش القرمز والتوابل وتستلم القاهرة كل عام من ٥٠ إلى ٦٠ بر أميال من القصدير، وكميات مماثلة من لمطيلة وحيوط الحديد والزعفران والزعجبل والإبر والآلئ الملوحة والخواتم الزجاجية والرقيق والرصاص بالإصانة إلى المسكاكين. ومن البندقية ومرسيليا يصل ما يقارب ١٠ طرد من الورق يستهلك قسم منها في القاهرة ويقسم الآخر يرسل إلى جدة وقبل استخدام الورق للكتابة، يجب صقله لأن أهل الشرق يستعملون ريشاً من القصب مع حبر شديد الكثافة وتستخدم كميات هائلة من الورق في مصانع السكر والتاجر وعلق الحربيون الورق على النوافذ المشبكة بالحشب أو لحديد إذ إنما نجد رجاجاً على النوافذ في هذه البلدان الحارة.

لقد رالت بحارة ابن الأميركي بين فرنسا ومصر أثناء الحرب الأخيرة. وبات المصريون يشترونه بعشوا به ابن العربي، لكن سعره في السنوات الأخيرة ارتفع كثيراً حتى صار أعلى ثماً من ابن العربي. في الماضي، كان من اندرتييك (Martinique) وحده يستعمل في مصر العليا إلا أنه أصبح عالياً ثم فرص إلهام كحيا صرية كبيرة على ابن القدم من شبه جزيرة العرب عبر السويس فبحث سكان مصر العليا عن سبيل أقصر للحصول على ابن، وأصبحوا يحصرونه من قصير (Kossir) وحالياً لديهم ابن اليسبي وسعره قريب من سعر من المارتينيك الفرنسي.

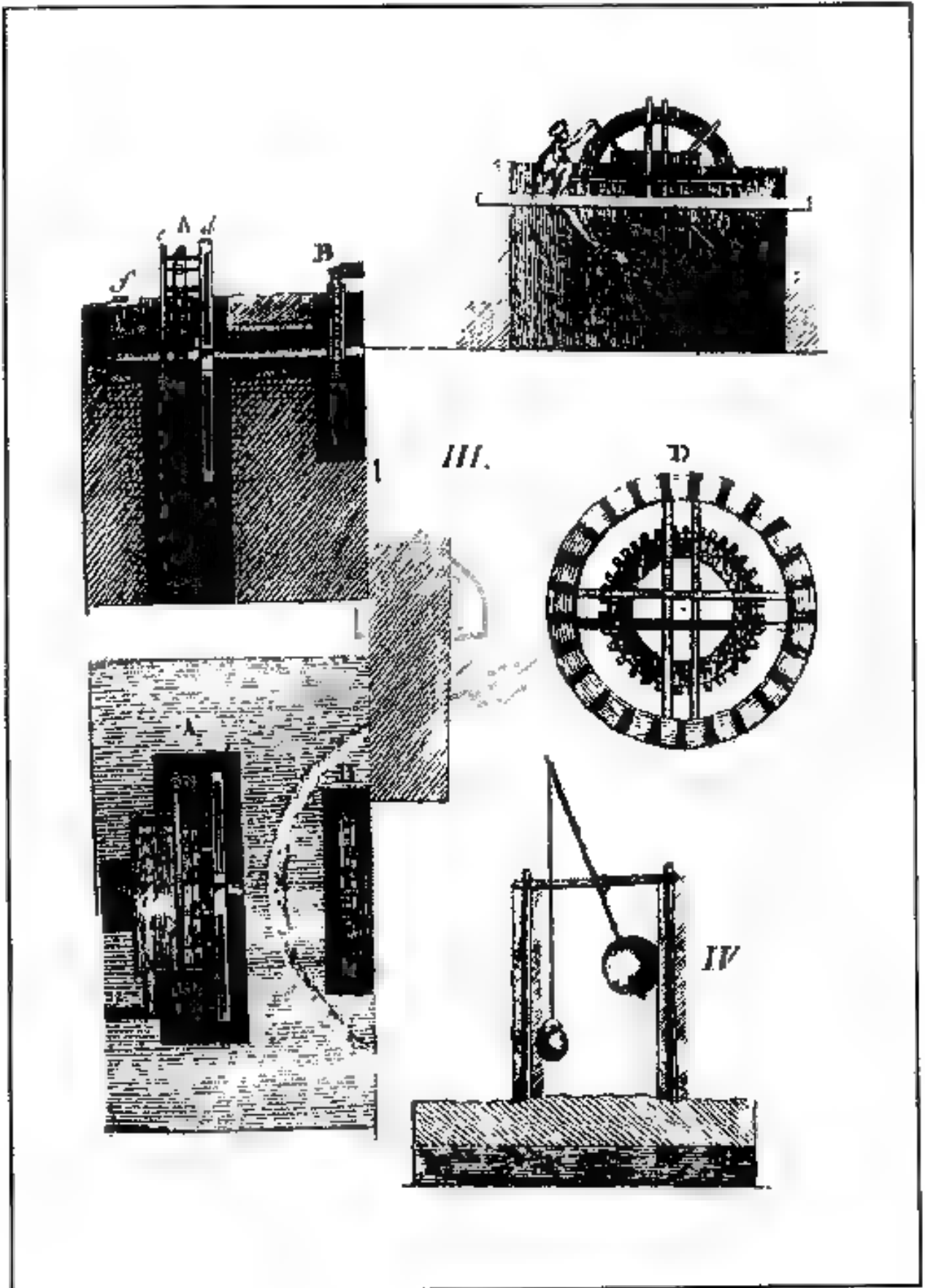
لست أعرف الكثير عن الكيل والأوران المستعملة في مصر لكسي سأفيدكم بالليل الذي نعره تتراوح الأوران في القاهرة بين الرطل والأوقية والمثقال والدرهم والقيراخ. تعادل كل ٦ قيراطاً درهماً وحداً والدرهم ومعه يسويان مثقالاً واحداً، وكل ١٢ درهماً تساوي أوقية واحدة، والاثنتا عشرة أوقية تساوي رطلاً. ثم إن الأوران الثميلة معص بالمسطار لكن المسطار في مصر يختلف باختلاف البصاعة فيرى بعض التجار أنه يساوي مئة رطل أما بالنسبة لغيرهم فهو يساوي ٠٢ أو ١٠٥ أو ١١٠ وحتى ١٥٠ رطلاً. ومن غير المعدي في هذه الإصدار ذكر البصائع التي تحول من المسطار إلى رطل إن هذا التحويل لا يهم إلا بعض التجار الذين يتاجرون في مصر ويمكن أن يجدوه في لائحة الأسعار للمجوء إليه في تجارتهم من مصر إلى البلدان الأخرى. وأن من أقدم لكم أسعار البصائع المستوردة والمصدرة لأنها كثيرة التقسب، فالتجار الشرقيون شأنهم شأن غيرهم يبحثون دائماً عن مرسلين جدد للحصول على البصائع بأسعار رخيصة أو لإرسالها إلى بلاد أخرى بأسعار مربحة.

يسمى أكبر مقياس للحبوب رأيته عند تجار القمح في بولاق «بالوهمية» (Wehbeh)، وتساوي الوهمية الواحدة أربعة أرباع، والربع يساوي أربعة أنداس (Kaddas). ويسخ القطر الواحد لكل وهمية ١٨ بوصة دائرية أو كثافة الخشب فتعادل ٨/٧ البوصة وهكذا فإن قطر القياس يبلغ من انداغل ١٧ بوصة ونصف يبلغ قطر القياس من الأعلى ١٢ بوصة ومن دون سماكة الخشب يبلغ ١١ بوصة ونصف. أما الارتفاع العمودي من الحافة العليا وحتى العمق فيبلغ ٨ بوصات وعند القياس، تترك الحبوب التي تجاوزت حافة المقياس وتجمع حتى تؤلف مخروطاً يبلغ سر ربع واحد من الخصة في القاهرة من ٥ إلى ٦,٥ بريرة وهكذا فإن الوهمية الواحدة تكلف من ٢٠ إلى ٢٦ بريرة، أو من ليرتين إلى ليرتين وثمانية قروش بالعملة الدائرية. إن ارتفاع الربع الذي قسمته في القاهرة يبلغ ٨/٦ ٦ بوصات.

الآلات التي تعمل على الماء، الطواحين، معاصر الزيت، أدوات الفلاحة، عرب النشادر وآلات تقطير البيض في مصر

يجب أن نولي أهمية خاصة لآلة السقاية المستخدمة في مصر بعد عودته النيل إلى حدوده. ويمكن مقارنة المحقول بعدة طرق والآلة الأكثر استعمالاً في مصر هي الموجودة في الصورة I من اللوحة (XV) الخامسة عشرة وتسمى ساقية الثور لأنها تحرك بواسطة الثيران. تتألف العجلة الكبيرة (أ) من هذه الآلة من دائرتين (د، هـ). الدائرة (هـ) هي الأكبر متناه وتصل بالمحور بواسطة عدد من الشعاعات أما الدائرة الأولى (د) الموصولة إلى الدائرة الأولى بواسطة قضبان أفقية تدورها الإمساك بالجرار وحسب في الأسفل، داخل العجلة التي تعمل على الماء، يوضع الخوص (ز) الذي يستقبل الماء. يختلف عدد الجرار المربوطة إلى حياض من القش أو النجيل والمعققة حول العجلات وفقاً لعمق الماء ونقوة العجلة والثور. ولقد لاحظت وجود ٢٢ جرة حول الآلة التي استخدمها مرجعاً لأقوم بهذا الرسم. الجزء (أ) هو عريش متحرك بالقرب من (ج) يمتد على رقبة الثور. من العريش (أ) سرج حبال تمتد بالعريش (ب) وهو أصحح من الأول ويقال به العريش الأساسي لأنه يحرك العجلات (ج، ب، أ) وبالتالي. تجر الماء إلى الجزء المرتفع من البستان حيث تقع الآلة، ملجأ إلى رفع العجلات إلى أقصى الحدود حتى يكاد الثور يمر من تحنها، كما يظهر في خريطة مصر السفلى في كتاب الأسفار لشو (Shaw). نجد في البساتين المصرية عدداً كبيراً من القنوات الصغيرة التي تساعد على ري أجزاء البساتين حراً بعد آخر وتتميز هذه القنوات بدقة صاقتها خاصة تلك التي تستخدم في جز الماء إلى جذور النباتات وحسب

إليك وصفاً لآلة أخرى يستخدمها المصريون لسقاية الأرض ولعلها هي نفسها التي يتكلم عنها موسى في الكتاب المقدس ١١ - ١٠، تدعى هذه الآلة وساقية تدار بالرجل أو آلة تعمل على الماء ويمكن تحريكها بواسطة الرجل هذه الآلة أصغر حجماً من السابقة لكنها تشبهها إلى حد بعيد وجدت واحدة منها فقط في مصر وبالتحديد في بركة البور بكير في القاهرة لكني وجدت مثلها في الهند. رأيت الأولى في القاهرة وكانت تستعمل في بستان صغير تتألف هذه الآلة من عجلة واحدة فيها ثمانية شعاعات معلقة بالمحور وأربعة آخرين أصغر حجماً وضع كل اثنين منهما بجانب من جانبي العجلة لاستعمال هذه الآلة نحر برأ يصع عليه راكبتين ويجلس عليها العامل. لا يحتاج العامل إلى مسند آخر لكنه يميل يديه ورجليه كما يظهر في الصورة. ويكون الخوص محكم التشبيخ تحت الجرار من داخل العجلة فتصحبها من المتحرك



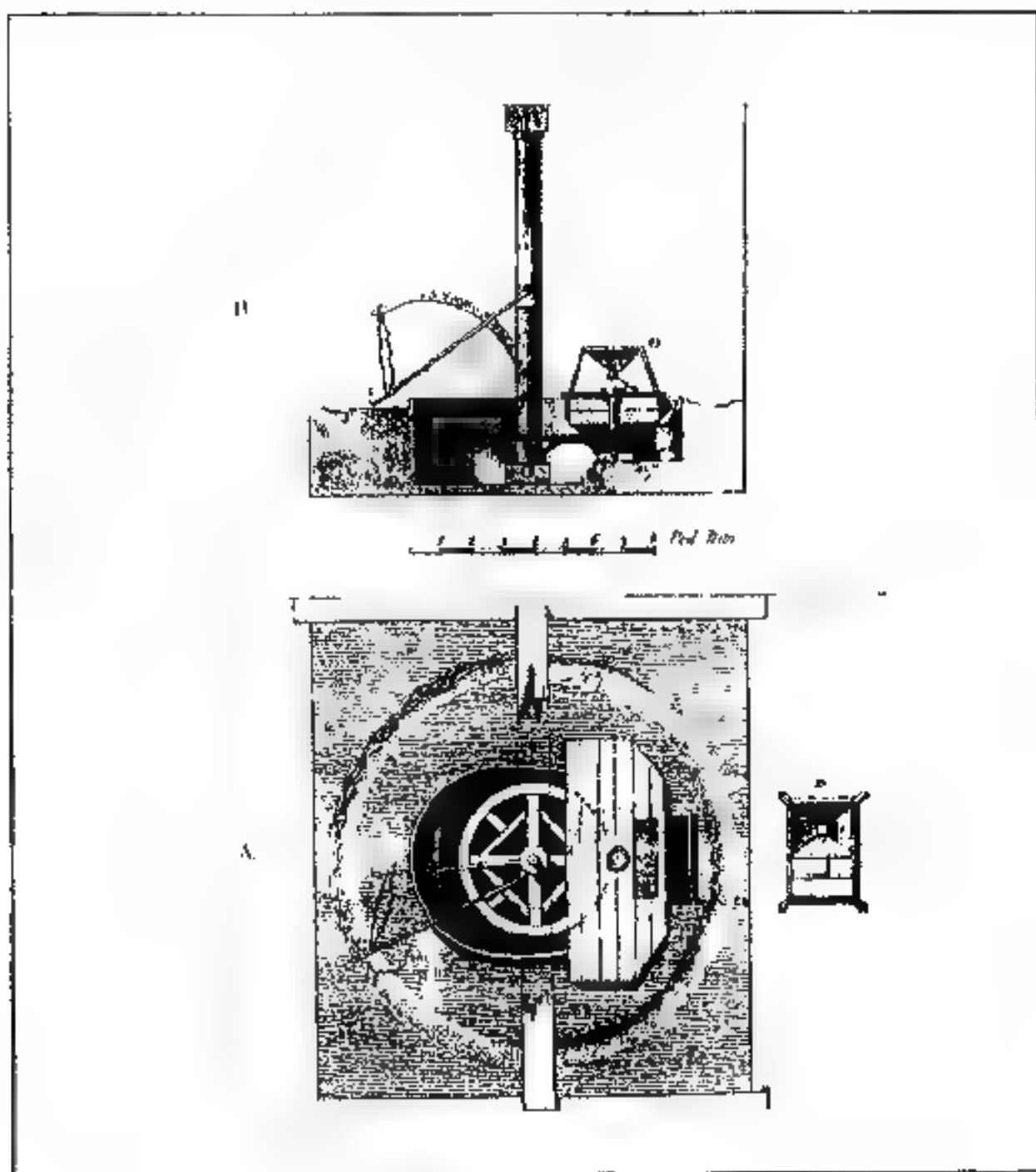
الآلات التي تعمل على الماء الطواحين معاصر الزيت أدوات القلاحة فرن الشادور والآلات تقطيس البيض في مصر

تستعمل الآلة (III) في محيط دمياط لأن ارتفاع النيل لا يتغير كثيراً هناك ولأن العجلات التي يطلع عليها من ١٠ إلى ١٢ قدماً يمكن أن تلمس الماء. تعتبر هذه الآلة الأعلى نسباً لكنها قادرة على نقل كميات أكبر من الماء. تقسم حافة العجلة (د) إلى عدة أقسام فيها فتحات من جهة المحيط بالقرب منه وهي محكمة الصنعة من الداخل، وبعد دخول الماء من الأسفل داخل المحيط وارتفاعها إلى فوق، يمكن أن تسيل من إحدى الجهات تنصب في حوض قريب من العجلة ويخفف كمية المياه منهورة، لا تكون هذه العجلة مسطحة بل مائلة قليلاً إلى خارج أطرافها. ولتحرير بعض الآلات، يدور الثور حول العجلة الكبير ولتحرير الآلات الأخرى ليمر بين العجلة الكبيرة وبين العجلة ذات الأسلاك في الحالة الأخيرة، تمدد العرش على العجلة الأفقية كما يبدو في الآلة (ط) وأحياناً تربط ثلاثة ثيران على عمدة عرائش جرز هذه الآلة أما السكان الذين يعيشون في أطراف النيل والذين لا يسعون إلا جراً صغيراً من الأرض يستعملون الآلة الرابعة. ولأن الخشب والحجارة بهما الكثير في مصر، يستعمل الملاحون أوتاداً وثقالاً من العمار عندما ينحفض مستوى الماء في النيل يرى أحياناً في القاهرة أربع آلات تعمل معاً مما يدل على أن سفاهة الحقول بهذه الطريقة مرعبة وصعبة عندما تقتصر مهمة المصريين على حمل المياه إلى ارتفاع بسيط، أو على تخفيف خندق، يستعمل هؤلاء ستة بأربعة حبال يقودها شخصان وذلك بدلاً من الرقش يستعمل هذه السلة قفة ويمكن رؤيتها في الصورة الخامسة ١٤.

سم أر لظ في مصر طواحين مدرر على الماء أو الهواء. أما طاحون القاهرة العام الذي يستعمل في طحن القمح فمنجرد في اللوحة السادسة عشرة (XVI) تشير الصورة (أ) إلى الرسم البياني والصورة (ب) إلى ارتفاع هذه الآلة. أما الحرف (ج) فيشير إلى العرش الذي يربط إليه الحصان وحرف (د) يشير إلى عين الطاحون حيث يوضع القمح. ويستخدم هذا الطاحون أيضاً في طحن الحبوب التي يستخرج منها الزيت أما المصريون يستعملون المطاحن اليدوية لطحن القمح وهي مصورة في اللوحة السابعة عشرة (XVII) ويستعملونها أيضاً في حشر حبوت الفول التي تشكل طعام الحميم. تتألف الآلة (ب) من حجرة ممددة أفقياً ومن مشر عمودي يديره الثور. وهي لا تستعمل في طحن القمح بل في عصر الرغفران. بعد ذلك تستخلص العصارة باليد. إن شعبية هذه الرهرة في القاهرة قد تعود إلى طريقة تحضيرها إذ يكفي سكان مصر العلب بتجميعها بعد تقطيعها ويختلف الطاحون (ج) عن الطاحون (ب) بمسحة المحشي قليلاً ويستعمل في طحن الجبس وكربونات الكلسيوم.

تحميط بالآلة حافة صغيرة لمنع الثور الذي يديرها من سحق لجبس الذي يتساقط منها. وتظهر في الصورة (د) عصارة الزيت التي تستعمل في مصر يشير الرقم (١) إلى صندوق كبير مليء بالحجارة والخشب. أما الرقم (٢) فيشير إلى إحدى نقاط ارتكاز الصندوق على الحافة والرقم (٣) إلى حجر كبير يدور فيه اللولب الذي يتركز عليه الطرف الآخر من الصندوق. يظهر في الرقم (٤) أسطوانة من الخشب المطحونة بواسطة الطاحون المصنوع في اللوحة (XVII)، وقد جمع على حجر على حصىرة مدورة مصنوعة من الفخار وهي الرقم (٥)

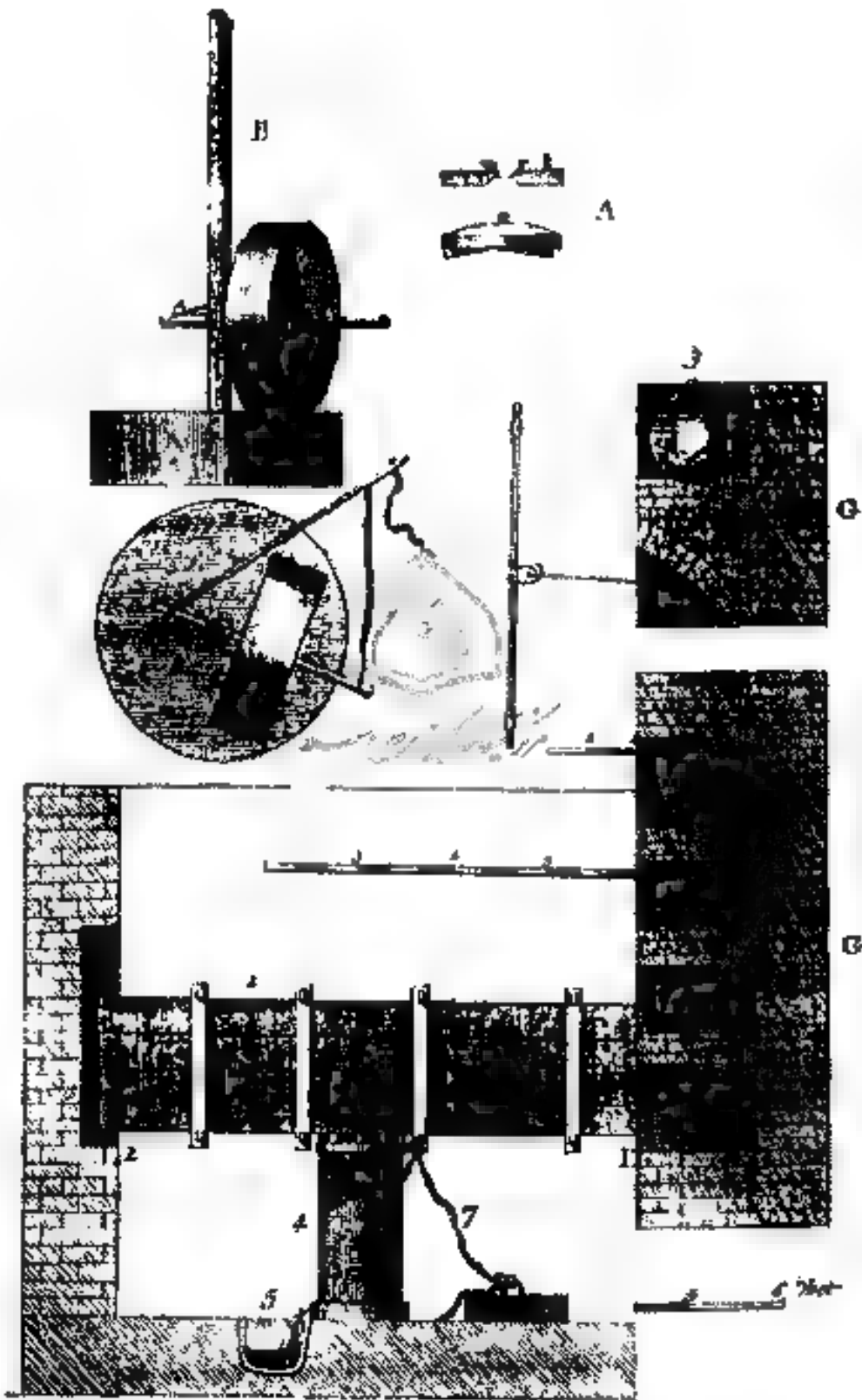
نرى قديراً معدنية يجمع فيها الزيت المعصور. إذا أردنا أن نضع شيئاً تحت هذه الآلة، يدبر الثور المربوط إلى العريش رقم (٦) اللولب إلى أن يقوم الحبل للوصول بالصندوق بإيقاف الآلة فتصبح الأسطوانة (٤) في الأسفل ويدار اللولب بالاتجاه المعاكس إلى أن يرتكز الصندوق على الأسطوانة ويرتفع الحجر (٣) من الأرض فيساهم بذلك في زيادة الضغط على الحبوب. بعد ذلك، تصبح نقطة ارتكاز الصندوق على الحافة (٢) أعلى من الأسطوانة (٤) فيوضع الخشب فوقها كما يظهر في الصورة.



الآلات التي تعمل على الماء الطواحين معاصر الزيت أدوات الفلاحة قرن الفشار وآلات لفطس البيض في مصر

إن أدوات الفلاحة التي يستعملها المصريون سبعة جداً واشتراتها فيها ليس أنفصل من تلك التي يستعملها العرب والتي ذكرتها في وصفي لشبه الجزيرة العربية، بدلاً من استعمال الأمشاط لشميد الأرض، ينجأ المصريون إلى شجرة أو خشبة سميكة يربطون على طرفها حبلًا ويلفونها بالثيران. يوضع الدفأب عادة على الشجرة أو الخشبة لأن فلاح مصر لا يحبون السير بحاصه عندما تمتنع الفرصة لهم. ولا يزال المصريون حتى اليوم يستعملون الفيران لطحن القمح كما كان يفعل الإسرائيليون في أيام موسى (الكتاب المقدس، الفصل ٢٤، ٤) إلا أن الآلة التي يستعملونها ليست حجراً كالذي يستعمله العرب، كما رأته ليس مصنوعاً من الأحشاب المزودة من الأسفل بأحجار محققة كالذي يستعمله السوريون، وكما ذكرت في وصف شبه جزيرة العرب، بل هو رلاجة تظهر في اللوحة السابعة عشرة جانباً ومن فوق؛ ويشار إليها بحرف (هـ) تسمى هذه الآلة مورج وهي مرودة بثلاث لفيفات تدور حول محاورها وقد رؤدت كل واحدة بقطع حديد مستديرة وملساء. وفي بداية شهر حزيران/يونيو، شاهدت أنا والسيد مورسكال كيفية طحن القمح في جوار الجزيرة كان كل فلاح يختار بقعة أرض موحدة يطلع محيطها من ٨٠ إلى ١٠٠ قدم وكانوا يحضرون رماً من القمح يحملونها على ظهر الحمار والجمال ويجمعونها على شكل دائرة يتراوح عرضها بين ستة وثمانية أقدام ويبلغ ارتفاعها قدمين. وكان يجر المولاج السابق ثوران، والمراقب يجلس على الكرسي الذي يراه على المولاج وكان يسمح للثيران بالتبول على القش والخشبة لكنه يسارع في الدورول من كرسيه إذا أرادت أن تفعل شيئاً آخر فيضع يديه على مؤخرتها ويطلق ما يخرج منها ثم يستعملها لإيقاد النار بعد خلطها بالقش. تطفن كميتان بمائتان من القمح كل يوم وتصب كل واحدة ثمانين مرات إلى خمس بواسطة مضراة واحدة مصنوعة من الخشب. ثم يرسى القش في وسط الدائرة ويكثس ثم يقلب. وكلما أضفا لمزيد من القش في وسط الدائرة قلباه من جديد حتى يصبح مفروغاً ثم يلقى الكل بواسطة المدرة بالاتجاه المعاكس للهواء فيطير القش ويبقى القمح غير المصحون. ثم يأتي رجل ويجمع كتل الرمس التي علق بها القمح ويرميها داخل العربال. ثم توزع الأكوام بشكل مستدير وتكون لا تزال تحتوي على عدد كبير من السنبال فيجيء الفلاحون بما يبادل عشرة ثيران ويمررونها عليها لمدة ٤ أو ٥ ساعات رابطون كل ثورين بمصعها إلى أن تفصل حبوب القمح عن سنبالها فترمى في الهواء بواسطة الرمس بعين فصلها عن الأقدس. أما إعداد الشعير فلا يتطلب الكثير من الوقت.

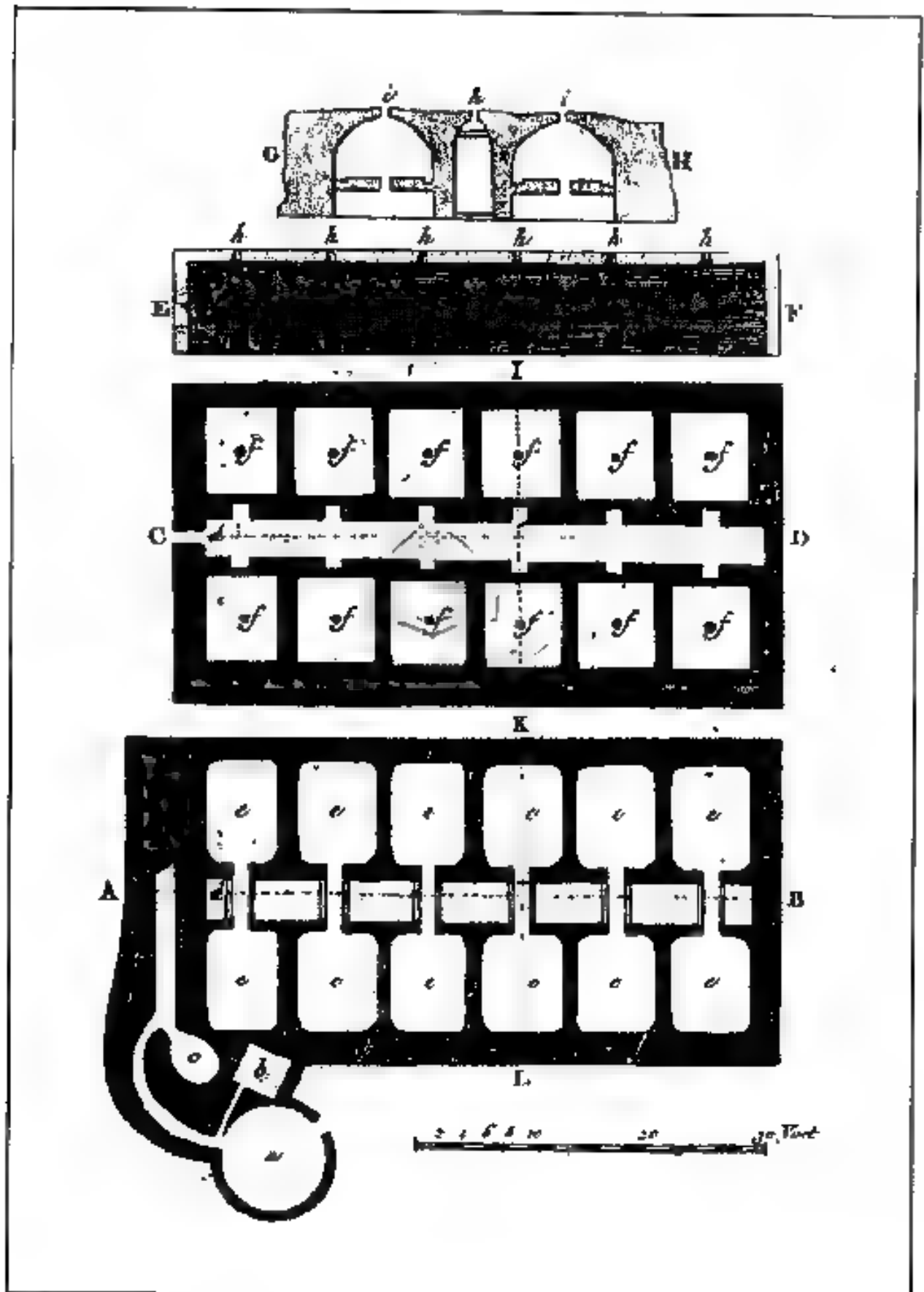
وإني لم أرى في مصر أو في شبه جزيرة العرب أية عربة أو طنبر. وعندما جرت القناة إلى خارج القاهرة، ربط الفلاح ثورين بالآلة (و) المصورة في اللوحة السابعة عشرة وجلس عليها فأخذ يمزج بين الأرامسي الجمابة إلى أن ملأها ماءً. وفي بلدته حيث لم تكن القناة قد جفت بعد، تثير العيار داخل الوحل ثم سكب في السلال ونقل خارج المدينة على ظهر الحمار. ولا شك أن الأوروبيين سيعتقدون هذه المهمة بكثير من الصعوبة.



الآلات التي تعمل على انماء الطواحين معاصر الزيت أدوات الفلاحة لفرر الشادر والآلات تنقبس البحر في مصر

يحصل المصريون على كميات كبيرة من الأمونياك من السحام المحروق، ذهباً أنا والسيد بوركسكال لزيارة معمل مماثل في الجيزة رسالاً رئيسه عن كيفية استخلاص هذا الغاز ثم رسمت الفرن الذي يستعملونه في النوحة السابعة عشرة تحت الحرف (ر). يشير الرقم (١) إلى موهة الفرن أم الحافة (٢) فقد بنيت بشكل قوس كما يظهر من خلال الارتفاع، يظهر للرقم (٣) حوجلات مصنوعة من الزجاج السيك المامق اللون عبقها واسع وقصير. وكان لصاحب المعمل فرن خاص به لصناعة هذه الحوجلات وبيل استعمالها، تدخن من الخارج بالصنصال أو بوحل البيل المدسج بالكثان وذلك أربع مرات. وبعد كل مرة، تترك في الهواء الطلق لتجف. والجدير بالذكر أن هذا الدهان ضروري جداً إذ بدونه لا يمكن للزجاج أن يقاوم الحرارة. بعد ذلك، تملأ الحوجلات بسخام الزبل المحروق. وبعد ملء الفرن بالزبل الجاف، يوضع الحوجلات بالقرب منه على الفتحات الموجودة بين الأقواس من دون إقفالها. ثم تورع قطع من القرميد حولها وتملأ الفراغات بالتراب إلى أن يغطي ثلثي ارتفاع الحوجلات. بعدئذ، يشعل الزبل داخل الفرن وكلما أكتف النار أصعب المرید منه لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ متتالية ويجب أن تبقى درجة الحرارة هي خلال هذه الفترة أو أن تكون في البداية أقوى مما هي في النهاية. إذ هذه العملية شديدة الدقة فإذا أهملنا النار لصبغ ساعات أو سبباً سبباً انعمت في التراب حول الحوجلات يؤثر ذلك سلباً على الأمونياك، فيلاحظ صاحب المعمل ذلك عندما يستخلص الملح من الحوجلات ويعاقب الصال على إهمالهم بعد مضي ١٨ ساعة، نجد أن الأمونياك الناتج من السخام قد سد علق الحوجلات. وبعد ثلاثة أيام تكسر الحوجلات في مكانها من الفرن ويسحب منها الملح الذي يكون في الأعلى أما باقي محتوى الحوجلات فهو رماذ أخضر لا يقع لشيء. يسحب من كل حوحلة كمية تتراوح بين سبعة واثني عشر رطلاً من الأمونياك. يباع القططار الواحد المؤلف من ١٠٠ رطل بستة بيرة. والجدير بالذكر أن الحرارة المرتفعة نجس الفخار حول الحوجلات أكثر صلابة من القرميد.

أما الزبل، مصدر الأمونياك، فقلما يهم إذا كان زبل جمالي أو حبل أو ثيران أو غرمان أو أي حيوان آخر. وفي هذا البلد غالباً ما يسافر الدس على ظهر الجمال والحمير، فتقوم فتيات صغيرات بملعة الزبل من الطرقات. وتضاف كميات من القش المهشم إلى الزبل فتخلط به وتصنع لتجمعها أشعة الشمس. تكون سفوف غرف أهل الريف عادةً مغطاة بالصلصال الذي لم يصبح بعد قرميداً آجرًا. فيستعمل هؤلاء قوالب الزبل لاجاء لتدفئة الغرف في فصل الشتاء من خلال حرقها مع القش أو مع سيقان الباتات وددث في أوانٍ حجرية. إن السخام الذي يسج عن الدخان يعني تحت السقوف ويباع بأسعار متدنية لمعامل الأمونياك. كما ويستعمل السخام الناتج عن دحان الزبل في أفران لمعمل الأنفة الذكر. وكان صانعو السخام يذكرونه لمعرفة كمية الملح فيه. وقيل لنا إن السخام الناتج عن دحان الخشب لا يحتوي على الأملاح وبالتالي لا يمكن أن يستخلص منه الأمونياك. وهناك مناطق في أوروبا لا يتوافر فيها الخشب فيلجأ سكانها إلى حرق زبل الحيوانات ولربما استطاعوا أن يستموا منه الأمونياك لو أنهم يحارلون.



الآلات التي تعمل على الماء الطواحين معاصر قريت أدوات الفلاحة لون الشادر وآلات تنقيس البيض في مصر

وقد قدم مسافرون آخرون بإعطاء معلومات دقيقة عن كمية تنقيس البيض في الأفران إلا أن رسومهم تختلف قبلاً عن الفرن الذي رأيته في القاهرة بالقرب من باب الشريعة (Bâb es Scharie) وبركة الرطلي (Birket er Roteli) الذي يئته في اللوحة النامية عشرة (XVIII) وقد كان هذا الفرن ميباً بكامله داخل نلة. تشير المساحة (أ ب) إلى خريطة الأفران الداخلية (ج د) إلى خريطة الأفران الخارجية و(هـ و) إلى قطر المبنى من حيث الطول و(ز ح) إلى قطره جانبياً. تشير (أ) إلى المكان الذي يجلس فيه المسؤول عن تنقيس البيض و(ب) إلى الغرفة التي يحفظ فيها الرماد والبار و(ج) إلى غرفة البيض و(د) إلى مدخل الأفران. يقع ابواب فرق الطابق لأرضي وهو باب صغير المحكم ينشق جيداً بعد إشعال النار. تشير الصورة (هـ) إلى أفران الطابق السفلي و(و) إلى أفران الطابق العلوي. في هذين الطابقين يوجد ما ينسب القنوات الصغيرة من الأمام ومن الخلف يشعل الزبل الجاف فيها أ ب (ر) هتين الفراغات الموجودة في الحائط التي تخصص للإدارة وكما يظهر في الرسم، هناك ١٢ قرناً في كل طابق من المبنى والكل موجود داخل النلة حتى أن المدخل الأكثر علواً فوق الرواق (ح) وفوق الفرن (ط) تقع في الأرض. وقد قيل لنا إن ذلك ضروري للحفاظ على درجة الحرارة نفسها في كافة الأرجاء. على سبيل الاستعداد لتنقيس البيض، تمديد حصيرة على أرض الفرن ويعرض القش عليها نوصع صبة من البيض على القش ثم صبة أخرى عليها بعيد حشرها لا تضرم النار إلا في القنوات الواقعة أمام أفران الصديق العلوي وحلجها في المسافة العاصلة بين الفرن الأعلى والفرن الأسفل، وهناك فتحة مستديرة تخرج منها الحرارة اللازمة لبلغ الطابق السفلي لدى إضرام النار. تنقل الفتحات الخارجية كلها بواسطة الزبل أو الفجر أو الكتان لتسريع عملية تسخين الفرن، وإن القاعدة الوحيدة المثبتة لتحديد درجة الحرارة هي معادلتها مع حرارة الخدمات، لا يهم أن تكون الحرارة مرتفعة جداً في البداية، المهم تخفيضها تدريجياً عندما يشرف البيض على التنقيس. ويحرك البيض مرين خلال النهار وأربع مرات خلال الليل لكن بحفة حتى أن عملية التحريك تقتصر على تمرير اليد على البيض وبعد مصي ثمانية أيام، تفحص كل بيضة على الصوء معرفة التي سيخرج منها صوص، ثم يرمى البيض المتبقى في اليوم الواحد والعشرين أو الثاني والعشرين، تخرج الصيصان وحدها فتفحص الحرارة والآن تموت. وعلى أرض الممر بين الأفران، هناك فواصل مرتفعة على شكل مربعات، تخضر فيها الصيصان جيداً حتى لا يبقى فيها أي مكان شاعر حيث تشكل هذه المربعات الأماكن الأنصل تربية الصيصان فتجد فيها هذه الأخيرة حرارة الأم.

ذهب لرؤية هذا الفرن مع السيد نورسكال في منتصف شهر حزيران/يونيو. وكان العمل فيه متوقفاً لأن تنقيس البيض لا يتم إلا في الأشهر السنة الأكثر برودة لأن تنقيس البيض يمكن أن يعسد في الأشهر الحارة. ومع أن البرد لم تكن مشتتة في الفرن إلا أن أشعة الشمس القوية التي كانت تصل إليه جعلنا نتعجب عرقاً. وقد علمنا أن مثل هذه الأفران لا توجد إلا في القاهرة وأنها ممتلئة للثلاث. وعدم يحصر

الأجانب يرضون لتعقيسه في القرد، يتفقون مع رئيسه على كمية المواد اللازمة لتفقيس. ويضع صاحب البيض اسمه على كل بيضة مما يجبر مسؤول التعميس على الاحتفاظ بالبيض الذي لم يمتحج تباع الصيصان وهي صغيرة بثمر ٢٠ بريرة من كل ٣٠ صوصاً. يؤلف كل ثلاثين صوصاً ما يسمى بالربع وهي التسمية التي تستعمل في قياس الحبوب في القاهرة. بذلك، كان الأمر يحتلظ على بعض الأحاسيس الذين قنوا إلى الصيصان تباع بالمكيات في مصر وهذا ما رواه لنا أصحاب القرد.



لباس أهل الشرق

يرتدي الأتراك والعرب وكل المسلمين ثياباً طويلة وصفاة إلا أن كل أمة تتميز منذ النقرة الأولى بحط خاص في اللبس. ويميز أهل الشرق الذين يعيشون في المدن طريقه ليسهم تماماً كالأوروبيين. في عامي ١٧٠٧ و ١٧٠٨، أصدر السيد دو فاريول (De Ferriol) رسماً للباس الشرقيين حشر في نورمبرغ (Nuremberg) تحت عنوان تصوير البلاط العثماني. لعل هذه الصور قد نقلت بأمانة زي الشرقيين في ذلك الوقت لكنا إذا ما قارناها مع اللوحين ١٤ و ١٥ من كتاب روسال (Russel) وعنوانه وصف حسب، نجد أن طريقة اللبس قد تغيرت كثيراً بمقايستها. إن ثياب الشتاء الشائعة حالياً بين الباشاوات وأعوان الانكشاريين والقضاة والخدم الأتراك والدرابيش والمسيحيين. إن لبس المدبرين من أهل القاهرة يشبه لبس الأتراك إلى حد بعيد لأن الموصلة في البلاد الشرقية تخصص لدوق أسباط عاصمة الأمبراطورية. ولأننا نحن أيضاً كنا نرتدي ثيابنا على الطريقة التركية، سوف أقوم بوصف ثيابي الشخصية.

إن القميص الذي يرتديه الأتراك يشبه قمصان النساء الأوروبيات إلا أن الأكماس تكون أكثر اتساعاً ويرتدي أهل الشرق تحت القميص، لا عوفة، سراويل واسعة من نسيج الكتان الأبيض. ويعطون أرجهم بواسطة خفي من نسيج الكتان ويتمنون من عوفة بايوجا من جلد ناعم يسمى ترليق (Terliks) ومن فوقه خف من الجلد يسمى مست (Mests) قد خيط إلى سروان أحمر شديد الوسج يسمى شفشير (Schokschur). أما بعال الترليق والمست فهي مصنوعة من جلد ناعم جداً ولأنها لا تستعمل إلا للمشي على السجاد وأحضر وعلى كل ما هو نظيف وحيث يمكن للمرء أن يجلس. أما لما بقي، فيستعمل الناس أحذية شبيهة بأحذيتنا فوق الترليق والمست، إلا أنها من دون كعب. ومن فوق القميص والشرشير، يرتدي الشرقيون ما يسمى أنطاري (Entan)، وهو مبط بنسيج الكتان ويندلى كمنه إلى تحت الركبة. وفوق الأنطاري يرتدي الناس القمطان الذي يجب أن يندلى إلى ما فوق القديين. يكون فوقه حزاماً على خصرهم يساعد على تثبيت القمطان وعلى المشي بحرية ويمكن أن يظهر من تحته كل من الأنطاري والشفشير. إن ارتداء هذا القدر من اللباس يذكر بالخادم الذي صورته روسال في اللوحة الخامسة عشرة من كتابه. حيث يحمل الأتراك في حزامهم عنجراً يكون أحياناً مرصعاً بالذهب والقصة وبالأحجار الكريمة. من فوق القمطان، يرتدون عباءة محشوة في الشتاء وغير محشوة في الصيف. ويكون كماها قصيرين يصلان إلى الكوع. من فوق العباءة، يرتدون فودة تصل إلى الأرض. يمكن رؤية العود في اللوحة ١٥ من كتاب وصف حلب لروسال والبش (Bemsch) الذي يمكن ارتداؤه بدلاً منها في اللوحة

١٦ من كتيبي وصف شبه جزيرة العرب. إن أكتام الأنطاري والققطان والبيش يستشديده التوسع لكنها طويلة جداً تخرج عن حدود اليد. لذا، يلجأ الناس إلى نعل على درعهم وأحياناً يرتدون الأنطاري فوق يديهم في أيام البرد. ولأن هذا القدر من الثياب مكلف بالنسبة للفقراء، يكتفي بعض الناس بارتداء السروال المصنوع من سيج الكتان مع قميص والأنطاري والبيش، وتكتفي عامة الشعب بالسروال والقميص. لكن لا أحد يتجاهل الحرم ولا يرتدي الأبرك الشقشير في أسفارهم بل يفضلون عليه السروال ويكون لونه أرق. ويحلب المسارون الشرقيون أرجلهم بشرشف كبير من الصوف ويتعبون فوقه حزمة كبيرة مما يزعجهم في السير، إلا أن هذا الشرشف يحمي الأرجل من البرد أكثر من الجوارب العادية. وغالباً ما يرتدي الناس أثناء السفر ثيابهم الخارجية من تحت السروال وحيث يشبهون العارس التركي المصنوع في النوبة الرابعة والثلاثين من كتاب «مجموعة الرسوم المائة» أو من كتاب «وصف البلاط العثماني». وغالباً ما يرتدي الانكشيريون الأنطاري والققطان تحت السروال مع مصعب من دون أكتام مع خمين أحمرين ولا يسمح للمسيحيين ولا لليهود بارتداء الألوان الراهبة ويجبرون على ارتداء لون غامق عندما يريدون تلويث ملابسهم. ويمكن للمصريين أن يحتاروا بحرية ألوان ثيابهم باستثناء اللون الأحمر. لأن المسلمين الخاضعين لنظام التركي يحتفظون بحق ارتدائه حمراً ولا أظن أن هناك قانوناً صريحاً فيما يتعلق بهذا الموضوع. وقد تجرأ أحد واردي اللون الأحمر، فيمكن أن يتعرض للشتم من الشعب لذا فمن المستحسن عدم ارتدائه ويحق للأوروبيين أن يتغلبوا أخفاً صغراً وست تكون ذلك يبع على المسيحيين واليهود الشرقيين باعتبارهم من رعايا السطان وعيهم أن يكتبوا بالحنود الحمراء والرقاء والسوداء.

ولعل القطعة الأكثر تغيراً في لباس الشرقيين هي التي تعطي رؤوسهم. هناك ثلاث فئات رئيسية تختلف كثيراً فيما بينها. فيعتمر بعضهم قلنسوة عالية معلمة يعطاء وبطة بالقض ويعصونها بقطعة كبيرة من سيج الكتان الدسم. تسمى هذه القلنسوة ذورق (Kaouk) وهي تركية الأصل ويعتمر البعض الآخر قلنسوات صغيرة معروفة بقطعة طويلة من سيج الكتان وستى لساش (Sasch) أو العمامة وهي بالأحرى عربية الأصل. أما العثة الثالثة فتألف من قسرة عالية مبطة بالقض يعصها العماش من فوق ومن جلد احمر من أسفل تدعى علبق (Kalpak) يرتديها المسيحيون والترك الشرقيون بالإصاصة إلى دنت يعتمر أسباط القسطنطينية نوعاً من القلنسوات الخاصة بأعمالهم فصباط السلطان من جميع الفئات وحمود بعض القبط يعتمرون قلنسوات خاصة ولو كان لديك الوقت الكافي والرغبة في مشاهدة كافة أشكال القلنسوات التي يعتمرها أهل الشرق لألقاها معها مجدداً كاملاً. ولأن هذه القطعة من اللباس تهدف إلى التمييز بين مختلف الشعوب الخاضعة للأتراك وبين الطبقات الاجتماعية ولأنها حاصلة دائماً لتغيير، قررت أن أصفها كلها. إلا أن مجموعتي ليست كاملة ولا يمكنني أن أؤكد أن القلنسوات التي رأيتها على رأس أهل طيبة معينة لا يمكن أن يرتديها غيرهم من الناس.



يحقن الشرقيون رؤوسهم (ما عدا الدراويش والأوباء في مصر) ويتركون خصلة صميرة على قمة رأسهم كما يظهر في الرسم وست أدري ما هي أهمية هذه الخصلة لكني دخلت يوماً إلى دكان بخلاق رأيته يربط خصلة شعر ثم كي عجزه بحيط بعة إحكام إمساك رأسه فوق المعسة بحبله خاصه أن الشرقيين يجدون شيئاً من اللذة وهم بين يدي الخلاق وكل الناس يعتمرون مباشرة على رأسهم تحت القاروق أو العمامة أو القلبيق قنسوة حمراء تدعى الطربوش (Fās) في الماضي كان الأوروبيون في مصر يعتمرون عمامة يضاء لا تختلف عن عمامة المسلمين إلا من الأعلى حيث كان عليها خط أحمر من جانب واحد. وكان التجار يسعدون بهذه العمامة لأنها يمكن أن تحصل شعب القاهرة الذين كانوا يصبون أنهم من المسلمين أما اليوم فما عدوا يظهرهم في الشوارع من دون انفس اندي يظهر في الصورة الثالثة من اللوحة التاسعة عشرة. تلك هي العلامة العارفة التي يتميز بها المترجمون الأوروبيون في القسطنطينية ويستعملونها ليحتوي بها تماماً كالقعة إن إلقاء لتحية بهذه الطريقة هو أمر غريب بالنسبة للشرقيين الذين لا يكشفون عن رأسهم حتى أمام الباشا أو السلطان. يعتمر الأوروبيون في بيوتهم العباس ويعلمونه ببيع الكتان أو انشاش أو العمامة. على أن كل إنسان يحضر عمامته على طريقته. إن بعض الإيطاليين الذين يعيشون منذ زمن بعيد في مصر لا يزالون يحتفظون بالعادة القديمة ويعتمرون في منازلهم وحدها عمامة على شكل سبعة (الرسم رقم ١). ولقد رأيت مسلمين يرتدون العمامة نفسها لكنها كانت يضاء وعمامة الأوروبيين كانت حمراء. تشير الصورتان ٤ و ٥ إلى القاروق الذي كان يعتمره الأسباط الأتراك. يكون القاروق مزيناً بقماش أصفر ومزجاً ببيع الكتان اساعم الأبيض إذ لم يكن مرتديه من الشرفاء لأن هؤلاء يحيطون القاروق أو العمامة دائماً بقماش أحمر وهي حقيقة قنما ترى أحد الشرفاء في القاهرة لأن عالية البهوات والأسباط الكبار هم مسيحيون الأصل وقد أحضروا إلى مصر وهم لا يزالون من العبيد. تشير الصورة السادسة إلى القاروق الذي يعتمره الأسباط الأتراك الذين يخدمون الباشا وتشير السابعة إلى قاروق الصباط التابعين لباشاوات ونبهوات المصريين. أما الثامنة فهي صورة القاروق الذي يعتمره كبار الصباط في القاهرة وحدها مغلف بكتان باغم. ويظهر في الصورة التاسعة القاروق الخاص بصباط قطعه الانكشاريون.

نجد في الصورة العاشرة عمامة الانكشاريين البيضين في مصر وأحياناً يدلونها بعمامة من الحرير الأسود أما الصورة ١١ فتتمثل عمامة الانكشاريين في القسطنطينية. إن القنسوة رقم ١٢ هي التي يرتديها هؤلاء أثناء الاحتفالات في القسطنطينية وهم لا يعتمرونها إلا عندما يذهب السلطان إلى مسجد أو إلى الاحتفالات وفي هذه الحال، يعتمر صباط هذه القطعة قنسوت مريئة باريش مصوية من أمام ومن حذب كما يظهر في صورة النوحة الثلاثين في «وصف البلاط العثماني» يقدم السيد فريول القنسوة رقم ٣ هي قنسوة البستنجي وهي مغطاة بقماش أحمر سميت «الستنجيون» هم حرس السلطان وهي الماضي كانوا مسؤولين عن بيوت أميادهم أربعة وعن النفاة بحوائقها ولا شك أن سبب تسميهم يعود



إلى مهمتهم السابقة. ويقول بعض إن ضياحي السلطان كانوا يعشرون فلسوات مماثلة إلا أنهم استبدوا بها لاحقاً فلسوات من البلد تظهر في الصورة الرابعة عشرة ويظهر بعض ضباط السلطان والباشاوت بفلسواتهم التي هي بمثابة لباس موحد وتمثل الصورة الخامسة عشرة انقباض الخاص ببعض ضباط الباشا إن رأس هذه القلبيق مزين كثيراً ومغطى بالقماش أم السادسة عشرة فهي قلبيق البرطوبي (Kolpa k des Barátoli) وهم فريق لحشاة الخافض لباشا بغداد. ولقد رأيت الفسوات بعضها في ولايات أخرى مما جعلني أظن أنها العلامة العارفة التي يتميز بها بعض الضباط بشير الرقم السابع عشر إلى بعض مرق الخيالة التي هي في خدمة باشاوات بغداد وموصل وديار بكر التي سمي لعند (Lavend) ويعتبر الأتراك المستعمرون في سوريا القاروق نفسه. في الصورة ١٨ يرى القبط الخاص بمرق الخيالة في حسب سي تسمى دلي (Deli) أما الصورة ١٩ فهي عمدة بحارة أسطون السلطان تكون ثياب هؤلاء قصيرة كعمامة الشعب اليوناني في جزر الأرجنتين. لرقم ٢٠ يبين طبق التتر. ويشبه ما تبقي من ثيابهم ثياب البولونيين والفرس أكثر من ثياب الأتراك.

إن الصورة ٢١ تشبه عمامة لفتي في المدن التركية. أما الصورة ٢٢ فهي قاروق كبير مصرب بالقص ترتديه في القسطنطينية طبقة معينة من رجال القانون الذين يعتقدون جلساتهم في الديوان. والصورة ٢٣ تشير إلى عمدة رجال القانون في القاهرة. أما الصورة ٢٤ فهي قاروق رجال الدين الميسرين في تركيا كلها والقاروق رقم ٢٥ هو ما يرتديه النسيوخ ورجال الدين لمعبرون في القاهرة أما القاروق رقم ٢٦ فهو ما يرتديه بعض رجال الدين في الأناضول وفيما بقي إن لباس رجال الدين الأتراك يشبه لباس العلمانيين إلا أن ثيابهم الخارجية هي واسعة الأكمام كثياب العرب. ون شجرة على وضع الأوباء المعروفين في عديد رجال الدين في مصر. إن هؤلاء اخرفي يرتدون ما شافوا من اللباس وبعضهم لا يرتدي ثياباً على الإطلاق تظهر في الصورة ٢٧ فلسوة شتى مراتب الدراويش ويكون عادة من البلد الرمادي انظروا إلى الصورة ٢٨. إن مسيحيي فيصر يعتمرون القفسوة نفسها لكن عندما يفتخرونها بقمماش أبيض يجبرون على وضع علامه ورقاء عليها حتى يميزهم جباه الخراج. وري في الصورة ٢٩ قفسوة عالية ومسننة من ليد الرمادي معلمة بقصعة قماش كبيرة وهي تهدف إلى تمييز الأكراد الذين يسكنون في سوريا.

تشير الصورة ٣٠ في الدوحة ٢٢ إلى قاروق من البلد يرتديه الناس في محيط قطنة (Ka táhja) أما الصورة ٣١ فهي عمامة هندي مسلم شاب وهي العمامة الوحيدة التي كانت معنده بهذا الشكل. العمامة ٣٢ هي علامة أقباط القاهرة والقاروق ٣٣ هو قاروق باقي أمراء الأمة نفسها. إن عالية مسيحيي القاهرة لأقباط يعتمرون العمامة أو القاروق بعد أن يعلوها بسياج الكتان المنقلم بالورق الأبيض والأررق أما اليسوعيون ودعاة المسيحية في مصر فيعتمرون القاروق نفسه ويرتدون ثياباً ماثلة لمسيحيي





البلد. إلا أن القرسيسكان والكوشيين يحافظون على لباس إحوتهم في الأسباطورية المشابهة بكاميهما وعادة تكون أيديهم وأرجلهم شديدة الانساج. وبما أن المطافة تعتبر واجباً دينياً شديد الأهمية بالنسبة إلى المسيحيين، نرى هؤلاء يهتمون كثيراً من هذه الوساخة؛ ومن هنا يظفرون إلى هؤلاء لآباء نصيين نظره الأوروبيين إلى أولياء مصر المزعومين. يرى في الصورة ٣٤ قنسوة رجال الدين اليونانيين التي تكون عادة من البلد الأسود. يترك هؤلاء شعرهم يسر ويظفرون لكن الأرمس وغيرهم من الكهنة الشرقيين يحلقون رؤوسهم باستمرار. لعمامة ٣٥ هي التي يرتديها بعض التجار اليونانيين من جبر الأرحيل الدين وأنتهم في مصر. أما العمامة رقم ٣٦ فهي التي يهتمها بعض المسيحيين السوريين في القاهرة. إن عمامة أو قاروق اليهود المصريين لا تختلف عن عمامة المسيحيين في القاهره لكن بدلاً من اللون الأبيض المقسم باللون الأزرق، يلف اليهود عمامتهم بقماش أسمر اللون يميل إلى البني. ولقد أشرت في ووصف شبه جزيرة العرب أن اليهود الشرقيين يشيرون إلى أنهم من سلاله إبراهيم من خلال الشعر الذي يركونه يحو في القسم الأعلى من دقتهم. القليل رقم ٣٧ هو قلنس اليونانيين ورقم ٣٨ هو قليب الأرمس. يكون قليب اليونان والأرمس مرباً بالعراء ويختلف حجمه باختلاف المواسم في عواصمهم.

إن القنسوة التي تظهر في الصورة ٣٩ من «الوحة ٢٣ هي قليب الأرمس في قره حصار (Karahissar) في الأناضول. أما القليب رقم ٤٠ فهو قليب خدم المسيحيين الصورة ٤١ هي قنسوة من قماش أحمر وحافة من المحمل الأسود يتميز بها أرمس بلاد فارس الذين سكوا الأناضول. أما القاروقان ٤٢ و ٤٤ هما يخصصان مسيحي حلب ودمشق وقد صنع من القماش الأحمر المطف من الأسفل بسج الكنان المنقلم والقاروق رقم ٤٣ هو الذي يرتديه عامة الشعب من مسيحيي الأناضول.

ويختلف ميس النساء ويتنوع في مختلف بقاع الشرق؛ في ديار بكر تكثر ساء النصاري واليهود قبة من الشبهان أو القماش المطيع بالعمصة كما يظهر في الصورة ٤٥ التي تمثل القنسوة التي ترتديها ساء الدرور وهي أيضاً من الشبهان أو القماش المطيع بالعمصة أما القرويات يرتدين قبعات من الكرتون وبالنسبة إلى ربة الرأس الظاهرة في الصورة ٤٧ فهي تناسب دوق الأوروبيات وهي مصنوعة من الشبهان أو من القصة. ولقد رأيت النساء اليونانيات يهتمن القبعات بنفسها في الأناضول لكن داخل بيروت فقط إن يطين رأسهن بكامله عندما يخرجن إلى الشارع ويشبهن بالنالي نساء المسلمين والدرور والنصارى في ديار بكر. أما الصورة ٤٨ فتشير إلى ربة الرأس الخاصة بروجة شيخ في وادي فران (Farān) بالقرب من جبل ميساء وهي تشبه ثياب النساء في مصر. حيث كانت هذه امرأة تصنع على رأسها مدبلاً كبيراً أسود اللون شأنها شأن سائر نساء القاهرة وبعض المدن الألمانية. وكانت تلف جيبتها بضمايرها التي رصعها بحجارة من المرجان. وكسائر النساء المصريات تعطي رجليها بقطعة قماش طويلة وصيقة معنق من ثلاثة مواضع إلى شريط أي من الطرفين ومن فوق الأنف فلا يظهر من امرأة سوى عينيها وكانت الأقراط في



أديها مصبوعة من الفضة على شكل دائرة كبيرة الفطر حتى أنك لتحالها سواراً. وكانت تلف عنقها بعقد غليظ من الفضة وتصنع حول قدميها شلائخ من الفضة. بالإضافة إلى ذلك كانت تلف حول عنقها شريطاً من الخمر الملون ومن جانبي رأسها أشرطة صغيرة مماثلة يتدلى منها حجر من المرجاج. وتصنع في خصرها خاتمين من الفضة مرصعين بالأحجار الشعية. ولقد رأيت أن ربه ذراعها تعبق الحركة تماماً كزينة قدميها. إذ تلف ذراعها بسوار من العظام المشغولة (كنت بعض النساء تضع سواراً من الكهرمان) بالإضافة إلى سلسلة من الفضة وسلسلة أخرى. أما ذراعها الأيسر فقد لفت عليه سواراً من الشبهان وآخر من عظام بشكل دائره بالإضافة إلى سوار من رجاج ملون وسلسلة من الفضة. أما فيما يتعلق بلباسها فلا أستطيع وصفه لأنني لم أعلق عليه مد البداية.

إن نساء المشرق كنهن يرتدين على أجسادهن العارية سرويل شديدة الاتساع. وترتدي القرويات المصريات والنساء من عامة الشعب في القاهرة فوقه قميصاً واسعاً أررق اللون يتميز بكعبه الواسع من الصويلين اللذين يتدليان من الكتفين إلى الوركين. وعاباً ما يرتدين شعرهن المجدول بأجراس صغيرة وكانت الفتيات الصغيرات يعلقن مثل هذه الأحراس على أقدامهن. وتلف العباة حول رؤوسهن مصبوغاً من النود الذهبية إلا أنهم لا يظهرون هذه الزينة وهم في الشارع ولا يظهر من وجوههم إلا ما يراه في الصورة رقم ٤٨^(١). وتضع النساء من عامة الشعب أرقاعاً في آذانهم وأحياناً في الأنف بينما تصنع المعربات أساور حول السمع وحلائخ حول الأقدام. وتضع بعض النساء زينة سوداء أو حمراء على شامهن ودقهن ومندورهن تماماً كما تفعل بعض المسيحيات اللواتي طبعن بعض العلامات على أذرعتهن عندما كن في القدس. كما وتضع النساء أيديهن وأرجلهن باللون الأصفر وأظافرهن باللون الأحمر.

إن القطعة الأكثر أهمية في لباس النساء الشرقيات هي البرقع الذي يعطون به وجوههن في حضور الرجال. ويحكى عن إنكليزي أنه رأى يوماً مصداقة امرأة تستحم في المرات بالقرب من البصرة. وعندما تبهرت المرأة إلى وجوده عارعت إلى إخفاء وجهها ولم تهتم بستر جسدها العاري أمام العريب^(٢) في الحمامات الشعبية تنف النساء فحاشاً قصياً حول الوركين يسمى الإحرام (Ihram) وقد ذكرته في وصف شبه جزيرة العرب. وأخبرتني فتاة من القسطنطينية أنها كانت يوماً جالسة في غرفة الاسطر التابعة للحمام وكانت إحدى خدامات الحمام - وهي تركية - تنف معي فدخل علينا رجل بعثة فما كان

(١) أسري شخص من مراباس أن النساء كانت ترمي بوضع ثوب ذهبي حول رؤوس الفتيات وهو السبب في ذلك إلى ورودها في القرآن. لذلك لا يزال الناس يعتقدون بالتموه الذهبية ويكس ثأورويين من مواد جمع العملات لإكمال مجسراتهم من على الفتيات المسلمات.

(٢) فعل تلك الحركة الصاعدة عن امرأة كانت تلقاة، وتدل على حشمتها لأنها في غرفة بعيدة عن الأنظار. لا كما يربح المؤلف بما شامد شخصياً النظرة. (الترجم)

من التركية إلا أن سارعن إلى تعضية وجهها بالإحرام وقما يعطي انصلاحو المصريون قتيانهم قمصاناً قبل بلوعهن السبعه أو الثامنة من عمرهن إلا أنهن يرتدين قماشاً قطياً طويلاً وصيقاً يربط حول رأس حتى يسد على الوجه تعضية القتيات إذ مررن برجل عريب ولقد رأيت بعسي القرويات الشابات يسارعن إلى رؤيتنا وهن عاريات لم يحجبن ولا وجوههن.

إن ندين يودون معرفة لباس ساء الطبقات الراقية في الشرق عليهم أن يعودوا إلى رسائل مايلادي مونتجو (Malady Montagu). فلقد دحست المرأة الإنكليزية هذه إلى حريم أحد الأسباده الأتراك وقد حاولت أن الدحو لكنهم لم يسمحوا بي لأني رجل ووفقاً لسلوك المسموم، من غير اللائق أبداً بأهل أي امرأة في الطريق مهما كان لباسها ساتراً وأنا لم أستطع مشاهدته المسلمات من طبقات الراقية إلا عن طريق استراق النظر إليهن. ومع أن بعض الناس يشككون في مصدق الرسائل الأربعة الذكر حول روعة الحمامات والحريم في الشرق إلا أنني أرى أنها غير مبالغ فيها قط وأستند بذلك إلى ما رأيته بعسي في بيوت طبقة معينة من المسيحيين والمسلمين. لكنني أض أن الكاتب قد كتبت بعض محاسن لأتراك وأنها قد عصت لطرف من سيناتهم. وتصور الرسوم رقم (ب) من اللوحة رقم ٢٨ لباس الذي سخرج فيه ساء الفسطاطية إلى الشارع. هن يعطين رأسهن ووجهن وعقهن بأقمشة قطية كبيرة ولا يظهر منهن إلا عيونهن ويعطين أجسادهن بمستاد حارجي ضيق برل من عقهن حتى أحمص القدم وهي القاهرة ترتدي ذواب النسب من الساء فستاناً وسعاً من سبيح الكتان الشعبي فوق ثيبن الفاخرة ويعطين رؤوسهن بحجاب كبير ووجهن بقطعة من لقماش القطني المنفويل الصيق كما رأينا أنفاً لكن ندى وصول النساء إلى الحمام أو إلى بيت صديقة ما يحصن هذه الثياب بعرض ما يليس من حلي ومن ثياب فاخرة.

إن عدداً كبيراً من الأوروبي المشرق ينروح من ساء يونانيات أو من أصل يوناني لذا فلا يصعب على المرء مجالستهن وهناك فرق بسيط جداً بين لباس هؤلاء ولباس النساء التركيات. سوف أصف لباسهن تماماً كما رأيته وسوف أرود الفراء بصورة لباس النساء اليونانيات كان السيد بورفانيد (Baurenfenid) قد رسمها في الإنكليزية. أحيلكم إذاً إلى اللوحة الرابعة والعشرين كما ويمكن مراجعة البرج ١٦ من كتاب روسل ووصف حلبه لمشاهدة ري النساء التركيات. وجميعهن يرتدين سرويل طويلاً تصل إلى أقدامهن. يتعلمن في أرجلهن حفين من الجسد الناعم ومن فوقهن حذاء من دون كعب. ومن فوق السروال يرتدين قميصاً من نسج الكتان الناعم ومن فوقه سترة طويلة لكنهن ومن فوقها حزام عريض تعمل سترة اليونانيات من الأمام أما سترة التركيات فتصنع على عرض اليد. ويرتدين فوق السترة فروه مرودة بكمين يتألف طولها من عرضي اليد إن قصة هذه الثياب معرضة دائماً لتغيير لكن للتعبير الأكبر هو الذي يظهر على لباس الرأس وهو يشتمل النساء بشرقيات ولأوروبيات، على حله سواء ولا بد أن



أعترف أن لباس الشرقيات أجمل بكثير من لباس البقيات وأنا شخصياً أفصل لباس رأسهن على لباس رؤس الأوروبيات نكر يجب ألا رهن إلا وهن يجلسن على ارائكهن إذ طريقتهم في السير بشعه جداً كيف لا رهن يجلسن مربعات في عالية الأوقات ويسعلن خفاً من اجلد داخل أحدينهن الواسعة هناك بعض النساء الأوروبيات الأصل في القسطنطينية وهن يرندن لري اليوناني ويتعلن أحدية أوروبية. نكر يكسا أن يعرف من خلال طريقه سيرهن إذ م كن يجلسن على الطريقة الأوروبية أو الشرقية.

يمكن أن تتحول دوات النسب من نساء القسطنطينية في عربات إلا أنهن لا يستعملنها إلا نادراً في القاهرة حيث يقل عدد العربات قليلاً، مما يجبر النساء الزريعات لمسوى على امتطاء الحميم بدلاً من السير على الأقدام. والحمد لله بالذكر أن النساء المسيحيات واليهوديات لسن مجبرات على الترحل عن الحميم عندما يلتقين بأسباب القاهرة. والعربات التركيات تشبه العربات الأوروبية إلى حد بعيد ولأن الأتراك يتربعون في عرباتهم، يجد فيها أريكة كبيرة ويحب عنها لأبواب العالية. ويمكن الصعود إلى هذه العربات بواسطة سلم صغير يتدلى عادة من حلف طعنة. وبدلاً من مرديانا الجمينة، يستبدل بها لأتراك مشرقة. وخلال سفر دوات النسب من النساء، يستعملن محملاً يحملنه بعلان أو جملان.

التمارين والتسلية التي يقوم بها الشرقيون في أوقات فراغهم

ليس من المهم معرفة كيف يمضي الشرقيون أوقات فراغهم إن الألعاب الأكثر شعبية ما بين عامة الشعب هي بعاليها قديمة الأصل. وبما أن هذا الموضوع يمكن أن يلقي الضوء على بعض العبارات التي استعملها الكتاب المقدس، سوف أذكر في هذا الإطار ما علمته عن التسلية التي يلجأ إليها أهل الشرق. وإني أعترف أنني لم أبدل أي جهد للتبصر في هذا الموضوع.

إن «التمارين» أي كبار الشخصيات التركية يمضون أصل أوقاتهم على ظهر الخيل كما ويشكل ركوب الخيل أهم ترفيه من ترفيههم العسكرية. يجتمع كبار القوم في القاهرة مرتين في الأسبوع في ساحة كبيرة تسمى مصطبة. وأحياناً هم هنا إلى خريف القاهرة ويتبع هؤلاء القوم مجموعة كبيرة من العبيد والخدم ويكونون جميعاً على ظهر الخيل. منجى بعضهم إلى التمرين وبالجزيرة (Dajend) فيقسمون إلى جماعتين تتألف الواحدة منهما من شخصين ويسكنون بينهم قصيراً من التحيل يصل طول إلى أربعة أقدام (إن هذا المشهد يذكر بالتركيين الذين كانوا يلاحقون بعضهم بالرمح، راجع للروح السادسة) فيرمونه أحياناً على بعضهم. وإذا لم يكن الذي يتلقى القصب مستعداً يمكن أن يقع عن حصانه وأن تكسر عظامه. ولقد عرفت شيئاً كسرت يده ورجله في هذه اللعبة عندما كان شاباً ويتلقى بعضهم يوضع إناء يسمى بردك (Bardak) على الرمل ويصوبون عليه أهدافاً وهم يسيرون بسرعة على ظهر الخيل. ومع أن المصريين لديهم قريبات مرودة بولب إلا أنهم يستعملون سلاحاً بقتل عندما يمارسون هذا التمرين لأن الهواء الذي يهب فجأة يبعث شرارات صوانة الهندية فيمتعها من الوصول إلى البارود ولا يزال ذو الشأن من الناس يتسربون على القوس والنشاب وقد شتدت بعض الدعامات على شرف أمهر الناس في هذا التمرين. وعندما يرتفع مستوى الماء في النيل ينسأ أبناء القاهرة في الإبحار بمراكبهم الفاخرة على مياه البرك الكبيرة ويشعلون حيث لا ألعاب البارية ولا ينسون الموسيقى. وبعد ذلك يمضي كل سائح بيته في حريمه فلا يستطيع المسافرون الأوروبيون معرفة ما يفعل هناك. وقد أخبرني أحد سكان طرابلس أن باشا المدينة كان يصيب أسفاليين مرة في السنة وكان يضع بينهما سقاً صغيرة تحمل مدافع ضخمة جداً وكان يمكن سحب السفن بواسطة الخيل. وكانت هذه السفن المعلقة في الهواء تحمل الناظر إليها يعتقد أنه يشاهد حرباً بحرية. وكان يجلس بالقرب من كل أسفاله قطبان يديران أدوات سفينه، أما المراكب فكان الذي يصيب صعبة غيره بالأضواء. لقد قيل لي إن هذه المفاك ليست إلا على سبيل التسلية

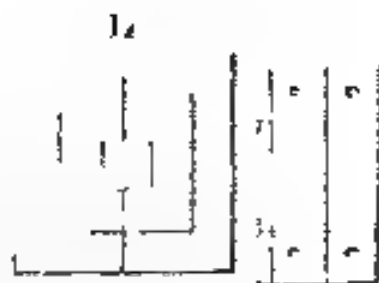
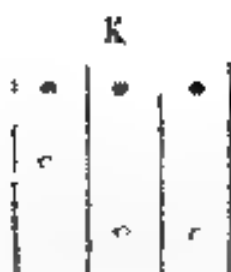
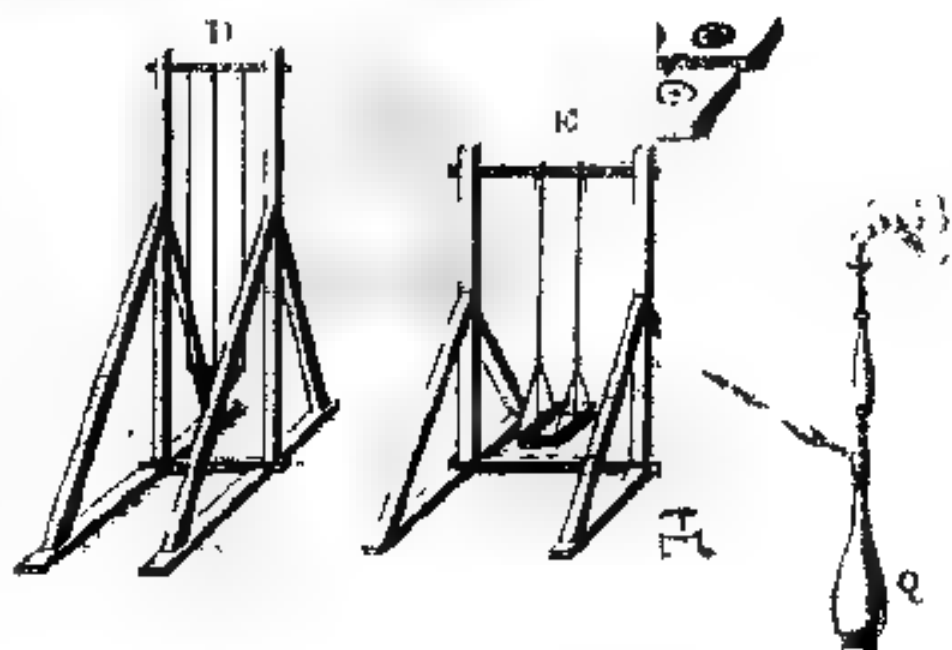
بكنى لا بد من القول إنها كانت أحياناً مسياً لحلقات تششب بين الصباغة. إلا أن هذه التسلية قد أُلغيت بعد أن احتل رئيسا مهيتين معركة حقيقية.

شاهدت حدم بعض الأسيد المصريين يتمرون على رمي قصيب يبلغ طوله من خمسة إلى ستة أقدام في اتجاه أفقي. (راجع الصورة (أ) من النوحة (١٥)). إن هذا التمرين هو الذي يهدفهم لرمي الجريد على صهر الخيل كما وأن عامة الشعب والملاحين يسبقون بالنصب بالوحي وفقاً لبعض القواعد (راجع الصورة ب) وتجرى العادة على أن يقوم اسبارون ببعض الحركات بالعصا قبل بداية اللعبة وبعد ذلك يحاول كل واحد أن يضرب رأس خصمه بالعصا فيسارع الكتي إلى رد بصرته بعصاه ويرى في الصورة (ج) مصارعين مصريين آخرين، يمسك كل منهما بعصا بيده اليمنى وأريكة بكم في اليد اليسرى ويوجه كل منهما ضرباته على ذراعي خصمه. وتسمى هذه اللعبة لمب الحكم (Lāb E. Hakkem). ولقد رأيت في الشوارع محوريين يرتدون سراويل صلبة ولا شيء غيرها، وكانوا قد ذهبوا أحسادهم بالريت. واحتق أنهم ليسوا ماهرين ولا يتجترزون على عرض لعبهم في بلاد فارس كما رأيت في شيراز حيث يتجمع فيه الناس ومنهم أشخاص بارزون يلعبون على نقال ولممارسة تمرينات أخرى للمحافظة على صحة جيدة وسوف أدرج الرسم في الجزء الثاني من كتابي **الرحلات**.

وحكى مسافرون آخرون عن التسليات الشعبية التي تجري في القاهرة عند رحيل الحجاج إلى مكة وعند جزّ مياه النهر عبر المدينة كما ولكل مؤسس مسجد عيد السوي فينتجه بعض الشيوخ بصحبة جماهير من الناس إلى المسجد ويتسلى الشعب في ساحة مجاوره عندما تبدأ مسيرة عيد المساء، يحمل المصريون بيدهم مشواة موصولة إلى قصبان ويحرقون بها قطعاً من الخشب بدلاً من خشاعل. وكان بعضهم يحمل أداة على شكل سكاكر القاهرة تكون من الخشب الخفيف المغطى بالورن والمصب على قصيب يوجد في أسفل هذه الأداة ما يقارب العشرين قنديلاً زجاجياً وتكون مرددة عادة، وفي هذه الحالة تنوي عددًا أكبر من العاديل.

أثناء الاستقالات الكبرى الخاصة بالمسلمين والأقباط يرمع الناس في الساحات بعض الأدوات (د)، و في يديها بعض الرجال والأطفال نفاة أجر رهيد يشير الحرف (د) إلى أرجوحة عادية ثلاثة حبال يألف بعضها من خشية مثلثة الشكل وهي أكثر راحة وأماناً من أرجوحاتنا رات الحبيين. أما الأرجوحة (هـ) فهي مشابهة للأرجوحة لسابقة ويحلس عليها ودين أو ثلاثة في "ي" معاً أما الحرف (و) فيشير إلى أرجوحة مؤلفة من عارضات أفقية تتلاني من أطرافها صناديق صغيرة تُدر كما تدر الأحصنة الخشبية التي نراها في أوروبا. ويمكن رؤية الآله (ز) في قرى الأراك بأوروبا.

إن ألعاب الأطفال في القرى تكون مشتركة عند كافة الشعوب وإني أذكر أنني رأيت على صفاة نهر الفرات بين البصرة والحلة (Helle) أطفالاً يلعبون بحمس حجار ت هيرون واحدة في الهواء ثم يلتقطونها بعد أن يكونوا قد موا حجرة أو أكثر أو الأربع التي كانت على الأرض. يطلق العرب على هذه اللعبة



اسم النقوط (La Kād) وهناك ألعاب أخرى منها اللعبة التي تسمى «تحتين وخمسة» (Tachtejn u Kamse) والتي يركض فيها الأولاد ثم يقفرون في الهواء. وفي بلاد فارس، رأيت القرويين يلعبون لعبة الرصية (صرب من ألعاب كرة المصرب) ويسلّي العرب والأفراك بلعبة القسوم والإيرادي ويحب الشرقيون لعبة طاولة النرد التي يسمونها «صاونة» ولعبة الداما عداً أن داما هو اسمها العربي ويتسلون بالشطرنج ويمشي بعض الناس بهارهم بكاميه في هذه اللعبة. أما أحجار الشطرنج فتكون عادة جدياً ليس لأن المسلمين يتعمدون عن كل ما يشبه الأصنام بل لأن حرفيتهم لا يجيدون نحها أو لأنهم لا يتعاصون لقاء ذلك أجراً كبيراً. وبدلاً من طاوولات الداما والشطرنج خاصتنا المصنوعة من خشب فاخر، يستعملون قماشاً فظناً طررت عليه مربعات من مختلف الألوان وتنف به الأحجار عند نهاية اللعبة. أما لصورة (ج) من اللوحة ٢٥ فهي تصور ما يسمى بالعربية «المقلّة» تتألف المقلّة من خشبتين في كل منها ستة ثقوب. يمكن لشخصين أن يلعبا هذه اللعبة واليكّم الطريقة. يصنع اللاعبان في كل من الثقوب ستة أحجار أو ست صدقات بعد ذلك، يأخذ أحدهما كافة البيادق الموجودة في ثقب ما ويضع في كل ثقب بيدقاً واحداً مبتدئاً من اليمين إلى أن تمتد كلها لكن إذا صادف أن لقي اللاعب الأرقام ٢ أو ٤ أو ٦ في أحد الثقوب التي وضع فيها بيدقه الأخير، يربحها كلها بالإضافة إلى كافة البيادق الموجودة في الثقوب المجاورة وعندما تنفذ البيادق في اللعبة، بعد كل لاعب مجموعته ويبيع الفائز على العدد الأكبر وهناك لعبة أخرى تدعى «دريس ثلاثة» صورتها في الصورة (ك) تلعب هذه اللعبة بواسطة أوام ملونة. تحمل اللعبة (ل) أو (م) اسم إدريس تيس. أما للعبة المسماة لعب ألعاب (Laib El Kāb) فتلعب بعظام مستخلصة من ركب الخراف والماعز بشرط اتباع بعض القواعد التي تحدّد قيمة الجهات الأربع الموجودة في الأعلى ولعل هذه اللعبة هي التي أدّت إلى اختراع النرد ويشتهر لشرقيون بعبه «طاب ودك» التي حكى عنها العالم هايد (Hyde) والتي تمارس بواسطة أوام من كافة الألوان يبلغ عددها ٢١ في موريا و١٧ أو ١٩ في مصر أو بأي عدد إيرادي توضع جميعها في الصف الخارجى عند ابتداء اللعبة. لقد رأيت هذه اللعبة عند الموارنة في القاهرة وكانت تتألف من خشبة فيها أربعة صفوف وفي كل صف ٢١ مربعاً كما يظهر في الصورة (ص). يضاف إلى ذلك أربعة قصبان مسطحة سوداء من طرف ويصعد من الطرف الآخر. أثناء اللعب في الهواء الطلق يرمى القصبان على سكون مثبت في الأرض أو على يده معروية في كبة وعندما يمارس اللعبة بعض التجار في بيوتهم، يبدأ اللاعب الأول من جهة اليمين وثاني من جهة اليسار حتى تلتفت البيادق ببعضها. عندما يحصل الأول على طاب أي ثلاثة يصر ووحيد أسود^(٥) يقدّم أحد البيادق من الصف الأول إلى الخانة المجاورة في الصف الثاني. وإذا لم يحصل على

(٥) يقول هايد إن الطاب يتألف من ثلاثة سود وواحد أبيض فإذا لم يكن أحدهما مغطى أو أن اللعبة تمارس بأشكال محدّدة وفقاً للحد.

طاب، يقوم اللاعب الثاني بهذه العملية شرط أن يحصل هو أيضاً على طاب، إذ لا يمكن تحريك أي بيدق من الصف الأمامي إلا بعد الحصول على طاب، وإليك ما يمكن الحصول عليه أيضاً

١ - درق ونجم أي ٢ من اللون الأسود ٢ من اللون الأبيض عند الحصول على ذلك، تتقدم بالبيدق خانتين.

٢ - درق وطلعة أي ٣ من اللون لأسود ١ من اللون الأبيض حيث يمكن أن تتقدم بالبيدق ثلاث خانات

٣ - أربعة أو أربعة سود فيتقدم البيدق أربع خانات

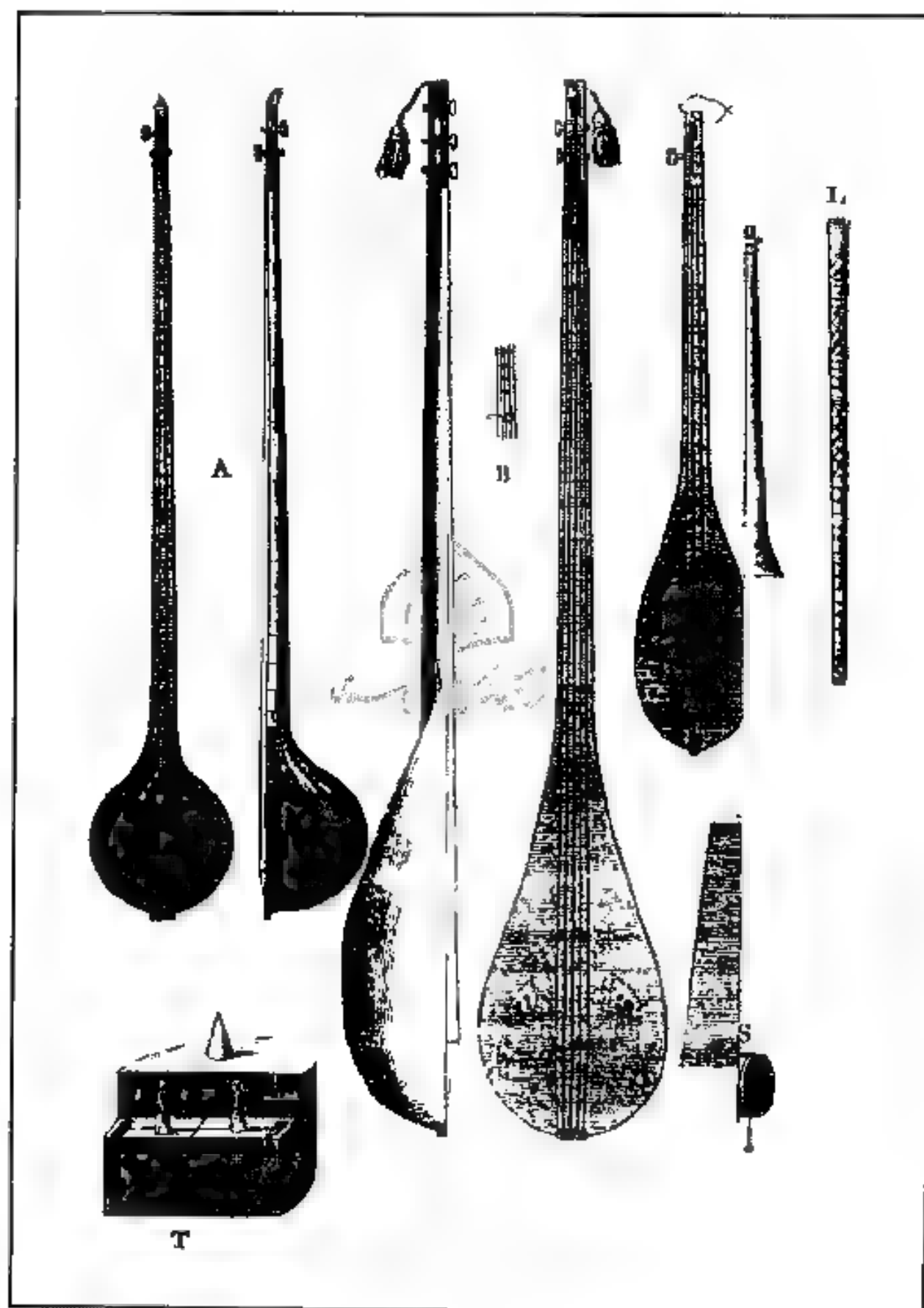
٤ - ستة أي عندما يحصل على ٤ بيدق فيتقدم بيدق ست خانات وعندما يحصل اللاعب على طاب أو أربعة أو ستة، يمكنه أن يحتفظ بالدور ويمكن للاعب الذي يوصل ييادقه إلى الصف الثالث دون أن يأخذها منه خصمه، يمكنه أن ينقل إلى الصف الرابع طالما يوجد عنده بيدق من ييادق الآخر ولا يتفهم من الصف الثالث إلى الثاني وذلك إلى أن يفقد أحدهم ييادقه كافة. ورأيت في القاهرة بعض المسيحيين وقد عرروا بقوداً في الأرض ثم يرمون طاباً فليسها. وهناك قواعد لتطعيم هذه اللعبة كما يجب أن يحصل عندما تصطدم حافة لاعب بطابة لاعب آخر وس أستعير في ذكر تفاصيل الألعاب كلها لأن القاريء ولا شك سيمثل منها.

ولم أجد المسلمين يلعبون قفد بالورق على عكس يوناني القاهرة وقوية (Kónie). ويعتبر العرب لعب الورق قماراً. ولقد رأيت في بومباي تجاراً عرباً يلعبون بالورق الصيني السميك وغير المريح في اللعب، وأذكر أنني رأيت أربعة أشخاص يلعبون بالورق الصيني ويمسكونه بصموبة بكات يديهم. ويجمع القمار المسلمين من اللعب في سبيل تحقيق المال، لذا لا يلعبون إلا على سبيل التسلية إلا أن بعضهم لا يمشي لأحكام القرآن. هي يوم ذهبت لزيارة معارفي من المسلمين في بومباي فوجدتهم مشغولين باللعب بالورق. وعندما أخبرهم الخدم عن قدوم عريب إليهم، هرعوا يخفون المال خوفاً من أن يكون هذا الغريب أحد المسلمين المسيئين. ولم تمض دقائق على وجودي معهم حتى استأنفوا اللعب نكس المال الذي طرح في اللعبة كان رهيداً جداً سرجة أن الخسارة كانت تنحصر بينهم واحد في شهر كله.

ولعل تمضية الوقت المفضلة عند أهل مصر وسوريا والعرب على حد سواء هي السهر في المهرة لتدخين التبغ ولإسقاء إلى الحكواتي والموسيقين والذين يقصدون هذه الأماكن لقاء أجر رهيد. وكنت قد ذكرت في كتاب الوصف شبه جزيرة العرب أن أهل الشرق يحبون الجلوس في القهوة ويمضون ساعات كاملة فيها من دون التحدث إلى جيرانهم. وفي مصر يستعمل الناس علواً

طويلاً خشبي القصبة وتكون هذه أحياناً معلقة باخريز أو بالقماش الناعم. هي أيام الحر الشديد، يربط بادء لجعل الدخان أقل حرارةً وعادةً تكون قصبة العيون مصنوعة من القصب الرقيق الشائع، أما محرق التبغ فيكون عادةً من الفحم ويستعمل الناس أيضاً العيون المدرسي الذي يمر فيه الدخان من خلال الماء أما العيون الذي يستعمله عامة لشعب فهو بسيط جداً يتألف من جوده هند مع محرق تبغ من المحار علفت على طرفه قصبة من الخشب وأخرى من القصب اسميك، ويمكن مشاهدته في الصورة (ص) من الصفحة ٢٥. أما طريقة استعمالها فهي سهلة. بعد ترطيب التبغ يُحشى في المحرق (أ) في كل مرة نود فيه تدخين نفس جديد، يُعبأ نصف جورة الهند بالماء إلى أن يصل الماء إلى الطرف السفلي من القصبة (ب). وعندما تصب القصبة (ج) الهواء من فوق الماء، يطرد الهواء الخارجي الدخان من خلال القصبة (ب) والماء ليملأ الفراغ. ولا يلحق الشعب إلى مثل هذه العيون بسببية وحسب بل بسبب الحرارة التي يؤسها وأثناء الرحلة التي قمت بها في بعض شتاء عبر بحر الفراع كان البحارة محبسين على الروول في ماء مراراً ولم يكونوا يتجرؤون على شرب الكحول فكنت أقدم لهم خدمة العصر كلما أعطيتهم غليوناً ليدخنوه لأنهم بهذه الطريقة يدخلون الهواء لساخن إلى رويانهم يرى في الصورة (د) شكلاً آخر من العلبيون لا يزال موجوداً في بلاد فارس. المرق الوحيد بينه وبين العيون السابق هو أنه يوجد في أسفل جورة الهند رأس من لفظة أو الشبهان وقد أنه لا يمكن وضع هذا العلبيون على الأرض إذا لم يشأ مسكه بيدها، يمكن أن يستعين بأفعيه حاصه بحمها مما لوضعه عليها. يرى في الصورة (ق) العلبيون الشائع حالياً في بلاد فارس. وهو عملي جداً أثناء الأسفار وانفصل عند الحاكم كرم حال يستعمل هذا العيون «كريم حبي» إن عيون ذوي الشاد من بهرسيين يكون أحياناً كله من الفضة لكنه عادةً يكون من التث الموضع بفضة أو الزحاح مع قصبتين من خشب. وفي الهند، تكون أدوات التدخين أقصر وأعرض من الأسفل كي لا تصبح عرصة لوقوف بسهولة لأن الهود لمبيرين لا يمكنهم بيدهم أما لقصبة فتكون من الجلد الناعم. إن كل هذه الأنواع من أدوات التدخين لا تختلف أبداً بين بعضها من الداخل. شكلها الخارجي وحده الذي يختلف باختلاف الأذواق. ويمكن أن يرى في الصفحة ١٥ من كتاب روسل «وصف حلبة» العيون الأكثر رواجاً بين كبار الأثراك إن هذا العيون وعيون كرم حبي يصنعان من الزجاج في شيرر وعالياً ما يكونان مرصعين بأهار من كل الألوان تكون ملصقة من الداخل

يعتمد دورو الشان من الأثراك أن تعلم الموسيقى والرقص يقلل من شأنهم. إن كبار القوم في الشرق ليسوا من خبراء الموسيقى والذين يعرفونها لا يحصلون على أجور جيدة، لذلك ليس غريباً أن يسميهم الأوروبيون في هذا المجال رسم أكثر في مصر وشبه جزيرة العرب وبلاد الهند على أي عازف يجيد وصح لحي ما. ومع أنني سمعت عن عازفين ماهرين في القسطنطينية، لا أنني لم ألتقي بأحد يعرف اللوت وديت حتى في صفوف الدراويش المارونين وهم من أهم الموسيقيين في تركيا ومع كل ذلك، لا يمكن أن



يقول إن موسيقى الشرق ومعه يسود ما هرب ولقد سمعت بعض الشيوخ يرنن القُرآن وكنت أعجب بترتيلهم فهم لا يصرخون أبداً في محاولة رفع صوتهم. كما وحضرت بعض حفلات الموسيقى التركية في بغداد والفسطاطية، ومع أنه لا تشبه حفلات إلا أنني أكيد أنه مستعجب أي أوروبي لا يصب استحيين. إن أكثر ما يسمعه لمسافر الأوروبي في البلدان المشرقية هو موسيقى السيئة التي تعرف في الشوارع. قبيل سفري من القاهرة إلى دمياط، غنى لنا البحارة أغنيات حب شهوة فيها حيياتهم بحبار دمشق وعيونهم يهون العرال وتعتوا يجمال أيديهن الصغراء وأظفارهن الحمراء. وكان أحدهم يبدأ بعناء مقطع فيكرر الباقون الكلمات نفسها والنحن معه ثلاث أو أربع أو خمس مرات كل مرة بعبقة موسيقية مختلفة. وبدلاً من الطيلة كانوا يصفقون معاً. وس يحب أي أوروبي بالعرابيد التي تصنفها الرافعات المصرية كما أن موسيقا لا تنجب الأتراك والعرب وتكون أحياناً الشرقية عادة بسيطة وهم يجيدون أن يفهم السامع كل كلمات، لأعجب عندما يعرف اللحن عدة آلات موسيقية مع مرانة غنائية، سمعهم جميعاً يؤدون النغم نفسه. وسأذكر لكم مثلاً على أن موسيقانا ليست من ذوق الشرقيين كما أن موسيقاهم ليست من ذوقنا أفند حفلاً موسيقياً في القاهرة تألف عارفوه من بعض التجار والرياح ولسيد بورعابد وأنا. وفي أثناء عودتنا إلى المنزل، كما أكيد من أن عزفنا قد لاقى إعجاباً شديداً في هذا البلد فانقلب في الظلام برجل مصري يعني وياحر يصحبه على الباي. ولشدة ما أعجب أحد خدامنا بهذه الموسيقى صرخ بآرك الله، هذه موسيقى جميلة عجبنا من قول الخادم وسألناه عن رأيه في موسيقانا فأجاب أنها تشبه الضجيج الصاخب الذي لا يمكن أن يتلذذ فيه امرء. ولقد عرفنا حياناً أنا والسيد بورعابد لبعض العرب من الطبقات الرفيعة، ومع أنهم لم يبدوا عدم إعجابهم بموسيقانا مباشرة إلا أنهم اعتبروا أن موسيقاهم بها رجوة أكثر من موسيقانا وأنها أحمل منها.

ولأي عارف سيء لم أجد الوقت أو الفرصة لتعلم موسيقى الشرقيين ووجدت أن خير سبيل لأعطي الأوروبيين فكرة عنها هو عن صديق رسم آلتهم الموسيقية وسأخيلكم في هذا الإطار إلى الموحة ٢٦ الآلة (أ) هي التي يستعملها اليونانيون الآنون إلى مصر من جحر الأرحيل. تسمى هذه الآلة «طمبورة» باللغة العربية. فيها وتران من العولاد. يسمي اليونانيون الآلة (ب) سيووري (Sewuri) وهي تتألف من أربعة أوتار من العولاد وس وتر سردوح من الشبهان. يسمي اليونانيون الآلة (ج) بقلاما (Baglama) وطمبورة (Tambûra). وربما يخلق اليونانيون على الآلات الموسيقية الوترية كافة الاسم الأول والعرب يطلقون عليها الاسم الثاني. لا تختلف هذه الآلة عن سابقتها إلا بالحجم وهي تتألف من ثلاثة أوتار واحد من العولاد واثنان من الشبهان. ملف حول مقبض هذه الآلات حبال من معي الخيوان جعل الأقدام أكثر ارتفاعاً تنمى هذه الأوتار بواسطة ريشة وغالباً ما يرافق الموسيقى الماء. ويتألف هيكل هذه الآلات من الخشب الرقيق ولا يكون حوائها مقوساً ولا الملوى قريباً من المقبض الصورة (د) هي صورة آلة بكمان (مقوس) يسميها اليونانيون لير (Lyra) فيها ثلاثة أوتار من معي الخيوان لا تنمى من الأعلى من

من الطرف وبواسطة الأظافر كما نلمس أوتار القيثارة بواسطة المرعشة، وأظن أنه أحياناً كما يمر القوس على الأوتار الثلاثة معاً للحصول على نغم عميق وغميق ليسب هذه الآلة مرتفعة لكن للعرف عليها نقف في الوضعية نفسها كما لو كنا نعرف على الأوتار العبيطة في الكمان الأوسط ويكون القوس فيها شيئاً شأن شأن كافة الآلات التي تكون أوتارها من معي الحيوان والتي تشيع بين العرب. إن هذه الآلات تتألف من خشبة صغيرة أخذت مباشرة من الشجرة يتكون هيكل الليرا من الخشب الصلب وهناك نافدتان صوتيتان في الداخل ومشط مركز في الباعدتين هاتين. ثم إن الرسم (هـ) هو آلة بقوس يسميها اليونانيون رباب (Repâb) والعرب كسجة (Seméndje). قبل لي إنها كانت تتألف في السابق من ثلاثة أوتار من معي الحيوان لكن التي رأيتها في القاهرة كانت تحوي على وترين كما وقوسها سميء مثل قوس الليرا. أما قدمها فهي من الحديد. يتألف هيكلها عادة من جرة هند أو من خشب قاس. وعنوانها من جند مشدود كجلد طبلونا تلك هي الآلة التي يستعملها العارفون السيئون الذين يرافقون الراقصات المصريات. يمكن أن نجد النوتات الموسيقية بالقرب من هذه الآلة. ونرى في اللوحة ٢٧ أن العارفين المصريين يتخذون أثناء عزفهم على هذه الآلة الوضعية نفسها التي يتخذها موسيقونا عندما يعزفون على الأوتار العبيطة في الكمان الأوسط. إن الصورة (و) من اللوحة ٢٦ تبين آلة بقوس شائعة لاستعمال بين العرب تسمى مرايا (Marâbba) قبل لي إن لها وترين لكن الآلة التي يحملها معي إلى الفندق لأرسمها كانت وحيدة الوتر. لا تتجاوز سماكة هذه الآلة الأصبعين وهي معلقة من فوق ومن تحت بجلد مشدود وهناك نافذة صوتية بالقرب من المقبض. وهكذا يمكن القول إن هذه الآلة هي في الوقت نفسه كمان وجند وكان الموسيقي الذي يستعملها عاجزاً فيتعامل معها مرة على أنها كمان ويصرب الحوان مرة أخرى كأنها طبل. وجدير بالذكر أن الحان المرايا تتسجم مع أصوات العارفين العاديين. الآلة (ر) هي أيضاً آلة بقوس فيها وتر وجند مشدود يحمل سحن الحوان وقد رسمت صورتها في البصرة. شامت آلات موسيقية أخرى في بلاد الهد وبغداد والقسطنطينية لكني كنت منشغلاً بأمر آخر غير تصوير رسومها. ولحق أنني كنت قد اعتدت على آلات الشرقيين فما عادت تلفت انتباهي كالسابق.

يحب المصريون الآلات الموسيقية الصاخبة إلا أن سكان المناطق الإفريقية الجبلية يصنعون الموسيقى الهادئة. وقد رأيت بين يدي البربر آلة موسيقية تشبه القيثارة (الصورة جـ) كانوا يسمونها كسير (Kussir) ينما يسميها العرب طمبورة وهو الاسم الذي يطلقونه على كافة الآلات شديدة الصخب. يتألف هيكلها من صحن خشبي في أسفله نافذة موسيقية. وهي مغطاة من الأعلى بجلد رقيق أكثر علواً في الوسط من الجوانب. هناك قضبان معلقان يثالث أعلى منهما يتران محرفين من خلال الجند الذي يحمل خمسة أوتار من معي الحيوان المثبتة بمشط ولا نجد أي ملوى في هذه الآلة ويعلق كل وتر حول القضيب بواسطة حرقه صغيرة من نسيج الكتان. وتشير النوتات المصورة قرب الصورة إلى النغم الذي يجب أن تضبط عليه. ويمكن العرب على هذه الآلة بطريقتين إما أن ينقرها أو أن تمرر قطعة جلد على

الأوتار وكان للبربري الذي يعزف عليها بوقص في الآن نفسه. ولقد كان هناك شريط حلف الآلة يمكن استعماله بتركيب اليد أو الأصابع على الأوتار وكأن هذه الآلة تشبه فيثار دودو؟

ومن بين المراسير كافة الموجودة في تركيا، تعبر الآلة التي يسميها المصريون صرم (Surme) الأكثر صحياً ويتألف الصرم من سبعة أجزاء ويشبه بوقنا إلى حد بعيد (راجع الصورة د) ويصنع المصريون اسم صرم أيضاً على الآلة (ك). ويشبه الصرم المرمار وفيه سبعة ثقوب وثقب ثامن بالإبهام ثم إن هناك مرماراً آخر يشبه السابق ويبلغ طوله ٢١ بوصة. أما السمات الصادرة عنه فهي عميقة ومحمضة ومن الآلات الموسيقية الثلاث المستعملة لعزف الموسيقى العسكرية هي الصل على أنواعه ولبوق ورمار وجميعها تصدر أصواتاً لا تعجب الأوروبيين. وتساهم هذه الآلات في لدالة على الترتيب. الصورة (ل) هي صورة السلمانية (Salamanie) أو الساي التركي، مصنوع من العصب والمرود بحلقه من العولاد من جهته العليا إلا أنه يكون أحياناً مصنوعاً بكامله من الخشب الجيد. ثم إن وظيفة العزف عليه هي نفسها التي يتخذها عازفو الساي الأوروبي الهاديء أما هم هذا الساي فهو صعب لأنه حال من أي سائر ومفتوح بكامله من الأعلى وبعد رأيت هذه الآلة بين يدي رعاة الغنم الأتراك في بلاد فارس فالأتراك إذا قد حصلوا عليها من أسلافهم في تركستان. ويرى الدراويش الموبين الذين يسميهم الأوروبيون الدراويش الرافضين في العزف على هذا الساي لأن هؤلاء أدخلوا درسقى إلى عقيدتهم فأصبحوا من أهم الموسيقيين الأتراك وهم يعزفون الساي على سائر الآلات الأخرى ثم إن الحرف (م) يشير إلى مرمار يسمى زمار (Sumara) يتألف من قصبتين واحدة قصيرة وأخرى طويلة ومن فتحتين ويمكن قصير القصبة الطويلة أو تطويلها بواسطة بعض النطق الصغيرة المثبتة عليها وذلك وفقاً لاسم المعروف في الصورة (ن) فهي لمزمار القرية الذي يسمى زمار القرية (Sumara El Kırbe) ويستعمل في مصر الجزء الأعلى من هذين المزمارين مكون من الخشب السميك. أما الفتحات الكبيرة السميكة فهي كالبوق. ليست هذه الآلة عظيمة الشأن إذا ما قارناها بمرمار القرية البلعاري فأما لم أبهج لسماعي أي آلة من آلات الشرقيين كما يتجهت عند سماعي المرمار البلعاري، ولست أدري إذا ما كان السبب يعود إلى براعة العرب أو إلى السمات البلعارية التي هي أقرب إلى أدن الأوروبيين منها إلى أدن العرب والأتراك

تختلف أشكال طبول أهل الشرق وقياساتها وتشير الصورة (س) إلى ما يسميه عرب بانطيس الذي يُعزف أحياناً ويصرب عليه من جهة بقصب من الخشب صعب يعصيصاً هذه القاه، ومن الجهة الأخرى يعود صغير. يشكل هذا الصل جزءاً من الآلات المستعملة لعزف الموسيقى العسكرية وفي حفلات الزفاف في القاهرة فالصورة (ع) هي صورة دائرة واسعة معدة من جهة بجلد حري. تكون حافته عادة مربعة بصمات معدية رفيقة وسندرية تزيد من صوته. ويمسك هذا الطبل بيد من الأسفل بينما يستعمل اليد الأخرى بلصرب عليه إن هذه الآلة هي الأكثر شيوعاً في تركيا وتستعمل في الحفلات التي تقام فيها



النساء داخل الحرم، أما الاسم الذي يطلق عليها فهو «الدوف» (Doff). يشير الحرف (ك) إلى نوع آخر من الطبول يكون قعره أحياناً من الخشب وأحياناً أخرى من النحاس. أما الطبل (ص) فيتألف من أنبة من الصخر معطاة بحلي مشدود. يحمل تحت الدرع ويضرب عليه باليد الأخرى ويسمى دريكة بلحاً بعض الشحاذين في اليمن إلى عهد بعض الأئمة للإعلان عن حضورهم ورافقتهم عشاءهم بضرب على الطبل وبما أنه من غير المريح مسك الآلة بيد والضرب عليها باليد الأخرى، يصنعون طبلًا صوّرت في الصورة (ث) ويعلقون عليه من الجهتين كره وهكذا، عندما يدبرون الطبل بسرعة تضرب الكرات حافته ويصل الشحاذون إلى متعاهم من دون عية وأذكر أي رأيت بعض الدر ويش الكلدانيين أو العربانيين ينفخون في بوق كبير أمام مدخل المسلمين ليعلموهم بوجودهم ويحضروا على الصدقة. ومن الآلات الموسيقية الأخرى لشائعة في الشرق تذكر الصاجات التي يحملها الرافعات فتصنع الواحدة منهن اثنين في كل يد واحدة حول الإبهام وأخرى حول أصبع آخر. ثم لعرف الموسيقى العسكرية تستعمل صحن معدنية على شكل الصاجات أما المرمار الذي رأيته بين يدي فلاح في القاهرة فكان مصنوعاً من القصب. ولقد رأيته السطور في بعدد وطريقة العرف عليه تشبه صريرتنا إذ كانت العازقة امرأة من الإسكندرية وكانت تلمس أوتارها بأصابعها بعد أن سمحتها بأطراف من قصبة بدلاً من خشبها بقصبان صغيرة

إنه من غير المختشم أن يرقص المسلمون الذكور لكن ذلك لا يعنى على النساء ومن لا يتدبر على الرقص لإرضاء أزواجهن وحسب بل يلتزم فيما بينهن أيضاً ولقد أخبرني أحد سكان طرابلس في كوسها عن طريقة رقص سيدات مدينته أثناء الأعراس وأظهر لا تتغير في تركيا وشبه جزيرة العرب ومع أن هذا الرجل لم يشاهدني بأم عينه إلا أن زوجته كانت قد فقدت له كل شيء بالتفصيل وقال لي إنه ما من امرأة تتجرأ على الظهور في هذا الجمع العمير لو لم تكن جميلة أو نظف نفسها جميلة وترتدي ثياباً فاخرة. وفي أعراس الأشخاص البربر، نجد عادة أكثر من ٥٠ امرأة شديدة الجمال يرتدين أفضل ما لديهن من ملابس وتحضر كل واحدة من أجمل خادوماتها أو حاربانها اللواتي يجلسن في قاعة مجاورة إلى جانب صديق مليئة بالثياب بعد تقديم مرطبات لسيدات، تدخل خادوماتهن الجميلات فيبدأن بالرقص والعاء لتسلية الحضور. ثم تبدأ أكثر السيدات تميزاً يعرض مواهبها في الرقص لكن بعد برهة تذهب إلى القاعة المجاورة وتبدل ثيابها كده، حتى خدوها الجميل «مقضب ذهباً أو فضة» إلا أنها تحافظ على ربة رأسها وأساورها المرصعة بالجوهر الثمينة. في هذه الفترة ترقص أخريات ثم يركن الجمع لتبدل ملابسهن. وهكذا، فإن كل سيدة تبدل ثيابها من ٨ إلى ١٠ مرات تقريباً في الأمسية الواحدة وتحول كل سيدة أن تحظى لإعجاب الجمع مما يجعل باقيات يركن الحضور مستاءات وحتى اليهوديات يبدن ثيابهن أثناء الاحتفالات ولقد أخبرني أوروبي في القسطنطينية ذهب يوماً لزيارة صديقه اليهودي أن روضة هذا الأخير بدلت ثيابها أكثر من خمس مرات في مدة ساعتين. أما الأوروبيون الذين يتدبرون من كرون

صانهم يصرون أموراً كثيرة على مبسطن فيمكن تعريفهن بأن الشرقيات أكثر إفراطاً في الإفراق من نساكنهم بكثير.

ويحلوا لرجال مشاهدة الرافضات أثناء الأعراس أو في المجتمعات، وتسمى الرافضات في القسطنطينية تسيفان (Tschingane) والمصريات في القاهرة عاريات. تعيش هؤلاء بعيداً عن التسمين وبادراً ما يتزوجن من غرباء. يدرس أزواجهن عادة مهنة أمشير ويسمحون لنساكنهم وبناكنهم بالرقص والعاء في الاحتفالات لقاء أجنبي ما يصحب هؤلاء رجل واحد يمزج على الكمنجة بالإضافة إلى نساء مسنات يراقبن سلوكهن ومن المعروف أن هؤلاء النساء لسن الأكثر عفة بين المجتمعات وبالرغم من ذلك، يمكن لأي مسلم أن يحضرهن إلى سريره من دون أن يعترض أحد ويمكن لمسيحي الشرق وللأوروبيين المتزوجين أن يحضروا هؤلاء النساء للرقص في منازلهم، لكن ذلك محظور على الأوروبيين غير المتزوجين وعلى التجار الفرنسيين لأن الملك يمنعهم من الزواج في الشرق لذلك ككتفي بمشاهدتهن في الطرفات أو في منازل أصدقائنا المتزوجين أو حتى في بعض المواخير حاح المدينة ولأن مدول بعض التجار الأوروبيين الذين يسكنون القاهرة تقع على إحدى ضفاف القناة التي تمر بالمدينة فإن العاريات يستعدن كثيراً مسهم في أيام تنظيف القناة قبل أن يصل النيل إلى الاربعاء، ينصب ليصب مياه في القناة. لقد شهدت هذه الأيام مباشرة قبل دهلي إلى الصحراء شدة ما كنا نحائرين من سمرق المقلب، ك محاول تمضية الوقت من خلال مشاهدة العاريات يرقصن ويعين في العاء الجملة التي كانت تستعمل كطريق. في بادئ الأمر لم تكن مشاهدتهن نسبياً فقد كانت موسيقاتهن تعتمد على الآلات أكثر من الصوت وكانت سيئة جداً، وكانت النساء يتحدد أوضاعاً حسدية غير محتشمة ولقد وجدناهن فيبيحات وأصداها الاشمثرار من أيديهن اصطلا باندون الأصفر ومن أظافرهن المصلاء بالأحمر ومن الزينة السوداء والرقاء على وجوههن وأذرعهن وصندورهن ومن خلاخليلهن وأقراطهن والكميات الهائلة من الدهون على شعرهن التي كنا نشم رائحتها حتى من بعيد ومع أن أصواتهن كانت جد قبيحة، صرنا نلظ في النهاية أنها جميلة وأنهن وسيطات وصرنا نشاهدنهم وسمعهم يرح كما لو كنا نشاهد وسمع أمهر الرافضات والمضين في أوروبا. لقد رسم السيد بورهيد إحدى هذه المرق في النوحة ٢٧. يلاحظ أنه لا تختلف ثيابهن الخارجية عن ثياب عامة الشعب من المصريات وأثناء الرقص يرفس القماش السيك والصيق اندي يعطي وجوههن ثم يرميه من خلف ثم يحسن ثيابهن الخارجية ويعين في ثيابهن الدالية التي تشبه ثياب النساء التركيات أي قميص أبيض وتحت سروال طويل وواسع بالإضافة إلى نوره يكون دائماً مضمومة من الأمام ومن موقها حرام يزرين كبيرين يكونان عالاً من القصبة ووفقاً للوصف الذي سمعت عن التيقن في القسطنطينية، رأيت أن هؤلاء يرقصن تماماً كالعاريات في مصر في بعض الملاهي الدينية اليونانية في غلطة (Galata)، تلك الملاهي التي يربادها لأمرالك العاطلون عن العمل، ورأيت صبيهاً يرقصون بثياب خاصة إن تجارة بعض المسيحيين بغيرهم من أبناء دينهم بقية نسية المسلمين يجب أن

تحتقر أكثر من ممارسات المصريات التي تكلمت عليها آنفاً.

لكل من الشعوب المسيحية المقيمة في الشرق موسيقاها ورقصها الخاصان بها كالإنكليز والفرنسيين والألمان والبولنديين . أدكر أنني رأيت يوماً في الموصل دائرة معققة يرقص فيها اليعقوبيون والنسطوريون ويرقص اليونانيون في حلقة مفتوحة فيمسك بعضهم بعضاً ويقود الرقص واحد منهم. إن أكثر الناس حياءً للرقص هم اليونانيون ورقصاتهم جميلة جداً خاصة حين تغرد جميلاتهاى مرقة. وللمصريين أيضاً رقصهم الخاص إلا أنه ليس أحسن من رقص اليونانيين وأنا لم أر أي رومي يرقص لكن البولنديين يقولون إن الرقص الروماني مليء بالمعرة ويتألف عدد الرافضين من اثنين.

ولأن الأتراك لا يرتصون أبداً قد يظن البعض أن الأوروبيين في القسطنطينية يحدون حدودهم إلا أن هؤلاء يدعون أن النسمين يقبلون بكافة عاداتنا وتقاليدها. والحقيقة أنه لا يوجد في بير (Pera) لا روبر ولا كوميديا. لكن هناك حفلات تنكرية وحفلات رقص وظل أن الأحرى بالأوروبيين أن يمتنعوا عن ملذاتهم في هذه البلاد لأن طبقات المسلمين ليس هي التي ترقص فيها بل علية أن يقاربوا بهم وقد سمعتهم مراراً يقولون أشياء سيئة عن الأوروبيين وعن الحرية التي تتمتع بها مساوئهم ولا شب أنهم كانوا سيحترمون ساء الأوروبيين أكثر لو أنهم لم يسمعو أنهم يرقص في الشارع مع العرياء أما عن الحفلات التنكرية، فإنكم هذه الحادثة التي رويت لي في الشرق. لدى عودة أحد الأتراك من أوروبا سئل عن الأشياء العربية التي رآها في اليدفة فقال إنه في فترة من السنة، يصيب الجنون الناس كانه فيركضون في الشارع مقنعين مما يجعل رجال الدين ومن بينهم بعض السخرة يقودونهم إلى الكنيسة (أربعة الرماد) يصنعون بعض الرماد على رأسهم فيهدأ الناس ويعود كل واحد إلى عمله

بري في اللوحة ٢٦ حفل عرس على طريقة مسلمي القاهرة ولقد صور الحسن سيد بورعابيد. يشير الحرف (A) إلى العروس انصاعة من راسها حتى أحمص قدميها وأمام وجهها هناك كعبة من نفود الذهبية. يشير الحرف (B) إلى الجنوازي ومخادمتاى يبري القسطنطيني. تفود هؤلاء العروس وتمسك واحدة منهن بمدبنة وتصرب الأسخريات على الطين يشير الحرف (C) إلى ليس عامة الشعب من لساء في القاهرة، والحرف (D) إلى بعض الموسيقيين الجالس على الخمر أما الحرف (E) فتظهر عامة الشعب من سكان القاهرة. عمل منهم أربعة ما يشبه الظلة فوق رأس العروس يسما يرشها بحر بالخطور. يشير الحرف (F) إلى رجال يقومون باللعب الخفية وهناك النساء اللواتي يعردن احتمالاً بالعرس ولقد رأينا خارج الإسكندرية عروساً عربية على ظهر حبل يتبعها كل ما تلقب من هدايا الزفاف من دواب وأثاث . وكان الموكب يسير ببطء ويتوقف أحياناً وكان العرب يعرفون الموسيقى ويطلقون الرصاص والنساء تزعردن.

يقوم أهل زيجة المسلم المتروكي باستحجر ساء لدب العقيد إذا رأوا أنه يصعب عيهم بكاؤه وندبه مطولاً. فتقوم هؤلاء بالصراخ مد وعاء الرجل وحتى دقته وإن عادة تغطية الوجه مفيدة لبعض النساء لأنه



لا تسمح بمعرفة ما إذا كن يدرى الدمع أم يكتبين بالعين وفي الشرق هناك عدد معين من الأيام معترة معينة من كل يوم على النساء أن يكتبن فيها أمواتهن إما في منازلهن أو في المساجد أو على القصور فمن غير العجب إذا في هذه البلاد أن يرى النساء مجرى سفيدات في الشارع في ساعة معينة من النهار ثم يتوجهن في ساعة أخرى إلى قبور أمواتهن أو إلى المسجد ثم يكتبن لساعة كاملة بعد ذلك ثم يرحسن من دون أن ييسو عنهن أي أثر للحزن والنساء وحدهن يقسن بهذه الطقوس فالرجال أهل حباً منهن وأحياناً يهدنون من روع النساء اللواتي يستعصن بالصراخ ولا تحصر عادة البكاء على موتى النساء المسلمات وحسب بل إن روحات المسيحيين شرقيين يارمن طقوس نفسها ويسأجن أحياناً بعض النساء لهذه العاية

ولقد اعتقد أنه لا وجود للعمليات المسرحية في مصر إلا أن في القاهرة عرفة كبيرة من الممثلين مؤلفه من مسلمين ومصريين ويهود من مظهر هؤلاء يعرف أنهم لا يحصلون على أجر جيدة وهم يقبضون بالتمثيل أمام أي كان مهما كان الأجر رهيداً يستعملون ناحية من كمبرج أو كمشون في الهواء انطلق وفي جزء من مكان التمثيل هناك سار يعبرون لياهم حنقه ولأن عدد كبيراً من الأوروبيين لم يكن قد شاهد أي مسرحية عربية اتفق مع هؤلاء الممثلين أن يعرضوا ل تمثيلهم في منزل ناظر إيطالي متزوج إلا أن لم تعجب لا بالموسيقى ولا بالمثلين ولم أكن بعد أجاد اللغة العربية لأفهم كلامهم ولم أجد ضرورة في طلب التفسير لأن التمثيلية بكاملها كانت سبعة وجل ما فهمت أن الممثل الأساسي كان امرأة (من رجل في ثياب امرأة مثل في إهداء لحية) وكانت تدعو المسافرين إلى الدخول إلى حبيبتها حيث تسلمهم مالههم بطريقة بائقة التهذيب ثم يطردهم منها كانت قد مرقت عدداً كبيراً منهم وبدأ أن آخرين كانوا سيحفظون بالمصير نفسه إلا أن أحد التجار لشبان مل من رؤية هذه المسحافات فأبده بعض المشاهدين وطلبوا من الممثلين إنهاء المسرحية التي لم تكن قد بعث متصفها

الدمى المتحركة هي الأكثر شيوعاً في القاهرة. لقد شاهدت عرضها مراراً في الشارع. فيمكن لشخص واحد أن يحمل المسرح المصور تحت الحرف (ح) من الفوحة ٢٦ لكن لا شك أن المسرح الحقيقي أكبر منه بكثير. يقف الممثل وراء المسرح أو تل عليه حتى يتمكن من رؤية المشهد والمشاهدين من خلال الثقوب في اللوحة (أ) دون أن يراه أحد ثم بعد ذلك يمرر دماء من خلال الثقوب (ب) ويحركها إلى الأمام والخلف وكيفما شاء من خلال حيط من الخشب يمسكه بيده ولتعبير صوته يستعمل الممثل آلة صغيرة يضعها في فمه ولو أن مصمور عرضه كان أفضل لكاتب المسرحية رائعة في بداية العرض تبدأ الدمى بإطراء بعضها ثم تتشاجر وينتهي العرض بالصراخ ولعله في ذلك يجاري دوق مشاهديه إذ بدأ انحصور معجماً بالمسرحية ومن الشائع أيضاً في مدن الشرق القديم يعروض على الخائف بواسطة الظلال ولا أنني لم أحب حضور مثل هذه العروض لأنها تسحر من ثياب الأوروبيين ومن عاداتهم وتقائدهم

من بين مشهودين الذين يؤمنون القاهرة رأيت واحداً لديه مبيع منقطع من الحجارة كالأدي يحمله

الدجالون يسيل الماء منه بفترة ثم يقطع ثم يستألف السيلان. ولأنه يعرف طريقة عمل هذه الآلة، يدعي أنه يأمر الماء بالسيلان ثم بالانقطاع حسب الظروف وكان الناس يعطونه قروشاً معدودة نقاء شعورده وكان آخر يرمي العيار في وعاء ثم يسحبه جافاً وكان لثالث كأس مرودة بقرصين ويعطاه في الجزء الأعلى هناك بيضة وفي الجزء السفلي هناك صوصان. بعد حديث طويل وخطابات على أنواعها، كان يمدح على صدقة كبيره ويسحب المعاء ثم يظهر البيضة. وفي مرحلة ثانية وبعد خطابات بمدة، كان يسحب الكأس الثابتة مع المعاء ويبيّن تحوّل البيضة إلى صوصين وكان يمدح الكرة بواسطة كأسين آخرين وفي الجزء الأعلى من وفي الجزء الأسفل منها عصف للدجاج علماً أن هؤلاء لا يسألون أحداً عن أجر لقاء ألعابهم. فعند نهاية العرض يتكئون للحضور حرية إعطائهم شيئاً

كما ويمتاز بعض المصريين من قرودهم وهي غالباً ما تكون من النوع المتوحش الذي يعيش جماعات جماعات في عائلات ليس. إن مالك هذه الحيوانات غالباً ما يكون لديه حيوانات أخرى كخسار والعرة والكلب. بعض الناس يرقصون الثعابين. قد يعجب البعض من ذلك خاصة إذا كان لا يعلم شيئاً عن غرائز هذه الزواحف لكن هناك أنواع من الثعابين تحب الموسيقى فعندما تسمع صوت الطبل ترفع رأسها والجزء الأعلى من جسمها فيقال إنها ترقص. كما ومن السهل تعليم القردة الرقص. وقد أكد لي قبطان من الشركة الإنكليزية لبلاد الهند أنه رأى على شاطئ كورومنديل (Coromandel) ما كل قدعة تسكنها القردة من دون خوف من سكانها الوثنيين وأنه أدخل الطبول عدة مرات إلى هذه الهياكل المهجورة مما كان من القردة حتى الأمهات منها إلا أن حرجب للرقص على إبعاعها وكانت الأمهات تحمل أطفالها بيدها وترقص وسط قردة أخرى ولأن الثياب الشرقية الطويلة لا تناسب هذه الحيوانات التي تسير على أربع قوائم، غالباً ما يلبس الناس قرودهم الري الأوروبي. إن من شأن ذلك أن يحمل المسلمين يمارسون بينا وبين القردة. وهذا ما يحصل دائماً بروا أوروبيين مكشوف الرأس يحملون سيفهم أفقياً فيخرج من ثيابهم من الخلف وكأنه ذيل القردة.

وكما يقوم بعض البحارة الذين احنجروا لصنع سوانب في بلاد البربر بإعطاء الشعب الأوروبي أفكاراً مشينة عن سلوك المسلمين تجاه المسيحيين عامة، كذلك يقوم بعض أهل مصر بسرد أخبار كثيرة عن فسوة الأوروبيين. ما كسكي بالتكلم على ذلك الرجل الذي صادته مراراً في القاهرة. كان يجلس في وسط الطريق ويظهر للناس تنبؤ الضحمة التي كانت تكبله عندما كان محجراً في مالطا ويحكى لهم عن الآلام التي عانى منها أثناء فترة عبوديته كإجباره مثلاً على رعاية الخنازير أثناء النهار وعلى النوم في حظيرتها أثناء الليل. وشدة ما كان المسلمون يتعاصفون مع هذا الشحاد كانوا لا يظفرونه بلخسات وحسب بل يشنّ أنواع المسابب التي يوجهونها إلى الشعب الأوروبي الهمجي.

آثار مصر

ما من اثر مصري تاريخية تسترعي الانباه بقدر الأهرام، وقد بيت لأولى منها على خط منحرف بميله القاهرة، أي من الجهة الغربية ليل، وعلى التلة الأولى من جهة هذا الهرم عندما يصل أوروبي إلى القاهرة، لا يتأخر مصر قبل رؤية هذه الآثار، مدهلة عن كعب، إذ وصلت أكثر من رصع مفصل بها، نكر لا أظن أن ملاحظاتي حول هذه الأهرام ودراساتي لها ستكون من دون حدود بالنسبة لقرء

وفي أول مرة أردت فيها رؤية الأهرام، شاركت في رحلة صيد مع الأوربيين لمقيمين في القاهرة الذين يمكنون بيتاً ريفياً في الحيز، فاجتروا حرساً يعتر ساعداً عظيم من الهرم، في انطريق بين الحيز والأهرام. وعندما وصلنا إلى هذا المكان، عادت البعثة، ولم يرافقني إلى الأهرام سوى السيد هورسكال، وأخذنا معاً بدرين النقيب بهما لتونا عند الحرس المذكور 'علاء، ليكونا دليلنا كانا بمقتضيات جودين في حين ركنا بحس حمارين، وكنت قد حملت معي اسطrolاماً (أنه قد يقيس ارتفاع الشمس أو النجوم لاستخدامه إذا ما تيسرت لي الفرصة. وعندما وصلنا سفح التلة التي تقوم عليها الأهرام، شككت قاعده أ، ب من ٢٠٣ قدم (راجعوا اللوحة الخامسة، بصورة د) في المحطة الأولى، وجدت أن الرواية الأفقية د، أ، ب الواقعة بين القاهرة ورواية الهرم من الشمال الشرقي هي ٣٧°، ٢٠°، وأن الرواية العمودية د، أ، ج هي ١°، ٣٤° في المحطة الثانية، وجدت أن الرواية د، ب، هي ١٤°، ٣٠° والرواية د، ب، ج هي ١°، ٣٦° وعند البحث عن مطلع أ، د لمشت د، أ، ب، والصبح د، ج لمشت د، أ، ج تبين أن ارتفاع قاعدة الهرم الأول فوق أفق الآلة بـ ١٧٠ قدماً وبما أن الآلة كانت على ارتفاع ٣٠ قدماً بالنسبة ليل يستتج أن قاعدة الهرم الأول أعلى من صفة النيل بحوالي ٢٠٠ قدم

وكان من السهل عليّ تحديد ارتفاع الهرم لو استطعت اختيار موقع قياس ارتفاع رأسه، لكن رأيت عرباً يمدو محراً، ولأننا لم نكن قد اعتدنا بعد على البدو، سارع إلى إحصاء الآلة. كان هذا البدوي بن أحد الشيوخ، ويبدو أكثر تميراً من مرافقنا، فسألنا بأدب واحترام عن سبب تواجدهما وحدهما في هذا المكان المعروف وعندما سمع جواباً، عرض علينا مرافقتنا حتى الأهرام وإلى أين ما شئنا. رفض عرضه لأن لم يكن بحاجة إلى دليل ثالث، لكنه أراد البقاء معنا، فأجابه بطريقة جافة أننا لن نمنعه من مرافقتنا فأكد له أنه لن يزعجنا واقتربا من الأهرام، وحين وصل وراء تلة صغيرة، رمى الشاب رمحه أمام السيد هورسكال ومنعه من التقدم أكثر إن لم يحصه مالا، نكر هذا الأخير رفض إعطائه أو وعده بشيء، وكنا عرلاً بمقتضى حذرنا وبالتالي غير قادرين على مقاومة الشاب لأننا لا نستطيع الوثوق بالدليلين

وأسرعت نحو الله، ولم أكد أصرخ لصديقي فورسكال أن هناك أناساً في السهل يعمون حتى استعاد الشيخ هيئة المجامعة والعلوية. ولم نشأ التقدم أكثر، فعدنا إلى قرية تبعد عن الجيزة حوالي نصف ميل، وعدنا العرب وأبصنا إليها. خلال الطريق، نصرف الشيخ معنا بطريقة رقيقة ولطيفة، وحاول إمدادنا صبراً، وعندما اترقنا، طالبنا بالنفود. وكان ليكنمي بمسح لا يذكر نكس السيد فورسكال قرر عدم إعطائه مال. وحين رأى أنه لن يحصل على مبعاه بالحس، فرغ عن رأس صديقي عمامته، فما كان من هذا الأخير إلا أن توجه إلى مراقبنا قائلاً: «أيها البدويون، يظنون في بلادنا أن الإفرنج في مأس حين يكونون تحت حمايتكم، وأنا الآن تحت حمايتكم. لكن إن كنتم ترمون أن يسلمني صديقكم، سأروي لمواطني ما يحصل، وأعلمهم أنكم غير صادقين وغير أميين». أثارت هذه الكلمات حميه العريين فأجبرنا الثالث على رد العمامة، لكننا لم نتخلص منه، فتحرق نحوي، ولم أشأ إعطاءه المال، فأراد الاستيلاء على أسطرنجاني الذي وضعته أمامي على ظهر الحمار. ولم أسيط أعصاني كصديقي، بل أمسكته بقطعة القماش الكبيرة التي تلب خصره، وبما أنه لم يكن ممسكاً بنجام جواده، انطلق هذا الأخير ووقع الأعرابي أرضاً. واعتبر «شاب أنه تعرض لإهانة كبرى، إذ رماه أرضاً مسيحي، فأخذ مسدسه وصوبه نحو صدري، ولا أنكر أنني أحسست بأن نهايتي اقتربت، لكن النسي لم يكن محشواً وحاول الأعربيان الآخران تهدئة الشيخ، ونجحت كلياً في ذلك حين مسحتة المال وحين عدت إلى الجيزة، سخر الآخرون منا، فقد أعلمونا بعدم الوثوق بالسو وبأننا ستعرض للهب والسلب، لكني اعتبر أننا لو وعدنا الأعرابي الثالث منذ البدء بالمال، لحلت في الأهرام بأمان ولا يشكل العرب خطراً كبيراً بقدر ما يتصور الأوروبيون قبل اكتشاف طريقة تهكيرهم وتعلم لغتهم.

يعبر ذراع النيل الذي ذكرته والذي يجري بين الجزيرة والأهرام جسران جميلان للعبادة، يبلغ طول الأول ٦٠ قدماً مزدوجة والثانية ٥٠ قدماً مزدوجة ينقسم كل جسر إلى ١٠ قناطر. ٩ منها مسدودة بالتراب أو بسور مرتفع بعض الشيء. كي لا ترمي المياه النيل بسرعة عند ارتفاع النسيب أو تراجع بسرعة عند انخفاضه. ويوجد من كل جهة، وبين الجسور سدناً مبنياً من الحجر ومن الحجارة المقصوبة، ويبلغ طوله حوالي ١٥٠٠ قدم مزدوجة. يبدو لي أن المسلمين قاموا ببنائه، أو على الأقل عملوا على ترميمه، لأن الجسور تحمل كتابات عربية حديثة. وشاهدت في محيط الجزيرة جسرين آخرين يقوم الأول على خمس قناطر والثاني على ثلاث قناطر، ويحملون كتابات عربية^(٥)

(٥) كان السيد دي هافر المكلف بالأبحاث حول تاريخ شبه الجزيرة العربية ولغتها لا يزال على قيد الحياة حين كنا في مصر، لذا لم أقدم بالكتابات العربية التي نكتفي في مصر والتي سيطت قصود على تاريخ هذا البلد. واكتفيت بنقل الكتابات الهيروغليفية، لأنها تتطلب إلماماً بالرسم وهذا أمر كان يقتصر فيه السيد دي هافر واليكم الكتابات التي وجدتها على أحد الجسور قرب الجزيرة.

بسم الله الرحمن الرحيم أحمد بعهدك هذه القنطرة المباركة بأمر مولانا الوزير العظيم حسين باشا... في شهر ربيع الأول سنة ١٦٠٨٧.



وبعد ضرة، توجهنا مجدداً إلى الأهرام برفقة عدد من التجرة، وقاد البعثة السيد ميار، وهو تاجر فرنسي، أقام لسنوات عديدة في مصر وقصد الأهرام مراراً وقد حاول حمايتها قدر المستطاع، لكن إيطالياً حديث الوصول إلى البلاد تعرض للسلب، بالرغم من عددنا الكبير، فحين وصلنا الأهرام، كان عدد كبير من سكان القرى المجاورة وبعض البدو قد اختلطوا بخدمنا العرب وبساتمي حميرنا وخلعنا ثياب لدحون الأهرام، وسلم كل ما ثابته إلى خادمه الخاص أو إلى خادم يعرفه، باستثناء الإيطالي الذي سلمها لأون عربي تقدم لأخذها، فما كان من هذا الأخير إلا أن أخذها ورحل. وعندما خرجنا، فقد كل منا بعض الأعراس، ففقد هذا مسدسه والآخر حذائه الحج، لكنني أرفقت بعض العرب بالصوص كما يعمل غيري من المسافرين، فهم لم يفعلوا إلا ما يحصل في أوروبا عندما تكثر الجمع. وفي هذا اليوم، رسم السيد بورنفايند لباس العرب في هذه المنطقة على اللوحة ٢٩

وكان هدي الرئيسي، من هذه الرحلة، هو تحديد ارتفاع الهرمين الكبيرين، واستناداً إلى البوصلة الصغيرة، تقابل جهات الهرم الأربع العرب، والشرق والجنوب والشمال، ويحد من كل جانب أكواماً من الأنقاض والرسال التي تجسدت بفعل الزمان أو الرياح. ويري عند رؤاي الأهرام الصخرة التي قامت عليها، لأن الهواء يعصف بشدة فيحمل الزمان والأنقاض التي تساقطت من الأهرام شيئاً فشيئاً. ولتحديد ارتفاع أحد الأهرام، بكفي أن نقيس الراوية التي تشكها قمته في إحدى الزوايا مع الأفق (أو في الزاوية المستدة،

يبدو من هذه الكتابات أن حسين باشا بنى هذا الجسر في العام ١٠٨٧ هـ، أي في العام ١٦٧٦ ميلادياً. وسئل رفيقي هذه الكتابات بخط يده. وربما انقل مع عظم من القاهرة إلى جسر الكبير، القريب من الأهرام، ونقل بصورة الكتابات التالية

(١) للكتابات من الجهة الشرقية للجسر الكبير قرب الأهرام.

«الهم آدم ناصر مولانا السلطان الملك الأشرف أبو الخير قايماي السلطان الملك الثاني شهر ذي القعدة سنة ثمانمائة ومائة».

بطل الدكتور ريسك الذي أرسلت إليه هذه النسخ أنه ينبغي قراءة ثمانية وتسعين أي ٨٨٠ في السطر الأخير، لأن قايماي الذي بنى الجسر، وسئل إلى الحكم في العام ٨٧٢ وتوفي في العام ٩٠٩.

(٢) للكتابات من الجهة الغربية للجسر نفسه

«باسم الله الرحمن الرحيم آدم لنا مدة السلطان بن مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون نفسه الله برحمته أمين في شهر سنة عشر ومستمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام».

وجدنا الكتابات التالية على جسر آخر وطلب السيد دي هافن أن يتم نقلها. ووجد السيد ريسك أن الأخطاء تكثر فيها، وسئل السبب يعود إلى من قام بنقلها. لكن السيد ريسك يقول إن هذه النسخ تمت أن هذا الجسر أيضاً، القائم على ١٠ قناطر، أمر بترميمه السلطان قايماي في غضون ٢٠ يوماً، وأن العمل به بدأ في الثاني من شهر محرم من العام ٨٨٤، ثم فتح الجسر وسمح بعبوره سراً على الأتراك أو على ظهر الجهاد.

ومن مولانا القاهر الشريف السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايماي الذي تاريخه على طون الأرض خاتم الحرمين الشريفين أنشأها المنصور قاهر المجددة العالي الأشرف بأرباب المسامر المنصورة وبنا هذه القناطر في مدة عشرين يوماً في ثاني ذي الحجة الحرام سنة ثمانمائة وثمانين، وتماها في مدة ثلاثين يوماً ثاني شهر الله المحرم الحرام في ثمانين أربع وثمانين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام».

لأننا لا نرى القمة من أسفل الراوية)، وأن نقيس الجوانب على مسافة متزايدة. وعندما نسير بلوط في دراسة هذه الأصرحة الهائلة، ويكون محاصرين بأناس معتقدهم لصوملاً، لا نختار السبيل الأسهل ولأدق بداً أظن أن قياسي ليس بالدقة التي كنت أرجوها. ولم أقس جوانب الأهرام إلا بالقدم، وافترضت أن الخط أ، ب (راجع النوحة الخامسة، الصورة هـ) بين الراويتين الأقرب بين الهرمين تشكل خطاً مستقيماً مع الخط يمتد بين الراوية ووسط قاعدة هذين الصرحين مع انحراف بسيط. بالرغم من ذلك، يمكن أن يكون لقياسي فائدة ما، لدقوت بشره بواسطة حبل لمسح لأراضي، كنت قد قسته ووصفته مسبقاً، رئيس بي أن الخط أ، ب أو المسافة بين الراويتين الأقرب بين الهرمين الكبيرين، تبلغ ٥٦٥ قدماً، وتبلغ الراوية العمودية ب، أ، ح ٥٣، ١٠، وارتفاع الآلة ٣ أقدام، لكن عند قياس الخط ب، ح لتعثلث ب أ، ح، تبين أن طوله ٣٤ قدماً أي إن قاعدة الهرم الثاني ترتفع ٢٤ قدماً أكثر من قاعدة الهرم الأول ويسع عرض الجهة الشمالية للهرم الثاني أو الخط ب، ك ١١١ قدماً مردوجة، مما يعطي طول الخط ب، ل أو المسافة بين راوية الهرم ووسطه، إذا ما افترضنا أن جهات الهرم الأربع متساوية من حيث الطول ويمكن تحديد ارتفاع الهرم الثاني، عند قياس ارتفاع قمة الأول من إحدى «زوايا» ووفقاً لتقديري يبلغ طول ب، ك ٧٠٥ قدم، وب، ل ٤٩٨ قدماً، وأ، ح أي القاعدة المصغرة أ، ب ٥٦٢ قدماً، والراوية د، أ، ج ٥٢٤، ٦، وأ، ل ١٠٦٠ قدماً، ود، ب أو ارتفاع قمة الهرم الثاني فوق أنى الأول ٤٧٧ قدماً ولاحظت أن قاعدة الهرم الثاني ترتفع ٣٤ قدماً أكثر من قاعدة الأول، أي إن ارتفاع الهرم الثاني يسع، بحسب تقديري، ٤٤٣ قدماً.

ويسع عرض الجهة الجنوبية للهرم الأول أو الخط أ، ط ١٤٢ خطوة مردوجة، أو حوالي ٧١٠ أقدام. إذاً، يبلغ عرض أ، م ٥٠٢ قدم، أو حوالي ٦٠٠ نظراً إلى أن هذا الهرم لا يمتد قمة. أما عرض أ، ح فيبلغ ٥٦١ قدماً، لأنني لم أستطع وضع الأسطرلاب قرب الراوية ب، ويبلغ الروية هـ، ب، و ٥٢٠، ٤٨. ويرتفع هـ، و أو ارتفاع قمة الهرم الأول ٤٠٣ أقدام بالنسبة لأفق الآلة، لكن بما أن الخط ب، ج أو الآلة ترتفع عن قاعدة الهرم الأول ٢٧ قدماً، يبلغ ارتفاع هذا الصرح ٤٤٠ قدماً. وقد لاحظت أن التلة التي يقوم عليها هذا الهرم، تقع على ارتفاع ٢٠ قدم، وبالتالي، يستتبع أن قمة هذا الهرم أعلى من صفة السيل بحوالي ٦٤٠ قدماً. وورد ارتفاع الهرم الأول في الأعمال التي وصفت مصر، لكن أحداً لم يعتقد أنها منخفضة كما ذكرت، وكادت ملاحظات العلماء الآخرين المشهورين تدفعني إلى عدم ذكر ملاحظاتي. لكن فضلت أن أنشرها، وإن لم تكن غاية في الدقة، بدلاً من أن أسح ما ذكره الآخرون حول ارتفاع الأهرام^(٥).

(٥) بعد كتابة ما ورد، وجدت ما يلي في وصف سهول هيلينبوليس وكفيس، للسيد فورمون (Fourmont) ص ٢٣٤، قال الفورمون: «الذي رآه مصر في الوقت الذي كنت فيه في البلاد، أنه قاس الاتصاع العمودي للهرم الأول، وأكد لي أنه يبلغ ٤٤٤ قدماً. ويتناسب هذا القياس مع قياسي»

وتغطي الرمال أبي الهول جزئياً، وتبين بي أن ارتفاع اندقر يبلغ ١٠ أقدام و٦ بوصات، أما طول الرأس فسيبحة عشر قدماً، أي إن ارتفاع الرأس والرقبة فوق الرمال يبلغ ٢٧ قدماً و٦ بوصات.

وقد بيى الهرمان الكبيران من نوعية حجاره الصخرة التي يقومان عليها نفسها، وهي أحجار كلسية ليثة، إذن، لا بد أنهم جمعوا الحجارة من المحيط ومن حول شمال أبي الهول، لأن هذا الأخير يبدو وكأنه حفر في الصخر، أما ذاك الذي يسد الهرم الثاني فهو مسطح وبشكل جرد لا يتجرأ من هذا المصعب. وبالع بعض المسافرين بي وصف الأعمال الضخمة والكتلة المطيبة لهذه الكتل أو الجبال الحجرية، وأشاروا إلى أنها كانت مغطاة بالرخام، ويؤكد بول لوكا (Paul Lucas) أنها كانت مطلية بالإسمنت، لكن هذه الأقوال عارية عن الصحة، على الأقل بالنسبة للهرم الثاني ونرى في أعلى هذا الصرح، حول قمته، جزءاً كبيراً من الرأس^(١)؛ وبالرغم من أنه يبدو مشمسكاً من بعيد، ومن حجارة صلبة، لا سيما حين يقع عليه ضوء الشمس، فهو مبني من الحجر الكلسي اللين نفسه الذي بني به الهرم. ولدراسة هذا الأمر، تسلفت الهرم حتى قمته، وجليت قطعة منه، وأعتقد أنه ليس من أوروري تكبد هذا الصاء، إذ لا يتسلق المسافرون إلا الهرم الأول ولا يسترعي الثاني انتباههم لأنهم لا يستطيعون الوصول إلى القمة. ويبدو أن عمل مهندس هذا الصرح الأخير قصي بقص الحجارة الناقة، وسوية الجهات الأربع من القمة وحتى القاعدة، وهكذا يتصدى لمعامل الطبيعة وللزمان أكثر مما لو كانت الأحجار مخرجة ومع ذلك وقع قسم كبير من سقف هذا الهرم، وحملت الرياح، ويستتج من ذلك أن الأهرام نفسها ستصمحن يوماً تحت تأثير عوامل الزمن، لكن يبقى انتظار آلاف السنين. وإذا يتكبد المصريون عناء إحضار الحجارة من قمة الأهرام الكبيرة، في حين أنهم يستطيعون الحصول عليها بسهولة أكبر من جبل المقطم أو من التلة التي تقوم عليها الأهرامات؟ لم أجد دليلاً على وجود رأس في أعلى الهرم الأول، ولعل الأمر يعود لقدمه أو لأنه مبني من أحجار ليثة وبالتالي معرض للهواء أكثر من الجزء الأعلى للهرم الثاني. ولا أظن أن يانها يسمي إلى أن يتسلق الناس الهرم الأول. لأن ارتفاع درجانه غير متساوية كما في الهرم الثاني، والذي يحاول صعوده من أسكنة عدة، لن يجد عدد الدرجات نفسه.

ونجد قرب الهرم الثالث، المبني من حجارة كلسية، عدداً من أحجار الغرانيت، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه كان معطى فيها مصى بهذه الحجارة، كما يؤكد المؤرخون القدماء. لكنني لم أكتشف، في الوقت القليل الذي بقى لي لدراسة هذا الهرم، ما يؤكد أن العبقة الخارجية كانت من الغرانيت. ونجد الإشارة إلى أنني وجدت بين الحجارة الكلسية أحجاراً كبيرة من الغرانيت غير مقطعة مواربة كأحجار سقف الهرم الثاني، لكنني أجهل إذا ما كانت تحمل كتابات مصرية قديمة. ومن أزع هذه الحجارة عدد دراستي للهرمين الكبيرين، كما لم أتوقع ذلك، لأن الحجارة الخارجية المعروسة في الأرض لم تعد موجودة.

(١) رحلة إلى مصر، بقلم نوردة، ص ٤٢ - ٤٥.

وتسلف الهرم الأول للاستمتاع بالمنظر الذي وصفه العديد من المسافرين، كما دخلت هذا الهرم ورأيت ما ذكره العديدون. لكن لم يحالفني حظ لأكتشف العرفة التي كانت لا تزال مجهولة والتي اكتشفها بعد رحيل السيد دافيسون (Davison) الذي زر مصر مع السيد مونتاجي (Montagu). وما أن السيد مايله (Maillat) الذي يعاصر بأنه دخل هذا الهرم أكثر من ٤٠ مرة^(٥)، لم يلاحظ هذه العرفة، سيسامحني القراء والعلماء لأنني لم أقم بأبحاث من هذا النوع واكتفيت بتراجم أخرى. رامتاد إلى وصف السيد ميار (Meynard)، تقع هذه العرفة فوق العرفة الكبيرة المعروفة التي تحوي الصندوق، وهي تحتل المساحة نفسها، لكنها أقل علواً، ويعلو مدخلها المحمد الذي يؤدي إلى العرفة الكبرى ثلاثين قدماً.

ونجد في الحجارة الكلسية للأهرام، وعلى الصخرة القائمة عبيها، أشياء منحجرة بحجم الدوكا إننا أسمت، ويطلق عليها العرب اسم قصة أبي الهول، كما نجد أشياء منحجرة أخرى على شكل العرس، من نوع الخروب التي جمعتها في «أبو براء» على الشاطئ المصري. وقيل لسترابون إن هذه المنحجرات الصغيرة تكونت في الفئات الذي أوقفه الدين بوا الأهرام^(٦) لكن نجد كتابات منها في صحور جبل المقطم قرب القاهرة. ويشير غرانجر (Granger) إلى أن الصحور قرب شيخ حاري (Schech Harre) في مصر العليا مليئة بهذه المنحجرات على شكل العرس. إذاً، يحتمل أن تكون كتابات الصحور في مصر الواقعة تحت خط عرض معين، مكونة من هذه المنحجرات، لأننا نعلم أن صحور القسم الأعلى للبلاد مكونة من العرايت. وبذلك هذا إلى التأكيد حول قدم مصر، كم من السواب مرت، قبل أن يولد هذا الكم الكبير من الخروب الصغير وبموت، كي تبلغ هذه الجبال عتوها هذا؟ كم من سواب مرت، قبل أن نجف مصر لا سيما إذا ما تراجعت أبناء مصر عن الشاطئ بالبطء الذي تراجعت فيه في القرون العشرة الأخيرة؟ كم سنة مضت قبل أن يكثر السكان في مصر، وقبل أن يعكروا ببناء الهرم الأول؟ كم سنة مضت قبل أن تبنى هذه الأهرام التي راها حالياً في مصر؟ ولا نعرف حالياً بدقة في أي قرن وبأمر من بني الهرم الأخير.

ولقد كان من الممكن أن نعرف تاريخ هذا البلد القديم، لو تمكنا من قراءة كتابات سكانه القديم، لأننا لا نجد في أي بلد في العالم مروجاً تكثر عليها الكتابات القديمة بقدر ما نجد في مصر. لكن من سنفيق من جهد السكان القديم الذين حاولوا تحليل كتاباتهم بمعرفها على حجارة صلبة لأننا لا نملك منها شيئاً. ولا نجد سوى القليل من العلماء بين مجموعة الكبيرة الموجودة في أوروبا، الذين يتمتعون بالصبر والدكاء الكافيين لدراسة الآثار، ولا نسمح لهم الفرصة عادة برؤية هذه الآثار إلا في مكتباتهم، ولهم لم يحصلوا حتى اليوم على نسخ عن الكتابات المصرية القديمة. واني على ثقة بأنهم سيمسرون

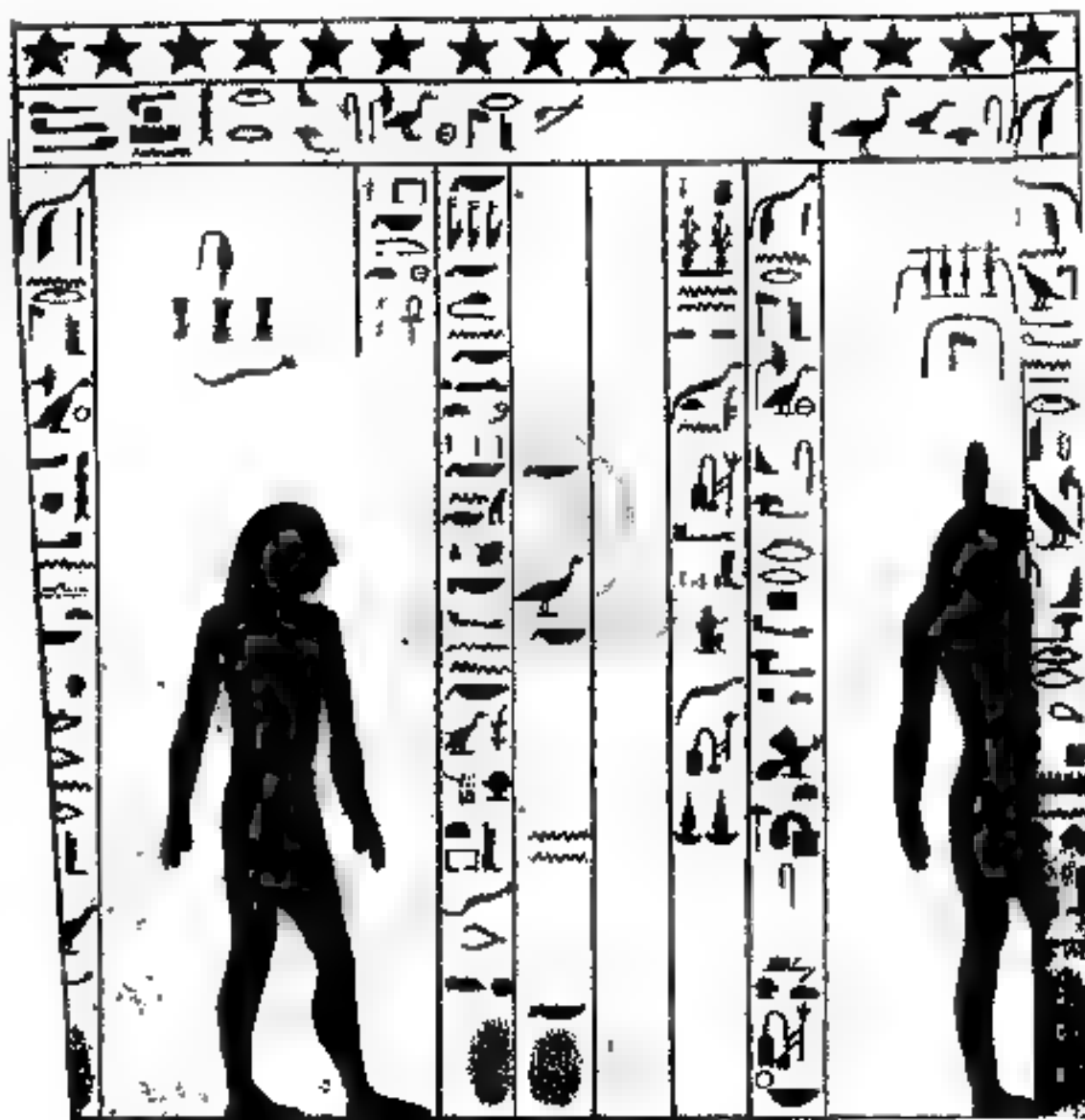
(٥) وصف مصر، الجزء الأول، ص ٣٢٥

(٦) أشبهت ما رأيته قرب لبيدي، وهي مكان رملي، خشباً متعرجاً، لا سيما قطعة كبيرة من جرج شجرة

العديد من الأمور، إن زودهم المسافرون بسح كثيرة، لا سيما إذا كانوا على معرفة بلغة الأقباط التي كانت منتشرة في مصر قبل وصول اليونانيين، لأن معرفة هذه اللغة ضرورية لتفسير الحروف الهيروغليفية. ولقد حافظ الأقباط الأوائل، على الأرجح، على كتابات أسلافهم الوثنيين، كما حافظ العرب المسلمون على الكتابة الكوفية. ويبدو أن مصر لم تلق مصير البلاد الأخرى التي فهرتها أمم أجنبية، فأدخلت إليها دينها ولغتها، وقد احتيرت مصر هذا لاحقاً، ولم يكن أحد ليهتم بكتابة السكّان القدامى، وحاصله وأن الأعلية كانوا يعتقدون بحقهم المستمد من السماء لاستئصال الديانة القديمة بالحديد والنار. وقد أشاد بعض اليونان للمصلحين الذين زاروا مصر، بحكمة سكّان البلاد القدامى، ولا زالت الكتابات المتعددة والأصحة الرائعة التي خلفها هؤلاء تثير إعجابنا واستعجابنا. وإلا لجصاهم في عداد الشعوب الوثنية الأخرى، واعتبرنا أنهم لم يعرفوا الكتابة كما لم يعرفوا الله.

ويبقى تشكيل مجموعة كتابات هيروغليفية كاملة إلى حد ما، كي يقوم بتفسيرها العلماء، لما يحب أن يقيم أحد المسافرين بعض الوقت في مصر العليا، وأن يسخ كافة الكتابات الكاملة (غير الناقصة) التي تملا على ما اعتقد جدران المعابد القديمة، كما سيجد الكثير منها في مدهن المومياة قرب سفرة ولعنا سجد في مساكن انوتى المجانة هذه، آثاراً وعرائب جديدة وحتى كتباً فضلاً عن المومياة والأواني انصاعة بالكتابات؟ من هو الأوروبي الذي يكتد عاء كسب محبة عامة الشعب يدرس كل هذا معهم كيما شيء؟ نساخ عادة بالعودة إلى القاهرة ما إن حصل على ما يريد لقاء بعض المال. ويبدو أن المسافرين يكتفون بنقل موقع الحجارة وشكلها ولا يهتمون بسخ الكتابات المتعمرة عليها. وبشكلي البعض منهم من المثل الذي أحسوا به لرسمهم البهايا وحسب، مع أن هذا الأمر لا يتطلب الكثير من الوقت، كرسم الكتابات الهيروغليفية التي لا ينبغي إهمال أي لحظ منها إذا ما أردنا الحصول على نسخ دقيقة ليمسرها العلماء. إذاً، إن المشقات والمصاعب التي يتوقع أن يلاقيها المرء في مصر، عند الاهتمام بهذه الأمور، كادت أن تثني عن عزمي، لا سيما وأن القاهرة ليست بإمكان الذي تكثر فيه الكتابات الهيروغليفية، وأني لم أكن مكيفاً بالأبحاث حول الآثار. لكن، حين كسب لرسم خريطة القاهرة، وقعت على كتابات هيروغليفية، فقررت نسخها لإرضاء نفسي، وتطلب نسخ الكتابات الأولى الكثير من الجهد لأنني كنت أجهل كافة الرموز، لكن نسخ الثانية بات أسهل، وفي النهاية، أصبحت الرموز الهيروغليفية مألوفة بدي، فاستطعت نسخها بالسهولة التي أنقل بها الحروف اليونانية أو الكوفية. وسأورد هنا الكتابات التي نسخها في مصر، ولا أشك في أن بعض الرموز ستساعد في تفسير وفهم الكتابات القدامى.

إن أعظم كتابات رأيها في مصر هي تلك الموجودة على صندوق كبير من العرايت الأسود، قرب مسجد طوبون (Teilûn)، بالقرب من قلعة القيش (Kallâ el Kâbsch)، راحوا اللوحة ٣٠ رسم بركوك هذا الصندوق الذي أطلق عليه اسم «نبح الكنز» (The fountain of Treasura)، على اللوحة الثانية

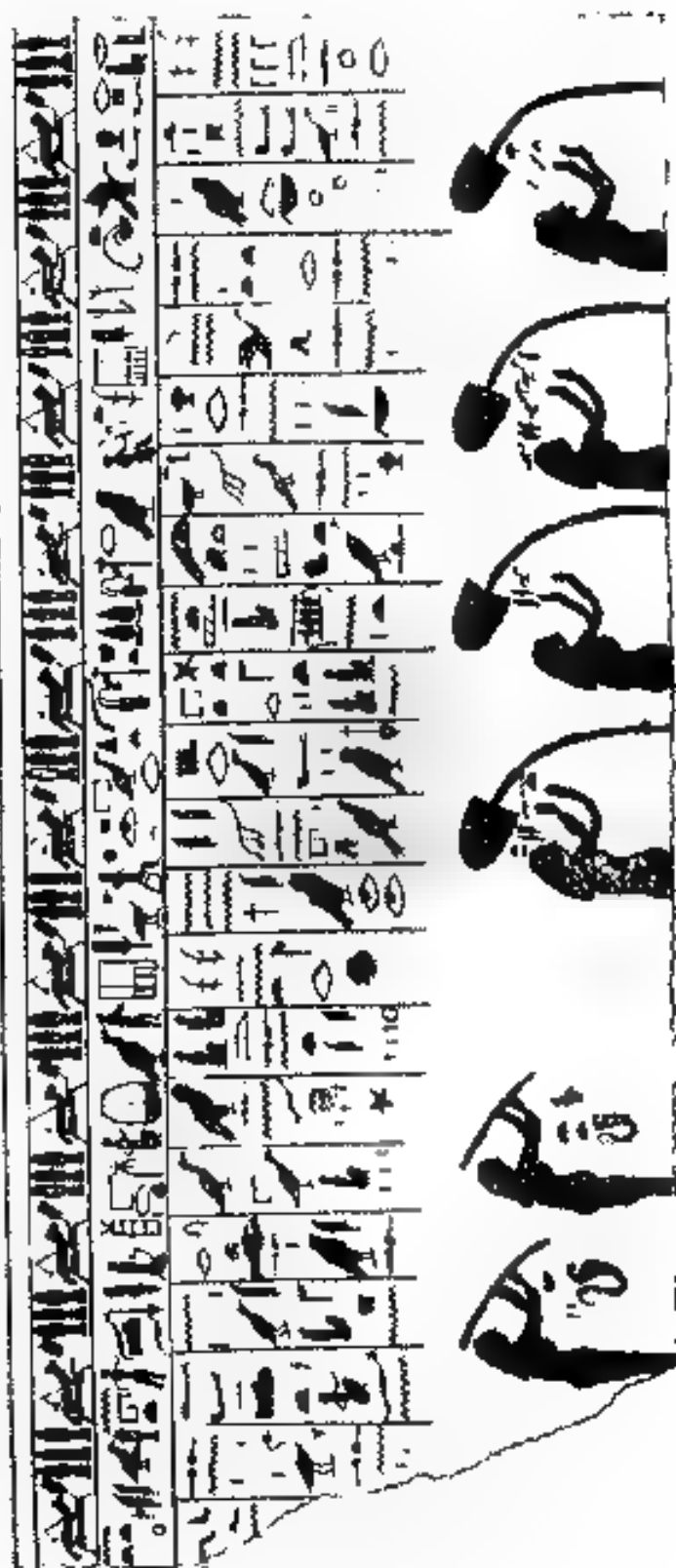


ولوصف الشرق (Description of the East)، كما رسم يري صندوقاً مائلاً، والحروف الهيروغليفية المنقوشة عليه على اللوحة ٣٣ من «رؤية للشرق» (View of the Levant). ويبلغ طول هذا الصندوق حوالي ٧ أقدام، وهو أعرض من الأعلى منه في الأسفل، لذا من الطبيعي أن نستنتج أنه تابوت مصري ما كريم النسب. وقد وضع الصندوق في مشكاة^(١)، وبالتالي لا يمكن أن يرى سوى الكتابات المنقوشة على الجهة الأمامية، ويحمل الصندوق على الأرجح كتابات من الجهات الأخرى. كما يجد رموراً هيروغليفية داخل الصندوق، لكنها معصاة بالنكس لأنه يستعمل حالياً كمستقر. يفترض مايه (Malliet) أن هذا الصندوق الذي يسميه بيع العشاق، أخذ من أحد لأهرامات ونقل إلى القاهرة، لكن الصندوق الذي رآه في الهرم الكبير غير مستدير من الأعلى. ولا يحمل كتابات هيروغليفية. وأظن أن بعض الأشخاص الكريمي النسب في مصر، والذين لا يتحملون نفقة بناء أهرام، أو الذين توفوا بعد أن ولت عادة بنائهم، دفنوا في هذه الصناديق الفخمة.

سجل بعض ابونانيين، الذين كانوا في مصر في زمن كان المثقون يجلسون قراءة الحروف الهيروغليفية، معنى بعض الرموز، لكنني أشك في أن تعيد هذه التفسيرات بهم الكتابة الهيروغليفية بعد ذاتها وقد تصرفوا كما يتصرف المسافرون حالياً، إذ اكتفوا بالرموز الكبيرة التي تلعت الأنظار بلوحة الأولى. لكنني أعتقد أن هذه الرسوم لا تمت لكتابة المصريين القدامى بصلة، ويبدو أنها رموز تدل على أشخاص معينين أو أحداث معينة، وثبتت معظم الكتابات التي نجدها اليوم ما تقدمت به دون أدنى شك. يرى ثلاثة من هذه الرسوم وبعض الرموز الصغيرة ضمن الكتابات المحفورة على الصندوق قرب قبة النقب والذي أثبت على ذكره آنفاً. وتشكل الرموز الصغيرة ما أسماه الكتابة الهيروغليفية، وأظن أنها نقشت لتفسير الرسوم الكبيرة، ويبدو من هذه اللوحة أن المصريين كانوا يرسمون الصور بشكل مستقيم وبالمقلوب، كالطيور على سبيل المثال التي تدير وجهها إلى أحد الجانبين ويمر في جانب آخر. ونجد الإشارة إلى أن بعض الخطوط العمودية متساوية تقريباً فيما بينها، والصور وحدها تأتي معكوسة كما ذكرت سابقاً، مما يدلنا على الاعتقاد بأن المصريين نقشوا كتابات مختلفة تحمل المعنى نفسها على حجر واحد فإذا ما تلعت إحداها بقيت الأخرى واضحة. وبالرغم مما تقدم، سأقبل للعماء الكتابات الموجودة على جانب الصندوق وأترك لهم مهمة تفسيرها.

ولأكشف الحقيقة للذين سينعمون أنني لم ألاق صعوبات في نقل هذه الكتابات الهيروغليفية، سأتي على ذكر المصاعب التي واجهتني وأنا أرمم هذه اللوحة. ظنت أنه من الأفضل القيام بهذا العمل بحضور مسلم مثقف، فقصدت مكاناً بصحبة شيخ. وبما أن الصندوق في شارع يكثر فيه مرور الناس، كثر من حولي المتخرجون، ولم يوجه إلي أحد أية إهانة، لكنهم تماحروا من حشرة الأوروبيين، وأعجوا

(١) كوة في الجدار.



بصري على نسخ الرموز كما هي على الصدوق وذلك بواسطة عود (قلم) لا أعطه في آخر وما إن سحت ربح الكتابات حتى وصل سراج وهو حارس في خدمة البهاوات، يحاول أن يعطي نفسه أهمية أمام عامة الشعب، ولا سيما حين يستطيع شتم وإهانة يهودي أو مسيحي ما، لأن هذين الأخيرين لا يتجرآن على إهانة اسم أو صريه حتى ولو أسبخت معاملتهما. ولا أعلم إن كان مكلفاً الحفاظ على الهدوء والأمن في المنطقة، ولم يتحمل رؤية هذا الحشد أو أنه أراد إظهار سلطته في حضور هذا العدد من المشاهدين، لكنه تلفظ بكلام جارح، ورأى الشيخ الذي يرافق ضرورة الرحيل إلا إذا أردت التعرض للهرب. ركب حمارياً، وعدنا، لكنني كنت غاضباً من السراج، وأردت الاستعلام عن سيده لأرفع إليه شكواي، لكن صديقي الذي يعرفهم أحسن مني، لم يصحني بذلك وحاول تهدئي رايأ لي حالات مماثلة لم تعني الشكوى إلى شيء. وقال لي: هل يمكنك مع كلبك من التباح صدك، أو حين يرسك حمارك هل تصره يدورك؟ يمكنك أن تعود لاحقاً وتسح ما تشاء على مهل وبعد أيام. عدت وصديقي إلى قلعة القيش، وسحت أحد حراس الحلي بعض المال ليحميني من أصدقائه، وتجمع حوي الناس ومن بينهم سراج سألني عن أعطائي الإذن لنقل الحروف الهيروغليفية من الصدوق، فأجابه سراجي إن الإذن صدر عن معلمه، فرد الأول إن معلمه يرفض السماح لي بذلك وهكذا غادرا المكان، وبعد أيام عدت للمرة الثالثة، ولم أكن قد انتهيت من عملي كلياً، حين أخذ أحد لأئمة الذي رأي من مرل مجاور للمسجد يحدث ضجة، وبم أحد داعياً لأن أتعرض لمشاكل جديدة، فجمعت أعراسي وغادرت المكان وسحت بهذه الطريقة الكتابات شبه كاملة، من دون أن أتكتب الكثير من المال. ولو أنني توجهت إلى إمام المسجد أو إلى بعض البهاوات، لكلفني الحصول على الإذن هدية قيمة، أو بعضهم معوي من نسخ أي حرف. ولا ينبغي أن يطلب الأوروبي، الذي يسافر إلى البلاد الشرقية، حماية الأشخاص الناصيين المسلمين إذا ما أراد لرصاء فصوله وأعترف أن الأمر يتطلب شجاعة وبرودة أعصاب، ولو أنني سحت للسراج الأول بإخافتي، لما سحت إلا القليل من الكتابات الهيروغليفية والرموز وباحتصار، بحسب توقع المصاعب حين يسعى لرسم الآثار في بلاد الشرق، لكننا لا نعرض لمخاطر حسام، ويبقى الأهم أن يمان المرة متعاه.

يدعي البعض أن باعاب لمساجد في القاهرة تصم العديد من الصناديق التي نقش عليها حروف هيروغليفية والتي تستخدم حالياً كأحواص. ومنه حوالي ٢٠ عاماً اكتشف عثمان كحيا صدوقاً، ونقشه في اسيل لوصعه قرب مسجد، لكنه كسر عند وصوله إلى بولاق، فوصعت أجروء حول شجرة لتعطيه جذورها بالتراب بسهولة أكبر. تحمل اللوحات (XXXV XXXIV, XXXIII, XXXII, XXXI)، الكتابات الهيروغليفية المنقوشة على أحراء هذا الصدوق، وبعد بينها رموزاً، لكن السطر الأعلى لا يبدو كونه سريية، كما يمكن أن يكون مرسوم التي تتكرر معنى معين وكنت حروف اللوحات الثلاث الأولى بشكل مستقيم، أما الأخريات فيعقوب. وبعد الصورة الكبيرة نفسها المنقوشة على اللوحة (XXXIII)،



٣٣ ليري (Perry)، لكن الحروف الصغيرة التي ترافق والتي تنسرها تختلف كثيراً عن تلك التي ترافق صورتي الكبيرة، ويسفي مقارنة حروف لوحة ييري الهيروغليفية مع حروف لوحتي التي ذكرتها، وبعد قطع هذا الصندوق في مساحة كبرى أمام منزل الحاكم، وأصبحت هناك ساعتين رسمت خلالهما الرموز بمحور الكثير من المشاهدين ومن دون أن أتعرض للإساءة. لكن حين عدت مرة أخرى، وبعد أن عملت لبعض الوقت، حضر سراج وطلب من مرافقته لرؤية سيده الحاكم، وسألني هذا الأخير عن سبب نقلي للكتابات الفرعونية، وعرضت عليه ورقي، التي أعطتها لكبار القوم الحاضرين، فصحكوا من حشوية الأوروبيين التي بدت لهم غير مجدية، وأخيراً، أحد السراج أورافي وخرج من الغرفة، فرجوت الحاكم أن يردها لي، فأجابني بأن أطلبه من حارمه، مما يعني أنه يسمح بهذا الأخير بأخذ الأوراق. واضطرت إلى منحه بعض المال، فأعاد لي الورقة، وسمح لي باسم رموز هذا الصندوق للكسور.

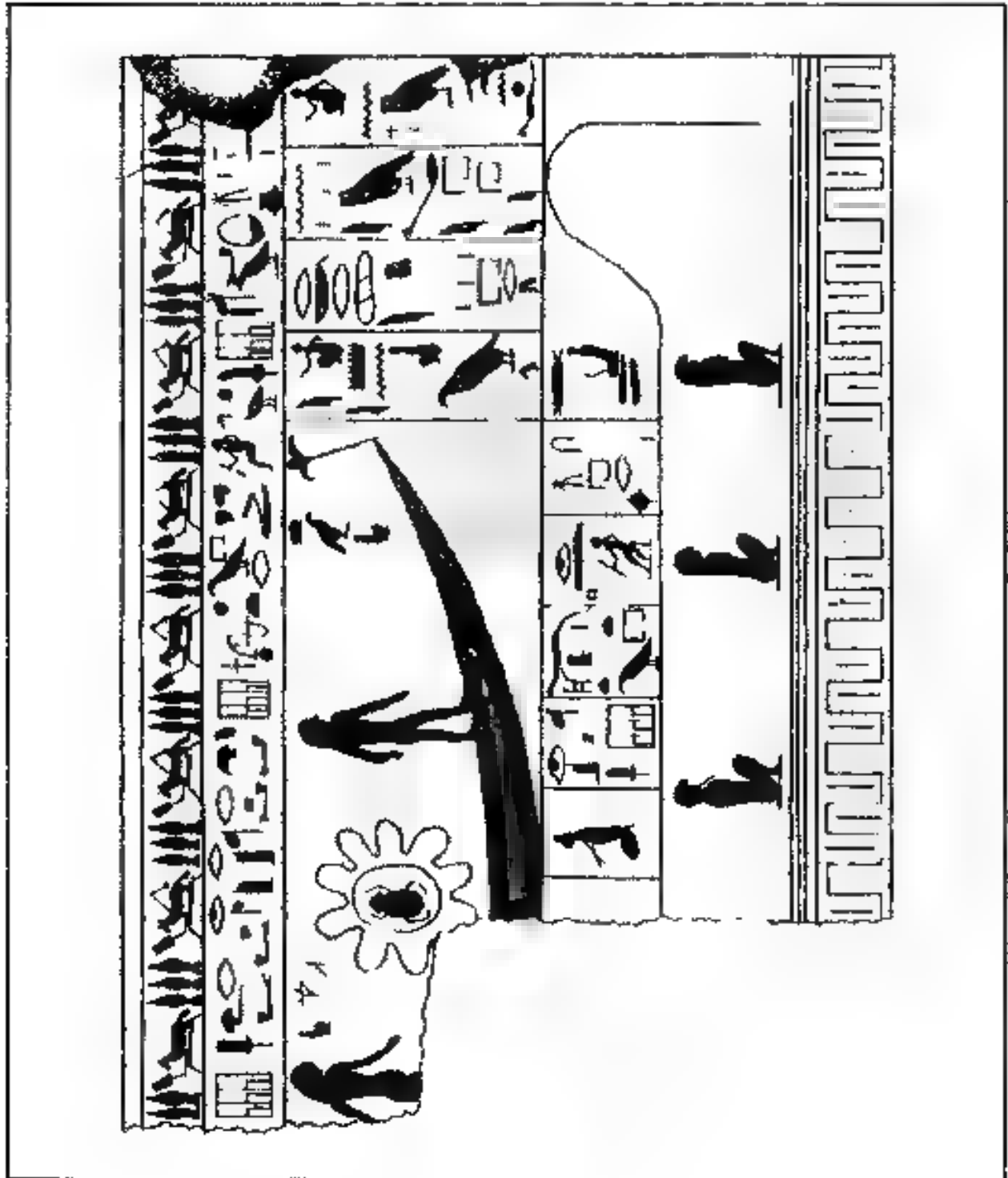
وتحمل اللوحة (XXXVI) قسماً من الكتابات الفرعونية المنقوشة على المستلزين الصغيرتين المكسورتين. واستخدمت القطعة أ، وهي من الرخام الأسود كعتبة لمسجد قصر القاهرة، وبين الصور التي أوردتها، فإن التي أشرت إليها بنجمة تستحق اهتماماً خاصاً، لأنها كانت نائكة وبارزة في إحدى التجويفات. أما القطعة ب وهي من الفرانيت فاستعملت كدرجة أمام أحد المنازل قرب الفنطرية الجديدة (Kantared Sjedid)، ويبلغ عرضها ٥ أقدام وربع، ويمكن أن نستنتج من هنا أن الصور المنقوشة كبيرة، وقد حمرت المورتان المشار إليهما بنجمة بشكل حقيق إنما ظاهري في الوسط.

تحتوي الأواني الصغيرة وجرار المرمر من بين الآثار المحفوظة جيداً والتي تحمل كتابات هيروغليفية، وقد رسمها نوردين بشكل جيد على اللوحة ٥٥، لذا اكتفيت بنقل الكتابات الهيروغليفية التي رأيتها في مصر على خمس جرار وذلك على اللوحة ٣٧ و٣٨. ويش رأس امرأة على عطاء الإناث الذي يحمل الحرف أ، ورأس كلب على الذي يحمل حرف ج، ورأس عصفر على ذلك الذي يحمل حرف د، فيما فقد غطاء الإناث الآخرين ويبلغ ارتفاع الحرف أ، ٦ بوصات ونصف، أما ج، ود فسيح بوصات وربع.

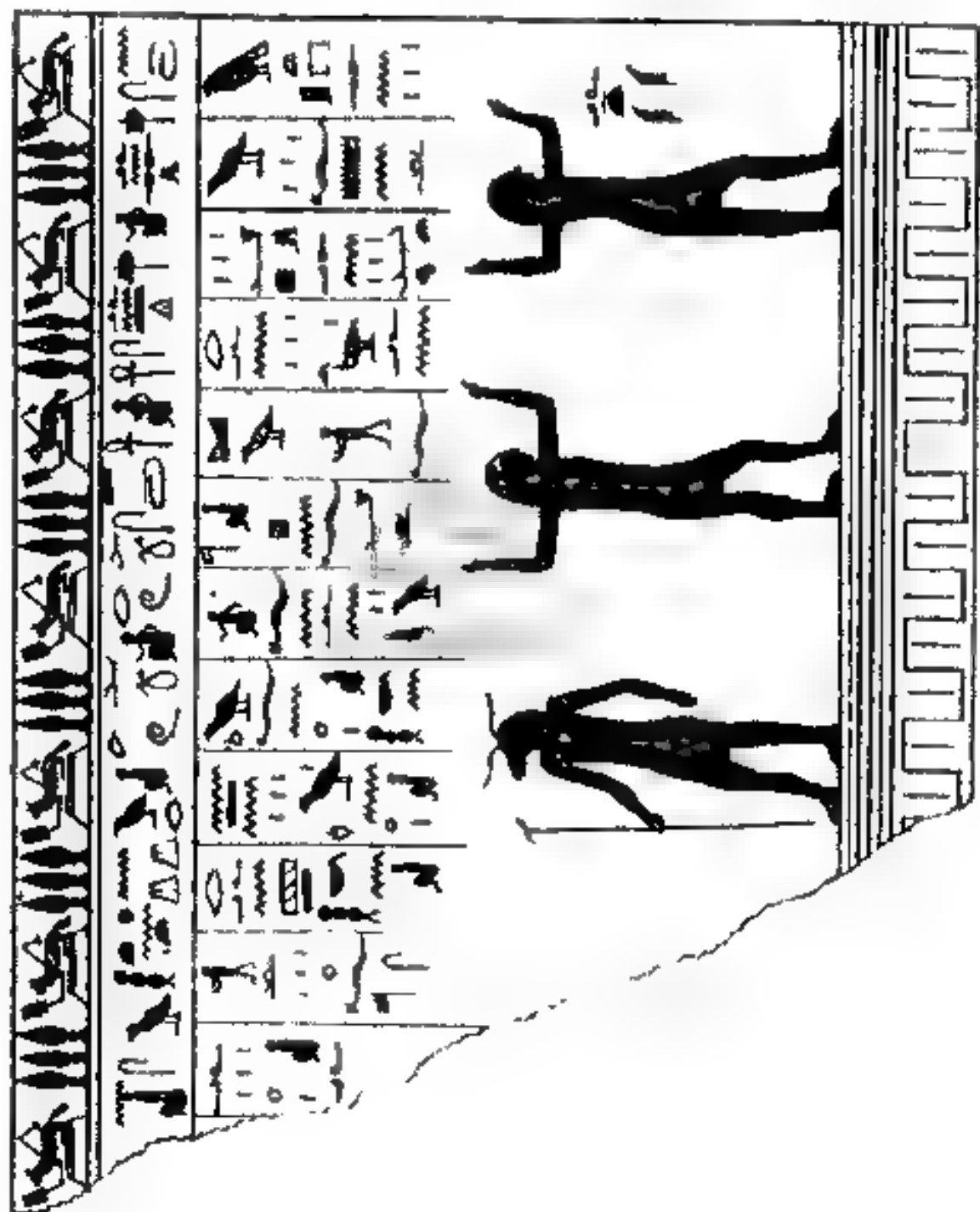
ويذكر أن نجد في بلاد أخرى كتابات قديمة محفورة في الصخور الصلبة كهده، كما نجد في مصر رسوماً وكتابات مرسومة على الخشب وعلى القماش وهي قديمة جداً وقد حافظت على رونقها ورأيت هذه الكتابات عند فصل فرنسا في القاهرة على غطاء صندوق مومياء من الخشب، ونقلتها على اللوحة ٣٩. ووجدت هذه القطعة غريبة للغاية، لأنها تيرهن أن الكتابة الهيروغليفية المنقوشة في الوسط من الرأس وحتى القدمين مؤلفة من حروف تشكل كتابة المصريين، لكن الرسوم التي تغطي باقي العطاء من الجهتين والتي يسفي أن تكون أكبر مقارنة مع الكتابات الهيروغليفية والتي لم أرسمها، لا بد أنها رموز مستوحاة من الأساطير. وتحمل اللوحة (XI) السيد من الكتابات القديمة، وقد نسخت النصف أ عن تمثال نحاسي للمومياء، والنصف ب عن غطاء صندوق مومياء، أما الكتابات الصغيرة ج فنقلتها عن جرة صغيرة، يحمل

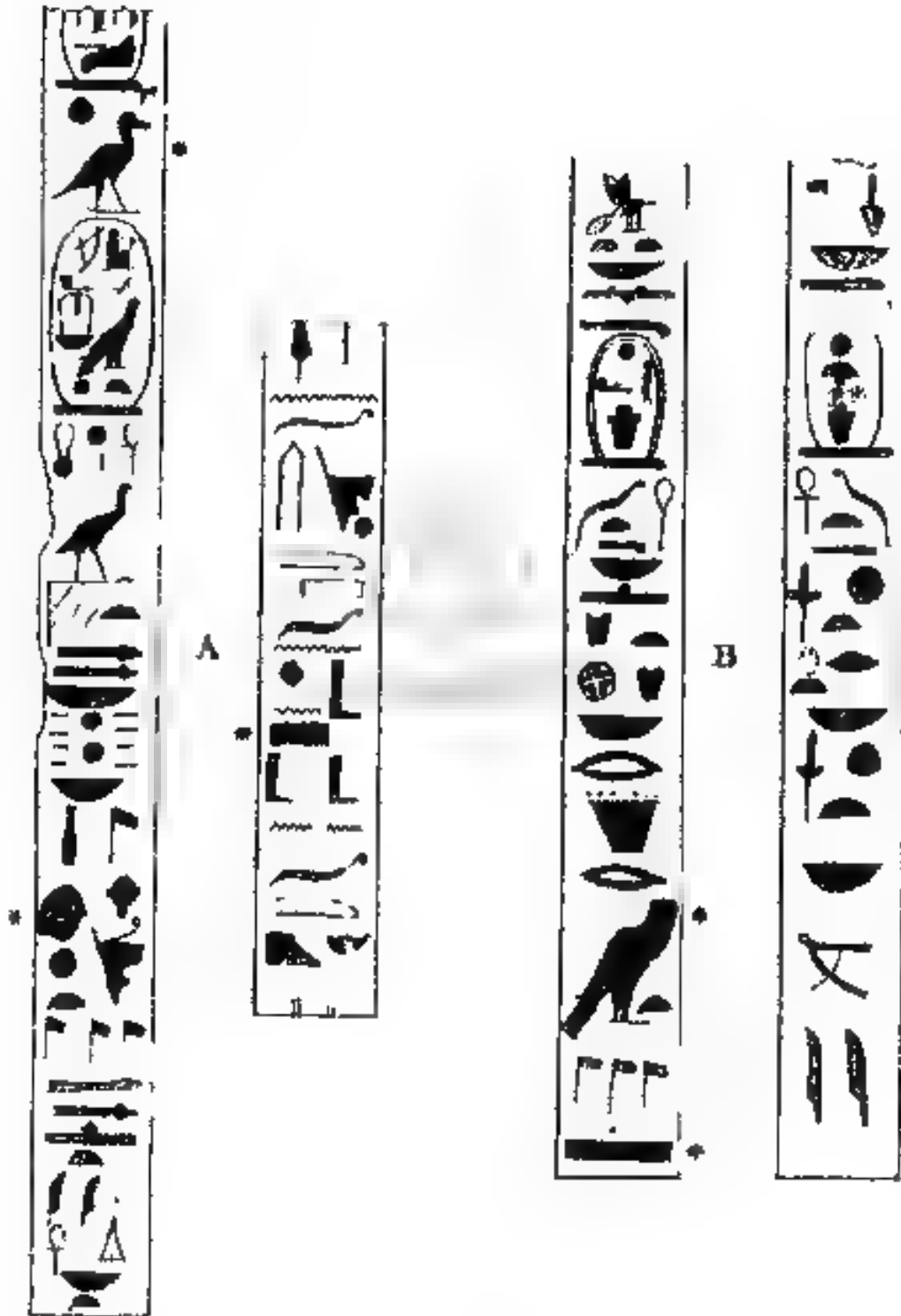


غطاؤها رأس عصفور، والصعروف الثلاثة ج نقشها عن تمثال خشبية صغيرة لموماء، يبلغ طولها ١٠ بوصات، وهي مرسومة بشكل مبسط. ونسحت الكتابات حياً بالصورتين الموجودتين في الأسفل ويبدو أنهما ومران، ولم تكونا مرسومين إنما محفورين في حجر كلسي لين استخرج من مدائن انوماء في سقارة.



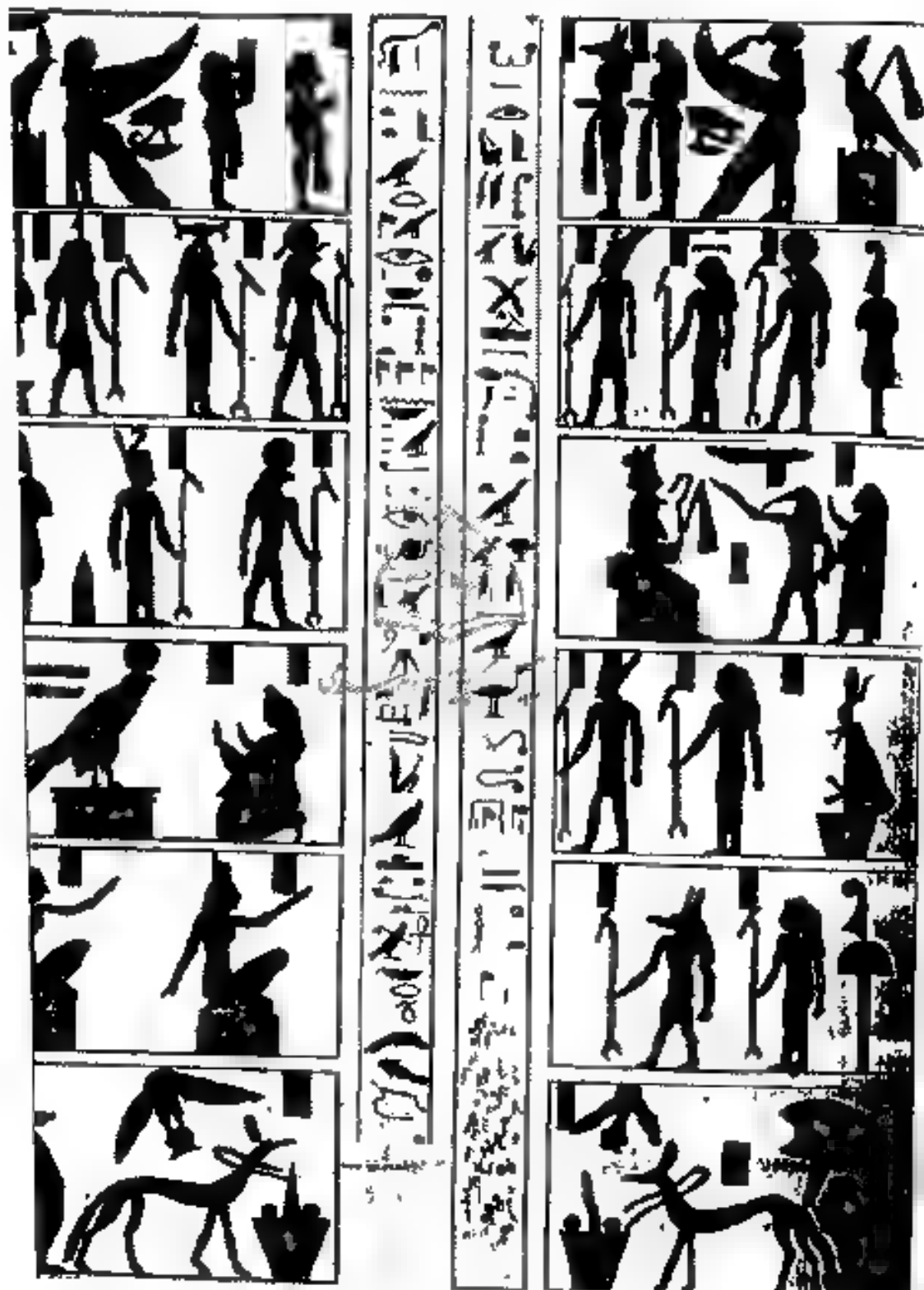
ويسو أن الذين يهتمون بتفسير الكتابات الهيروغليفية، لم يعملوا إلا على الرسومات الكبيرة أو الرموز، لكن أود أن ينبه العلماء للحروف التي تشكل الكتابات الهيروغليفية. أما الذين يردون التعمق بالكتابة الهيروغليفية، فعينهم الحصول على الحروف والرسوم المختلفة التي تشكل هذه الكتابة. وبما أن النقوشات التي نسحتها غير محفوظة كلها بشكل جيد، جمعت على اللوحة (XII) كافة الحروف الظاهرة بوصفها في رسوماتي، ومن السهل إضافتها إلى الكتابات الهيروغليفية الأخرى مرسومة بشكل جيد، وإذا ما عمل المسامرون الذين يرورون مصر العليا على نسخ هذا النوع من الكتابات الأثرية، مستمكن من معرفة كافة الحروف التي تشكل الكتابة الهيروغليفية وسكشاف أن بعض الحروف نرد أكثر على المسلات، وأن غيرها ينقش أكثر على أحجار الأصرحة، الخ ويستساعد هذه الأمور على توحيه العالم الذي سيعمل على تفسير الهيروغليفية.

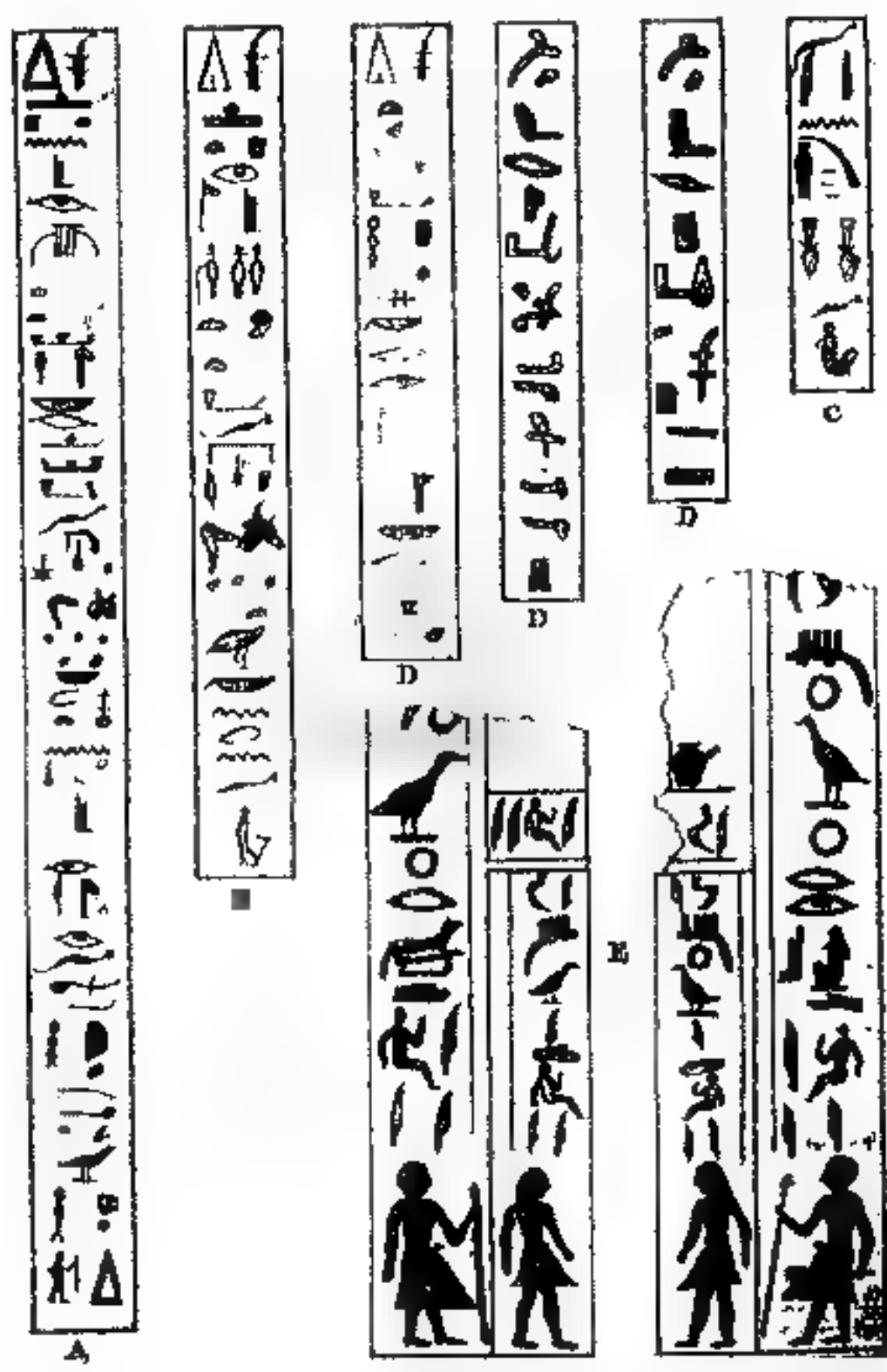




١٥٠١
 ١٥٠٢
 ١٥٠٣
 ١٥٠٤
 ١٥٠٥

١٥٠٦
 ١٥٠٧
 ١٥٠٨
 ١٥٠٩





أخيراً، تحمل البوحة (XLII)، بعض الأشكال التي نفلتها من مصر. لشكل أ مصنوع من النحاس، وقد صب في قالب، يبلغ طوله ٥ بوصات و $\frac{2}{3}$ من أخمص القدمين وحتى أعلى القدمين، ونستنتج من هذا حجم الأشكال الأخرى الكبيرة. ثم الشكل ب، من النحاس أيضاً، وقد قولبت جيداً، له كالأول دمار تحت القدمين، وقد دحنت المرأة وهي جالسة، لكن المقعد من مادة أخرى فلا أثر له، وهي تلبس أساور وحلقات حول القدمين كما يفعل الشرقيون حالياً، ولا برندي سروالاً كما هي العادة عند النساء في الشرق، إنما تلبس قميصاً قطنياً حول وركبها كما تفعل المسالات عند صغاف الأنهر وشواطئ البحار وقد تزين الولد، الذي تصبه في حوضها بعقد قلادة تصل حتى صدره، ويرى من الجهة اليسرى لرأس جديدة طويلة تصل حتى أكتافه، ويبدو أن للأم وبولده خصله شعر محدلة على الجبين، كملرأة في وادي فاران. وقد لحق الأذى بأعلى ربة رأس هذا النحاس، كما يعتقد الشكل ج إلى ما كان يحمله بين يديه وإلا فهو من النحاس لمقرب، ويبدو قديماً للغاية أما الشكل د فمن النحاس، وقد وجد في مصر، لكنه يبدو أنه صنع على يد فنان يوناني وعلقه كيوييد (إله الحب) يحمل حمامة في كل يده، وهي حمامة بأجنحة مزدوجة أو مطوية من الأسفل. صنع الشكلان هـ و «و» من الفخار المشوي، ولهما حلقة على الرأس، وقد استخدما على الأرجح كزينة، أما الشكل «و» فصنع من بصل، أخضر اللون.



سفر الرحلة من القاهرة إلى السويس وإلى طور سيناء

تشكل شبه الجزيرة العربية، وخاصة القسم الجنوبي منها، موضوع رحلتنا الأساسي. وما كان يحضر على السائحين السفر برأى من القاهرة إلى مكة برفقة الحجاج، اضطربوا لانتظار الفصل الملائم للسفر برأى من السويس إلى جدة. كما أننا لم نستطع القيام برحلتنا إلى طور سيناء، لاكتشاف جبل المقطم أو جبل النقوش، لدى شغل الأوروبيين في السنوات الأخيرة. خلال فصل الصيف، كان سكان القاهرة يحاربون القبيلة العربية الصغيرة المقيمة في ضواحي الطور (Tör) واليكم سب الدلاع هذه الحرب وصنت إحدى السفن التي يرسلها سنوياً سكان القاهرة من السويس إلى جدة، محملة بالقمح إلى المرفأ المذكور، بعبء التزود بالمياه، لأنها عذبة ومجانية، على عكس مياه السويس. فلم يستطع العرب الرحل انقيمون في جوار الطور، رؤية سفينة محملة بالقمح دون أن تحالهم الرعة بالمضو عليها. فأخذوا الربا والبحارة والركاب أسرى لديهم، بعد أن عادر معظمهم السفينة للتزود بالمياه ولرؤية أصدقاءهم، عند أن الأرا برفضون رفضاً قاصداً منحهم جزءاً من حمولتهم. واستعانو برؤاى الإنقاذ ومراكب الصيد الخاصة بسكان الطور لنهب السفينة. فأنارت هذه الحادثة بلبنة كبيرة في القاهرة، وبم يعد يتجرأ عرب هذه القبيلة الصغيرة التي كانت تقبل بمساعدة عرب المنطقة للبضائع من الطور إلى السويس، الذهاب إلى مصر حيث سيحاسبون على لصوصيتهم في البداية، ثم يكثرثوا للأمر. لكن بعد أن عدت السفينة راحو بسعون للتصالح. فكانوا يرمعون كل القوافل لمساعدة من السويس إلى القاهرة ويقتلون الجمل غير المحملة، أو يسرقوها وأعلموا سكان القاهرة، أنهم ستموا على سرقة القوافل كلها، إن لم يستعينو حق مشاركة العرب الآخرين في نقل البضائع بعبء كسب رزقهم. كانت هذه نقطة ضعف الحكومة المصرية، وحاكم هذا البلد المكنت بالسكان، وسعاديها الذي يعتبر نفسه سيداً على شبه الجزيرة العربية. وهذه القبيلة العربية الصغيرة، كانت تجرؤ على غزو مدن، الواحدة تلو الأخرى، دون أن تهاب أحداً. أجبرت هذه الأحداث على التوقف في مصر سنة تقريباً. كانت الحكومة المصرية عاجزة عن معاقبة عرب الصحراء، وتحشى أن يهبو القمح الذي يرسله إلى مكة، كما وأن التجار كانوا قلقين على بضائعهم، والعرب الذين يهتمون بنقلهم غير مستعدين لخسارة بضائعهم، وبعبارة أخرى، كان الجميع يسعى لإحلال الأمن. ولقد استشرى تجار البلاد بشأن التدابير التي يجب اتخاذها لرحلت القبيلة، مرأى أنه من الأفضل انتظار عودة القافلة الكبيرة من مكة، للتأكد من سلامة الطريق غير أنهم علموا أن أمير الحج قد تلقى الأمر بالتصالح مع العرب خلال الرحلة. فأرسل سمر القوافل إلى ديث الخيل، مما دفعنا لتأجيل رحلتنا.

يستحسن أن يعرف كل أوروبي يسافر إلى الشرق، لغة البلاد معرفة سطحية كما وأن السفر بصورة مريحة يتطلب استخدام خدم، جابوا البلاد من قبل وعند انطلاقت من القاهرة، لم يكن نعي جيداً هذا الأمر. فحادثنا الأوروبي، المولود في السويد، والذي رافقنا من كورنباغ، لم يسبق له أن رار الشرق. وطباخنا اليوناني، المولود في إحدى جزر الأرخبيل، لم يحب الصحراء من قبل علماً أنه عمل عند تجار أوروبيين في القاهرة. وعلاوة عنهما، كان يعمل في خدمتنا يهودي من صناعاء، عمره ٢٦ سنة، قام برحلة مائة إلى بلاد مصر، فضلاً عن بلاد الهند وبلاد فارس؛ ولكن المسلمين المسافرين يرققنا «حقنوه» أشد حقنار. كان الطبيب غرامر ملزماً بالتحديث مع مرافقنا المسلمين وكم سرّاً باصطحاب مترجم معاً وهو يوناني الأصل؛ اضطر لانعتاق الإسلام بسبب سلوكه الشائى. ثرودنا بكل ما يلزمنا للرحلة من مؤن وقيام وأسرة. والجدير ذكره أن عدداً كبيراً من الرحاة، قدّموا لنا شرحاً تفصيلياً عن الأشياء اللازمة للرحلة في هذه البلاد، وهي بمعظمها مريحة للغاية، حتى أن الجيوش الأوروبية تستطيع استعمالها. كما حمل أوني مطبخية نحاسية، مفضلة من الداخل والخارج. أما الزينة، فكانت موضوعة في طرف من جلد السمك، واستبدلنا بالطاوة قطعة جلدية مستديرة، رعى طرفها بحفقات من حديد، نعتي فيها الطاوة بالحمل.

ووضعنا فخاخ القهوة في علبة خشبية مغطاة بالجلد وأخرى شبيهة بها، تحوي الشموع؛ وكان عطاؤنا مروداً بقسطل يوضع عليه الشمعدان. وكما حمل معنا علبة خشبية أخرى لها عدة أعطية وتضم وتحوي الملح والبهار والتوابل. واستبدلنا بالأواني الزجاجية أخرى نحاسية مفضلة من الداخل والخارج. وكانت القناديل المصنوعة من النسيج الكتاني تطوى كالقناديل الورقية الصغيرة، التي يضمنها الأنفال في أوروبا. وكان كل واحد منّا يريق ماء من الجلد السمك، يستعمله للشرب، ولم نكن نتوقع أن يصادف يسوع ماء قبل بضعة أيام؛ فحرصنا بالتالي على ملء المظرات المصنوعة من جلد المعز، وإصافتها إلى المؤن؛ حتى أننا أخذنا معنا وعاءين من الحجر، لثرود بالمياه خلال رحلتنا من السويس إلى جنة ووضعنا البيد في قوارير زجاجية، تتسع كل واحدة منها لـ ٢٠ قية؛ ولكنها تنكسر بسرعة إذا ما وقع الحمل، أو اصطدم بعيره. توضع جلود الخيوانات المخصصة لنقل المياه، في الخارج، بينما توضع تلك المخصصة لنقل البيد في الداخل؛ وهي مطلية جيداً بالزيت حتى لا يلتقط الكحول طعماً سيئاً. من كانت تبدو هذه الطريقة لحفظ المشروبات عذبة، إلا أنها تحول دون تسرب البيد على الطريق، كما حصل منا في بداية الرحلة. ونادراً ما يترود الرحاة بالخطب أو القحم، معي الأماكن التي اعتادت القوافل أن تحط رحالها فيها، يكثر زيل الدواب التي تستعمل لتدفئة خاصة إن لم يتوافر الخطب أو الأشواك.

في ٢٧ آب/أغسطس ١٧٦٢، سمعنا طلقة مدفع من قصر القاهرة؛ هذا يعني أن القافلة الكبيرة قد بعثت رسولاً لتحديد الوقت الذي سيعود فيه أحجاج إلى بركة الحاج، حتى يتمكن كل من يريد مقابلة أصدقائه أن يوافيهم إلى هناك. وبمكنت، لاستنتاج بالتالي أن عرب الطور كانوا مطمئنين إلى أن قافلنا

متجوب بلاد في أمال. وفي اليوم نفسه قصدنا محيم النسيج الذي حظ رحانه قرب قرية سرياعوس، ليبيت فيها أهل بيته وخدمته. وكنا نرى قصر القاهرة في الجهة الجنوبية العربية وبعض القيا في جهة الشمالية على بعد ساعتين. يسمي العرب هذه القيا تل اليهود أو تربة اليهود. لم يهدف أي قافلة في طريقنا على عكس ما كنا نتوقعه، ولكن للعرب وكل من أساجر جمالاً نقلو حملهم إلى ديارهم، وتفرقوا كل في طريقه.

وفي صباح الثامن والعشرين، لم يكن قد تأكدنا بعد إن كانت القافلة ستجتمع اليوم أم لا ولكن عند اقتراب بعد الظهر، بدأنا نشاهد بعض الجماعات، وبدأنا الاستعداد للرحيل. فطبقنا من سرياعوس، ومررنا بقرية حانقي، المجاورة لبركة الحاج وعبد سلوكنا طريق السويس، كما نتقدم شرقاً مع البحار بسبب نحو الجنوب. ولم نشاهد في الطريق منزل أو ينبع ماء، أو حتى مساحات حصر، كان الطريق معبداً ومعظم الدروب الضيقة ممهدة بواسطة الجمال التي تنقل على حريتها، حتى وإن كانت محملة بالأعراض. شاهدنا على بعد مرسخير (١٠ دقائق من بركة الحاج، أرضاً منبسطة وتسمى بالمسطبة) يستقبل فيها أسياد القاهرة أمير الحاج عند عودته من مكة. ويسمي العرب مكان الذي يبعد ٥ فرسحات عن البقعة التي سطبنا فيها، من بهاد (El fura Behād).

عالمياً ما تكون القافله الأخيرة التي تنطلق قبل البواحر إلى السويس كبيرة جداً. ولنا كنا نريد معصرة القاهرة بأقصى سرعة، كانت قافلنا تتألف من ٤٠٠ جمل، محملة كلها بالقمح، ومعدات بناء السفن، والتي تصنع في السويس؛ وكان يلزمنا جملان أو ٤ جمل لمراسي لم أشاهد في مصر أو شبه الجزيرة العربية عربات نقل أبداً يترأس القافلات الكبرى للمسافر إلى مكة، أو التي تنقل بين النصارى وحلب، أو تجار صحارى أخرى شاسعة، وبالتالي أراضي العرب المستقيين، كروان دشا أو سائق يدفع الضرائب اللازمة، ليجمعها لاحقاً من الرحالة. ولكن القوافل الأخرى التي تقوم برحلات صغيرة لا يعين على رأسها شخص مماثل. يقتدي المسافرون بكبار التجار أو بالعرب الذين يحملون كافة الأعباء. فحين يحط هؤلاء رحلتهم، يحدو الجميع حدودهم؛ وحين يستعدون للرحيل يسارع المسافرون إلى حرم أنفسهم دون الإعلان عن ساعة الانطلاق؛ فلا أحد يحب البقاء وحيداً علماً أنه قد يتعذر عليه اللحاق بالقافله. ثم يكتي بحشي أبداً أن تتعرض قافلنا للاعتداء؛ ولكن بعصر الرحلة الذين يسبقون سواهم، أو يتأخرون عن القافله يحاصرون بالتعرض لتسبب؛ لهذا السبب، حرصاً على البقاء في وسط القافلة أما في الأماكن الآمنة، فكانت أسبق التجار للاستراحة قرب أحد الباييع وتناول الطعام. ثم يسافر في قافلته إلا عدد قليل من الجمالين، الذين كانوا يحملون بنادق دون أسلحة أو نواير فارعة أو ميوف صديئة أما الشيوخ الذين يملك معظمهم جمال القافله فركبوا وحيد النعام، مرودين بخرايب والسبوف والبنادق. ولكن لم نحاول الانتكال عليهم؛ لأن العربي لا يحاصر بحياته في سبيل إنقاذ أموال التجار الأتراك. ويجدر ذكره أن معظم التجار يتسلحون جيداً في سبيل الدفاع بآس عن بهائهم.

ولقد احتار رفاقي الأربعة القيام بهذه الرحلة على الحصاد، سيما فصصت ركوب وحيد السام بدافع العصور وحسب رعم أنني كنت أحشى في البداية النوع من على ظهر هذه الدابة الصمحه. يرك وحيد السام أرضاً حتى يركبه العارص؛ وحين يريد النهوض يرفع مؤخرته أولاً وعلى الفارس أن يمسك جيداً كي لا يقع من الأمام، وهو يمشي الهرباً شأنه أي جمل يسا تسرع الأحصنة تارة في سربها وتتهادى طوراً حتى تنفى قرب القافلة ولا حاجة لإيقاف وحيد السام لركوبه؛ فهو معناد على الانحصاص أرضاً، حتى يصع الفارس رجله على عنقه؛ يمتاز سرج الجمل بالحرم المتدلية من الجبين كي لا تصطط على منامه ولا يحتلف سرج الجمل أو وحيد السام من سرج الحصاد؛ مددت عليه مرتبي وجلست عليها بارتياح، خاصة وأني كنت أبذل وصعيتي حسب ما يحولني. يسا أبحر رفاقي المسافرون على الحصاد على الحفاظ على الرصعية نفسها؛ وعد حلول المساء، لم أكن أشعر بالنصب إطلاقاً وكأني أصبحت النهار كله جالساً على كرسي. مما لا شك فيه أن سير هذا الحيوان الصخم يثير الإزعاج؛ ولكن الاحمال تخطو خطوات كبيرة وتمشي الهرباً حتى لا يشعر راكبها بالهددة. عد الساعة الرابعة من صباح ٢٩ آب/أغسطس رعبا الخيام من جديد، وبعد أن سربا خمس ساعات ونصف حططنا الرحال في مكان يسميه العرب سربا (Dsjasra) وكنا سوي لاسرحة فيها عدة ساعات؛ ولكن لم يسر لنا الوقت حتى نشول الطعام، فحملت الجمال ثاية وقطعا مرسحين ونصف، حتى بلغنا جبل وهبة (Webbe) الواقع جنوبي الطريق. ومع حلول بعد الظهر كنا قد قطعنا خمسة فراسخ فحططنا على مقربة من جبل طاح (Tara)؛ وكاتب القافلة العائدة من مكة قد حطت في هذه البقعة في الليلة السابقة. وكنت أرغب برؤيته مسيرته، يد أنها اتجهت جنوباً، وفي هذه المنطقة بالذات، كان العرب يشيرون حرف القوافل الصحيرة، عشية ذاك النهار أكد بهم أمير الحاج، على لساك حكومة البلاد، أنهم يستطيعون العودة مع جمالهم دون أن يحشوا شيئاً.

وفي ٣٠ آب/أغسطس، غادروا صاباً عند الساعة الواحدة صباحاً وبعد أن سربا ٤ ساعات ثم بلغنا قصرأ تركياً مهدماً، يسمى الأحروود، قرب يبيوع مياه عديفة؛ ويمكن القول إنه يقع عند طرف الصحراء. بالنسبة للقادمين من القاهرة (سفر الأعداد، الفصل ٣٣) وعند مدخل الصحراء بالنسبة للقادمين من السويس (سفر الخروج الفصل ١٣)^(١) تمر القوافل المسافرة من القاهرة إلى جبل سيناء أو إلى مكة شرقاً، عند طرف البحر الأحمر؛ ولكننا انعطف جنوباً (سفر الخروج الفصل ١) حتى بلغنا بئر السويس، حيث

(١) يتحدث سفر ديلامي، عن هذا القصر أيضاً في رسالته، ١١، ص ٢٥٢ ليل ١٧ كانون الأول/ديسمبر ١٦١٥، سربا قليلاً مع هبوط الظلام. حتى نصرب رجاء رب أسوار قصر الأحروود، الذي بناه الأتراك مد عدة سنوات، من أجل سلامة الطريق، والحفاظ على تنوع مياه النهر، الذي يأتي يهون على ذكره، دواب الإسارة إلى القصر الذي لم يكن به وجود في رمة يحط احتجاج اليوم رحلتهم قرب البيرج المذكور. لكنني لا أعلم إن كان يهضم جنوباً أمراً كما سهدف جرباً من هذا القصر منهم، ومارة الحاج، على بعد ربع فرسخ يهول بوكوك إنه العام ٧٢٩، كان القصر مأهولاً بالحمود

تستخرج المياه يدوياً، بواسطة أوانٍ أو أكياس جديدة، ولكن هذه المياه ملوثة وغير صالحة للشرب. يحدّد هذا البئر بسور شاهق مرود بياب حديدي يقفل من الداخل لتجنب العرب الأعداء. وبعد أن نطعم الأجرود كان الخليج العربي يقع شرقاً حتى أننا لم نتمكن من العبور إلى الضفة الأخرى دون المرور به أو التوجه شمالاً لدور حوله. ويتطلب الانتقال من بحر السويس إلى مدينة السويس حوالي الساعة وشيّر حساباتي إلى ما يلي:

من القاهرة إلى بركة الحاج	٤ فراسخ
من بركة الحاج إلى المصطبة	فرسخان و ١٠ دقائق
من المصطبة إلى قرن البهاد	٥ فراسخ
من قرن البهاد إلى جفرا	٥ فراسخ و ٣٠ دقيقة
من جفرا إلى وهبة	فرسخان و ١٥ دقيقة
من وهبة إلى طاجا	٥ فراسخ
من طاجا إلى أجرود	٤ فراسخ و ٤٠ دقيقة
من أجرود إلى السويس	٤ فراسخ

وبالتالي تبعد القاهرة عن السويس ٣٢ فرسخ و ٤٠ دقيقة^(٥)

وإن كان المرسح يوري ثلاثة أرباع الميل فذلك يعني أن المسافة بين هاتين المدينتين تقدر بـ ٢٣ ميلاً وتقع السويس على بعد ميل ونصف جوبي القاهرة. أي على خط العرض ٢٩° و ٥٧' ويختلف خط الطول بين هاتين المدينتين بمارق ٨ دقائق و ٣٠' مستداراً برصد الجوي

في الأيام العائرة يوم كانت اسمي ترم شمالاً في الخليج العربي، كنا نشاهد في هذا المكان الذي يسمّى عيه لاحقاً مدينة السويس، مدينة كلثوم الشهيرة جداً في كتب المؤرخين العرب وسم يتفق منها اليوم سوى بعض الأنقاض والآثار التذكارية التي لا تلت إلا أسبوعاً؛ أما اسم هذه المدينة فعلى متداولاً لأن أنقاضها تسمى يوم أنقاض كلثوم ولعل هذه المدينة نفسها حملت اسم كليسمّا و كليوناتر وأرسينوه؛ لأن الاسم اليوناني كليسمّا، يتألف من الأحرف الصامتة نفسها التي يتألف منها الاسم العربي كلثوم ولعل اليونانيون أطلقوا على هذه المدينة تسميات مختلفة في صحفهم؛ إلا أن سكانها حافظوا على اسمها القديم. يطلق اليونانيون مثلاً على مدينة بتولومي اسم عكوب (Acoia)؛ غير أنها تعرف اليوم باسم عكا (Acca)، الذي يتداوله سكانها منذ زمن طويل. تبدو السويس مدينة حديثة. لم يأت السيد دو برتساج الذي عبر العام ١٤٨٣ الجهة الشرقية للخليج قرب موقع هذه المدينة على ذكرها إطلاقاً؛ وفي تلك الحقبة كانت تور المرأ الأساسيين بين القاهرة

(٥) يسمي لشريف إدرس بركة الحاج لأكوس المجهوب، وأجرود بروكوس أجرود، وبحر السويس، بونوس لحيوس، وأنقاض السويس كالظم.

وجدة. يقول أندريه كورسال، إنه العام ١٥٠٩ الذي بدأوا فيه بناء السفن الشراعية؛ واستناداً لتقرير مؤلف كتاب «رحلة سليمان باشا»، بدأوا بناء السفن في السويس العام ١٥٢٨.

لا تزال صناعة السفن في هذه المدينة مزدهرة للغاية، علماً أن الخشب واحد من مخرجات القاهرة على الجمال، ويؤدي إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعاً ملحوظاً. ولا تسافر هذه السفن أبداً من جدة؛ وهي تسمى سفن القاهرة لأنها تنكس سكان هذه المدينة تسميت أن أعد بنصي المراكب التي في السويس وإرامى الأخرى وأكدوا لي أن أربع أو خمس سفن تنقل سواً الفصح من السويس وقصير إلى جامبو وجدة، ليورغ بعدها في مكة والمدينة فضلاً عن أن أربع عشرة سفينة تجارية محملة بالبضائع والركاب تبحر من السويس إلى جدة، ولعلت انتهاء الرادفة الكبيرة تحت دفة السفينة (راجعوا مركب المدينة تور الودعة ل أم، وتلك التي تمتد من أمام غرفة الريان، حيث عثقت أسلاك صوينة، وتجتاز رادفة الدفة حتى تتحكم بها. ورغم أن هذه الأسلاك معلقة فوق الماء، عالياً ما تلامس سطح البحر نظراً ثقلها معيقة بذلك سير السفن، لذا عثر الأتراك واليهود دعات سفهم، وجعلوها مشابهة لمفات السفن الأوروبية؛ ولكن رباناً هذه اصابت شديداً تتعلق بماداتهم القديمة حتى أنهم بدأوا دفة إحدى السفن المسية في الصدوات والمباغة لأحد سكان القاهرة، حتى تتلام مع أهوالهم^(٥) ثم أزع على متن هذه السفن مصحات للمياه؛ ولكن المياه المالحه كانت تخرج بواسطة الأكياس الجلدية وللاستماضة عن البراميل، كانت هذه السفن تحمل على متنها بحراناً كبيراً للمياه موضوعاً قرب صاري السفينة؛ وهو لا يأخذ مكاناً كبيراً على خلاف البراميل الأخرى، ولكن إن نسرت المياه منه، تتبلل البضائع الموضوعة في جواره؛ كما أن المياه العذبة مستعمدة من السفينة خاصة بعد ابتعادها عن المرفأ. تعرفت على رحالة إنكليزي عاش هذه التجربة بين سورات وجدة.

تقع مدينة السويس على الضفة الشرقية للبحر العربي، وليس عند طرفه. والجدير ذكره أن هذه المدينة ليست محاطة بالأسوار؛ ولكن منازلها محصنة جيداً ضد هجومات العرب المهاجرة، وجدرانها متلاصقة جداً حتى أننا لا نستطيع الدخول إلى البدة إلا من خلال شارعين فقط؛ واحد مفتوح يمر بمحاذاة البحر غرباً، وآخر رئيسي يغلخ بواسطة بوابة غير ثابتة. أما بقايا القصر الذي بدأ الأتراك على أنقاض مدينة كلثوم فلم يعد له أثر. لا نجد في المدينة متارل، أو فنادق كثيرة (شس وعقال) وكما أن عدد سكانها ليس كبيراً؛ وبعد بينهم عائلات يونانية وقبطية. ولا تخرج هذه المدينة بالناس إلا عند انطلاق البواخر إلى جدة أو العودة منها. تحيط بالمدينة سهول صحريه معطاة بالرمس والحجارة؛ وهي أرض قاحلة وجافة ولا نرى فيها ثراً للنبات، باستثناء بعض الأشجار والحدائق والحقول^(٦) يشتري سكان هذه المدينة سلهم

(٥) من الملاحظ أن الخشب المستعمل لبناء المراكب في السوريات أكبر ثباتاً من غيره. ويقال إن المركب المذكور بقي صالحاً للإبحار ٩٩ سنة؛ وهو لا يزال يبحر بين السويس وجدة.

(٦) شاهدنا بين القاهرة والسويس، رهرة جريشوا التي تنسج في تلك المنطقة بكثرة. تستعملها النساء الشرقيه للقيام بتجارب عرايه؛ وبالتالي فهي تباع في المدن. تصنعها النساء المحوامل في لواء، طناً منها بها قد تكد دود أوجاع، خاصة إن تفتحت لوردة.

العذائية الأساسية من مصر، على بعد ثلاثة أيام، أو من جبل سبأ على بعد خمسة أو ستة أيام، أو من عرة، على بعد سبعة وثمانيه أيام؛ الأسماك والأصداف فقط هي التي تكثر في هذه المدينة عسماً أنها تشكل لعداء الأساسي للمسيحيين المقيمين فيها، خاصة من الصوم. تغتفر هذه المنطقة للمياه بعدة الصالحة للشرب، ذكرت لكم بعد أن مياه بحر السويس مدونة، غير أنها الأقرب لمشاوبهم؛ لذلك يقصد السكان بحر السويس يومياً ليوردوا جزءاً من القطيع، ويجلبو المياه لما تبقى منه. ولجدير ذكره أن مياه أفضل بحر من آبار موسى منوة أيضاً؛ رد على ذلك أنها بعيدة جداً عن كيدده ويقع على الضفة الأخرى للخليج. تستخرج مياه الصالحة للشرب في السويس من بحر با (Naba)، ويبلغ سعر حديد الماعز المبيء بهذه المياه ٣ أو ٤ قصب نقدية من عملة لوبيك.

يقع الشار المذكور على بعد فرسخين شرقي البلدة على الضفة المقابلة للخليج.

خلال إقامتنا في السويس، كان يحكمهم به أو مسحق من القاهرة؛ ورغم أن عدد أفراد حاشيته كبير جداً لم يكن العرب يولونه اهتماماً يائماً. فإن استأزوا من إحاكم لتركبي أو من سكان المدينة. توقعوا عن تزويدهم بالمياه، وممنوعهم من الوصول إلى الآبار التي أثبت على ذكرها أنه حتى لا يستخرجوا المياه منها بأنفسهم ومن السهل عليهم تدمير المدينة بمرمتها، في الوقت الذي لا تمنح فيه بالرحالة، خاصة إن كانوا لا يكتفون لجمع المال من نقل البضائع بين السويس ونهضة على حملهم ومن تزويد المدينة بالمياه. ولما تحبب لحرب الدين رافقوا إلى جبل سبأ عن الإبقاء بوعودهم وعصا أن تدفع بهم المبيع الذي طلبوه معززين أنفسهم بمطاطتهم وفي كل مرة كنا نصادف فيها المدينة كانوا يهددوننا بقننا رمياً بالرصاص، إن التهرب في الزحف. وفي المقابل، عرض أمامهم أسلحتنا التي كانت تصدهي خدحهم وحر بهم وبذقيهم قوة

وهددوا أحد وجهاء هؤلاء العرب بمحما من استخراج مياه بحر با حتى يموت عطشاً إن تجرأ على المرور بقرية مرد السيد هاف على شيخ قائل أنه إن لأوروبيين ليسوا من شاربني ماء، ويفصلون احتساء السيد وبالتالي تهديده ليس في محله. أثار هذا الجواب غير المتوقع صحنك الأتراك والمسيحيين يسما أحدثت ببهة كبيرة بين العرب وفي اليوم التالي تمى عيننا بعض السمين الكريحي السب أن تتصالح مع العرب في أسرع وقت ممكن. وقال لنا إحاكم بهم هددوا بحرمان بلديته من المياه بعية الانتقام مناء فمصمنا أن تدفع لهم ما يطلبونه حتى لا تتفاقم الأمور أكثر.

وفور وصولنا إلى السويس سأل البومانيين الذين داروا طود سبأ من قبل عن جبل المقطم المشهور في أوروبا فأجابوا جميعاً أنهم لم يسمعوا أبداً بهذا الاسم. وأحضرنا لنا شيخاً من قبيلة سعيد، يدعى أنه قصي حياته بين السويس وطور سبأ، وهو لم يسمع أبداً عن اسم الجبل المذكور. لكن بعد أن علم أننا سمنح جائزة قيمة لمن يدنا عليه، عاد في اليوم التالي برفقة شيخ من قبيلة صويلحة برعم أنه يعرف جيداً

الجبل المذكور ولمناطق الصحراوية التي تكثر فيها النفوش بكى بعد أن طرح عليه بعض الأسئلة، اتضح لنا أنه لا يعرف المكان الذي يريد ريدته وفي نهاية الأمر، أحضروا لنا شيخاً من قسبة لغات، استطاع أن يفسر لنا من خلال حديثه أنه رأى حجارة نقشت عليها أحرف عربية وبعد أن أدرك أن الجبل الذي يشير فصولنا هو جبل المقطم أطلق على جبل الاسم نفسه، بعد أن أكد لنا أن العرب الذي يعرفونه يطلقون عليه التسمية نفسها.

ولقد شعرنا بالارتياح بعد أن عثرنا على مواطن واحد من الصحراء قادر على إرشادنا على المكان الذي تكثر فيه القروش القديمة. فأردنا أن نطلق على اسمها لكن رسالنا السيد بورغاييد أسبب الألم في رأس قيل ووصلنا إلى السويس رادت حديثه بعد بضعة أيام حتى أننا فقدنا الأمل في شفائه. بعد أنه كان عيب الذهاب إلى جبل المقطم والعودة منه إلى السويس، حين انقطاع السحب الأولى، أي في غضون شهر، عندما أن الإبحار في أواخر أيلول/سبتمبر أو في أوائل تشرين الثاني/نوفمبر، أكثر أمناً. فالسفر من السويس إلى جدة في شهرين تشرين الثاني/نوفمبر وكانوا الأول/ديسمبر، محفوظ بالخاطر لأن الهواء الشمسي يهب في ذلك الوقت من السنة^(١) وبطمان مرضى الرسم، عاودنا السويس، تاركين برفقة الطبيب كرامير فضلاً عن السيد فورسكال، اندي ارتأى أن لا يترك صديقنا المريض وحده خاصة وأنا سعي به لرسم بوادر الطبيعة فقصدت جبل القروش إذا برعنة السيد دوهام

وكان الشيخ قد أخبرنا أن الجبل يقع قرب مرله، فحسب أنه علينا الاتفاق معه وحده بأحدنا بشاهدته. ولكن الشيوخ الآخرين الذين أحضروهم إلينا، اعترضوا على ذلك وأبدهم سكان السويس الماي، بعد أن أكد لنا معظم القبائل العربية، المقيمة بين السويس والعمية والظفر خاصة قبائل سعيد وصولح وبعثت، تحتل الطريق المؤدي إلى جبل مساء، وعليه بالتالي أن بأحد عفيراً من القبائل الثلاثة حتى تتقل بأمان في هذه المنطقة وقيل بي إن هذا العفير ضروري لنعابة في هذه البلاد، وإن البحارة المسلمين والذين يسافرون من السويس إلى جدة، والبحارة اليهوديين المقيمين في السويس يحتارون حامياً مماثلاً لهم ويقدمون لهم هدية صغيرة بعد انتهاء الرحلة على خير وإن عرفت إحدى النفس بين السويس ورأس محمد وأنقذت البضائع المحملة فيها، يحاول كل واحد الامتلاء عن عفيره، وغالباً ما يجد هذا الأخير بين العرب الذين يسارعون لشه السعفة؛ وتعود البضائع إلى السويس أو إلى القاهرة، دون أن يعترض أي عربي غريب على ذلك. وإن تغيب العفير توضع البضائع على حدة وترسم حولها دائرة على الرمل، ويحظر عليهم لمسها إلى أن يعلم العفير بالأمر بكى إن ارتأى أحد الرحالة عدم استعمال عفير لديه، تعرض حتماً لسلب مسيحياً كان أم مسلحاً. ولا يجد بين المسافرين بحراً عدداً كبيراً من المرشدين العرب؛ إما لأنهم يطلبون هدايا ثمينة، لأن التجار الأتراك يربحون بوطيعة صديقتهم بشيوخ العرب؛ لأن

(١) في رسم أريان، أبحرت السفن في أيلول/سبتمبر، مسافرة من مصر إلى باب المندب.

هذه الرحلات القصيرة ليست محفوظة بالخاصة؛ فالعرب لمقيمون بين الخليج العربي وحنة لا يكثرنون إطلاقاً لأمر العمراء بين رأس محمد والسويس أما نحن فكانا بحاجة إليهم اتفقت مع شيوخ القبائل الثلاثة على الذهاب إلى جبل المقطم وطور سيناء فأجروا حملاتنا ولخدمنا، ومن بينهم اليهودي والبحار اليوناني الذي عمل كطباخ لنا خلال هذه الرحلة عندما أن صاحبنا الأناسي بقي قرب صديق مريض. شهد العصي وحاكم السويس على الأمان الذي تم بينا وبين العرب، وكان مسحق مصر هذا معينا من القاهرة، كما سبق وذكرنا، وهو يكن حراماً كبيراً لأسرار العمام التي يدهي الشرقيون التبؤ من خلالها باستقبال مطلب مني الفحص في البعوش العربية، التي تتوقع العنور عليها في الصحراء لتحديد مدة بقاءه. فأردت أن أشرح له رأي الأوروبيين في هذا النوع من التبؤات؛ ولكنه أكد لي أن علماء مسلماً حدد له موعد عودته، وهو يريد أن يطالب تكهات بعوش الصحراء بهذه البعرة وأعرف بأنني لم أتوقع أن يؤمن هذا الرجل الرقيق المستوى بالحرفات إلى هذا الحد ولكن مهمتي في هذه البلاد لا تقضي بحريز الدس من هذه الآراء السخيفة؛ لدث اعتدلت منه لأسني لم أكن ملماً بهذا عدم العظيم.

وفي السادس من أيلول/سبتمبر، عبرت والسيد دوهافن الخليج العربي في رورق صغير؛ وبما في انشاء الثاني في الهواء الطلق على الصفة الشرقية للخليج المذكور قبلة السويس حيث اجتمع مرافقونا العرب المجدد. صباح السابع من أيلول/سبتمبر، بدأنا رحلتنا إلى جبل المقطم برفقة الشيوخ الثلاثة المذكورين آنفاً، وعدد من أصدقائهم وخدمهم الذين أركبت إليهم مهجة نقل المياه من بحر بنا إلى السويس منذ فترة طويلة، ووجدوا هذه الفرصة مناسبة لزيارة أهلهم في الصحراء خاصة وأنا نتكفل بمصاريف الرحلة كلها. فحين يسافر رجل عربي كريم النسب، يؤس لطعام لمرافقيه كلهم؛ ولما كنا ندبح أموالاً طائلة، لمشاهدة بعض البعوش القديمة في الصحراء ظنوا أننا غاي في الثراء بمد الطريق نحو الجهة الجنوبية - الشرقية؛ ليتحول بعدها نحو الجهة الجنوبية - الجنوبية - شرقية، وصولاً إلى عيون موسى حيث حططت الرحال، تحت أشجار السحيل. وتقع السويس في الجهة الشمالية الغربية على بعد ٣٠ درجة، وخليج الفارسي في الجهة الغربية على بعد نصف فرسخ ويبدو أن عرس الخليج في هذه البقعة يفوق عرصه في اسطمة سمدة من السويس إلى جبل عتقه؛ وتكثر آبار المياه في هذا المكان على عمق قدم فحسب؛ كما وأن عيون موسى التي يبلغ عددها ٥ ليست أكثر عمقاً، وهي تتلىء أولاً بالتراب والأوساح كما وأن الرمال تمتص الكمية الأكبر من مياهها ودل لنا العرب، إن مياه عيون واحدة منها صالحة للشرب، أما ما تبقى منها فهو ملوث. ولما كانت تحمل اسم موسى ظن العرب أن أولاد إسرائيل عبروا الخليج الفارسي في هذه البقعة فحملت بالاسم هذه العيون اسم رعيم الشعب ليهودي. ويكثر في هذه البقعة الأصداف التي تدل على تراجع مياه البحر بشكل ملحوظ.

وبعد أن عايننا عيون موسى، عبرنا سهول العواريق ووردان رطلي في الجهة الجنوبية - شرقية والجهة

اجبوية - جبوية - شرقية؛ يسمى العرب هذه السهول أودية، لأن المياه تتجمع فيها بعد هطول الأمطار بمرارة. وبعد أن قطعنا حصة أميال حصلنا الرحال في السهل الأخير، على الرمال وفي الليل هبت رياح قوية وحملت معها الرمال؛ والجدير ذكره أننا لم نشعر برعاح كبير منها رغم أننا كنا مساعين أكثر لو وجدنا ظرفاً مماثلاً في أوروبا.

تعد المنطقة التي عبرنا فيها الأكثر تميزاً في الشرق لأب الطريق التي مر بها أولاد إسرائيل ورسبها لنا مرسى وحرصت على قياس الطريق الذي قطعناه، ودراسة كل ما يمكنه مساعدتي على تصحيح الخرائط وعلى توضيح بعض المقاطع في الكتاب المقدس أما لصعوبة الأكبر فكنت تكلم في حفظ الأسماء الصحيحة للأودية والجيال لأن العرب حرصوا على إعطائنا أسماء خاطئة، بعد أن عجزوا عن فهم سبب فضولنا هذا. ولكي نصححت في كسب ثقة عربي من جماعة سوء بتقديم الهدايا له أو بالسماح له بالركوب خلفي على الجملة؛ وكنت أستجوبه في طريق الذهاب والإياب على إعطائي الأسماء نفسها ثم يشأ رفيقي في الرحلة أن يوطد علاقاته بهؤلاء البدو الذين كانوا يعطونه قارة أجوية خاطئة وطوراً غير صارة. استطعت تحديد وجهة الطريق بواسطة بوصلة صغيرة دون أن يلاحظ العرب الأمر أو يشير استيائهم؛ ورغم أن العلماء المسلمين يصيرون بوصلة لرمح القبة في جوامعهم، لا يحسن العرب أبداً استعمالها بقاءً. ولا يمكننا بالتالي الاعتماد على كافة الكتب التي تناولت وصف شبه الجزيرة العربية، وخاصة تلك التي تزعم أن القوافل كانت تحدد مسارها بواسطة البوصلات. وبما لا شك فيه أن سير القوافل منتظم للغاية. كنت أعد يومياً عدد الأقدام التي أقصتها سيراً على الأقدام صبيحاً ومساءً، وعد حر الظهيرة؛ فوجدت أنني كنت أقصع ١٥٨٠ قدماً في الحر، و ١٦٢٠ في المطر؛ أي بمعدل ١٦٠٠ قدم في ظرف نصف ساعة إن كانت الطريق معبدة. وكان علي بالتالي أن أدرس وجهه هذه أو تلك المنطقة والوقت الذي تأخذه للوصول إليها. وانطلاقاً من هذه المبادئ، قست طول الطريق بالأقدام والأميال؛ فحسبت أن ١١٨٠ قدماً توري ربع ميل في وصفي لشبه الجزيرة العربية لم أذكر إلا القياس الأخير؛ وما كنت أخشى الدخول في تفاصيل ممة لبعض القراء؛ أطلب منكم مراجعة اللوحة ٢٣ من وصف رحلتي حيث يمكنكم إلقاء نظرة على رحلتي إلى طور سيناء. وأذكركم أن الأماكن التي تحمل إشارة تضم يتابع مياه.

لا تدخل حطرات الجمان من حساباتي؛ ولكي أعرتها اهتماماً خاصاً بعية إعطاء القراء فكرة عن سرعة سير هذه الدابة. تقطع جمال قافلنا الصغيرة ١٤٠٠ قدم في ظرف نصف ساعة؛ والملاحظ أن حطرات الجمال ليست كلها متساوية أما جمال الصحراء فهي الأسوأ بين كافة الجمال التي رأيناها خلال رحلتي

انطلق في الثامن من أيلول/سبتمبر، قبل شروق الشمس، وعبرنا سهل عيردان الواقع في الجبل

الجبوية - الشرقية، وبعد أن قطعنا ثلاثة أميال بهما حفر الرقبة؛ وهو عبور عن كتله حجرية، وقعت من أعلى الصحرة واعتاد العرب على الاستراحة في حودرها وارتشاف القهوة في منتصف الطريق تسمت هضبة مرتفعة، لا تطل على الخليج العربي. وسلكنا بعدد الطريق الجبوي - الشرقي - الجبوي لينغ وادي غيراندل على بعد ميل تقريباً (Grandel)؛ واتجهنا لاحقاً جنوباً - جنوباً - غرباً، لنصل إلى جبل حمام مرعوب. قطعنا في ذلك النهار خمسة أميال ونصف ميل وكنا بعد عن السويس عشرة أميال ونصف ميل. خلال فصل الشتاء تسيل المياه العريفة في هذا الوادي لتصب بعدها في الخليج العربي. يد أنه كان جافاً في ذلك الوقت مع أننا عثرنا على ينبوع مياه عذبة؛ ولكننا صطرون نلحمر في الرمال، على عمق قدم ونصف القدم أو على عمق قدمين، لأنها لم تظهر منذ فترة طويلة. ولما كانت المياه لا تنصب في هذا الوادي كثرت فيه الأشجار المثمرة التي يحجبها المسار من القاهرة. ذكرت في كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية» ص ٣٤٨، أنها قد تكون أشجار إليم (Elm) المذكورة في الكتاب المقدس^٥ يقطر عدد كبير من العرب الرحل في هذه المنطقة عنماً أنهم لا يحطون رحالهم قرب الطريق. سمعُنا أحداً يتحدث في هذه المنطقة عن جبل مراح، الذي أتى على ذكره الرحالة الآخرون وهم يحاول الاستعلام من العرب المرافقين لنا عن أسماء الجبال والينابيع، بعد أن لاحظت أنهم يحيون بالإيجاب على هذا النوع من الأسئلة، ويسارعون لإرشادنا إلى الأماكن التي يحالونها تحمل الأسماء المذكورة والحديث ذكره أن الحجارة التي شاهدنا ذلك النهار، تبدو كلسية، مع أنها بيضاء ومصقولة.

وفي صباح التاسع من أيلول/سبتمبر أرسلنا خدماً والمزود إلى صور مينا، لأدخل برقة السيد دوها من وائين من الشيوخ وادي غيروند؛ فسلطنا الطريق الجبوي - العربي، عبر عابة صغيرة، لنصل إلى حمام فرعون، بعد أن قطعنا ربع ميل.

يمتاز هذا الحمام، الواقع على ارتفاع ١٠ أقدام عن مستوى مياه بفتحته المحفورتين في الصخر، فضلاً عن بحار الكبريت ونباه اللذين يتصاعدان منه، ويقال إن المرصى يؤموب هذا الحمام حيث يرلون في الفتحتين المذكورتين بواسطة سبال مستحمون ٤٠ يوماً في مياه ساخنة؛ وخلال هذه الفترة لا يأكلون سوى فاكهة اللسمة (Lassafa) التي تكثر في هذه المنطقة لا أعرف ما هي نتائج هذا العلاج غير أنني شاهدت مقبرة كبيرة في الجوار. قال لنا العرب أنفسهم الذين ادعوا من قبل أن أولاد إسرائيل عبروا البحر الأحمر قرب عيوس موسى، إن ذلك حصل قرب وادي غيراندل. فعلى حد قوتهم يرقد اسك مرعوب الذي قضى في البحر الأحمر، خلال مطاردته الإسرائيليين في القوطة التي يتصاعد منها البخار والكبريت وائيه ساخنة؛ ولهذا السبب لا يحمل الحمام وحده اسم هذا الأمير بل أيضاً جزءاً من الخليج العربي المعروف اليوم ببركة فرعون.

(٥) ذكر السيد برهناخ الأمر نفسه في وصفه للرحلة التي قام بها عام ١٨٨٣ من جبل سيناء إلى القاهرة.

إنه مما لا شك فيه أن الضمة الغربية للخليج العربي، بدءاً من السويس وصولاً إلى جبل حمام فرعون كلها أرض سويدة، باستثناء بعض الهضاب الصغيرة التي تراها على الجهة الأخرى؛ أما الضمة الشرقية فهي جبال شاهقة يفصل فيما بينها واديان يقع الأول قبالة العطي والثاني قبالة غيرانديل. يظن بعض العلماء أن أبناء إسرائيل اجتازوا الوادي الأول؛ بينما يؤكد بعضهم الآخر أنهم اجتازوا الوادي الثاني، ليعبروا بعدها البحر الأحمر. ولقد ذكرت في وصفي لشبه الجزيرة العربية أن النظريتين غير صحيحتين؛ فرغم أن البحر الأحمر يبدو صيقاً جداً شمالي بركة فرعون، إلا أنه واسع وعميق للغاية حتى يتمكن موسى عبوره مع الإسرائيليين. ولقد كان أحد الشيوخ مستاء للغاية خلال الرحلة ولم يشأ إعطائنا أجوبة مرضية فاصطحبه السيد دوهافن حلف أحد الجبال حتى أمكن من قياس عرض البحر. فأسرعت لتصب الإسطرلاب وعمر حرة في الأرض وقياس طول القاعدة وتحديد الرويا اللازمة، تبين أن يهود العربي وبأخذ الحرية. ومن خلال عملية القياس هذه التي ليست صحيحة تماماً، اتضح لي أن بركة فرعون المتجاوزة لحمام فرعون، تبعد خمسة أميال عن هذا الأخير. كانت القاعدة صغيرة جداً بالنسبة إلى هذه المسافة الكبيرة عندما أن الظروف لم تسمح لي باستعمال واحدة أكبر وتجسّدون ملاحظاتي حول المد والجزر في هذا المكان، في وصفي لشبه الجزيرة العربية، ولم يشأ العرب منحني المزيد من الوقت لدرس هذه الأمور بدقة؛ فأسرعوا للحاق بالقافلة، وكان علي أن أحذو حذوهم.

ثم مررنا في وادي ضيق وعميق حفر في الصخر يمثل الأمطار العذبة. وكنا نسير قارة الطريق الشمالي وطورا الشرقي أو الجنوبي أو العربي؛ وصربنا الخيام في عصيتو (Usane)، حيث كان الخدم ومراقبتنا العرب في انتظارنا. يقع وادي عصيتو في الجهة الجنوبية - الشرقية على بعد ميل تقريباً من البقعة التي حططنا فيها رحالتنا آخر مرة. مع حلول بعد الظهر قطعت أميالاً جنوباً ونصف الميل شرقاً، حتى بلغنا جبل نعل (Tāl)، حيث وجدنا ينبوع مياه. وتابعا طريقنا وقطعنا نصف ميل جنوباً وأربعة أميال شرقاً ونصف ميل غرباً لنحط بعدها الرحال في سهل الحمر قرب جبل العطي. وكان هذا المأوى يبعد عن المأوى السابق أربعة أميال وربع الليل وعن السويس أربعة عشر ميلاً ونصف.

وقبل ساعة من نصب الخيام اتجه بعض المسافرين شمالاً للحصول على الملح. كنا نرغب بمراقبتهم، بيد أننا اكهننا بالاستعلام عن الجبل الذي يستخرج منه الملح، علماً أننا نعتمد كلياً على شيوخنا، الذين لم يسمحوا لنا بالقيام بجولات صغيرة. وتسير الجبال المستدة من السويس إلى المنى بحجارتها الكلسية. وشاهدت شرقاً سلسلة جبال مغطاة بحجارة من البازلت وبأصداف متحجرة تكثر اليوم في الخليج العربي؛ وإن ابتعدنا أكثر رأينا صخرة قاسية وسوداء وعروقاً من الفرائيب التي يرداد عددها مع اقترابنا من طور سيناء. وفي العاشر من أبول/سبتمبر ارتأى العرب رفع الخيام عند الساعة الخامسة صباحاً قبل شروق الشمس. فاعتمدت على النجوم لتحديد وجهة الطريق ووجدت أننا نتجه شرقاً - جنوباً - شرقاً. وبعد شروق الشمس، حططنا رحالتنا في سهل ورسان، تحت صخرة صغيرة حفر عليها اليونانيون، الذين



يخرجون إلى طور سيناء، أسمائهم في طريق العودة أُنصفت اسماً على هذه الصخرة نظراً لفرادتها (راجعوا اللوحة XLIII). نصبة هي مكان إقامة بعض العرب الرحل؛ أُرسلنا خدمنا إليهم لطلب الماء، إلا أن غميرنا من قبيلة لغاب، أرسل هؤلاء الخدم لإعلام العرب بوصولنا، بغية زيارة أصدقائه؛ ولم نستطع مغادرة المكان إلا عند الواحدة ظهراً لأنه اضطر لارتشاف القهوة مع الجميع كما وأن نهارنا لم يشهد أي أحداث مهمة، لأننا نحولنا عدة مرات عن الطريق الرئيسي وصرب الخيام جنوباً قرب مقر إقامة شيخ بني لغات المجاور للجيل الذي يصدق عليه العرب اسم جبل انقضم. وكان هذا المكان يبعد ثلاثة أميال عن سائرنا الأخير وثماني عشرة ميلاً عن السويس.

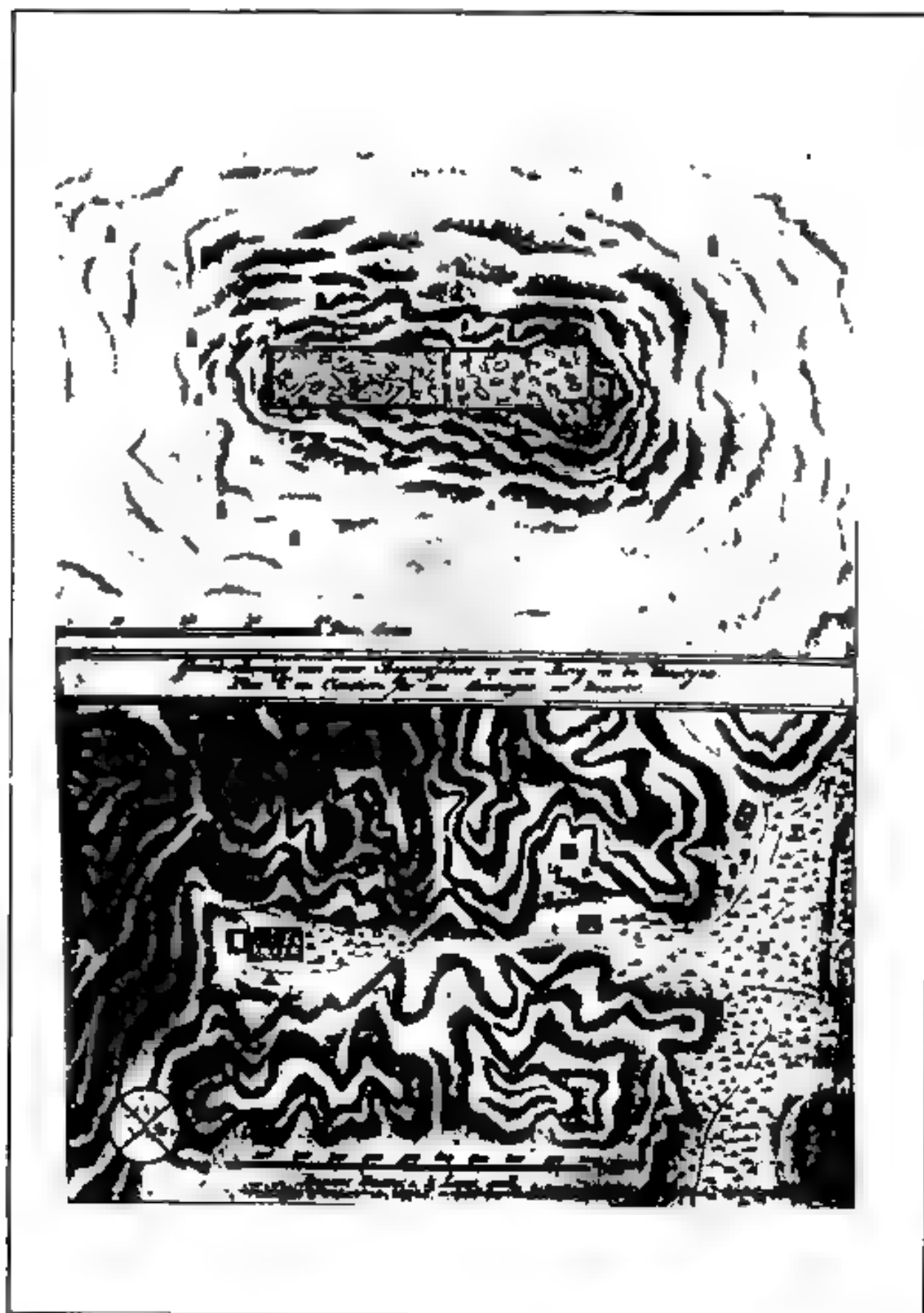
ولقد كنت في غاية السرور لأنني سأرى اليوم أخيراً النقوش الشهيرة التي تشكل موضوع رحلتنا في الصحراء حتى أنني كنت أشغال أحوال معطاة بها من جميع الجهات. لكن حديث العربي جعلني أظن أن رحلتنا كانت مبدئية. قال لنا إن النقوش الوحيدة التي شاهدها تقع على قمة جبل شاهق ووعر لا يستطيع اصطحاباً لرؤيته إلا في المد لأنه يتوقع زيارة صديق له؛ كما وأن عرب نصبة، يريدون نهضة على عودتنا من الصحراء. هبت لك هذه الاحتمالات غير ملائمة في ذلك النهار، وغير متوقعة من البدو، ورغم أن العرب يعيشون في أماكن مختلفة، إلا أنهم غاية في التهذيب حين يلتقي صديق لم يتفاد منذ فترة طويلة يتصانحان بشدة وتلاصق حدودهما عدة مرات ولا يكفان عن السؤال. كيف حالك؟ هل الأمور على ما يرام؟ وعند دخول الشيخ قصي البياقة بالوقوف له؛ بينما يصافح الأجنبي أفراد الجماعة كلهم ويقيدهم. يدعي بعض الأوروبيين الذين تكلموا عن عادات العرب أنهم يسألون بعضهم بعضاً كيف حال جمالكم؟ ولما أراد السيد دو مافى أن يقوم باختيار صغير، قالوا له إن هذه الأسئلة لا تطرح للسجاسة^(٥). وبما أن العرب لا يصدرون الجرائد، لا تشكل السياسة محور كلامهم، خلافاً للأوروبيين؛ وبما أن حالة الخو عددهم أقل تقليداً من الجر عديداً، فهم لا يتناولونه أيضاً في أحاديثهم. وتدور أحاديث العرب البدو حول أعمالهم فإن حدث وسأل بدوي صديقه عن حال جماله أو حيواناته الأخرى، فهو يحذو حذو الفلاحين الأوروبيين الذين يسألون بعضهم عن القمح، والماشية وحملاته.

اجتمع حوالي ١٠ أو ١٢ شخصاً يحمل معظمهم لقب شيخ ويرتدون ثياباً أثينة؛ فاستنحت بالنالي أن هذا اللقب، يوازي لقب سيد في بلادنا. واستمتع الصوف كهم بارتشاف القهوة وتناول الطعام؛ وفي الليلة نفسها، ذبح جدي والثهم على الفور. وفي اليوم التالي ذبح جديان آخران وبعد أن تناول شيخ قبيلة سيد الطعام مع الشيوخ الآخرين في بستان وادي قران، دعي الجميع للالتقاء عند عودتنا من طور سيناء في مكان ما قرب الطريق، بغية ذبح جدي، والثهم

(٥) تلاحظ بلاد البربر والراستية، يبارك من ١٩٢٣ يسألون بعضهم البعض عن حال رؤسائهم وأولادهم. وأصحابهم وبناتهم ولواتهم وحتى دجاجاتهم؛ وهم لا يتسبون الاستعلام عن صحة كلامهم وقطعهم.

لا يختلف نمط حياة هؤلاء العرب عن نمط حياة العرب الرحل والأكراد والأتراك؛ فخييمهم مشابهة لخيم عرب مصر كما يبدو جلياً في نوعة بوردن رقم ٦٥. ترتكز الخيمة على سبع أو تسع عصي، ثلاث منها أعلى من سواها، والوسطى هي الأكثر ارتفاعاً. يتألف المصطاط من قماش كثيف سميك أسود اللون، أو معلم بالأبيض نحيكه ساء الصحراء بأنفسهم. تقسم الخيمة إلى جناحين أو ثلاثة واحد للنساء وآخر لرجال، وثالث للحيوانات، أما الدرس لا يمكن أن يسكن في خيمة فيضون القماش على ٤ أو ٦ أوتاد، ليقبهم من الحرارة والأمطار؛ فالهواء العليل الذي يسكن تحت الأشجار يفسدهم ويحبهم شعوراً لطيفاً في هذه البلاد الحارة. ويقتصر أثاث الخيم على الخصر التي تستعمل كطاولة ومقعد وسرير ويحتفظ العرب بنياهم في أكياس معلقة موصوعة في شق القماش؛ كما وأن مثل الأدوات المطبخية سهل العناية بالأواني والمصنوعات كلها من الحاس المبيض، وبعد نصب الخيام، توصع الأواني على الحجارة أو في حجرة في الأرض ولا يستعملون الملاعق وشوك والسكاكين. تحمل رقعة جلدية مستديرة محل عطاء الطاولة، يحتفظون فيها ببقايا الطعام. أما الرعدة التي تدوب في البلاد الحارة، فتشغل في أوعية من الجلد. وأما المياه فتوضع في جلد الماعز لتسكب بعدها في حوضات من الحاس المبيض من الداخل والخارج ومن المؤكد أن سكان هذه البلاد لم يسمروا بطواحين الهواء أو المياه؛ ولكنهم يطحنون القمح بواسطة مضخة يدوية صغيرة. ولا نجد في الصحراء أفراناً للطهي؛ وبعد أن يعد العرب قالب حلوئ مسطحاً يحبونه على صفيحة معدنية مستديرة؛ وإن لم تتوافر هذه الصفيحة، أعدوا كيبسات من المعجن ووصعوها فوق الحجر، وعصوها حتى تنضج جيداً. وبشكل الخبز الطارح عداء الشرقيين الأساسي؛ فيتزودون بالثاني بكميات كبيرة من الصحن خلال تنفهم في الصحراء.

ورغم أنه كانت تحتاجني رغبة شديدة في رؤية نموذج من تلك النفوش القديمة، لم أستطع إقناع أي عربي بمرافقتي في ذلك النهار ولما كانت أرض عميري غير محفوفة بالمخاطر حيث وحدي ابوديان المجاورة وتسقلت الهضاب الوعرة. ولكنني عدت عند المساء مهكاً من دون أن أعثر على أي أثر لنبوش وخلال برهني شاهدت خلف إحدى الهضاب خيمة صغيرة صغيرة أقيمت فيها روحه الشيخ وأخته على ضحى القمح وهو الخبز ولا تحرص ساء عامة الدرس على حجب وجوههم عند اقتراب رجل غريب منهم؛ خرجت إحداها من الخيمة من دون أن تصع النشاب على وجهها وقدمت لي الصمغ وأظنتها كانت تتوقع هدية في المقابل، لأنها قبست المال الذي قدمته لها. وأعتمد أن العرب عنادو على تقديم الهدايا للأجانب. ولقد قابلت في مكان آخر ابن الشيخ قرب قطيع الماعز. وكان يعلم أن والده يرافقي في رحلتي بالصحراء. وبعد أن تحدثت إليه طويلاً، أعجبت بشفقة نفسه، التي ظهرت من خلال رده على أسئلتني ورغم أنني لم أكن أحسن اللغة العربية جيداً، وأنه لم يتحدث من قبل مع رجل أجنبي لم يشعر أبداً بالخوف الذي ينتاب أولاد الفلاحين في وضع مماثل ودعاني إلى منزله لشرب المياه العذبة. وكان ودوداً معي للغاية، حتى أنني لم أستطع رفض دعوته رغم أن الوقت كان متأخراً. وبعد لاحظت أن عرب هذه المنطقة يسمون خييمهم بالبيت أو الدرس.



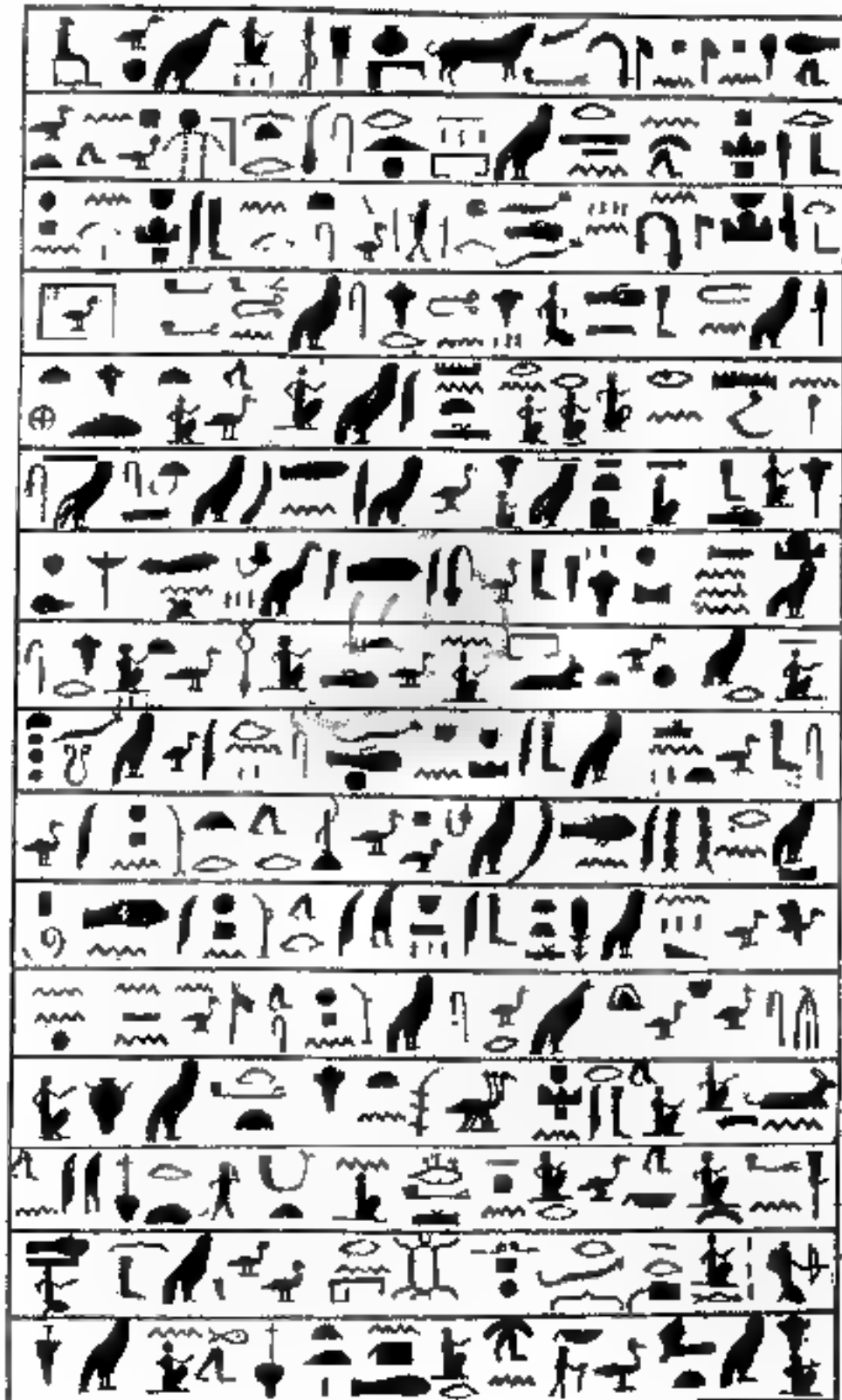
ركبت صباح ١١ أيلول، سبتمبر، والسيد ذو هاهن الجمال، ومطلق برفقة العرب المرويين بالأسلحة، باتجاه جبل المقطم المرعوم، وكان هذا الجبل شاهقاً ووعراً لمعينة حتى أننا اضطررنا إلى ترك الجمال عند صفحة، وبعد أن سرنا ساعة ونصف تقريباً بلغنا القمة، نحننا أن سعت على النقوش محفورة في انصحر خاصة وأنا بذلك عناء كبيراً للوصول إلى تلك البقعة. وكما كانت دهشة عظيمة حين رأينا مقبرة مصرية في وسط الصحراء وعلى قمة جبل وعراً، وأقول إنها مقبرة مصرية لأن الأوروبيين يطلقون عليها هذه التسمية، رغم أنهم لم يشاهدوا شيئاً مماثلًا في مصر، حيث دعى الزمن معظم الآثار القديمة في الزمن. وشاهدنا في هذه البقعة عدداً كبيراً من الحجارة التي يبلغ طولها حمس أو سبع أقدام وعرضها حوالي القدمين، وهي معطاة برسوم هيروغليفية مصرية؛ وهذا الأمر جعلني أؤكد أنها حجارة صريح. ويستطيع أن نرى في النوحة (XLIV)، صورة صرح قديم، ثم يتيق من إلا أسواره، ويبدو أن داخله أكثر عمقاً من الأرض المحيطة به. يحتوي هذا الصرح عدداً من الحجارة المعطاة بالصور الهيروغليفية. ويري في الجهة العريضة منه عرفة صغيرة مدعومة بركيزة مربعة مغطاة أيضاً بالرسوم الهيروغليفية. ويجد أيضاً في هذا الصرح تماثيل نصفية تتلامح مع أذواق أنصريين القدماء، ومصفاً قديمة تدس على من الهندسة المصرية، مشابهة لتلك التي رسمها بوردن في مصر العليا، وعموداً مربعاً به أربعة تيجان. واللائت ينظر أن هذه الآثار كلها من الحجارة الرقيقة الصلبة علماً أن النصب المصرية القديمة المعطاة بالرسوم الهيروغليفية مصنوعة كلها من الغرانيت الصلب.

وقد سمح لنا العرب بمحض المكان كله وتفسير الملاحظات اللازمة. لكنني أردت نقل بعض هذه النقوش، حتى أتمكن من إثبات انتمائها للهيروغليفية المصرية عند عودتي إلى أوروبا. واتضح أن العرب كانوا ينتظرون هذه اللحظة، إذ أسرعوا جميعاً معي من نقل أي شيء من دون موافقة شيخ هذا الجبل. وما كان العمراء يعلمون أننا لم تأت لمشاهدة النقوش بحسب، بل برعب بنقلها أيضاً، اتفقوا على انشاء أن يعطوا أحد أصدقائهم الشيوخ، لقب شيخ جبل المقطم، حتى يقبض ما مبيعاً من المال وعقد وصفاً إلى قمة الجبل، وجدناه في انتظار ولم يمسح من تعحص كل شيء بدقة. ولكنه قال إنه لن يسمح بنا بنقل النقوش عن الحجارة إلا مقابل مئة ريال، مدعياً أنه لا يستطيع الموافقة على أن يصح الأجانب أيديهم على الكنوز المظلمة تحت التراب. ويطن هؤلاء العرب أن الأوروبيين والمصريين أو عرب العرب، قادرون على اكتشاف الكنوز المحبأة تحت الأرض، وعلى معها إلى بلادهم، للحصول على النقوش. ولكنني أعتقد أنهم يختلفون هذه لأعداد للحصول على المال؛ كما وأن لعربي لن يتوانى عن المطالبة بحقه في الكنوز التي لا يأمل يوماً الحصول على جزء بسيط منها. وفي سبيل نوع هدفاً على إثنان عنهم، وفهم طريقة تفكيرهم، ومعاملتهم بطريقة حسنة. وبعد أن يقروا بالكور المحبأة نحاول إقناعهم بخلطهم. اقترحوا علي عدة عروض حتى أجد شيخ الجبل لأعطائه ربع الكور الذي سأعشر عليه وربعه الآخر للعمراء، في حال رفضت دفع مئة ريال للشيخ أو احتفظت بالكور كله لنفسه. وبذلك قصارى جهدي لإعطائهم رداً

ملائماً فرحت أهزأ من اقتراحاتهم، مؤكداً لهم أنني لا أعرف شيئاً عن الكنوز المدفونة، وأني أريد نقل النقوش فحسب، وأنهم يستطيعون الاحتفاظ بالكر لأعضهم. وبعد أن لاحظت أنني من أنكس من العمل ذاك النهار، انعقت سراً مع العمير أن يحضرني وحدي إلى هذا المكان بعد عودتنا من طور سيناء وأن يحسني الوقت اللازم لنقل النقوش، عني أن أعطي في المقابل أربعة ريلات ولعل شيخ الخيل كان سيكني بهذا المبلغ؛ ولكنني لم أكن أريد إعطائه شيئاً حتى لا يذهب تسلف هذا الخيل الشاهق والوعر هذه؛ وجل ما جيت من هذه المسألة هو تكبد عدة تسبق هذا الخيل ثانية وفي طريق العودة وبني العمير بوعده، وتقلت أكبر عدد من الصور الهيروغليفية (راجعوا اللوحين XLV و XLVI). وبما لا شك فيه أن هذه الصور هيروغليفية جداً. لأنها شاهدة على النصب القديم في مصر. ولقد نظرت في هذه المنطقة، التي تكثر فيها المناظر، برور صورة هذه الحيوانات على كل الحجارة تقريباً؛ يسا تقع غالباً في مصر، على صور الأبقار محصورة على النصب التذكارية نظراً لكثرة الحيوانات القريبة في هذه المنطقة. ولما أثارت هذه النصب التذكارية قصور الرحلة الآخرين، أنني عليهم أن يحفروا الأرض في هذه البقعة، عليهم يثرون على بقايا جثث قديمة ومن الصعب أن يقع أوروبي العرب بهذا الأمر، ولكن الحدم الشرقيون وخاصة إن كان العمير شيئاً مستقيماً من بني عات، قد يجحون في إتمام هذه المهمة في المنطقة المجاورة لنجس.

إن جبل المقطم هذا، لا يشبه جبل الذي وصفه رؤساء الأديرة العرسييسكانية في القاهرة؛ ولكن يبدو لي أكثر تميزاً، خاصة بعد أن تأكدت من أن الغوش التي تكثر على الجبال ليست قديمة أو حميدة بل هي من فعل الرحالة السابقين؛ غير أن الرسوم الهيروغليفية التي أتحدث عنها توارى رسوم مصر الهيروغليفية جمالاً. وهذا يثبت أن الفنون ازدهرت في هذه المنطقة التي كانت تحوي مدينة قديمة غنية بالثروات؛ ويقال إن بعض سكان مصر الذين هم يحفظوا موتاهم، كانوا يقدسون هذه الصحراء وينقلون فيها جثث الموتى ولقد لاحظت أن المياه ليست آمنة في الصحراء، كما وأن هذه المناطق الجبلية مأهولة بالسكان، خلافاً لما كان يظن الرحالة؛ إذ يصطحبهم العرب دوماً إلى أماكن خالية من الخيم. ولعل هذه البلاد كانت قديماً مكتظة بالسكان، وكانت تشهد عمليات تجارة يربه مكنته بين شبه الجزيرة العربية ومصر، ساهمت في ازدهار مدن هذه البلاد.

ثم ألا تقع في هذه المنطقة صرائح الطمع (قبروت هتأوة)، المذكورة في سفر العدد الفصل ١٦، أو جبل هور المذكور في سفر العدد الفصل ٣٣؟ وسوء كانت مقبرة للإسرائيليين أم لسكان هذه البلاد العداوي فهي تشكل موضوع دراسة للعلماء. إنه لم يكن محظراً على الإسرائيليين استثمار الرسوم الهيروغليفية أو صور الإنسان وحيوانات؛ ولكن لم يسمح لهم عبادتها. ولا يرال الإسرائيليين، حتى اليوم يحفرون صوراً ورموزاً على ضرائحهم.



وعند نزولنا من الجبل المذكور، شاهدت حجر معطى بعض الصور التي تسمى برسمها أحد الرعاة (راجعوا اللوحة ٤٤) ولكنها لا تتوقع أن يعطي السكان المقيمون في هذه المنطقة مد ١٠٠ منه أو أكثر تاجاً أفضل.

تتطابق الأوصاف التي أعطيت لجبل آخر، يحمل اسم جبل المقطم ويقع في هذه المنطقة مع أوصاف الجبل الذي يبحث عنه؛ ونبين لنا أننا نحتاج إلى شهر على الأقل لنقل النقوش التي يرسم أنه معطى بها؛ بيد أنه كان يترننا يوم واحد لإرضاء فضولنا حول هذا الموضوع فقررنا متابعة طريقنا إلى جبل سيناء، علماً أن السفن لن تنطلق قريباً من السويس مروراً في ١٢ أبريل/سبتمبر، من الجهة الشمالية للجبل الذي قرأنا أوصافه. وبعد أن سرنا ساعتين، شاهدنا طور سيناء أو جبل موسى في الجهة الجنوبية - الشرقية؛ بنيت في هذه البقعة، مقبرة للعرب، كانت تنقل إليها الجثث من أماكن بعيدة ومررتنا بعد ذلك، بوادي شامل الذي تحته من الجهتين جبال صخرية فيها عروق من العرائث؛ مع حدوث بعد الظهر، عبرنا وادي ديور وبرك، حيث أخذنا قسطاً من الراحة قرب جبل طمعا. شاهدنا في هذا المكان مقبرتين مسيتين من الحجارة المترصة مد عدة قرون. واحتجزنا في وقت لاحق أحد الجبال، لنصل إلى وادي عصريت (Asraie)، حيث وجدنا ينبوع مياه عذبة. عند المساء، حططنا رحلتنا في وادي ابن حيث عثرنا على ينبوع مياه لذيذة على بعد نصف ساعة منه. وأجدير ذكره أننا قطعنا، بعد ظهر ذلك اليوم ميلين ونصف، وكنا نبعد ٢٢ أميالاً عن السويس.

قلما يهم العلماء مشاهدة الجبال والوديان ولكنني رسمت في طريق العودة منظر وادي عصريت، لأثبت لهم أننا ستمتع أحياناً بالمناظر الخلابة التي تقدمها لنا الصحراء. (راجعوا اللوحة XLIII). وصادفنا في هذا الوادي، امرأة عربية برفقة خادمها؛ ولكنها بدلت وجهة سيرها، وترجلت عن جملتها. ومرت أمامنا سيراً على الأقدام، احتراماً للشيخوخة الذين كانوا يرافقونا^(٥). والتفتنا بامرأة أخرى، محجبة كلياً في وادي الجبي؛ فحسنت على حافة الطريق، وأدبرت لنا ظهرها حتى نستطيع المرور وتذكرت في هذه المناسبة قصة نمار. ولم لاحظ العرب جهمي القام لماراتهم قالوا لي إنها أدبرت لنا ظهرها احتراماً للأجانب، وأنه ما كان يحذر في أهدأ إلقاء التحية عليها.

يقع منزل عمر بني سعيد في وادي فران، بمحاذاة الطريق المؤدية إلى جبل سيناء؛ وعند اقترابنا من تلك المنطقة ركب العمير وحيد السام، وتعدنا جميعاً، بلقي التحية على أنه فليحنا به جميعاً، في ١٣ أبريل/سبتمبر، وعبرنا وادي عرتيم (Errame)؛ وكانت هذه المنطقة تبعد ٢٤ ميلاً عن السويس وانحرنا عن الطريق المؤدية إلى جبل سيناء، وسرنا شمالاً قرية النصف ساعة، مروراً بجبل سربال حيث مقر قبيلة شيخ. نصب العرب حيمتنا قرب الأشجار وصلبوا ما أن رنناح قليلاً يسما يدهبون للقاء أصدقائهم في سدائق البلح المحيطة بالمكان. علمت أن في هذه المنطقة بدأ مدينة قديمة، وشعرت برغبة شديدة برؤيتها؛

(٥) أثبت علي ذكر هذا الأمر في وصف رحلتني في شبه الجزيرة العربية

وبعد أن لاحظ العرب الأمر، تركوني من دون أن يزودوني بأية معلومات حول الموضوع. يتألف مجيم شيخنا من تسع أو عشر نخيم تكثر حولها الباعر، والجمال والحمر والدجاج والكلاب

بلغا إذن وادي فران الشهير، ولم يتغير اسم هذه المنطقة منذ أيام موسى. قال لي العرب إن هذا الوادي يمتد نحو جهة الشرقية - الشمالية على بعد نصف نهار من البقعة التي نقيم فيها ونحو الجهة الغربية - الجنوبية على بعد نهار من الخليج العربي. وتحد هذا الوادي جبال وعرة من الحجارة الكبيرة المروجة بالمرانيت والمبقة بالأحمر والأسود. كان الوادي جافاً في ذلك الوقت؛ ولكن بعد حصول الأمطار بغزارة، تصمر مياه الجبال المجدورة، إلى حد أن العرب يضطرون لربيع نخيمهم من عدة بقع والهروب إلى المرتفعات. شاهدنا جزءاً صغيراً من هذا الوادي، مكمساً بمساط أخطره؛ وأكد لنا العرب أنه تكثر في الجوار بستانين البلح التي تطعم عدداً كبيراً من الناس كما وأن عرب هذه المنطقة وأولئك المقيمين غربي جبل موسى، ينفلون متولياً إلى القاهرة والسويس كميات وافرة من البلح والخبز والتفاح والإجاص وغيرها من الفواكه. ويبيع العرب الآخرون في المدينتين المذكورتين الباعر والصمغ والقمح الخشبي ومسات المصاحن اليدوية وهم يشترون منها في المقاييس المواد الغذائية والملابس التي يحمسونها معهم إلى الصحراء.

إن تعلم جيداً أن العربي يستطيع أن يتزوج أربع نساء في آن واحد. لكن يكتفي معظمهم باتخاذ زوجة واحدة له، ويقتى محلياً بها طوال حياته، شرط أن تخصص لإرادة زوجها. كان شيخ بني سعيد متزوجاً من امرأتين، واحدة منهما تقيم قرب خيمتنا وتراقب الخدم الذين يحرسون الماشية؛ أما الثانية فتقيم في مكان آخر، وتهتم ببستان البلح. تقوم إذن هاتان المرأتان بالأعمال المنزلية، حين يذهب الزوج لمقابلة أصدقائه أو حين يقصد السويس لجمع المال من نقل البع، أو حين ينقل البضائع إلى السويس والقاهرة. وقامت سيدة الخيم الأولى، بزيارتنا بعد الظهر، برفقة أربع نساء عربيات أخريات، وقدمت لنا دجاجة وبيضاً، ورغم أنني أقمت فترة طويلة في البلاد الشرقية إلا أنها المرة الأولى التي أتحدث فيها مع امرأة مسلمة، باستثناء الرافعات في القاهرة. ولقد رفضت النساء العربيات الدخول إلى خيمتنا وفصلن الجلوس في الخارج، في الظل. حتى تمكن من محادثتهن بسهولة وكم أعجب بالقانون الذي يحظر على المسيحي اتخاذ أكثر من زوجة له، من بين كل ما أخبرناهن عن العادات الأوروبية، وتذمرت زوجة شيخنا من ضررها التي يجيها زوجها أكثر منها، رغم أنها الزوجة الأولى. وتركت رفيقي في السفر حرية التحدث مع هذه السيدة، فأخبرت أن زوجها يقضي معظم أيام السنة متنقلاً بين السويس والقاهرة ويطلق على مصر اسم الربيع، الذي ليس المقصود به مصر العليا والدنيا محسب، كما ظن بعض العلماء. ونقد نال دون كائرو والآب لويو إن مصر العليا تحمل الاسم نفسه. بينما كان السيد دو هانن مسترسلاً في الحديث مع هذه السيدة العربية، رحلت أرسم لهاها كما صورته على اللوحة (XLVIII)، ٤٨. تلفت هذه الملابس وخاصة أقراط الأذن وعقد الرقبة وأساور اليد والرجل انتباه العلماء خاصة وأن الإمبراطورين أقاموا في هذه المنطقة، وأن الأرباء لم تتبدل كثيراً بين نساء العرب الرحل.

صُصِفَ لكم ملابس عرب هذه المنطقة. فمن ممارس الأعمال التجارية في المدينه يتبع صيحات الموضة؛ فهم يصممون عمامة ويرتدون قمصاناً فضفاضة، وسراويل مريحة، نعوش، أثواب مريحة، تصم على الردين بحزام عريض. ولقنت انتباهي أحذية هؤلاء العرب التي راعا في اللوحة (II)، فهي ليست مشحولة بمهارة، كما تشير إليه صور الرسامين الأوروبيين؛ بل مصنوعة من لحند الخام. ولم أشاهد في هذه المنطقة العباءة التي يرتديها عرب شبه الجزيرة العربية، ويستبدل بها عرب مصر ثوباً كثنائياً طويلاً، يلتصق به، كما هو ظاهر في اللوحة (XXIX). ويفتخر العربي بسرجه الذي يراه في اللوحة نفسها المصنوع من الحديد الثقيل؛ وهو يحمل دوماً على خصره خنجرأ مستدق الرأس، يسمى الحمية؛ كما وأنه يحمل أسلحة أخرى عند تنعمه في الصحراء؛ ويذكر منها السيف الذي يتلنى في حزام جلدي بمقده حول كتفه الأيسر؛ إن كان العربي محتاداً على استعمال يده اليمنى. أما الأعسر منهم، فيضعه حول كتفه الأيمن. ويحمل العربي عادة بندقة لها حبل واحد ويطلق جملة الرصاص حول خصره. ورغم أن العرب يملكون أسلحة نارية. إلا أنه غالباً ما تنقصهم الدحيرة اللازمة لها. وهم يحملون دوماً الحرب، عند اضطائهم الجمال أو الأحصنة؛ ومن يفضل منهم السير على الأقدام يحمل حرباً أقصر من الأخرى. ولم أشاهد لدى العرب أقواساً أو سهاماً أو نقارات

استقبلنا في اليوم نفسه عدداً كبيراً من الرجال الذين أحصروا لنا بلحاً أصفر طارحاً عند العفير عند المساء فانطلقا صباح ١٤ أيلول/سبتمبر، وقطعنا نصف فرسخ من الطريق نفسها التي سلكناها سابقاً، وصراً إلى جبل سيناء. وبعد أن اجتازنا جوبي - شرقي رادي مران، بلغنا سفح جبل موسى وبعد أن قطعنا ميلاً وربع الميل باتجاه الجنوب - الشرقي، عبر دروب وعرة، حططنا وحالنا مساء على بعد ٢٧ ميلاً عن السويس قرب صخرة قطرها ١٦ قدماً تقريباً. لاحظت أن الصخرة المذكورة مشقوقة في الوسط؛ ولكن العرب قالوا لنا إن موسى شقها بواسطة سيفه. تكثر على هذه الجبال يابيح مياه العذبة المنعشة التي استمتعت يشربها أكثر من التبيد؛ ولا داعي للعجب لأي لم أشرب مياهاً جديدة إلى هذا الحد لا في مصر ولا في المناطق المحيطة للسويس.

ولقد شاهدت في ذلك النهار نقوشاً عربية نقلت بعضاً منها في طريق العودة (راجعوا اللوحة XLIX)، أ، ب، ج، د). ويكثر على حافة العرين الصحور الوعرة التي جوفت معظمها مياه الأمطار المتدفقة من أعلى.

وعند حلول الخامس عشر من أيلول/سبتمبر كان علينا قطع فرسخ وربع الفرسخ، نحو الجهة الجنوبية الغربية لجبل موسى وصولاً إلى دير القديسة كاترين. وأظن أن الدير المذكور يقع على بعد ٢٨ فرسخاً وربع الفرسخ من السويس راجعوا اللوحة (XLIV). وتضمير الأرض التي يمي عليها الدير بانحدارها أي إنها أكثر ارتفاعاً من الجهة الجنوبية - الغربية منه من الجهة الشرقية، ويبلغ طول الدير ١٢٠ قدماً وعرضه ٥٥ قدماً وهو مبني من الحجارة المنحوتة، التي يتطلب العمل بها مالاً وجهداً كبيرين. ويري أمام هذا

الصرح صرحاً آخر، أصغر منه، وأهل منه جمالاً ولا يملك الدير إلا بوابة واحدة مسورة، ترفع بواسطة جبل يمر في بكرة ترى أمام الدير بستاناً مملوءاً بالأشجار المثمرة؛ ولقد أكد لي العرب أن الكهنة يستعملون سرداباً للدخول إلى الدير والمخرج منه.

يحظر استقبال الغرباء في الدير أو الأوربيين، إلا إذا كانوا يحملون رسالة من أسقف طور سيناء انقيم في القاهرة. وعنت بالأمر في مصر، وحاولنا معاملة الأسقف المذكور؛ ولكنه كان يعوم بربارة القسطنطينية؛ فلم نستطع الحصول على رسالة من قبه لكهنة الدير غير أن سفير إنكلترا في القسطنطينية سبها رسالة من البطريرك المعزول الذي أمضى أكثر من ثلاث سنوت في هذا الدير وعاد إليه منذ فترة قصيرة. ولم يخطر في بالنا أبداً أنهم لم يسمحوا لنا بالدخول بناء على توصيته. وانتظرنا وقتاً طويلاً قبل أن يرسل لنا الكهنة موفداً عنهم. ولما علم أننا أوروبيون، طلب منا رسالة الأسقف، فشرحنا له ما حصل وحاولنا أن نعرض عليه رسالة البطريرك المعزول وبكى طلبوا منا الانتظار قليلاً قبل أن يقترحوا علينا إدخالها من خلال حجرة في السور.

في تلك الأثناء، تجمع العرب الذين رأوا من الجبال المجاورة، وصول أجنائب إلى الدير ويقال إنهم كانوا يطلقون النار على الدير من أعالي الجبال ويحتطفون الرؤا عند خروجهم من الدير، ويطلبون عدية مقابل إطلاق سراحهم. كتب وأنهم يطلبون مبالغاً محدداً من كل حاح يحمل الإذن بالدخول إلى الدير، وخلال زيارة الأسقف تبقى بوابة الدير مفتوحة، ويقدم الطعام لكافة العرب الذين يؤمّون الدير خلال هذه الفترة؛ وهذا الأمر يكلف الكهنة أموالاً طائلة، خاصة وأنهم يعيشون من الصدقات؛ علماً أنهم يجلبون مؤبهم من مصر، وتعرض قوافلهم للنسب في الطريق. وشاهدنا تودجاً عن معاسة العرب للكهنة واحتد واحد من الدين أتو يدافع الفصول لمقابلة الأجانب لحت لكهنة على إعطائه حبراً. ولما حاولت تهدئته بعثهم بالوحوش، لأنهم رفضوا إعطاء الخبز لكائن حي دق بابهم جاعاً.

خلال انتظارنا أمام بوابة الدير، اعتست انمرسة لرسم الصرح وجرد من الجبال التي يصدق اليونانيون على واحد منها اسم جبل سيناء رجموا اللوحة (XLVIII). ورسمت لاحقاً الدير من زاوية أخرى، ومن على مسافة بعيدة (رأجوها للوحة (XLVIII)).^(٥)

وبعد أن درس الكهنة أمراً مطولاً، أعيدت الرسالة دون أن نعص. واعتدرو عن استقبالننا في الدير، رغم أن الرسالة موجهة من البطريرك، فهم لا يستطيعون فعلها، لأنها ليست مرفقة برسالة من الأسقف الذي يحق له وحده منح الإذن بالدخول. عدة إدن أدرجنا حتى نحول دون تجميع المزيد من الناس حول

(٥) تجد في كتاب توتنه صورة جبل سيناء، لكنها تختلف تماماً عن صورتي. ولطنه أعيد رسمته من اليونانيين دون أن يراه بنفسه، لأنني اشتريت في القاهرة صورة حفرها يوناني على الخشب. وتظهر فيها جبال سيناء وحريب والقدسية كاثري مصورة بالطريقة نفسها. ويبدو أن الكهنة اليونانيين لم يحفظوا حتى اليوم حتى صورة أفضل لهذه المنطقة المسيرة، رغم أنهم يعطون فيها منذ عدة أجيال والتقيب في منزل اسقف جبل سيناء رسماً (سينياً)، أتى من مانيل إلى القاهرة بعد أن قطع بلاد الهند والخليج العربي واعتنق الديانة المسيحية في القاهرة وكان يرسم المنظر نفسه بالألوان الزينة والوجه على قدر كبير من الجمال.





الدير، وعرض الكهنة للإزعاج فأرسلوا بنا على الفور هدية عبقيد عيب مقطوعة من يستأنهم، وهي لا شئ فيه أنها كانت لديدة، خدعة وأب أمصيا وقتاً صويلاً في التنقل في أراض قاحلة.

ولما تعذر علينا الدخول إلى الدير أردت تسبق جبل سياء، وعندما أنا عندما كثير في الصحراء. وكنت أتمنى أن يرافقني أشخاص يعرفون البلاد حق المعرفة حتى يعرضوا علي الأماكن المعيرة فيها؛ ولما كنت محاطاً بمجموعة من العرب استميت إلى هذه المنطقة، كان علي أن أختار الشخص المناسب ليصطحبني اليوم بإذنت إلى ذلك الجبل الشهير. وكسر عرض علي المعراء اصطحابي في العبد، حتى أضيع فصولي. ولاحظ العرب الذين اجتمعوا حول قاعدتي أنني أروي اختبار واحد منهم لرافعتي إلى جبل سياء؛ فتشاجروا حول هذا الموضوع مع المعراء، فذكهم أنهم سيجنون بعض المال ويكسبوا لم أكن أعرفهم جيداً، ولا أريد أن أتحاصم مع مرفقيا؛ لذلك فصلت الإذعان لمشيئة هؤلاء المرفقين.

وفي صباح السادس عشر من شهر أيلول/سبتمبر، أحضرني المعراء شيخ جبال سياء الذي نصم إليها على معرفة من المكان وقد وقع عليه الاختيار لرافعتي إلى الجبل مقابل مكافأة جيدة. وقصصت عدم الاعتراض عني ذلك، حتى لا أضيع لمزيد من الوقت. تعدت إلى الدير مع الشيخ العتيق وأحد المعراء وقصص السيد ذو هاشم، الذي جرح رجله في السويوس، وذاق الأمرين خلال سبب الجبال حيث وجدنا نفوساً عربية، فصل العودة مع العرب الآخرين. مسافة ربع ساعة على طريق السويوس لأن مكان ندي أمصيا به الليل، ليس آمناً على حد قوله العرب.

قلت إن طور سياء يقع جنوبي الدير؛ وهو حر للغاية ولا يعقل أن يكون موسى قد تسبقه من هذه الجهة ولكن اليونانيين، شقوا درجات في الأماكن الوعرة حتى يسهلوا على الناس تسلق الجبل وعلى بعد مئة قدم من الدير شاهدنا يسوع ماء لا ينضب أبداً؛ فهو معطي بصخرة كبيرة تقيه أشعة الشمس ومياه الأمطار. تصو هذا اليسوع كنيسة صغيرة ركع أمامها الشيخ والمرافق العربيين وراحا بصبيان يورع، وعند دخولنا إليها قبل صورة السيد المسيح وانعداء مريم، رعم أنهما مسلان ولشهما رأيا احتجاج اليونانيين يعمون ذلك محدود حدودهم إرضاء لي ويددت عناء كبيراً لاقتناع العربيين بمتابعة الطريق وبعد أن لاحظت إصراري على الذهاب وحدي، رأيتاً مراعتي. فاحترنا يوايين صغيرتين، تؤديان إلى سهل واسع، فيه مصلى للسامين وكنيسة صغيرة ليونانيين فصلى العريان أمام الصور وقبلها كلها بيد أنهما لم يعرفا لمن خصصت هاتان الكنستان أو أنهما لم يشاعا إخباري بذلك. وكان يصران على أننا بغنا قمة جبل سياء؛ غير أن السيد بوكوك يقول إن هناك ٥٠٠ درجة من الدير إلى اليسوع المذكور آنفاً و ١٠٠٠ درجة من اليسوع إلى كنيسة السيدة المعراء و ٥٠ أخرى إلى السهل، حيث شاهدنا الكنيسة لمبة تكرمي للسلي إيليا. وبعد بوكوك ١٠٠٠ درجة أخرى بلوغ قمة صور سياء التي لم أصل إليها بعد رأيت في السهل المذكور، شجرتين كبيرتين عتاد العرب على ذبح المواشي تحتها خلال الأعياد والتهامها على

حساب اليونانيين. وأثناء تسق جبل رأيت بعض النقوش العربية على الحجارة وخلتها أسماء وحسب؛ وكان جبل القديسة كاترين يقع في الجهة الجنوبية - العربية؛ أما من الطور، فكنا نشاهده في الجهة الشمالية - الشرقية. واستناداً إلى ملاحظاتي الهندسية تقع تور على خط العرض ٢٨° و ١٢' ، علماً أنها تبعد ستة أو سبعة أميال عن جبي القديسة كاترين وسيناء. وتقع حال وعقبة وعيلا في الجهة لشرقية - الجنوبية على بعد خمسة أو سبعة أيام من الطريق، وذلك ستاداً إلى أقول الشيوخ؛ ولكني لا أستطيع الاعتماد على كلامهم لأنهم لم يقوموا بهذه الرحلة، من طور سيناء. ولقد أشرت في كتاب بوصف شبه الجزيرة العربية، إلى أن خليج العقبة ليس بالمرض الذي كما يظهر فيه على الخرائط

لم أستطع إقناع الشيخ والمرافق بمتابعة الطريق أو بمراقبتي إلى جبل القديسة كاترين؛ بعدنا أدرجا ونضمنا إلى القافلة. وفي ذلك النهار، عدينا جبل موسى وضربنا الخيام في وادي فاران.

استناداً إلى ما تقدم، لا يقع جبل الذي يسميه اليونانيون جبل سيناء، في سهل شاسع كما يظن بعض الناس. كما وأن سيناء اليونانيين يخفف عن سيناء الحقيقي؛ لأن العرب يطلقون على سلسلة اجبال امتدة من وادي مران، إلى طور سيناء، حيث يقع الدير، اسم جبل موسى. ويظن العمماء الأوروبيون الذين عابروا هذه المنطقة بدقة، أن موسى تلقى الشريعة فوق هذا الجبل ولكننا لا نجد من هذه الجهة، قرب طور سيناء مكاناً ليحصد فيه شعب إسرائيل - الكثير العدد - رحاله؛ وعلنا نفع في الجهة الأخرى على سهول مسيحة أو أنهم ضربوا خيمهم قرب جبل موسى وبالتالي في وادي فاران.

وفي ١٧ أيلول/سبتمبر قطعنا ثلاثة فراسخ وحسب، أي إلى هنا مضرب خيم شيخ بني سعيد. تركنا الفقراء وحدهم ليقتصدوا بمائتي الملح في وادي فاران. وفي ذلك النهار انضم إلى قافلتنا شاب عربي ثمركب جملًا وحيد السنم. ولما علم أننا مسيحيون، امتحن صبره، وراح يسخر منا، كما سخر الأوروبي الكمل من اليهود. ويبدو أن العرب البدو يصنعون انبيد بأصهم. وإني أشكر السماء لأن سمحاً حفظ على أتباع القرآن احتساء الكحول المكررة؛ ورغم أن المسلمين يشربون في المدن، فهم يخفون ذلك حتى لا يعاقبوا، أو لأنهم يخجلون من حرق القانون. ولا أذكر أنني شاهدت خلال رحلتي عرباً ثملًا وفضلاً، باستثناء هذا الأخير

ولقد عاد العمراء مساء يوم ١٩ أيلول/سبتمبر، وتبعنا سيرنا في العشرين منه سالكيين الطريق معه الذي أتينا منه صباح ٢١ منه. وسبقت الآخرين، لأنسلق مرة أخرى الجبل الشاهق، الذي أسماه العرب جبل المقطم، ولأنعل بعض النقوش كما أشرب سابقاً وانصممت بعد الظهور إلى القافلة قرب سهل وردان المذكور سابقاً.

وفي ٢٢ أيلول/سبتمبر اجتزنا نهراً المنقعة التي عبرها بيلاً في طريق الذهاب ولاحظت أن الصخور الوعرة المعطاة بالنقوش العربية، تحدد الطريق من الجهتين؛ وأظنها مشابهة لتلك التي نزلتها من جبل المقطم

<p>A</p> <p>١٧٩٥١٧٩٥ ١٧٩٥١٧٩٥</p>	<p>١٧٩٥١٧٩٥ ١٧٩٥١٧٩٥</p>
<p>B</p> <p>١٧٩٥١٧٩٥ ١٧٩٥١٧٩٥</p>	<p>١٧٩٥١٧٩٥ ١٧٩٥١٧٩٥</p>
<p>C</p> <p>١٧٩٥١٧٩٥ ١٧٩٥١٧٩٥</p>	<p>١٧٩٥١٧٩٥ ١٧٩٥١٧٩٥</p>
<p>D</p> <p>١٧٩٥١٧٩٥ ١٧٩٥١٧٩٥</p>	<p>١٧٩٥١٧٩٥ ١٧٩٥١٧٩٥</p>
<p>E</p> <p>١٧٩٥١٧٩٥ ١٧٩٥١٧٩٥</p>	<p>١٧٩٥١٧٩٥ ١٧٩٥١٧٩٥</p>
<p>F</p> <p>١٧٩٥١٧٩٥ ١٧٩٥١٧٩٥</p>	<p>١٧٩٥١٧٩٥ ١٧٩٥١٧٩٥</p>
<p>G</p> <p>١٧٩٥١٧٩٥ ١٧٩٥١٧٩٥</p>	<p>١٧٩٥١٧٩٥ ١٧٩٥١٧٩٥</p>

فخرجت سريعاً عن وحيد السنام، لتفحصها عن كتب ونقلها؛ غير أن العرب اعتبروا ذلك مصيبة للوقت؛ فبدد السيد دو هاتن جهده لإقناعهم بالانتظار قليلاً؛ فنقلت النقوش من، و، ز، ط، ي، ك، ل، م، ن، خلال هذا الوقت القصير (راجعوا اللوحات ش، أ XLIV). قال لنا تاجر يوناني في القاهرة، إنه على حافة الطريق المؤدية إلى جبل سيناء، يجد ممراً صيقاً يعرف بألم الرجلين تكثر فيه النقوش المحرقة على الصخر. ست أدري لماذا ادعى العرب أنهم لا يعرفون اسم هذا المكان ولا سمعوا عن النقوش الموجودة فعلاً. والواقع أنه فلت أدريت هذه النقوش اهتمام العمراء؛ ولا لأطلقوا على أم الرجلين اسم جبل المظلم أيضاً أو على أي صخرة أخرى مغطاة بالنقوش؛ ولو دعوا ذلك لما اكتشفا المقبرة، المصرية القديمة، التي تحدثت عنها سابقاً.

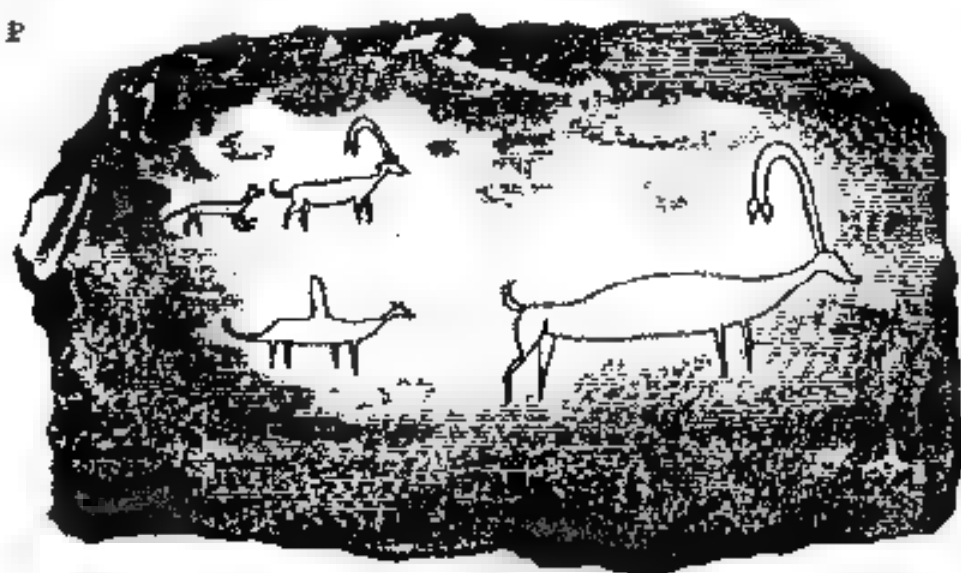
وحيث نشر أسقف كلوعر، كتاب رحلته من فرنسا إلى القاهرة إلى طور سيناء، كان أول شخص يلفت انتباه الملءاء إلى نقوش الصحراء وسكن نيشته أتى على ذكرها في كتابه *Sieben-Jährige Weltbeschaug* من ١٤٤٥، ١٤٤٩، ١٤٥٣، ١٥٨، ١٦٧. كما نجد صوراً عدة في كتاب مونكوبس «رحلات» من ١٤٤٩، وفي مؤلف بوكوك (راجعوا اللوحتين ٥٤ و ٥٥). استند إلى تقرير مدير دروس الآباء الفرنسيين، ولا أنسى أن الجبال المغطاة بالنقوش التي شاهدها، تبعه كثيراً عن المكان الذي قصدناه. علاوة على ذلك لا تخالها مثيرة للاهتمام أكثر من تلك التي نقلتها أنا وبوكوك؛ كما وأنها لا تستحق أن يشكك علماء أوروبا عداك رموزها؛ فهي لم تحفر يدويّاً على الصخر بل بواسطة حجر مستدق الرأس على السطح الخشبي منها. فضلاً عن أن خطوطها ليست منسوبة ولا مستقيمة. ولا أظنها تدل على شيء باستثناء أسماء الرحالة الذي سجلوا حفرو اليونانيين الذين يحفرون أسماءهم على جبن سهل ورومان، المذكور أعلاه. والنصب التذكارية فقط هي التي تدل على الدرية وهي التي تثير اهتمامي؛ وأظن أن الحجارة القبرية التي عثروا عليها على الجبل، كما أشرت سابقاً، ونقوش التي شاهدناها على صخرة برميبوليس تنتمي إلى هذا النوع. فصخرة برميبوليس تمتاز بصلابتها واستوائها، أما الخطوط التي نعطها فهي مستقيمة، وحروفها واضحة.

ونقل السيد درباتي، النقوش من، من الصحراء وأعطى نسخة عنها لأسقف طور سيناء. وحطرتي أن أدرجها في هذا الفصل، لأن حروفها تختلف عن تلك التي عثرت عليها في هذه المنطقة ولأنه لم يسح لهذا العالم الإيطالي فرصة العودة إلى أوروبا، وقد لا تنبع أوراقه أبداً.

وفي سبيل قياس عرض الخليج العربي أجمعت في ٢٤ أيلول/سبتمبر عن القافلة، حوالي ٥ أميال جوبي السويس، باتجاه سهل العطي أو العواريق، كما يقول العرب. واستنداً لملاحظاتني وحساباتي، كانت تبعد حوالي ثلاثة أميال. ولكنني لم أستطع هذه المرة أيضاً بناء قاعدة طوية لأقيس العرض بدقة. وفي ٢٥ منه عدنا إلى السويس، ووجدنا أن السيد بورانميد قد تمائل للشفاء. وأكد لنا العمراء أننا قد

אבססאטאטאטאטא
 עווןטאטא
 אטאטאטאטאטא
 אטאטאטאטא
 אטאטאטאטאטא

אטאטאטאטאטא
 אטאטאטאטאטא



نصطر لحظة رحالنا يصبح ساعات قبالة مدينة، نظراً لحركات مياه البحر، ولا إن كنا نفضل أن ندور حول الخليج أو احتيازه في روارق صغيرة وعد وصولنا، لم يكن مسوب المياه قد ارتفع كثيراً، فبمرا ساعد النيل الشمالي وبمنا أنقاض كلثوم الواقعة عرني الخليج.

لا أدكر أنني عرأت يوماً أن أوروريا اجتاز البحر الأحمر قرب السويس شيئاً على الأقدام. ولعل مسوب المياه كان مرتفعاً عند عودتنا من طور سيناء، فربأوا اجتياز الخليج بي الروارق بدلاً من البقاء في الصحراء. عند ارتفاع منسوب المياه، تكثر الروارق الصغيرة، التي يسرع أصحابها إلى الضفة عند مشاهدتهم الرحالة العائدين من جبل سيناء، أو العرب الذين يتقنون المياه من بحر ريا. غير أننا لم نشاهد أي زورق على الضفة الشرقية للخليج، عند وصولنا^(٥).

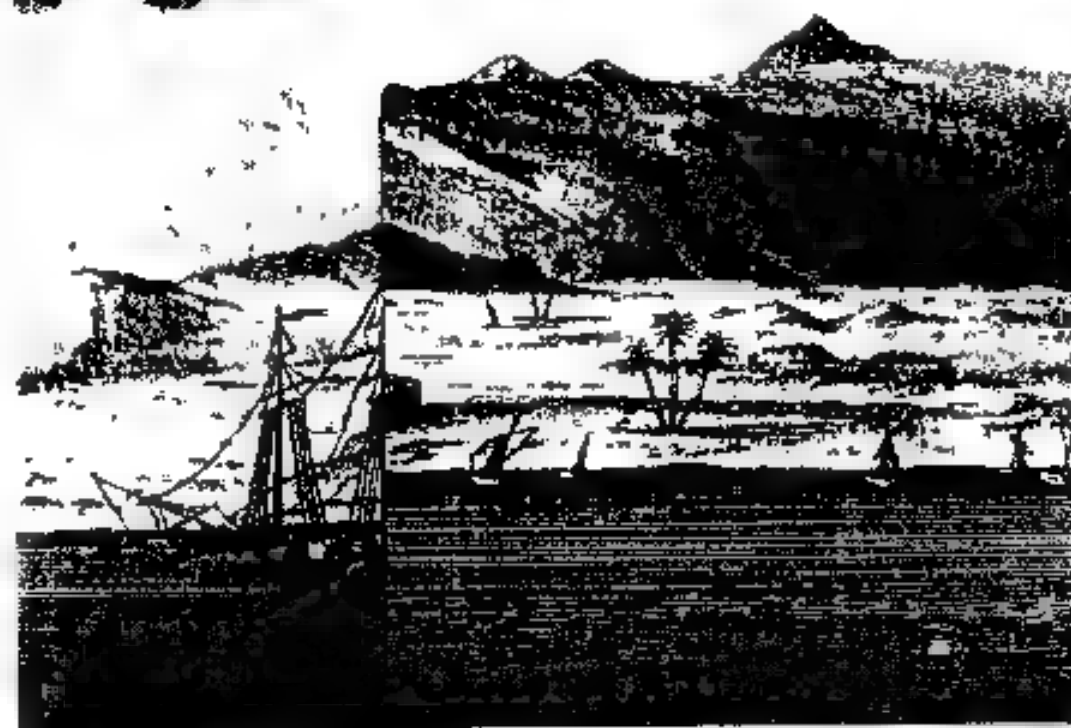
ولقد قسب قرب السويس عرض الخليج بدقة بالغة، فوضعت الإسطرلاب على الضفة الشرقية للبحر، وكان عرض القاعدة يبلغ ٨٣ قدماً مزدوجة، ووجدت أن الزاوية بين قاعدتي والطرف الجنوبي - الشرقي لمدينة تبلغ ٧٦°، ٥'، وبمكنا الاستنتاج بالتالي أن عرض ساعد البحر الأحمر يبلغ ٧٥٧ قدماً مزدوجة أو ٣٤٥٠ قدماً. يعطي المد الجزر المخاوره للسويس، أما بعضها الآخر فمرتفع جداً عن سطح المياه حتى أننا نستطيع مشاهدتها خلال المد العالي.

وما لا شك فيه أن عبور الإسرائيليين من هذا المكان، راده شهرة، وكان علي بالتالي أن أرسمه بدقة متناهية. غير أنني وصفت هذه اللوحات في كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية»، ولم أشأ إعادة نشرها من جديد. وتخل اللوحة ٢٠ في هذا الكتاب رحلتنا من القاهرة إلى السويس، والرحلة ٣٣ رحلتنا إلى جبل سيناء، واللوحة ٣٤، رسم طرف الخليج العربي، ومدينة السويس. رسمت اللوحتين الأولىين، بناء على الملاحظات التي درتها خلال رحلتي مع القافلة. ولكنني اضطررت للمحاطرة والابتعاد وحدي عن المدينة، بغية رسم اللوحة الأخيرة؛ وكانت مخاطره فإن صادفنا في هذه المنطقة عرباً رحلاً، تعرضنا للسوط، أكثر من احتمال ذلك في الصحراء. إذ لم يسحراً أي عربي على مرفقي في هذه المرة، باستثناء شاب شجاع؛ فغادرنا السويس سالكين الخط، كما ورد في اللوحة ٣٤، واتجهنا عرباً على طول الضفة، بعيد الوصول. إلى صبح جبل عتقة؛ لكنني وجدت الدرب طوية جداً؛ فالتجّهت شمالاً نحو بحر السويس، لنعود بعدها إلى البلدة. وخرجنا من السويس في اليوم التالي، ودنا حول طرف الخليج، وعدنا إلى البلدة في القارب برفقة العرب المحملين بمياه بحر ريا. وإن شاهد مرافقي العرب من بعيد حتى راح يرتجف

(٥) يحدث كريستوفر كولومبوس من هذا المكان في وصف سير رحلاته، ص. ٤١ - ٧٤ لكن وصفه ينزو دليلاً قاطعاً أنه أقرب إلى الواقع؛ فهو يقول بلقاء بقعة يسميها العرب موية، يكثر فيها القوارب التي تنقل أولئك الذين يهودون النهاب إلى السويس الواقعة على الطرف الآخر للبحر، على الضفة الشرقية؛ ما الذي يحصل الانتقال بر، فعليه أن يدور حول الخليج؛ ولكن البحر صيق جداً في هذه البقعة، فمضت إلى القارب برفقة أصدقائي وعبرت البحر بشكل يحذف عن عبور العيريين. أيضاً ذهبت الجبال برأ



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



خوفاً؛ غير أن من حميتهم أعداء كانوا يحاولون مها أيضاً وكان أحد رجال العرب الذين رأيتهم من بعيد يمتطي جسه، ويتأرجح في الهواء؛ فحلته في الدية شبحاً عربياً؛ وكس انضح لي لاحقاً أنه تأثير انكسار الأشعة بحسب. وخلاصة الكلام فمت بالدراسات اللازمة لوضع خارطة طرف الخليج العربي. وأظن أنني استطعت معاينه هذه المنطقة أكثر من أي أوروبي آخر. وتجدر في الرحلة (LI) مظهراً عاماً لمدينة السويس، كما رسمه السيد يورانييد.

ولقد بدا لي ساعد الخليج المجاور للسويس صيقاً للعية حتى بطوي في خوفه المرحون وجيشه؛ كما وأنه لم يحظر في بالي خلال إقامتي في السويس أن الإسرائيليين قد عبروا البحر الأحمر رب كلثم؛ وددت لأنني بم أحدى الساعة التي عبرنا فيها البحر في هذه القصة، خلال عودتنا من جبل سيناء ولكن بعد أن هابت الخرائط التي رسمتها هذه المنطقة، وقرأت كتب المؤلفين الآخرين الذين تحدثوا عن هذه الحادثة، تأكدت من أن الإسرائيليين عبروا من ها، كما سبق لي أن أشرت في كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية». وأتمى على الرحلة اللاحقين أن يعاينوا أنقاص كلثم بدقة أكبر

وهم أستطع جمع معلومات وافية عن القناة المتصلة بالنيل، وتلك التي تصل البحر الأبيض المتوسط بالخليج العربي؛ كما وأني لم أجمع في إقناع العرب بمراقبي في نومة في الجوار، إذ رعموا أن أعدائهم يفترون في هذه البقعة وهم أشاهد في المناطق مجرورة للسويس إلا ودي مصيصة، الواقع بين يفر السويس ولدية. بعد هطول الأمطار بمرارة تتجمع المياه في الوادي بكثرة فيمل السكان بعضاً منها؛ وبعد أن تجمع يمت العشب مكانها.



الرحلة من السويس إلى جدة

خلال رحلتنا إلى طور سيناء، وصلت إلى السويس قوافل عديدة صغيرة، فمعظم التجار والحجاج الذين يريدون الذهاب إلى جدة بحراً، لا يعادرون القاهرة، لا قبل إبحار السفن بقبيل ويشكلون قافلة كبيرة. ووصلت هذه القافلة في ٢٩ أيلول/سبتمبر، وأصبحت مدينة السويس فجأة أكثر ازدحاماً من القاهرة مقارنة مع حجمها، وإن لم نسمع بقراصنة في الخليج العربي. يفضل السفر ضمن قوافل، وكان ينبغي أن تبحر أربع سفن في آن واحد، ربما لكي تعظم القوافل الآتية من القاهرة إلى السويس فتتمكن من مواجهة العرب، وربما خوف من البدو في محيط طور الذين نهبوا مركباً ربما وحيداً في المرفأ، كما ذكرت آنفاً.

لكن المسافرين كلهم حجزوا أماكن معية لهم على امراكيب، وكان بعض تاجر القهوه قد رودنا برسائل توصية لرئيس، فتمحصنا مركبها، وحجزنا ل وحدن العرة العليا في المركب الأكبر، لكي نتبع عن المسلمين حين نود البقاء في مصر عنهم. وبالرغم من أننا سافرنا من قبل مع مسلمين بحراً وبرا، وبالتالي اعتدنا عليهم، لم نشعر فقد بحرف كخوف من هذه الرحلة بين السويس وجدة، لأننا كنا لا نزال نعتقد أن المسلمين يعتبرون المسيحيين غير جديرين بالقيام بهذه الرحلة التي يعتبرونها مقدسة وأكد لنا اليونان أننا سنسمع من انتمال الأحذية على المركب للسبب نفسه، وهذا بالفعل ما تم إعلامنا به ما إن عادرنا مصرنا ولا نأمن أن السبب يعود إلى أن المسلمين يعتبرون الرحلة مقدسة بل لأنهم ينظرون إلى سطح السفينة كله كشقة لذا يخلع الجميع حذاءه. ونجد على المركب العديد من احتجاج البسطاء الذين ينظرون شراً إلى المسيحيين، شأنهم في ذلك شأن رهاب من العرسيين كان يصادف في طريقه إلى القدس مدحسين أو مشككين. وحين لاحظ بعض المسلمين خوفنا، استعدوا من الوضع على حسابنا، كما يفعل المسيحيون مع اليهود، وهم يعلمون أن هؤلاء لن يتحرروا على الرد، وبأدراك ما يدافع عنهم العقلاء من المسيحيين، طالما أن الأمر لا ينعدي لسخرية. إذ، لم نكن مرتاحين خلال الرحلة، لكن لحسن الحظ كان لدينا عرفت الخاصة التي لا بدخلها أحد من دون إدراكنا، واستطعت أن أقوم فيها لمراستني الفلكية من دون أن أتعرض للإزعاج. وبالرغم من أن وجهتنا هي الجنوب، كنا نبحر معظم الوقت نحو الشرق إذ تمكنت من رؤية الشمس في الهاجرة بسهولة من على متن السفينة، وعندما تومر كانت مؤخرة السفينة تتجه نحو الجنوب بسبب الرياح الشمالية المستمرة.

ولقد كانت سفينتنا محملة للغة، وكان هناك في الفرة السفلى والأكبر من عرفت ما يقوى الأربعين امرأة وجارية مع أولادهم وأقدم قبانة عرفتنا حصي أسود ثري. كان متجهاً إلى المدينة، وكان يملك كالأسياد الأتراك حريمه الخاص. وأحاط كل تاجر المكان الذي حجزه على ظهر السفينة بالصاديق والضرود، فلم يبق له سوى مكان ضيق يمني فيه قهونه ويحضر رجيك، ريسام به ولم يكن سطح

السفينة محملاً بالأشخاص والبضائع فقط، إنما عتق العديد من الصرود الخفيفة على جوانب السفينة الخارجية. ولا تقوم هذه السفن إلا برحلة واحدة سنوياً بين السويس وجدة، لذا أظهر البحارة عدم مهارة، واعتفروا إلى المساحة اللازمة للصن، فضلاً عن طوي الأشرطة، كانوا يمزجون السارية، وكان البحارة وهم بعالياتهم من اليونان، يضطرون أحياناً إلى الدوس على بضائع التجار، فتشيب الخلافات بين الطرفين. ولقد كان ريس سفينة - ويدعى شريب (Schorabe) - تاجراً من القاهرة، وغير خبير بقيادة السفن لذا أوكل الأمر لربانيه اللدس بقيا على مقدمة السفينة لتنبه بنفسهما للصخور الساتية في المحيط. وأطلى أنهما أكثر مهارة وانتباهاً من الربانيه الأوربيين الذين يبحرون دوماً في عرض البحر، لأنهما تمكنا من الانتقال من السويس إلى جدة قرابة الشاطئ وغير الأرصفة البحرية المتعددة. أما مراكب الإيفاذ فيمر موضوعة على سطح السفينة كما في أوروبا بل معلقة وراءها، وكان مركبها الذي يتسع لأربعين أو خمسة وأربعين مدعماً بحمل أربعة مراكب، يرفع أكبرها شراعاً. أما المراكب الباقية فتحرر السفينة، وتجد فيها كلها باستثناء أصغرها، مسافرين وجياداً وخرافاً، وساء من العامة يقصدون مكة لنيل لقب حاجة أو للبحث عن الثروة خلال الرحلة. ولحسن الحظ، يهب الهواء باستمرار على تخفيف العري، ولا ما أبحر فيه أحد، بعد كل ما ذكرته.

ولو أننا أبحرنا على متن مركب أوروبي، لما اصغرنا إلى الصعود إليه أولاً، لكن بما أننا كنا نعرف أن سطح سفينة كان سيحتلء بالمصاديق والصرود، ركبا في ٥ تشرين الأول/أكتوبر، كي لا يحدث بالمسلمين الذين سمر أمامهم محملين يتعاضا. وكما قد دعت كلمة البحر من السويس إلى جدة سلفاً، ما إن اتفقا مع قائد السفينة، كما أعطيت البحارة بعض المال لئلا ينقلوا أغراضنا إلى متن السفينة، وعاجئاً ذلك، فاضطروا لتحصنوع لعادات البلاد. وبعد في الشرق، كما في أوروبا، مسافرين يعدلون البحارة بمكافآت عظيمة، ولا يعطوهم شيئاً في نهاية المطاف، لذا يطالب بحارة السويس بالدفع سلفاً، وحين يصلون إلى جدة، يخادر المسافرون السفينة من دون أن يسألوهم مزيداً من المال.

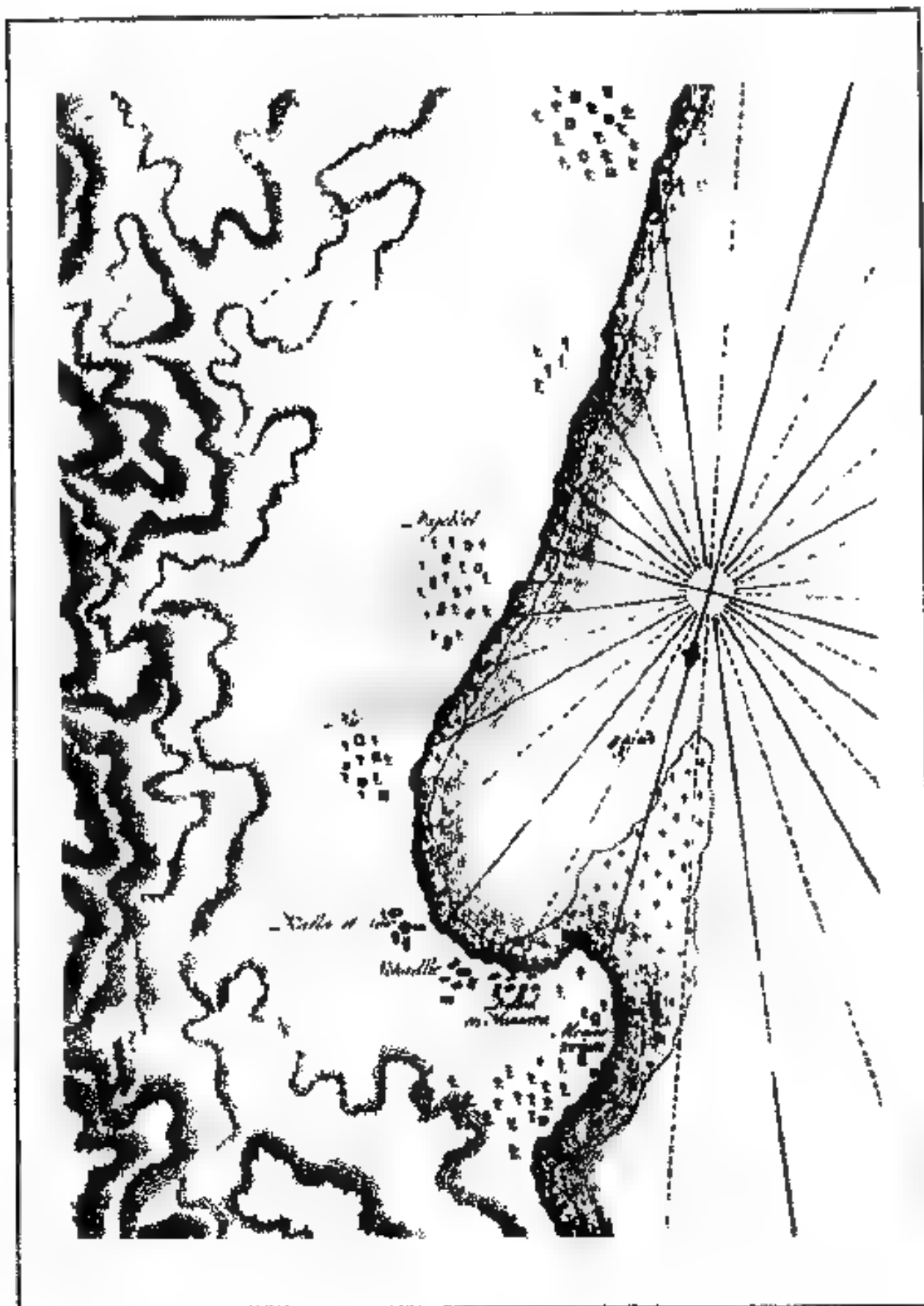
في ٦ و ٧ من الشهر نفسه، صعد التجار إلى متن السفينة وفي ذاك اليوم، وعند الظهر، قست ارتفاع الشمس، ووجدت أن سفينتنا في مرسى السويس تقع على خط عرض ٢٩°، ٥٥'، ويبلغ ارتفاع المياه أربع باعات ونصف الباع. ولم يركب الرئس إلا في ٨ تشرين الأول/أكتوبر، أما الأمر الوحيد الذي بقي يؤخر إبحارنا فهو عادة حاكم السويس بتفحص كافة السفن التي توشك على الإبحار للتأكد من أنها غير محملة كثيراً، أو على الأرجح ليجمع للمال بفضل هذه الهدية الموكفة إليه، وهذا ما فعله في التاسع من الشهر نفسه قبل الظهر. وما إن غادر حتى أبحرنا قافلتنا متولفة من أربعة مراكب، ودارب ساعة ونصف للتأكد من أنها محملة كما يجب، بعدها، رسونا في مكان يبلغ عمق المياه فيه ١٤ باعاً، وتم نقل البضائع من جهة إلى أخرى في كل مركب، استناداً إلى رأي الرئس بعية تسهيل للملاحة.

وبغياص الصخور الجارزة بين السويس وجيرونديل (Girondel)، أبحرت السفن الأربع في ١٠ تشرين

الأول/أكتوبر بعد منتصف الليل بصف ساعة، ووصلنا قرب جيروودن قبل الظهر، وبما أن السفن لم تعتمد الذهاب أبعد من ذلك في اليوم الأول، رسونا قرب الشاطئ في مياه يبيع عمقها ١٣ باعاً، وعلى خط عرض ٥٢٩، و ١٠ و برل كل من السيد فورسكال والسيد كرامر إلى اليابسة لرؤية حقايق فرعون الواقع إلى الجنوب، لكنهما رجدا نظرين طويلة عمادا. إن هذا الجزء في الخليج العربي، المسمى بركة فرعون، ولدي منظر فيه أعرض بكثير من الغرب بين لسويس وجيروودن، لكنه ليس حظيراً بالنسبة لنفسه لبحره نحو الجنوب وأبحرنا في الساعة التاسعة مساءً، وفي الحادي عشر رأينا الكثير من الأرضة ارجانية التي لم يكن لسر من يسها من دون أن يحدق بها الخطر إذا ما هبت رياح معاكسة بكن الرياح كانت مؤاتية، فوصلنا في الثالثة من بعد الظهر قرب الطور (Tôr)، حيث رصيف مرجاني تكاد لا نحميه المياه أثناء الجمر، ورسونا في مياه يبلغ عمقها ٥ باعات و ٣/٢ الباع، ويتصب تمثال حجري على الطرف الأكثر ارتفاعاً لهذه الصحرة، يته الحرة إلى وجوب توخي الحذر، علماً أن الأرضة ارجانية تكثر على هذا الشاطئ، ونظراً، يبلغ عرض البحر هنا أكثر من خمسة إلى ستة أميال، ونشير الوصفه من السويس إلى طور تقريباً إلى الجنوب والجنوب الشرقي أو الجنوب الشرقي في الجنوب، وتبل سلسلة الجبال، التي تمتد من حقايق فرعون على طول الشاطئ إلى داخل البلاد على بعد حوالي فرسخ ونصف إلى الشمال من تور، ثم تتجه نحو الجنوب، وتشكل على الشاطئ سهولاً واسعة ترتفع فيها التلال حتى رأس محمد. وثين لي من دراستين دقيقتين أنا كما على حصه عرض ٥٢٨، ١٢، كما يقع جبل القديسة كاترين، وهو أعلى من الجبال الأخرى المحيطه به وبالتالي أعنى من جبل سيناء إلى الشمال الشرقي، وقد رسم السيد بورغاينده هذا المنظر على اللوحة LI.

يحيط برفاً طور السيد من القرى الصغيرة، وكانت قلعة الطور فيما مضى حصاً، لكنه تداعى ولم تبق فيه حامية عند هذه الطويلة. ويعيش في البلاد النصارى الروم، ويملك الرهبان ديراً في المكان الذي قامت فيه إليم (Elm) على ما يدعون. ويقوم المسلمون في قرية شادي قرب بلاد النصارى، ويعيش سكان هذه المنطقة من السيد، ويقع البئر الذي يؤمن حاجاتهم من مياه عذبة قرب المكان الذي رسونا فيه، وهي مياه أفضل من مياه ابار نابه (Naba) قرب السويس، لكنها ليست بأعذب من المياه التي يرود بها العرب السفن حين يرسون في هذا المكان والتي يحملونها على الجمال من المدايق الجبلية وتثير فربه الجبل الاهتمام، إذ يقيم فيها كافة الراباة الذين يقودون السفن من السويس إلى جدة ويميدونها من جدة إلى السويس، ويتلقى كل رباب ٥٠٠ ريال مقابل كل رحه، فصلاً عن الأرباح التي يجنيها والأموال التي يقبضها من أولئك الذين يعلمهم مهنته، لأننا عاينه ما يجد على متن السفينه فتياً أتوا لتعلم هذه المهنة أو على الأرجح لتعلم كيفية اتبه للأرصمة الرملية والأرصمة المرجانية واكتشافها.

رسمت على اللوحة (LII) خارطة محيط طور، استناداً إلى نظري وإلى روايات الراباة لا استناداً إلى



دراسات هندسية كانت لتعرضني لمحضرة. وكان السيد فورسكال الوحيد الذي ابتعد أكثر من بشر ضرور، وبم يجد في بلاد النصارى سوى كاهن واحد، أكرمه في منزله وأرسل معه مرافقين حتى اليوم المزمومة حيث رأى العديد من الحقائق المروعة بالنجيل والتي يملك جرماً منها الروم ونجراً الأسير المسجون وقد أثار غيابه الطويل تساؤل العرب، وأعلموا بعض الانكشاريين من القاهرة، ففرروا البحث عن الإمبري الذي نزل إلى البرز رسم حيالهم، وصاروا إلى بلاد النصارى، وصادفوا السيد فورسكال وهو عائد من الحقائق فأعادوه إلى السجبة على الفور وبكل أمان. هل يجد الكثير من المسيحيين الذين يتكبدون مشقة قطع نصف مرسخ لإنقاذ يهودي لا يعرفونه من خطر محقق؟ لم أكن أتوقع هذه الشهامة وهذا الكرم من مسلمين بشكل عام ومن الانكشاريين بشكل خاص. لكن هؤلاء كانوا من التجار الذين اعتادوا التعامل مع الأمم الأجنبية، فقبضوا أن من واحدهم حمايتهم، كأجانب سحبت عن أمم بينهم.

وفي الرابع عشر من تشرين الأول/أكتوبر، خرجنا من مرفأ طور بعد أن هبت رياح زلمية، وتوجهنا نحو الجنوب أولاً، ثم نحو الجنوب الشرقي ودبت بين أرصفة المرجان. وبعد الظهر رسوا قرب رأس محمد أو رأس محمود كما يقول البعض، على عمق ١٠ باعات وبعد قياس ارتفاع بحنتين، تبين بي أسا على خط عرض ٥٢٧°، و ٥٤°، تقريباً، علماً أن لأفق لم يكن صافياً كلياً، لكن هذه الملاحظة دقيقة بما يكفي لتصحيح الخرائط البحرية. لاحظت أن البحر أعرض هنا من قرب طور، ويمتد الشاطئ أبعد نحو الجنوب ثم نحو الشرق حيث نجد الخليج الثاني لبحر الأحمر والذي يمتد حتى العقبة. وحتى الآن، لم يبحر سوى قرب اليابسة، ورسوا كل ليلة، لكن بين رأس محمد وشاطئ شبه الجزيرة العربية، اضطربا للإبحار في عرض البحر لأيام وليالي عدة. وسيفتقر كل أوروبي هذه الطريق آمن من الطريق بين السويس وجدة في غياب الأرصفة المرجانية والصحور، لكن المسلمين، الذين لم يعد باستطاعتهم رؤية اليابسة، اعتبروها خطيرة، وكانوا يمشون على الأرجح لو مروا من رأس محمد إلى جزيرة تيران (Tyrân) ومنها إلى شواطئ شبه الجزيرة العربية، لكن الرياح كانت مؤاتية لـ للسفر في طريق مستقيم. وبقيت الرياح شمالية إلى شمالية غربية فتمكنا من التوجه نحو مرفأ الذي نصير إليه.

في ١٥ تشرين الأول/أكتوبر وعند الظهر، كنا على خط عرض ٥٢٧°، و ٢٩°، وكنا قد مروا صباحاً أمام جزيرة سمر البحر (Safân el Bahâr)، وكانت جزيرة شدوان (Scheduân) مباشرة إلى الغرب على بعد ٤ أميال، وبالتالي على خط العرض نفسه. وكانت جزيرة تيران الواقعة أمام بحر العقبة إلى الشمال الشرقي على بعد حوالي ٥ أميال (استنتجت ذلك من تعبيرات البوصلة) وعلى خط عرض ٥٢٧°، و ٤٣° وعند غياب الشمس، كانت الشواطئ المصرية لا تزال باذية أما شبه الجزيرة العربية فعايت عن أنظارنا.

ثم في ١٦ من الشهر نفسه، وعند الظهر، كنا على خط عرض ٥٢٦°، و ٩°، أما عند المغرب فأصبحنا على خط عرض ٥٢٥°، و ٥٤°، وشاهدنا على الشاطئ المصري جبال الرمرد التي تحدث عنها الكتاب

القدامى من يونان وعرب. إذا ما احسبنا وسط كافة الاتجاهات التي سدكناه، واستنداً إلى بوصلتنا الخاصة نجد أننا أبحرنا باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي من رأس محمد. ولم يتبع ربابة السمس الاتجاه نفسه حتى وإن كانت الرياح مؤاتية للغاية ووضع الرأس بين بوصلته - حيث يصح الأوروبيون عادة الصوء - قطعه كبيرة من المصططس، ظناً منه أنه يحافظ على مراحلهما، لأنه قيل له إن المصططس بعيد المراكب من بقدها. وستنتج من ذلك، جهل البحارة في هذه البلاد لذا لم يلاقي صعوبة في إقناع الرأس برع المصططس من مكانه لأنه يفضل البوصلة.

وفي ١٧، تحضرت في اجاب الصغير وراء عرتنا لمرقبة كسوف الشمس، وسجنت نهايته عند الثانية عشرة و ٢٨ ثانية ظهراً بواسطة منظار كبير بأربع قوائم. ومعني حركة السفينة، وإن كانت خفيفة، من تحديد خط الطول، لا سيما وأنه كان يوجب عليّ تحديد ارتفاع القطب، واستخدام ثمن مداره حيناً ومنظار حيناً آخر. وكنا على خط عرض ٢٥°، ٣٣. ويهيد من شاطئ شبه الجزيرة، فيلكاد يرى جبل العراب. وأبحرنا خلال الـ ٢٤ ساعة الأخيرة تقريباً نحو الجنوب والجنوب الشرقي.

وحدث السيد فورسكال رئيساً مسبقاً عن الكسوف الذي سيحدث في ذلك اليوم. ولإسعاده والقيام بتجاربي من دون التعرض للإزعاج، قمت بتصويد بعض العدسات التي استخدمها السيد فورسكال لمشاهد الرأس وبعض التجار هذه الظاهرة وقد أعربوا جميعاً عن رضاهم. ويثير الدين يستطيعون السبق بالكسوف بين المسلمين أطباء ماهرين، عالمين بالقوانين الدينية والمدنية، ناقض المسلمين أن السيد فورسكال طبيب عظيم لأن الواقع أظهر صحته تنبؤته. فكثير المرضى بينهم. وطلب كل منهم دواء لمرضه المزعوم، وأشار إليهم الطبيب الجديد بالعلاج الأفضل، فصيح العديد منهم بالدم وباتباع حمية غذائية أفضل. وأخيراً، تقدم منه حاج اشتكى من أنه لا يرى شيئاً أثناء الليل، فصحه السيد فورسكال بإشعال شمعة فأثارت هذه الصبغة موجة من الضحك، وبدا أن جميع المرضى السابقين أصبحوا أصحاء. ولا يكتسب العلم الأوروبي عطف المسلمين واحترامهم دوماً، بل يحج بي كسبهما إذ ما أتبع عاداتهم واحترامها، وهكذا كسب السيد فورسكال، مع القليل الذي يعرفه عن الطب، محبة العرب أكثر من أي طبيب عظيم.

وفي ١٨ تشرين الأول/أكتوبر، كنا على خط عرض ٢٥°، ٤. كان جبل هواك (Hawa'ne)، الذي يقع على شاطئ شبه الجزيرة العربية، على بعد خمسة أميال إلى الشمال الشرقي، أي إنه يقع على خط عرض ٢٥°، ٥. وخلال الأربع وعشرين ساعة الأخيرة، أبحرنا تقريباً نحو الجنوب الشرقي والجنوب، وكذلك الأمر بالنسبة للأربع وعشرين ساعة اللاحقة في ١٩ تشرين الأول، ظهراً، كنا على خط عرض ٢٤°، ٤٠. وكانت أكبر جزيرتي حشاني وأكثرهما إلى الجنوب إلى شمال مركبا، على بعد حوالي ثلاثة أميال ونصف. ويرسو المراكب الآتية من رأس محمد عادة قرب هذه الجزيرة، وهي تقع على خط

عرض 24° ، $54'$. وبعد الظهر دبت من شاطئ بعد أن درج حول رصيف مرجاني كبير، ورسونا قرب مہار (Mahar) فأرسل الرئيس يطلب عرياً كان يمشي على الشاطئ، بسأله إن كانت تقابل المختلفة في حالة حرب أم في حالة سلم. ووصل أحد المركب التي أبحرت معنا من رأس محمد في اليوم نفسه أما الركبان الأسيران فلم يتمكنوا من النجاة بنا.

وبما أن الرياح كانت مؤاتية للغاية، لجونا من الخطر المحدث بنا، فإثنان من المركب الثلاثة التي انطلقت متأخرة قليلاً من السويس في السنة الماضية، عرفت في هذه أسطمة. وكان على متن سببنا، بعض الأشخاص الذين مزوا بهذه التجربة، ورواوا أن عاصفة فاجأتهم قرب حشاني، فسادت العاصف في السفينة، وسارع الركاب والبحارة إلى مركب الإنقاذ وتوجهوا نحو اليابسة، ورأوا من هناك المركب الأول يتكسر على الصخور وعند المساء، هدأت الرياح، وشاهدوا في اليوم التالي المركب الثاني يطفو على سطح الماء، مما دفع الرئيس وبعارته إلى العودة نحوه، لكنه عاد وعرق قبل أن يعادروا اليابسة وقام الرئيس الثالث بعمده بشكل أفضل، إذ خشي أن يلود البحارة بالقرار فحك الخيال التي تربط مركب الإنقاذ بالسفينة ما إن عثت العاصف بين الركاب، وعرض نفسه بالتالي لمصيرهم. لكن حين عرض لهم انخاض التي تتعرض لها سفينة من دون قبطان، وحين ادعى قدره على إقادهم وبصائعهم، إذ ما أفسحوا له ولرجال له المجال يعملوا، هدؤو وسامحوا في العمل، واستطاعوا النجاة. فأكملوا طريقهم ووصلوا بأمان وكادت تحل بمركبنا كارثة غير انزل بين رأس محمد وحشاني، وذلك بسبب طيش النساء النواتي بسكنى الغرفة السفلى والتي برعجسا دائماً بصراخهن وبقاشهن، فقد شت حريق مرتين بسبب قطع من القماش، وكاد هذا الحادث أن يؤدي بنا إلى كارثة لو لم يصرخن طياً بسجدة وحين شئت لمران للمرة الثانية، حاث المسلمون، مما اضطر الرئيس إلى إرسال أحد البحارة إلى الخرج، فأحدث النساء أولاً بإصدار أصوات مرعجة ثم حل صمت عميق دام ٢٤ ساعة من دون انقطاع

بعد اجتاريا الدرب المهلكة بين رأس محمد وحشاني، عثت السعادة، وأضيق المدفع طنقات عدة. وعند المساء، تم إشعال كافة العاديل والمصابيح، وأطلقت النار ابتهاجاً، وتغالت الرغاريد الشائعة بين الشرقيين من الجهات كلها. وتوقع اريان مكافأة جيدة من اسافرين لقاء اخذت المظم التي قدمها، كما طلب البحارة بعض المكافآت الصغيرة لقاء تعهم وسهرهم طوال الليل واستخدم هؤلاء مركباً صغيراً، كما يصنع الأولاد في أوروبا، لجمع المكافآت، ثم رموه في البحر وهم يجمعوا الكثير لأن لكل واحد من الركاب نظرية في إعطاء ما يشاء

وفي ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر، وعند شروق الشمس، أبحرنا من جديد، وكان الهدوء سائداً، وكنا عند الظهر لا نزال على خط عرض 24° ، $32'$. وكانت مہار (Mahar) تبعد عنا حوالي مرسخ ونصف إلى الشمال والشمس الشرقي، إذأ، نستنتج ان رسونا على خط عرض 24° ، $37'$ ، وبعد الظهر، رسونا إلى الجنوب في أبي دبي (Abu Dābea) وهي على خط عرض 28° ، $28'$ ، ويصل ارتفاع المياه فيها إلى عشرة باعات، وتبعد أرصفة المرجان على طول ٢٠٠ قدم. في ٢١ من الشهر نفسه، ومد الصباح،

كانت الرياح معاكسة تماماً، لكنها ما لبثت أن تغيرت، وتقدمنا نحو الجنوب والجنوب الشرقي. وعند الظهر، كما على خط عرض 24° ، وكانت جبال البط (Nabat) مباشرة إلى الشرق أمام جبال رموى (Radwa) الكبيرة. وعند المساء، درنا حول جسم أو السجة رؤوس والخطر يحيق بنا لأن المبحور تكثر في هذا المكان، وكان الظلام قد حل، ورررنا قد ثمل، فما إن وصلنا إلى متن السفينة حتى طلب منا الكحول بحجة أنه لا يمكن التعرف على الشواطئ والجبال ما لم يشرب القليل من الخمر، فرفضنا إعطائه لأنه مسلم ولكي لا تقع في متاعب مع المسافرين الآخرين في حال ثمل، وكان يطلب منا كل صباح ربع زجاجة عن طريق خدمه، ولعل التجار اليونانيين اعتادوا إعطائه الكحول. ثم في وقت متأخر من تلك الليلة، رمونا قرب قبة ينبع (Kubbet Yanbo)، وهي جزيرة صميرة تحوي رفات قديس مرصوم.

في ٢٢، لم نتمكن من التقدم بسبب الرياح المعاكسة، التي هبت من الشرق نحو الجنوب وإلى الغرب، وسحبت ظهراً، ارتفع العطب، ووجدت أن قبة ينبع تقع على خط عرض 24° ، وفي اليوم التالي ٢٣، أبحرنا نحو الجنوب الشرقي والجنوب، وعند الظهر كنا على خط عرض 24° ، $60'$ ، وصادفنا وصيف مرجاني إلى الغرب، والقسم الجنوبي لجبال رموى الشاهقة في الشمال الشرقي وكانت السماء ملبدة بالغيوم، أثناء هذين اليومين، ثم مررنا بعد الظهر أمام عرسي جيد، يطلق عليه اسم شرم، ورمونا قرب مدينة يبع. إن لم نر مرلاً واحداً منذ عادرنا طور والآن ظهرت مدينة يبع تحيط بها الأسوار، ويبدو منظرها العام جيداً من جهة البحر، أما مدخل انرقاً فصيقى للماية، لكن ابراً بعد ذاته آمن حتى أننا لا نحتاج لإنزال المرساة، لذا اكتمينا يربط حين من صغيتنا بحجر من وصيف المرجان الذي تعطيه المياه بالكاد أثناء الجزر.

ولقد غادر المسافرون الذين يترون اتوجه إلى المدينة مباشرة ومن ضمنهم الخمي الذي ذكرته سابقاً وتم تخصيص مركب الرئيس الخاص له وبعض المسافرين ذوي الشأن، ولوث أحد أعضاء بعثنا هذا المركب إذ لم ينس إلى أنه تحت غرض، مما أعصب البحارة الذين نظموه وغطوه بالسجاد ولحسن حظنا، لم يست أحد طيش النساء اللواتي يسافرن في الصبقة السفى، فانهس بهذه الفعلة بالرغم من إنكارهم لذلك. وكانت غرفهن ملاصقة لغرفتنا، وهي غرف واسعة يمكن أن يقيم في كل واحدة منها أربعة إلى خمسة أشخاص، لكن التبول إلى غرفتنا يتطلب استخدام السلالم. ولم أفجأ بسماع أصوات نساء بالقرب منى، ودفعني حشرتي إلى البحث عن فتحة، ووجدت واحدة صميرة. ومنذ رحيلي من السويس، وبصعوبة رأيت وجه مسلمة مكشوتاً، لكن في أثناء هذه الرحلة كنت أرى أحياناً وعند الصباح ٣ أو ٤ نساء عاريات بغسل.

وبقيت على متن السفينة، لأنوم بدراسات فلكية، ولأخذ موقع ينبع التقريبي، راجعوا اللوحة (LVIII)، وقد رسم السيد بورنيد مظهر هذه المدينة على اللوحة (LIII). ونزل إلى اليابسة ثلاثة

أشخاص من بعثاء، وحمل كل منهم سبعة كياقي لسايفين ولم يكونوا يعلمون أن ذلك سيحلب بهم المشاكل. إذ رمى أحد سكان المدينة عليهم السلام، بعد أن ظهروا مسمرين بسبب اللباس التركي الذي يرتدونه، وحين علم أنهم إفرنج، استشاط عيظاً، بسبب الخطأ الذي ارتكبه بإلقاء السلام عليهم، وروح يشتم الكافرين الذين وصلت إليهم الجرأة حدّ النور إلى الشاطئ، مسلحين. ومن حسن حظهم أن لعرب حاضرين المسائين أكثر لذلك لم يمنعهم من العودة إلى السمية

وسرّني أنني رأيت بعض النجوم في الهاجرة، لكن الانتظار أتعبني. وفي ٢٤، تبددت اليوم قبل إبحارنا، وتمكنت من قياس ارتفاع القطب، لوحدت أن يقع على خط عرض ٢٤°، ٥' وعند الظهر، كما لا تزال على خط عرض ٢٣°، ٥٧'، وكانت مدينة بيع إلى الشمال وعلى ١٨° إلى الشرق، على بعد ميلين ونصف، ولأنني كنت على ارتفاع ١٨ قدماً فوق مستوى المياه أمكنني رؤية مارل لمدينة بوصرح وبعد الظهر، شاهدنا الكثير من أشجار النخيل على الشاطئ، وعند مساء، رسونا قرب ديار (Djar) على خط عرض ٢٣°، ٢٦'، وفي مياه يقع عندها ١٤ باعاً

في ٢٥ ظهراً، كما على خط عرض ٢٣°، ٢٩'، وإلى الغرب من وسط جبال صبرا (Safra)، وكنا بحر على بعد ميل ونصف من الشاطئ، وتحيط بنا صحور مرجانية كبيرة. وعند المساء، رسونا قرب أبو أعير (Abu Aiján) على خط عرض ٢٣°، ١٦' وفي ٢٦، أبحرنا نحو الجنوب والجنوب الشرقي كما، فعلاً خلال معظم الرحلة، ومررنا بين الأرصفة المرجانية، كما شاهدنا ماء على صحرة كبيرة من المرجان، يعلق عليها اسم جبراد (جيب رعد) (Djebrād). وعند الظهر، كنا في الجنوب الغربي، على بعد ميل ونصف من مدينة مستورة (Mastūra) الواقعة على سفح جبل يحمل الاسم نفسه. وبعد الظهر أبحرنا رأس وردان (Wardân)، ورسونا مساءً قرب رابوح (Rabogh) على خط عرض ٢٢°، ١٥'، بين بعض الجزر الصغيرة، وهي قرية أو مسكن ثابت للبدو، وقيل له مسبقاً إن عرب الرابوح يحملون الماء والرد إلى الشاطئ ليبيعه، ووجدنا الكثير منها بالفعل

ولقد كنت قد ذكرت سابقاً في وصفي شبه الجزيرة العربية، أن على المسلمين، الذين يحثون عمرة الأولى، أن يرتدوا لباس الإحرام. إذا ما سمحت صحتهم بذلك. وهذا ما يحب أن يفعله «قادمون من السويس بحراً، لدى وصولهم إلى رأس وردان الذي جترياه في هذا اليوم. ولباس الإحرام هو قطعة من القماش تربط حول الخصر كما في اختامات، وهو اللباس الذي يسمح لسحاح العديد بارتدائه حتى يزرر الكعبة في مكة. كما يمكنه ارتداء قطعة أخرى من القماش فوق كتفه، كذلك التركي الذي رسمه السيد بورغاند على اللوحة (LIV) وحافظ العديد من المسافرين للحجاج على ثيابهم «عادية، إما لأنهم مرضى وإما لأنهم يدعون ذلك، في حين ارتدى العديد من المسلمين المتدينين لباس الإحرام من دون أن يدرهم القانون بذلك بما أنهم راووا مكة من قبل وهكذا، رأينا عند المساء، العديد من المسافرين على متن سفيتنا يرتدون ملابس معبرة لتلك التي كانوا يرتدونها عند الصباح



مركز بحوث وتطوير الفنون
بجامعة القاهرة





قد استعرب أن يأمر محمد أتباعه بزياره الكعبة للمرة الأولى حاسري رأس وشبه عراء. ولعله يقصد عامة الشعب من عرب الحجاز واليمن وعلان ومكة بهذا الرقي. ولعله لم يسع إلا إلى جعل الحجاج يدخلون أرض مكة حاشمين متواضعين، أي مرتدين اللباس نفسه كعامة الشعب. وأعتقد أنه لم يكن ليصح قانوناً كهذا، لو علم أن حجاجاً من البلاد الباردة سيفقدون مكة يوماً ما، والإحرام غير مرجح للأتراك، وقد يؤدي صحتهم لأنهم اعتادوا الإكثار من الثياب حتى في الصيف ويناسب لباس الإحرام عربياً أحرقته الشمس، لكنه لا يناسب تركياً حاسر الرأس ومتحجباً بشرة يصد كلباً

ومد انطلقنا من السويس، أبحرنا نحو الشرق، فتمكنت من رؤية الشمس في الهاجرة، وأنا في المقصورة. في ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر، وقبل الظهر بدقائق، توجهنا نحو الجنوب مباشرة، مما معني من تحديد ارتفاع القطب بدقة، لكن لا أضني أحطى كثيراً إن اعتبرت أن جبل قليب (Kila) الذي لم يكن بعيداً عنه يقع على خط عرض ٢٢°، ٢٣°، استناداً إلى ارتفاع الشمس الأخير. وبعد الظهر، أبحرنا نحو الجنوب والجنوب الغربي، ويمتد شاطئ شبه الجزيرة جنوباً حتى جدة. وعند الساعة الواحدة، مررنا أمام أم السك، وهي جزيرة صغيرة قرب الشاطئ، وبعد الساعة الثانية، كانت جزيرة حرام، وهي جزيرة صغيرة أخرى، إلى الغرب منا ثم بعد ذلك، أبحرنا في قناة صيقة للغاية بين أرصفة المرجاج، ويحاول أي بخار أوروبي التوجه إلى عرض البحر، لكن ليس سبيس ارتأى عدم الابتعاد عن الشاطئ حتى يتمكن والركاب من الهرب إلى اليابسة إن غرقت السفينة. وعند المساء، رسونا قرب رأس الحطبة (Rás el Hatba) في مياه يبلغ عمقها ١٥ ذراعاً ويقع كل من جبل قليب وهذا المرسى تحت حط الهاجرة نفسه تقريباً، لكن الشاطئ الذي يمتد بينهم يشكل انحناء كبيراً نحو الشرق. ولم أتمكن طول الليل من مراقبة نجمة واحدة ثابتة، ويقع رأس الحطبة، وفقاً لدراستي، على خط العرض ٢٢°، ٣°

وفي ٢٨ ظهراً، وصلنا بحالة حيل وكر (Wakr)، ومصب البيلة أمام بحر (Obhār) حيث يدخل الخليج صيفاً في اليابسة حتى ليظهر امرء نهر. إن مدخل هذا المرسى صيق سمائية، لكنه آس حتى أن لم نزل المرساة، واكتفينا بربط السفينة من الجهتين بحجارة كبيرة في أرصفة مرجانية. وتقع أبهر على خط عرض ٢١°، ٢٠°، إلا في حال وجود شاطئ، مستقيم بعد يقع قرب الهاجرة، جعلني أحطى في غديري

وفي ال ٢٩ منه صباحاً، عاودنا أبحر بعد هبوب ريح رمية، ووصلنا عند الثانية من بعد الظهر إلى جدة، ورسونا على بعد نصف ميل إلى غرب المدينة، على خط عرض ٢١°، ٢٧° بين أرصفة المرجاج. وبما يلي، حددت موقع جدة على خط العرض بدقة بواسطة ربع الدائرة. وبقيت في السفينة ليومين بعد معادرة كافة المسافرين المسلمين للسبب نفسه الذي دفعنا إلى الصعود على متنها قبلهم (كي لا نزعج المسلمين). ودخل العديد منهم المدينة إما لزيارة لأصدقاء والأهل ولما لاستقاء الأخبار، وما لإدخال

أموالهم على دفعات ومراً، لأن رسم الدخول يبلغ ٢ إلى ٢ ونصف بالمتن، وتمكن البعض من دخول مدينة من دون أن يدفع اثنان، أما الذي يكثر الأعراس معه، فلم يوقعه وإجباره على دفع الفوجات ويسوأنهم لا يعرفون معنى حاجر الأعراس ومعاقبة المخالف، وقبل لنا أنهم يكتبون بالسحرية ممن يحاول خداع اجمارك ولا يملح في ذلك وأذكر أبي سمعت في مناطق أخرى تركية، أن من يحاول إدخال بضاعة ما حلقة يدفع ابلع المستحق مضاعفاً، وتعرض أحد أصدقائنا، الذي حاول إدخال ماله من دون أن يدفع، عقاب أكثر صرامة، فحين مر من السمية، سمع كيس ماله، الذي ربطه حول خصره، ووقع منه حوالي ١٠٠ درهم في البحر

وبما أن الدين، عادي، من المدينة اشكوا من أن اجمارك صرامة هذه السنة أكثر من المعتاد، اتحدنا كافة الشدبير الممكنة كي لا نتعرض للمشاكل. ولم نكن نعمل بضائع وبالتالي ما من شيء يخشاه من هذه الحياة، لكن المسلمين لا يستخدمون الكمبيلات، لد اضطررنا إلى إبدالها بالمال في مقهورة، وسعيت إلى إطفاء الأمر عن العرب كي لا تسؤل لهم أنفسهم القيم بأمر ما رسم نعمل سوى نفوذ البدية التي تستخدم في جدة أكثر من النفوذ الدهية التي صرت في تركيا، وكان يمكن لكن ما أن يحفي حصته لو لم يخش التعرض للتنميش فقررنا إطفاء مال في جرار الأدوية، وهي أفضل طريقه لإطفائه عن عيون العرب الذين لا يتوقعون أن يحسن طيب ما لنا، وبالرغم من أن المسلمين لا يحبون أن يدفعوا المال لأطبائهم، يرحبون بهم أينما حلوا

ولم يتمكن من اللحاق بنا سوى مركب واحد من اراكب الثلاثة التي انطلقت معنا من السويس ثم من رأس محمد، وقد وصل إلى جدة حين وصل مركبنا، فيما وصل لكنا في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر. بعد أن فقد أحد اراكب الإنقاذ وعانى الأمرين للحفاظ على اراكب الأخرى، ولم يصل الثالث إلا في ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر صباحاً وعند مساء، ما بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة، سمعنا فجأة صوت دوي مدفع، وهي الإشارة إلى حصول كرتة ما لأحد اراكب الرأسية وخشي أن تكون البيرون قد اندلعت في إحداها، فأرسلت كافة المركب الصغيرة الجدة، وبعد حين عاد بعض منها لإخبار أن المركب الذي وصل متأخراً قد انقلب، وأن كمية من البضائع وقعت في الماء لأن البحارة أثقوا بالحمل وأكثروا من البضائع والصاديق بعد أن رجاهم التجار إذ أرادوا الحصول على بضائعهم في اليوم الثاني وأرادت الفلة التي بقيت على متن المركب إرسال إشارة إلى الصباط والبحارة الذين نزلوا إلى البر كي يرجعوا ويساعدوا في إعادة المركب إلى وضعه الصحيح. هؤلاء هم الناس الذين نسلّم لهم حياتنا بين السويس وجدة، فشكروا الرب وحمدناه لأن أنهبنا رحلتنا بحير وسلام، هذه الرحلة التي تجدون حارطة لها على اللوحة ٢٠ في وصف شبه الجزيرة العربية.

ملاحظات في جدة

لم يساورنا الشعور بالخوف قط من سكان مدينة بقدرة ما خفتنا من سكان جدة قبل أن ندخلها، وذلك بعد أن رأينا الأورداء الذي يعامل به الأوروبيون في مصر، إذ ظننا أن عداوة المسلمين للمسيحيين ستزداد مع اقترابها من المدن التي يعبرونها مقدسة، وقد رادتنا طريقة تصرف سكان يسع مع زعماني اقتناعاً بهذا المطلق، لكن تبين لك أننا على خطأ إذ لم يعتد أهالي جدة إلا على رؤية الأوروبيين القادمين من الهند للتجارة، وهم يرتدون الملابس الأوروبية، وبدا أننا غادمون من منطقة أخرى، وقد نسا الثياب الشرفية، ساور أهالي المدينة الشك تجاهنا في البداية، لكنهم - لئلا أن اكتشفوا خطأهم - وقد عرفنا من قبل العديد من المساهرين الذين وصلوا حديثاً، ولم يعد سكان المدينة يعبرونها هتماً لأنهم لم يجدوا في ليست ما يريب. فزربا المفاهي والأمواق، وترها قرب البحر وفي المدينة ومحيطها دون أن يمرض لنا أحد والأمر للرحيد الذي لا يسمح به أهالي المدينة غير المسلمين هو الاقتراب من الباب الواقع من جهة مكة، وقد أعلمنا بالأمر، فالتزمنا به.

وساعدتنا رسائل التوصية التي حمدها، فقد أوصى بها السيد دي غابر الباشا حاكم جدة والذي يعرفه معرفة شخصية من القسطنطينية. وكما حمل رسالتي توصية من تاجر من في القاهرة إلى أكبر نجار جدة، وأخرى من شيخ إلى كحيا المدينة، وهذا الشيخ هو كاتب أحد أكبر علماء جامع الأزهر في القاهرة. ولم يكن نتوقع الكثير من رسالة التوصية التي رودنا بها الشيخ، لكنها أعادت أكثر من الأخرى. وهذا الأخير هو من أصل تركي، وبالبحديد من الجزء الأوروبي منها، وقد سمع في موطئه وفي القسطنطينية الكثير عن تفوق الأوروبيين على المسلمين في مجال العلوم، ولم يكن بإمكانه قراءة كتاب، ولم يصادف علماء أوروبيين من قبل، فاعتاد ربهرتنا. وبالرغم من كونه مسلماً مؤمناً، ومتطيراً للغاية ومتفاحراً حيال أتباع الديانات الأخرى، إلا أنه رجل شريف وصديق وفي لغيره من الرجال. وعلمه السيد نورسكال كمية استخدام المجهر، وأعطاه معلومات عامة عن الباتات، أم أنا فعلّمه الرسم، ودلّته على توزيع الزهرة، وحلقات رسل وغيرها من الأمور التي سمع بها من قبل. وقد شهد ليالي طويلاً معي وأنا أقوم بدراساتي الفلكية. واستفدنا من وجوده إذ تمزنا على النعم العربية، واطمنا على أمور ما كنا لنعلم بها لولا. وكان هذا الشيخ قد علم الكحيا (Kichia) في جدة كمية استخدام الكرة، وكتب به يوميه ما ربح برسائله مع آخر قاعة من دون أن يعلمنا، ثم أعطاه رسالة موجهة إلى الكحيا يطلب منه الاهتمام بناء وسألت أن يعلم هذا الأخير ما أطلعناه عليه.

وقررنا تسليم الرسائل الموجهة للبشا والكحيا شخصياً، فأرسلنا خادماً يوناني إلى المدينة وهو يحمل

الرسالتين ابهوتني لتأخيرين ورجواتهما أن يجد، مرلاً نكراً، حين علما بكثرة عددنا، وعلماً منهما بأن الأوروبيين لا يستطيعون العيش كالعرب بسهولة، أعدوا عن تقديم هذه الخدمة منا. وأحسنا بسبب كثرة العدد مراراً، فلو كنا فلالاً لتمكنا من استئجار بعض العرب في فندق عام. وحين تم يجد لنا حادماً مرلاً مع رسائل التوصية التي بحملها، توخه إلى أحد مواطنيه، وهو صانع شربع مكة ويحصى بمكانة جيدة عند الباشا والكحيا، فأعظمه أن هذا الأخير على عدم بوصول. وقد طلب منه مساعدتنا على الروول إلى اليابسة، وعرض علينا منزله ليلة وأكد لنا أنه سيستأجر لنا مرلاً آخر أسعدنا هذا الخير، وفي ٣١ شربس الأول/نومبر رداً إلى الباشا، واستقبلنا الصائغ بتهديب عميق.

وسارعاً بتسليم الكحيا رسالة الشيخ، واستقبل الأول بالترحاب، وسأل عن أحوال الشيخ وعياله من الأصدقاء في القاهرة. واعتدنا بعد ذلك زيارته، وكان يطرح علينا أحياناً أسئلة حول الدين والعادات والتقاليد عند الأوروبيين، واستعدنا من الفرصة لإعطائه والحضور فكرة أفضل من تلك التي يملكونها عن بلدنا. أما فكرتهم عن الأوروبيين فشيئة بمكرت عن الصيبيين. ويعتبرون أنفسهم أكثر حكمة من الأمم الأخرى، بالرغم من أنهم لا يذكرون جهلهم للعلوم أكثر من الشعوب الأخرى. وارت الكحيا الكوكب من خلال المقراب، وكان يحلوه التحدث عن علم الفلك. ودفعه السيد فورسكال، الذي اعتاد التردد عليه أكثر من غيره، إلى إنشاء حديقة قرب منزله، خلال إقامتنا في جدة، واستفدنا بعض النباتات والشجيرات التي تنتج بلسم مكة من محيط المدينة. واستعرب العرب كيف لم يصنعوا بوصول، عساً أنهم يلاتون صعوبة في الحصول على هذا النبات.

وبعد أيام، سلمنا الباشا رسالة السيد دي عابله. وكان الباشا يحيل بحر علم الفلك. وأراد مني أن أحضر ساعتى الشمسية وأقيس ارتفاع الشمس أمامه، وطلب مني إعطائه وصفاً مفصلاً للآلة، وأحبر أحد العلماء على احتساب خط عرض جدة استناداً إلى ارتفاع الشمس الذي رافقته. وأعطيت الأفضلية لأنني على حساب الساعات الخشبية الصغيرة التي يستخدمها علماء الفلك المسلمون، وبما أن حساباتي اعتدعت قليلاً عن حسابات الشيخ، أعطيت لأصديه نتائج علماء الفلك الأوروبيين. ولا يتكلم الباشا والشيخ سوى التركية، لكنني كنت محاطاً بالترجمين، فخدمتني يوناني يتكلم التركية، مفصلاً عن بلاله مرتدين يعملون لدى الباشا، أحدهم فرنسي ولآخرين إيطاليين، لكن أياً منهم لم يكن صليحاً بمصطلحات علم الفلك، فاضطرت لشرح الأمور نكحياً بالعربية مما تطلب مني جهداً كبيراً لأنني قلما أتحدث مع العرب في مواضيع كهذه.

وررنا مراراً عدة من اليوم الأول، واستأجرنا واحداً كبيراً، يقع على البحر. في ١ تشرين الثاني، نومبر، نقلنا متاعنا إلى اليابسة، وكان الكحيا حاضراً في الميناء، وسبق في عرفة مفردة كما بعض الأوروبيون، بل جنس مع بعض الموظفين في مكان مربع تمر به كافة البصائع. وتبين لنا أن هناك من يسهل لنا أسرتنا، فلم يكتف الموظفون بمصح صناديق السجائر، بل قاموا بجمعها وبيعها بدقة، وبما أن

الكحيا مقتنع بأننا لم نقصد البلاد بهدف التجارة، وأراد مساعدتنا اكتمى الموظفون بفتح صناديقهم. ولم يقوموا بتفتيش صندوق الأدوية لشدة حاجتهم إليها؛ وبهذه الطريقة، لم يعثروا سوى على ٢٠٠ دوكا كما قد وصفتها بهذا الهدف في مكان يدر لظهور أننا لا نحمل سوى هذا القدر من المال الكافي لإقامتنا في هذه المدينة. ونحن نتعامل موظفو الجمارك العرب بأدب وصدق مع المسافرين يتوقعون الحصول على مكافأة شأنهم في ذلك شأن موظفي الجمارك في أوروبا، لكن نحصل المكافأة خفية لهؤلاء الآخرين. فلقد قام الصانع اليوناني المكلف بالاهتمام بمصاريفنا، بمكافأة موظفي جمارك جدة بحصص الجميع

ونشر خبر وصول أوروبيين، ويسمى عالم تلك بين الناس حتى وصل إلى مكة وكان أخو الشريف الحاكم قد جمع جيشاً عظيماً، وهدد بمهاجمة المدينة، فأرسل الشريف الصانع اليوسفي، الذي ذكره مراراً، يسألني ما إذا كان سيحفظ على الحكم أم سيصطر للشارل عنه لأخيه. واعتذرت عن الرد صني موصرع كهذا، متحججاً بحجتي لكيفية التنبؤ بالمستقبل، وأصفت أن الأوروبيين طوردوا علم الفلك لتحسين الملاحة، وهو الرد الذي أعطيه كتب استشاري أحدهم بصفتي عالم فلك. وترصني هذه الإجابة للمسلمين درماً لأنهم يعلمون أن الأوروبيين يقتسمون لشواطئ كبيرة بحراً، عتدوا خلالها على قياس ارتفاع الشمس. وأجاب السيد دي هس، الذي كان حاضراً حين طرح عني السؤال، أن النصر سيكون حليف من يشبه الحسن بن علي الذي يتحدر من سلالة بشرقاء كلهم. وأرسل الصانع هذا الجواب إلى مكة وأضأن أنه لا في استحسنات، وبقي الشريف في الحكم، ولعله تحبب أنه يشبه الحسن تمام انشبه وفي يوم آخر، أعلمني أحد وجهاء جدة أن ٢٠٠ دوكا سرقت منه، وتمنى علي كشف اللص، فاعتذرت قائلاً إنني أترك هذا العلم العظيم لعلماء المسلمين، من بعدد أظهر أحد كبار الشيوخ جهله للأمر فقد صفت الخدم كلهم صعباً واحداً، وصلى طويلاً، ثم وضع في هم كل منهم ورقة صغيرة، وأمرهم بابتلاعها بعد أن أكد لهم أنها لن تصير البريء وأن قصاص السوء سيحل على المذنب بعدها، تمحص هم كل منهم، واعترف أحدهم، إذ لم ينتج الورقة، بأنه سرق المال. لكن لا يسهل إحاطة لصوص المسلمين كلهم، إذ علمت من تاجر من بغداد، أن حادته لم يأبه لأي رقة، بالرغم من أن معظم الشكوك كانت تحرم حوله، وأسف التاجر على العشرة قروش التي دفعها لشيوخ أكثر من أسعه على المال الذي سرق

صه

واستاداً إلى روايات العرب. لم تتراجع مياه البحر المحيطة بشواطئ هذه البلاد أبداً أو بشكل لا يذكر، منذ تكون العالم وحتى اليوم، ويدلوك على صريح حواء قرب جدة^(٤). لكن هذا النشاط،

(٤) أما حواء هو الاسم الذي يطلقه العرب على حواء. يتصور أن ضربها يحمل آثاراً تقل في طول حواء بلغ ٤٠ ذراعاً بمال إن هذا الصريح كذا صحيحاً، ولا بد أن معبداً عظيماً قام في هذا المكان، إما لم يق منه سوى مصلى صغير أو قبعة، تقع بحسب ما يؤكدون، فرق سرة حواء مباشرة ويعتقد المسلمون أن صريح آدم موجود في جزيرة ميلان، فيما يؤكد اليهود أن عظمه مدفون في الخليل مع الآباء الأبرار. ويظهر زهران القدس أن رأسه مدفون على جبل الآلام في كنيسةهم الكبيرة

برأبي، تعرض لتعبيرات عدة، ونجد في شمال غرب المدينة، وعلى مسافة قريبة من الصريح المذكور، تلالاً عالية، تكثر فيها الأصداف ورجل المرجان المتحجرة أو المدفونة في الرمل، ويكفي أن يراها وأن يفكرها مع صخور المرجان الموجودة بكثرة لتدريجياً في هذا المكان ولا أظن أن مدينة جدة تقوم حالياً في المكان نفسه الذي قامت فيه المدينة التي تحمل الاسم نفسه والمذكورة في سيره محمد^(٥). وتتوسع جدة أكثر وأكثر نحو الغرب، أما مستوى مياه لمراً منحصص للعبادة، حتى أن اراكب الصغيرة تصطر لانتهاب المذ لتتقل البصائع إلى النهاية أو تحتل.

ولا تحافظ مياه البحر التي تعطي هذه الشواطئ على الارتفاع نفسه طوال فصول السنة، إذ ترتفع تدريجياً من شهر تشرين الثاني/نوفمبر وحتى شهر نيسان/أبريل، حين تهت الرياح الجنوبية، ثم تنحصر أثناء الأشهر الستة الأخرى، حين تهب الرياح من الشمال^(٦) ولا يظهر الفرق شاسعاً بشكل عام، لكن حين وصلت إلى جدة، رأيت المسافة بين المرفأ الكبير ومرفأ «سمر الشريعة» حافة خلال الجزر، وعندما حان موعد رجول، وجدت المياه تعطي المكان باستمرار كما تعطي المياه، حين يرتفع مسواها، سهلاً، يقع في اجنوب حارج المدينة، وبعد أن تبحر يعمل حرارة الشمس المرتفعة تترك وراءه ترسات من الملح رد على ذلك أن شواحي جدة رملية وغير صالحة للزراعة.

رسمت خارطة هذه المدينة ومحيطها على اللوحة (١٧)، لكن تجدر الإشارة إلى أنني لم أقس إلا الجزء الواقع من جهة البحر، ولم يكن بإمكانني أن أجول في المدينة كلها كما ذكرت سابقاً، لكي حددت موقع جزء من السور، وعددت من بعد خطي عربي رأته يمشي قرب هذا السور. ولم أستطع إدراج كافة الشوارع، إذ لم يكن يسمح لي بالاقتراب من الباب الواقع من جهة مكة، ونجد في هذا الحيز عدداً من الأكواخ الخشبية، المغطاة بالنقش أو بالعشب، وقد نجد بعض المنازل الحجرية المنتشرة حيث أشرب إلى وجود أكواخ قطع رصاصية لها تفسير الأرقام التي دوتها على الخارطة: (١) منزل أياشا، (٢) باب الشريف، (٣) باب الخديعة، (٤) باب مكة، (٥) مراقب قرب السرب المؤدي إلى مكة، (٦) سهر، يجمع منه الملح الذي يركبه المياه بعد تبخرها، (٧) مدائن المسيحيين، (٨) برج، تهدم كثيراً، وفيه مدافع، (٩) مرفأ السمر الخرية، ولم أسمع بسم حرية يملكها الباشا في الخليج العربي (١٠) منزل، وبالتالي المكان الذي أجريت فيه الدراسات الفلكية، (١١) الجدارك، (١٢) منزل الكحيا، (١٣) أما حوا أو صريح حواء، (١٤) بلاد عالية مغطاة بالأصداف وأحجار المرجان، (١٥) مرسى السفن القادمة من السويس والهند. إن لا نجد إلا القليل من المياه في الخليج الصغير الذي يسمى مرفأ السمر، وبما أنني عالياً ما ترددت إلى هذا المكان، لمراقبة اند وأجر، تسنى لي أن أرى كيف يصطاد العرب البط حين تظهر إحدى هذه

(٥) التاريخ العثماني المعاصر، الجزء الأول، ص ٤١.

(٦) وصف شبه الجزيرة العربية



الطيور في حياة، يتعري الواحد منهم ويعطي رأسه بالطحالب، ويعطس تحت المياه حتى يقترب من البطة التي لا تفرغ من الطحالب، ثم يمست بها من قائمها وبأحدها^(٥).

بروي في تاريخ منوك مصر، الذي كتبه ماراي (Marai) وترجمه ريسك (Reiske)، أن في العام ٩٢٠ للهجرة (١٥١٤)، أمر السلطان العوري (Sultân el Guri) بتحصين مدينة جدة، خوفاً من البرتغاليين الذين تعاطفت قوتهم حتى أنهم أرسلوا سفناً حربية إلى الخليج العربي ولا تزال هذه المدينة محاطة بسور من جهة اليابسة، لكنه متداعٍ في أكثر من مكان حتى أن المرء يمكن أن يتخطاه ويدخل المدينة أو يخرج منها ولا يغير المرفأ أكثر حصانة، لأن البضاعة محزنة كثيراً، ولا تصم سوى مدفع وحيد قديم لا يستخدم، أما اندام القبيلة الموصوعة أمام منى الباشا، في الجهة الأخرى للمدينة وقرب المرفأ، فلا تستخدم إلا رد تحية السفن وقصر الباشا غير منظم شأنه في ذلك شأن مساكن الأسباط في مقاصد السلطنة الأخرى، إذ لا يبني الواحد منهم في الحكم نفسه طويلاً، فلا يهتمون ببناء قصر عظيم لخلفائهم ويحب في اندية ولا سيم من جهة البحر - العديد من المنازل الجميلة وفنادق كبيرة ومحل مبية من حجر المرجان، وهي أحجار سهلة الاستعمال، يبرد الهواء من يابستها، مما يصحى لمسة جميلة على المنظر العام ولا يشرب السكان سوى مياه التي يجمعها العرب في خرائات كبيرة بين الجبال، ويقارونها عاً إلى المدينة على ظهور الجمال.

وترددهر في حدة التجارة، لكن هذه المدينة لا تتعدى كونها محراً للبضائع الأجنبية، إذ تصل إليها مرة في السنة السفن المحملة من السويس والهند فضلاً عن القوافل الكبيرة التي تقوم برحلة واحدة في السنة من مصر وسوريا إلى مكة وجدة، وتحمل معها كميات من البضائع الثمينة ولم أسمع في المدينة ببضائع محبة تصدر إلى الخارج باستثناء زور العائف، الذي يقف منه الإنكليز وحدهم إلى الهند حوالي ٦٠٠ باقة، وينبع وزن الواحدة ٨٠٠ ليبرة ويصدر التجار أيضاً بلسم مكة، والمسلك والرياء، لكن البلسم يتبع في صوحي المدينة، وبأني اسك والرياء على الأرجح من الخبشة وتشترى جدة ومدينة مكة ومدينة المقدستان الكثير من الحنطة، والأرز، والعدس، والسكر، وشراب السكر، والعسل والفريت وغيرها من مصر، حتى أن سكان مكة اعتادوا القول إنه إن بادت البلاد المجاورة، باستثناء مصر، لن تصاب شبه الجزيرة العربية بحصار كبير، وإن العالم كله، من دون مصر، لن ينفعها وترؤد القاهرة جدة بالكثير من الصبغة الصفراء أو الزعفران المريف (من رهرة تستخدم للصبغ باللون الأحمر)، وبالشباك العربية، وحيوط الذهب والفضة، وملح الشادر، والبارود، وتبع سوريا الخ أما بالنسبة إلى البضائع الأوروبية،

(٥) سمع بوكوك في مصر الملي بهذه الطريقة لصيد البطة، لكن بدت له الزوجة مختلفة وصف الشرق، الجزء الأول، الكذب الرابع، الفصل التاسع. لم يصدق التعاد الفرنسيون الإنكليزي الذي روى أن الصينيين يصطادون هذه الطريدة الطير البرية الموسومة الصحافية (Journal Encyclop.)، شهاب/فبراير ٧٧٣ من ٥٢٣. ولا أدعي أنهم سيصدفوني أكثر من غيره، لكن حين حاولت تثاكد من طريقة صيد البطة التي يبدو غير معقولة، يمكنني أن أؤكد أنني كنت شاهد عيان مرتين.

التي تصنّف جريئاً، ضرودها مصر بالجوخ العرسي، وبالورق، وبالقصدير، وبالرصاص، وبالحديد، وبصفائح العولاد، وبالرقيق، وبالإبر، وبالسوف، وبالسكاكين، وبالزجاجيات الملوّنة ولأساور التي تستخدمها النساء من عامة الشعب للزينة. ويتنمّل سويّاً من جده إلى اليمن والهند عدد كبير من دوقيات السديّة، والقوّة الألمانية. كما تموّن جدة القاهرة بمشجّات اليوس من بن وأوراق حنة فقط، عند تمزيقها الهند بالشباك الباعمة والأقمشة الثمينة، والأحجار الكريمة، واللؤلؤ، والعطور المختلفة، والبهارات وغيرها من البضائع القيّمة. وينبغي دفع الرسوم لجدة على هذه البضائع إن جاءت من مصر، أو اليمن أو الهند، وتبلغ هذه الرسوم عشرة بالمئة من قيمتها التي تقوم الجمارك بحدها بمصطّر التجار أحياناً إلى دفع ١٢ إلى ١٥ بالمئة. ويتمنّع الإنكليز - وهم الوحيدون بين الأمم الأوروبيّة الذين يقصدون جدة اليوم - بالأفضية على التجار الهنود المسلمين، وعلى رعيا السلطان، فلا يدفعون سوى ٨٪ من قيمة البضاعة، ولا يدفعونها نقداً بل يستمضون عن أدل بتقديم البضائع أما بالنسيئة لثلث التي تناع بالورق، كالسكر، والبهارات، إلخ فيصطرون إلى دفع ٨ / نقداً استناداً إلى القيمة التي تحددها الجمارك.

ويعتقد مايه (Mallat) أن قيام تجارة في الهند، تمرّ عبر مصر والخليج العربي تفيد الفرنسيين، لكن إن اضطروا إلى دفع الرسوم، يُحسّس ألا يربحوا الكثير من المال، ولا نصمّن أن يُسمح لهم بعبور مرفأ جدة ومنذ سنوات قليلة، لم يتمكن مركب من السراء (Surat)؛ دفعته الرياح الجنوبية بقوة نحو الشمال، من الوصول إلى هذا المرفأ، فتوجه إلى السويس ومنها عاد إلى الهند. وفي السنة التالية، أرغم التجار على دفع الرسوم عن هذه الشحنة، ورجّ القبطان، وهو مسنم من الهند، في السحن حتى دفعت كفايته ولم يسمح أحد الأوروبيين على الأرجح إبدأ بالتوجه من جدة إلى السويس، وسمعت أن تجاراً من جدة عرضوا حمولة ما على قبطان إنكليزي - ولا أشئت أن التجار المسلمين يفضلون استخدام السفن الأوروبية - لكن حاول ربابة القاهرة، وهم من كبار التجار، وضع المراقيل في طريقهم كي لا يفقدوا أرباحهم. ويمكنهم وبسهولة أن يسيبوا مشاكل عدة للربابة الأوروبيين الذين يقصدون السويس. وقد أمضى تاجر إنكليزي سنوات عدة في هذا العمل، لكن هذه الأمة تسعيد أكثر حاليّاً من عودة رعاياها وسمها سويّاً.

ويتفاسم باشا المدينة وشريف مكة مردود جمارك حده، بهناء، يبقى كخيا الباشا ومدوب الشريف، الذي يحمل لقب وزير، يومياً في الجمارك عند وصول السفن وقبيل رحيلها. ولا يبدو أن كخيا جدة حاصص للبش فقط، كما هو الحال في المقاطعات التركية الأخرى، إذ يبقى في منصبه لسنوات عدة في حين يتمّ تعيين الباشا تقريباً سنوياً، عندما أن الباشا، حين كنا في جده، أرسل موطعاً آخر إلى الجمارك لأن كخيا رفض تفتيش البضائع بالمصرمة التي يطلبها، لكنه استمر في تأدية المهام الأخرى نفسها إليه ويخصص رعيا الشريف، المقيمين في جدة، لسلطة الوزير الذي ينبغي أن يكون من إحدى العائلات التي بحق لها لمطالبة بمهام السيادة في مكة أو بلقب الشريف. وإن استدعي الشريف، أي المولود في إحدى عائلات الحجار الأولى النبيلة، للمشول أمام القصد، يرفض المشول أمام من أدنى منه من حيث المستوى الاجتماعي.

وتفتقر الحكومة دوماً للمال أو على الأصح، مما أن المسلمين لا يحسبون استخدام الأموال العامة، لا يمي منها إلا القليل لمصاريف الدولة، وغالباً ما يضطر تجار الهند ومصر إلى دفع مبالغ مادية معينة مسبقاً بحمارك جدة. على أن تحتسب لهم في رحلتهم القادمة وحل الأمر نفسه من الإنكشاريين الذين يترددون على هذا مرافاً، لكنهم رفضوا حتى اليوم دفع المال مسبقاً لحمارك أو غيرها، وقد أوردت مثلاً على ذلك في وصفي لشبه الجزيرة العربية.

ولقد كنت قد نشرت سابقاً إلى أن المركب الذي عودنا السريس على متنه كان يمتج بالتجار الذين يدعون أنهم انكشاريون إن تجار القاهرة والمدن التركية الأخرى يلتحقون بالحيش كانكشاريين، للتأكد من أن الحكومة لن تستولي على بضائعهم أو لن تعاقبهم بطريقة ما، لأن من يلتحق كانكشاري وإن كان لا يقص أجر ولا يتخدم في مكان ما، وإن يدرس منه مدنية، يسمح بامتيازات عدة مرتبطة بهذا الفرج. ولا يخضع للمحاكمة المدنية إن لم يفرج الذي يحسبه أو يعاقبه. يقال إن الانكشاري الذي يسافر في البلاد الخاصة للسلطان، لا يدفع رسماً حركياً على صندوق وقته وهذا ما يعاد بالعائلة عليه كتاجر، وقد عرفت تجاراً ورياسة وبحارة من الانكشاريين ويرددون الرقي الخاص بهم، لكنهم لا يتمتعون بالمزايا نفسها التي يتمتع بها رعيا السلطان، والتحقرو على الأرحح بهذا الفرج ليكتسبوا مكانة بين الأتراك في جدة والبصرة، ويحصلوا على مساعدة رفاقهم عند الحاجة وحين كما في جدة، حاول التجار الانكشاريون عصيان الكحيا واورير عباءاً لأنهم، برأيهم، بأمران بتفتيش متاعهم تفتيشاً دقيقاً، ثم دفع اليث إلى إرسال عدد كبير من الجند مرافقة الكحيا إلى الحمارك يومياً، كما حصر الورير ومعه عدد من جد الشريف، فاصهر الانكشاريون إلى الانصياع حتى انتهاء عملية تفتيش أعرضهم. وبعد رحيلنا بمدة قصيرة، اجتمع الانكشاريون مجدداً وتسليحوا، لكن ما إن علم الباشا بالأمر حتى أمر بتصويب المدفع نحو المنزل الذي يجتمع فيه رعاء هذه الحركة، فتمرق الجميع من دون القيام بأية محاولة أخرى.

ولا تسك أية عملة في الحجاز، وتستخدم في البلاد النقود المستخدمة في القسطنطينية أو في القاهرة خصوصاً، كالقطع النقدية الذهبية التي تأتي من البندقية، وتداول في القاهرة والقسطنطينية أو الدرهم، ونصف الدرهم، وربع الدرهم الألفي، أو البريرة في القاهرة والقسطنطينية والتي تسمى عدا (Fadda). لكن يتم العدا في جدة بعملة وهمية وهي الفروش والديواني (Diwani) هيساري الدرهم ٩٢ برير في جدة في حين يساوي ٨٥ في القاهرة، وتعادل أربع برير من الصهرة ٥ ديونيات. كما يعادل ٤٠ ديوي ترشاً في جدة، وبالتالي يسوي الدرهم الواحد فرشين و٣٥ ديوي. وتعادل الديواني ٢٠ جديداً، وهي قطع صغيرة من النحاس لا تحمل أية كتابات أو أية علامة ويفتقر لتجار الإنكليز أن ٢٥٠ قرشاً من حده تعادل ١٠٠ درهم أسباني.



وقد يبدو عربياً للقارىء، أن يعادل الدرهم ٨٥ جيرة في القاهرة و٩٢ في جدة، في حين أن العملة الصغيرة في البلاد الأخرى تندر في المدن البعيدة أكثر من المكان الذي نسلت فيه. ويعود الأمر برأى إلى أعداد انحجاج الكبيرة التي تتوجه إلى مكة، محتلة بالكمية الكبيرة من القطع النقدية الصغيرة لحاجاتها اليومية وللنصيق بها. والصدقة فرص رئيسي في الديانة الإسلامية، ويذرمه لمؤسوس ولا سيمد حين يتوجهون إلى مكة وتتعل القطع النقدية الكبيرة معظمها إلى اليمن والهند، وما أن يعادده القطع الصغيرة إلى مصر أمر عسير تصبح أقل قيمة في أعمار سها في الأقاليم التركية الأخرى. ولا أظن أن يدوب هذه القطع النقدية الصغيرة أمر يعود بالعائلة، لأن قيمة النقد الأصلية في الشرق كما في أوروبا أدنى من سعره العادي.

وبما أن محب في أوروبا رؤيه لباس الأمم العربية، أدرجت بعض الرسومات التي رسمها لسيد بورنارد في جدة. وتصور اللوحة (LVI) صياداً يحمل الأسماك التي اصطادها إلى السوق. ولا يرتدي بدو هذه البلاد سوى الإحرام ورتاراً. أما هذا الصياد وعامة الشعب في جدة فلا يلبسون الإحرام بل يكتفون بقميص (حلباب) واسعة ورتار حول الخصر يذسون فيه سكيناً صغيراً يقطعون به أعناق لأسماك ما بين اصطادوها. ويتبع لأحيان في جدة طريقة الأراك في القاهرة وفي القسطنطينية في اللباس، باستثناء انقماش هو أرق لأنهم يعيشون في مناخ حار. تحمل اللوحة (LVII) صورة امرأة تبيع الخبز، وترتدي الثياب نفسها كنساء العامة في مصر أي قميص واسعة من دون رتار (حلباب)، وتضع على رأسها حجاباً، وأمام وجهها حماراً صغيراً وتحمل في يدها قطعة من أوراق الخيل المشوكة (بعاد الدباب، وتجس على حصيرة من قش عرضت عليها حبرها، أما المظلة الكبيرة التي تقيها من الشمس فمبصرة بحصيرة.

الرحلة من جدة إلى مكة

وعُلب منا التوجه في أسرع وقت ممكن إلى مملكة اليمن، وألاً نتوقف إلا في حالة الضرورة، ولم نبقنا في جدة سوى الرياح الشمالية التي منعت مراكب اليمن المحملة بالبن من أن تسير نحو عالية الخليج العربي، وهي الطريقة الوحيدة لمعادرة جدة. وفي بداية شهر كانون الأول/ديسمبر، وصلت بعض هذه السفن، وكان بينها سفينة قادمة من عُمان، فتصحبنا الأصدقاء بالسفر على متنها، ويطلق عليها اسم طراد (Tarad). فسارعنا لرؤيتها، ونحن نتوقع أن نجد لها كيرة ومريجة، ففوجئنا حين أشاروا إلى مركب أشبه بعربة مكشوفة منه بسفينة، إذ لا يمتد طولها سبعمائة قامة وعرضه قاتنين ونصف القامة، ويعتمر إلى سطح، كما لم أر فيه أي مسمار، بل أحشاب رقيقة وكأها سحابة يعضها، وقد فرغت صواريه ووضع رأساً لإصلاح هيكله. وكان الرئيس يرتدي زي عامة الشعب من العرب، أي إنه شبه عار، تحيط برديه قطعة قماش، يعلوها حرام، يتدلى منه خصر معكوف (راجعوا الصورة ١٠ على اللوحة (XVI) في وصف شبه الجزيرة العربية). أما البحارة فمن العبيد، مستخدم قسم منهم من أمريقي ويتميز بشعره الغليظة ونقاه الأفطس، والقسم الآخر من شواطئ مالبار حيث يشبه السود الأوروبيين تقريباً، أما بشرتهم فليست سوداء ولماعة كشرة الأفريقيين. كانوا يهتمرون قلنسوة صغيرة أو عمامة، ويحملون حبلًا حول خصرهم، ويصنعون قطعة من القماش بعرض اليد بين أصابعهم لستر عوارثهم. ولم يشأ أي منا تسليم أمره لهؤلاء البحارة والمركبهم، لكن كافة أصدقائنا نصحبونا بالسفر مع هذا الرئيس لا مع رئيس من اليمن، لأن أشد سفينة ستكون من الحصر، ويعرف عنهم أنهم بحارة غير ماهرين، يساء الرابطة من مسقط ومراي، عمال الأحرى يستخدمون أشد كالأوروبيين والأتراك واليهود، وهم بحارة ماهرون.

وتأكدنا من أن إنكثيراً من الهند سيصحبون إلى الحجاز، وارتأينا أننا بحاجة نعربهم لدخول البلاد، فقررنا التوجه إليها مباشرة من جدة. وكما لا نعرف الحية والحديدية رحلنا المرفأ الحاضمان لسيطرة الإمام، وجن ما كنا نعرفه أنه علينا اجتياز مسافة كبيرة برًا للوصول إلى الحجاز وهي مسافة أقلقت لأن رأينا بحرب اليمن لم يكن أبطل من رأينا يندر مصر والحجاز. وعلمنا أن الرئيس سيتوجه إلى الحديدية لتحميل كمية من البن لمسطه، وأكثروا لنا أن اجتياز القسم الجنوبي للخليج العربي، في هذا الموسم، يتطلب وقتاً طويلاً بسبب الرياح العاكسة. وصحبنا أصدقائنا بالتزول في الخية، مصطفين أد الطرفات أمة في دول الإمام لذا نيكسا الوصول في وقت قصير إلى الحجاز، وبالتالي، اتفعا مع الرئيس على إصالح حتى الحديدية، ورؤدنا كل



من الكرخيا بوسائل توصية لأصحاب الدولة في حية والجدة والحديدية والتجبر لتجار آخرين في المدينتين المذكورتين، لأنهم يعرفون أن الرئيس مبنوقف في حية لأعماله الخاصة وإن لم نقرر نحن النزول من المركب في هذه المدينة. وأمر اليشا بترك أمتعتنا نحر من دون تفتيش، وهكذا صعدنا على متن السفينة في ١٣ كانون الأول/ديسمبر.

وبالرغم من أننا استأجرنا المركب بأكلمه، وجدناه محتلًا بالبضائع، واعتذر الرئيس معللاً بأن مركبه الخفيف لو حبل أمتعتنا فقط لما تمكن من الإبحار. وكانت أمتعتنا وهي عبارة عن قاعدة مربعة ومستطيلة، محشوة بحبال من قش، وقد علقنا فوق الصاديق والردم، فكانت لنا مجلساً خلال النهار، ومكاناً للنوم ليلاً. المراء عندما يحلّ الليل. ولا ينبغي أن يعكر المزاج بالشره على هذا المركب، فهو مليء بالبضائع، باستثناء رابطة صغيرة في مقدمة السفينة خصصت لعدو طعاما ولتحضير خبز العرب. ومد البيلة الأولى، فقد طيبتنا ساعته بين الألواح الخشبية، والخمير التي مدت مسبقاً على هيكل المركب كي لا تتبلل البضائع إذا ما بلغت المياه المركب، وفقدنا الأمل برؤيتها، قبل إنزال البضائع كلها، وهذا ما لن يحصل في وقت قريب. وظن السيد كرامر أن ساعته فقدت، لأن أنياه التي تتسرب عبر الألواح الخشبية ستعطلها، إنما نحن نزل في حية وجدنا بحالة جيدة جداً، لا بد أن هذه المركب لا تسرب المياه بعكس ما يبدو للأوروبي للرحلة الأولى.

ولم نزل إلا القليل من القرى، واندن بين السويس وجدة، وبين هذه المدينة واليمن، نكن بما أن البعض قد يهتم بمعرفة أسماء الأماكن عبر المسكونة في هذه البلاد والجهولة في أوروبا، سأمتم في إعداد أسماء الجزر والراسي التي نراها خلال رحلتنا كما تقال لي. ولا تضاهي المرافئ على هذه الطريق، إرفاء الممتدة بين السويس وجدة، لأن كثرة مرسى تطلق على كافة الأماكن التي يمكن لمركبنا الصغير أن يرسو فيها. وكان الرئيس شريفاً من هذه الناحية، لكن القبطان وهو من المدينة يرميها بخير معرفة وهو الذي زودني بأسماء الأماكن التي سترد لاحقاً، وكان مهتماً للغاية معي، فلا أضلّه أعطاني أسماء خطاً لعينة في نفسه.

وفي ١٤ كانون الأول/ديسمبر من العام ١٧٦٢، أبحرنا والرياح مواتية، وفي اليوم نفسه رأينا أنبي سعد، وهي أكبر الجزر الأربع قرب جدة، ثم رأس العلم، وجبل الهنداء (Dajābbel Hadda) ورأس أسود (Rās Aswad). ونجد قبالة هذا الرأس الأخير، وعلى الشاطئ الغربي للخليج العربي، رأساً يدعى رأس عيود (Rās Abūd). وإلى الجنوب، دلّني القبطان على مرتأتين صغيرتين على شاطئ شبه الجزيرة وهما سرورم (Sarūm)، وملك سرورم (Malek Sarūm) أو صعدة (Sāade). وعند المساء، وسرنا قرب عيدان (Ghedān)، ويقع هذا المرسى في الجنوب، على بعد حوالي ١٠ أميال من جدة، إذ تفقد المسافة بين هذين المكانين يومين سفر برّاً. ولم نزل أرسف مرجان بالرغم من أننا كنا على بعد ميل ونصف من الشاطئ، لكن يدعون أن هذه الأرصفة تكثر في العرب، وأن أحطرها هو المسمى مسماري حيث اعتاد فادة السمن الأوروبية، المنجهاة إلى جدة لتحمّل قبطان لا جياره.

في ١٥ كانون الأول ديسمبر، وقيل بروع الشمس، انطلق معدي، ورأينا في الصباح، على شاطئ شبه الجزيرة العربية، جبلاً شاهقاً، يحمل اسم عمر كبير (Amer Kbir)، وعند الظهر، وصد حط عرص ٢٠°، ٢٨°، وكان رأس محرم إلى الجنوب الشرقي، على بعد ٤/٥ الميل، وسنصح بالنائي أنه يقع على نخط عرص ٢٠°، ٢٥°. وعند المساء، اجترنا مرافئ، مرشد (Marchâd) وأشرا (Oschera) أو كشر (Kuschera)، لرسو قرب مقام (Sumâr) ويقع جبل حاذم (Haddem) على مقربة منها ويمتد الشاطئ من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وفي ذاك اليوم، رأينا بعض الأسماك الطائفة التي يطلق عليها العرب اسم جراد البحر، لكنها لا تكاد ترتفع من الماء حتى تعود وتمطر عليها.

في ١٦ كانون الأول ديسمبر، هبت رياح جوية، وعند الظهر، كنا على خط عرص ٢٠°، ٤°، وكانت جزيرة عجلة (Abellât) إلى الجنوب، على بعد ميل وربع منا، أي إنها تقع على خط عرص ١٩°، ٥٩°. وكان مرسى إبراهيم إلى الشمال الشرقي، على بعد ميل ونصف أي على خط عرص ٢٠°، ٨°. وبعد العشاء، مررت أمام فارسي (Karsi)، ثم رسونا قرب رفة (Rakka) في مياه بلغ عمقها ٣ أذرع ولاحظت يومها أن الشاطئ يمتد نحو الجنوب الشرقي.

في ١٧ كانون الأول/ديسمبر ظهراً، أصبحنا على ارتفاع ١٩°، ٥٠°، وكان بسر جلاحي (Bender Dsjeladsje) إلى الشمال الشرقي، ورأس المسكر إلى الشرق ونجد من هنا وحتى القعدة (Ghinfude) وجزيرة السبايا (Sabaia)، العديد من الجزر الصغيرة البعيدة عن الشاطئ، ويشكل درور، في بعض الأماكن، بين هذه الجزر، خطراً بمرأ لكثرة أرضه مرجان يحيط به، ويمتد شاطئ شبه الجزيرة العربية في هذا المحيط نحو الجنوب والجنوب الغربي، واشتد الهواء بعد العشاء، فاضطرب ورسو قرب جزيرة صغيرة لم أعرف اسمها.

وأبحرنا مجدداً في ١٨ كانون الأول/ديسمبر صباحاً، وبعد ساعات قليلة رأينا إلى الغرب منا، وعلى جزيرة سري (Serene) جبلاً شاهقاً، وتعتبر هذه الجزيرة من أكبر الجزر من محيط رأس المسكر، وفيها مرسى جيد، وجاء كتاب الجغرافيا، الطفس ٢، ص ٥١، على ذكر حصص، يسمى سري، في هذا المحيط، على بعد ٥ أيام من حالي، ولعله على هذه الجزيرة أو قبالتها على أيابسة وعند الظهر، كنا على خط عرض ١٩°، ٣٤°، وكانت جزيرة الظهر (Addâhhr) إلى الجنوب ماء وجزيرة العرب إلى الشمال الشرقي، ورأس كميل (Râs Kefil) إلى الغرب، فيما بسر دجي (Bender Dodsja) إلى الشرق ويمتد الشاطئ في هذه الناحية إلى الجنوب والجنوب الشرقي. وبعد الظهر، رسونا قرب جزيرة العرب الصغيرة حيث وجدنا الكثير من حطب التندة.

وفي ١٩ كانون الأول/ديسمبر، عاكستنا الرياح للعدة، فاضطربا إلى الرسو ولم تكن الساعة قد عدت العاشرة. ثم أبحرنا مجدداً قبل الظهر بقليل، وتمكنت من تحديد ارتفاع القطب ١٩°، ٢١°،

بصعوبة، لكن الرياح كانت عاصفة، وحركة مركبتنا الصغيرة قوية وكانت جزيرة فراء (Fara) على بعد ٤/٣ الميل منا إلى الجنوب الغربي، أي إنها تقع على خط عرض ١٩°، ١٩'. وبعد الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر، اضطررنا إلى إنزال المرساة قرب جزيرة صغيرة بسبب الرياح المعاكسة، وهذا دليل على أن مركبتنا أقفلت من مراكب اليمن التي لا يمكنها أن تغادر المرفأ إذا ما هبت رياح خصيفة معاكسة بسبب أشرعتها المصنوعة من الخصر. ورأينا خلال هذه الرحلة العديد من المراكب الصغيرة المحملة بالبن والقادمة من اليمن إلى جدة، ولم تكن هذه المراكب تستقل في قوافل إنما منفردة، مما يدل على أن العرب لا يحافون من غيرهم من العرب مثل الأتراك.

وأبحرنا في ٢٠ كانون الأول/ديسمبر نحو الجنوب خلال ساعتين ونصف، ثم لساعة ونصف نحو الشرق، ووصلنا مرسى سيعاً يسمى ساروم الكشم (Sarūm el Kāchmo) ويقع على خط عرض ١٩°، ١٣'. وأمر الرئيس بحلب ثلثه التي وجدناها غير صالحة للشرب وبقى من هذا المكان مدينة القنفذة (Ghūnfude) الواقعة في الجنوب الشرقي. لكن تكثر أرمصة المرجان على شواطئ هذه الناحية، فاضطررنا إلى التوجه نحو الجنوب وإلى الدوران حول جزيرة صغيرة بدخول المرفأ بمركبتنا الصغيرة، بعد أن أبحرنا في ٢١ من أشهر نفسه قبل بزوغ الشمس رسوماً بين الجزيرة المذكورة والمدينة على ارتفاع ١٩°، ٧'.

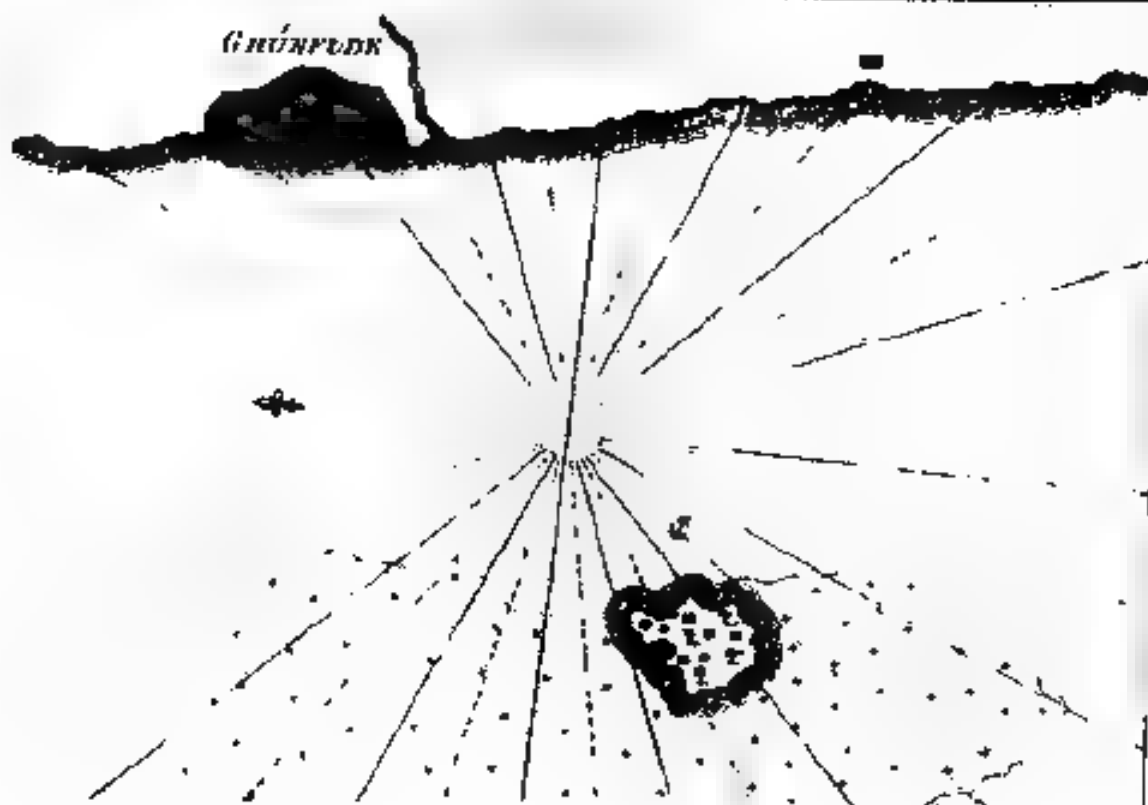
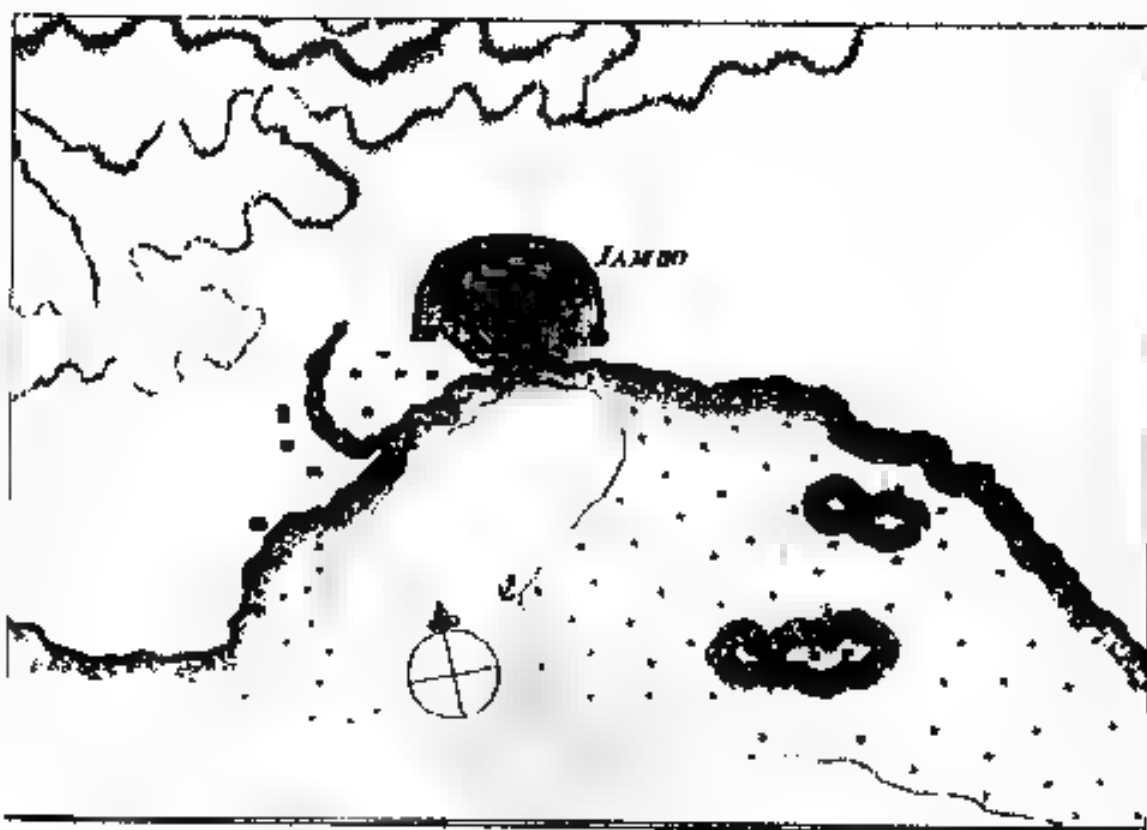
والقنفذة مدينة كبيرة، لكنها مبنية البناء، معظم المنازل لا تتعدى كوتها كوتها في لغة الأوروبيين وتتميز المدينة ببهاها المذبة وبمبها لأخرى. وتسيطر السفن الآتية من اليمن، والمحملة بالبن، إلى دفع رسوم تبلغ قيمتها، إن لم أكن مخطئاً، بالثلاثة لكل حمولة، وتحصل بالتبادل على إصصال، وفي طريق العودة، يسمح بها بآشور، لكن إذا ما رست، تلزم بدفع ريالين نقداً، أو هذا على الأقل ما حله ما من الرئيس، بحجة أنه سيضطر لدفع هذا المبلغ إذا ما دخل المرفأ. ويخضع حاكم القنفذة لشريف مكة وحلفاءه وليس لسلطان القسطنطينية أية سلطة عليه. ويقع في هذه الجزيرة الصغيرة التي ذكرتها، لكنه ينزل إلى المدينة يومياً ليتواجد في الجمارك. ورسمت موقع هذه المدينة التقريبي على اللوحة (LVIII)، ولم أر ما يشير إلى اسمها، سوى فوج حرس في جنوب المدينة، عند شاطئ البحر، وبعض المدافع على الجزيرة، قرب برج صغير يسمى حصن.

في ٢٢ كانون الأول/ديسمبر، أبحرنا قبل طلوع الشمس، وشاهدت على بعد ميلين، إلى الجنوب من القنفذة، جزيرتين صغيرتين يطلق عليهما اسم مدعة وجيس (Fadāha) (Dsjaḥis) وعند الظهر، كنا على خط عرض ١٨°، ٥٤'، وكان رصيف المرجان الكبير المسمى لينده (Lindāh) أو أنداه (Andāh) على بعد ميل إلى الجنوب الشرقي، فيقع بالتالي على خط العرض ١٨°، ٥٠'، وبعد الظهر، رأينا رصيفاً مرجانياً آخر. ومررنا أمام مرسى يسمى أبي كلب (Abu Kālb)، ثم رسوماً على مقربة منه، قرب رأس حالي (Rās Hālī). وأمضيت الليل في قياس ارتفاع بعض النجوم، لكن الضلمة، والأفق الصافي ثم

يكناسي من قياس الارتفاع اشتري، وبم استطع بالدنه اللارمه. لكن هذه الدراسة، سمحت لي بتحديد موقع رأس حالي على خط العرض ١٨°، ٣٦'. وعند المصب، رأينا جبل ضئيلاً (Sabia)، على الجزيرة التي تحمل الاسم نفسه، وذلك إلى الغرب، وعلى مسافة بعيدة من اليابسة على مقربة من رأس حالي، على حدود الحجر كما كانت في أيام أبي القدر. وبمر الإمداد الصغيرة، الواقعة إلى الجنوب من حالي، جزءاً من مملكة اليمن.

وفي ٢٣ صباحاً، وفي الساعة المعتادة، أبحرنا لكن الرياح عاكستنا وعند الظهر، كنا على خط عرض ١٨°، ٢٠. وكان رأس يشوف (Yachasuf) على بعد حوالي ميل إلى الجنوب وخطوي الشرقي، وبالتالي على خط عرض ١٨°، ٣١'. ويمتد الشاطئ تقريباً من الشمال إلى الجنوب، ومررنا في ذلك اليوم فوق رصيف مرجاني، في مياه بلغ عمقها ثلاثة أذرع. وبجد إلى الغرب، بحسب ما قلنا القبطان، جزيرة كبيرة تحمل اسم ميركت (Meerket)، وعند المساء، رسوا على خط عرض ١٨°، ٢٠، قرب صحب الثعالب (Fedaj el Sjalbe)، على مسافة بعده من اليابسة وتتميز أرضها المرجان في هذا المحيط بحجمها الكبير وارتفاعها مما اضطروا إلى استخدام مراكب الإنقاذ الصغيرة، والقيام بمحاولات عدة للوصول إلى الشاطئ، وحين تمكنا من ذلك أخيراً، مررنا في مياه عميقة للغاية مرات عدة بين الوصول إلى بعض خيام العرب.

ويخصص العرب، الذين يقيمون بين حالي وعطود (Attoud) - وهي حدود شريف أبي عريش - لشيوخهم مستقلين، ويتبعون ديانة أخرى غير الإسلام (راحمو وصف شبه الجزيرة العربية) ويدعي البعض أنهم يحيون لباس المسافرين كثيراً، لأنهم يجدونه أفضل مما يلبسونه، ويقال عنهم إنهم لا يقتلون امرأة لا يقدمهم، شأنهم في ذلك شأن النمر كدرة وأرديت والسيد فورسكال أبسط ثياب أي إنسان قبيحاً وأماماً كالذي يلبسه العرب، وسروالاً، فيما عطي أفراد طاقم المركب، الذين لم يصادوا أحد اللباس، أردانهم ورؤوسهم بأقبح القماش، وركب إلى اليابسة، عزلاً كي لا يفتنوا من الأعداء. ويصل شعرهم إلى أكتافهم، وهذا ما لم نسمع به من قبل، ويصنعون حلاً حول رؤوسهم بدلاً من العمامة، ويعتمر بعض منهم نوعاً من القلنسوة مصنوعة من أوراق الخيش الخضراء المتشابكة، ولا يرتدون سوى قطعة قماش يلقونها على أردانهم، كما يحمل كل منهم رمحاً في يده وبعد السلام، أهدانا من البحارة رماح العرب، وكانهم يريدان شيئاً مريداً، وأراد رئيسنا الحصول على رمح الأكبر سناً، فاستنتج العربي أن رتب به، سلم رمحه للرئيس، مؤكداً لنا في مأموريتهم، ورموا جميعاً رماحهم أرضاً لتأكيد ذلك. وبما أننا رسونا بهدف شراء المؤن، رفقنا العرب إلى خيامهم القريبة، وحين دوننا منها، لاقت امرأتان، وقبنا يد الشيخ باحترام بالغ، فردت بتقبيل رأسيهما. ولم يكن وجههما معطياً، وقد رسمنا عييهما ورمشيهما بالكحل، المصنوع من الرصاص، ورينا جييهما، وحدودهما، ودهنيهما بفروش سوداء



وصبت هاتان الحساوتان ما الكحل واحدة لزيادة محاسنها، وتُسَمَّى لأن لم يفكر بحمل هدايا كهده من جدة للحبس العربي الجميل. ويدل أن هؤلاء العرب متحضرين نوعاً ما، بالرغم من أنهم ينسكمون في الصحراء، ولا يتعاملون مع سكان المدن. فقدسوا لنا الحليب الذي يحفظونه في جلد الماعز، والريسة التي تصنع في جلود الماعز، وتخزن السمساء بالرغم من أنه أنصس ما بحبوس واشترها بعض المؤن، لكن العرب اضطروا إلى الصمود على متن المركب لقيض المال وقد وافقوا على ذلك دون صعوبة تذكر.

في ٢٤ صباحاً، أبحرنا ولرياح شمالية شرقية، ومررنا قرب مرفأ صغير يسمى بهود (Nhūd) وعد الظهر، كما على خط عرض ١٨°، ٤' ، وكانت ظهائر (Dnabân) إلى الشرق، والوشوم إلى الجنوب الشرقي، لكنهما بعيدتان، ويمتد شاطئ شبه الجزيرة العربية تقريباً نحو الجنوب والجنوب لشرقي. وعد الغيب، رسوا بين كرميل (Kolūmbel) واليابسة، وكرميل جبل صغير في البحر كان فيه مصبى بركناً، على ما يدعي العرب، ربما جعل هذه الجزيرة بصيرة عميرة هو أن اضطروا لإعطاء القبطان بعض المال ولم أتمكن من تحسبه ارتفاع القطب إلا سحديد ارتفاع المسري، وبالتالي كما على خط عرض ١٧°، ٥٧ ، قرب كرميل وقيل له أنه لا يوجد بحر أخرى بين هذه الجزيرة وجزيرة فران (Firān) إنما العديد من أرصفة المرجان.

وفي ٢٥ ظهر، كما على خط عرض ١٧°، ٣٩' ، وكان جبل عطور والمرسى الذي يحمل الاسم نفسه إلى الجنوب الشرقي، استناداً إلى أقوال قبطنا، لكن على مسافة بعيدة، وعد السماء، رسوا على مسافة كبيرة من اليابسة، إلى العرب والجنوب العربي من جبل عطوي (Attue) أو عطود أي على الحدود الشمالية لإمارة أبي عريش ومد عادرنا جدة، ثم نزلت جزء صغير من هذه السلسلة الجبلية التي تقطع شبه الجزيرة العربية بالطول، وفي هذا اليوم سم نر منها شيئاً لكثرة ما تبعدنا عنها.

وفي ٢٦، رأينا من بعيد مرسى شط البقر (Chab el Bakkar)، ومرسى حمير (Hāmerajn). وعد الظهر، كما على خط عرض ١٧°، ٢٢' ، رسم نزل من حولنا جبلاً، أو مرسى، أو جزيرة وعد السماء، رسوا قرب شعب الكبير (Schāb el Kabir)، وكانت جزيرة فرسان التي يكثُر فيها صيد اللؤلؤ إلى الجنوب العربي منا وتبين لي أن ارتفاع شعب الكبير هو ١٧°، ١٢' ، استناداً إلى ارتفاع رُحل الذي نسته بدقه، ولاحظت في ذلك اليوم أن الشاطئ يمتد نحو الجنوب الشرقي والجنوب.

وفي ٢٧ صباحاً، مررنا أمام جزيرة الدردي (Djesiret ed Drédsi)، ومرسى (Mersa)، انظرنا (Turfa)، ورأس جيران (Rās Djesān)، ويبرر هذا الرأر الأخير كثيراً في البحر، ولا ينبغي حمله بالبحر أو بلسان الأرض الذي تقوم عليه مدينة جيران. وعد الظهر، أبحرنا في عرض البحر، فلم نعد نرى اليابسة مما منعني من تحديد موقع أي مكان على الارتفاع الذي كان عليه أي على ارتفاع ١٦°، ٥٦ . وعد الظهر، مررنا قرب جزيرة أبي شريعة (Abu Schureija)، ودركة (Duraka) وعد الربرة

والنصف كنا بين جريرتي هابور (Habôr) وجيزان (Djesân)، لكننا لم نرسُ لأن شريف هذه البلاد مشهور بسوء استقباله للأجانب وبرعايا إمام اليمن، لذا لا يمكن أن أقول سوى أن مدينة جيزان تقع على لسان أرض وغرب جبل متقدم في البحر وعلى بعد حوالي ميل إلى الجنوب من جيزان، حددت ارتفاعا على ١٦°، ٣٩' ، اسناداً إلى ارتفاع رُحل، وعلى بعد ربع ميل نحو الجنوب، أصبح ارتفاعنا ١٦°، ٤٠' ، استناداً إلى ارتفاع المشتري. ومعني الطلعة من القيام بهاتين الدراستين بالدقة اللازمة، لكن إذا ما انطلقنا من الوسط، تقع مدينة جيزان على خط عرض ١٦°، ٤٤' وأبحرنا صوان الليل، لأن الرياح كانت تدور حول الشفق، وبالتالي كانت مؤنية لنا أكثر منها خلال النهار حيث اعتصمت ناعكنا. في ٢٨ ظهر، ك على خط عرض ١٦°، ١٢' ، وكات جزيرة العراب الصغيرة على بعد ميل ما إلى الجنوب والجنوب الشرقي أي على ارتفاع ١٦°، ٨' أما جزيرة بيكيلام (Bikillâm) إلى الشمال الغربي. وكنا بالكاد نرى القارة، وبعد الظهر مررنا أمام جزيرة بحيس (Bahes)، وأمام قرية صغيرة على اليابسة أعطت اسمها للجزيرة، وهي تحوي قبر أحد كبار أوياء المسلمين.

وفي ٢٩ صباحاً، وصلنا مرفأ مخينة، ورسونا على بعد ٤/٣ الميل من المدينة. وخلال رحلتنا من السويس إلى المخينة، سمعنا عن كثير من الأسياء المستقلين الذين لا يهتمون بالتعامل مع الأجانب، ولهذا يصقبون عليهم مرورهم في بلادهم التي ظنناهم رائعة لمرط ما سمعنا عن لأمان في المناطق التابعة لإمام اليمن. وعلمنا، خلال الرحلة، أن الشيخ مكرامي من بحران يحتم مع جيشه في منطقة أبي عريش، وبالتالي عزز الإمام حامية المخينة، وأمر حاكم المدينة بساء برح حديد أو حصص كما يسميه العرب، خوفاً من أن يزحف الشيخ مكرامي على مدينة المحبة. ووددنا أن نتوجه مباشرة عبر البحر إلى المحا أو على الأقل إلى الحديدة، لكن تاجر من انحاء واقفنا من جلفة، قررا متابعة الرحلة عبر البر وكنا قد تعبنا من السفر بحرأ بسبب الرياح المعاكسة، فنرنا إلى اليابسة وتوجهنا إلى مرل الحاكم، لعرف منه إن كنا نستطيع السفر بأمان من المحبة إلى المحا عبر البر.

ويطلق عرب اليمن لقب صاحب الدولة أو أمير على حكام عدد من حاكم حجة يدعى لأمر فرحان، وهو أفريقي، أسود البشرة أتوا به إلى اليمن حين كان فتى ليعة، فاشتراه بشا يدعى اناس، وكان صاحب الدولة في بيت الفقيه لمسرات عدة ثم أصبح أحد أبرز وزراء لإمام في صنعاء. وبعد أن علم الياشا فرحان، أمر له وظائف صغيرة، لكن قدراته جعلت يحبه يلمع في البلاط، فرفقني إلى رتبة بايي (Bailli) أو حاكم إقليم كبير، وهو سيد مهذب، مستقيم السيرة، وصديق للأجانب، فبنا له إننا أوروبيون، وإن نستعد للذهاب إلى المحا عبر الحديدة ومن ثم إلى الهند الشرقية على متن مراكب إنكليزية، وإن كحيا جدة حملنا رسالة توصية موجهة إليه وإن السيد يحيى ومضيان أحد أبرز التجار في جدة أعطانا واحدة أخرى لخمس المكاوش (Mâhsen el Makâwisch)، أمير تاجر في مخينة

لاستخدامهم إذ ما توقف المركب لأيام في مدينته. وكنا برتدي ثياباً طويلة، وقد أُرخيت والسبد فورسكال لحيننا، وكان الأمير قد عاشر الكثير من الإفرنج في محله، لكنه لم يرحب يوماً بهم. فظهر، كما لم يسمع يوماً بأوروبيين يقصدون اليمن عبر الخليج العربي، وعرف البصاري ورأهم يرتدون ثياباً طويلة كما هي عادة في شرق. وسألنا إن كنا بصاري أم إفرنج، فأجابنا أننا ندين بالنصرانية وأننا من أوروبا، لأننا نعلم أن المسلمين يضربون إلى مسيحيين بضرة أقصص من تلك التي يظفونها لأي من يبيع الديارات الأخرى، ولم يكن يدري إن كانوا يضربون الأوروبيين وثنيين. سمينا الأمير الرسالة وسبقنا كاتب التاجر محسن لاستلام الرسالة لأن هذا الأخير مريض، ولقرينه الفقرة التي تعيد للحكم

ولم يعرف احكامهم حتى هذا اليوم، من الأوروبيين سوى لتجار الدين تدفعهم تجارتهم نحو اليمن وبعد قرعة رسائل، تبين له أن أحداً طبيب، والآخر يبحث عن الثبات والثالث يهتم بالبحر، الخ. وما لا نحسن معناه أية بصائع تدفعنا إلى استعمال وصولنا إلى المحل، فطلب منا أن نبقى في حية بعض الوقت، ووعداً بنفسنا إلى اعلى على إبنه ورجلنا التاجر، الذي كان يأمن الحاجة لطبيب، أن تأتي لزيارته، وقدم لنا أحد مناره للإقامة فيه، ولم يكن تتوقع عروصات كهذه من العرب. لكن، سقمي هدف رحلتنا الأساسي وأعني رؤية أكبر عدد ممكن من المدن والسفر برأ في اليمن، فحججنا بخوف من أن تدفع الحرب بين الشيخ مركاتي وشريف أبي عريش فتمنع بالتالي من السفر بأمان في البلاد عندها، أكد لنا الأمير أن لا نخوف عليها في الحية، وأنه بإمكاننا السفر بكل أمان على كافة أراضي الإمام، سيده. ثم عرض لنا صعوبات السفر بحراً مع الرياح المعاكسة التي تسيطر خلال هذا الفصل في محيط مكرم، وأصاب أن السفر برأ أكثر راحة، وباحتصار، فإن أقصص يصبحه يسديه لنا هي أن نعاد المركب وسعدنا للقاءنا مسلمين أكثر تحمساً كلما اتعدنا من مصر، لاسيما وأن سكن هذا البلد، الذي سمي لزيارته وإجراء دراسات فيه، عاملونا بأدب وتهذيب. وبما أن الفرصة تيسرت لنا لزيارة هذه المنطقة من شبه الجزيرة العربية، من دون أن نثير اشتك، بأن نود الانتقال إلى اليهسه، ثم نتردد في ترك المركب.

ودخنا المدينة لرؤية المنزل الذي حصصه التاجر لإقامتنا ولم يطلب الرئيس منا أن ندفع كلفة الرحلة كاملة سلفاً، كما يفعل الدين بملكون قوارب بين القاهرة والسويس، فحشي ألا ندفع له الكلفة الكاملة حتى الخديعة، ورجا الأمير، كما قيل لنا لاحقاً، ألا يدعنا سافر أو أن يجبرنا على دفع أجره كاملاً، فوعده هذا الأمير بدفع المبلغ إن نحن تحلصنا عن ذلك، لكن الرئيس لم يرضَ بالجواب، فتوجه إلى التاجر محسن الذي عرض عليه أن يضمن. وفي الواقع، لم نكلف هدين السيدين هذا العاء، لكن هذا لي عرض هدين المسلمين كرمياً للعامة، فبالكاد تلاقي بعثة عربية هذه المعاملة في أوروبا

وما إن قررنا نقر متاعنا إلى اليهسه، حتى أمر الأمير حاقم مركبه بحبسها، ولم يرض بأن يكلفنا شيء سوى الإكراميات المعتادة للبحارة، وكفي لا نتعرض لأي إسكال مع موظفي الجمارك أو الخياليين،

عمل كاتب التاجر على إرضائهم وعند المساء، أرسل لنا الأمير بمجة لترحيب بقدمنا، مع رسالة محاملة للعناية، راجعوا اللوحة (XIV) في وصف شبه الجزيرة العربية، دعانا فيها صوبه وأكد لنا أننا نقى الترحيب في مرقا اليمن هذا كما يكسا البقاء به بكل أمان.

وكان مركب الأمير، الذي استخدم نقل متاعنا، سبياً بطريقة متينة، لكن، ووفقاً لمعادث البلاد، صنعت الأشرطة من الحصر التي لا يدفعها الهواء والتي يصعب التحكم بها. لذا عدنا متأخرين، وبما أن المياه تتسرب كلياً تقريباً أمام المدينه عند المد، اضطررنا إلى انتظار أول جمر لرسو عند الجسر ولم تمكن من نقل متاعنا إلى الديرسة في تلك الليلة، فسألنا إن كانت في مأم قرب الشاطئ، وحين علم الأمير بقلقنا أرسل جندياً حرساً المراكب طوال الليل وأكدوا لنا أننا يمكن أن نصل كل ما نحتاج لكن لم نكن لنلق بجندي عربي، فبقي أحد أعضاء البعثة وحامداً على متن المركب، وتم نقل أسرة الآخرين إلى الديرسة من دون أن يطالب أحد بتفتيشها. وبقيت عدة لطبخ في المركب، فأرسل لنا التاجر عشاءً لذيذاً، أعاد لنا نشاطنا، إذ لم نأكل طبقاً ساحاً منذ عاودنا جدة ولم يكن يفتقنا سوى البيض، وبقي لدينا القليل من الكحول السيف التي حملناها معنا من المدينة، واستعملنا أولاً عن إمكانية الحصول على مشروبات روحية، لكنها غير متوفرة في الحيه، ولم يكن بإمكاننا استقدامها من صنعاء حيث تكثر عند اليهود، إذ يسمي نبيها في أوعية نحاسية مما يجعلها مضررة بصحة. وأخيراً، أحضروا لنا شراباً قوياً، ظننه بوظة (Busa)، لكنه تسبب لنا غثياناً قوياً، فقررنا الاستعانة عن المشروبات الروحية ببضعة أشهر.

وفي اليوم التالي، نقلت صديقنا إلى الجمارك حيث تم فتحها، ونحسب أن يفتشوها بصرامة ودقة، لكن الموظفين قاموا بعملهم بتهديب نائى ولاحظنا أن أمير يود رؤية معدتنا ومعرفة كيفية استخدامهما، فمرصنا له ما ظنناه يسعده والأعيان الذين اجتمعوا في الجمارك وطلب السيد فورسكال - الذي كان يحرص على الحضور أشياء عدة تحت المظلة - من الخدم إعداد قهوة جيدة، وبدأ أن هؤلاء أحسوا بالإهانة إذ ظل الأوروبي أنهم مصابون بهانة كهده، لكن حين وعدهم بدفع بعض المال، قدم له أحدهم ما صبه، ولم يسعد الأمير شيئاً بقدر ما أسعده رؤية هذه القملة الكبيرة، وتأسفها كافة الأعيان، وأخيراً نادى على الخادم الذي أقسم أنه لم ير قملة عربية كبيرة كهده، ولا يد أن هذه الموصرة تحت الزحاجة قملة أوروية. لكنه روى لأصدقائه أنه باع في ذلك اليوم لأوروبيين قملة واحدة بأربعة قروش، وكان الجميع يعلم أن لنا من أولئك التجار الأوروبيين الذين يأتون من الهند إلى الحاء، فظن الشعب أننا نجار من نوع آخر، وأنها مجيد استعمال القمل أحسن من العرب، لذا حصر في اليوم التالي شخص وعرض علينا قبضة من القمل، ثمن الواحدة قرشاً. وفيما بعد، طلب السيد فورسكال من نصيبه جمع الزراف وحشرات أخرى متنوعة مقابل بضعة قروش، فجاءنا اخرون، يعرضون الحشرات للبيع، ونستخرج مما تقدم أن سكان اليمن أقدر على التجارة من باقي العرب ومن بين كافة الأدوات التي عرضتها على عرب الحيه، آثار

مطاري الملكي، الذي يظهر لأشياء مقلوبة، الإعجاب برأوا من بعيد سيدة تسير، وتهاجوا حين رأوها سير وقدمها إلى الأعلى دون أن نعت ملابسها، الح وعند كن حديد كانوا يصيحون الله أكبر، وسعد الجميع بوجود أجاب عريس في مدينتهم، وسرنا أن ملاقي هذا انقدر من المردة بين سكان هذه البلاد

أما المنزل، الذي خصصوه لإقامتنا، على الطرر الشرقي، حول ساحه مربعه، فم تكس فيه عرف مؤننه بشكل جميل، إذ تحيط به محان يكر إقامتها، وأمامها حرم مفتوح. ويخبر هذا المكان شيئاً إذا ما تورب بفندق أوروبا الجديدة، لكنه عملي ومرجح في تدث البلاد خلال الأيام الأولى، عجت الساحة بانمرت الذين دفعهم فضولهم إلى انجى رؤية الأوروبيين، لكن وجودهم أزعجنا في بعض الأحيان، لأنهم يستعربون كل ما يرونه حتى ما لا يدعوا للاستغراب. ودفع هذا إلى توظيف بواب، أمرناه بعدم إدخال أحد إلا أصحاب بعض انهر، وهكذا ارتحنا قليلاً، كن جاءنا بكثيرون بحجة رؤية الطبيب وحين يستعم هذا الأخير عن أوحاعهم، يصحبونها بشكل يشه صحك بعد طيب أحدهم من السيد كرامر أن يحسن بصبه وأن يطلعه على ما ينقص، ولم يستطع شخص آخر لنوم فجاء يسأل الطبيب عن السب الح ولم يدع صبت السيد كرامر في هذه المدينة إلا حين وصف باش كاتب مقيتاً، فقد أعطى هذا الدواء معوله من الأعلى والأسفل حتى فقد المريض عزمه. لكن بما أن العرب يصعدون المصحات القوية، طلب العديد منهم من السيد كرامر دواء كاندي استعمله الباش كاتب. واستدعى الأمير بحر (Bahhr)، وهو المشرف على حركب، والذي يجمع دخول أو خروج أية بضاعة لم تدفع الرسوم، لطيبنا وحين لم يذهب على الفور، قبل نه إك حصار الأمير بحر ينظره أمام بابا وعيه سرجه، ويتم وضع السرج على الجياد العربية في الإصصلات كي تمتطي في أي وقت كان. وظن السيد كرامر أن الأمير أرسل الجواد ليسرع إليه، فأراد اصطفاه، لكن أشاروا إليه أن اخصاك هو المريض الذي يسمي سفاذه ولا يحجل الطبيب العربي من ممارسة مهنته على الحيوانات بعكس السيد كرامر، لكن لحسن حظنا اكتشفا طبيباً آخر في بعثنا، وهو خادما، الذي خدم لسنوات في فوج الخيالة السعودي. وتعلم العناية بالجياد، فعمل على علاج الجواد وجمع في ذلك، فاعتبره العرب طبيباً، واستدعى لعلاج الناس

وفي أحد الأيام، حصر عريان لرؤيتنا بأكل عني الطريقة الأوروبية، وأحدهما شاب من أعبان صعاء، يظهر نصرفانه أنه تلقى تربية حسنة، أما الآخر فمن محطان، حيث قلما يرون أجاب، وهو رجل ذو مكانة بين شعبه لكنه بسيط، وبد ل أن رفيقه اصطحبه معه ليتسلى ويهراً به. وكان القحطاني قد سمع أسراً عربية عجيبة عن الأوروبيين، وحين دعوناها لبأكل معاً، أجاب ببساطة أعود بالله من الأكل مع الكفار الذين لا يؤمنون بالله. وسحلت اسم موطنه، وطرحنا عليه بعض الأسئلة حول مديته ومراه، فسألني: «م يهمل موطني؟ أتوي التوجه إليه والاستيلاء عليه؟» وبما أن كنا لا نزال نعيش على النمط

الأوروبي قبر المستطاع، أنارت الطاولة والمقاعد والصحون والملاعق والسكاكين وأنشوك استعرايه. وطرح بعض الأسفلت وأعطى ملاحظات جديدة حول عاداتنا ولما صبحنا من بساطته، خرج عرجلاً، لكن صديقه يجمع في العودة معه مرات عدة. ويقدم العرب اللحم مقصداً، فرأى على مائدتنا فراريج مشوية كاملة، وكنا قد أكثرنا من الطعام برأيه، فظن أن علينا التوقف عن الأكل، إنما حين رأى السيد ذي هاجر يتحضر لتفطير مروج آخر، شدة من دراعه وسأله عن الكمية التي يوري النهامها، وأثار سؤاله ضحكنا، فخرج الرجل بسرعة ولم يتمكن صديقه من اللحاق به. وتقى عينا هذا الأخير ألا يستاء من قلة التهذيب التي أظهرها ريفه شدة بساطته واستحباب بدوره. لا بد أن هذا العربي سيروي في موطنه الأخبار عن عرائب عادات الأوروبيين، وسيستمع إليه الجميع بحماسة كما يستمع الأوروبيون لأوقات الذين يروون مغامراتهم المزعومة في بلاد بعيدة.

واستمعنا بإقامتنا في الخيمة، حتى طاب لي والسيد بورنقد أن نعزف على كمانينا عند انشاء كثنائي كما جعل جيراننا والمارة يطلون أننا موسيقيون. وطلب من تاجر عجوز، سمع بأخبار موسيقانا، أن يزوره ونحضر معاً القيان، لكننا رفضنا بعلما أن الموسيقيين لا يستمعون بالذكاة والاحترام اللذين يري العرب. ودفعنا الحشرة لرؤية الأوروبيين هذا العجوز، الذي لم يكن قادراً على السير، إلى الطلب من حذمه بأن يصعده على حمارة، وأن يمسكه كي يتمكن من ريارتنا. وكاد الرجل مهذباً بلغة وأكد لنا أنه لا يكره المسيحيين، وأن ديانتهم لا تسمح له بذلك لأن الله يحب الناس أجمعين ويقتل الديانات كلها، وأنه يفضل المسيحيين على أولئك الذين يتبعون ديانات عريضة، وذكر لنا حديثاً من الصحيح يقول فيه محمد إنه يمكن أن تأمر جانب المسيحي أكثر من اليهودي. وبعد تناول مواضيع متعددة، تحول الحديث إلى الموسيقى، وأعرب العجوز عن رغبته بروية آلاتنا، وبسماعنا بعزف عليها، فصنا بعزف بعض المقطوعات الهادئة التي تصحب الشرقيين وإن كانوا لا يتوقفون موسيقانا. وسر العجوز كثيراً، وأراد إعطاء كل واحد منّا نصف درهم لدى مغادرته، ولا يرد العرب عادة أية هدية مهما كانت صغيرة، لذا فاجأ رفضنا للمال العجوز الذي كان يعتقد أن ما من أحد يتكبد مشقة تعلم العزف إلا لكسب المال، وأما نحتاج لبعض المساعدة لأننا نصرف الكثير من دون أن نكسب من تجارة ما.

وكان هذا التاجر من القلائل الذين رأيت لحاهم مصبغة بالنون الأحمر، ولم يذكر لي أي سبب بذلك سوى أن اللحية الحمراء أجمل من اللحية البيضاء، في حين يري الآخرون أنه يحاول إخفاء تقدمه بالسن. واستنتجت من ذلك أن العاقليين بين العرب لا يوافقون على عادة صبغ اللحية بالنون الأحمر، ولا حظت في هذا المناسبة، وفي مناسبات أخرى، أن المسلمين لا يكثرثون أبداً ستمهم. وحين يستعلم عن أعمارهم يجيبون أنهم ولدوا حين كان فلان أو فلان في الحكم أو أنهم كانوا قتيلاً حين وقع هذا الحدث أو ذلك، لكن تاجرنا هذا أوضح الأمور أكثر، فهو يعلم أنه في السبعين من عمره ولا يظن أنه تجاوز



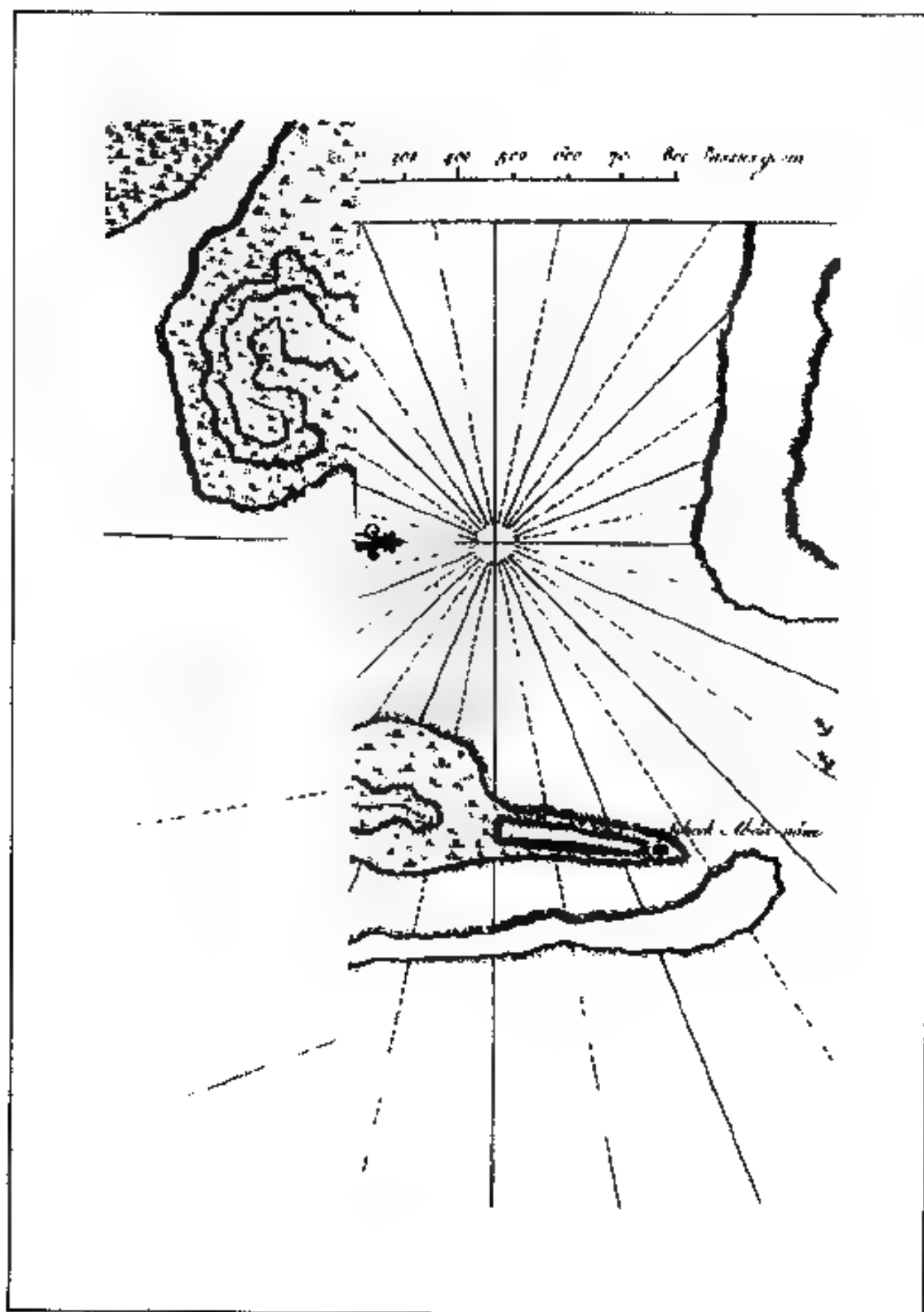
التمانيين، في حين أن معارفه يعتقدون أنه فارب التسمين. وتوطدت الصداقة بيننا حتى أنه دعانا مراراً لزيارته وقدم لنا أسخر القهوة والتبغ وامري، ولم يتزوج يوماً وفقاً للأصول لكنه يستحج بأنه عرر بعدد من الجوارى (٨٨ إن لم أكن محطناً)، وأنه باعهم فيما بعد، أو تزوجهم، أو أعتقهم. وقال لنا إنه يملك، مد بصع سنوات، جريتين شبتين وحبيلتين وأنه يسمى أن يعمل بهما ما فعل بسالفاتهما وبعدها يموت عن طيب خاطر، ووعد طبيباً بهدية قيمة إن مكته، بفصل علمه، من تحقيق رغبته. وكذا قد تعرفنا على تاجر ثري في جدة، ربنا عالياً، يعاني المشكلة نفسها، وكان في العقد الخامس، ويملك مراً في مك يفضده لبضعة أشهر، لكن من دون طبيب حاضر، إذ يملك به جارتين جميلتين نسيان دوماً لتأجيل سر حبه لكن حيثه نعمله حريماً، فقدم لطبيباً مئة ريال إن استطاع مساعدته ليشفي عليه مرة واحدة. ولعوط ما تناول من أدوية وصفها له الأطباء الإنكليز لم يتمكن السيد كرامر من مساعدته^(٥) لكن أعود لوصف مدينة الحية بيت هذه المدينة منذ حوالي ٣٠٠ عام، على يد ربي مسلم، يدعى الشيخ صالح (Sales)، ويعبر اليوم شيع هذه المدينة لأن عرب تهامة من أصل السنة ويجنون كثير هؤلاء الأولياء المزعومين بالرغم من أن دينهم يحرم نقديهم. بنى هذا الشيخ لنفسه كوخاً على شاطئ البحر، خارج حية، في المكان الذي يجد فيه اليوم صريحه، وعاش فيه متسكاً. وبعد موته، تم بناء قبة فوق قبره، ومع الأيام، تم تكبيرها، وتجميلها، واعتبارها وقفاً. وبما أن التسمين المؤمن يتوقعون أن ياركهم الله في هذه الدنيا وفي الآخرة، إذا ما أقاموا وماتوا في جوار هذا المزار، بوا لهم بيوتاً في محيطه وفي ذلك الوقت، كان حاكم الإقليم يقيم في مراتع (Marabca)، وهي مدينة صغيرة، على بعد ميل إلى الشمال من الحية، لكن حاد مرطها ازدادت سرباً، فهجرت المدينة، وتوسعت الحية، وأصبحت فيما بعد مكان إقامة صاحب الدولة. وأشير هنا إلى أن ذرية أولياء السنة في التهامة يستعرون بمكانة ذرية محمد في العالم الإسلامي كله إنما بقدر أقل، ويطلق عليهم لقب شيخ، كما يطلق على سلالة محمد لقب، شريف، وسيد، وأمير وموسى، ويعتقد الناس أن التقوى وحب العصيلة من شيم هؤلاء أكثر من عامة الشعب. ويتمتع زعماء العائلات هذه بهيبة واحترام بين الناس لأنهم ولدوا رجال دين، لذا لا يستعرب أن يشيدوا بقداستهم، ويحاولوا أن يجعلوا من أنفسهم قديسين. ويعتبر ابن الشيخ صالح المدهون في مؤر (Môr)، وابنه الآخر المدهون في بهاس (Babās) شعبي هذين المكانين.

(٥) نضع ساء محبة، عند بخرس إلى الشارع، حصاراً كبيراً يعض به رجوهن جالكاد يرى إحدى عينيه. لكنهم بس تشددات كقده عمن قد تسمين أحياناً إبدال الستارة لاسمها حين تظن الواحدة منهن أنها جميلة وأنها تستطيع كشف وجهها وكأن شيئاً لم يكن. رسم السيد برنفايد إحدى سماء به، وقد نقشت على وجهها بعض الزينة باللون الأسود وصف شبه الجزيرة العربية، ورسمت حاجبيها بالسواد، ووضعت حلقات عدة في معصيفها، ووطئ في أذنيها، وعقد من اللؤلؤ الزخرف حول جبهتها. راجع الزوحة (LDX). لكن هذه الصورة تحمل مغالطة واحدة وهي أن كشي التقسيم يعني أن يكونا بمن العرض من أصلهما وحتى آخرهما.

وتقع مدينة حية في مكان محدب، وفحل، وهي بعض الأحياء على جريدها، لأن الأرض منخفضة نحو الشمس حتى أن الرياح الجنوبية حين تعصف وقت طوي، وتعدو المياه، يعطي المذ هذا الجزء من المدينة، وقتما يحدث هذا خلال عام واحد وهي على خط عرض ١٥°، ٤٢'، وعلى بعد مرسحين و٣٩ دقيقة و١٤ ثانية على خط الطول إلى الشرق من باريس وهو المرقأ الأكثر إلى جنوب في المدايق الخاصة للإمام، لكن حالته سيئة إذ إن المراكب الصغيرة التي يقصده تصطر بلرسو على مسافة بعيدة من المدينة، حيث الجمر فلا تستطيع القوارب الصغيرة الاقتراب منه. وتبقى التجارة الأولى في هذه المدينة هي التي الذي يتزعون بروره ويبيعونه ولا يضاهي هذا إلى جودة بن بيت الفقيه الذي يتم نقله عبر مح وحديدة، وهو أرحص ثمناً، ولا تعتبر كلفة بقه إلى جدة غاية نظراً إلى أن المسافة التي تفصل المظفتين ليست بكبيرة. ولهذا السبب، يجد تجاراً من القاهرة يقيمون في الحية ويشربون إلى لأصحاب عصهم أو أصدقائهم في جدة، ومصر وتركيا، كما يقصد الكثير من أبناء القاهرة لحية سنوياً لشراء إلى لحسابهم الخاص ويقيم حوالي ٤٠ بيانياً في المدينة، لكن عايتهم من الحرفيين لعقراء أو من الخدم لدى من يبعون الدبابة نفسها

وبالرغم من أن محبة غير محاطة بالأسوار، فهي ليست بالمدينة المفتوحة كلية، إذ يجد فيها ٢٠ برجاً من جهة اليابسة، يحد الواحد منها عن الآخر ~~خطوة مزدوجة~~ ^{خطوة مزدوجة}، وشبه هذه الأبرج أبرج المرقبة القديمة في أمانيا، فأبوابها مرتفعة لا يمكن ولوجها من دون الاستعانة بسلم. ويقوم الجند، الذين يشكون حامية المدن التركية، قرب الأبواب أو في المدينة نفسها، وجد حراساً في كل برج من أبرج لحية تقريباً. وكان معظم جنود المدينة يجلسون في النوى في أسفل الأبرج، يدعون الرحلة ويشربون الكبشر (وهو شراب يحضر من منقة الن)، لكن رؤيتي في هذا المكان جعلت أشرت انتباههم. ووجدت بالذكر أن تسجيل المخطوط والروايات في طرف كهذا يشكل حظراً على في تركيا وفي أوروبا، لكني لم أكن أعشى شيئاً بين العرب، حتى أن الضابط المسؤول دعاني للجلوس بينهم، ومشاركتهم بما قدموه لي من همام، وسألني عن كيفية بناء الحصون في أوروبا، فصلاً عن طريقة حوص الخروب، الخ وستمع إلي باستمراء وأنا أقص عليهم أخبار أوروبا، وعرضت عليهم خنراع الكتابة من دون حية (يقدم)، وأحدث أسجل أساسهم المخطوط والروايات من دون أن يرتابوا بالأمر، حتى أنهم نادوا رفاقهم في الأبرج القريبة ليرو العرائب التي رأوها. وهكذا، رسمت خارطة مدينة حية ومحيطها على اللوحة (LX)، فيما حمست اللوحة (LXI) منظرًا عاماً للمدينة.

بيت عالية هذه الأبرج بطريقة تمكنهم من الدفاع عنها بالسلاح الأبيض. أما أبرج، الذي أمر الأمير فرحان ببنائه فجهز لوضع مدافع فيه. ووجدت قرب أبرج الخامس مبنى فيه بعض الأسنحة. وشاهد أمام البرجين الرابع والخامس حفرة في الصحراء. ونعتبر هذه التحصينات عبر محدبة، حتى أن عرب حاشد،



مد سوت، اجتازوها وأحرقوا المدينة، لذا لا يتكلم أهالي محبة عليها كثيراً، إذ عصا، في شهر أيار/مايو في محاء، أن عدداً كبيراً منهم لجأ إلى حريرة يرموك (Ormuk) الصغيرة، وبقوا إليها على ما عدهم حين عصوا، أن يصع مئات من رجال حاشد وكيين دخلوا نهمة وتقدموا حتى مور (Môr) وعادر العديديون بيت القبة. ونوحوها إلى مرفأ الحديدة، لينسكبوا من الاستحاب بسرعة نحو بعض الجزر إذا ما تقدم العدو أكثر، لكنه تراجع حين لاقاه الأمير فرحان مع جنده^(٥)

بني العديد من منازل محبة من الحجارة، لكن معظمها كذلك مرسومة في الصورة I للنوحة الأولى في وصف شبه الجزيرة العربية أي كسائر نهامة عامة، ولا يكف بناء منزل كهذا الكثير من ابل مهيكله من الخشب الرقيق الذي يقطع من الأشجار أو البعل، وتطلى الجدران بالصصصال المروج بالروث ثم تطل من الداخل بالكلس، وتصنع السطوح من أعشاب نكر في هذه البلاد. وتفتقر هذه المنازل للمواقد، ويسد الأبواب بإحصار المصوغة من الفش. ويؤث داخل هذه المنزل بالأسرة كذلك المرسومة في الصورة دره من النوحة الأولى في وصف شبه الجزيرة العربية، ولا تعطي هذه الأسرة سوى حبل من الفش، وهي مريحة جداً للجلوس والنوم، لا سيما أن أرض نهامة رملية، لحديده، كما يجعل النوم عليها مرعجاً نعايه. ولا تقسم هذه المنزل إلى غرف عدة، وحين يكون عائلة العربي كبيرة ويمتد ماشية، يقوم ببناء أكواخ عدة ويحيطها بسور عال، لذا تحتل المنازل مساحة واسعة ولا يمكن أن يعتبر عدد سكان نهامة بعدد سكان أي مدينة في أوروبا وتركيا تحتد على اساحة نفسها.

نجد خارج المدينة العديد من أفران الكلس، حيث تكتس أحجار المرجان الكبيرة المستخرجه من البحر عند المرجر. وتكسر هذه الحجارة، وتكتس في الهواء الطلق دون ماء أفران، وفي وسط هذه الحجارة المكسرة شاهدا عدداً من الأصداف المستطبة لمحبة ونجد في خليج العربي الكثير من الأصداف والأسماك الجميلة. ولد أعطيت سابقاً فكرة عن مراكب الصيادين في الحية في وصف شبه الجزيرة العربية. وعتبر مياه محبة غير صاحبه لغشرب، وتشرب العامة من مياه الوادي ومن مياه بئر بعمان الذي يقع على بعد ٤/٣ الميل إلى الشرق من المدينة، أما مياه بئر كندي الواقع على بعد ميلين و ٣/٢ ميل إلى الجنوب الشرقي فأعذب، ويبقى أفضل مياه في محبة هي مياه تيت التي تقع على مسافة ميلين ونصف ميل إلى الشمال الشرقي من المدينة. ولا ينقل أهالي محبة الماء إلى المدينة في عربات بل على ظهور الحمير والجمال، ولا يستخدمون لذلك جلود اناعر، كما في السويس، أو الأكبس الجلدية. كما في تركيا والقاهرة، إذ جرراً حجرة بوضارية الشكل، تتدلى عن جانبي الجميل، كما تظهر في اللوحة ١٦.

(٥) تفسير أرقام اللوحة XXX: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢ أخرج مراقبة خارج المدينة ١٣، منزل لحاكم والحمارك ورجال بالقرب من هذا المكان ١٤، البنى الذي يجمع فيه البنى، ويترع بمره وياع ١٥ المسجد فوق حير الشيخ صالح حيث يعطي لحاكم بهار لجمعه ١٦، يناير ١٧، الأثر ١٨، الطريق إلى بيت القبة ١٩، الدرب الذي يؤدي إلى آثار ضمت (Pitue).

في وصف شبه الجزيرة العربية. وإلى الشرق من محبة وعلى بعد ميل و $\frac{4}{3}$ منها، نجد جيلاً صغيراً يحمل اسم كوخشا (Kascha) وتكثر فيه الأملاح المعدنية التي تستخرج منه بسهولة.

وجمعنا في محبة كمية كبيرة من الغرائب العجيبة، وبما أن نفدنا برأ مكلف للغاية، أرسلناها إلى البحر مع أمتعتنا التي لم تكن بحاجة إليها خلال رحلت عبر اليابسة وأصاب الأمير فرحان إليها رسالة موجهة إلى صاحب الدوة في الحجاز، يرجوه فيها أن يسمح بإبقاء أمتعتنا في الجمارك لحين وصولنا وبعد أن جمعنا كافة المعلومات التي تهتتنا حول هذه المنطقة من شبه الجزيرة العربية، أخبرنا عن رغبتنا بزيارة مدن أخرى من هذه المملكة. ووجدنا الحجة المثلى في حيز وصفنا عن مركب إنكليزي وصل إلى الحجاز من الهند في أواسط شهر شباط/فبراير، وأعلمنا صديق الأمير فرحان بيتنا التوجه إلى بيت الفقيه، والاستراحة فيها ثم إكمال طريقنا إلى الحجاز. فسألنا عما يشير استيادنا في محبة وأكد لنا أن ما من حاكم في بلاد الإمام سيهتم لأمرنا بقدره هو، وكان محققاً فيما قاله وبعد ذلك أصبح الحكام، الذين لم يأبهوا لأمرنا من أعز أصدقائنا. وكان الأمير فرحان يعلم أن ما من مركب يعود إلى الهند قبل حزيران/يونيو، وأراد أن يبقى عنده حتى ذاك الحين، لكن حين أخبرنا عن حاجتنا للتحدث مع موطننا (يصبح الأوروبيون كلهم مراعين في هذه البلاد البعيدة) وافق على ما أردناه، فقمنا باستئجار الجمال والحمير في الحال لنقلنا ومتاعتنا إلى بيت الفقيه.

وبوم أردنا توديع الأمير فرحان، لم تتمكن من التحدث إليه مرض ألم به في ذاك اليوم، طلبنا إعلامه بسبب زيارته، وبأننا سنسافر إلى بيت الفقيه في اليوم التالي. وطلب منا البقاء ليوم أو يومين في محبة، لكننا لم نشأ ذلك لأننا كنا جاهزين للمعادرة، فأرسل بطلنا في وقت متأخر من الليلة نفسها. وكان قد طلب مني حين وصفنا إلى محبة أن أعيره جهاز رصد النجوم الإنكليزي الرباعي القاعدة خلال فترة إقامتنا في المدينة. ولم أرغب بطلبه منه، لأن أي مسلم كان ليطلب أي قدرته له هدية، لكن الأمير فرحان وضعه أمامه بعد أن لقد يقطعة قماش حريرية وجعل عليه كمية كبيرة من الدراهم الألمانية وهي أكبر عملة تستخدم عادة في اليمن، وبعد أن سأله، إن كنا لا نزال نحرص على السفر في اليوم التالي، وقال مازحاً للعرب الحاضرين إن الإقامة في محبة لا تعجبا - دون شك - لأننا نقادر المدينة بسرعة، الخ، أراد إعاده الجهاز لي، لكنني رجوت أن يحتفظ به، فأكد لي بعد اعتذارات جمّة أن هذه الهدية تسعده للغاية ثم مع طيبنا قطعة القماش وفيها ٢٠ درهماً فاعتبر الأخير أن بإمكانه قبولها لأنه أعطى الأمير أدوية عدة. وقدم لنا مبلغاً من المال لدفع بدل استئجار الحمير والجمال التي سئقنا إلى بيت الفقيه، فرفضناه سائلين السبب أننا لم نأت شبه الجزيرة العربية لنعيش على حساب أهلها. وبما أننا كنا ننوي التجول في كافة البلاد الخاضعة للإمام، فخشياً ألا يساعدنا حكام الأقاليم الأخرى، الذين قد يفتقرون تكريم الأمير فرحان، إن شكوا بأننا نتظر منهم أن يقدموا لنا الهدايا. وفاجأ رفض العرب كثيراً، إذ لم يكسب بعض

«مسافرين الأتراك الذين وصلوا إلى محجة بصب المال لرحلتهم بل طالبوا بمعاش لهم ولم يكن خادماً الأوروي، الذي شفى أحد حيوان الحاكم، حاصراً فأرسل له عشرة دراهم كمكافأة ولم ير هذا الأخير أي داع لرد المال.

وبما أن الأمير قدم لطيباً ولخادماً الهدايا دون موافقتنا، وبما أننا لم نشأ أن ندين له شيء، فررنا أن نقدم له بالمقابل ساعة أسعدته كثيراً، وإن أصغر لبعض الوقت على رفضه قائلاً إنه لا يستطيع أن يقبل هدية كهذه ما لأننا مسافرون. وميبت لنا لياقتنا مع الأمير فرحان الصيب الكثير من المتاعب لاحقاً، فقد ذاع خبر كرمنا تجاهه، فحصل حكام المدن الأخرى أن من حقهم توقع هدايا مما قبل أن يقدموا لنا أية خدمة. ولم يكن الأمير فرحان يملك ساعة ولا يعرف كيفية استخدامها، لكن تاجراً من القاهرة، من بين الأجناب الذين اعتادوا زيارة الأمير يومياً، كان يملك بها مضي ساعة، فوعد بمحبتها كل يوم.

ومن بين العرب الذين اعتادوا زيارتنا، مشفقان فقيران، أعطيانني توصيات عدة حول الجغرافيا وحيوان مواضيع أخرى، وقد استخدمتها في وصفي لشبه الجزيرة العربية، لذا لا داعي لذكرها هنا.

رحلته من مكة إلى بيت القعبه

في اليمن ينتطي الناس عادة الحمير - ليس لأنه لا يحق للمسيحيين ركوب الخيل كما في القاهرة - بل لأن استجار الخيل صعب في هذا البلد إلا أن الحمير المستعملة في المدن الشرقية وللسفر هي من جنس خاص وهي كبيرة الحجم وشجاعة ولا ترعج في السير. ولشدة قدرة هذه الحمير على المشي، يجبر الرجل الذي يسير خلفها على القيام بـ ١٧٥٠ خطوة مردوجة في نصف ساعة وكنت بحاجة لأدقق في هذا الموضوع لأتمكن من تصحيح خارطة اليمن. بعد أن عرفت سرعة سيرنا، تم ييق لي إلا مراقبة الوقت الذي ستهلكه للانتقال من مكان إلى آخر وتحويله إلى خطوات مردوجة وأميل لأتمكن من معرفة طول المناطق^(٥) لمعرفة وجهة الطريق اكتميت باستعمال بوصلة جيب تماماً كما فعلت للذهاب إلى طور سيء. ولا شك أنه لا يمكن قياس الزوايا بدقة بواسطة آلة صغيرة لكن على ظهر الخمار تصبح عملية المراقبة أسهل. وحرصت أثناء الرحلة على قياس ارتفاع القطب كلما وجدت ذلك ضرورياً. وكنت كلما مرت بضعة أيام، أصبح اتجاه انحراف من خلال قياس ارتفاع القطب والبوصلة ثم جمعت أسفاري إلى اليمن كافة وصرت أملاً المكان الشاعر بأسماء المدن والقرى التي سم أكن قد رأيتها بل تأكدت من وجودها. وهكذا، دونت خريطة التي أصبحت إلى هذا المجدد.

ولا يمكن أن أتوقع أن الخارطة التي رسمتها لليمن هي شديدة الدقة كذلك التي رسمها مسافرون أوروبيون لجؤوا إلى الملاحظات الفلكية والهندسية. إلا أنني لم أؤمر جهداً لمعرفة جغرافية البلد ولأوجه أسفاري لمعرفة مواقع الأماكن الرئيسية التي يسيطر عليها لإمام. وإني أعلم أن قارئ سيمل من قراءة كافة الأسماء الغربية التي تعود إلى هذه الأمكنة، لكن بي أن مجهل مناطق شبه الجزيرة العربية قررت ألا أكتفي بذكر أسماء القرى بل أيضاً أسماء الأكواخ التي تعتبر كالمقاهي والتي تكون معرولة على طول الطريق. وعالماً ما تسمى هذه الأكواخ باسم القرى المجاورة ويصفي صاحبها بهاره كله فيها لكنه يبيت ليله في القرية في سون عائته من هنا نعلم أن هذا الجزء من شبه الجزيرة شديد الاكتظاظ بالسكان

(٥) من يستحب القراءة من ينامي سرعة الجمال اليمية إذ كتب قد نسب سرعة الجمال قرب جبل سيناء بالرغم من أننا لم نمر قرب الجمال إلا نادراً. كما يستعمل جمالاً صغيرة وكبيرة في قافلنا لحمل الحاج. وفقاً لساعتي، كانت الجمال الكبيرة تمشي ٦٥ خطوة مزدوجة في الدقيقة. أما الصغيرة تمشي ٧٥ خطوة وهكذا يعلو الأشخاص الذين يمشون إلى جانبها أن يعطو ١٠٠ خطوة مزدوجة بدقيقتين أو ١٥٠٠ خطوة في كل نصف ساعة.



ولأن السفر إلى تهامة آمن تماماً كالسفر إلى أوروبا، لم نكن بحاجة إلى انتظار انتقال القافلة لكن بما أننا توقعنا في ٢٠ آذار/مارس للذهاب إلى مخيئة أرسلنا في ذلك اليوم جحاشاً محملة بأعراص الإصافة إلى خادمين ليهتموا بها وبعد مرور ساعات، لحقنا بهم على ظهر الحمير. ثم مررنا بمنطقة قاحلة وصحراوية بالعرب من الخبيج ثم ارتحنا في معهى ليس سوى كوخ قريب من قرية تدعى عكام (Okēm) تقع هذه القرية على الخط المستقيم الذي يبعد ميلين ألمانين عن جنوبي شرقي مخيئة وتبعد قليلاً عن البحر ولا نجد في جوارها ماء عذباً

وخلال وصفي لهذه الطريقة سأستعمل دوماً كلمة كوخ للإشارة إلى المقهى ويسمي العرب هذه الأكواح مهيلة (Mokeija). وحتى لا يظن القارئ أن الخدمة في هذه الأكواح جيدة مثل خدمة المعهى الأوروبية سأقول لهم أولاً إن هذا المقهى سيء البقاء لمرجة أن بيوت مخيئة الأكثر تظلاً أحر منه فأحياناً لا نجد فيه أي سرير وتنتشر فيه الصبابة على القهوة التي تقدم في حاجي من فجار والعرب الأثرياء الذين لم يعتادوا على شرب القهوة في أقداح ممانية يحملون معهم أثناء السفر حاجيتهم الصببية المصنوعة من الخرف. ويقدم الماء العذب مجاناً في هذه الأكواح ويعتبر المرطب الوحيد

المتوفر في اليوم نفسه من «أقام» وبعد أن اجترياً أربعة أميال إلى الجنوب الشرقي، وصت إلى قرية الجانية عند منتصف الليل. ولقد كنت مياه بها سيرة نعاية ركا في هذا اليوم قد سرنا ستة أميال ألمانية في ٢١ شباط/فبراير توحيها نحو الجنوب الشرقي ووصت إلى حميد (Hamjān) وهي القرية الأولى التي وصلنا إليها بعد أن اجترياً ميلاً وربع ميل من حميد وصت إلى سبأ (Sabea) التي يبعد ربع ميل عنها ومنها إلى مير (Mencyre) وهي يبعد ربع ميل عن سبأ. إن قرية مير متوسطة الكبر وفيها مسجد جميل ونزل يقصده المسافرون فيلتقون الخدمة مجاناً لو شاوروا الاكتفاء بمط حياة أهل البلد فيستقبلون في كوخ مشترك ويمطون سرياً وحيز الدرة الساخن وحبيب الباقه والزبد. وجدير بالذكر أن مثل هذا السر لا يفرع أبداً من المسافرين. ولو كانت هذه الصبابة موجودة في أوروبا لكان عدد المسافرين ها أكبر بكثير. ثم ما إن علم صاحب نزلنا بوجود أشخاص أوروبيين في دياره حتى سارع إليها شخصياً لمعرفة ما إذا كانت معاملة حسنة ولو أننا تمكنا من المكوث لفترة أطول لندبح نعمة على شرها ولند حير لنا خبر الحطه وهو نادر في القرى ثم أحصر ل خدمه حبيب البقر بعد أن لاحظوا أننا غير معادين على شرب حليب النوق. ويقال إن هذا الحبيب متعش وصحي في البلاد الحارة لكنه لرح كثيراً ياد. وصمت إصبعاً فيه ثم رفعا، يند الحبيب مثل الحيط. ورأى خدام العرب أن صاحب النزل سيستد إن نحن عرصا عليه دفع مصروف إقامتنا عنده لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار ما حدث لاحقاً لكت عرصا عليه هدبة وحسب فلفد متأذناً للرحيل دون أن ندفع شيئاً ودون أن يسألونا أن ندفع شيئاً لكن الخادم الذي سم يتجرأ على طلب أي شيء في حضور سيته نبعنا للحصون على هدبة بعد أن نأكد أننا ابتعد مسافة لا تسمح لميته برؤيته.

يقع جبل النمة في الجنوب الغربي من سير، وقرب هذا الجبل من جهة الغرب هناك قرية كبيرة تدعى صعدة (Sēdie) ولقد ذهب السيد فروسكل لرؤيتها عندما كان يجمع للعشب في وادي سُردود (Surdūd) (١).

انطلقنا من سير وصرنا مسافة ميل وربع نحو الجنوب الشرقي فوصلنا إلى بيت القفيه. أما المجمع (El Māhjhām) الذي ذكره أبو العدا فليس بعيداً من هنا لكنه مدمر ما عدا المسجد القديم الشهير الذي رقبه الأمير فرحان. وكان يلزمنا نصف ميل للوصول إلى بيت الشيخ ومنه ميلاً للوصول إلى الصبحي (Dahhi) حيث قصينا الليل وفي هذا اليوم لم نعمل إلا أربعة أميال ونصف الميل.

تعمر الصبحي قرية كبيرة فيها مسجد وقبر وبي من الأولياء ولما برى فيها مارل من الحجارة. وفي خارج القرية هناك مصبغة ومعمل قرميد حيث يشوى القرميد لا في مرن لكن في الهواء الطلق كما رأينا في ثلاثة أماكن محتضنه كنبه كبيرة من الآنية التي يصنع فيها اللون الأزرق. إن ثمن هذا اللون رخيص في المنى إذ يباع كل ٢٥ رطلاً بدينار واحد إلا أنه سيء النوعية يستعمل هذا اللون كثيراً في اليمن لأن النساء كافة يرتدين قمصاناً وبراويز زرقاء. يقيم في صبحي وفي الجالية مساعد صاحب الدولة الذي يكون على رأس مجموعة من العسكر عندما أن هذين القريتين تحصنهما حاكم محبة وكان الأمير فرحان الذي أعطانا رسائل قوصية قد أمر السكان أن يعطونا مئة إلا أننا أيضاً عاصمة لنا وصلنا إلى الجالية في ساعة متأخرة لكنها علمنا لاحقاً أن أحد خدم الأمير فرحان الذي سافر معنا بعة نحصيل أعماله الخاصة تقاسم ثمن هذه المcente مع قاضي القرية. وبعد أن علمنا أن الملاحين يدفعون على كل حال، أخذنا منهم في الصبحي كل ما أمرهم حاكم محبة بدفعه.

وتصحب يوم ٢٢ من شباط/فبراير في الصبحي، واستصحبنا قيس ارتفاع هذه القرية ١٥٠٠، ١٣. للذهاب من محبة إلى صعاء يجب المرور بهذه القرية.

أما الطريق الأقصر للذهاب من الصبحي إلى بيت القفيه فهو من خلال المرور بمروة (Maraua) لكن بما أن هذه الطريق خالية من الماء ومن القرى، تركنا صبحي في ٢٣ شباط/فبراير وبعد أن اجتزنا غابة صغيرة وصلنا بعد سيرنا ٨/٣ الميل إلى كوخ يدعى سباريد (Saband) تشكل نقطة هذا الكوخ الحدود بين محبة وبيت القفيه وبعد ذلك سرنا ميلاً ووصلنا إلى مكان فيه عدة قرى مبعثرة يسميها الغرويون كافة بي عفيف. رأينا بقرين على الطريق، وعلى مسافة ربع ميل وجدنا القرية المسماة شرجو (Schirdjāu). وعلى مسافة ٨.٣ ميل من هذه القرية وإلى غرب الطريق تقع قرية دير الخليل وبعدها ٤/٥ الميل تقع دير المنة وكانت الطريق مرروعة بالآبار هنا وهناك.

(١) لقد دوت على خريطة كاه الامبار التي قام بها السيد فروسكال إلى موبر وادي سردود فوسست بالقلم الأحمر الخمرات الرئيسية (أي العرفات) التي قامت بها الجمعية كني واللون الأخضر العرفات الخاصة.

إلى هنا كنا قد مشينا باتجاه الجنوب الشرقي وبعد أن سرنا نصف ميل آخر بالأنحاء نصبه وصلنا إلى وادي شعب الحجر الذي يتلقى الماء في أيام المطر من جبل بزة (Burra) وفي شماله هناك جبل آخر يدعى حفاش (Holāsch) ويمتد إلى صحاء وبعد اجتياز ثلاثة أرباع الميل جنوبي شرقي شعب الحجر يصل إلى قرية لم أعرف اسمها. تسمير آبار نهامة كافة بأرصبها المسحية هنن الرجال والنيران والحجير تنزل لنحصول على مياهها مما يسهل عليهم هذه العملية ويرفع الماء في أكياس كبيرة من الجلد تكون مربوطة إلى جبل معن على بكرة. والجدير بالذكر أن هذه الآبار عميقة بمجملها يبع انحدار البئر ٣٤ قدماً أو من ١٦٠ إلى ١٧٠ خطوة من حيث الطول وهذا هو طول الجبل وبالتالي عمق البئر. من هناك مروراً بوادي شعب دفين حيث لا يجد الماء الجاري إلا في أيام المطر وبالتقرب من هذا الوادي من جهة الشرق وعلى بعد نصف ميل من الطريق، هناك قرية كبيرة تدعى مدزر. وعلى بعد ٢/٣ الميل من البئر السابق وأما قرية صغيرة تدعى دفين (Defūn) وهناك ربع ميل من دفين إلى قرية غامية القرية من الجبال على ارتفاع ١٤٠، ٥٨ إن هذه القرية كبيرة مثل صاحي تقريباً لكن ليس فيها أي بناء حجري سوى المسجدين وحتى مساعد صاحب الدولة الخاضع لحاكم بيت الفقيه كان يعيش في مسكن شعبي يشبه البيوت العادية في نهامة

في ٢٤ شباط/فبراير تركنا غامية وترجعنا نحو الجنوب الغربي وبعد أن سرنا ميلاً ونسب الميل وصلنا إلى قرية كبيرة تدعى قطية (Kataja) حيث هناك نزل مجاني في القرية لاستقبال المسافرين نكب لم نوقف فيه. في الفترة الباقية من النهار سرنا نحو الجنوب أحياناً بسرعة وأحياناً يبطء مما حال دون تمكيني من أخذ طوبى الطريق من خلال الوقت الذي صرفناه في اجتيازها وبالتقرب من جبل عالٍ في شرق الدرب رأينا قرية كثيرة تدعى كلها شعاري (Schāāra) على اسم قبيلة أو عائلة عربية بعد ذلك وصلنا إلى وادي شام وهي شأنها شأن سائر وديان نهامة، لا تعمرها المياه إلا أثناء المطر. وفي منتصف الطريق بين غامية وبيت الفقيه هناك وادٍ آخر واسع يدعى البني (El Belle) وقرية قرية تحمل الاسم نفسه. ثم وصلا إلى قرية تدعى السماي (El Tāmāni) ورأينا بعدها عدة قرى أخرى. أخيراً وصلنا بعد منتصف الليل بـ نصف ساعة إلى كوج أو ما يشبه مقهى ففضينا الليل فيه ولم نجد فيه إلا شياً بديه ستة أصابع في كل يد وكل قدم.

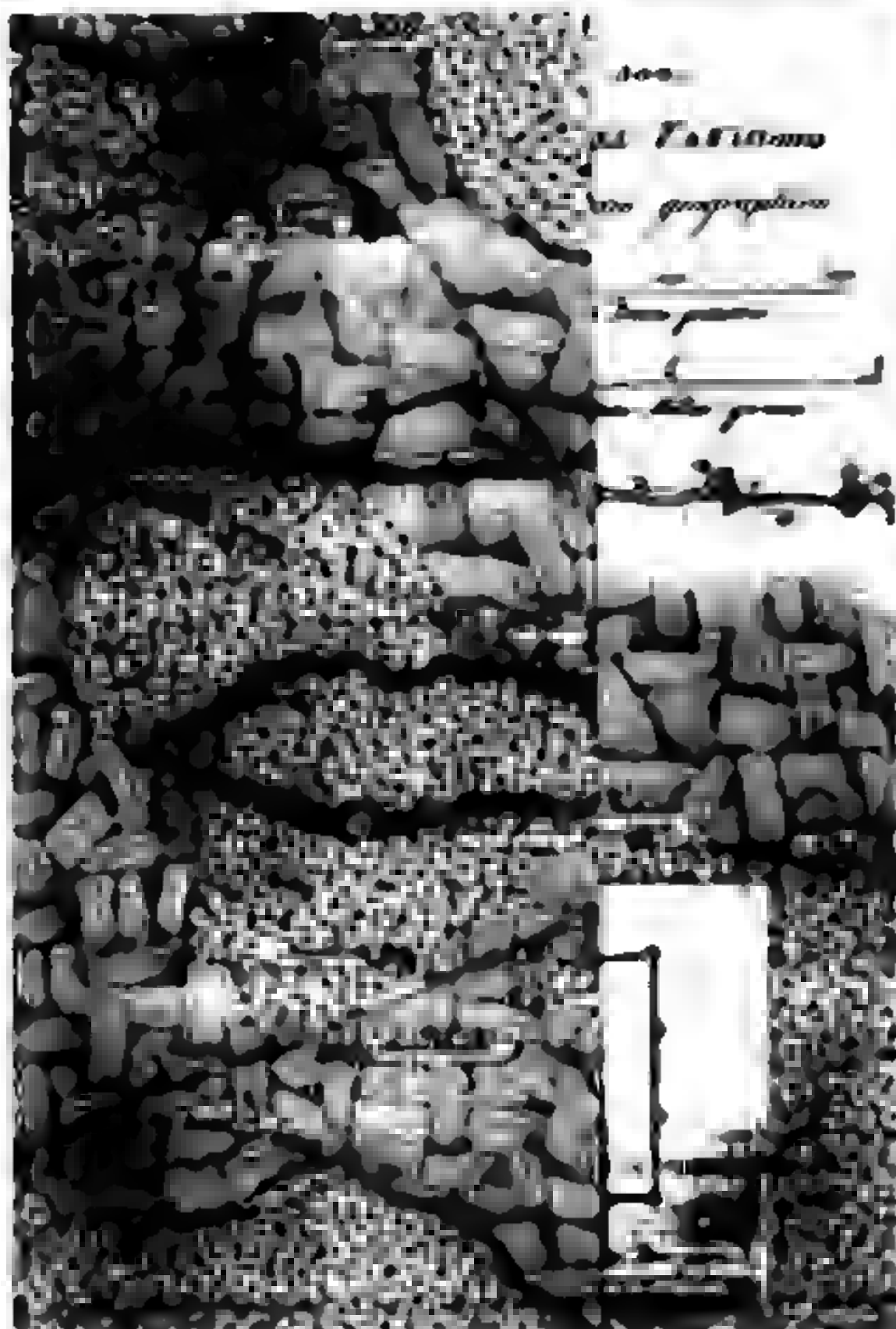
ثم في ٢٥ شباط/فبراير كنا على بعد ميل واحد من بيت الفقيه وصلنا إلى بيت الفقيه في الصباح الباكر فنقلنا أعراساً أولاً إلى الجمر ك لكن لم نتمكن من فتح صناديقنا إلا عند الظهر. وفي هذه الأثناء سلمنا رسالة من محسن المكويش (Machsen el Mekawisch) من حجة إلى عنبر سيف أحد أهم تجار بيت الفقيه الذي استقبلنا بحفاوة بالغة ولم يكتف بأن نقل أغراضنا من الجمارك إلى منزل استأجره لنا بل دعانا جميعاً إلى العشاء في صياحه لأننا لم نكن قد استقرنا بعد

إن بيت الفقيه هي مسكن صاحب الدولة الذي يحكم ولاية كبيرة تقع على ارتفاع ١٤٠، ٣١

وهناك قلعة في هذه المدينة يديرها أهلها شديدة الأهمية ثم إن المدينة مفتوحة ويسارل بعيدة عن بعض
وهناك الكثير من الحجارة مستعملة في تدعيم الساء إلا أن عالية لشارل قد بنيت على الطريقة الهندسية
في تهامة أي إنها تتألف من أكواخ طويلة مستديرة السطوح ومغطاة بالعشب نزل في بناء حجري مرب
منه صاحبه للتخلص من حشرات حجمها كحجم النمل تسمى أرصة (Attd). كانت هذه الحشرات
موجودة في كافة الغرف تشق صريخاً لها معطى بالتراب اعتباراً من الأرض وحتى المكان الذي تبحث فيه
عن الطعام. وهي تأكل النفاكية والنياب وكل ما نجد. فليس إداً من العرب أن يكره العرب شغل ممر
تمنزه الحشرات. كما وتحدث هذه الحشرات أضراراً كبيرة في المنزل تشق طريقها من جذور الشجرة
حتى رأسها فتاكل الخشب الجديد وتفضي على الشجرة ويقال إنها لا تهجم على كافة الأشجار بل
تقتصد الشجر ذا الخشب الناعم. ولأن البستاني يعمدونها يقومون بتدمير ممراتها. أما نحن فطعمنا طرفاتها
في الغرف لكنها كانت تعيد شفاها دائماً. وبعمل هذه الحشرات بسرعة في الظلام نكن حركاتها بطن
على ضوء الشموع وعلى طول الطريق في تهامة رأينا نباتات كبيرة مغطاة بالتراب وعندما كنا نهرها
لإبعاد التراب عنها كنا نرى أعداداً من هذه الحشرات المعطاة وكانت نباتات جافة تماماً

إن موقع هذه المدينة يعتبر استراتيجياً بالنسبة للتجارة فهي تبعد مسافة نصف يوم عن الجبال التي تتح
أبى ومسافة يوم ونصف عن مرفأ حديدة ومسافة أربعة أيام عن المحا وأربعة أيام ونصف عن بحجة رسة
أيام عن صعاء وفي بيت الفقيه تقوم أكبر تجارة للبر على صعيد نيمس كلها وربما على صعيد العالم
بأسره تختدب هذه التجارة إلى المدينة بداراً من الحجار ومصر وسوريا والعسطنطينية وواس والمغرب
والخيشة والساحل الشرقي في شبه الجزيرة لعرب وبلاد فارس وبلاد الهند وحتى أوروبا. ومن سكان هذه
المدينة هناك وثيون من الهند وعالية من الديو (Diu). يتمتع هؤلاء بحرية عمدة ديمهم عند لكن يبع
عليهم حرق موانهم وإحصار نسااتهم معهم إلى اليمن ومن هنا نخدم يسرعون إلى العودة إلى بلادهم
ما إن يجسموا بعض المال. وفي أيامنا كان في المدينة أكثر من ١٢٠ من البنين والرامسوت منهم الحجر
الأثرياء والحرفيون البارعون.

ليست مدينة الفقيه بامدية القديمة لأن عمرها بعض القرون مثل مخيعة. ويعود أصلها إلى شيخ شهير
يتميز العرب في تهامة فقيهاً لذا فإن اسمها أي يس الفقيه يعود إليه. يدعى هذا العربي أحمد بن موسى ولا
يران صريحه قائماً إلى اليوم داخل مسجد مبني على تلة رملية حرج المدينة. وحتى يوم يحفل به الشعب
مرة كل سنة في شهر ربيع الأول. وفي السنوات الأولى كان المؤمنون يشدون مراكبهم حول صريح فقيهم
ثم مع تدهور الحركة في مرفأ علفقة، تدهور حال التجارة فيها. كما في ريد وبدأت تدهر في مدن أخرى
سها بيت الفقيه وبعد أن كثرت هذه المدينة لدرجة أن سيد الولاية قرر أن يشيد فيها قلعة، اختار مكاناً
يسهل فيه جلب المياه لكن دنت كلغة عناء كبيراً. فمن دون دنت لما كانت القلعة شديدة الأهمية ولا شك



أن العرب بعد ذلك وجدوا أن صاحب الدولة والقلعة يهرن الأمن أكثر من قبيهم وصاروا يشيدون بيوتهم قرب القلعة، لذلك لا يجد قرب مسجد أحمد بن موسى إلا بعض الأكواح وإيكم بعض الكرامات التي تعزى إلى هذا العقبة مسلم. كان أحد البساوات الأتراك محصوراً لأكثر من ٢٠ سنة في إسبانيا وكان قد تصرع من دون جدوى بعدد كبير من الأولياء، إلى أن تذكر العقبة أحمد فتصرع إليه لما كان من العقبة إلا أن أخرج به من صريحه وفي اللحظة نفسها وصل الباشا من إسبانيا إلى بيت العقبة مكيلاً بالسلاسل ومربوئاً إلى حجرين. ويقال إن هذه معجزة حصلت أثناء الليل بينما كان الدس يحتفلون بعيد العقبة أحمد وفي حصور عدد كبير من داس ولا زال السلاسل والحجران موجودة إلى جانب ضريح الولي

وباعتبار أن هذه المدينة ليست عريقة الأصل، فلن أتوقف عند آثارها. فلما لم أجد فيها إلا المكتبة الكوفية القديمة التي أدرجتها في اللوحة السادسة من كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية». ولقد نقلت الكتابة في حصور عدد كبير من المضاهادين دون أن يهتمي أحد بالتنقيب عن الكنوز أو بممارسه الشعوذة كما فعل المصريون، وكما يفعلون عادة بنية الحصول على المال. لقد كان المشاهدون شديدي التهذيب وخاصة الشيوخ والعلماء المسموع منهم ولقد شعر هؤلاء بالعصاة لرؤية أجانب يتكبدون عناء فت مرور كتاباتهم لتعلم اللغة العربية القديمة

نعم بيت العقبة فيما يشبه الوادي ومع أنها ليست شديدة الخصوصية إلا أن الزرع لا يعضها، كما يظهر في اللوحة (LXII) التي حددت فيها القرى التي رأيتها على الطريق ولما طلق التي بدت مغطاة بالعشب الأخضر في هذه النوحة هي المناطق غير المروعة وروصلة المعطاة بالعشب الذي يعرش على سطوح المنازل في تهامة. وتشير العلامة إلى الآبار المعورة في كافة الأرجاء. وهناك مصنع قرميد في جنوب المدينة، وتقع القمة في الشمال (راجع الخريطة أ). كما ودرى في اللوحة (LXI) منظرًا عاماً لبيت العقبة

بعد أن علم حاكم لحية أن السيد فروسكال بني مرة وحيداً في مور رأى أن سمر وحدا يعرضنا لنحظر. وسمح لنا بالذهاب حيث شئنا شرط إعلامه مسبقاً لتزويدنا بأحد الجدد وإرسال رسائل مساعدته ولغيرهم من رؤساء القرى؛ وكما سحلى بسرور عن صحة هؤلاء المرافقين إدا اشتبهنا في أنهم يقتلون أخبارنا وأخبار أبحاثنا إلى الحكومة ثم إن سكان اليمس كانوا شديدي التمدن لدرجة أننا لم نكن بحاجة لحماية أحد حتى القصاة ولم يكثر بأمرنا صاحب الدولة في بيت العقبة فعصا بالخرية الكامنة في هذه المدينة. ولقد تعرفنا على فقهاء فقراء وعلى تجار وحظيت بمعلومات كثيرة حول الجغرافيا وغيرها من الأمور التي أدرجتها في كتاب «وصف شبه جزيرة العرب»

رحلة من بيت الفقيه إلى غلفقة والحديدة والزبيد والتحيقا (Tahate) والقحمة (Kahhma) وهدية وإلى الجبال المنتجة للبن

كثيراً ما سمع في تهامة بالمدن التي يذكرها أبو العلاء وغيره من الكتاب العرب والتي تهدمت كلياً ولم تعد تمثل شيئاً اليوم. ولأن قدامى الكتاب العرب يسمون كثيراً بموقع هذه المدن قررت أن أذهب بنفسي إلى أماكنهم ليس لأحدد مواقعها الجغرافية وحسب بل لأقوم بدراسات على الآثار المتبقية. ومع أنني لم أجد سوى بعض الكتابات القليلة الأهمية رأيت أنها نهم أولئك الذين يدرسون اللغات لمعرفة أي حرب عربي كان يستعمل في تلك العصور في بهذا الجزء من شبه جزيرة العرب.

وبعد أن اطمأنت إلى أن السفر آمن إلى تلك المنطقة قررت للذهاب أولاً إلى غلفقة والحديدة. ولم أجهز نفسي كثيراً لهذه الرحلة. ثم استأجرت حملاً لنقلي وخرجاً وضعت فيه بعض الثياب والكسب. كانت ثياب سفري تنحصر في عباءة ومعطف من دون أكتاف وقميص واسع على الطريقة العربية بالإصافة إلى سراويل واسعة من سيج الكتان وروح من لأحذية ومع أن السرعة شبه معدومة في تهامة إلا أنه لا بد للمرء أن يتسرع. لذا يؤدب نفسي بسيف يتدلى من تحت فراعي بالإصافة إلى روح من المسدسات تحت حزامي. أما المكاري الذي كان في الوقت نفسه دليلي وخدمتي والذي كان يصني شيئاً على القدمين فكان يحمل صكياً كبيراً وميضاً وترساً. وجدير بالذكر أن قراء العرب يحملون في أسلحتهم رمحاً وفأساً صغيرة بدلاً من السيف. كنت أستمع لسجادة عتيقة كعطاء وكهاوله وكروسي داخل البيت وكشراشع أثناء الليل. وكنت أحمل معي أربكة صغيرة أضعها على السرج أثناء النهار وتحت رأسي أثناء الليل. وكنت أتغلى ليلاً بقماش كبير يضعه العرب عادة فوق كتفهم للاتقاء به من الشمس والطر. كما وجدت معي جرة للماء عتقتها على السرج. إن أي عربي كان معه في سفره قدرته (Kiddre) وهي الغليون الموجود في الصبرة (من) من اللوحة ١٥ في صبرة في الجبل إلا أنني لم أتركب عتاء حبسها معي لأنني لم أكن معتاداً على التسحين وقد عودت نفسي على العيش على الطريقة العربية فلم أحتج إلى الملاعق والشوك والسكاكين. ثم إن ذوي الشأن من العرب يحرسون على تأمين سبل الراحة أثناء السفر إلا أن ذلك مكلف جداً ويعرضهم إلى بعض الخطر بسبب عناهم.

في ٧ آذار/مارس تركت بيت الفقيه متجهاً إلى العرب نحو باب غلفقة الذي كان دائع الصبب في السابق. واليكم أسماء القرى التي رأيتها على يمين الطريق ويسارها: حاجي آجي (Hadsr Adsr)، ثمانية حصارة، مقرشية (Makarschia)، وخضيرة (Choddre) ومن هذه القرية حتى غلفقة لم أشهد أي

قرية لكن على بعد ٣ أميال رأيت أربعة آبار محفورة بما يدل على وجود قرى قريبة معني الحيات من رؤيتها. ولقد كانت المسافة من البئر الأخير وحتى غلعة ميل ونصف وكانت الطريق معصاة بالرمال من هنا وهناك مما جعل دليبي يصل طريقه أحياناً لأن الهواء غير الكثيف الملوثة من الرمل وكنا أحياناً نعود أدراجاً بسبب الكثبان الحديثة التكوين. ووفقاً لهذا احسب هناك مسافة ٥ أميال و ٨/٣ من بيت العقبة إلى غلعة وهناك مسافة ثمانية منها إلى ريد.

كانت مدينة غلعة شهيرة في الماضي لأنها كانت مرفأ ريد إلا أنه لم يعد ناشطاً، ليس لأن مياه الخليج العربي تراجعت ولأن أرصفة المرجان تصحمت وحسب بل أيضاً بسبب التلال الرملية التي كوّنها الهواء في هذا المكان منذ بضع سنوات. وتقتصر غلعة اليوم على ٢٠ أو ٢٠ كوخاً صغيراً منتشرة بين شجر السحل، ويقتش أهل هذه القرية من التمر والخراف لأن صيدهم شديد التوسع ثم إن ثروة هذا الشاطئ هي الملح ويسمح لأي كان بأن يأخذ منه قدر ما يشاء شرط أن يدفع لمحاكم (وهو أمين سر صاحب دوة بيت العقبة) صرية على كل حمولة حمل إن الجدران المقنونة التي تبعت من مقام السيد علي المدفون في مشهد هي التي تراها فقط في هذه المدينة القديمة. ولا يزال سكان غلعة إلى اليوم يوجهون صدقاتهم إلى السيد علي وفي أماكن عديدة على طريق المدينة وجدت موطاً غير صالحة للشرب كانتني وحدها في غلعة.

ولقد رأيت في مقبرة هذه المدينة حجرين عبيها كتابة كوفية وكان واحد منهما لا يزال واقفاً يسا الآخر ممدداً على صريح ما وعندما كنت أنقل الكتابة عن حجر الأول من بي بعض سكان القرية البسطاء فاستعربوا ما فعلت. وفي اليوم الثاني عندما جئت أنقل كتابة الحجر الثاني لم أجده ولا بد أن القرويين قد أحرقوه فذا منهم مني سأستعمل الكتابة لألحق الصرر بأهل القرية أو لأجي بعض المال. ثم توجهت إلى حكيم القرية ووعدته بمبلغ زهيد إن أثر لي هذا حجر. فقدمني في طريق صيقة إلى أن وصنا إلى كوخ حفير مبني على قبر شيخ يسمى صالح وأكد لي أن سكان البلد هم يحمون الحجر بل هو هذا الشيخ الذي أحده ليحميه. وبارعم من ذلك نقلت الكتابات دون أن أخشى إعضاب الشيخ صالح وعرض علي الحكيم نقل الحجر إلى بيت العقبة لقاء مبلغ من مال وتجود هذه الكتابات في اللوحين السابعة والثامنة من كتاب «وصف شبه جزيرة العرب»

في اليوم التالي عادت غلعة بصحبة المكاري وحسب وبعد أن سرنا غالبة الرقت على طول الشاطئ باتجاه الشمال والشمال الغربي وصنا إلى المدينة. فوجدنا على جاسي الطريق أشجار السحل لكن المارل قليلة العدد. ووفقاً لحساباتي هناك ميلان وثلاثة أرباع الميل من غلعة إلى الكوخ المسقى قرام (Kurēm) الذي يعد نصف ميل عن قرية شران الشروم وفي شمال القرية نجد بعض منازل وسعد السحل لكن أصحابها لا يسكنون فيها إلا عندما يثمر البلح وهناك مسافة نصف ميل بين شر م

رحلة من بيت الفقيه إلى غطفه والحديدة والزيد والحبنا والقحمة وهدية وإلى الجبال المتوجة للبر

ومساحي. ثم بعد ذلك صرت في الليل ميلين أناسين بحلال ساعتين وأربعين دقيقة إلى أن وصلت إلى الحديدة. إذن إن المسافة الواقعة بين غطفه والحديدة هي خمسة أميال وربع تقريباً.

إن مرفأ الحديدة أفضل من مرفأ محجة إلا أن السفن الكبيرة لا ترمو فيه. ويخضع صاحب دولة الحديدة إلى الإمام مباشرة إلا أن ولايته لا تمتد إلى خارج حدوده أما عائلته فأخذها من الضرائب المعروضة على ابن المصدر وتتألف من صاحب الدولة والحمرن والتجار الأساسيين من التجار أم المنازل الباقية فهي ممتلئة مع إمكانات العامة أي تكون مبنية بطريقة سيئة جداً. وهناك قلعة صغيرة من جهة البحر دس فيها شيوخ الحديدة الشيخ صادق وتقع خارج المدينة ويحتفل به كراه في ١٥ شعبان التقبيل المسمى دو هافن (De Haven) وكرامر (Cramer) وكانا قد قاما بجولة في الحديدة لتسليم

رسائل توصية من أصدقائنا في جدة ومن صاحب الدولة إلى تاجر استقبلهما بحفاوة بالغة. ولأنني لم أرفع بلاضاعة الوقت في الزيارات الرسمية، عدت إلى بيت الفقيه في اليوم التالي أي في ٩ ادر/مارس

في هذه الفترة من السنة، لا يسافر الناس إلى نهضة إلا أثناء الليل ويعتبر أن هذا الأمر يحسن من رؤية الأماكن ومن رسم خارطة البلد، لذا فصبحت النخلة عن برودة الليل والسرور خلال النهار وفي حرارة الشمس. تمتد الطريق باتجاه الشرق والجنوب الشرقي وقبلاً نحو الجنوب ويوجد على طول الطريق عدد من الأكواخ يستريح لساكني لا تشاف الفهرة بها، لكن المنازل تريب تقريباً ولقد قيل لي إن هذه الأكواخ أخذت أسماءها من القرى التي كانت يقربها وتبعد الحديدة ٤/٣ الميل عن مشوره (Muschuna) التي بعد ربع ميل عن أسرية (Iswic) ومنها لأشيل (Uchule) مسافة ربع ميل. أما المياه فهي عذبة في هذا المكان. يقصده سكان الحديدة لهذه العربة وتبعد أشيل مسافة ٨/٧ ميل عن محاج (Maschadsje) التي تبعد ثلاثة أرباع ميل عن شير (Chabeian) ومنها ثلاثة أميال إلى عن موسى (Mussie) وهي القرية الأولى التي رأيتها على الطريق وتبعد ٨/٣ الميل عن وادي عباسي. ثم إن القرية التي أعطت اسمها لهذا الوادي تقع في جنوب الطريق وفي الشمال هناك قرية تدعى نوع تقع على بعد ربع ميل من عاري (Garri). ومن غاري هناك ثم إن إلى قرية قاما (Qama) التي تبعد ٤/٣ الميل عن مشوره ومنها نصف ميل حتى الكوخ المسمى شعبية (Shabbie). من هذه القرية احترت مسافة ميل وثلث الميل إلى أن وصلت إلى المدينة. إذ هناك مسافة سبعة أميال وثلث الميل من الحديدة إلى بيت الفقيه اجتزتها كلها في يوم واحد على ظهر حمار استأجرته ورفقة دليلي الذي كان يسير على قدميه

ولأنني لم أكن أي زجاج من العرب أثناء رحلتي، قررت القيام بالزيد منها فركت بيت الفقيه في ١١ ادر/مارس متجهاً نحو ريد لأرى ما تبقى من هذه المدينة التي كانت في الماضي عاصمة مهمة ولأرور مدينة النجدة (Tahate) الصغيرة القريبة منها بعد أن أكد لي سكان بيت الفقيه أنني سأجد فيها بعض الكتابات الكوفية ولقد رافقي في رحلتي هذه عربي فقير لكنه يجيد القراءة والكتابة واعتم فرصة الذهاب معي ليزور أحد معارفه في ريد ولقد سعدت لذهابه معي.

تتمدد الطريق إلى الجنوب العربي من بيت الفقيه، وتقع قرية حنة على بعد ٨/٣ الميل من المدينة. ثم على بعد نصف ميل من المدينة نجد كوخ أثم (Ussum) حيث يمكن إرشاف القهوة وبعد أن سرب نصف ميل تقريباً وصلت إلى وادي كوة وهو وادٍ صغير يجد فيه ماء في أيام المصير ويؤدي طريقه المتجهة نحو الجنوب العربي إلى كوخ يدعى مفتة (Mefātea) بعد عنه ثلثي أميل وهناك مسافة ٨/٣ الميل إلى كوخ يدعى دمة (Dimac) يقع على بعد نصف ميل من قرية المجلية (Mehālic) باتجاه الجنوب الشرقي ولقد رأيت بغير عنى هذه الطريق. ومن المجلية يجتاز مسافة نصف ميل لوصول إلى قرية أخرى هي قرية مهاد ولقد رأيت على هذه الطريق ثلاثة آبار محفورة إن هذه القرية تقع في وادٍ واسع وحصب يسمى سكان المنطقة وادي امهاد. يتلقى مياهه في أيام المطر من جبل رما (Rêma) قبل أن تتورع في عدة قنوات. ويكثر شجر البقلة في هذا الوادي.

بعد أن اجتازت ربع ميل جنوبي عربي المهاد وصلت إلى كوخ يسمى جوة ويمر بقرية ساعد من سواعد وادي رما. ولقد وجدت فيه بعض الماء لكن المياه يذب رايكه وعندما مررت به مرة أخرى في ٢ آب/ أغسطس وجدت المياه لا تزال هي هي. لكن من السكن وجود سبع في هذا المكان ويقول الناس إنه على بعد ربع فرسخ جنوباً كانت هناك مدينة كبيرة تدعى المهاد لكن لم يتبق منها أي مبر.

إذا توجهنا من جوة نحو الجنوب واجتازنا نصف ميل نصل إلى كوخ جبل ومن هذا الكوخ هناك مسافة نصف ميل وصولاً إلى ريد إذا فالمسافة بين بيت الفقيه وريد هي خمسة أميال ألمانية و ٨/٣ ميل وقد اجتازنا خلال ست ساعات وخمسين دقيقة. وعلى بعد ربع ساعة من المدينة، رأيت دليلي كومه من الحجار قائلاً بها ما تبني من قبة كانت لا تزال موجودة مد يصعب سواها وأنه في العصور الماضية كان هناك مدينة كبيرة في هذا المكان وكانت تسمى البرد (El Band).

تقع مدينة ريد بالقرب من الوادي الأكبر حجماً والأكثر حصوية في نهامة كلها. وكان هذا الوادي جافاً لكن موسم المطر يحمل إليه كميات غائلة من الماء تصب عليه من الجبال فيصبح بهر كبير مثل النيل في مصر يسمى القرى المجاورة ويحصبها وهي انصامي كانت هذه المدينة مكان إقامة أمير مسم وكانت من أهم المدن التجارية في نهامة. نكر بعد أن أصبح مرفأً عميقة غير صالح وبعد أن انتقلت التجارة إلى الحما والحديدة ومحبة وبيت الفقيه لم يتبق من ريد إلا شهرة انصامي ابائدة نكر لا يد من القول إن ريد تتمتع بأفضل مظهر حرجي من بين مدن نهامة كافة ويعود الفضل في ذلك إلى رجال الدين الذين عرفوا كيف يجذبون الكثير من الثروات، علماً أن السكان لا يحصلون اليوم إلا على خمس عائدات المدينة والبقع المجاورة ويحصل الأمير على الخمس الثاني بينما يحتفظ رجال الدين بالأخماس الثلاثة الباقية. ندلت نجد في المدينة الكثير من المساجد والقبب التي تبيض قبيل حلول شهر رمضان. وهذه القبب هي بناء صغير يوضع على قبر المسلمين الأثرياء الذين يعتقد الشعب أنهم بمثابة أولياء ويقال إن

رحله من بيت القبة إلى فلقة والحيدة والزبد والتجنا والقصة وحديّة وإلى الجبال المتجهة إلى

القبة المسماة جامع ابن عمر عبد الأحد حيث يؤدي صاحب الدولة الصلاة كل يوم جمعة قد شيدّها إمام كان يقيم في جبلة (Dsjobla) وإن قبة الأشهر (El Ashār) قد بناها أحد صحابة الرسول محمد. ويقال إن مسجد باش القريب من باب شباريق والمسجد القريب من باب انقرطاب وعمره عن المسجد هي من بناء الباشاوات الأتراك الذين كانوا يقيمون في المدينة وأن مسجد الإسكندرية الذي يقع اليوم داخل القصر بالإصافة إلى مسجد كمالية المجاور له قد بنهما ساء مركبات. ويرى في هذه المدينة دور عبادة أخرى يقول أنها رائحة الجمال. ويمكننا مشاهدة آثار قناة ماء تمر في الجبال وتصل إلى المدينة ولا شئت أن أحد الباشاوات الأتراك هو الذي بناها. إلا أن هذه القناة لم تعد صالحة منذ عدة سنوات. وحالياً يجلب السكان الماء من الآبار العمورة عندما أن مياه المدينة ليست صالحة. حيث نجد في ريد وفي جوارها بساتين غناء كثيرة.

يرغم أبو العدا أنه كان لزيد في الخاصي ثمانية أبواب إلا أنني لم أسمع إلا بخمسة أبواب؛ كان باب التحل يقع في جنوب المدينة العربي وقد اتسعت المياه من أساسه منذ سنوات. ولا يزال باب القرطاب قائماً نكه في الأغلب سيلقى مصير الباب السابق. وباب شباريق يقع في الشمال الشرقي وباب الشام في الشمال. ولم يبق من هذا الباب الأخير إلا أحدران الجابية. وقد هدت أسوار المدينة بكاسها تقريباً لأن الفقراء من سكانها يقومون ببيع حجارنها. وقد دقت في أبواب المدينة وأسوارها واستغرق مني المرور حولها ساعة وبنضع دقائق. وبالكاد نحتل المدينة اليوم نصف المساحة التي تقع داخل السور لكن لا نزال نجد فيها عدة مساجد وقبب.

إن جن ما نصير به زيد هو المدرسة الإسلامية التي تحتاجها تهامة كما يحتاجها قسم كبير من بلاد اليمن. إن هذه المدرسة ذاتة الصيت منذ سنوات. ولا يزال ثيان السنة يتعلمون فيها إلى اليوم العلوم الشائعة بين المسلمين. وبالإضافة إلى صاحب الدولة الذي يعيش في هذه المدينة هناك أيضاً مفت وقاص من المذهب الشافعي، وقاضيان آخران من المذهب الزيدي كما ينتمي إمام صعاء إلى هذا المذهب نفسه وكذلك أتباعه في المناطق الجبلية؛ كما ذكرت في ووصف شبه الجزيرة العربية.

لم ألتق بين المسلمين كافة بعربي أكثر فخراً من ذلك الذي التقيت به في لزل ريد. ولقد كان يعناش من التجول في البلاد على حساب أثرياء الدين. وكان قد رار الحيشة ومصر وسوريا بهذه الطريقة. وكان شرفاً من الشرفاء ويبيع على نفسه صرة الأسد العظيم. ظننت في بادئ الأمر أن حديثه سيبرد علي بالفائدة لأنه قد ور الكثير من لندن لكنه لم يستطع إخباري بحصائصها وجلّ ما استطعت أخذه من حديثه هو أن الشيوخ وأصحاب الدولة والباشاوات وغيرهم كانوا يكرمونه خير إكرام عندما يحلّ عليهم لأنه شريف سيد من الدرجة الأولى وكان يؤكد لأصحابه أنه يتكلم التركية والإيطالية والفرنسية واللغة الحيشية لكنني وجدت أنه لا يعرف من اللغات الثلاث الأولى إلا شتية أو بعض الكلمات التي يسمعونها من الأوربيين والأتراك الذين يزورون بلاد اليمن. وبدلاً من أن يقوم المسافر كما في أوروبا باستجار غرة

معروضة في البول عليه أن يكتب في اليمن بأن يستأجر لكل شخص كرسياً أو سريراً يحضر عليه أثناء النهار ويام عليه أثناء الليل. ولأن الشريف السابق الذي لم يكن معه ما يكتب من المال لاستئجار سريرين به ولأبيه البالغ من العمر اثنا عشر عاماً ادعى أنه يفضل أن ينام به بجواره في السرير نفسه لأنه يحس به عنه أن ينام وحده. وكان يرسله أحياناً ليقول للخدم أن يقوموا معه ما إلا أن اكتشفنا أن النصي المكتوب كان يؤدها بنفسه لأن الشريف لم يكن عنده أي خادم أما عن زوجته فسكنية فكان يادها بنقب «شرعية» وقد حكى لي بالتفصيل عن أصلها وفصلها من بعد أن فصل لي شجرة عائلته بالطبع وذلك لإخباري أن أحداً من أسلافه الذين يصلون إلى عني بن أبي طالب لم يتزوج امرأة من عامة الشعب كان يحترس سبب شرفاء تركيا وأسياد اليمن لأنهم تزوجوا من بساء عربيات. وكنت قد سألت يوماً تركيا إذا كان باستطاعة ابن أحد «شرفاء» من أم أمية أن يحافظ على لعب الشرف فقال لي إن عراة هذا الابن تفقد جزءاً من قيمتها فتصبح تماماً كقطعة الذهب المخبأة داخل حرق من القماش البالي. إلا أن الشريف الذي كنت بصحبته أخبرني أن هذا التشبيه ليس صحيحاً. وقال لي إن ابن الإمام الذي كان أسلافه من الأسياد البيض هو شديد السواد لأن أمه أمية حشية وكان الشريف بنادي ابنه بالشريف أحمد لكن عندما يخرج الولد عن طوعه يسمى كلب بن كلب وعندما سأله إذا ما كان يسمح لشرفاء بالنهوض بكلام كهذا قال لي إن ذلك لا يؤثر أبداً على العراة.

كما يعرف أن اسم «أبو» لا يعني بالضرورة والد. يستعمل العرب رجلاً له شاربان أبو شارب مثلاً، وأبو حمار رجلاً يملك حماراً كذلك يستعمل المرأة التي يبيع ابنها أم الربد وعلى الطريق بين البصرة وريبر هناك مكان سقط فيه حمار مرة فأرقي حموته من الحطبة في الماء. وبعد ذلك الحين يسمى ذلك المكان أم الحطبة.. وقد أخبرني المسلمون مراراً أنه لا يمكن نسبة المسيح بن الله لأن الله لم يجعل مريم نده بالطريقة التي ولد بها نحن طنت إذاً أن كلمة ابن باللغة العربية لا تعني إلا الولد من نسل أمه وأبيه ولعله لهذا السبب لا يستعمل المسلمون المسيح بن الله بل روح الله. إلا أن شبيعة ابن كتب بها عدة معاني.

وبعد أن قمت بالأبحاث اللازمة في ريد، انطلقنا في ١٢ آذار/مارس باتجاه التحينا (Tahate) ووصلنا إليها بعد أن اجتزنا مسافة ميلين وربع إلى الشمال الغربي مررنا كل الوقت في وادي ريد وهذا الردي جاف عادة كما في جوار مدينة ريد، لكن في الأماكن حيث لم يحضر الشلال معه الحجارة تتوضع لأتربة الخصبه نرى أجمل الحقول^(*) ويشتهر هذا الوادي بشجر النيل الذي يكثر في وديان تهامة

(*) قبل بي إنه عند سوات قليلة جرف الشلال فيه في مرة واحدة (Fata) الواقعة عند الوادي. كان «كوك» قد سمع في السريس عن فصلير ابن من نسقه (Fereca) إلى جد. إلا أنني لم أجده في اليمن كنت أي اسم قريب من اسم نسقه ما عدا «فريه» فابداً وهي شالية من أي مرقاً

رحلة من بيت العقبة إلى علفلة والحديدة والزبد والتحيتا والقحمة وهدية وإلى الجبال المنتجة للزبد

وقرب قرية التحيتا هناك أكثر من ٦٠٠ مكان مختص في صناعة النول الأرق.

إننا لا نزال نجد في هذه القرية عدد من المساجد والبيوت الحجرية المبنية على قبور الأثرياء من السكان والأثرياء قد كانت التحيتا لا تزال مدينة وابن حسن هو اسم أحد هؤلاء الأولياء ومع أن مسجده ليس الأكثر حداً إلا أن الناس لا يزالون يشعلون الفاديل كل ليلة أمام ضريحه كما يحدث أحد أهل بيته رلاً محانياً في القرية. لكنني دخلت إلى برن آخر غير مجاني وما إن علم صاحبه أنني عربي حتى جاء نفسه ليطلب مني التوجه إلى المنزل الآخر. لكن لأنني لم أشأ تغيير مسكني تلك الليلة، أرسل إليّ عشاء شهياً بدلاً من الطعام العادي الذي يتناوله العرب. ولقد قيل لي في ميرو إن أصحاب البرن لا يأخذون مالاً لكن هديتي المالية قبلت بمرحان الجليل نفسه الذي قبضت به العشاء

وكما في ريد، لم أجد في التحيتا أي أثر قديم جدير بأن أنقشه وقد فأن في العرب إن هناك كتابات كوفية داخل المساجد لكنني لم أنجز على الدخول إليها خوفاً من إثارة بغرات عدد السكان.

في ١٣ آذار/مارس عدنا من التحيتا إلى بيت العقبة. سرنا مسافة مئتين إلى الشمال الغربي قبل أن نصل إلى مَرَّة (Murra). وعلى طول هذه المسافة لم أر أي منزل وجل ما وجدته كان بئراً محموراً، ومَرَّة هي قرية كبيرة تقع في وادي إلهاد تحتوي عدداً من القصب وعلى قرب كبير يقدم فيه الطعام يومياً إلى ٣٠ أو ٤٠ شخصاً. من هذا البرل إلى الكوخ المسمى الدمة (Dimne) والواقع على الحدود بين بيت العقبة وريد هناك ٤/٥ ميل ولقد وصفت أنفاً الصريق من الدمة إلى بيت العقبة لكنني لم أجد شيئاً يستحق النقل.

ويعتبر أنني أعرف أن السمر هي ليس أكثر أماناً منه في البلد لأوروبية كنها، فما أن عُدت من سفرتي الثانية حتى بدأت أخطط لثلاثية. لكن بما أن شهر الصوم رمضان كان على وشك الحلول في ٦ آذار/مارس خشيت أن يصبح مسمو تهامة شديدي التفتوى في هذا الشهر مثل مسمي مصر. فقد كان مسمو مصر الدين رافقوا السيد فورسكان من القاهرة إلى الإسكندرية شديدي التفتد بأصول الصيام كما لو كانوا في بيوتهم؛ مما كانوا يأكلون أو يشربون شيئاً طوال النهار وكانوا يستأثرون عندما يأكل السيد فورسكال أو عندما تكون الرحلة شاقة. إلا أن مسلمي سيم لم يكونوا شديدي التفتد بأصول دينهم إذ يصومون شهر رمضان عندما يكونون في بيوتهم ويأكلون ويشربون كالعاده إذا كانوا على سفر ويبررون ذلك بقولهم إنهم سيمدون صوم هذه الأيام في أيام أخرى، إلا أنهم غالباً لا يكونون بوعدهم. وبعد أن تأكدت أن عرب اليس يأكلون ويشربون في أثناء السفر في شهر رمضان، استأجرت حماراً وانطلقت نحو (القحمة) في ١٩ آذار/مارس بصحبة المكارري. إذ كسب قد علمت بوجود بقاء مدينة قديمة تدعى لينو (Leluc). ولأنني لم أشأ أن أبرح للعرب بأنني أجوز في بلادهم بهدف رسم خريطة، تدرعت بأني أبحث عن الكتابات في ليلو لمعرفة حروف التي كان يستعملها العرب في الكتابة بالعصور العاربة

إنما نجد على هذه الطريق وعلى بعد نصف ميل من بيت الفقيه مكاناً يدعى الأقصى لم يبق منه سوى مسجد لا يزال بصورة حسنة. يحتوي المسجد على مئذنة يدعى شيخ الأقصى وهو ابن أحمد الموصى الشهير ولي مدينة بيت الفقيه وشيخها. ومن الأقصى يصل إلى كوخ يسمى ركتان (Rachtén) يقع على بعد ٨/٣ ميل ومنه إلى القحمة مسافة ميل واحد إذا تقطع هذه نغرية على بعد ميل و ٤/٣ ميل عن بيت الفقيه وعند الشمال الشرقي من المدينة. ولستك هذه الطريق يسمى أن نغز بوادي الحش وهو شأن باقي الوديان في تهامة، تعمده المياه أثناء مواسم المطر فينتقي بوادي الرما ويصب في الخليج العربي بين شرام (Schurra) وساحي بعد أن يأخذ اسم وادي عباسي.

وبعد وصولي إلى القحمة مباشرة جمعت معلومات حول آثار مدينة بلو لكني لم أجد إلا مقبرة تتكوها حجارة مخمسة الزوايا يبلغ إسطارها ثمانى بوصات تقريباً وطولها من أربعة إلى خمسة أقدام وبشدة ما كانت هذه الحجارة شديدة الدقة في القياس فطشت بأدنى ذي بدء أنها من صنع أحد الحائين إلا أنني سرعان ما اكتشمت بالقرب من المقبرة تلة تدعى جبل قحمة تتألف من حجارة بماتته عام السكان بقل بعض منها إلى المقبرة. ولقد كانت طبقات الحجارة في هذه التلة مصموفة عمودياً الواحدة قرب الأخرى وواحدة فوق الأخرى وكان بناء وضعها ثم في ٢١ آذار/مارس وفي ١٠ آب/أغسطس رأيت أعمالاً بمائة من أعمال الطبيعة في أماكن أخرى وبعد عودتي إلى كوسها عن قرأت في مخطوطة السيد كوسج وهو عالم دائم كفي أنه رأى في بسلدا أحجاراً بمائة مخمسة الزوايا يبلغ ارتفاعها من ثلاثة أذرع إلى ثلاثة أذرع ونصف وقطرها نصف ذراع. كانت هذه الأحجار مستقيمة ومصموفة طبقات طبقات الواحدة فوق الأخرى. ومن القحمة عدت إلى بيت الفقيه وأنا أخصط إلى رحلة رابعة

كان السيد فروسكان معمرعاً للقيام بأبحاث حول النبات في جبال؛ تماماً مثلما كنت أنا معمرعاً للقيام بأبحاث جغرافية في تهامة. وبشدة ما كان بحثه الذي تناول المناطق المنتجة لبن ناجحاً؛ رافقه السيدان كرايمر وبورقاند في المرة التالية. أما أنا، فقد أن تفحصت محيط بيت الفقيه من جهة الجنوب والشمال والغرب ذهبت في ٢١ آذار/مارس إلى جبال وفي بيبي الانضمام إلى أصدقاء رحلتي بعينه تشق الهواء البارد النقي وشرب المياه العذبة سرت ٨/٥ الميل نحو الشمال الغربي لبيت الفقيه ووصلت إلى الجبل (Dsjele) والعصرية (Amerie) بعد أن تجاوزت ٨/٥ ميل إلى الجنوب الشرقي. ولقد كان هالك قرية بين هاتين السبقتين إلا أنني لم أجد أي أثر لها. وبعد أن سرت ٤/٣ ميل نحو الجنوب الشرقي وصلت إلى «صعيد» حيث هناك مسجد كبير في هذه القرية له قبة جميلة وتقع سراب (Sorab) على مسافة ٤/٣ الميل، وعلى بعد ٨/١ ميل منها تقع قرية قفل (Kull) وعلى بعد ٨/٥ ميل عن قفل تقع قرية سنف (Sennef) الغربية من الجبال. ومن هذا المكان نرى مدينة هادية (Hadie) الصغيرة لكن كان علي السير لمدة ٧/٤ الساعة قبل الوصول إليها إن العرقت في هذا المكان وعرة لكن يكسا أن يرى ها وهناك بقايا طرق يقال إن الأتراك قد شقوها.

رحلة من بيت الفقيه إلى غلفاء والحدبة والزبد والصفا والقحمة وهدية وإلى الجبال المتجة لليسار

كان دفاق سعري في الجبال حيث يمو شجر البس. فتبعهم في اليوم ذاته سالكاً طريق القرمة (Kusma) ووصلت إليهم بعد ساعتين بالقرب من قرية بولقور (Bulgöfe) التي تعيش من البس. إنه لا يمكن الوصول إلى هذا الجبل إلا مشياً على القدمين ومع أن الطريق شديد الوعورة إلا أنني أحبيته، كيف لا وأنا الذي قضيت رحلتي بين حقول تهامة القاحلة، ولأن وجدت نفسي محاطاً به باليساتين وأشجار البس من كل مكان.

لم أر بالقرب من القحمة إلا نلة واحدة معطاة بالصخور الخمسة الزوايا لكن كانت أجبال بعاليته هنا على هذا الشكل. إن منظر هذه الصخور جميل جداً خاصة في الأماكن التي تسيل منها المياه من رأس الصخور على شكل شلالات مستوية إلى أعمة مستقيمة. ومن السهل انزع هذه الأحجار عن الصخور ويمكن استعمالها كدراجات على الطريق أو كجدران لتثبيت بساتين البس عند منحدرات الجبل.

إن شجرة البس معروفة في أوروبا. ولقد رأيتها مرهة هنا قرب بولقور تنبت منها رائحة ركية. تقع اليساتين الواحد فوق الآخر وبعضها لا يتبقى الماء إلا من الأمطار بينما هناك يرك في اليساتين العليا يمر منها المياه العذبة إلى كافة اليساتين الأخرى. ولشده ما تكون الأشجار مرصوعة الواحدة قرب الأخرى يصعب على أشعة الشمس اختراقها. قيل لي إن الأشجار التي تُسقى من غير مياه الأمطار لا تثمر إلا مرتين في السنة وإن ثمارها لا تنضج إلا مرة واحدة وإن الثمار التي لا تنضج تكون أقل جودة من الناضجة.

وبما أن الحجرة لا تنقص هاء فإن المنارل كلها مصنوعة منها. ومع أنها سيئة البناء بالمقارنة مع منازل أوروبا، إلا أن منظرها جميل من بعيد وخاصة تلك التي تقع على أعلى القمم والجبال والتي تحيط بها الحدائق والبساتين المرروعة شجراً والتي تكون على شكل جلول. ولقد كنا في منطقة أعلى من تهامة لكن في منتصف الطريق المؤدية إلى القرمة يقع منزل صاحب دولة هذا الأقليم على رأس أعلى جبل. إن المنظر جميل من كل النواحي. وفي مكان آخر حيث منزل مشيد خلف صخرة منحرفة، رأينا منظرًا رائعاً رسمه السيد بورنفيلد (راجع اللوحة LXIII).

قضينا الليل في بولقور حيث جاء عدد كبير من عرب القرية لزيارتنا. وبعد رحيلهم، جاءت مصيفتنا مصحوبة ببعض النساء والفتيات الراغبات برؤية أوروبيين. لم يظهر أي ارتباك عيهم لأنهم يركس ملابسهم القديمة لم يكن يرتدين نقاباً على وجوههم وكان يركس معاً بحرية تامة. رسم السيد بورنفيلد بياس تروية كانت متجهة لجلب الماء يمكن رؤيته في اللوحة (LXIV). كان قميصه وسرواله من نسج الكتان المقدم بالأبيض والأزرق. وكان القميص مربياً بعدة ألوان مطرزة بالإبرة حول العنق وأمام الركبتين والسروال من الأسفل حول الرجلين. وبما أن مناخ الجبال أقل حرارة من تهامة، وجدت بشره الناس فيه أكثر بياضاً



رحلة من بيت القلعة إلى خلقة والحنيدة والزبد والحبنا والقحمة رندية وإلى الجبال البسجة ليق



زلنا من الجبال في ٢٢ آذار/مارس ونجها بحر هادئة حيث عالياً ما يأتي التجار الأوروبيون من بيت
العقبة إلى هذا المكان نقضاء بضعة أيام لأن مناخ غير حار والبيئة جميلة والماء أكثر عدوه من ماء
تهامة. ومن المستحسن أن تسمى هادئة بالقرية الكبيرة بدلاً من مدينة الصغيرة. بيوتها فقيرة ويحصر
نشاطها بتجارة الخبث. وفي أيام معينة من الأسبوع، يحصر سكان الجبال كميات من البئر إليها يعطون
بعضاً منها إلى صاحب دولة الغرمة على أنها حراج ثم يحملون سباني على ظهر الجمال إلى بيت العقبة
أو مباشرة إلى حديدة

إن منظر المنطقة من بيت مساعد صاحب دولة هادئة لرائع خلابة. فإمام البيت يرى وادياً عميقاً فيه
جلول مزروعة قمحاً وبفولاً ووراءه هناك جبال محدرة ولشدة م كان اسفلر جميلة رسمته في
اللوحة (XV).

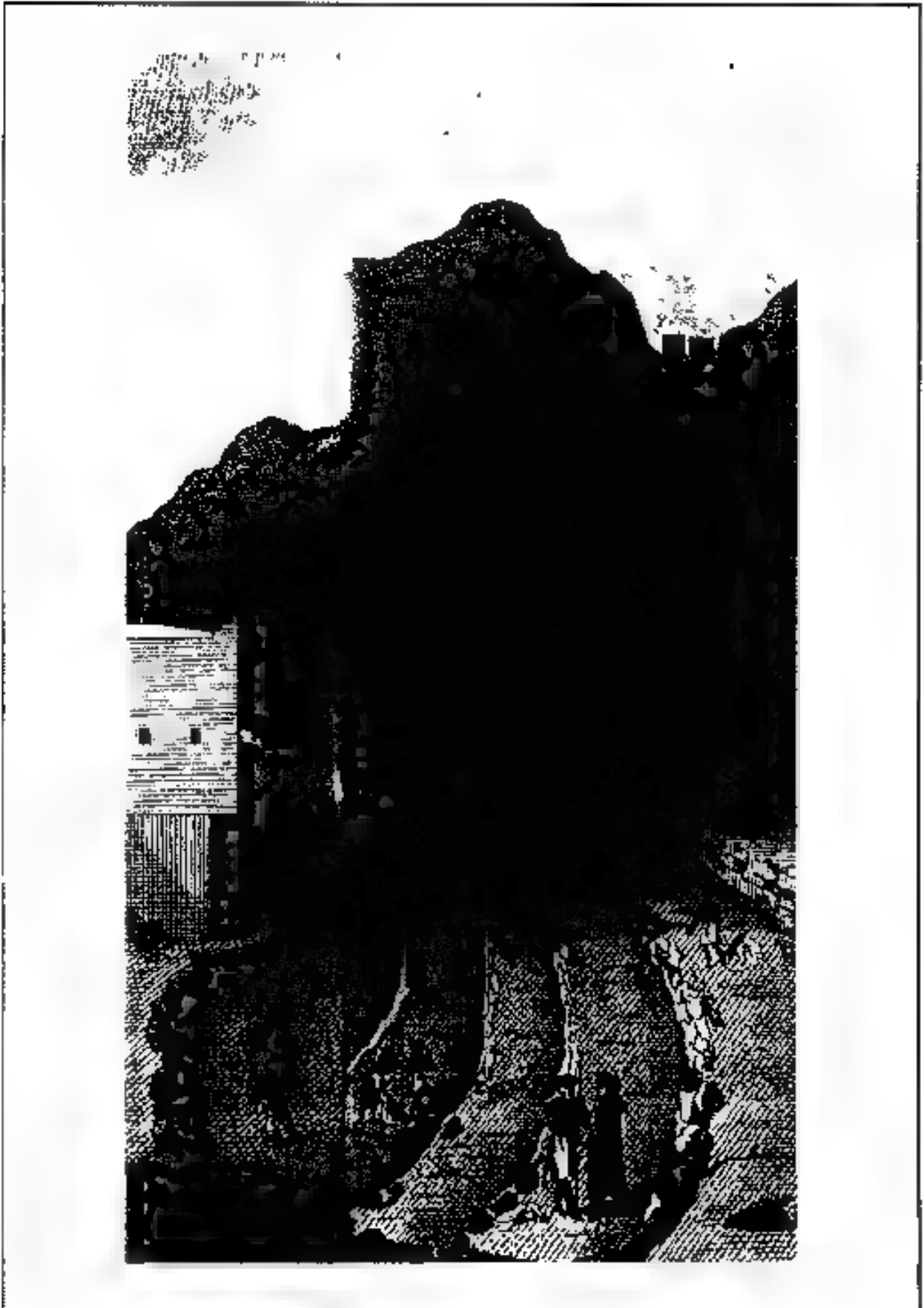
عدنا من هادئة إلى بيت العقبة من الطريق عيه الذي جئنا منه والذي وضعته سابقاً

صير الرحلة من بيت الفقيه إلى عدن، وجبله وتغر وحاس

لم نواجه في بيت الفقيه عراقيل تعيق أبحاثنا لأن السكان لم يعيرونا اهتماماً بالعلم خاصة وأنهم اعتادوا على مشاهدة تجار الفهوه الأوروبيين باستمرار وإن حاولوا الاستعلام عن جولاتنا قساً لهم إنها مفيدة للصحة. تعجب العرب الذين كنا نستشيرهم دوماً حول هذا المكان أو ذاك، من استعدادنا الدائم لنقل من مكان إلى آخر، رغم شدة الحر فهم يوصلون ملازمة منازلهم خلال فصل الصيد وعدم مغادرتها إلا عند الضرورة القصوى. ولما كنا نتوي السفر إلى فرانكبار في بلاد الهند بصحون بتفادي الجولات الخاصة حفاظاً منهم على صحتنا وكانوا يسألون عن السبب الذي حثنا على قطع هذه المسافات كلها، رغم أننا لا نرغب بممارسة الأعمال دون الملصون على شيء في المقابل. سطر لهم أننا نحس صناعة الذهب؛ ولهذا السبب كان عالم النبات يحجب الجبال بحثاً عن بيئة ضرورية لهذه الصناعة حسب ظنهم. وحظر لهم أيضاً أنني أمارس السحر، خاصة وأنني أرصد النجوم.

لم تحظر هذه الأفكار إلا لأصدقائنا من العرب. فصاحب الدولة لم يرسل أحداً يستعلم عن موضوع رحلاتنا؛ فاستلثت هذا انظراف للقيام ببعض الرحلات الجغرافية. وكنت أعرف جيداً مناطق تهامة، وخاصة القسم الشرقي من مملكة اليمن؛ وكنت أتوي التعرف على المناطق البائية خلال رحلتي إلى الحجاز لأنها اقترحنا الانتقال من الحجاز إلى تغر وصعباء، والعودة بعدها إلى بيت الفقيه. كنت أمل إذن أن أشاهد خلال هذه الرحلة القسم الجنوبي والشرقي والدخلي من المنطقة الجبلية في هذه البلاد. وفي سبيل رسم خارطة ليس حصر لي أن أعرف على طرق بيت الفقيه الواقعة في وسط تهامة، وعلى مدد أخرى واقعة في وسط المنطقة الوعرة. أما بالنسبة لطرق عدن، وجبله وتغر فهي راقعة شمالاً.

يستطيع المرء التنقل في تهامة ليلاً ونهاراً دون التعرض لأي سوء؛ ولكن لا أحد يحب السفر ليلاً في المناطق الجبلية، كما وأن التنقل وحيداً على الطرقات المنعزلة محفوف بالخطاير. خاصة وأنني لا أجيد اللهجة التي يستعملها عرب الجبال. فطلبت من صديقي مورسكال مرافقني في هذه الرحلة، حتى يترجم بي اللغة السائدة في البلاد؛ فبعد إقائه في اجبال حيث ينمو إلى تعلم عدداً كبيراً من الكلمات التي لا نستعمل أبداً في تهامة وبالتالي عرية عني كلياً. فلم يتردد بالقيام بهذه الرحلة التي ستأتي عليه بالعائدة أيضاً؛ فاستأجرنا حمارين من عربي رافقنا سيراً على الأقدام، وقام مقام مرشد سيدي لنا، وخادم وترجمان. وكنا قد أرخينا لحقتنا مثلما يفعل العرب، وارتندينا ثياباً طويلة أصفيت علينا طابعاً شريفاً، غير



أما استعمال اسمين عربيين حتى لا يعرف عليا الأبرويوس؛ وبعد أن اتحدنا هذه التمايز كلها، شك صائق الخمير في أمرنا، وحسبنا من مسيحيي الشرق.

في ٢٦ آذار/مارس انطلقت برقة السيد هورسكان والسائق من بيت الفقيه؛ وبعد أن قطعنا نصف ميل جنوباً، بلغنا قرية محل القوس؛ فاجتهد من هناك جنوباً أو جنوباً - شرقاً، لنصل إلى كوخ دياب، حيث ارتشف القهوة. وبعد أن سرنا حوالي الميل ونصف الميل، بلغنا قرية عربين الواقعة في وادي نهد وسكننا لاحقاً الطريق الجنوبي - العربي، لنصل إلى منجد، ومنها إلى قرية بساد، على بعد نصف ميل، وإلى قرية أرجود على بعد ربع ميل. وتبعد هذه القرية نصف ميل عن محلة الشيوخ المجاورة لربوع؛ وهي قرية كبيرة يقيم فيها أسبوعياً سوق كبير، يجتمع فيه التجار والحرفيون وانعاطلون عن العمل من القرى المجاورة بهدف جني المال أو النهو (راجعوا كتاب الوصف شبه الجزيرة العربية) ومن يقطن في قرية ربع شيخ يحصص لصاحب الدولة في ريد؛ ويبدو بالتالي أن ربوع تبعد خمسة أميال ونصف الميل عن بيت الفقيه.

وفي ٢٧ آذار/مارس، عادنا (ربوع) عند شروق الشمس؛ وبعد أن قطعنا نصف ميل جنوباً وصننا إلى عقي، وصننا إلى سلامة، الواقعة عند سبع الجبل الذي بعد نصف ميل عن مشعل. شاهدت قرب هذه القرية للمرة الأولى مياهاً جارية في البحر؛ هي وادي ريد قبل أن يدخل إلى نهامة واللافت للنظر أن مجرى هذا النهر عريض جداً في هذه البقعة؛ ولكن الأمطار لم تهطل منذ فترة طويلة، ولذلك لم يكن عرضه يتعدى ٢٠ أو ٢٤ قدماً. وبعد أن يدخل النهر رصبي نهامة الفاحلة، تصب مياهه في الأرياب المجاورة، وتصبح بكاملها ثم عبرت قرب انبعاثها الجنوبي الجبل واهتدنا إلى النهر قرب متعة وهي القرية الأخيرة التي نشاهدنا في هذه الجهة من ريد.

ويمكننا تحديد موقع المدن إن جيب المناطق السهلية في هذه البلاد؛ ولكننا نخفق في ذلك ناساطق الجبلية، نظراً لتعرجات الطرقات ووعورتها. ولتشارك هذه العصب، غالباً ما يستعمل البوص، لتحديد المسافات بدقة متناهية. واستناداً لحساباتي، تقع متعة في الجهة الجنوبية - الشرقية، على بعد نصف ميل من مشعل وبعد أن قطعنا ميلاً ونصف الميل، وصلنا إلى جبل سلام. ولقد قال لي عربي في الخديده إننا نجد في هذا المكان صوراً منقوشة على الصخور وعلى أجمل لكافة أنواع الحيوانات. وبناءً على هذه المعلومة كنت أأمل اكتشاف نقوش قديمة، وهو وعلمية في هذه البقعة؛ ولكن آمالي ذهبت هباء. فقد حفر عربي عاطل عن العمل على هذه الصخور صخوراً كثيرة، كذلك التي تحدثت عنها سابقاً.

وعلى بعد نصف ميل من جبل سلام، توقفت في كوخ سلام لارتشف القهوة؛ وهو يبعد ربع ميل عن قرية سلام، حيث يقيم أسبوعياً سوق شعبي. وكنا سير تارة في وادي ريد، وطوراً بمحاداة هذا الوادي الشاسع؛ وبعد مضي ساعتين تقريباً، بلغ مصاف النهر الجنوبي؛ وشاهدنا من بعيد مرتين صغيرين، لم

يفصح لي أحد عن اسمها ورقبنا تلك اللبنة في مشعا (Mascha)، الواقعة جنوبي - شرقي سلام. لا يستث الرحالة هذه الطريق إلا نادراً فهي وعرة وحالية تقريباً من سكك ومخوفة بالمخاطر؛ لكن مند بضع سواب عين سيد عدد في مشعا نائباً لصاحب الدوة يعونه على حفظ الأمن عدد من الجنود. ولقد قبل لنا إن هذا النائب يعرض على الأشخاص الذين يتعرضون لسرقة في مناطق عبوده وأن لا شيء يدعوا للخوف وعرض عليه نائب صاحب الدوة دفع ربع ريال مرور في المنطقة فوجدت أن هذه الصرية وغيرها من الضرائب التي تعرضها الحكومة العربية على الرحالة رهبة للعابرة تلك التي تعرض في أوروبا.

ويقام في مشعا سوق شعبي مرة في الأسبوع؛ وهي تقدر بأكواحها الرديئة المصنوعة من الأسبجة المصلية، والغطاة بالنقص وبعد عشاء طويل، وجدنا كوخ صغير نبيت فيه؛ غير أننا لا نستطيع الوقوف وسطه بارتياح كما وأن أرضه صلبة ندية، ولا تسمح لأثني ماء، وكان يكفي أن يوضع في داخله سرير واحد من تلك التي تكثر في منازل تهامة؛ غير أن هذه الأسره لا تستعمل إطلاقاً في مناطق اليمن الجبلية، ويعمل جميع الجنوس أرضاً شأهم في ذلك شأن سكان مصر وتركيا أما عامة الشعب في مناطق اليمن الجبلية، حيث درجات الحرارة منخفضة فيستعملون أسره مختلفة عن تلك المستعملة في تهامة يندس العربي الجبلي عارياً في كيس كبير، دون أن يقيه فوق رأسه؛ فنحرق حرارة لهائه دون إحساسه بالبرد. ويوضع الكيس مغلولاً في النهار على سطح المنزل حتى لا تتكاثر الحشرات لفصله ليلاً. ولم أحاول أبداً أن أنام في الكيس، ولكنني عدت على تغطية وجهي خلال الليل، خاصة في الهواء الطلق، تعادياً لدى اندثر بالصحة، والرياح المؤدية (وصف شبه الجزيرة العربية) ولم يجد في القرى الواقعة على طريقنا إلا بعض الخير السيس، المصروع من الدرة وكميات قليلة من حليب البوق؛ لكنني وجدت مياه ندية ناعية في الجبال الواقعة خارج تهامة.

وفي ٢٨ من شهر آذار/مارس، عدونا مشعا؛ وسلك صرقات متعرجات ووعدة حتى بلغنا مصيل (Massil) بعد أن قطعنا ميلاً تقريباً ثم عبرنا بين هاتين القريتين سهلاً مسيحاً تكثر فيه لأشراك والأعشاب، ولاحظنا أن الأراضي أكثر خصباً والمدرل أكثر جمالاً؛ فهي مبنية من الحجارة المترصة والتي يعلوها سقف ترابي. ويقع وادي ريبد على الجهة الشمالية لطريق على مسافة بعيدة جداً عنه.

ويقام سوق شعبي في مصير؛ غير أننا لم يكن يحمل جوارات سفر أو رسائل توصية، وغفلت الشفر متخفين ونجس الأماكن المكتظة بالناس؛ لهذا السبب تبعنا طريق دون أن نتوقف لنهو قليلاً ويقع على الطرف الآخر للبلدة جبل محيل الشاهق الذي يتطلب نسقه حوالي ٤٥ دقيقة؛ شاهداً على سمع هد الجبل رمالاً لماعة أو حجارة الميك؛ وهذا ما حثّ عرب لعامة على الاستنجا بأن هذا الجبل يحوي عروق ذهب. وعند الظهر وصلنا إلى كوخ حيران حيث شربنا القهوة بعد أن مررنا أمام قبة تملو صريح أحد

الأولياء، وبشر يستعمل الناس مياهه لإرواء الماشية التي تمر في هذا المكان وأظن أن حيران تقع على بعد ربع ميل جنوبي - شرقي مصيل.

ثم مررنا في وقت لاحق بقرية سهل، الواقعة على قمة الجبل، وأمام قبر الشيخ تاري الواقع على قمة جبل آخر. زعم السيد نورسكال أن جبال هذه المنطقة غنية بعروق الحديد. ونقد ثرقفاً ليلاً قرب كوخ الوشقاد، بعد أن أنهك التعب الحسير، حتى يتمكن السيد نورسكال من جمع الأعشاب قرب جدول صغير. ولم تصادف في تلك المنطقة إلا صبي القهوة وكانت المنازل متداخلة وحالية تماماً حتى تصبح المكان مهجوراً حقاً أما الطريق الممتد من حيران إلى الوشقاد فيمتاز بتعرجاته الكثيرة. وتبلغ المسافة بينهما حوالي الربع ميل. ويمكننا بالتالي القول إن مشعا تبعد ثلاثة أميال عن الوشقاد.

لما كان سكان المنطقة يتوقعون هطول الأمطار في أوقات متقاربة، هو قرب الجبال سدوداً من الحجارة والأشواك حتى تصب المياه المتدفقة من أعالي الجبال في الحقول المجاورة؛ فهذه الحقول متدرجة ولها من الجهة السفلى سور ترابي، يحول دون تسرب المياه. يحلر بالبلدان الأخرى أن تقلد هذه الطريقة في ري الحقول. غير أنني لا أحبذ أبداً طرقتهم في قطع الحشب؛ فهم يشعلون النار عند أسفل الجذع، حتى يشتعل جيداً وتقع الشجرة كلها.

وفي ٢٩ آذار/مارس، غادرنا عند الساعة الثانية ظهراً الوشقاد فعبنا الجسور الصغير الذي أشرت إليه سابقاً، وبعض الهضاب الصغيرة حتى بلغنا جدولاً آخر يسع من شرقي أعالي الجبال، ويصب في وادي زيد بعد أن يضم إلى سواقي المنطقة فشاهدنا أولى بساتين النرجس، على الطريق التي قطعناها من بيت القبية؛ ولو اعتبرنا الطريق مستقيمة، وقع هذا المكان على بعد نصف ميل من الوشقاد. ونقد صادفنا في طريقنا ثلاثة جبال شاهقة، وشاهدنا على الأخير جامعاً متداعياً توقفنا قربه لارتشاف القهوة. وبعد مرور نصف ساعة عدنا إلى وادي زيد، الذي لم نشاهده منذ مغادرتنا مشعا. وتكثر في هذه المنطقة بساتين النرجس. ثم عبرنا لاحقاً ساعد الوادي الآخر الذي كان جافاً، وملباً بقصبان القصب، التي يبلغ طول كل واحد منها ٢٠ قدماً، مصروبه على جانبي الطريق أو على ضفاف الجدول الجاف. والمجدد ذكره أن عدن تقع على مقربة من هنا امتداداً إلى حماباتي وتبعد الوشقاد ميلين عن الجامع أو ما يعادل أربع ساعات ونصف.

إن مدينة عدن مفتوحة وصغيرة؛ لا يزيد عدد منازلها على ٣٠٠ وهي مبنية من الحجارة والملاط يمر أمام البلدة من الجهة الشمالية جدول يصب في وادي زيد. والمجدد ذكره أن الطريق الممتدة من نهامة إلى عدن شبه عالية من السكان؛ يسما يحتشد الناس في أماكن أخرى من هذا الأقليم. ويؤمن النرجس مردوداً كبيراً علماً أن من عدن هو الأفضل في اليمن وفي العالم أجمع ولا أقل أن الإمام يمين صاحباً للدولة في هذا المكان، تستند عائلة الشيخ التي تقم في قصر خارج البلدة زعم السلطة؛ غير أن الشيخ العالم يخضع لسيادة الإمام.

ثم غادرنا عدن صباح ٣١ آذار/مارس، وبعد أن قطعنا ربع ميل، بلغنا وادي رييد العني بالنصب. وبعد أن اجتروا ربع ميل آخر، بلغنا بلدة شيخ شهاري. حيث صادفنا كوخ حصية على جبل مسدود فوقنا فيه لأرتشاف القهوة. ركنت عدد واقعة على الجهة الغربية قطعنا من الكوخ المذكور نصف ميل نبع وادي رييد. وبعد أن سرنا صعوداً حوالي النصف ميل بلغنا بلدة عسل (Osle)؛ وشاهدنا في جوارها سهولاً مرروعة بنصب السكر ورغم أن عسل مربعة عن سطح المياه لا أب سرنا ٩ أرياع الساعة للوصول إلى قمة الجبل.

ولقد كانت طريق هذا الجبل الوعر مبلطة جزئياً ولكن لم يحاول أحد ترميمها منذ عدة سنوات. ولا حظت أن سكان اليمن يتحدون إجراءات كثيرة لتأمين الراحة للرحالة؛ فقد وجدنا على هذا الجبل ثلاثة خربات صغيرة مليئة بالمياه العذبة مخصصة لاستعمال المارة يطلع عرض هذه الخربات ندمين ونصف وطولها خمس أو سبع أقدام وهي مستديرة أو محددة الرأس من الأعلى ولها فتحة واحدة تسكب منها المياه. وبعد أحياناً قرب هذه الخربات يعطية معبره، أو مجرفة خشبية، ولكن يستحسن أن يجنب المسافر معه كأسه أو إبريقاً للرحلات الطويلة وما كانت الأمطار تهطل بغزارة في هذه المنطقة جبلية خلال وقت محدد من السنة بي على هذا الجبل صرلان أو قبتان يحتمي فيهما المسافرين من وابل الأمطار. تقع بلدة ركة (Raka) على ارتفاع ٣/٢ من الجبل يسما نجد بلدة مشوار على الجهة الشمالية من الطريق وإن وقفا على قمة الجبل شاهدنا مدينة عدة على الجهة الغربية وعن على الجهة الشرقية وتقع مدينة جبلة خلف جبل شاهق على بعد ميل تقريباً؛ مما يعني أن عدد بعد ثلاثة أميال عن جبلة لقد حملنا معنا محر ريومور الذي كنا نعود إليه في كافة الظروف، يسما كان السيد برزعايد يقبس الارتفاع في بيت العقيه مستمداً إلى محر مهربهايت. أما محر ريومور فسجل ذلك النهار عند الواحدة ظهره ١٧ درجة ونصف، يسما سجل محر مهربهايت ٧١ درجة وفي الوقت عيه، سجل محري في بيت العقيه ٥٦ درجة؛ وهذا يعني أن الطقس كان أطف حيث كما أنه بي تهامة وتعتبر ملابس نوعاً آخر من العناصر التي تنير إلى الفرق في الحرارة. فبيسا ينتقل سكان تهامة شبه عراه يربدي عامه الشعب في هذه المنطقة الوعرة جلد الخراف.

ولقد شاهدنا بين الجبل المذكور وجبة عدة قرى منها مدينة بي حسان وعقاب وكانت للتلال معطاة بحقول التيلم المتدرجة، غير أن البس لا يسو في هذه منطقة رعم حصوبتها.

إن عرب اليمن يعترضون - وخاصة الجبليون منهم - المارة ويسألونهم عن القرية التي غادروها عند الصباح، وتلك التي يهون قضاء الليلة فيها؛ وما كانت غايهم الاطمئنان عليهم بحسب قسم للة التهذيب عدم الإجابة على هذه الأسئلة كلها فأعصاهم أجوبة صريحة على السؤال الأخير. ونصنا النكم حور السؤال الأول. لأننا كنا نردد دوماً أننا نأدومون من الشام (لشما)، والشام هي دمشق في سوريا.

إن حاول أحدهم أن يسأل إن كنا أترأى قلبه له إننا مصاري، فقل أن يونانيون أو أرمن وفي الحقيقة كان باستطاعتنا الاعتراف بهويتنا الأوروبية من دون التعرض لأي سوء؛ لكننا حاول أن نتجنب هذا الأمر كي لا نثير فضول الشعب. ولقد ظننت صاحبة أحد المقاهي في أحروود أننا رجال من أتراك؛ لأنها طلبت منا أن نلونها القاشحة (وهي صلاة شائعة عند المسلمين) وقبل معادرتنا المكان عند وصولنا إلى جيلة. أسكنني أحدهم الحراج أحمد، وادعى أنه يعرفني بهذا الاسم منذ عدة سنوات. ولم يحاولوا الاستعلام عن جوازات السفر، أو صرائب العبور أو أي شيء آخر يفرص على الرحالة الأوروبيين؛ ورغم أننا كنا في شهر رمضان وحدا في بعض المقاهي - وبشكل خاص - في المعززة سه أشغاباً يمدون لطعام للمسافرين تعد جيلة عاصمة إقليم أم علا (Iemo Ala)، ومقر صاحب الدولة. يبلغ طولها ٥٠٠ قدم هندسية وتقع قرب واد صيق وعميق؛ ولكنني لاحظت أنها ليست كثيرة العرض بما يحتمي أضى أن عدد ساريتها لا يزيد على ٦٠٠

وتمتاز هذه المدينة بطرقاتها المعبدة، ومنازلها الكبيرة المبينة على الطراز العربي؛ غير أنني لم أر فيها قصوراً أو سوراً، ولم أحاول أن أوطد علاقاتي بسكان البلدة الأصليين الذين يعرفون الجور جيداً كي لا أثير الشكوك حولي ولقد لاحظت أن اليهود يقيمون خارج البلدة ويبلغ طول شارعهم ١٠٠ قدم ويقع عربي المدينة.

إن مدينة جيلة قد اشتهرت منذ عدة قرون؛ غير أنني لم أشاهد فيها نقوشاً ذات أهمية كبرى اصطحبونا حارج البلدة لمشاهدة جامع متداعٍ وبعض المصروح القديمة التي ادعوا أن عمر بن سعد المعروف بصاحب الكلام الذهب هو الذي بناها لكن النقوش التي رأيته على بقايا أحدراة ليست أثرية إلى هذا الحد. وقيل لي إننا نجد قرب قرية عقاب جوامع هائلة مهدمة، غير أنها لا تستحق عاء الذهب لرؤيتها. وعند معادرتي المدينة، أرشدني إلى صرح صغير شرفي البلدة محاط بالأسوار، درس فيه باشا تركي. ولم يسمح لي الوقت لنقل النقوش التي تغطيه؛ ولا يهمن أن يعرف اسم باش جيلة الذي توفي منذ ١٥٠ سنة

ثم في ٣١ آذار/مارس، غادرنا جيلة منذ العشاء وسكننا طريق تمر. وقصينا الليلة في خان وقّع على الجهة الجنوبية لجبل محراث؛ حيث تبعد محراث عن جيلة حوالي ثلاث ساعات أو ميل ونصف في الجهة الجنوبية - الشرقية

وفي صباح اليوم التالي، استخدمنا مرشداً سياحياً وتسقف جبل مشوا الشاهق نرى بقايا أحد القصور. وبعد جبل محراث عالياً جداً مقارنة بالوادي الواقع جنوباً؛ لكن كان يلزمنا ساعة تقريباً لتسلق جبل مشوا. وبعد أن بلغنا أعلى قمة، رأينا آثاراً قديمة شبيهة بتلك التي شاهدها في أنابا قرب القصور المتداعية الواقعة على الجبال. وتتألف جدران هذا القصر العربي وأبراجه من الحجارة الصلبة غير المصقوفة ورأينا في

غادرنا جسر صباح الثاني من نيسان/أبريل، وبعد أن قطعنا ميلاً في السهل بلغت تمر، ويقع في الجهة الجنوبية لهذا السهل جبل صابر الشاقي والخصب والذي يضم ثلاث خانات ومجلسين. واستقداً لحساباتي، تبعد تمر عن محرات حمسة أميال و ٨/٧ ميل، وعن جلفه سبعة أميال و ٨/٣ ميل. واجتدبنا بالذكر أما لا نستطيع رؤية تمر إلا من فوق هضبة مجاورة لبدة؛ بينما يظهر حصص قاهر، الواقع على الجهل الحادي لأسوار تمر عن بعد.

ولما كنا نتوي العودة ثانية إلى تمر وبحشى أن يتعرف علينا أحدهم، ويحاول الاستعلام عن جولتنا اكتعبنا بأخذ قسط من الراحة في أحد المنازل، وتابعا بعدها طريقاً. وبعد نهر عن قرية قره (Korra) حوالي ميل و ٨/٣ ميل؛ أما طريقها فوعر وكثير الحجارة، ونحده المرتفعات من الجهتين. وتبعد قره عن بلدة ربيع (Robey)، التي يقام فيها أسبوعياً سوق شعبي، نصف ميل تقريباً؛ وشاهد شرقاً حصص قاهر الواقع على قمة الجبل. وبعد أن غادرنا ربيع، سلكنا درباً كثيرة الحجارة لنصل إلى بدة ينحصر فيها طريق تمر عن طريق النخا الذي يمتد جنوباً. وبعد أن نزل جبلاً شامخاً بلغنا بلدة ربي (Roba)، حيث تقام أسبوعياً سوق شعبية. وتقع ربي على بعد ٨/٥ الميال من ربيع، ويحد قربها مجلساً.

وفي صباح الثالث من نيسان/أبريل، غادرنا ربي بعد أن تزودنا بالماء من خبز، وبيض، وخلافهما، وبعد أن اجترينا الجبل، رأينا على بعد نصف ميل تقريباً البئر الثاني. على هذه الطريق، وعلى مسافة ٤/٣ ميل من هنا عبرنا أمام مجلس ليلخ بعدها يسوع مياه تفرغ منه جسور صغير، والجدير ذكره أن المنطقة التي مرنا بها ذاك النهار، كانت شبه خالية من السكان. أما الأراضي القليلة الصالحة للفلاحة على طول الطريق فهي مغطاة كلياً بالحصى، التي تحول دون جفاف الأرض من شدة حرارة الشمس؛ غير أنني لم أزل الحقول مغطاة بهذه الحصى في المناطق البعيدة التي تشهد لزدهار زراعياً ملحوظاً. ثم شاهدنا لاحقاً بهراً صغيراً وحان الشيخ عيسى الواقع في سهل مسيح تكثر فيه أشجار البلخ، وبعد حوالي ٨/٣ الميال عن اليتوب المذكور آنفاً. وبعد أن سرنا حوالي الميال و ٨/١ ميل، بلغنا قرية حيدان، الواقعة في منطقة نودابن عقلا. واللامت للخطر، أن أراضي هذه المنطقة الصالحة للمراعاة لم تكن مغطاة بالحصى كذلك التي أثرت إليها سابقاً غير أن معظمها كان باثراً، والأسوار المحيطة بها متداعية، وهذه هي محنات الحرب؛ فمسوات خلت، كانت هذه الولاية التي تخصص اليوم بسطة شيخ من بني عقلا مستقلة تماماً؛ وما لا شك فيه أن الشيخ المذكور يمثل اليوم لأوامر الإمام، ولا يملك حتى حشد جيوش. وكان علينا أن نسير حوالي الميال و ٨/٣ الميال للموغل حان بني سيب، وشهدنا على طول الطريق، عدة آبار محفورة في الأرض وخانات كثيرة. لم أحفظ أسماءها كلها. ثم وصلنا في وقت لاحق إلى حان عودة (Oude) المنزل، حيث لم يجد المسافرون على قصاء الليل؛ ولكن أكد لنا أنشد أن الحان التالي يقع على مسافة بعيدة من هنا فارتأينا قضاء الليلة فيه، وطلبنا من صاحب الحان الذي حرم أعراسه كلها عند وصولنا أن يعود إلى

أقرب قرية، يقضي الليل وسط عائلته ولجدير ذكره أننا لم نشعر أبداً بالارعاج في هذا الكوخ كما أننا لم نذعر من عدم توافر وسائل الراحة التي نتمتع بها في فندق كوبنهاغن بل كنا في غاية السرور لأن رحلتنا كانت تسير حتى الآن على خير ما يرام دون أن نتعرض للأخطار.

وعادنا عودة صباح الرابع من نيسان/أبريل، واحترنا طرقات رعدة، وهضاباً مرتفعة، ووادي سرحي، ونهر غزير المياه دون أن نصادف أي قرية؛ غير أننا شاهدنا شمالاً جبل سودان الشاهق.

لقد اكتشف السيد مورسكال بعد ميل من عودة شجرة بيسان معطاة بالهر؛ وبعد أن أحرى عليها تجارب كثيرة، أثبت أنه عثر على الشجيرة التي يعطي بنسب مكة نظار فرحاً باكتشافه هذا؛ كما وأنه احتفظ بحمية من الأرمار ليقدم دليلاً على اكتشافه هذا، وليثبت صحة وصفه^(٥) ويسمي العرب هذه الشجرة أبو الشم، أي الشجرة الطيبة الرائحة؛ ويقال إنها تكثر في اليمن، ولكن السكان يحرقونها للاستمتاع برائحتها، ولا يحسنون استعمالها لشيء آخر.

فقطنا من هنا طرفاً وعرة وأردية صغيرة تصب كلها في وادي كبير، بمحاذاة الطريق؛ وبعد أن سرنا ميلاً ونصف بلغنا مكان مضروب وتقع على الجهة الجنوبية من الطريق سلسلة جبال مبرشة (Embarascha) التي هي على مقربة منها حداً حادة وحسيب ريعاً أن عادنا مضروب مررباً أمام خابن آخرين؛ ووادي دامي (Dhami) الذي يصب في وادي سراجي الكبير وبلغنا أخيراً بلدة سلامة، التي تبعد ميلاً ٢/٢ لليل عن مضروب حيث تكثر في هذه البلدة القصب، أو دور العباد المنيه قوي أضرحة لمسلمين الكريري السب وكان علينا أن نقطع بعد ٨/٥ الميل لنصل إلى حاس وبعد أن جمعنا هذه المسافات الصغيرة، وجدت أن مدينة نمر تبعد ١٢ ميلاً ونصف الخيل عن حاس.

أما بلدة حاس الصغيرة فتقع في تهامة، وهي تعد عاصمة منطقة عصاب الأسفل، حيث يقم صاحب الدولة في حصن صغير، وتكثر فيها مصانع الفخار، وتزرع الحجرية وتتميز بها بالقمح والبيع، غير أن ساحل نفود آل عقلان تمتد إلى حاس وشرح، التي تبعد ميلاً عرباً، وتشكل جزءاً من إقليم رييد. ثم عادنا هذه المنطقة في الخامس من نيسان/أبريل، قبل شروق الشمس؛ وبعد أن قطعنا ٨/٢ ميل، بلغنا خاناً عند سفح جبل دباس وسرنا بعدها ٨/٧ الميل لنصل إلى عن مسقط، لمجور الجامع مهدم وفي الطريق عبرنا قرب أربع قرى لم نستطع حفظ أسمائها. واحترنا من مسقط نصف ميل تقريباً لنصل إلى وادي سراجي (كسبت اسم هذه البلدة استناداً للفظ عربي من البلاد غير أنه كان يحذر من القول وادي سراجي) فوجدناه جافاً، شأنه في ذلك شأن وديان تهامة الأخرى.

وسرنا بعدها حوالي ٣/٢ الميل لنصل إلى بلدة قرصاب ومنها إلى وادي رييد الخصب أو اسطفه التي

(٥) يجد الرسالة التي بعثها السيد مورسكال حول هذا الموضوع إلى المر من لوز في البحث التالي Opaboisamum declaratum

تعدى منه وانتقنا بعدها إلى عمت (Mate) ومنها إلى زيد، بعد أن مررنا ميلاً عبر الأرياب الجميلة ويمكنك أن تستمتع بالتالي أن حاص تبعد عن زيد أربعة أميال و ٤/٣ ميل.

كان بحر شديداً في نهامة، عند خروجنا من المنطقة الجبلية، حيث الطقس بارد بعض الشيء. وترجلنا على الحصى في قرطاب قرب خان خارج البنية. وكانت جدران هذا المنزل الأربعة مبنية من لأحجار الخام الموضوعة الواحدة منها فوق الأخرى ورغم أن البحر لا يحتل في الخارج، شعرنا في الداخل بالهواء المتسرب من الشقوق فمحننا إحساساً لديناً بالانزعاش. وكان يجدر بي أن أنعطي بالقمماش القطني الطويل، الذي يلبس عادة حول الكتف، إلا أنني تمردت لرؤى واسترسلت في النوم بعد أن أنهكتني الحر، وتعب السفر. فأصبحت بالخميس يوم وصلنا إلى زيد. وبعد أن تحسنت حالتي تألمنا في السادس من نيسان/أبريل طريقاً من زيد إلى بيت العقبة، سالكين الطريق نفسها التي وضعناها آنفاً. ولكنني عانيت لبعض الوقت من إغمي الثالثة التي أصعبتني كثيراً إلى حد أنني لم أعد أقوى على فعل أي شيء.

وعند عودتنا إلى بيت العقبة وجدنا السيد درهاني متوجعاً، نظراً لإصابته ببدء الحمى فهو يشعر بالاضطرار من طبيعة الحياة التي كنا نعيشها خلال رحلتنا. فبعد فترة طويلة لم نستطع التردد بالسيد والمشروبات الروحية واكتفينا بشرب المياه والقهوة. وبه نهامة كانت معظمها ملوثة فضلاً عن أن القهوة تهيج الدم. أما الكيشر فمذاقه لا يعجبنا، رغم أن العرب يعتبرونه معيداً للصحة. ولقد طهروا بنا أيضاً أن نتبع من أكل اللحم؛ وكان هذا صعباً علينا خلال سكون البلاد الذي يترودون بأطعمة أخرى أكثر بساطة، فيمكنهم الاستغناء عنها بسهولة. غير أن طباحت لم يثر في شبه الجزيرة العربية على مكونات أخرى لتحضير أطباق أوروبية شهية؛ لهذا السبب كنا نتناول اللحم يومياً في مقرنا العام، إن كان يصح أن أطلق على المكان الذي أقمنا فيه هذه التسمية؛ فتدهورت بالتالي صحة الأشخاص الذين لا يشقون كثيراً خاصة السيد درهاني الذي لا يفاخر المنزل، ولا حتى مقعده أو سرير، إلا بتناول الطعام.

في تلك المساء صادف اليوم الأول من عيد العطر، في بيت العقبة في ١٤ نيسان/أبريل، حيث ضار صاحب للدولة البلدة برفقة عدد كبير من السكان، وقصدوا صرحاً كبيراً محيطاً بالأسوار يسمى لصني (راجعوا للرحلة LXII) بقية الصلاة في الهواء الطلق. يستمر هذا العيد ثلاثة أيام، لا يمكنك خلالها إقناع أي عربي بالسفر معك، أو بتأدية خدمة لك إلا إن دعت الحاجة لمائة لذلك.

وفي ١٧ نيسان/أبريل، شاهدت في بيت العقبة مثلاً على صلاة العرب في الملابس. اندلعت النار في ذلك اليوم في مزر واقع في الجهة الجنوبية لبلدة؛ ولما كان الهواء الجنوبي يحصف بشدة انهمت النيران جزءاً كبيراً من المدينة. غير أن العرب لم يهتدوا رباطة جأشهم، ولم تسمعهم يصرخون أو ينتحون؛ وإن عبر أحدهم عن أسفه لحالهم، قالوا أنه إنها إرادة الله. كنا نقيم في منزل حجري على مقربة من المدينة المشتعلة؛ ورغم أن الأكواخ المحيطة بنا تحولت رماداً لم نحرص لأي سوء. وعندما صعدنا إلى السطح

شامدا سكان المنزل احترية تتأمل الطريق بأعصاب بارده ولقد أنى لزيارتنا يومها نقيه من البلدة، بعد أن وضع أثاث منزله في مكان آمن، وأعلما بيرة تتم عن عدم خباله أن منزله يحترق. وأض أن حصاره العربي في طرف مماثل لا توازي أنداء حصاره الأوروبي؛ فهو يحمل متاعه على ظهره وينقل إلى حي آخر، أو يقيم في الهواء الطلق، إن احتدمت النيران أكثر؛ فلا يحسر بالتالي سوى كوحه الذي يستطيع إعادة بائه بسهولة؛ وما لا شك فيه أن هذه الحصاره تعد مادحة بالنسبة إلى العقراء منهم.

الرحلة من بيت الفقيه إلى الحما

بعد أن عاينا محيط بيت الفقيه بعناية دقيقة، وبعد أن استعدنا أنا والسيد نورمان عافيتنا، استعدت القافلة كلها للسفر إلى الحما؛ فعادنا بيت الفقيه في ٢٠ نيسان/أبريل، بعد تناول العشاء، وسلكتنا الطريق نفسها التي وصفناها آنفاً.

وغالباً ما نساfer ليلاً في تهامة؛ ولكنني قررت أنا والسيد فورسكال، أن نسير الآخرين مع حمارة حتى يتمكن هو من جمع الأعشاب وأنا من تحديد موقع القرى؛ بينما نتابع القافلة سيرها ليلاً مع الخدم والمتاع. ولقد نصبت المرولة عشية وصولي إلى ريبداً؛ وبعد أن حددت ارتفاع نجمتين وجدت أن هذه المدينة تقع على خط العرض ١٤°٩. وفي صباح ٢١ منه، تابعت أنا والسيد فورسكال طريقاً إلى وادي ريبداً عبر حقول مروية بالماء؛ وبعد أن قطعنا نصف ميل بلغنا قرية طورق، الواقعة في وادي جرسة؛ الذي يقع على الساعد الصغير لوادي ريبداً؛ وهو ينمزع من ساعده الأكبر، لإحسان أكبر مساحة من أراضي تهامة. إن حقول هذه المنطقة تحاط بسدود ترابية تساعد على تجميع الكميات اللازمة من المياه لري الأراضي المجاورة. وبعد مغادرتنا طورق قطعنا ٨/٣ الميل، وبلغنا صاحب القواس، وصفا إلى جواهر على مسافة ٤/٣ الميل؛ على مقربة من هذا المكان، تنتهي الحقول التي يرويها وادي ريبداً والتي يبلغ عرضها ميلاً ٨/١، بما فيها الأنهر الأخرى. إننا لا نجد قرى كثيرة بين وادي ريبداً والحما، حيث الأرض رملية قاحلة، تكثر فيها الجحيات التي تستعمل في تهامة لتغطية سطوح المنازل. ونظراً لشدة الحر في هذه المنطقة الرملية سارعت أنا والسيد فورسكال إلى الصل وأخذنا قسطاً من الراحة في خاد جواهر الصغير. ثم عادنا الحما عند الساعة الثالثة بعد الظهر. وبعد أن قطعنا نصف ميل وصلنا إلى قرية عداج (Udga)، المطلة على جبل سوككر الواقع على جزيرة صغيرة في الخليج العربي. وبعد أن سربا ربع ميل بلغنا قرية جوهار، وصفا إلى قرية شيرج التي تبعد ثلاثة أميال و ٨/٣ الميل، أو أربعة فراسخ و ٢٤ دقيقة من ريبداً. وعند وصول قافلتنا امتنعنا نصبت مرولي لأقيس شيرج عن خط الصول الذي بلغ ١٣°٥٩.

يقول أبو الفدا إن الشرفية هي مرفأ على البحر؛ لكن إن كان هذا المكان يقع في عهده على الخليج العربي فمياهه تراجعت بشكل ملحوظ، والقرية لا تمت إلى وصف أبي الفدا بصلة إلا من حيث ردة متازله. ويقع اليوم في شيرج شيخ (قاضي) يحصل لسلطة صاحب الدولة في ريبداً.

في ٢٢ نيسان/أبريل، سبقت أنا والسيد فورسكال المرشد أنراق لنا، الآخرين ووصلنا إلى مشيد

(Mauschid). ولم يشهد على هذه الطريق سوى خانات للقوافل مسرنا ٨/٥ الميل لنصب إلى جوروبان (Dsurbān)، ومنها إلى النهاري (Ennahān)، التي تبعد نصف ميل. ورأينا قرب هذا الكوخ ضريح نبي معروف علق بعض المسامير قطعة من ثيابهم على الجنبات المحيطة به حتى يذكرهم الشيخ في حديثه، وتستجاب دعواتهم. ثم قطعنا بعدها ٨/٢ الميل لنصل إلى دونان (Dōnnen)، ومنها إلى مهبان (Mōhejān). وعند الثالثة من بعد الظهر، وبعد أن قطعنا نصف ميل جوباً وصلنا إلى جبلي ومنها إلى قرية مشيد الكبيرة الواقعة على بعد مئة قدم تقريباً من البحر. وبالنسبة إلى شريح التي تبعد أربعة أميال و ١/٨ الميل عن مشيد، أو ٥ ساعات و ٤٠ دقيقة.

وبعد وصولنا إلى مشيد، سمعنا الناس يتحدثون عن حرب عائلية قتل خلالها أحد المحاربين تحت أشجار النخيل المحيطة ببلدة. فحفظنا أن نصاب ناعلتنا بمكروه، خاصة أننا نتوقع وصوله ليلاً ولكن أكد لنا السكان أن هذه الخلافات لا تعكر الأمن العام أبداً. حين يقتل عربي من تهمة عربياً آخر، تختار عائلة المدور حلاً من ثلاثة، إما الثأر من عائلة القاتل، أو تسليمه للقاضي الذي سيقتله بدوره، أو مبارزة القاتل أو أحد أفراد عائلته^(١) وفي الحالة الأخيرة يلزم القاتل بالدخول إلى السجن إلا أن يدفع للقاضي ٢٠٠ ريال إن لم أكن محظوظاً. ولسنوات خلت، قتل أحد الفلاحين فلاحاً من مشيد، فأعلنت عائلة العنيد أنها ستقيم بنفسها من القاتل أو من أحد أفراد عائلته لكن عشية وصولنا التقى رجلان من الفريقين المختصين في المكان المذكور وتعاركا حتى لموت، غير أن عائلة العنيد الأول فجعت ثانية بموت مرد آخر من أفرادها فاضطر القاتل إلى أن يدفع مبلغاً بخير لنقاصي، كما وأن عائلة العنيد وجدت نفسها مضطرة لقبول شخصين أو لتصلح ووضع حد لهذه الحرب. وفي صباح اليوم التالي التفتت أنا والسيد غو سكال برجل من الفريق المنتصر في حاد على طريق البحر ولم يكن ممسكاً أبداً من هذه الحرب، لأنها مسألة شرف، غير أنه أشكى من أنساع التي اضطرت عائلته لدفعها إلى القاضي خلال فترة قصيرة.

وبعد ذلك وصلت القافلة في ساعة متأخرة من الليل أو فجر ٢٣ نيسان/أبريل. مسارعت لاستعمال مروتي. كانت السماء ملبدة بالغيوم التي حجبت النجم الظهري، غير أنني تمكنت أخيراً من مراقبه ارتفاع النجم من النسر الواقع الذي يشير إلى بعد مشيد بمسافة ١٣°، ٤٢' عن خط العرض ويقع في مشيد نائب لصاحب الدولة وبعض الجنود التابعين لصاحب الدولة في حاس. وبنا عرضوا على جمالنا المحملة بالأغراض دفع رسم عبور في ريد، نخطر لي أنهم سيفرضون علينا رسوماً مماثلة في المناطق الأخرى فانفصنا مع جمالنا على أن يكمل بهذه المصاريف الصغيرة غير أنه اتفق مع موظفي الجمر على فرض رسم العبور علينا، إلا أننا فاعترضنا عليه وطلبنا مقابلة القاضي الذي سمع لنا بالرجيل على العور لعدم صحة ادعائهم.

(١) انظر: وصف شبه الجزيرة العربية.

كنت أموي (نومرول هذا النساء إلى المحل قبل أن تعلق لأبواب، فاطلقت برفقة السيد نورسكال عند طلوع العجر، رغم أنه لم يعمد له جسر في الليلة السابقة. بعد أن مرنا ٣/١ الميل بينا خان دريه، وعبرنا لاحقاً منطقة نسيج التي تغل إليها مياه البحر وتبحر حتى يجمع الملح ويرسل جزءاً منه إلى المناطق الجبلية، شاهدت في جور عدن جمالاً محمّلة بملح، وبعد أن قطعنا نربة (Turbo) وصلنا على بعد ٨/٧ الميل إلى خان جردان (Djurdan)؛ ومنه إلى خان سمعال (Sema Yhble)؛ حيث تمر بين هذين الخدين الحدود التي تفصل بين المحل وحسن وبعد أن عايننا سمعال، وصلنا إلى خان سهارى، بعد أن قطعنا ٨/١ الميل ومرت بعدها ميلاً تقريباً لنصل قرية رواس (Riaŷi)، حيث أخذنا قسماً من الراحة نظراً لارتفاع الحر. ويتفرع من رواس طريق يؤدي إلى المحل مروراً بقرية سابا؛ وهي دار عبادة تضم أضرحة سبعة أشقاء. غير أننا سلكنا طريقاً آخر مختصراً، رغم أنه صعب ووعر وبعد أن مرنا ٨/١ الميل، وصلنا إلى بلدة عشتيل التي تبعد ميلين عن المحل. واستنداً لهذه الحسابات تبعد مثيلد عن المحل خمسة أميال و٤/٣ الميل؛ لكن أرسادي الجوية تشير إلى أنها يقع على بعد ستة فراسخ، قطعناها في ظرف سبع ساعات على ظهر الحمير؛ وبما لا شك فيه أننا كنا نسرع في سيرنا.

يمر المسافرون إلى المحل براً بمدينة باب شاذلي، وينبع الأوروبيون العادة المشيبة السائدة في القاهرة للدخول من بابها، أي إنهم يترجلون عن حميرهم ويدخلون سيراً على الأقدام ترحلنا إذن عن الحمير حتى يمتشوا الخرج. ولم يحاول أحد طرح الأسئلة حول أسمائنا وجوازات سفرنا على خلاف المناطق الأخرى؛ مروراً بالتالي دون أن يتعرف علينا أحد. وأرشدونا إلى خان، عتاد الأتراك على المرور فيه، حتى نلتقي بمواطنينا حسب رأي موظفي الجمارك.

وكان يفهم في المحل تاجر إنكليزي وصل إليها على متن باخرة من بومبي. ولكن العرب مستقبوناً بالترحاب في البيت، حتى أننا لم نجد من داع للتعهد إليه أولاً كما أننا لا نحمل رسائل الإنكليز. وكنا نخشى أن يحسبنا متشردين أو حوكة، غير أننا كنا نحمل رسائل توصية متعددة، واحدة من كحبا جدة إلى صاحب الدولة في المحل، وأخرى من تاجر في جدة إلى مسمار الإنكليز، وثالثة من تاجر في بيت الفقيه، إلى تاجر في المحل يدعى سيد صالح ظم نعلم جيداً أن الأمير فرحان لم يكف بأد بوصي بنا في رسالته صاحب الدولة في المحل، بل كتب به في مناسبة أخرى معهداً به ميزاتنا وعلاوة على ذلك، وطدنا صداقتنا في المحل بدين سيد صالح واسمه إسماعيل كان والده قد أرسله إلى جدة لنقل كمية من الزنك، فحاول أن يكسب صداقتنا وقدم لنا شهادة تثبت أنه كان مترجم الرابطة الهولندية في المحل. عنماً أنه تعمد الهولندية من أحد المرتدين عن الدين؛ وكم كانت دهشنا عظيمة لأننا لم نقابل منه مرة طويلاً مسلماً يحسن لغة أوروبية. ولما كان يحسن الإطراء على الأوروبيين، ويختار بررته رافقه من جدة إلى محبته.

أحسنا صعباً بمقابلة مسمار الإنكليز عند وصولنا إلى المحل، فقد كان يعد من كبار تجار المدينة الذين حظوا بثقة صاحب الدولة فيهم؛ غير أنه كان بائناً، أو متحداً من بلاد الهند؛ ولما لاحظنا في بيت الفقيه

ومحبة أن المسلمين لا يغيرون هذه الأمة اهتماماً، كما أنها لا تعبر اليهود اهتماماً بذلك فضلاً أن لا تقرب منه. قصدت برفقة السيد فورسكان عرب إسماعيل الذي استقبلنا بالترحاب، وأتى لنا مرلاً لنقصي البيل فيه؛ ورغم أنه مسلم، قدم لنا شرب الباش، الذي أنعشنا كثيراً خاصة وأنا سم بحس الكحول منذ فترة طويلة. ولكن إسماعيل لم يدق الباش وأحضر لنا شعصاً هذباً مرتداً عن الدين المسيحي، يعمل تاجراً في الحما، ويسرب كثيراً في شرب الكحول. وكنا عني وشك أن نضل برفته ولو مع أن الشراب قوي لعاية. غير أن إسماعيل شدد عني صداقته لنا، وعرض علينا خدماته، واقترح علينا حلق دفتينا ولارتداء ملابس أوروبية، شأنا شأن الإنكليز الذين يحبون مدرسة التجارة في الحما، وعدم التحدث بالعربية، حتى لا يظن أحد أننا أصبحنا مسيحيين. لكننا حسب كلامه مراحاً وبعد أن استشرناه حول الطريق الأسرع للوصول إلى صعباء وغيرها من المدن الجديدة، حذرنا من القيام بهذه الرحلة راصماً الجبلين بالفطرس والفيلبي لتهديب وضاد أن الإمام اسسم يعدل باردرأ من أنباع الديانات الأخرى. والجدير ذكره أنني كنت أعرف اليمس أفضل من إسماعيل الذي لم ير من بلدته سوى الطريق من الحما إلى محبة؛ فأخبرته تفصيلياً عن الرحلات التي قضاها، بدءاً من محبة؛ وشكرته على استقباله الحسن لنا الذي لم نلاحظ بمثله في أي مكان آخر. غير أنه ادعى معرفته بسكان الحما أكثر منا؛ وأكد لنا أن شعبها يكره الأوروبيين كرهاً شديداً؛ ولكن والده يتمتع بمكانة مرموقة في المدينة ويستطيع أن يقدم لنا خدمات كثيرة.

كان إسماعيل يحب التقرب من الأجانب بمصاحبه شخصية، وسعدنا أنكتب على تعلم اللغة الهوسدية من أجل هذه الغاية فحسب وكتب والده عدة رسائل إلى باتافيا عبر المرتدين الهولنديين الذين كانوا في الحما، واستطاع إقناع التجار الهولنديين بإرسال مركب لهم فوصل هذا الأخير عند سنتين تقريباً قبل عدة أشهر من وصول الإنكليز؛ ولما كانت المرة الأولى التي يزرع فيها الزيان الحما، قصد أولاً منزل سيد صالغ الذي أعطاه فكرة مريضة عن سكان هذه البلدة، وخاصة الديبانيين منهم؛ فشكر الهولندي الله لأنه وقع بين يدي رجل طيب إلى هذا الحد. واستأجر له سيد صالغ مرلاً ووضع أبه في خدمته فأمر له كل ما يدرمه، إلى حد أن الهوسدي اعتمد كلياً على سيد صالغ وأبه. وحين أتى بعض لتجار اليهود الذين يحسبون اللغة البرتغالية تزيارته طردوا من المنز؛ كما وأن الخدم الذين يتكلمون البرتغالية مع الزيان كانوا يؤكدون له ادعاءات إسماعيل حول قنطرة سكان الحما. خوفاً من إسماعيل وأبه لكي لا يتسبب في طردهم من عندهم. أما التجار العرب فلا يثيرون القلق، لأنهم لا يحسبون إلا العربية وإسماعيل يترجم كلامهم كما يحلو له. فأخذ الهوسدي عن سكان الحما فكرة سيئة لعاية حتى أنه كان يتفادى الخروج إلى الشارع خوفاً من أن يأخذوه رهية. وبقيت هذه الأفكار راسخة في دمه إلى حين وصول الإنكليز الذين أثبتوا له أنه وضع ثقته في أشخاص أشرار؛ غير أنه كان قد تورط جداً مع إسماعيل وأبه، ولم يعد باستطاعته التخلص منهما؛ ولا أظن أن تجار باتافيا سيرسون مركباً آخر إلى الحما بعد وقوع ذلك الهوسدي ضحية الخداع.

وحلال الرحلة من جده إلى محجة حاول إسماعيل إقناعنا بأن الدائركيين أيضاً ينجون أموالاً طائلة من ممارسة التجارة في المح. ولكن بعد أن لاحظ عدم رغبتنا بالتورط في الأعمال التجارية حاول تصديها قدر المستطاع. ونلاحظ بالتالي أن المسافر يقع بسهولة في الفخ، إن لم يحسن نظة البلاد، أو إن وضع ثقته بأول شخص يصادفه ويعرض عليه خدماته. وهكذا لم يمنع إسماعيل بخداعتنا ولكنه سبب لنا خيبة أمل كبيرة؛ فلو أننا إلى المحا من بلاد الهند دون أن نتعلم العربية ورصمنا ثققت فيه، ما حاولنا التعرف على سكان البلاد وما كانت دراستنا مضايقة لواقع وعند وصولنا سببا رسالة التوصية الموجهة إلى سيد صالح لابنه إسماعيل ولم نقابل والده إلا في اليوم التالي الواقع فيه ٢٤ نيسان/أبريل. ولما كان تاجر محجة ويسد ثقفيه، الذين أوصوا بنا، قد دفعوا لنا رسوم الجمارك ونقلوا لنا متاعه طلبنا من سيد صالح وإبه أن يؤدي لنا الخدمة نفسه؛ فأظهرا استعدادهم التام للقيام بذلك. غير أنني أخالهما يضرران لنا نية مختلفة ويسميان لإقناع موظفي الجمارك بتعديتنا.

وعند الساعة التاسعة صباحاً، وصلت القافلة والخدم والمناخ وعملاً بعادة هذا البلد نقل المتاع إلى الجمارك حيث كان صاحب الدولة موجوداً بعينه. فعصبا أن نفتش أولاً الأعراض التي نقلت براً حتى نأخذ أراني المطبخ والأسرة؛ لكن موظفي الجمارك ارتأوا بتفتيش الصناديق التي وصلت إلى مخينة والمحا بحراً ومن يسهل برميل صغير فيه أسماك من الخليج العربي؛ وطلب السيد فورسكان عدم فتحه حتى لا يجر عرق اليبس أو تروح رائحة السمك الكريهة؛ غير أن الموظف تنحه وأخرج الأسماك وحرك السائل بقصيب من حديد لبنأكد من أنه لا تخفي داخل البرميل أحجاراً كريهة؛ ورغم المساعي التي بدلتها، أوقع البرميل وفاحت رائحة الأسماك وعرق النيل في المكان، ويمكنك أن تتخيل ردة فعل العرب في ظرف مماثل، خاصة وأن ديانتهم تحظر عليهم شرب الكحول فضلاً عن الإخراج الذي شعروا به أمام صاحب الدولة ومساعديه. لقد صدد منهم أن يقتشوا أسرت أولاً؛ ولكنهم فصلوا البحث عن التوادر الطبيعية؛ وكنا قد حملك معنا من مخية حشرات بحرية تبث أيضاً روائح نفاذة فانتزعوا بعضها من قعر الصندوق بينما تقبوا بعضها الآخر بواسطة نظيب حديدي مستدق الرأس؛ إذ لا يصدق العرب أن رجلاً عافلاً يجمع هذه الأشياء بغية استعمالها لاحقاً؛ بل خطر لهم أنت أرسلناهم لتسخر من صاحب الدولة وموظفي الجمارك. وظن آخرون أننا نحيا بين هذه الأعراض بضائع ثمينة. ولكن صاحب الدولة لم يصدق أبداً هذه الادعاءات وأحضرنا له أخيراً حفية وضع فيها السيد فورسكان أنواعاً مختلفة من الأعاعي؛ فأنار هذا المنظر خوف الجميع. فرغم أحد خدام صاحب الدولة أن الفرنسيين أتوا إلى اليمن يندسو السم للمسلمين وأحضرنا معهم طيباً كي يفتدوا هذه النعمة بسجج. وكان صاحب الدولة يظهر تعاطفه نحونا دون أن يكر لنا الاحترار؛ لكن عندما سمعهم يقولون إننا ننوي إلحاق الضرر بالسكان ثر غضباً وقال: أقسم بالله أن هؤلاء الأشخاص لن يعضوا النلية في بلدنا وأقعدوا مركز الجمارك دون إعطاء حاجات الأساسية من أدوات مطبخية وأسرة.

ثم جاءنا أحد الخدم مسرعاً لإخبارنا أنهم رموا الكتب والحفائب التي نقسها على ظهر الحمير من البنادق وأنهم أقدموا المنزل؛ ولما أراد السيدان مورسكال ودوهاص الاستعلام عن السبب أجابوهما إنها أوامر إسماعيل. ولما لا شك فيه أن وصف إسماعيل لسكان النخا قد ثبتت صحته حتى الآن. ونكسنا اضطررنا للاستماع إلى كلامهم بصبر وأناة. كان إسماعيل ووالده قد احتجيا عن الأنظار ما أن بدأ موظفو الجمارك بإزعاجنا ولم نستطع العثور عليهما أو على صاحب المنزل؛ فربما نبحث عن سرر آخر علماً أن الجميع رفضوا إيواءنا في هذه الظروف خوفاً من أن يعاقبوا. وفي نهاية المطاف قبل أحدهم أن يؤجرنا منزله شرط أن يؤكد له القاضي أن الحكومة لن تتعرض له. كان قصاصة تركيا يهيمون بحبيهم الشديد بمصلحتهم الخاصة على خلاف قصاصة البص من فيهم قاصي النخا الذي أثبت له استقامته. وقصدناه برفقة النبيل ليؤكد له أنه يستطيع أن يؤجرنا منزله.

وقد أرسلت حكومة بومباي في تلك السنة سفيتين إلى النخا مع نجر يدعى فراسوا سكوت وهو اسكوندي الأصل. وصل هذا الأخير، إلى المدينة على متن السفينة الأولى منذ بضعة أشهر فأعتم بوصولنا وبمحجز أغراضنا في مركز الجمارك ورغم أنه لم نحاول الاتصال به، دعانا إلى العشاء؛ وأعد لنا طاولة مينة بالأطباق التي لم يدق مثله منذ معادرتنا القاهرة؛ وأثبت لنا أنه صديق محضر ووفي سلمناه عنده رسالتنا إلى سمساره واكتشفنا متأخرين أننا أخطأنا بعدم الاتصال به أو بالسيد سكوت مور وصولنا ورغم أننا استرجعنا شجاعتنا إلا أنه لم نحاول بداء رأينا الحقيقي في إسماعيل ووالده مخافة أن يثيرا لنا مشاكل جديدة.

وتم نستطع حلّ المشكلة مع الجمارك وفي ٢٥ نيسان/أبريل؛ نصحبنا إسماعيل بأن نعرض على صاحب الدولة ٥٠ دوقية بغية كسب رصده وكما قد ارتأينا أن نقدم له هدية ونكس ليس بهذا الحجم؛ كما وأن الشكوك ساورتنا في مسألة إرسالها مع إسماعيل؛ ولما كد سري الذهاب إلى صباء رقصاء سنة يكاملها في البلاد ولما كان أمر معادرتنا النخا مرهون بموافقة صاحب الدولة، قررنا أن نصحب بهذا النبيل، وأن سلمه له بأنفسنا حتى نستصل الفرصة وبحول أن نل حظوة لديه. وكان خدمه ينعوننا من مقابلته كنما قصدنا منزله؛ وأكد لنا إسماعيل أن صاحب الدولة لا يتنازل ويحدث مع «مسيحيين» وفي ٢٦ نيسان/أبريل قررت المجموعة أن أسلمه الـ ٥٠ دوقية بنفسه. علمت في الطريق أنه أصيب عند الصباح برصاصة في رجليه بينما كان يدرج جنوده؛ فعدت أدراجي عند سماعي هذا الخبر آملاً أن يستدعي طبيبنا بمناجته ويحفظ بالثاني بالمال. ولكن أحداً لم يستدع السيد كرامر؛ فحين اقترحوا على صاحب الدولة استدعاءه رفض رقصاً قاطعاً لأنه لا يثق بالفرنسيين الذين قد ينتقمون منه ويستعمون عقابهم مسخرة؛ فالعرب يميزون بين العقابير المسخرة والعقابير المعشنة ويعتبرون الأولى مصرة بالصحة. رجع العبارة وحدها تثير خوفهم نظراً لشدة الحر في بلادهم. استغل نبيل من نبلاء العرب هذه المناسبة بقول لنا

إن الله عاقب صاحب الدولة لأنه أساء معاملتها؛ غير أننا كنا على ثقة بأنه ليس ضريراً وأن بعض الأشخاص السيئ البنية أثاروه ضدها، ولذلك لو أتيت بـ «مرحمة التعرف» عليه من قبل لعمام بطريقة محتلة تماماً.

وفي ٢٧ نيسان/أبريل، أعاد لنا موظفو الجمارك أسرتنا بعد أن فتشوها تفتيشاً دقيقاً؛ وفي ٢٩ منه، أعادوا لنا بعض الأشياء البسيطة بعد أن عيروها بدقة؛ فبدأنا وأصحاباً أنهم يريدون إزعاماً على تقديم هدية قيمة. فقررنا حينها أن نصحب بالـ ٥٠ دوقية المخصصة لهذه الغاية؛ وكان إسماعيل قد استطاع طوال هذه المدة رشوة الخدم حتى لا يسمحوا لنا أبداً بمقابلة صاحب الدولة؛ فكانوا يرددون لـ «إنه لا يسمح لأحد بالتحدث في شأننا باستثناء إسماعيل ووالده» ولكن في ذلك النهار لم يطردوا السيد فورسكال وخاصة بعد أن علموا أنه يحمل الهدية؛ فلقد قيل لصاحب الدولة الـ ٥٠ دوقية ووافق على طلب السيد فورسكال الذي سأله أن يسمح لنا بالدخول عن نصبتنا بأنفسنا؛ وكم كانت دهشته عظيمة حين أدرك أننا نحسن اللغة العربية وهم يحاولون الاتصال به منذ البداية. وفي اليوم التالي أرسل لنا هدية يسوره وهي أربع نقايح وكيسين من الأرز وعلمنا في الوقت نفسه أن موظفي الجمارك تلقوا الأمر بإعادة متاعنا دون فتحه وتحسنت علاقاتنا بإسماعيل على الفور خاصة وأنه تكلم بدفع مصاريف موظفي الجمارك والجمالين بدلاً مما رغم أنها بعث ثلاثة أعضاء للمبلغ الذي دفعناه في محبة بيت الفقيه.

واقترح أعيان البلدة على صاحب الدولة أن يستدعي طبيباً لكنه كان يخشى أن يعطيه دواء مضر بالصحة بغية الانتقام منه. بيد أن القاضي أكد له أنه لم يتلق أي شكوى ضدها وأن احتفاظ الطبيب بأفع مينة لا يثير القلق لأن سقمها يستعمل في بعض العقاقير؛ وأن الأمهات والحشرات البحرية لها فائدة كبيرة. أرسل صاحب الدولة في طلبنا في ٤ أيار/مايو بعد أن استعان بـ أربعة أو خمسة أطباء دجالين وبعد أن راد مرضه خطورة. وكم كانت فرحتنا كبيرة حين أدركنا أن صاحب الدولة لم يعد يخشانا؛ فأرسل الطبيب كرامر يملسه بمواقفه على تقديم خدماته له. وما إن تبع ردنا حتى أرسل لنا صاحب الدولة أحد خدامه مع رجل ليقل السيد كرامر إلى منزله.

أتيت لنا لاحقاً لمرصة لزيارة صاحب الدولة عدة مرات والتأكد من صداقته لنا؛ وفي أحد الأيام أخبره السيد فورسكال أن أحد البلاء شتمه في الشارع يوم كان صاحب الدولة مستاءاً؛ ودون أن يسمي بالتأكد من صحة الموضوع وعذ بالتمويه عليه ورج البيل المزعوم في السجن. وعلم إسماعيل برؤية صديقه معاقباً بسببنا وأكد لنا أن السكان ثائرون ضدها وأن حياتنا باتت في خطر حتى داخل المنزل، فقصص السيد فورسكال منزل صاحب الدولة على الفور طالباً منه إطلاق سراح السجين على أن يعمد بأن يعامل الأحاب بطريقة حصرية من الآن فصاعداً. لبني صاحب الدولة طلبه معرباً له عن امتناده لزيجه ثمانية أيام في السجن إن شئنا ذلك.

وبعد وصولنا إلى المحا أصبت بإسهال حاد لم أشف منه إلا بعد مصي خمسة عشر يوماً؛ أما تروعث السيد درهمن الذي ظهرت بوادره في بيت العقبة فإزداد سوءاً في المحا؛ فكان يشعر بالارتجاج عند حلول المساء خاصة إن ذهب في برهة في «طراوة» غير أنه لم يكن قادراً على احتمال حرّ النهار وفي ٢٢ و ٢٣ أيار/مايو نام على سطح المنزل في الهواء الطلق حتى يستمتع بالهواء العليل.

إنه ورغم هبوب رياح قوية في اليوم التالي جازف في ٢٤ و ٢٥ منه بالبرم على السطح فأصيب بالبرد ولم يعد يتحرى على التزلزل وحده إلى المنزل وراحت صحته تدهور حتى أن بعثه بدأ يحس تدريجياً؛ كما وأنه طلب كتابة وصيته. ولكننا لم نفقد الأمل في شفائه؛ وعند الساعة الثامنة مساءً راح يهدي بكلمات لا معنى لها تارة بالعربية وطوراً بالفرنسية ومرة بالإيطالية وأخرى بالألمانية؛ غير أنه ما لبث أن استرسل في سباب عميق يلفظ أعلاه الأخير عند الساعة العاشرة ففقد العلم بالتالي ورحلاً من كبار رجال الأدب الشرقي.

إن سكان البلاد لا يصنعون شاهدة على نبور موتهم؛ غير أننا صنعنا واحدة وأرسل لنا الرمان في ٢٦ أيار/مايو ستة بحارة كاثوليكين لديهم خراج لندنية في مقابر الفرنسيين. فسار بكبير المحا كلهم خلف النمش وحصروا الجندرة التي جرت على الطريقة الأوروبية على حلال جنازة السيد فيرو فحصل اندفاعة التي جرت في القاهرة في ٤ نيسان/أبريل ١٧٦٣، إذ عند حروح العشر من «سرب» عبر احتفالون الشارع بسرعة حتى لا يجمع الرعاع حولهم بصرق الأوروبيون الذين كانوا يبعونهم - في القاهرة - وتجمعوا لاحقاً خارج البلدة قرب الضريح؛ ولما كنا نحشى أن يصرق بدو مصر الخثة ألبنا العقيد ثوب سمك خفيّر لا يستمع منه العرب بشيء. أما في المحا فبدد الناس أمتونهم دون أن يحشوا تعرضهم لنسب أو نهب من قبل الرعاع.

وبعد موت السيد درهمن ارتأينا مغادرة المحا والنوعل أكثر في البلاد؛ ورغم أن بعض أفراد مجموعة كانوا يعصلون قضاء ستة أخرى في اليس لزيارة قرى المنصقة الجبلية كلها، ارتأى البعض الآخر العودة سريعاً إلى أوروبا عنماً أب وجهنا مشاكل جمة في المحا. لم يكن معدم كيف سيستقبلنا السكان داخل البلاد خاصة بعد عودة الإنكليز إلى بلاد الهند. ولما كنا قد رزنا الجزء الأكبر من اليس ولم يتبق لنا من مناطق عود الإمام إلا الطريق المؤدية من المحا إلى مسعاء؛ قررنا الذهاب إلى العاصمة في أسرع وقت ممكن علّ الإقامة فيها تروق لنا أو إن لم ترق لنا حتى نتمكن من العودة إلى المحا قبل رحيل الإنكليز.

كان باستطاعتي أنا والسيد فورميكال أن نقوم بجولات خاصة، كما فعلنا خلال إقامتنا في بيت العمية؛ ولكن رفيقانا في السفر كان يتوقان مثنت لمشاهدة مقر إقامة الإمام. والجدير ذكره أننا لم نستطع معاداة المكان نبل أن يعالج طبيباً رجل صاحب الدولة ويسمىها تماماً فادعينا أنها لم تعد تحتل الحر الشديد خاصة وأن أحد رفاقنا قد قضى بسببه وبمصل الذهاب إلى مسعاء حفاظاً ما على صحته والبقاء

فيها حتى يفر السيد سكوت العودة إلى الهند. وفي البداية رفض صاحب الدولة طلباً هذا، مدعياً أنه يريد إعلام رئيسه أولاً برغبنا هذه حتى يعطينا الإمام الإذن بدخول صنعاء؛ فقد كان يظن أننا نسعى لمقابلة الإمام؛ وقد جرت العادة في البلاد أن يلح الإمام مسبقاً بتقديم الأجاسيد الذين يرغبون بمقابلته وتقديم الهدايا به بعية الحصول على بعض الامتيازات التجارية. غير أن صاحب الدولة وعدنا بمراسلته سريعاً وبإعلامه برده فور تعلقه بإياه.

ولم رفضوا السماح لنا بالذهاب حالاً وإلى صنعاء قررنا الذهاب إلى بحر في انتظار رد الإمام؛ غير أنهم رفضوا هذا الطلب أيضاً وسحروا لنا بالذهاب إلى موسى (Musaa). وأكد لنا البعض أن صاحب الدولة من يأذن لنا بمغادرة المحل قبل أن تشفى رجله تماماً؛ ولا يمكننا أن نلومه على ذلك لأنه لم يجد في شبه الجزيرة العربية طبيباً واحداً ماهراً، فاقترحنا بالتالي ترك طيننا في المحل شرط أن يسمحوا لنا بالرحيل؛ غير أن العرب عافوا أن يمشي في العلاج من شدة حره على رحيل أصدقائه.

هاشكنا أمام أعيان البلاد من رفض حاكمهم السماح لنا بالذهاب لإنفاق أموالنا في مكان آخر. سألوا عن سبب رفضنا انتظار انطلاق السفر من المحل وحلرونا من التجول في المناطق الجبلية، في هذا الفصل من السنة؛ فمن ينتقل من حرّ نهاية إلى برودة الجبال قد يصاب بحمى قوية. ولما كان هدف رحلتنا التعرف على هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية لم نستطع العدول عن قرارنا.

مر صاحب الدولة بشعاع رجله خلال أسابيع قليلة؛ فقد قال طبيب إن جرحه ليس بالغاً ولكن شعاعه يتطلب وقتاً طويلاً^(١). ثم وصل رجل عربي إلى المدينة ووعده صاحب الدولة بشعاعه في ظرف ثمانية أيام؛ فاستقبل الطبيب الجديد بالترحاب وبني صاحب الدولة طلبنا؛ وأعطى السيد كرمر الإذن بالرحيل وقدم له بثلاً وسرجاً وبعض الملابس العربية. ولبينا في الوقت نفسه الأمر بالذهاب إلى تعز فحسب، لأن صاحب الدولة ينتظر رد الإمام. وعلاوة على ذلك أعطانا صاحب الدولة رسالة توصية لصاحب دولة تعز وأرسل معنا أحد خدمه حتى نساعدنا بأمان وراحة. وكنا نتمنى أن لا يفعل ذلك لأن هذا الخادم كان يراقبنا باستمرار؛ مما جعلنا نتوخي الخذر في تصرفاتنا.

ولما كنا نجهل إن كان بوسعنا العودة إلى المحل خلال هذه السنة انحدنا الإجراءات المناسبة كافة؛ فأخذنا معاً الأغراض اللازمة علماً أننا قد نقصي سنة تقريباً في المناطق الجبلية. ولكننا قضينا أن نحفظ بجزء من أموالنا النقدية مع سمسار الإنكليز الذي حملك رسائل بياناني تعز وصنعاء.

(١) في السنة التالية، كنت في بمباي، حين وصلت إلى معاشية إنكليزية، من بلاد الهند الشرقية؛ فقال لي جراح هذه المعينة إن رجل صاحب الدولة لم تشف بعد، وقد لا تشفى أبداً.

الرحلة من الحما إلى نجر

عادرنا الحما في ١٣ حزيران/يونيو عند غروب الشمس؛ سرنا بلا حواشي ست ساعات أو أربعة أميال ونصف لنصل إلى موسى وجدا قرب الحما بئر الشاذلي الشهير؛ الذي يشرب منه الغمراء فقط عندما ان السكان يعضون مياه بئر بليل الذي يعد مرسخاً عن «مدينة» أما لأثرها فيجلون الماء من موسى. وتنتار المنطقة الممتدة من الحما إلى موسى بحماها وحلوا من السكان؛ ولم أر على الطريق إلا حانات دوبيي (Dabulie) وبصي (Bsic) وفتر (Fatra). وتقع بلدة موسى على مدخل المنطقة الجبلية؛ ويعيم فيها صاحب الدولة وعدد من الجنود في حصن صغير. وعادياً ما يزور الأوروبيون القادمون من الهند إلى الحما بلدة موسى لقضاء وقت ممتع؛ غير أنني لا أظلمهم يستمتعون كثيراً؛ إذ لا يجد فيها سوى مياه عذبة وماء حارة شديداً. وبعد أن استنتجنا أن مياه الخليج العربي قد تراجعت في هذه القعة؛ كان علينا أن نبحث هنا على مرفأ موسى الذي يتحدث عنه علماء الجغرافيا اليونانيون. تمتد مناطق نفود أولاد بقطان من موسى على طريق سمار وجبل الشرق (سمر التكوين القميص ١٠)

وفي ١٠ حزيران/يونيو عادرنا موسى عند الساعة الرابعة من بعد الظهر متجهين شمالاً وبعدها شرقاً؛ فعبرنا وادياً كبيراً تنصب مياهه بعد هطول الأمطار العريضة في بحر مجاور هناك لتتلاشى بعدها في أراضي نهامة. ونقد سلكنا بعدها طرقاً وعرة حتى بلنا حان نيجم (El Meijâm)، ومنه إلى حان سيلة الواقعة على بعد ٨/٣ ميل وقطعنا ذاك النهار ميلاً ونصف المي لنصل إلى بلدة عريش الواقعة على حدود الحما حيث يقام سوق شعبي كل نهار أحد. وعلى مسافة نصف فرسخ من البنية المذكورة نجد مرفأ صغيراً تدفع فيه مبالغ رهينة على حمولات البع التي يقفها العرب من رؤس إلى إقليم جاره المستقل؛ غير أن لا أحد يطالب يدفع رسوم على البضائع التي تنقل من الحما وتعبير صعاء أو غيرها من المدن الواقعة في مناطق نفود الإمام.

قابلنا ذاك النهار فرداً من سلالة الشيخ الشاذلي الشهير. ورغم جنون هذا الشاب كان يصحح وينع مع بعض شبان مجموعتنا الذين كانوا يحثونه على القيام بهذه الدعاية أو تلك؛ ولكن لم يحارل أحد إهانتهم رغم أنهم لم يكونوا له أي احترام لأننا نعرف أن هجوير في عصر بعدد من الشيوخ وحتى أنهم يعدون من الأنبياء بعد وفاتهم؛ غير أننا اكتفينا بتسميته شيخاً تيمناً بالشيخ الشاذلي الذي يتحدث من عائلته. ويقال إنه لسنوات خلت أقعد أحد الجوارين عمله بعد أن احتال عليه

ونظراً بوعودة الصرقات في هذه المنطقة الحيلية أربأنا عدم السفر ليلاً؛ ففي ١١ حزيران/يونيو عاودنا عريش عند شروق الشمس وسرنا شمالاً مروراً بدحواحة (Dahuaha)، فوصلنا بعد مسافة ميل ٣/١ الميل إلى بلدة أبراش (El Brach)، حيث يقام أسبوعياً سوق شعبي. وتقع شرقي الطريق جبال كامار الخصبة؛ وهي تخضع لنفوذ شيخ ابن عقلاان المقيم في دربات؛ علماً أن السكان لا يحشونه كثيراً بسد يصنع سوات علم الشيخ بمقتل شخصين من المنطقة؛ فأرسل فرقة من حدوده للبحث عن أحياء دون جدوى؛ فقد خبأ هؤلاء الآخرون في أعالي الجبال حيث لا يتمكن الجود من القبض عليهم. ثم غادرنا هذه المنطقة وقطعنا ٤/٣ المي إلى حان متراح حيث اجتمع ذلك النهار عدد كبير من المسافرين؛ فدخلنا إليه لمرتاح قليلاً من حرّ النهار. لما لبثت أن هبت عاصفة رعدية قوية تراكمت مع أمطار غزيرة أدت إلى مدفق المياه من أعالي الجبال مبعه بذلك طريقاً عمماً أن الدرب تحولت إلى سيل جارف

ثم غادرنا متراح في ١٢ حزيران/يونيو، وبلغنا على مسافة ٤/٣ المي إلى ميسار ومنه إلى مقهى رحابه (Rehabe)، الواقع على بعد ٤/٣ ميل؛ ورفع بين هذين الحانين قرية دحانة (Djāne) جيبه وبعد أن سلكنا طريقاً وعرة للغاية وصحت إلى مقهى الباب ومنه إلى دربات على بعد ٨/٣ المي؛ مما يعني أن دربات تبعد ٦ أميال ونصف عن موسى.

وتعد دربات عاصمة ساحق نفوذ ابن عقلاان ومقر الشيخ المتحدر من العائلة الحاكمة حلياً. يقيم فيها عدد من جود الإمام وتدفع لهم في المقابل رواتب مرتفعة. تقع هذه البلدة على قمة جبل، وتتميز بسحبها الأكثر بشاعة في اليمن كلها؛ وأظنه يشبه المعارة البعاليه السوداء حيث قصي سد يصنع سوات عدد كبير من الإنكسار حقاً من شدة الحر. حمر سجن سوق دربات في «نصحر» بحيث لا يتصل إلى الصو، إلا عبر كوة صغيرة دخل منها المسحاء. ويصنع قيادة هذه الكوة، السجن المام حيث يحجر مرتكبو الجرائم البسيطة بعد أن يفقدوا بسلاسل طويلة.

بعد مغادرتنا دوربات سرنا ٤/١ المي لنصل إلى مقهى شوفادي (Chofadie)، ومنه إلى بلدة سلامة حيث يقام سوق شعبي كل أسبوع. ورأينا على الطريق مقهى حر، وخرايين للمياه، وشرب وأرعمتنا العاصمة القوية التي هبت بعد ظهر ذلك اليوم على قصاء الليل في سلامة؛ وفي صباح ١٣ حزيران/يونيو، قطعنا ٨/٥ المي لنبلغ مقهى رعاد (Rhomâde) وبعد أن سلك طريقاً متعرجة شاهدنا قرية ربيع التي يقام بها سوق شعبي كل أسبوع وهي تطل على حصن قهر الواقع على جبل مجاور لتعسر؛ غير أن الطريق المؤدي إليها يمر بقرية قرة (Kerra) على بعد ٣/١ المي، ومقهى رحسن (Rahssen) على بعد ميل تقريباً، وصولاً إلى تمر؛ مما يعني أن تمر تبعد ٤ أميال و ٨/١ ميل من دربات وأجدد ذكره أن شهدنا على الطريق من سلامة إلى تمر ثلاث حوانات للمياه مخصصة براحة المسافرين.

وبور وصوبنا إلى تمر، أرسلنا خادم صاحب دولة الخا الذي تم يؤد لنا أي خدمة حتى الآن مسلم

صاحب الدولة في هذه المنطقة رسالة معبودة أرسل في طلبنا على الفور وبدأ لنا لطيف المعشر فقدم لنا الكيشر والراجيل وشاهدنا على الأريكة أفند شجرة بمصعها العرب في أوقات النهو، كما بمصع النبع، وكما بمصع النهود التبول غير أن هذه الحوى العربية لم ترق لنا أبداً، وأخيراً صاحب الدولة أنه يقال في نهر إنا يحمل معنا من الحما صديق مليحة بالأفاعي هكذا بعالي العرب في نقل الأخبار واصطحبنا إلى أحد أسرار التي رج صاحبها في السحر من فترة وحيرة، وأرسل لنا بمحتين وكمية من الطحين والشعير عندما له في المقابل قطعة قماش من الهدى توازي قيمتها ٢٤ ريالاً، كان خادماً الأوروبي قد قصد بيت صاحب الدولة ليسلم له هديتنا فاعترض أبواب طريقه طالباً من أن يدفع له بقشيشاً، كان عليه إلا أن رد قائلاً: إن جرت العادة في بلادكم أن يتبادل الخدم البشيش عليك أن تدفع لي مبلغاً كبيراً من المال لأسي أحمل هدية لسيدك بصحك الأبواب منه وسمح به أن يتابع طريقه

ثم في اليوم التالي سلمنا الرسائل التي أوصدنا بها أصدقائنا في الحما إلى أصحابها ومنها واحدة لنياش كاتب، وثانية للقائم بأعمال عائلة أحمد الذي كان أمير نهر، وثالثة لبيل يدعى سيد، ورابعة لنيادي، والجدير ذكره أن الجميع استقبلنا بالترحاب عبر أن خادماً صاحب الدولة في الحما كان يلاحظنا حينما ذهبنا حتى أنه كان يدخل إلى غرفتنا حين يأتي أحدهم لزيارتنا، ولعله كان يحاول أن يعلم العرب أننا مسافرون تحت رعاية سيده، ولكن تصرفاته هذه كانت تحد من حريتنا وتثير معطناً نحاول أن نهمل أن وجوده ليس مشجعاً في هذه المناسبات. ومن ناحية أخرى كان الطقس في نهر جميلاً جداً بدلاً من الحرارة الحارقة والجفاف اللذين يسودان في بهامة، كانت السماء تظهر كل مساء حاملة معها هواءً معشاً

إن مدينة نهر تقع شمالاً، عند منح جبل صابر المنصب، على خط العرض ١٣°، ٣٤' وهي محاطة بأسوار تتراوح مساحتها بين ١٦ و ٣٠ قدماً، وتعلوها أبرج صغيرة؛ كما أنها معطاة من الخارج بأجر مشوي، ويحد داخل الجدران صحره متعرجة يبلغ ارتفاعها حوالي ٤٠٠ قدم بين عليها حصن فاهر المنيع.

ونلمدينة بابان، باب الشيخ موسى، وباب الكبير، يصلان على الطريق المؤدي من الحما إلى صعدة؛ وهما مهيان على الطراز العربي، ويحد باباً آخر يصل قصر قاهر بجبل صابر، وباباً رابعاً في سور المدينة بين قاهر وباب الكبير؛ والجدير ذكره أنه لم نشهد أثراً للدفاع إلا في قلعة قاهر، وعلى بابي المدينة؛ لكن خلال إقامتنا في نهر، تم بناء برج جديد وضع عليه عدد من المدافع. تتألف حامية نهر من ٥٠ أو ٦٠ عنصر يقم ٦٠ منهم في القصر، بينما يوزع الباقون على أبواب وأبراج المدينة.

وقد تبدو نهر محصنة جداً ضد الأعداء؛ لكن وفقاً للأسلوب الذي يعتمده الأوروبيون في حروبهم، لا أظن أن بلدة نهر وحصنها قد يصمدان طويلاً أمام العدو وإليكم ما تدن على الأرقام التي وضعتها على البرختين (LXVI و LXVII) (١) باب الشيخ موسى، (٢) باب الكبير، (٣) البرج الجديد الذي وصفت





عليها المدفع، ٤) قصر المرحوم سيد أحمد، ٥) جامع الشريفة الكبير الذي يعلو أقبية تستعمل لتحرير القمح، ٦) إسماعيل ملك أو جامع نجر الكبير؛ وهو كبير جداً، ويمس أقبية تستعمل كمحارز للأسلحة، ٧) قبة الخسبة المبنية على صريح باشا تركي، ٨) جامع نصر، ٩) السوق، ١٠) جوامع متداعة خارج البلدة، ١١) المصلى حيث يصلي صاحب الدولة أيام الأعياد ويحد في كافة مدن اليمس أماكن مماثلة يصلي فيها المسلمون في الهواء الطلق، خلال الأعياد والمناسبات غير أن بعضها يهوى بعصه الآخر جمالاً أما هذا المصلى فهو محاط بسور كبير فيه بعض الحجرات التي يستعملها المسلمون لخصوص قبل أداء صلاتهم ١٢) طريق صعاء ١٣) طريق النخا فست حرم المدينة وحددت موقعها بواسطة البوصلة مع أنني لم أشر على شوارعها كلها. وأشرت على اللوحة (LXVI) إلى ارتفاع الهضاب التي بيت عليها أسوار المدينة

ويدعى ولي مدينة نجر إسماعيل ملك. ويقال إن هذا الولي الذي يحته ستة اليمس كان منكاً وهو وقد في جامع يحمل اسمه لكن مد أن يبر أنه يصنع المعجائب، حطّر على الجميع الاقتراب من صريحه. وإليك وتائع القصة التي رويها لي: طلب متسولان صدقة من حاكم نجر فلم يتصدق إلا على واحد منهما؛ فجا إلى الآخر إلى قبر الملك إسماعيل وتصرع إليه أن يغيبه؛ فم بشأ إسماعيل الذي كان كريماً جداً في حياته أن يدع هذه الرجل للزمن برحل دون أن يدي له عليه ففتح صريحه المصير وسلم المتسول رسالة إلى الحاكم تفصي بدفع ١٠٠ ريال لصاحبها وبعد معاينة الرسالة بدقة تبين أن إسماعيل كتبها بيده ومهرها بحتمه. فما كان من الحاكم إلا أن استجاب لطلب هذه الملك السي لعظيم؛ غير أنه حظر بعدها الدخول إلى القبر حتى لا يتلقى بعد اليوم رسائل مماثلة.

إنما نجد قرب جامع إسماعيل ملك، حديقة جميلة كانت مخصصة لعيسى بن إسماعيل ملك. وهي تضم حوض ماء كبيراً يحيط به بقن رديعي تمر فوقه القنوات التي تنقل المياه إلى هذه الحديقة. شاهداً خارج أسوار المدينة جامع نبي شهير يدعى الشيخ موسى الذي يحمل اسمه أحد أبواب المدينة. أما في الجهة الشرقية للمدينة بشاهد جامعاً رائع الجمال ومزجاً يعلو صريح أفضل وعائته. معايت بدقة هذين الصرحين ولاحظت أن هندسهما المعمارية شبيهة من حيث أبعادها وارتفاعاتها بالهندسة المعمارية التركية؛ مما جعلني أستعج أن أفصل هذا كان باشا من نجر ونكثر ما كما نكثر في الجوامع الأخرى القوش المربة الحديثة التي تتشبهت أحرفها إلى حد بعيد حتى أن العربي الأصيل لا يستطيع قراءتها بسهولة وبما لا شك فيه أن المدينه مزج بالمساجد الصغيرة ولكن معظمها متداعج جزئياً.

ورغم أن أسباده نجر كانوا زيدين وليسوا من أهل السنة إلا أنهم يفوقون أسلافهم سعة فقد بنوا قصوراً فخمة ليستمتعوا بالعيش فيها في حياتهم، بدلاً من استعمال هذه الأموال لترميم الجوامع

والمساجد. واكتفى كل واحد منهم بساعة خلف مره استعمالها كمصلى له في حياته ومدمماً بعد مماته والجدير ذكره أن الحرب هدمت معظم المنازل وجعلت الحقل والبساتين شبه مهجورة

يوجد في جوار ثمر بقايا مدينتين قديمين؛ ومنها مدينة عدين، المقابلة لمدينة نجر؛ لم يتبق منها إلا أنقاض جوامع صغيرة. يقول العرب إنها كانت قديماً مقر الملك أو أسيد هذه المنطقة. ويروي أن إسماعيل ملك، بدأ بتشييد صريحه وجامعه عند سفح جبل قاهراً فبعضه سكان عدين الذين كانوا يهابون من تسلق جبل أو الذين كانوا يفصلون لإقامة قرب بيهم؛ ويمكننا القول بالتالي إن نجر تدين بأصلها إلى النبي محمد باسم شأنها شأن محبة وبيت المقيم والحد. أما المدينة الأخرى فهي تهيد (Thahid)، الواقعة جنوبي شرقي نجر. على بعد نصف ميل تقريباً. وشاهد اليوم بقايا أسوار المدينة وجامعاً كبيراً متداعياً وأنقاض جامع مسقط الحمر المني من حجارة حمراء غريبة؛ ولقد لغت تنبأها في هذه البقعة بقوش عريه نقلتها في اللوحة (IX) من كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية».

ولم أستطع جمع معلومات وافرة عن تاريخ مدينة نجر؛ فالثورات التي وقعت في السنوات الأخيرة كانت ستحتل مكاناً كبيراً في التاريخ. يو أن العرب احتفظوا بالتواريخ أو لو أنيحب للأوروبيين فرصة الاضلاع على تصحيحها. وسأروي لكم باختصار ما سمعته من أقوال حريها، عن الإمام منصور حسين أخاه حاكماً أو صاحباً للدولة في هذا الإقليم. فاستمتع هذا الأخير بمنصبه كثيراً إلى حد أنه رفض لاحقاً التخلي عنه. فأرسل الإمام جيوشه لإرغامه على التنازع لمشيئته، غير أن أحمد استطاع الصمود ١٢ سنة، بمساعدة حاميه التي يبلغ عددها ٢٠٠٠ عنصر؛ فصك عملة باسمه في المدينة، وحرص ضرائب على البصائع التي تبيعها، وأجبر رعاء الإمام على سوك طريق عدن خلال سفرهم من النجا إلى صنعاء وخلال حديث السكان عن هذا الحاكم كانوا يسمونه ملكاً أو إمام نجر. أما هو فكان يكتب بأن يادوه سيدي أحمد، وهو لقب يحمله أبناء عائلة الاسم كلهم.

لقد ترك سيدي أحمد سنة ١١٢٠ عبد الله، علي، وجاشا، ومحسن، ويعقوب، وحسين. استلم البكر عبد الله الحكم بعد وفاة أبيه وعاش في وثام مع الإمام وعند وفاته عام ١٧٥٩ ترك ابناً يدعى عبد الكريم، ويبلغ من العمر ١٢ سنة؛ وكان يقرض به أن يحلف والده، ويسلم بحكم غير أن حب البسطة كان يسيطر على أعمامه الثلاثة. علي، جاشا ومحسن، فشكّل كل واحد منهم حرباً بعيه السيطرة على مدينة نجر والأراضي المحيطة بها. فاستولى واحد منهم على قصر فاهر، وآخر على باب الشيخ موسى، والثالث على باب الكبير؛ غير أن إراداتهم كانت ضئيلة لمعايه، ولا تسمح لهم بعائلة الخنود أو حتى شراء الدخائر؛ فإن جمع أحدهم بعض المال استعمله لشراء الدخائر وإطلاق النار على أخيه حتى يعادها دون أن يبلغ هدفه المطلوب

وفي وسط هذه الظروف، اضطر الأمير عبد الكريم بهت رسالة للإمام العالي الإمام المهدي يرجو منه

فيها أن يهب لخدمته، للمحافظة على أراضي والده وأجداده. فأرسل الإمام النقيب أو القائد الماس، على رأسه جيش كبير إلى تعز للسيطرة على المدينة، وحلب المتمردين إلى صنعاء. غير أن النقيب المذكور لم يروء بالمداخلة اللازمة لإرغام المتمردين على الاستسلام.

ولما كانت حيرش الإمام تيدل جهدها لمحاورة عمر كان الشيخ عبد الرب وأتباعه يتقدمون نحو المحاء، لهذا الأخير نصب نفسه حاكماً على الحجرية بعد أن فصلها عن مناطق نفوذ الإمام ولما كان الإمام عاجزاً عن رد هذا الشيخ إلى صومعه، قرر أن يتصالح معه ويسمعه عمرو تعز. فأقرب معاهدة السلام بحضور النقيب الماس الذي كان على رأس جيوش الإمام، والنقيب أحمد الحمر، قائد حلفاء حاشد وبكيل الدين يحميهم لنفوذ الإمام؛ وتم الاتفاق على أن يضم عبد الرب جوده إلى جيوش الإمام ويساعدهم على غزو تعز. فانضم عبد الرب وأتباعه إلى الجيوش التي كانت تحاصر تعز، غير أنه كان يعترف للمدافع اللازمة لمهاجمة المدينة؛ فحطرت له أن يجمع الخطوة التالية كان الجنود مورعين على الأبراج التي تعلو أسوار المدينة؛ فوعد عبد الرب ١٢ جدياً منهم بـ ١٠٠٠ ريال إن حفروا كوة في البرج ليصر منها رجال الإمام. وبعد أن وافقوا على ذلك، تسلل رجال الإمام ليلاً إلى المدينة التي نهبت برمتها؛ وكان ذلك عام ١٧٦٠

وبعد غزو تعز، أظهر الإمام محبته العميقة تجاه ملالة سيدي أحمد وعبد الرب، ودعاهم لزيارة صنعاء. ورغم خوف عبد الرب من ريادة هذه المدينة، إلا أنه لبى الدعوة نظراً للخدمات التي أداها للإمام، وبناءً على إلحاح القيين الماس وأحمد بن النقيب علي الحمر غير أن الإمام حان ثقة الأبطال العرب وقادته المخلصين به، عند وصولهم إلى صنعاء؛ وقد شرحت هذه الحادثة تفصيلاً في رواية تاريخ اليمن «وصف شبه الجزيرة العربية». كما وأنه لم يحاول أن يوسع سلطة الأمير عبد الكريم في مناطق عمود والده وعين صاحباً للدولة في تعز وفي الأقاليم لأخرى وقابلت في وقت لاحق الأمير شاب في صنعاء؛ كان ذلك نهار الجمعة، بينما كان داهياً على حصانه إلى الجامع وعند وصول سيدي جاشا وسيد محسن إلى صنعاء، اقتبدا على العور إلى السجن. غير أن سيدي علي بقي حراً لأنه ولد روجه للإمام.

كان صاحب دولة تعز صابغاً في جيش الإمام ويحمل لقب نقيب. وللسنوات خلت كان صابغ الحرس، ومعتشاً في الجمارك عند باب الشاذلي في المحاء. واستدير ذكره أنه لا يد لأصحه السبل في حصونه على هذه الوظيفة شأنه في ذلك شأن معظم أصحاب الدولة الآخرين. وما لا شك فيه أن المنطقة الواقعة تحت يده شاسعة للغاية لأنها تضم جبل صابر ومناطق يوفروس والحجرية. غير أننا نجد في جبل صابر وفي منطقة الحجرية عدداً لا بأس به من الشيوخ الذين احتفظوا بسيدهم في مقاطعاتهم رغم أنهم يدهون الضرائب للإمام؛ وهم يتحرون بأصدهم السبل شأنهم شأن العرب الذين يقصون على حدود

الأقاليم التركية؛ كما وأنهم يحضرون أصحاب الدولة كما يحضر أولئك الباشاوات موجد صاحب دولة تمر نفسه مجبراً على التحصن من مصابقات شيوخ جبل صابر؛ نرج واحداً منهم، أتى إلى البلدة برفقة عبدة من عبيداته - وحاول مقاومته - في السجن؛ ووضع العبدة في مكان آمن. ورغم مطالبه الشيوخ الآخرين بالإفراج عنه لم يطلق سراحه إلا بعد تدخل القاضي عند ذلك قصد الشيخ صعاء يحضر أمراً من القاضي أو وزير الدولة إلى صاحب الدولة يسلمه العبدة على انقور عبر أن هذا الأخير، استشاط عيظاً ورج الشيخ ثابة في السجن. ثم أطلق سراح الشيخ وعبدته ولكن صاحب الدولة بقي حاقداً على شيوخ جبل صابر وأرسل بهم في أول مائة خمسة أو ستة جنود تصبروا معهم بقطاعة، ياءً على طلب مطبقهم. عبر أن الشيوخ لم يهتموا أن يهانوا في عقر دارهم، فقتلهم جميعاً. وبعد ذلك حين لم يمد يجازب أي جندي بالذهاب إلى قرى جبل صابر وحلال إقامته في تمر قيل إن عددًا من الأشخاص، قتل خارج البلدة قرب جبل صابر. ويقتل الناس أن الشيوخ لم يرتاحوا قبل أن يرسل الإمام صاحبة جديدة للدولة إلى تمر.

وكان السيد فورسكال يتأمل يوماً جبل صابر، حيث تسمى وفق كلام العرب كافة أودية الأعشاب في العالم. عبر أنه كان عاجزاً عن جمعها بسبب الخلافات القائمة بين شيوخ وصاحب الدولة. فكان يفكر في استدعاء أحد الشيوخ يرافقه في هذه الرحلة، حتى لا يتعرض لأي سوء؛ غير أن صاحب الدولة سمح له بذلك وعند ذلك طلب الإذن بالذهاب إلى جبل سوراق (Saurak)؛ ولقد وافق صاحب الدولة على طلبه، وأرسل جندياً ليرافقه في رحلته. كان السيد فورسكال قد أكد لنا في انحاء أنه يريد الإسراع في الذهاب إلى تمر بغية جمع الأعشاب من جبل صابر فأمر صاحب دولة الخا حادده بمرافقه السيد فورسكال إلى جبل سوراق، علماً أنه كان يجهل بشيء خلافت بين صاحب دولة تمر والشيوخ. عبر أن الخادم المذكور حثه جندي صاحب دولة تمر على رفضه الذهاب إلى جبل سوراق، بحجة أن الأعياد على الأبواب. ظناً منه أنه لا يحذر به السماح برفيقه في السفر بجمع الأعشاب إلا على جبل صابر فأعلم صديقي صاحب الدولة الذي هدد الجندي بالسجن إن لم يرافقه على الفور بغادر السيد فورسكال المدينة مساء ١٨ حزيران/ يونيو، غير أنه لم يزجبل صابر إلا من بعيد في ٢٠ حزيران/ يونيو، ثم وصل إلى بلده مهجورة تماماً لأن صاحب الدولة أساء معاملة أهلها، ففضلوا الذهاب بكسب رقبهم في مكان آخر ولما علم أن معظم القرى التي يعني زيارتها قد هجرها أهلها، خاف أن يعمره «طعام»، أو أن يعرض حياته للخطر فغادر إلى تمر مساء ٢٠ حزيران/ يونيو

نادراً ما نجد بين المسلمين علماء يدرسون كسوف الشمس وخسوف القمر بغية وضع جدول رسمي؛ يستطيع الحاكم بمسقطه أن يعلن قبل بضعة أسابيع أو أيام عن موعد حلول الأعياد فلفد رغبوا في تمر أنه في ٢١ حزيران/ يونيو يصادف عيد عرفة أو الأصحى حيث يذبح حجاج جبل عرفات قرب مكة،

والمسلمون كافة اجمال والثيران والنماح. وبهذه المناسبة تنقّى صاحب الدولة وعمره من أعيان المدينة عدداً واهراً من النماح وانهداها الأخرى ليلة ٢٠ حزيران/يونيو؛ فالعيد يدرم يومين أو ثلاثة تفصل خلالها الأسواق كلها، وعلى العرويين أن يتزودوا بكل ما يحتاجونه عشية العيد فابتعنا لخدمنا المسلمين الطحين والسكر والعمل لصنع بهم غالباً من الخلوى، فضلاً عن بحجة صغيرة، بعبارة أخرى استعدت «بلدة» كلها لاستقبال العيد. لكن قبيل غروب الشمس، وصل مرشد بقوم إن العيد قد أرجى، إلى اليوم التالي لأن القمر ظهر متأخراً في صماء. أما في المناطق التي لم تعلم شيئاً عن الأمر الصادر من صماء فاحتجبت بالعيد في ٢١ حزيران/يونيو، يسرّ رح سكان مصر بأعميون بحرب التحصيرات التي أعدوها. كما وأن البلدة لم تشهد حركة ملحوظة إلا عند غروب الشمس؛ وعددك أصقلت ثلاث طلقات من مدافع باب الشيخ موسى وصفتان من قصر قاهر للإعلان عن الاحتفال بالعيد في اليوم التالي.

في ٢٣ حزيران/يونيو أطلقت المدافع طلقات جديدة حين عادر صاحب الدولة المدينة برفقة أتباعه قاصداً المصلى لتأدية الصلاة في الهواء الطلق وبعد حوالي ساعة سمعت طلقات مدفعية أخرى وعاد صاحب الدولة وأتباعه إلى المدينة وانصرف اختنود إلى تأدية تحركاتهم التعبدية. كما اعتادوا أن يفعلوا كل بهار جمعه عند عودة صاحب الدولة من الجامع، يسرّ راح أعان البلاد يتسربون على حمل الرمح وهم على ظهر أحصنتهم. وقد كان الأمير فرحان من لحية ماهراً جداً في هذه اللعبة. كما سبق لي أن أشرت في «وصف شبه الجزيرة العربية» وعاد بعدها الجميع إلى منزله وأكل اللحم، ومصنع العشب وأشمل الطيب في سريره واستلقى على الأريكة، وأشمل غليونه الطويل.

كانت إقامتنا في هذه المدينة خالية من المشاكل. وكنت أتمنى أن أقوم بجولات داخل هذه المملكة كما فعلت في بيت الفقيه. غير أنني لم أحازف بمحادثة المدينة، نظراً للظروب الرهبة. ولما كنت قد قمت بدراسات ملكية في مصر، ووضعت خارطة ورسماً منظورياً لها، لم يتبق بي سوى زيارة قصر قاهر. وكنت أتمنى ذلك بهدف نقل النقوش المنحوتة على باب الصديق. أما السيد فورسكال فلم يعد الأمن بعد زيارة جبل صابر. ولما كان صاحب الدولة يستقبل بالترحاب قرر السيد فورسكال أن يطلب منه تأدية السماح له بإحضار شيخ من جبل صابر، لمرافقته في رحلة عظمى إلى الجبل المذكور، فضلاً عن إعطائي الإذن بنقل النقوش التي تحدثت عنها آنفاً. فاستجاب صاحب الدولة لمصدي، بيد أنه عند منتصف الليل أبعد قراراً آخر. استدعى خادماً صاحب دولة الخاء وأبلغ أن سيده بعث رسالة إلى صاحب دولة تمر بطلب به عودتنا إلى مدينته؛ فصدر لنا الأمر بالرحيل في ٢٥ حزيران/يونيو وتذكرونا أن صاحب دولة انما وعدنا بإبلاغ رد الإمام بشأن دهايا إلى صماء. وعند الصباح الباكر، كانت الجمال في انتظارنا عند الباب؛ غير أننا رفضنا الانطلاق على الفور بحجة أننا لم نحزم أمتعتنا بعد. فقادروا الجمالون المكان على أن يعودوا في وقت لاحق.

خطر لنا أن صاحب الدولة يحاول ابتزازنا للحصول على هدية قيمة كمثل التي قدمها لصاحب

دولة الخما؛ كما وأنه مستعد لعدة تلقيه هدية من عشية العيد. علماً أني لم تأخذ معه التقيد بعين الاعتبار. وعله عصب أيضاً من إلحاح السيد فورسكال عليه للذهاب إلى جبل صابر؛ فلو عدد سلباً معاً، لكر سكان نهر صده، لأن الرحالة العرسيين يتملكون على هوهم في المنفعة، يسعد أباؤهم يموتون قتلاً، وبقول قتل في الجبل لطيب الإمام من صاحب الدولة أن يثار له بهذا السبب تعهما جيداً سبب رفض صاحب الدولة السماح لنا بالتجول في جبل صابر.

ولقد طلبنا مقابلة صاحب الدولة لنعرف شخصياً سبب رفضه هذا. غير أني لم نستطع رؤيته. بعد أن أكد لنا الختم أنه مريض. فاستشرنا أصدقاءنا في الموضوع؛ ونصحوا بالتحدث مع الياش كاتب؛ فقال لنا إنهم قد يسمحون لنا بالبقاء بضعة أيام أخرى بانتظار وصول معلومات مفصلة من الخما؛ غير أن كلامه كان دون جدوى خاصة وأن صاحب الدولة أرسل لنا في ٢٦ حزيران/يونيو حذره مصطحبين معهم الجمال والخمير، وطلبوا من حرم متاعنا؛ فأكدت لهم أننا لن نعاد المكان قبل مقابلة سيدهم؛ وأرسلنا أحد خدامنا ليبلغ صاحب الدولة قرارنا هذا؛ غير أنه لم يستطع مقابته وصرّد خادمنا من بيت الحاكم. غير أنه قال لرجال الحاكم بأنه لن يرحل مكانه قبل أن يحصل على موافقة صاحب الدولة بمقابلة واحد من وتكمن السيد فورسكال بهذه المهمة، وحاول إرضاءه قدر استطاع متجنباً التطرق إلى مسألة السعر إلى جبل صابر، عسى أمل أن يأذن لنا بالبقاء في نهر، حتى تبليغ رد الإمام بشأن ذهابنا إلى صنعاء. غير أن صاحب الدولة رفض اقتراحاته هذه وأمرنا بالاستعداد فوراً للرحيل.

وبعد أن حزم أمتعتنا استعداداً للرحيل وفقدنا لأمل في البقاء مدة أطول في نهر، أو في الذهاب إلى صنعاء نبدل فجأة مجرى الأحداث إذ وصل وفد من نيل صاحب دولة الخما حاملين رسالة محترمة فيها واحدة موجهة للإمام وأخرى للمعتمد أحمد وزيره الحالي وثالثة لصاحب دولة نهر وهو يعلمنا فيها أن الإمام أعطانا الإذن بزيارة صنعاء شرط أن تأخذ مع مجموعته التوادر التي جمعناها من كافة أنحاء البلاد وهذا يثبت أن الرسالة التي أبلغنا بوصولها قبل بضعة أيام كانت منققة. فحمل السيد فورسكال هذا الخبر إلى صاحب الدولة، ولكنه لم يستطع مقابته؛ لأنه دخل إلى الحرم وناذراً ما يتحلى حاكم مدينة عربية عن رفقة نسائه التوادي ويحضر لهنّ اللين بكامله، بعد أن يقضي مهامه محافظاً بالرجاء. فسلم السيد فورسكال الرسالة للخدمة.

حسبنا أن سفرنا إلى صنعاء بات محتملاً؛ وكان على وشك أن نعاد البلدة دون أن تأخذ موافقة صاحب الدولة أولاً، ولكننا لم نستطع أن نستأجر حميراً رجلاً فالتجار الذين يبحثون عن الجمال يتحدثون أولاً مع محلف المجموعه الذي يحدد عدد الجمال اللازمة للسفر. وبعد أن أبلغ صاحب الدولة باستعدادنا للرحيل، أعلمنا أن الجمال جاهزة لاصطحابنا إلى هناك، عنماً أنه لم يلق الأمر بإرسالنا إلى صنعاء، وأن هذه المسألة تتعلق بصاحب دولة الخما وحده. فأدركنا حينها أن الله وحده هو معين، لأننا لا

ستطيع مواجهة رجل يعمل تحت أمرته ٥٠٠ أر ٦٦٠ جدياً ويرفض الخصوع لأوامر سيده. فأحرنا
أصدقائنا قصة صاحب الدولة المذكور وشيخ حيل صابر حتى يوحوا لنا بفكرة اللجوء إلى القاضي. لقد
سمعنا الكثير عن طيبة قلب فصاة ليس. فأخذنا بعين الاعتبار الإشارة التي أعطونا إياها؛ وقصدنا القاضي
وعرضنا عليه الرسائل التي استلمناها من الخا. واعتبر القاضي تصرف صاحب الدولة تجاهها مشياً؛ فبعث
به على الحال رسالة حذره فيها من معارضة أوامر الإمام. فرد عليه صاحب الدولة قائلاً إنه لا يوي أن
يشيا عن رحلتنا إلى صعاء، ولكنه يطلب منا الانتظار يوماً حراً حتى يتسنى له الوقت لكتابة الرسائل التي
ميسرتها معنا. فافترحنا تأجيل رحلتنا ثلاثة أيام إن كان صاحب الدولة يعني ذلك. لكن صباح ٢٧
حزيران/يوليو أتى خدمه لزيارتنا وطلبوا منا الذهاب على الفور إلى الخا. وبعد أن لاحظنا أنهم يؤدون
مهمتهم على مضض، أكدنا لهم أننا لن نرحل اليوم. ولم أعلننا القاضي بالأمر كتب إلى صاحب الدولة
ما يلي. «لا تحاول أن تخدم مصلحتك لأنهم من الأجانب»

أثبت لنا هذا الكلام أن صاحب الدولة يحاول إقناعنا للحصول على هدية غير أنه سيبذل ما
كثيرة في الأيام الأخيرة، حتى أننا لم نعد نرغب بتقديم أي شيء له، علماً أن القاضي نفسه اعتبر طيبة
هذا غير منصف. وعند الظهيرة، أرسل الباش كاتب في طلبنا فأعرب عن دهشته لتقديمنا شكرى ضد
صاحب الدولة أمام القاضي خاصة وأنه لم يعرض أبداً على ذهابنا إلى صعاء؛ وأكد لنا أن خدمه تحدثوا
باسمه كذباً وطلبوا منا معارضة الخا على الفور إثر ذلك سألنا القاضي أن يمد لنا يد العون لتابعة رحلتنا.

حينئذ أن عادم صاحب دولة الخا سيحار إلينا ضد صاحب دولة عز بعد أن استلم رسائل سيده؛ غير
أنه فضل أن يمثل لأوامر صاحب دولة نمر نظراً لأنه يقسم في مناطق موته. فارتأينا أن نعيده إلى الخا
ونقدم له هدية مقابل الخدمات التي قدمها لنا سيده. غير أنه كان يجدر بنا أن نعطيه هدية عرياً
بحرب البلاد جيداً ويحسن التحدث مع الحاكم، إن دعت الحاجة لذلك. فاجأنا إلى القاضي ليدلنا على
مرشد سياحي ملائم. فُرسل لنا على الفور رجلاً رافقاً إلى صعاء وعاد برفقتنا إلى الخا.

حدد موعد الرحيل في ٢٨ حزيران/يوليو ووصلت الحمال بعد ظهر ذلك اليوم. وما إن بدأنا بحمل
متاعنا حتى أرسل صاحب الدولة في طلبنا، غير أننا لم نحظ يشرف مقابلته بسبب نوعه الصحي؛ بعد
أن رقصا في جهة واضطر لتقديم بعض التذلات لنا، احتقره السكان وعكروا معمر مرارته. وأبعتا الباش
كاتب أنه تلقى في اليوم السابق أمراً من الإمام بإرسالنا إلى صعاء؛ ولهذا السبب رفض السماح لنا
بمعدرة المكان من قبل؛ وأصاب الباش كاتب أن صاحب الدولة أمر أحد خدامه بمرافقتنا في رحلتنا حتى
لا يعترض أحد طريقنا. كان الخادم يهودي الأصل اعتنق الإسلام منذ ٢٨ سنة ويظلف لرؤية أمه في
صعاء، غير أنه لم يتوان عن تحديد اسم الذي يريده بحصو الباش كاتب وبعض الرجال العرب أم
القاضي فحسبنا رسالة إلى الفقيه أحمد، كتب فيها ما يلي «إن تحدث أحدكم أملك بالسوء عن هؤلاء

الأجانب، وبأنك أن تصدقه. وكنا قد اتفقنا على إهدائه ساعة، كما فعلنا مع صديقنا الأمير مرخان في مخبة. ولكن الخادم الذي أرسله لنا، أكد لنا أنه لن يقبلها مخافة أن نضل أنه حاور مساعدينا لخدمة مصلحة الشخصية، اكتمينا بالتالي بتقديم جريد شكرنا لهذا الرجل الذي أعانق علينا أفضاله. والجدير ذكره أنه عند عودتي إلى أوروبا، تحدثت عنه طويلاً لأثبت أن القضاة العرب ليسوا جميعاً حبياء ومضلين شأنهم شأن القضاة الأتراك.

وبلغنا بالتالي هدفاً وأجبرنا صاحب دوتة نعر على منحنا حرية السفر إلى صنعاء. غير أن عانيت الكثير من المآسي خاصة وأن مرض نيسد مورسكال أخذ يتعاقم فخلال الأيام الأخيرة من إقامتنا في نعر، بدأ يشعر بالتوعك؛ غير أنه أخفى عنا ذلك، حتى لا يضر سفرنا. فأخذ مرضه يزداد خطورة، إلى أن أدى إلى وفاته، علماً أننا لم يكن يجد في طريقنا أماكن ملائمة لمرتاح فيها.

الرحلة من تعز (TAA'S) إلى صنعاء

يوم عاودت تعز وحصلنا فندقاً قرب المدينة ولم يستعد أكثر، ثم رحلنا في اليوم التالي أي في ٢٩ حزيران/يونيو، قبل أن تفتح أبواب المدينة وبما أن الفوضى كانت تسيطر في قافلتنا الصغيرة، مما اضطرنا للبقاء قرب الإبل، لم أتمكن من تحديد المسافة بين الأماكن بالدقة نفسها التي اعتمدتها في الأماكن الأخرى حيث كنا سبق القافلة على حميرنا. لكن استطيع تحديد الآتي. إذا توجهنا إلى الشرق من تعز، يمرّ للدرب غرب منهي يسمى عدن، ويؤدي إلى جمر التي تقع على بعد فرسحين وبعد رار السيد نورسكال، أثناء الرحلة، جبل سراق (Saurek)، الذي إذا ما تقدمنا منه فرسحين نحو الشرق والشمال الشرقي، نوصلا جناد (Dajennad)، التي اشتهرت ببناء معصى بمسجد معد بن جابل، لكن لم يبق منه حالياً سوى المسجد المذكور وبعض المارل الممدودة. وتسمى المنطقة المحيطة بجمعر هباب (Haubau)، وقد أخذت اسمها من جبل هباب الواقع إلى جانب جبل صابر (Sabber).

ويؤدي الطريق من جمعر بانجاء، انشاز والشمال الشرقي إلى عماقي (Amāki)، ولا تقع في هذه الدرب سوى على قرى صغيرة وهي: قرب (Korff)، عباد (Obade) وعمور (Amūr). أما عماقي فتقع في سهل خصيب، وكانت فيما مضى مدينة صغيرة لكنها تعرضت منذ سنوات للدمار، فلم يبق فيها سوى بضعة منازل. ويقام فيها سوق أسبوعياً، وإذا ما توجهنا من عماقي إلى الشمال والشمال الشرقي نصل إلى كاهه (Kaade).

في ٣٠ حزيران/يونيو، وصلنا إلى صمسرا في محراس (Simeserā Mhārras) بعد أن انطلقنا من كملة نحو الشمال الشرقي. أما القرى الواقعة إلى غرب هذه الدرب فهي: جان المرتن (Gamue el Mursetēn)، غرا (Gurafa)، حمارا (Hāmāra) ودراس (Derras)، ودرشق (Duschruk) وهي مدينة صغيرة بين هذه القرى. وبرى إلى الشرق القرى الآتية: دمس (Dimne)، ميس (Mensil)، وبهل (Nahhl). ولقد حمرت المياه التي تندفق من الجبال في هذه المنطقة، مجرى واسعاً وعريضاً بين الصخور، وعندما هبت عاصفه هوجاء، بعد الظهر، كثرت سيلاً عظيماً وسريعاً، لكن بما أن مياه هذه الأمطار تدفع بعض من الجبال، جفت مجاري السيل هذه كلياً بعد ساعتين وبما يجدر ذكره أنه تم بناء جسر حجري حسب لأوامر بعض واحد قرب سسر على أحد هذه المجاري.

وتسمى الرل الكبيرة، التي تصادفها من نهاية وحتى ها مطرح (Matrach)، وهي لا تسمى كرها

منازل خاصة لا يدفع أصحابها الكثير لصيانتها، ويكتفون بأنهم مأوى لنصوف ونبصائع ومجد من محراس حتى صناعه، سمسرات كبيرة مبية من الآجر النشوي، تبعد الواحدة عن الأخرى يوم سفر أو نصف يوم أحياناً وقد بنى هذه الصروح فصلاً عن الخانات أو الكروسيرو في تركيا، رجال أعناء لراحه المسافرين؛ لكن السمسرا تفتقر إلى وسائل الراحة تتوافره في الفنادق في أوروبا، فالمسافر الذي لا يكتفي بالقهوة، والأرز، والخبر والرينة يني لا تقدم هذه البرل غيره، يعني أن يحصل أطعمة أخرى رد على ذلك، أن هذه الأماكن ليست مئة للعايه، بعضها باب واحد يقف في المساء وقبل فتحه عند الصباح، يطلب من المسافرين في بعض الأماكن تعقد أعراضهم كي لا يبعدوا شيئاً منها

وفي ١ تموز/يوليو، غادرنا النزل، وك معروف أن تسبق قمة جبل محراس يحتاج إلى ٤/٣ الساعة وكنت في أثناء رحلتي الأولى إلى هذه البلاد، قد لاحظت أن نزول الجبل انطلاقاً من البر يتطلب ٥٠ دقيقة، ومن هنا يحسب أن يستتبع تقريباً مدى ارتفاعه أما الطريق الذي يؤدي إليه فمرصوف جرياً، كما ذكرت سابقاً، ومجد على قمة الجبل قرية مجد وهي قرية كبيرة إلى شرق البر وتسمى المنطقة الممتدة من هذه النقطة وحتى أود (Ode) - وهي قرية تقع إلى شرق مدينة جبلة - شيان (Shebān). ويحدر الطريق من أود إلى أرما، وفيها معبى برعورة، ومجد هنا أيضاً مسجداً قديماً مريباً بقية أما الأراضي الصالحة للزراعة التي تأخذ في هذه المنطقة الخصبة شكل مدرجات كالكروم في أوروبا، مصممي على المكان جمالاً وروعة. وتبعد أرما عن آب (Ahh) حوالي نصف ميل، وتقع هذه القرية على بعد ميل من جبلة (Dajōbla) إلى الشمال الشرقي. كما تبعد السمسرا عن جبل محراس حوالي ميل ونصف إلى الشمال الشرقي وعلى خط مستقيم ولاحتظ وجود ستة مجالس (Madsjals) على هذه الطريق القصيرة، ورأيت قرب أحدها، وهو لا يبعد كثيراً عن أرما، مسمى لمواشي التي تمر بالمكان، كما مجد منازل مبية جيداً، إنما غير مسكونة، وهي تستخدم كملجأ للمسافرين الذين تغاضهم الأمطار في المنطقة

وتتبع مدينة آب قضاء اليمن الأعلى، ويخضع صاحب الدولة في هذه المدينة لساك المقيم في جبلة وتقع المدينة على قمة جبل، تحيط بها الأسوار والحصون، أما شوارعها فمرصوفة، ومنازلها مبية من الحجر ككافة المنازل في البلاد الجبلية. ويقدر عدد المنازل في آب بربع المنازل الموجودة في جبلة، فلا مجد فيها بحسب تقديري إلا ٤٠٠ إلى ٥٠٠ منزل. ويمثل العرب ٨٠٠ منزل في آب و١٢٠٠ في جبلة. ويقال إن في المدينة عدد كبيراً من المساجد الصغيرة، لكني لم أرى سوى مسجدتين بمبارك، ولعل الأمر يعود إلى أن الزيديين لا يفتقون الكثير على مساجدهم كأهل السنة وتتبع العرب من آب وحتى سناً (Sunna) المذهب الأول، فيما يتبع عرب تمر ونهامة المذهب الأخير (أهل السنة)

وبرى إلى شرق المدينة جبلاً شاهقاً يحمل اسم بعداد (Baadan)، تجر منه المياه في قناة يبيع طولها ٣٠٠ قدم إلى مسجد كبير ومنه إلى المساجد الأخرى وإلى حدر المدينة. وبما أن المسجد يقع في

منحفض، يضطر الأهالي إلى عرف المياه كما لو أنهم يستخرجونها من بئر. وتم بناء سور عال قرب الخزان الكبير بهذه المياه، تعلوه بكرة عليها حبل غليظ ربط بأسفله دلو من الخمد أو على الأصح قربة واسعة. ويعمل الرجل والخمير والثيران على نقل المياه حتى خزان آخر تتفرع فيه ثم تورع إلى أحياء المدينة المختلفة. وبعد هذا، كما في أماكن أخرى، في أعلى الآبار، في الربيع، بكرات عدة الواحدة فيها جنب الأخرى، لكنها تحتاج إلى جهد كبير مضى، وهي متعة أكثر من الآلات التي تعمل على المياه والتي تستخدم في بلاد أخرى من الشرق.

وبعد على مسافة قريبة من آب وجيلة نعين، يجري أحدهما نحو العرب في جدول صغيرة عدة، ليصب بعد الأمطار في الخليج العربي تحت اسم وادي رييد. ويجري الآخر في الجنوب، ويطلق عليه اسم ميدام (Meidam)، وبعد تساقط الأمطار، يظم ويصب أخيراً في البحر قرب الحج (Lahads) وعدن. في ٢ تموز/يوليو، غادرنا آب، ونزلنا جبلاً وعراً للعناية على مسافة ٤/٣ المرمخ، لكن النرب كان مرصوباً وبالتالي يمكن سلوكه إلى أقصى حد ثم دخلنا السهل، وتوجهنا نحو الشمال ونحو العرب بعض الشيء فوصلنا قرية لهود (Lahud) التي تبعد حوالي ٨/٧ ميل عن آب. وبعد أن اجتزنا ٨/٥ الميل إلى الشمال، بلغنا قرية تدعى سوق (Sok)، وصادفنا على الدرب بين آب وهذا المكان ثلاثة مجالس (مأوي). ثم أصبح البلاد جبلية بعد سوق، ولقد قطعنا ميلاً ٨/٢ الميل لتصل إلى مشادر (Mechader) ورأينا على هذه الطريق خمسة مجالس، وثلاثة مأوي. وتبعد آب عن مشادر ميلين ٨/٥ الميل.

وتقع مشادر، وهي مدينة صغيرة، على جبل، وبعد بالقرب منها، وعلى مرتفع قصراً صغيراً يفهم فيه صاحب الدولة، ويقام في المدينة يوم الخميس سوق ويمكننا أن نرى من هذا المكان قرى عدة منها دلم (Dolme) في الغرب، حلاب (Tullab) في الشمال، وشن (Schanen) في الشرق، كما نجد في المنطقة جبلاً يحمل اسم سهول (Sahil). أما بالنسبة إلى قرية سهول والوادي الذي يحمل الاسم نفسه والذين ذكرهما أبو العلاء، ويدل إنهما بالقرب من جناد (Dsinnad)، فلم يمكن أحد من إعطائي معلومات عنها.

وكان السيد فورسكال مرصفاً للعناية في ذلك اليوم، فاصطرون إلى التأخر عن الجبال التي سيقنا إلى قرية لهود، وعندما اجتازت مشادر، وقطعت نصف ميل أبعد من سمسرا برفان (Barkén)، فأجبرنا على التحاق بها. ويتكوّن قرب برفان سيل عظيم، يصعب في الجبال.

وفي ٣ تموز/يوليو، سيقنا الإبل منذ الصباح إلى (Mensil)، وحققنا بها بعد شروق الشمس. وقصصنا حوالي ٨/٧ ميل في خط مستقيم، وأثناء الـ ٤/٣ الميل الأولى، لم يكن الدرب صعوداً، إنما فيما بعد وحتى جبل سراء يصبح الدرب وعراً حتى يستحيل سلوكه على الجمل المشغلة لو لم يهيا فيه تدرجات تجعل بلوغة ممكناً بصعوبة، ولو لم يرصف في أماكن عدة. إن هذا الجبل أعلى وأكثر وعورة من جبل محراس والجبل

العالي بين عدن وجيلة. وبعد في قرية منسل، التي تقع في نصف جبل سقراء، سمير رثعة بني كرم ما بها من الحجارة المقصوبة لا من الخشب بما في ذلك السقف والعمارات. ولقد بقي الجحائلون والمكاربون في الأسفل مع الحفائث ومع بهائمهم. وكان على سطح هذه السمير شقة يمكن بقاء فيها وحدها، لذا وجدنا المكان مريحاً للسيد فورسكال الذي يحتاج للراحة بسبب مرضه.

وفي اليوم التالي (٤ تموز/يوليو) بقينا في منسل، وصفت ارتفاع الشمس في الهاجرة، وحدها بالتالي خط العرض الذي تقع عليه القرية وهو ١٤° ١٠' وأحسست يومها، بعد الظهر يمحض الحصى، وما أن وضع السيد فورسكال كان يزداد سوءاً، قررنا إطالة إقامتنا في هذا المكان حتى يحسن. لكن الجحائلين والمكاربين أصرموا أن هذا المكان لا يستطيع أن يؤمن نصف اللذات والطعام لهذا العدد من الأشخاص، وأكدوا أن مدينه يريم (Yerim) تقع على الجهة الأخرى جبل سقراء وتفصلها عن منسل إلى الشرق لمسافة نفسها التي تفصل هذه الأخيرة عن برقا إلى الغرب. ووعدوا بتأمين أسس ليحملوا مريضاً حتى نغني الجبل، ومن هناك يمكنه أن يقطع بسهولة عن ظهر الجمل المسافة القصيرة المتبقية حتى يريم.

وأعرتنا هذه الرجوع معادنا في ٥ تموز/يوليو. وسقيت والسيد بورماند، يرافعا واحد من الكاربيين الذين مع البعثة عد الصباح كير مستفيد من برودة الجو، لكنك دفعا ثمن هذه المخافة غالياً، إذ لم أكثر من الثياب في هذا المناخ البارد وأصبحت بالتالي برشح مرمم، ولكنك ما رأينا من مياه قرب الطريق بين نهر ومنسل، ثم شككت للحظة أن لن نجد قطرة واحدة في ذلك اليوم، وارتفعت الحرارة، وكان لا يزال أمامنا ساعة سير، حين صادف في الرهف فلاحاً أعادني بإريقه، وكنت بحاجة ماسة للمياه لأنني لم أعدي يوماً من طعام مضي كهذا. وخسرت الحظ، وصعد أحياناً إلى يريم، ونبي لي أن المسافة إلى هذه المدينه من منسل هي حوالي ميلين و ٨/٧ ميل إلى ثلاثة أميال، إلى الشمال شرقي، وهناك طرقات أكثر، قال لنا الجحائلون. وأثار انتباهي على هذا الطريق قصر مهمم يقع قبالة منسل على قمة جبل سقراء، وعلمك أن حسن ويؤدي الطريق من قصر بني حسن، نزولاً إلى مسجد صغير وإلى قرية مئراس (Madrassé)، وبني نحو الشرق سهلاً مبسطاً تقريباً لأن التضاريس التي يراها فيه لا تعان بالخيال الممتدة بين سمراء وتعامه. ولم أزعني طول الطريق، بين منرس ويريم، إلا فريتين صغيرتين هما ربة القامة (Rabâd el Kalla) ومنسل الثاني (Mensil Assén). وتعيش في هذه البلاد قبيلتا بنو يريم وبنو سعيد (Beni Séid)، لكنهما لا تقيمان في الحيام إلى في أكوخ، ونجدد الإشارة إلى أننا لا نجد بذراً في المناطق الخاضعة للإمام.

وبقي السيد كرامر مع خدمه الأوروبيين بانتظار الأناس الذين ينبغي أن ينقلوا مريضاً إلى جبل سقراء، لكن هؤلاء لم يستدعوا إلا لأن العرب الذين يرافقون والذين قدسرو المسافة بين المطلقين بين واحد من دون المعطفات، يعرفون أنها ثلاثة أميال أو لأن العرب الآخرين لم يرضوا بحمل مسيحي، وبالتالي لم يرض السرير والمريض على ظهر جمل. وبالرغم من أنهم سافروا ببطء شديد، واتحدوا كافة

التدابير اللازمة لإراحته، وصل عند المساء إلى يرم ولد أصحابه الإعياء، واشتد عليه مرضه. وكنا قد اعتدنا على العيش والسفر كالعرب، فلم نعد نحس بالانزعاج طالما أننا بصحة جيدة، لكن في مناسبة كهذه عشنا تجربة المرض وصعوبته في تلك البلاد حيث لا يتمكن المرء من الحصول على الطعام والشراب وهذا شيء ما تعودناه في أوروبا - وتجربة المرض خلال الرحلة دون أن يتمكن المريض من الوصول في الوقت المناسب إلى مكان يرتاح فيه ويستعيد فيه عافيه كان شيئاً جديداً علينا.

وكنا قد قررنا الإقامة في يرم في منزل، لكن حشد المتفرجين الذين دفعتهم حشريتهم لرؤية الأوروبيين ومنعهم لم تسمح لنا بالراحة، فمرساً على استبحار شقة في المدينة نقيم فيها بانتظار شفاء رقيقنا. وتمكننا هنا من معرفة السبب الحقيقي الذي مع العرب في منسل من نقل السيد مورسكال إلى أعلى الجبل، وهو أن خادمنا العربي لم يرصّ بنعله من مرر إلى آخر، ولذلك اضطررنا لنقله بأنفسنا مع خدمنا الأوروبيين.

ويرم مدينة صغيرة أو على الأصح بلدة كبيرة، لكن صاحب الدولة يقيم في قصر صغير على تلة وعرة في وسط البلدة. أما منازلها فجزء منها مبني من الخجارة، وجزء الآخر من الصلصال المدهون بمسحونة مؤلفة من الطين وورث القفر. ولم أتمكن من التعرف على المدينة والتجوال فيها بسبب مرضي ورفقي، لذا لا يمكنني أحدث عنها كثيراً إلا أنني رسمت من ناحية عرشنا واجهة القصر وقسماً من المدينة على اللوحة (LXVIII). وتقع يرم وفقاً لدرساتي على خط عرض ١٤°، ١٧°.

وعلى مقربة من مدراس إلى الجنوب والجنوب الغربي من يرم، قامت فيما مضى، بحسب روايات عرب عدة، مدينة تدعى جعفر، لم يبق منها أي منزل وفقاً لما يقال. لكن نجد فيها، كما أكد لي شيخ البلد، حجراً ضخماً يحمل كتابات لم يتحسّ اليهود أو المسلمون من فهمها، لذا تستحق زيارة أوروبي جاء البلاد لهذا الغرض. ويبدو أنه المكاد الذي قامت فيه مدينة ظمار (Tdaphar)، التي جمعها المؤرخون الفدائي مكان إقامة الحميريين، وإذا ما تمكنا من الحصول على كتابات حميرية، فستكون من دون شك من تحت هذه الأنقاض. وعندما نجد أحرقاً كوفية عادية أو كتابات أخرى لا تثير الاهتمام كثيراً يمكننا الاكتفاء بها، لأنني لطالما خدعت وأعطوني أملاً كاذباً بإيجاد كتابات قديمة ومجهولة. ويحلو للعرب أن يؤكدوا أن مدينة جعفر كانت منذ ٨٠٠ عام، في أوج ازدهارها، وكانت مكان إقامة سعد الكامل حاكم شبه الجزيرة كلها، وأنها دمرت على يد العباسيين. ولم يرد ذكر حاكم يدعى سعد الكامل في كافة كتب التاريخ حول شبه الجزيرة العربية التي يملكها في أوروبا، وكلما استعملت عنه في اليمن، قيل لي: إنه بطل عربي عظيم، وملك شهير، أقام في جعفر ويقال: إن في لجر (Nedsjera)، بإقليم عمران (Amran)، ضريح ملك عظيم يحمل الاسم نفسه، لكننا لا نعلم إن كان نفسه الذي حكم جعفر.

وعما أن مدينة جعفر تقع إلى الشرق من موسى (Musa)، وعلى سفح جبال عالية، استنتجت أننا يمكن أن نتحدث هنا عن «سفرة» (Sephar) التي جاء على ذكرها موسى. لكن قد تكون هذه المدينة هي جعفر،

لأن حضرموت وسبأ ومدناً أخرى وبلاداً أحدث أسمائها من أولاد قحطان، لا تقع بين يريم وموسى، بل بين هذا المرسى وميرا، (راجعوا وصف شبه الجزيرة العربية). وكان الطقس في شرق جبل سمراء معياراً بطقس عربي، ففي نمر وآب والرمي المجاورة لتسل، تساقطت الأمطار لأيام عدة في فترات بعد الظهر، ورأيت أراضي خصبة صالحة للزراعة، وباحتصار أكثر في سلقه لزروع ويصعب اللون الأخضر على الضبعة. لكن، لم تسقط الأمطار في يريم منذ ثلاثة أشهر، وإن سمعنا الرعد في الجبل كل مساء تقريباً ولقد تكاثرت جرود قائلهم كافة الثمار، لذا قرر أهالي يريم تتوجه في ٨ تموز/يوليو بعد الظهر إلى مكان نقام فيه الصلاة جماعة خارج المدينة، لالاستسقاء. وكانت مسيرة تتألف من شيوخ حميري للملابس كما يسعى في يوم نضج كهذا، برأسها شيخان جليلان يحمل كل منهما على رأسه عتبة مفوحة فيها كتب، ويصمها الشيوخ الآخرون والناس، وهم يمشون ويرددون صلوات قصيرة لم أفهم منها سوى «لا إله إلا الله». تم كل ذلك في جو من التقوى والورع. وبدأ أن هذه المشاعر النقية أعجبت القدير، بما إن عادت المسيرة إلى المدينة، حتى هتت الضبعة، وتساقط البرد ثم المطر عند المساء. وفي ٩ تموز/يوليو، أعاد سكان يريم صلواتهم خارج المدينة، لكنها لم تكن فتانة كاليوم السابق لتجيب المطر وبعد أيام، تساقطت الأمطار، وما لأن الله استجاب لصلاة مسلمين المؤمنين وإما لأن موسم الأمطار قد حل، ولا سيما وأن هذا موعدها المعتاد كما هي الحال في عرب جبل سمراء وفي بلاد مدنية أخرى.

وكان الحراد يباع في الأسواق كلها بأرخص الأسعار، لكنني لم أرى يوماً هذا العدد الذي شاهدته في سهل جبل سمراء القاحل وفي يريم، حيث كان بالامكان التقاطها باليد. ورأينا عربياً يملأ كيساً من الحراد ليحفظها ويحفظها كمؤونة للشتاء. وحين تساقط الأمطار بتقطع ولساعات فقط، إلى العرب من الجبل، تهاجم جماعل الحراد من الشرق حتى أن فلاحي مسل يصطرون إلى طرفها من حقولهم كي لا تفشي كلياً على نتائجهم، فتراهم يترأصون بمنة ويسرة، حامين عصي طويلة رطب بأعلاها قطعة فماش، ويطلقون صيحات عالية ولا تنفع هذه الوسيلة في يريم التي عتاد عليها الحراد وكانها موطنة لقنة ما تمطر.

وشاهدنا في يريم عريساً جديداً، يتوجه إلى الخدم، ويتقدم مسيرة مجموعة من الشباب ترحل ويرقص على وقع الطبول، تليها مجموعة كبيرة من الناس من أعمار مختلفة، يلهم بعضهم بإطلاق الميراث الدرية، ويختتمها أحياناً العريس وبعض أصدقائه وتعود الجموع عند المساء ببطء. فرى عند العسق عدد من المشاعل التي تشبه مشاعل إلى حد ما وإن كانت في حالة سيئة. لذا أعجبتني أكثر من ذلك التي استخدم في مصر والتي ذكرتها سابقاً.

وفي يوم آخر، رأيت مصارعين يرمضان قدراتهما أمام بعض الناس في الشارع، وكان يرمضان القليل من الشباب، وبصمات على وجهيهما قناعاً كبيراً (وهو الأول الذي رأيته في الشرق)، مع حية طويلة وشر

يتدلى على أكتافهما ويحملان في اليد اليسرى حجراً طويلاً وفي اليسرى درعاً كبيراً، وظناً أنهما سيظهران براعة فائقة ولافتة في المبدرة، لكنهما اكتفيا بالوثب على وقع الطبول وبالقمام ببعض ألغاب الخفة.

وصف الشريف الإدريسي في كتابه أسواق اليمن، وبم أحاول دراستها لأنني كنت أعجب الجموع الكثيرة لكن بعد أن بقيت لبضعة أيام في يريم دون أن أعادر نهر، توجهت إلى السوق كي أبدأ كآبتي، وكان قد تجتمع فيه عدد من الناس جاؤوا من القرى المجاورة لشراء المواد الضرورية للعائلة وبيعها. وبم أن في السوق أي محال عتيق، بل حياطين، وإسكانيين، وحدادين وحرفيين آخرين يحيطون بالشارع أو على الأرجح بالساحة، أو يتورعون حولها ضمن جدران محفصة رسيطة البيان ويصنون في الهواء الطلق وصادمت هناك حجامين يشرطون ويحرجون العرب بسكين عادي لم يضعون على الجرح قرون تبس قعقت من جدورها، ولا يملك هؤلاء معدات نقص وهي كذلك التي استخدمت لشعاع الأب لوبو من الحبس^(٥).

وبما أن السيد نورمكال يتماثل لشعاع في الأيام الأولى التي أمضيها في يريم، لكن المرض استشرى من جديد حتى فعدنا الأمل بشعاع، ثم عطف في سبات عميق في ١٠ تموز/يوليو مساءً، وودعه أسيّة في هذه الحالة، في اليوم التالي أي في ١١ تموز/يوليو قراية الساعة الواحدة والنصف. وأسفنا لفقدانه كثيراً، لأن تعاطيه مع عامة الشعب، بسبب حبه لجميع النبات، مكّنه من تعلم اللغة العربية أفضل من كافة أعضاء البعثة، فضلاً عن اللهجات المختلفة، فأصبح بالتالي الناطق باسمنا جميعاً، كما أن نجاح رحلتنا كان من أمر همومه، وكأنه ولد ليقوم برحلة إلى شبه الجزيرة العربية، فلم تكن الصعوبات تنبيهه، ولا نقص وسائل الراحة يردّه عن مبعده. اعتاد أولاً على طريقة عيش السكان، وهو أمر ضروري إذا ما أردنا السفر في شبه الجزيرة العربية والوصول إلى الهدف المرسوم، ولا يمكن لعالم عظيم من دونه أن يفهم بالكثير من الاكتشافات في هذه البلاد، وكان يتوجب عليه إعلام حاكم بوفاة رفيقنا وشراء مكان لفهره، فأرسلنا خادماً قاضي نهر إلى صاحب الدولة وقاصي البلاد، مدّله هذا الأخير على عربي يمكننا أن نستري منه مكاناً لبعض صديقنا وبعنا الرجل بالفعل أرضاً لكن هذه العملية التجارية لم تنته، إذ إن مكان يقع قرب قناة صغيرة تجرّ فيها المياه لري الحقول المجاورة، عهدت بحيران المالك بجمعته يدفع الثمن إن شئت المياه بسبب جسد هذا الإبرغمي. وبما أن الرجل يحصل عدم كسب المال على إثارة غضب ربيعة جيرة الجهة، اضطروا إلى البحث عن مكان آخر ووجدناه بالسر معه. وطالب لصاحب بدرجة بعدها الاجتماع بأحد أعضاء البعثة والتشاور معه فقال لي إنه يملك ويصفته حاكم هذه المقاطعة، حق الوراثة على مركة اليهود والبابان الذين يموتون خلال سفرهم في مصفنته، فأحيتة أن الميت ليس يهودياً ولا بابانياً

(٥) رحلة إلى الحبشة، بقلم لوبران (Le Grand)، ص ٢٦

إلى أوروبي، وأن صاحب الدونة في الخا لم يبالينا بركة صديق له توفي في مدينته عندها، شرح لي ابن صاحب الدونة قصد والده، وأعصني أنه يتوقع ما على لأقل هدية قيمة، وحين قست له إن الأوروبيين لا يدفعون قرشاً من دون إيصان، وأنا محتاج إلى كتاب حول المبلغ الذي يطلبه بسبب هذه ريفيتنا في مقاطعته، توقعوا عن إرجائنا بهذا الموضوع. وكان صاحب الدونة يعلم بيتنا السحر إلى صعاء، وبه حشني أن نقدم شكوى ضده لوزير الإقليم إن طالبنا بما لا يحق له طه.

ورقعت في مأرق كبير عدد دفن صديقنا إذ لم تتمكن من إيجاد حفائير، وإن وعدنا بالدفع بسخاء، ورافقنا على دونه ليلاً، وفي النهاية، حصر ستة رجال، لكنهم لم يحصروا لنفل الجنائز إلا في الصباح، ما بين الساعة الثالثة والساعة الرابعة، حين يكون الجميع ينام، وسرعوا إلى تنفيذ مهمتهم خلسة، فاستسجنا أن المسلمين لا يحرصون بحمل رجل من دين آخر ودونه. أما أنا، فلم أتحجراً على المخرج في ساعة كهذه، لحضور الدين. لأنني كنت مريضاً. فيما رافقه إلى مشواه الأخير السيد كرامر والسيد بورقيد، وخدم الدين رافقونا من قهز، وخادما القاصي وشيخ البلد في يرم.

وسم نكن سحير أبا أكملنا واجباتنا انجاء ريفيت، لو لم يدفعه في قاهوت، لكن كان حراً بنا أن نعه بكف وندفعه. لأن وجود الثابوت دفع العرب إلى الاعتقاد بأن الأوروبيين يدفعون كنوراً مع موتاهم، وهذا ما شاع خبره حين طلبنا بصع الثابوت. وعلمنا، فيما بعد في صعاء، أن أحدهم بشر الغير بعد رحبنا من يرم، وكسر الثابوت، وسرق الكف وحين علم صاحب الدونة بالأمر، أحبر اليهود على إعادة دفن الجثة، ومنحهم الثابوت حين طالبوا بأجورهم.

وبعد دفن ريفيتنا، أحداً سعيداً متابعاً رحلتنا من يرم إلى صعاء في ١٢ محرم/يوليو. نكن في الليلة التي سبقت رحيلنا، هطلت الأمطار بغزارة فلم تتمكن من الانطلاق إلا في وقت متأخر من النهار، وبعد أن قطعنا ميلاً ٨/٣ ابل إلى الشمال الشرقي، وصك إلى رباد (Rabād)، وبعد ميلاً ونصف لميل إلى الشمال وصلنا إلى ديكسوب (Dikesub)، ومن بعدها إلى دمار (Damār) بعد أن اجتزنا ميل ونصف نحو الشمال، وهي تقع على جبل صمير يحمل اسم دمار (Namara). إذ، تبعد يرم عن دمار أربعة أميال، ولقد لزمنا ست ساعات لنصل إليها، أما طريقها فصحري، وأرضها قاحلة. وصادفنا في أماكن مختلفة أناساً يبيعون الكشر للمارة، لكنهم على الأرجح لا يبيعون أرباحاً طائلة من هذه التجارة، لأنهم لا يعيشون حتى في أكواخ إنما ضمن أربع شقات جدران، ترتفع قدمين إلى أربع أقدام ومن دون سقف.

وبسبب إقامتنا الطويلة في يرم، كان مكان دمار على علم مسبقاً بأننا مسمر في قريتهم لتابع طريقنا إلى صعاء. وبما أن البلاد لم تشهد زيارة أوروبيين منذ سنوات عدة، أثار قدرنا سحرية الشمس، حتى أنهم لاقبوا على مسافة ربع ميل خارج مدينتهم وتزايد عدد الناس، وبما أننا كنا نحشى العرص للزعج في الفندق من قبل المتخرجين، استأجرنا منزلاً سرتاج وعصبي الليلة التالية، واضطرونا للانتظار طويلاً في الشارع فتجمعهم هواصون حول خارج المدينة، مما دفعنا إلى شق طريقنا يسهم لنصل إلى مزل. وعمل

السيد كرامر الذي ركب البعل المهدى إليه من صاحب دولة الحما على فتح الطريق لتمكين من المرور. فوقع البعض على الأرض، وأخذ الموجودون يتهاشرون حول وفاحه الكفار. وسارعنا في الوصول إلى منزلنا، ورشق بعضهم بها وبوهدنا، أو على الأصح فتحات التوافد إذ لا يعرف العرب استخدام الزجاج، بالحجارة، فأرسلت خادمنا إلى الشارع لتفريق الجموع، لكنها لم تسترح إلا بفترة. وأردنا طلب حراس من صاحب الدولة، لكن قيل لنا إنه لا يملك إلا ٣٠ جندياً وأنه يحشى المواطنين. ولم يظن أحد أننا في خطر، وقيل لنا إن هناك عدداً كبيراً من الطلاب في الشارع، يودون رؤيتنا، وأنهم أرادوا ثقت انتباهنا برشق بوهدنا بالحجارة. وزارنا شيخ البلد، وطلب من السيد كرامر أن يعطيه بعض الأدوية، وأما أن يتوقف رشق الحجارة احتراماً لهذا الرجل الجليل، لكنهم استمروا في ذلك. وبما أن شيخ البلد ومالك المنزل ارتأيا أنه ينبغي ترك الشباب وشأنهم، أوصدنا الأبواب والتوافد، فملأوا هذه اللعبة.

وتقع دمار في منطقة حصينة ومنبسطة، اشتهرت في اليمن بمرباط الخيل الجميلة، وهي عاصمة إقليم مشارب العز (Mécharab el Anes) وبالتالي مكان إقامة صاحب الدولة. ونجد فيها جامعة شهيرة للمسلمين، وتسمى الجامعة الزيدية، وأكدوا لي أنها تضم حوالي ٥٠٠ طالب شاب، أي إنهم يتعلمون فيها القراءة والقرآن. وشاهد قرب المدينة نصراً ضخماً أما المدينة نفسها فمفتوحة، وواسعة، وحسنة البناء، وأشدت أنها تحتوي على ٥٠٠٠ منزل كما يؤكد شيخ البلد. ويعيش يهود هذه لمطقة على طريقة أهل البلاد في قرية خارج المدينة، ويحد بعض لبنانيان الذين يعيشون بين المسلمين كما في بلدان اليمانية الأخرى. ولم يحط بتطبياً هذا العدد من المرمى في أي مكان آخر من اليمن، وبما أنه رفض مغادرة المنزل بسبب الإهانة التي لحقتنا حين رشقوا مترب بالحجارة، أحضروا له مريضاً على فرشه إلى المنزل، وسافر آخر معنا إلى صناع بسية.

وبجري على مسافة قريبة من دمار نهر صغير، ويتوجه بحر الشمال ليصبح في زمان بلاد يوف (Yof)، ولعله من الأنهار التي تتجمع في بلاد مأرب (Mareb) في سداً أهل صبا القديم^(٥). ونجد في الشرق، على بعد أميال من دمار، جبلاً يسمى حيران (Hirān)، حيث نجد أحجاراً دامية، لونها أحمر قاني، ويقع هذا الجبل إلى شمال غرب المدينة. ولقد ذكرت هذا الحجر الكريم في وصف شبه الجزيرة العربية.

وقع خادمنا الأوروبي فريسة المرض في يومنا الأخير، ولم يبقَ على السر إلى صناع معنا، لذا تركناه في دمار كي يتمكن على مهل بحسب ما تسمح له نوا. وحين لحق بنا، اشكى من أنه لم يجد مأوى أثناء محنته لأن العرب عذبوا أن يموت عندهم فيتحملوا عنه دمه، لكنه وجد الكثيرين ليؤجروه حميراً ويسافروا معه بالنساء الذين يشاءه.

(٥) انظر: وصف شبه الجزيرة العربية.

وفي اليوم التالي (١٤ تموز/يولي) سافرنا يوم كامل تقريباً باتجاه الشمال، حيث نجد إلى شرق الدرب الذي سلكناه سهلاً (اسماً) وإلى غربه جلاً أجذب. ورأينا على بعد ٨/٥ ميل من دمار، وإلى الشرق، قرب الطريق: قرية مواهب (Mawahheb) التي يقيم فيها الإسم، والتي رزها كاتب رحلة إلى شبه الجزيرة العربية المسعيدة في بداية القرن. كما نجد إلى غرب الدرب قرية تسمى ماضي (Madi)، وهي عليا اجتياز ربع ميل لصل إلى مسمر. التي تعد عن قرية محراد (Mamrade) ٨/٢ الميل، وتبعد هذه القرية عن قرية سعاد (Saad) ٤/٢ ميل. إذا ما سربا ميلاً في منطقة استقعات هذه، نوصل إلى مسمر التي تحمل اسم سعاد، ومن بعدها يمشي الدرب حجرياً، وقتنا نجد حتى سراج على بعد ميدين، سهولاً مرروعة وصادف من هذا المكان الأخير وحتى صعدة، وقرب القرى كلها، عدداً كبيراً من الحدائق المزروعة بالكرمة الجميلة والشهية فضلاً عن بواكه أخرى، في حين أن جبال جرداء وقاحله وتبعد دمر عن سراج، وفقاً لتقديري ثلاثة أميال أو ستة فراسخ و٤/٣ فرسخ، وهطبت الأمطار العريضة أثناء رحلتنا كما تساقطت البرد مترافقاً مع عواصف رعدية عيفة ولم نجد لها أثراً من سارن التي يستعملها المسافرون كماوى أثناء العواصف والتي تصادفها في إقليم اليمن الأعلى، كما سمعنا في ذلك اليوم سوى مجلس واحد قرب مسمر.

في ١٥ تموز/يولي، توجهنا نحو الشمال لكن الدرب لم يكن سهلاً كما في الأيام السابقة انصفاً من سراج، وسربا ميلاً و٤/٣ الميل في الجبل، ووصفنا قرية عودي (Audi) على الحدود التي تفصل إقليم سراج عن بلاد شولان الصغيرة. ونجد على غربه من هذا المكان قرية صغيرة تدعى حدائق (Haddāsa)، وتقع على تلة وعرة حيث نقشت، كما يقال، كتابات مثيرة للاهتمام على حائط قديم. ركبت قد علمت في نهر، أننا نرى كتابات عبرية في بلاد عنز لأن لمسلمين لا يعرفون أي حرف منها، ولأنهم لم يسمعوها لغة أخرى غير العبرية، باستثناء الكورية والعربية والعربية، لذا يظنون أنها باللغة العربية ووعدي جمالونا وسكاريونا باصطحابي لرؤيتها، لكنني كنت أظن أن بلاد عنز هو اسم قرية، وعلمت في ذلك اليوم أنه اسم إقليم، فاستعنت من أحد المواطنين وعلمت أن هذه الكتابات موجودة في حدائق وكن قد تجاورنا هذه القرية بحوالي فرسخ ونصف، وأحصى عليّ الجبالون وسكاريون الأمر عمداً كي لا أؤخرهم في رحلتي وعلمت لاحقاً في صعاء من يهود رأوا هذه الكتابات مرات عدة، أن الحروف ليست حروفاً عبرية وأنهم سمعوا من بعضهم شأنهم في ذلك شأن المسلمين وبما أن حدائق تقع قرب الطريق المؤدي من النخا إلى صعاء، أردت أن يتأكد أي أوروبي، يسافر إلى تلك البلاد، مشقة نسخ هذه الكتابات، لأنها قد تكون من زمن الحميميين، وقد تساهم في تسليط الضوء على كتابة هذه الأمة واكتشافها. ويعتقد يهود صعاء أنهم رأوا كتابات أخرى مجهولة في قبيل أسور (Nakil Assur) إلى الجنوب الغربي من صعاء.

ونجد نبالة حدائق قرية تدعى كمن (Komen)، وتؤدي الدرب منها إلى مسمر تسمى طيلة (Dsile)،

بحري قريباً نهر يمتد داخل البلاد، ويجد على مسافة قريبة من هذا المكان مقهى مقبل (Maki)، على بعد ٤/٣ الميل من عودة وقطعنا من مقبل ٨/٧ الميل ووصلنا سمسرا التي تحمل اسم سنان (Sinnān) ونقع في سهل واسع، ويلزمنا ٤/٣ الميل لنبليح نجداً وهو مكان مهجور بغيراً إلا في اليوم الذي يقام فيه السوق حيث يقصدها التجار الصغار والعمال فيجدون أكوخاً فارعة أو أماكن محاطة بسور منخفض. ويجد في الجوار قرية صغيرة تدعى مسعود (Messaud)، ثم سرى في نجد ميلاً فوصلنا إلى سيان (Seiyan) وهي قرية كبيرة، عدد من سارها مهدم. وبأخذ أمراء عائلة لإمام حصة من مردود مسعود وسبان. وبعد هذان المكانان عن بعضهما، أربعة أميال ونصف أو سبعة فراسخ، وفقاً لحساباتي، ولم نر على هذه الطريق سوى مجلس واحد أي خزان تسكب منه المياه للمسافرين.

وبما أن الأمطار لا تنساقط في هذه البلاد بقرارة كافية لترويتها كلها، نجد في أماكن محتلة حزمات كبيرة ورائحة من مختلف الأشكال بيت على سموح التلال. ويصحب جمع مياه الأمطار من الجبال والتلال في الأماكن المسطحة، لذا يرى ياراً عظيمة وصحت في أعلاها أشياء ست يكرات الواحدة حسب الأخرى. ونستخدم في رفع المياه بقوة اسراع برقي الحقل، مما جعل الزراعة مصيبة ومكلفة.

ولقد أملنا دخول صنعاء في ١٦ تموز/يوليو، وكما قد اعتدنا على طريقة العرب بعدم ترتيب هدايا، لكن أردنا الظهور بمظهر حسن في مكان إقامة الإمام، فارتدينا ثياباً كالأتراك. قبل معادرتنا سيان، وهي ثياب أفضل من تلك التي يرتديها حالياً وإن لم تكن فخمة وانتهجنا نحو الشمال الغربي، فوصلنا قرية تدعى ابن عاد (Ibn Had) ومررنا قرب أرض شيخ أو سبل عربي، وبلغنا رامة (Rama)، وهي قرية تقع على مرتفع، على بعد ميل ٨/٥ الميل من سيان. ويؤدي الدرب من هذه القرية إلى سهل واقع في الشمال الغربي، ويجد في هذه المنطقة نهر صغيراً، تحيط بصفيه السهول الخصبة، لكنه لا يقطع مسافة طويلة، إذ يضيق في (برال أو في الحقل، ويملأ هذا النهر جسر حجري. واحترنا من رامة ٨/١ الميل لنصل إلى مقهى قرب قرية حد، حيث يملك الإمام منزلاً ريفياً، وحديقة تكثر فيها الدوالي، وأشجار البندق والمشمش والإجاص وغيرها وتقع قرية دار سلم (Darshelm) قبالة حد (Hadde)، وبعد عن أسوار صنعاء حوالي ميل ٤/١ الميل، وبالتالي تعد سيان عن صنعاء ثلاثة أميال أو حوالي أربعة فراسخ و٤/١ الفرسخ.

وفي ذلك اليوم، أرمينا باكراً أحمد الخدم وحقلنا رسالة موجهة إلى الفقيه أحمد، وهو وزير الإمام، تعلمه فيها بوصولك، لكنه علم بالأمر مسبقاً وأوفد واحداً من أهم كتّابه يستقبلنا على بعد نصف ميل من المدينة. وأبلغنا هذا الموعد بأن الجميع بانتظارنا منذ فترة، وأن الإمام امتأجر لنا منزلاً ريفياً في بئر القصب (Bir el Assab) لمدة شهر كامل، ولم يحمل لنا سوى أخبار حسنة. وعلمنا أن الفقيه يملك بيتاً للراحة في بئر القصب، ولما وصلنا إلى الحديقة، طلب منا الكاتب الترحيل، عظماء أنه سيقدونا إلى الفقيه أحمد وأن

مرله في الجوار، لكن تبين لنا أنه بقي والخدم المسلمين على ظهور حميرهم، وأن مسافة طويلة تفصل عن المنزل الذي ستقيم فيه، واستقبلنا أسوأ استقبال في ذلك اليوم كما لم يحصل معنا قط من قبل في أية قرية يمنية. وكان يمكن أن يصادف في منزل ما، أناساً يورثون لنا الماء ويخبرنا فيما لم نجد في منزلنا سوى عرف هارعة. وبما أننا كنا نتوقع دخول عاصمة المملكة في ذلك اليوم، لم نتردد بالمزور اللارضة، وانطلقنا طويلاً لحصل على مرطبات من امدية، وكنا نود أكل العنب عند ذلك، لم نقم بمد فترة طويلة في منزل مره كذلك الذي خصصه لنا الإمام، فعليه شفق جميله، وتحيط به حديقة غناء تكثر فيها الأشجار المثمرة التي تبدو وكأنها ممت من دون زراعه، وقد تمّ تسبيحها على لغزاز العربي، فلا تجد فيها شيئاً أو ممرات

وفي اليوم التالي لوصولنا إلى بئر القصب، أي في ١٢ تموز/يوليو صباحاً، أرسل لنا الإمام هدية، وهي خمسة خراف، وحمل ثلاثة جمال من الخشب، وكمية كبيرة من الشمع، والأرز، والتوابل المختلفة. واعتدرك المكثف بتقديم هذه الهدية منا، لأن الإمام غير قادر على استقبالنا في هذا اليوم وفي اليوم التالي لأنه مشغول يدفع أجور جنود حاشد وبكيل الحاضرين له، ولم يؤثر علينا هذا الخبر إذ لم نقصد صعداً بهدف تقديم القضاة للإمام بل لزيارته امدية وناطق المجاوره وللتعرف على أناس يعطوننا معلومات حول هذه البلاد. لكن نرأس علينا عند الخروج من المنزل قبل مقابلة الإمام، وأثار هذا الأمر استياءنا، إذ لم نشأ تصييع الوقت، ولم يكن والثقيين كل الثقة من أن الإمام سيدعونا بعد يومين

ولم يعلموا بأن استقبال شخص من أهالي البلاد، قبل مقابلة الإمام، مخالف لأصول اللياقة بجاهه؛ وكنا قد تعرضنا من قبل على شخص من صعدة وهو يهودي، سافر معنا من القاهرة إلى الحية وبالرغم من أنه من أعنى عائلات اليهود وأهمها، رافقنا كخادم لتوفير مصاريف الرحلة من جهة، لأن يهود شبه الجزيرة العربية يعرفون قيمة المال كإخوانهم في أوروبا، ولست في حمايتنا بسهولة أكبر من جهة أخرى. لأن الأتراك، الذين يحجون من القاهرة إلى جدة، يحقرون اليهود ويسئون معاملتهم حين يصادفونهم. وحين علم هذا اليهودي بقصودنا، رافقنا مع واحد من أكبر علماء الفلك عندهم. ليشرح لي الاسم العبري لبعض النجوم التي ذكرت في الكتب المقدسة (وصف شبه الجزيرة العربية) ووصل في الوقت نفسه كاتب الفقيه أحمد، فوقف اليهوديان لكنه لم يستر لرؤيتهما، وثناء من كونهما نجراً ودحلاً يتناهل أن نقابل الإمام، وطردوهما من بيتنا كما كُتف بعدمنا اسمين يمنع دخول أي شخص كان قبل أن يروا سيده. وأثارت هذه الأعراف العربية استياءنا، لكن السراء العرب لدى انبوك الأجانب يلتزمون بها، ولم يرخص سفير باشا طرابلس بتوجيه الكلام إلى أحد عند دخوله كونهما عن قبل مقابلة وزير الدولة. ولعل الكاتب المذكور أعلاه ظل أن رفقة اليهود لا تسرنا كما لا تسعده هو، وأنه أسندى لنا معرفة بطردهم من منزلنا.

وفي ١٩ تموز/يوليو صباحاً، تمّ تليّماً بأنّ الإمام مستقبلاً، وقادنا كاتب العقيد أحمد إلى قصر بستان المتوكل. وكنا نترقب أن ندخل على الإمام بحضور بعض ضباطه ومسؤوليه، لكن هوجتنا بالتحصيرات الكثيرة. وكان فناء القصر يجمع بالحيوي، والمسؤولين، وغيرهم من العرب، وكان من الصعب علينا شق طريقنا وسط هذا الخشب، لو لم يصل النقيب خير الله (Nakib Gheir Allah)، وهو هيد سابق ومرؤس لجهد الإمام حالياً، حاملاً عصاً طويلة، ليصح لنا النجان. أما مجلس الإمام فهو في قاعة مرتفعة ومقبة، وتتوسطه بركة كبيرة، ترتفع مياه النواير فيها حوالي ١٤ قدماً ويحد وراء الحوض تعلية يبلغ طولها قدماً ونصف، وعرضها خمس إلى خمس أقدام فوق مستوى المجلس كنه، وبنيها إعلاء صغير يقوم قرب أدراج عرش الإمام مباشرة. ويعطي السجاد العجمي الأرض كنهاً، في ذلك محيط الحوض والعرش، ولم أزل على العرش سوى أعلاء رباعي الزاوية معطى بأقمشة حريرية، وصمت وسائد عريضة ومطوية وراءه وعلى جيبه. وتربع الإمام على عرشه بين الوسائد، على طريقة الشرير، وكان يرتدي ثوباً أحمر اللرب، بأحكام واسعة وصوتية على الطراز العربي^(٥)، وعقّ على حائطي صدره، ككبار الأتراك، شبكة ذهبية كبيرة واعتبر عذمة بيضاء عريضة. وجلس أباؤه إلى يمينه وإخوته إلى يساره، فيما جلس العقيد أحمد مائه، وبنيها على الإعلاء الأول، والثاني على مستوى منخفض بالنسبة للعقيد، وجلس على جانبي القاعة نفر من إخوة الإمام وأولاده وعد ثياب عدد من وجهاء العرب يلاصق أحدهم الآخر

وقادونا مباشرة إلى الإمام، كني نقبل ظهر يده اليمى ورحبها، فضلاً عن طرف ثوبه، ويسمح الأمراء المسلمون بالأرلى والأخيرة، وهي نعمة عظيمة حين يسمحون للأجانب بتقيل راحة يدهم وكان الصمت سائداً في القاعة، لكن ما إن لمس أحدها يد الإمام حتى تلفظ أحد البشراء ببعض الكلمات التي تعني: «ليحفظ الله الإمام»، وما إن صمت حتى ردد الحضور كلماته بصوت عال. وما أني كنت أول شخص في الوفد، وكنت أحاول التركيز لنعط لإطرائي بلغة عربية صحيحة قدر المستطاع، وأخذت أفكر بهذا الحفل الباذخ الذي لم أزل يوماً مثلاً له في شبه الجزيرة العربية، ولم أتمكن من إحقاق اصصري من هذا الحشد الضاحك، لاسيّما حين أخذوا يصرخون عندما لمست يد الإمام، لكنني عدت وتماكنت نفسي. وعندما هتفوا من جديد فيما كان رفاقي يقتبسون يد الإمام، تذكرت أن الأمر نفسه يحدث عندما يصرخ طلاب الجامعات في ألمانيا «يمش» إكراماً لشخص ما، ويرددونها مراراً

وتختلف نمة البلاط في صماء اختلافاً حقيقياً عن لغة العامة في المناطق الجبلية، فضلاً عن تهامة، ولم نكن نتكلم إلا لهجة هذه البلاد الأخيرة وبركاكة، فاستعنا بخادما الذي اعتاد سوء لفظنا، وهو رجل من الخفاء كناطق بلساننا، فيما ترجم العقيد أحمد، الذي أقام طويلاً في تهامة وعلم لهجة العامية، كلام الإمام. ولم أتمكن من فهم الكثير من كلامهما، حين كانا يتحدثان معاً، وينطبق الأمر ذاته على خادما الذي ولد

(٥) وهو لباس الخفاء. راجعوا التاريخ العالمي الحديث للعصور الأخيرة، العدد III، ص ٦٩

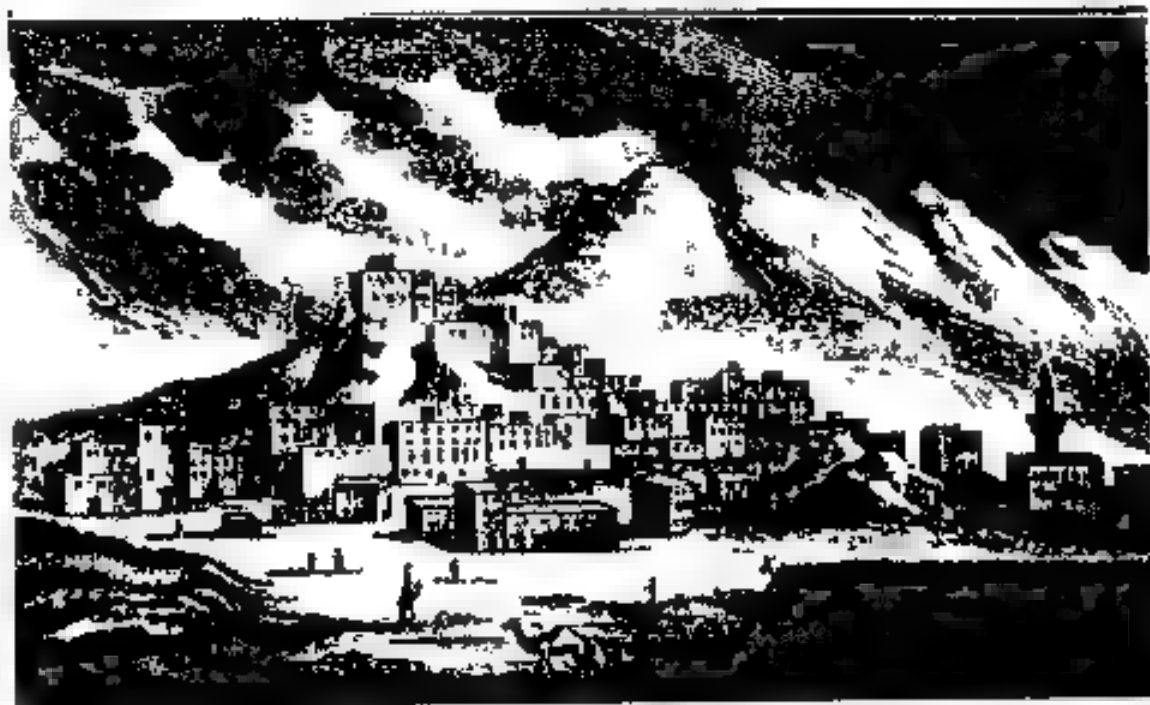
في الحجاز وبالتالي في هذه المملكة، والذي أكد لنا أنه لم يفهم الكثير من الإمام وبما أننا لم نتمكن من التحدث مباشرة، إنما عن طريق عرياء. أخرجنا الحديث، ولم ير ضرورة لإعلامهم بأنا قطع هذه المسافات الطويلة، فأوضحنا للإمام أننا أبحرنا عبر الخليج العربي لأنه الطريق الأقصر للوصول إلى يهد من أوروبا. ولم سن أن نذكر، أن سمعنا الكثير من الإطراء والمديح حول الثقة والأمن المستبين في الدول الخاضعة للإمام، فدفعنا رغبتنا لرؤية هذه المملكة قبل رحيل آخر سفينة بكتيرية، كي نتمكن بصفتنا شهود عيان، من التمتع على هذه البلاد فرد الإمام مرحباً بنا في بلاده، وسمحا حرية الإقامة فيها بغير ما يحلو لنا أو بقدر ما تسمح به أعمالنا. وبعد أخذ ورد، استأذن، بعد أن قبلنا يد الإمام من حديد وسط التهتافات المعتادة، وقصصنا صانعة صويلة ثم خرج من الباب دون أن نضيف أية إطرادات ولقد حضرت هذه الجلسة على اللوحة (LXIX)

وعند عودتنا، أرسل لنا الإمام أحد عشر كيس نقود، واحد منها لخادما من اغنا، الذي عمل كمترجم لنا، يحتوي على ٩٩ حماسي وهي قطع نقدية بنق قيمة كل ٢٢ منها درهماً واحداً واحتفظ الصراف لنفسه بلزهم بالثقة، إما لأنها عادة في البلاد وإما لأنه يفعل ذلك من دون علم الإمام. وقد نبدو هذه الهدية التي أرسلها الإمام بالعملة المحلية مبالغية للغاية، لكن إذا ما اعتبرنا أن ما من إنسان يمكن أن يعيش في هذه البلاد بالدين، أو في فندق، وأنتا مضطرون لشراء حاجاتنا من السوق نقداً وتخصير طعامنا بأنفسنا، تعتبر هذه العملة لهماً منهم اتجاه العرياء، كي لا يحددهم الصرافون وتنجيهم هذا العاء واحترنا في قبول أو عدم قبول هذه الهدية لاسيما وأنتا لم تشأ العيش على حساب العرب كي لا يعطيهما حجة ليشموا رحيلاً، لكن رفضها سيجتبر إهانة لنا قررنا الاحتفاظ بها

ولا يقابل السطبان، في تركيا، شخصاً ما إن لم يكن الوزير قد رآه، نكن العادة مجتعة في اليسر بعد أن بنا شرف مقابلة الإمام في الصباح، أرسل الفقه أحمد بطلبنا بعد الظهر إلى مرله الربيعي في القصب، وطلب من إحصاء العرائب التي شاهدها معاً الأمير فرحان في خيجه، وبعض أعيان العرب في المدن الأخرى. نكن هذه النواذر الجميلة سم تكن سوى الجواهر والحراش، والناظير، والكتب العربية المطبوعة، والألواح، وأدوات الرسم فضلاً عن الخرائط الجغرافية والهيدروغرافية، والإبر المصنعة النح والتي حصلناها معاً لاستعمالنا الخاص، لكن عرصاها لاحقاً عن طريق الإمام. وتبينت أن حوفي هذا لم يكن مستنداً إلى أي أساس منطقي، لأن الفقيه استقبلنا بتعديب وأدب بالعين، وأعرب عن إعجابه بما عرصناه أمامه، وطرح علينا بعض الأسئلة التي دلّت على اطلاعه على العلوم أكثر من أبناء بلاده الآخرين، وعلى كثرة تدممه مع الأجانب من أتراك وفرنس ويهود، بما يمكنه من جمع معنومات واسعة حول الجغرافيا. وبظر معظم العرب أن أوروبا تقع إلى الجنوب من بلادهم، لأن للمس الأوربية التي ترسو في مرفئهم تأتي من المناطق الجنوبية، لكن الفقيه أحمد يعرف موقع دول أوروبا كافة، ويعرف الدول الأقوى رأ



مركز تقيت كايو في كهر



وبحراً وهل يمكن أن شوق أكثر من ذلك من عالم في شبه الجزيرة العربية، لم يز يوماً خرائط جغرافية* ولرد على النظم الذي أحاصوه به، والهدايا الصغيرة التي تلقاها، ولأنا قرأنا في كتب عدة أن ما من أو وبى يتجرأ على معاقبة أحد أعيان العرب من دون أن يحمل له هدية، فربما أن سمع هذه العريضة لنقدم هدية للإمام وللقبيل، وهي عبارة عن قطع ميكانيكية أو زينية كالساعات وأدوات المعيرة وغيرها، وهي أشياء تندر في اليمن وعرفنا لاحقاً أنهم لم ينتظروا ما هدية لأنا بسنا تجاراً، ولا يصب أي خطوة من الإمام وإنما من المقترص أن نساخر كالدراويش، لكن الهدية لاقت إعجابهم. يعتبر الأتراك هدية الأوروبيين لهم، إن لم أكن محظوظاً، صريه يدفعونها، ويظنون أنهم يظهرون لنا شرفاً عظيماً حين يقدمون ما قعطاناً مقابل هدية هينة. ويستخرج من المدينة المسيرة التي تلقاها في صنعاء أن الإمام ووريه لا يريدان أية هدية مجانية من العرباء

نكثر الأشجار المثمرة في حديقة القبة أحمد، ولم يكن بينه كبير جداً، إنما لاحظت أنه مفتوح كلياً من جهة الجنوب، في حين أن الشمس في هذه المنطقة تتواجد في أشهر الصيف إلى شمال سبتهم. وبعد في الوسط، قبالة نيل حوض ماء كذلك الذي رأيناه عند الإمام، وترتفع المياه به أعلى من مياه قناة اب كما نجد قرب البئر حائطاً يبلغ ارتفاعه ٢٠ إلى ٣٠ قدماً، يحمي وراءه أرضاً يبلغ ارتفاعه ٣٠ إلى ٣٦ درجة، يتحرك فيها مكاري وحماره بولاً وصعوداً لإخراج المياه ولا تصفي هذه التوافير جسداً على الحديقة، إنما تساعد في ترطيب حوال المزل وتبريده، وهي مهمة في بلد حار كهذا. ورأينا في حدائق أعيان صنعاء توافير كهذه أيضاً.

وتقع مدينة صنعاء على خط عرض ١٥° ٢١' وعلى مسطح جبل يحمل اسم نكوم (Nikkum) أو لكرم (Lakkum)، يرى عليه بقايا قصر قديم، بهاء سام. على حد اعتقاد العرب، ويجري في جهة أخرى، أي في غرب المدينة، جدول صغير ويحد من جهة الجبل القصر الواقع، بحسب ما أكدوا لي، على نة حمدان (Chomdām) الشهيرة، ويمد إلى جانب النهر بستان المتوكل، وهو حديقة مسيجة، أو على لأصح مساحة بهاء الإمام المتوكل، وردها الإمام الحالي بقصر بهاء فيها ويحيط بالكل حائط واحد، أو بالأحرى، حاجز من تراب، معطى بالصلصل، ويعلو فوقه عدد من الأبراج الصغيرة يبعد الواحد منها عن الآخر ٦٠ قدماً ونفصل الأسوار المدينة عن القصر من جهة وعن بستان المتوكل من الجهة الأخرى. ولا تعتبر مساحة المدينة والقصر، إذ ما امتلئ بستان المتوكل، شامعة، ويمكن زيارتها بساعة وثمانين دقائق.

وأردت رسم خارطة المدينة بدقة، لكن حين كنت أتيح في الشوارع، كانت الحشود تحيط بي، تدفعها إلى ذلك حشدها، وتسير معي كعصا تحركت، فربيت أنه من الأفضل، في ظروف كهذه، عدم استعمال البوصلة لكي رسمت خارطتها على اللوحة (LXX) وللمدينة أربعة أبواب هي (١) باب اليمن (Ei Yemen) (٢) باب السبع (Bâb es Sebbâ) (٣) باب شعيب (Bâb Scha'ib) (٤) باب السراة



Bâb es Strân) . ولم يفتح الباب الأخير والذي يؤدي إلى القصر عند سنوات عدة، كما نجد أيضاً ثلاثة أبواب صغيرة أخرى هي (٥) باب الشرارة (Bâb Schârâra) (٦) باب الحديد (Bâb Hadid) (٧) باب الصخر (Bâb Sogair) (٨). يبدو أن عدد السكان في صحاء مرتفع، كما نجد فيها عدداً كبيراً من الحدائق وبالتالي قد لا يكون حرم المدينة مسياً بالكامل. ولم ألاحظ سوى سبع إلى عشر مآذن تعلو المساجد، ويقوم الجامع أو الجامع الرئيس في وسط المدينة تقريباً وتعلو مئذنتان. أما المساجد الأخرى فيعددة واحدة وتحمل الأسماء التالية: المدرسة (E. Mâdrasse)، ملاح الدين (Saleh eddin)، الطمس (El Thaâs)، والسكيري (El Bekirre)، فضلاً عن مسجد القصر. وقد بنى بعض هذه المساجد باشاوات أنراك، كما شهيد الإمام الحاكم حالياً مسجداً جميلاً، وجز إليه أبناء للرجال والحيوانات، وبني إلى جانبه صريحاً صغيراً لرفاته. ولا يمتد عدد الحمامات الكثير الاثني عشر حتماً، لكن نجد فيها قصوراً رائعة بيت على الطراز العربي ومنها: ستن السندان، ودار الفتح التي شيدها الإمام الحالي. ونجد بالقرب منها قصر الإمام منصور، وأبنة عظيمة أخرى تملكها عائلة الإمام الكبيرة وأعيان آخرون إن القصور العربية لا تبنى بتلادم والدوق الأوروبي، لكنها مبنية من الحجر المشوي وبعضها من الحجر فيما تبنى بيوت العامة في صحاء من الصصال (٩). وأظن أنني لم أر رجلاً في فتحات الواحد إلا في قصر واحد، أما نواهد المنار الأخرى معزودة بمصراعين يقيان مفتوحين في أيام الصحو ومغلقيين أثناء موسم مطر، ويدخل الورد إلى المنازل عبر نواهد صغيرة مستديرة تعلو المصراعين. ونجد في منازل أعيان العرب رجلاً مرسوماً عليه يستقدمونه من البلدة.

ونجد في صحاء، كما في كاتبة المدن الكبرى التجارية في الشرق، نزلاً للتجار والسافريين، فضلاً عن ساحات خاصة أو أسواق يباع فيها الخشب، والفحم، والحديد، والصب، والقمح، والريدة، والملح والخبر. ولا نرى في سوق الخبر سوى النساء، كما نجد في صحاء سوقاً حيث يمكن أن تسجل بثباتك القديمة ثياباً جديدة ويمدك البضائع تجار من الهد وبلاد فارس وتركيا، فضلاً عن أولئك الذين يبيعون التوابل على أنواعها، والأدوية، والذين يبيعون أوراق انقات (Kââd)، والنعوكه المجمعة أو الطرزجة من جصاص ومشمش ودراق وتين الخ. والجارون، والحديدون، والإسكافيون، والخيافون، وصانعو الشرخ والحجارون، والصاعة، والعلاقون، والطباخون، ومجلسو الكتب، وحتى الكتاب الذين يحطرون عريضة للإمام لقاء بضعة قروش أو لبعض الأعيان، فضلاً عن أنهم يعملون الأولاد ويعملون الكتب، أما كنهم

(٥) أعطاني الدليل هذه الأسماء، بينما كنت أترجم في المدينة وذكر آخر أبواب، وأضف على الأبواب الستة الأولى الأسماء نفسها، لكن بدل باب الصخر ذكر اسم باب القصر وباب حناب (Bâb Inaba) رُسمت شوارع هذه الخارجة عتياً

(٥٥) تم التمكن من رسم القصور المذكورة أعلاه، لكنني وجدت بين أولئك السيد بورسانيد رسماً لمثل مجز في يد النصب، يمكن رؤيته في منزل ويمكن رؤيته على النوحة (LXVIII) وانطلاقاً من هذا الرسم يمكن أن تكون فكرة عن من الصلابة العربي في اليمن.

المحددة في محالهم الصغيرة المحمولة. أما خشب الباء لمرتفع النمس في اليمن ولا يقل خشب التدفة عنه غلاء في صنعاء لأن الجبال جرداء، فيتطلب نقل خشب التدفة يومين إلى ثلاثة أيام ليصل إلى المدينة، وتبيع كلدة حمل الحمل الواحد عادة درهمين، لكن يتم التعويض عن نقص الخشب بالقمح الحجري ورأيت الكثير من الخث في تلك البلاد، لكنه سيء للغاية فيضطرون إلى خلطه بالنش ليؤسجوا النار به. وتكثر الفواكه في صنعاء، إذ نجد في أسواقها أكثر من عشرين صنفاً من العنب، وما أنها لا تنضج في وقت واحد، يمكننا أن نشترى عنباً جديداً خلال أشهر عدة من السنة، كما يقوم بعض العرب وبعض الأتراك في الأناضول بتعليق عناقيد العنب في صفوف الأقبية. فتتور هذه الفاكهة اللذيذة على مدار السنة. ويعصر يهود المنطقة العنب تصنع النبيذ، ويمكنهم الحصول على كميات ضخمة ويجعلون منها بالتالي تجارة مربحة شأنهم في ذلك شأن رُمس شيراز. لكن يبدو أن العرب كالفرس يكرهون المشروبات القوية، فيضطر اليهود إلى اتخاذ إجراءات عدة عندما يريدون تزويد البعض بالمشروبات في المدن الأخرى، إذ يعاقبون بشدة إذا ما تم العثور على النبيذ بحوزتهم وهم يسلطونه إلى أحد العرب. ويتم لجفيف الكثير من العنب لتصلبه، ومن بينها عناقيد عنب بيضاء تبدو وكأنها من دون بزور، لكن نجد في داخلها بدل البربر القاسي حبواً طرية لا يحس بها أثناء الأكل إنما يمكن رؤيتها عند قطع حبة العنب.

ويقع قصر صنعاء كما ذكرت سابقاً على تلة جنداء التي اشتهرت في الماضي، ويقسم إلى جدارين بحملان اسم دار الذهب ودار عمر. ورأيت الكثير من بقايا الأبنية القديمة، لكنني لم أكتشف أية كتابات كوفية وبالتالي حميرية، لأن البيوت القديمة في صنعاء، كما في المدن القديمة الأخرى التي سكنت دوماً، هدمت لبنى مكانها بيوت جديدة. ويقع الإمام عادة في المدينة، لكن بعض أفراد عائلته يعيشون في القصر. ويضم القصر المبني الذي تسك في الأموال، ومسجون محتلة، كبيرة وصغيرة للأعيان أو لعامة، ولم يسمحوا لي برؤية أعلى مكان في القصر، أي مركز المدفعية، وكأنه أمر مريد للعامة، ورأيت بالفعل شيئاً لافياً وهو مدفع هاون ألماني قديم، كتبت موقفة بعض السطور، وهي كتابات رهبانية محاطة الرمن تقريباً ورأيت في هذا المركز ستة إلى سبعة مدافع حديدية صغيرة، ثبت أكبرها في الرمل، والأخرى على ركائز مكسورة. ويطلو كل من الأبواب الثلاثة أي باب اليس، وباب اليمين، وباب شعيب مدعمان يستخدمان في المناسبات الكبرى. وتقتصر المدفعية الثقيلة في عاصمة اليمن على الأسلحة التي ذكرتها آنفاً.

وتقع بحر القصب إلى الشرق من صنعاء، وهي قرية أو ضاحية، فيها مسجد كبير تزينة موزنة، وتوزع بيوتها في الجنانين قرب جدول صغير. ويمتد في الشمال على بعد فرسخ ونصف أو فرسخين من صنعاء، سهل يحمل اسم روضة (Rodda) تحيط به الحدائق وتجري به جداول صغيرة. ويشبه موقع هذا المكان موقع مدينة دمشق، في حين أن صنعاء التي شبهها المؤرخون العرب بدمشق تقع على رهوة قاحلة جرداء جزئياً. وبعد موسم أمطار طويل، يجري جدول صغير أتياً من تانم (Tanaim)، ويمر في المدينة، ليكمل طريقه إلى الشمال نحو بلاد جوف، لكنه كان جافاً كثيراً حين كنت في صنعاء. وبعد أقبية مياه، نتخذ من

حبل نعوم (Nikkum)، وتنتزع عن المدينة وعلى النقص، فلا يشح المياه في أي فصل من فصول السنة، المياه رمامية تحاول مدن الشرق كلها الحصول عليها، إن لأر المياه مشروب المسلمين الرئيسي، وإن لأر المؤمنين بهذه الديانة مجبرون على الاغتسال غالباً

ولا يبقى اليهود في مدينة صعاء، إنما يعيشون في قرية كبيرة خدصة بهم تسمى قاع اليهود Kdacl (Ihūd). وتقع قرب بئر النصب، ويبلغ عددهم ٢٠٠٠ يهودي ويعمل اليهود في اليمن باحتقار كما في تركيا، لكنهم أمهر لصاعة والحجارين (لعمري يقصدون المدينة يسمونها أثناء النهار في محالهم الصغيرة ويعادروها عند المساء إلى منازلهم). وجد بين اليهود عدد من التجار الأثرياء، ومنهم رجل يدعى أراكبي (Orāki) كسب ثقة الإمامين، وشغل منصب مفتش الأول للحمدرك، والأبنة والحدائق لمدة ثلاثة عشر عاماً أثناء حكم النصور ومدة خمسة عشر عاماً أثناء حكم الإمام الحالي، وهو مركز مهم للغاية في صعاء. لكن قبل وصولنا بسنتين، عصب عليه الإمام الحالي، فسجن وأجبر على دفع غرامة بلغت قيمتها ٥٠٠٠٠ درهم، وفقاً لما يقوله اليهود، وفي الوقت نفسه، تم هدم اثنا عشر معبدًا من المعبد الأربعة عشر التي يسمونها. وكان في هذه القرية مارل حميلة كمارب الأعيان المسلمين في صعاء، لكنهم هدموا معبدًا التي يتعدى ارتفاعها ١٤ ذراعاً، وسعوا أي يهودي من ساء منزله بارتفاع يتجاوز لأربعة عشر ذراعاً، وبما أن المشروبات الروحية تحفظ هنا، كما في شيراز في بلاد فارس داخل جدران كبيرة من الفخار، قاموا بكسر الخرار مسبب بهم لمرء من الأضرار وأطلق سراح المدعى أراكبي قبل وصوله بحمسة عشر يوماً، وقدم له الإمام، استناداً إلى أقوال اليهود، ٥٠٠ درهماً. وهو رجل عجوز، منك معروف واسعة، ويردي ثياباً رداءة ككفة يهود اليمن، ولا يلبس فلسونه بأي مناش أو عمامة، وأكدر لي أنه يفصل بغير طريقة لئاسه بالزعم من أن الإمام سمح به بذلك وحضني بصداقته، حد أن روى له أحد خدمنا يدي، فقفا من «قدرة إلى محبة، وهو من أقديبه، الكثير عد، وكان قد خرج تنود من السجن فلم أجروا على زيارته مراراً كما كنت أتمنى

ويعيش في صعاء حوالي ٢٥ بيتياً، ويضطرون لدفع ٣٠٠ درهم للإمام شهرياً، في حين لا تدفع قرية قاع اليهود سوى ١٢٥ درهماً. عندما يموت أي بيتاني في صعاء، يدفع ورثته للإمام ١٠ إلى ١٥ درهماً نقداً، وإن لم يكن للعقيد أقرباء في اليمن، تعود تركته كلها للإمام ويروي بيتانيون أن اثنين من أبناء ديبهم، رجت في السجن، مند بضعة أشهر، فدعوا للإمام ١٥٠٠ درهم من تركته ورثاه في الهند ولم يقبضاها بعد، كي يطين سراحهما. ولعل الإمام طلب هذا المبلغ لسبب آخر ثم يرد البيتاني الاعتراف به. ثلاثاً يقرؤا يدب اشعوه وهذا أمر موجود في نكت البلا. كما هو موجود في أوروبا

يترور سلطان القسطنطينية المسجد أيام الجمعة عندما تسمح به صحته بذلك يتبع إمام صعاء هذه المدة الدينية أيضاً فيقصد المسجد في موكب بهي، نكفاً ثم يره إلا في طريق العودة، إذ وصف له

بطريقة غريبة لأنه يسلك الدرب الطويل، وينصم للموكب عدد كبير من الذين أذوا واجباتهم الدينية في المساجد الأخرى. وقد غادر الإمام الجامع الرقيس بعد أن أدى الصلاة في ذلك اليوم (٢٢ تموز/يوليو). وتوجه عبر باب اليمن إلى باب شرارة (Schārāra) ومنه إلى خارج المدينة. ويسبق الإمام يصح مئات من الجسد، ويحمل الخدم إلى حاسب الإمام ركن أمير من عائلته مظلة أو شمسية كبيرة، وهي مرتبة لا تحق إلا للأمرء الأقحاح، لذا لا يسمح السلطان في المصلطصيب إلا بوريه بالحصول على نوع من الجسود المعنى من الأمام لانتقاء حرارة الشمس. ويقال إن الأمرء المستقبين في أقاليم اليمن لأخرى كمشايخ باع وحاشد ويكبل، وشريف أبي عربش وغيرهم، يحصلون حذاءً حمل هذه المظلة (Madālla) كدليل على امتثالهم واتباع الإمام، فضلاً عن الأمرء، حوالي ٦٠٠ رجل من الأعيان، من رجال دين وعلماء، وعسكريين، يمتطي بعض منهم جياداً رائعة، ويواص عدد من الشعب الإمام سيراً على الأقدام ويسير إلى جنب الإمام حملة، الأعلام من الجهتين، كتب أعلام محتلة عن تلك التي يراها في بلادها أو تنسرها مع مجرة عطور صغيرة من الفضة، ويقال إنها تحمل تعويذات تجعل الإمام لا يقهر. وينتشر حملة اليبارق مع مجمرات صحن المسيرة لكن لا يبدو أن لها مكاناً محدداً؛ باحتصار كانت المسيرة ضخمة ورائحة جزئياً، لكنها غير منظمة بحسب ما يبد لي، إذ يركض بعض، ويمتطي البعض الآخر الخياد، ويتداخلون من دون مراعاة أي نظام. وعلى مقربة من باب شرارة، وقفت جماع، تحمل هراجل فيها بعض نساء الإمام اللواتي يشاركن بالمسيرة لكن يقال إنها كانت فارعه وأنها نقلت إلى خارج المدينة كي لا يحالفوا العادة، ويتبع هذه الجمال بعض الإبل عبر المخصصة، لا يحمل الواحد منها على سرجه سوى أعلام بديرة وأطلق الجنود عبارات باردة عند باب حرارة يارتباك لم أشهد له مثيلاً في اليمن. وقد أنني كنت مريضاً، ثم أشأ انتعرض لأشعة الشمس وأنا أتجول هنا وهناك، فعدت على أعقابني إلى بئر القصب وأجرى الجنود بعض العروض العسكرية أمام منزل الإمام، وأظهر مسؤولوهم براعة في اسباق، وهم يحدد السيد كرم، الذي حضر الاستعراض، الجنود أبرع من أولئك الذين شاهدناهم مرراً في الأقاليم، ويكون ذلك عند عودة صاحب الدونة من المسجد وتقفل أبواب مدينة كلها أثناء الصلاة - على ما يبدو - لتسبب نفسه الذي يدفع الأوروبيين لإقفال مدينتهم خلال الوعظ، ومس حوقاً، كما قرأته في بعض الروايات، من أن يفاجئهم المسيحيون نهار الجمعة كما تقول نبوة مرعومة.

واستقبلنا في صنعاء بلياقة وصدافة لم يكن نتوقعهما، وأراد بعض الأعيان إقناعنا بالبقاء نهم بحر في اليمن، وبعدم الإبحار مع السفن الإنكليزية. ولم يكن نحشى شيئاً من الشعب لو قررنا اتباع هذه الصيحة، لكن بما أن الموت حرماً من الأستاذين ولم بعد نأمل باكتشافات جديدة حول اللغة والتاريخ الطبيعي لبلاد، وبما أنني رأيت القسم الأكبر من مدن هذه المملكة المهمة ووضعت مشروع خارطة جديدة خاصة باليمن، وبما أننا عرنا سمات البحر عند الإمام الحالي، وبعد أن تعرضنا لمشاكل عدة مع صاحب دولة نهر والحد، ولو أن لم بعد نحشى هذه الأمور - وبعد الصعوبات الدائمة التي واجهناها،

وتصويرات الطغس واداء التي تمرصنا لها في الجبال والسهول، فمرصنا الواحد نحو الآخر، فقرر التوجه إلى الحما ومنها إلى الهدد حفاظاً على أرواحنا وأوقاد. وحصلت على إذن معاذرة صعاء ساعة مشاء، لكن كان يسمى أن يستأذن وفقاً للأصول وأن يعرض على الإمام في الوقت نفسه ما شاهده العقبة أحمد سابقاً بما أخر سفرنا لأهم عدة.

وأرسل بصلينا للمرة الثانية في ٢٣ تموز/يوليو، واقتدنا إلى القاعة نفسها في بستان المتروكل حيث قابنا الإمام في المرة السابقة. لكن الأمور حصلت في صيب نام ذاك اليوم، وجلس الإمام على الارضاع الأول، لا أمام العرض، إنما في إحدى جهات القاعة على كرسي أوروبي، صعد هدي من القصب في صعاء، وقبلنا راحة يده وظهره، وفقاً لعادات العرب، فصلاً عن انحاء على مستوى الركبة، ولم يكن حاضراً سوى العقبة أحمد والكاتب لدي أحضرنا وستة إلى سبعة عبيد وخدم ولم يسمح لأي من عدنا بالدخول، لأن العقبة أحمد اعتبر أنني قادر على التكلم بالعربية وبد، أن ما عرضناه على الإمام أثر إعجابه، وطرح علينا أسئلة حول التجارة والعمول والعلوم في أوروبا، وتم حصار غلبة مليئة بالأدوية قدمها إنكيري للإمام مشرح السيد كرامر اسم كل دواء وكيفية استعماله وأمر الإمام مكتوبة ما ذكره الطبيب بالعربية.

وعادرت انزل مريضاً، وحدثت حالي سوءاً من الوقوف طويلاً، فطقت الإذن للخروج من القاعة، ووجدت أمام الباب عدداً من ضباط البلاط، يجلسون على حجارة في العي ورس يسهم العقبة خير الله الذي تحدثت معه في السابق مرات عدة وترك بي هد، الأخير مكانه وأحد يحمل بعض الحجارة بناء مقعد آخر لنفسه، وطرحوا عني العديد من الأسئلة حول عادات الأوروبيين وتقديدهم ومن بينها عادة شرب الكحول التي لم ترق لهم لكن حين ذكرت لهم أن الشكر مسموع على مسيحيين أيضاً، ونهم يعاقبون على ذلك، وأن ما من أوروبي عامل يشرب أكثر مما تسمح به صحته، أعصبتهم هذه العادة أكثر من قوايسهم التي تمنعهم من شرب الكحول نهائياً في حين نهم يكثر في بلادهم، ونهم يشربونها أحياناً كملاخ. وعدت إلى القاعة، واستأذنا من الإمام بالطريقة نفسها التي دعنا بها عبيد، بعد أن شرح له السيد كرامر كيفية استعمال الأدوية وأجيبا على أسئلة عدة. وبعد الظهر، ودعا العقبة أحمد وبعض الأعيان.

إن لسلوك الدرب لدي يمزج بمرم وتعمد في طريق العودة من صعاء إلى الحما، سبياً وجبهاً ومهماً وهو مسح كديبات حرانة وجعفر التي اعتقد نهم كديبات حميرة، لكن بما أن الهدف الأول للرحلة ليس البحث عن الآثار، وبما أنني لا أجده عادة سوى بقايا غير مهمة حيث يعلمني العرب بوجود آثار شهيرة وكتابات عربية، احترباً أن سلكت الدرب الذي يمر في موفاك (Möfak) وهي بيت العقبة، وباحتيري هذا الطريق، سألهم من تحسين خرائطي عن اليمن، وستمكن من رؤية نهامة في فصل آخر من السنة أي في موسم الأمطار. ولم يكتف العقبة أحمد، الذي عرضنا له صراحة أننا نفضل الوصول إلى بيت العقبة عبر طريق لم نسلكتها من قبل، بل أعصائنا حرية اختيار طريقنا، بل وعدنا بأن يؤنس لنا الإمام الحسير والجمال

ثم في ٢٥ تموز/يوليو، أرسل الإمام بكل من لساناً عربياً كاملاً، أي قميصاً ورسولاً، فضلاً عن رسالة موجهة إلى صاحب الدولة في الحما كي يدفع لنا مئتي درهم نقداً كهدية وداع. وخشينا أن يظن الإمام أننا، وفقاً لعادة رائجه بين الأتراك، لم نقصد صنعاء سوى لكسب المال لرحلتنا، أو أننا قدما له الهدايا ليرد لنا الصاع صاعين. لكن حين تذكر المشاكل التي تعرضنا لها عند وصولنا إلى الحما، رأينا اضطرارنا إلى دفع ٣٠ درهماً من البديقية لإحلاء سبيلنا، اهتمام بهذه الحواشي التي ما إن أعطيها للاحق لصاحب الدولة حتى أرسلنا إلى صرافه، وهو بدياني، فدفع لنا المبلغ كاملاً عن غير طلب حاضر.

وبالكاد صدقنا الفقيه أحمد حين قال لنا إن الإمام سيهنم بأمر تحصيل الخمير والجمل لرحلتنا، وخشينا أن نطلق آخر سفينة بكليرية قبل وصولنا، لذا أردنا استئجار الدواب بأعسأ، على أمل أن يسرع ذلك بعودتنا إلى الحما. وتحدثنا مع كاتب الفقيه أحمد الذي شرح لنا كلام سيده، وأعلمنا بأن الإمام سيتكفل فقط بنقل أغراضنا على حساب الخاص، وبالتالي استأجرنا حميراً لنا وخدمنا، ولم يكن واثقين من أننا سجد جمالاً أخرى في موفاق، فاتفقنا مع الذي نُجربا جمال على أن ينقل أغراضنا إلى بيت الفقيه. واعتقدنا أننا جاهزون للانطلاق في ٢٦ تموز/يوليو، لكن في ذلك اليوم، وعد الصباح، أعلمنا الكاتب المذكور أننا لا يتوجب علينا دفع نصف درهم إضافي عن كل جمل نوصول إلى بيت الفقيه، فوافقنا على أمل ألا تتأجل الرحلة. ووصلت جمائنا، لكنها لم تكن بحالة جيدة، فشككنا في أن نصل وماعا إلى بيت الفقيه، وقال لنا الجمالون، الذين يجهدون أسر الصيحات معقودة بين الكاتب وصاحب عملهم، أنهم سيحدون مع جمالهم من موفاق. وهكذا، وقعا في راحة جديدة، ولم يكن بإمكاننا تحميل عرصنا قبل التحدث إلى الكاتب ومؤجر الجمال أو بالتالي رئيس البريد عند العرب، لكن لم نجد أيّاً منهما. وبالرغم من أننا نكره إزعاج الفقيه أحمد الكريم اضطررنا إلى عرض حالتنا عليه واكتشفت الخدعة، فقد أعطى الفقيه كاتبه رسالة مفتوحة مرفقة من الإمام في أعلاها لا في أسفلها، يؤمن لنا بموجيها في كل أقليم عز فيه، جمالاً أبداً ورأس عم (على حد تعبير العرب)^(٢) كما تلقى الكاتب ليشت بعض الهدايا التي لم يأتي على ذكرها، وبما أننا كنا على عجلة من أمرنا، لم نتسكّر على الأرجح من الاتفاق بسرعة مع صاحب الإبل حول تقسيم الأنوار المخصصة لدفع بدل الإيجار لكن في أثناء ذلك، طلب من الكاتب عدم تأخيرنا. وهكذا أحضر لنا رسالة الإمام المذكورة، وبعض الأقمشة لخدمنا العبيدين، أما الثياب المخصصة لنا فوعدنا بتسليمها في غضون ساعتين، لكننا فضلنا الرحيل فوراً لبلوغ الحما بسرعة. إدأ، احتفظ الكاتب على الأرجح بهذه الهدايا الأخيرة التي تعود لنا، فضلاً عن المال المخصص لاستئجار حميرنا.

(٢) رصف شبه الجزيرة العربية، للوحة XIV





ويشبه اللباس الذي نقيته من الإمام لباس أعيان العرب في اليمن، وقد رسمنا طريفة لباسهم على اللوحة (LXXI) يرتدي العرب القميص فوق سروال واسع، ثم يلبسون سترة أكمامها صيقة وفوقها معطف واسع (عباءة)، ويصنعون في رءوسهم حجراً. وظن بعض أصدقائي الأوروبيين الذين رأوا هذا الحجر، أن العرب يستخدمون هذا السلاح كما يستعمل البحارة سكاكينهم، لكني رسمت استعماله على اللوحة المذكورة أعلاه. أما السلسلة التي نزلت من الحجر فيست سوى صيغة يستخدمها المسلمون أثناء صلاتهم، كما يستعملونها للتسلية في زقات الفراخ. ويعتبر سكان اليمن عديمة عريضة بدعيه، محسوس من الخلف ما بين أكتافهم، كما ذكرت سابقاً في وصف شبه الجزيرة العربية، ولا يرتدون الجيوب إنما يلتصقون الحذاء أو الخف مباشرة.

يبدو أن الأتراك يملكون - أفصل ما - كيف يستعملون سقاء الإمام، إذ يواجه الكثير من احتجاج الفقهاء من هذه الأمة، من جدة إلى محبة أو إلى الحديدة ومنها إلى صنعاء حيث يتحمل الإمام نفقتهم من أربعة إلى خمسة أشهر، كما يحصلون منه على سبعة (حوالة)، يدفعها لهم بعض أصحاب الدولة في أحد مراميء البلاد كي يتمكنوا من العودة ولا يعطى لهم هذا المبلغ الأخير على الحدود، إلا ليتأكدوا من أنهم سيعادون البلاد ولن يتحمل نفقتهم أكثر. وعرفت بعض هؤلاء المتسولين (القميين)، فضلاً عن يوناني مرتد من عامة الشعب في بيت العقبة، حصل على كميالة بعشرة دراهم يدفعها له صاحب الدولة في الحديدة، بعد أن أقام لفترة طويلة في صنعاء على نفقة الإمام. كما عرفت تركياً عمل في القاهرة بحساب شخص يدعى عبد الرحمن كحيا، وتبع ميده إلى مكة، ثم توجه من جدة إلى الحديدة ومنها إلى صنعاء على أمل أن يعينه الإمام في منصب رفيع في جيشه، إذ يعتبر الأتراك أنفسهم برعين للعبية في ركوب الخيل وفي الحرب، ويظنون أن عرب اليمن محظوظون إذ تمكنوا من صمم صابط مركبي إلى جيوشهم. لكن الإمام أنفق عليه لفترة في صنعاء، وأرسله عائداً إلى الحديدة، كما خصص له مبلغاً من المال ليعود إلى البصرة ورأيت هذا التركي عند عودتي من الهند في قافلتنا المتوجهة من ديار بكر إلى حلب، مروى لي أنه توجه من الحديدة إلى البصرة على متن أحد مركب سقط التي تقوم مسوياً برحله إلى اليمن لشراء البز، وأنه رأى كافة المراهي الواقعة إلى جنوب شبه الجزيرة، وأن الطريق ليست أخطر من الطريق المؤدية من جدة إلى اليمن. وأدرجت هذه الملاحظة للمسافرين الذين يعتبرون أن هذه الطريق لا يمكن سلوكها.

الرحلة من صنعاء إلى الحما

عادنا صنعاء في ٢٦ تموز/يوليو، وقطع مسافة ميلين و ٨/٧ ميل نحو الجنوب الغربي، كانت الطريق وعرة والجبال جرداء قاحلة، أما القرى التي رأيناها فهي أسور (Assur) وتقع على جبل يحمل الاسم نفسه، وبحفنه (Ochténa)، والمسائل (El Misâkil)، ومند (Mund)، ونزلنا في قرية موطن (Möttene).

في اليوم التالي ٢٧ تموز/يوليو، سلكنا أسوأ طريق عرته في اليمن، إذ يمر عبر جبال صخرية، ولم يصلح صد قرن، ويجد على هذا الجبل قرية حقيرة تدعى يافل (Yafil). وتبعد قرية عن (Boân) ميلاً واحداً عن موطن، وحالتها ليست أفضل من الأخرى، لكن نجد فيها رلاً ميباً من الحجارة، ويقام فيها سوق يوم الجمعة يجري قرب هذه القرية جدول صغير يتوجه نحو الشرق، لكنه لا يلبث أن يغير اتجاهه، ويلتقي بجدول أخرى فيعظم ويحمل اسم خان (Schan). وتبعد عن سوق الخميس حوالي ميل ونصف وبالتالي تبعد موطن عن هذا المكان ميلين و ٨/٢ الميل إلى الجنوب الغربي تقريباً. ويحادي جزء كبير من هذا الدرب جبالاً جرداء، تحيط بها وديان وقرى عدة من الجهة الجنوبية، لكنني لم أعرف سوى اسم قرية واحدة وهي كملان (Kamelan) ويقام في سوق الخميس سوق كل نهار خميس، ويجد فيها رلاً كبيراً، ومجلساً قرب نغرية (غرائد مياه صغيرة للمسافرين)، وهو أول مجلس صادقه خلال هذه الرحلة. وتبعد هذه القرية إقليم حيم (Heim) الواقع إلى الشمال الغربي من هذا المكان، ويحاديها إقليم بلاد عر في الجنوب الشرقي.

وسرنا في ٢٨ تموز/يوليو، في طريق منحدر للعلية، تنمو هذه الجبال بعض النباتات والأشجار، وصادفنا على هذه الطريق إبلاً محممة بخشب سيء متدققة تنح نحو صماء. ولم تقطع في ذلك اليوم أكثر من ميل و ٨/٢ الميل من قرية خميس وحتى موقاف. ولم نر على هذه الدرب سوى قرية واحدة تحمل اسم حدن (Haden) ومجلس يقوم بقرها. وعند الواحدة بعد الظهر، اجتاحت جبال احراد اسطفة بكر هبت عاصفة قوية ترافقت مع أمطار غزيرة مشمرت طوال الليل فأبعدتها.

تقع مدينة موقاف الصغيرة على قمة جبل وعرة، ويجد على سفحه بعض المنازل التي يأوي إليها المسافرون عادة، وهي على حط عرص ٥، ٦. يقيم في المدينة صاحب الدولة الذي يقدم حساباً عن إيرادات هذه المقاطعة لأحد أبناء الإمام، لكن الحامية والقضاء خاضعان للإمام. وأرعدنا حادم صاحب الدولة في نعر وخادم قاضيتها يحمل رسالة الإمام إلى صاحب الدولة في المدينة، فحضر الجمان اللازمة

لإكمال رحلتنا إلى بيت الفقيه، وقدم العشاء لخدمتنا وحصلنا على عصف لحميرنا، ورأس عصف لعشائنا، كما دفع إبحار منرسا.

في ٢٩ تموز/يوليو، توجهنا من موفاف إلى سهان (Schân) مسرا ميلين و٨٥٠ الميل إلى الجنوب الغربي تقريبا. يحاذي درب الجبال حيا، ويمر فوقها حيا آخر، لكنه سيء معظم الوقت فحجنا إلى حسن ساعات على سمير، وحاجت الجمل لثمانى ساعات لقطعها ونفع قرية جراني (Dsjarani) قرب موفاف، فيما تعصل مسافة قصيرة بين سهان وغريبي يوان (Yoan) ومغلا (Mangala). ونجد بين موفاف وسهان، ستة حوانات كبيرة، تتجمع فيها مياه الأمطار لتستخدم لشرب نكها غير صالحة في بعض المواسم لأن الحوانات تادر ما تنظف، ولا تعطي ابداً. وهيت عاصفة هوجاء، بعد الظهور، ترافقت مع سقوط أمطار وبرد كثيف.

ورأينا في ذلك اليوم، عائلة متشردة، وهي المرة الأولى التي صادف عائلة كهده في اليمن، وهم يكن يمش هؤلاء أي حيا، بما يكتفون بالتحجيم تح شجرة ماء، ويحزرون وراءهم الحمير والكلاب والعم والدجاج وسيت أن أسأل عن الاسم الذي يطلق على هذه الجماعات التي تشبه إلى حد بعيد جماعات «عجر»، لأنهم لا يقون مطولا في المكان عينه، بل يشقون من قرية إلى قرية يتسولون ويسرقون ويصدق عليهم «الملاحون» بطيب حاضر كي يتخلصوا منهم بسرعة، وتقدمت ما صاة حاضرة عن وجهها طالبة منا حسنة.

في ٣ تموز/يوليو، عاودن سهان، وكان إقليم موفاف إلى الجنوب الشرقي من الدرب التي سلكتها، فيما كان الجبل وإقليم حرث (Harras) إلى الشمال الغربي وأخذ الدرب يسوء، لكنه تحسن فيما بعد. وأصبح متعرجاً حول الجبال إلى الجنوب الغربي تقريبا. ونقع حالي (Haies) على جبل حراث قرب سهان، وبعد ساعة، وصلنا إلى معبر صيق بالكاد يتر من جمل واحد. نجد على جهتي هذه الدرب صخوراً وعرة، وقد حمرت مياه الأمطار التي سقطت بحرارة في الليلة الماضية، في هذا لمصيق حفره مع عمقه سبع إلى ثمانى أقدام، مما جعل عبوره مستحيلاً على جمال وحميرنا. وقد «عرب الدين يرافقون الأمل بالوصول، وبقية أي سبيل آخر في الجوار، رأى معظمهم أن علينا العودة إلى صنعاء، ومنها إلى دمار وتمر لكن بما أن سم شأ سلوك هذه الدرب الطويلة، وما أن نوب لا يسمح ما بذلك، قررنا إقامه جسر فوق هذه الحفرة، فتعاجأ العرب من مشروع كهده. ظناً منهم أنه يتطلب على الأقل يومي عمل وباشرا بالعمل، فأحصد نجوع الحجرة وساعدون بعد أن رجونا بعضهم وقصصا وعوداً لبعض الآخر، وبعد ساعتين ونصف من العمل المتحد، تمكنت جمال وحميرنا من مرور ويعتمد العرب الدبر يرافقون، أن صاحب الدولة الأول في اليمن، لو وصل إلى هك انمر تعقل العودة إلى صنعاء على القيام بعمل كهدها.

وعلى مسافة قريبة من هذا المكان، وصلنا إلى مقهى يدعى أدورة (Eddora)، ووقفنا قرنه على أرض

مرروعة بالين، وهي الأولى التي أراها منذ ٢٩ آذار/مارس. وأنضبا انينة في قرية هائسة تدعى سمفور (Samfūr)، بيت منازلها من حجارة مكومة، وعطت السلوح بالقصب. وبالتالي ليس مسطحة بل على الصرار الأوروبي، ورأينا هنا كما في نهامة هياكل أسرة تأخذ شكل الأرائك. ويقع العريه على بعد ميلين و٤/٣ ليل من سهان. ويحمل النهر الصغير، الذي رأيناه قرب عين، هنا اسم وادي سهان. وكانت مياهه كثيرة فقطعناه بصعوبة على ظهور حميرنا، ويحري هنا أيضاً بين الصحور، لكن مجراه عريض

وقعدت التوصل في مأواه في سمفور، لذا لم أتمكن من تحديد موقع لأمكنة بدقة من هنا وحتى بيت العقبه كما لم أتمكن من ذلك على الدروب المتعرجة من صنعاء إلى هذا مكان. وأعتقد أننا في ٢١ تموز/يوليو، توجهنا نحو العرب. حيث تبعد سمفور عن معهى يدعى كعبة (Kaba) نصف ميل تقريباً، لكن الطريق غير سالكة في هذا الفصل لعرق المياه وسرعتها في الأماكن التي تتلطم فيها بالصحور الوعرة ولا يتوفر الأمان في هذه المنطقة على الطرقات، لذا اضطررنا لبقاء قرب ماعبا. ويصل الصريق المؤدي من صنعاء إلى محبة هنا عن داء المؤدي إلى بيت العقبه، ويحري النهر نحو الشمال وبعد كعبة عن ميل (Fii) حوالي ميل ونصف الميل، ورأينا على هذه الدرب الكثير من اليلسان الذي يسمو من دواب رعاة لأن سكان اليم لا يعرفون فوائده

وصادفنا في برن قبل عدداً من اصحاب المائدين من مكة، ومن بينهم عربي من مدينة دران (Dran) الواقعة على بعد ٢٥ يوم سمر إلى الشرق من صنعاء بحسب ما قيل لي، وعلى بعد ١٢ يوم من كثير (Keschin)، وبالتالي في منطقة لا يعرفها الأوروبيون إطلاقاً وأسفت لأنني لم أتمكن من اللقاء مع هذا العربي لو فت طويل، ولأن لغته بدت لي غريبة. وهذا بي أنه لا يعرف فقط موطنه حضرموت بل يعرف مناطق أخرى بعيدة كالخيشة (Habbesch) التي عاد منها لنو وبعد معهى من عن هاجر (Hadsir) ٤/٣ الميل، ويمر الدرب عبر وادٍ أحضر. يحمل اسم سير (Seir)، حيث نصبت لجاه من الجبال المجاورة، بعد تساقط الأمطار العزيرة، في وادي سهان ونقع هاجر على جبل في دليم جاني (Dsjebi)، وبعد فيها رلاً جيداً ومسجداً والثاني مياه اشرب للماشية، وتمتخدم مياه الثالث للاغتسال والتشفيف ويعطي الاضطرار هذه المنطقة كما تقوم فوق الجبال قري كبيرة، وتبعد سمفور عن هاجر ميلين و٤/٣ ليل استناداً إلى الحسابات السابقة.

في الأول من شهر تموز/يوليو ١٧٦٣، وصلنا موضعاً بعيداً بعض الشيء عن هاجر، حيث ألتينا يوماً صحراً يشكك جدولاً، لكنه لا يلبث أن يصيح في وسط الدرب على بعد حوالي ٢٠٠ خطوة مرد (رجة^٥)، ثم يعود ويظهر من جديد بحجم أكبر. ويقطعه بعد ذلك حجر عريض، فيكمن جردانه من جهة فيما يصيح القسم الآخر في الرمل، ولا يحتفي المساعد الأول كلياً بقدر ما رأينا، لكن المنسرب يراجع فيه للعناية. فلا

شك أن حرماً من الجدول يصنع تحت الأرض، ولعل له بكن لره أداً في هذه الأسكنة لو أنقدها في عبر موسم الأمطار ويحري هذا الجدول يسمى قلاب (Kulābe) من الجبل، ويتورع في نهامة على الأرياف المحيطة، ثم يحتفي كيباً، وبالتالي لا يصل إلى الخليج العربي عسماً أن الأثار التي يتركها على الصحور تشير إلى أنه بعظم كبير في هذا الأقليم، بعد أن تتساقط الأمطار بمرارة ولونت طريل

رئيد هجير عن مقهى يحصل اسم أبي كرش مبلأ $\frac{4}{3}$ الميل إلى الغرب والجنوب العربي احدرأ، ويؤدي هذا الدرب إلى منحدر صعب على بعد ميل $\frac{4}{3}$ ميل، ويمر عبر وادي كلاب (Wadi Kulābe) حتى حدود نهامة. يرى بعض الجبال الصغيرة بين الحين والآخر إلى الشمس، ويعطي لمظقة الدرة التي يصنع منها العامة في البحر حرهم، يسي العرب في اساطق الجبلية خياماً في الأشجار خرامة حقوبهم، بعد يجعون لها في نهامة أربعة قوائم مرتفعة بلعاية يعلوها سدق^(٥)

بعد أن تركنا المكان المذكور آنفاً، نجها بحر الجنوب العربي، ووصلنا حدود نهامة، وبعد ميل ونصف الميل بلغنا مقهى أنجور (Andsjor)، بعد أن قطعنا وادي رما (Rema) وبعد تساقط الأمطار، يتقي هد الرادي بوادي حش ويحملان معاً اسم وادي عباسي (Wadi Abassi) الذي يصب في الخليج وتتكون الجبال، في بلاد أنجور، من حجارة محتة برزايا كتيل التي رؤبها في ٩ آذار/مارس في كحم (Kachme) وفي ٢١ آذار/مارس على جبال البر قرب هادي (Hadie)، وانقصت بعض هذه الحجارة عن الجبال وتجمعت على سفحها حيث وجدناها قطعاً $\frac{8}{7}$ ميل نصل من أنجور إلى قرية متاه (Mattāhen)، ورأيت بين هذين مكانين، وادياً صغيراً، يختفي لاحقاً ولا يصل إلى البحر وتركنا بعض أعصاء البعثة وبعض الخدم مع المناع في متاه، وركب حميراً استأجرها هذا، وقطعنا في تلك ليلة مدين ونصف الميل لنصل إلى بيت العقيه، وبالتالي سرنا في ذلك اليوم سبعة أميال و $\frac{8}{7}$ ميل وتقع بين متاه وبيت العقيه على القرى التالية ختب (Kut)، صرب (Djurb) أبو برث (Abuberten)، وحب (Rachten)، فصلاً عن وادي الحش ربما أن القسم الأكبر من بيت العقه التهمت البران في ١٠ نيسان/أبريل، فترقوا ألا نجد سوى صحراء قاحلة، لكنهم اعدوا بدء عالية انمارل أو على الأصح الأكوج، كد تم تشيد منازل حجرية تقاوم البران.

وصلت جماننا إلى بيت العقيه صباح الثاني من شهر تموز/يوليو، وأدبنا صاحب الدولة برصود، ورجوا أن يأمر بتحصير الجبال التي محتاجها لإكمال رحلتنا وأراد حدمنا العرب طلب أنفوس مه كي يأكلوا على حساب الإمام أو على الأرجح على حساب أهالي المنطقة وكبي يظهروا مكانتنا الربعة عند الإمام في صعبه، لكن بما أن هذه المدينة حسست استقبالنا من قبل وندمت لـ المساعدة، لم نسبح لهم بذلك واكتفينا بطلب رأس غنم.

(٥) وصف شبه الجزيرة العربية، اللوحة ٢٧، صورة ١١

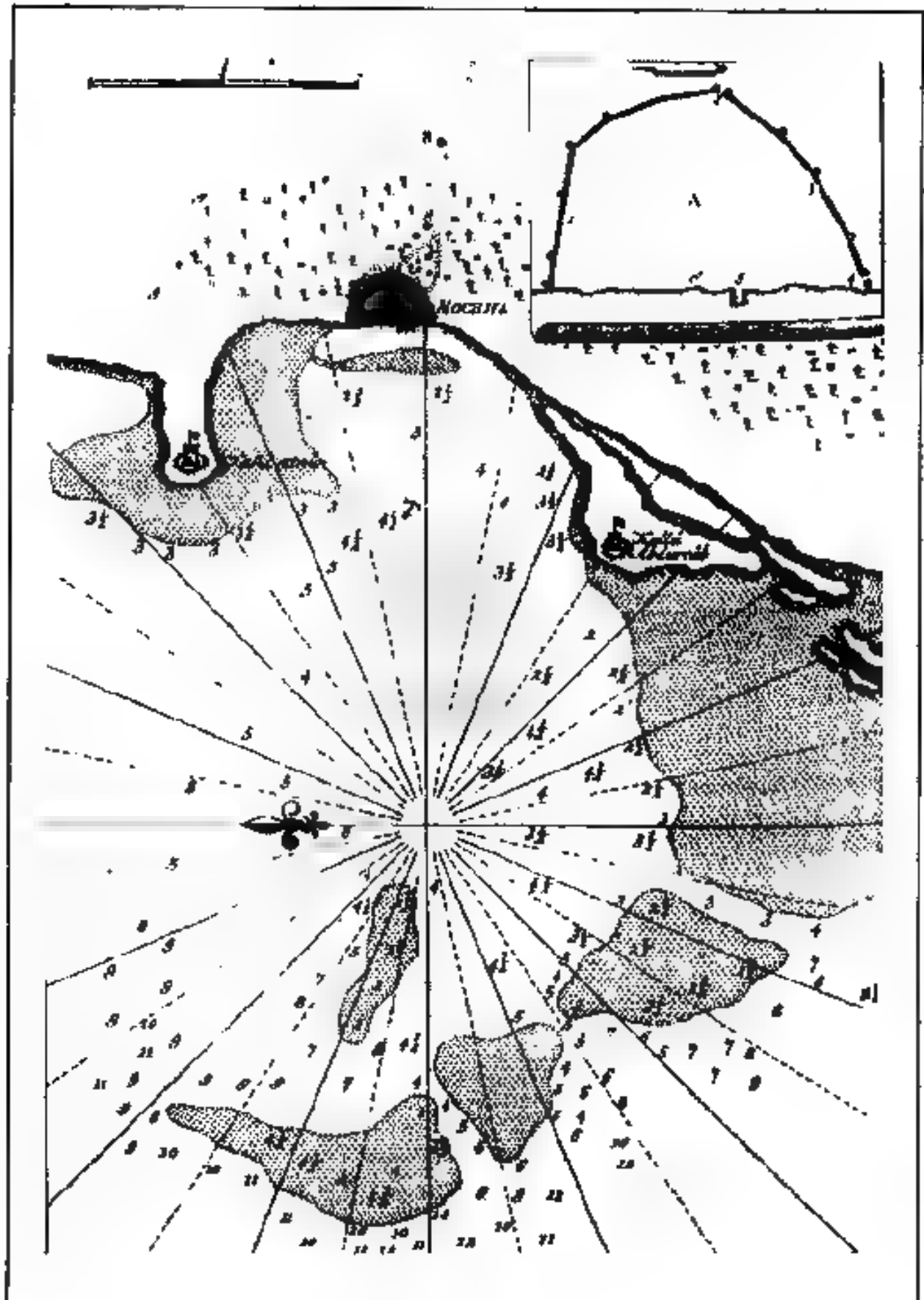
كنت قد رأيت من قبل الطريق المؤدي من بيت العقبه إلى الخنا، ورسمت خارطة له، ونظر إلى أن الحرارة مرتفعة لمعية في تهامة، وبالتالي مضرّة لنا بعد اعتدال المناطق الجبلية، رحنا سافراً ليلاً ومرتاح أثناء النهار وليلة الثالث من شهر آب/أغسطس، صادفنا على الطريق بين بيت العقبه ورييد، رجلاً يسوقان سلة حمير محملة بالمال الذي تلقاه تجار بيت العقبه من مصر وتركيا لقاء دين الذي يرسلونه من الحما إلى خارج البلاد بعية شراء البضائع من الهند، مما يدل على أن أهالي هذه البلاد لا يحشون القصور.

في ٣ آب/أغسطس، اصطر صاحب دولة رييد إلى تزويدنا بالمواد وجمال لإكمال رحلتنا إلى الخنا. وظننا أن مسجد مسسوب المياه في وادي رييد، في هذا الفصل من السنة، مرتفعاً فالعياه جافاً قرب المدينة، لكن تم تحويل المياه في الجرب إلى بعض الجنون الخاطئة بسدود عالية، حيث حفظت في حفر عميقة. ولا يدعون المياه على الأرجح تجري في وادي رييد من رتي كافة الحقول المجاورة، وقد تم بناء الحواجز المحيطة بالسهول المذكورة أنشأ بطريقة مبددة. بعد فلاحه الأرض يربط العرب ثورين بثلاثة حبال أو ثلاث سلاسل حديدية يربطونها بحش عريضة للعبه، ويحتر هذه الحشبة على الأرض المصنوعة لتحتلها، فينقلونها إلى الحاجر المذكور كما أظهروا في «صورة» من اللوحة ١٥ في وصف شبه الجزيرة العربية. ولم يصل شرح (Scherdajee) سوى في منتصف الليل، وبعد أن ارتحت قليلاً، أكملنا سيرتنا نحو مشيد (Mauschud)، التي غادرناها في ٤ آب/أغسطس عند العصب، ودخلنا الخنا في الخامس من الشهر نفسه عند الخامسة صباحاً وقد أصبنا التعب.

واستعجلنا في رحلتنا كي لا يهونا مركب الذي سوي معاداة البلاد على متنه، لكنه لم يكن بإمكانه أن يسبح بالسرعة التي تصورناها، وهكذا وصلنا باكراً إلى هذه الطمس المحرق وكنت مريضاً للغاية وفي ٨ آب/أغسطس وبعد أيام، أرم رسالت السيد بورهابند الفرائش، ولحقه السيد كرامر فضلاً عن كافة خدمات الأوروبيين. والتقينا هنا صديقاً السيد فر. سكوت (FR. Scott)، الذي أثنى لنا مرطبات أوروبية متنوعة أفادتنا في حالتنا هذه أكثر من أي دواء كنا نشاوله لو اضطررنا للعيش كالعرب.

ونفخ مدينة الخنا على خط العرض ١٣°، ١٩°، في منطقة جافة وجرداء لافتقارها للأمطار، ويحيط بها سور. ويجد بين الخنا وشر بيل (Belele) كما نجد على طرفي المرقأ، قنعتين مماثلتين مرودين ببعض المدافع. وتسمى الواقعة إلى الشمال قلعة الطائر (Kallā Tejar)، تيس بولي مسلم دمن في مكان قريب، وهي القلعة الأهم والأعظم، أما القلعة الأخرى صغيرة، ونظراً لأن ضريح أحد أولاد الشيخ الشاذلي قريب منها حملت اسمه وهي قلعة عبد عرب (Kallā Abed Urrab).

وهي قسم من المنازل الواقعة في حرم هذه الأسوار من الحجر، ويحدها شيد بشكل متين وجعل على طراز المنازل التي رأيناها في جز القصيب والتي رسمناها على اللوحة (LXVIII). لكن شيدنا داخل المدينة وخارجها منازل حقيرة كالأكراخ العادية في تهامة والتي رسمنا نموذجاً عنها على اللوحة الأولى في



وصف شبه الجزيرة العربية، كما يجد خارج المدينة العديد من أشجار الليمون التي تنمو وسطها حدائق ضيقة مسقاة. ولقد رسمت خارطة مدينة المخا ومحيطها على النوحة (LXXII)، وتجدر الإشارة إلى أنني لم أقص إلا حرم سور المدينة المرسوم قرب الحرف أ، واستناداً إلى رسم خارطة القاهرة. وقد أمر لي شخص إنكليزي خارطة ترفيماً ومعلومات حول العمق المسجل للمياه. وتدل الأرقام المدونة على الخارطة على ما يلي: (١) باب العامود (Bāb el Amūd)، (٢) باب شادلي (Bāb Schādli)، (٣) باب صمير (Bāb Sagair)، (٤) باب صمدل (Bāb Sandel)، (٥) باب المسجل (Bāb Sahhel)، (٦) مقر إقامة صاحب الدولة، (٧) مقبرة الأوروبيين حيث دفن السيد دو هافر، (٨) الأبراج أو القلاع الصغيرة على صريق موسى، (٩) طريق بيت الفقيه.

واعتمدت زيارة الإنكليز في المخا أكثر من العرب، لذا لم أقم باكتشافات دقيقة حول قدم المدينة. لكن من المؤكد أن المخا من المدن الجديدة في تهامة وأن عمرها لا يتعدى ٤٠ عام ويقال إنه في ذلك الوقت، كان يعيش في اسطقة رجل وحيد شهير يدعى الشيخ الشادلي ويعتبر مؤسس المدينة. وقد اشتهر برهده ونفواه، فأخذت الجموع تزدحم المكان للاستماع لعالمه. ورووا لي قصة عنه تقول إن مراكباً قادمة من الهند ومتوجهة إلى جدة، رسا في الجول، ورأى البحارة كوخاً مبرداً في هذه الصحراء فذهبهم المصرون إلى الروول إلى الياصة واستقبل الشيخ رواه أحسن استقبال، وقدم لهم القهوة وهي شراب يحبه كثيراً ويمرو إليه منافع عديدة، واعتبر اليهود الذين لم يأمنوا القهوة هذا الشراب السامع علاجاً، وظنوا أنه سيساعد على شفاء التاجر صاحب مركبهم، وأكد لهم الشيخ شادلي أن هذا الشراب وصلاته لن ينفعها المرض وحسب بل سيؤمان له ربحاً عظيماً إن أنزل بضائعه. وتبدأ في اليوم نفسه، أن مدينة تجارية تنبئ يوماً ما في هذا المكان، وأن اليهود سيقصدونها لبيع قسم كبير من بضائعهم. وبدأ هذا الكلام قريباً بالنسبة للتاجر الذي أراد أن يُنقل في اليوم التالي إلى الياصة كي يرى بنفسه هذا الرجل المميز ويتحدث معه. وفي اليوم نفسه، دار الكثير من العرب هذا الزاهد سماع أقواله، وكان التاجر قد شرب القهوة التي حضرها له الشيخ وأحس بتحسّن. ومن بين الوفود التي رأت الشيخ العديد من التجار الذين اشتروا حمولة المركب كلها، فعاد التاجر إلى الهند سعيداً ودع صبت الشيخ بين مواطنيه. وبقي قرب كوخ الشيخ العديد من الأكواخ الأخرى وازداد عدد التجار الذين يقصدون المكان عبر البر وعدد المراكب التي ترسو قربه، فتكونت قرية ثم تحولت إلى مدينة المخا التجارية المعروفة. وتم تشييد مسجد كبير يحمل اسم الشيخ شادلي فوق صرحه الواقع خارج المدينة. كما يطلق اسمه على البئر التي تؤمن المياه لعامة الشعب من الفقراء غير القادرين على دفع المال لشراء مياه أعين، فضلاً عن أحد أبواب المدينة. وتتمتع سلالة بإمكانة بين الناس ويحملون لقب شيخ تبعاً به، ويقسم أبناء المخا باسمه عادة، باختصار بن يسي هذا الشيخ دائماً المخا موجودة. وأبدى تاجر من مكة، تحدثت معه مراراً في يوماي، ملاحظة حول هؤلاء الأولياء لم أكن أتوقعها من مسلم، إذ قال إن الشعب بحاجة لشيء مألوس يحترمه ويحشده، لذا يقسم

الناس باسم محمد بدلاً من أنه في مكة والمدينة، ولا أتق يمين رجل من هنا إن أقسم بالله، وأصدقته إن أقسم باسم الشاذلي الذي يرى صريحاً ومسجده دوماً. ولأحطت أن شعب في جدة يقسم باسم محمد، وفي هنا باسم الشاذلي، وفي مشهد باسم علي، وفي مشهد الحسين باسم الحسين.

ولا يعتبر الشاذلي شيعي الخ وحسب، بل شيعي أصحاب المقاهي المسلمين من أتباع المذهب السني كلهم. ويدل أنهم يقرؤون لغاتهم كل صباح على روجه، ولا يعني ذلك أنهم ينصرون إليه، إنما يشكرون الله لأنه علم الإنسان استخدام القهوة عن طريق الشيخ الشاذلي، ويرجون منه أن يرسم الشيخ المذكور وآله^(٥).

الحا هي آخر مدينة يمنية بقيت تحت سيطرته الأتراك، ويقال إن العرب لم يستردوها بقوة السلاح إنما اشتروها، وسد ذلك الحين وهي تحصى ثلاثاً. جمع أحد أصحاب الدولة في هذا الأقليم الكثير من الثروات، وأمر بحفر حديق حول مدينة، لكنه طمر فيما بعد، ثم حضر المدينة، وأظهر ميلاً إلى الاستقلال فزع في السجن ومنذ ذلك الوقت، لا يعني صاحب الدولة في هذا الأقليم العتي في منصبه أكثر من عامين أو ثلاثة. ويصطر إلى تقديم حساباته سنوياً بعد موسم^(٦)، ويتنصر عندها إما أن تجدد ولايته لعام آخر وإما يتم استدعؤه مباشرة إلى صعاء. ولم أعرف الكثير عن تاريخ الحا، وحل ما عرفته هو أن الفرنسيين قاموا بقصصهم مرة، وسأورد لكم سبب ذلك يسحب صاحب الدولة هذا عالياً. لحساب الإمام، بضائع من الهند من التبخار الدين ترسو معهم هذا، أكثر من يتطلب رسم الجمارك ورسوم الأخرى التي يتوجب عليهم دفعها، وبعد كل مرة بأن ديون الإمام ستحسم في العام التالي من رسوم الدحول، لكن هذه الديون تتراكم أكثر فأكثر. وبلغت ديون الإمام للشركة الفرنسية للهند الشرقية ٨٢١٠٠ درهم. وعما أنها أرادت للحصول على مبلغ، من دون أن يستخدم أساليب معدها تجارها في الحا، أرسلت في العام ١٧٣٨ سمها التجارية ترافقها سمية حريه. وأعلم القبحان صاحب الدولة أنهم قصدوا البلاد ببيع بضائعهم، لكنهم لم يربوها إلى اليابسة ما لم يقبضوا الديون السابقة، فحاول صاحب الدولة استمالتهم بالكلام المعسور ودفعتهم بإزالة البضائع أولاً. لكن الفرنسيين أظهروا ما كان

(٥) ولقد في البصرة وبغداد وفي كافة المدن السنية على الأرجح، شعب لكل عهد من النشال، سلمان باك (Salman Pak) سلاً، الذي يقال إنه كان حلاق محمد، التاريخ العالمي المعاصر، الجزء الأول، القسم ١١ السند الألماني هو شيعي خلافتين الدين برزور، مسواً وفي يوم محدد، فيه انوجود في المدائن (El Madaini) وهي مدينة اشتهرت في مصرى لكن لم يس منها سوى البمايا التي مشاهدتها علي بعد ميل من بغداد وداود أو داويد هم شيعي الحدادين إذ ورد ذكره في الفصل ٢١ من القرن على أنه أول من اخترع الشكا التي تبت (Schid) هو شيعي المائكن. إيرمهم الخليل شيعي الخائى والعبدنوم. التي إخرس هو شيعي الخطاطين حبيب الذي عهد قبره في منطقة بغداد هو شيعي الكارم. التي جرجس (Gorgis) هو شيعي الشخاس، محمد اليمى هو شيعي الخدائين محمد الجواد هو شيعي المعامير.

(٦) يسمى موسم في البحر الزم الذي يمتد الأشهر الأربعة التالية نيسان وأيار، أيار، حزيران/يونيو وتموز/يوليو، وعادت من الهند إلى بحر خلال هذا الوقت.

بمقدورهم، وقصعوا القلعة الشمالية قبل أن يهكر العرب جدياً باستخدام المعصد. واستؤمست بعد ذلك المفاوضات واعتذر صاحب الدولة معللاً أنه لا يملك أدل ولا أمراً من الإمام بدفع الديون المذكورة. وحلب مهلة مدتها ١٥ يوماً حتى يتلقى رد من الإمام وبعد انتهاء المهلة، أطلق الفرنسيون عديمه نحو منزل صاحب الدولة فقتلوا عرياً، ولم يؤد ذلك إلى أية نتيجة، فاستهدموا المسجد يوم الجمعة فيما كان صاحب الدولة يؤدي صلاته، وقتلوا بعض العرب. عندها فقد المواطنون، الذين دفعوا دين الإمام من دمهم، صبرهم وأجبروا الحكومة على اتحاد تدابير ترضي العدو وبعد إقرار المعاهدة، أزل الفرنسيون بضائمتهم واستأنعوا تجارتهم كالمعتاد، ولم يفقدوا سوى أحد الرباية الذي قتل أثناء تومعه أمام باب منزله، على يد جدي مات أحد أهله أثناء القصف نثار له (وصف شبه الخزيمة العربية).

وبرى مما تقدم أن صاحب الدولة الذي كان عاجزاً عن الدفاع عن نفسه فعل ما بمقدوره لخدمة سيده، لكن الإمام لم يستر بما حصل فصادر قصر الأول في صنداء^(٥) كما لم يسترد تجار من المخا قدموا مبلغاً كبيراً لإرضاء الفرنسيين المال الذي ذهبه حتى تاريخ وجودنا في المدينة.

ويذكر العديدون هذه المواجهات، لا سيما قتابل النار، على حدّ تعبيرهم، التي لاحقت صاحب الدولة، وقد كوّن العرب فكرة عظيمة عن طريقة الأوروبيين في غوص الحروب. ولو شئت دولة أوروبية هجوماً كهذا على مدينة تركية لما سلحت الأمم الأوروبية الأخرى الموجودة في المدينة من عصب الشعب، والدليل على ذلك أنه ما إن يقترب مركب من مالطا من مدينة يافا، حتى يدفع رهيان المدينة جريات كبيرة. لكن الإنكليز والهولنديون الذين كانوا في المخا عند وصول الفرنسيين بقوا في أمان ولم يتعرضوا للأذى.

لم أسمع بمسيحيين شرقيين يقيمون في المخا أو في أي مدينة أخرى في اليمن، إنما نجد فيها يهوداً يعيشون خارج الأسوار كما في تعز، وجبة وصماء وغيرها. كما يعيش في المخا حالياً من ٦٠٠ إلى ٧٠٠ بابائي وبندي من الطوائف الأخرى. يعمل قسم منهم في التجارة فيما يكسب القسم الآخر رزقه من مراوطة بعض الحرف والأعمال الصغيرة، وينتج هؤلاء في اليمن لسنوات، لكن بما أنه لا يسمح لهم باستقدام زوجاتهم، يعودون إلى بلادهم ما إن يجمعوا ثروة وتحفظ الشركة الإنكليزية للهند الكبرى بعض البيوت المستأجرة في المخا وبيت الفقيه عسماً أنها لا ترسل عادة سوى مركب واحد لتحميل البضائع كل سنتين ولعل تجارتهم في الخليج العربي لا تدرك عليهم أرباحاً كثيرة، لكن التجار الإنكليز في الهند يجنون أرباحاً طائلة منها، ووصلت إلى المخا هذه السنة، لحسابهم، سبعيتان من البنغال، وواحدة من بومباي وأخرى من سوررات فصلاً عن مركب أبهر من سوررات تحت إمرة قبطان إنكليزي، كما أرسل الإنكليز في السنة نفسها من الهند ثلاثة مراكب إلى جدة. وقد تركوا تاجراً في المخا لسنوات، لكنه

(٥) كان هذا القصر يحمل اسم دار مخا، فأطلق الإمام منصور عليه لاحقاً اسم دار السودان وهو الاسم الذي يرفق به حالياً.

نمرس يوماً لسوء معاملة من قبل نساكن بعباب السفن، فقرر التجار بعد ذلك العودة إلى الهند سويّاً وترك البصائع غير المباعة مع الوسطاء. ولم يجر المرسىون في الخليج العربي مدّ سبع سنوات بسبب حربهم ضد إنكلترا، لكنهم يدفعون بدل إيجار المرسى الذي يقسمون فيها عادة في النخاريت المعمية عن طريق حصيلهم في اليس، وهو رجل بانياسي. أما الهولنديون فقد أشرنا سابقاً إلى أنهم أرسلوا مركباً إلى النخاريت مد عامين، فيما لم يجد البرتغاليون، الذين شتهروا في ناصبي بتجارتهم في الخليج العربي، يرسلون سفهم إلى المنطقة.

جئت سابقاً على ذكر التجارة والقياسات والأوزان في النخاريت وصف شبه الجزيرة العربية. إن التجارة فيها لا يسهاها بها، وتكثر الكثير من الأموال على جمارك الإمام، ويصطهر العرب والأثراك واليهود إلى نقل بصائغهم إلى المكتب مباشرة، وإحصاءها بتفتيش، فصلاً عن دفع ٨ إلى ١٠ بالمثل من قيمتها، وفقاً للنسبة التي يحلو للموظف أن يحددها ولا يدفع الأوروبيون سوى ثلاثة بالمثل من قيمة البصائع كلها التي يخلوونها من أوروبا وأندلس والصين إلى النخاريت ويحق لهم نقل بصائغهم مباشرة إلى محابهم فيقوم الموظفون بتفتيشها هناك. ومد أن عظمت سلطة الإنكبير على شواطئ مالابار، وأخذ تجارهم يرسلون من بومباي وسورات إلى النخاريت البصائع على متن مراكبهم، بعد أن كانت المراكب الهندية تنقلها، أصبحوا يدفعون ثلاثة بالمثل كرسوم بدخولها. لكن يصطهر تجار النخاريت إلى دفع ثلاثة بالمثل المتبقية، وهكذا يحافظ العرب على اتفاقاتهم مع الأوروبيين، معربين بالوقت نفسه انتشار التجارة الإنكليزية ويدفع الأوروبيون ثلاثة بالمثل على تصدير البضائع وعلى توصيته، كما نصطهر المراكب التي ترسو هنا إلى دفع رسم تبلغ قيمته بضع مئات لدرهم فضلاً عن رسوم الجمارك، ويراضي العرب في فرض هذا الرسم حجم المركب وعدد أشرعته فبدفع مركب بثلاثة أشرعة صعب ما يدفعه مركب بشرعيتين وإن كان بأحجم نفسه تقريباً. لكن يحصل التاجر الذي يحتمل هنا مركباً أوروبياً بالمثل على مكافأة قيمتها ٤٠٠ درهم من صاحب دولة النخاريت.

واستناداً إلى ملاحظات عربية، يهبّ الهواء في المنطقة دورياً ستة أشهر من الشمال وستة أخرى من الجنوب، لكن هذا لا يعني أنهم لا يعرفون رياحاً أخرى، ففي شهر آب/أغسطس، تهبّ الرياح الشمالية، لكنها تتحول أحياناً إلى عربية، وأحياناً أخرى إلى جنوبية عربية، حتى أنها تستحيل جنوبية واضطرب السفن الهندية التي كانت تستعد للترجعه إلى جدة والعودة في العام نفسه إلى الهند، إلى الإرساء في النخاريت كما وصلت إلى النخاريت مبعوثان من سورات بقيادة مسلمين، وأخرى من البغال بقيادة رمان إنكليزي، في السنة نفسها لكن في وقت لاحق، ولم تتمكن سوى السفينة الأخيرة من الوصول إلى مرفأ جدة لأن قبعتها ترجه نحو عرض البحر في وسط الخليج العربي. أما الأخيرتان فانتاد أبخرتا في الوقت نفسه من النخاريت فاضطرتا إلى العودة إلى هذا المرفأ وإلى الانتظار بضعة أشهر حتى تهبّ الرياح الجنوبية

أما بالنسبة للسفن الإنكليزية الأربع التي كانت في اصحاء هذه السنة، فقد عذرت ثلاث منها بحو الهند عند عودتنا من صغاء، وعادت أوى السفن التي أبحرت نحو جدة في ٩ اب/أغسطس، والثانية في ١٠ والأخيرة في ١٧ من الشهر عيبه إلى اصحاء على أن تعاود لإبحار نحو الهند. وبما أن العرب لا يمكنون سوى البس يبادلون به البضائع الأوروبية، وبما أن الهنود لا يستطيعون هذا الشراب كثيراً، عادت السفن بأعلىها إلى الهند شبه فارغة، إلا أن السفن الأخيرة نكسب أكثر عند عودتها منها عند رحيلها، لأن تجار اندية يؤجلون إرسال البضائع الهندية حتى تنحر آخر سفينة^(١). لذا حمل المراكب الأخير القادم من جده على متنه حوالي مئتين فرس من جنة بعداً، فيما حمل المراكب الذي تنقلنا على متنه إلى اصحاء ٢٥٠٠٠٠ درهم نقداً، وقد كلف نقل هذه المبالغ الصخمة الكثير من المال.

وتتألف هذه المبالغ من عملة البندقية وعملة ألمانيا وعملة الأمبراطور وبالتالي من أموال أوروبية، ويمكن أن تصور بسهولة أن السفن الإنكليزية والهندية الأخرى حملت معها مبالغ طائلة من جده ونحوه، كما تعود المراكب من البصرة إلى الهند محملة بالنقود التي انقلت قبل ذلك من أوروبا إلى تركيا وإد. م لاحظنا كمية النقود التي تنتقل سنوياً من أوروبا إلى الهند وإلى الصين، هن ينبغي أن نستعرب إد. م فعدت أوروبا محروبة من الذهب والفضة، إذا ما استب كور أميركا؟

ذكرت سابقاً الأمم الأوروبية التي تاجرت ولا زالت تتاجر مع الاصحاء، والتي تتمتع بامتيازات فيما يتعلق برسوم الدخول لا يالها المسلمون، وإذا ما فكرت أمة أوروبية أخرى بإرسال سفن إلى المنطقة، يسهر عليها بل التسهيلات نفسها. وعند وصول سفينة عربية إلى مرفأ الاصحاء، لا يمي أن تحمي بصيغة مدفع إلى عليها رفع علمها، فيرسل صاحب الدولة مراكباً للاستطلاع والمعرفة سبب قدومها إليها. وإذا ما تعرض القبطان لبعض الصعاب، عيه أن يكتب بالقول إن هدفه هو الوصول إلى المدينة وإلى محبة. وهذا لا يثله صاحب الدولة بسهولة، حوياً من أن يفقد الهدى التي يحملها مراكب كهذا، ورسوم الدخول التي يدفعها دائماً. لكن الدول التي لا تملك مراكزها في الهند، لن تحمي الكثير من التجارة في الخليج العربي، إذ إن البضائع الأوروبية التي يستعملها العرب قليلة ويسمي أن يحمل الأوروبيون، الذين يتاجرون مع الاصحاء معهم بضائع من الهند ولا يجدون ما يشترونه بالمقابل سوى البس الذي يمكنهم الحصول عليه بكلفة أرخص مما لو أرسلوا سفينة إلى الخليج لهذا الهدف فقط، وذلك من المراكب التي تحمته كي لا تعود إلى الهند فارغة ويتم استهلاك كمية كبيرة من اعمد في شب الجزيرة العربية، كما ذكرت في (وصف شبه الجزيرة العربية). ويشربه الإنكليز من الدمارك ثم يقلونه إلى الاصحاء وجده.

(١) يدفع تجار مصحاء يتوجب عليهم على ثلاث دفعات في السنة، تراوح مهلة كل دفعه حوالي ١٠٠ يوم، الأولى من ٧ أبول سبتمبر إلى ٢٣ ١٥/ديسمبر، الثانية من ٢٣ ١٥/ديسمبر حتى ٢ نيسان/أبريل، والثالثة من ٢ نيسان/أبريل حتى ١٠ يور يور، وينبغي أن يدفع لس البضائع التي تشرى خلال هذه الفترة، واستناداً إلى تلك القوانين، قبل انتهاء مهلة الدفع.

وبالتالي يمكن للدانماركيين ممارسة تجارة مربحة كتجارة الإنكبير مع مستعمراتهم وذلك عبر بيع حديد أوروبا، وشباك البعل وبصانع هندية أخرى ينقلونها من تركيا إلى الخليج

وألفت انتباه كافة التجار الذين يقصدون الشا إلى ضرورة التنبيه للصرايين المسممين، ويمكنهم كالمغربيين والإنكبير التوجه إلى البايانيين الذين يجد بينهم تجاراً أثرياء وصادقين، إذ يمكن بونوق بوني أكثر من مسلم. ويحاول تجار المسلمين في كافة البلاد إعانة المسيحيين فيحصب هؤلاء ويومريهم، عندها يأخذ التجار بالصراخ بحجة أن لمسيحي أساء حديث عن الديانة الإسلامية، ويهددونه بالقضاء فيصطرون إلى دفع المبلغ العائنة كي يمانوا البرية.

سير الرحلة من المخا إلى بومباي

من بين السفن الهندية والإنكليزية كلها، التي وصلت هذه السنة إلى الخليج العربي، لم يبق هه إلا سفينة السيد سكوت التي كان سفنادر على متنها كان السيد سكوت يعيد العودة سريعاً إلى الهند، خاصة وأن الرياح تشهد تغيراً ملحوظاً غير أن تجار المخا لم يتمكنوا من تسديد المبالغ الكبيرة التي يوجب عليهم إرسالها إلى الهند وبعد أن دفعوا أجرة السفينة، قبل السيد سكوت تأجيل الإبحار إلى ظهر ٢٣ آب/أغسطس. غير أن السيد كرامر والسيد يورغايد، وخداما الأوروبي، كانوا مرضى جميعاً متوقعين ولا أحد سواي قادر على السفر.

وفي ٢٣ آب/أغسطس، استعدّ الرتلان ج. مارس للإقلاع؛ ولكن الرياح القوية معتنا من الإبحار، كما وأن الحرارة انخفضت بصورة ملحوظة، إذ انخفض بحر مهنهايت إلى ٨٣ درجة، بينما لم يتعد ليلاً ٨٨ درجة وبعد الرابعة من بعد الظهر، هدأت العاصفة بعض الشيء، فتمكنا من الإقلاع؛ ولكنها لم ليثت أن عصف متآخره معيقة بذلك سير السفينة. وفي صباح ٢٤ آب/أغسطس، تحسنت حالة الطقس. وبعد أن قست ارتفاع الشمس في خط انبهاجرة، وجدت أن السفينة تقع على خط العرض ١٢°، ٥'، ولما كنا على مسافة ١ أو ١٢ دقيقة شمالي باب المدب، استطعت أن أقيس عرض هذا المصيق الشهير بسهولة.

فظهر لي أن عرض خمسة أميال في البقعة الأكثر ضيقاً وتقع في هذا المصيق جزيرة بريم (Perim)، التي تبعد ميلاً تقريباً عن الساحل الإفريقي؛ ويبلغ طول هذه الجزيرة ٤/٣ ميل، وهي نصف مرفأ كبيراً. ومع تقدما جنوباً، شهدنا قرب الشواطئ الإفريقية جبراً صغيرة كثيرة، رصبتها كلها في اللوحة ٢٠ من كتاب وصف شبه الجزيرة العربية. ولفت انتباهي ارتفاع الجبال المحاذية لساحل الإفريقي على عكس أنوف الجبال المخارحة منها والداحية في البحر، في شبه الجزيرة العربية. وتعبير السفن عادة الفضاة الواقعة بين بريم والساحل الإفريقي؛ غير أن مجرى المياه كان قوياً للعباءة، والرياح كانت عاصفة جداً تعصلد الاتجاه بحر الفتاة المريضة الواقعة بين الجزيرة والساحل الإفريقي؛ وأتيح لنا بالنائي الفرصة للسير عكس الرياح دون أن نخشى شيئاً.

وسأنتقل بكم الملاحظات التي درّنتها خلال عبوري باب المدب؛ أما بالنسبة لمسؤال اندي أرمه لنا أحد الورراء الألمان بشأن الآثار التي تثبت أن طرفي كل من شبه الجزيرة العربية والحيشة، كان يلتقيان في مضيق جرفته المياه أو هدسته الزلزل؛ فإني أعترف بمجزى عن إعطائه رداً حاسماً؛ ولا أظن أن الرحالة

على استعداد لإعطاء أجوبة مرضية على هذا السؤال وعلى الأسئلة الأخرى التي وجهها لنا السيد باستور، إلا بعد مراجعة دراسات الشرقيين وملاحظاتهم^(٥).

وتم نستطيع أن نثبت بعد، تحدر الحبشيين من الأصل العربي، علماء أنهم من الروح، وقد أكدوا في أن العرب المقيمين عربي الخليج العربي لم يقربوا بالحبشيين، وأنهم احتفظوا دوماً بشريتهم البيضاء ويسعى بعض العلماء أن ينقش الحار أدنى إلى اكتشاف سلاله البرنعميين المقيمين على الضفة الشمالية للنهر الأسود؛ وشاهدت في الهند عدداً من هؤلاء البرنعميين الروح؛ لكن إن كان الصقس الحار يؤدي إلى اكتساب هذا اللون الأسود، لماذا احتفظ البرامايون والابايون وغيرهم من الشعوب الذين يتعاقدون الارتباط بالأجانب، بشريتهم البيضاء رغم أنهم يعيشون في منطقة ساحية حارة، شأنهم شأن روج أفريقيا وسواحل مالابار؟ وإن تسوروا الشكوك في مسألة اختلاط العرب والحبشيين بحيرانهم في الأيام بعدرة فعينا أن نلقي نظرة على كتاب (وصف شبه الجزيرة العربية)، حيث وصفت مركب صيد مستعمل في القرون الأولى لصور باب للتدب وصولاً إلى الخليج العربي.

ثم في ٢٥ آب/أغسطس ١٧٦٣، دخلنا في القناة التي تصل الخليج بالمحيط، على خط العرض ١٢°، ١٩. كانت تقع تحت أنظارنا سواحل القاريين. فصلاً عن رأس لقديس أنطونيوس، الواقع على بعد ٢١ دقيقة من الجهة الشمالية الشرقية، أي على خط العرض ١٢°، ٣٢.

وفي ٢٦ منه، رأينا السواحل الإفريقية وسواحل شبه الجزيرة العربية، انطلاقاً من خط العرض ١٢°، ٢٢. وكانت الرياح تلام مع خط سيرنا، حتى أننا استطعنا الانحراف قليلاً نحو الشرق. ولاحظت في ٢٧ أننا تقدمنا شمالاً بمصر الشيء؛ فتابعا سيرنا بخط مستقيم، إلى أن رأينا صباح ٢٨ لجبال على الساحل الجنوبي؛ وكنا عند الظهر قد بلغنا خط العرض ٢°، ٥. فبحرنا بعد الظهر باتجاه الشرق، ولاحظت ليلاً أن ارتفاع القطب لم يتعد ١١°، ٥٨. عمداً أنني قسست السر الواقع شعباً وانعقد جنوبي الست.

ولقد لاحظت الرحالة الآخرين، الذين وصلوا رحلتهم إلى المحل، سرعة مجرى مياه هذه القناة؛ وهذا ما أثبتته ملاحظتنا لأنه كان يدعنا تارة صوب الشمال وتارة صوب الجنوب؛ غير أن سرعته حمت مع طلوع النهار.

(٥) لما كانت أسئلة هذا العالم لم تطع بعده سادرجها في كتابي هذا.

١ كتب رئيس قصبة موثيم ما يلي يقول العلماء الأورون إن الحبشيين هم من أصل عربي، رجاء بحث كاليه حول الكتاب المقدس، الجزء الأول. فإليككم الأسئلة التي نأنت عن هذا الرأي (١) إن كان الشعب الأول الذي بد الطوفان قد كثر في هذا المكان (٢) إن تروى الحبشيين الأرائل للاعتناء والفره والتي من قبل العرب، فهذا البلد قد عثر ثابته (٣) متى حصل ذلك؟ (٤) كيف وصل العرب إلى الحبشة؟ (٥) هل وصلوا برأ أم بحر؟ (٦) وإن وصلوا بحرأ، هل اجتازوا البحر الأبيض المتوسط، ومصر، والسودان؟ (٧) هل نجد آثاراً تحت ذلك؟

في ٢٩ منه، كما على خط العرض ١٢°، ٤٠'، وفي ٢٠ منه، على خط العرض ١٣°، ٢٩' جنوبي رأس غردافة.

وكانت صحة السيد كرامر تتحسن منذ إبحارنا. أما السيد بورفابند، فكان مرضه يزداد سوءاً إلى أن بلغ منه مبلغاً، ولم يعد قادراً على الإجابة على أسئلتنا؛ وسترسل بعدها في سيات عميق. لم يكن يستعيق منه إلا لتناول الأدوية والطعام. غير أنه ما لبث أن أسهم الروح في ٢٩ آب/أغسطس عند الساعة الحادية عشرة مساءً.

ولا داعي لأن أنهي على أعمال هذا الفصل، المنشأة في هذا الكتاب، والتي تشهد على مهارته وفعاليته. غير أنني أسف جداً، لعدم تمكنه من العودة إلى الدائرك، ليقدّم أعماله بتقصه سدس

كان خادماً يبرعون مرهناً جداً عند صعودنا إلى الباحرة؛ وقد عمل في خدمة رجل سويدي، قاد حروباً عدة ضد البروميين. وعند معادرتنا من كوبنهاغن، كان يحمي بيته بقوة قادرة على احتمال متاعب الرحلة إلى شبه الجزيرة العربية؛ غير أنه ما لبث أن أصيب بالمرض ولغظ أنفاسه الأخيرة في ٣٠ آب/أغسطس؛ فوصيت أحشون في البحر.

وبعد عبورنا رأس غردافة، تنقلنا إلى ساح مختلف كيباً، فالهواء كان بارداً للغاية إلى حد أننا لم نلبس ملابس مسبكة. وكان الهواء شمالياً غربياً من باب المندب إلى رأس غردافة؛ غير أنه كان جنوبياً غربياً من هنا إلى ساحل مالابار؛ وإن كان الرتيان متحكماً، استتباع أن يحدد موعد وصول السفينة إلى سوربات أو بومباي، ما إن يبلغ رأس غردافة.

ويُدعى الإنكيز الذين عبروا عدة مرات من ساحل مالابار إلى الخليج العربي، أن المسافة التي تفصل بين بومباي وباب المندب تقع على خط الطول ٣٠ درجة؛ غير أن هذه المسألة لم تتعد ٢٦ درجة في طريق العودة، نظراً لسرعة مجرى النهر، الذي كان يدفعهم نحو الشرق. أما السفن الأوروبية الأولى، التي أبحرت بهذا الاتجاه، ولم تستطع العثور على ساحل مالابار بفعل الأمطار والغياب، فقد تعرضت لخطر العرق على سواحل بلاد الهند. ولكننا نستطيع اليوم القيام بهذه الرحلة، دون التعرض لأي خطر، لأننا نشاهد شرقي بومباي في قمر المياه. وغربها أفاف مائية، يتراوح طولها بين ١٢ و ١٨ بوصة، تظهر على سطح المياه. فما إن يبعد الرابطة ٢٤ درجة شرقي باب المندب، يبدؤون بالبحث عن هذه الأفاعي التي تشير إلى اجتماعهم عن الساحل درجتين تقريباً^(٥).

شاهدنا الأفاعي المائية لأول مرة في التاسع من أيلول/سبتمبر؛ بعد الوحدة من بعد الظهر. كان عمق المياه يبلغ ٥٣ باعاً؛ ومع اقترابنا من السواحل، راح مستوى المياه ينخفض. حرص الرتيان على التقدم

(٥) تشير الرتيان إلى هذه الأفاعي المائية في كتابه، ص ٢٢ - ٢٣.

شمالاً، لأن الرياح الجنوبية كانت تعيق غمبة الإسماء. وبعد عشاء وحيد، ألقينا المرساة في ١١ أيلول/سبتمبر في مرفأ بومباي، ودخنا إلى المدينة. صباح اليوم التالي.

علم القراء أن مدث سرديبا، أرسل إلى البندان الشرقية، محمّره من العلماء، أنذروا خلافاً حادة ضد وصولهم إلى الإسكندرية في مصر. ولم يسمح إلا للسيد دوناتي، الذي كان يترأس المجموعة، بمتابعة الرحلة يسماً عاد الآخرون إلى أوروبا. ويبدو أن أحداً لم يسمع شيئاً عن السيد دوناتي، حتى العام ١٧٧٦، لذلك وجدت نفسي محيراً على ذكر الموضوع فالذي أتيت بهم فرصة التعرف على هذا العالم، في الشرق، بشو على مهارته في التاريخ وعلى فعالته في الأبحاث الأثرية، وأخبرني «نقص فيرو» في القاهرة القصة التالية. وصل السيد دوناتي إلى القاهرة، آتياً من الإسكندرية؛ وعبر بعدها النيل ليصل إلى مصر العليا وفي أحد الأيام، عاد سعيدته ليرسم بعض الآثار، فاجتمع فرسان عربان طريقه؛ فتوسل إليه خدمه وبعض التجار «مراقبين به»، أن يعود أدرجه، حتى لا يقع ضحية هدين الصينيين؛ غير أنه تابع الرسم، يسماً عاد رفاته إلى السفينة. انقص الفرسان على السيد دوناتي، وحدوا ضربه برماحهم؛ ولكنه كان مسترسلاً للعاية في الرسم إلى حد أنه لم يهرع «هشماً». ولم تظهر عليه بوادر الخوف مهما. فتعجب الفرسان من تصرفات هذا الرجل؛ فترجلا عن جواديهما، وجلسا بقربه، إلى أن أنهى الرسم، وتركاه بعدها يعود سعيماً معافى إلى سفينة. ومن الناس غالوا في رواية هذه القصة، غير أن السيد دوناتي تابع أبحاثه بثقة وشباط؛ وعلى كل رحالة ينبغي الاستعادة من رحلة بمائة أن يحدو حدوده.

قبل ستة أشهر من وصوله إلى القاهرة قصد السيد دوناتي دمشق، ومنها إلى بغداد وإلى البصرة برفقة خادم إيطالي. وشاب من القاهرة يجيد اللهجات الشرقية كلها. ربما وصوله إلى البصرة، أبحر برفقة أربعة رهبان كرمليين إلى مسقط، على متن زورق إقناد صغير، عندما أنه لا تكثر في ذلك الفصل العمر للمدرة إلى الهند. وبعد أن ملّ من مسقط، أبحر ثانية برفقة الرهبان المذكورين آنفاً، باتجاه مرفأ ميسور. على ساحل مالابار غير أنه مرض في الطريق، وأسلم الروح بعد ثلاثة أيام، قبل أن يبلغ مركبه المرفأ المذكور. ترك دوناتي مبعثاً من المال لترجمانه، حتى يتمكن من العودة إلى مصر، ولخدمته، ويعود إلى إيطاليا؛ فقصد بومباي، ومنها إلى مسقط، قبل بضعة أشهر من وصولي إلى المدينة. قيل لي في البصرة إن تاجراً إنكسرياً «مصطحب الترجمان» معه إلى حلب أما الخادم الإيطالي فحضر جزءاً كبيراً من أمواله في بومباي، واعتنق الإسلام في مسقط.

يبدو أن السيد دوناتي اتحد الإجراءات اللازمة، لبيع بلاده بأحر أحواله، ويرسل إلى إيطاليا أوراقه وأمواله مع الرهبان الأربعة. ولقد قبلت بي بومباي أحد الرهبان الكرمليين، الذي أكد لي أنه سلم أغراض السيد دوناتي إلى السيد فيرير. مما يشير إلى أنهم لم يستلموا شيئاً في تونس، كما وأنه لم يعرفوا شيئاً

عن أخبار هذا العالم العظيم، وشاع في إيطاليا أنه رحل إلى بلاد فارس حاملاً معه أمواله كلها، واعتنق الدين الإسلامي.

ولما كان من الصعب العثور على الأوراق التي بركها لسيد دوباتي، علماً أنه تم استجواب الرهبان الكرميين، الذين قصدوا عام ١٧٦٢ أو ١٧٦٣، ساحل مالابار، فضلاً عن نائب ملك عوا، يمكننا الاضمار أن عقبات ملك سرديبا على هذه المجموعات قد ذهبت سدى. أما بالنسبة إلى مجموعتنا، فلم يصل منا إلى يومي، سوى السيد كرمير وأنا. غير أن موت ما لبث أن سبى ريمقي في السفر، بعد بضعة أيام من وصولنا إلى هذه المدينة. مع سبق بالتالي من المجموعة التي أرسلها ملك الدنمارك إلى شبه الجزيرة العربية سوي أن غير أنني أرجو أن لا تؤثر هذه الأحداث على حب الملوك بدعم هذه الرحلات أو على حماسة العلماء بقيام بها. فلو لم يسرع السيد دوباتي بالذهاب إلى الهند، ولو كنا متحيزين ضد الركام، ولو حاولنا أن نعتاد على طريقة عيش الشرقيين؛ وبو أظهر أمرود هذه المجتمعات انفتاحاً أكبر تجاه بعضهم بعضاً ولم يعرفوا سير رحلاتنا، لعدنا جميعاً إلى أوروبا. ولعترض أن متنا في هذه الرحلة، فإنه لبحر لنا أن نقصي في سبيل العلم وإن عدنا سالمين إلى بلادنا استرجعنا بالذاكرة المتعذب التي وجهناها، والشعوب التي عرفنا عليها، والتي تختلف صورتها كلياً عن تلك التي وصفتها لها الأوروبيون.

وفي هذه المناسبة، سأقول لكم قصة عالم آخر، أرسلته فرنسا إلى الشرق، ولم يسع به أحد في أوروبا الشمالية. كان هذا العالم يدعى سيمون، وهو عضو في جمعية العلوم في باريس، ويعمل عالماً بالطبيعية وصيداً وعالم فلك؛ 'بحر هذا العالم من فرنسا إلى حلب وحاول مرابطوه المقيمون في هذه منطقة، أن يجعلوا إقامته فيها ممتعة. غير أن رحلته ليست بهدف الاستمتاع برفقة الرعايا الأوروبيين. فقرر عندئذ الانتقال إلى ديار بكر، عنه يستطيع متابعة أبحاثه من غير زعاج. فم يقابل في هذه المنطقة سوى رهبان كوشيين استقبلوه في ديارهم بالترحاب؛ غير أن هذه الجماعة كانت تعني من الانشغال؛ وأحد الرهبان يعصرون على السيد سيمون عيشه، خاصة بعد أن لاحظوا أنه يجني أموالاً حائلة من ممارسة الطب، مقارنة بملكاسب التي يحبوها. ولم عجز السيد سيمون عن تحمل تصرفات الأوروبيين معه، قرر اللجوء إلى الجامع الأكبر وعشاق الإسلام. فبذل الرهبان الكوشيون قصارى جهدهم لشيء عن مراده. غير أنه أصبر على الخضوع لعملية الختان ولعله ظن أن الأتراك سيعفون عيبه المذم، نظراً لتهارته، التي لا مثيل لها في بلادهم. ورغم أن الأتراك سمحوا له بمدرسة مهتة بحرية، إلا أنهم لم يكفوا عن احتقاره لأنه ارتد عن دمه وحان بلاده. وبعد ذلك، انتقل السيد سيمون إلى بغداد حيث كان يبيع العقاقير، ويمارس الطب. ورغم كل ما جرى له، لم يعبء حبه لمهته وعمته. وفي تلك الحقبة كان بلاد فارس تعاني من الحروب المدنية، فقد اكتسب أحد الأطباء العرس واسمه نادر شاه لقب حاكم، وحاول العرس بقيادته السيطرة على عدة أمالهم مثيرين بذلك حروباً دموية. ثم أصاب المرض الخاف، بعد أن استوى على إحدى

المذنب، المحاربة للحدود التركية؛ ولما علم بأمر الطبيب الأوروبي المقيم في بغداد، أرسل بطلب السيد سيمون، الذي رفض تلبية هذه الدعوة. فعصب الصابط الفارسي من رفض الطبيب طلبه هذا، وكان عاجزاً عن إخراجهم بالقوة من بغداد؛ لذلك استغل فرصة خروجه إلى الجبل لجمع الأعشاب وأرسل رجاله ليقتصوا عليه، وليرغموه بالقوة على معالجة الخان، لخطوره حالته و لجهده ذكره أن الفرس لا يدفعون أجراً للأطباء. وإن قضى المريض القوي اللوم على الطبيب المعالج. وبعد موت الخان، تعرض السيد سيمون للعرب ورجع في السجن. غير أنه أسلم الحكم في البلاد خان آخر، مصاب أيضاً بالمرض؛ ولم يعلم بوجود طبيب أوروبي في السجن أخلق سراحه على الفور؛ وبعد أن عالج، وساهم في شفائه، طلب الطبيب من الخان الإذن بالعودة إلى بغداد. فما كان من هذا الأخير إلا أن أبحر السيد سيمون على مرافقته في غزواته لبعضى الطبيب في واحدة منها.

ولقد أسف الأوروبيون، الذين تعرفوا على السيد سيمون لموته، الذي كتب لمسيير الفرنسي خلال إقامته في بلاد فارس، في «بصرة رسائل عربية للعناية، جعلت البعض يقول إنه مصطرب عقلياً، وعله قرر اعتناق الإسلام في ديار بكر، خلال إصابته بإحدى بوابته المشؤومة

سمر رحلة هولندي في مناطق يمنية لم تذكر في الصحاح السابقة

هذا الهولندي هو امرئذ نفسه الذي تحدث عنه في كتاب (وصف شبه الجزيرة العربية)؛ فقد عرّض علي الملاحظات الجغرافية التي نوبها خلال رحلاته في اليمن؛ ولاحظت أنه يصف فيها مدناً لم أرها، فطلبت منه نسخة عنها؛ وحرصت على ترجمتها من الهولندية وإدراجها في هذا الكتاب علماً أنها تروق لهواة علم الجغرافيا غير أنني سميت أن أدوّن اسم هذا الركن الطيب، لأنني أصبت بالمرض خلال إقامتي في انحاء والمجدير ذكره أنه دوّن في نهاية روثائه، الأحرف التالية (DWIR)؛ وهي تمثل الأحرف الأولى من اسمه.

I - الطريق المؤدية من صنعاء إلى بيت الفقيه عبر ريماء

عند معادرتك صنعاء، تقطع ثلاثة فراسخ تقريباً لتصل إلى قرية حوص اسبورة؛ وتعبّر بعدها وديناً وجبالاً، لتبلغ قرية ويسان (Weisan) الغنية بالمرروعات؛ وهي ملك عائلة إسحاق بن الإمام المهدي أحمد، صاحب شار. وعلى مقربة من قرية ويسان، تشاهد قصراً كبيراً، مبنيّاً على قمة جبل شاهق قطعاً بعدة طرقات وعرة، مرصوفة بمعظمها لتبلغ قرية صفة الصغيرة؛ وبرى على مقربة منها بغايا صرح قديم، وحجارة مقصوبة، معها بنقوش غريبة^(١). تمتد على بعد ثلاثة فراسخ تقريباً من صفة أراضي قاسية، تصم قرنتين صغيرتين، وتؤدي إلى بلدة مسجا، حيث يجد حائلاً لقوافل مسياً من الحجارة وتقع، على مسافة نصف فرسخ ضواحي مدينة دوران؛ يحدّها من الشمال سهل فسيح، ومن الشرق والجوب والعرب، مرتفعات وهضاب. وشق على الجبل الوعر، الذي تقع عليه المدينة، طريق مرصوف يصل إلى القمة؛ ويصادف في منتصف الطريق، باباً مطيلاً يشرف على مقر الشيخ حسان كالبالي. أما على قمة الجبل، مسجد جامعاً كبيراً، يحلّو فيه المتوكل إسماعيل بن قاسم الكبير، الذي يقدسه الناس؛ وعلى مقربة من هاء نجد صريح حسان بن قاسم الكبير، والإمام المجد بلال بن المتوكل؛ فضلاً عن محزين محفوريين في الصخر، يسميان جهنم والبو^(٢). يبلغ طول مساحة الجبل، يوم سفر بكامله؛ والثربة فيه محروثة جيداً

(١) أظن أنها النقوش، التي أثبت على ذكرها في كتاب وصف شبه الجزيرة العربية واعتبرها نقوشاً حجرية.
(٢) أعني أن هذين المحزين قد استعملا سابقاً كفتى للمساج الذي يمررون من هاء، أو كسفار، للقمع؛ وهي تسمى بهذا جهنم، أو ابن جهنم.

عند معادتنا دوران، نجد قرية صغيرة، على الهضار وقرية أخرى على اليمين، وبعد أن نسلك مسجداً وعراً، نصل إلى مقر بقيب من بيت الكرسي، ومنه نرى خان جرف ابن عامر، الواقع على حافة جدول صغير، بين الجبل في إقليم جميل، تكثر فيه مراعي النخيل، وسابع بعدها طريقاً برولاً، نسير سهلاً رملياً، ونصل إلى مصيق بيت ابن عامر؛ ويبلغ طول هذا المصيق الواقع عمودياً، حوالي فرسخ تقريباً يسما يتراوح عرضه بين ست وثمان أقدام. ونقع بعدها على نهر راما الذي يسبح من هذا الأقليم، غير أننا اضطررنا لعبور النهر المذكور الذي تحته جبال وعرة حتى يبلغ خان رومان. وبعد أن قطعنا ثلاثة فراسخ، ومصاباً واردة متفرجة، ندنا مدينة العبيد؛ وهي بلدة كبيرة، تقع على تلة حصينة بالقصح، وبمرار إلى

وبعد أن سرنا خمسة أميال ونصف من عبيد، ندنا مصيفاً ثنائياً الجبل، بعد فرسخين تقريباً عن بلدة سوق الحد. ومررنا لاحقاً بقرية لوما، وقرية سوق السب، وقصر شيخ سبعة الواقع على جبل شاهق، المخاض القوافل مبني من الحجارة؛ كما وأن قصر لدعو علي بن مصوق وقع على تقسم الأعلى من الجبل نفسه، وسلك الهولندي بعدها منحدرات كثيرة، ولاحظ في طريقه، أشجاراً غريبة؛ نكر من خلال وضعها لها، تبين لي أنها شجرة التين المعروفة في الهند، التي تكثر عليها حشرة المداير؛ وشاهد أيضاً على هذه الطريق مساتين يسمو بهن ابن تخادي مفهى سفل (Sochol). ومرر بعدها بقرية مقبها النعم، ونقهي بيت الشفلي، ووادي دهبجان؛ غير أنه اتجه بعدها يمينا ليصل إلى خان سوق، بهال يتفرع من هذه المنطقة طريقاً واحدة تؤدي بيتاً إلى جبي وأخرى يساراً إلى قسمة؛ فمصل رحالب أن يتجه يساراً ليصل إلى مقهى عشب، ومنه إلى قصر مور (ManoYr). وبعد أن قطع فرسخين ونصف، شاهد على يساره، قصر متداعياً كثيراً؛ فتبع طريقه، يبلغ مقهى متاع. وبعد أن قطع الجبال والتلال المجاورة، وصل إلى بلدة قسمة حيث يقيم صاحب دولة هذا الأقليم؛ وبعد نصف فرسخ حوي غربي المدينة، يقيم الشيخ محسن بن أحمد الدين

يتميز الطريق المؤدي من قسمة إلى بيت المقهى بمنحدراته الوعرة، وسناتين النخيل الكثيرة، وقراه لشائرة ها وهناك ومنها قرية ميرة، وخال العرس. ومنه إلى قبة الشريف. وإن تابعا طريقنا إلى ألوح (Aludjse)، قطعنا طريقاً رملياً، يتحول إلى سبل حارب، خلال فصل الشتاء. تضم بلدة ألوح سولاً شعباً وحداً للقبائل؛ وهي تبعد فرسحاً على مقيا الدابة، وفرسخين ونصف عن أرض معطاة بالأشجار، تمتد بعد اجبال الوعرة التي نصل هذا الإقليم بنهامة.

يتميز الحقول المجاورة لجبال نهامة بنهاها بالبرروعات. وفي طريقنا من ألوح إلى بيت المقهى، عبر أولاً بقرية سعيد، الواقعة على بعد فرسخ من الجبل ونصف فرسخ حوي مطاحن وأصل أن قرية سعيد هذه هي قرية صعود (SauYd)، التي مررت بها في طريقي إلى حدي (Hadie)؛ وبما لا شك فيه أن هذا الهولندي، سلك الطريق نفسه الذي وصفته سابقاً، للوصول إلى بيت المقهى.

في الطريق من مدينة العبيد إلى قسمة يستطيع أن يسلك طريقاً محتصرة ومريحة؛ غير أن العرب يدعون أن هواها ملوثة، وبالتالي، لا أحد يمر بها، تسمى هذه الطريق وادي دهبان، وهي توصل منطقة سيمب عن مقاطعة أوتوما (Othuma). وتمتد إلى منطقة مسوار (Masuār)، ومنطقة دوبارا لتنتهي في منطقة جمان (Jāman)؛ وتقطع بعدة محدرات ومرمعات كثيرة، لتصل إلى منطقة ربل الشع (Zēi el Siva)، على سفح جبل قسمة النور. ويعد على هذه الطريق أربعة معاوي؛ نسي الهولندي اسم أولها أما البقية، فهي بيت الغريبي، الجوار مقر الشيخ صحي حسي الغريبي والجامع جميل من بقية، ومقبة مع، ومقبة السيمب.

II - الطريق المؤدية من قسمة إلى جي

لتذهب من قسمة إلى سوق الهان، عيب أن يسلك طريق عيب، وهي وعرة ومعظمها، ومنعرجة حول الجبال، وتؤدي إلى مقر المدعو الشيخ سيد بن معيد، وإلى قصر محمد بن معيد شقيق الشيخ المذكور وبعد أن نتجه نزولاً نصل إلى جامع صمير وحزان لسياء. وتقع على مفترق من هنا بلدة سوق لتلقب (Su'Yk el Telu'Yb)، على سفح جبل وعرة وعلى بعد فرسخ من هنا، بلدة جي حيث يقم صاحب دولة هذا الأقليم. ويغام كل نهار ثلاثة سوق شعبي؛ وأحيطت هذه البلدة بسور عالي وبني لها بابان.

III - الطريق المؤدية من جي إلى بيت الفقيه

يسلك الطريق من جي، شرقاً وتحد به من الجهتين قرى صغيرة، ويؤدي على مسافة فرسخ ونصف إلى فندق ابن هذان الجوار للجامع رائع. حيث بني حزان للبناء وبعد أن نضع فرسخين من الأراضي المروعة، نصل إلى قرية نسم فير النبي العلوي، الذي يحتفل بعيدة في شهر شعبان، وبعد أن نسير مائة ساعة، مروراً بوادي رباط المهري، نصل إلى بلدة كبيرة، يقام فيها سوق شعبي؛ ونشاهد على الجبل المحاذي لها، صريح النبي عمر المهري، الذي يعمره جامع جميل، فضلاً عن مقر المدعو زيد بو العيث المهري، الذي يهتم بالجامع المذكور، ويدير برلاً كبيراً، يندجأ إليه المسافرون للراحة ويمر بعده بلدة بيب، ومقبة الخادم، ومطاحن، لنصل إلى بيت الفقيه، ويمكن القول بالتالي إن جي تبعد مائة نهار ونصف عن بيت الفقيه (أخته يقصد نهارين ونصف).

IV - الطريق المؤدية من جي إلى سمفور

تسمى هذه الطريق بكثرة تعرجاتها حول الجبال، وهي تؤدي إلى بلدة قطفان، التي نسم حاناً لفوائل وبعد أن نعد عن الوادي، نصل إلى قرية سوق الجمعة الواقعة على سفح الجبل، ويمر بعدها قرية معية الغيل، لنرحل إلى سمفور. ويمكننا القول بالتالي إن هذه الطريق تحتاج نهاراً ونصف

٧ - الطريق المؤدية من صنعاء إلى قسمة عبر لومة

بعد مغادرتنا صنعاء، مررنا ببلدة حبش الصغيرة والمذكورة أعلاه، وبتقلنا بعد ذلك إلى بلدة سوق الآمس (Silk el Ass)، الواقعة على الجبل. حيث نكثر مراعى نخل وبعد مغادرتنا هذه المكان، بلغنا بلدة سوق الحد، ومنها إلى سوق الجمعة، التابعة لدوران. وبعد اجتيازنا مناطق جبلية وعرة، غنية بالأشجار، وصلنا إلى قرية لومة التابعة لنفوذ حاكم سوق السبت، ومنها إلى قسمة التي أنشئت على ذكرها سابقاً، ويمكن القول بالتالي إن صنعاء تبعد مسافة ثلاثة أيام عن لومة.

٧١ - الطريق المؤدية من دمار إلى دوران

خلال سفرنا من دمار إلى دوران، عبر في حوار بلدة حبران، وصل إلى قرية الخما (El KhaYma)، ومنها إلى قبائل (Kabatel). وبعد أن عبر سهولاً ومياه، وجدنا وعرة تصل إلى قرية مابر (Maber) حيث يقم عدد كبير من الساجين، وتقع على مقربة من هنا، قرية سجا، المحاذية لمدينة دوران.

٧٢ - الطريق المؤدية من صنعاء إلى صعدة

بعد مغادرته صنعاء، عبر بلاد همدان، التي تبعد نصف نهار عن بلدة حبران، ونهاراً بكامله، عن عمران وهذه لبلدة المسورة تقع في أرض (عرة)، جميلة وخصبة فيها بساتين، يقام قرب الباب الشرقي منها سوق شعبي كل أسبوع وبعد أن غمار منطقة سوية وخصبة، نزلت ببقاع البرق، بلغ بلدة حد المسورة، ومنها إلى دوبار، وجبل علا، وبعد على بعد نرسح منها، حان رهيد، المني على سطح جبل تقع على قمة بلدة بيت الأدهم.

يمتد الطريق من رهيد غرباً، إلى بلدة حمدة حيث يقدم سوق شعبي كل خميس. أما الطريق الشرقي الذي يمر بسوق رهيد ويحاذي الشمس مؤدي إلى ديار.

ويمتد من رهيد طريق آخر شمالاً نحو جبال مزروعة مروراً ببلدة سرا وقرية مهمة الواقعة على بعد نصف مرسح، وبرى شرقاً قرية جليدي (Djelledi) الكبيرة. إن تابعتا طريقنا عبر الجبال والسهول الحصنة نصل إلى قرين، تقع الأوى على منحدر وعرة، والكثيرة في سهل مبسط، وتسمى مقاس، وتحتضن نفود بني كلبان. ويجتاز بعدها قرية العصر المسورة. لتتابع طريقنا نحو قرية غوة، عندما أن القرى الصغيرة، تمتد الطريق من الجانيين. وننتقل بعدها إلى مدينة شامير التابعة لإمام صنعاء الذي عين سيدي ابن محسن، شقيق المرحوم الإمام المتوكل قاسم بن حسين، حاكماً عليها، وجدد ذكره أن منطقة شامير تقع في مناطق نفود بني سريم. وعلى مسافة أربعة فراسخ نصل إلى حان فيه بن عامر الذي يعد فرسخاً عن بلدة أسيرة. وتقع بعدها على مفر إقامة اندعو القريب حبلاخ بن نصر، من عائلة حاشد، وتسمى هذه

المطلقة بي شعر. ويصادف بعدها قرني معرفة وقاطرين، شرقي الطريق؛ ونمر في بلدة حود المسورة الواقعة بين جبلي الجمار ورومية في مناطق نفود بني أسعد. على بعد فرسخ ونصف شمالاً يصل إلى البلدة التي نقيم فيها عائلة النقيب علي بن واسر الأحمر الذي قطع رأسه في صنعاء. وإن تقدمنا في البلاد بهذا مقلنا الفوق؛ لتتوجه بعدها إلى بلدة شوان المفتوحة، والمجاورة لبقايا قصور الأئمة الذين حكموا صنعاء في الماضي. (تعود هذه البقايا إلى رص بني توبة الذين أضررت إليهم في كتاب وصف شبه الجزيرة العربية). وتقع عربي الطريق قريباً بوبان، وبيت التربة وبعد أن يجتاز جبل أسود، يصل إلى بلدة سوق الحرف، في إقليم سفيان، ثم على بعد نصف فرسخ من هنا تقع بلدة سبركة المسورة التابعة لعائلة جيش وبعد معادرتنا سوق الحرف نجد على مسافة أربعة أو خمسة فراسخ بلدة يركان على حدود إقليم سفيان.

يسمى الإقليم استمد من يركان إلى بلدة قدة (Kuddet)، أماب (Amaba)؛ وهو إقليم شبه خال من السكان وبشكل خطير على المسافرين. ثم نجد في منتصف الطريق خزاناً لمياه، اعتاد المسافرون على إلبيت بقره. وبعد أن تقطع نصف نهار في الأراضي الخصب، يصل إلى مدينة سعد المسورة، والتي تعوق صنعاء مسافة ولها ثلاثة أبواب: باب هادي، باب منصور، وباب القصر. وتضم قصراً كبيراً وحصناً ميباً فضلاً عن جامع مزين بقبة وضريح الإمام المهدي، بن الأبياء. ويقول صاحب هذه الرحلات إن معظم سكان هذه المدينة هم من النصوص والنصائين؛ وهم يرفضون منح حاكمهم يوسف بن قاسم مقر له في المدينة، علماً أنه يقطن على بعد نصف نهار عربي سعد. ويجد على مسافة فرسخين أو ثلاثة من سعد جامعاً كبيراً، يدعي العرب أنه ضريح أيوب، المعروف بصبره^(٥). تكثر في سعد صاخم الحديد؛ ويقال إنها تبعد سبعة أيام عن صنعاء.

VIII - الطريق المؤدية عن صنعاء إلى كوكبان

عند خروجنا من صنعاء نمر في بحر القرب، ومنه إلى خان مطيع، الواقع على حدود إقليم حمدان. وتقع على بعد فرسخين ونصف على خان طريفة الكبير. واجدير ذكره أن الجبل يحده الطريق من يمينها. وبعد أن تقطع حوالي فرسخ ونصف يصل إلى خان بيت النوم. ونمر بعدها بحدول صغير، وجبل شاهق، محاذيين لغربة صاكب، الواقعة في واد رملي؛ وننقل بعدها إلى بريح حجر سيد، التي تضم قصراً كبيراً. أما إقليم سيم فيتقع جنوبي الطريق، وإن تابعتا طريقنا، يصل إلى مشهي، على الحدود الفاصلة بين حمدان وكوكبان، وإن قطعنا مرسخاً آخر عبر أرياف مزروعة يصل إلى بلدة شيام المسورة والواقعة على سفح جبل وعرة. وشاهدنا خارج البلدة، بساتين جميلة وجامعاً كبيراً يضم قبر محمد بن حسين ابن سيدي أحمد الحاكم حالي، وإن قطعنا نصف فرسخ عبر طريق مرصوف، في جبل متعرج، نصل إلى مدينة

(٥) أوشدوي إلى صريح أيوب في شرقي شبه الجزيرة العربية، على صفحات التراث، في حوار هائل أو بال.

كوكبان، وهي مسورة من الشمال، ولها ثلاثة أبواب محصنة بثلاثة أبراج؛ مد يصع سوان، ولقد بنى الملك الحكيم، قصراً فخماً على جبل نغم، قرب صنعاء.

VIII - الطريق المؤدية من شبام إلى عمران

على الطريق المؤدية من شبام إلى عمران، تقطع أولاً بساتير حصص، ومنها ربي صاهق وعرة، لتصل على بعد فرسخ ونصف إلى بلدة ترلا، المنسورة، وهي تتميز بترجيها باب هندي وباب عمران؛ وبعد أيضاً هنا قصراً محصناً مبنيًا على صخرة وعرة، علاوة عن ضريح أحد أئمة الإمام الهادي، الذي دور في جامع في صعدة وعلى بعد فرسخ ونصف رولاً تصل إلى قرية دهال «مسورة»، ومنها إلى بلدة قريبي، بحيث يمتد الطريق عبر أرياف مرروعة، مروراً بقرية بجرا، ومنها إلى عمران، على بعد فرسخ تقريباً.

طريق كوكبان، عبر حشيش في تهامة

بعد معاودة كوكبان، تقطع حوالي ثلاثة فراسخ في سهل واسع، لتصل إلى مقهى محاذ للحدود صمبر. وشاهد في طريقنا، قرى صغيرة متعددة، مروراً ببلدة حوية مفتوحة، التي تصم قصراً محصناً مبنيًا على صخرة وعرة، وسوقاً شعبيًا. وبعد أن سبر حوالي فرسخين عبر طريق متعرجة تصل إلى قرية أخرى تصم حناً للعراقيل، غير أننا بسلك بعدها درباً سوياً ورمياً لحد على اليسار قصراً عالياً وتابع بعدها الطريق نزولاً، وسمر أراضي معطاة بالأشجار، يبلغ قرية واقعة شمالي الطريق. إلا أن الطريق امتد إلى إقليم حيثة يؤدي إلى قرية رجم، الواقعة على منحدر وعرة، ومنها إلى بلدة مهاود، حيث يجد نايبا نرى قديمة؛ وتعد بلدة مهاود من البلدات الكبيرة، ويقام فيها بهاري ثلاثاء والأحد، سوق شعبي؛ وإن تابعا طريقنا من هنا، شاهد بعض القرى على حافتي الطريق، وبعض الأراضي المعطاة بالأشجار لشجرة؛ وتصل إلى مقهى على حدود إمارة كوكبان؛ عبر أن الطريق امتدته من هنا، محفوفة بالشاطر، ومعطاة بالذبات لكيفة؛ وهي تؤدي إلى جبل وعرة يعرف بحش حماش (Hofasch)، بعد فرسخاً تقريباً عن مركز الحرم صاحب دولة سمكن، حيث يتم تفتيش المسافرين؛ وبعد هذا المكان حوالي فرسخين عن بلدة سمكن حيث يقم صاحب دولة إقليم حشيش.

تكثر الطرقات التي تؤدي إلى سمكن في تهامة؛ ومع واحدة منها عرباً، وتؤدي إلى حدود محافظة حشيش وتتفرع من هنا طريق باتجاه ولاج، مروراً بملهان. ملاحظة: تبعد صنعاء عن روضة مسافة خمسة أيام.

وتبعد روضة عن قطبة مسافة يومين، وتعز عن قطبة يومين تقريباً، وقطبة عن عدن ثلاثة أيام ونصف^(٩)، وتعز عن عدن أربعة أيام والمحا عن عدن ثمانية أيام.

(٩) لعل بدني روضة وقطبة شمال في جهة الجنوبية الشرقية كما أشرت على خارطة اليمن

ملاحظات حول الحة في كل من القسطنطينية والقاهرة وشبه الجزيرة العربية ويوحياي

إن محرّ دهرهايت الذي استعملته في سفرى كان من صنع توننغ وقد أشرف على صناعته البروفسور هولان وهو معروف بدقته الشديدة. أما محرّ ريومور فهو من صنع مارسيليا تحت إشراف السيد بومي وكان البروفسور كراتششتاين قد يوّ في القسم العاشر من دراسات الأكاديمية الملكية للعلوم في كويهاغن (ص ٣٢٩) وفي كتاب الفيراء (ص ٣٠٠) أن محرّ ريومور الجديد لا تتفق نتائجه مع محرّ ريومور الأصلي. أما عن الملاحظات القلبية التي قمت بها حول محرّ ريومور فقد حولها إلى مقياس فهرهايت لكنني لن أذكرها هنا

وفي دراساتي كافة كان المحرّ معلقاً في الهواء الطلق وفي الظل في بيرأ (Pera) علقته على نافذة مفتوحة باتجاه الشمال الشرقي تقريباً وفي القاهرة وجهته نحو حوب الجنوب الشرقي وفي حدة نحو غرب الشمال الغربي وفي حية وبيت القفيه نحو الشمال أما غرسي في الحما فلم تكن تسمح بهذه الدراسات. لذا كنت أصع المحرّ كل يوم عند الظهر في عرفة على مصطبة المنزل ركبت أصع الرأء والأبواب كي أسمح للهواء بالدحول بحرية. فكنت أعنفه في الصباح وأخرجه من البيت أثناء الليل وبما أن الشمس هي المصدر الأساسي لحرارة الجو، وبما أن القراء لا يعربون بالصرورة تحديد موقعها خلال فترة رسمية ما وفي مكان محدد، قررت أنه من الصرورة أن أحدد في كل جدول درجة ابتعاد الشمس عن سمت المدة التي قمت فيب بوضع هذه الملاحظات.

تدوين السيد كرايمر في السويس لدرجات الحرارة
وفقاً لمحز فهرنهايت خاصتي أثناء رحلتي إلى جبل سيناء عام ١٧٦٢.

الوقت	ارتفاع المحز عند الصباح	ارتفاع المحز عند الظهر	ارتفاع المحز عند المساء	الضباب في السويس
أيلول ٥	٥٨٤	٥٩٤	٥٨٨	
٦	٨٦	٩٨	٨٢	
٧	٨٤	٩٦	٨٠	عند الصباح الباكر
٨	٨٠	٩٤	—	
٩	٧٦	٩٦	٨٠	عند مساء
١٠	٧٤	٩٨	٨٤	عند مساء
١١	٨٠	٩٨	٨٥	عند مساء
١٢	٨٨	٩٨	٨١	عند مساء
١٣	٧١	٩٤	٨٩	عند الظهر
١٤	٨٠	٩٢	٨٦	
١٥	٨٠	٩٢	٨٠	عند الصباح الباكر
١٦	٧٦	٨٢	٨٠	
١٧	٨٠	٩٢	٨٦	
١٨	٧٢	٩٠	٨٨	
١٩	٧١	٩٦	٨٤	
٢٠	٧٨	٩٨	٨١	
٢١	٧٠	٨٤	٨٢	طيفه بعد الظهر
٢٢	٧٢	٨٤	—	طيفه بعد الظهر
٢٣	٧٤	٨٤	٨٠	طيفه بعد الظهر
٢٤	٧٦	٨٠	—	طيفه بعد الظهر
٢٥	٧٠	٨٦	٨٠	
٢٦	٧٢	٨٢	٧٨	

ملاحظات حول الجو في كل من القسطنطينية والقاهرة وشبه الجزيرة العربية وبويناى

درجات الحرارة وفقاً لمحور فهرنهايت في القاهرة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٧٦٢

البرم	ساعات الصباح	ارتفاع الحر	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحر	ساعات المساء	ارتفاع الحر	الرياح
٣	٧	٧٨	٢	٨٨ ٢/١	١٠	٨٣ ٢/١	
٤	٧	٨٠	١٢	٨٦ ٢/١	—	—	
٥	٧	٧٧	٤	٩٠	٩	٨٢	
٦	٧	٧٩	١	٨٦ ٢/١	١٠	٨١	
٧	٧	٧٨	١	٨٤	٨ ٢/١	٨	
٨	٧	٤٧	٩	٨١ ٢/١	—	—	
٩	٧	٧٤	٥	٩١	٩ ٢/١	٨	
١٠	٧	٧٦	٦	٨٥	٨	٨٣	ش-خ
١١	٧	٧٨	١	٨٤	٩	٨	
١٢	٦ ٢/١	٧٥ ٢/١	١	٨٥	٩	٨١	
١٣	٣	٧٨	١	٨٥	٩	٨١	
١٤	٣	٧٨	١	٨٦	٩	٨	
١٥	٧	٧٩	٢	٩٠	٩	٨٣	
١٦	٧	٨٠ ٢/١	٢	٨٨	٩	٨٣	
١٧	٧	٨١ ٢/١	٦	٨٤	٩	٨	ج
١٨	٨	٧٥	١	٨٦	٨	٨١	ج
١٩	٨	٧٧	٢	٨٧	١٠	٧٤	ج
٢٠	٧	٧٣	١	٨٤	٩	٨١	ج
٢١	١	٨٢	—	—	٩	٧٩	ش-خ
٢٢	٧	٧٧	—	—	٨	٨	
٢٣	٨	٧٦	٢	٨٥	٩	٨	ش-خ
٢٤	٨	٨١	٢	٨٥	١	٨٦ ٢/١	حد نهاية الشهر
٢٥	٨	٨٠	٢	٨٧	—	—	كان يراوح بين
٢٦	٨	٨٢	٣	٨٩	٩	٨٢	الاحتواء والحرى
٢٧	٧	٨١	١	٨٥	٩	٨٢	
٢٨	٨	٨١	٣	٨٦	٩	٨٢	
٢٩	٧	٧٧	١	—	—	—	
٣٠	٧	٨١	٢	٨٩	٩	٨٢ ٢/١	

تسجل من جده بينه ٢٨° و ٢١° عن القطب. في ٣٠ س ٢٨ نوفمبر كان الشمس تبع عن السميت بمسافة ٤٢° ١١

درجات الحرارة وفقاً لمحز فهرهايت في جدة في بداية شهر كانون الأول/ديسمبر ١٧٦٢

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع اهر	ساعات بعد الظهر	ارتفاع اهر	ساعات المساء	ارتفاع اهر	الرياح
١	٧	٥٧٩	١٢	٨٦	٩	٥٨٤	ع.ع
٢	٧	٨١	٢	٨٦	٩	٨٢	ع.ج
٣	٧	٨٠	١	٨٨	٩	٨٢	ع
٤	٧	٧٩	١	٨٩	٩	٨٣	ع
٥	٧	٨٠	٢	٨٩			شرع
٦	٧	٧٩	١	٨٤	٩	٨٠	شرع
٧	٧	٧٦	١	٨٥	٩	٨٢	شرع
٨	٧	٧٧	١	٨٣	٩	٨١	شرع
٩	٧	٧٨ ٢/١	١	٨٤ ٢/١		٩	٨١ شرع
١٠	٧	٧٩	١	٨٢	٩	٧٨ ٢/١	شرع

ملاحظات محز ريومور حول الخليج العربي في جدة/البحر في شهر كانون الأول/ديسمبر ١٧٦٢، وقد سجلت على محز فهرهايت في المكان نفسه.

١٦	٦	٥٧٧	١٢	٥٨٧	—		١٦
١٧	٦	—	٧٦	١٢	٨٧	—	١٧
١٨	٦ ٢/١	٧٩	—	—	—	—	١٨
١٩	٧	٧٧	١٢	٨٥	—	—	١٩
٢٠	٧	٧٧	١٢	٨٥	—	—	٢٠
٢١	٦	٧٢	—	—	—	—	٢١
٢٢	٦	٧٩	١٢	٨٥	—	—	٢٢
٢٣	٦	٧٦	١٢	٨٥	—	—	٢٣
٢٤	١٢	٨٤	—	—	—	—	٢٤
٢٥	١٢	٨٢	—	—	—	—	٢٥
٢٦	٩	٧٦	١٢	٨١	—	—	٢٦
٢٧	٦	٧٦	١٢	٨١	—	—	٢٧
٢٨	٧	٧٧	١٢	٨٣	—	—	٢٨

إن المسافة التي كانت تفصل الشمس عن السم في ١٠ كانون الأول/ديسمبر ١٧٦٢ في جدة كانت توازي ٢٦°، ٤٤°.

درجات الحرارة وفقاً لمحز فهرنهايت في مخيطة في شباط، فبراير ١٧٦٣

الرياح	ارتفاع البحر	ساعات المساء	ارتفاع البحر	ساعات بعد الظهر	ارتفاع البحر	ساعات الصباح	الرياح
الرياح الشمالية الغربية	٥٧٦	١٠	٥٧٨	١٢	٥٧٥	٨	١
	٧٨ ٢/١	١٠	٨٢	١٢	٧٦	٧	٢
	٧٧	١٠	٨٢ ٢/١	١٢	٧٦	٧ ٢/١	٣
	٧٧		٨٢	١٢	٧٦ ٢/١	٧	٤
	٦١ ٢/١	١٠	٧٩	١٢	٧٣	٧	٥
	٧٥	١٠	٧٨ ٢/١	١٢	٧٢	٧ ٢/١	٦
	٧٦	١٠	٧٩	١٢	٧٣	٧	٧
	٧٨	١٠	٨٢	١٢	٧٤	٧	٨
	٧٨	١٠	٨٢	١٢	٧٥	٧	٩
	٧٧	١٠	٨٢ ٢/١	١٢	٧٦	٧	١٠
	٧٨	١٠	٨٢ ٢/١	١٢	٧٦ ٢/١	٧	١١
	٧٧ ٢/١	١٠	٨٢ ٢/١	١٢	٧٤	٧	١٢
	٧٩	١٠	٨٢ ٢/١	١٢	٧٥	٧	١٣
	٧٨	١٠	٨٢ ٢/١	١٢	٧٦	٧	١٤
	٧٩	١٠	٨٤	١٢	٧٥	٧	١٥
	٧٩	١٠	٨٤ ٢/١	١٢	٧٦	٧	١٦
	٧٩	١٠	٨٤	١٢	٧٧	٧	١٧
	٧٩	١٠	٨٤	١٢	٧٧	٧	١٨
	٧٩	١٠	٨٤	١٢	٧٦	٧	١٩

درجات الحرارة وفقاً لمحز فهرنهايت في الشهر نفسه في بيت الفقيه

٢٦	٧	٥٧٧	١٢	٥٨٢	١٠	٥٧٦
٢٧	٧	٧٧	١٢	٨٦	١٠	٨٠
٢٨	٧	٧٨	١٢	٨٨	١٠	٧٩ ٢/١

في ١٩ شباط، فبراير كانت الشمس في حرة على مسافة $٥٨^{\circ} ٢٦'$ من السميت في ٢٨ شباط/فبراير وكانت على مسافة $٢٨^{\circ} ٢٢'$ ، في بيت الفقيه.

درجات الحرارة وفقاً لمحز فهرنهايت في بيت القفيه في شهر نيسان/أبريل ١٧٦٣

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع المحز	ساعات الظهر	بعد ارتفاع المحز	ساعات المساء	ارتفاع المحز	الرياح
١	٧	٥٨٩	١	٩٩ ٢/١	١	٨٩	شمال غربي
٢	٧	٨٤	١	٨٥ ٢/١	١٠	٨٨	
٣	٧	٨٢	١	٩٧	١٠	٨٨	
٤	٧	٨٢ ٢/١	١	٩٧	١٠	٨٧ ٢/١	
٥	٧	٨٦	١	٩٢	١٠	٨٥	
٦	٧	٨٤			١	٨٦	
٧	٧	٨٢		٩٤	١	٨٧	
٨	٧	٨٠		٩٦	١	٨٧	
٩	٧	—		٨٢	—	٩٧	
١٠	٧	—	١	٩٨ ٢/١	١٠	٩٠	
١١	٧	٨٤			—	٩٥	
١٢	٧	٨٤	١	٩٥ ٢/١	١٠	٨٤	
١٣	٧	٨٢ ٢/١	١	٩٢	—	—	
١٤	٧	٨٠		٩٤ ٢/١	١	٨٦ ٢/١	
١٥	٧	٨٤	١	٩٤ ٢/١	١	٨٦	
١٦	٧	٨٤	١	٩١	١٠	٨٦	
١٧	٧	٨٢		٩١	١٠	٨٧ ٢/١	
١٨	٧	٨٤	١	٩١	١	٨٧ ٢/١	
١٩	٧	٨٤	١	٩٥ ٢/١	١	٨٨	

في ١٩ نيسان/أبريل عند الظهر كانت الشمس على بعد ٣٠° عن جنوب السم

ملاحظات حول الجو في كل من القسطنطينية وقاهرة رشيد البحرية انحرية روماني

درجات الحرارة وفقاً لمحور قهرنهايت في المحا في شهر أيار/مايو ١٧٦٣

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحر	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحر	ساعات المساء	ارتفاع الحر	الرياح
١	٧	٨٠ ٢/١	١	٨٨ ١/١	١	٨٤	رياح جنوبية
٢	٧	٨٣	١	٨٨ ٢/١	-	-	-
٣	٧	٨٤	١	٨٩	١٠	٨٤	-
٤	٧	٨٤	١	٩٠	١٠	٨٥	-
٥	٧	٨٤	١	٩٠	١	٨٥	-
٦	٦	٨٣	١	٩٠	١٠	٨٥ ٢/١	-
٧	٦	٨٤	١	٩٠	١	٨٥ ٢/١	-
٨	٦	٨٤	١	٨٩	١٠	٨٣ ٢/١	-
٩	٧	٨٣	١	٨٩ ٢/١	-	-	جنوبية وشمالية
١٠	٧	٨٥	١	٨٩ ٢/١	١٠	٨٥	-
١١	٧	٨٦	١	٩٠	١٠	٨٥	-
١٢	-	-	-	-	-	-	-
١٣	٦	٨٤	١	٨٩	٩	٨٥	رياح جنوبية
١٤	٦	٨٣	١	٨٩	٩	٨٦	-
١٥	٦	٨٤	١	٩٠	٩	٨٦	-
١٦	٦	٨٤	١	٩٢	٩	٨٥	-
١٧	٦	٨٥	١	٩٢	-	-	-
١٨	٦	٨٥	١	٩٢	٩	٨٨	-
١٩	٦	٨٤	١	٩٣	٩	٨٨	-
٢٠	٦	٨٤	١	٩٢	٩	٨٦	-
٢١	٦	٨٥	١	٩٥	-	-	رياح شرقية
٢٢	٦	٨٤	١	٩٣	-	-	-
٢٣	٦	٨٣	١	٩٤	١	٩٠	-
٢٤	٦	٨٦	١	٩١ ٢/١	١	٨٩	-
٢٥	٦	٨٦	١	٩٤	٩	٩٠	رياح شمالية
٢٦	٦	٨٦ ٢/١	١	٩٣	٩	٨٩ ٢/١	والإجمال
٢٧	٦	٨٦ ٢/١	١	٩٤	٩	٩١	-
٢٨	٦	٨٦ ٢/١	١	٩٦	٩	٩١	-
٢٩	٦	٨٧	١	٩٥	٩	٩١	رياح غربية
٣٠	٦	٨٣	١	٩٦	٩	٩١	-
٣١	٦	٨٣	١	٩٦	٩	٩٠ ٢/١	-

يلعب ارتفاع القطب في المحا ١٣° ١٩ . وفي ١ أيار/مايو عند الظهر كانت الشمس على مسافة ٤٥° ١ عن السميت وفي ٣١ منه كانت على بعد ٨° ٣٦ عن شمال السميت.

درجات الحرارة وفقاً لمحز لهرنهايت في جدة في بداية شهر كانون الأول/ديسمبر ١٧٦٢

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع المحز	ساعات بعد الظهر	ارتفاع المحز	ساعات المساء	ارتفاع المحز	الرياح
١	٦	٨٦ ٢/١	١	٩٥	٢	٨١	ش ع
٢	٦	٨٥	١	٩٤	٢	٨٢	ش ع
٣	٦	٨٨	١	٩٥	١	٩	ش وشرقي
٤	٦	٨٧ ٢/١	١	٩٥	١	٨٩ ٢/١	ش ع
٥	٦	٨٨	١	٩٤	١	٩	ش ع
٦	٦	٨٨	١	٩٦	١	٩٧	ش ع
٧	٦	٨٩	١	٩٢ ٢/١	١	٨٧	ش ع
٨	٦	٨٧	١	٩٤	١	٨٨	ش ع

في تمز في نهاية شهر حزيران/يونيو ١٧٦٣

١١	٦	٧٧	١	٨٧ ٢/١	٨	٨٣	
١٢	٦	٧٧	١	٨٨ ٢	٨	٨٣	
١٦	٦	٧٦ ٢/١	١	٨٧ ٢/١	٨	٧٨	
١٧	٦	٧٤	١	٨٦	٨	٩٧	
١٨	٦	٧٥	١	٨٦	٨	٨١ ٢/١	
١٩	٦	٧٦	١	٨٧	٨	٨٧ ٢/١	
٢٠	٦	٧٦ ٢/١	١	٨٧ ٢/١	٨	٧٩	
٢١	٦	٧١ ٢/١	١	٨٧	٨	٧٨	
٢٢	٦	٧٥ ٢/١	١	٨٦	٨	٧٨	
٢٣	٦	٧٥	١	٨٧	٨	٨١	
٢٤	٦	٧٨	١	٨٦	٨	٨٣	
٢٥	٦	٧٨	١	٨٧	٨	٨٣	

إن ارتفاع القطب في تمز يبلغ ١٢° ٣٤' وفي ٢٥ حزيران/يونيو كانت الشمس على بعد ٩° ٥٢' عن شمال السميت

خلال سفري من تمز إلى عسقاء لاحظت ارتفاع مستوى محز يومود

يومود	مهرنهايت
١٣	٨١ ٢/١
١ ٢/١	٥٥ ٢/١
١٩ ١/١	٧٦
١٨	٧٢ ٢/١
١٣	٦
٨ ١/١	٥٧

في ٢٩ حزيران قبل طلوع الشمس بتيل على سهل جوبان (Houbân)

في ٣٠ حزيران قبل طلوع الشمس بالقرب من بعد

بعد الظهر عند الواحدة تقريباً في محز (Mhazzas)

في ٢ تموز عند الظهر في منزل (Mensi)

في ٣ تموز في منزل قبل طلوع الشمس

في ١٠ تموز قبل طلوع الشمس في بزم

ملاحظات حول الجز في كل من القسطنطينية والقاهرة وشبه الجزيرة العربية وبوماي

درجات الحرارة وفقاً لمحز فهرنهايت في تموز/يوليو ١٧٦٣ في بحر القصب قرب صعاء

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع المحز	ساعات بعد الظهر	ارتفاع المحز	ساعات المساء	ارتفاع المحز
١٨	٦	٥٥٨	٢	٥٨	١٠	٥١٧
١٩	٦	٥٨ ٢/١	١٢	٨٥	١٠ ٢/١	١٥
٢٠	٦	٦١	١١	٧٠	-	-
٢١	٦	٦٠	٢	٨١	-	-
٢٢	٦ ٢/١	٥٨	-	-	-	-
٢٣	٦ ٢/١	٦ ٢/١	-	-	١	١
٢٥	٦	٥٧	١	٧٨	٣	٧١ ٢/١

درجات الحرارة وفقاً للمحز نفسه في اثنا في شهر آب/أغسطس ١٧٦٣

٦	٢	٩٥	١٢	٥٨٩	٥٨٩	٥٨٩
٧	٢	٩٥ ٢/١	١٢	٨٥ ٢/١	٨٥ ٢/١	٨٥ ٢/١
٨	٢	٩٧	٢	٨٨	٨٨	٨٨
٩	٢	٩٧	٢	٨٨	٨٨	٨٨
١٠	٢	٩٨	٢	٨٧	٨٧	٨٧
١١	٢	٩٨	٢	٨٨	٨٨	٨٨
١٢	٢	٩٩	٢	٩٠	٩٠	٩٠
١٣	٢	٩٩	٢	٩٠	٩٠	٩٠
١٤	٢	٩٥	٢	٨٩	٨٩	٨٩
١٥	٢	٩٥	٢	٨٨	٨٨	٨٨
١٦	٢	٩١	٢	٨٤	٨٤	٨٤
١٧	٢	٩١	٢	٨٤	٨٤	٨٤
١٨	٢	٩٢	٢	٨٩	٨٩	٨٩
١٩	٢	٩٢	٢	٨٨	٨٨	٨٨
٢٠	٢	٩٢	٢	٨٨	٨٨	٨٨
٢١	٢	٨٩	٢	٨٩	٨٩	٨٩

تبعد بحر القصب عن ارتفاع القطب $١٥^{\circ} ٢١'$ في ٢٤ تموز/يوليو، وعند الظهر كانت الشمس على بعد $٤^{\circ} ٣٥'$ من الست إلى الشمال وفي ٢٠ آب، وعند الظهر كانت تبعد صغر ٤٩° عن النقطة العمودية نفسها.

إن السيد بورمانيه هو الذي لاحظ في نهاية شهر آذار/مارس وبداية نيسان/أبريل ١٧٦٣ في بيت الغنيه ارتفاع مستوى ميران فهرنهايت المذكور في ص ٣٩٢ و ٣٩٣ (من النسخة الفرنسية) وفي هذا الوقت كنت أجول في الجبال وكنت أنقل من وقت إلى آخر ارتفاع مستوى ميران ريومور. وسلاحظ في هذا الإحار اختلافاً كبيراً في حرارة البقاع مختلفة من بلاد الإمام الصميرة.

رحلة الى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى

الارتفاع	ملاحظات	في ٢٨ آذار بعد الظهر يروح ساحة كنت في حيران على طريق عدين (Uddén)
٥٢٣ ٢/١	٥٨٥	وكان انحرى ينهر إلى ارتفاع
١٥	٦٦	في ٢٩ عند السادسة صباحاً في الوصفه (Wachfád)
٢٥	٨٨	في المكان نفسه عند الظهر
٢٠	٧٧	في ٣٠ عند السادسة صباحاً قرب عدين
١٧ ٢/١	٧١	عند الثانية بعد الظهر على جبل العالي بين عدى وجبه
٥٢	١٢	في ٣١ عند السادسة والربع صباحاً في جبل
١٠ ٢/١	٥٥	في ٢ نيسان عند السادسة والربع على بعد ميلين من شرق نهر على المسوق
١٧ ٢/١	٧١	في ٣ نيسان الساعة السادسة والربع في راحة شرقي نهر
١٧	٢	في ٤ نيسان الساعة السادسة والربع صباحاً في عود (Oude)

وفي ليلة وصنعاء دوتت اربعاعات البارومتر في ساعات معينة سأعاود كتابتها من لرى كيفية تحرك
الشعر صعوداً ونزولاً في هذا البلد

في ٢٥ كانون الثاني/يناير في معية		في ٨ غوردنولفو في معية	
الساعة	الارتفاع انحرى	الساعة	الارتفاع انحرى
٦	٧١ ٢/١	السادسة صباح	٥٨
٧	٧٥	٧ والنصف	٦١
٨	٧٧	٨ و ١٥ دقيقة	٦٧
٩	٨٠ ٢/١	٩ والنصف	٧ ٢/١
١٠	٨٢	١٠ ر ٤٥ دقيقة	٧٤ ٢٠١
١١	٨٢	الواحدة بعد الظهر	٧٦
١٢	٨٣ ٢/١	الثلاث	٨
١٣	٨٤	٣ و ١٥ د	٧٦ ٢/١
١٤	٨٤	٤ و ١٥ د	٧٦
١٥	٨٣	٦	٧٣ ٢٠١
١٦	٨٠ ٢/١	٧	٧٢
١٧	٨٠	٨	٦٨
١٨	٨٠	—	٦٧
١٩	٧٩ ٢/١	—	—

درجات الحرارة وفقاً لمحز فهرنهايت في بيرأ (Pera)
قرب القسطنطينية في شهر آب/أغسطس ١٧٦١

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع المحز	حد الظهيرة	ارتفاع المحز	ساعات المساء	ارتفاع المحز
١	٧	٧٩	١٢	٧٩	٦	٧٣ ٢/١
٢	٧	٧٧	١٢	٧٧	٧	٧٦
٣	—	—	—	—	٧	٦٦
٤	٨	٦٨ ٢/١	١٢	٧١	٧	٦٩
٥	٧	٧٣ ٢/١	١٢	٧٩ ٢/١	٨	٧٢
٦	٧	٧٨ ٢/١	١٢	٨٢ ٢/١	٦	٧٨
٧	٨	٨١	—	—	٨	٧٤
٨	٧	٧٨	١٢	٨٦	٦	٧٨ ٢/١
٩	٧	٧٩ ٢/١	١٢	٨١	٧	٧٦
١٠	٧	٧٩	١٢	٨٦	٧	٧٧
١١	٧	٧٩	١٢	٨٧ ٢/١	٧	٧٦
١٢	٧	٨٦	١٢	٨٦	—	—
١٣	٧	٧٦	١٢	٨٠	٨	٧٢
١٤	٨	٧٤ ٢/١	١٢	—	—	٧٨
١٥	٧	٧٢ ٢/١	١٢	٧٨ ٢/١	٨	٧٢
١٦	٨	٧٧	١٢	٨٠	٨	٧٢
١٧	٨	٧٢	١٢	٧٨	٨	٦٩
١٨	٨	٧٢	١٢	٧٧ ٢/١	—	—
١٩	٣	٦٥ ٢/١	١٢	٧٧ ٢/١	٧	٧٦
٢٠	٨	٧٦ ٢/١	١٢	٧٨ ٢/١	٧	٧٣
٢١	٨	٧٥	٨	٧١	—	—
٢٢	٨	٧٥	١٢	٨ ٢/١	٧	٧
٢٣	٨	٧٦ ٢/١	١٢	٧٨ ٢/١	٨	٦٩
٢٤	٨	٧٦	١٢	٧٥ ٢/١	٨	٦٨ ٢/١
٢٥	٨	٧٤	١٢	٧٦	٧	٧
٢٦	٨	٧٤	١٢	٧٣	٧	٧
٢٧	٨	٧٤	١٢	٧٩ ٢/١	٨	٧٢
٢٨	٨	٧٥ ٢/١	—	—	—	—
٢٩	٨	٧٤ ٢/١	١٢	٧٩ ٢/١	٨	٧٢ ٢/١
٣٠	—	—	—	—	٨	٧٥
٣١	٨	٧٦	١٢	٧٢	—	—

في بيرأ يبلغ ارتفاع القطب ٤١° ٢' . وفي ٣١ آب/أغسطس كانت الشمس على سدة ٣٢° ٣١' من السميت.

درجات لحرارة وفقاً لمحور فهرهايت في القاهرة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٧٩١

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحر	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحر	ساعات المساء	ارتفاع الحر
١٤	٨	٦٧	١	٧١	١١	٦٩
١٥	٨	٦٧	١٠	٦٩	—	—
١٦	٨	٦٧ ٢/١	١	٧٢	٦٩	٦٩
١٧	٨	٦١	١	٧٢	١	٦٨ ٢/١
١٨	٨	٦١	١	٧٣	٦٩	٦٩
١٩	٨	٦٦	٧	٧	١	٦٩
٢٠	٨	٦٤	١	٦٩ ٢/١	١٠	٦٧
٢١	٨	٦٤	١١	٦٥	—	—
٢٢	٨	٦٢	١١	٦٦	—	—
٢٣	٨	٦٢	١	٦٨	—	—
٢٤	٨	٦٤	١	٧١	٦٦	٦٦
٢٥	٨	٦٢	٢	٧٤	١	٦٤
٢٦	٨	٦٩ ٢/١	١	٧١	١	٦٤
٢٧	٨	٦٠	٢	٧١	—	—
٢٨	١١	٦٢	—	—	—	—
٢٩	٤	٦٠ ٢/١	٣	٧١	١١	٦١ ٢/١
٣٠	٨	٦١	—	—	١	٦١

وصلح ارتفاع القاهرة ٣٠٠٠ قدم . في ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر، وكانت الشمس على مسافة ٥١° من السميت.

ملاحظات حول الميز لي كل من القسطنطينة والقاهرة وشبه الجزيرة العربية روساي

درجات الحرارة وفقاً لمحرز فيرنهايت في القاهرة في كانون الأول ١٧٦٩

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الميز	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الميز	ساعات المساء	ارتفاع الميز
١	٨	٥٧	٢	٧١	٦٢	٦٢
٢	٨	٥٥ ٢/١	—	—	١١	٦١
٣	٨	٥٦	٣	٧١ ٢/١	—	—
٤	٨	٥٦ ٢/١	١٢	٦٦	١٢	٥٧
٥	١٠	٥٧	—	—	١١	٥٩
٦	٨	٥٥	٢	٦٤	١٢	٥٢ ٢/١
٧	٨	٥٣	—	—	١١	٥٠
٨	٨	٥٠	١٢	٦١	١١	٥٣
٩	٨	٥٢	٢	٦٢ ٢/١	١١	٥٤
١٠	٨	٥٢ ٢/١	—	—	١٣	٥١
١١	٩	٥٨	٢	٦٨	١٢	٥٧ ٢/١
١٢	٨	٤٩	٢	٦٥	١١	٥٣
١٣	٩	٥١ ٢/١	١	٦٥	١٠	٥٤ ٢/١
١٤	٨	٥٠	٢	٦١	١٢	٥٥ ٢/١
١٥	—	—	—	٦٢	١٢	٥٣ ٢/١
١٦	٢	٥١	١	٦٤	١٢	٥٦
١٧	٩	٥٦	٢	٦٧	١٢	٥٦ ٢/١
١٨	٩	٦٠	٢	٧١	١١	٦٢
١٩	٩	٦٦	٢	٧٢	١٢	٦١
٢٠	٩	٦٣ ٢/١	٢	٧٧	١١	٧١
٢١	٩	٦٨	٢	٧٤	١١	٦٥
٢٢	٩	٦٦	—	—	١١	٦٥
٢٣	٩	٦٠	٢	٦٤	١١	٥٧
٢٤	٦	٥٢	٤	٦٣	١١	٥٥
٢٥	٩	٥٥	—	—	١١	٥٧
٢٦	٨	٥٦	٢	٦٦ ٢/١	١١	٥٧
٢٧	٩	٥٧	—	—	١١	٥٧
٢٨	٩	٥٦	٤	٦١	١١	٥٧
٢٩	٧	٥٤ ٢/١	٢	٦٤	١٢	٥٤ ٢/١
٣٠	٨	٥٤	٢	٦٢	١١	٥٧
٣١	٨	٥٥	٢	٦٣	١١	٥٨

في ٣١ كانون الأول/ديسمبر، كانت الشمس تبعد $٥٣^\circ ٨'$ عن السمك.

درجات الحرارة وفقاً لمحز فهرهايت في القاهرة في كانون الثاني/يناير ١٧٦٢

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع المز	ساعات بعد الظهر	ارتفاع المز	ساعات المساء	ارتفاع المز
١	٨	٥٧	٢	٦٥	١١	٦٢
٢	٨	٥٦	٢	٦٣	١٢	٥٥
٣	٨	٥٢	٣	٦٤	١٣	٥٧
٤	٨	٥٦	٢	٦٤	١٢	٥٦
٥	٨	٥٥	٢	٦١	١	٥١
٦	٨	٥٦	٢	٦١	١٢	٥٨
٧	٨	٥٨	٢	٦٢	١٢	٥٢
٨	٨	٥٢	٢	٦١	١١	٥٣
٩	٨	٥٠	٢	٦١	١٢	٥٦
١٠	٨	٥٢	٢	٦٢	١٢	٥٦
١١	٨	٥٢	٢	٦١	١٢	٥٢
١٢	٨	٥٢	٢	٦١	١٢	٤٨
١٣	٩	٤٨	٤	٦٢	١٢	٤٨
١٤	٨	٤٧ ٢/١	٢	٦٢ ٢/١	١٢	٥
١٥	٨	٤٦ ٢/١	٢	٦٢ ٢/١	١١	٥١
١٦	٨	٤٢	٢	٦٢ ٢/١	١١	٤٨
١٧	٨	٤٨	٢	٦٢	١١	٤٨
١٨	٨	٤٨	٢	٦٢	١٢	٥٠
١٩	—	—	—	—	—	—
٢٠	—	—	—	—	—	—
٢١	—	—	—	—	—	—
٢٢	—	—	—	—	—	—
٢٣	٨	٤١	٢	٦٤	١١	٥٦
٢٤	٨	٤١	٢	٦٤	١٠	٥
٢٥	٨	٤١	٢	٦٥	٩	٥٣
٢٦	٨	٤٦	٢	٦٤	١٠	٥١
٢٧	٩	٥٣	٢	٦٦	١٠	٥٧
٢٨	٨	٥٦	٢	٦٩	١٠	٥٧
٢٩	٨	٥٧	٢	٦٩	٩	٥٨
٣٠	٨	٥٦	٢	٦٢	١١	٥٢
٣١	٧	٤٧ ٢/١	٢	٦٠	١٠	٥٢

في ٣١ كانون الثاني/يناير كانت الشمس تبعد عن السميت ٤٧° ٢٠'.

ملاحظات حول البحر في كل من القسطنطينية والقاهرة وشبه الجزيرة العربية وهولندي

درجات الحرارة وفقاً لمحز فهرنهايت في القاهرة في شباط/فبراير ١٧٦٢.

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الميز	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الميز	ساعات المساء	ارتفاع الميز
١	٧	١٨ ٢/١	٢	٥٥	١٠	٢٧
٢	٨	٢٢	٢	٥٦	١٠	١١ ٢/١
٣	٨	٢٢	٢	٦٠ ٢/١	١٠	٥٠
٤	٨	٢٩	٢	٦٩	١٠	٥٢
٥	٨	٥٤	٢	٦١	١١	٥٢
٦	٧	٢٨	٢	٦١	١١	٥٦
٧	٨	٥٣	٢	٦٧	١١	٥٦ ٢/١
٨	٨	٥٤	٢	٧٠	١١	٥٧
٩	٨	٥٣	٢	٧٢	١١	٦٢ ٢/١
١٠	٨	٥٢	٢	٦٨	١١	٥٥
١١	٨	٥٢	٢	٦٤	١٢	٥١
١٢	٨	٥٣	٢	٦٢	١١	٥٦
١٣	٨	٥٤	٢	٧	١٢	٥٩
١٤	٨	٥٣	٢	٦٤	١١	٥٦
١٥	٨	٥٢	٢	٦١	١١	٥٦
١٦	٧	٥٣	٢	٦٢	١١	٥٤
١٧	٧	٥١	٢	٦٤	١١	٥٣
١٨	٧	٥٠	٢	٦	١١	٥٣
١٩	٨	٥١	٢	٦٥	١١	٥٤
٢٠	٨	٥٤	٢	٦٧	١١	٥٧
٢١	٨	٥٥	٢	٦٨	١١	٥٥
٢٢	٨	٥٢	٢	٦٩	١١	٦٠
٢٣	٨	٥٩	٢	٧٢	١١	٦
٢٤	٨	٥٦ ٢/١	٢	٦٩	١١	٥٦
٢٥	٨	٥٣	٢	٦٨	١١	٥٧
٢٦	٨	٥٧	٢	٦١	١١	٥٩
٢٧	٨	٥٨	٢	٧	١١	٥٧
٢٨	٨	٥٤	٢	٧	١١	٥٧

في ٢٨ شباط/فبراير كانت الشمس تبعد عن السم ٣٧° ٥٤°.

ملاحظة: في ١ و٢ و٣ شباط/فبراير كنت في البحيرة أي بالقرب من النيل.

درجات الحرارة وفقاً لمحز نهر نهيت في القاهرة في آذار/مارس ١٧٩٢

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع المحز	ساعات بعد الظهر	ارتفاع المحز	ساعات المساء	ارتفاع المحز	الرياح
١	٨	٥٧	٢	٥٧	١١	٥٦	—
٢	٨	٥٤	٢	٦٧	—	—	—
٣	٨	٥٩	٢	٧٢	١٠	٦٢	ع.ج
٤	٨	٥٨	٢	٧٥	١	٦٨ ٢/١	ع.ج
٥	٨	٥٩	٢	٧٠ ٢/١	١١	٥٩	—
٦	٨	٥٥	٢	٧٠ ٢/١	١١	٦٢	—
٧	٨	٦٢	٢	٨٢	١١	٧٢	ج
٨	٨	٦١	٢	٨١	١١	٦٨	ن.ع
٩	٨	٦	٢	٨	١١	٦٨	شمال
١٠	٨	٦١ ٢/١	٢	٧٣ ٢/١	—	—	ن.ع
١١	٨	٦١	٢	٧١	١٣	٥٦	ن.ع
١٢	٨	٥٦	٢	٧٠	١١	٥٩	ن.ع
١٣	٨	٥٩	٢	٧	١١	٥٨	ن.ع
١٤	٨	٥٨	٢	٧٢	١١	٥٩	ن.ع
١٥	٨	٥٧	٢	٧٧	١١	٦٢	ع.ج.ع
١٦	٢	٨٠	١١	٦٨	—	—	ع.ج
١٧	٢	٨٥	١	٧	—	—	ع.ج
١٨	٨	٦٥	٢	٨٠	١١	٦٦	ع
١٩	٨	٦٤	١	٧٩	١١	٦٦	ع
٢٠	٨	٦٤	١	٧٧	١٢	٦٣	ع
٢١	٨	٦٢	١	٧٢	١٢	٥٩	شمال
٢٢	٨	٥٩	٢	٧٥	١	٦٤	ع.ج
٢٣	٨	٦٣	٢	٧٣	١١	٦	ع
٢٤	٢	٧٢ ٢/١	١	٥٩	—	—	ن.ع
٢٥	٨	٥٩	٢	٧٥	١١	٦٠	ع
٢٦	٨	٥٨	٢	٨٠	١١	٦٤	ع.ج
٢٧	٢	٨٦	١١	٦٧	—	—	—
٢٨	٦٦	٢	٨٦	١١	١٦	—	ش.ع
٢٩	٨	٦٤	٢	٨١	١١	٦٧	شمال جنوبي
٣٠	٨	٦٢	٢	٧٣	١١	٦١	غربي وشمال
٣١	٨	٦٢	٢	٦١	١٢	—	ع.ج

ملاحظات حول الجز في كل من القسطنطينية والقاهرة وحسب الجزيرة العربية روماني

درجات الحرارة وفقاً لمحرز فهرنهايت في القاهرة في نيسان/أبريل ١٧٩٢

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحرز	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحرز	ساعات المساء	ارتفاع الحرز	الرياح
١	٨	٥٩	٢	٥٧	١	٦٥	شمالي
٢	٢	٨١	١٠	٦٦	—	—	شمالي
٣	٨	٤٥	٢	٨١	١١	٧٠	شرقي
٤	٨	٦٤	٢	٨١	١	٦٥	شمالي
٥	٨	٦١	٢	٨٠	١١	٦٢	شرقي
٦	٨	٦١	٢	٧٣	١١	٦٤	ع
٧	٢	٧١	١١	٦٣	—	—	شرقي
٨	٨	٦٦	٢	٨١	١١	٧٠	شمالي
٩	٨	٧٢	١	٨٣	١٤	٦٦	—
١٠	٨	٦٦	٢	٨	١١	٦٥	—
١١	٨	٦٦	١١	٦٦	—	—	—
١٢	٨	٦٦	١	٧٦	١١	٦٦	شمالي ع
١٣	٨	٦٥	١	٧٨	١١	٦٣ ٢١	ع
١٤	٨	٦٦	٢	٧٧	١	٦٥	شمالي
١٥	١	٦٢	٢	٧٧	١١	٦٤	شرقي
١٦	٨	٦٤	٢	٨٢	١١	٦٨	شمالي
١٧	٨	٦٨	٢	٨٤	١١	٦٩	ع
١٨	٨	٦٧	٥	٨٠	١١	٦٨	ع
١٩	٨	٦٥	٢	٧٤	١١	٦٧	شمالي
٢٠	٨	٦٧	٢	٨٧	١١	٦٨	شمالي شرقي
٢١	٨	٦٨	١٣	٦٦	—	—	—
٢٢	٨	٦٦	٢	٨٣	١١	٦٨	ع
٢٣	٨	٦٧	٢	٧٨	١١	٦١	شمالي وشرقي
٢٤	٨	٦٥	٢	٧٩	١١	٦٣	شمالي وشرقي
٢٥	٨	٦٤	٢	٨٤	١١	٦٨	ع
٢٦	٨	٦٨	٢	٧٩	١١	٦٤	شمالي
٢٧	٨	٦٧	٢	٧٦ ٢/١	١١	٦٦	ع
٢٨	٨	٦٤	٢	٧٦	١١	٦٤	شرقي
٢٩	٨	٦٥	١	٦٦	—	—	شمالي
٣٠	٨	٦٦	١٠	٦٨	—	—	—

في ٣٠ نيسان/أبريل كانت الشمس على مسافة ٣٠° ١٣' عن الست.

درجات الحرارة وفقاً لمعز فهرنهايت في القاهرة في شهر أيار/مايو ١٧٦٢

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحر	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحر	ساعات المساء	ارتفاع الحر	الرياح
١		٦٥		٧١	-	٧١	شمالي وشرقي
٢		٧		٧٦		٧٦	ج
٣		٦٣		٨		٧٦	ج
٤		٧٢		٧٦ ١/١		٧٣	ج
٥		٧٦		٧٥		٧٤	شرقي
٦		٧١		٧٥		٧٥	ج
٧		٧٤		٧٨		٧٨	ج
٨		٧٦		٨١		٧٩	ج
٩		٧٨		٧٤		٨٢	شرقي
١٠		٨٢		٨٨		٨٤	س
١١		٧٧		٨٣		٧٩	شمالي
١٢		٦٥		٧٨		٧٧	شمالي
١٣		٧٣		٧٨		٧٤	شرقي
١٤		٧٣		٧٧		٧٦	شرقي
١٥		٧٣		٧٧		٧٤	شمالي
١٦		٦٠		٦٧		٧٤	شمالي
١٧		٧٢		٧٦		٧٤	شرقي
١٨		٧٢		٧٩		٧٩	شرقي
١٩		٧٢		٨٠		٨٠	شرقي
٢٠		٧٨		٨٤		٨٢	شرقي
٢١		٦٨		٨٢		٨	شرقي
٢٢		٧٧		٨٤		٨١	شمالي
٢٣		٧٧		٨٤		٨٠	شمالي
٢٤		٧٥	٢	٨٨		٧٣	شمالي
٢٥	٧	٧٢	٢	٨٨	١٠	٧٦	شمالي
٢٦	٧	٧٤	٢	٨٨ ٢/١	١١	٧٦	شمالي
٢٧	٧	٧٣	٣	٩٤	١١	٧٦	شمالي
٢٨	٧	٧٤	٢	٩٢	١١	٧٦	شمالي
٢٩	٧	٧٥	٤	٩٦	١٢	٨٤	شمالي
٣٠	٦	٧٦	٢	٨٧	١١	٨١ ٢/١	شمالي وشرقي
٣١	٥	٧٢	٢	٨٨	١٠	٨٥	شمالي

في ٣١ أيار/مايو كانت الشمس على بعد ٥٨° من البت.

درجات الحرارة وفقاً لمحز فهرنهايت في القاهرة في شهر حزيران/يونيو ١٧٦٢.

الرياح	ساعات المساء	ارتفاع المز	ساعات بعد الظهر	ارتفاع المز	ساعات الصباح	الرياح
شمالى	—	—	٩٤	١	٥٧٦	١
جنوبى وغربى	٥٢٦	١٠	٩٤	٢	٧٢	٢
شمالى وغربى	٧٧	٩٠	٨٧	١	٧٦	٣
—	—	—	٨٥	١	٧١	٤
جنوبى وشمالى	—	—	٨٦	٣	٧٢	٥
ش. غ	٧٩	١٠	٨٥	٣	٧١	٦
ش. ش	٧٩	١٠	٨٨	٣	٧٦	٧
غ	٧٩	١٠	٨٧	٣	٧٦	٨
شمالى	٧٨	١٠	٩٢	٣	٧٥	٩
شملى	٧٦	١١	٨٨	٣	٧١	١٠
ش. غ	—	—	٩١	٢	٧١	١١
ج وشملى	٨٢	١٠	١٠١	٣	٧٥	١٢
شمالى	٧٩	١٠	٩٢	٣	٧٩	١٣
شمالى	٧٥	١٠	٨٧	٢	٧٤	١٤
شملى	٧٦	١٠	٨٧	٢	٧٥	١٥
شملى	٧٦	١٠	٨٨	٢	٧٥	١٦
شمالى	٨	١٠	٩٥	٣	٧٦	١٧
ش. غ	٨٢	١٠	٩٦	٣	٧٥	١٨
ش. ش	٨٦	١٠	٩٩	٣	٧٦	١٩
شمالى	٧٧	١١	٩٦	٣	٨	٢٠
—	٧٨	١٠	٩١	٣	٧٥	٢١
—	٨٢	١٠	٩٣	٤	٧٥	٢٢
شرقى	٨٦	١١	٩٥	٤	٧٥	٢٣
شرقى	٧٩	١٠	٩٩	٣	٨٢	٢٤
شمالى	٧٦	١١	٩١	٣	٧٥	٢٥
غربى وشملى	٧٧	١١	٩١	٣	٧٣	٢٦
ش. ش	٧٦	١١	٩٠	٣	٧٢	٢٧
ش. ش	٧٩	١١	٩٣	٣	٧٤	٢٨
شملى	٨١	١١	٩٧	٣	٧٤	٢٩
شملى	٨	١١	٩٤	٣	٧٦	٣٠

في ٣٠ حزيران/يونيو كانت الشمس تبعد عن السميت مسافة ٥٦° ٥٢°.

درجات الحرارة وفقاً لمحز فهرنهايت في القاهرة في شهر تموز/يوليو ١٧٦٢

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحر	ساعات بعد الظهر	ارتفاع الحر	ساعات المساء	ارتفاع الحر	الريح
١	٨	٧٦°	٣	١٤°	١١	٧٧°	شالي
٢	٦	٧٧	٣	١٣	١١	٧٨	شالي
٣	٦	٧٧	٣	١٦	١١	٨١	شالي
٤	٦	٧٧	٣	١٧	١١	٨١	شالي
٥	٧	٧٩	٣	١١	١	٨٩	شالي
٦	٧	٧٨	٢	١٨	١١	٨٥	شالي
٧	٧	٧٨	٣	١٧	١١	٨٣	شالي
٨	٦	٧٧	٣	١٥	١١	٨٢	شالي
٩	٩	٧٧	٣	١٥	١١	٨٠	شالي
١٠	٦	٧٧	٣	١٥	١١	٨٢	ش.ش
١١	٦	٨٠	٣	١٤	١١	٨١	شالي
١٢	٧	٨٠	٣	١٤	١١	٨١	شالي
١٣	٧	٧٨	٣	١٢	١١	٧٨	ش.ش
١٤	٦	٧٦	٣	١٢	١١	٧٩	شالي
١٥	٦	٧٧	٣	١٥	١١	٨١	ش.ش
١٦	٦	٧٨	١١	٨٢	—	—	ش.ش
١٧	٧	٧٦	٣	١٧	١١	٨٢	ش.ش
١٨	٣	٩٦	١١	٨٤	—	—	ش.ش
١٩	٧	٨٠	٣	١٧	١١	٨٤	ش.ش
٢٠	٣	٩٧	١١	٨٤	—	—	ش.ش
٢١	٧	٨٢	٣	١٧	١١	٨٣	ش.ش
٢٢	٦	٨١	٣	١٦	١١	٨٢	ش.ش
٢٣	٦	٧٨	٣	١٦	١	٨٢	ش.ش
٢٤	٥	٧٥	٣	١٣	١٠	٨٢	شالي
٢٥	٦	٧٦	٣	١٣	١٠	٨٣	شالي
٢٦	٦	٧٦	٣	١٣	١٠	٨٤	شالي
٢٧	٦	٧٦	٣	١٦	١٠	٨٢	شالي
٢٨	٧	٨٢	٣	١٩	١٠	٨٣	شالي
٢٩	٧	٨٣	٣	١٦	١٠	٨٣	شالي
٣٠	٧	٨٣	٣	١٧	١٠	٨٤	شالي
٣١	٧	٧٩	٣	١٥	١٠	٨٤	شالي

في ٣١ تموز/يوليو كانت الشمس على بعد ١١° ٤٨' من السم

درجات الحرارة وفقاً لمحز فهرنهايت في القاهرة في شهر آب/أغسطس ١٧٩٢

اليوم	ساعات الصباح	ارتفاع الحر	ساعات بعد الظهر	ارتفاع حر	ساعات المساء	ارتفاع الحر	الرياح
١	٧	٥٧.٨	٣	٩٥	١	٨٤	—
٢	٧	٥٨	٣	٩٤	١	٨٤	—
٣	٣	٩٦	١٠	٨٤	—	—	—
٤	٧	٨	٣	٩٦	١٠	٨٦	—
٥	٧	٨٠	٣	٩٦	١٠	٨٦	—
٦	٧	٨٢	٣	٩٦	١٠	٨٦	—
٧	٣	٩٦	١	٨٥	—	—	—
٨	٧	٨٢	٣	٩٦	١٠	٨٤	—
٩	٧	٨٠	—	—	—	—	—
١٠	٧	٨٢	—	—	—	—	—
١١	٨	٨٤	١٠	٨٦	—	—	—
١٢	٨	٨	١	٨٦	—	—	—
١٣	٣	٩٨	٨	٨٩	—	—	—
١٤	٧	٨٠	٣	٩٥	١٠	٨٦	—
١٥	٣	٩٥	١	٨٨	—	—	—
١٦	٦	٨١	١٢	١٧	١٠	٨٥	—
١٧	٦	٨١	١	٩٥	١٠	٨٧	—
١٨	٧	٨١	١٢	٩٨	١٠	٨٨	—
١٩	٧ ٢/١	٨٣	١٢	٩٩	١	٨٧	—
٢٠	٧	٨١	٣	٩٦	—	—	—
٢١	٨	٨١	٣	٩٥	—	—	—
٢٢	٧	٨٠	٣	٩٥	١٠	٨٥	—
٢٣	٧	٨١	٣	٩٤	١٠	٨٤	—
٢٤	٧	٨١	٣	٩٤	١٠	٨٤	—

في ٢٤ آب/أغسطس كانت الشمس تبعد ٥٨° ١٨' عن السم

في بومبي على ارتفاع ٥٥° ١٨' كنت أراجع محز فهرنهايت ثلاث مرات في اليوم. لكن بما أن الحرارة هنا كانت ثابتة لم أجد ضرورة في وضع أي جدول كامن. كنت لا أدون إلا أهم الأحداث آخر الشهر وسوف أدرجها هنا:

في شهر أيلول/سبتمبر ١٧٦٣

في الأيام الأولى من وصولنا إلى برمبي أي من ١١ إلى ١٥ أيلول/سبتمبر، كانت السماء صافية ثم من ١٦ إلى ٢٤ كانت الأمطار تهطل كل يوم وأحياناً طوال الليل والنهار. في هذه الفترة إن أقصى ارتفاع يبعه المحرّ كان في اليوم الثالث والعشرين وكان ٨٢ ٢/١ أما مستوى الأشد انخفاصاً فهو ٧٩° وقد سُجل في ١٩ أيلول/سبتمبر في الصباح الباكر. وفي الأيام التي يتساقط فيها المطر من دون انقصاص بني ارتفاع الزئبق هو هو ومنذ اليوم ٢٤ وحتى نهاية الشهر صار الجو لطيفاً وارتفع الزئبق في اليوم الثلاثين حتى المستوى ٨٨°.

في شهر تشرين الأول/أكتوبر ١٧٦٣

في هذا الشهر كانت الدرجة العليا التي وصل إليها المحرّ ٩١° وذلك في اليوم ١٧. أما الدرجة السفلى فكانت ٧٩°. وإن العوارق في كل يوم كانت في بداية الشهر ٢٤° أما في نهايته فقد تراوحت بين ٨° و ٩°. إن اليوم ١١ هو الوحيد الذي أمطرت فيه. لكن حتى نهاية الشهر ظلت السماء صافية في اليوم ٢٣ هبّ هواء شديد القوة.

في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٧٦٣

في بداية هذا الشهر بلغ ارتفاع المحرّ في برمبي ٨٨°، أما في نهايته فانخفض إلى ٨١° وفي اليوم التالي في الصباح إلى ٧٢° أما التراوح مسجل ٩°. وفي ليل ٢٧ - ٢٨ هبّ هواء قوي جداً من الشرق، وفي اليوم التالي كان العنقس سيئاً.

في شهر كانون الأول/ديسمبر ١٧٦٣

كان المناخ سيئاً منذ بداية الشهر وحتى ١٥ منه وفي اليومين الأخيرين هطلت الأمطار ارتفع مستوى المحرّ في هذا اليوم إلى ٧٢° في الصباح وإلى ٨٤° بعد الظهر، وفي ٢٠ كانون الأول/ديسمبر سجل ٨٧ ٢/١°. لكن في نهاية الشهر انخفض في الصباح إلى ٧١° وبعد الظهر إلى ٨٢°.

في شهر كانون الثاني/يناير ١٧٦٤

تراوحت الحرارة عنى طول هذا الشهر بين ٧١° و ٦٩° وبعد الظهر بين ٨٠° و ٨٣°. وفي ٢٦ كانون الثاني/يناير انخفضت في الصباح إلى ٦٤° وصحبت بعد الظهر ٧٦°.

في شهر شباط/فبراير ١٧٦٤

بني المحرّ طوال هذا الشهر مسجلاً ٦٩° سيما تراوح بعد الظهر بين ٧٩° و ٨٢° وفي اليوم التاسع هطلت بعض الأمطار.

في شهر آذار/ مارس ١٧٦٤

في ١١ آذار/ مارس ارتفعت الحرارة إلى 88° بسبب الهواء الشمالي الغربي العيب وفي ١٣ آذار/ مارس بلغت 89° . وفي الأيام التالية وحتى منتصف آذار/ مارس لم تتجاوز 83° في بومباي.

في الأيام خمسة عشر المتبقية من شهر آذار/ مارس، توجهت إلى سرات (Surât) وهي مدينة واقعة على بعد $12^{\circ} 12'$ عن شمالي بومباي وما يقارب ثلاثة أميال ألمانية عن البحر. حيث هنا ارتفعت الحرارة إلى 92° وفي اليوم 29° إلى 98° بسبب الهواء الشمالي وكان محز ريومور قد تحطم في شبه جزيرة العرب في الطريق إلى سرات تعطل محز مهربايت فم يبق لي أي أداة لإكمال أبحاثي عن حال الطقس وفي بومباي سفت الحرارة وفقاً لمحز أحد الجرحى 93° .

ولقد أثبتت التجربة أن مستوى الرئيق في اميران يمكن أن يخشف في امدية نفسها مثلاً لو أن أحداً لاحظ معي في مثل هذا المناخ ارتفاع الرئيق في منطقة محفصة وكثيفة السكان في القسطنطينية أو عالاً لما حصل على الارتفاع نفسه الذي حصل عليه في بير لمعرضة للتأثر بالرياح بسبب موقعها على حصية. كما وجدت مروفات كبيرة في مستوى الرئيق في الجزيرة والقاهرة معى صداق البيل لم ترتفع الحرارة عن 55° لكن في اليوم الرابع من الشهر بلغت 66° في القاهرة إداً لا يمكن أن نتوقع الحصول على الحرارة نفسها في مدينتين تقعان على الارتفاع نفسه وعلى البعد ذاته عن الشمس لأن هناك عوامل عديدة يمكن أن تحكم الحرارة وبالتالي بمستوى الرئيق في محز، كحوقع المدينة: قرب البحر أو على سهل مرروع أو غير مرروع أو على رأس جبل أو في أسفله أو في منطقة تهيمس عليها الرياح السائدة أو الباردة. فلا عجب إداً أن أكون قد وجدت الحرارة مرتفعة في بحية في شهر كانون الثاني/يناير حتى أكثر ارتفاعاً من حرارة صعاء في شهر تموز/يوليو عداً أن هاتين المدينتين تقعان على طرف دقائق معدودة من حيث الارتفاع: تقع الأولى في سهل محمص وقاحل عند خليج العربي بينما تقع صعاء في منطقة حبيبة مرتفعة وخصبة. وعندما كنت فيها كانت الأمطار تتساقط كل يوم. ويمكن أن يشير المحز إلى الحرارة نفسها في مدن أخرى تقع على ارتفاع محصف شرط أن يكونا متساويين الارتفاع عن البحر والابتعاد عن الشمس. إن الفرق في الارتفاع مثلاً بين كوبهاص وحية هو 40° تقريباً. وتقع هاتان لمدينتان على الساحل لكن إحداهما تقع في مكان حصص والأخرى في سهل جاف. وفي كوبهاص تكون الشمس في شهر تموز/يوليو على مستوى البعد نفسه عن السميت كما في بحية في شهر كانون الثاني/يناير واكتشفت أن الحرارة في بحية في هذا الشهر كانت أكثر ارتفاعاً من الحرارة في كوبهاص بشهر تموز/ يوليو كما وجدتها البروفيسور كراتريشتاين

رباعتبار أي لم أصرف كثيراً من الوقت في التحقق من درجة الحرارة في عالية المدن المذكورة أعلاه لن يستطيع القارئ معرفة درجة الحرارة فيها بدقة. إن هذه المهمة تتطلب سنوات عديدة. لكن يمكن أن

يستفيد العبرانيون من هذه الأعمال الأولية لتتدقيق في حرارة البلاد التي وصفتها حتى لأن تم يقارنها مع ملاحظات الآخرين. ففي شهر تموز/يوليو في صماء كان استويان لأكثر انخفاضاً والأكثر ارتفاعاً في المحرّ موارين تقريباً للمستويين الأعلى والأكثر انخفاضاً في كوبيه عن في الشهر نفسه حسب ملاحظات البروسور كرانزشتاين. كما وقد لاحظت أن الحرارة في شهر كانون الثاني/يناير في القاهرة قريبة جداً من حرارة كوسهاغن في شهر أيار/مايو. لكن لا يكون الحرارة في شهر شباط/فبراير في القاهرة أكثر ارتفاعاً منها في شهر تموز/يوليو يكوسهاغن في شهري آذار/مارس ويسان/أبريل في القاهرة يكون مستوى الرقيق في المحرّ أعلى منه يكوسهاغن في أشهر الصيف لأكثر حرارة. إن حرارة شهر آب/أغسطس في يرا وحرارة شهري تشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر في جده وحرارة شهر حزيران/يونيو في تمر تكون تقريباً متوازنة وفي شهر تشرين الأول/أكتوبر في القاهرة وشهر آب/أغسطس في كوسهاغن يكون «تداع المحرّ هو هو» أما ارتفاعه في كانون الأول/أكتوبر في القاهرة فهو قريب جداً منه في كوسهاغن في حزيران/يونيو. في المحرّ والقاهرة تكون الحرارة هي نفسها في شهر حزيران/يونيو. وفي منتصف هذا الشهر، تكون الشمس على مستوى الارتفاع نفسه في هاتين المدينتين وبالتحديد على ١٠° إلى الشمال في المحرّ و١٠° جنوبي السميت في حلب لكن كلا يعرف أن مدينته حلب شديدة الارتفاع عن سطح البحر.

ملاحظات حول حرارة الهواء في القسطنطينية

في بداية شهر آب/أغسطس كان اساح جيداً في القسطنطينية وفي ١٢ آب/أغسطس وصلت عاصفة من الشمال محمّلة بالبرق والرعد وفي ٢٠ منه تساقطت الأمطار وفي ٢٤ و٢٥ من الشهر نفسه كان الطقس عاصفاً وممطراً وفي ٢٦ حثيم الضباب على المنطقة لكن عند نهاية الشهر كانت السماء صافية.

في الإسكندرية

في شهر تشرين الأول/أكتوبر ١٧٦١ استمرت الرياح بالهبوب من الشمال أو لشمال الشرقي. ولقد جاء في أقوال بعض المسافرين وبعض معولات الكتّاب غير المؤثّقين أن المطر لا يتساقط أو نادراً ما يتساقط في مصر. إلا أن مصر شديدة الاسداد من الشمال إلى الجنوب، وإن جريها الواقع في أقصى الشمال وهو الجزء الأكثر وسعاً يمتد على طول الشاطئ وليس بقربه أي جبل ثم إن الجزء الجنوبي منها صيق إلى بعض الأنحاء وفي طرف أو طرفين منه هناك جبال عالية وهكذا فإن الميراثيين الذين لا يهتمون إلا بموقع هذا البلد يقررون أن حرارة الهواء لا يمكن أن تكون متشابهة في كافة المناطق وقد حاول البعض أن يؤكد في أن بعض اساح في مصر العليا لا ترى المطر أبداً أما في مصر السفلى فعلاً ما يتساقط المطر كل يوم في شهري تشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر وليست الأمطار نادرة في القاهرة كما زعم البعض وقد عللوا لي إنها تمطر أحياناً مرات

معدودة في المستين، لكن أثناء إقامتي فيها هطل المطر كثيراً وسأفصل ذلك لاحقاً.

في القاهرة

تشرين الثاني/نوفمبر: بعد وصولنا إلى القاهرة مباشرة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٧٦١ هطلت الأمطار بشدة في نيل ١٣ - ١٤ هطلت المياه إلى مصطبة مبرك وأجبرت على تغيير مكان سريري. ولأن شوارع القاهرة غير مرصوفة، أصيبت الأمطار بأضرار بالغة فصار من المستحيل التحرك فيها في اليومين التاليين دون التلوث بالوحول. ثم في الأيام التالية صارت السماء شديدة الصفاء نكها عادت واكتمهت لاحقاً

كانون الأول/ديسمبر: في ٣٠ من هذا الشهر بعد الظهر، هطل الماء بمزارة لمدة عشر دقائق. في اليوم السابع من الشهر هطلت بعض الأمطار عند الظهر. وفي مساء اليوم العشرين كثر البرق والرعد وفي ليل اليوم ٢١ هطلت الأمطار من جديد. وفي صباح اليوم ٢٢ تساقط المطر لمدة ساعتين وبعد الظهر لمدة ست ساعات دون انقطاع. لكن سرعان ما صد الجو ثم في نيل ٢٧ - ٢٨ تساقطت الأمطار بمرارة كدث في نيل ٢٨ - ٢٩ وخيم الطقس الكتيب على الأجواء من ٣ إلى ٩ ومن ١٧ حتى نهاية الشهر كانون الثاني/يناير في اليوم الأول من الشهر استمرت الأمطار من طلوع الشمس حتى الساعة العاشرة وبقي الجو متكدراً طوال النهار وبعد ظهر اليوم السابع تساقط المطر بمرارة وفي اليوم الثامن تساقط قليلاً ثم من اليوم ١١ وحتى نهاية الشهر أصبح الطقس لطيفاً وفي صباح اليوم ١٢ وجد أحد حدادها العرب جليداً على ملفوفة أحضرها الفلاحون إلى المدينه وعرضها على عدد من الأوروبيين متباعاً بوجود الجند في مصر وفي الأيام الأخيرة من الشهر صارت الريح تهب من الشمال وكانت شديدة. أما في اليومين ٢٧ و٢٨ وحتى اليوم ٣٠ فلقد كان الصباغ يعطي الأرجاء في الصباح وتشتد السماء أثناء الليل

شباط/فبراير: في بداية هذا الشهر تساقط المطر بمزارة وهبت عاصفة قوية آتية من الجنوب طينة بعد الظهر. وفي صباح اليوم السادس لم تمطر كثيراً أما في اليومين التاليين فلقد كان الجو متليداً. ثم اضطرت في نيل اليوم ١٥ وصباح اليوم ١٦

آذار/مارس لم تمطر قط في القاهرة حول هذا الشهر إلا أن الجو كان متليداً في الأيام ٣، ٤، ٨، ٩، ٢٤، ٢٩. أما في اليوم السابع فقد هبت عاصفة قوية.

نيسان/أبريل: في اليوم الثاني من هذا الشهر هبت ريح قوية من الشرق وفي اليوم الثالث نجهم الجو وتساقطت الأمطار. ثم في اليوم ١٧ هبت ريح ساحة من الشرق أي من جهة ليبيا ولشدة ما كانت هوجاء امتلأ هواء القاهرة بالبار والرمال التي شككت سحابة كثيفة وبعد ظهره اليوم ١٨ هبت ريح عاصفة أما في اليوم ٢٠ هبت رياح شمالية شرقية. ونسب الريح لحدة في القاهرة (الخمسين) لأنها هبت في الأيام الخمسين بين عيد الفصح وعيد العصرة عند الأقباط وعدة تأتي من الجنوب نوري. وإن العيار الذي تحمله معها دقيق للغاية فلا يكتفى بالتسرب من خلال النوافذ المحكمة الإقبال إلى بيوت

الأوروبيين بل ويدخل في القوارير انصفه. لا شت أن هذا العبار هو سبب العصى في مصر. وهكذا فإن البحار الفاسد الذي يتصاعد من القناة التي تجري في القاهرة يتسبب بموت عدد من الأبطال أو بالأم في عيونهم. وفي اليوم ٢٦ ظهر البرق حلف الشفق ثم أمطرت. وفي اليوم ٣٠ اشتد المطر.

وفي أيار/ مايو رافقت السيد بورهابند إلى دمياط في هذا لشهر راقب السيد كرايم في عيني ارتفاع مستوى الرنق في شحز وحرارة الهواء في القاهرة. وفي اليوم الثاني هبت في المدينة وعلى الطريق المؤدية إلى دمياط ربح جوية عاصفة جعلت عيوماً من العبار تملأ الأجواء. وفي اليوم السابع هت هواء قوي من الجنوب وفي اليوم ٣١ هبت ربح أخرى هوحاء من الشمال

وفي حزيران/ يونيو في اليوم الأول من الشهر هبت ربح قوية من الشمال ررافتها سحب كبيرة. وفي اليوم الثاني بدأت الرياح تعصف من الجنوب ثم من الغرب وكان هواء محملاً بالعبار ثم في اليوم السادس كان الجو مكفهر. وفي السابع هبت ربح هوحاء من الشمال وفي اليومين ٢٤ و ٢٥ تكدت السماء بانعوم في شهري أيار/ مايو وحزيران/ يونيو ولكن لم يساقط المطر قط.

أم في تموز/ يوليو. فلم تمطر قط في القاهرة أثناء هذا الشهر لكن السماء كانت دائماً ملتدة بالعيم عند الصباح وأحياناً خلال باقي النهار.

أب/ أغسطس: في اليوم ١٣ من شهر آب/ أغسطس كان انصباب كثيفاً في القاهرة وكان يتحول إلى مياه. في اليوم ١٥ بعد الظهر هبت عاصفة قوية محتملة بالأمطار على ليل وفي المدينة وفي منتصف الطريق بين القاهرة ورشيد.

لأشهر الثلاثة الأخيرة شديدة الحرارة في مصر لكن في القاهرة يمكن الهرب من أشعة الشمس الالادة داخل المباني الموثقة من أكثر من طابق واحد. كما وأن شوارع المدينة ضيقة لذا فهي تؤمن بعض الظل. أضف إلى ذلك أن الشوارع تسقى عدة مرات في اليوم الواحد وخاصة أمام بيوت الأعيان لترطيب الجو. كما وتلعب الرياح الشمالية دوراً في تخفيف حدة الحرارة عن سكان مصر فيصعب الأعيان أحياناً قصيراً على أثار في بيتهم يكون ثقبه الأعلى موجه نحو الشمال بنية جذب الهواء البارد^(٥). في هذه العرف لا تكون الحرارة مرتفعة أبداً لذا لا يحب إدا رأيا فيها أهل الطبقات الرفيعة يجلسون النهار بكامله ويعتصون أنفسهم بالنعاء. كما ويملك بعض السكان الأغنياء مياهاً جارية في العرف تكشفها من ماربهم. وباحتصار أقول إن الأغنياء من المصريين يعرفون كيف يستعملون مواردهم ليرقدوا عنهم الحرارة وهم أمهر من سكان البلدان الشمالية الذين يحاولون حصية أنفسهم من البرد

(٥) رأيت مثل أدوات الهواء هذه في كرك (Kark) وهي جزيرة واقعة في الخليج العربي ثم رأيتها في بغداد حيث كانت شبيهة بتدائها لأن الأنبوب كان طويلاً وضيقاً وكان الهواء يدخل إلى عرقه تحت الأرض بواسطة مدخنة أعدت لهذه الغاية

والجدير بالذكر أنه في أيام الحر الشديد في مصر تكثر الغيوم ويهب هواء الشمال باستمرار وفي الأيام نفسها تنحصر كل يوم تقريباً في الحبيشة وفي المناطق الجبلية في اليمن.

في شبه جزيرة العرب

شهر الأول/ أكتوبر ١٧٦٢ قصبتنا الجزء الأكبر من هذا الشهر على الخليج العربي بين السويس وجدة. وفي الأيام ٢١ و ٢٢ و ٢٤ كنا نرى البرق كل ليلة من جهة الغرب وفي اليوم ٢٢ من جهة الشرق والجنوب الشرقي وفي اليومين ٢٧ و ٢٩ من جهة الشرق. في نهاية الشهر كان الجو مكفهر خلال النهار والليل.

تشرين الثاني/ نوفمبر: في ليل ١٢ - ١٣ ك نرى البرق في جولة من جميع الجهات. في اليوم ١٣ كان الجو مكفهرًا وسمعنا أصوات الرعد. في اليوم ١٧ كان الجو عاصفًا. في اليومين ١٨ و ١٩ كان الجو قائمًا فأمطرت وكنا نسمع البرق والرعد أحيانًا بعد ظهر اليوم ٢٠ بدت السماء صافية وبعد ظهر اليوم ٢١ قرب جدة هطلت الأمطار الغزيرة القادمة من الشمال الغربي. عند صباح اليوم ٢٢ رأينا البرق من جهة الشمال الغربي.

كانون الأول/ ديسمبر: في بداية هذا الشهر حافظت الحرارة على استقرارها في جدة وفي اليوم الرابع هب هواء قوي من الجنوب وفي مساء اليوم الخامس هب هواء آخر من الشمال الغربي. وفي اليوم التاسع عند المساء سمعنا الرعد وهطل المطر من الشمال الغربي. في اليوم ١٦ بدأ الجو قائمًا في الخليج بين الحية وجدة. في اليوم ١٧ بقي الجو قائمًا وجاءت عاصفة في المساء وهطلت الأمطار. في اليوم ١٨ عند المساء رأينا البرق في الشمال على الشرق وفي اليومين ٢٤ و ٢٥ بدت السماء مطيعة باليوم.

وفي شهر كانون الثاني/ يناير ١٧٦٣ في مساء اليوم السادس وطيلة اليوم السابع بدأ الجو قائمًا في الحية. وفي صباح اليوم الثامن هطل راي من المطر وبقي الجو متكررًا إلى اليوم التاسع مساءً. ومنذ اليوم ١٧ وحتى نهاية الشهر كنا نرى الجو متكررًا كل صباح. وفي ليل ١٩ - ٢٠ هبت ريح قوية من الجنوب وفي ٢١ هطل المطر بغزارة. ثم في مساء اليوم ٢٥ عبرت السماء عدة غيوم شظافة وبدأ مدار القمر متوجعًا بأطار جميل رأينا مثله في مساء اليوم ٢٨. ولقد دام الأول منذ التاسعة وحتى العاشرة والربع، والثاني دام أكثر من ساعتين ونصف. إن نصف القوس هذا كان في كل مرة على ٢٣° وربع.

وفي شباط/ فبراير: في بداية هذا الشهر هطلت بعض الأمطار في الحية لكن اشتد المطر من ١ شباط إلى ٥ منه. في اليوم السادس واليوم السابع كان الجو متكررًا ثم عاد الصفاء بعد ذلك. في ليل ٢٥ - ٢٦ هطلت بعض الأمطار على بيت الفقيه.

وفي آذار/ مارس: في اليومين ٦ و ١٢ كان الهواء في بيت الفقيه أقوى من العادة فامتأ الهواء بالعبار والرمل. وما لا شك فيه أن هذا العار الدقيق قدم من غلظة إذ غالباً ما كانت التلال الرملية تغير مكانها

كما ذكرنا في السابق. وفي اليومين ٢٤ و ٢٥ اشتد الرعد ثم هطلت الأمطار. وفي الأيام التالية بقي الجو صافياً.

وبسبب/ أبريل: من اليوم ١١ وحتى اليوم ١٩ كانت السماء مليدة بالغيوم في بيت الفقيه ورأينا في البحر اعتباراً من ٢٤ بسبب/ أبريل وحتى نهايته الكثير من الغيوم لكن دون مطر وكانت تملط بعزارة في الجهات الجنوبية حتى أنه في اليوم ٢٨ تدفقت المياه في راد جاف مجرت معها عدة أكواخ من خارج أسوار المدينة. وبعد فترة غير طويلة عند قصر الرادي إلى الجفاف.

وفي أيار/ مايو: في بداية هذا الشهر كنا نرى البرق على الشفق في الف في ليل ٤ - ٥ و ليل ٥ - ٦ هبت ريح هوجاء من الجنوب. وفي اليوم الثامن عند الظهر، هبت عاصفة قوية مصحوبة بالأمطار. وفي اليومين التاسع والعاشر اشتد صوت الرعد وهطلت الأمطار طوال الليل.

وفي حزيران/ يونيو: بعد ظهر اليوم الأول، سمعنا الرعد في انحا وبقيت السماء مليدة بالغيوم طوال الليل إلى خروجنا من هذه المدينة. وبما أن موسم المطر كان قد حل في البلدان الجنوبية قبل وصولنا إليها، وجدنا الطقس في تدرج مختلفاً عن الطقس الذي اعتدنا عليه في تهامة. وسمعنا البرق ورأينا المطر في فترات بعد الظهر كافة ما عدا في الأيام ١٥ و ١٦ و ٢٤. أما في اليوم ٢٣ فتناقص الغيوم من المطر. عدا أن الجو في هذه الأيام لم يكن أقل تكرراً من السابقة. في رحلتنا من تعز إلى جبل سمرة (Sumāra) كانت تملط في فترات بعد الظهر كلها.

وفي تموز/ يوليو: أثناء فترة إقامتنا في صعدة كان الجو لطيفاً طيلة الأيام منذ شروق الشمس وحتى الساعة ١١ لكن كانت السماء تتلبد بالغيوم بعد الظهر وأثناء الليل فتجبج الشمس أو النجوم. وكانت تملط أحياناً بعد الظهر وتنادراً أثناء الليل. ويحكى عن وجود الجبل أحياناً في فصل الشتاء لكنه سرعان ما يذوب بعمل حرارة الشمس خلال النهار. وفي طريق عودتنا إلى صنعاء ساقط المطر أحياناً. أما في انحا فكانت الأمطار تهطل بغزارة مصحوبة بالرعد في ٢٩ تموز/ يوليو.

وفي شهر آب/ أغسطس ١٧٦٣: عدنا إلى تهامة في بداية هذا الشهر وقتلما تمطر السماء في تهامة. في ليل ١٥ - ١٦ اشتد الرعد والمطر في انحا. أما خلال باقي أشهر مكان اجو لطيفاً والهواء ساكناً مما جعل الحرارة لا تطلق في هذه المدينة.

تفاوتت الحرارة في مختلف مناطق شبه الجزيرة الهندية تماماً كما في شبه الجزيرة العربية. لا يبدأ موسم المطر على ساحل كورومندال (Coromandel) وفي إقليم البنغال (Bengale) إلا عندما ينتهي على شاطئ ملابار (Malabare). أما في هذه المنطقة أي في غرب الجبال الكبيرة التي تخترق الهند من الشمال إلى الجنوب تمطر ابتداءً من منتصف حزيران/ يونيو وحتى منتصف تشرين الأول/ أكتوبر أي في موسم نفسه حيث تمطر في المناطق الجنوبية من اليمن وفي الحبشة. ويقول البعض إن موسم الشتاء في بومباي يبدأ برعد

موي وبهرق آت من الشمال الشرقي ثم ينتهي بعد ذلك. وعندما كنت في بومباي شهدت في بداية شهر أيار/مايو الرعد المصحوب بالمطر العزير ثم صفا الجو بعد ذلك. وفي نهاية أيار/مايو وبداية حزيران/يونيو بات الجو متكدراً. ومن ١٠ إلى ٢٨ حزيران/يونيو صار المطر ينهر قليلاً وأحياناً كانت تمر أيام بكاملها والجو شديد الصفاء. أما في مساء ٢٩ حزيران/يونيو فقد وصلت عاصفة هوجاء من الشمال الشرقي وامتد ذلك الحين لم تمض ٢٤ ساعة من دون أن تسقط فيها الأمطار. وبعدها سيطر صبح لطيف على الأجواء وذلك حتى ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر إذ انتهى موسم الشتاء بعاصفة من الشمال الغربي

كلف السيد بويس Boyer نفسه وهو تاجر من مرسيليا مقیم في القاهرة بتسجيل ارتفاع مستوى الزئبق في محوّر ويومور لمدة سنتين. لكن بدلاً من وضع المحوّر في الهواء الطلق وضعه في غرفة مغلقة. أضف إلى ذلك أنه لم يدرّس ساعات الصباح والمساء بدقة بل اكتفى بتدوين ساعات الظهيرة. وسوف أرفق بهذا الكتاب النسخة التي أعطاني إياها لربما اهتم بها الفهرائيون

طية الأيام عند الظهيرة على مدى عام ١٧٥٩

طية الأيام عند الظهيرة على مدى عام ١٧٥٩

[illegible]

ارتفاع مستوى الزئبق في محو ريمود في القاهرة
طيلة الأيام عند الظهيرة على مدى عام ١٩٦٠

[illegible]

ارتفاع مستوى الزئبق في محز ريومور في القاهرة
طيلة الأيام عند الظهيرة على مدى عام ١٧٦٠

[illegible]

شعبت هذه الرحلة الشهيرة خير مهمة في التاريخ لأدبي لقرب هذا ، حتى أن إحدى
 لإسم التي حاول أن تستأثر بانفسون وأعلم حسد عظمه هذه الرحلة وأهم علماء
 البلاد فاحص سماح هذه المهمة فحارب فقطب ثمرها دون أن يقسموا محاطرها وعدد
 اسمه سور وحده من شبه جزيرة العرب من بن الخمسة الذين تشرقت الدمارات
 برسالهم بكمور عذمية ، وقد حاول بعض المصنفين الحساد لادعاء أن سور وملاء الأول
 ودي شعار الأحداث كفه لكن ما من أصغر وضعه شبه الجزيرة العربية حتى سارع
 العلماء البارزون إلى مدحه والثناء على ملاحظاته المفيدة والثناء .

ولا يحفل أحد في عالم لأدب انطلاقه هذه الرحلة ونظرونها ونشأها
 مستهل لسيد سور عمه بالإشارة إلى أن سكان اليمن ، أي سكان الجزء الجنوبي لشبه
 الجزيرة العربية ، الذي يعرفه الأوروبيون باسم العربية لمعينة ، ويمكن لشبه الجزيرة
 العربية أن تشكل حلاً واسعاً لاكتشافات نلسه لعلماء لطبعات وعصدا آخرها
 فوائد عدة من رحله كهذه كما أنت انكتابات المفدسه على ذكر عدد عربي عدة
 ويصف لسيد سور « إن أدبي يفرزون العمل لندسة وإجراء الوقت ، يسمعون حين
 بروي نساء فصلاً هوله عن طريقة حياة العرب » وعن انصاف التي واحدها ، لكي لم
 يكرر من كتب شعوري حين وجدت أن العرب لا يقلون إنسانية عن الأمم الأخرى التي
 تدعي الأدب والتهذيب

مركز تحقيقات كالمبيوري علوم إسلامي



١٣١٠٠٦٠٣٢ ٣٤



9 789353 476834

كارستن نيبور

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها



لجنة التأليف

الانتشار العربي

V O Y A G E E N A R A B I E

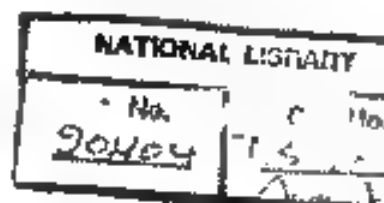
& en d'autres Pays circonvoisins,

par

C. NIEBUHR.

TOME SECOND.

Traduit de l'Allemand.



À AMSTERDAM chez S. J. BAAYDE.
À UTRECHT chez BARTHELEMY WILD.

M D C C I X X X

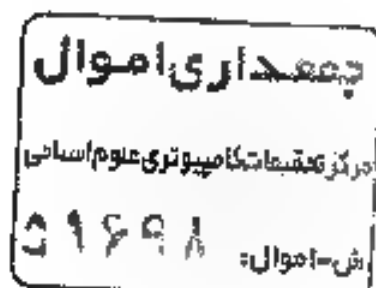


رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها

الجزء الثاني

كارستن نيبور

ترجمة عبير المنذر

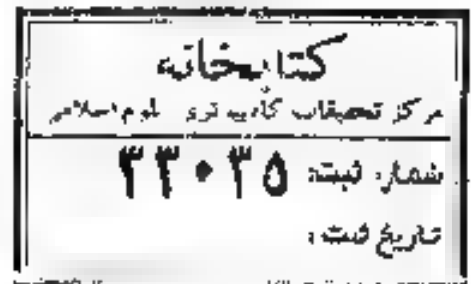


Arab Diffusion Company

كارستن نيبور

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية
والى بلاد أخرى مجاورة لها

الجزء الثاني



مس. بيا 113/5752

E-mail: arabdiffusion@hotmail.com

www.alintishar.com

بيروت- لبنان

هاتف: ٩٦١-٩٦٥٩ ٩٦١-٩٦٥٩١٥١ فاكس: ٩٦١-٩٦٥٩١٥١

SBN 9953-476-83-7

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

فهرس المواد التي يتضمنها الجزء الثاني

ملاحظات في بومباي وسورات

وصف جزيرة بومباي تجارة الشركة الانكليزية للهند الشرقية في هذه البلاد وسلطتها وتجارة موظفيها في مرافئ أخرى فيما وراء رأس الرجاء الصالح مكان جزيرة بومباي من اوروبيين، وكاثوليك مولودين في الهند أو برتغاليين مرعومين، وهندوس أو وثنيين، مارسين أو عبدة النار ومسلمين وصف لبغود (هيكل) جزيرة الفيل. وصف لمدينة سورات ملعة الانكليز في سورات. السكان الآخرون الخ. الخ.

١٣

الرحلة من بومباي إلى مسقط وبو شهر

الرحلة من بومباي إلى مسقط. وصف لهذه المدينة وسكانها الرحلة من مسقط إلى بو شهر.

٧٨

ملاحظات في بو شهر وشيراز ويريبيوليس

وصف لمدينة بو شهر. ملاحظات خلال الرحلة إلى شيراز. في الأكراذ والتركمان البلد وفي جيش من الفرس اجتاحت البلاد ملاحظات في شيراز وصف لبقايا قصر يريبيوليس ولآثار أخرى في هذه البلاد. ملاحظات لاحقه في شيراز. العودة إلى بو شهر

٨٨

ملاحظات في الخرج (Charedesch)

موقع هذه الجزيرة الخاصة للهونديس. الحرب بين الفرس وسيد بندريخ (Benderrigh) والتي شارك فيها الانكليز ملاحظات في الخرج وحول مكانها. الرحلة إلى البصرة ملاحظات حول البوصلات العربية. ١٦٥

ملاحظات في البصرة

وصف هذه المدينة وطريقة الحكم فيها سكانها موقع البصرة القديمة حرب قبيلة كعب العربية ضد الغفس، والأتراك والانكليز، ثم ما بين قبيلة كعب وقبيلة متفع، وسرهه بماتين الملح في البصرة. الدروب عبر الصحراء من البصرة وبعدها إلى حلب. يريد الحسام الزاقل ١٨٣

الرحلة من البصرة إلى بغداد

الرحلة على الفرات من البصرة إلى لملوم (Lemilum) مدن هذه البلاد وقبائلها العربية. رحلة من الرماحية (Rumahie) إلى مشهد علي. وصف هذه المدينة ومسجد الشيعة الرائع الموجود فيها، فضلاً عن بقايا الكوفة. رحلة إلى ضريح حزقيان، وإلى الحلة (Helle) ومشهد حسين وصف كربلاء وضريح الحسين. الفرق بين السنة والشيعة، تغيير ديانة هؤلاء الآخرين تحت حكم نادر شاه، معلومات أخرى حول بطل بلاد الفرس هذا. وصف مدينة الحلة موقع جنائز بابل المعلقة، ومعد يلور (Belus). الرحلة من الحلة إلى بغداد ٢٠١

ملاحظات في بغداد

وصف هذه المدينة، وموقع بغداد القديمة. صريح موسى الكاظم، وأبي حنيفة مؤسس أحد مذاهب السنة عفرقوف (Agerkuf) والمؤلف تجارة مدينة بغداد تاريخ بغداد الحديث طريقه حكم هذه المنطقة. سلطنة الباشا. ملاحظات حول كردستان، بما في ذلك المنطقة الحاضنة لحاكم بغداد والآخرى المستقلة. ٢٢٧

الرحلة من بغداد إلى الموصل

ملاحظات في يانكاشا (Yankasha)، العاق (Tauk)، كركوك، التان (Altan)، كوبري (Kupri)، اربيل أو أريلا. مبادئ البريدية التي يقال إن اتباعها يتبعون الشيطان ملاحظات في كرمليس (Carmelies)، والتقدم الكبير الذي أحضره المرسلون الكاثوليك في هذه البلاد في اللغة

الكلدانية الحجية في بعض الاحياء، عوفع مدينة نيسوى. الطرق المختلفة بين الموصل وبغداد.
٢٦٤ وصف مدينة الموصل وسكانها، أسماء القرى التابعة لولاية هذا الباشا

الرحلة من الموصل إلى ماردين

تجهيزات الشرقيين للمسافر في الصحراء رحلة قاصدة كبيرة إلى نصيبين (Nissabın).
ملاحظات حول هذه المدينة القديمة والأقاليم الواقعة على طرفي الطريق بين الموصل وماردين
وصف مدينة ماردين وحكماء وسكانها المحتل من قبل الشمسيين وهم أتباع ديانة قديمة بعبادة
وضعوا أنفسهم تحت حماية بطريرك البعثيين.
٢٨٨

الرحلة من ماردين إلى حلب عبر نيار بكر

وصف مدن نيار بكر، سوبريك (Soverock)، عرفة وبيراجيك (Biradsjik)، وملاحظات
أخرى حول الطريق من ماردين إلى حلب. لائحة بأهم قبائل الأكراد والتركمان التي تهيم مع
قيامها في أرمينيا والأناضول وسوريا المسماة بين مدن هذه في أرمينيا وفي الأناضول.
٣٠٧

ملاحظات حول سوريا ولأسيما سكان جبل لبنان

أقسام هذه البلاد، الأمم واللغات المختلفة في السنة والمتنوعة واليهود والمسيحيين.
ملاحظات حول الدروز، أصلهم، وطبعتهم ودينهم. منازل النصيريين والأسماعيليين
وديانهم. طريقة الحكم عند الدروز. تاريخ هذه الأمة الحديث. البلاء منهم. وصف
جغرافي لمناطقهم سيطرة الموارنة على جبل لبنان. البلاء بين الموارنة، أمراء جبل لبنان
المزعومون. وصف منطقة كسروان ومدينة بيروت. أحياء طرابلس الخاضعة لولاية الباشا
والتي يسكنها المسيحيون. قصبات جديدة في جبل لبنان.
٣٢٩

فهرس بلحات الجزء الثاني

- ١ - جزيرة يوميبي
- ٢ - أ، ب، ت ثلاثة حروف مختلفة للهنود ث، ح حروف الفرس وح حرف الصابئة.
- ٣ - تصميم لمعبد جزيرة الفيل
- ٤ - تسقيق اعمدة لمعبد
- ٥ - رسم لصور المعبد الرئيسة، قرب الارقام ١، ٢، ٣ على تصميم اللوحة III
- ٦ - رسم للصور قرب الرقم ٤، اللوحة III
- ٧ - رسم للصور قرب الرقم ٥، اللوحة III
- ٨ - رسم للصور قرب الرقم ٦ و ١٢ اللوحة III
- ٩ - رسم للصور قرب الرقم ٧ اللوحة III
- ١٠ - رسم لأهم صورة قرب الرقم ٩ اللوحة III
- ١١ - رسم للصور قرب الرقم ١٣ و ١٤ اللوحة III
- ١٢ - أ. هكريس (Hakkris)
- ب. لباس الهنود
- ج - السعطف الواقى من المطر عند الملاحين الهنود
- ١٣ - أ. محنة يستخدمها الهنود في الصيف

- ١٥٣ - ٣٦ - المشهد العام لمدينة شيراز.
- ١٥٧ - ٣٧ - تمرين الفرس.
- ١٦٤ - ٣٨ - خارطة مدينة شرج ولعنتها.
- ١٨٢ - ٣٩ - خارطة مدينة البصرة.
- ٢٠٣ - ٤٠ - خارطة سير من الخليج الفارسي حتى السماوة
- ٢١١ - ٤١ - خارطة السير من السماوة حتى قره طوبه.
- ٤٢ - خارطة مدينة مشهد علي (أ) مشهد عام لمسجد هذه المدينة الكبير (ب) خارطة مسجد الكوفة (ج) مشهد عام لمسجد مشهد الحسين (د) (هـ) حجارة من الطين يستخدمها الشيعة في صلاتهم. (و) سيف علي الشير. (ز) ختم محمد البوي (ح) مشهد عام لمسجد موسى الكاظم قرب بغداد.
- ٢٤ - ٤٣ - أ، ب، ج، د، كتابات من الكوفة. هـ، جزء من كتابة طينية من بغداد. و، كتابه من اسكي موصل ز، كتابة على حجر من قصر شنج على الطريق بين الموصل ونصيبين.
- ٢٧ - ٤٤ - خارطة مدينة بغداد.
- ٢٣٦ - ٤٥ - خارطة السير من نرة طوبه حتى راجر (Sacho)
- ٢٧٥ - ٤٦ - خارطة مدينة الموصل
- ٢٨٢ - ٤٧ - خارطة مدينة ماردين، وقرية نوبه
- ٣٣ - ٤٨ - خارطة مدينة ديار بكر
- ٣١ - ٤٩ - كتابات كوية على سور مدينة ديار بكر
- ٣١٣ - ٥٠ - خارطة السير من عماد حتى اورقة
- ٢٦ - ٥١ - خارطة السير من اورقة حتى عدن
- ٣٢١

إشعار من الكاتب

أقدم اعتذاري للقراء الذين انتظروا طويلاً ظهور الجزء الثاني من عملي بعد وصفي لرحلتي. وأرجو ألا يلومني هواة التاريخ الطبيعي، لأنهم جمعوا منذ صدر الجزء الأول من هذا العمل، ثماراً أخرى من الرحلة وذلك من شبه الجزيرة، ومن وصف الحيوانات والنبات في مصر وبلاد العرب، وهما ما كتبه المرحوم البروفسور فورسكال، فضلاً عن «الايقونات الطبيعية» التي طلب من الرسام بورنغند رسمها استناداً إلى الصور الأصلية. ومنحتني الملك، الذي يشجع عادة العلوم ويطلع العلماء على الملاحظات حول الرحلة إلى شبه الجزيرة العربية، شرف مساعدته، وطلب مني العمل على نشر الكتب المذكورة أعلاه. فقامت بهذه المهمة انطلاقاً من واجبي وبمرح لأحيي ذكرى رفاقي رحلتي الذين أصبحوا ضحايا العلم.

وبما أنني فقدت رفاقي في بداية العام ١٧٦٤، عدت وحيداً من الهند عبر البصرة وحلب، لا يتوقع مني عشاق التاريخ الطبيعي ملاحظات من هذا النوع في بلاد زرتها وحيداً، وببغني أن يستخدموا نتائج هذه الرحلة التي أمر بها عاهل الدانمارك. لكنني واثق من أن الجغرافيا جنت الكثير، وترتدي هذه الملاحظات الجغرافية طابعاً من الأهمية سيما وأن البلد الذي زرتُه هو أقدم بلد نعرفه. حاولت في كافة الأمكنة وضع خرائط للمدن التي صادفتها كي يتمكن العلماء من تحديد مساحتها، وعدد سكانها، واستخدمت لذلك المقياس نفسه لذا يمكن أن نقارن مساحة المدن بعضها ببعض بسهولة. ولا نجد أثراً لبابل وبنوى، هاتين المدينتين اشتهرتا في ما مضى، فقد بنيتا في مناطق منخفضة رطبة حيث تندر حجارة البناء، فاستعملوا لتشييدها مواد سبئية، نقلت منذ زمن إلى مدن أخرى أو تدمرت كلياً.

وقد يهتم هواة الآثار برسوم الآثار الهندية في جزيرة الفيل (Ile d'Elephanta) ولا أظن أن رحلتي إلى برسيبوليس (Persepolis) لا جدوى منها، بالرغم من أننا نملك أكثر من وصف مفصل لهذه المدينة، وسيجد هواة اللغات هنا بعض الكتابات التي لم يروها من قبل أو لم

يحصلوا عليها واضحة. وبما أن رسومات الآثار التي نشرها كل من شاردان ولوبرن (Chardin, le Brayn) مختلفة من نواح عدة، ليحكم القارئ وليرى من أخطأ. وسيجد هواة الديانة الإسلامية معلومات وافية حول المذاهب المختلفة التي لم يعرفوها حتى اليوم أو سمعوا باسمها فقط واعتبروها وثنية

وسأخصص الجزء الثالث لرحلتي من حلب إلى جزيرة قبرص والقدس وإلى مدن أخرى في هذه البلاد، فضلاً عن رحلتي من حلب إلى القسطنطينية عبر الأناضول، وإلى بولونيا عبر القسم الأوروبي من تركيا، زد على ذلك مجموعة من الملاحظات حول الريقيا. وسأصدر هذا الجزء الثالث قريباً، إن أظن الله بحمري وأمدني بالصحة، وسأعتمده بههرس للمواد التي تصمتها الأجزاء الثلاثة.



ملاحظات

في بومبي وفي سورات

تقع جزيرة بومبي على الشاطئ الغربي للهند وتملكها منذ مدة عام الشركة الانكليزية للهند الشرقية التي أقامت هنا وصاية تحصص لها المصانع على طول هذا الشاطئ بحر الشمال من ميلان وحتى البصرة. وتتميز بمرفئها الكبير والمحيط من الرياح مما يجعله ثروة للأمة، أما الجزيرة نفسها فليست بشاسعة كثيراً؛ إذ لا يتعدى عرضها في بعض الأماكن نصف ميل وطولها ميلان إن لم نصف إليها جزيرة صغيرة قريبة يطلق عليها الانكليز اسم جزيرة السماء المستأنسة، ويتكون قعر البحر بين هاتين الجزيرتين من صخرة ضخمة، يمكنك العبور عليها من جزيرة إلى أخرى أثناء العبر من دون أن تمتل وحول ما إذا كانت المياه تتراجع على شواطئ مالابار كما في الخليج العربي وفي مناطق أخرى من العالم، سمك هناك الدليل على ذلك إذ نزلت بومبي وجزيرة النساء المستأنسة جزيرة واسعة أحياناً. وتشتهر بومبي بإنتاج جوز الهند والأرز كما تؤمن الشواطئ الملح، ويضطر السكان كلهم تقريباً إلى تأمين مؤنهم من اليابسة سبباً من سفنات (Silfi) وهي جزيرة كبيرة وخصبة لا يفصلها عن بومبي سوى مصيق صغير. كانت تخضع في ما مضى للمرتغاليين، وملكها حالي الماراتيون. ومنذ رحيلي عن تلك البلاد حاول الانكليز السيطرة على هذه الجزيرة وقد تمكنوا من ذلك وفقاً للأخبار التي وردتني لكسي لست واثقاً من قدرتهم على الدفاع عن أجهزة سفنات ضد قوات الماراتيين. تمثل اللوحة الأولى خريطة بومبي التي تسختها على الجزيرة نفسها ثم قست بتقليص حجمها.

وتقع مدينة بومبي في وسط الجزيرة على ارتفاع القطب ١٨°، ٥٥'، ٤٣" ، ويبلغ طولها حوالي ربع ميل أما عرضها فقليل للغاية. وتقع من جهة البحر على قصر قديم لا يشير الاهتمام، أما

من جهة اليابسة الجزيرة فهي محاطة بسور ضخيم، وبحفرة واسعة، وبحصون نصف دائرية أمام أبوابها الثلاثة

وقد بنيت هذه التحصينات بمعظمها خلال الحرب الأخيرة ضد الفرنسيين، إذ يؤكد البعض أن الإنكليز صرفوا سبباً ٣٠٠٠٠٠ روية (حوالي ٢٠٠٠٠٠ درهم) لتحصين هذه الجزيرة، وبما أن السلام كان قد حلّ منذ فترة عندما ررت البلاد، لم يكن العمل فيها حثيثاً، لكن هدف الإنكليز إلى إنهاء هذه التحصينات تباطؤاً وفقاً للرسم الجديد حتى تصبح بومباي في ما بعد من أمنع المدن وأقواها في الهند. وتؤمّن الجزيرة نفسها بالحجارة المستخدمة في بناء التحصينات وهي تتميز بليونتها في المقالع مما يجعل استخراجها واستعمالها سهلاً، لكنها تستحيل صلبة للغاية مع مرور الوقت وتعرضها للهواء.

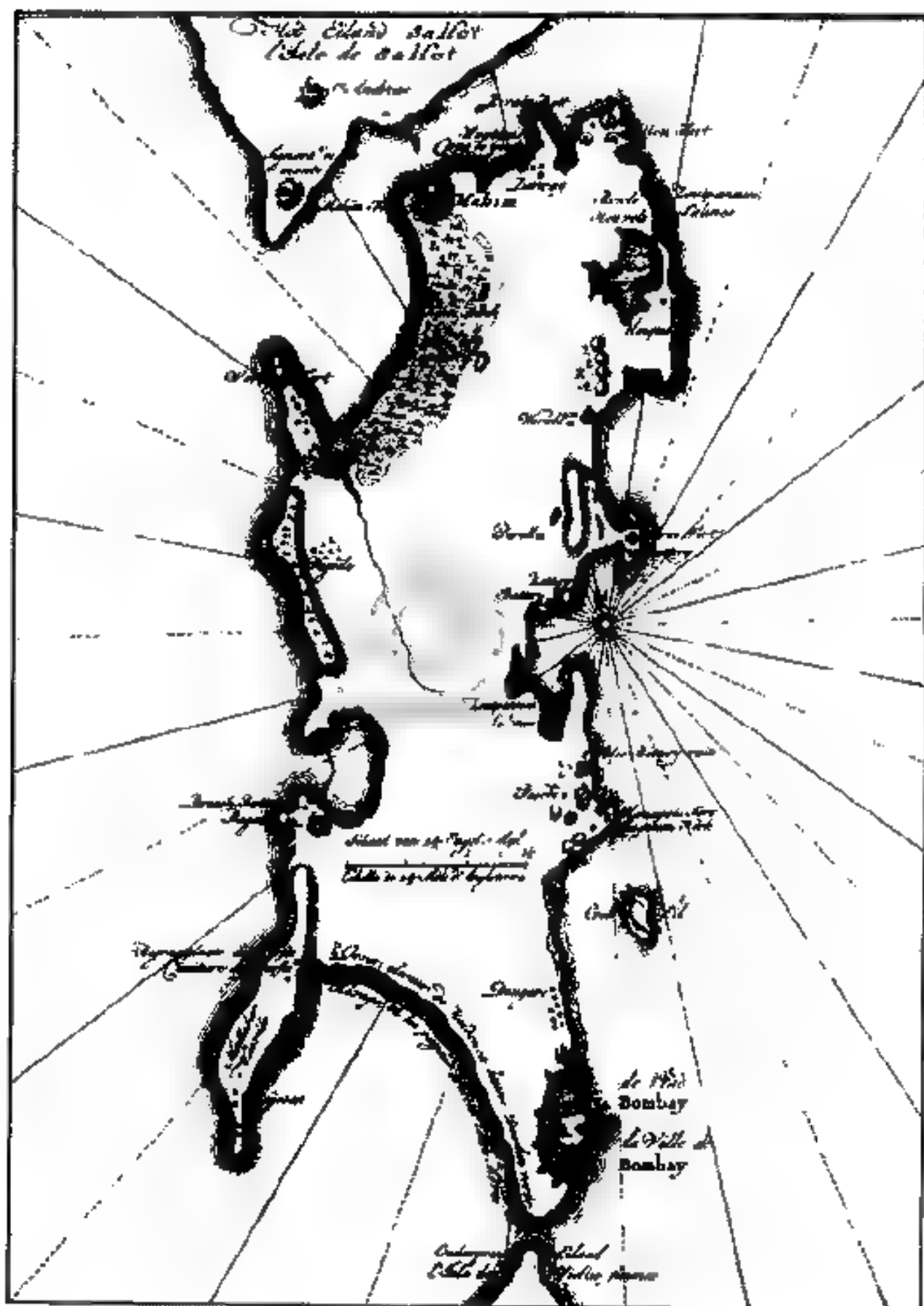
ونجد على جزيرة بومباي، فضلاً عن القلعة الرئيسية، العديد من الحصون الصغيرة كذلك القصر الصغير الواقع قرب صاحبة ماحيم (Mahim) في شمال الجزيرة، والحصون قرب ريفال (Rivale)، وصيون (Sion)، وسوري (Sure)، وماراغون (Mazagon)، وورله (Worle) وغيرها. وبالرغم من أن هذه التحصينات ليست عظيمة إلا أنها قادرة على مقاومة الأعداء لا سيما هجوم الهود.

ويتمتع سكان بومباي بالحرية تحت الحكم الإنكليزي، لذا يزداد عددهم منذ طرد البرتغاليين من المنطقة. وأكد لي الإنكليزي، قدم إلى الجزيرة منذ أقل من عشرين سنة، أن عدد السكان في ذلك الوقت لم يتعدّ ٧٠٠٠٠ شخص وأنه يتجاوز اليوم، أي في العام ١٧٦٤، ١٤٠ ألف نسمة. ويشكل الأوروبيون نسبة قليلة من السكان أما البقية فمن الهنود الكاثوليك أو البرعاليين كما يدعون ها، ومن الهندوس أو الوثنيين، ومن المسلمين لا سيما السنة والشيعه منهم، فضلاً عن الغرس أو عبدة النار. وتندمج هذه الديانات المختلفة بعضها مع بعض، فتمارس كل منها شعائرها الدينية بحرية وأمان في معابدها، كما تقيم مسيرات عامة من دون أن يبدي الآخرين اعتراضاً. وحاصدت بعض الأرض واليونانيين في بومباي، ولا أدري إن كنا نجد في تلك البلاد مسيحيين من أتباع القديس توما الذين يترأسهم أسقف لموم سوربا بقم في حسب.

يمطر في بومباي صاخ معتدل من جراء هواء البحر الممطر ولا مطار الجزيرة التي تهطل في الأشهر التي تكون فيها الشمس في الموقع الأقرب من السميت^(*). وبعد تمّ تحفيف بعض المستنقعات في المدينة ومحيطها، لم يعد الهواء غير صحي كما وصف في ما مضى^(**) لا يزال

(*) راجع الجزء الأول.

(**) رحلة أوسنثون (Orington) الجزء الأول ص ١٣٦.



بعض الانكليز هنا يموتون ميتة فجائية، لكن يرد السبب برأيي إلى تصرفهم الخاص، إذ يأكلون الكثير من اللحوم الشهية كلحم العجل ولحم الخنزير التي مع المشرعون القدامى اليهود من أكلها. كما يشربون خمرًا مركزاً من البرتقال في ساعات القيقظ الشديد، رد على ذلك أنهم يرتدون ما كما في أوروبا ثياباً ضيقة لا تصلح لهذه البلاد لأنها تلتصق ببعض أعضاء الجسد فتعيق الدورة الدموية وتجعلهم أكثر تأثراً بالحرارة من اليهود الذين يرتدون ثياباً طويلة ومضفاصة.

ويحلو لهم أن يقتلوا من الثياب التي يرتدونها عند المساء مما يمرضهم للاصابة برشح عظيم، في حين أن الشرقيين يأكلون أول وجباتهم عند الصباح، ويتناولون وجبتهم الأساسية عند المغرب ويقتلون من أكل اللحوم وشرب الكحول، ويقطعون عند المساء رؤوسهم ويصدهم مما بقيهم من أمراض البلاد الحارة ويجعلهم يعثرون طويلاً.

يقوم الأوروبيون في وسط المدينة، في الحي الذي يقوم فيه منزل الحاكم، وهو منزل كبير ورائع، وتقع بالقرب منه كنيسة ضخمة، ولا يعتمد الأوروبيون في بناء منازلهم السطوح المتساوية إنما تلك المائلة المنطاة بالقرميد. ويستخدم الانكليز الزجاج لموافدهم، أو أصدافاً رقيقة جداً مرسوفة في الحشب مما يجعل الشفق مظلماً، إلا أن هذه الوافد أفضل عند هطول المطر من الشبائك الخشبية أو الحديدية ومن المصراعين، لأن الأولى لا يرد المطر كلياً فيما تحجب الأخيرة نور عن الشفق. ويحب الشرقيون التمتع بالهواء في المواسم الجافة لذا يقيمون في منازل مفتوحة من إحدى الجهات، ولا تتوفر في هذه المنازل وسائل الراحة كما لا تمتعت هندستها الانظار.

ومن بين التحسينات التي أصفاها الانكليز على بومباي لتسهيل التجارة والملاحة، يبنى الرصيف أهمها وأعظمها، إذ كان يتسع، حين كنت في البلاد، لوضع مركبتين، الواحد وراء الآخر واسلحهما، وكانوا يعملون على توسيعه لمركب ثالث. شئت جزء من هذا الرصيف من الصخور والجزء الآخر من الحجارة المفصولة. ولا بد أنه كلف الشركة كثيراً لأنها لا تسمح فقط لتجار بلدهم بالدخول وتصبح معهم إنما يستعين به الأجانب فقط، كما رست بقرية حين كنت في بومباي سفينة حربية من سفن أمام همان ويرتفع مسوب المياه هنا عندما يكون القمر بدياً أو جديداً ويصل من ١٦ إلى ١٨ قدماً، وتسجل أعلى نسبة عند مدخل المرفأ (حوالي ميل و ١.٦ أو ميل و ١/٢ نحو الجنوب من بومباي) في الساعة الحادية عشرة، وترب المدينة قرابة الساعة الثانية عشرة، ويرتفع المد في بعض فصول السنة (استناداً إلى اقوال البحارة) الليل أكثر منه أثناء النهار، ويحصل المكس في فصول أخرى، وكانت الآلة المضطة تميل حوالي درجتين نحو الغرب

تملك شركة الهند الشرقية في مستعمراتها على شواطئ مالابار، والتي تعتبر بومباي مركزها،

سبع عشرة سرية مشاة وثلاث سرايا مدفعية، مؤلفة بمعظمها من أوروبيين والباقي من الثوباز أي الهنود الكاثوليك الذين يرتدون اللباس الأوروبي.

وتتألف كل سرية من ١٠٠ إلى ١٢٠ رجلاً وأقام انقسم اليها بعض المجندين من أوروبا وأضمتا الثوباز يصل العدد إلى ١٧٠ عنصر. ويخضع للانكليز في جزيرة بومبي وحدها حوالي ٣٠٠٠ جندي هندي، ومعظمهم من المسلمين أو الوثنيين، وهم يرتدون اللباس الهندي ويخصعون لضباطهم الخاصين الذين يحاونهم رتباء أوروبيون يمتحنهم القتال، كما يخضع لهم في سورات بعض العرب الذين يقضون رواتب أكبر من رواتب الهنود، وأكد لي ضباط انكليز أن هؤلاء أشجع من الهنود، ولكثرة ما يشاهد بقيمة العرب وشجاعتهم (يبدو أن المنصوص هم عرب عمان أو الخليج الفارسي وليس عرب اليمن)، ما من أمير وثني إلا ويجعل بعضاً منهم في خدمته. ويقدم الهنود خدمات جيدة ما إن يخضعوا لإمرة الأوروبيين.

إن حالة المدفعية الانكليزية في بومبي جيدة جداً. ففي العام ١٧٥١ أو ١٧٥٢، أرسلت الشركة إلى البلاد مهندس سويدي (عمل لسنوات في فرنسا) وتقيب مدفعية مع سرية كاملة جئتها بنفسه من ألمانيا مما مّد الجزيرة بحرفيين يارعين من نجارين وبنائين، وسجد العديد من الألمان والهنولنديين الذين يقصدون الانكليز، ونرى العديد من سهم في عداد الجنود والضباط الأكفاء.

لا يمكن للأوروبيين الأجانب أن يثروا من التجارة، لكن لا يتم التفرق بينهم وبين الانكليز والبرلنديين والاسكوتلنديين على الصعيد العسكري، وقد صادفت هنا بين الضباط، ضابطاً بولوبياً وبعض السويديين والهنولنديين والسويديين فضلاً عن العديد من الألمان وبدأون جميعهم كتلاميذ بحريين، ثم يتدرجون بحسب أعمارهم حتى يصبحوا أمري سرية وهذا ما يحصل بسرعة لأن الكثيرين يرهقون العيش هناك على النمط الأوروبي فتوافيهم الحمى بسرعة. ويقضي غيرهم أثناء الحروب، ويحاول آخرون نحو التجارة، ويعود القليل منهم إلى أوروبا للتمتع بما جمعه من ثروات أو لأنهم لم يجدوا في الهند ما كانوا يتوقعونه. وكان الضابط الأول من رتبة رائد حين كنت في بومبي. ويتننى العسكريون أجوراً جيدة هنا، وهذا ما يجعل التجار يستسيغون الخدمة العسكرية، لأن أقل رجل عدم قد يندو جراًلاً (رئيساً، حاكماً) في بومبي ويظن هؤلاء الشباب أنهم أهم من الضباط المستين الذين عايطروا بحياتهم أكثر من مرة بغية حماية تجارة الانكليز.

وبما أن الملاويين (Malvanes)، والسفاريين (Sangerens)، والكوليين (Kulis) وغيرهم من الأمم الصغيرة على هذا الشاطئ، فضلاً عن عرب الخليج الفارسي هم من القراصنة، نصطر الشركة إلى الاحتفاظ بسفن حربية، فلها في بومبي وسورات عادة من ثمانية إلى عشرة مراكب حربية صغيرة، فضلاً عن العديد من المراكب الصغيرة المسلحة. أما ضباط هذه المراكب وربابتها

من الإنكليز، ويعمل على منتهى وعلى متن المراكب التجارية بحارة من الهنود الكاثوليك والمسلمين، ويسهل على الإنكليز القضاء على هؤلاء القراصنة لأنهم لا يجنون أي فائدة من ذلك، إذ إن سفنهم الحربية والتجارية تحمّل البصائع أولاً، وإن أرادت السفن الهندية بعد ذلك الانتقال من مرفأ إلى آخر تشكّل قافلة وتطلب مواكبة من الإنكليز وتدفع لقاء ذلك مبلغاً من المال.

ولا يحسن الإنكليز أحداً على شواطئهم، باستثناء البحارة لأنهم أساد اليابسة والجزر المحيطة بومباي، ويمدوهم بجزء كبير من مؤنهم، ويعيم رئيسهم في بونا (Puna)، ولا يملك قوى بحرية عظيمة أو على الأقل لا يحشّاء الإنكليز، لكن أكدوا لي أن بإمكانه جمع حوالي ٨٠٠٠ فارس مما يجعل قواته البرية خطيرة بالنسبة لجيرانه. ولا تزال هذه لامة الوثنية قوية في الهند حتى أن أورنجزيب (Aurangzeb) الأكبر اضطر إلى القتال لها عن ربيع رسم الدخول إلى العديد من مدن إمبراطوريته لتتركه وشأنه وليسود السلام، كما اضطر المغول إلى قبول وجود موظف من هذه الامة في جماركهم يستجّل إيرادات إن رعيم هذه الامة وكبار موظفيها هم من البراهمانيين (Brahmans) الواسعي النفوذ شأنهم في ذلك شأن المسلمين، ويدعون أن النظام والمسال يسودان بينهم وأن الزراعة والصناعة مزدهرتان لذا يكثر السكان في بلادهم. ويتحينون الفرص للانتقاص على الاقاليم المجاورة التي يحكمها المسلمون، يسرقونها وينهبونها ويحرقونها كالبرابرة كما يتصرفون بكبرياء إزاء الإنكليز أنفسهم. وفي العام ١٧٦٤، قادوا طوافة من بومباي إلى مرفقهم، ونوِّع الجميع أن يعلّى الإنكليز الحرب عليهم لكن بما أنهم أرسلوا الجيوش إلى البنغال ومدراس، وأعدوا العدة لمهاجمة الملاويين (Malvanes) في العام الثاني، ولأن حكومة بومباي التي لن تبقى في مكانها طويلاً، لم تشأ الاساءة إلى تجارتها الخاصة مع البحارة، سعت إلى حلّ هذا الاشكال سلمياً

ويختلف شكل حكم الإنكليز في الهند عن حكم الهولنديين والفرنسيين والبرتغاليين، إذ تحصص مستعمرات هذه الأمم الثلاث الأخيرة في الهند لحكومة باتافيا (Batavia)، وبنديشاري (Pondicherie) وغوا (Goa)، فيما تنوزع السلطة عند الإنكليز على أربعة مراكز رئيسية (١) بومباي على شواطئ مالابار (٢) كالكونا في البنغال (٣) مدراس على شواطئ الكورومندل (٤) بنكولا في سومطرة. وهي مراكز مستقلة كياً بعضها عن بعض ولا تنفّى أوامرها إلا من بندن مباشرة، لكنها مبرمة بمساعدة بعضها بعض عند الحاجة. عندما كنت في الهند، تم إرسال قوى من بومباي إلى البنغال على أثر مشاكل وقعت في هذه المنطقة الأخيرة من دون انتظار أوامر إنكليترا. تتم محاكمة كافة المواطنين هنا أيّ كانت جنسيتهم وديانتهم وفقاً للقوانين الإنكليزية من دون محامين أو قضاة يعرفون هذه القوانين.

تألف حكومة بومباي من شخص الحاكم أو الرئيس واثنى عشر مستشاراً، وجميعهم من التجار باستثناء الرائد الذي يملك الصوت الثالث في المجلس^(٥). أما الموظفون المدنيون الآخرون في الشركة فهم إما تجار كبار، وإما مساعداً تجار، وإما وسطاء وإما كتاب، ويتدرجون عادة بحسب أعمارهم من وظيفة كاتب إلى مركز مستشار، لكن إن عاد الرئيس إلى انكلترا وتوفي هناك، يصفه المستشار الذي يتمتع بصداقات واسعة في لندن - ويتم نقلهم أحياناً من منصب إلى آخر كما حصل مع السيد سيسر، وهو رجل مستقيم وبارع كان مستشاراً في بومباي عند وصولي وعين حاكماً لنفثال قبل رحيلي.

وينبغي أن يقيم الحاكم على الجزيرة بشكل مستديم، ويضطلع المستشارون بمهامهم هناك فمنهم أمين الصندوق، ومنعش المحال وماسك الدفاتر الخ أو يعملون كمندراء لتجارة في مستعمرات أخرى تابعة لهذه الحكومة. وحين كنت في تلك البلاد، كان للحكومة مستشار في سوربات (Surat) وآخر في تليشري (Tellichery) وثالث في انجنمو (Anjengo). وتملك الشركة في هذه الأماكن الثلاثة قصوراً وحاميات عديدة، وكان لها في البصرة مستشاراً. كما أرسلت واحداً إلى بلاد الملاويين في بداية العام ١٧٦٥ (أي بعد رحيلي) بعد أن علمت عليهم، وسيطروا منذ رحيلي على برادش (Baradsh) وهي مدينة كبيرة إلى شمال سوربات، لها حاكمها الخاص، ويملك فيها الهولنديون مركزاً تجارياً مهماً، فأقام فيها مستشاراً في بومباي، كما يملك الانكليز على هذا الشاطئ العديد من المؤسسات الصغيرة، يرسلون إليها التجار والساعدين والوسطاء كما في تاتا (Tatta) وهي مدينة كبيرة يقيم فيها زعيم بلاد السنند. وفي لاريندر (Lar Bunder) وفي شاه بندر، ثم في بو شهر في الخليج الفارسي، وفي كمباي (Cambay) وفي أونور (Onor)، وفي كلكتوتا (Calcutt)، وفي حصص فيكتوار. ويقع هذا الحصن الأخير على ساعد نهر كبير، يجري داخل البلاد ويصل إلى بونا مقر إقامة زعيم الماراتيين، وقد هادى الانكليز بعض القرى الواقعة قبالة حيرى (Gucri) وهي قلعة استردوها من القرمسان الشهير انجريا (Angena). وأملوا بهذه الطريقة أن يقيموا تجارة مشمرة مع بلاد الماراتيين، لكن هذا المشروع لم ينجح على النحو المتوقع، إنما استفادوا من الماشية في هذا المكان حيث يكثر المسلمون في حين أن الوثنيين في محيط بومباي لا يذبحون الحيوانات ولا يبيعونها لتقتل. ويتم نقل الكتاب والتجار وحتى المستشارين أحياناً

(٥) منذ رحيلي من الهند تغير كل هذا النظام: إذ قام الانكليز بفتح باب عدة وادوا قوائمه البرية والبحرية، وأصبح الصابط الأول في بومباي حالياً برتبة عميد. ولما كانوا يكتفون بطلب رأي الرائد في المسائل البحرية، أصبح للمعيد الصوت الثالث في المجلس في كافة المسائل، وأصبح لرئيس البحرية الصوت الرابع في هذا المجلس علماً أنه لم يكن عضواً فيه من قبل. وفي ما بعد أصبح حاكم بومباي يحتر من بين العسكريين وليس بين التجار.

ويقالون بحسب أعمارهم مراكز مريحة أكثر، مما يتيح لهم الفرصة للتعرف على تجارة كافة الاسكنة، وبالتالي يعود عليهم ذلك بالمائدة عندما يحتلون منصبا في مجلس بومباي يتطلب منهم مراقبة كافة الأعمال.

إن الأجور التي تدفعها الشركة لموظفيها في الهند قليلة للغاية، لكنها تسمح لهم بالتجارة في كافة المرافئ بدءاً من دلعوا (Delagoa) قرب رأس الرجاء الصالح في الشرق وحتى الصين، وحتى جدة والبصرة في الشمال، ويجمعون بهذه الطريقة الثروات الضخمة التي ذاع صيتها في أوروبا. ويؤدي ذلك إلى تجاوزات، تعاني منها الشركة أحياناً، لكنه تدير جيد بشكل عام إذ إنه يدفع الموظفين إلى الجدة، يؤمنون للشركة فرائد أثناء سعيهم لتوسيع تجارتهم الخاصة ما كانت لتقلها لولا ذلك، ويسمح لجميع ممارسي التجارة وذلك بدءاً من رئيس المؤسسة وحتى أصغر كاتب. تفرض السلطة التي تتمتع بها هذه الحكومة احترام علم بلادها، وتدفعها ثرواتها إلى نشر تجارتها أكثر فأكثر، ذكرت في الجزء الأول أن الأوروبيين لا يتجارروا عادة مرفأ جدة ويحرمون مباشرة من الهند إلى السويس، لكن منذ ذلك اليوم حاول الإنكليز ذلك. في البدء، حين أخذ الأوروبيون يترددون على مرفأ جدة كانت رسوم الدخول وغيرها المفروضة عليهم قليلة مقارنة بتدث المعروضة على التجار المسلمين، إذ إن السلطات سمعت لتشجيع الأولين على زيارة مرافئها اعتقاداً منها أن الأخيرين مضطرون لضرورة فيها واتسع نفوذ الإنكليز، وكثرت رحلاتهم نحو الخليج العربي في حين أن عدد مراكب التجار المسلمين تراجع تدريجياً مما أثر سلباً على جمارك جدة ولم يكن بالإمكان مطالبة الأوروبيين بدفع رسوم أكثر من تلك المحددة في الاتفاقات، لكن فرص على التجار الذين يشترون منهم نسبة مئوية، فتمكنت الحكومة من جمع مبالغ أكبر مما لو وصلت البضائع على متن سفن التجار المسلمين، واسماء الإنكليز من هذا الوضع إذ اضطروا إلى بيع بضائعهم بأسعار أرخص، وقد اعتاد هؤلاء في الهند على تحديد ما يعطونه للحكام ولمسكون حسب ما يشاؤون، لذا لم يهتموا بنصف مسؤولي الجمارك في جدة، وكان بإمكانهم القضاء على تجارة هذه المدينة لو أرسلوا بعض السفن الحربية الصغيرة وارفقوا كافة السفن المتوجهة من السويس إلى الهند، ولكنهم يخاطرون بفقدان تجارتهم في هذه المناطق، وبما أن الياشا والشريف التزموا بهذه المعاهدات ظاهرياً، قد يعتبر السلطان أنه تعرض للاهانة، ويقرر الإنكليز كلهم من الشرق. وهدد الإنكليز بتجاهل مرفأ جدة وانتوجه إلى السويس مباشرة انتقاماً من هذه الإجراءات، لكن أحداً لم يصدق أنهم يتجرأون على الإبحار في طريق يعتبرها كافة البحارة الأخطر في العالم، ولعلمهم هم نصهم لا يردون ذلك لأنهم لا يمكن حارطة لهذا الجزء من الخليج. وأخيراً فكر السيد هولمرد، وهو بحار ماهر تعرض لمشاكل عدة في جمارك جدة، جدياً بتسيء هذه التهديدات،

فحصل على نسخة عن الخارطة التي وضعها للخليج العربي (وصف شبه الجزيرة الموحة XX) والتي سلمتها لصديق في بومباي. ولا يسكن أن يتوقع السيد هولفرد الكثير من التسعة إلا من خارطة بحرية دقيقة، لأن الأوروبيين يبحرون في عرض البحر في حين أن المركب التركي الذي قمت بالرحلة على متنه حاذى الشواصي، لذا لم أصع سوى تصميماً لهذه الأخيرة، لكن الانكليز وجدوها ملائمة لهم ولم يكن ينقصهم سوى تأكيد حاكم القاهرة أنهم يستطيعون نقل بضائعهم بأمان وانزالها في المدينة. في الامبراطورية العثمانية، حيث يتم استتجار الأفاليم، يسمى كل حاكم وراء مصلحته الخاصة من دون أن يأبه للبشاعات الآخرين، وقلما يترك فرصة كهذه نفوته. ولا تستفيد حكومة القاهرة من الأقمشة الرائعة التي تنتقل من البنغال إلى جدة ومنها برأ بواسطة القافلة الكبيرة إلى مصر، ولم يكن علي بك صاحب السلطة المطلقة حينذاك ينتظر من الانكليز دفع رسوم كبيرة وحسب بل حمل هدايا قيمة به، لذا لم يهتم بردة لعل باشا جدة وشريف مكة وحتى السلطان، فوعد الانكليز بتنفيذ ما طلبوه.

عندما أرسل تجار البنغال إلى السويس، في العام ١٧٧٢، مركباً لم يكمل الرحلة بل عاد إلى البلاد إثر تعرضه لأضرار في خليج البنغال. وفي العام ١٧٧٣، قام السيد هولفرد بهذه الرحلة ونجح فأصبح بالتالي أول انكليزي يقود مركباً إلى السويس. وفي السنة التالية، وصلت مراكب أخرى، ويقال إن خمسة مراكب خاصة، في العام ١٧٧٦، قامت بالرحلة مباشرة من الهند إلى السويس^(١)، وقد استخدم هذا الطريق أكثر من مرة كطريق البريد، لأن حكومة الهند أهدت ترسل بريدها في حالات الضرورة من السويس إلى انكلترا فتلقى الرد بوقت أقصر مما لو أرسلت رسائلها إلى أوروبا

(١) توقفت تجارة الانكليز في القاهرة أثناء حياض هذا العمل، في السابق، كانت الرسوم على البضائع القادمة من الهند تدفع كلها في جدة. ثم تنقل عبر البر إلى مصر وسور، فيجدو سحرها مرتفعاً في الشرق، ثم استحال سحرها رخيصة فلم تعد تستقدم من انكلترا، وهكذا استعاد موظفو الشركة من تجارة الهند مع مصر، لكن جدة كانت تخسر لذا سمحت إرسال السفن إلى السويس. أما أصحاب الترب معروفاً ويعود بالمواصلات على الأوروبيين فأخذوا يسلكونه أكثر فأكثر. ولعل الشركة الانكليزية مترسل موظفاً من البنغال إلى القاهرة. كما وصلت من بومباي إلى البصرة، وعن التجار المصريين مستخدمون في المستقبل إلى اليمن على متن سفن يوروبية مباشرة إلى السويس، وإذا ما حصل ذلك، من توقفت ملاحاة الاتراك على الخليج العربي وحسب إنما ستفقد كل من مكة وجدة موقعهما كمخزن لبضائع شبه الجزيرة العربية والهند. وصيخسر الباشا هنا والشريف مضلاً عن الهدى الذين يتقارون البضائع عبر البر الكثير من الأبرادات ولن تجد بين حجاج البلاد الشمالية تجاراً كباراً، بل عدداً كبيراً من الممرقة (يحججون بدلاً عن الصوبيين) والجنود الذين يذودون عن القافلة ضد العرب (وصف شبه الجزيرة العربية)، ومهما بدت تجارة الأوروبيين مباشرة مع مصر مربحة، أظنها خطيرة للغاية بسبب عدم ثبات حكومة القاهرة.

عبر الطريق المعتادة. أي عبر رأس الرجاء الصالح. وتتوجه سفن الشركة العادمة من أوروبا، إلى أحد المراكز الأساسية، فتلج المحصنة لساحل مالابار تنجد نحو بومبي مباشرة، وتستغرق هذه الرحلة خمسة أشهر تقريباً حين يصفقون في فصل ساس، وقد قدم أحد الربانة بهذه الرحلة خلال ثلاث أشهر ثمانية عشر يوماً، وهي أقصر رحلة سجلت. ولغة هي السفن التي تعود من بومبي إلى انكلترا، فمنها من يقوم برحلة إلى فوكة في الخليج الفارسي والبنغال، ومدارس، ويكولا وحتى إلى الصين، ويكسب ربانة هذه السفن الكثير من المال أثناء هذه الرحلات التي لا يتمتعون بحرية القيم بها إنما يحصلون للرئيس الذي يرسل من يشاء مساعدته وتمثيله، ويأتي سوباً إلى هذه البلاد أربع سفن من لندن، وخلال الحرب الأخيرة قلَّ عددها، لكن خلال عام ١٧٦٤، توقع وصول ست سفن. كانت كل سفينة تحمل في ما مضى ٤٠٠٠٠ درهم نقداً إلى بومبي بصفلاً من الأموال التي ترسلها انكلترا إلى مراكزها الأخرى، لكن أكلوا لي أن الأموال لم تعد ضرورة منذ سيطرت الشركة على البنغال وأنها قادرة أيضاً على إرسال الكثير من المال إلى الصين.

ويبقى القماش أهم بمصاغة يحملها الانكليز من بومبي إلى بلاد فارس والهند، أما البضائع الأخرى فهي دودة الحرير، والعاج، والحديد، والصلب، والقصدير، والسحاس، والحديد الأبيض، والبراسي، والمدافع وأسلحة أخرى، ويحمل أصحاب السفن بضائع أخرى بنية بيعها لحسابهم الخاص. وتباع البضائع الأوروبية في المزاد العلني ما إن تصل السفن، وبالتالي، وفي مواسم معينة يعرفها كافة التجار الهنود، يتم إرسال ما لا يباع منها إلى المستعمرات الصغيرة. ويتم إرسال نوابس من سواحل مالابار، وعلج الشادر من الهند، وأقمشة مختلفة من سورات إلى انكلترا عبر بومبي، كما يتم إرسال عدد كبير من هذه الأقمشة من لندن إلى عبيد، وينقل أصحاب المراكب لحسابهم الخاص المطور والصنع والعقاقير المختلفة من الهند والخليج العربي والفارسي.

أشرت آنفاً إلى أن الانكليز يملكون كنيسة كبيرة وجميلة في بومبي، يشرف عليها كاهن لكنه توفي. وبالتالي لم يعد هناك رجل دين انكليزي واحد على طول الساحل بانتظار وصول أحدهم من أوروبا، ولا تصف السفن الانكليزية التي تتوجه إلى الهند كاهناً ضمن طاقمها كالأسم الأخرى، كما أننا لا نجد كنيسة أو كاهناً من سورات (surât) وتليشري (Tellichery) ونجفغو (Anjengo) بالرغم من أن عدد الانكليز المقيمين في هذه المدن مرتفع. وحين يود المقيمون في المدن يتنص الاخيرتين تعميد ولد من أولادهم، يستقدمون كاهناً دالماركياً، لكن عدد المتزوجين بين الانكليز الموجودين في الهند قليل للغاية وبالتالي قلما نسمع بعبادة طعل في بومبي. إن نسبة الكاثوليك المقيمين في الهند أكبر من نسبة البروتستانت، ولا ينقصهم كهنة، وعلمت أن البابا أرسل مند سورات مطراناً إلى بومبي لكن الحاكم أعلمه عند وصوله أن لا حاجة للبلاد برجل دين يحمل

هذا اللقب الرفيع. ونجد هنا أربعة رهبان كرمليين، يرأسهم عدد من الكهنة درسو في غوا (Goà) أو في بومباي، وقد أقام الأكبر سنّاً بين الرهبان في هذه البلاد لسنوات، ثم عاد إلى أوروبا، ليعود من جديد إلى بومباي، وهو أمر لا يلام عليه لأنه يعيش هنا بحرية أكبر وراحة أكثر، فضلاً عن أنه يتمتع هنا باحترام أكثر مما لو بقي في دير في أوروبا. ويخدم الثاني في كنيسة (سيدة الرجاء) سيهورا اسيرانرا، وهو صرح رائع خارج المدينة سم يكتمل بهاؤه، والثالث في كنيسة سان ميشال في محيم (Mahim)، أما الرابع ففي كنيسة سلفاسيوني (Salvatore). ويمسك الكاثوليك أيضاً كنيسة صعبرة في المدينة وأخرى في مازاغون، وكان نلاباء اليسوعيين ديراً جميلاً قرب قرية باريل (Barcel) في وسط الجزيرة، لكنه تحوّل منذ سنوات إلى منزل ريفي للحاكم، وأصبحت الكنيسة غرفة طعام وولفس رائعة لا مثيل لها في الهند كلها.

يمنح الإنكليز رعاياهم حرية الاعتقاد، لكنهم لا يسمحون للرهبان بهداية الناس كما يحلو لهم، فحين يود شخص من دين آخر أن يصبح كاثوليكيّاً، يضطر الرهبان إلى إبلاغ الحكومة مسبقاً، فدرس الأسباب التي دعته المعني إلى اتباع الدين وإن وجدتها مقنعة سمحت بتصديره، لكن يبدو أن هذا نادراً ما يحصل لأن الراهب الكرملّي في محيم اشتكى من أنه لم يحصل على إذن لتصير امرأة وثنية، تعيش مع كاثوليكي كزوجة له وقد انجبت له أطفالاً عدة. ويحصر عبيد الإنكليز والبرتغاليين قُدّاس الكنيسة الكاثوليكية، وحين يصل أفريقيون جدد إلى البلاد يمتادون ليس فلاة تحمل صورة أحد القديسين، واشترت هنا حتى اسود، هي السادسة عشرة من العمر، ولد من أبوين أفريقيين أتباعا للديانة الكاثوليكية، وعلمته الديانة المسيحية على يد كاهن كاثوليكي. وأردت استطباعه معي إلى الدانمارك عبر الصين، لكن حين قررت العودة عبر البصرة وتركيا، فصلّت بهداه لأحدهم في بومباي خوفاً من أن يأخذ المسموم مني، وقد أتعرض لمشاكل عدة بسببه لأن العادة لم تدرج في تركيا أن يحصل الأوروبيون على عبيد من أفريقيا، ولعلمهم اتهموني بأنّي أخذ إلى أوروبا فتى من أبوين مسلمين لأجعله مسيحياً.

ويسمى سكان هذه البلاد القدامى، والذين يصادف الكثيرين منهم في بومباي، هندوس أو هندو، وقد اعتلنا نحن الأوروبيون على تسميتهم كفرة أو وثنيين، لذا يكون فكرة خاطئة عنهم. لكن يتبين للذين يتعرفون اليهم عن كثب أنهم نطماء، وفاصلون وجاذون ويتجنبون الاساءة إلى غيرهم أكثر من أيّ أمة أخرى، ولكنهم من جهة أخرى الأمة الأكثر انطواء على نفسها خوفاً من رجال الدين عندهم فيعيشون منفصلين عن الأمم الأخرى ولا يتواصلون مع بعضهم البعض. وبالرغم من أن اليهود والشيمة يحترمون اتباع الديانات الأخرى غير طاهرين ولا يأكلون معهم، يأكل اليهودي مع اليهودي والشيعي مع الشيعي من أيّ بلد كان، في حين أن صاحب النسب الرفيع عند الهندوس

كالبراهمي مثلاً الذي يخدم أحد البنان الأثرياء لا يتجرأ على الأكل لأنه أعظم منه نسباً استناداً إلى المعلومات التي جمعتها والأفكار التي كونتها عن الهندوس في الشمال، ينقسم هؤلاء إلى أربع قبائل رئيسة:

١ - البراهمانيون أو رجال الدين (٢) الرسيوطيون أو الجنود (٣) البنيان أو التجار (٤) الملاحون. وتنقسم كل قبيلة من هذه القبائل أو كل فئة من هذه الفئات إلى طبقات عدة أدنى، ولا يأكل أعضاء الطبقة العليا مع الطبقة الأدنى منهم. وأكدوا لي أن لكل طبقة، وهي تتعدى الشمانين، شعائرها الدينية الخاصة، ولا أدري إن كانوا يتبعون الديانة نفسها من حيث الجوهر، ويسمي اعتبارهم بالتالي مجموعات مختلفة، لكل منها رئيسها الخاص، وكهنتها المعتمدين، واليهما الثانوي الذي يحترم في مناسبات معينة غير شعائر خاصة.

ويسود الاعتقاد في أوروبا، أن الابن في الهند يتبع خطى أبيه وبعض في المهمة نفسها، لكن هذا ليس ضرورياً لأن البراهمانيين وهم رجال دين يمكن أن يكونوا حكاماً كما رأينا آنفاً عند الماراتيين. ويحتل البراهمانيون عند الأمراء البثنين الآخرين من الرسيوطيين وظائف مدنية، ويعملون عند المسلمين كموظفي جمارك أو كمرورعين. وعرف تجاراً من البراهمانيين وحرفيين من البنيان أو الرسيوطيين، إنما يحملون اسم قبيلتهم التي ولدوا فيها، على ما يبدو كي لا ينسوا مركز أجدادهم، وكي تتمكن ذريتهم من الانضمام إليهم حين يحلوا لها، أو كي يحرموا بعض القديسين من اسلافهم.

ولا ينتقل أي هندي من جماعة إلى أخرى أعلى منها شأنه، وقد سمعت بأمير عثماني أصحبي من البراهمانيين وأصبح بالتالي أنبل لكن هذه القصص توافقت مع الكثير من الظروف والكلمة بلا نظر أن أحدهم سينبع مثله. يحكى أن شخصاً من طبقة الجنود في جنوب الهند أخذ يحضض تدرجياً جيرانه فأسمى سيد بلاد شسعة وعية للعبادة، ثم أراد أن يصبح من البراهمانيين. اعترض الكهنة على ذلك واعتبروا الأمر مستحيلاً لأنهم يدعون تحدرهم من الآلهة وأن المولود كرجل عادي لا يمكن أن يولد من جديد، لكن تم نه أنعيراً، ما أراد شرط أن يني مبعداً شخصاً وأن يقدم له بقرة من ذهب، عظيمة الحجم حتى أنه يمكن لرجل ما أن يدخلها من ذبرها ويخرج منها من الفم، فقام الأمير بساء المعبد وقدم للبراهمانيين البقرة الذهبية (ومعها إيرادات طائلة تكفي لعدد كبير من الكهنة على الأرجح) ومز شخصياً أكثر من مرة بالبقرة حسب الطريقة المذكورة آنفاً، فاعتبر بعد ذلك من البراهمانيين وقد ينظر العالم بأسره إلى هذا الأمر على أنه مهين حتى لرجل من العامة، لكن في الهند حيث تقدر البقرة المحبة، لا يد أن الكثيرين تمنوا أن يمروا عبر بقرة كهذه (لأن الأمر يستحيل مع بقرة حية) ولم يألوا هذا الشرف. ولا بد أن البراهمانيين، وبهذه الشعائر، أي بإدخال الأمير من ذبر البقرة يدكروبه

بأصله الوضع وإخراجه من القم يعلمونه أن الآله اعتبره من سلاك أي براهماني.

وإذا يصعب أن ينتقل الشخص من طبقة الجنود إلى طبقة الكهنة، ويصعب أن يتدرج من طبقة دنيا إلى طبقة أرفع، يستحيل أن ينضم مسيحي أو مسلم أو أي إنسان من أية ديانة أخرى إلى إحدى الطبقات الهندية. أي إن اليهود لا يستقبلون مهتدين جدد. وهذا هو رأي السبب الرئيس الذي جعل الهنود في الوضع المزوي الذي هم عليه اليوم، لأنهم لو رضوا بجعل الأفعان والنتار الذين سيطروا أولاً على بلادهم من البراهمانيين أو الرسيوطيين، لاعتنى هؤلاء مع الوقت ديانة أهل البلاد كماتحي الصين، ولأصبحت الهند اليوم مملكة مزدهرة، لكن بهذه الطريقة بقوا رعايا هادئين ومكافحين تحت سيطرة أميادهم الأغراب كما لو أنهم يخضعون لزعمائهم، وبموا قحورين بأصلهم الهندي.

ولا يلائم الحكام الأجانب ألا يتسكتوا من أن يتجسسوا في بلاد يحكمونها استبدادياً، وألا يرمى السكان بالأكل معهم حتى أنهم يعتبرونهم غير طاهرين، لكنهم يحتملون ذلك لأن الوثنيين يملكون حزاناتهم بالسان، ويتقبل القانحون المسلمون كأبناء دينهم أولئك الذين يصرحون علناً باعتناقهم، لكنهم لا يحاولون هداية الكفار بالانفانج أو بالأكراه وذلك لأن الهنود الذين يعتنقون الدين الإسلامي يكفون عن العمل الجاد ويصبحون مجرد جنود، في حين أن الرعماء المسلمين يستقدمون الأفعان والنتار لإبقاء هذه البلاد العنية تحت سيطرتهم ولتوسيع نفوذهم. وما لم يهزم المسلمون، هزمه لاحقاً الأوروبيون الذين أرادوا جمع الثروات على حساب اليهود المادحين. إنما نجد في البلاد أمراء هود واسمي الفود. ويختص الحكام المسلمون في الأقاليم الكبيرة تدريجياً من سلطة زعيمهم المشترك المغولي، إذ إن سلطة هذا الأخير ضعفت للغاية حتى عرله ملك بلاد فارس، وأخذ ملك الأفعان أي أبناء دينهم ومن بعدهم التجار الإنكليز في الهند. ولا يحصل المغولي وحده لسلطة الإنكليز بل بعض الحكام الكبار أيضاً مما جعل حكم المسلمين ضعيفاً للغاية في الهند. وإذا ما امتدت سلطة الإنكليز حتى تلك البلاد البائية، وهذا ما قد يحصل في وقت أقرب مما نتوقعه اليوم، قد يستعيد اليهود قوتهم ويعيدون ضم الأقاليم التي كانت مكتظة بالسكان، والتي خرجتها الأمم الغربية إلى دولتهم المردهرة.

يعتبر اليهود الأمة الأكثر تسامحاً في العالم، ففي أي بلد أوروبي يسمح لأناس من ديانة أخرى أن يدعوا علناً إلى ديانة تخالف تلك المسيطرة في البلاد؟ يبدون في الهند وكأنهم لا يكثرثون للأمم، كما أن طريقة حكمهم تختلف عن تلك المعتمة لدينا أو لدى الأمم الأخرى. وتحرم كل طبقة على حسن تصرف أعصائها. وبالتالي نادراً ما يضطر القاضي إلى معاقبة تجاوز ما. حين يخالف أحدهم القوانين، يفرض عليه القيام بحج أو دفع غرامة نقدية أو أي عقاب آخر، وحين

يرتكب جريمة كبرى، ما من وسيلة بتأديبه سوى إقصائه عن عيقله أو بيئته، وعندها لا نستقبله هو وذريته أية طبقة أخرى باستثناء أبنائها، فيعيش دوماً في الفقر والمهانة. وبمعتبر وجود المسلمين والمسيحيين بالنسبة لهؤلاء الهنود نعمة إذ يبحثون عن ملجأ لهم بينهم، وأكد بي أوروريون أمصوا سواك عدة على سواحل الكورومندل (Coromandel) أن الدين يعمل المبشرون الأوروبيون على هدايتهم إلى الدين في الهند هم ناس من هذا النوع أو من أحقر الطبقات أو القبائل، يعتنق هؤلاء المسيحية أو الإسلام ليتصكروا من العيش بكرامة في مجتمع إن هم اجتهدوا في عندهم. وفي بلاد الأتراك، يدفع الرهبان الأوروبيون كاهناً ما أو حتى اسقفاً من طائفة مسيحية أخرى للاعتراف بالبابا كرئيس للكنيسة لقاء مبلغ سوي معين، لكنهم يكسبون الكثير في المقابل لأن العديد من يتبعون مثل رجل ذي نعمة كهذا. يقال إنهم لم يتمكنوا في الهند من هداية أي براهماني بالرغم من جهلهم وفقرهم المدقع، ويقال إن اليسوعيين على شاطئ الكورومندل استمالوا يوماً ثني يانغا من البراهمانيين، وقاموا بتربيته على الدين المسيحي الكاثوليكي، ولم يكشفوا له عن أصله إلا حين تأكدوا من أنه مسيحي متدين إلى حد أنهم قرروا الاستعانة به ككشير. وأعطوه البراميين الفاطمة بأنه من سلالة البراهمانيين كي يحكموه من التقرب من مواطنيه، لكن ما إن علم بذلك حتى توجه، حسب ما يروي، إلى أبناء طبيعته، وبلغى عفاً صارماً أو على الأصح عانى الأمرين حتى الشهادة ليتطهر من المسيحية بحسب وأبه ويتقبلوه كبراهماني.

يصعب علينا نحن لأوروريين أن نعرف ديانة الهنود وما هيهم المحتممة لأن كتب الشريعة القديمة لديهم والتي يعتبرونها إلهية كتبت بلغة قلة هم الذين يفهمونها بين علماء البراهمانيين ولأن الهنود اليوم يتكلمون لغات مختلفة وتتنوع طرق كتاباتهم. يمكننا رؤية ذلك على البوحة II، من كتابات مختلفة أخذتها عن بيان لا تيمد أمكنة ولادتهم عن بعضها كثيراً ولم تكتب الحروف بشكل جيد للغاية، لكنني أعتقد أن محبي اللغات سيقدرونها بانتظار الحصول على نسخ أفضل، ولا أظن أن أي مسافر أوروبي يرميها.

أ. حروف الأبجدية التي يستخدمها البياك في مقاطعة كوجورات (Guzurat) وقد أخذتها عن تاجر هندي في المحاف ب، حروف ابجدية هود ملتي بنجاب (Multani Ben Penjab) وكتبها بنياني في حرج، وضمني الحروف الأبجدية «ج» بنياني من دغولي (Devuli) هي أبي شهر إن الرموز التي يستعملها الهنود كأرقام أقرب إلى الأرقام التي تستخدمها عن تلك التي يستعملها العرب.

ومن المأسف بالنسبة لمسافر أوروبي يود الاستعلام عن ديانة الهنود، أن العلماء البراهمانيين لا يهتمون أبداً باللغات الأجنبية. ولا أظن أنه من الصعب، على من يستطيع التحدث معهم، أن يكسب صداقة رجل منهم، وأن يحصل بالتالي على معلومات قيمة لأنهم لا يحيطون بمبادئ

Tab II

120 II

3 4 5 6 7 8 9 10 11 12 13 14 15 16 17 18 19 20 21 22 23 24 25 26 27 28 29 30 31 32 33 34 35 36 37 38 39 40 41 42 43 44 45 46 47 48 49 50 51 52 53 54 55 56 57 58 59 60 61 62 63 64 65 66 67 68 69 70 71 72 73 74 75 76 77 78 79 80 81 82 83 84 85 86 87 88 89 90 91 92 93 94 95 96 97 98 99 100

121

122

123

124

125

126

127

128

129

130

131

132

133

134

135

136

137

138

139

140

141

142

143

144

145

146

147

148

149

150

151

152

153

154

155

156

157

158

159

160

161

162

163

164

165

166

167

168

169

170

171

172

173

174

175

176

177

178

179

180

181

182

183

184

185

186

187

188

189

190

191

192

193

194

195

196

197

198

199

200

201

202

203

204

205

206

207

208

209

210

211

212

213

214

215

216

217

218

219

220

221

222

223

224

225

226

227

228

229

230

231

232

233

234

235

236

237

238

239

240

241

242

243

244

245

246

247

248

249

250

251

252

253

254

255

256

257

258

259

260

261

262

263

264

265

266

267

268

269

270

271

272

273

274

275

276

277

278

279

280

281

282

283

284

285

286

287

288

289

290

291

292

293

294

295

296

297

298

299

300

301

302

303

304

305

306

307

308

309

310

311

312

313

314

315

316

317

318

319

320

321

322

323

324

325

326

327

328

329

330

331

332

333

334

335

336

337

338

339

340

341

342

343

344

345

346

347

348

349

350

351

352

353

354

355

356

357

358

359

360

361

362

363

364

365

366

367

368

369

370

371

372

373

374

375

376

377

378

379

380

381

382

383

384

385

386

387

388

389

390

391

392

393

394

395

396

397

398

399

400

401

402

403

404

405

406

407

408

409

410

411

412

413

414

415

416

417

418

419

420

421

422

423

424

425

426

427

428

429

430

431

432

433

434

435

436

437

438

439

440

441

442

443

444

445

446

447

448

449

450

451

452

453

454

455

456

457

458

459

460

461

462

463

464

465

466

467

468

469

470

471

472

473

474

475

476

477

478

479

480

481

482

483

484

485

486

487

488

489

490

491

492

493

494

495

496

497

498

499

500

501

502

503

504

505

506

507

508

509

510

511

512

513

514

515

516

517

518

519

520

521

522

523

524

525

526

527

528

529

530

531

532

533

534

535

536

537

538

539

540

541

542

543

544

545

546

547

548

549

550

551

552

553

554

555

556

557

558

559

560

561

562

563

564

565

566

567

568

569

570

571

572

573

574

575

576

577

578

579

580

581

582

583

584

585

586

587

588

589

590

591

592

593

594

5

ديهم بالسرية كاللصوص ولصيريين وأنزديين الذين يعيشون تحت سطوة الأتراك فيدعون انتصاهم للإسلام. ولم أنسكن من انتصاهم مع علماء اليهود سوى بواسطة مترجم لذا لم أجمع الكثير من المعلومات حولهم. لكن مجد بين التجار اليهود من بنكس البرتغالية والاسكليرية، ومنهم بعض الأشخاص المظلمين على الدين وقد أكدوا لي أن المتقنين والحكماء بينهم لا يعبدون كخالق لكل شيء، سوى إله قدير، حاضر وغير مرئي، لكن إبراهيمائس اخترعو آلهة ثانوية أعصوها أشكالاً معينة ووظائف محددة لأن الشعب البسيط عاجز عن فهم الأفكار المجردة^(٩). ويطلقون على آلهتهم الثلاثة الرئيسية الأسماء التالية: براهما (Brama)، فيشو (Wistnu) ومادو (Mado)، ويعتقدون الشعب أن براهما هو الخالق الأعظم الذي أوكل فيشو مهمة العناية بكافة المخلوقات الحية، ومادو مهمة العناية بأرواح الموتى^(١٠). اختلق البراهمانيون على مدى السنين روايات مقدسة، وكلموا أتباعهم بشعائر كثيرة حتى أن منخلهم نسي ديانتهم القديمة. ويحتفي البنيان الذي أكدوا لي أنهم لا يعبدون سوى الإله القادر، الأبدى وغير المنظور، بأبقارهم إلى حد كبير وكأنها إلهة، وحين يهدت ملاحظات حول هذا الموضوع، أكدوا لي أنهم يمجدون الخالق عبر مخلوقاته، وأن على الإنسان أن يشكر الرب الذي أهدها هذا الحيوان الوديع الذي يحرق حقه ويؤمن به المحبب عندما رأيت هذه العناية الفائقة التي يوليها البنيان لأبقارهم وسعيهم الدائم لحصول على ثمار من مختلف، فسامت إذا كان بين المصريين القدامى من أتبع إحدى هذه المذاهب الهندية، وحتى بين الاسرائيليين الذين أرادوا صنع عجل من ذهب قرب طور سيناء، لكن دراسة كهذه ليست من اختصاصي إذ قد أعطى.

(٩) إن تقريباً الرد الذي تلقاه برنيه (Bernier) من علماء البراهمانيون في بنارس (Banars) وهي من أشهر الجامعات في الهند. (رحلة السيد برنيه الجزء الثاني ١٥٨) ويركد دوي (Dow) الأمر نفسه استناداً إلى الكتب التي يعتبرها اليهود مقدسة. ولا أعرف مسافراً يمكن من التعرف على كتب على اليهود، وحين البحث جرد لهم دينهم أكثر من هدى الآتين، وإذا ما أردنا الحكم على دينهم انطلاقاً من تصرفات العامة لأعضائنا يروي تيمو (Thavmor) أن الوثنيين في بنشان (Bassam) يؤيدون أحياناً صورة مريم التي يعتقد الكاثوليك أنها عذائية، ويعتبرونها صبرة شينا (Cheta) روجة الهيم رام (Rama)، وفي البدء لوادوا مسح أجسادهم بالزيت أمام التمثال، وحمل القواكه بلهجان، وفقاً لعاداتهم الوثنية، لكن هؤلاء الآخرين رفضوا ذلك، وطلبوا منهم حمل الشموع والزيت للقسادين ورسم المال في صندوق الفقراء. إن الوثنيين الذين يضرعون لصورة مريم ويحملون الهدايا بلهجان يفكرون مثل عامة المسلمين الذين يحتضن الحجابات إن كان من كتبها مسيحي أو مسلم أو يهودي. ويقرولون أنها بن نصر إن لم تنجب. وسميت في الهند إن المسيحيين الذين كانوا سابقاً من الوثنيين، يمارسون الشعائر الدينية المسيحية والوثنية في آن معاً عند ولادة أطفالهم وعند الزواج والدفن لأنهم يعتبرون أن الاكثار من التبتد أفضل من الانزال منه.

(١٠) كان أحد صاغة بوساي وهو من طبقة البنيان يسمى برما وقينسو ومادو القالوس، الاب والابن والروح القدس، ويعتقد استناداً إلى ما سمعه من البرتغالين الهنود أن ديانتهم لا تختلف كثيراً عن الديانة المسيحية.

يعتقد اليهود أن نفس الإنسان تنتقل من جسد إلى آخر حتى تتطهر كلياً، وأعلمني بعض البياض أنهم يعتقدون أن روح الإنسان قد تنتقل إلى جسد حيوان ما. لكن هذا ليس بالسبب الذي يمنع البياض والبراهمانيين من تناول ما يبيع بالحياة لأل الرسبوطيين (وهم من الوثنيين أيضاً) يأكلون لحوم الحرافد، ولا يمنع الأمراء الهنود رعاباهم من مسيحيين ومسلمين من ذبح الأبقار. وتحدثت مع قبطان سفينة أوروبية وتاجر زجاج في السجن عن الممارتين، فأعانا أنهما لا يستطيعان المباش من دون لحم قدموا لهما يوماً لحوم الخراف والدجاج^(١). ولو اعتقد اليهود بأن أرواح أسلافهم تعيش في هذه الحيوانات لما سمحوا لرعاباهم المسيحيين والمسلمين بذبح أي من هذه الحيوانات لا سيما الأبقار ولما قدّم البراهمانيون لسجائهم لحوم الحرافد والدجاج.

ولعل اليهود لا يأكلون لحوم الأبقار لأسباب صحية، فمسلمو مصر وسوريا وحتى القسطنطينية، حيث الحرارة ليست مرتفعة كما في الهند، يعتبرون أن لحوم البقر غير صحي لا سيما في الفصول الحارة لذا فلما يأكلون منها، ولعل المشرعون اليهود، ظنوا أنه ضروري للصحة تحريم اللحم لأن الشعب يتبع المعتقدات الدينية أكثر من نصائح الطبيب، كما اعتقد أن القوانين الدينية الشرقية أمرت بتنظيف الجسد مراراً لأسباب صحية أيضاً.

إن البراهمانيين والبهتيان متعاطفون جداً مع كافة الحيوانات، وقد اعتاد تجر ثري من السخا أن يحمل كل صباح الشمر حتى سطح منزله لإطعام الحمام والطيور التي تحط عليه. وفي بومباي، رأيت خادماً أحد البتيان يجمع الطيور الكواسر خارج المدينة، وبذت هذه الطيور وكأنها تعرفه إذ تحلقت حوله ما إن رآته، أما رؤيتها وهي تلتفت كسرة الخبز أثناء طيرانها فمتعة لبعض. وقد أكدوا لي أن الهنود يطعمون النمل، وقال لي التجار أنه يضع في شجره طعاماً للقران والجردان كي لا تغرب من مصانعه، ويدعي البعض أنهم لا يرمون الماء أرضاً خوفاً من أن يقتلوا بعض الحشرات. ويستعمل بعض اتباع الديانات الأخرى حب الهنود للحيوانات، فقد اعتاد جندي أوروبي في بومباي أن يجزّ كلباً بحبل في الشارع التجاري وأن يهدده بهضربه، فيتقدم معه أحد الوثنيين ويقدم له شرباً ليمنحه من إساعة معاملة مخلوق بريء^(٢). ويبيع صيادو الأسماك المسلمون في السخا سلاحف للبياض كي يقوم هؤلاء بعمل صالح بإطلاق سراحها.

يضع البياض موتاهم على كومة حطب ويحرقهم عند الموت حتى يحمل أول جزر رمادهم معه،

(١) بعد اشارة مشابهة في الصفحة ٨١ من «Fryer Account of East India and Persia».

(٢) يشير فريمتون في الجزء الثاني من كتابه، صفحة ١٢٢ إلى تصرفات كهنة يهود يقوم بها الأوروبيون النصارى لكسب المال من البتيان.

وهذا ما شاهدته شخصياً وأكثر من مرة^(٥) ويشم دهن أولادهم الذين لم يتعد عمرهم ثمانية عشر شهراً، ويغال إنهم يشعرون بطن المرأة الحامل ويتزعجون الجبين ويدفنونه في حين أنهم يحرقون الأم

وقدما يسمح في بومباي وفي مدن أخرى حاصصة لحكم المسلمين بحرق النساء ومن أحياء مع أزواجهن المتوفين، حتى أن هذا الأمر لا يسمح به غالباً في مناطق حكم الهند. روى لي تاجر من البراهمانيين في مسقط أن عائلته قالت شرفاً عالياً يعوق لعائلات الأخرى لأنه سمح لها بحرق جدته مع زوجها المتوفى، ولأن هذا الشرف لا يسمح إلا للنسب تثبت للقاصي بأداة ناطقة عفتها وحبها لأزواجها.

يقسم البراهمانيون الوقت مد تكوين العالم وحتى بهابته إلى أربع فترات، تمتد كل منها كما يلي:

(١) وقت سانا باغ (Sana Jug)، ويمتد على ١٧٢٨٠٠٠ عام

(٢) وقت تريتا باغ (Treta Jug)، ويمتد على ١٢٩٦٠٠٠ عام

(٣) وقت دوبرور باغ (Doapor Jug)، ويمتد على ٨٦٤٠٠٠ عام

(٤) وقت كالاباغ (Calla Yug)، ويمتد على ٤٣٢٠٠٠ عام

وقد مر من الفترة الأخيرة ٤٨٦٥ سنة وذلك في نهاية العام ١٧٦٤ للميلاد، وبالتالي، ووفقاً لحسابات البراهمانيين بقي للعالم ٤٢٧١٣٥ عام.

ونجد ما حصل في الفترات الأربع في الكتب التالية

(١) كتاب راجر ويد (Ruger Wed) حول وقت سانا باغ

(٢) كتاب سدسفور ويد (Sudsufur Wed) حول وقت تريتا باغ.

(٣) كتاب شام ويد (Scham Wed) حول وقت دوبرور باغ.

(٤) كتاب الوروا (Attorwa) حول وقت كالاباغ^(٥٥).

(٥) شاهد بروز (Prose) هنا امرأة من طبقة الجود تدعى. وبحرق الأعيان موتاهم في البنغال، في حين أن غيرهم يرميهم في نهر المسج، ويتركهم أسرون تأكلهم الطيور الكواسر وحيوانات مفترسة أخرى، وحلة بربيه، الجزء الثاني، صفحة ١٢٠.

(٥٥) يسمى الكولونيل داو (Daw) هذه الكتب براس أي دي، بدا (Ruy Beda)، شهام بدا (Schaham) بهاجر بدا (Judger) وباتار با (Obatar Bah)، فيما يطلق بربيه عليها اسم ازربدا (Atherbed)، راجر بد (Zagerbed)، وكبد (Rackbed) وسناباد (Sannabed)

بحسب الهندو الرمن أيضاً وفقاً نظام آخر، فيعتبرون العام ١٧٦٤ للميلاد هو العام ١٦٨٦ بعد شاه ليوان (Schach Liwāun) (الذي يسميه البعض سلاوان (Sa.lawan) وسمكه راديه (Sancka) Radsia ملك مسجياتان (Mundsijpatan) ويبدو أن تعبيرات عدة طرأت على النظام السياسي والكهنه في عهده. تدوم هذه السنة ٣٦٥ يوماً وست ساعات واثنتي عشرة دقيقة، أما الأشهر فهي:

جيت ٣١ يوماً (Scheiter).

يشاك ٣١ يوماً (Weisäck).

دياد ٣١ يوماً (Dfiad).

أشار ٣١ يوماً (Afar).

أسفو ٣٠ يوماً (Asfo).

كارنك ٢٩ يوماً (Kartig).

موكشر ٣٠ يوماً (Mogfir).

بوش ٢٩ يوماً (Poos).

شراين ٣١ يوماً (Srauren).

بدروا ٣١ يوماً (Badrowa).

ماك ٣٠ يوماً (Maag).

بالكن ٣٠ يوماً (Paggen) (١٠).

استاداً إلى الحساب الهندي، يعتبر هود ساحل ملاير نهاية العام ١٧٦٤ للميلاد، العام ١٨٢١ بعد راجا وير ويكرام ماندي (Radsja Wir Wilkkram Mandsji) ملك يوج (Udsje) في مالوا (Mallawa) ووالد الشاه ليوان الذي ذكرته آنفاً. وهي سنوات قمرية، تبدأ أشهرها عند التقاء الشمس والقمر، ويتم أحياناً زيادة شهر بأكمه، كي تقع أيام الأعياد في الموعد دائماً. وتسمى هذه الأشهر ادهث ميرو (Adik Memo) أي الشهر المضاف، لكنه لا يعتبر مقدساً أكثر من أي شهر آخر في السنة العادية.

(١٠) وفقاً لهذه الحساب، تألف السنة من ٣٦٤ يوماً، إذ لا بد أن أحد الأشهر يتقصر يوماً، حصلت على هذه المعلومات من براهماني ترجم لي حديثه ترجمان بجهن معطلحات عدم الفلك بالخص الانكليزيه والهندية لعمره الادوات التي يستخدمها هذا البرهماني، يمكن مراجعة وصف شبه الجزيرة العربية.

تبدأ السنة المدنية عند هبوط موجارات المسد بالشهر اندي وصل فيه بعضهم العصيم رامشي، الذي يقيمون له احتفالات عدة، إلى مقاطعاتهم، بدأ يُحتفل برأس السنة في غوجارات وفي برسي في شهر كارتك في حين أن سكان المسد يحتفلون به في شهر اثار. وتلي الأشهر المدنية بعضها البعض بترتيب لأشهر الملكية بعضها. أما بالسنة لأيام الأعياد عند اليهود، فما عرفتة يطعنا على كبار قديسيهم وأبائهم ويعطينا فكرة عن ديانتهم اليوم.

وتدوم حفلة الدوالي (Dwali) أو رأس السنة ثلاثة أيام، وتستد من اليوس الأخيرين لسنة الماضية واليوم لأول للسنة الجديدة، لكن بما أن السنة لا تبدأ في اليوم نفسه في كافة الأقاليم، يحتفل بهذا العيد في أوقات مختلفة. ويصلي اليهود الاسهم السارية والمفرقات في أعيادهم كما يمشون بيوتهم بالقناديل.

عصف روان (Rawan)، وهو ملك جبار في سيلان، يوصف بأنه ذو عشرة رؤوس وبأنه عول كجده، روجة راجا رامشي (Radsja Ramcschi)، مقصد هذا الأخير سيلان وقضى على روان وجده. واحتفاءً بهذه المناسبة، يحتفل بعيد هولي (Hull) في ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ من شهر ماك. وعندما نرى اليهود المعروفين بجديتهم، خلال هذه الأيام، يحكم عليهم كما حكم التركي على الأوروبيين أثناء الكرندل واعتبرهم محايين أو يصيغون نديهم ووجوههم وأيديهم باموس الأحمر والأصفر كما كانت ثياب رامشي وجماعته محظية بالدماء بعد معركة سيلان ويركضون في الشوارع بأيديهم الملوثة وحقق مليئة بالألوان يرسقون بها أبناء دينهم ولا يمسخها أحد منهم لأن آخر سيعود ويؤثر بها. وقد سمع لقاصي المسمم هود سوريات من الاحتفال بهذه المناسبة عساً لكنه عاد وسمح بذلك لقاء مبلغ من المال. وحين كنت في بومبي، تمّ الاحتمال بهذه المناسبة مع كافة الشعائر.

ويعتبر اليوم الأول من شهر جينر يوم عيد نكي لا أعرف مناسبة ذلك، ويصادف في التاسع من يوم عيد في ذكرى قصة ما لبطنهم رامشي ويصومون في ١٤ ريراك في ذكرى شيشما ووتر (Neschinga wanter). وفي الخامس من شهر شواب، نرى ثمرة حور الهند ذهبية في السماء ويوافق ذلك مع شعائر عدة، وهو يعتبر يوم عيد أيضاً. ويروي اليهود حكاية حول هذا اليوم وهي أن براهماني ثيباً براوان، الذي ذكرته آنفاً، أن فتاة ما متهلكه، فشدد عليها الحرسة مند داك الحين. وعندما بدت السنة أشهر، هطلت أمطار غيرة تعرف من حولها كنهها، لكن المياه حمت الفتاة الموضوعة في صدوق من جزيرة ميلان حتى اليهسة قرب شاطئ شخص يدعى راجا (Radja) الذي سعد برؤيتها فأخذ يرمي سوباً جوره هند في البحر في الموعد نفسه. وترحب هذه العشاء لاحقاً رامشي الذي قضى على روان. ولا يقتصر هذا العيد، الذي يقام تخليداً بقاء

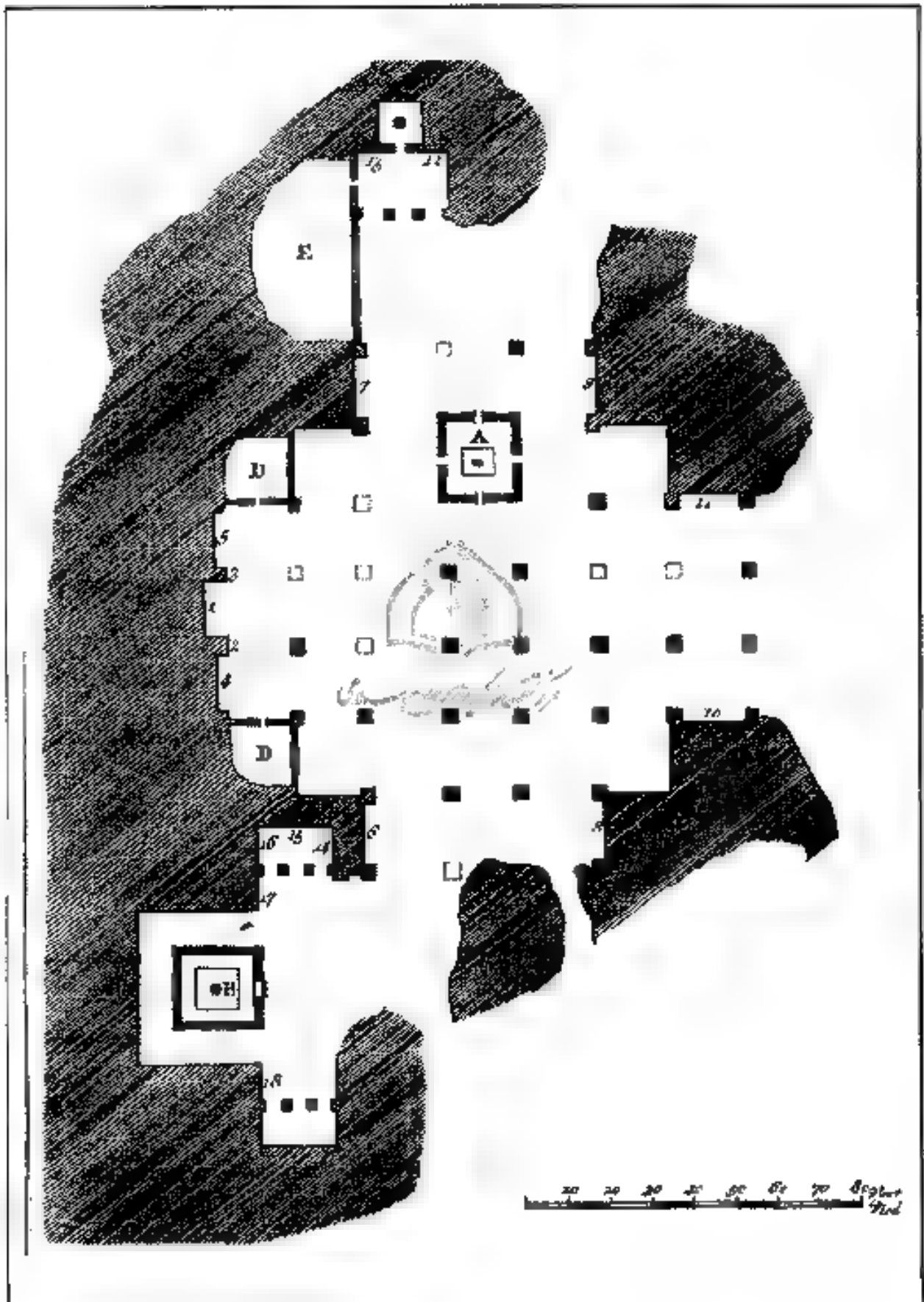
هذه الفتاة العجائبي على قيد الحياة، على هندو سواحل مالابار، ويحتفلون به دائماً عند نهاية موسم الأمطار. ويقي البحر ثائراً هائجاً في الأشهر التي تسبق هذا الاحتفال، فلا يتجرأ أي مركب هندي على الخروج من المرفأ، لكن ما أن يفضي بجورة الهند، إذا ما صبح التبحر، يبحر الوثنيون من دون خوف. ويصادف هذا الاحتفال في السند قوجارات في الشهر التالي، ولعل الأمر يعود إلى أن الأساطير تنرم عن الهطول في وقت لاحق.

في ١١ شراي، يحتفل بولادة كيش ناوانتر (Kisch Nawanter)، ويدعون أن المعجزة التالية حصلت في ذلك اليوم: نتماً براهماسي لملك عظيم يدعى كس (Kauns) أن أخته ياسادا (Jassada) المتزوجة من المدعو نودادجي (Naudadsji)، سضع فتى يقدر في ما بعد رجلاً عظيماً يقاتله، فأمر كس بقتل أولادها الستة وحين حملت من جديد، قيدها بجدار مرلها. وأنجبت طفلاً اطلقت عليه اسم كيش ناوانتر أي كيش الجبار وأتسم الفتى بالدكاء، فأوصى أبه أن يهوله بفتاة وبنت في الوقت نفسه الذي ولد فيه، لكن هذه الفتاة تعيش على الصفة الأخرى من نهر عظيم وعميق، وحار مانجي كيف يقطعها فقال له أبه أن يكمل طريقه بأمان، فاجترأ النهر سيراً على الأقدام وبادل أبه بالفتاة وعاد إلى منزله. وما إن علم كس بأن أخته أنجبت حتى أمر بقتل الرضيع، فماتت الفتاة.

وفي ١٠ أسفو، يحتفل اليهود بعيد يسمونه دسفارا (Desfara)، ويتم في هذا اليوم تعظيم وتمجيد شجرة الساموري (Samorie) لأن رامشي جلس في قبتها حين جمع جسده ليتوجه إلى سيلان وقص راوان. ورأى في هذا اليوم طيراً يطلق عليه اسم نيلشاه (Nilschahs)، فأمل أن تمر عليه سنة سعيدة.

سأورد المعلومات الأساسية التي تنميتها حول الوصع الحالي لديانة اليهود. إذا ما قارناها اليوم بما علته الفلاسفة القدامى في الكتب التي يعبرونها مقدسة والتي ترجم الكولونيل دوي (Dow) شيئاً منها فوجدت أن ديانة اليهود كديانات غيرهم شهدت تغييرات عظيمة خلال القرون التي مرت عليها وإن حارل العلماء البراهمانيون المحافظة على ديانته أسلافهم كاملة.

ويقتصر عداء اليهود الأساسي على الأرر والنحيب والزبد، وبكتفي عامة الشعب بحيز الذرة، ويحبون اصافة التوابل سيما الحرز إلى أطباقهم كما يحبون السكر، ولا يأكل أي جندي، من أي طائفة كان، لحم البقر، لكن الراسبوعيين أو طبقة الجند تأكل لحم الحراف وربما لحوم أخرى. وتعتبر قوانين البراهمانيين في ما يتعلق بالطعام أصعبها، إذ لا يتجرأون على أكل ما هو نابض بالحياة، وإذا ما أرادوا التفتد بدقة بما ترضه عليهم صيقتهم لما أكلوا البصل والفجل وخمسراً أخرى تأكلها الطيقات الأخرى بحرية مطلقة. ويبيح أن يحضر براهماني الطعم الذي يأكلونه، وأن



يحضر الماء الذي يشربونه في انائه النحاس وذلك في وقت لا يحصر فيه أحدهم الماء من البئر نفسها، كما يصومون نصف أيام السنة ولا يأكلون خلالها إلا أصناف محددة. باحتصار، إن واجبات البراهماني متعددة وصعبة للغاية، حتى أن تاجراً براهمانياً في عسقط أكد لي أن قلائش من طبقته هم الذين يتمكنون من التقيد بهذه التعاليم وتفيدها كلها من دون استثناء، ولا يأكل البنيان أبداً ما ينضى بالحياة، لكنهم لا يتوافقون على العيش كالهنود، وندراً ما يصاب هؤلاء الأحيرون بالأمراض، كما يتجددون دائماً في عمنهم، على عكس الأوروبيين الذين لكثرة ما يأكلون ويشربون وفي أوقات غير منظمة لا يقومون على العمل ويصابون بأمراض تؤدي إلى موتهم غالباً.

وضع البراهمانيون قواعد عدة للهند حول الأكل والشرب، فيجلسون متربعين على سجاد أو أرائك كالأتراك والعرب^(*) ويعيدون عن بعضهم البعض حتى أن ملابس أحدهم لا تلمس ملابس الآخر. ولا يستعملون للأكل شوكة أو سكين أو منقعة، بل صحوناً هي عادة أوراق كبيرة يرمونها خارجاً ما أن ينفوا وجنتهم، ولا يشربون أبداً من إناء استعمله شخص من ديانة أخرى. عندما أبحرت نحو جزيرة الفيل، كان البحارة يحتملون بحيرة مياه مشرقة، يشربون مباشرة من دون أن تلمس الحجرة شفاههم، ولعل الحرية تعود لوثنيين. وهناك بين البحارة مسلمون أو أن الوثنيين من طبقات أخرى، ويطلب من الهندو المحافظة على نظافتهم، حتى أكثر من المسلمين، فلا يكفون بالاعتسال قبل الوجبات وبعدها وفي أوقات معينة، إنما ينبغي أن يغسلوا كياً صباحاً ومساءً.

ونجد في الهند حالياً، حيث ازدهرت الفنون والعلوم في الوقت نفسه الذي ازدهرت فيه في مصر، أعمالاً قديمة تثير الإعجاب. لكن يبدو أن الأوروبيين لم يكتفوا لها، فقد ذكر العديد من المسافرين المعبد الوثني القديم على جزيرة الفيل الصغيرة قرب بومباي عرضاً، وألفيته غريباً وجديراً باهتمام محبي الآثار، حتى أنني ررت ثلاث مرات ورسمت كل ما أثار انتباهي. ويقع هذا المعبد حالياً في التجل حيث حفر في الصخور الصلبة، ويبلغ طوله ١٢٠ قدماً وعرضه المساحة بعضها تقريباً إذا ما استثنيت المداخل القائمة على الجهتين، وجد رسماً له على اللوحة III. ويوم المدخل الرئيس في الجهة الشمالية ويمتد أمامه سهل نقي بئر وبطل على البحر والحجر المجاورة، كما نجد مداخل من جهتي الغرب والشرق لذا لا يقتصر المعبد للهواء الصنحش إذا ما نطف، لكنه يستخدم حالياً كمرية للحيرانات لا سيما ذوات القرون التي تدخل عند اشتداد القيظ. إن سطح المعبد غير مرتفع بسبب الغبار الذي يحمله الهواء والتراب الذي تجرفه الأمطار، لكن الكمية قليلة مما يدعو للاعتقاد بأن المعبد نطف منذ سوات.

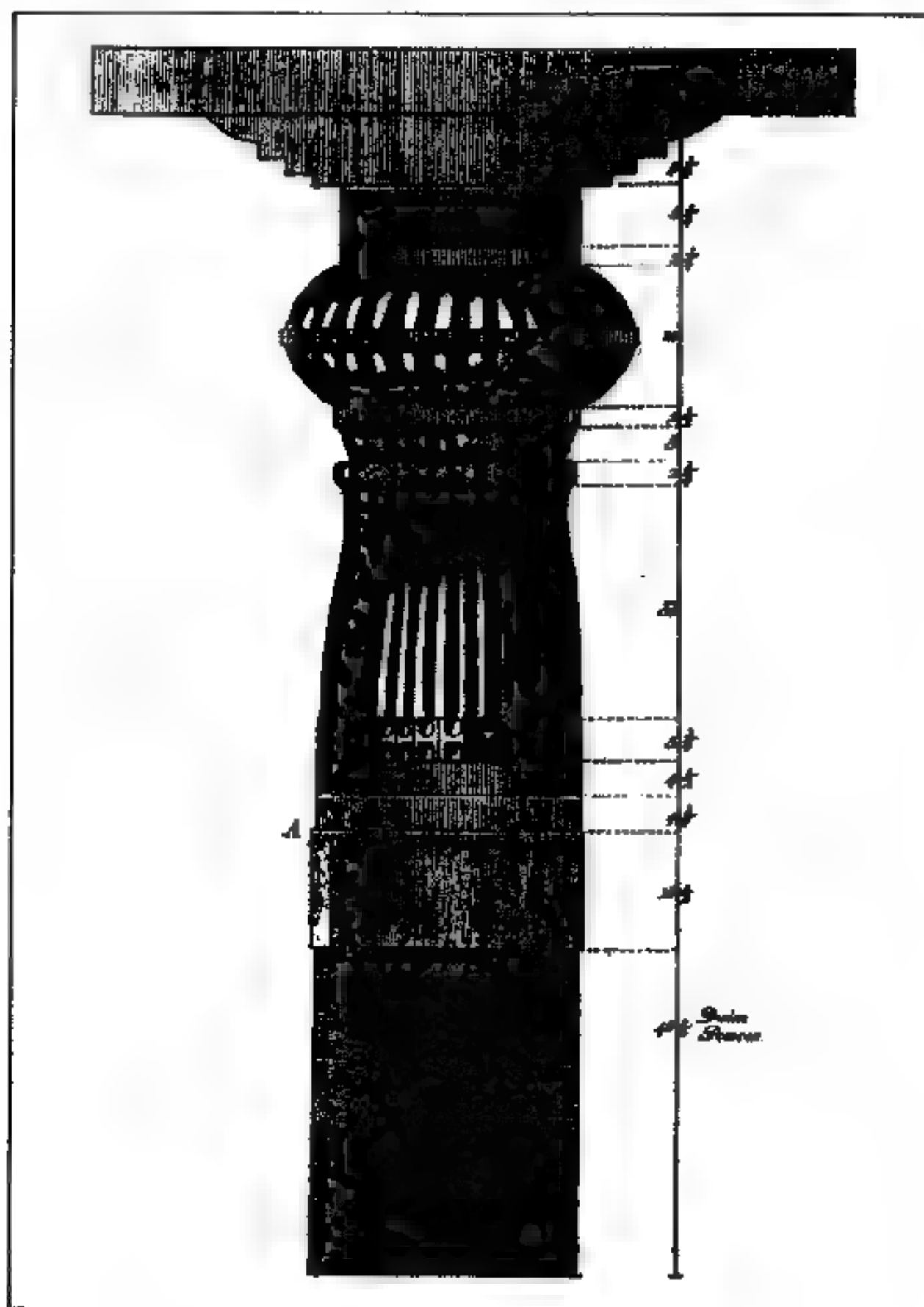
(*) انظر وصف شبه الجزيرة العربية.

ويبلغ ارتفاع الصرح الرئيسي الداخلي أربع عشرة قدماً ونصف. ويستند الجبل الذي حفر المعبد فيه إلى أعمدة عدة نحتت من الصخرة نفسها، وهنالك العوامل الطبيعية وعامل الوقت بعضها من الأسفل، وقد أشرت إليها بنقاط على الرسم. وأشار إلى أننا نرى على بعض هذه الأعمدة، عند النقطة من اللوحة IV، صورة بلاله غوبيس (Gonnis) وهو إنسان برأس فيل، لكني لم أورد هنا. ونجد أيضاً في الصرح الرئيسي غرفة أ، لوحة III، حفرها الباني في الصخر حين بنى المعبد، ولها أربعة مدخلات وطائعتنا صورة بشري من كل جهة من هذه الأبواب يبلغ ارتفاعها ثلاث عشرة قدماً وهي تلمح فلا يستند إلى الحائط سوى الظهر، وقد نحتت في الصخر نفسه عند بدء العمل. وقد تعرضت هذه الصور للتحاكي للأذى من الأسفل، ولا يعود السبب إلى قصص البرتغاليين كما يدعي السافرون إنما لمياه الأمطار التي تتساقط على المعبد من سحاب وتبقى فيه لوقت طويل، وبو أورد البرتغاليون إلحاق الضرر بهذه الصور الوثنية لما حملوا المسفعية على جبل عال كهذا واكتفوا باستعمال المطرقة، وسمل البعض استخدمها بالفعل لهدم بعض التماثيل والمنحوتات.

وتكثر الصور العالية والمنحوتة في الصخر على الجدران الجانبية، ولا بد أنها تصور فارخ آلهة اليهود وأبطالهم، لذا تفتح آفاقاً جديدة أمام العلماء وترودهم بمواضيع للدراسة. ولا يصحاحي جمال هذه التماثيل جمال المنحوتات الاغريقية والرومانية لكن رسمها وموضعها افضل من الرسومات المصرية وأبهى نظراً لقدمها. نجد قرب الرقم ٦ من الحارطة وبالتالي عند المدخل التمثال الاساسي الذي يمثل على ما يبدو رام هنسو ومادر أو إلهاً آخر بني المعبد من أصله. وقد رسمته على المرحلة V مع التماثيل الموجودة قرب العمودين ٢ و٣، وهو عبارة عن تمثال يصغي بثلاثة رؤوس، وأربع أيدي، ويبلغ ارتفاعه ثلاث عشرة قدماً، ويسمى هذا التمثال كغيره بشفاه سفى غليظة، ولحراظ كبيرة تنطلي حتى الأكتاف وهي موهنة ما لا زالت سائدة في الهند اليوم. ويحمل أحد الرؤوس شاربين، أما الرأسان الآخران والتماثيل الاخرى فلا تحمل شاربين أو ذهباً (يطبق الشباب اليهود شواربهم ويرخي العجزة دقوبهم) ويتميز وجهان من هذه الوجوه بسمات جديدة أما الوجه الثالث فيبتسم لحيحة (كوبرا كابلان)^(١)، ولا يمكن اكتشاف ما يحمله التمثال في يديه اليسريين. ثم حصر القبعات بمهرة، ويبدو أنها من المعدن، استناداً إلى الزينة التي تحوها، ويبدو أن التمثال الأمامي كان يحمل على جبينه حجباً كريماً وفي رقبته عقدان رائعاً من الأحجار الكريمة واللؤلؤ أما الرأس الذي يحمل شاربين فيملو قبعته رأس ميت.

يبلغ ارتفاع التمثال الموجود إلى يمين المذكور أعلاه وقرب الرقم ٢ على الحارطة، عشرة

(١) يذهبون أن هذا النوع من الاقاعي يكثر على جزيرة قيس، وأن اليهود لا يفتلونها، ويصبرونها صدقة ثلاثين ويقلون إنها لا تهاجم أحداً الا إذا تعرضت للأذى.







أقدام، لكنه فقد قدميه وإحدى يديه مع الزمن، ويدلر وكأنه يتكىء بيده اليمنى على رأس شخص آخر يجلس لربه مبسماً، ويستند التمثال الرئيسي من الجهة الأخرى (قرب الرقم ٣ على الخارطة) بذراعه اليسرى على رأس قدم، ويلتصق جبل ربيع حول اكتاف التماثيل الكبيرة، وتندلى من أذانهم أقراط ثقيلة، ويترن سواعدهم سوار فوق الكوع وأخر تحتها، كما يظهر على اللوحة.

نرى قرب الرقم ٤ على الخارطة حوالي ٣٠ تمثالاً تمثل من دون شك معمرات بعض ما أو اله ما من آلهة اليهود، واكتفيت برسم أهمها على اللوحة IV. أما التمثال الرئيسي فيمثل امرأة بثدي وحيد، وأربع أيدي، ولعنها فارسة تستند بيدها اليمنى الأمامية على رأس ثور، وتمسك بيدها اليمنى الخلفية أعني، وبيدها اليسرى الأمامية قطعة فماش أو ما شابه ذلك، وبالخلفية ترساً صغيراً وتعتمر القبعة نفسها التي نعتصرها التماثيل الأساسية في هذه المعبد، وتضع أيضاً أقراطاً وعقداً وحزاماً، فضلاً عن الأساور في يديها وتقوم على صخرة منحوتة لكن العوامل الرملية حشها، أما في الجهة الشمالية، فنجد امرأة صغيرة تحمل في يدها مدقة كتلت التي تستخدم في الهند حالياً.

وأثار انتباهي تمثال يقوم إلى اليمين وقبالة رأس العجل، فله ثلاثة رؤوس وأربع أيدي ورسم على مقعده عيون، ويرى الصورة المحفورة على كتف أحد التماثيل في أماكن أخرى. إذا ما كانت الصور تمثل نيتون الهند، وإذا ما كانت التي تتحرك في الأعلى تمثل الملائكة، وما يعني كل هذا أثره العلماء الآثار الهندية، ولعلنا إذا ما حصلنا على معلومات حول ديانة الهندوس وإذا ما أصبح بعض المسافرين علماء البراهمانيين على هذه الصور تمكن من تفسيرها.

يسكن أن نرى المغارة على اللوحة VII وعلى الخارطة قرب الرقم ٥. يبلغ طول التمثال الرئيسي إحدى عشرة قدماً ويتكىء بيده اليسرى الأمامية على قزم ينظر إلى الأعلى بطريقة تدعو إلى الرناء كما يشتكي من ثقل وزن معلمه. ويحمل القزم يسراه مدقة كبيرة وتلتصق حول يده اليمنى حية، ويعتمر ما يشبه العمامة. ويستند تمثال المرأة الكبير على أنثى قزم تندر وكأنها تخرج تحت هذا الثقل، ويرى إلى اليمين امرأة صغيرة ترتدي سروالاً.

وتطالعنا قرب ٥ (على الخارطة المرسومة على اللوحة III) شفق مظلمة، تكثر فيها المياه، في الفصل الذي زرت فيه المعبد، وهي مياه تعب منها الأبقار التي ترتاد المكان، ويجد قرب ٥٥ شقة كبيرة مظلمة أيضاً، وقد اعتاد المسافرون، حين يروون السرائير أن يطلقوا عبارات بارية لطرده الحيوانات المفترسة التي تختبئ فيها، أما أنا ففصلت ألا ألتج هذه المغارة أو غيرها. حيث يحتمل وجود حيوانات مفترسة لا سيما حين لا أكون متأكداً من وجود مخرج آخر لها أو امكانية لتراجعها بعد اصافتها. أطلق الكسندر هاملتون عييراً نارياً في أحد المعمرات، فخرجت أعني يبلغ



طولها ١٥ قدماً وعرضها قدمين ورفاقه من المعبد وانصرف إلى انتهاء درسه^(٥) كما أضحى صابغ من بومباي البار في معبد مدتل في كناري في جزيرة سلعت (Salfet)، فهاجمه سرب من الرينور ورمه أرضاً، وسارع أصحابه حين سمعوا لطلق الناري لرؤية إذا ما تعرض لهجوم أي حيوان مفترس فوجدوه في حالة مزمنة. وتميش هذه الرايير في أعشاش كبيرة مسديرة معدة في القبة، ولم تكن لتهاجم الضابط لو لم يرصدها أولاً^(٥٥).

تمثل الصورة أعلى اللوحة IIIV معاره حدد موقعها قرب الرقم ٦ على خارطة هذا المعبد يظهر التمثال الرئيس جالساً، وله أربعة أذرع، ثلاثة منها مقصودة، وفقد التمثال انصير الجالس إلى يمينه رأسه كما لحق الضرر بأسفل الصخرة التي يقوم عليها. ويوجد في الجهة اليسرى لتمثال الرئيس امرأة تحمل طفلها كما تفعل نساء الهند حالياً^(١).

وتختلف هذه المعارة عن غيرها لوحود تماثيلين وكألهما عاريان في الأرض، ويبدو على وجهيهما الألم، أما ما يصعد حد الشخصين على رأسه فيشبه الشعر المستعار مما يدفعنا للاعتقاد بأن الأوروبيين ليسوا أول من عرف هذه الربة. ويعلو هذين التماثيل، عدد من التماثيل التي تظهر في الهواء ومن بينها واحد بنحية.

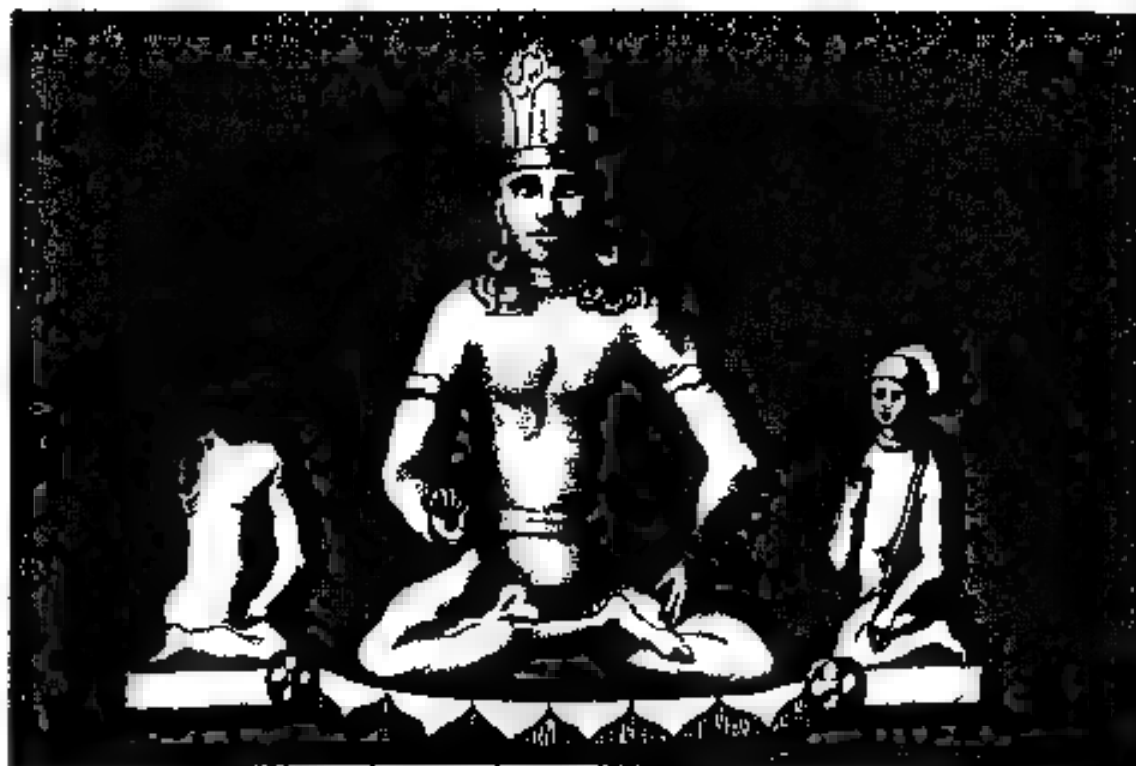
وبرى قرب الرقم ٧ معارة اللوحة XI، أما التمثال الأساسي هنا فامرأة بأربعة أذرع تمثل على ما يبدو أحد الآلهة، ويوجد إلى الشمال تماثلاً بأربعة أذرع رقعاً. يعلو الهاً جالساً وله ثلاثة رؤوس، كما يلاحظ على هذه اللوحة تسريحات عدة شبيهة بالشعر المستعار.

ثم إلحاق الضرر عمداً بتماثيل السفرة الواقعة قرب الرقم ٨ على البحارطة، إذ إنها فقدت رؤوسها، ويبدو التمثال الرئيسي جالساً، وله ستة أذرع ويمسك بيده امرأة وبرى قرب الرقم ٩، اللوحة III تماثلاً كبيراً لغاية بشمانية أذرع كما يبدو على اللوحة IX، وقد عمر عاه وبدا عليه

(٥) رواية من شرق الهند. الجزء الأول ص ٢٤٢ (Account of the East India)

(٥٥) روى لي السيد هومبرج، وهو سويدي يعمل لدى الشركة الهولندية لهند الشرقية، وكان في سورات حين وصلت البلاد، أن عند عودته من رحلة إلى كومباغر طارده رنير المعبد في كناري. إذ أراد رجلاه تحصيل طعامهم عند المعبد، هاجمت الرايير بسبب الدخان عمن تكتفب بطرد البعثة كنها من المعبد بل هددتها عبر الزيف، وألحقت الضرر بجواد السيد بوي (Boye) وهو كاهن إنكليزي في بومباي حتى أنه نفث في صباح اليوم التالي

(١) لست أدري إذا كانت هذه الطريقة في حمل الأطنان هي السبب الأساسي الذي يجعل الهنديات يحشين مستشفيات من دود الحاجة إلى معلم رقص، لأن الولد حين يوضع على الورك، يمكن للولادة أن تسند ظهره بينما، وتبقى الساقين حريين أكثر مما لو حمل بين الذراعين كما تفعل الأوروبيون، كما لا يقتضد الطفل في هذه البلاد.





الغضب كما نقد يديه ورجليه الاماميين بعمل الرمن. ويسمك هذا التمثال يديه اليمنى حساماً كبيراً، والاخرى صغلاً من صافه، أما يديه اليسرى فيحمل حوصاً، وبالتالي جرساً صغيراً، ويرفع يديه الحلميئتين حبلأً عريلاً. ونجد حول هذا التمثال الكبير، العديد من التماثيل الاخرى الصغيرة التي يبدو عليها الحرف.

اعتبر بعض المسافرين هذا المشهد صورة الحساب الاول لسليمان، وقال بي هدي انه يمثل كوس (Kos) أو كنس (Kanus) الذي اتيت على ذكره سابقاً، والذي قتل عدداً من أولاد عائلته بظهورون ها على شكل سلسلة رؤوس، ويشير الصحن إلى أنه جمع فيه دماء الاطفال، فيما يعلن الجرس قدومه. في النهاية، أنه ضميره للغاية عندما تذكر الجرائم التي ارتكبتها، فحاول ان يتورى عن أنظار الناس وهذا ما يشير اليه الحبل الذي يرفعه يديه الحلميئتين.

شوّت تماثيل المنارة القائمة قرب الرقم ١٠ (اللوحة III) كلياً تقريباً، ويجد فيها العديد من التماثيل الشبيهة بالتي وصفتها سابقاً باستثناء واحد ينتمي جوداً.

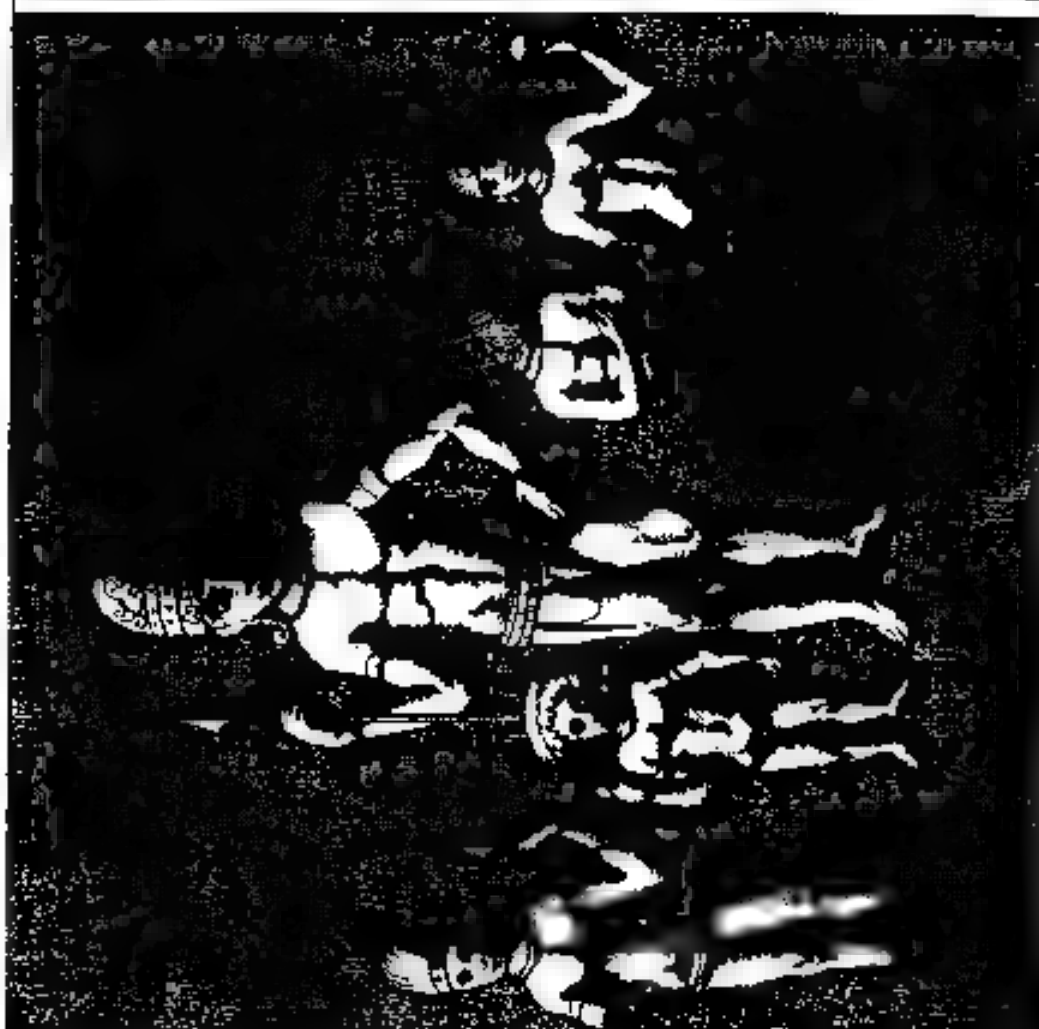
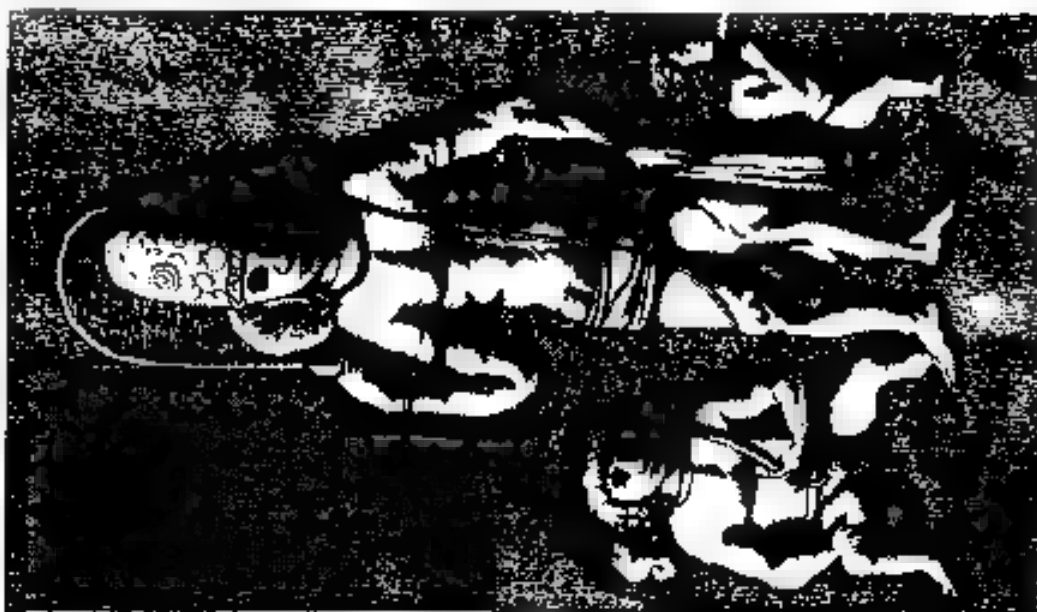
إن التمثال الموجود قرب الرقم ١١ ضخم للغاية، به ستة أذرع، لكنه تعرض للصبر ويرى إلى شماله ثلاث نساء وإلى يمينه تمثال يحمل رمحاً في يده، ويلاحظ فوقه رأس فيل وشخصين يجلس احدهما فوق الآخر. وفيالته شخص جالس وله ثلاثة رؤوس كما نجد بين التماثيل الصغيرة المعلقة. اذا ما صح التعبير، في الهواء عونيس أوهاناوانت (Gonnis ou Hannawant) شهراً سيقه وسأصله بالتصليل لاحقاً.

يسخ الارتفاع الداخلي للمصليات حوالي ٩ أقدام وبالتالي ليست أعلى من الصرح الرئيس، وقد حمرت ايضاً في الصخر. ونجد تحت احدها عرفة صغيرة «ج» لم أرَ فيها سوى حجر مقلوب، وتغطي التماثيل الجميلة جدران المصلي الأمامي (الجانبية، وهي نصافي تماثيل المعبد الكبير من حيث الجمال لكنها أصغر من حيث الحجم).

رسمت التماثيل الاساسية في السمرة الموجودة قرب الرقم ١٢، اللوحة II على اللوحة IV قرب الحرف «ب». ويبدو الشخص الرئيسي جالساً بالطريقة نفسها التي يجلس فيها الشرقيون اليوم، عندما يكونون وحيدين أو مع أمثالهم مع عارق بسيط وهو أن إظهار باطن القدم يعتبر اليوم صافٍ للأداب ويجلس الشخصان الموجودان إلى جانب التمثال الاول على عقبيهما كما يجلس مسلم من طبقة ديب في حصرة شخص من الأعيان^(٥). ويرى في الأعلى تماثيل أخرى صغيرة لكنها تعرضت للصبر.

(٥) انظر وصف شبه الجزيرة العربية.





ونجد الصور الثلاث II، اللوحة IX، قرب الرقم ١٣ من اللوحة III، وهي تم تعرض لنضرو. يبلغ طول التمثال الاساسي ٦ أقدام وبوصتين، يقف على جانبيه قدمان عظيمهما شعر مستدير صخيم، ويحمل أحدهما أفعى كبيرة على كتفه ويقع بالقرب منه على معارة أخرى فيها تماثيل عدة متضررة، وكان لتمثال الرئيس فيها أربعة أذرع، ونلاحظ بين التماثيل الصغيرة، واحداً فوق الآخر وللأعلى أيضاً أربعة أذرع فيمثل إنساناً بثلاثة رؤوس يركب جاموساً عظيم القربص فضلاً عن حيّة كبيرة.

إن المصنئ الواقع في الجهة الأخرى للمعبد أكبر من ذلك الذي وصفته، لكنه بالارتفاع نفسه وقد تعرضت عواميد المدخل الرئيس لعدم الرمس. فبالكاد يكتشف أثر لها، لكن الرسوم المسحوقة على الحائط لأرالت في حالة جيدة. يرى قرب الرقم ٣ من اللوحة III كهفاً رسمت منحوباته الاساسية قرب الحرف ب على اللوحة IX، يبلغ ارتفاع أكبرها سبعة أقدام ونصف ويستند بمرح على رأس امرأة صغيرة وضعت عليه وسادة بهذه الغاية على ما يبدو. ومن بين الرسوم التي لم أنسخها، شخص بثلاثة رؤوس يجلس على مقعد مزين بالعبور، وشخص بأربعة أذرع يجلس على كتي شخص آخر ويملوها رسوم صغيرة عديدة.

تعرضت الرسوم على الحائطين ١٥ و ١٦ لأضرار عديدة بفعل مرور الرمس، أما الرسوم الاساسية فكيرة الحجم وبالتالي أقل ضرراً. وهي تمثل إلهاً ثانوياً هو عوبيس أو هاندواست. إن قصته معروفة، وقد أوردتها مسافرون عدة، لكني سأتي على ذكرها هنا كما سمعتها على لسان البحارة بدين أوصلوني من بومباي، روي لي أن بارموتي (Parvoti) زوجة ماديو (Madeo) كانت تسبح يوماً في نهر، وطلب لها الحقام فلم تعد باكراً إلى المنزل، لذا صعدت من الأوساح التي غسلت عن جسدها فبى اسمه غونيس وأرسلته إلى المنزل ليحرسه أثناء غيابها. في هذه الأثناء عاد ماديو وسأل الفتى عن نفسه وعما يفعله في المنزل، فأجابته أنه ابن بارموتي وأنها أرسلته لحماية المنزل، فغضب ماديو غضباً شديداً وقطع رأسه. بعد ذلك، روت بارموتي لزوجها كيف كوّنت ابنها، وتبين لماديو أن زوجته ليست بمذنية، فتأثر لجرمته وأراد بعث الفتى عوبيس من جديد لكنه لم يجد رأسه وبما أن الفتى لا يمكن أن يعيش من دون رأس قطع ماديو رأسه فيل صغير ووصف على جسد الفتى. ولهذا السبب، يصور عوبيس كرجل برأس فيل، ويحده سكان شواهيء مالابار اليوم.

ولا يهتم سكان جزيرة الفيل، وهم حوالي مئة عائلة فقيرة، إلا بهذا المصنئ الصغير في المعبد كله، ولارالو يرتادونه اليوم وهذا ما رأيته شخصياً، ففي أحد الأيام، يسما كنت في المعبد الكبير، دخل أحد هؤلاء وأحد يصلي وتتم المحافظة على نظافته، وقد صبح تمثال غونيس فضلاً عن بعض الحجارة منذ فترة وجيزه باللون الأحمر. وتمثل هذه الحجارة على الأرجح، بعض الآلهة

الثانوية أو بعض الأبطال أو القديسين، لأننا نجد مثلها في يوماي غالباً ، لا سيما تحت بعض الأشجار التي يعتبرها الهنود مقدسة وتعالجات توجد هذه الحجارة في معبد تكثر فيه هذه الكمية من الأبطال والالهة. لكن لعل الهنود لا يعبدون حالياً من آلهة البلاد القديمة إلا عوبيس ولعل كومة الحجارة تمثل بعض الأبطال الجدد الذين لا نجد لهم تماثيل من هذا المعبد ولا يجيد البراهمانيون رسمهم بعياب نحائين ماهرين أو مؤسسين أعياء وأنرك لمن سيسافر لاحقاً أمر الاستعلام حول هذا الموضوع من البيان.

ورى قرب الرقم ١٧ من اللوحة III رسماً كبيراً شخص يحمل حبة بيده اليمنى الثانية ويشكاه بكوعه لأمامي الأيسر على تمثال صغير، وشاهد قرب الرقم ١٨ مثلاً كبيراً وآخرين صغيرين لكنها مشوهة.

ونجد في هذا المصلى غرفة «ب» حفر في الصخر كالغرفة «أ»، لكنها تختلف عنها بكونها بمدخل واحد، وبأن جدرانها مستوية، ونلاحظ أنها أعلى من المصلى لأن السقف مظيف، وتطالعنا في وسط هذه الغرفة حفرة سدت بحجر وبالتالي، لكل معبد غرفة خاصة، حصصت على الأرجح لغرض نفسه، واترك للآخرين اكتشاف ما إذا تم دفن رماد المؤسسين هنا، أو ما إذا تم الاحتفاظ هنا بالاشياء المقدسة التابعة للمعبد، أو استحدثت لأعرص دينية، وأشهر إلى أني لم أجد أية كتابات.

ولا يعرف سكان الجزيرة الصغيرة الحاليين شيئاً حول الآثار وحول تاريخ هذا المعبد، واسماداً إلى رأيهم، وحسن، في يوم من الأيام. وعند المساء، أناس إلى المسطحة وحفروا هذا المعبد في الصخر ثم غادروا عند الصباح. وهي الفكرة التي تسود بين المصريين حول الأصححة الرائعة التي حلقها أسلافهم.

ويدعون أن معبداً آخر صغيراً حفر في الصخر يقع بالقرب من هذا المكان، لكنني لم أره وبغياط طريق مسهد ومع ارتفاع العشب لم يتجرأ الدليل الذي يرافقني على التقدم خوفاً من الأفاعي والحيوانات المفترسة الأخرى.

ونشاهد على مقربة من شاطئ البحر فيلاً مصنوعاً من حجر أسود صلب. ولعل الأوروبيين أطلقوا على هذه الجزيرة اسم جزيرة الفيل لهذا السبب عندما أن الهنود يسمونها غالي بوري (Gal Pouri). ولا يصحامي حجم هذا التمثال حجم الفيل الكبير الذي رأيته في سوريات، وهو يحمل على ظهره شيئاً يصعب اكتشاف ماقيته، وقد تعرض هذا التمثال للعوامل الطبيعية فكاد أن يهراق. أما بالنسبة للحصان الذي أتى على ذكره كل من اوسغتون وهاملتون فلم أره.

وجد في جزيرة سلعب، التي تحدث عنها، العديد من المعابد الأثرية المحفورة في الصخر كذلك الموجودة على جزيرة العين، وتحصع هذه الأخيرة للماراتيين، لكن صغر حجمها وقلة السكان بها لا تجعلها موضع اهتمام بقصدها الإنكليز ساعة يشاؤون، لكن إذا أراد أوروبي ما زيارة المعبد القديمة على جزيرة سميت الحصبة والكبيرة، فعليه أن يطلب لادن من حاكم تانا (Tana)، ومن قائد الماراتيين في بونا (Puna)

ولم أقم بالرحلة لأن الماراتيين، استولوا قبل وصولي إلى بومباي، على مركب دامتاركي، واحتجزوا بعض الأشخاص. كما وقعت خلافات بينهم وبين الإنكليز، لذا لم يكن من الحكمة طلب اللادن

وجد بالقرب من حصن بكونور، حسب ما قيل لي، معبد كبير حفر في الصخر، أو ٢٥ متراً مع عرف حفر في صخر^(٥) على حد تعبير البعض. وأكد لي صابو الإنكليزي أنه وقع قرب تريجانابولي (Tendschonapoli) على معبد عظيم حفر في الصخر باختصار، نجد لدى هذه الأمة العريقة العديد من البقايا الأثرية التي تستحق عناية واهتمام العلماء الأوروبيين، اهتمام أكبر من الذي أبدوه حتى اليوم

إن هذه الأضرحة لا تظهر للعيان واضحة كأهرام مصر، لكنها استترمت الكثير من الرمل والعر، لأن بناء الأهرام الموجودة قرب القاهرة لم يتطلب سوى الماء والعمل، وقد وجد المهندس قرب الحجارة التي ترممه وهي حجارة كدسية لينة تسهل معالجتها ولا يحتاج تكديسها ووضعها

(٥) رار فريزر (Freyer) معبداً مماثلاً في دونغانسف (Dungansel)، ورأي صمو (Thevenot) معبداً آخر في البونا (Elora)، ووصف انكاتيل (Anquetil) هذا المعبد ومعبد جزيرة العين، وكنتري وبويسير ومومير (Mompeser) على جزيرة سلعب، ونسخ بعض الكتابات التي قد تكون مهمة بهواة اللغات لكن ما يرويه عن معبده لا يشرقه.

يسمح الماراتيون، وهم من الوثنيين، برعايتهم الكاثوليك في سميت بممارسة شعائرم المدينة عنناً، كما في أوروبا، لكن السيد انكاتيل وهو كاثوليكي وأوروبي وعالم تصرف بطريقة منخفضة وهجيه حين برع من معبد بومير لثمان بقرة مسحة البراهمانيون بالزيت تكريماً لها روج البراهمانيون وهم في بلادهم، الصباغ المراضين للعالم بأن يعيدوا بهم هذا التمثال المقدس ولم يكن بإمكانهم استعدته بالقوة لأنه مسلح ويستج من هذا التمثال ومن أطلعه أخرى يوردها السيد انكاتيل أن اليهود هادئون وحقوق بطيهم وسقراً وصف رحنته وسحكهم بعدها، فإن تصرف أي براهماني أو اجني بالطريقة نفسها في أوروبا مع المسيحيين لن تحمد عاقبة عمله، ويشككي السيد من المسافرين من أن السكان يجعلون أبحاثهم صعباً، وأنهم لا يتسكنون غالباً من الوصول إلى لامر المشقة للاهتمام، ولكن هل يسمى أن مستعرب ذلك بعد أن تصرف اسلافهم كما تصرف السيد انكاتيل، ومن يوم براهماني سمعت أن ما سقوا أي أوروبي من رؤية المعبد القديم على الجزيرة طالما أنها تحت سيطرة الساراتيون.

الواحدة فوق الاخرى سوى آلات بسيطة لأن الأهرام عالية لكي قاعدتها عريضة مما يجعل رأسها على شكل منحدر سهل يمكن رفع الحجر اليه بواسطة بكرة. وبعد أن يتم تكديس الحجارة بعضها فوق بعض على شكل درجات، تقطع الزوايا الباقية فتصبح الأهرام مستوية، وهذا ما نسينه من بعض البقايا قرب الهرم الثاني.

ويطلب بناء أحد هذه المعابد الهندية التي ذكرناها الكثير من العمل، بحفر الصخور ونقش هذا العدد الكبير من التماثيل على جدران الكهوف، كما يستوجب مهارة في الرسم والنحت، وهي مهارة يفتقر اليها المصريون.

تعايق ديانة اليهود القدامى ديانة المصريين إلى حد كبير، ولا يعرف عن تاريخ آلهة المصريين القدامى وأبطالهم سوى ما نقله اليونان وهم يبالغون أمة غريبة، لأن المصريين خضعوا غالباً للأمم الأخرى، فتعيرت لغتهم وتبدل دينهم كما فقدوا كتبهم وعرضت كل من ديانة اليهود ولعشهم لتعابير عدة، على مر السنين، نكر ليس بقدر ديانة المصريين وفتنهم، إذ لم يتأثرو كثيراً بالأمم الأجنبية، ويقو على دينهم في الاقاليم الخاضعة لسيطرة المسلمين، ولازالوا يحتفظون بالكتب القديمة التي يجيد البراهمانيون قراءتها. وإن كان هناك آلهة لليونان وأبطال قدامى نقشت رسومهم على جدران المعابد وبطلت عبادتهم حالياً، نجد براهمانيين يعرفون تاريخهم، لذا ينبغي إرسال عالم متجرد ونزيه إلى الهند يرافقه رسام ماهر، ويجب أن يتعلم اللغة الهندية ليتمكن من التحدث إلى البراهمانيين. وبعد أن يرسم النقوش الموجودة في المعابد، وما رسمته في جزيرة الفيل لا يشكك سوى جزء صغير منها، يتوجه إلى البراهمانيين بالسؤال ولا بد من أن يجد من يشرحها له، فربما ساهم هذا في فهم الكتاب اليوناني واللوثيين القدامى.

لا يمكن أن نطلب من عالم ما أن يسافر إلى الهند على حسابه الخاص ليفهم بأبحاث حول الآثار وبيعة السكان ودينهم، فإن قدرات العالم محدودة وحين نجد عالماً ثرياً قد لا يرضى بشكك هذا العناء. وقد أرسل منك الداتمارك بعثة من خمسة أشخاص إلى شبه الجزيرة العربية هذه تقدم العلوم، فهل نأمل بأن ترسل أسم أخرى، قامت بفتوحات عدة في الهند، بعض الأشخاص للتعرف عن كتب عن هذا البلد الشهير، شرط أن يتسمى العلماء ذلك بشدة. وتتوفر هذه الفرصة للإتكليز^(*) إذ يمكنهم

(*) تم في السنة الماضية وبمساعدة من حاكم البنغال وعلى حساب الشركة الانكليزية للهند في لندن نشر الكتاب

الشمالي: *Code of Gentoo Laws of civilization of the Hindus from a Persian Translation made from the*

Original written in the sanskrit language. ويبدو هذا الكتاب مهماً، لذا يرجى ان يستمر طباط الشركة

الانكليزية للهند الشرقية برويد الاوروريس بترجمات كتابات كهنة، لأنها الوسيلة الاكيدة لتصرف على ديانة

اليهود وعاداتهم وتقاليدهم.

السفر على متن سفن أمتهم إلى بومباي، والعيش في الهند بين مواطنيهم في أعين الاحيان، ولن يضطروا إلى قطع مسافات بعيدة عن مسقط رأسهم. ولن تكون هذه الرحلة بكلفة وصعوبة الرحلات إلى الشرق التي أمر بها فردريك الخامس ومؤلفها حتى نهايتها كريستيان السابع. وإن لم يقوموا بمبادرة كهذه، سيبقى اليهود بالنسبة لنا أمة غريبة، علماً أن الانكيزر سيطروا لثمة عام على بومباي ولا تبعد هذه الأخيرة كثيراً عن جزيرة الفيل وعن سلطنة وقوم كل أوروبا برور بومباي تقريباً. برحلة إلى المعابد الرائعة المجاورة، لكنا لا نجد حتى اليوم سوى تعاريف غير مكتملة حول هذه الاصرحة الأثرية، لذا لا يمكن أن نتوقع المزيد. لأن المسامرين يهتمون بأمور أخرى لا تسمح لهم بصفت اهتمامهم على هذه المعابد. وقد حصصت كل من مسقط وجزيرة الفيل، منذ قرون، لسيطرة البرتغاليين، حتى أنهم حولوا أحد المعابد في كاري إلى كنيسة، وبالتالي أسيحت لهم الفرصة لإعطائنا تفاصيل ودسوماً حول هذه الآثار العربية، لكنهم غطوا عوضاً عن ذلك هذه التماثيل الرائعة المتحونة في الصخر بالكس ليعطوها التسيان كلياً.

ويقيم في الهند الكثير من الفرس الذين طردهم العرب المسلمون من موطنهم منذ ١١٠٠ عام، وإذا ما أراد شخص ما الاستعلام عن ديانة قدسي الفرس، يمكن أن يقرأ كتابهم الأساسي الذي نشر السيد انكايل ترجمته الفرنسية^(٥) منذ فترة وجيزة. وقام هذا الأخير برحلته إلى الهند للحصول على كتب شريعة الفرس ولتعلم اللغة القديمة التي كتبت فيها، وبالتالي قام بأبحاث واسعة حول ديانتهم وعاداتهم أكثر من تلك التي قمت بها شخصياً لانشعالي بأمور أخرى، لكنني سأورد هنا ما عرفته حول هذا الموضوع من أبحاثهم وما لاحظته.

يعبد الفرس، اتباع زرادشت، إلهاً واحداً قادراً وأبدياً، خالق الكون وحافظه، لكن بما أن الانسان بحاجة لشيء ملموس يذكره بالخالق، وبجهد الفرس صلواتهم للشمس والقمر والنجوم وإلى أمور أخرى أهمها النار على أنها أكثر العناصر طهارة ونقاء وفعالية، لذا يقرن النار مستعرة في معابدهم وبأججورها بأخشاب عطرية، كما يجعل التجار الاعتناء في منازلهم طراً مصاد. في أحد معابدهم في بومباي، بقيت هذه النار مشتعلة حوالي ٢٠٠ عام. ونصل عبادتهم لنار إلى حد أنهم لا ينمخون على شحنة خوفاً من أن يندسوها بأنفاسهم كما لا يطفئون انار بالماء حتى لو أحرقت منازلهم بالكامل إن تطهير الجسد نقطة أساسية في ديانة الفرس، فضلاً عن المسلمين والهنود كما يؤدون صلواتهم وقرباً، ونسماً يقومون بحتان اولادهم شأنهم في ذلك شأن الهنود، ويروجون اولادهم كهؤلاء الآخرين قبل بلوغهم سن السادسة ويكتفون بامرأة واحدة فإن كانت عاقر يتزوج

(٥) يحمل العمل اسم زند اوستا (Zend Avesta) وقد كتبه زرادشت، ويضم أفكار هذا المشرح الفلامنكية والميراثية والاعلاقية فضلاً عن ملقوس الديانة التي وضعها. والخطوط العريضة المهمة المتعمقة بتاريخ بلاد فارس القديم

الرجل امرأة أخرى. ولا يتجرؤون على شرب الخمر والكحول، كما لا يحرم عيهم دينهم وفانورهم أكل لحم البقر، لكن لدى وصولهم إلى الهند وعدو الأمير الوثني الذي حاسمهم بدم قتل هذه الحيوانات، واستحال هذا الوعد مع الأيام قانوناً صارماً لدى الفرس فامتنع عن أكله حتى أولئك الذين يعيشون في المناطق الخاضعة لسيطرة المسلمين أو الأنكليز، ويعتبر القواح (الأرب البري) الحيوان الأكثر نجاسة عندهم^(٥) ويلبسون الرمي الهندي تقريباً، ويحلقون شعر رؤسهم، لكنهم يتركون فوق أذنيهم خصلة شعر كاليهود.

ويعتبر القمر ضليعين بعلم الفلك ككافة الأمم الشرقية المتحضرة والعريقة، ويعتبرون هذا العلم عهد ولادة أي ولد وعند الروح وفي الحالات المهمة الأخرى، مما ساهم في إبقائه وتناقله. ويمكننا أن نعلم بسهولة أن علم الفلك لم يتطور ويقتصر عند الفرس بالرغم من أنهم يستخدمون أفضل الألواح في بلاد الشرق، وهي الأولوع بيغ (Ulugh Beigh) التي أخذوها عن أبناء دينهم، فضلاً عن التي أخذوها عن المسلمين يحسبون أيامهم منذ شروق الشمس وحتى الشروق الجديد، وتضم سنتهم اثني عشر شهراً يتألف كل منها من ثلاثين يوماً، لكن يضاف إلى الشهر الأخير خمسة أيام، فصبح سنتهم ٣٦٥ يوماً. ولا يعلمون شيئاً عن السنة الكبيسة، لكن كمي يصادف عيد رأس السنة الجديدة في الموعد نفسه يصيرون، كل ١٢٠ عاماً، شهراً كاملاً إلى السنة فضلاً عن الخمسة أيام المذكورة أعلاه، فصبح السنة بالتالي مؤلفة من ١٢ شهراً يبدأ توقيتهم للأحداث بعد بردجرد (Jesderd)، ملكهم الأخير الذي طرده المسلمون من الحكم، وذلك في حريف العام ٦٣١ بعد الميلاد، لأن الحاسي والعشرين من شهر تشرين الثاني ١٧٦٤ تزامن واليوم العاشر من الشهر الثاني للعام ١١٣٣ عند الفرس في يومياتي. وصادف يوم رأس السنة عندهم في ١٨ تشرين الأول ١٧٦٣، و ١٧ تشرين الأول ١٧٦٤ (وهي سنة كبيسة).

وأكدوا لي أن توقيت الفرس في كرمان (Kerman) يفرق شهراً بأكمله عن توقيت فرس الهند ونستنتج من ذلك أن هؤلاء الآخرين انفصلوا كلياً عن فرس كرمان. ولعل السبب يعود إلى أن الفرس في بلاد فارس استخدموا الواح المسلمين المصححة، أما أسماء الأشهر الفارسية فهي:

١ - فروردين (Forwardin).

٢ - أرديبهشت (Ardibescht).

(٥) يعمل مع التجار الأوروبيين عدم من بينهم هنود وفرس ومسلمين وكاثوليك، ولكن بعض الخدمات لا يستطيعون طلبها إلا من الآخرين. مثلاً: لا يحمل المعادم الهندي ثوباً برتقالياً مطبوخاً ويضعه على الطاولة لأن دينه يحرم قتل الحيوانات، ولا يلمس الفارسي هذا الطبق لأن الحيوان دنس. أما المسلم فلا يمسسه لأنه طهي بدم الخنزير. وبالتالي يعتبر هؤلاء منهم غير طاهر.

٣ - غرداد (Gordad).

٤ - تير (Tir)

٥ - مرداد (Amerdad).

٦ - شهرپور (Scherwar)

٧ - مهر (Mer).

٨ - آبان (Auan)

٩ - آذر (Ader).

١٠ - دي (Dah)

١١ - بهمن (Boman).

١٢ - اسفندار (Asfendar).

وسم استعلم حول الاسم الذي يطلق على الشهر الذي يصادف كل ١٢٠ عاماً، لكنه لا يعتبر معدداً أكثر من غيره من الأشهر.

يحتفل الفرس بأعيادهم في أيام معينة تسمى غمبار (Ghumbar)، يكرمونها خلالها عمدة الخلق، وتسمر الاحتفالات خمسة أيام متتالية. يحتفلون في غمبار الذي يبدأ في ١١ رديبهشت بخلق السماء، وفي الذي يبدأ في ١١ تير بخلق الماء، ومن ٢٦ إلى ٣٠ شهرپور يحتفلون بخلق الأرض، ومن ٢٦ إلى ٣٠ مهر بخلق المشب والنبات، ومن ١٦ إلى ٢٠ دي بخلق الحيوانات ويحتفل الفرس في الأيام الخمسة التي يسمونها إلى السنة بذكرى خلق الله بلانس، وهو أكبر أعيادهم ويطلق عليه اسم عاغا غمبار.

ثم ألاحظ شعائر ظاهرة يمارسها الفرس في هذه الأعياد، كما يفعل اليهود في عيد جور الهندي والهندي (Hulli)، والسنة في عيدي الفطر والأضحى والشيعة في الحسين، الخ. بل يحتفلون بالمبادة في منازلهم ومعابدهم، ويحسون من هدامهم ويرورون أصدقائهم واستعلمت حول ما إذا كان كهنتهم يشتملون بالتبوعات في هذه اليوم خاص، وإن كانوا يؤجلون اعراسهم وأمورهم الرسمية الأخرى حتى هذا اليوم، فحين لي العكس. ويعيش هؤلاء بشكل عام بسلام وطمأنينة، ويمارسون الأعمال المختلفة ويجتهدون فيها، ويتمتعون بحكامة جيدة بين اليهود، فبرداد عددهم في هذه البلاد في حين أن عدد أتباع ديانتهم يراجع في بلاد فارس تحت نهر المسمين. ويساندون

قراءهم ولا يسمعون لأي شخص من دينهم بطيب الاحسان من اتباع ديانة أخرى وحين ينفي القبض على أحدهم، لا يألون جهداً ولا مالا لتخليصه، لكن إذا لاء شخص ما التصرف ولم يتمكنوا من رده إلى الطريق المسقيم، يطردونه من جماعتهم. وقد تم اعدام فارسي شقياً حين كنت في البلاد بتهمة الشذوذ، لكن قيل لي إنه ليس من أهم أصلاً، وإن تاجراً اشترى كسيد. ولا يستعدون اتباع الديانات الأخرى كما يعمل الهندوس بل يستقبلون المهتدين.

ويبيع الفرس طريقة فريدة في دفن موتاهم، فلا يرصرون بتركهم في باطن الأرض كاليهود والمسيحيين والمسلمين، ولا يحرقوهم كاليهود، بل يتركوهم لتأكلهم الطيور الكواسر^(٥). ويمكن في بومباي برجٌ مستديراً على جبل، بعيداً عن المدينة، مسقوفاً بأحشاب، يصحون فيه أمواتهم، وبعد أن تلتهم الطيور اللحم يجمعون العظام ويرموها في قعر البحر، فاصبين الرجل عن النساء. وتم اعلاق هذا المبني، منذ أن رر عاشق عشيقته الشابة الجميلة التي ماتت فجأة ودست على العور في هذا المكان الكيب.

وبما أنني لمكسب من الحصول على حروف ابجدية قديمة يستخدمها الفرس فمت بحفرها على اللوحة التالية، وتسمى المشار إليها بحرف (Pehlvi) وهي الحروف المستخدمة لتدوين كتبهم المقدسة، أما تلك المشار إليها بحرف (Dsjanachian) فهي الحروف الجسحان (Dsjanachian) ويستخدمونها لتكتب الأخرى وقد كتب هذه الحروف أحد رجال الدين المهمين في سوراء، وهو واحد من الدين اجبرهم السيد انكاكيل عني مساعدته في ترجمة ريد افستا، لكي لم ألقاها عنه مباشرة بل من الأب ميدارد، وهو كاهن كوشي من الألوا، تربطه به صداقة منذ سنوات لذا اعتقدتها صحيحة^(٦). كتب الأب ميدارد اسماؤه لأحرف المختلفة استناداً إلى بعض الكاهن الذي ذكرته آنفاً.

حرف القرية في نهاية الجزء الأول أنني وصفت والسيد كرامر إلى بومباي في أيلول/سبتمبر العام ١٧٦٣ مريض، وساعدنا هنا طبيب انكليزي ماهر، كما حصلنا على الراحة التي حرمانا منها في شبه الجزيرة العربية. وأملنا أن نبحر إلى البصرة على متن سفينة مستعارة بومباي في كانون الثاني/يناير ١٧٦٤، لكنني كتب جميعاً وتدهورت حالة السيد كرامر، ثم وافقه المنية في العاشر من

(٥) علمت في القسطنطينة أن في الجزء الجنوبي من روسيا لغة تتحدث أن أعظم شرف وتقدير تربيهما لأمواتها هو بأكلمهم.

(٦) يطلق السيد انكاكيل اسم جان - شان سند على الحروف الابجدية يجب مقارنة هذه الحروف بالنسخ التي حفرها هذا العالم على اللوحة IIIV من الجزء الثاني من ترجمته لريزادشت ص ٤٢٤. وقد أحدث هذه النسخ عن المخطوطة القديمة التي تختلف قليلاً عن هذه الحروف.

شهر شباط/فبراير. ولم يبق من بعثتنا الكبيرة غيري، وحس فكرب بطريق العودة المرسوم لنا عبر البصرة ومنها تركها، توقعت مصاعب كنتك التي تعرضنا لها أثناء رحلتنا من مصر إلى بومباي لذا تصاعدت أمني برؤية أوروبا. واعتبرت أن أول واجباتي هي المحافظة على صحتي لأنني إذا مت قد لا تصل أوراني إلى أوروبا^(١)، ودفعني هذه المكرة وغيرها إلى اتخاذ القرار بالسفر مباشرة من بومباي إلى لندن على متن سفينة من الشركة الانكليزية لهذه الشرقية، لكني وجدت سفينة انكليزية كبيرة (القبطان جيمس مسات James Massat) تستعد بلابحار نحو سورات حيث ستحصل بمصانع نصين، فقررت أن أسافر على متنها إلى هذه المدينة التجارية الشهيرة

الرحلة من بومباي إلى سورات

في ٢٤ آذار/مارس ١٧٦٤ نزل الظهر، غادرنا مرناً بومباي، وكانت الرياح مؤاتية فوصلت بعد المساء إلى ميهيم^(٢). ومن هنا أصبحت أسرح، لأنها رسو في ٢٦ صباحاً في مرأ سورات على ارتفاع ٢١ درجة، وتبعد المدينة عن المرسى حوالي ثلاثة أميال، لكن بما أن الريح وحركة الموج عاكسانا، توجهت والقبطان وبعض الانكليز إلى دوموس (Domus)، لتكمل الرحلة عبر البحر إلى سورات.

ودوموس هي قرية صغيرة، لا بلغت الانشاء فيه سوى أن رتباء اوروبيس يقيمون بها، ويضطرون إلى اعلام الشجار المقيمين في المدينة بالمراكب التي تعمل كلها، كما نجد هنا شجرة عظيمة تستخدم كعلامة للتجارة. وتضمير هذه الشجرة بأن أغصانها نحو نحو الأسفل، وما أن تلمس الألفان الأرض حتى تضرب جذورها وتسند بالتالي الشجرة، وهذا الأمر ليس ينادر في الهند له

(١) هكذا صاحت أوراق السيد دوراني، راجعوا الجزء الأول وكتب لي أحد أصدقائي في حذب في العام ١٧٧٣

ليعلمي أن شخصاً يدعى السيد تورني (Toreid) من بالسديه متجهاً إلى الهند لاكتشاف معبر أوراق هذا العالم

(٢) تقع ميهيم، وهي مدينة صغيرة فيها قصر يقيم به مستشار من بومباي، في الطرف الشمالي للجزيرة. ويوجد هنا رصيفاً رملياً يتقدم في المياه غرر فيه صيادو الأسماك عصياً عدة يبلغ طولها ٢٠ إلى ٢٠ قدماً لد يعتقدوا المرء بسهولة أشعة مراكب صغيرة سحبة عند الجزر وهذا ما فقه البرتغاليون منذ فترة فأطلقوا النار باتجاهها ولارالت هذه الامة في حرب ضد الهندو كلهم فلا يتجرأ أحد رعاياها على الايجاز من دون أن ترافعه سفينة حربية. عندما كنت في بومباي، وملت إليها مراكب صغيرة حربية وعدد من السفن التي تمارس التجارة بحماية هذه المراكب وتريد الوصول إلى ديو (Diu). وسمعتا بيلة أبحرو طلفقات مدع مما دعوا إلى الاعتقاد بأن البرتغاليين صادفوا ماراتيين، لكن في اليوم التالي تبين له أنهم شغلوا هذه المعصي اسطولاً عديداً، واجبروا مركب صيادي اسماك على الانسحاب منهم، وبما أنهم يمشيرون هؤلاء ونميين وبالتالي اتباعاً لأعدائهم، أطلقوا عليهم النار وأصابو بعضهم أصابات بالغة. لكن حين تبين أنهم صيادون من ميهيم وبالتالي من رعايا انكليز، اجبر السيد كرومليين حاكم بومباي القنصل البرتغالي السقيم منا على رعاية هؤلاء حتى شفاهم ودفع عطل وصبر بهم.

وصفه المسافرون القدماء منهم والمعاصرون. كما يعيد اليهود هذا النوع من الأشجار، لأنه حين يمتد أكثر وتكثر جذوعه فتعدي رأس الشجرة حتى وإن لمسد الجذع الأساس.

وسافروا من دوموس إلى سورات على حربة بمجنتين تحمها الثيران، ولم أنزع يوماً من العيار في قوافل الجمال والحيول والجمال بقدر ما انزعجت على هذه الدروب حيث أحاطت بها عيون كثيفة من الغبار في غياب أي هواء، ولكن ينهي التأقلم مع الاماكن والاوقات أثناء الرحلات.

ملاحظات في سورات

تقع مدينة سورات في سهل حموي، وعلى حفة نهر كبير يدعى تاپي (Tappi) مجد خارطة صغيرة له على اللوحة XIV. وتأخذ المدينة شكل نصف قمر، يحيط بها سور من جهة النهر وسور مردوح من ناحية البايسة، فتقسم بالتالي إلى مدينة داخلية، وأخرى خارجية. وهي مدينة كبيرة، تتطلب الجولة فيها ساعتين وربع^(١)، كسر ربع المدينة الخارجية أو الجزء المحتد بين السورين مسكون أما المساحة الباقية فتكثر فيها الحدائق ويقع القصر على ضفة النهر وفي المدينة، وتحيط به حفرة تمتلئ بالمياه في موسم الامطار ونجد في السور مواقع من جهة الماء خمسة أبواب، وفي السور الداخلي للمدينة من جهة البايسة ستة، أما في السور الخارجي فاثني عشر باباً^(٢). وبما أن المدينة خضعت لفترة طويلة لسيطرة المسلمين، نجد العديد من المساجد، لكنها ليست رائعة مقارنة مع المساجد التركية، وقلة هي تلك التي تعلوها مآذن، في حين أن المساجد

(١) وفقاً لتقرير روبرت كوفرسي، كانت سورات مدينة تجارية مهمة في العام ١٦٠٩، الجزء الثاني من: Collection of Voyages and travels compiled from the library of the Earl of Oxford وفي العام ١٦٦٦، بدأ بناء السور الداخلي والوحيد في ذلك الوقت من الأجر المشوي، علماً أنه كان من ميب من الطين لكن الأعمال استمرت طويلاً ففي العام ١٦٢٤، لم يكن بنده قد اكتمل. Freyre Account of East India et Perse من ٩٩ ولم ين السور الخارجي إلا في هذا القرن. الجزء الأول: Hamilton Account of the East India من ١٤٩.

(٢) لحمل الابواب الواقعة من جهة النباه الأسماء التالية: باساي باغل، (Passay Bagel) تشيباني (Tchappachni) باغل، راجيا باغل ميربارسو (Mirbarsu) باغل وسيد سعدالله (Said Sadulla) باغل. وتسمى الابواب الستة في السور الداخلي: برجي باغل (Borju).

سيد بورا باغل (Said Poera)؛ برامبورت باغل (Bramport) نصاري باغل (Nussari)؛ ماسورا باغل (Masura)؛ وفانيسورا باغل (Nasapura)؛ أما الأثنا عشر باباً في السور الخارجي فتدعى: برجي درواجي (Borju Derway)؛ كمرخان درواجي (Katachaban)؛ لال درواجي (Lal)؛ دجلي درواجي (Dohli)؛ سارا درواجي (Sara)؛ صلوات بورا (Salwat Pura)؛ نوواجي؛ مان (Man)؛ درواجي؛ نصاري درواجي؛ جعفر علي درواجي؛ ماسور درواجي؛ عتوه (Attawa)؛ درواجي؛ توتوك (Totuk)؛ درواجي.

التركية الكبيرة تعلوها مئذنتان أو أربع أحياناً أما سطوح المنازل الكبيرة فمستوية كبورت شبه الجزيرة العربية، يتوسطها فناء مربع، في حين أن سطوح المنازل الأخرى مائلة. كما نجد في هذه المدينة مساحات فارغة وشوارع واسعة أكثر من القاهرة، لكنها فلم تكن مرسوفة كما في المدن الشرقية الأخرى، مما يجعلها مرصعة بسبب الغبار الذي يتصاعد منها. ولكن شارع رئيسي بات يفتق ليلاً لا سيما في فترات المشاكن الدخية التي تكثر هنا كما في العاصمة المصرية.

وتعتبر صورات المرفأ الاساسي لامبراطورية المعول كنها، لذا لا تشهد التجاره فيها ازدهراً عظيمًا، ويرسل تجارها سلعهم إلى الخليجيين العرب والممارسي. وإلى الشواطئ الأفريقية، وشاطئ مالابار وكورمديل وحتى إلى الصين. أما بالنسبة لكمية البضائع الكبيرة التي تحضر في أقاليم ومدن الامبراطورية المختلفة، فنصل المدينة في قوافل كبيرة ويقفد السكان الأوروبيين فيما يتعلق ببناء السفن لكن نوعية سلعهم جيدة، ويجدون في الهند نفسها معظم المواد التي يحتاجونها وبأسعار معقولة، ويستخدمون لهذه الغاية خشباً لا يجزأ الحديد على بحر لشده سماكته، لذا يبقى سلعهم صالحة من ٨٠ إلى ٩٠ عاماً، وبالتالي فهي أفضل من سلعنا^(٥) ويمكن شراء الخمر في هذه

(٥) يسمى الهندو الخشب الذي يستعملونه ببناء سلعهم ناك (Tak). ونستخدم أفضل نوعية من صناديق (Gardawie) وكالكوت ويسان (Calcut et Basse) وأعطني صديق ألماني. كان في يومناي عندما تمت التحصينات، المعلومات التالية حول أنواع الخشب الأخرى المستعملة في هذه البلاد ريسوي (Zislow) ويستخدم للادوات المرئية، ويطلق عليه الانكبير اسم الخشب الأسود، ويخرج في كالكوتا. (Bibbe) (الخشب الثوراني) وهو خشب رقيق، يستعمل في العربات، ودا ما انتقلت لمرية بالماء لينة واحدة، يصبح لونها اخضر، وبالتالي فإن قطعة خشب وحده منه نفسه مستقماً بأكمه. ايزهولز (Eschholz) (خشب الحديد) وهو خشب ثقل اللون، لا يستخدمه سوى الحراصين. (Her) وقد يبلغ طول هذه الخشب ٣٠ إلى ٤٠ قدماً لكنه غير صلب، ويستعمل في صناعة مسارات الحديد.

اسانا (Assana) خشب اصغر يستخدمه الحراصون

دمون (Damon) يستخدم في بناء عربات الفلاحين المسماة هكري (Hekrie)

بندي (Bendi) ويستخدم فيها في بناء الهكري، وهو يكمنات كبيرة على هذا الشاطئ.

سيوان (Siwan) وهو خشب خفيف، يستخدم لعربات العاهرة والمحفات والآلات الموسيقية الثرية

تار (Tatar) وهو خشب رقيق وسوي النوع، لا يستعمل الهند الا للجدران التي تطلى.

جور الهند ويستخدم في البناء، لكن ينبغي الاحتفاظ به في مكان جاف والأفضل بعمد طويلة. (ولهذه

الشجرة منافع عدة، إذ تعطي ثماراً معشاً، ويمكن أكل ثمرتها، سيما في الكاري وهو طبق لديهم يقدمه

الهند فضلاً عن اليلائف (الأرز شمس) (Pileu) الذي يحصره الانراك والحرب وتعطي القشرة صبغة سوداء

تستخدم لطلي المنازل وتستخدم الالياف المحيطة بالثمرة وبشره الشجرة في صنع الحبال وتعطي المنابر

بالورق هذه الشجرة كما تستعمل هذه الأوراق في صناعة السلال وادوات أخرى معقدة

المدينة بأسمار ونخبة، أما هواؤها فصحي، وبهم الجميع بحرية المعتقد فيها، وبما أن هذه البلاد لا تعرف الاستاذية، يجمع كل شخص بحره كسب رزقه بطريقة شريفة زد على ذلك، أن الهندي الفقير سعيد في كروحه. فبالكد يرتدي ثياباً، ولا يشرب سوى الماء ولا يأكل سوى خبز الدرة والريزة ويعمل جاداً، فلا يستغرب أن تكون مدينة كسورات مكتظة حيث المواطن المجتهد يكاد دائماً ولا يفتقر للتاجر للبضائع. لكن عدد سكانها ليس كبيراً كما يعتقد البعض، حتى أن الأوروبيين الذين أقاموا لسورات يعتبرون أن عدد السكان يبلغ مليون نسمة. لكن إذا ما أحصاهم أخشى ألا يتعدى عددهم الثلث

يبلغ ارتفاع المطب في سورات، وفقاً لتقديراتي، 21° و 21° ، وترتفع الحرارة في المدينة خلال شهر آذار/مارس فنصل في الأيام الأكثر برودة إلى 92° درجة على مقياس مهربهايت، ووصلت في ٢٩ آذار/مارس وبسبب الرياح الشمالية إلى 98° ، في حين أن الحرارة في بومباي الواقعة على 52° و 16° ، لا تصل في شهر أيار/مايو إلا إلى 93° كما ذكرت في الجزء الأول.

لم أنصك هنا من مراقبة حركة المد والجزر، لكن استناداً إلى معلومات وثيقة، عند أقصى مد، وعندما يكون القمر هلالاً أو بدر، تبلغ المياه أقصى ارتفاع لها عند الساعة الثانية عند المرسى، وعند الساعة الرابعة قرب المدينة. أما الفرق بين أقصى مد وأدنى جزر فثمانية عشر قدماً قرب المرسى وأربعة عشر قدماً قرب المدينة، ولا يدوم الجزر عادة قرب المدينة إلا ثلاث ساعات في حين أن المد يستمر تسع ساعات. وتبقى مياه النهر هنا عذبة خلال ثمانية أشهر، وتصبح مالحة قليلاً خلال الأشهر الأربعة الباقية، ويدعون أنهم لاحظوا أن المد يرتفع أثناء النهار خمسة أقدام أكثر منه أثناء الليل وذلك خلال تشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير حين تعصف الرياح الشمالية، وأن المد يرتفع في الليل ستة أقدام أكثر منه أثناء النهار وذلك في الأشهر الأخرى. ويرتفع المد في خليج كمباي (Cambay) أكثر مما يرتفع في منطقة سورات، وأكد لي تاجر، أقام لسنوات في كمباي أن السفن، عندما يكون القمر هلالاً أو بدر، سيُما في الريح أو الحريف، تبدو في الجهة الأخرى للخليج وكأن قسماً منها يبحر من جهة والنقسم الآخر من الجهة الأخرى، ويعود السبب على الأرجح إلى المد القوي للغاية في هذا الخليج.

وتكثر في الكبي الارصفة الرملية، ويصبح من الصعب في المستقبل انزال سفن جديدة فارغة بيت في سورات إلى النهر، لكن منسوب المياه يرفع أحياناً، في موسم الامطار، ليبلغ ٢٨ قدماً

الاراك (Aroque) الذي يحمو كجور الهند، لكنه ليس بساكنه، ويخرج من أجل ثمرته التي يأكلها الهنود بكثرة
ياك (Jag)، يعطي خشباً أصفر يستخدم في الأدوات المنزلية، ويحمل ثمرة طيبة، يستعمل خشب تمر الهندي لصنع قذائف الشراخ خاصة لما الهامو (العمران) هو قصب أو أسنة صرونة.

قرب المدينة فتجرف الارصفة الرملية ويمكن للسفينة المحملة عندها الوصول اليها. وإذا ما فكر الحاكم باحتواء النهر ضمن حدوده بواسطة سدود، لاستفاد السكان من أرض صالحة للزراعة تعيش عليها الديار حالياً وتخلص النهر من الارصفة وأصبح صالحاً للملاحة، لكن اهتمام الحاكم المسلم برعاياه لا يصل إلى هذا الحد.

تخضعت سورات سد سوات للإمبراطور المغولي، لكن منذ أن هب نادر خان دلهي (Delhi)، لم يعد رجال الحكم في أقاليم بعيدة يهتمون بالمعول، وبنيت سورات خاضعة لهم بالاسم. سيطر حكام هذه المدينة على الحكم بالقوة أو بالحنينة، ثم جعلوا الامبراطور المغولي يشتهم في منصبهم، كما يفعل الياشاوات في بغداد إذ يمينون انفسهم ثم يجبرون السلطان على تأكيد سيطرتهم. كان للمغولي حاكمان في سورات مستقلين عن بعضهما كلياً، ولكل منهما جيشه الخاص الصغير. ويحكم احدهما في المدينة والآخر في القصر. وكان الأخير في الوقت نفسه قائد أسطول المغولي، ويتقاضى إيرادات كبيرة من بعض الأقاليم ليدفع لجيشه وللمعاراة والإبقاء أسطونه الصغير في حالة جيدة بعية مواجهة القرصنة. وسعى البلاط لي دلهي إلى تعزيز الخلافات بين الحاكمين ليظلوا خاضعين له، لكن تلك بغ خان (Teck Beg Khan)، وهو حاكم المدينة، نجح في تعيين اخيه حاكماً للقصر عندما كان حكم دلهي ضعيفاً. واتحد الاخوان وأخذ يعتبران سورات وصراًحيها ملكاً بهما، وجمعا ثروات ضخمة ولم يمونا بهتمام بأوامر المغولي.

توفي تلك بغ خان في العام ١٧٤٦، وورع الثروات الضخمة التي جمعها خلال فترة حكمه للمدينة بين أهله وخدمه. وهكذا أصبح لبعض منهم نافذين عظموا بالحكم، أو أخذوا يساندون أحد أقرباء مجلسهم عند الآخر. وفي العام ١٧٤٧ توفي أخوه حاكم القصر مخالفاً ورايه أرملة غاية في الثراء والطموح، فحاولت جعل صهرها حاكماً للقصر وحاكماً للمدينة أيضاً، مما أدى إلى حروب داخعية شارك فيها أعيان المدينة كلهم، فأخذ كل منهم يجمع الناس حوله للسيطر على الحكم لنفسه أو لأحد أصدقائه. وراح هؤلاء الطغاة يهاجمون بعضهم البعض ويعلمون هذا أو ذاك حاكماً للمدينة أو للقصر، في هذه الاثناء، لم يرسل المغولي حاكماً آخر أو جيشاً ليثبت شخصاً ما في الحكم. وإن تمكن أحدهم من الحصول على درمان من البلاط بعلمه حاكماً، لا يتورع الآخرون عن حربه من مركزه إن استطاعوا ذلك.

وعرفت لاسم الأوروبية التي تناجر في سورات كالهولنديين والانكليز نفوذاً واسعاً، وكان لكل منها جسدها ومدافعها في المدينة للدفع عن مصالحها في حال حصول شغب طاريء. وخلال الحرب الداخلية الطويلة، أحضر الأوروبيون المزيد من الجند والسلاح والمخيرة، كما أقاموا تحصينات في منازلهم وحدائقهم كأعيان البلاد. رأى الآخرون ضرورة اكتساب صداقة هؤلاء

التجار. وبما أنهم يدفعون أموالاً طائلة ويعلون بمكاسب عدة إن ساندوهم للوصول إلى الحكم، رزدهم الأوروبيون بالدحائر وشاركوا معهم في القتال وأرادت كل من الأمم الأوروبية الاعتراف بالحاكم الذي بعدها بمكاسب أكثر، وبمل الانعاف مع كل طرف نص على ألا تسمح الأمم الأخرى الامتيازات التجارية والحرية نفسها.

كما طلب بعض هؤلاء المستبدن مساعدة المراتيين، ونال هؤلاء مكاسب عديدة لأنهم اعتادوا أن يطالبوا من يصل إلى الحكم بتعديد وعود من جازوا لمناصرتهم وإلا يهددونه بالحرب ويصطرون للدفع لتجنب المواجهة معهم.

ومنذ ذلك الحين، يحصل المراتيون على ثلث الرسوم التي تدفع في سورات، في حين كانوا يحصلون على الربع في ما مضى، ويقتى في الجمارك حالياً أحد ضباطهم لمراقبة المداخل.

وفي عظم هذه المشاكل الداخلية، عرفت التجارة ازدهاراً ملحاً، فحين كانت الصراعات تنشب بين الصفات، كان سكان المدينة يغلون أبواب الشوارع الأخرى ويمودون إلى أعمالهم (كما فعل سكان القاهرة أثناء الحرب الأهلية بين البكوات).

ولم يتعرض البرجوازيون للنهب، وإن حصل ذلك أو شئت السراقة في منزل أحدهم، يتم التعويض عليه عادة.

أخيراً، طرد الحاكم الذي يسانده الإنكليز من سورات، ثم عاد في العام ١٧٥٨، ولم يأل حماته، الذين ذكرهم آنفاً، جهداً ولم يوفروا مالا حتى أن الحاكم الموجود نازل له بلعائاً عن الحكم. وكان الإنكليز يسعون للسيطرة على القصر، فأرسلت حكومة بومباي في بداية العام ١٧٥٩ السيد سبسر (أحد المستشارين، وهو رجل يحبه الأوروبيون والهنود على حد سواء) إلى سورات على رأس قوة عظيمة، ولزمهم وقت طويل للوصول بسفهم إلى المدينة بسبب الاربعة الرملية في الثاني.

ووصلوا المدينة، وأكدوا لحاكمها أنه سيقى في منصبه إن فتح للانكليز أبواب مدينته وإن لم يعيقهم في عملية الاستيلاء على القصر، فوافق على ذلك، واستسلم القصر بعد بضعة أيام من دون أن يقع الكثير من الضحايا.

في هذه الأثناء، لم يكن الإنكليز ليربحوا الكثير إن اضطروا إلى صيانة القصر وإعالة الحامية اللازمة من مردود تجارتهم في سورات. وإن كانوا وثقيين من صداقة الحاكم، وجدوا بين أعيان المدينة معارضين نافذين يرفضون الخضوع لسلطة أمة أوروبية.

وخشي التجار أن تعرض مصالحهم لمخطر على يد أعداء انكسرا لا سيما الفرسيين منهم، بدأ يعي على السيد ميسر وضع أمور عدة في نصايها بعد السيطرة على القصر، لكنه تخطى هذه المقبات كلها بفضل حذره ولطفه أكد للسكان بأنهم لن يمتدروا رعايا انكليز، وأن الانكليز لم يسيطروا على القصر بمصلحتهم الخاصة إنما باسم المعولي، وقام برفع علم هذا الأخير على القصر. وذكر أعيان المدينة بأن لاسياد الذين سيطروا على الحكم في السنوات الأخيرة، استخدموا الإيراد لمصلحتهم الخاصة في حين أنها مرصودة لصيانة الأسطول وتعطية التجارة وبأن البحر يذبح بالفراصة. ووعد من جهة أخرى، بأن الانكليز سيدافعون عن تجارتهم، إذا ما منحهم العموي المردود المخصص لصيانة الأسطول والتحصينات وتحويل الحامية. فشر التجار بهذه الوعود، ولم يشكوا في أن الانكليز التجار مبعوضون على الفراصة في حين أن أسلافهم استخدموا الأموال التي جمعوها لزيادة عدد جيوشهم للبقاء في الحكم.

وأرسل حاكم بومباي إلى الامبراطور في دلهي تفصيلاً عما حصل في سورات، وأورد أن المدينة عانت الأمرين خلال هذه الحروب الداخلية، سيما وأن الضعفة أهملوا الأسطول ومكّوا الفراصة من مهاجمة سفن المدينة، وأن السكان رجو الانكليز أن يحموهم وقد وقّع هذا الكتاب أعيان وتجار عدة من المدينة، وطلب الانكليز من المعولي أن يعين مدير تجارتهم المقوم في سورات حاكماً للقصر وقائداً للأسطول، مما يعني أنهم يصابون بالإيرادات المرتبطة بهذين المنصبين، وبما أن المعوي لم يكن قادراً على القضاء على بعض المصاة في المدينة، كان أمه يطرده الانكليز من القصر ضعفاً، لا سيما وأن هذا الأخير بعيد عنه وريب من أهم مراكز الانكليز، فمنحهم ما طلبوه.

إذا يتولى الانكليز، عند ذلك الحين، منصب حاكم القصر في سورات، وثائد الأسطول تحت سيادة المعولي، ويحصلون على ثلث الرسوم وعلى مبالغ أخرى ضخمة تكفي لصيانة القصر وإعالة الحامية اللازمة فضلاً عن العديد من المراكب الحربية التي تساعد تجارتهم. ولو أرادوا حكم الليرجواريين لتكبدوا إدا الكثير من العناء والتعب، لذا فإنهم يتركون هذه المهمة لحاكم آخر يخضع للمعوي بالاسم فقط. ويمتلك قواته الخاصة، لكن يرجع للانكليز ابتداءً في منصبه أو علمه وبالتالي عليه أن يحكم وفقاً لإرادتهم ويسمحون له بدخول كبير للعدية يحكمه من العيش في بذخ وترف، لكنه يحتلون من امتيازاته كي لا يصبوا ثرياً وذا نفوذ. ويحافظون بدقة على حقوق الحكام المسبقين، حتى أنه أثناء مسيرات الأعياد، حين يمارس السنة شعائهم الدينية في ساحة خارج المدينة، يرافقهم انكليزي على ظهر جواده وسأورد في ما بعد مثلاً على ذلك.

ولم يعد يخشي التجار الكبار في سورات، وهم اصطفاء للانكليز، أن يحاول الحاكم الحصول

على مبالغ ضخمة منهم كما كان يحصل في السابق، لكنهم يبدوون غير راضين من جهة أخرى عن الحكم السائد حالياً، إذ يضطرون مثلاً إلى الحصول على إذن مرور لسمهم من مدير التجارة الانكليزية، وإن أراد الانكليز ارسال سفهم نحو هذه المرفأ بهمهم ألا يسفهم أحد اليه. ومن هنا، يقال إنه عالياً ما يتم حفر ادوات السفن الهندية حتى نهاية الموسم (Monson) وأن السفن لا يمكنها أن تصل إلى المرفأ في هذه الموسم. وصادلت سفينة من سوراب في بومبي، كانت متوجهة إلى جدة، لكنها عادت من سقطره (Socatra). وبقيت في المرفأ بضعة أشهر بانتظار الفصل الذي تستطيع فيه أن تكمل رحلتها إلى الخليج العربي، مما يشكل خسارة كبيرة للتجار ووصفت المراكب الانكليزية، التي يقودها ربابة أوروبيين، وبالتالي بخسارة أفضل من المسمين، في الوقت الملائم إلى جدة وبالتالي نالو أسعاراً جيدة لقاء بهائمهم

وبأتي الهولنديون في المرتبة الثانية بعد الانكليز من حيث الحضور والعمود في سوراب، ويشتغل فيها مدير، وتاجر أول، وتجار، ومساعدو تجار، وعدد كبير من رجال الدين الأوروبيين، فضلاً عن الموظفين وبعض الجود. لكن تجارتهم لم تعد بالبحجم الذي كانت عليه، ويبدو أن أمورهم غير منظمة، إنما لا يعود لي ابداء ملاحظات حول هذا الموضوع

أما حال تجارة الفرنسيين (١٧٦٤) في هذه المدينة فأسوأ مما وصفه فراير (Freyer) قبل مدة عام^(٥). وإن لم أكن محققاً، لا يرفعون عملاً فوق ركانتهم، وهو امتياز يتيح به الأوروبيون هنا، ولم يثلق وكيلهم أو مديرهم أي إعانة منذ أن فقدوا بونديشري (Pondichery). ولم يعد يتوفر لديه المال ليعيش عيشة بسيطة. كان الأب مدارد وهو راهب كبوشي من هذه الامة، ذكرته سابقاً، يعيش هنا جيداً بالنسبة لموضع، ويحظى بمحبة الأوروبيين والشرفيين على حد سواء. ويقيم الكيوشيون في سوراب منذ العام ١٦٣٨ والعام ١٦٦٦، وقد سجلوا كافة التغييرات المهمة في الحكم وبين الأوروبيين المقيمين هنا. وهي ملاحظات مختصرة، درسوها لاستعمالاتهم الخاصة ليتذكروا تاريخ هذا الحدث أو ذاك، لكنها بالتأكيد تعيد كل من يود معرفة التغييرات التي طرأت هنا منذ مدة عام وحتى اليوم.

إن تجارة البرتغاليين في سوراب محدودة، ويمثلهم وكيل أو مدير لتجارتهم وهو يهودي من مواليد هامبورغ^(٥٥).

(٥) إن مصالح الفرنسيين غنية بالرجال لا بالمال، يعيشون عيشة جيدة، يقتصدون المال ويظهرون بمظهر لائق. جيد هنا رهباناً كبوشيين فرنسيين يعيشون في ديرهم ويحفظون بتقدير الناس وحرامهم.

(٥٥) منذ رحيلني، ارسل البرتغاليون إلى سوراب مديراً من أمتهم من مواليد غوا (Goa)، ويبدو أن تجارتهم مردهم اليوم في المدينة.

ولا تملك أية أمة أوروبية أخرى غير الانكليز، والهولنديين، والفرنسيين، والبرتغاليين وكالة لها في سورات حين استولى الانكليز على القصر، كان هناك سفينة دبلوماسية تعمل في التجارة في المنطقة، وهم يكرس التجار الانكليز يمشون بالمواد كالزيت، رد على ذلك أن قبطان هذه السفينة اعتاد أن يؤدي لهم خدمات عظام فتركوا به المكاسب التي يمكن ان يالها. وبعد سنوات، رصت المدينة سفينة سويدية، وحصلت على إرس من حاكم المدينة للتجارة لقاء بدل مالي معين. وبما أن السويديين يبيعون الحديد ونحاس بأسعار أرخص من أسعار الانكليز، مهدت حمولة سفينتهم، بكر حين استعدوا بلرحيل إلى الصين، طالبهم الحاكم بمبلغ طائل قيمته مئة الف روبية (حوالي ٢/ ٦٦٦٦٦ درهم) وأمر التاجر بعدم مغادرة المدينة وبالتالي عدم الابحار قبل دفع هذا المبلغ. ووقع السويدي في مأرق، اد لم يكن بإمكانه طلب المساعدة من الانكليز، حتى انه كان معتقاً بأن هؤلاء الآخرين أعطوا الحاكم فكرة المطالبة بالمال، وظن أن أفضل ما يمكن أن يفعله هو لطلب من قبطان السفينة أن يدفع المرساة ويكمل رحلته إلى الصين، وبقي هو في المدينة عاكف على الحاكم بمبلغ ٢٠٠٠٠ روبية، وشكل هذا الأمر اندراً وسيبها له بعدم العودة ثانية، ومهد أن سيطر الانكليز على القصر، ابتز الحاكم بالطريقة نفسها ٩٠٠٠ روبية من هولنديين وأجبرهم على ازالة مدافعهم كلها من سورات، باستثناء بعض القطع الحصينة التي يستعملونها لاداء التحية. وهكذا، أحد لانكليز يسيطرون تدريجياً على تجارة هذه المدينة، وفقدت الاسم الاوروبية رعبتها بالسعي وراء الثروات فيها.

ويتبع الحاكم والموظفون المهمون الديانة الإسلامية، لكن يبدو أنهم لا يتقيدون بتعاليم دينهم كأمثالهم في مصر وتركيا، فعلى سبيل المثال هناك أحد الحكام الذين خلفوا من مصيهم، كذباً كبيراً يحلسه بجانبه ويلاعبه في حين أن الاتراك والعرب يعتبرون أن الكذب نجس لذا فهو يجسهم ما ان يمس ثيابهم، كما يشتمل الهندو المسمون اموالهم بالفائدة، ويشربون الخمر عباً ويتكلم الاعيان في الهند اللغة الفارسية ويستعملونها في مراسلاتهم، كما تعتبر لغة البلاط، في كافة الاقاليم الخاضعة لسلطة المسلمين. وتستخدم الطبقات الوسطى والديا الاحرف الهندية، فلا يجد بينهم من يتكلم الفارسية

في ٢ نيسان (أبريل)، وعند العاشرة مساءً أعلم الحاكم لمدير الانكليزي، السيد هوجر، أن انهلال ظهر وطلب منه اعلان انتهاء شهر رمضان وبدا أيام عيد الفطر بطبقات من مدح القصر. وتم ذلك في كدة الحصون كي يتمكن الشعب من التحصير للعيد، ولأنهم لا يعتمدون تقويمان ولا يرقب الجميع القمر أو يستعلم لدى القاضي الذي يتوجب عليه التبني لهذه الامور وابلاغ الحاكم بها من الضروري اعلام العامة بانتهاء الصوم. وبما أن لانكليز يدعون أنهم حكام القصر باسم المعولي ويستفيدون من العائدات لمرتبطة بذلك، كان بإمكانهم أن يظهروا القليل من الاهتمام

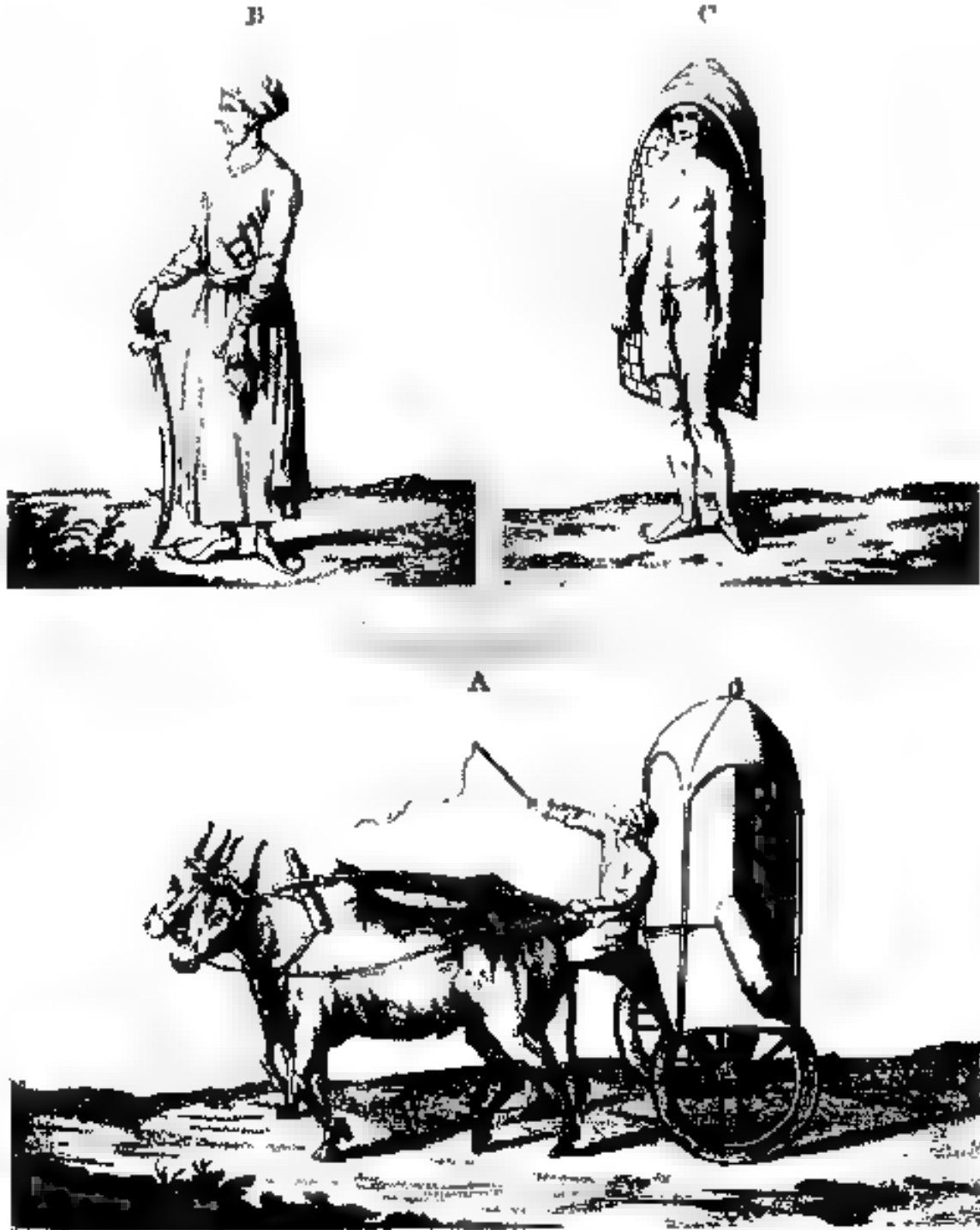
وإبلاغ السكان المسلمين بأن اليوم الثاني هو يوم عيد، لكن السيد هوجز أبلغ الحاكم أن الوقت متأخر لإطلاق صرعات المدفع وأن كل شيء سيكون من جهته جاهزاً للعيد، أي إن تاجراً إنكليزياً بصفته حاكم القصر، وفرقة من الجند سيرافقان المسيرة حتى مكان الصلاة خارج المدينة ثم يطلقون عدداً محدداً من طلقات المدفع ولم أر المسيرة إلا عند عودتها والىكم النظام المتبع.

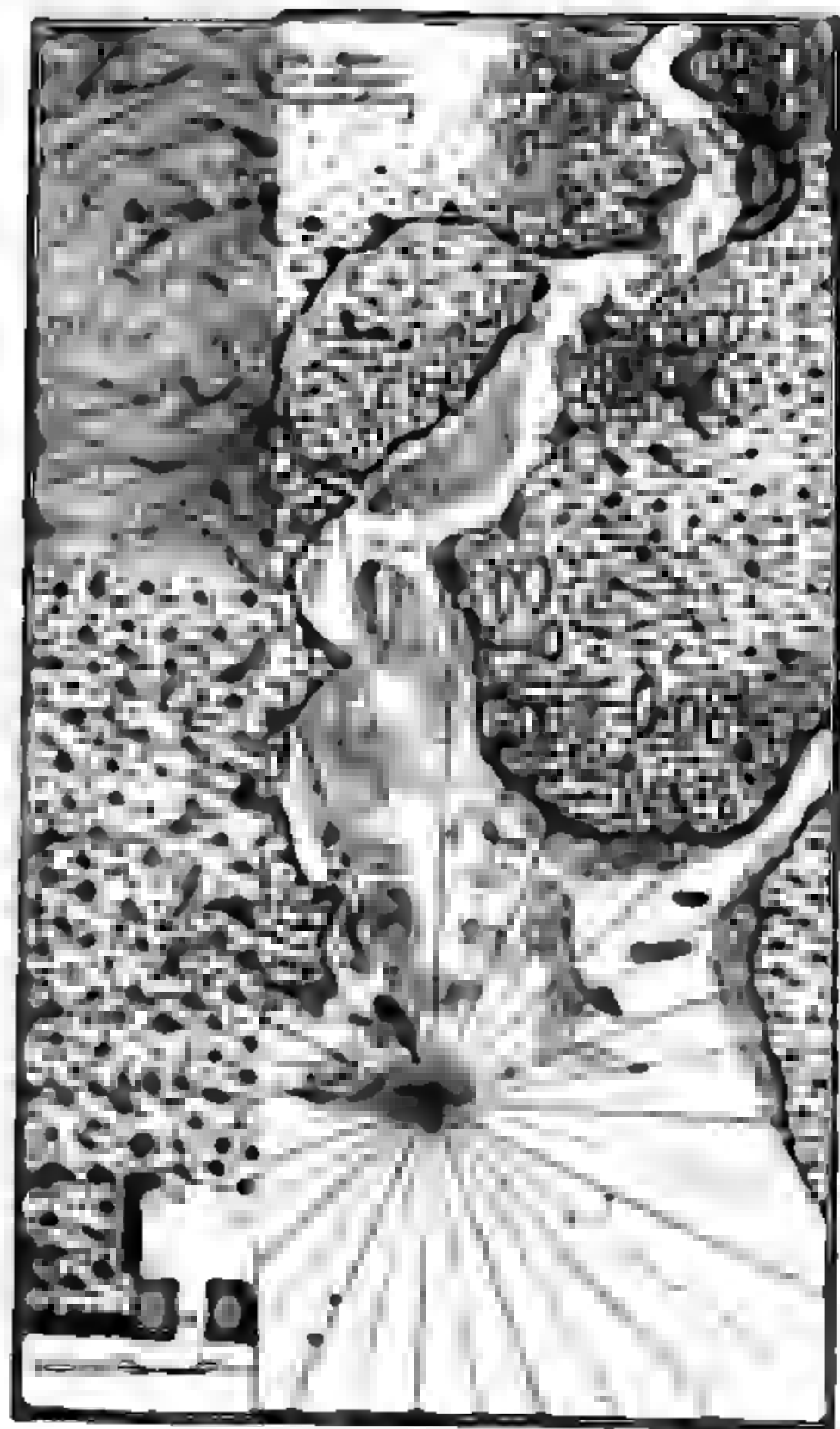
برأس المسيرة عدد من البرجواريس الذين يركبون عربات صغيرة وخفيفة بعجلتين، ويرى رسماً لها على اللوحة IX قرب الحرف W. يجلس السيد داخل العربة أو على الاصح فوقها متربعاً على وسادة، وتكون العربة مغطاة من الأعلى والحلف، وعادة ما يضعون سائر حريرية من اتجاه الثلاث الأخرى. ويجلس الحوذي على عرش مرصص مصنوع من الخيزران، فيما يمر العربة ثوران كبيراً، تنتهي قروبهما برأس من فضة أو من الشهباء. ولا تلتزم هذه العربات المسافر الأوروبي ولد اشتكي أنفاً من رحلتي من دروموس إلى سورات، لكن تلك التي صافرت فيها لم يكن حسنة الصنع إذ لم تعتمد كونها صندوقاً كبيراً ينقل فيه الملاحون المؤن إلى المدينة، وبما أننا كنا نرتدي ثياباً أوروبية لم يكن من السهل التربع فاضطربنا للجنوس قرب الحافة وأزعجنا العابر المتصاعد من الأرض الجافة. ويجدها اليهود الهاكري التي يستعملونها للشقل في المدن مريحة للغاية وهي كالعربات ذات العجلتين الأوروبية، لكن الثيران لا تسرع كالخياد. ويدفع هنا ٦٠٠ روبية (٤٠٠ درهم) لقاء زوج من الثيران البيضاء حتى أن أوروبيين في بومبي يستخدمونها أحياناً لجوز عرباتهم، وللهذا الثيران نطمة شحم كبيرة على ظهورها فوق القائمتين الاماميتين.

وتلي العربات المسيرة يحد دانتا التي يرأسها الموسيقيون وهم يحملون آلات موسيقية عسكرية تركية، ويحمل بعضهم ابواقاً يبلغ طولها ٥ إلى ٦ أقدام، وتصدر أصواتاً أشبه بصرخ الحيوانات. ولا أذكر إن كان هناك حاجب يعلن وصول الحاكم، لكني لا أشك في ذلك إذ علمت لاحقاً أنها العادة في سورات عندما يخرج الحاكم على صهوة جواده وحين يخرج بعض مسراء الوكالات الأوروبية في عرباتهم أو على خيادهم. فحين يخرج المدير الإنكليزي مثلاً، يصرخ حاجبه باللغة الهندية فامسحوا الطريق، للسيد قلال فائد اسطول المعولي وحاكم قصره في سورات، مدير الشركة الإنكليزية لهند الشرقية في المدينة، الخ^(٥).

وتلي ستة مدافع صغيرة، وصابط مدفعية، وبعض المدفعيين مع أعلام صغيرة على ظهر ميل، ثم عدد من الأعيان على صهوة جوادهم العربية والعارسية الرائعة (نقش على بعض منها بالحنة كثيران العربات)، ويسبق هؤلاء الأخيرين فرق من الجند وموسيقيون عسكريون.

(٥) انى كتاب الف ليلة وليلة في النية ٨٨ على ذكر تقاليد هندية سائدة





ثم يأتي التاجر الانكليزي على فرسه، بصفته حاكماً للقصر، ويرتدي لباساً أوروبياً، يمشي إلى جانبه خادمان يحملان مذنبين، وامامه فرقة من الجند، تحمل سمحة اوروبية بي ما يحمل جند المحاكم بنادق بفتيل.

وبرى بعد ذلك بعض المحققات الرائعة، التي يأمر الاعيان بحملها درعة لإصعاء المرید من القرب على المسيرة، ويستخدم الأوروبيون والاعيان بين اليهود هذه المحققات لتقل عروصاً عن العربات التي تمرها في اوروبا. ونجد رسماً لها على النوحة XIII، ويشار إلى السمحة الصبيبة بالحرف (أ)، وتعطى عادة بستار كبير يقي من الشمس يكتي لم أرسمه كي أظهر بوصوح التفاصيل الأخرى، ويسين لما أن السمحة يسب سوى سرير صغير مربوط بقصبة حيرران سبيكة، يحمله أربعة رجال من الطرفين، ويعلوه أرار كبيرة مغطاة بالعصاة وتنصب الأرجل من المعدن نفسه فصلاً عن قصبة عقده الحرير الرائعة، ويعطي انعراش والوسادة فماش حريري رائع، باختصار، نجد محفات تكفي اصحابها مئات أو آلاف الدراهم، ولز يتماحاً القريء مما تقدم لو علم أن كلفة قصبة الحيزران في محفة حاكم بومباي بدت ألف روية (٢/١١ ٦٦٦ درهم) بسبب سماكتها وانحائها الرائع^(٥). في موسم الامطار، تعطى هذه المحققات بسقف مصروع من أوراق شجر حور الهند، المبطن بالقماش، (الصورة ب)، ويرفع كلياً من احدى الجهات عندما يستلقي فيها أحدهم، وللسمحة نافذة من كل جهة تسمح بتشق الهواء ورؤية المارة. ونشبه محفات النساء الهنديات الخرائز المربعة، وتحمل بمصيان مستقيمة، وهي فبيحة للغاية فلا تستحق ان تذكرها أو أن يصورها فصلاً عن ذلك، لم تشارك في هذه المسيرة محفات للشتاء أو للساء.

ثم يتبع المحفات خدم المحاكم وبعض الاعيان فصلاً عن الجرد والموسيقيين، وأخيراً يتقدم الحاكم نفسه على ظهر ميل ضخم ثقل عليه بالحنة، ويربع الحاكم على مفعد أو عرش رائع نظبله قبة قائمة على أربعة أعمدة، ويحس أمامه ووراء خدم يحركون المذبات، هما يجلس المائق على حق الفيل. ويثر الحاكم من الجهتين أرهار القصبة (كما نسمي هناك) على الشعب، كز هذا السخاء يس عظيم، كما يحيل لبعض، إذ إن هذه الارهار ليست سوى قطع صغيرة من القصبة المسكوكة عزت اطرافها ثم صويت. ويلى الحاكم فيل غير محمل، وآخر مع طيال ليختم المسيرة جمل هزيل جداً، ما إن تنتهي المسيرة، حتى يتوجه كل مسي إلى سرله ليساوي الطعام.

(٥) يجلس هذا الحاكم على كرسي في محفته لينسبر عن غيره من الأوروبيين واليهود الذين يصطحبون معه لكي لا أعطف أن الذي يجلس معه يحمل راحة وسهولة أكثر من الذي يام

ويمنع الشيعة بحرية تامة في بومباي وفي سورات حتى أنهم يحقّقون بذكرى الحسين وينظمون مسيرات عامة، وهذا ما لم يكن يسمح به في مدن تركيا وفي مدن شبه الجزيرة العربية. نجد في سورات عدداً كبيراً من اليهود من طبقة البراهمانيين، ويعمل البنيان كحياة بلدية وملتزمي ضرائب ومكاسب لدى المسلمين لأنهم خبراء بالحساب ماهرين ورجال اقتصاد مجتهدين. ولدوا، إذا صح التعبير، تجاراً وتراهم يسيطرون على تجارة الهند، كما من أمة اجنبية إلا تستخدمهم كوسطاء، كما أن التجار هنا راضون عن عملهم أكثر من ربا تجار القبطية والقاهرة على وسطائهم من اليهود. وغالباً ما يسلم الأوروبي أعماله وأمراله لأحد البنيان، وتسرع غالباً أمثلة عن وفاء هؤلاء وقضاياهم مما يثير العجب.

وبالرغم من أن التجار اليهود يملكون كميات ضخمة من الذهب، تراهم يرتدون ثياباً بسيطة من القطن الأبيض (وفقاً للذوق الأوروبي). ويسمون سراويل أو أحياناً يكتفون بقطعة قماش كبيرة تتدلى نحو الأسفل وتربط حول الرقبة ويصنعون فوقها لباساً طويلاً، ضيقاً من الأعلى وواسعاً بطيات من الأسفل كتنانير النساء الأوروبيات، راجعوا الصورة XII. ويميز هذا اللباس بأكمام طويلة للغاية لكنها ضيقة ومقلوبة نحو اليد، ويتمنطقون بحزام حول خصرهم، أما الخنث فكبير ومرفوع الطرف كالمزلاج عندنا ويصنعون في أذانهم أقراطاً ذهبية، كما يضع التجار الاثرياء لؤلؤة حقيقية كبيرة في اذانهم. ويختص شكل عمامتهم وسكيتهم الذي يصنعونه في الحزام. وباختصار يختلف لباسهم عنه عن لباس العرب والأتراك والعرس^(٥)، لكنه يلائم طقسهم ويعيش الهنود الفقراء بكافة الفئات في البلاد الحارة أي إنهم شبه عراة، يكتفون بحزام أو أحياناً بحبل حول خصرهم فيه قطعة قماش تمر بين أعضائهم، كأولئك الذين يحملون المصحف^(٦) أو على اللوحة XIII، مع اختلاف بسيط هو أن هؤلاء يحتمرون قنسوة صغيرة مميّزة أشبه بحلة الخدم^(٧). ويعتبر عاتق الهنود عمامة، وعندما تمطر يلبسون معطفاً من أوراق النخيل وأوراق جوز الهند على الشكل^(٨) على اللوحة XII، ولا بد أنه لباس الهنود الذي وصفه هيرودوتس في كتابه الثالث، الفصل ٩٣.

وتضع النساء الهنديات من العامة، قطعة قماش كبيرة مضلعة بالأحمر حول اوراقهن، ويرقع الطرف عالياً بين الفخذين فيصبح اللباس أشبه بسروال قصير واسع، ويعطى أجسادهن ورؤوسهن بقطعة قماش عريضة. إن ثدي المرأة الهندية ليسا طويلين ومتهدلين كائداء المسلمات، إذ ترصهما

(٥) راجعوا الجزء الأول ووصف شبه الجزيرة العربية.

(٦) تحتاج الأوروبيات اللواتي يأتين إلى الهند أولاً برؤية هؤلاء الرجال العراة، ثم لا يلبس أن يصفن على رؤوسهم بحملوهن. كما تركن إليهم مهام عدة في المنازل ومنها عملية تنظيفها.

في ما يشبه القراب من الحجم المناسب في صديرة صغيرة ذات أكتاف قصيرة لا تعطي سوى الصدر. ويغني هذا اللباس الشديس في حالة جيدة حتى أن العديد من الأوروبيات اللواتي يعشن في الهند، يحصلن عليه كما يضطرون لتقليد الهنديات في ما يتعلق بالظافة كي لا يفقدن حب أزواجهن. وتعمل الهنديات باجتهاد كأزواجهن، ورأيت العديد منهن في بومباي، وهن يحملن الحطب فيكس قوتهن بصعوبة. لكنهن يضمن الكثير من الحلي من ذهب وقصعة وأحجار كريمة، وهي حلي سيستفيد منها أولادهن أو أحمادهن. ويضمن مثلاً خاتماً يحمل حجراً كريماً في أنوفهن، وآخر في آذانهن، وخواتم في أصابع أيديهن وأقدامهن، فضلاً عن أساور في معاصمهن وأرجلهن، وإذا خرجت امرأة مسلمة، تجدنا محجبة كنياء كنساء شبه الجزيرة وتركيا، نساء لا يتجرأن على كشف وجوههن وحتى أيديهن أمام الأجانب، فلا يمكنهن بالتالي كسب أي شيء خارج منازلهن.

لم أحضر اجتماعاً للهندو خلال أيام أعيادهم إلا مرة واحدة وذلك في شبه الجزيرة العربية. كان هناك حوالي ١٢ بنيائاً متحلقين، يحمل كل منهم طبق من المعدن وصل صغير، وبعد أن يغمي أحدهم مقصداً باللغة الهندية، يردد الآخرون الكلمات نفسها وهم يصرون على أنهم. ورافقي في ذلك اليوم أحد المسلمين، ولاحظت أن حضرون غير مرغوب به بين البنيان، فبادرت السكبان بعد أقل من ربع ساعة كي لا أذكر عليهم صبرهم

لم أتكس من معرفة كافة المهام التي يتوجب على البراهماني القيام بها بصفته رجل دين، لكن حين يولد طفل هندوسي، يجب أن يعرف البراهماني واستناداً إلى قواعد علم الفلك، ما إذا كان قد ولد في ساعة سعيدة أو ساعة تعيسة، وبعد ذلك، يعلق على أكتاف الطفل حبلاً رقيقاً وهو يعتبر علامة لمتة السميرة ويحمله مدى العمر. ويبدو أن هذه العادة قديمة للغاية، إذ نلاحظ أن العديد من تصانيل معبد جزيرة الميل يحمل حبلاً كهذا على كتفيه. وإذا ما أراد بنياني تزويج ابنه، وهذا ما يفكر به حين يبلغ الولد من السادسة أو الثامنة، يجب أن يحدد أحد البراهمانيين الرس الذي ينبغي أن يبحث فيه الأب عن العروس فضلاً عن موعد الزواج، في هذه الأثناء يبقى الأولاد في منزل أمهم حتى سن البلوغ، كما يتوجب على البراهمانيين تحديد أيام الأعياد وأعلام الشعب مسبقاً بذلك^(٥).

يضطر كل بنياني بعد أن يختل صبايحاً، إلى الطلب من أحد البراهمانيين وضع نوع من اللحم على جبينه، وتقع هذه المهمة على عاتق كهنتهم العاديين، ورأيت يوماً، مجموعة جالسة قرب النهر

(٥) تحدثت سابقاً عن شلوع البراهمانيين في عدم الفسح وفي التنبؤات وذلك في وصف شبه الجزيرة العربية كما ورد ذكر ذلك آنفاً في هذا الكتاب.

على مقربة من القصر، حيث تأتي النساء والفتيات للاغتسال والصلاة عند الصباح. وتعطي كل منهن الثياب النظيفة لأحد الكهنة، ثم يهرلن إلى النهر، بعده يبدلن ملابسهن الرطبة ويرتدين الملابس الجافة على الشاطئ، ويمن بدنك برشاقة وسرعة وحشمة حتى أن المحتشيه لا يرى الاجزاء التي يقصبي الاحتشام بسترها. ويضع الراهباني اصبعه في صباغ أحمر ويطبع نوعاً من المحتم على جبين الفتاة فتنبه قليلاً ولا صيغ جيبها كنه بالدون الاحمر في لحظات ثم يأخذ الشخص المختوم أو العطهر علبه الصباغ ويؤدي صلاة قصيرة، ويمطي الكاهن حفنة من الارز أو أكثر، ويعود إلى منزله حاملاً ثيابه المبللة. وتحمل بعضهن القليل من ماء النهر معهن ليسفنن شجرتهن المفضلة أو لاستعمالات أخرى.

ولا يملك اليهود في سوريات مستشفى للناس، اما مصحفاً كبيراً للحيوانات، فحين يعطوهم شخص من ديانة أخرى جرّاداً عجوراً أو مريضاً، أو بقرة أو أي حيوان آخر يعتنون به حتى ينفق. ورأيت هناك سلحفاة كبيرة، عرجاء وعمياء ويعتقد أن عمرها يفرق المئة وخمسين وعشرين سنة^(٥)، كما وجدت كمية من الحيوانات ذوات القرون، والنعاج، والارانب والدجاج الخ وكلها حيوانات كسيحة، يعمل طبيب واحد على العناية بها.

وجدت بين الهنود أناساً يختارون تعذيب أنفسهم بغية كسب رضا الله وصحته، ويقال إن بعضهم يعطون أن يدعوا أحياء ووجوههم نحو الأسفل. ويختار أحدهم أن يعيش ٢٠ عاماً في قفص في الهواء الطلق، مكثف اليدين وهو يرفعهما نحو الأعلى، ثم أن ينقل في ما بعد إلى المعبد في دهي ليقطع رأسه. وبقي بالفعل لسنوات في القفص أمام حديقة خارج سوريات، لكن للمسة رائحة قبل وصولي إلى المدينة وقبل مرور العشرين عاماً المذكورين. وبما أنه لم يكن يتحرك، عفدت اعصاءه في الوضعية التي اخدها، ولم يتلفظ بكلمة واحدة في السنوات الأخيرة. وبقي ينظر نحو الأسفل أمامه وعيائه لا تعارفاً نقطة معينة، ولم يفص شعره أو أظافره خلال السنة التي قضاه في القفص لذا يمكن أن نتخيل منظره المرعب بسهولة. ولم يتفصه يوماً الخدم الذين ظنوا أنهم يكتسبون بعض القداسة من جراء الخدمات التي يقدمونها لهذا القديس المزعوم أو الذين اختاروا أن يعيشوا من الصدقات الكثيرة التي يحضرها الناس له. ونذر شخص آخر أن تبقى ذراعه دائماً مرفوعة نحو الأعلى، ويقال إن هذا ما فعل لسنوات عدة، وظن آخر أنه يظهر ورعه لله إن حمل سلسة عليظة تنتهي بحجر. ويقال إن امرأة اعتادت تدريجياً على الصوم، حتى أنها لم تتناول خلال ٤٠ يوماً سوى بعض الماء العذب برميلاً.

(٥) في قصر برهاني سلحفاة يقال ان الانكليز وجنوها هناك حين استولوا على الجزيرة وطردها البرتغاليين منها.

باعتصار، إن عبود الرهبان المسيحيين ونفقتهم وإمانة الجسد عندهم ليست سوى نقطة من بحر العقوبات التي يفرضها اليهود على أنفسهم.

ونجد بين الهدوس أيضاً رهبانيتين لقدّيسين متسولين أو حجاج. يطلق عليهم اسم بارعي وغيباين (Bargus et Gusseins)، وهم أعداء، يسافرون دوماً مسيحين وخصم مجموعات كبيرة أحياناً، وحين يلتقون في مكان ما تقع معارك دامية بينهم وحتم منذ سنوات عدد كبير منهم لأشهر قرب سوررات، وبدا الحاكم خائفاً منهم، فلم يسمح يوماً إلا لعدد قليل منهم بدخول المدينة لشراء المؤن والحاجيات.

كما لا تحلو المدينة من دراوش مسلمين، يحنو بهم أن يجلسوا قرب حفرة أو تحت شجرة، ويجعلون قريهم جراراً كبيرة تملأها المجازر بالماء بغية تكريم الله ولا يخل مؤلاء بالماء. كما يباركون الحارّة ويدعون للاوروبيين والمسلمين وغيرهم على حدّ سوء. لكنهم في الوقت نفسه متسولون وقحون، يجلسون أحياناً أمام مرن ماء، ويرفضون المتادرة حتى يدفع لهم أهل البيت المبلغ الذي يطلبونه أو المبلغ الذي يتفقون عليه معهم. ولا تدخل الشرطة في أمورهم حتى يضطر الناس إلى تهدئتهم بأي طريقة يخلصوا من صراخهم وحبائهم.

ونجد في سوررات عدداً كبيراً من العرب، وهم تجار ماهرون، وحرفيون بارعون وخدام جندوس، كما يقيم في المدينة بعض الأرمن والحيورجيين واليهود، فضلاً عن العديد من الكاثوليك اليهود ويسكن مؤلاء برتغاليين، ويجب على البرتغاليين القادمين من أوروبا تعبئة لعتهم السيفة لأنها المستعمدة في الهند، شأنها في ذلك شأن الابطالية العامة التي يستخدمها الأوروبيون في الشرق.

يبدأ المسلمون في سوررات يومهم عند عباب الشمس كالعرب والأتراك، نكهم لا يحسبوه بالساعات، بل يستخدمون عريفة سكان البلاد القدامى أي البوار، (Beâr) والعارى (Garr) والبول (Poll) والويبول (Wipol)، ويقسمون الليل ونهار إلى ٧ بوار أو ٦٠ عاري، والعارى إلى ٦٠ بول، واسبول إلى ٦٠ ويبول. لتسجيل وقت العاري، يستخدم اليهود ساعة مائية^(٥) وهي كتابة عن طاس من النحاس دائرية القاعدة على شكل أنداحيا الصغيرة، وفي قعرها ثقب تدخل منه المياه بقوة. ولأحظت أن المياه مملأها خلال ٣ دقائق، وفقاً لساعاتي، ثم غرقت الطاسة لو كانت

(٥) استخدم هذه الساعة المائية في سبأ أيضاً رحلة وفنتون الجزء الأول ص ٢٩. أذكر أنني قرأت أن قدامى العرب يصنعون طيفاً على الماء، فلا يهرق إلا بعد مرور ٣ ساعات، ويعلن الوقت عندها بالطبول والابواق يبدو مما تقدم أنهم يحسبون الوقت بالبوار أيضاً كما يعمل اليهود اليوم. كما يبدو أن البراهميين وحدهم يستخدمون البول والويبول في حساباتهم المالكية

الستون غاري تعادل ٢٤ ساعة، ما كان يجب أن تفرق الطاس إلا بعد ٢٤ دقيقة، لكن تبين من التجربة أن مراقب هذه الساعات لا ينتبه إلى وضع الطاس على الماء أولاً وإلى أن الثقب الذي تدخل منه الماء يكون كبيراً أحياناً. إن جرس الهند عبارة عن قطعة نحاس مسطحة سمكة ومستديرة، يبلغ قطرها حوالي قدمين ونصف. يعلق هذا الجرس، وعند كل غاري أي كل ما لمس الساعة المائية قهر الماء يضرب بمطرقة خشبية.

إذا عادت ٨ بوار ٦٠ غاري، يساوي كل بوار ٧ غاري و ٢/٢ الغاري، لكن هذه الحسابات لا تتبع بدقة في الحساب للمدني، نعتبر أن أول وثالث بوار يساويان ٧ غاري، والثاني والرابع يساويان ٨ غاري. حيث يمر بوار بأكمله، ويضرب السبعة أو الثمانية غاري، يضرب بعدها ببطء عند البوار، لكن لا يتعدى ذلك الأربعة، كما لا تدق أجراسا سوى الثانية عشرة. ويبدأ النهار ببوار، وفي سورات بعد ٣٢ غاري في أطول يوم و ٢٨ في أقصر يوم.

رأيت هذه الساعات المائية، وهذه الأجراس في منزل حاكم محلوق، حيث تكثر الساعات على أنواعها، وقد تم الاحتفاظ بها على سبيل العادة أو لتروى إذ قيل لي إن الاعيان يكفون الخدم بحمل هذه الأجراس أمامهم في المسيرات، لكنهم يستخدمون الساعات الرملية عوضاً عن الساعات المائية. وقلما نجد هنا ساعات تعلق الأبراج كما في تركيا وشبه الجزيرة العربية.

وتلفت الانتباه من بين حقائق سورات، تلك التي أمر برعها وبساتها تبت بنغ خان (ذكره سابقاً)، والتي كلفت ٥ لآك روبية (حوالي ٣٣٣٠٠٠ درهم). نجد من بين أهبة هذه الحديقة العديدة، الكثير من العرف الكبيرة المفتوحة من إحدى الجهات يعلوها سقف كبير يغطي عريداً من العي و عليها، كما نجد حمامات رائعة، وشلال وبخيرات عدة تتصاعد منها المياه في نوافير، وهذا ما يتلاءم والمناخ. لكن الدوب المؤدي من المدخل الرئيسي إلى المبنى الأساسي ضيق للغاية ومتعرج تكثر على جوانبه الأبواب حتى أن المرء يمكن أن يصعب في وصح النهار، ويغطي الأمر نفسه على السرات الأخرى بين الأبنية، ويحصد السبب إلى أن سيد القصر يخشى الهجمات المفاجئة. وتتميز الدروب في الحديقة والعديد من السهول بأنها مرصوفة، لكن هذا البناء الرائع وهذه الحديقة الغناء لا يوليان العناية اللازمة، لأن المسلمين هنا كما في تركيا وفي شبه الجزيرة العربية يفضلون بناء قصور كبيرة ليحللوا أسماءهم ويروضون صرغ المال لصيانة بناء شيد شخص آخر.

رسمت خارصة لأجزاء هذه الحديقة الأساسية على اللوحة XIV، لأعطاء الفاري فكرة عن كمية تنسيقها: (١) المبنى الرئيسي المؤلف من ثلاثة طوابق مع شرفة في الأعلى (٢) شرفة كبيرة على سور الحديقة. (٣) الأجنحة المؤلفة من طابق واحد، مع أبواب مفتوح لكل منها وشقق صغيرة

عدنة. ٤) خزانات مياه كبيرة وصغيرة مع بوابير ٥) دروب ومباحات مرصوفة بالزجاج ٦) مركز الحرس الداخلي في أسفل المبنى وفوقه عرفت عادية ٧) حريم مقفل أو سارل بروجتي المائل مع حدائق وبوابير ماء، وذلك في مكان أعلى من الحديقة الرئيسة، كي لا يتمكن أحد من رؤية ما في الداخل. ويتم تجهيز هذه الأماكن بطريقة تجعل كل روضة مستقلة عن الأخرى وتوفر يديها كل وسائل الراحة ويمكنها أن تستخدم العديد من الخدم والحشم ٨) مكان إقامة الروضة المعصلة عن الأرجح، وفيه حمام رائع مع بوابير راحية مصقولة كالمرآة. عتاد الحاكم المنجور التوجه عادياً إلى هذا الحمام لتحيط به ساء جميلات عربيات يضطرون إلى بدل أقصى جهدهم لإثارة اهتمامه. ٩) بناء من طينتين، فيه درابزين مفتوحة ومكاتب عدنة صغيرة. ١٠) بناء مشواص، فيه درابزين عدنة مصوغة، يمكن استخدامه كحريم.

ونجد من جهتي سور الحديقة شققاً صغيرة ملاصقة له مخصصة لخدمات وعبيد الزوجة التي يجعلها السيد تقيم في هذه المبنى المفرد، ١١) مبنى واسع مؤلف من طبة واحدة، فيه درابزين عدة مفتوحة وحمامات وشقق صغيرة، وقد اعتاد تلك يغ حاد استقبال صيفه وعقد اجتماعاته فيه. ١٢) مباني صغيرة قرب شلال. ١٣) حائطان مشقوبان على شكل قوس ١٤) باب عظيم، مع أماكن إقامة عدة للحرس، ويقع هذا الباب خارج الحديقة، إذ لا يجد في سور هذه الأخيرة إلا ابواباً صغيرة. ١٥) ثلاثة أبر، تخرج منها المياه بألة تعمل على المياه على شكل نافورة^{١٠}، ثم تجمع هذه المياه في خزانات وتجر منها إلى البانيب والنواير.

وتعتبر حديقة الهولنديين أجمل حديقة بين تلك التي زرعتها الأوروبيون، وتتميز بموقعها قرب مهر ثاني وبلاورويين في سوريات مقبرة خدصة، يهب بعض الاصرحة التي تستحق الزيارة والاهتمام، أما أكبر كيسة في مدخل الانكلبر بصيرة عن مبنى يسع علوه ٤٠ قدماً ينتهي بقبة جميلة للعبادة وابراج على الراويين. وقد دهم فيها الاخوان كريستوف وجورج اوكسند، وتوفي الاول في سوريات في العام ١٦٥٩، والثاني، وكان حاكماً لبومباي، في العام ١٦٦٩. ويعود أبيه مير في مدهن الهولنديين لهري ادريان بارون رهدن في دراكشتين، وقد ارسلته الشركة الهولندية لنهد الشرقية إلى سوريات بعية مراقبه سير أعمال وكالتها وموظفيها، لكنه لقي مصير الدين اتوا قبله في المهمة نفسها فتوفي في العام ١٦٩٧، وهو في طريقه من باتافيا إلى سوريات ودفن في المدينة الأخيرة في مأتم مهيب.

وكانت مدة إقامتي في المدينة قصيرة فلم تسمح لي برسم خارجتها، فضلاً عن أن هذا العمل

(٥) راجعوا الوصف في الجزء الاول، فضلاً عن الفقرة XV الفقرة ١.

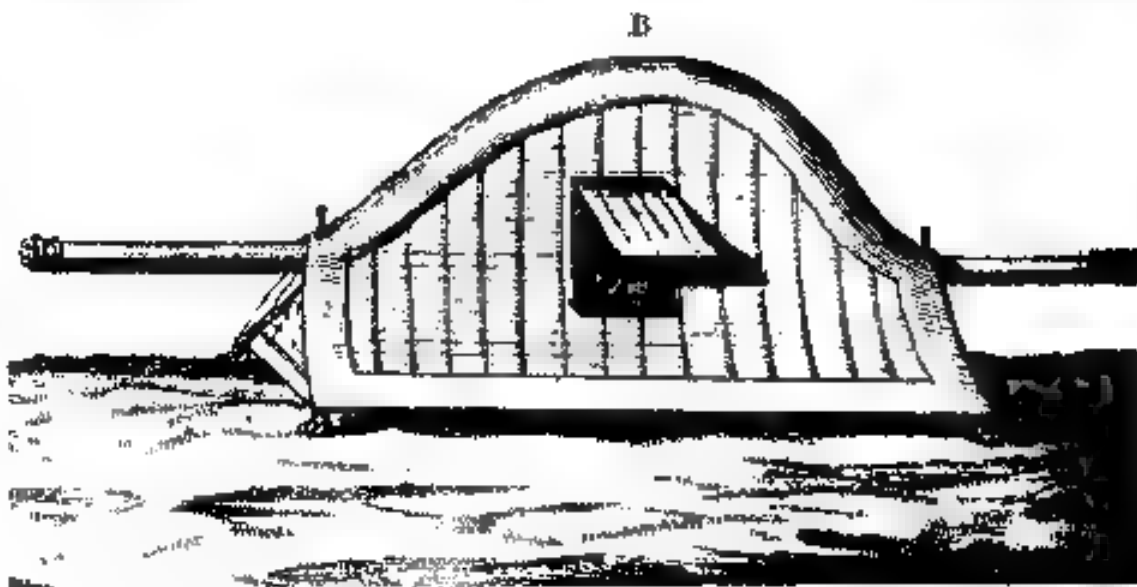
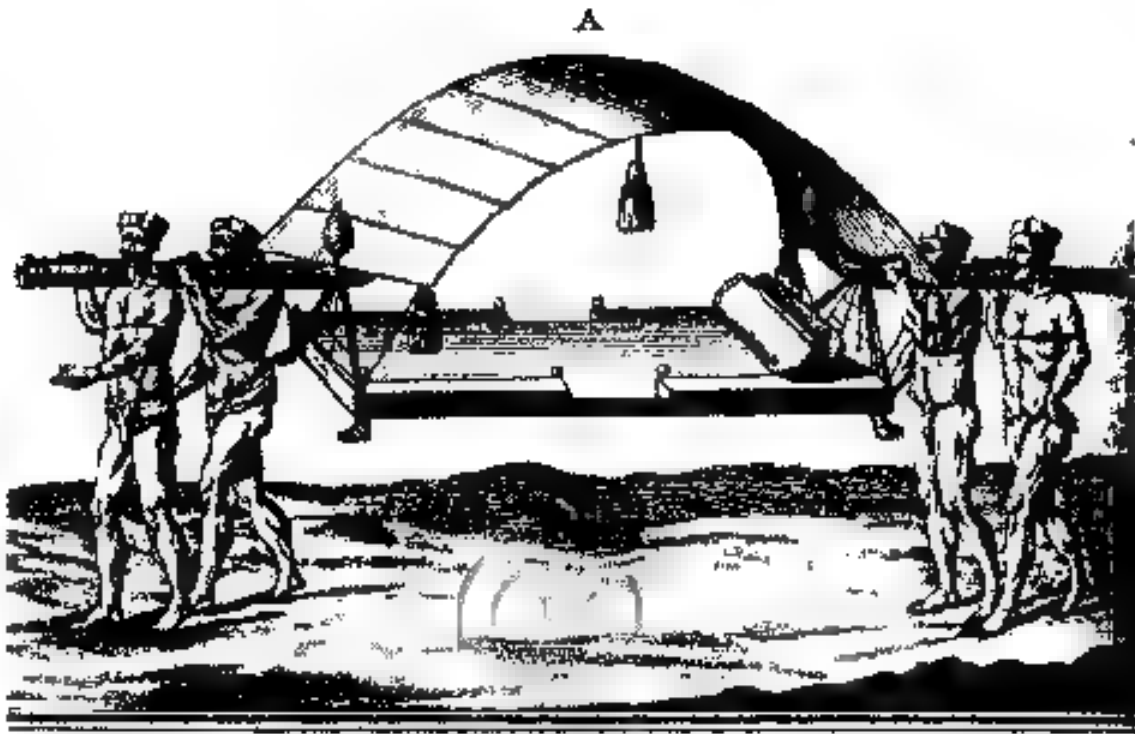
أخطر في الهند بين الأوروبيين من بين الأتراك والعرب، ولم أنشأ أن يشك بي الإنكليز الذين تعاملوا معي بلباقة وأدب إن شاهدهوني أرسم ممتلكاتهم^(٥). وتلبيت حارطة لمصيب الثاني، رسمها إنكليزي مند سورات، صمّح فيها بحار هولندي أقام لسورات في سورات الموقع الحالي للأرصفة الرمنية، وقد طبقت هذه الحارطة على اللوحة XIV لأعشى القارئ فكرة دقيقة عن هذه المذبة.

العودة من سورات إلى بومباي

في ٨ نيسان/أبريل، غادرت سورات لأعود إلى بومباي على متن السفينة نفسها التي قدمت بها. واتفقنا على المغادرة باكراً، لكب لم نترك المدينة إلا في الساعة العاشرة ولم يبلغ السفينة إلا في الثالثة بعد منتصف الليل، ولم أكن مستعداً لرحلة كهذه أثناء الليل في مركب مفتوح فأصبحت بركام شديد. وغادر جايكس ماسات، قبطان سفينتا في سورات، في اليوم التالي عند الخامسة صباحاً، فوصل على متن السفينة في الواحدة بعد الظهر، وأبحر مركب صغير آخر بعد ساعة ولم يبلغ السفينة إلا في العاشرة وفي الساعة الثانية وعشر دقائق بعد الظهر، نستنتج من ذلك، أن الرياح وحركة الموج يمكن أن تعيق المسافرين فضلاً عن أن سفينة كانت ترمو بعيداً عن اليابسة.

في ١١ نيسان/أبريل، أبحرنا مع حوالي خمسين مركباً صغيراً، اجتمعت لتصل إلى بومباي في حمام. في ١٢ من الشهر نفسه، صادنا بعض القراصنة، أرادوا الاقتراب من مركبنا فتجمعت المراكب الصغيرة حول سفينتا، وأطلق القبطان بعض القذائف المدفعية لكنهم لم يكثرثوا للأمر حتى أصابتهم إحدى القذائف. وابتعد القراصنة لكنهم لم يحتموا كلياً، مما جعلنا نحشى أن يعاودوا الاقتراب منا ليلاً لأنهم يستعملون الظلمة ليهاجموا عادة من جميع الجهات، وحين تطلق السفينة الإنكليزية النار من إحدى الجهات يخطعون المراكب الصغيرة من الجهة الأخرى. ولم يجسروا على الاقتراب منا، فوصلنا بومباي في ١٣ نيسان/أبريل.

(٥) اتفقد حلاق خلال الحرب الأخيرة مع برسيين آخرين إلى بومباي كسجاء حرب، وأكد لي صابط إنكليزي أن الأول لا يجيد الرسم أبداً لكنه حلّ رمة فيه سميت للشعر وقلم على السور، فاتهم بالتجسس رمي إلى جرمية المذبذبة هيلانة. قدم فتى إلى بومباي، حين كنت في المذبة وباع مركبه للإنكليز وأخذ بعض ماله، وكان يتجسس بفكرته على رسم حارطة التحصينات بسهولة، ولعله قال أنه لا ينجراً لهذا السبب على الخروج من غرقه الواقعة في منزل عال قرب السور. وتلقى صاحب المنزل الأمر بطرد الفتى من منزله، لكنه لم يمنع من التهره أينما شاء على السور، ولعل الحاكم يجهل أنه يمكنه رسم الحارطة بسهولة أكبر مما لر بقي في منزل عال حيث لا يرى سوى المدينة وجزء من السور، لكن بشكل عام، لا يشكل هذا الزجل أي خطر على الإنكليز وحلفت في المحس، أن الهولنديين سكموا على تاجر حربي من اليس بسنة سجن لأنهم قاس طول مدبغ كبير وسماكته.



عند عودتي، كان الإنكليز ينتظرون سفينتين لإرسالهما إلى أوروبا قبل موسم الأمطار، وأملت أن أجدهما في بومباي، لكنني علمت أنهما لن تصلا قبل موسم الأمطار، لأنه تم إرسالهما من البحار وندراس إلى باناديا وبكولن، وقررت أن أسافر على متن السفينة التي جئت معها من سورات إلى الصين لأبحر بعد ذلك نحو كوبنهاغن على متن سفينة ديمركيه، لكن في ٢٠ آب/أغسطس، وعند مرعد البحار السميناء، مرضت ولم يكن بإمكانني السفر من دون أن أعرض حياتي للخطر وبقيت في بومباي مرعماً خلال موسم الأمطار، فقررت العودة عبر البصرة حالما تسمح لي صحتي بذلك. كنت والمسيد كرامر قد أرسلنا من تركييار كمية الفرائب الطيحية التي جئناها من الخليج العربي ثم بعثت محطوطات رفائي كلها وجزءاً من أوراقتي مباشرة عبر لندن إلى كوبنهاغن. ولأني لا يسعني التكهن بما ينتظري في طريق العودة، اعتبرت أن الحذر يتطلب أن أرسل هذه الأوراق كافة عن طريق آخر كي لا تصبح الرحلة غير مجدية إذا ماوافقتي الحنبة أو إذا ما تعرضت للسرقة.

رحلته عن بومباي الى مسقط وبوشهر

تركت بومباي أخيراً في ٨ كانون الأول/ديسمبر ١٧٦٤ على متن سفينة عربية صغيرة تابعة لشركة بلاد الهند كان عليها السفر من مسقط ومن الخليج العارسي. قلما تتغير وجهة الريح في هذه الأنحاء وعادة يعرف البحارة الماهررون مسبقاً أي ربح ستقابهم في هذا الموسم أو ذاك. في بعض الأشهر يسافر البحارة من بومباي إلى مسقط مباشرة أو حتى إلى البصرة دون أن يحتاجوا إلى طلي شراع مصغية السفينة. لكن في أشهر أخرى يجب أن يتجهوا نحو الجنوب أولاً ثم ينزلوا شراعهم نحو الغرب إلى أن يلتفوا بالرياح فيوسطها يسكنهم العودة إلى الشواطئ العربية والخليج العارسي. عندما حرمت أمتعتنا لمرحيل لم نكن في الموسم الافضل ولا حتى في الموسم الاسوأ للسفر. كان القبطان يترقب هبوب الرياح الشمالية مما جعله يحترس من التوجه كثيراً منذ بدايه السفر نحو العرب لأن الهواء الشمالي كان سيء كسبه حتماً.

وعلى طول الساحل الهندي على بعد درجتين أو ثلاث درجات منه فقط كنا نرى جبهات البحر للصغيرة التي ذكرتها في المجلد الاول. يقال ان الخليج العارسي مليء بها كذلك في مساء ١٢ كانون الأول/ديسمبر اشتد لمعان مياه البحر كما لم أر مثله في حياتي لهذا سطح الماء وكأنه مقطّع بشعلات من النار على مساحة نصف ميل ألماني بينما لم نكن نرى في مناطق أخرى ولا لمعاناً بسيطاً جداً عندما يحتاج ماء البحر^(١). وكنت قد ذكرت سابقاً أن سبب هذا اللامعان يعود إلى قناديل البحر. في اليوم التالي عندما كان الحو لطيفاً رأيت كمية كبيرة من هذه القناديل وكان بعضها كبير الحجم كما لم أر مثله قط. تشير الدلائل إلى وجود حيوانات بحرية أخرى تعطي أشعة أثناء الظلام. في بومباي لصانما رأيت نوراً يشبه العوسفرور على الطرقات وكنت في هاديء الامر أحسبه حشياً عفاً لكنني اكتشفت انه بقاء سمك لرج يشكل عمام العقراء في هذا المكان.

أثناء رحلتي إلى مسقط كنت أنتظر المساء عندما يكون الجو صافياً لرؤية ضوء النجوم المنبع الذي سأل عنه السيد ميكائيليس في سؤاله رقم ٨٨ خاصة وقد أكد بعض المسافرين أن النجوم الثابتة لا تلمع قط في بعض المناطق الشرقية كما في أوروبا تصماً. في ١٥ كانون الأول/ديسمبر،

(١) رأى القبطان ساريس Sarries المنظر نفسه عام ١٦١٢ على ارتفاع ١٢° من القطب لم اكتشف ان سبب هذه الظاهرة هي عاكس الماء.

كانت السماء على درجة عالية من الصفاء فأبدي كوكب المشتري وكوكب الشعرى ما إن صهرا، لكن لم يتمكن من رؤية كوكب بروريون (Proryon) إلا عندما صعد إلى ارتفاع ٢٠° والنجوم الصغيرة إلا على ارتفاع ١٠°. أما النجوم الأكبر حجماً فأبداها تلمع على ارتفاع ٢٥° درجة كما لو لم تلمع أبداً في أوروبا في ليالي الصيف.

في ٢١ و ٢٢ من الشهر نفسه، رأينا مجموعة كبيرة من الدلافين التي بدت وكأنها تسير معنا والتي كانت تسبقنا بالرغم من أن سفينتنا كانت تسير بسرعة ١/٣ للميل في الساعة. رأينا من ٨ إلى ١٠ دلافين تقفز في الماء دون أن تصنع طريقها ودون أن تتأخر عما في هذا اليوم الأخير أي (٢٢ كانون الأول/ديسمبر) رأينا رأس قلحت (Ras Kalhat) على ساحل عمان اعتاد المسافرون الانكماش على اعتبار هذا الرأس جزءاً من بلاد اليمن. في اليوم ٢٣ اقترب من مسقط أصبح الهواء هادئاً ولشدة ما كان الجزر قوياً على الشاطئ، مراجعنا عنه أثناء الليل ستة أميال ألمانية. في اليوم التالي، كانت وجهة الريح معاكسة بلسية إلى وكان المد لا يزال قوياً لتكبدنا الكثير من الصعاب كي نبقى بعيدين عن اليابسة. إن الساحل العماني شديد الخطورة وسياحه شديدة الصعوبة تصل بالقرب من اليابسة إلى ٥٠ ياعاً في اليوم ٢٨ كنا لا تزال بالقرب من رأس قلحت. منذ هذا اليوم حاولنا الوصول إلى عرض البحر ثم أصبحنا في مأمن من تحطم السفينة.

خلال باقي الرحلة واجهتنا رياح معاكسة ومد وجزر إلى اليوم الثاني من شهر كانون الثاني/يناير ١٧٦٥. منذ ذلك اليوم كثرت العواصف والأمطار وواصلت وبما أنني لم أكن أحمل ثياباً شتوية (لأنني استمدت بدسي الأوروبي في بوباي) تأثرت بالهراء البارد لكن في اليوم الذي ذكرته أنما أصبح الهواء جيداً ووصلنا إلى مرفأ مسقط في ٣ كانون الثاني/يناير.

في اليوم الرابع وصلت إلى المرفأ عدة سفن هندية وكانت تعبر عن فرحها بالوصول على طريقه بلادها فتفرغ الصول وتنفع في الابواق رست إحدى السفن بالقرب من سفينتنا ركبنا سفينتها لرؤية فرنسيس ترحبها إلى الهند بعد هزيمة بونديشري وهم يعملون في الوقت الراهن كحمود عند فبطان هندي. هناك العديد من أهل بلاد الهند تفرقوا خلال الحرب الأخيرة وأجبروا على العمل بكد لكسب رزقهم لدى المسلمين وعبدة الامتنام.

إن صاحب سقط هو أمير عربي يعيش في قصر ويدعى إمام عمان، أما سكانها فهم جميعاً من المسلمين. إن القرآن هو كتاب شريعتهم ودينهم وهم ينتمون إلى المذهب الإباضي ومع أنه معروف جداً وقد حكى عنه الكتاب العرب لكن لم يذكره أحد من المسافرين الأوروبيين بسميهم السنة والشيمة باسم الخوارج وهو لقب شيع في عمان تماماً كما هو اسم الارافس بالسنة لفرنس. تكلم ابو العرج على الخوارج واعتقد ان سال (Sales) ذكرهم أيضاً ويسميهم البعض الخارجيين.

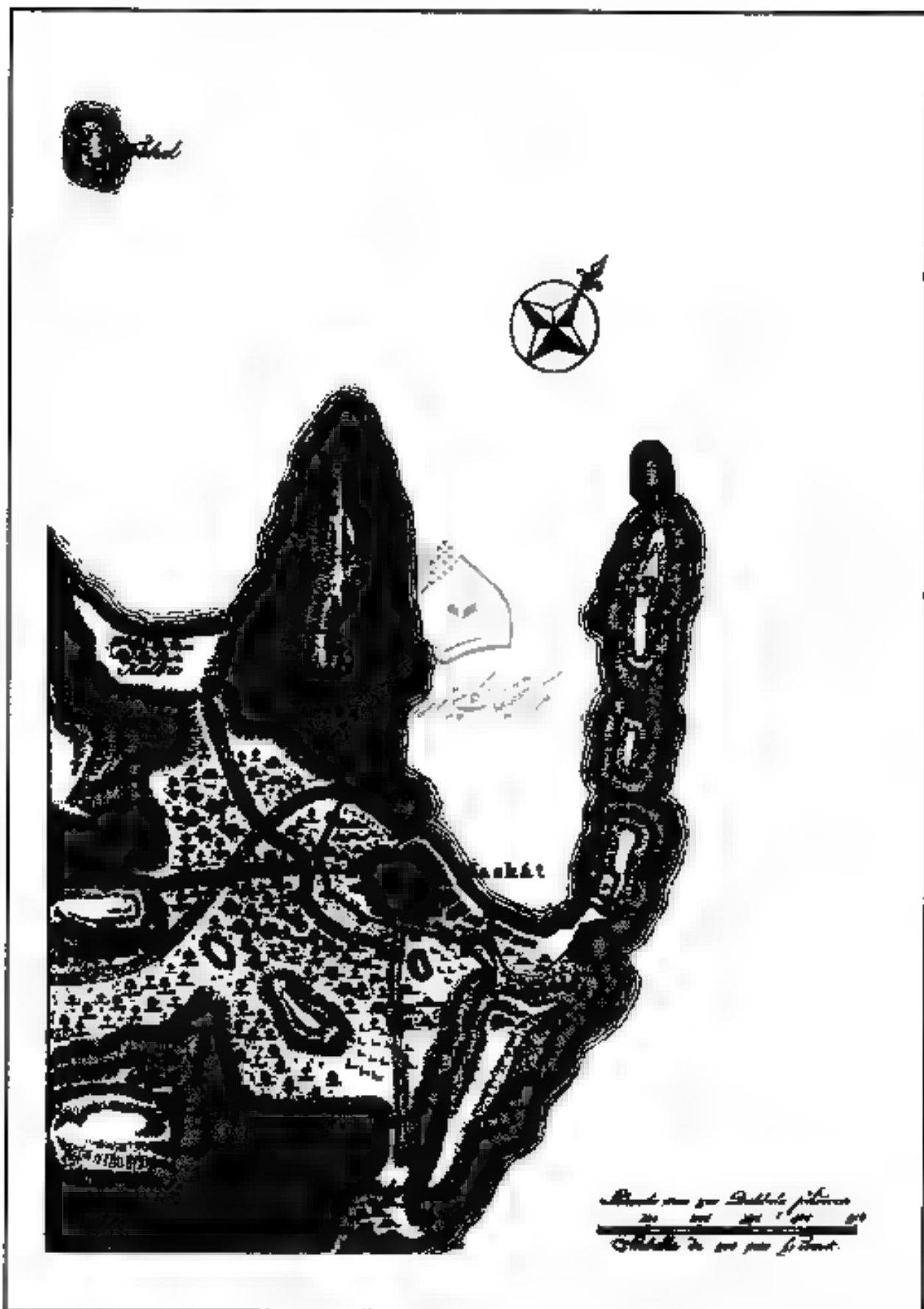
ان ميادئهم التي ذكرت بعضها في كتاب وصف شبه جزيرة العرب تتفق مع ميادئ الخوارج وهم لا يميرون أهل بيت محمد وعلي أو يعضونهم عن أي عربي يسحر من عائلة عريقة. لم أعرف مسلمين يعيشون بتقشف شديد مثل الإباضيين فهم لا يدخنون التبغ ولا يشربون لا القهوة ولا الكحول، إن الأغنياء منهم يلبسون مثل ثياب الفقراء. والفرق الوحيد في العيش يتجلى من خلال العمامة التي تكون من قماش افخر ومن خلال السيف الذي يصعه في وسطه والخنجر الذي يحمله في الجهة الامامية من جسمه. والإباضيون لا يسمحون لأنفسهم بالانقياد وراء الشهوات وهم مهذبون مع الغرباء ويسمحون لهم بالعيش بحرية في مسقط وعملاً لقوانينهم. وعلى عكس الباطنيين الذين يجبرون على دفن موتاهم في البحر، يسمح لهم أن يحرقوهم في مسقط كما يسمح لليهود بأرثداء زي العرب إذ لا يجبرون هنا كما في البلدان العربية الاخرى بأرثداء ثياب تميزهم. في البلاد السنية عندما يمر على يهودي أو مسيحي أو بابائي بصحبة مسلمة يجبر على اعتناق الدين الإسلامي أو على دفع غرامة نقدية صحيحة، أما عند الإباضي مسقط فلا يترجع الحكم من هذه المظاهرة شرط أن تكون المرأة من بيت اليهودي اللاتي يحصلن على المال أجراً لما يعملن علماً به هناك عدداً كبيراً من النساء المتعطلات اللواتي يقمن في حي خارج المدينة^(١)

للشرطة سلطة واسعة في هذه البلاد فحس لا نسمع بحوادث مفرقة بالرغم من أننا نرى البضائع معروضة دائماً في الشارع لأسابيع متتالية. لا يتجرأ أحد على الزول إلى الشارع ليلاً من دون نور ولا يسمح لأي مركب بالرسو بعد غروب الشمس أو بالانقال من سفينة إلى أخرى وذلك حفاظاً على رسوم الجمارك.

(١) من الطبقات الهندية المختلفة هناك الرافعات اللواتي يرقصن ويغنن لقاء الماء عند كل من يرغب قهين ومن كالعازيات في مصر والمعربات في القسطنطينية. اما الرافعات الوثنيات فلا يتزوجن ابداً بل تتعتم بانتهن مهنة الامهات ويصبح الفتيان جنوداً في الجيش.

في إحدى الامسيات في مسقط أحضرنا انا وانكليزيان بصحبة رافعات لكبي لم نجد موسيقاهن اعصل من موسيقى الغازيات في مصر. هي أمسية اخرى احضرنا ثلاثة عود يعرف أحدهم على الكمان (ويمكن رؤيته في النسخة ٢٦ من المجلد الاول) ويحمل الثاني صحتين من المعدن بينما يضرب الثالث على طبل عتفه على جسده وكان الثلاثة ينفون ويرقصون.

سمعت هناك هؤلاء ورأيت رقصتهم فأعجبت بهم. ومع اني لم أفهم كلماتهم الهندية الا ان موسيقاهم وحركاتهم جمعتي الهم الموضوع. كانوا يصون اغاني حب لم تشوا مسرحية تصور برتعالين في وصعهم الراهن اليوم. لم يعد هؤلاء ابطلاً كما كانوا يوم غروا الهند، ولم يبق لديهم إلا القليل من مستكناتهم في هذه البلاد. الا أنهم لا يزالون يتصرفون بشيء من العذر والكبرياء ولقد مثل الهندو الادوار بكثير من الدقة وانصل من أي ممثل اوروبي. وبينما تستمر الرافعات عادة في مكبهن مكتبات، يتحرك أجسادهن، يقمر هؤلاء احبائاً في الهولاء يرقصون مع اللحن نساءً كانت ألحانهم تشبه ألحان العرب والفرس والأتراك



يحصص للإمام كل من الوالي، والوكيل، وهو المسؤول عن الصرثب وعن الشجار والعرب، والقاضي. يبلغ عدد اليهود أو الباب والنجار والحريين والخدم ١٢٠٠ وهناك أقبية من اليهود لكن وجود الأوروبيين معدوم تماماً. كنت أحمل معي رسائل توصية من بومبي إلى الوكيل وإلى سمسار الإنكليز وهو ياباني وقد تعاملت معي بكثير من النصف. لم أزر الوكيل إلا نادراً كي لا أكون مجبراً على الإفصاح له عن سبب تجوالي داخل المدينة وسارجه. أما الثاني فقد عرضني على عربيين وعنى شيخ الهند فأعطوني معلومات جغرافية قيمة عن عمان وتجديده في كتاب ووصف شبه جزيرة العرب، تجدون في اللوحة ١٥ خارطة مدينة مسقط. لقد خصت الطبيعة مسقط بأسوار طبيعية فعلى الصخور الموجودة من جهتي انمرفاً حيث تحتمي أكبر السفن من الرياح، هناك مربعا عديدة مدججة بالأسلحة ومرودة بالمدافع. من بين القلاع اثنتان تستحقان أن تذكرهما، فمعة مراني وقبة جلالي لأهمها الأكبر حجماً وبسبب موقعهما على الصخور الشديدة الانحدار والمجاورة للمدينة. أما البروج فهي صغيرة يحيط بالمدينة سور ليس شديد الحصانة مزود بثمانية بروج مسلحة بالمدافع.

الأسوار صاعدة من الجهة الشمالية الغربية إذ يتخلل حائط المدينة دفران من الحشب لشعره السياه المتساقطة بحرارة من الجبال المجاورة. أما منازل السكك فهي بسيطة جداً لأنهم لا يبحثون عن الفخامة. وحتى مسجدهم صغيران ومعتدلان ولا تعوفا أية مشقة إن أخلص ما سي في هذه المدينة كميستان برماليان احدهما تحوي اليوم إلى منزل الوالي والثانية إلى سحر. هناك سهل خارج المدينة مساحته لا بأس بها بالإضافة إلى بساتين بطيب الجلوس في ظلالها في المواسم الحارة تحت شجر النخيل وغيره. يعيب العن عن هذه المدينة أما البيوت المصيبة خارج أسوارها أي في ضواحي مسقط فهي أكواخ حقيرة مغطاة بالحصر يرى مثلها أحياناً داخل المدينة. فقد قامت الطبيعة بعزير كل شيء. تحيط بالسفن صخور شديدة الانحدار والسفن ثلاثة طرق تؤدي إليه يمكن نزلها بسهولة يؤدي أحد هذه المخارج إلى صدوف (Soddof) وآخر إلى قلمبو (Kolbu) والثالث إلى مطرح (Matrach) إن المكنائين الأولين هما تريتون حقيقتان أم المكان الأخير فهو مدينة فيها قلعة والكل يقع على شاطئ البحر.

إذا تقع مسقط عند طرف الخليج بين الصخور المسندة على رأس أو قل على شبه جزيرة على ٥٢٣ من القصب وبعد عن بومبي ٢٠ إلى الغرب ونعاً لحسابات القباصة الإنكليز يرغم هؤلاء أنه عندما يكون القمر بديراً أو عند ولادته يسجل أعلى مستوى للمياه عند الساعة ١١ وإن ارتفاع المد يصل أحياناً إلى ١٢ أو ١٤ قدماً. أما انحراف البرصبة فهو ٤ درجات أو ٥ درجات إلى الغرب.

على قدم أحد الجبال (قرب ٨) هناك بئر يرود مسقط بالمياه المعشة أثناء فترات الجفاف. يتم

جانب هذه المياه بكثير من الصعوبة بواسطة ثور في كيس كبير من الجلد ثم نصب في خزان وتقومها الانابيب إلى القساء. يبدو أن هذه القساء هي أيضاً من عمل البرتغاليين. بالقرب من (٩) هناك أنبوبان من الحديد كانت تغلق في الماضي بواسطة حفيات أما اليوم فتغلق بواسطة قطعة جلد يجب انتراعها كلما أردنا الحصول على الماء. في القلعين (١ و ٢) هناك خزانات كبيرة للمياه تكون دائماً مليئة بماء البحر الآنف الذكر.

أكد بعض المسافرين انها تمطر مرة في السنة في مسقط^(١) لكن طوال إقامتي في هذه المدينة كانت السماء تسطر وذلك ابتداء من ١٢ وحتى ١٧ كانون الثاني/يناير. ولشدة ما كان الجو متكدراً كنت سأمطر إلى مغادرة المكان دون أن أدون أي ملاحظات قيمة تتعلق بارتفاع القطب. أما في أيام الصيف عندما تقترب الشمس من السمث وعندما تمكس الصخور الجرداء أشعتها تشتد الحرارة في هذه المدينة لدرجة لم أشهدا قط في أي مكان آخر في العالم.

تبدو الجبال على شاطئ عمان جرداء قاحلة. أما الوديان فهي حصية شديدة الررع لذا يجد الكثير من الفاكهة في مسقط. كذلك اللحوم جيدة ويكثر السمك في المواسم^(٢). إن أهم المنتجات التي تصيرها عمان هي البلح، تنطلق سفن محملة بالتصوير من عدة مرفأء تتجه نحو الخليج العربي وبلاد العرب وغيرها من البقاع. وتشكل مسقط محراً لمالية البضائع التي تنقل من الخليج الفارسي إلى حضرموت والبحر والحجيرة. ولقد تكلم آريان وغيره من الكتاب اليونانيين القدامى على مرفأ يدعى مسقا (Mosca) في هذه الانحاء وهذا يشبه مسقط إلى حد بعيد فلا شك أنه هو نفسه. فبالإضافة إلى أن الاسماء متشابهة تكثر الصخور على الشاطئ والماء فيها شديد العمق لذا يمكننا القول إن مرفأ مسقط لم يتغير منذ العصور السانعة. لم أجد أي كتابه حول مسقط في كتاب أبو الفدا وفي جدول نصير الدين.

كانت صهار حينلي أهم مدينة تجارية في عمان. ولربما كانت حكومة مسقط في ذلك العهد تمنع التعامل الخارجي مع الغرباء، لذا لم يرد اسم مسقط في مؤلفات الكتاب السابق الذكر.

إن أحداً من الأوروبيين لم يترك مسقط ليتجول داخل البلاد إلا أن ولاية عمان تستحق أن

(١) رحلة أوفرتون (Voyage D'orington) الجزء الثاني من ١٢ إن وصف هذه الرحلة جيد جداً نكها دليل على أن المسافرين لا يستطيعون دائماً الحصول على معلومات صحيحة.

(٢) أكد الكسندر هاملتون أن العرب في مسقط يعربون كيف يسحبون السمك ويدعي أن رأى شخصاً على الشاطئ ينادي تعال تعال تعال فأنت اليه الاسماك يكحيات هائلة. ومع اني رأيت سمكاً كثيرة على الشاطئ إلا اني لم أر احداً يتأذيها فحضر. يستعمل الصيادون مراكب صغيرة كالتي يستعملها الصيادون في الخليج الفارسي وكانوا يصطادون السمك بالشباك أو الصائير.

يتوغل فيها الجغرافيون والقيرواليون كما أن السفر فيها أكثر أمناً حتى من اليمن^(١) لم تسمح لي حائلي الصحية بالقيام بهذه الرحلة. دائماً تسمح الفرصة هنا بالذهاب إلى الخليج الفارسي على متن سفينة صغيرة يسميها العرب طراد (Tarad) أو ترنكي (Tranki) ولقد وصفت تركيبها في الجزء الأول، إلا أنني قررت عدم القيام بهذه الرحلة نظراً إلى أن حالة الرياح لا تكون ثابتة في هذا الوقت من السنة وبسبب القرصعة. علماً أننا لا نحشاهم قط على متن السفن الأوروبية. كنت قد تركت القبطان الذي جئت معه من بومباي إلى الخليج الفارسي لأضي كنت انتظر سفينة أوروبية كانت ستترك بومباي من بعدنا بفترة وجيزة. وصلت هذه السفينة في اليوم ١٢ وعوفاً من الا تسمح لي الفرصة مجدداً بالذهاب إلى الخليج الفارسي، تركت رحلة التوغر داخل عمان إلى من سيأتي بعدي لعل الظروف والطقس تسمح لهم بذلك وانطلقت من مسقط في اليوم ١٨.

في مساء اليوم ١٩ منذ الساعة الثامنة والنصف وحتى الساعة التاسعة والنصف بدت سفينتنا سرعتها القصوى فاجتزنا في ساعة واحدة ٤/٥ الميل الألماني وكان سطح الماء على مذب بصراً أبيض اللون كأنه سهل منطلي بالثلوج بعد العاشرة رأينا خطاً أبيض يتجه من الشرق نحونا لكنه لم يصل إلى سفينتنا. أما سبب هذا البيضاء المظاهر فلا شك أنه نفسه سبب لعمان المياه الذي رأيناه مساء ١٢ كانون الأول/ديسمبر بين بومباي ومسقط لكنني في هذا اليوم لم أر أي معاد بل خطاً أبيض وحسب^(٢).

لم يكن القمر قد بلغ الشفق بعد لكن الجو كان هادئاً والسماء مليئة بالمجوم مع بعض الغيوم هنا وهناك.

من مساء اليوم العشرين رأينا رأس جبل (Jask) الواقع على الشواطئ الفارسية. بعد ظهر اليوم ٢١ كنا على ارتفاع ٢٥° ٤٨' من القطب. كان كوه مبارك المسمى بومبارك (Bombareck) على الخرائط الأوروبية بعد ٣ ٤/٣ الميل شرفاً باتجاه الشمال ويقع عند ٢٥° ٥١' بعد ظهر اليوم ٢٢ كان ارتفاع القطب من السفينة يبلغ ٢٦° ٨٣' ومن جزيرة سلامة ٢٦° ٨٢' لكن ربما لم يكن مرصدي هنا شديد الدقة لأن رأس مسندم كان يعين نظري إذ أن الجزيرة التي كانت عنده حبيبت بعضاً من غط الشفق غني. في اليوم ٢٤ وجدت ارتفاع القطب في جزيرة طيب وكان ٢٦° ١٤'. حتى في هذا الوقت كان الهواء شديد التقلب فيهدأ أحياناً ثم يكفهر البحر وتضطرب

(١) إن ما ذكره اوجستون في الجزء الثاني من كتابه وهاستون في الجزء الأول من كتابه عن سلوك عرب عمان قد أعاد ذكره إدوارد ساي الذي غرق بالقرب من شواطئهم وقد أكد بالتالي ما جئت به أنا.

(٢) حكى المدعو السيد دو روفيل عن هذه الظاهرة التي رأها في ١٤ تموز/يوليه ١٧٥٤ عند الخامسة مساءً على ارتفاع ٥٨° ٢٧'

أحياناً واستمر هذا المناخ المتغير إلى أن اقترنا من بوشهر (Abushahr)^(١).

منذ ٢٧ كانون الثاني/سائر وحتى ٢١ منه، كان الطقس مشككاً والسماء تمطر ولم استطع قياس ارتفاع القطب إلا مرة واحدة. لم أكن قد شهدت قط كل هذا التغير في الهواء لفترة وجيزة جداً فالحجر يكون هادئاً تارة ثم تأتي عاصفة فجأة ثم تهب الريح باتجاه معاكس تارة أخرى كنت أتوقع رؤية أعمدة الماء^(٢) التي يقال إنها تكثر في الخليج لكنني لم أرو شيئاً منها. ولم أستعصم في ذكر المخاطر التي كانت تحب بنا في تلك الأيام وهي مخاطر لعالمنا تعرض لها البحارة نذا فمس غير العدل أن تدمر منها في هذه الرحلة البحرية الوجيزة.

في الأول من شباط/فبراير تجاوزنا رأس بردستان (Berditsan). يرى البحارة الهولنديون أن هذا الممر هو الأكثر خطورة في الرحلة لكنها ليس لكثرة الصخور التي تحتاح البحر أمام رأس بردستان وحسب بل وأيضاً بسبب الجزيرة التي لاحظ وجودها أحد الانكليزيين والتي لم تدون بعد على الخارطة فيخشى أنه إذا ما انحرفت السفينة عن الصخور كي لا تصطدم بها، فربما تصطدم بالجزيرة المغطاة بالماء كلياً أثناء المد، مع العلم أن الانكليزي رأها في أيام الجزر. أراد عرب بوشهر إقناعي أن هذه الجزيرة الصغيرة تقع في الوسط بين رأس بردستان وجزيرة البحرين.

أخيراً في مساء الرابع من شباط/فبراير، وصلنا إلى مرسى بوشهر، لكن نظراً لضيق مدخل المرفأ ولكبر مسيئتنا ألقينا بالمرسة على بعد ميلين ألمانيين من عرب المدينة.

بعد وصولنا بقليل تلقينا الاخبار من الكيري يدعى ساررلد برأس سمبة من البنغال، كما قد التقينا به في اليوم ٢٥ من الشهر السابق قرب جزيرة سمورده (Surdé) أو شيخ سمورده (Schech Sure) وكان قد ترك بوشهر قبل ستة أيام. وكان هو والريانان ورئيس البحارة الأوروبيين، من بين البحارة كان هناك أسباني من مابلا. أما الباقون فكانوا من الهود وهم معروفون بحبيهم لكنهم يضطرون إلى تنفيذ أوامر رؤسائهم.

لأن غالبية هؤلاء البحارة هم من الهود الكاثوليك أو كما يقال من البرنغاليين، يضطر الانكليز وغيرهم إلى تعلم اللغة البرتغالية حتى يتمكنوا من إعطاء التعليمات ومن الاستماع إلى البحارة. وعلى كل فلا يهتم أحد بأصل البحارة أو بدينهم أو حتى باللغة التي يتخاطبون بها إذ أنهم لم يتردوا يوماً ضد قبضتهم. وكان ساررلد قد فقد عدة أشخاص خلال رحلته مما اضطره إلى أخذ ١٢ بحاراً عرباً مكانهم.

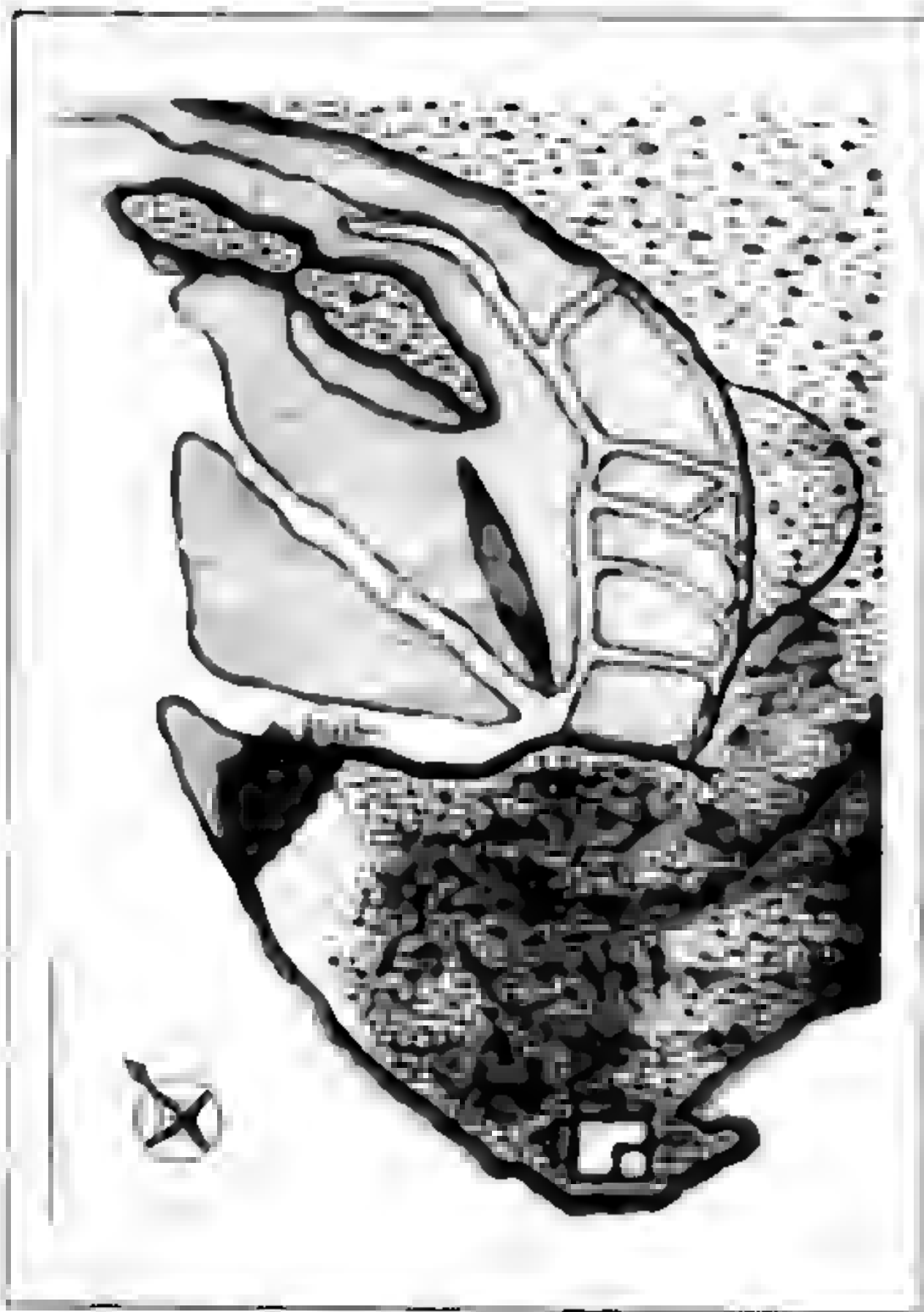
(١) راجع وصف شبه الجزيرة العربية حيث أوردنا المعلومات الاسمية حول هذه المنطقة.

(٢) مياه تجذبها الشمس فتصاعد بشكل عمود يسقط لاحقاً.

اعتاد هؤلاء المسلمون على تلقي معاملة حسنة من أبناء دينهم. تشأ دائماً الحروب بين أصحاب الأراضي بالقرب من الخليج الفارسي. من هنا نرى البحارة العرب أكثر شجاعة من اليهود وهم يغارون على دينهم فيردون أصحاب الديانات الأخرى تماماً كما يردون نحن اليهود. ولربما كان السبب في ذلك أنهم لا يحبون الحصر لأوامر مجموعة قليلة من النصارى أو أنهم يخشون من طريق الهند الطويلة أو أن روح القرصة تملكهم فيصبون أنفسهم تمرى السفينة قبل خروجها حتى من الخليج الفارسي.

بعد مرور يومين على حدثنا مع القبطان ساذرلند، ألقى بالمرساة قرب جزيرة قس (Kas) بسبب عاصفة موجهة تعرض لها. ثم أرسل أحد بحارته إلى البر لجلب الماء فاستغل البحارة العرب الفرصة للقضاء على الأوروبيين. أما ريان السفينة الذي بقي على متنها فلقى حتفه بصخرة واحدة على السطح. وعندما أحس القبطان بهذه الجلية خرج من حجراته فمر به برمح اخترقه لكنه لم يمت في الحال فصعدوه عدة مرات بالحجارة أراد رئيس البحارة أن يختبئ لكنهم أحضروه وقتلوه. وحتى القبطان الثاني لقي حتفه بطعنة رصاص في الزورق. وهكذا تحول الاثنان عشر عربياً إلى رؤساء للسفينة لأن البحارة الهنود وبعض التجار الأرض اختبأوا جميعاً في أسفل السفينة وظنوا أن الخطر بعيد عنهم، وبما أن العرب لم يكونوا يعرفون كيفية قيادة هذه السفينة الكبيرة وعلموا منهم أنها لن تبقى لهم ولأنهم كانوا يبحثون عن السبولة ويعرفون أن سمن البنغال تحمل معها كميات كبيرة من الأموال قرروا أن يتركوا السفينة ويحملوا معهم الأموال بالإضافة إلى بضائع أخرى قيمة وصغيرة الحجم. فنادوا تاجراً أرمنياً ليديهم على هذه البضائع لكنهم تشاجروا معه ثم قتلوه بعدئذ حملوا كل ما وجدوا أمامهم وركبوا في مركب صغير وهربوا.

أما الأشخاص الذين كانوا قد ذهبوا لجلب الماء والذين رأوا ربانهم يموت فقد توجهوا في مركبهم إلى قس وتَوَزَّعَ عِلمُ شيخ هذه الجزيرة بثورة على السفينة حتى أرسل سفينة مسددة إلى البحر، فلاحقت باءى ذي بدء القراصنة الذين كانوا يملكون من السفينة. عندما نبه هؤلاء إلى ما يجري وعلموا أن لا مفر لهم أرادوا العودة إلى السفينة لكن الأسبان أطلق عليهم قذيفة مدفع فلم يجدوا مهرباً من الامتسلاط. فما كان من شيخ قس إلا أن استولى على كل ما كان بحوزة القراصنة بالإضافة إلى حمولة السفينة. لكن سرعان ما طالبه سيده شيخ الشارقة (Isjarck) بحصته من العتائم وتقاسمها مع جيرانه حاكم هرمز (Ormuz) وناصر خان حاكم لارستان (Laristan) الحالي ليتجنب نشوب حرب بينهما لهذا السبب. وهكذا تم تقاسم الأموال على أحسن حال ولم يحصل أصحابها الأصليون على أي شيء منها.



ملاحظات في بوشهر وشيراز وپرسپوليس (Perspolis)

لم تكن مدينة بوشهر أو بوشير كما يسميها الانكليز معروفة من قبل الغرباء إلى أن سرت عادة القيام بفتوحات بحرية في تادر شاه. فقام الشاه بتشييد سفن حربية واشترى غيرها من الاجانب ثم جهر أسطولاً من ٢٢ إلى ٢٥ مدمية تجمعت في بوشهر. أدى ذلك إلى شهرة المدينة وقد أصبحت حالياً مرعاً شيراز وتخضع أكثر من باقي المدن الموجودة على هذا الساحل إلى الوكيل أو حاكم بلاد فارس الحالي، وكما لو كان عدة سفن كدلت لشيع بوشهر وهو حاكم البحرين عدة سفن بحرية صغيرة ومركب كبير

يمكننا رؤية موقع بوشهر والمدن المحيطة بها في اللوحة ١٦ التي نسختها عن رسم قام به أحد الانكليز. المدينة مبنية الشك وتطل بحانب من جوانبها الثلاثة على البحر. يحيط بالمدينة الثالثة سور مسيء وبعض الابراج. وفي أيام المد تغمر المياه المدينة تماماً كما في ناحية في اليمن تبدو المدينة كما لو أنها تقع حيناً في قارة وحيناً في جزيرة. وفقاً لملاحظاتني من ارتفاع القطب هنا يبلغ $28^{\circ} 59'$ وتميل إلى البرصلة فيها $7^{\circ} 30'$ إلى الغرب. لا يمكن قياس ارتفاع مستوى الماء وانخفاضه أثناء المد والجزر بدقة في هذه المدينة بسبب عدد الجزر والرفعة الرمل الكثيرة الموجودة في البحار. يقال إن المياه ترتفع لمدة تسع ساعات. ثم تنخفض في ثلاث ساعات يقال إن نسبة المياه تكون أكثر ارتفاعاً في النهار منها في الليل في فصل الصيف والعكس صحيح في الشتاء، أما الفرق بين المستوى الاعلى والاكثر انحداراً فمما يصل إلى ستة أقدام. ترتفع الحرارة كثيراً في الصيف في هذه الأرجاء ونهطل الأمطار في الشتاء ولقد ذكرت ذلك عندما تكلمت على رحلتي من مسقط إلى بوشهر. أثناء إقامتي في هذه المدينة كان الجو متليداً في الأيام ٤ و ٥ و ٦ من شباط/فبراير وتساقطت الأمطار، أما في اليوم ٧ فسمعنا الرعد وتساقط البرد، ونغصت الجبال التي كنا نراها على بعد ٧ أو ٨ أميال بالنجم.

قبل أن تندهور الأرضاع في بلاد فارس كان أحد مستشاري بومباي يقيم في أصهان يسمي يقيم التجار الانكليز في كرمان (Kerman) وعمبرون (بندر عباس) وكان هذا الأخير أحد أهم مرافق بلاد فارس. وفي كافة المدن كنت ملتقي بتجار من الشركات العربية لهوسا وفرنسا. ترك الفرنسيون بعابيتهم بلاد فارس ولم يبق من الأوروبيين إلا تاجر انكليزي في بوشهر عندما كنت هناك كان يقيم فيها السيد جرقس وهو رجل كان يهتم بالعلوم في شبابه ويكرس لها ساعات فراغه

عندما ينتهي من أعمال التجارة. ولم يكن يتكلم الفارسية وحسب بل ويحيد كتبها وقراءتها. وكان يهوى جمع المخطوطات الفارسية^(١). ولا شك أن العلوم ستستفيد كثيراً من مكوثه في بلاد فارس عندما سيعود إلى أوروبا. كان المسؤول عن هذه المهمة ابن الحات التشير فاطر (Nasser) وهو معروف جداً في أوروبا. بالإضافة إلى هؤلاء يوجد رابعان هما أحدهما يلقب نفسه بمطران اسفهان ولنا لم التي بأي أوروي في بوشهر.

يرسل الانكليز إلى هذا المرفأ كميات من الانسجة الأوروبية ومن البصائع الآتية من سرات والبنغال، أما عن المصادر فهي أقمشة الحرير من يزد (Yezed) كاشان (Kashan) والحرير الاحمر من غيلان (Ghilan) والسجاد (الأخضر نوعاً هو الأصفهاني)، والصوف الناعم وكميات كبيرة من العقاقير الطبية القادمة من بلاد فارس، بالإضافة إلى القطن. وشعر الماعز من كرمان^(٢) وشتى أنواع الفاكهة الجميلة وماء الورد وكميات كبيرة من نبيذ شيراز. إن هذه المستوجات هي جزء من تجارة السيد جرفس الخاصة الذي عين رسمياً شياً يدير أعماله في شيراز كما رؤسندم أعداد كبيرة من الجبل والحيث من بلاد فارس إلى بلاد الهند.

أما مير مها التي ذكرها في وصف شبه جزيرة العرب، فهي في حالة حرب مفتوحة مع كريم خان حاكم بلاد فارس وبالتالي مع شيخ بوشهر المسمى مُقْلَع الحاكم قام مرة بمهاجمة القوافل بين بوشهر وشيراز بسبب انقطاعاً في التجارة بين هاتين المدينتين. منذ فترة وجيزة أحصر كميات كبيرة من الماشية بالقرب من بوشهر. حالياً يوجد في كور موج (Kor mudsch) جيش صغير لكريم خان يستعد لمهاجمة على مير مها في عاصمته بندر رفق (Bender Rigk) وهم يمكن المسافرين في هذه المناطق يخشون على أنفسهم من أي أذى لأن الاثنين كانا يحاولان كسب ود الانكليز كان كريم خان يريد أن يتحالف مع شيخ بوشهر للمهاجمة على مير مها من البحر في عفر

(١) من بين هذه المخطوطات وجدت حياة ناصر شاه وأمين سره الخاص محمد مهدي خان وكان عمر المخطوطة ٨ سنوات وكانت نادرة وعالية جداً في بلاد فارس لأن أحد شخصيات بلاد فارس لا يعبر مخطوطته النادرة لأحد وذلك لسببين أولاً كي لا تصبح شائعة خاصة أنه دفع لقاءها مالاً كثيراً رثانياً كي لا تعسدها أيدي الناس أثناء نسخها. ولشدة ما كان صبت هذه المخطوطة الاصلية راجعاً حاولت المستحيل في شيراز للحصول على نسخة منها لوضعها في المكتبة الملكية صمماً أن هذه النسخة هي فعلاً النسخة الاصلية بسيرة ناصر شاه وقد ترجمها المارس جونز إلى الفرنسية عام ١٧٧٠ ثم طبعت عام ١٧٧٣ في غريبولد ترجمتها الالمانية.

(٢) ومن كرمان أيضاً يجلبون قطعاً طويلة الزبر تعتبر نادرة من نوعها رأيت مثل هذه القطع في القسطنطينية وكانت آتية من أنغورا (Angora). يقال أن هذا النوع من القطع لا يتكاثر إلا في هذه المناطق حيث يكثر الماعز الصويلة الشعر ويسمى شعرها بشعر الجبل.

داره على أن تهجمه جيوش المشاة بآراء. أما مير منها فكان يسمى أن تتمركز الجيوش الانكليزية في بندر رفق بدلاً من بوشهر إلا أنه كان يعرف أن هذا لن يحدث إذ أن الانكليز لم يكونوا يعمدون حالياً شيوخ بوشهر بل كانوا يتركونه يهرب بمرأ محملاً بثرواته في حال لم يستطع الوقوف في وجه جيوش كريم خان البهية. كان السيد جرقس يذهب على الحدين لحماية تجارته الشخصية وتجارة شركة بلاد الهند. بعد وصولي بغرة وجيرة، أرسل حملة كبيرة من البضائع إلى شیراز عبر كور مروح. في هذه المناسبة تجمع عدد كبير من المسافرين منهم التجار الصغار والعائلات الفقيرة وكانوا قد تركوا بلاد فارس هرباً من الاضطرابات وأرادوا الآن العودة إليها. على هذا النحو مكثت فاعلة لا بأس بها. ومع أنني كنت مضطراً للعودة إلى أوروبا بسرعة لم أكن أرغب بالتحلي عن فرصة الذهاب إلى شیراز ورؤية آثار بزمبوليس التي تبعد مسافة يومين وحسب عن هذه المدينة. وهكذا اتحدت قراراً بالرحيل في ١٥ شباط/فبراير كوحيد من ركاب القاعة.

أثناء رحلتي إلى بزمبوليس احتفظت باللباس الأوروبي الذي حملته معي من الهند لكن هذه الثياب القصيرة كانت تزجني في القاعة. في هذا اليوم لم نصل أبعد من تنكشير (Tankesir). من كافة الجهات رأينا بساتين المحيل وكانت القرى المحاورة لها مهدمة جزئياً أو كلياً والأراضي وعرية بعض الشيء. وجدت عرائش عبيد في كرمشير (Karmasir) مع أبي كتب أسبند وجودها في هذه البلاد الحارة. كانت العرائش تقع في أرض ملأى بالمصحور أو قل في أنهار يتراوح عمقها بين ستة وعشرة أقدام. كانت الأعصان انبعاثاً تسد إلى أحجار البشر وكفي لا يتأذى العنب بعمل الرطبة، تحفرت قنوات لحلب المياه إلى ساق العرائش.

لم يكن قافلنا تحترق على جمل واحد وكانت البضائع محملة على ظهر الحمير. وكان بعض التجار قد حمل بضائهم على الحيل أو امتطى الحيل بنفسه بينما ركب الباقون الحمير أو مشوا على أقدامهم. من بين رفاق رحلتي كان هناك تاجر أرمني ولد في فارس لكنه عاش بعض السنوات في إيطاليا وكان يتردد في الأوربي ليحاله الناس من أوربا. لقد سررت كثيراً بصحبة هذا الرجل لأنه كان يلعب دور ترجماني أمام الفارسيين. أضف إلى ذلك أنني التقيت بعض الساطقين بالعربية في القاعة فكانت فرصة للتكلم معهم.

قبل وصولنا إلى تنكشير بقليل سمعنا أصوات المدافع والطبول والمرامير وصيحات الفرح. ظن البعض من أصحاب سفري أن قسماً من الجيش الرابع قرب كور مروح قد وصل إلى القرية وخشي البعض من الانسداد بجيوش مير منها أما أنا فلم يشغل بالي مع أبي لم أكن أحمل بطاقة هوية ادعيت أنني انكليزي ولم أشك قط أن هذا الاسم سينقدي لدى وصولي إلى تنكشير علمنا أن الحان قد قدم إلى كور مروح وأرسل إلى الرئيس (أي الشيخ بالعربية) بهماً تكريمياً وكان الشعب يحتفل بهذه المناسبة.

عُثِنَا فِي هَذَا الْمَكَانِ بِالْقُرْبِ مِنْ قَلْعَةٍ حَدِيثَةِ الْبَاءِ يَسْتَعْمَلُهَا السَّكَّانُ كَمَكَانٍ لِحِفْظِ مَوْشِيهِمْ فِي حَالِ شَرِّ هَجُومٍ مُفَاجِئٍ عَلَيْهِمْ مِنْ أَحَدِ الثُّورِ. إِنَّ هَذِهِ الْقَلْعَةَ مَرَبَعَةٌ الشَّكْلَ وَيَبْلُغُ كُلُّ ضَلْعٍ مِنْ ضُلُوعِهَا ١٦٠ سَطْوَةً مَرْدُوجَةً. فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ هُنَاكَ سُورٌ صَغِيرٌ يَمُشُّ بَرَجاً مُسْتَدِيرًا بِالْأَضْيَانَةِ إِلَى وُجُودِ بَرَجَيْنِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَالْكُلُّ يَتَأَلَّفُ مِنَ الْمَصْلُصَالِ. فِي هَذَا السُّورِ هُنَاكَ بَابٌ كَبِيرٌ وَبَابَانِ صَغِيرَانِ لِمَرَجَةٍ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدِ الثُّلُوجِ مَهْمَا دُونَ أَنْ يَحْمِي. يَحِيطُ بِالْقَلْعَةِ حُتْدَقٌ يَبْلُغُ عَرْضَهُ مِثْرَةَ أَقْدَامٍ لَكِنِّهِ مَطْمُورٌ فِي عِدَّةٍ أَمَّا كُنْ. بِالْقُرْبِ مِنَ الْبَابِ الْكَبِيرِ هُنَاكَ مَدْفَعَانِ كَبِيرَانِ مِنَ الْحَدِيدِ. لَمْ أَرِ أَيْ بَيْتَ مِنْ حَجَرٍ أَوْ طِينٍ لَا خَارِجَ السُّورِ وَلَا دَاخِلَهُ وَيَعِيشُ الرَّبِيسُ وَجَمَاعَتُهُ فِي أَكْوَاحٍ صَخْرَةٍ مَغْطَاةٍ بِالْقَشِّ. كَانَ يَخْضُ نَفْسَهُ الْأَمْرَ النَّاهِي فِي أَرْضِيهِ: سَجِيءٌ جَيْشٌ كُورْمُوجٌ كَانَ يَجْبِرُ التَّجَارَ الْعَرَبِيَّ فِي أَرْضِيهِ عَلَى اسْطِغَابِ مِرَاقِبِهِ لِقَاءِ أَجْرٍ كَبِيرٍ مِنَ الْعَالِ.

فِي اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ مَرَّ قَطِيعٌ مِنَ الْخِزَازِيرِ الْبَرِيَّةِ بِالْقُرْبِ مِنْ عَصِيْمَتِنَا لَكِنِّ أَحَدًا مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ لَمْ يَكَلِّمْ نَفْسَهُ عَدَا تَلُّ أَحَدَهَا لِأَنَّهُ لَوْ فَعَلَ لَمَّا اسْتَطَاعَ حَمَلُهَا إِلَى الْمَحْبِمْ دُونَ أَنْ يَحْفَظَ بِاحْتِقَارِ الْمُسْلِمِينَ. إِنَّ الْفَرَسَ يَظْهَرُونَ قَلْبًا أَكْبَرَ مِنَ الْإِحْتِرَامِ لِلْأَجَانِبِ مَقَارِبَةً مَعَ الْأَتْرَاكِ وَالْعَرَبِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ سَبَبَ إِطْلَاقِ اسْمِ فَرَنْسِييِ الشَّرْقِ عَلَيْهِمْ يَعُودُ إِلَى ذَلِكَ. وَمَعَ أَنَّ بَعْضَ الْمَسَافِرِينَ يَقُولُ إِنَّهُمْ غَشَاشُونَ وَإِنَّهُمْ لَا يَحْتَرَمُونَ وَهَرْدَمَ وَلَا إِنِّي أَصْرًا الْأُورُوبِيِّينَ مِنْ غَيْرِ التَّجَارِ يَسْعُدُونَ فِي سَفَرِهِمْ عِنْدَ الْفَرَسِ أَكْثَرَ مِنْهُ عِنْدَ الْأَتْرَاكِ وَالْعَرَبِ. وَأَكْثَرُ مَا يَرِجُ لَدَى الْفَرَسِ أَنَّهُمْ لَا يَأْكُلُونَ وَلَا يَشْرَبُونَ مَعَ الْوَلَنْتِيِّينَ أَوْ الْيَهُودِ أَوْ عِبْدَةِ النَّارِ أَوْ الْمَسِيحِيِّينَ أَوْ الْيَهُودِ أَوْ حَتَّى الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ الْآخَرَى وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا مَدْنُسُونَ. أَمَّا النَّسَةُ فَلَا يَزْعَمُهُمْ تَنَاوُلُ الطَّعَامِ مَعَ أَصْحَابِ الدِّهَانَاتِ الْآخَرَى شَرْطَ الْإِذَا يَكُونُ هَذَا الْعِيَامَ مُحَرَّمًا.

فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ عَشَرَ أَجِيرْنَا عَلَى تَمْضِيَةِ الْيَوْمِ بِكَامِلِهِ فِي تَنْكَشِيرِ لَأَنَّ صَاحِبَ أَكْبَرِ عَدَمٍ مِنَ الْهَاشِيَةِ فِي قَافَلَتِنَا أَيْ قُرْوَانَ بَاشِيٍّ لَمْ يَكُنْ لِيغَادِرْ بُوشَهْرَ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ. وَهَكَذَا سَمَحَتْ لِي مَرَحَةٌ فَيَاسَ لِرَفْتَاعِ الْمَغْطَبِ. أَصَفُ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ رَحَلَتِي هَذِهِ قَدْ سَمَحَتْ لِي بِوَصْفِ مَلاحِظَاتٍ مُلْكِيَّةٍ كَثِيرَةٍ كَمَا لَمْ أَعْمَلْ فِي أَيْ رَحْلَةٍ أُخْرَى. سَجَّيْتُ بِدَقَّةٍ فَالِقَةً مَوَاقِعَ الْقُرَى تَمَامًا كَمَا تَعَلَّتْ عِدْمًا كُنْتُ فِي شَبِّهِ جَزِيرَةِ الْحَرْبِ لَكِنِّي لَا أَجِدُ ضَرُورَةَ مِنْ تَقْدِيمِهَا لِلْقَارِئِ. فِي النَّوْحَةِ ١٧ رَسَمْتُ خَارِطَةً يُمْكِنُكُمْ فِي نَظَرَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَيْهَا رُؤْيَا الطَّرِيقَ مِنْ بُوشَهْرٍ إِلَى پَرَسِپُولِيسَ.

فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ مِنَ الْيَوْمِ السَّابِعِ عَشَرَ تَابَعْنَا رَحَلَتَنَا وَرَأَيْنَا الْحَرِيدَ مِنَ التَّنْخِيلِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ لَكِنِّ لَمْ نَرِ إِلَّا الْكُورَاخَ السَّيْئَةَ الْبِنَاءَ إِلَّا بِالْقُرْبِ مِنْ عِدَدِ صَحِيلٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْجَارِ. أَمَّا السَّهُولُ الَّتِي مَرَرْنَا بِالْقُرْبِ مِنْهَا فَتَدْعَى أُمْلَا (Uta) وَتَدْعَى (Dasti). وَتَدْعَى سِلْسِلَةُ التَّلَالِ الْمُسَمَّاةَ غَرْبِي الدَّرَبِ دَرَاسِي (Drasi) وَالْجِبَالُ الشَّاهِقَةُ مِنَ الْجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ أَهْرَامَ.

من المعروف أن العديد من الأتراك والأكراد يجوبون بقصصاتهم في بلاد فارس في هذا اليوم التقنيا براع مركبي يعزف على ناي أرزق لنون يمكن رؤيته في اللوحة ٢٦ من الجزء الأول كان الناي مصنوعاً من القصب يريد طوله عن القدمين وفيه خمسة ثقوب من الجهة نفسها ويكاد استطاع رفيق سمري الذي ذكرته آنفاً أن يفهم لغة هذا الراعي مع أنه كان قد تعلم اللغة التركية في البصرة حيث تشكل العربية اللغة الأساسية والتركية لغة البلاد، وهذا امر طبيعي لأن اللغة الواحدة يمكن أن تشمل عدة لهجات.

بعد أن أُرسلت خادمي بشراء علب للحصان، كان علي أن ألعب دور الطاهي وهذا ما جعلني ألاحظ تظير الأمر الذي لم أكن قد لاحظته بعد. بعدما هممت بدبح دجاجة كنت ملتفتاً باتجاه الشرق لكن سرعان ما أحيرني الأمر من أنه على المسيحيين الالتفات نحو الشرق عند دبح الدجاج كما لو أنهم يريدون الصلاة إلا أن البعض ظل انسي أدت رأسي باتجاه مكة كي يأكل خادمي المسلم من هذه الذبيحة. ثم نظرت إلى أنهم يريدون معرفة صحته دعي من الطريقه التي أقصع بها رأس الدجاجة فصمت منذ ذلك الحين عدم الخوض في أمور كهذه.

في اليوم ١٨ أمضينا خمس ساعات في سهل إلى أن بلغنا كورموج وتجاورنا خليجاً من يوشهر إلى داخل البلاد حيث يصير يشبه النهر ثم يحرف نحو الجنوب ويصب أخيراً في الخليج الفارسي، إن جرمياً كبيراً من كرمشير هو جزيرة بكل معنى الكلمة وسيصبح يوماً أرضاً صلبة إذا كان الخليج ضيقاً وقليل المسق في أماكن عديدة كما في هذه المنطقة. إن الأرض بالقرب من هذا النهر خصبة. وتعمر أحياناً بماء البحر لكن إذا ابتعدنا قليلاً تصبح الأرض صالحة لزراعة مع أن القسم الأكبر منها غير مزروع بسبب قلة السكان.

تقع كورموج في منطقة جبلية وسط سهل حصص، ويسكن فيها أمير ولاية شهيرة. عندما بدأ كريم خان يستولي على الولايات الواحدة تلو الأخرى في هذه المنطقة، صار يجبر رؤساء القبائل الذين أرادوا اعتبار أنفسهم أمياداً بالوراثة أو أمياداً مستقلين على المكوث في مدينة شيراز أو على الانخراط في الجيش بحجة أنه يريدون بجانبه لاستشارتهم عندما تدعو الحاجة أو لمساندته في المعارك لإحلال الأمر في بلاد فارس إلا أن نية التوكيد الحقيقية كانت وضع هؤلاء الأمياد تحت رقابته كي لا تملكهم الرغبة في الانتفاص عليه. من ضمن هؤلاء الأمياد هناك أيضاً سيد كورموج عندما كان هذا الأخير يهيئ كان يوكل عمه ليحل مكانه باعتبار أن عمه رجل ثقة إلا أن أخيه الامام جعفر شغل عيني العم واستولى على الحكم مصيلاً نفسه الحاكم وأملأ في أن أخيه لم يحد. في هذه الاثناء أرسل كريم خان جيشاً إلى هذه المنطقة ولم يكن جعفر قد اكتمى بفقء عيني عمه بل تعدى ذلك إلى ارتكاب فظائع أخرى ولم يكن ينتظر العير من جيش كريم خان

مع أنه يقال إن الأمير كُتِبَ حاكم سردار أو القائد كان مكلماً بإعطائه ثياب الشرف كدليل على احتضانه بالحكم. لكن الأمير جعفر الذي كان معتماً بالعكس كان يحضر نفسه للقاء عدو. احتل ممراً ضيقاً في المنطقة الجبلية حيث كان على الجيش أن يمر لكنه لم يكن يمتنع بقوة كبيرة فهرب إلى الجبال المجاورة لكن سرعان ما ألقي القبض عليه ورفاقه واقتيدوا للمثل أمام القائد فأرسله إلى شيراز حيث حكم عليه بنقل ثلث من المدينة إلى خارج بابها^(١)، مع تقهقر فرين الثوار هذا وتشتته ومع إحصاء مير مها إلى حكم كريم خان، قد ينظر البعض أن قائد الجيش سيترك هذه المنطقة وسيسير مباشرة نحو بندرعباس إلا أن هذا العقول ليس من شيم الفرس أثناء المعارك. ما إن وصل الأمير كتب خان إلى كورموج حتى قاد سكانها إلى القلعة وأجبرهم على هدم منازلهم وحرق أكواخهم ولم يبق من ذلك إلا المسجد وقبر أحد الأئمة (ويقال إنه من الأولياء). وجدنا سكان هذه المنطقة بحالة يأس شديد. اسوليت عني أحد منازل الأمير جعفر وكانت مدمرة جريئاً فوجدت فيها غرفتين صالحتين للاستعمال. كنت أظن أن بلاد فارس كثيفة السكان مثل اليمن حيث ننام كل ليلة تحت سقف ما. لكن قبل رحيلي من بوشهر بفترة وجيزة سمعت أن أحداً من المسافرين (وجميعهم من الفقراء) لا يحمل خيمة معه وبما أنني لم أشأ نسب دور الفسي لأنه مكلف في هذا البلد، تركت خيمتي خلفي مما جعلني أعاني الكثير أثناء سفري إذ أمطرت كثيراً أثناء الرحلة وكنا مجبرين على النوم في الهواء الطلق في غيبة الليالي.

إن أسوار كورموج ليست أفضل من أسوار سكير. كنا نرى هنا وهناك حصن وحجارة داخل السور. إن جدران المنزل الذي سكنت فيه كانت مصنوعة من الصلصال الممروج بالقرميد والحصن. كان الخندق الذي يحيط بالقلعة جافاً مثل خندق تنكشير لكنه أكثر عمقاً ويبلغ وسعه عشرة أقدام وحيث تقع أكواخ الفقراء نجد حفراً عميقة كانت مرروعة قسماً قبل أن يقتلهم منها المائد.

عندما عاد القائد الفارسي إلى حوار قلعته حفر خندقاً حول مخيمه وبني سوراً ارتفاعه خمسة أقدام من طين وحجار ونحبل انتلعه من أرزاق السكان. وقيل إن الجيش الذي جمعه يتألف من ٩٠٠٠ فارس و ٢٠٠٠ من المشاة إلا أن أحد الجيولوجيين أسبري إن عدد الفرس لم يتجاوز ١١٠٠ والمشاة ٥٠٠ رجل قادرين على الحرب. وكان هؤلاء يعينون كل البعد عن النظام نصب كل واحد خيمته أو بني كوخه حيث أراد وربط حصانه في المكان الذي حلا له. إن الخيل الفارسية جميلة. يحمل الفرس قريبات ومسدسات مزودة بحفقات إصلاق. يضع كل واحد

(١) قد يجد الأوروبيون الكثير من العيب في عقاب كهذا خاصة إن الأمير جعفر يتحضر من أصل عريق إلا أنها كلام مع طبع كريم خان الذي يحب تعذيب أعداء الضعفاء جسدياً.

مسدسين هي وسطه، واحد من الامام وآخر من الوراء. يحمل المشاة بندق مرودة مقبيل مع أن الأتراك لا يسمحون للمسيحيين بأن يصبحوا انكشاريين إلا أن الفرس لا يميرون بين مسيحي صالحي ومسلم. ولقد التقيت في هذا الجيش بصباط وجنود جيورجيين ومسيحيين ومع هذا فإن الأرمين واليونان يكمون لئتين جداً في حصون العثماني الا اني وجدت الجيورجيين على جانب كبير من الفخر وكان ذلك يلبي بهم كثير. وكانوا يحملون أسلحة جميلة كالبنادق والمسدسات وأنسوف ويرتدون ثياب المسلمين.

لا يرال الفرس يعشمون جيشهم كما في القديم ويعطون أسماء صباطهم وفقاً لعدد الجنود الذين يرأسونهم. ولا اثناً لا يمكن ان يقدر عدد جيش كريم خان من خلال عدد صباطه إذ تعرت على صباط يحب أن يرأسوا ١٠٠ نفر بكنهم لا يرأسون إلا ٥٠ أو ٦٠ شخصاً، إن الصباط الذي يرأس عشرة عناصر يسمى داع باشي (Dag Baschi) والذي يرأس ٥٠ يسمى بنت باشي والذي يرأس ١٠٠ يسمى أورباشي ويسمى باشي الذي يرأس ٥٠٠ ومم باشي الذي يرأس ألف عنصر. إذ رئيس المم باشي هو السلطان وهو مؤسس من قبل الخان. من المعروف أن التتر يلقبون رئيسهم بالخان والأتراك بالسلطان يبدو أن رؤساء الفرس الأعوان المسمون شاه ويد شاه هم الذين يخلقون على صباطهم الرئيسيين لقب حد وسلطان لزيادة أهميتهم في نظر أتباعهم حتى يظن الناس انهم يحكمون أعداداً كبيرة من السلاطين والحد.

عندما كنت ماراً أمام خيمة الأمير كنيه خان ناداني أحدهم وطلب مني أن أجلس. وجدت القائد جالساً على سجاد فاخر يعطي أرض الخيمة لكي يم أجد أي أريكة كما عند الأتراك أمام الخيمة رأيت عدداً من الخدم وجلاداً وكانو جميعاً في وصية الحصون وقد كنعوا أيديهم أمام جسدكم وكان الصباط من خان وسلطان وأصحاب الرتب الدنيا لدى دخولهم وحروجهم يحضون كثيراً أمامهم وقد أسدلوا أيديهم حتى تشرف على ملاسة الأرض كان الصباط المحتشمون يتكلمون الفارسية والتركية لكن احداً منهم لا يتكلم العربية. لكن بالقرب من السردار أي القائد جلس رجل دين يتكلم العربية بطلاقة ويصح لأن يكون مترجمي. وكان الجالسون في الخيمة يعرفون مسبقاً أن بعورتي آلة أراقب فيها الشمس في النهار والنجوم في الليل. طلب مني الأمير كنيه خان بأدب أن أطلعه عليها. علمت انه على اطلاع بعلم الملك كما كان الباشا جدة (الجزء الاول) لكنه لم يكن يعرف شيئاً عن هذا العلم. وهكذا حملت بعد الظهور آتني إلى المخيم لكن السردار أعفاني من مهمة تركيبي واكتفى بأن رأى قدمها ظم منه أن الحديد فيها هو مرقب لرصد النجوم في هذه الاثناء قدموا لي القهوة والعاكهة وطرح علي السردار أسعة عديدة حول الحجار واليعن وحالة الانكليز حالياً في بلاد الهند.

في مساء ١٩ مات فجأة بعل من قائلتنا مصدر أخوه بحرب عن حربه من خلال بكاء حاد وصرايح وحويل، وكان أحياناً يصرب رأسه أو يقرع صدره أو يصرب فخذه وبشدة ما كان حربه صادقاً حوت من أجله وتميت برأته مات بين أهله في المدينة كي يبكوا عليه جميعاً ويحضرُوا نساءً لندبه إذ إن أحداً من جماعة الدافلة لم يشاركه حزنه.

في اليوم ٢٠ انطلقنا من كورموج إلى لوار (Lauwar). بعد رحيلنا بقليل أوقف الحراس قائلتنا لأننا لم نأخذ تصريح مرور من السراदार. فتوقفنا ثم انتظرنا ساعتين وحسب إلى أن أحضر القروان باشي التصريح. في هذه الفترة تعرفت على عرب أحدهم تادر شاه بالقوة من بغداد وكانوا يعملون كجنود مرة عنده وأخرى عند خان القرم الثاني.

تقع قرية لوار في سهل شديد الخصوبة في منطقة جبلية وفيها قلعة وبحكمها رئيس بالوراثة كما في تكشير. إن والد الرئيس الحالي قد مات على يد الأمير جعفر السابق الذكر وكان أبه قد لجأ إلى كريم خان طالباً منه الثأر لأبيه ووعد بتزويد الجيش الذي سيأتي إلى المنطقة لهذه العاة بالأعتة. لكنه لم يستطع أن يلبى كافة طلبات الخان لعوقب بالجند والملق في قلعة كورموج.

في اليوم ٢١ مورنا بالقرب من لوار بطاحون على الماء لم أر مثله لا في مصر ولا في شبه جزيرة العرب. ثجر المياه على حائط طوله مسعة أقدم من جبل لا يعد كثير عن الطاحون، وتكون شديدة السخونة يرتفع منها البخار^(١) ما أن ابتعدنا عنها مسافة نصف ساعة هوجئت برؤيتي من الجهة الأخرى للجبل مياهاً تتحرك الطاحون. إن مياه الأمطار التي تنحدر من الجبال كانت قد تجسست مشككة ما يشبه النهر ثم قطعت الوريد مما أدى بها إلى الصب في النهر كما برأنا آتية من المنبع. أدى ذلك إلى تعطيل عمل الطاحون مما أجبر صاحبه على إزالة الحائط من جهة الوادي الذي شكل النهر لجزء ما يلزمه من ماء من جبل إلى آخر. إن الطريق الذي يجب سلوكه من الجبل الأخير يطلع ربع ميل من حيث الطول وكانت المياه التي جرت من الجبل أقل سخونة من المياه قرب الطاحون، إذ لا شك أن هناك مصراً آخر لتسعين المياه لتشبه القادح من الجبل. إن الجبال في هذه الانحاء مكونة من صخور هشة.

من هنا كانت طرقنا صعبة المسلك في هذا اليوم، وأنا لم أجد أسوأ منها في اليمن. ولشدة ما كانت ضيقة أحياناً كان الحصار المحمل يتجاوزها بالكاد كما وأجبرنا من ١٢ إلى ١٦ مرة على عبور جداول صغيرة. رأينا على هذه الطريق الوعرة الملاي بالحجارة هياكل عظمية لحيل وحمر سقطت هنا. من قائلتنا وقع حصار محتل بالمتاع فكسر رقبته. مما كان من صاحبه إلا أن سلخ

(١) يقال أنه بالقرب من لورموج هناك طاحون آخر يعمل على الماء الساخن.

جلده وباعه قطعاً قطعاً إلى أصدقائه الذين حولوا تلك القطعة في اليوم نفسه إلى أحذية إذا كان صناعة الأحذية كانت تقصر على فتح ثقب في أطراف الجلد وروص حزام فيها ثم ربطها إلى الأرجل.

وصلنا عند بعض أشجار النخيل ثم اتجهنا شرقاً بنفا قرية تدعى سهو (Sahu) دمرها لوار منذ بعض الوقت. في مكان أكثر علواً رأينا أن أمير كورموج قد دمر لوار وأن جيش كريم خان قد دمر كورموج أيضاً.

لا تزال أحول الفرس مضمرة إلى اليوم ورغم ذلك كله يقال إن كريم خان قد أعاد إلى حد كبير الأمان إلى هذه المملكة. ومع أن كريم خان ليس لديه أعداء إلا أن كل سيد قرية هنا يمكن أن يطالب باستقلاله الجار القوي يسيطر على أرض جاره الأضعف ولا يتدخل وكيل بلاد فارس بهذه النزاعات الصغيرة إلا أن يحصل أحد ما على ثروات طائلة أو يرفض دفع الحرية حيث يسل الوكيل جيشاً يتابع هدم ما تبقى من القرى أو المدن التي يصادفها في طريقه والتي نجت من الممارك الأولى. لقد استمرت هذه الاضطرابات أعواماً كثيرة في بلاد فارس، ولم يعد نعجب من أن مملكة كثيفة السكان كما كانت بلاد فارس قد أصبحت اليوم قليلة العدد.

ليس الحكم التركي أفضل من الحكم الفارسي فأهل الحكم الكبار يؤجرون للبشاريات ولايت كبيرة كانت تشكل في الماضي ممالك قرية يؤجر البشاريات بدورهم مقاطعات صغيرة للأغوات وكل واحد يفتش عن مصبته فالجار القوي يستولي على أملاك جاره الصغير دون أن يتدخل السلطان أو الباشا وكل ما يهم هو دفع الأيجار السنوي. لكن في حال تأخر الأيجار يحاسب الباشا الأغوات ويحاسب السلطان الباشاوات ولا يكتفون بمعاقبة الجاني بل ويسبون الأبرياء أرواقهم. عندما يستحيل على هؤلاء المساكين بعد ذلك كسب قوتهم من العمل أو من صناعاتهم الصغيرة، يحاولون جدهين الانخراط في جيش الحكام والعيش على حسب غيرهم من المواطنين وفي حال لم ينجحوا يتجمعون في فرق كبيرة ويسرقون القوافل. وبعل هذه الأوضاع هي وراء وجود هذا العدد الكبير من الجنود وقطاع الطرق في الهند الإسلامية.

في اليوم نفسه رأينا مجموعة أخرى من سكان هذه الأنحاء وكانت تتألف من كميات هائلة من الجراد لكنه جراد مختلف لا يشبه الذي نراه في شبه جزيرة العرب والذي يركل^(١). كان رأسه أخضر اللون وجسمه مكسواً ببقع سوداء وكان ضخماً بدرجة تعيق طيرانه.

(١) السؤال ٣٢ للسيد مكاتيس (راجع وصف شبه جزيرة العرب).

في اليوم ٢٢ كانت الطريق وعرة كذلك. مررنا بقرية فناريدر التي لم يتبق منها إلا شجر الخيل، من كل الجهات كنا نرى مداخل كبيرة وقنوات من مهدمة وجبال واسعة بدأ أنها كانت مزرعة منذ سنوات قليلة. في هذا اليوم نصبنا خيامنا على بعد ٣ ٢/١ الميل من المكان الذي كنا قد خيمنا به الليلة الماضية في منطقة غير مزرعة تدعى سارمسيك أو سريشه. وهنا أيضاً دونت ارتفاع القطب.

في اليوم ٢٣ مشينا ثلاثة أميال ألمانية نحو الشمال الغربي بدلاً من الشرق. نصبنا خيامنا قرب قرية مدمرة تدعى تسنير (Tsenir) تنتمي إلى منطقة بوسقون (Busgun) التي كان رئيسها يجبر المسافرين المارين بها على دفع ضريبة مرور، أما اليوم وقد تمركز جيش بالقرب من القرية فلم يعد ينجراً على ذلك. وكنا كلما تطلعنا صعوداً باتجاه الجبال كلما وجدنا الجو بارداً. نحو الشمال الشرقي رأينا جبلاً معطاة بالشج.

في اليوم ٢٤ مررنا بجبل عال يدعى ساندل (Sandel) وخيمنا بالقرب من أوس (Aus) الواقعة بجانب سلسلة من الجبال الشاهقة نجد هنا عدة ينابيع مياه ساخنة وهناك واحدة نجد بالقرب منها غرفة يستعملها كل من يرغب بالاستحمام في هذه المياه. على الطريق رى هنا وهناك صفوفاً من الحجارة كما لو أنها أساسات متينة ربما تكون بقايا القنوات التي أهملت مع مرور الزمن منذ أشهر معدودة كانت أوس قرية معتبرة لكن مير مها سلبها وهتمها فما كان من أهلها إلا أن هجروها. ويقال أيضاً إن فراش بند وهي قرية أخرى قريبة قد أصبحت تحوي ربع سكانها وحسب.

من قنار بندر إلى هنا سمعت الكثير عن أترك يعيشون بالجوار لنا عدت أدرجي قليلاً للمرور بخيامهم. إن نمط حياتهم يشبه نمط حياة العرب المتجولين وخيامهم مصنوعة على الطريقة العربية وقد ذكرتها بي ووصف شبه الجزيرة العربية، أما ثروتهم فتألف من الجمال والخيول والحمر والبقر والماعز. وهم لا يربون الماعز لحاجتهم اليها وحسب بل لأن الفرس أيضاً يحتاجونها إذ إن هؤلاء لا يهتمون بعبث وحسب بل ويقتدون لروايت من جدد الماعز وكما كان الجدد شديد التعاجيد كلما دفعوا بقاءه سلاً أكثر، يقتل التركمان الماعز للحصول على جدها فقط ويلدبحون معها الحملان حتى قبل أن تولد. ومع أن الفرس والأتراك والعرب في المدن يخفون سماعهم عن عربن الغرباء إلا أن نساء التركمان لا يتحلى من إبراز وجوههن تماماً كالبدويات. ومن المعروف أنهم نساء كادحات ويقال إنهن وراء صناعة السجاد الصغير الذي تصدر منه بلاد فارس كميات كبيرة كل عام.

ومع ان صناعة هذا السجاد تعتبر أدنى نوعية من الصناعات المماثلة في المدينة إلا أنك تعجب من أن هؤلاء البسطاء يجيدون صناعة الصوف وحياسة السجاد. تكلمت مع راع ينتمي إلى إحدى هذه العائلات المتحولة في بغداد ويعمل عند تركماني من هذه الأسحاء وكان يتكلم العربية فأخبرني أن سيده يهنيه كل عام ١٢ حملاً وهكذا علمت أن الشعوب المتحولة في بلاد الشرق لا تزال إلى اليوم تعطي رعاة المسم جراً من قضيعها كما في اليهود السالفة

في اليوم ٢٥ نصبتا خيامنا من الجهة الأخرى لقرية خاباك الواقعة في سهل كبير وكنا قد رأينا عدداً من المستنقعات والحدول على طريقنا وكانت مياهها مئة. بالقرب من هذه القرية رأينا قنعة سبعة المظهر بهت بعد موت نادر شاه وكانت هي والعربية حاليين من السكان الذين هربوا إلى قرية مجاورة تدعى نودجون (Naudjun) بقون دهر دور (Diodore) إن سميرامس التي كانت من بلاد فارس جعلت قومها يحملون عدداً من التلال قيل أن تنصب عليها خيمتها بعية رؤية المخيم بكامته من أعلى. نرى بالقرب من خاباك تلة مرتفعة لها شكل التوتد المقصوص. إلا أنها لا تبدو قديمة العهد إذ نرى كثيراً في تركيا الأوروبية تلالاً حملها الجيش التركي ينصب عليها خيمة السلطان وهي بالتالي حديثة العهد ومن الممكن أن يكون شاه بلاد فارس قد وضع هذه التلة قرب خاباك للعناية نفسها.

في المسطبة نفسها رأيت عائلة من الأكراد المتجولين. لم تكف هذه الأمة بالانتشار في بلاد فارس بل وأيضاً في سوريا وبلاد ما بين النهرين وقد حافظت في كل هذه الأسحاء على معتها المتعددة اللهجات والتي تحتوي كلمات فارسية وتركية وعربية.

كانت قاملتنا تتألف من السنة والشعبة والأرمن والجيورجين أو اليونانيين ركاتولكي واحد وبعض اليهود. كان السنة والشعبة يصومون منذ بداية شهر رمضان في هذا الشهر لا يأكلون إلا أثناء الليل ويفرطون في الأكل نكر منذ طلوع الشمس وحتى غروبها لا يجزؤون على تناول شيء ولا حتى التدخين. إذا فصيامهم متعب. في هذا اليوم نفسه بدأ شهر الصوم عند المسيحيين الشرقيين ولا يتجرأ هؤلاء على تناول اللحم أو السمك أو الحليب أو الزبدة طيلة هذه الفترة. إن الأرمن دقيقون جداً في الصوم ويجبرون أولادهم الصغار على الالتزام به. ولشدة ما تعب طعم منهم يبلغ من العمر ثلاث سنوات أعطيتهم بمسي بعض الحليب. لم يكن رفيقي الأرمني الإيطالي قد تناول اللحم منذ ثمانية أيام وكنت أنا واليهود نصوم معه معظم الأيام إذ نادراً ما كنا نحصل على اللحم. وهكذا يمكن القول إن العاطلة بكاملها كانت تصوم

في اليوم ٢٦ لم نمش أكثر من عشرين ألفاً واتباعنا السير إلى غرا (Cara) وهي قرية حديثة العهد قرب جدول صغير يصب في جدول أكبر. بالقرب منها نجد على جريرتين قلعتين اثنتين

حالتهم مثل حالة قلاع كورموج. لا ترى من قلعة قرية قرع القديمة إلا بعض الآثار عموماً أنها كانت تشكل في الماضي مكان إقامة بغ (Beg lerbeg)^(١).

في هذه المنطقة رأينا الكثير من الأراضي المزروعة ومن القنوات المحفورة تحت الأرض والتي كانت تستعمل لجزء الماء إلى الأراضي المملوحة بجهة ترطيبها. في المصور الغابرة كانت الزراعة متقدمة جداً بفضل هذه القنوات.

وقد حافظ المسلمون عليها لكن منذ أن سار الحكم جائراً وبالتحديد في أيام الاضطرابات الداخلية، أصبحت المنطقة فقيرة وخالية من السكان فلم تعد هناك إمكانية للاستمرار بهذا النشاط.

على بعد ثمانية فراسخ من قرية قرع هناك مدينة تدعى كازرون. ومن هذين الموقعين يقع جبل كمرش (Kammeritsch) وقد هزم أسد خان يوماً بالقرب منه على يد كريم خان.

في اليوم ٢٧ مررنا بجبل شديد الارتفاع لكنه لم يكن أكثر ارتفاعاً وتعرجاً من جبل سماره أو موز (M'harras) في اليمن. نصبتا خيامنا في الجهة الثانية بالقرب من نهر. إن أسماء الجبال والأنهار في اليمن معروفة كأسماء المدن والقرى. هذا لم يعرف الناس اسم هذا الجبل العالي وهذا النهر مع أنه كان كبيراً. قال لي البعض أنه يدعى مسون (Mosgun) وربما كان هذا الاسم يطلق على قرية في هذه الأنحاء.

ومع أن انجبال المجاورة كانت كلها مغطاة بالثلج في هذا اليوم إلا أن الشج رال يكامه في اليوم الثاني بعد هطول وابل من الأمطار.

في ٢٨ شباط/فبراير سرنا فوق نلال مكسوة بشجر اللوز البري والسنديان. كانت رحلتنا متعصرة بعض الشيء بسبب الأمطار والبرد. بعد أن سرنا ميلاً ونصف الميل نصبتا خيامنا لمدة ثلاث ساعات ونصف. توجهت نحو قرية رمشون المجاورة فاستأجرت فيها بيتاً أنقي فيه الطقس الرديء وأحضرت الخشب ورجوت بعض الأرمن مقاسمتي سبل الراحة هذه. ثم جاءت بعض النساء الأرمنيات مع أولادهن وكن سعيدات بالمكان الذي أعطيتهن إياه قرب الباب لكنني خرجت قليلاً فاستبدلت مكانهن مع الرجال ولدي عودتي وجدت أن المحريم قد أصبح أمام مرقددي. كانت النساء جميعهن قد أخفن وجوههن أثناء الرحلة وابتعدن عن صحة الرجال العرياء. لذا وجدت أنه من غير الأدب أن أجلس إلى جاتهن أو أن أطردهن من قرب الموقد.

(١) إن القرى العالية حتى اليوم تنتمي إلى أراضي قرع وهي: شيراز، دمشق، كفر علي، سورسكون، صابكون، كوروش، بولاد، غروب هيد، مكرم علاء، كولوشرد، دجل، نمر، أنطري، بدست.

كنت أود إشعال النار في جهة أخرى من المنزل لكن الرجال كانوا يدخنون فيها بكثرة ولم أكن أحتمل السكوت في جو كهذا كما لم أستطع استئجار سرير آخر. وهكذا لم يبق لي إلا أن أنتظر بصبر أن تجف ثياب رفاق رحلتي قبل أن أقرب من النار كما اضطررت إلى التناول من أنفصل مكان في منزلي لتنام فيه النساء وأولادهن. كانت العاصفة هوجاء ومصحوبة بالمطر والبرد والثلج. ولأن الثرائذ لم تكن مزودة بمصاريع ولأن السقف كان شديد الرقعة، صار المطر يتسرب إلينا. فأجبرت على نقل فراشي من مكان إلى مكان دون أن أجد مكاناً جافاً أقصى لي في فيه. في الليل صرأت حادثة أخرى. تمتد منازل هذه القرية إلى جبل منحرف. كان بيتي في الطابق الثاني وكان حصاني في اسطبل لا يبعد عني كثيراً إلا أن أرض الاسطبل عطلت ووقع الحصان من المنزل إلى منزل مضطرب تحتي. في صباح اليوم التالي علمنا أنه لكثرة ما ازداد مستوى المياه في نهر كنا سنبحر فيه استحالة علينا متابعة سرت من خلاله لكنني بالرغم من ذلك سعدت بالإمكابة بقياتي ٢٤ ساعة أخرى في القرية بسبب كميات المطر والبرد المتدفقة.

كانت الجبال المجاورة لا تزال مكسوة بالثلج. يقال إنه بالقرب من رمشون هناك جبل يستخرج منه المنح الصخري.

في ٢ آذار/مارس مررتا بنهر يلتقي بعمه أنهار أخرى ثم يتجه نحو قرية قرع لبل أن يعصب في الخليج للمارسي بين بوشهر وبندر ريخ. بعد ذلك مررتا بنهر آخر أكبر حجماً يدعى رشبونا (Radbuna) ووضعنا الرجال عند شرقه. يقال إن هذا النهر يتابع طريقه نحو فيروز اباد، وإنه بين هذين النهرين تقع قرى مفر (Mofor) وبندر ودسلب (Desalb) ورتشي وقتني وقرمس (Karabas) وقرى أخرى.

في ليل ٢ - ٣ آذار/مارس تساقط البرد بغزارة وصارت طبقة الجليد فوق الماء بسماكة ظهر سكين. في هذا اليوم مشينا ٣ أميال ونصف ألمانية وحيثنا قرب تشينار وشار حيث يقع المكس في منزل عند النهر على الطريق بين بوشهر وشيراز هناك ستة مراكز لجني المكوس يقول البعض إن الأوروبيين غير مجبرين على دفع أي ضريبة إلا أن موظفي الجمارك في بلاد فارس يحيون الحصول على بعض المال. ويستحسن في هذه الحالات ألا تحاول التمسك بحقوقنا. إن مدينة شيراز التي وصلنا إليها في ٤ آذار/مارس لا تبعد عن تشينار وشار إلا ميلاً ونصف باتجاه الشرق.

لقد صرغنا إذاً ١٨ يوماً للذهاب من بوشهر إلى شيراز مع أن أي كان يمكن أن يقوم به في ستة أيام. ولم يكن سبب تأخرنا يكمن وراء ردة الطقس والتحول عن الطريق عبر كورموج وحسب بل وأيضاً لأن غالبية مصافنا كانت محملة على حير سيوة يعصب عليها القيام برحلات طويلة.

في شيراز نزلت عند السيد هر كول وهو تاجر انكليزي ينحدر من عائلة عريقة ويهتم بأعمال السيد جوقس في هذه المنطقة. ولقد عاملني السيد هر كول بكثير من اللباقة والتهذيب تماماً كما فعل السيد جوقس في بوشهر.

وكان يعيش في هذا المكان بعيداً عن العالم لأنه كان الأوروبي الوحيد في شيراز ولأن علاقة الصداقة الحميمة لا يمكن أن تنشأ بين مسيحي وفارسي. فالفرس كالشعبة تماماً يعتبرون أبناء الديانات الأخرى مدغسين وذلك بالرغم من أنهم شديدو التهذيب في التعامل^(١). من بين عدد الأرمن القليل هنا، هناك ضابط في المدفعية في جيش كريم خان يمكن أن يزوره السيد هر كول. تسم هذه الضابط اللغة الانكليزية عندما كان يمارس التجارة في الينغل وكان حالياً مترجم السيد هر كول. وكانت إقامة هذا الأخير في شيراز مزعجة لأنه كان عليه احترام أمجاد المدينة وتجارها الكبار كان يتكلم بطريقة محيية وألا يظهر إلا على ظهر الحبل في الشارع وأن يصحب معه دائماً عدداً كبيراً من الخدم.

في مدي أخرى كنت أرثدي دائماً ثيابي الغربية من دون أن ينتبه الناس إلى شخصي لم يكن يعني ما إذا كانوا يعتبروني أوروبياً أو مسيحياً من لشرك أم شخصية بارزة أو أحد الفقراء إذ لم أكن أكثر إلا بمثابة ملاحظاتي. في شيراز كنت أقدم نفسي على أنني أوروبي محرمني ذلك من التجول في كافة الأنحاء بسبب معيبي. إلا أنني تعرفت هنا على شخصيات فارسية بارزة كانت تأتي لزبارة السيد هر كول وقد سمعت بمعرفتها. من بين هؤلاء هناك تاجر كبير يتكلم العربية بطلاقة. لقد أطلعني على معلومات هامة تتعلق خاصة بالثورات الرئيسية التي حصلت في هذه المملكة منذ موت نادر شاه إلى اليوم حيث لا يزال التاريخ مصبوغاً بقصة هذا البطل أو ربما هذا الطاعة^(٢).

تقع مدينة شيراز في سهل شديد الخصوبة، تحيط بها الأسوار والخنادق. إلا أن السور مصنوع من الصلصال والطين مثل باقي الأسوار الفارسية الحديثة العهد. من الدخول ثلث المدينة فيه أهبة أما المساحة الباقية فهي إما مهدمة أو مزروعة قمحاً.

ويبدو أن كريم خان الذي ذاع صيته بسبب شجاعته وبأسه ووفاء الشعب له لا يأنو جهداً

(١) إن شاردان (Chardin) الذي أمضى عدة سنوات في بلاد فارس والذي تعرف عن كتب إلى عادات سكانها بعد طباع هؤلاء بدقة في كتاب «استفاره» في الجزء III ص ٢٥ ولاحقاتها

(٢) تاريخ نادر شاه بقلم ميرزا محمد مهدي خان، ترجمه من الفارسية إلى الفرنسية السيد غيوم جوتز وسنها إلى الألمانية.

للنهوض بهذه المدينة وجعلها تستعيد عزها الماضي. فقد بنى لنفسه فيها قصراً وزرع حوله حديقة رائعة الجمال وأحبر عدداً من الشخصيات البارزة من مختلف المناطق الفارسية على الإقامة في شيراز نتيجة لذلك تجملت المدينة وصار هؤلاء يتمتعون أموالهم فيها فاستمادت التجارة نشاطها، في المدن الشرقية عادة، قلما يهتم السكان بالداخلين (الحاجين إليها)، أما في شيراز فيستطيع من شاء أن يدخل إلى المدينة، لكن إذا أراد شخص غير معروف أن يخرج منها فإن عليه أن يبرر تصريحاً بالمرور للحرس. ولا يسمح لأي امرأة بالخروج من المدينة خوفاً من أن يكن مساجين تكروا يزي النساء لقرار. وهكذا كان على نساء الأرمنيات اللواتي أتين في غافلتنا أن يبقين بالقرب من باب المدينة.

في الخامس من آذار/مارس، قلّمني السيد هر كول إلى بكربك فرستان^(١) المقيم في هذه المدينة. امتطينا أنا والسيد هر كول والمترجم الخين يسما مشى الحشم الأرمن الأربعة أمانتا وقد أمسكوا عصيهم بأيديهم. قلّما يذهب أي غنصل أوروبي لحضور الاجتماع العام الذي يقده باشا القاهرة دون أن يسمع الشنائم من عامة الشعب وهذا بالرغم من أن بعض الانكشاريين يستطرون خيبتهم ويسببون أمامه، أما في شيراز فلم نسمع أي كلمة خارجة عن حدود الأدب. عندما مررنا بشارع السوق حيث تطلع الزحمة فزورنا من جهتي الطريق لم يفتش الأرمس من تخويف المسلمين بعضهم إذا لم يفسحوا الطريق أمامنا. بي قصر البكربك منذ فترة غير طويلة ويقع في ساحة كبيرة مزروعة. المبنى الخارجي لا يختلف عن منزل أي بورجوازي ووراءه هناك المسكن الأساسي والساحة حيث يوجد خزان كبير للمياه وبعض البوابير. اقتدونا إلى صالة كبيرة تكسر أرضها سجادة كبيرة رائعة الجمال لكن بدلاً من الكسبات التي نراها دائماً مسنودة إلى الجدران في غرف الأتراك لم أزل إلا سجادة من البليد أقل جمالاً من السجاد الفارسي العادي كما ولم أراة لرائث مسنودة إلى الحائط مما يدلنا أن الحرس لا يتولون مثل الأتراك إلى الحصول على سبل الراحة. استقبلنا رئيس التشريفات أما والسيد هر كول أمام باب هذه الصالة وقدما إلى البكربك.

أثناء حضوري الجلسة العامة أنا وأصدقاء رحلتي عند باشا القاهرة، قبلنا جميعاً طرف ثوبه. في جدة اتحنيا أمامه كثيراً. أما في صماء فقد قبلنا ظهر يد الإمام وباطنها وثوبه وركبته. وفي كل هذه الأماكن لم يطلب منا أحد أن نحس. هنا في شيراز وجدنا كرسيتين في وسط المقاعة جلسنا عليهما بعد أن اتحنيا كثيراً لإلقاء التحية. كان البكربك يدعى صادق خان وكان الأخ الأكبر

(١) في النسخ الأولى من كتاب محمد مهدي خان الذي تكلمت عليه آنفاً، رأيت موز نافر شاه وصبراً للمعول (Mogol).

للوكيل كريم حان ومع ان هذا الأخير لم يتوصل إلى حمل لقبه حاكم بلاد فارس كذلك أخوه لم يكن سعيد الحظ كثيراً لكن يقال إنه يتعلم منذ فترة هو وأبناؤه الفرية والكتابة فهو إذاً أكثر ثقافة من أخيه اللوكيل. هناك أشخاص متخصصون بديرون الأعمال الهامة في هذه الولاية أما البكرلك فيهتم بأمور الشرطة خاصة تماماً كسلطان القسطنطينية.

قبل وصولي إلى هذه المدينة يومين أمر باعتقال لحاميين يبيعان لحوماً قاسية فاعلقهما بمسارٍ من أذانها إلى عامود وتركهما فترة بعد الظهر كلها على هذه الحالة. في هذه المناسبة عمم على الجميع أن كل لحام يقترب هذه الجسدة سوف يقطع إلى قسمين. وهو يتكلم وجرى ونور جداً. وقد أكد أنه سيقطع رأس كل من سيتعرض لي بالأذى خلال رحلتي.

كان رئيس التشرفات يسك غمس أسل بيده ويقف يسا ويس البكرلك تماماً كما كان يقف الفقيه أحمد بيضا وبين الامم في صناعاء. تكلم السيد هر كول بالانكليزية مع مترجمه الذي يخاطب رئيس التشرفات بالعارسية وهي اللغة التي يفهمها البكرلك إلا أن رئيس التشرفات عاد وكرر الكلام على مسامحة (لست أذكر ما إذا كان هذا الأخير يتقن اللغة التركية لأن ذوي الحساب والنسب من العرس يتكلمونها). ولاحظت أن رئيس التشرفات لا يكتفي بالاحتفاء عندما يخاطب البكرلك بل ويترك عصاه تسقط معه فوجدت في الأمر الكثير من المراقبة.

بعد الجلسة قادنا أحد أصدقاء السيد هر كول المقربين من بكركلك في جولة داخل القصر وأراني بعض الأجنحة. في جناح منها مجاور لقاعة الجلسات كانت الجدران مغطاة بالمرمر الجميل والأرض بالسجاد الفاخر.

على طول الجدران رأيت مرايا أوروبية الصنع ووجدت أكثر من عشر لوحات تصور أشخاصاً وهذا لم أكن أتوقع رؤيته في بيت مسلم. إلا أن الشيعة لا يحشون كالمسرة من عرض صور الأشخاص خوفاً من اتهامهم بالوثنية. إن رسوم العرس سيئة لكن ألوانهم رائعة الجمال، كانت غالبية الصور تظهر أزواء فارسية، إحداها نهر امرأة نصفها مكشوف وأخرى تبرز امرأة شبه عارية تستحم.

بعد ذلك زونا حريم النساء ولم يكن قد جهز بعد وبالتالي كان خالياً من النساء. كانت عرفة صغيرة جداً. في إحدى هذه الغرف رأيت عامودين مستطيلي الشكل ملبسين بالمرايا و فوق المرايا أعمال نحبة جميلة تعطي المفصلات: رأيت مرايا بشكل نجوم في السقف وفي عرفة أخرى كان السقف والجدران مريية كلها بالمرايا التي بلغ طول بعضها أكثر من قدمين. أما في الغرف الأخرى فكانت المرأة الأكثر ارتفاعاً لا تتجاوز القدم الواحدة. وجدته بالذكر ان المرايا وزجاج النوافذ

الأبيض والملون كانت من صنع شيراز كان اليكلمركت يام في قنعة مستديرة بهاها حلف المبرل وكانت المحرسة حولها وجرها مشدده.

لم أجد في شيراز بستاناً يستحق الذكر سوى البستان الذي أمر كريم خان برعته. ومن غير المجدي البحث عن نباتات نادرة هنا أو في أي مكان في البساتين الشرقية إلا أنها ترى هنا عدداً من الأشجار المثمرة. في وسط البستان هناك مبنى مستطيلاً مرتفعاً مقعده صيني وله جناحان إن البهو في المبنى الأساسي مستطيل الشكل هو أيضاً ويمر بالحدائق. في الأعلى هناك رواق وفي الرواق حجرات صغيرة. أما رجاج النوافذ بصغير الحجم وكنه مؤن في الأسفل كانت الجدران مغطاة بالمرمر. أما ما يبقى فكان مغطى بزي من الأهرار المكسوة باللون الذهبي وبألوان مشرقية أخرى. وحتى خارج المبنى الرئيسي رأيت بوحات تشل الأشجار وكانت ملونة داخل البهو الكبير وأمامه هناك نوافير ماء في كلا الجناحين وفي الصديق الثاني رأيت بهواً كبيراً مفتوحاً من جهة. وباحتصار لم أجد في تركيا كلها ومصر وشبه الجزيرة العربية مراً مشيداً بهذا النوع الرفيع كما المنزل هذا. كان أحد أطراف أحد الجناحين يستند إلى جدار الحديقة وكانت فيه ساحة مربعة محاطة بجدار لا بأس به فيها مساكن صغيرة تشبه النكات وتستعمل عندما ينزل الوكيل هناك لبعض الوقت من الجهة الأخرى من الساحة هناك مبنى مرتفع وصيق المساحة يقال إن الموسيقيين يقفون تحته كالعازفين على العليل. والماضون في الممر لأن الموسيقي العسكري الفارسية سبعة كموسيقى الأتراك كما ويسمعون في عزمهم آلات وترية وآلات أخرى عدة الصوت وتكون هذه الموسيقى أقل بشاعة من موسيقى العرب والأتراك

إن الرجاج الذي يصنع في شيراز يكون أبيض اللون بعض الشيء ونوعيته جيدة وياي سم أر تظ رجاجاً أسود اللون إذ حتى الرجاجات التي يعنى فيها البيد كانت مصبوعة من رجاج أبيض أملس بعضي كلها بالسوحر.

تشتهر آلات النعب بجمودتها لأن الطلب عليها كثير وبمضي ذلك ان المصنعين يبدون الجهود في إتقانها شرط أن يدفع لهم جيداً. لهذه الآلات شكل عيون كريم خان الممدي الذي ذكرته في المجلد الأول والرسوم في اللوحة ١٥ أما قعرها فهو مغطى بزهراب رجاجية ملونة ليست مرسومة من الداخل بل ترتكز عمودياً على الساق مما يعطي تأثيراً جميلاً.

في أحد الأيام رأيت هنا المدافع بالقرب من الترساة كانت تقف كلها على عربات رديئة بها ثلاثة دواليب وبين المدافع رأيت مدفعي هاوون يرتكز على عربات مماثلة. إن المسؤول عن هذه المدافع هو جيورجي كان يخدم في الجيش الفارسي في الناصبي ثم اعتنق دين محمد (الدين الإسلامي) وأصبح اليوم خائناً يخدم عند الوكيل ومن المعروف أنه من أهم عناصر المدفعية في

بلاد فارس. يقال إن نادر شاه لطالما أراد أن يقطع هذه المدافع أجزاء صغيرة ليتمكن من نقلها على ظهر الجمال والبعال لكن ذلك يجره على تدويرها أمام المدينة التي يريد مهاجمتها مما يكلفه الكثير من المال والوقت، لذلك عدل عن تنفيذ فكرته هذه. ويقال إن الخان الذي تكلمت عليه آنفاً ذوب عدة مدافع هنا مؤلفة من قطع صغيرة يمكن نقلها على ظهور البغال^(١)

وقد وصفوا لي شكل أحد هذه المدافع الذي يقذف ٩٠ يسرة من النحاس^(٢). يتألف هذا المدفع من ٤٠ قطعة يحملها عشرون بغلاً. لكل من هذه القطع أو الحلقات ثمانية ثقوب حول الدائرة تمرّ فيها ثمانية فصبان من الحديد عند تجهيز المدفع. يقال إن هذه المدافع من الباب الأول من حيث الصناعة والاستعمال وهي أفضل من مدفع آخر جمع الخان قطعه بواسطة البراعي. في ما تبقى فإن القطع القوية الصغيرة هذه ليس لها قيمة خاصة. لا يرال مدفعيو بلاد فارس لا يجيدون استعمال القذائف وعلمت في الشارقة أن الأسير كيه خان كان لديه مدفع قرب بندر رعي لكن القذيفة التي كان يفترض بالضابط أن يرميها على المدينة قتلت عناصر من جماعته.

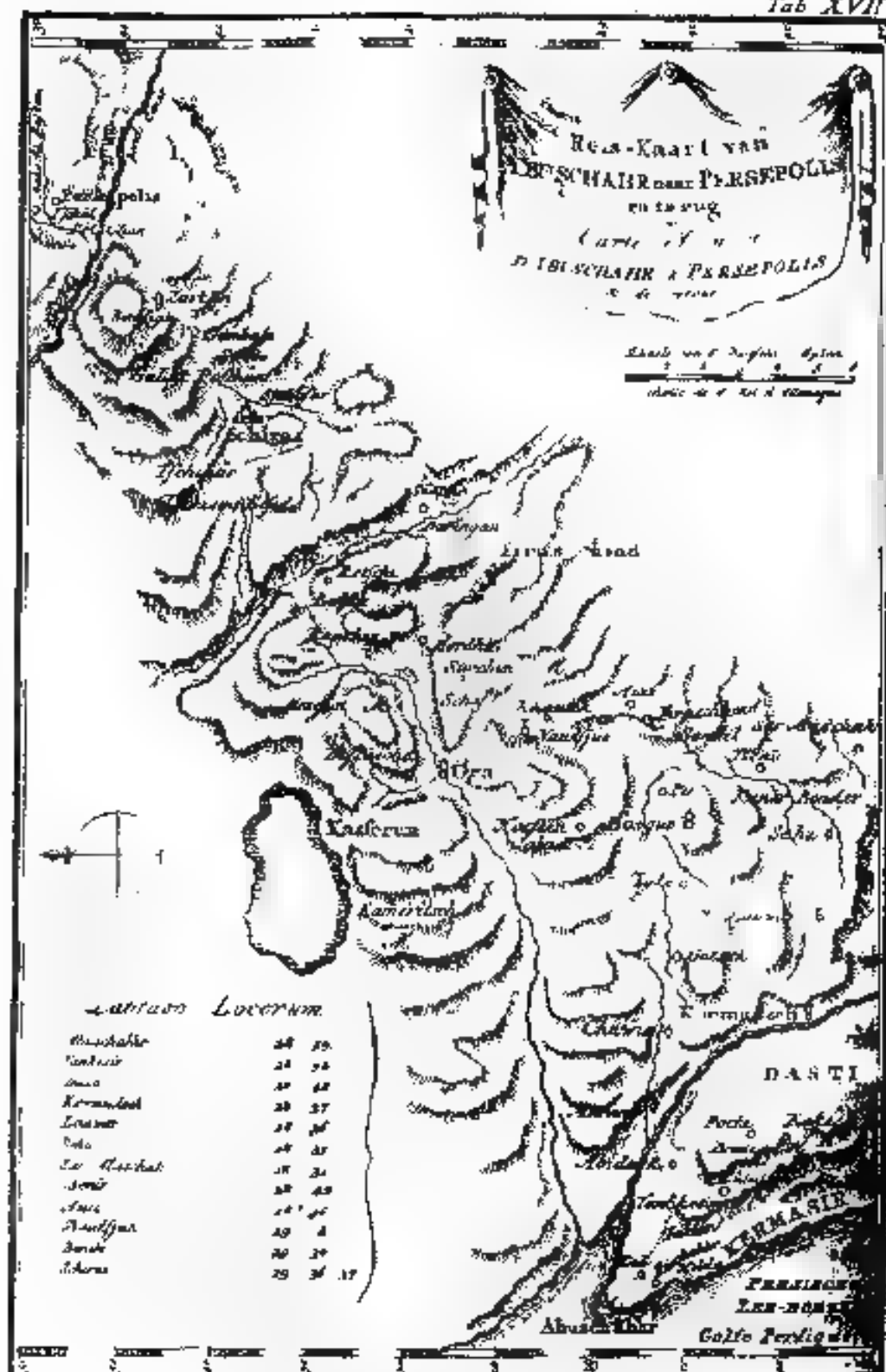
إن العرس لا يرتابون أبداً إذا عرفوا أن أجنبياً يريد رؤية آثار بلادهم ولو أنني ذهبت إلى پرسپوليس دون أن أهرح بأي تفصيل لما ارتاب احد في أمرى. لكن بما أن جاني الضرائب في القرى المجاورة للآثار يسكن في شيراز طلبت عنوانه من السيد هرگول ورجوته إعطائي رسالة توصية أعطيها لرئيس القرية. ولم يكف هذا السيد الفارسي بمنحي الرسالة التي أردت بل أرسل أحد خدمه لمرافقتي في رحلتي. انطلقنا في اليوم ١٢ من شيراز. بعد أن تجاوزنا باب المدينة قطعنا جسراً طويلاً عالياً بُني على نهر يجري من الشمال إلى الجنوب. على بعد ربع ميل ألماني من المدينة وصلنا إلى باب ضخم ورائع الجمال مصنوع من الحجر المنقوش.

لم يبق من المباني العديدة التي كانت تقع خارج باب المدينة وقرب الجبال المجاورة إلا أطلال حربة ولم يبق من الصاحية التي كانت تقع بين هذه المسطحة وشيراز إلا مسجدان. وصدا إلى زركان بعد خمس ساعات ونصف بعد أن مشينا في طرقات جبلية وصخرية لقد أصبحت السهول الأكثر خصوبة جرداء قاحلة وحتى الأشجار بدت وكأنها تشنكي من الحروب الداخلية التي لا تنتهي والتي تركت آثاراً كبيرة في المسطحة. فاجداول وقنوات الماء التي كانت تسقي جدرانها قد تحول مجراها أو هُدمت كلياً. ولم أر أي أثر لقرية كانت مبنية في الجوار. على

(١) في بلاد فارس يكثر النحاس في صناعة قذائف المدافع.

(٢) لشرت إلى الأعمدة المنتصبة، يدائرة مزدوجة، على الخرطه وإلى الأعمدة للمهندمة بنائة واحداً اما العلامة ٨ تشير إلى وجود قنوات للمياه

Tab XVII



الطريق نفسها أروني آثار مرلي واقع بالقرب من شجرة خالعة الصيت اضطرر حاكم من حكام شيراز أن يرتدي بزة الشرف بقربها وأن يذهب على ظهر الخيل في مسيرة إلى المدينة لأن الشاه كلفه بذلك.

يشبه شكل قرية زركان شكل الهلال وتقع على جيب عالٍ في طرفها الأسفل هناك سور ضعيف ارتفاعه سبعة أقدام. في جوار هذا المكان بنيت معركة منذ عدة سنوات بين خانيين مما كان من الرابع، إلا أن سجن كافة السكان وهدم مدبرهم لذلك لا نجد إلا بقعة صغيرة من جهة السجل مأهولة بالسكان. كانت جدران منازل المزارعين تتألف من الطين أو القرميد المجفف بأشعة الشمس كما في سائر القرى العارسية التي رأيتهما أما السقوف فكانت منحنية ومغطاة بالقش. كما في شهر رمضان شهر الصوم عند المسلمين فلم يكونوا يأكلون ويشربون طيلة النهار. وكان دليبي يأكل في المساء وبعد ثلاث وجبات ما بين غروب الشمس وشرورها. بي إحدى الأمسيات أرسلوا إلي دجاجة عظامها سوداء ونبت أذري إذا ما كانت دجاجة من جيب خاص أم أن العظم تصبح سوداء بسبب العلف الذي يطعمونها إياه إلا أن هذا الصنف رائج في بلاد فارس ويعتبر أفضل نوعية من الدجاج ذات العظام البيض.

في اليوم ١٢ من شهر آذار/مارس صرنا صاعدين إلى أن وصلنا إلى نهر بند أمير (Bend Emir) وهو الأراكسس (Araxes) الذي ذكره الكتّاب اليونانيون. على امتداد هذه الطريق لم أزل قرية واحدة. إن النهر السابق الذكر سريع جداً ويبلغ طول الجسر المبنى فوقه من القرميد ٣٠٠ قدم. منذ شيراز وحتى الجسر كنا نسير على طريق اصطناعي فركناه هنا واتجهنا نحو الشرق مباشرة نحو آثار پرسپوليس ومع اني كنت متأكداً من عدم وجود أي قرية مجاورة أحاط فيها رحالي إلا اني كنت أفكر أحياناً من روعة هذه الآثار وفقاً لما قرأته وسمعت عنها ولم أستطع التخلي عن فكرة عدم رؤيتها. قادني دليبي عند المساء إلى مردست (Merdast) وهي قرية نائية تقع على بعد درسيخ جنوبي الآثار هنا نوددت إلى القلنطار أو رئيس القرية الذي رحب بي واستقبلني بأدب ثم دليبي إلى غرفة في منزل صغير كانت تحير مسكناً للمسافرين.

وصف انقاض پرسپوليس

سم تعد انقاض مدينة هليوبوليس، عاصمة مصر قديماً، وانقاض مدينة سفيس، الواقعة في منطقة سهية خصبة، في مكانها الأساسي، فبعد تدميرها، نمت حجارة الأضرحة إلى العواصم الجديدة، بينما دفن ما تبقى منها تحت التراب، كما واستعملت أراضيها لزراعة القمح. أما أهم بقايا مدينة پرسپوليس، التي لا تزال تثير إعجاباً، فهي بقايا مبد أو قصر ملكي، يتميز بعظمة حجراته، وموقعه



الجميل، وأرضه المعطاة بالرخام، شأنه شأن لأهرام، في جوار القاهرة. يسمي نفريسون هذه الآثار تحت جمشيد أي مقر جمشيد ظناً منهم أن هذا الأخير وهو أحد ملوكهم القدمى، قد وضع حجرها الأساس. ويعرفها البعض باسم تشيل - منار أو الأربيس عمود، ولعلهم أطلقوا عليها هذا الاسم لأن المسلمين وجدوا فيها عاموداً منتصباً عند وصولهم إلى بلاد فارس أم اليوم فتشاهد داخل الأسوار ١٩ عاموداً، واحد في الركن الجنوبي العربي، وآخر على بعد ميدين ونصف، وتكون في إسطح Istakr يبلغ طول الطريق الممتد من شيراز إلى تشيل - منار سبعة أميال، وتقع شيراز على ارتفاع ٢٩°، ٣٦'، ٤، من القطب وباتالي تشيل - منار على ارتفاع ٣٠°.

ادعى بعض الرحالة أن تشيل منار كانت قديماً معبداً يسمى يدعى بعضهم الآخر أنها كانت قصر رعيم علماني. أما أنا فأقول: إنه أقرب إلى المعبد منها إلى القصر، فبدلاً من أن نجد عند المدخل مزينكساً كبيراً، كما في المعابد المصرية الأخرى، نشاهد هنا حيوانات ضخمة للعبة أم الصورة التي نشاهدها عند مقدم الصريح، أمام المذبح، علاوة عن تلك التي تراها في النوحة XXV، فهي صورة بعض الكهنة، لعل الزعيم الفارسي كان أميراً عثمانياً ورحل دين في آن معاً وأن هذا المعبد كان بالتحقيق مقراً للملحدين أو للديانة (إن كان بومبي أن أطلق على رعيم الديانة الفارسية القديمة هذا التسمية). وعل هذا المعبد تحول إلى مقر الرعيم العثماني بعد إرماده عن دينه. وأخيراً القصر نفسه الذي حرقه الاسكندر فوق كروية

وفي سبيل إعطاء القارئ فكرة واضحة، عن حالة بقايا هذا القصر أو هذا المعبد، وعن موقعه، رسمت الخارطة XVIII وأشرت فيه إلى أقسامه الأساسية، غير أنني لم أرسم مظهراً عاماً له، لأن شاردين رسمه مابين وبدا لي كذلك الأمر ولما كتب قد رسمت صورة لبعض المكنات. أربأيت أن نقلها على النوحة XIX، خاصة وأن القراء لا يملكون كتب هذين المسافرين تقع هذه الانقاص على سطح جبل شاهق وتبعدا من جهاتها الثلاث، أسوار محصنة، في الجهة الشمالية الغربية، يلاحظ أن حجارة السور قد انتزعت بمعظمها واستعملت في تشييد أبنية أخرى.

تشير الأدلة إلى أن بدء هذا المكان لم يتم دفعة واحدة، فمن الجهة الشمالية، وعلى مقربة من الجبال، وسع السور عمداً لتوسيع مساحة البناء فلاحظ بالتالي أن الزوايا لا تتلاءم مع حارطة البناء الجميل.

على القارئ، مراجعة الخارطة، خلال مرجعته هذا المؤلف.

تتألف هذه الأسوار من حجارة مرصوفة ومادة صلبة، تتحول إلى اللون الأسود بعد صقنها أرض أن جيل رحمة وهضبه تتألف من هذا النوع من الحجارة. مما يعني أن المقاول عثر على الحجارة

في المكان نفسه. سم يستعمل المهندسون الفرس الطين لبناء الأسوار أو الصروح، صحيح أن الحجارة قد ثبتت بواسطة مخالب حديدية، إلا أنها صدأت مع مرور الزمن، دون أن تؤدي إلى تهدم الحجارة أو تداعيتها بعبرة أخرى من الصعب أن نشاهد في أوروبا سوراً من المرمر يضاهي سور تشيل منار اتقياً.

إن سطح الهضبة التي وجدنا عليها هذه البقايا ليست مسطحة، مما يعني أن علو السور الخارجي ليس سوياً. فقد فتت الارتفاع في عدة أماكن. كما اشرت على الخارطة ووجدت أنه يتراوح بين ١٤ قدماً ونصف و ١٨ قدماً في الجهة الجنوبية، وبين ٣٢ و ٤١ قدماً في الجهة الغربية، وبين ١٦ و ٢٧ قدماً في الجهة الشمالية، يعتبر الصرح (ط) الأكثر ارتفاعاً (٥٠ قدماً فوق الأفق) والأكثر قدماً، أما الصرح (ح) فهو الأكثر انخفاضاً يقع الصرح (ز) على الارتفاع نفسه من الصرح (ح) ولكن الأرض التي تفصل بينهما هي أكثر انخفاضاً، وهذا ما تثبتته الصور الظاهرة على السور، والتي ينعىها التراب الذي تحمله الرياح القوية. إن صف الأعمدة (ب)، و(ج)، و(د) و(هـ) هو أكثر انخفاضاً من الشارع (ز) وأكثر ارتفاعاً من الصروح (ح) و(هـ) و(أ). إن الانخفاض (مر) و(د) هي أكثر انخفاضاً من المنطقة (أ) و(أ) و(هـ)، والجدير ذكره أن الصرح (د) هو الأكثر انخفاضاً، لذلك دفنت بقاياها تحت التراب. أما قرب مجموعة الأعمدة (ح) و(ط)، وعلى مقربة من ب. ج. د. هـ. فلا يشهد أرضاً غيراً حسيب، بل حجارة مرمية في غاية الجمال.

تهدم السور الخارجي بمعظمه، ونقلت حجارته إلى إسطخر وشيراز وغيرها من المدن. من الجهتين الشمالية والجنوبية، تعرض السور لثلاث بقمل مرور الزمن، ولوصول إلى هذه الانقاض نجد مسلماً مزدوجاً مصنوعاً من المرمر الصلب الذي يكثُر في هذه المنطقة. أما الحجارة فهي كبيرة الحجم، ورغم مرور ألفي سنة على تهدم القصر، يحكا تسلق الدرج على الحصان.

نشاهد عند أعلى السلم تقوياً في الحجارة، كانت قديماً مقاميل للأبواب، مما يعني أنه كان لقصر ثلاثة أبواب وأن السور المحاذي للدرج كان أكثر ارتفاعاً منه اليوم.

نجد أمام الدرج سورين من الحجارة الصلبة، كانا قديماً بابين، رغم أن عرصتهما لا يتعدى ١٣ قدماً أما الأرض فمغطاة بالمرمر المصقول المخصص للمشاة. يبلغ ارتفاع الأسوار ٣٠ قدماً، وهي عالية من الترافد. نشاهد على ارتفاع ٤ أقدام ٨ بومسات من السور صورة حيران (ك) في اللوحة XXX، الصورة (أ)، من السور تحديد كبير والمسافة التي تفصل بين الحافرتين الأماميتين والخلفيتين، والتي تواري ١٨ قدماً. والملاحظ أن جسم هذا الحيوان منحوت بشكل بارز، بينما رأسه وحافراه الأماميان تتجاوز حدود السور، حتى تبقى حرة تماماً ويبدو جلياً أن هذه الحيوانات تجسد القارن الاسطوري، الذي تتردد صورته في كافة أنحاء هذه البقايا. نشاهد في الجهة الشرقية

صوريين مماثلين، رسمت على كل واحد منهما صورة الحيوان الذي نقلته في الصورة ب من اللوحة XX، وهي تقع على علو ٤ أقدام و ٨ بوصات من الأرض، وبلغ المسافة بين الحامرين الأساس والحامرين الخلفيين ١٧ قدماً و ٦ بوصات، ويبدو جلياً أنهم حاولوا نقل رأس هذا السفينكس من بلاد فارس إلا أنهم هشموا أنفه دون أن يتحكموا من انقراعه. نشاهد فوق الرسوم الأربع، ثلاثة نقوش، تتألف حروفها من خطوط مستقيمة. والجدير ذكره أن الصور على السور (أ)، تجسد الحيوانات وهي متجهة برؤوسها صوب الغرب بينما تلك التي على السور (أ هـ)، رؤوسها تتجه شرقاً.

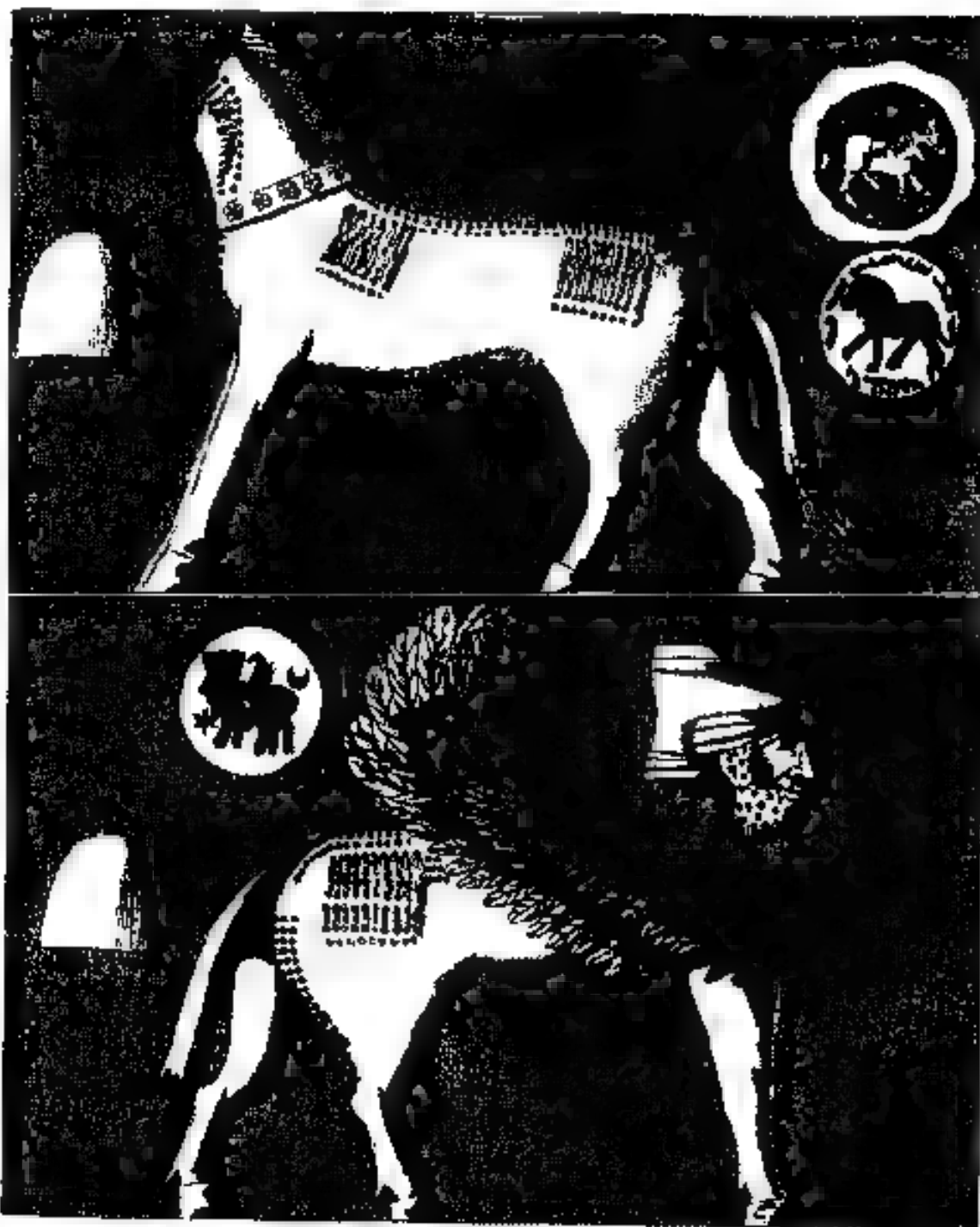
في هذه المساحة، سأتي على ذكر حجارة العقيق اللتين رسمتهما في الصورتين آ وح، واللتين جعلت عليهما في البصره وحلب. مما لا شك فيه أن الرسم (B ب) هو صورة مكبرة للرسم (B ب) غير أن عمل الحفار أسوأ من عمل النقاش، في الصورة (D د) فصحائب الحيوان ورأسه بارزة مما يدل على أنه ليس القرن المرعوم. ولكن هذه الصورة تشير فصول علماء اللغة نظراً للأحرف التي تحيط بها، وأظهرها من النوع نفسه الذي تجده على العملات ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، في اللوحة XI، في كتاب وصف شبه الجزيرة العربية. كما وأنها حفرت بعد تدمير القصر^(٥) مما يعني أن عالماً باللغة الفارسية القديمة يحسن فك رمورها بسهولة، ولا أحوال أن الأحرف التي نشاهدها على العملات الفارسية تختلف عن تلك المحفورة على هذه الحجارة.

نجد بين المدحجين (أ) و(هـ) الدين اثبت على ذكرهما نقاً، عامودين منشصين وآثاراً أخرى متهدمة. أما المنتصب بها، فلا يعمد الأسوار ارتداعاً مما يعني أنها كانت كلها مسقوفة. ونجد أيضاً ركائز صروح صميرة وحجارة مبعثرة هنا وهناك، غير أن الرحالة لا يميزها اهتمامه لأنها لا تواري الآثار الأخرى جسلاً. على مقربة من هذه البعثة نشاهد حوضاً طوله ثلاثة أقدام ونصف مردوجة وعرضه ثلاثة أقدام وارتفاعه قدمين عن الأرض. ونشاهد أيضاً صوب الجنوب، صف عمدة (ب، ح، د) يزيد طوبها عن ٨ أقدام مقاربة بالأصرحة التي وصفتها آنفاً. ويمكننا الوصول إليها عبر الأدراج يريد عدد درجات كل منها عن الثلاثين علماً أن علو الدرجة لا يريد عن ثلاث بوصات.

تداعت وجهة الأدراج جريئاً، ولكننا برى عليها بقايا صور حراب ودروع تكثر بين الامصاص، وصور اشجار الصور، وصور الأسد الذي بهاجم الفارن لأسطوري وتعطي رسومات الاشخاص السور مثيرة بالتالي فصول هواة الآثار القديمة.

(٥) كان الفارسيون القدامى يمدلون شعورهم، ويزينونه بأشياء غريبة وكانوا يحجون ارتداء العقود والاساور الذهبية،

أو الحجارة الكريمة، أو اللآلئ. كتاب *Einleitung in die Alterthümer von Moab* ص ٣٩.



إذاً لا يتجاوز ارتفاعها الثمانية أقدام، شأنها في ذلك شأن السلالم، غير أنه كان لها درابزيناً، تهدم مع مرور الزمن، هذا ما نلاحظه في صف الصور العلوي الذي لم يبق منه إلا نصفه. ويحد الدرج من الجهتين، صفان من الصور يبلغ ارتفاع كل واحد منهما قدمين ونصف. أما الرسوم التي نراها شرقي الدرج فقد نقتتها على اللوحة XXI، غير أنني حذفمت من كل صف ٢٧ صورة، لأنها تشبه كلها الصورة الأولى من حيث ارتداء الفرد فيها الثوب الطويل، وحمله الحقبة بيديه الاثنتين وإشير إلى أن الصف السفلي كان معطى بالتراب، واضطربت لمسحه، حتى انقل الصور، ولها السبب بالفتات، لم يرسمها شارين أو برين.

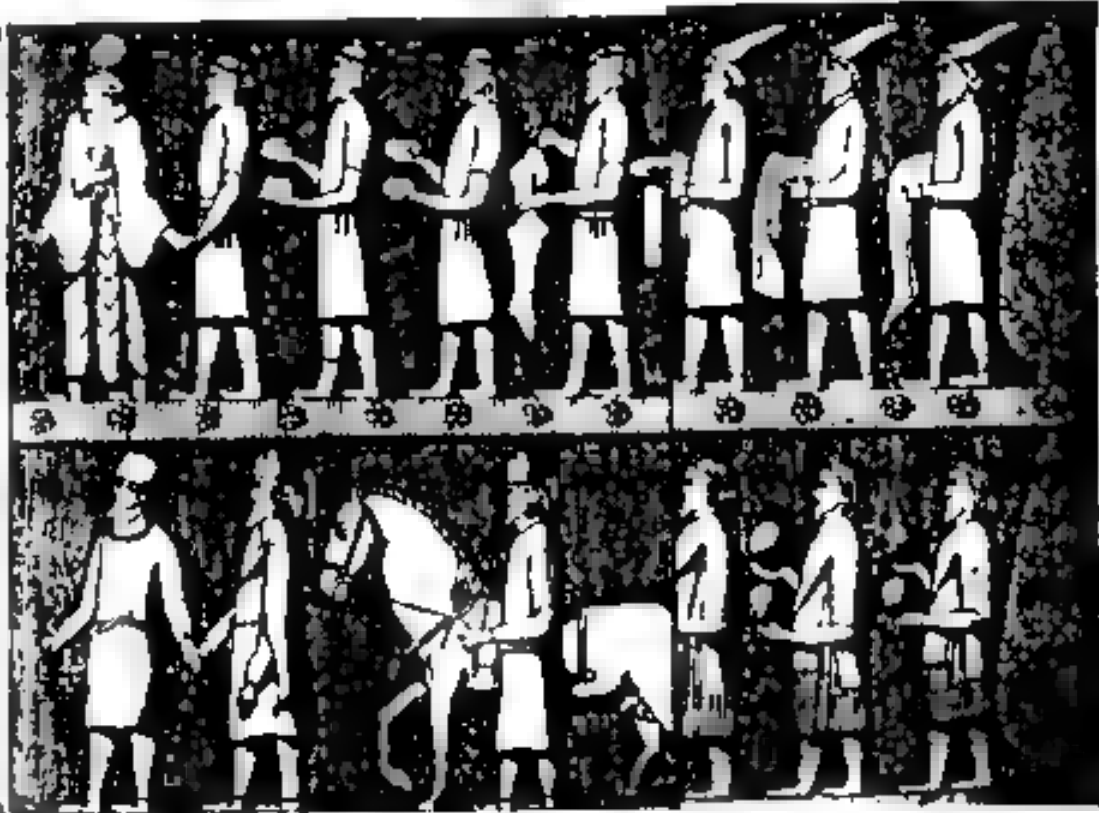
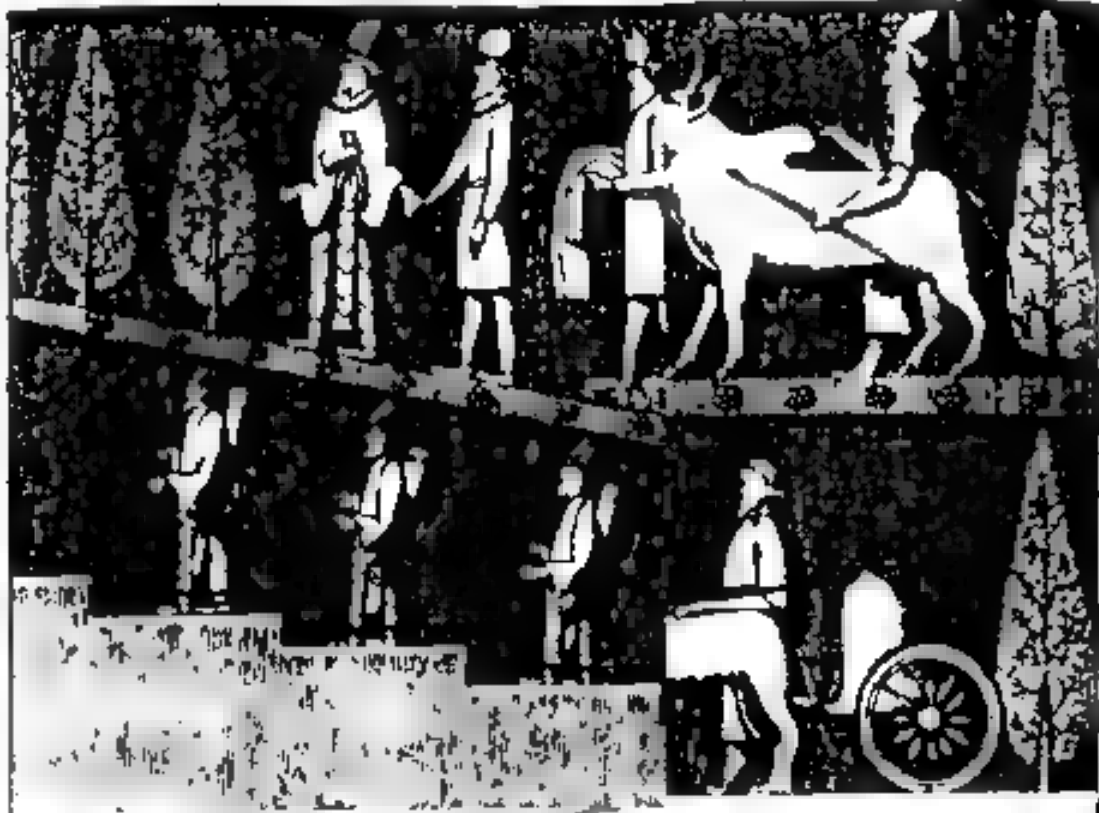
لقد نظرت تشابه هذه الصور إلى حد بعيد، رغم أنها مجرد فيها نوعين من الملابس، مختلفين تماماً، يشبهان ملابس الفرس التي تحدث عنها هيرودوتس وكزينت كورس، واكرونفون. ونجد أيضاً قبعات عالية، شبيهة بقاووق Kaudak الأتراك، باستثناء أن هؤلاء الآخرين يعمون حولها قماشاً قطعياً. والملفت للنظر أن من يحتمر هذه القبعات، يرتدي تحتها ثوباً فضفاضاً ومن يحمل الحقبة، يلف حبلًا حول رأسه. أما الباقون، فيحتمرون بعبه صغيرة، غير مطرزة، أو قلنسوة بها شريط كبير من الخلف، ويرتدون، ثوباً طويلاً، ضيق الكمين. والملاحظ أن لحاهم مرخية، وشعرهم كث، ويصنعون عقوداً حول رقبتهم، وخواتم في أصابعهم، وحلقاً في آذانهم كما وأنهم يصنعون حلزماً حول عصورهم ويحملون قوساً، أو سلاحاً آخر. غير أن خناجرهم ليست متشابهة، فمن يرتدي منهم الأثواب الطويلة يضعه في حزامه، أما من يرتدي الثوب القصير، فيتركه متدلياً على رديه.

من الصعب تحديد المعنى الحقيقي لهذه الصور، ولعلها تمثل مجموعة من الحراس، علماء أنهم مزودون جسيماً بالأسلحة، وما لاشك فيه أنها تدل على أشخاص كرمي النسب، يحملون في عنقه حاكم هذا المكان، أو بدي رجل دين ذي منصب مرموق، أو أمير مقيم في المنطقة، غير أن الأشخاص الذين يرتدون الأثواب الطويلة والمصفصة، يمثلون القادة، لأنهم يتصدرون الجميع، كما وأنه توكل إليهم مهمة حراسة مدخل الصرح، علماً أنهم يقفون دوماً عند عتبة الأبواب، حاملين الحرايب في أيديهم.

في الصف العلوي، حيث لا يبلغ عدد الصور نصف العدد الموجود في الصف السفلي، نشاهد قرب السلم (ب) (b) ٤٣ رجلاً، يرتدون الأثواب الطويلة ويحملون الحرايب، يليهم خمسة رجال، في ملابس مختلفة، وثلاثة أحصنة، وعربتان تجرهما الخيل. واطن أن ترتيب هذا الصف له صلة بالترتيب الوارد في اللوحة التالية.

نغني الصور (د) (d)، من الجهة الأخرى بالدرج (ب) (b). صوراً مختلفة، ولا أظن أن الآثار الأخرى تعرضت للتلف، بقدر أن هذه البقعة، فقد تعدت معظم الصور رأسها، رغم أن بترها





انقضى عنه كبيراً. لأننا نشاهد اليوم، بغيا قليبه منها، علاوة عن صور القبعات التي كانوا يعتمرونها، كما هو ظاهر في اللوحتين XXII و XXIII، وما لاشت فيه ان هذه اللوحة تمثل اعتماد الافراد لاستقبال العيد، غير انني اترك للآخرين عاء الاختيار بين القول انهم يحضون الهدايا أو المرامات لملكهم، أو انهم يحضون القرى لأحد المعابد.

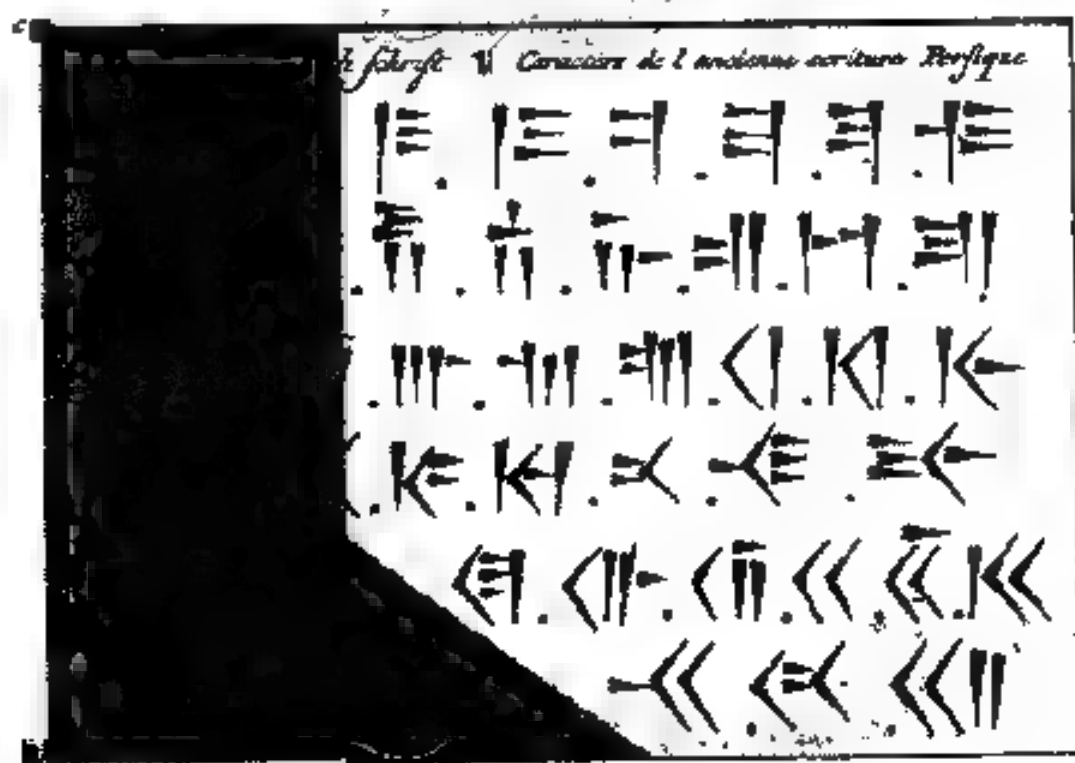
يتألف كل صف من عدة أقسام، تفصل في ما بينها أسجار المسرو. يرتدي الافراد في القسم الاول من الصف السفلي، الأبواب العلوية، نفسها التي تحدثنا عنها في اللوحة السابقة. ويحمل كل منهم جعة على ظهره وقوساً بي اليسرى، وخربة في اليمنى، مما يعني انهم يمثلون فرقة من الحرس. نجد في هذا المكان (كما على الجهة لآخرى من المروج) صورة على كل درجة، أي ٢٨ أو ٣٠ صورة، غير انني لم أرسم إلا ٦ منها^(٥) أنا في القسمين الآخرين، فلا نشاهد إلا صابطاً واحداً من الصابطين الذين براهما غالباً في اللوحة XXI. وفي اختصار، سأطبق على الصابط الذي يرتدي الثوب الطويل، لقب الاول. وعلى ذلك الذي يرتدي الثوب القصير، لقب الثاني.

في القسم الثاني، يقود الاول مجموعة من ٦ أجناب، حاملاً عصاً في يده (مثل رئيس التشريعات في شرار - (ص ٩٤) وممسكاً أحد الأجناب بيده الأخرى، واحا ان هذا الأخير هو ممثل المجموعة أو القبيلة أو الأمة. يحمل فردان من المجموعة، مرهتين في يديها، يسماً يصنع الآخر حائماً مستطيلاً، حفر عليه رامنا أسمى تتبع هذه المجموعة عربة خيل، حفرت جيداً على الصخر، حتى ان مسامر المعلة باررة للمية، وبشي سرج الخيل ذلك الذي شاهدته في القاهرة، في طاحونة تحركها الخيل، وفي ريد، على ظهر ثور. يستعمل في استخراج المياه من أحد الآبار والملفت للنظر في هذا القسم، انه يتدلى من الأدن اليسرى لأفراد المجموعة، حجر مرجاني، معق بهيظ وثيق.

في القسم الثالث من الصف السفلي، يقود الثاني ٦ أجناب إلى الاجتماع، وتحديد ذكره، لا يحمل خنجر أو يرتدي سترة بسيطة، أو كما يسميها الأثراك إنطاري Fntan، ولم كان هذا الذي يدل على مكانة صاحبه المرموقة أمكما الاستدح ان هذه السترة مصنوعة من جلد الحيوان، كما اعتاد العرس للقداسي، الأرستاء.

تبدو ملابس الآخرين أكثر بدائية، فأنوابهم شبيهة بتلك التي مرها في اللوحة السابقة و يعرف بالبش، كما وأن جواربهم مصنوعة من مواد خشنة (a)

(٥) يمكننا مشاهدتها في وصف شاردين لرحلته.



في القسم الرابع: نشاهد الأجانب عراة الرأس مجمدي الشعر، يرتدون جند الخراف ويتعلون احذية نصفية.

في القسم الخامس، يظهر الثاني في المقدمة، ويصف الأشخاص الذين يرافقونه حبلاً طويلاً حول خصصهم، ويصعرون عمامة على رؤوسهم. ويقود الأخير منهم مماماً. علقاً في عنقه جرساً صغيراً (تعلق اليوم هذه الاجراس، على الجمال والحمار وعصاه في الفواقل).

في القسم السادس يقود الاول ستة أشخاص من عامة الشعب، خمسة منهم شبه عراه. يلقون حول الرذلين قطعة قماش عريضة، وأخرى حول الحصر. شأنهم شأن عامة الشعب في البلدان المعارة

بضع الاول، الذي يمثل الشيخ أو النائب، قماشاً قطعياً حول كتفيه، بينما يسير الباقون شبه حفاة، ويتعلون في أرجلهم سلالاً خفيفة، محتلة عن تلك التي تتعلها العرب اليوم.

في القسم السابع (راجعوا الصف العلوي من اللوحة XXII) يقود الأول صديقه، وتتبعهما شخصيات مرتدية البيش، غير ان رؤوسهم تعرضت للتلط، وس أعرف ابدأ ان كانوا يعتصرون القبعات لم لا؟

في القسم الثامن، يقود الثاني ٦ أحانب، لقوا أجسادهم بقماش قطعي ابيض، شأنهم في ذلك شأن البدو، في بعض المناطق من شبه الجزيرة العربية، أما الثور الذي يحروبه فله حذبة على الظهر، شبيهة بحذبة دواب شبه الجزيرة العربية، والهند وبلاد فارس

في القسم التاسع، يقود الاول مجموعة من الرعاة، يرتدون ثوباً شيقاً، قصير الكمين، أما قصة شعرهم فهي شبيهة بقصة شعر سائقي الجمال. غير انني لاحظت ان احد الرعاة يرتدي جمدي خروف مدهوعين. يكثر في بلاد الشرق هذا النوع من الخراف الذي نراه مرسومواً هنا، فهي معطاة بالصوب شأنها شأن خرافاء غير ان البحات لم يحسن نقله، كما انه لم يحسن نقل وبر الاسد الكش.

في القسم العاشر، نرى ان الثاني هو القائد والمجموعة التي تتبعه، ترتدي الملابس التي يرتديها مجموعة القسم السابع، غير ان قبعاتهم مختلفة، وزعمهم بضع قوساً في حزامه.

أما سائقو الثيران في القسم ١١، (اللوحة XXII) فيرتدون ثوباً شبيهة، بثياب سائقي البغال في القسم السادس، باستثناء انهم يرتدون فوقها ثوباً طويلاً، فصلاً عن ان ثلاثة منهم يحملون حرباً.

(٥) يرتدي اليوم على القوم جوارب مصنوعة في انكلترا، وهي غير متينة الصنع مقارنة بجواربنا.

يقود الثاني مجموعة القسم ١٢، التي يرتدي أفرادها سراويل طويلة (شبيهة بثياب الأتراك) ويعقدون تحت ذقونهم قماشاً قطياً، يتدلى من حزام خمسة أفراد من هذه المجموعة، غمداً للأفواس، ويحمل واحد منهم عصراً واثنتين آخران معياراً حديدية، مما جعلني أضلّ انهما جنودان.

في الصف العلوي، نجد ٧ أقسام، أي شاردين على ذكر هذا الصف في اللوحة ٥٨، رغم أنه
 لم يقفها بمحاذيرها بلعب العسايطاك اللذان أشرت إليهما سابقاً، دور رئيسي التشريفات، شاهد
 في القسم الأول حصاناً، وفي القسم الثاني لبوة. وفي الثالث، أيللاً مُنْقِيَّ أَرْضاً، يرتدي لأجانب
 سترات قصيرة، وسراويل طويلة، بينما يصح واحد منهم على كتفيه، جند أسد. يتدنى ذنبه حلقه،
 شاهد في القسم الرابع أيللاً، وجند اسد أيضاً، وفي القسم الخامس ثوراً، أما بقايا صور القسم
 السادس فمشبهة بصور القسمين الثالث والرابع، يرى في القسم السابع، جواداً يبعث نظراً، خلف
 صفوف الصور هذه، النقوش (أ)، المنقولة في اللوحة XXXIV، عبارة عن رسم صراع القارن
 والأسد نقل كاسبغر وبرابن هذه النقوش، بصورة غير واضحة، رغم أن الأحرف بدرة جداً على
 اللوحة الأصلية.

تهدم السور، في اللوحة XVIII جزئياً، وأتلفت الرسومات التي كانت تغطيه، غير أننا نجد هنا أيضاً أقساماً مختلفة تفصل في ما بينها أشجار السرو وشاهد في كل قسم الصابطين المذكورين آنفاً، الذين يتراءون مجموعات الأجانب. أما الحيوانات التي تكثر صورها هنا، فهي الجمال والحياد، والثيران والطيوس.

علاوة عن ذلك، نشاهد هنا عربة الجياد، التي اشترت اليها أبعاً. وتنفذ نظرتنا رسومات الأرجل العارية، التي لم تتعرض حتى انطافرها للتدفق؛ أما السور فهو متداعج أكثر من السور، ولا يعبر المسافر أنيهاً برسوماته، رغم أنها تثير انفصـول قبالة السور، نشاهد مسخوراً ضخمة برسومات افراد يريدون الأرياء الصوية ويحملون الحرايب في ايديهم، ولعبها بقايا صرح منفصل، نصي الدهر على القسم الباقي منه.

يقودنا الدرج إلى مجموعة الأعمدة (ب. ج. د. هـ) التي لم يتبق منها متعصباً إلا ١٧، وقد وضعت دائرة على الحارسة، للإشارة إلى موقعها. يعبر الأعمدة قرب الموقع (ج) تاج شبهة بذلك الذي نراه في الصور (أ) من اللوحة XXV. غير أن معظمها تعرض للتلف مع مرور الزمن. رسمت قاعدة العاسودين د. هـ. في اللوحة XXV، ولاحظت أن العاسود هـ، يعلوه حيوانان، أو الأجزاء الأمامية لحيوان ماء، أغلته القرن الأسطوري، الذي نشاهد رسوماته. في كافة أنحاء المكان؛ مما يعني أنه كان يجسد رمزاً أساسياً للفرس الغداسي.

استعداداً للقياسات التي اخذتها يطلع ارتفاع ركائز الاعمدة (ج) ٤٠ قدماً، والاعمدة (د) ٥٢ قدماً^(٥٦).

لا نستطيع مقارنة هذه الاعمدة بعامود بومبي في الاسكندرية أو بركايز العرايت في قصر القاهرة، من جهة وزنها أو عظمتها، غير انها توازيها جمالاً، خاصة من حيث حجارها الصخرية، وطريقة وصلها ببعضها البعض. والجدير ذكره ان الجزء العلوي من إحدى ركائز الرسم (د) باتى بشكل بارز، وقد يقع ان حصلت هزة ارضية^(٥٧).

تضم صفوف الاعمدة هذه انقاضاً كثيرة، ففي بعض الأماكن، يرى الأرض مغطاة بالتراب، بينما هي منقطة بالمرمر الجسبي في أماكن أخرى. ونشاهد أيضاً بقايا قنوات محمورة في الصخر. بين صف الاعمدة ب وج. فضلاً عن أربعة أسوار، كانت قديماً مذاحل للمكان، ينظر بعض الرحالة ان هذه الاعمدة لم تكن مسقوفة يوماً، غير انني اظن ان المصطبة التي كانت تعلو الاعمدة ب ج. د، والتي لم يهد بها أثر، قد نقلت إلى پرسپوليس، الذي كان يعرف باسم إصطخر Istakr بعد أن دمر الاسكندر هذا القصر.

نشاهد من الجهة الجنوبية لهذا الصف من الاعمدة، صرحاً قديماً لم يتبق منه الا بعض الحجارة المربعة، التي كانت تعد لوضع الاعمدة عليها.

يريد ارتفاع الصرح (ر) في اللوحة XVII ثمانية أقدام عن صف الاعمدة، وبالنسبة إلى عظمتها مقارنة بالأبنية الأخرى، يبدو انه الأكثر حصانة واسواره ونوافذه هي المصقولة بشكل أفضل. ولما كانت الرياح تعصف قرب صفوف الاعمدة هذه، نلاحظ ان هذا الصرح محاط بالتراب، كما وان ارتفاع الركيزة ح (١) من الجهة الجنوبية للصرح، لا يريد عن قدمين ونصف. ونشاهد هنا أيضاً رسوماً ونقوشاً مغطاة بالغبار، ولو كنت أحمل معي مؤلفي شاردين وبرلين، لأدركت ان الرحالة السابقين لم يملأوها، ولمزعت عنها الغبار ورسمتها بنفسي، غير انني اركن هذه المهمة للرحالة اللاحقين. نشاهد في الركن ح (١)، درجاً تعلوه صرور لا يزيد ارتفاعها عن قدمين، ويظهر فيها الأفراد وهم يتسلقون الدرج ويحملون في أيديهم حملاً أو شاماً أو غيرها من الفاكهة. أما

(٥٦) في لوحات شاردين، لا تظهر الأقسام الواحد منها قناة الأخر، فقد رسم كل صف بكامله على ورقة على حدة، وبني بعدها ان القسم الذي أسبته السابغ، يقع قرب السلالم.

(٥٧) يقاس ارتفاع الركائز، استناداً إلى ظلالها، مما يعني ان القياسات التي ذكرتها ليست دقيقة، كما والتي رسمت تاج (ب) من اللوحة XXV بعد ان شاهده بالعين المجردة. (٥٨) يشير رسم تشيل منار المنظوري إلى ان هذا الجزء من الركيزة المذكورة غشي منذ أكثر من ١٠٠ سنة، مما يعني انه لم تحصل هزات ارضية طوال هذه الفترة.

ملابسهم فهي شبيهة بتلك التي يرتديها ضباط الصف الثاني.

من الجهة العربية للصرح يشاهد الدرج و (f)، وعلى قمته عمودين مغطيين برسومات كبيرة لأمراد يرتدون الثوب الطويل ويحملون الحرب. كما في رسومات السلم ب (h) خارج الباب (r). (Z)، نشاهد عامودين آخرين يبلغ ارتفاع الواحد منهما ٧ أقدام ونصف. ولعل الصورة الظاهرة عليها تعود لرجل دين مرموق، يرتدي ملابس شبيهة بتلك التي يشاهدها في اللوحة XXI، وهي أماكن محتلفة بين هذه البنايات، وأحاله يجسد العمانيين غير أن قبعته محططة، وعنفه محاصه بحفنة كبيرة، كانت قديماً معطاة بمعادن نسيئة؛ وشاهد على الكتف، والصدر واليدين، ثقباً تنزعت منها حلقات معدنية يرتدي الحدم ملابس شبيهة بملابس صيادهم، ويصنعون حلقات صغيرة في أذانهم شأنهم شأن جميع الذين يرتدون الأنواب الطويلة، ولكنهم لا يرحون بحاهم أو يحتمرون انقباضات انمايلة، أو ينفقون عناقهم بأسواق. نرى على الأركان الأخرى الصور الثلاث نفسها. علماً أن الشخصية الأساسية تحمل مرهية في يدها اليسرى (الصور (و) من اللوحة XXV) وفي اليمنى قدر معدنياً (الصورة (ن) من اللوحة نفسها) وهي وسط الصرح الأمامي، قرب الصورة (س ٤) مشاهد ابواباً كبيرة، وعلى الأركان (س)، شاهد الصور (ج) من اللوحة XXV، وعلى أركان الباب (ع) شاهد لصوره (د)، والتي تمثل شخصاً حاملاً شبلًا بين يديه، ويبلغ ارتفاعها ٧ أقدام ونصف.

يتألف هذا الصرح من ٣ أقسام يضم أحدها غرفتين (الصورة ٨ من اللوحة XVIII) تتراوح سماكة هذه الاسوار بين ٤ أقدام و ٩ بوصات و ٥ أقدام وبوصة غير أنه لم يبق منها إلا بعض المداحل والنوافذ، التي لم يتمكن الفرس من نقل اجرائها بسبب ضخمتها، خاصة وأن أركان الباب تتألف من قطعة واحدة فحسب. وشاهد قرب أركان الباب (ب) اللوحة (ج) (من اللوحة XXV) التي تمثل خادمين أحدهم يحمل مظل والآخر مذبة.

تعبر هذه الصور، التي ترتفع ١٢ قدماً عن الأرض، الموش (ب) (ج) (د) من اللوحة XXIV، المسحوتة بشكل مرتب. والملمت للظفر، هو أن كل واحدة منها تضم أبجدية محتلفة، تتردد في الركين الآخرين فيتضح لـ بالتالي أن الفرس بذو جهدهم ليحللوا أنفسهم من خلال نقوشهم، شأنهم في ذلك شأن المصريين القدماء، الذين نقشوا الأحرف الهيروغليفية على النصب العمودية. ومما لاشك فيه أن هاتين الأمتين عملتا إلى نقل أبجديتهما لـ، رغم جهلنا لرموز الأحرف الهيروغليفية المصرية ولأبجدية الفرس القديمة، فلو تمكن العلماء من فك رموزها، لاضطرر بسبب هذه الصور إلى حفرها مرتين. علماً أن معظمها تصرر وثقت بحرور الرمن.

كان لسواقد قديماً مصاريع، يستعمل في الطقس نسبي، لرد الأمطار والبرد والرياح، وتعلوها

كلها نقوش قديمة. دفعت بالرحالة للاعتقاد ان العرس القدسي يكتبون من أعلى إلى أسفل شأنهم شأن الصينيين.

لكن ان عاينا عن كتب، النقوش التي نقلها بعض الرحالة، وقارناها بتلك التي نقلتها بنعسي، لوجدنا ان المخطوط المستقيمة، مائة من الطرف، مما يعني ان عدد الأحرف ليس كبيراً، كما تدل عليه نسخ الرحالة السابقين جمعت في اللوحة XXXIII، أحرف إحدى الأبجديات، وهي لا تزيد عن ٤٦ حرفاً ونقلت قرب الأعمدة أ، ب، ج، د، هـ. في اللوحة XXVII، بعض النقوش الكوفية العربية والفارسية^(٥)، المحفورة جيداً في الصخر. أعطاني الممدعو جان فرانسوا روسو المولود في اصفهان، وامين سر السفير الفرنسي في البصرة الترجمة التالية، لنقوش ب، ج، هـ. فنقلتها لكم حرفياً.

ترجمة النقوش ب(**)

الله هو الحي الباقي وعلي أمير المؤمنين، كرم الله وجهه

ابن هم أولئك الملوك، الذين ملعوا وتجبروا وامهدهم القدر حتى هلكوا

كم من ملية رائعة ازدهرت وتوسعت فكان مصيرها الدمار ومصير أهلها الموت كتب هذا عبي ابن السلطان خليل، ابن السلطان حسام العام ٨٦٩ (١٤٦٤)

هذه كتابات اصغر الخلق، ابن حسين المسكين، عيد خليفة ملك الكون، مير علي عام ٨٨١ (١٤٧٦)

ابن هم الأمراء والقانحون القدسي

جمعوا كنوزاً لا تحصى فكان مصيرها القناء

ومصير أصحابها الهلاك

كتب هذا ابراهيم سلطان، ابن شاروك عام ٨٢٦ (١٤٢٢)

(٥) نجد النقوش الكوفية في كتاب Philosophical transactions observed الجزء ٣، القسم ٩، الفصل ٧، ص ٥٢٨، غير ان النسخ، نقل الاسطر الواحد ثلث الأعر، ومن اليسار إلى اليمين مثل الكتابات الأوروبية، حتى اننا لا نستطيع استعمالها. تعود هذه النقوش الكوفية إلى ٨٠٠ سنة، وهي ليست شديدة الوضوح.

(٥) هذه الترجمات مطابقة للكتابات الفرنسية الأصلية

ترجمة النقوش ج

اعلم يا انسان، ان الله هو وحده الحي السائد إلى ابد الآبدين.
ولمّا نشتهي جميعاً ثروات هذا العالم
غير ان مصيرها الروال لا محالة فلو منحت مملكة سليمان لمن طلبها.
صحيح ان المملكة بقيت على حالها وبكى ابي سليمان؟
هذه الدعرة، وهذه العظمة وهذه الكنوز التي لا تحصى
ما الذي احده معه سليمان؟
تحرلت كلها رماداً
فأي فائدة لجيها من الرماد؟
فكل طينة من تمثّل وجه انسان حر وكل قدم تطأ درية منكم فاكتموا بفم الخمر
لأن اعمالكم وحدها تشفع لكم
فمن كانت الفصيلة من شيمه ما التمس سواها
كتب هذا علي بن السلطان خليل، ابن السلطان حسن، أمره الله، سنة ٨٨١ (١٤٧٦)
بها لعمرة من الله ان امكن من الكتابة على هذه الحجارة.

ترجمة النقوش هـ

في شهر شوال من العام ٨٢٦ (١٤٢٢)، وفي ظل الأحكام العادية والمنزلة، التي فرصها حبيبة
الأرض، ومكها، أكثر أباطرة بلاد فارس وصوران عدلاً، حامي الحقيقة والدين، صاحب البطولات
والانتصارات، السلطان ابراهيم، برك الله ببلاده، ومملكته، تحول هذا المكان إلى أرض مقدسة اد
صبحت فيه الحجاب الحاملة لراية المملكة
نال كمال الدين عناق، اصغر مخلوقات الله، حظوة لدى الملك، بعد أن كتب هذا الكلام،
علماً أنه كان عبداً عنه.

كان يمتنى ان يلقى هذا الوصف رواجاً،

وان يضرب البعض للأولياء، لينالوا الرحمة والشفقة

نجد في السور الشمالي لهذه الغرفة، ثلاث نوافذ وبابين، أما الرسومات على الأبواب فهي
شبيهة ب تلك التي تراها في اللوحة XXXV، الصورة ج (٢) وهي تصم حاديين، يحمل واحد منهما،
مدينة، وقطعة نماش قطبي. من الجهة الغربية، نشاهد نافذتين وبابين، تمثل رسوماتها صراع بطل
فارسي قديم مع حيوان اسطوري، يبلغ طول هذا البطل ٧ أقدام و٤ بوصات. أما من الجهة
الشرقية، فنشاهد على الباب، صورة البطل نفسه في صراع مع أسد وفي الركن الجنوبي - الغربي



للصرح، نشاهد حجراً كبيراً طوله ٢٠ قدماً، نعلوه ٤ نقوش بربسيوليسية^(٥)، علاوة عن نقوش أخرى، نقلتها في اللوحة XXVII، الصورة (د).

والجدير ذكره أنه لم يبق من السور الجنوبي والعربي إلا نافذة متداعية، وباب (أ)، تعطيه صورتنا شخصين يريدان الأتواب الطويلة ويحملان الحراب. كما أنه لم يبق من السور الشرقي إلا جزء من حجر الراية. وأظن أن معظم حجارة هذا الصرح قد نقلت من هنا، إلى مضبة مجاورة لشيراز.

إليك ترجمة السيد رومر لنقوش الصورة (د) من اللوحة XXVII.

«لقد طبقت قوانين أفريدون رهاق (Zehak) وركام (Wakam) في الإمبراطورية والمملكة الفارسية لما تعرض عرشها للخطر وأصعبت الثورات.

غير أنه لا سبيل لمقارنتها بعرش سليمان، أعزه الله، والذي لم يبق منه إلا الرماد فقطي لمن أحس إلى غيره قبل رسيله.

فتعلموا أن تزرعوا شجرة الرأفة حتى تحصنوا السعادة والخير.

كتب هذا السلطان ابراهيم بن شروك العام ٨٢٦ (١٤٢٤).

لم يبق من الصرح (ح) في اللوحة XVIII، إلا آثار صحور، بيت عيني الأعمدة قديماً، نجد في الصورة (٩) درجاً معطى بالتراب، وسوراً حصيناً، عياً بالرسومات والنقوش، التي يظهر فيها الأفراد حاملين الحراب، والأقواس، والجمب، ونجد أيضاً بين الصرحين ح، وحد. ممرراً ضيقاً، جدراناً معطاة أيضاً بالرسومات.

نشاهد في اللوحة XXVIII منظرأ عاماً لبقايا الصرح (ط)، وإن قاربناها مع بقايا الصرح (ز) في اللوحة XXXI، نجد أنفسنا أمام خيارين، إما أن الحجارة سيئة، أو أن الصرح أكثر قدماً، ولعله البناء الأول، الذي شيد في هذا المعبد أو القصر. فارتفاعه يزيد بضع أقدام عن ارتفاع الصرح (ز). كما وأنه يقع على علو ٣١ قدماً عن السطح (ص)، وبالتالي ٥٠ قدماً عن الأفق، شأن شأن السور الأساسي، المبني على صخرة. يتألف السوران (ث) (و) من حجارة هذه الصخرة نفسها، ترك المهندس قرب السور (ت) سناً من حجارة الصخرة المذكورة، يتألف من ٥٢٩، لا يريد ارتفاع الوحدة منها عن ١٠ بوصات، مما يعني أن هذا السلم ليس مريحاً كالسلاسل الأخرى التي عثرنا عليها بين هذه الأنماط. ويبدو أن السلم الذي كان ميباً قرب السور (خ) قد نقلت حجارته كلها.

(٥) نقلها برين بشكل غير واضح



تمطي أرض العروة الأساسية في هذا الصرح، صحور خام، لا يريد ارتفاعها عن البوصتين وقطرها عن ٣ أقدام، خاصة في الأماكن التي توصل فيها الأعمدة، مما يعني أن هذه العروة كانت تحوي ٣٦ عاموداً، نقل معظمها إلى المدن المجاورة.

نشاهد وسط صف الأعمدة هذا، قناة للمياه محفورة في الصخر كانت هذه العروة مسقوفة قديماً، غير أن سقفها تهدم جزئياً.

للسور الشمالي بابان، سم تصبهما أصرار السنين، تبلغ سماكة ركاثرها ٣ أقدام و ٣ بوصات، وعرضها ٧ أقدام وبوصتين، أما طول المدخل فيتعدى ١٤ قدماً ونصف. وشاهد هنا أيضاً الصورة (ج) (٢) من اللوحة XXV التي تصادفها غالباً داخل الصرح (ز) (Z) فصلاً عن النقوش (م) (و) (ر) من اللوحة XXIV ونجد من هذه الناحية، خمس نوافذ، ثلاث منها بين المايين، وواحدة من الجهة الشرقية، أما نافذة الغربية فتغطيها الرسوم من الجهتين لم يتبق شيء تقريباً بين السور والجهة الشرقية، باستثناء ركاثر أحد الأبواب، أما الرسومات والنقوش الموجودة عليها، فهي شبيهة بتلك التي ذكرناها آنفاً^(٥).

كان لباب السور الجنوبي ثلاث نوافذ من الجهتين، تصم الواقعة منها على الجهة الشرقية، ثلاثة رسومات، على كل ركبة من ركاثرها، واحدة تجسد امرأة حاملة مرهية (صورة ج) من اللوحة XXV)، وأخرى تجسد رجلاً حاملاً مرهية، وثالثة، تمثل امرأة حاملة كمكة حوى بين يديها.

لم يتبق من نوافذ الجهة الغربية، سوى ركبة واحدة، شاهد عليها الرسومات نفسها التي أشرت إليها أعلاه. ونجد وسط السور الغربي، باباً سم يتبق منه لا ركبة واحدة، يظهر عليها الرسومات نفسها التي تحدثت عنها سابقاً، غير أن النقوش مختصة عن سواها ومن بين النوافذ الثلاث الواقعة من الجهتين، سم أحد سوى ثلاث ركاثر معطاة بالرسومات نفسها، التي وصفناها آنفاً.

شاهدنا شمالاً غره كبيرة، توازي الرواق كله طولاً، ويضم أحد جدرانها، باباً كبيراً، يحده من الجهتين صورنا رجلين يحملان حراباً ونجد هنا أيضاً ركبة نافذة، عليها ثلاث صور، فصلاً عن حجارة ارتفاعها ٢٢ قدماً، معطاه بقوش شبيهة بتلك التي رأيناها في الصرح (ر)، أنها تعرضت لأضرار الزمن يحد الرواق الكبير من الجهتين عدد واحد من العرف، تتألف الغرفتان الجويتان من ثلاثة أقسام متساوية، فهو كان هذا الصرح معيداً، نقلنا هنا عرف الكهنة. وشاهد على ركاثر النوافذ فيها، صورة امرأة، وحملها صورة رجل يمسك بقربي محبة. أما في العرف الأوسطي فنجد أثر أربع أعمدة، علاوة على صور شبيهة بتلك التي نقلتها في اللوحة XXV الرسم ج (٢)، غير أن معظمها تعرض لتآكل مع مرور الزمن.

(٥) لاحظ، في هذه النقوش، أن حرين من نهاية شطر الثالث، المحفور على أحد الأبواب، تظهر في بداية الشطر الرابع، على الباب الآخر مما يعني أنها كتبت من اليسار إلى اليمين، شأنها شأن الكتابات لاوردية



لم يتبق الكثير من الجدران الخارجية للعرف الشمالية، باستثناء السلم ن (N)، وأثر أربع أعمدة، وعل هذا السلم يشكل جزءاً من الصرح ط (T)، لأن المهندس بى ادراجاً جميلة تؤدي إلى الصرحين (ر) و(ح)، ولا أظنه نسي ان يجعل مثل ذلك بالنسبة إلى الصرح ط (T).

بنيت الأبراج (ن) (N) بطريقة مشابهة للأدراج الأساسية أو الأدراج الكبرى، أي نه روده في الوسط، يمكن استريح فيه من يتسلقه، أما المدرج الواقع بين الصرحين ط و ر، فهو معطى تماماً بالتراب؛ سيما الآخر مكشوف تماماً، ويتألف من ٢٦ درجة، وهو يضم صوراً مختلفة ونقوشاً عربية

غير ان معظمها تعرض للتآكل مع مرور الزمن. حفر بين هذين السلمين رواق طويل، شبه بقناة السب (٤)، بى قديماً قرب منطقة (م) صرح كبير لم يتبق منه اليوم الا ركائز ٣ أبواب أو نعلها جدران ٣ مداحل، تفوق جدران الصرح (ر) عظمة. شاهد على الجدران ث الصورة نفسها التي نقلها في النحتين XXX و XXIX. وهي تجسد فتاة جلسته على مقعد، حاملة كأساً في يدها، وعصاً في اليد الأخرى؛ وشاهد في الأسفل صور فتات رفعات ايديهن صوب الأعلى أم عني الركائز الثلاث لأخرى فنشاهد الرسوم ج ٢، من اللوحة XXV. غير أنه لم يتبق الكثير من هذا الصرح (الذي كان ذا شأن عظيم نظراً لمداحله)، سوى جدران أساسية، وقاعدتي عمودين كبيرين، أما الأجزاء الباقية فهي إما معطاة بالتراب، أو منقولة إلى مكان آخر

يضم الصرح ك، عرفتني محاسب، أما الجنوبية منها فلها أربعة أبواب، شاهد على ركيزة الباب لغربي صورة البطل الذي يصارع مع الأسد، علاوة على ثلاث نوافذ صغيرة، تهدم معظمها مع مرور الزمن ونشاهد على ركيزة الباب الجنوبي صورة رجل حاملاً الكأس في يده والعصا في اليد الأخرى؛ سيما يحمل خدماً من خدمه مدية في يده ومشدة في الأخرى، أم صورة الخادم لآخر سمطاة كلياً بالتراب تعني ركائز الباب انداسلي الصور (ج) (٢) من اللوحة XXV كما وبلغت الثانية بابان أيضاً تغطي ركائزهما صور رجال يحملون الحراب.

بعد الصرح (ل) كله الأكثر اتساعاً بينها، كله، هو كان صف الأعمدة ب ج د ه يشكل بناء واحداً، لشاهدنا في كل من الجهات الأربع مداحل، يمتاز الواقع بها قرب الصورة (ت ث) و(خ غ) بعظمته وروعته، وتبلغ سماكة السرر في الصورة (ث ث). ٦ أقدام ونصف، وهي توري عرض الأبواب التي نشاهدنا في هذا المكان.

(٥) يروي قريش هذه المنطقة، ان من كان يجر هذا الرواق، كانت تنطلق، شملت قبل ان يصل الى نهايته. ويضيفون انه يضم كنزاً عظيماً لا احد يستطيع الوصول اليها، لأنها مصادف في الطريق عجلة معطاة بالمار، تدور بشكل سريع حاملة معها كل من يدنو منها، لم يحاول المجازفة بالنزول الى هذا الرواق، لأنه تكبر فيه الافاعي والحيوانات المستعرة، علماً ان شردين جازف فلي بالنزول، وعاد خالي اليدين.

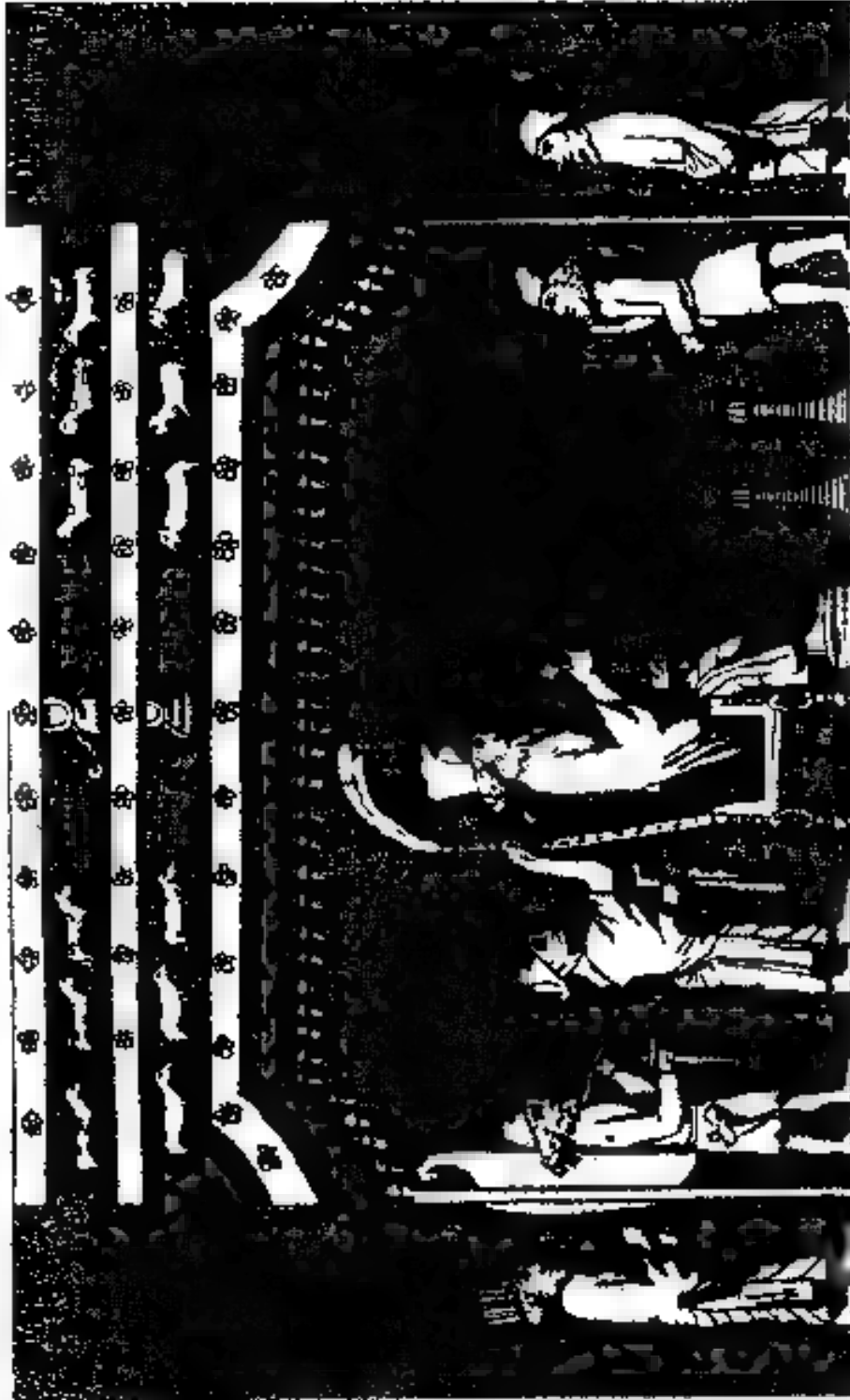
غير ان هذا السور لا يتألف من جزء واحد؛ فركائز الأبواب (ذ. ص. أ) و(أ. ب) و(ب. ب) تتألف من أجزاء كبيرة مختلفة، وصعت الواحدة منها فوق الأخرى بشكل أفقي. يعطي ركائز الأبواب الأربع، في الصرح (ت) الصور التي نقلتها على اللوحة XXIX. ويبدو ان الملك أو الرعيم الرومي، يقيم مجلساً هناءً أو يعقد المحاكمات، ويستعمل كرسيّاً عالياً، ومرفأة تحت رجليه^(٥). وهو يضع في يديه اساور ذهبية، بينما تبتع أو تاجه مغطى بالمعدن. أما صورة «شخص الذي يقف خلفه حاملاً مذبة، فأظلمها تجسد إحدى النسوة، لأنها تضع على رأسها وشاحاً أو حجاباً شبيهاً بذلك الذي تستعمله النساء الشرقيات. يسما يرتدي الخصيان ثياباً شبيهة بذلك التي يرتديها الرجال في البلاد الشرقية. أما صور الرجال المسطحين الذين تحاكي أزياءهم تلك التي نراها في اللوحة XXI، فلا بد انهم يمثلون الحرس الملكي.

نقلت في اللوحة XXX صورة إحدى ركائز البوابة خ خ XX، والتي يبلغ عرضها ٩ أقدام؛ والجدير ذكره هو أن مقاييسها كلها متوازية. أما أزياء الصور السفلية، للأفراد الذين يحملون عرش سيدهم، فهي مختلفة بعض الشيء، ولذلك جمعتها في اللوحة المذكورة. انه لغريب حقاً ان نشاهد هنا صور أشخاص يرتدون أثواباً طويلة تدل على مكانتهم المرموقة في بلاد فارس والفرنيقيا، كما واننا نستطيع التعرف عليهم بسهولة علماً ان شعرهم كث وشدهم غليظة.

ونشاهد في القسم العلوي، لمتدخين ت و (خ) صورا صغيرة تتمايل في الهواء. ويمكنكم مراجعتها في مؤلف شاردين علماً انني لم أشر اليها في لوحاتي. نشاهد على ركائز البوابة (د) البطل ج (٢) من اللوحة XXXV، غير ان منقار الحيوان الذي يمارعه معه ملوي، والبطل يمسكه بأذنه على البوابة (ض) نشاهد البطل نفسه يي صراع مع أسد، وعلى البوابة (أ) مع قارن محتج، وعلى البوابة ب ب مع القارن الأسطوري الذي نشاهد صورته محصورة على ادراج هذه البقايا كلها.

في السور الشمالي نجد بابين، وتسع نوافذ، حسبها أحد الرحالة أبواباً صغيرة، ويبدو انه لم يلاحظ ان علو الأرض زيد قدمين على الأقل بسبب التراب الذي نقلته الرياح إلى هنا من الجهات الغربية، والجنوبية والشرقية، نشاهد أيضاً نوافذ موهة، اي ان حمارتها لم يبق إلا نصفها، ويبدو ان هذا الصرح كان أيضاً مسقوفاً، ولعل النوافذ القمبية قد هدمت ونقلت إلى مكان آخر. نشاهد امام الصرح سورين كبيرين (ج ح) مغطيين بالحيوان الصخم نفسه الذي نشاهده على الأسوار (أ) من اللوحة XX. ونجد على ابواب هذا السور (كما على المداخل الأسماوية للأضرحة الأخرى) صور رجال حائلين الحرايب، أحبالهم يمثلون الحرس.

(٥) لا نرى اليوم كراسي مماثلة لدى الفرس، إنما هي تذكر عند الهنود



انه لعرب حقا ان لا يرى في الصورة ج (٢) من اللوحة XXV (التي تكثر في الصروح الأخرى) إلا صورة الرجل الجالس على كرسيه. ولعله، كاتب تقام في هذا الصرح محاكم غير دينة، أو مجالس لعرباء، نجد في هذا الصرح أجزاء اعمدة مبعثرة هنا وهناك

وقرب الصورة من اللوحة XVIII، شاهد حجارة باب، يوازي باب أ، وأ، ه عظمة علاوة على بقايا أعمدة مصقولة، وجرة من حيوان ضخمة، كان يستعمل حتماً ككاح لها. ويرى صرب العرب، مداخل واسعة، محاذية لسلم طويل، انه لشعور رائع ان يقاد الأجنبي إلى الصرح (ل) عبر هذا الطريق، بين اعمدة وأسوار من المرمر الجميل، كانت قدبماً مردانة بالرسومات ومصقولة جيداً. هذه هي بقايا قصر پرسپوليس الأساسية، الذي هدم منذ أكثر من ٢٠٠ سنة. أما الأجزاء التي يمكن استعمالها في البناء، فقد نقلت من هنا منذ زمن طويل.

مما لا شك فيه ان ما تبقى منها يثير إعجاب الجميع. فقد نقل العرس عن اليونانيين هندستهم المعمارية، من حيث ترتيب الصروح ونقشها، فهي مكذبة، بعضها فوق بعض كما وأن تعدد روايا سورها الأساسي شوه دائرته كلها. غير اننا لا نعرف كم من الوقت اقام فيه اصحابه، قيل ان يدرسه الاسكندر الكبير؟ وسواء أكان معبداً أم قصرًا، لا شك ان عدة مهندسين معماريين ماهمون في بنائه، لأن اصحابه من كهنة أو علمانيين، كانوا يريدون عند الصروح، كما ازدادوا ثراء، وازدادت حاجتهم للخدم.

يقول لوبراين، ان عند الرسومات، التي سجدها اليوم بين هذه الآثار بحوالي ١٣ ألفاً ررعم نبي لم أتكد عناه عده، لا أظن ان هذا الكاتب قد بالغ في العدد، ولا داعي ابداً لقلها كلها، نظراً لتشابهاها الكبير. نجدون في لوحاتي، صور الأرباء التي شاهدها هنا، أما صور الحيوانات الاسطورية، فهي متوفرة في مؤلفي شاردين ولوبراين ولا أحوال أن العلماء قد يحتاجون لرسومات أخرى عن پرسپوليس^(٥). ولكنني أرجو من الأوروبيين الذين قد يزورون هذا المكان لاحقاً، ان

(٥) عند انطلاقتنا، سم تطلق الامر بالدخول الى بلاد فارس غير ان لاحظنا في مصر، أنه من الافضل لنا ان لا نحمل الكثير من الامتعة خلال رحلتنا الى شبه الجزيرة العربية، فأعدنا الى القاهرة للكتب، التي حسبنا ان نحتاج اليها لهذا السبب لم اكن احمل معي اي وصف لپرسپوليس، باستثناء وصف كامبر بها في كتاب Amant's Egypt، ولم استطع بالتالي مقارنة الرسومات الأصلية بتلك التي نقشها الرحالة المذكوران اعلاه غير ان رسوماتي مختلفة عن رسوماتهما وعلى الرحالة اللاحقين ان يحكموا على مصداقية كل من غير اسي لا رافق على نقد لربراني لرسومات السيد شردين، لأنه نقل اولاً الرسومات بنقش الرصاص ولولها لاحقاً بالحبر مما أدى الى تغير معالمها بعض الاشياء وكان من الافضل له ان يمتنع عن نشر ملاحظاته حول شاردين وكامبر لأنه يتقدها للدفاع عن رسوماته حسب

ينقلوا الفوش القديمة الموجودة، وبشكل واضح تماماً، حتى تستطيع تمثيل الأحرف كلها كما في الصورة الأساسية. فهذا ما لم يقم به كمبر وشاردن ولورانس، ولهذا السبب بالذات لم يسع أي عالم لتفسير هذه الفوش. سأصعب على النوحة XXXI أربعة نقوش، ط ح، ك، ل، وجدتها وسط السور الجنوبي الأساسي، يبلغ طول الحجرة المنقوشة عليها ٢٦ قدماً، وارتفاعها ٦ أقدام، مما يعني أن الأحرف واضحة تماماً، رغم أنها تضم ثلاث أبجديات مختلفة.

نصف الصرح (ل)، وعلى ارتفاع جبل راشمد قرب الصرح ع من اللوحة XVIII، نجد صرحاً آخر، رائع الجمال، لم يتعرض لأضرار السنين، وهو يتنير بوجهه الساحرة التي تصمم صوراً وأعمدة وغيرها من الأشكال الهندسية الجميلة، كما وتكثر فيه الحجرة المنقوشة التي تدل على أن هذا المكان كان يتألف من صروح متعددة، بنيت بعضها إلى مكان آخر، أو أنها كانت تستعمل كسلم للوصول إلى الصروح المذكورة. كانت عياني قد أنهكتنا من جراء التكيات على رسم انقاص هذا القصر، ومن نقل الفوش كلها، خاصة المحفور منها في الأجزاء العليا، والتي لا تقرأ بسهولة، حتى أنني لم أجزئ على رسم هذه الواجهة الكبيرة، وأظن أنني تكبدت ذلك العناء سدى، علماً أن هذه الرسومات متوفرة في عدة مؤلفات أخرى. والملاحظ أن الصور التي نشاهدها هنا، تتشابه مع تلك الموجودة في القصر، مما يدفعنا للاستنتاج بأن السيد الذي بنى هذه الواجهة يعتقد الديانة نفسها التي يعتنقها باقي القصر أو السيد. لكن إن كانت تلك الديانة تعرف بالزردشتية أو ديانة عابدي النار، فهذا يشير إلى شيء، ففي معبد المجوس، التي نشاهد المعابد منها في بلاد فارس والهند، يقف الكاهن أمام النار المقدسة، ليؤدي واجباته الدينية، وأحياناً قطعة قماش أمام قمع، حتى لا يندس النار بيناه. أما في الصرح الذي يعلو هذه الواجهة، فيقف الكاهن أمام المذبح، حيث النار المشتعلة، ووجهه مكشوف كلياً، ويحمل في يده شيئاً، يحرك فيه أناراً. نشاهد في الصورة المحفورة هنا، قوساً في يد الكاهن، علماً أنه لا يستطيع استعماله لتلك الغاية. كانت الشقوق المبنية خلف هذه الواجهة، تستعمل لإقامة مراسم الجازات، وقد بنيت معلقة من الخارج، لمدة طويلة، إلا أنه تم خلعها، غير أن مجوس اليوم لا يدفعون أموالهم، بل يتركون عصفير الصنوج لتلتهمها.

ولكن هذه لأهية الأثرية، هي أكثر قدماً من عادة الفرس، الذين نقلوها عن المجوس، وحتى ملوك بلاد فارس، الذين كانوا من عبدة النار، كانوا يسمون للحصول على الإذن بدفعهم بعد موتهم. كما وأنا نجد في الهند، طبقات اجتماعية مختلفة، يعشق أهلها الديانة نفسها، فبعض يحرق جثث أمواتهم، والبعض يدفنها، والبعض الآخر يرميها في المياه. ولعن مصير جثث ملوك بلاد فارس واسيادها كان مختلفاً عن مصير جثث أفراد الطبقات السفلى. وتحسد هذه الصورة



[illegible]

الموجودة هناك، أميراً علمانياً، يقف بعيداً عن المذبح حتى لا يؤثر لهاته على هذا المنصر.

قرب الصورة فد من اللوحة XVIII، نشاهد خزاناً (أو ينبوعاً أو سواه) محفوراً في الصخر، يبلغ ارتفاعه ١٢ قدماً مربعة، وعمقه ١٣ قدماً، يبدو أن فتحه العليا كانت مغطاة كلياً، كما وإن الثقب التي نشدها في الصخر، تدل على أنها كانت قديماً أبواباً تؤدي إلى صرح م. ونجد هنا أيضاً قنوات للمياه محفورة في الصخر.

نشاهد نحو الجنوب، وأجهة مكان آخر تقدم فيه الحمايات شبيهة إلى حد بعيد بالواجهة الأخرى، رغم تعرضها لأضرار السنين. دخلت إلى هذا المكان بسهولة فائقة، غير أنني دهشت لرؤية غرفة مستطيلة، كانت تحوي ماء؛ مما لا شك فيه أن بناء هذه الغرفة الصغيرة يتطلب عناء ومالاً. علماً أنها محفورة عامودياً في الصخر، ومزدانة بالتماثيل. ولكن لماذا بنى المصريون الأهرام؟ لم نجد فيها سوى عدداً بسيطاً من الغرف، لا أظن أن صرحاً بهذه المظنة يبنى من جانبها، علماً أن تكاليفها باهظة وبناءه صعب.

على بعد ربع فرسخ جنوباً حفر الصخر بشكل عامودي؛ وبني عليه منحدر، فنقلت الحجارة من هنا لتوضع على أعين الواجهة ونقشت على الصخر نفسه هذه الرسومات. غير أن أحداً لم يجر هذه الأعمال اهتماماً. وتلفت نظرياً صورة جسم مستدير يلوح في الهواء، أظن أنه يجسد الشمس وصورة شخص يرتدي ثوباً طويلاً ويقف أمام المذبح كلياً؛ ولعل فوساً في يده، لم يتم إنجازها كلياً، ولعل المقاول توفي قبل انتهائها أو أدخلت إلى بلاد فارس ديانة جديدة. في هذه الأثناء، انتزعت الحجارة من الصخر، دون أن تنقل كلها.

نشاهد في الوادي، في الجهة الجنوبية - الغربية من القصر، بقايا صرح مهدم، يتوسطها عمود منتصب، ترون صورته في اللوحة XIX؛ وأظن أنه العمود العشرون المنصب بين هذه الأنقاض كلها أم صوب الشمال؛ فنجد ركائز أبواب، متفة البناء، لتلك التي أشرت إليها أعلاه. وتكثر عند أسفل الجبل، الحجارة المقطعة من الصخر، والتي تستعمل لبناء القنات المحفورة في الصخر. في منتصف الطريق الذي يفصل بين هذا القصر وبقايا إسطخره Istakr، نجد غرفة محفورة في الصخرة، لا سقف لها ولا جدار أمامي؛ أما الجدران الثلاثة الأخرى فمغطاة برسومات كبيرة، تختلف من حيث أساليبها عن رسومات تشيل - ماز. وتشاهدون في الصورة (١) من اللوحة XXXII، الرسومات المحفورة على السور الشمالي؛ وانصفت للنظر أن رأس الصورة الأساسية التي اسمها قاضي البلدة رجب Rodgab، فضلاً عن رأس الجواد، قد شوهت بعنف؛ أما الرسم المنحوت خلف الجواد فيبلغ ارتفاعه ٨ أقدام ونصف. نجد على هذا السور السطور الأربع (١)، من اللوحة XXVII، أمام الجواد، أما (٢) و(٣) فهي مرسومة على الجواد نفسه، ولا أظن أن

المعلم الذي حفر هذه الصور، قد رسم هذه السطور أيضاً لأنها حديثة^(٥)

إن الصور السفلية من الأحرف اليرناتية، هي أيضاً حديثة، ولكنها تالفة تماماً. نقلت رسومات الصور الشرقي، قرب الصورة (ب) من اللوحة XXXII، رغم أنها تعرضت لأضرار السنن. ونشاهد هنا شخصين يتقاتلان حول حلقة، يتدلى منها شريط أحمر، ويقف بينهما طفلان صغيران فصلاً عن ثلاثة أشخاص يمثلون النساء. أما على الصور الجنوبي، فنشاهد صورة شخصين على الحصان، يتقاتلان أيضاً من أجل حلقة. لم أحاول نقلها نظراً لتعرضها للتآكل، غير أنني أظنها مشابهة لتلك التي أشرت إليها في الصورة (ج) من اللوحة XXXIII

عنى بعد ميل ونصف من تشيل - مار أو من قصر برسيبوليس؛ أي عني بعد ٤/٣ الميل شمالاً و ٤/٣ الميل شرقاً، نجد بقايا إصطخر (أي مدينة برسيبوليس)، وهي تجسد بقايا القصر الذي طبقت الملكة بحومي Homi بناءه في هذه المدينة؛ علماً أن طرازها شبيه بطراز تشيل - مار ولا تبعد هذه البقايا كثيراً عن مقبرتي نقشي رستم اللتان تعدان علامتين عميرتين في هذا القصر

نشاهد في هذا المكان عامودين مستقيمين، يشبه تاج أحدهما ذلك الذي نراه في الصورة (أ) من اللوحة XXV بينما يعلو الثاني جزء من حيوان مفترس. تحيط بهذين العامودين بقايا أعمدة مهدمة، وبعض الفروع، التي سم نقتل من مكانها. وجدت في سور صرح مجاور لهذين العامودين، حجارة يبلغ طولها وعرضها ٩ أقدام وسماكتها ٤ أقدام. تتألف هذه الأبنية كلها من المرمر الأسود الصلب، الذي يكثر بين بقايا تشيل - مار أيضاً. نجد عند أسفل الجبل وكثير الصخرة متداعية، وبعض الحجارة المتكدسة فوق بعضها البعض، وكأنها كانت قديماً باباً.

تقع بقايا قصر الملكة بحومي في وادٍ عميق وعصيب، بين جبلين شاهقين، وبمحاذاة نهر صغير، يهبط عليه العرس اسم (Polwar) بلور، يصب في الأراكس. يبلغ طول هذا النهر ٤/٣ الميل، امتداداً من هـ إلى الوادي الكبير، حيث يقع تشيل - مار، وأظن بالتالي أن مدينة «إصطخر» أو برسيبوليس تقع بين هذين القصرين.

تقاد مياه النهر عبر القنوات الصغيرة، إلى الأرياف الحصينة المجاورة لم تهدم برسيبوليس دعه واحدة، مثل قصر برسيبوليس، ففي عهد الحنفاء كانت «إصطخر» مقر حكمهم. وإن احداً بعين الاعتبار موقع برسيبوليس، بين الجبال وفي سهل عصب، واقتدار السكان إلى الدوق الربيع، في الهندسة المعمارية، وإقدامهم بالتالي على تدمير قصور أجدادهم وبناء منازل متواضعة مكانها، لن

(٥) إن النقوش (و) هي الأكثر وضوحاً مقارنة بنقوش انقاص تشيل - مار تختلف الأحرف قرب الرسم (و) (ز)، رغم أن بعضها يشابه بعض الشيء. يستطيع هؤلاء اللغات استعمال إحدى الأبجديتين لتسمية الأخرى.

نتفاجاً أبدأ، ان لم يتبق من صروح هذه المدينة الأربعة، سوى بعض الركائز، والحجارة الكبيرة، التي تعدل نقلها إلى مكان آخر.

نشاهد شسالي نهر بلور (على مقربة من پرسپوليس أو إصطخر) مداس الملوك المعروفين والمنقبت لمنظر ان طبيعة الصخرة المدساء ساهمت في جمعها واجهه لهذه المقابر دون بدل عاء كبير. غير ان هذه الأضرحة لا تصاهي تلك التي قرب القصر المذكور جمالاً وروعة، رغم انها كلها متشابهة من الخارج؛ تتميز مدخلها بعلوها وارتفاعها عن الأرض، إلى حد اننا لا نستطيع الوصول اليها دون الاستعانة بسلم، ولكن لم نسمح لي الفرصة لاتخاذ هذه التدابير كلها. بيد اني علمت في السنة التالية ان السيد هيرمبل، رار پرسپوليس ثانية، وكتب لي تفصيلاً عما عثر عليه داخل احد الأضرحة. وجد غرفة طولها ٤٠ قدماً وعرضها ٢٠، وفي جدارها الداخلي ثلاث كوات، وضع في كل منها صندوق ارتفاعه ٤ أقدام، وطوله ٩، وعرضه ٨، مغطى بحجر كبير مسطح. ولما كنا نعتبر هذه العرف مقابر، خطر للسيد هيرمبل انه قد عثر في داخلها على توبت الموماء؛ فأخذ معه مطرقة ومنقباً لفتح التوابيت. غير انه اكتشف ان تعب ذهب صدي، خاصة وان الرحالة السابقين، ثقبوا الغطاء. ليسرروا عبره ايديهم، حاملين المصابيح؛ وبعد ان حدا السيد هيرمبل حدودهم، لم يجد في الداخل سوى التراب.

يمكننا بالتالي الاستنتاج ان هذه التوابيت لم تحو جثثاً أبداً، فس خلال وصف السيد هيرمبل، يتضح لنا أن نقوب الغطاء صغيرة بلعية، ولا يمكن اخراج الجثث عبرها ونقلها إلى مكان آخر؛ كما وان عرض هذه الصناديق لا يتناسب مع طولها، شأنها شأن التوابيت الحجرية التي نجدها في مصر، وأرض المهاد واثولي، واليونان، ويبدو لنا جلياً ان هذه الصناديق لم تصنع لتبني فارعة، بل كانت للاحتفاظ بالاشياء الثمينه فيها، وخاصة تلك التي نعل بسهولة. غير ان هذه العرف المشحونة في الصخر، كانت مخصصة لدفن الجثث، وخاصة جثث الملوك، حفاظاً على ذكراهم، شأنهم شأن ملوك مصر، الذين دفنوا في تلك الأهرام الصخمة. ورغم اننا لا نجد اليوم بقايا اجساد ميتة، لا نستطيع القول، ان هذه الصناديق لم تحو جثثاً أبداً. فمثل هذه العرف قد فحنت منذ زمن بعيد، وسرق القرويون المقيمون في هذه المنطقة الجثث التي لم تهترى بعد.

تكثر قرب هذه القبور الجميلة، الرسومات الكبيرة المحفورة على الصخر، والتي تمثل مآثر يطل بلاد فارس القديم، المدعو رستم؛ وهي تسمى نقشي (أي صورة) رستم^(٥)، وأظن ان وجهات

(٥) يقول هيرودوت في كتابه الثالث، ص ٨٣، ان داريوس طلب صنع منال له؛ وهم معتبط جواده. وبعل هذه الرسومات التي نشاهدها هنا وهناك، في بلاد فارس، والتي تعرف كلها باسم رستم، تجسد ملوكاً قدامى.

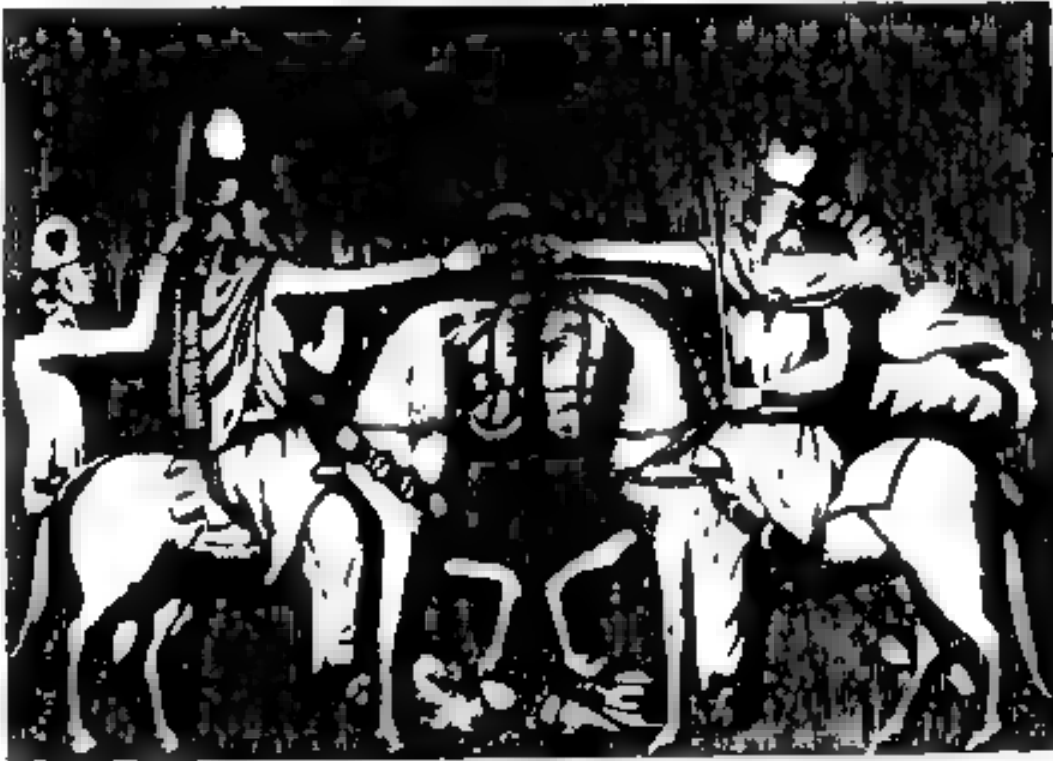
المناظر هي أكثر قديماً، لأن أسلوب الرسومات يحكي أسلوب رسومات تشيل - منار أو قصر جمشيد. بجدول في اللوحة XXXIII صورتين للمدعو رستم في الصورة (ح)، مشاهد صراعاً ورياً من نوعه، بين البطلين الذين نراهما واقفين في الصورة (ب) من اللوحة XXXII، من حول حنقة.

يسمى سكان قرية تشول Tchul القرية من هنا رستم سال، حامل العصا في اليد اليسرى، ورستم كنداس، خصمه الوديع أمامه؛ يرتدي كلاهما سراويل طويلة تصل إلى أسفل أقدامهما لا يملك الفرس القذاسي ركاباً، ويكتفون باستعمال سرج عادي. ولكنني لم أستطع أن أحرر سبب تدلي تلك الكرات من اعناق الجياد، رغم أنها كانت تعيق سيرها. يتميز اللجام بالحزام الجلدي المعلق فيها، الذي يمر فوق فم الجواد. أما الشخصيان المستقيان لوضاً، فلا نشاهد إلا الجزء العلوي منهما، بينما يفرق الجزء السفلي تحت الصخرة. في الصورة (د) يرتدي الشخص الذي يقف أمام الجواد ثوباً صيقاً له كمس طويين، شبيه بذلك الذي يرتديه اليهود؛ فعد وصولهم، يتزلون أكتافهم ويخطون بها أيديهم، ليعيدوا دفعها عند انتهائهم. أما ما تمثله هذه الصورة كنها، فترك لبيايين هاء تحديد ذلك. نشاهد على هذه الصخرة، صوراً أخرى للمدعو رستم، غير أنني لم أنقلها كلها، لأنها ثابتة بمس الشيء، كما أنني كنت أنهدف للعودة إلى شيراز، خاصة وأن عادمي أصيب بمرض عضال أدى إلى وفاته.

خلف صورة الجواد (د) في اللوحة XXXIII نشاهد لوحة كبيرة، حفرت فيها نقوش غريبة، تعرض معظمها للتآكل، ونقلت جزءاً منها (ثلث العرض، ونصف الارتفاع)، أي مدس البوحة المقوشة) في اللوحة XXXIV؛ وهي عبارة عن صفوف منقطعة. لا نستطيع فهم فحواها، غير أن العلماء يستطيعون، بواسطة هذه الصورة، أخذ فكرة عن الأبجدية التي كان يستعملها الفرس يوم حفرت هذه الصور، ورغم أن النقوش الأخرى التي سنشاهدها في نقشي رستم تعرضت للتلف، نقلت بعضاً منها في اللوحة XXVII.

إن مما أنظر في النقوش التي نقلتها من منطقة برسيبوليس، في تشيل - منار وفي نقشي - رستم، لا أقل أنه قد يتوزع هذا العدد من الأحرف المختلفة، في منطقة أخرى من العالم مما لا شك فيه أن الأحرف التي نشاهدها في اللوحين XXIV و XXXI هي أكثر قديماً من تلك التي نقلتها من قصر جمشيد (تشيل - منار)؛ فهي تكثر بين الرسومات، في أماكن خاصة. اعتبر العلماء هذه الكتابات هروغليفية، أسناداً إلى رسومات الرحالة السابقين؛ بيد أنني لاحظت أنها تتألف من ثلاث أحجيات مختلفة كدياً، جمعناها كلها في اللوحة XXIII، في الصور أ.ب. ر. ح. ط. أما النقوش ج. هـ. ك. و (د) و (و) فهي مكتوبة بأحرف أكثر تعقيداً. وتبعاً لدرجة قدمها، تأتي أولاً





أحرف اللوحة XXXIV، وتليها خطوط الصورة (و) لأربع، والنقوش ط، في اللوحة XXVII وتبعها السطور الأربعة (ر)، وبعض سطور النقوش ط من اللوحة XXVII.

والجدير ذكره أنني كنت أجهل كلياً الأحرف التي تحدثت عنها حتى الآن، كما أنني لم أقع مرة واحدة على أحرف الأبجدية د و هـ من اللوحة II، والتي أخذتها عن أسلاف الفرس الهنومي، الذين استقروا في نهند. يقال أن الأبجدية الأخيرة قديمة؛ غير أن تلك التي عثر عليها في پرسپوليس هي أكثر قدماً، حتى أن الفرس عيروا بحرفها مرات عدة. «إد اليونانيون أن يخلدوا أسماءهم هنا أيضاً، غير أنهم لم يتقوا غمهم جداً، وحفروا بقروشهم على الأحصنة، عنماً لها تعرضت للتآكل مع مرور الزمن. نبي هذه النقوش، الكوفية والعربية والفارسية؛ حتى أسا عشر في نفشي ومنم على أحرف عبرية (اللوحة XXVII، «سطر الأخير)، واطن أنني رأيت أحرفاً مماثلة بين انقاض تشيل - منار. ولكسي لا أستطيع أن أدرج هذه الأحرف، وأسماء بعض لأورويين في عداد النقوش، فقد عثرت في تشيل - منار على اسم لوبراي مكتوباً بالطلشور الأحمر.

أمام الجبل الذي يضم مقابر الملوك، وصور مأثر البطل ومنم، شاهد صرحاً صغيراً من الحجارة البيضاء (وليس من المرمر الأسود الجميل الذي استعمل في بناء القصور)؛ تعطي هذا الصرح حجرتان كبيرتان، ساهمتا إلى حد بعيد في الحفاظ عليه، فلا أحد يستطيع نقل الحجارة السليمة، دون أن يتعرض لحظر وقروح الحجارة العلوية عليه. أما البوابة، فليست مربعة كثيراً عن الأرض، ويمكن الدخول منها بسهولة، لأنها لم تعرض للتآكل.

ولا نجد فيه سوى عرفة صغيرة مساحتها ١٠ أقدام مربعة، وبعض الثقوب في الحجارة، كاس محصنة بمفصلات الأبواب كما وبه خال من البوابة، ولا يدخل إليه نور إلا عبر فتحة الباب، المجدور بنصخرة. أما القسم السفلي من هذا الصرح، فيس مقسماً إلى عدة غرف، بل يبدو وكأنه ردم من البنية؛ ولا أحوال أن هذا الصرح كان محصناً للسكن بل هو عبارة عن مبرة، أو كنيسة صغيرة، بوضع فيها جثث الأموات، قبل نقلها إلى «صروح الكبيرة».

فراحت في الكتب الأخرى، التي تحدثت عن سير الرحلات، عن عامود صغير على قمة الجبل، ولكسي لم أشاهده إلا من بعيد يقول هيرودوتس في كتابه الأول، أن الفرس اعتادوا تسبق أعالي الجبال، لتقديم الضحايا للشمس والقمر والأرض والنار والسياء، والرياح؛ ولعن سكان پرسپوليس كانوا يرتقون هذه الصخرة، للفاية نفسها، علماً أنها تطل على منظر جميل للوادي الواقع في الأسفل.

نشاهد، على طريق قرية تشول Tehul صرحين منحوتين في الصخر، ولعلهما ضريحين وليين مسلمين.

على بعد ثلاثة أو أربعة أميال غرباً، نشاهد ثلاثة قصور، تعرف بنقعة إصطخر، ونقعة شيماسني و...^(٥)

وبرغم ان الاول يقع في الأسفل، والثاني في الوسط والثالث في أعلى الجبل الوعر وما كتب قد أهدت زيارة هذه المنطقة، لا أستطيع القول ان كان الفرس القدماء قد بهوها، أو المسمون، غير انها الأكثر عظمة وتستحق ان يزورها الأوروبي.

ان ارتفاع القطب في مدينتي برسيبوليس ومعبس مساوي تقريباً، غير ان عاصمة بلاد فارس كانت تفوق عاصمة مصر ارتفاعاً عن سطح البحر، مما أدى إلى برور اختلاف كبير بين مناخيه البلدين؛ خلال إقامتي في برسيبوليس، هطبت الأمطار في ٢٧ آذار/مارس، و ١ و ٥ نيسان/أبريل، ورغم ان الجليد عم المكان في ٢ نيسان/أبريل، إلا انه ذاب عند الساعة ٨ أو ٩ صباحاً، بعد شروق الشمس. نشاهد على أعالي الجبل، الواقعة عربي الوادي، بعض الشج بين الحين والآخر؛ في المقاب، لا تمطر السماء إلا لمام في معبس، كما وان سكانها لا يعرفون الثلج أبداً

وفي نهاية المطاف، أود التحدث قليلاً عن سكان هذه المنطقة الحاليين، وعن إقامتي بينهم كنت اقيم في قرية مردوت Merdast، التي تقع على بعد ساعة تقريباً، جنوبي تشيل - مصر، أما منزلي، فكان شبيهاً بشارل القرويين، وهو يعرف من بحان القوافل، حيث يهرل بعض الرحالة الذين ينقلون من قرية إلى أخرى، حاملين معداتهم البدائية، وطالبي عملاً. كان سكان مردوت، وغيرها من القرى المجاورة. يأتون غالباً لزيارتي، وفي ايام الأعياد، كنت استقبل النساء والعتيات، اللواتي يشرن بفصول كبير لرؤية رجل أوروبي

والجدير ذكره، ان هؤلاء السكان في عبة الاخلاص والوفاء، وكنت اضمر بالارتياح بينهم، كما لو اني مقيم في إحدى القرى الأوروبية، وكنت أقضي بهاري كله، من النائمة صباحاً إلى الخامسة مساءً في انقاص تشيل - منار.

في ١٩ آذار/مارس، وبينما كنت أرسم في منزلي، حسب القرويون انني احتفل بعيد الميرور Naurus فطلب قاضي القرية مني ان اعينه بموعد حلول عيد الميرور، أو اعتدال الربيع، الذي اخذه السكان عن أجدادهم. فأكدت له أن الليل والنهار يستساويان في اليوم التالي، فتقرر حينها

(٥) لم أشر على اسم القصر الثالث في المكان نفسه.

الاحتمال بعيد السرور في هذه القرية، في ٢٠ آذار/مارس دون الاستعلام عن تاريخ لاحتفال به في القرى المجاورة. وهذا يعني أن العرس لا يستطيعون تحديده موعد ثابت لأعيادهم شأنهم في ذلك شأن العرب والمصريين^(٥).

في ٢٠ آذار/مارس ارتدى القرويون أبهى حلة، وأحسوا أجارة من عملهم. ولما كان رمضان لم يشرف بعد على نهايته، لم يتجرأوا على الأكل والشرب في النهار، صحيح أنهم يعرضون عن ذلك في الليل، إلا أنهم يفعلون ذلك دون أي ارتعاج. في ٢٢ منه، ظهر القمر، فاحتفلوا في اليوم التالي بعيد القطر.

نقح نشيل - سار في الصحراء، خلال اقامتي فيها، وصلت ١٠ عائلات من لأترك والأكراد الرحل الذين يقصدون مع ماشيتهم، الأياف المجاورة وكانوا يقتربون مني، حين يشاهدون رجلاً في ثياب أوروبية، قرب الأنصاف، ويدهشون من قيامي بهذه الرحلة الطويلة، للرسم والكتابة غير أن أحداً منهم لم يوجه لي كلمة مفيدة، علماً أنني لم أصطحب مني سوى خادمي. وكان هذا الأخير، يسر بقدرتهم، ليأخذ منهم الحليب، دون أن يتكبد عناء حمل روادته معه من مدهنت. في عيد البيرم (الفطر)، وصل عدد من الفلاحين ومن يسم نساء وفتيات، من القرى المجاورة بعضهم بمنطلي الحمير، والبعض الآخر ينتقل سيراً على الأقدام؛ لعلهم كانوا يرغبون بزيارة الأنصاف، أو برؤية الأجنبي الذي وصل إلى المنطقة وما نمت انتباهي هو ارتداء بعض هؤلاء السوق، وأولئك اللواتي يرافقن الأكراد والأترك الفلب على وجهين. لما كان العرس شديد التطير، فإن معظمهم يحمل حجاباً مقلداً برقعة جلدية. أو غيرها من التماويه.

كانت إحدى القرويات تعنق على صدرها قطعة نقدية، عليها أحرف عبرية ترمز، أنها لن تعقد أصدقاءها طالما أنها تحمل هذه القطعة. في هذا السياق، علمت أن المسلمين لا يكثرنون لدى الشخص الذي يكتب هذه الاحجية، المهم أن يتمتع بالمعرفة والراحة. وغالباً ما كانوا يطيبون مني أن اكتب بحافات مماثلة، في حالات المرض المستعصي، والحوادث المؤلمة

رأسي عربي من سوريا، يدعي أنه من المحررين، ليكسب احترام الآخرين له، علماً أن الشيعة يستقبلون أشهر علماءهم من هذه الجزيرة؛ وكان يوسمي التحدث معه دون أن ألقأ لترجمان. فقد كان يعيش في بلاد فارس منذ ٣٠ سنة، ويحي موالاً طائلة من بلدة كسراء، ويعيش عيشة رعية؛ وهو مختبر كثيراً بأصله ويطلق على نفسه لقب شيخ، علماً أن غاضبي القرية الذي يحسن الكتابة والقراءة أيضاً لم يحظ إلا بلقب شلاً

(٥) القر وصف شبه الجزيرة العربية.

لما كان هذا الشيخ يدعي العلم، ويزور غالباً تشيل - منار على حصانه، لستمع بهذه الآثار الرائعة الجمال، كنت أتمنى أن يزودني بمعلومات حول آراء الكتاب العرب والمعرض في هذا المجال؛ غير أنه لم يقرأ أي كتاب يأتي على ذكر هذه الآثار باستثناء كتاب مروج الذهب للمسعودي. الذي يؤكد فيه الكاتب، أن سليمان أدى صلاة الفجر في اورشليم، وصلاة الظهر في بعلبك، وصلاة العشاء في تدمر وصلاة المساء في تشيل - منار، وأظن أن هذه المعلومات تفيد المسلمين أكثر من العلماء الأوروبيين.

قامت بجولة بين الانقاض برفقة الشيخ المذكور، وقدمته إلى النقوش الكوفية، هذه يحسن قرأتها وينقلها إلى العربية. غير أنه لم يجد من داع للقيام بذلك. وبعد فترة وحيدة، قام بزيارتي برفقة ابنة، الذي لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، ووطدنا صداقتنا من جديد، علماً أنه رفض التحدث عن تلك النقوش. واستقبلت أيضاً بعض اعيان الفرس الذين علموا خلال رحلتهم من أصفهان إلى شيراز، أن رجلاً أوروبياً يقضي بهاره بين هذه الأنقاض، فعيروا وجهة سيرهم ليشاهدوا هذه الظاهرة الفريدة من نوعها.

في ٢ نيسان/أبريل، قممت متاعي من مزدت إلى بلدة تشول، قرب نقشي رستم، حتى أتيت على مقربة من تلك الآثار، التي قد تشعلني عدة أيام. بعد مرور ساعات قليلة على وصولي إلى ذلك المكان، أرسل السيد هيرفيل رسولاً يمدني به في تشيل - منار، فأسرعت في العودة إلى ذلك المكان، في الليلة نفسها، وأضيت نهارين برفقة صديقي، قرب تلك الانقاض، حيث قضيت معظم الوقت بمقارنة وسوماني باللوحات الأصلية، بغية اتقانها أكثر. في الخامس من آذار/مارس، رافقتي السيد هيرفيل إلى تشيل، على ظهر حصانه.

في شيراز، حررت الخادم المسلم، الذي رافقي من بوشهر، واستخدمت بدلاً منه خادماً أرمياً، غير أن هذا الأخير أصيب بالمرض في مزدت. كما تناول الدجاج والارز والزبدة بكثرة؛ فكان يوم يمتلئ لي طبق البيلاف (الأرز المغسول أو المبخر)، وغيره من الأطعمة، التي لا تتوفر إلا نادراً في القرى الفقيرة. غير أن خادمي اضطروا للإسراع عن الطعام، تبعاً لتعليمات كتبت، أو بناء على إرشادات الهه، ولما كان اتباع الكيسمة الشرقية يستعملون في زمن الصوم عن تناول اللحم، والسمنك والزبدة والحليب، والبيض، اضطروا خادمي الأرمني للإسراع عن تناول الطعام، وسط القرويين المسلمين، الذين لا يحسنون تحضير الأطعمة التي تناسب صيام الأرمني. في الفترة الأولى من الصيام هزل جسمه، وتوعكت صحته في الفترة الثانية مع عيد وصومنا إلى تشول، ولهذا السبب تركته في البلدة، عند دهاني لملاقة السيد هيرفيل. في ذلك النهار قررنا ترحيله إلى شيراز في السادس منه، غير أنه توفي قبل انطلاقه وسط هذه الأحداث، سررت كثيراً بفقدوم السيد

هيرفيل، ربما كان خدامه من الأرمن أيضاً، ويكنون صداقة عميقة للمرحوم «هتسوا بدمه»، لأن الشيعة كانوا يرمضون دفن مسيحي حتى لا يندسوا أنفسهم.

بقي خادمي حياً بقصيت وقتاً أطول قرب هذه الأعماس غير أن عيبي أصيبت بالآرهاق، وحدثت قراي، ولم أعد أجرؤ على المجازفة أكثر فاعتبرت موت خادمي، نذاراً لي، وعدت في ٧ نيسان/أبريل إلى شيراز برفقة السيد هيرفيل. فسرنا أربع ساعات من نشوب أو نقشي رستم بنصل إلى جسر بولوخان، على نهر بندسير، الذي أنبت على ذكره أنباء، وكنا نشاهد قرى مبعثرة هنا وهناك، عسماً أن معظمها مهدم، فصلاً عن قنوات لسمياه يعطيها التراب واريافاً قاحلة؛ نجد في هذه المنطقة الجزء الرابع من السكان، الذين كانوا يعطوب ليها في عهد نادر شاه؛ ولا يمكننا مقارنة هذا الشعب بذلك الذي استقر فيها زمن المسلمين، والذي كان يعتبر الزراعة، سرّاً الهياً ومن الضروري انقاذها.

نقطعنا من الجسر المذكور فمرسحين لنصل إلى زركان؛ ورغم أن الطريق حالي من التمرجات إلا أنه يصبح موحلاً بعد مطول الأمطار الغزيرة.

في ٨ نيسان/أبريل، عدنا إلى شيراز؛ تحد الجبال الشاهقة الطريق المؤدية من زركان إلى شيراز، والجدير ذكره أن نقشي رستم تبعد ثمانية أميال عن شيراز.

بعد عودتي إلى شيراز، بذلت جهدي لأشفي من السعال الحاد والتهاب الحنجرتين اللذين أصيب بهما في برسيبوليس. كانت الطريق من بوشهر إلى شيراز محفوفة بالمخاطر بسبب الحرب القائمة بين كريم خان ومير مهنا، سم دعسي للانتظار طويلاً قرب إحدى القوافل، فاستعيت هذه الفرصة لاستعادة عافيتي ومشاهدة آثار منطقة شيراز.

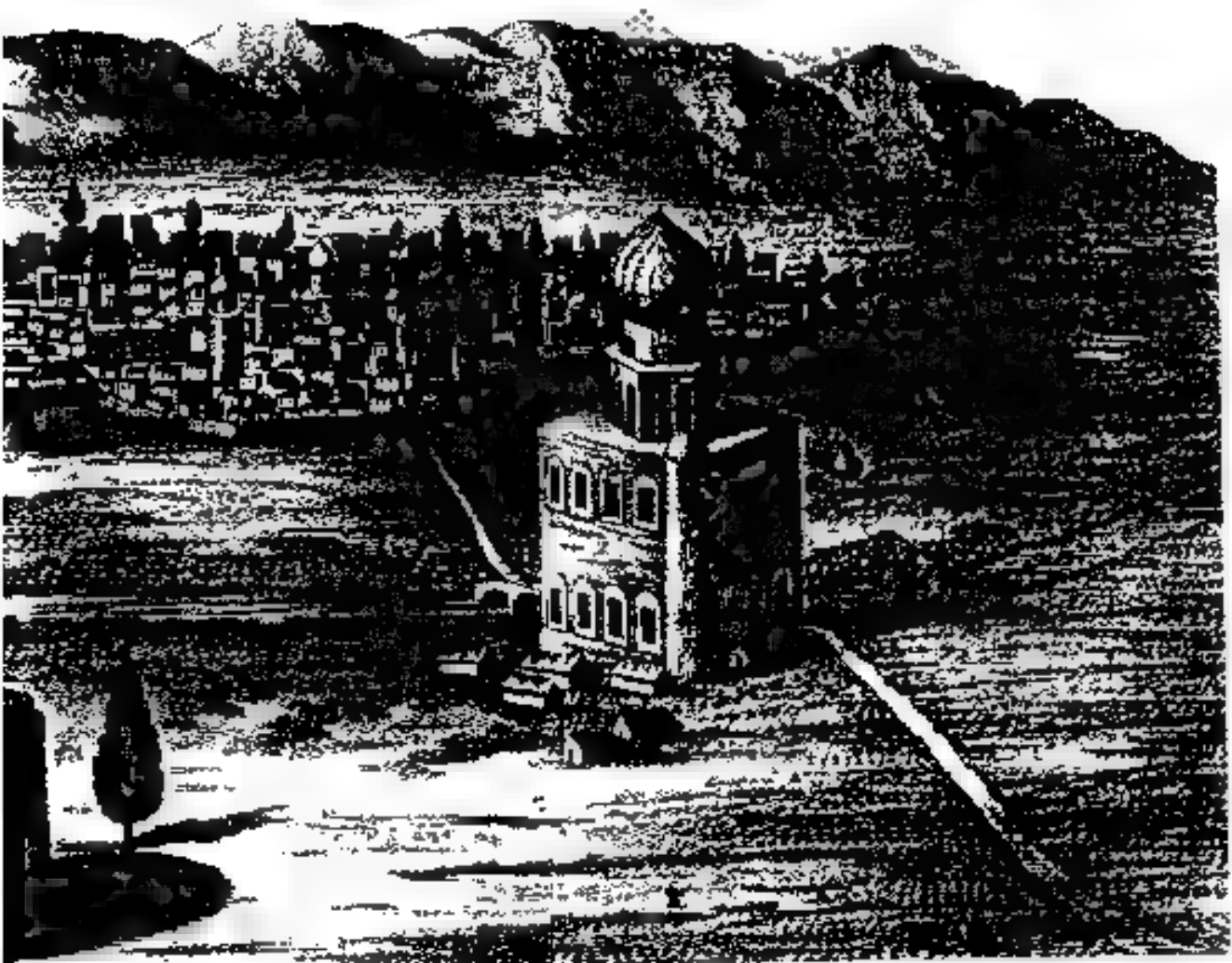
الملاحظات التي دونتها في شيراز

على بعد نصف فرسخ شمالي شيراز، وأمام جبل شامق، نجد صحرة عالية تطل على المدينة وعلى الوادي الحصب وعلى الجبل العالية البعيدة. يحاكي موقع هذه الصحرة مع تلك التي بي عندها قصر بريسبوليس؛ بيد أحد المسلمين قصراً عليها، غير أنه كان هضماً للعامة، ولم يتبق منه إلا عامود صغير؛ ويقال أنه نقله من تشيل - منار، خاصة وأنه مصنوع من المرمر الأسود نفسه، الذي نشاهد في انقاض بريسبوليس؛ علماً أن صحرة شيراز بيضاء لينة دعمت طلعة هذا الصرح بسورين حتى يمكن المسلم من الصمود على حصانه علماً أن مقاليد قصر بريسبوليس لم يفكر بهذا الأمر أبداً. نحت المهندس تحت الصرح الأساس، الصحرة بشكل درجات وساق إليها مياهاً جارياً، ليحولها إلى ضلال جميل، غير أن النهر امتداد مجرى لأساسي، ولم يعد للضلال أي فائدة. نشاهد على مقربة من هنا، خزاناً كبيراً، وأثار محارٍ للمياه بعبارة أخرى، كان هذا القصر جميلاً جداً، استناداً لآراء المسلمين؛ أما اليوم فلم يعد يستحق عناء زيارته.

نشاهد عند أسفل الصحرة، حجيرات صلبة، كانت قديماً اسطبلات للجياد، وغرفاً للمخدم. أما عند أعلى الجبل، فزرى ضريح الولي باب كي، الذي يروره المسلمون عالياً.

في الجهة الشرقية - الجنوبية وعلى بعد ميل من شيراز، نشاهد على إحدى التلال، بقايا صرح، يسميه كامفير جب صحر Sjubosar، على اسم إحدى القرى المجاورة، وشاردين وكوراي، جامع والده سليمان، وهو يضم ثلاثة أبواب من المرمر. مريم بصور شبيهة بتلك التي نراها بكثرة في تشيل - منار، ولكنها وصفت بطريقة سيئة للعامة، شأنها في ذلك شأن أصعدة قدسي المصريين الموضوعة في المباني الجديدة.

كان ضريح الشاعر الفارسي الشهير الحاج حافظ، (حافظ الشيرازي) موجود قديماً في ضواحي شيراز، أما اليوم، فهو على بعد ربع فرسخ من بوابة المدينة، ولا نصادف على هذه الطريق إلا صرحاً واحداً، وجامع الشاه مير حمزة الكبير المشار إليه على النوحة XXXVI وبعض المنازل الصغيرة. نكثف في هذه المنطقة الأرباب الحصنة، وتحيط بالصرح المذكور مراعٍ جميلة. لم يفند الصرح رونقه، وهو يتألف من عدة أجزاء يؤدي إليها سلم صيق. نشاهد في هذا البناء ضريح للعالم المذكور، وغيره من مشاهير بلاد فارس، ولما كانت الديانة الإسلامية نوصي بتطهير أتباعها، سجد على مقربة من هذا المصلى، جدولاً صغيراً، يستمد مياهه من خزان كبير، يتشعب بعدها في





الأرياف المجاورة، ومن أشجار السرو العنية، التي كانت تكثر قديماً في هذا المكان، لم يفلت من اضطراب السنين إلا القليل منها.

نشاهد صوب الجنوب، ضريح عالم فارسي آخر، هو الشيخ سعد، والجدير ذكره أن هذا الضريح كان مهدماً كلياً قبل أن يتبرع أحد المسلمين الأثرياء بنرميمه، فلاحظت هنا طريقة حفر الفرس المعمّرين القوش التي تكثر على أسوار الجوامع، فالأحرف مصنوعة من الصلصال المطلي بالون الأحمر أو الأصفر أو سواء من الألوان. عموماً أنها وقعت في بعض الأماكن، وتناثرت أرساً. لفت نظري في هذا المكان، شرمش الشكل، قليل العمق، تجري تحته مياه عذبة وصافية، مينة بالأسماك، علماً أنني لم أشاهد هنا العدد الهائل منها في أي مكان آخر، ولكن الأسماك تعيش هنا في رعاية الشيخ سعد، ولا أحد يتجرأ على أخذ واحدة منها. وبعد أن ينزل مسجماً طويلاً يبلغ المياه، التي أحيطت بأماكن مخصصة لجلوس والاستراحة عندها، ونشاهد على جهتي البئر العشر قناة محفورة تحت الأرض، ومحاذاتها مفعداً من الحجارة المسحوتة بعبارة أخرى، هذا المكان رائع الجمال خاصة في الفصل الحار. تتابع هذه المياه طريقها وسط حديقة تضم شلالات جميلة وعمرانات للمياه. غير أن القوصى تعم هذه الحديقة في الوقت الحالي، فضلاً عن أن الحرارة والعواصف تتداعى مع مرور الزمن. يدفع سكان بلاد فارس أموالاً طائلة بحفر قنوات المياه، ولم تزدهر تلك التي تروي الأرياف خاصة ولكن الزراعة لم تزددهر لدى المسلمين، فقد نوانوا عن العناية بهذه القنوات، وتسببوا بجفاف هذه البلاد، وبهجرة سكانها منها.

لما كنت ارتدي ملابس أوروبية، في بلاد فارس، تعذر علي التسلل في كافة أنحاء شيراز، كما كنت أعمل في مدن الشرق الأخرى، ولم استطع بالتالي ومبع خارطة صحيحة لها. غير أن القدرى يستطيع أن يكون فكره واضحة عن مساحتها وموقعها. استناداً إلى اللوحة XXXV، التي اشترت فيها إلى أسماء الأبواب، قرب الصورة أ، نجد باباً رائعاً لبسة طانجي الأكبر، (ص ٩٧) وقرب الصور ب، نجد ضريح الحاج حافظ، أما سارباش، فهي تصمم مصعاً للانكليز، وشاهد في الموقع أ، ب، ت (a.b.c)، انقاض مصانع المرسيين والهوسديين والبرتغاليين، وسجد بالتالي بعض الجوامع في الصورة، علماً أننا نشاهدها بشكل أوضح في اللوحة XXXVI التي رسمتها في الضريح المجاور لضريح الحاج حافظ. واليكم ما تشير إليه هذه اللوحة (١) شاه مير حمزه (٢) شاه شرا (٣) مدرسة (٤) زيد الحسين (٥) شتن جمعة^(٦) (٦) باب دوشير، وهي تجسد كلها جوامع كبيرة، بقيت على حالها، رغم تعرض المدينة للهب عدة مرات. والملفت للنظر أنه لا نشاهد أي صارة عليها، ويقال أن هذا النوع من الأبراج غير مستعمل في بلاد فارس، علماً أن المؤذن، أو من يدعو الناس إلى

(٥) تشير العلامة إلى المقابر، في هذه اللوحة وسواها.

بالصلاة، يقف أمام الجامع أو فوقه (٧ منزل بكتريث ٨) منجر الاملحة (٩) باب معدة (١٠) باب صفهان (١١) كريم اباد^(١٢)، وهي عبارة عن قرية صغيرة بهاها الوكيل الحالي مد فرة وحيرة.

تمتاز مارل البلدة بفرميدها المشوي وجدرانها المبيضة أو المغطاة بالكلس، اما البارار أو المون فهو مسطوح جزئياً، وطرقاته مرصوفة وبطبعة.

بحاكي مناخ شيراز، مناخ بيرسيبوليس، علماً انه يختلف كلياً عن مناخ الخليج الفارسي في بدايه شهر اذار/مارس تساقطت الامطار بحرارة، كما وأن الطقس البارد استمر حتى شهري نيسان/أبريل وأيار/مايو مصحوباً بريح قوية، وعواصف رعدية. وفي ٢٥ نيسان/أبريل، شاهدا على قمة جبل شامق وباء طبقة رقيقة من الثلج، داب نصفها تقريباً، بعد مرور شهر تقريباً في الساعة الثامنة صباحاً من ٢٣ نيسان/أبريل، وقعت هرة أرضية قوية، ادب إلى تزعزع الباء القديم الذي أقيم فيه، إلى حد انني كنت أحشى من انهياره. كانت تكثر في هذا الشهر من السنة، الأشجار المثمرة، التي يحو بعضها في أوروبا وبعضها الآخر في بلاد الهند. فقد تعرفت ها على ٢٠ نوعاً من المنب، يحفف بعضها ويحول إلى ريس، وهو عبارة عن فاكهة صغيرة الحجم وبدررها طرية، وتؤكل بسهولة^(١٣).

أما العنب الأمكري، فهو من النوع نفسه، غير ان بدوره افسى، بينما يستخرج من الكرنشيش البيد الأحمر، ومن الأموراني بييد شديد الحمرة. يصاف إلى بييد الكرنشيش ليصفي عليه لوناً جميلاً وتصدر هذه المدينة ايضاً ماء الورد، وريث الورد الثمين، بكميات وافرة.

يصنع الأرمن بييد شيراز الذي يحفظ في برميل أو أوعية كبيرة. وينقل بعضها في رجاجات محفوظة إلى بوشهر ومنها إلى البصرة والهند. ورغم جودة هذا البييد، إلا انني اجد البييد الذي يعمده اليهود في صنعاء أكثر جودة، غير ان هؤلاء الآخرين، لم يستطيعوا الحصول على الإذن بالمشجرة علماً أو بتصديره إلى الخارج، علماً انه تنصهم الأوامر اللازمة لحفظه. يعيم يهود شيراز، شأنهم شأن يهود المدن الشرقية الأخرى في شارع مستقل، ويعاونون من الفقر الشديد بم أقاب في هذه المدينة سوى ٢٠ بنيانيأ، غير ان الحكومة أرتأت بناء حان للقوافل، حتى تشجع هؤلاء التجار اليهود على العودة إلى هنا مرة أخرى.

إن عدد الأرمن الذين استقروا حديثاً في شيراز، ليس كبيراً جداً^(١٤)، وهم يملكون في سرباش،

(١٥) كان هذا الجامع خارج البلدة، خلال اقامة لوراني فيها يعني ان شيراز لم تكن ممسدة صوب الجنوب شأنها اليوم.

(١٦) انظر وصف شبه الجزيرة العربية

(١٧) غير اننا نجد في بلاد فارس قرى اجلة كنها بالأرمن. ومنها قرية رزين المجاورة بقصور، التي وهها كريم خان إلى شيخ الأرمن او اكبرهم سنأ يقال اننا نجد في اقليم برادر شمالي اسمها ١٤ بلدة، وهي اقليم =

حيث أقام السيد هيرفيل، كنيسة صغيرة، يجتمعون فيها كل يوم لتلاوة الصلاة، والترنيم، حصرت بهار السبت ١٣ نيسان/أبريل، قداسهم، وكنت أمثل محاضرين للمسيحيين لأوليس، لأن الكاهن الأول في هذه المجموعة، كان حائكاً، ويساعده في القداس، صليحاً أحد خدام السيد هيرفيل، إسكافياً ونجاراً.

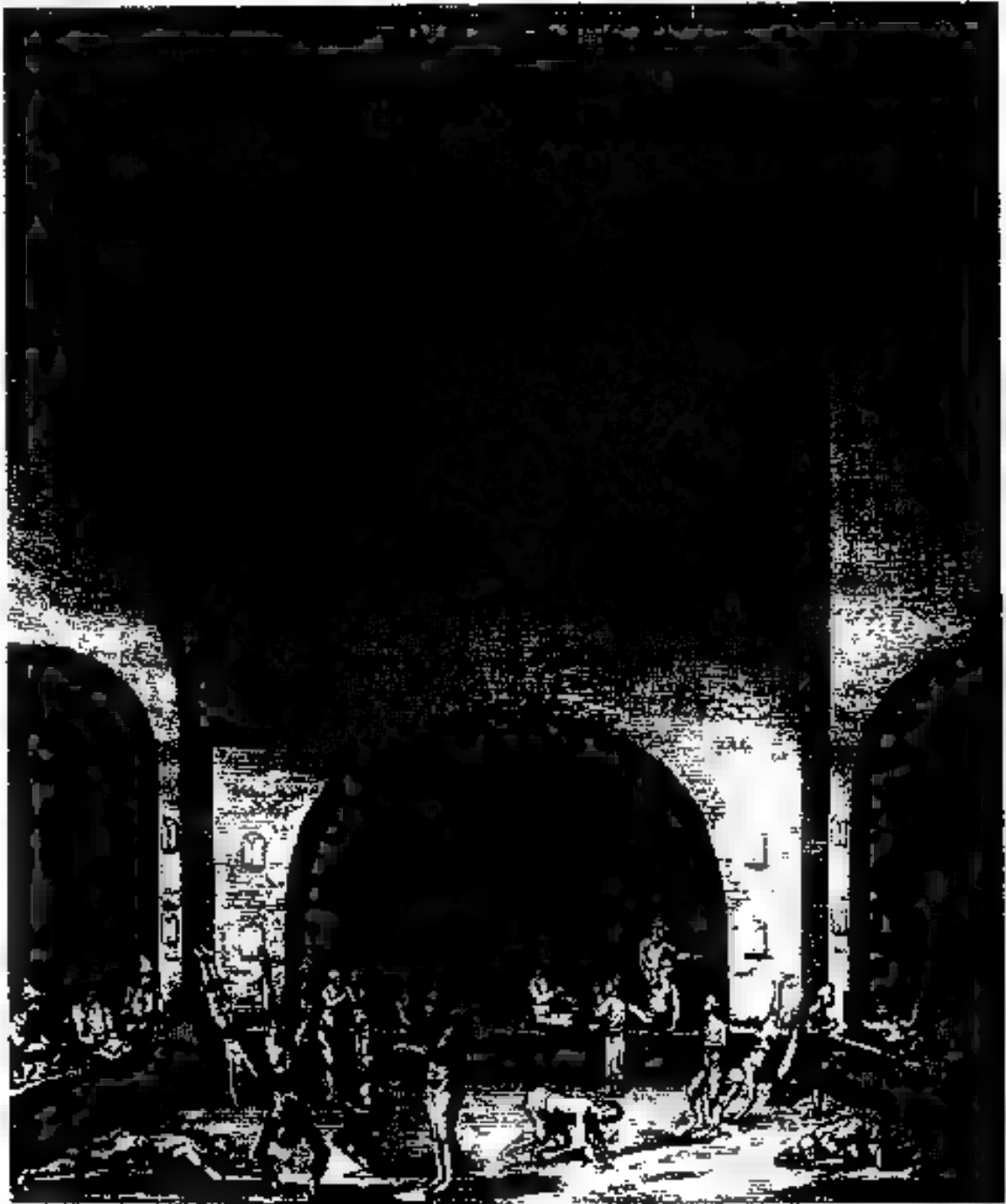
كانت الكنيسة جميلة للغاية، وضع على لمذبح صليب كبير، وكأس، وكتاب مريم بالقصة، وشمعدانات، أما خدام القداس، فكانوا يرتدون معاطف، حيث عليها صليب صغير. اعتاد الأرمن ان يحملوا شعرهم، بشعره حلاله وان يرتدو قسوسه، شأنهم شأن الشرفيين كافة، تعلوها بعمه كبيرة، شأنهم شأن العرس وكانوا يحملون هذه لأخيرة في الكنيسة. يسما يفتي لعرب عند ذمتهم أو بيعاتهم على رؤوسهم في جوامعهم، أما الكاهن، فيضع على رأسه شيئاً شبيهاً بقمعات الرحاة الأوروبية. يقال ان الأرمن يسجدون أرضاً خلال الصلاة، كما يفعل المسلمون، وان شعائرهم الدينية تقتصر بمعظمها على الترانيم^(٥)

لم اتوقع ان أسمع أحدهم بعد حلال القداس، فالكاهن يحمل الكتاب الكبير المصنوع على المذبح، ويقرأ منه بعض فصول الكتاب المقدس. وبعد أن قرأ، هذا المنقطع (انجيل لوقا ٦ ، الفصل ٦) حين يقول الملاك، لمريم المجدلية، ومريم أم يعقوب (لا تحزني، فأنتما تبحثان عن يسوع اندصري الذي صلب، ولكنه قام من بين الأموات ولم يعد ههنا صعد له الحشد. وحين قرأ المنقطع الذي يدعو به يسوع المسيح تلاميذه إلى السلام، قبل كل واحد منهم جازه على الخدين، عدني وضع الكاهن قطعة قماش على كتفيه، وحمده يديه الاثنتين، ودعا الجميع لتقبيله. كان يقف خلفه رجل يحمل عصاً طويلة، تعدها دوائر رفيقة، تمثل وجود الملاك جبرائيل يسهم أم باقي الكهنة فكانوا يحملون الشمعدانات في أيديهم. وعند الانتهاء من هذا الطقس، تناول الجميع كباراً وصغاراً، قطعة من الخبز، مبللة ببنيد. عند النساء، جاء الكاهن بربارة السيد هيرفيل، برفقة اثنين من خدمة القداس، يحمل كل واحد منه شمعداناً في يده، فقد كان يريد ان يقدم لنا البيض المنون، ويرسم بعض الأناشيد، ويصحننا بركته.

وفي اليوم التالي، تفتت ربارة معائلة أيضاً

٥- برمي ٣٠ بلدة للارمن وسها، شاهيجان دارميرا، ابهس، عوسعارات، درابير، حادان، تراك، تامعيرد، مينغريد، غارغون مقان، شرخان، سكمادري باغري، ملاغت، سبغت، شاهولا، شورسبختان، سانبهاران، بنگان، بارغانان، دوسكيشان، ميزكمان، بولوران، افرو، مخرمستان، بوبستان، غودشاهالا، اخشا

(٥) رحلة في الشرق، لوريمورث، الجزء ٢، ص ١١١.



يمسك العرس منارل عامة تعرف مراحته Surshone (منارل قوة)، يحق لكل فرد منهم الدخول إليها، تعرض قوته. يوم زوت هذا السرخون لأول مرة، شعرت بأن الهواء فيه ملوث، وارتأيت أن لا أدخل إليه ثانية. غير أنني عدت إليه مرة ثانية، ومكثت فيه عدة أطول، لأعطي قرائي فكرة واضحة عن التمارين الجسدية التي تنفذ فيها، يتألف البناء من ٤ جدران عالية، مبنية من الحجارة الصلبة، وحفرت في كل واحد منها حجيصة مفتوحة، وحصصت الباحة الوسطى، للذين يرغبون بمعرض مهارتهم أو القيام بتمارين رياضية. يتميز هذا المكان بصغر بوابته وانخفاضها، فضلاً عن خلوه من البوابد، غير أننا نشاهد في أعلى القبة، ثقباً يدخل منه الضوء، عنماً ان المكان مزود بمصائد ومصابيح. بعبارة أخرى عند بناء هذا المكان، بذل المتأول جهداً لمنع تسرب الهواء إليه، وأطلق أن هذه المسألة ضرورية، مع أنه كان يستطيع أن يضيف ثقباً أخرى إلى القبة، لتنقية المكان من الروائح الكريهة التي تزعج الناس ونصر بصحتهم.

جلست برفقة بعض المشاهدين في الحجيصة. يجلس أهالي المدينة وتجارها، الذين يقصدون المكان لتفياح بالتمارين، في حجيرات أخرى، ويدخنون العيون، كما في الصورة (أ) من الصفحة XXXVII، ونشاهد في الصورة نفسها مكاناً لتناول القهوة، و٣ مرسيتين في الحجيصة الرابعة، واحد منهم يمزق على الفيتار وثاني على الطبل، الذي يستعمله الشرطيون دوماً في العناء والرقص، وثالث يمسى أعان فارسية. بعد أن يسهي الهواء من ارتشاف القهوة والتدخين، يندمجون فيهم، وينزلون شبه عرة إلى الباحة الوسطى، ويربطون حول حصورهم سراويل جلدية قصيرة، فيقعون أولاً على أيديهم، ويرفعون أرجلهم في الهواء، كما في الصورة ب (B) ويسجدون لاحقاً، لتلاوة الصلاة، ووجوههم نحو مكة، إذ يزعم المسلمون، أنهم يصلون قبل القيام بأي شيء، ولا يتسوا تأدية هذا الفرض حتى عند ممارستهم هذه الألعاب. ويلتزم بعضهم صلاته، ورأسه في الأرض، كما في الصورة ج (G).

نقلت في الصورتين D و E التمرين الأول الذي يقومون به. يقف الهواء قرب بعضهم البعض، على أيديهم وأرجلهم، أما من نزل حديثاً إلى الباحة، فقد اتخذ الوضعية D (D)، يأسها يديه ورجليه، إلى أيدي حد ممكن، على أن لا يمس بطنه الأرض. (الصورة E). وبعد اتخاذ هذه الوضعية، يرسمون دائرة برأسهم دون أن يحركوا أيديهم أو أرجلهم، وكلما اعدوا هذا التمرين، كلما زادت خبرتهم في هذا الفن، وقبل لي أن بعضهم يملونه ٦٠ مرة ويمسك البعض بقطعة كبيرة من الخشب، ويضعها على كتفه (الصورة F و (F))، ويحاول أن يلوها من الأمام إلى الوراء. وبعد أن ينتهي من ذلك، يفرع عن لوح خشبي موضوع قرب الجدار. الصورة (Z)، أما من كان يفرق سواء مهارته ليرفع رجله أكثر (الصورة H)، كما رأيت الحبير في هذا الفن، يقف على رجله كما في الصورة ب (B).

ومما لا شك فيه ان من يمارس هذه التمارين العنية، يتعصب عرقاً، ومن يجلس في الحجيرة، يدع مالا للجسم، حتى يفركوا به جسمه، (الصورة ط (U)) وبعد الانتهاء من ذلك يبدأ الجميع بالرقص، وبالقفز، (ك K) إما على الحدار (د D)، وإما على رجل واحدة، بغية تحريك الجسم قدر المستطاع. كان البعض يستلقي أرضاً على ظهره، ويضع وسادات تحت رأسه وذراعيه، (م M) لرفع قطعتين من الخشب الثقيل والسميك، والجدير ذكره ان عدد الذين يمارسون هذه التمارين قليل. نظراً لما يتطبد من قوة. وكان المعلم يقف بقربهم، وبحسب عدد المرات التي يرفع فيها، كل تلميذ الخشب عالياً، مما يعني ان من يأتي لاحقاً، يبدن قصارى جهده ليسبق من أتى قبله. عند ذلك، يقفون جميعاً في الصف، ويتلوا عليهم المعلم خطاباً أو صلاة طويلة، حيث يأتي غالباً على ذكر علي أو الحسن أو الحسين، وصلى للمصارعين.

كان من الصعب علي ان أوسم أو أصنف وصعوبات الجسد المختلفة، التي شاهدها خلال التمرين. ولم أشر إلا إلى واحدة منها (N) لا تدوم طويلاً، يقف الفرد على رجلية، ويحرك جسمه فارة إلى أعلى، وطوراً إلى أسفل، ومرة إلى الأمام وأخرى إلى الخلف. ويبدأ بعدها اثنان منهم بالتعادل دون ان يلتقيا النحية بمصهما على بعض، وشاهدت اثنان سهب، وقد ضما يديهما، وصنعا إشارة الصليب على جبينهما كما في الصورة (س S)، وكأنها طريقة جديدة في إلقاء النحية، وجسدا بعدها ارضاً، قبالة بمصهما البعض، وراحا يتحيان العرض بدء الصراع وبعد ان يهرم أحدهما الآخر، يقبل المهزوم يد المنتصر، باحترام فائق. والجدير ذكره انهما لا يتبادلان الصربات شأنهم شأن الانكليز، رغم ان بعضهم يحس ذراعه ورجله عند معادرتة للمكان وكان احصائه تحتج بلراحة. ولاحظت ان أحد المصارعين، كان يرسي ارضاً كل من يحاول مبارزته، حتى أنه استسعى في نهاية المطاف المشهدين لمواجهته. ان استطاع احدهم ان يثبت أنه أعلى في إحدى المدن الإسلامية الأساسية، مثل أصفهان، والقسطنطينية، ودلهي أنه يرضى بمقاتلة الاقوى، في الموعد التالي، دون ان يتمكن احد من صرعه، يحق له ان يصع على قبره اسداً منحوتاً في الصخر. شاهدت في شيراز ضربتين مماثلتين، واحد قرب حديقة كريم خان الحديث، والثاني قرب جامع شاه شيراز طننت في اليده انهما ضربحا شخصين من اعيان البلاد، اظهرا جدارة عاتقة، إما في الحروب أو في صيد الاسود، غير انني علمت لاحقاً انهما اكتبيا هذه الجدارة في المصارعة، ويمكننا بالتالي ان نهم الأخطاء الكثيرة التي يرتكبها العلماء، في محاولتهم تفسير هذه الآثار. في كتاب «وادي الزهور الفارسية». للشاه سعد، نجد تفاصيل كثيرة حول المصارعين، سهلة الفهم بالنسبة للأوروبيين.

وجد في شيراز ثلاث سرخانات يجمع فيها افراد الطبقتين الوسطى والعفيرة، علاوة عن الصباط، وأصحاب المناصب العليا، بعية ممارسة هذه التمارين، وتلين أجسامهم. يحصل بعض

الاعيان غرفة في منزلهم يتصرفون فيها ويتصارعون مع اصدقائهم ومعارفهم، أما أثرياء بلاد فارس فيمارسون هذه التمارين عند الصباح، ويكبون الحيل بعد الظهر

تختلف أزياء الفرس عن أزياء العرب والأثراك يرتدي الصبيط الرفيع المستوى، قبعة مربعة، لها شريط طويل علماً ان معظم الناس يتصرون قبعات من جلد لحراف، ويلفون حولها شريطاً معقوداً، والسفلة ننظر ان للفرس كدهم شربان، قصيران، يسما يستعمدون المقص للتحلص من شعر الذقن والخدوش وهم يرتدون أثواباً طويلة، شبيهة بسك التي شاهدها عدة مرات بين انقاض بوسيدوليس (السوحة XXI)، وبها كمان طويلان مرر ان حول المعصمين، أما على الردفين فيصنعون نطاقاً عريضاً على غرار الشرقيين عامه.

في محبة قمرمش، يصنع الضباط ومعاديبهم وجودهم الجعب في الدراع الايسر، وقمع البارود في الدراع الايمن، أما سبعمهم، فيتدلى على الردف الايسر، وثم يرتدون سراويل مقلعة من النسيج أو من الحرير طويلة ومصممة، ولكن مختلفة عن شحشير الأثراك ويرتدي كبار الضباط أحذية سرداء تصل إلى الركبتين ولكن كمبها عالي ومقرن جداً، حتى نه من الصعب استعمالها في المشي، بعد ترجيحهم عن الحصان، يحضر لهم الخادم الخميس. (يرتدي عيان الأثراك أحذية قصيرة، صبراء، أو حمراء، وليس لها كعب) حتى الخفان لهما كعب عالي وبعل مزين بالزهور. غالباً ما يصنع الحف من الجلد الاخضر، علماً ان حف الأثراك أصغر اللون. لا يختلف ري السيل كثيراً عن سواه، باستثناء انه يرتدي في الشتاء عباءة مبطنة بفرو، أو يمش بالعباءة لتركبة. يعتمر التاجر عادة قبعة من جلد الحيوان، وعباءة قصيرة مبطنة بالفرو، دون أكمام، وحفص عايبين، وجوارب قصيرة. يعتمر عباءة الشعب من الفرس، قبعة عالية، لها قربان من كل جهة (الصورة ع P) والحلير ذكره ن الفرس نادراً ما يعبرون ملابسهم الداخلية، ويرتدون عادة قمصاناً من النسيج المقلم.

أما ساء الطيفة لوسطى (لأسي سم أقاب ساء كزيات الأصل) فيعقدن الأمشة القطبية حول أرجلهن، مما يجعلهن سحيبات وثقيلات، وهن يربطن رأسهن بخرقه وثلة يتدلى منها قماش قطبي أبيض، فضلاً عن قماش ابيض آخر أمام لوجهه بعبارة أخرى، لا أظن أن أزياء النساء الفارسيات، أو أحذية الأعيان تستحق التقليد. أما الأزياء المتبقية فهي أفضل من تلك التي يعتمدها الأثراك. كما وأنها تحاكي أزياء البولوبيين.

العودة إلى بو شهر

كنت انتظر بمزارع الصبر انطلاق قافلة من شيراز إلى بوشهر، ولكن اسبادل اسجاري بين المدينتين كان منقطعاً، فكان علي بالتالي الانتظار حتى ١٤ أيار/مايو، حتى يجتمع عدد كبير من

الرحالة وتتمكن من السفر دون ان تتعرض للمخاطر، كنا نسير ببطء شديد لأن أصحاب الدواب كانوا يهتمون بتأمين العلف للبقال والجيد والحمير. وقمنا بأيهون للوقت الذي قد يقصيه على الطريق.

في اليوم الاول، قطعنا نصف ميل، وفي ١٥ أيار/مايو سرنا فرسخين ونصف لنبلغ (تسب) صفر (اللوحة XVII)، وفي ١٦ منه، ٤ فراسخ وصولاً إلى وادي نبدو تقع هذه القرية شرقي الجبل، وتحيط بها بساتين العنب، واللوز والدراق، والتين وغيرها من الاشجار المثمرة. في ١٧ أيار/مايو اجتازنا طريقاً وعرة عبر الجبال والهضاب، لتصلب شمسنا على مسافة ساعتين من المشي.

في ذلك النهار صادفنا قافلة، تضم ٣٠ أو ٤٠ عرباً من البحرين يقصدون جميعاً مشهد لزيارة ضريح علي ابن الرضى. أحد أئمة الشيعة الاثني عشر، ونجد أيضاً بينهم بعض النساء العربيات يعرض على كل شيعي يتمتع بصحة جيدة، ويملك ثروته صعبة، أن يورث مكة مرة واحدة على الأقل ولما كانت هذه الرحلة، مكثفة ومحفولة بالمخاطر، ومزعجة خاصة وان السنة يعاملون الحجاج بازدراء، معتبرين اياهم ملحدين، يكتفي اهل الشيعة بزيارة أضرحة أئمتهم. وان كان احدهم يملك الوسائل اللازمة للسفر إلى مكة أو لزيارة أضرحة الأئمة، يُقتطع جزء من ميراثه بعد موته، حتى يسافر شخص آخر بدلاً منه، ولهذا السبب يحترف الكثيرون مهنة الحج، ويقومون بهذه الرحلة مقابل مبلغ زهيد.

كانت قافلتنا تضم ثلاثة من هؤلاء الشيعة الساعين من البحرين. قام واحد منهم بتسع رحلات مماثلة عن نفس تسعة أمواب مختلفين، فالرحالة القادمون من البحرين هم بمعظمهم حجاج بالأجرة، والجدير ذكره ان معظمهم كان يتنقل سراً على الأقدام، يسافر عدد قليل منهم على الحمير. وكانت ثيابهم رقة، ويحملون امتعتهم على ظهورهم. وهي عبارة عن رزمة من الخبز والبصل المجفف، واهريق نحاسي يستعملونه للاغتسال سررت كثيراً بمقابلة هؤلاء العرب في بلد غريب عني تماماً، كانوا يتبادلون القبل، على الحدين وعلى اليمين ويستمسكون بعضهم عن صحنه بعض. وكانوا يسألون العرب المرافقين لنا، عن الطريق المؤدية إلى مشهد. يسر هؤلاء الآخرين يستمعون عن طريق بوشهر، وأكد الفريقان أن بلاد فارس هي الأكثر أماناً بين بلدان العالم أجمع، في الواقع، لا أظنهم كانوا يحشون اللصوص، علماً أنهم لا يحملون معهم اي شيء يذكر. وسألوا أيضاً عن ليلة الحبر وبرز، والربذة في المناطق التي اتوا منها. وأظن ان المرينين ينتميان إلى مناطق فقيرة جداً ويحسبون أنفسهم جاهلين إلى الجنة، لذلك قبلوا بكل طيب خاطر السعر كحجاج مرتقة. وبعد تبادل الأعباء، تنتهي المقابلة بالسلامات الحارة والسيات العذبة والمحزون في بلاد فارس هو ان معظم الأشخاص الذين صادفناهم لاحقاً (بعد مرور ١٨ سنة على وفاة تاجر شاه). فقدوا عيماً

بسبب سقوط هذا الطاغية عليهم، والجدير ذكره، أن بعض عرب البحرين، كان نصيبهم مسألاً أيضاً، حتى في سوريات ومسقط والبصرة وبغداد، عثرت على أدلة تثبت وحشيته، وخاصة بين التجار الأرمن والمسلمين، الذين هاجروا بعدها إلى أوطانهم.

في ١٨ يناير/مايو، سبقت القامة برقعة عدد من المسافرين إلى مردحة، في ٢٠ منه، وصلنا إلى Gra وفي ٢١ إلى خانيق، وفي ٢٢ إلى عويس. ولما اقتربنا من الحبيج العرسي، ارتفعت حرارة الطقس؛ لم أشاهد يوماً بجوياً كبيرة إلى هذا الحد إلا في عويس ومردحة، ولاحظت أنها تضفي نوراً مضيئاً على مردحة وخانيق. منذ فترة ليست ببعيدة، أرسل كريم نعان فصيلة من الجند إلى قرية في إقليم كاسغرون، لقمع مجموعة من المتمردين عصوا أوامره، ولم يدعوا ما طلبه منهم. غير أن رئيس المجموعة فر برقعة عائلته إلى قرية مجاورة لعويس، بينما كان الجند ينهبون قريته ويذمرونها. صادقتنا هنا ٢٠٠ قروي، اجتمعوا بناء على أوامر الخان، في هذا المكان منذ أربعة أيام ليذهبوا بعدها لتبحث عن المتمردين، غير أنهم عادوا عند المساء وأعلنوا الخان، أنه فر إلى بندريج. هذه هي الحرب في بلاد فارس، معظم الأعيان غير راضين عن حكم عائلة الأكراد. وسين يرسل هؤلاء الآخرون للبحث عن مواطنيهم المتمردين، يعلمونهم مسبقاً بضرورة الفرار.

وعند عتد المساء، ان قروياً مسافراً من عرا إلى عويس (على ظهر حمارة) تعرض للتهب على الطريق. غير أن الشاء وجنوده لم يعيروا هذه الحادثة اهتماماً على خلاف انكشاري قابله في مصر، وكان شديد الفخر بنفسه، لأن اللصوص لم يتجرأوا بعد على الدنو منه أو من اصدقائه (الذين يتولون حراسة القرية) رغم أنهم بهوا جيرانهم.

سافرو ليلاً من عويس، نهرأ نشدة الحر في النهار. واجتازنا جبل صندل لنصل صباح ٢٣ أيار/مايو إلى قرية بير في الية الثانية مررباً أمام قرية يوسفان، وحططنا الرحال قرب قرية نعل Tale وصباح ٢٥، بدنا جدولاً صغيراً قرية قرية فطف Calet، في ٢٦ مررباً بقرية شاوي. حيث تكثر اشجار البسج، والتي انتهسها مؤخراً الجراد. وفي ٢٧ منه اجتازنا قريتي احرام وكرمسير. والجدير ذكره ان الاعشاب المحيطة بقرية قطب كانت تفتتها النيران عد وصولنا، مخشيت ان تشعل امعني ايضاً، غير اننا بدلنا جهدا لإخمادها بواسطة الاعطية والحقائب، حتى لا تتكبد خسائر كثيرة. وعلنا لاحقاً، ان الناس يضرمون النار في العشب، ليحرقوا الأرض لاحقاً ويزرعوها، لأن الرماد يشكل زبلاً مغيلاً.

عاصر الأمير كنيح خاند الذي التقيت به في شباط/فبراير، في كرمش البلدة هذا الصباح متجهاً إلى احرام، بنية محاصرة بندريج، ولما تعذر عليه جمع المصرايب من قروبي احرام والعري المجاورة، ترك فصيلة من الجند، في البلدة من أجل هذه العاية فحسب.

عادرت القافلة في احرام برفقة بعض الاشخاص على الأحصه، ووصلت إلى بوشهر متعباً ونكراً سعيداً للعاية.

نزلت عند السيد جبرفيس، الذي احسن صيافتي إلى حد بعيد. غير ان الحر الشديد انهكني، خاصة انني وصلت حديثاً من شيراز المعروفة بطقسها البارد، فاضطرت إلى تأجيل رحلتي المقبلة. عند وصولي، علمت ان احدى السفن الانكليزية تستعد للابحار إلى الحرج والبصرة، غير انني كنت مجبراً على انتظار وصول امتعتي مع القالة، في ٢٩ منه ولما كانت السفينة المذكورة قد اقبلت، لم أعتز على مركب اخر يقلني إلى الخرج خاصة وان البحارة يخشون قراصنة مير مهنا في ٣٠ منه وصل مركب صغير من الخرج، ولما كان الهولنديون على علاقة طيبة بمير مهنا وبشيخ بوشهر على حد سواء، استأجرت هذا المركب الصغير ووصلت في ٢١ أيار/مايو إلى تلك الجزيرة. غير ان السفينة الانكليزية كانت قد اقلعت منها، قبل بضع ساعات من وصولي، فاضطرت لقضاء بعض الوقت في الخرج خاصة وان الهولنديين استقبلوني بالترحاب، كما وانني شهدت حرباً لم تعرف لها مثيلاً في أوروبا.



ملاحظات حول الحرج

أشرب في كتاب وصف شبه الجزيرة العربية، في اللوحة XIX إلى موقع جزيرة الحرج، وتحدثت في الكتاب نفسه عن حكومة هذه الجزيرة، التي كانت خاضعة للبعثة الهولندية في الهند الشرقية، وأسس البارون دو كيبيوسن، هذه المستعمرة؟ فقد كان يعمل سابقاً، مديراً للمصنع الهولندي في البصرة، غير أن بعض الأوروبيين، حرصوا الاثراك منه، فخرجوه في السجن، وازغموه على دفع مبلغ كبير من المال ومعاذرة البصرة. في الوقت نفسه، اعتبر السيد فان دير هولست عميلاً أيضاً، وأجبر على معاذرة بوشهر برفقة موظفي المصنع الهولندي الآخرين. وبسبب ما كان موظفهم البصرة يأمنون أن يصل تاجر قوي، يستطيع الانتقام لهم، كان التجار الأوروبيون يحسبون أن الهولنديين سيغفون من الخليج الفارسي كله. ولكن السيد دو كيبيوسن، عقد اتفاقاً مع والي بندريج، يقضي بالسماح للهولنديين ببناء مصنع لهم في جزيرة الحرج، عندئذ غادر إلى بتانيا، ليعود في السنة التالية، ويعزز التجارة في الحرج، ومرغماً اثراك البصرة، على إعادة كل ما أخذوه إما منه أو من ضباط البعثة الهولندية. وبعد رحيل البارون دو كيبيوسن، تسلم السيد فان دير هولست دقة الحكم في الحرج، غير أنه ما لبث أن أقبل، علماً أنه لم يزل خطوة لدى والي بتانيا، وغير السيد بوشمان خلفاً له.

كان السيدان دو كيبيوسن، وفان دير هولست، على خلاف مع عرب الخليج الفارسي، وخاصة سكان بندريج، فسعى السيد بوشمان إلى معالجة هذا الرصع. فأرسل مير مها الضابط المرافق له على رأس سرية من الجنود، لوضع حد لمسألة عالقة. ولعل هذا الضابط أراد أن يعاجيه الهولنديين، فأعطى الأمر لجنوده بالالتحاق بمراكبهم وبتحارة، بسببهم الحرية، ولم يسمح لأحد بدخول القصر باستثناء السفير وعدداً صغيراً من جنوده، واستقبلهم في الرواق برفقة أمين سره ومستشاريه، بينما بقي الخدم محتشيين على جانبي الرواق حاملين السيوف بأيديهم. وبعد انتهاء المقابلة، اصطحب السفير إلى أسوار القصر ليريه المدافع التي نصبت عليها، استعداداً لصد أي اعتداء كان، وكان يتحدث إليه بكل ثقة بالمرس، وبحسرة اعتاد العرب عليها، حتى أن السفير الذي لم ير حصناً مماثلاً من قبل، ربت على كتف السيد بوشمان، وقال له بصدق واضح، «إن سمحت لأحد باحتلال هذا الحصن، فلست جديراً بأن تعين حاكماً عليه». وعند ذلك، غادر المكان، ونصح مير مها بقبول شروط السيد بوشمان،

الذي اقترح أن يمارس الهولنديون التجارة بحرية كاملة مع بلاد فارس والبصرة.

كان السيد بوشمان ابن وزير هولندي وقور. حمله رسائل توصية كثيرة إلى بتافيه، خاصة وأنه شديد الدكاء. يقال إنه قبل معادته استعراضاً، ذهب برفقة صدقاته في السفر، متقبلة أحد العرائس الذي تبا له بأحداث مهمة. والجدير ذكره أن معظم تبذراته قد صدقت حتى الآن، وكان يوقع بانتالي أن يلقي حنفه في الأربعين من عمره، كما قال له العراف وكانت هذه المفكرة بعض عيبه مصعبه، ونحنه على الأدمان على الحمر يساهم غير أن تصرفه هذا أثار عداوة الكثيرين له حتى من بين مواطنيه. وقصدت أن أذكر لكم هذا المثال، كي أحذر الناس من حيلهم للكشف عن ما يحبه لهم القدر في هذه الحياة. كان هذا الرجل مثلاً لنصدق والوفاء وشديد التهذيب في تعامله مع الأجانب، ويكره للغاية التملق والمديح. فمن يقبل دعوته، ويدل بصيافته، يشعر بالراحة التامة كما لو كان في منزله. ولكن أن تردد في قبول خدماته، عصب منه أشد العصب. شاهدته مرة يتردد من قصره ضابطان فرنسيين وريان مركب انكليزي، ترددوا في قبول دعوته للمبيت هذه إلا أن طالت المجادلات أكثر مما ينبغي استدعى الحرس ليعتجروا الباب، ويخرجوا الناس من القصر. أما الأجانب الذين لا يحسنون الهولندية، فيحسبون أن الحرس سيرجونهم في السجن، ويضلون الفرار بأسرع ما يمكن، ويسموا بصرخ السيد بوشمان قائلاً لهم تصحبون عني غير تراهم يسرعون لفتح الباب، ويخرجون منه بسرعة البرق. فلا يتوقفوا عن الركض حتى يصلوا إلى دورقهم

طالب كريم خان، حاكم بلاد فارس، الهولنديين، بدفع حربة له، عدة مرات وجوبه بالرفص عبر أنه في السنوات الأخيرة سبي لمرهم، خدعة وأنه عني خلاف مع شيوخ الساحل، ومنهم مير مهسا والي بندرعب، وسليمان شيخ نبيلة كعب العربية. والذي أصبح شيئاً فشيئاً والي حرر شط العرب كلها، واقليم فارسي شاسع. فحين كان يقول لهم أنه سيأتي عني رأس جيش كبير، لإرغامهم عني دفع الجربات، كانوا يجيئون، أنهم يؤمنون بقدرته على طردهم من البلاد، ولكن، أن حاول أن يفعل ذلك، اختبأوا في مراكزهم حيث لا يستطيع أن يدخل لهم

في تلك السنة، سار كريم خان على رأس جيش كبير، لمواجهة الشيخ سليمان، وأرسل سرية أخرى عني رأس الأمير كنج خان لتتصدى للمير مهسا. فقصى القائد ثلاثة أشهر في كرمندش. (كما أشرت آنفاً). باحث عن حلفاء يملكون استقلالاً صغيراً، فقد كان شيوخ المنطقة، المستندة من رأسي بودستمان إلى حرموس، يحدون حدود مير مهسا ويرفضون دفع الجزيات. أما سكان بلدة كنجك المجاورة لكرمندش، فكانوا ينامون كل ليلة على من مضعهم، حتى يتحكموا من الرحيل أن فاجأهم العرس. لم يجد كريم خان من يعتمد عليه سوى الشيخ ناصر، والي بوشهر، لأنه كان يستفيد كثيراً من التبادلات التجارية القائمة بين مدينته ومدينة شيراز، ولا يستطيع معارضة الحان،

مصلحاً عن ذلك، كان على خلاف مع مهنا، وقواته البحرية ضعيفة للغاية، ولا يقرى وحده على السيطرة على العدو. فالتجأ الوكيل إلى هولنديي خارج، الذين رفضوا التورط في هذه الحرب رفضاً باتاً. لم ينشأ الانكسار أيضاً التدخل في هذه القضية أيضاً، ولكن وقاحة سير مها معهم، حث السيد جيفرس، على قبول مساعدة الشيخ ناصر، وأرسل المركب الطراد (وهي سفينة حربية إنكليزية في يومئذ). فكان من المفترض أن يهاجم الأمير كنج العدو ارضاً، بينما تهاجمه مراكب الشيخ ناصر والطراد الانكليزية بحراً.

خلال هذا الوقت، استطاع مير مهنا أن يتحصن جيداً، فزود بتدريج بالمؤن، بينما نزع معظم السكان إلى خارج. ولما خشى الهولنديون أن يعانوا من نقص في المواد الغذائية مع تزايد عدد السكان، خاصة وأن كريم خان والشيخ ناصر يحظرون عليهم التبادل التجاري مع بلاد فارس، بحجة أنهم يأوون المتمردين، مصلحاً عن أن اللاجئين قد يحاولون جذب مير مهنا إلى هذه الجزيرة، طردوهم منهم. حينئذ أرسل مير مهنا عائلته وسكان بندريغ إلى جزيرة خويري النائية، التي تبعد ٤/٣ المي من الحرج، ورغم أن الجميع طمأن أن الشيخ ناصر قد يذل جهده، لمنع العدو من التركز في هذه الجزيرة، إلا أنه لم يحرك ساكناً. فقد كان يخال أن مير مهنا لن يتمكن من مقاومة قوى البر، وأنه لن يسر أبداً بوقوعه بين براثن الفرس في بندريغ. وخلال هذا الوقت، كان يأمل أن يصنعوا العدو، حتى يتمكن بعدها من وضع يده على ثروات خويري كلها، بمساعدة الانكسار له. غير أن هذه الجزيرة تحولت إلى مكان مكتظ بالسكان، خلال فترة وجيزة.

في أواخر شهر أيار/مايو، وبعد أن تركز مير مهنا في خويري، وصل الأمير كنج خان إلى بندريغ، حيث انضم إليه الجنود الذين أرسلهم كريم خان، المتمركز في غوبان. ولكن استهول بوشهر لم يكن مستعداً للانطلاق، مما يعني أن مير مهنا لم يكن يخشى بعد الهجمات البحرية. غير أن عدداً من جنوده، فضلوا التحلي عنه، والالتحاق بالمربق الأقوى؛ دفعه هذا الأمر إلى اليأس، فقتل الماشية وأحلى المسازل من السكان، وفي الأول من حزيران/يونيو وصل ١٧ مراكباً إلى خويري، ومن بينها ٥ سفن حربية كبيرة^(٥).

تشكل جزيرة خويري الحصينة، منطقة نفوذ مير مهنا الحالية، علماً أنه كان والي إقليم فارسي شاسع. ورغم أنه احضر الكثير من المؤن لرجاله، إلا أنه كان يتقصه العلف، ولم يلقه من هذه الورطة إلا طلب أحد الهولنديين منه إرسال العاج إلى الحرج. ولما كانت الجزيرة تتألف من تلال

(٥) يسمى سكان البلاد المراكب الحربية الصغيرة كاليت Kalbes، والامير منها باتيل Barul. فالعرب يستعملون أسماء مختلفة للدلالة على سفنهم، وذلك يتوقف على حجمها أو طريقة بنائها، شأنها في ذلك شأن الأوروبيين.

وعلمية، قليلة الارتفاع، لم تبق الاكواخ الحقبية الناس من الحرارة الشديدة التي تسببت بهلاك معظمهم. وكان السير منها مصاباً بالتهاب في العين، ومحبطاً من تطور الاحداث، نعهد إلى ضباطه تسلّم زمام الامور، علماً انه نطع أدن البصر، يرفضهم الادهان لأوامره، أو لاحتسابهم الكحول حتى الثمالة. خلال هذه الوقت، علمنا ان كريم خان طرد الشيخ سليمان من بلاده وأنه انسحب إلى شط العرب. في ٤ حزيران/يونيو، خرج اسطول بوشهر العظيم، الذي سيلعب دوراً كبيراً في هزيمة مير مهت. يتألف هذا الاسطول من طرادة الانكليز، بقيادة الكابتن برايس، ومن سفينة الشيخ ناصر، وثلاث سفن حربية كبيرة، واثنين صغيرين. كان السيد ناصر، من سر الانكليز في بوشهر، الذي سافر في صباه مرات عديدة بحرّاً. يقرّد السفينة الحربية الكبيرة، ويثبت جدارته كأفضل ضابط بحري بين العرب. وكان ابن الشيخ بقود صعيقة والده، ويسمى لاكتساب لقب اميرال بين مواطنيه، غير ان ذلك، شكلت عائقاً كبيراً امام الانكليز.

ألقي الاسطول المرساة قرب المخرج، عند اقتراب المساء كان مير مهتا قد اعاد خمس سفن كبيرة وأخرى صغيرة إلى المياه بعد أن سحب اسطوله كله. صباح الخامس من حزيران/يونيو، كانت قد اقلعت كلها باتجاه فارس لما كان العدو قد حسب الوضع، اقتنفت سفن الاسطول مراكب مير مهتا، وببادل العريقان اطلاق النار، عسى بعد مسافة كبيرة جداً، حتى ان احداً منهما لم يتضرر، ولو لم تكن والفيس تماماً انهما اسطولان متحاصسان، لقلت انهما يتبادلان اطلاق النار كصبيح عن صداقتهم. عند غروب الشمس، كانت السفن كلها تتجه جنوباً - شرقاً. وفي صباح السادس منه، كانت سفن مير مهتا الحربية تنقل بين المخرج وخويري، بينما الطرادة الانكليزية تقف قرب بدرغ، ومركب الشيخ ناصر على مقربة من مرفأ بوشهر. ظل الشيخ الشاب انه سيتسكن من احضار العدو من اليوم الاول، ولما أدرك خطأ، عاد يلاً عسى متن احدى السفن الحربية، لإعلام والده بمآثره، مؤكداً لناصره، انه كان قادراً على القضاء على لاسطول الهادي، لو أن الانكليز اخذوا بصائحه. كما وانه أراد ان يأخذ معه سفينة حربية ثالثة، ولكن السيد نائر، اعترض على ذلك.

كان بقود أحد الرهائن سفينة بوشهر، التي أبحرت نحو الساحل الشرقي لجزيرة المخرج وعادت مساءً وحدهما الكابتن برايس والسيد نائر، ناهما سيرهما باتجاه العدو، بعد أن تخلى حذاؤهم عنهم، أسلح الفناء القبض عليه، ولكن هذا الأخير ألقي المرساة، وراح يصبغ صواريخ مدافعه قارة باتجاه الجزيرة وطوراً باتجاه السفن الحربية، فارتأى الانكليز العودة ادراجهم. وبعد ظهر ذلك اليوم، انقرا المرساة قرب المخرج، حيث قصوا بضعة أيام. وكانت السفينة العربية تنتقل بين بوشهر والمخرج، دون ان تتمكن من الوصول إلى هذه الجزيرة حتى ١٥ حزيران/يونيو، حيث وصلت قرب سفن الانكليز.

لم يكن لمير مهنا مرفأ على جزيرة خويري. في العاشر منه، هبت عاصفة قوية في المناطق الشمالية - الشرقية، أدت إلى إلحاق أضرار فادحة بالسفن الحربية وتوقفها عن العمل خلال هذا الوقت، لاحظنا في ١٥ منه، ان ثلاث سفن حربية كبيرة وواحدة صغيرة قد غادرت جزيرة خويري. وأبلغ الكابتن بيراس ان سفين بوشهر الحربية قد خطمت وان مير مهنا ارسل سبعة لمراقبتها.

وفي ذلك المساء، كان الوالي الهولندي سعيداً لمعاينة. بعد تناول العشاء، خطر له أن يشير شكوك الفريقين استفتاتلين. فأطلق تيران مدافعه عند منتصف الليل، عندئذ قصد وريو خارج القصر، علماً ان بعضهم ظن ان مير مهنا أو عرب بوشهر يهاجمون الجزيرة. غير انهم ما لبثوا ان ادركوا ان السيد برشمان يريد التأكد فحسب من أن الجميع مستعد لتلبية نداء العون عند الحاجة. كما وانه أطلق النار باتجاه السفن الحربية المليئة بالبارود ومطقة خويري فكان تصرفه هذا مؤثراً جداً للجانب إذ أبحر مركب الانكليز ومركب بوشهر ضد المعبر، ولما عرض البحر مع شروق الشمس. فحسب مير مهنا انه اثار ثورة في المخرج أو أن الانكليز قد احتلفوا مع حلفائهم، أو أن الطرفين يقيم احتلال القصر.

في ١٦ حزيران/يونيو، اقترعت أربع سفن حربية تابعة لمير مهنا، من سفن الشيخ ناصر البحرية، حتى خطر لنا أن المعركة البحرية باتت محتدمة. وفي تلك اللحظة وصل مركب تجاري انكليزي الحرج لنقل الريان ومتابعة سيره إلى البصرة. وبعد أن توقف بين السفن المتعادية، وجدت هذه الاخيرة الفرصة مؤتية للتراجع والانسحاب.

بعد أن أدرك الكابتن بيرس انه لن يتمكن من هزيمة عرب بوشهر، اقترح على المرس وضع عدد من الرجال في خدمته حتى يعزو خويري فوعده الأمير كيمح حان بتحقيق مراده، عندما انه ورجاله على معسكرات بدرمع. ولكن السيد جيرفيس برنأي اقناع الهولنديين بالمشاركة في الموضوع. وعداد أسطول بوشهر ترافقه سفي ابن الشيخ، الذي انسحب في الليلة الاولى، إلى المخرج، لتحقيق هذه الغاية. غير أن السيد برشمان رفض مرة أخرى التوسط في هذه الحرب رفضاً قاطعاً.

في ٢٠ حزيران/يونيو، أبلغ ابن الشيخ ان رورقا صيد، تابعان لمير مهنا، وصلا إلى خارج. فأعطى الشيخ الشاب الامر بمرافقة الرورقين إلى سفينة، عبر ان السفن الحربية الهولندية معنهم من الاعتماد عن اليابسة. ولما رفضوا الامتنان لهذا الامر، وحاولوا رفع المرساة، اطلق الهولنديون تيران بنادقهم عليهم. ولكن دون جدوى، فأبلغوا الوالي بالأمر ليعطي الاوامر بإطلاق تيران المدافع عليهم، وبعد ان انعمجرت القنبلة الاولى أمامهم، ارتأى ريان المركب الاول أن يعود أدراجه يسعا تابع الثاني طريقه باتجاه سفينة الشيخ.

في هذه الأثناء، خرج بعض العرب إلى الشاطئ ليروا كيف سيتصرف الهولنديون مع عرب بوشهر. وبعد أن شاهدوا مسلمو الحرج الصيادين المسكينين مقتولين في روارقهم، لغوا مرتكبي هذا العمل الشنيع وشتموا عرب بوشهر، فأغضب هؤلاء الآخرون العرب وحمل عرب الحرج الضاحر وتزودوا بالحجارة (علماً أنهم ليسوا من الجنود ولا يحملون السيوف)، وشهدوا بالتالي مداخلات في غاية العربية، إلى أن تدخل البحارة الهولنديون، وأطلقوا بنادقهم عشوائياً غير أنهم بإصابة حلفائهم. فوقع عدد كبير من الحرجي، بينما حصر عرب بوشهر سيوفهم ومسدساتهم. فأعيدت الأموال التي نهبتم من الصيادين، كما وأن القاتل أعدم صريعاً بالسيف وأصدر السيد بوشمان الأمر باعتقال البحارة الذين حاولوا الفرار بالرواق إلى أن سلم الشيخ الشاب الباقي واعتذر عما حصل.

خلال هذا الوقت، وصل إلى الحرج يخت الركيل الانكليزي في البصرة وكان الكابتن برسي، الذي أبحر في ٢٢ منه برفقة اسطول الشيخ ناصر، أخذ هذه المركب معه، لنقل الجيوش العارسية من بندر، ومهاجمة خويري. وعند اقترابهم من هذه الجزيرة، فتحوا نيران مدافعهم، فأصابهم مير منها بإطلاق فنيلة واحدة فحسب، معتبراً ذلك حشية حلاصه. فاشتد من سعة الحربية كانتا معطلتين بسبب اختفت السمن الثلاث الأخرى منذ بضعة أيام، وظن البعض أنه أرسلها في مهمة عاجلة دون أن يعرف وجهها.

صباح ٢٣ من عاد الاسطول إلى بندر. في البداية، عمد الشيخ الشاب إلى الابتعاد عن اللقاء مرساته بعيداً عن الجزيرة، غير أنه لم يتمكن لاحقاً من لاجار عكس الريح. في صباح يوم التالي، رست السمن كنه أمام الحرج. غير أن الجيوش لم تكن في انتظارها. كان الأمير كسيح خان قد أكد للكابتن برسي أنه سيصبح خمسة آلاف رجل في خدمته، بعد انتهاء عيد الحسين (عاشوراء) الذي يمتد من ١٠ إلى ٢٩ حريران/بومهر وأظن أنه كان حزيناً بالانكيز أن لا يصموا أنفسهم في هذا القائد العارسي إذ كان يعتمر بمآثره العظيمة، التي تقتصر على احتلاله مدينته بندر، التي هجرها سكانها وجنودها على حد سواء. في الواقع، كان يترك للأكبر ولشيخ بوشهر عاء معالجة هذا الوضع، رغم أن سمن هذا الأخير كانت تبتعد إلى عرض البحر، عند اقتراب الكابتن برسي من المد، مما يحسب أن الجميع كان يعتمد على الانكيز الذين وافقوا على مساعدتهم تحت تأثير الوعود. وبكر الكابتن برسي كان يحد أن التحل يتوقف على الهجوم الذي اقترحه، إذ كان يسعى لقطع المؤد عن مير مهيا فالسفن الحربية تجوئ بشكل مستمر حول خويري، وتراقب المراكب التي تعبر من هنا علاوة عن ذلك، كانت تطلق النار بشكل دائم على الجزيرة. ولكن مير مهيا لم يحاول أبداً أن يرد بالمثل، ربما كان رعاياه يأمنون أن يطلق العدو

بيران مدافعه بخرارة، إذ كانوا يحصلون على فلورين مقابل كل قبلة يثرون عليها على الشاطئ. والجدير ذكره أنه بنيت على الجزيرة مناريس رملية يختص خلقها السكان احتفاءً من القبايل التي تطلق من البحر. كما وإن مير منها بنى مناريس مماثلة أمام السفينيين الحربيين المعطلين حتى يتمكن التجارون من اصلاحها في أمان. ولما كان قد سمع عن الهجوم المذكور، أقام مراقباً للمدفعية في الأماكن التي قد يحاولون مهاجمته منها. وفي هذه الأثناء احتفل السكان بالعائذ بالله بحماسة كبيرة، زادت هذه الجزيرة حيوية، فكان أهل الشبعة يركضون هنا وهناك حاملين الخناجر أو السيوف في أيديهم، ساعين لتمثيل معركة كربلاء، حيث خسر إمامهم الكبير حياته، أما بعضهم الآخر فكان يذق صدره ويكي موت الحسين وينديه، حتى حسب الإنكليز أن الجزيرة تشهد مأساة عظيمة، ولكنهم عسوا لاحقاً أنهم يحتفلون بالعيد بهذه الطريقة.

في ٢٧ منه، علمنا أن سفن مير منها البحرية، التي انخرقت منذ بعض الوقت، هجمت سفناً بحرية آتية من البحرين ومتجهة إلى بوشهر وعلى منها أموال وجواهر ثمينة. ووصلت اثنتان منها إلى الخرج لإعلامنا أن السفينة البحرية الكبيرة قد هوجمت من قبل العدو، بينما تمكنت من الهقا. في ٢٩ منه، كان أسطول مير منها الصغير يبحر باتجاه حويري برفقة السفينة البحرية التي استولوا عليها.

كان الكابتن برايس والشيخ الشاب قد ألقيا المرساة في الجهة الشمالية - الشرقية للجزيرة، بينما جال فيحمت والسفن الحربية الأخرى التي سيسلكها الأسطول العدو. فحينئذ هذه المرة أن المعركة حتمية لكن عندما أدرك بحارة سفينة بوشهر أن إحدى السفن التابعة لأسطولهم وقعت في براثن العدو، راحو يذهبون أهلهم وأصدقاءهم الذين قتلوا أو أخذوا رهبة على متن هذا المركب، وبدلاً من أن يحتشم هذا الأمر على مهاجمة العدو، عادوا جميعاً إلى السفينة الكبيرة. ولم يحاول رجال مير منها اقتناء أثرهم بل فصبوا التوجه شمالي الجزيرة للتزود بالمؤن، ليعدوا بعدها ويتابعوا هجماتهم. استاء الكابتن برايس من رفض السفن الحربية مواجهة العدو مباشرة. فأرسلها في بداية الأمر لإطلاق النار على اليابسة. ولكن مير منها كان قد ترك على الشاطئ السفينة الحربية المنصورة، بينما رود سفينه بالمؤن اللازمة لتبحر إلى عرض البحر. وبعد أن حاول أسطول بوشهر اللحاق بها عراً عاد في الليلة نفسها إلى الجزيرة حيث ألقى المرساة.

في ذلك النهار، كان الإنكليز على استعداد لتدمير سفن مير منها الحربية الثلاث لو لم يحصل عنهم العرب. ولكن الانفصالات بدأت تظهر بينهم. فقد أعطى الكابتن برايس الأمر لجميع السفن، بعدم الإبحار إلا بملاحقة العدو، والعودة فور انقضاء المهمة. غير أن العرب ضربوا هذه الأوامر بعرض الحائط، إذ إن كبيراء الشيخ الشاب لا تسمح له بالخضوع لأوامر الأوروبيين. وعندما كان

الانكليز يهاجمون العدو، كان يتعد عن اسطربهم مدعياً ان قوة الرياح تمنعه من الدنو منه. في اليوم نفسه اصيب مركب الكابتن برايس بقنبلة مصدرها اليابسة، بينما كانت سفن الشيخ في عرض البحر. ونظر لهذه الخلافات القائمة بين العرب والانكليز، جمع السيد ناثر الاوروبيين المورعين على السفن كافة، وعادر برفقتهم المنطقة على يخت ابصرة، وعلى طرادة الكابتن برايس.

في ٢ تموز/يوليو، حصر الشيخ مركبين، واحد منهما تكسر على الصخور وأخر تم الاسيلاء عليه. في ٩ منه، وصل مركب انكليزي كبير من اليغال متجهاً الى ابصرة. فعرض عليه الريان ان يقلني على متن مركبه، غير انه كان يريد الابحار في غصون ماعة، دون ان يترك لي الفرصة لحزم امتعتي، كما راسي انفصل السر على متن مركب صغير، برفقة ريان عربي يعرف جيداً مصدب نهر شط العرب ورايه. ووصل يخت صغير من ابصرة، يعلمنا ان عرب قبيلة كعب لا يصمرون الشر للانكليز، غير انه كان يخشى العودة بوحده، بسبب سفن مير مهنا الحربية. مرافقه مركب كبير، ونحقت بهما الى شط العرب سفن الشيخ سيمان الحربية.

لو رحلت برفقته، لفقدت معداتي كلها واوراقتي، في ١٠ منه، شاهدنا على مقربة من الساحل الفارسي عشر سفن حربية، بعضها تابع لمير مهنا، وبعضها الاخر للشيخ سليمان الكمي. فقد زحذ عدوا كريم خان قواهما البحرية وبعد ان واجه الكابتن برايس مشاكل جمّة مع الشيخ الشاب، اعلن في ١١ تموز/يوليو انه يريد العودة في الليلة التالية ولما كانت المؤن قد نفدت من الشيخ قرر العودة الى دياره، واضعاً بذلك حداً للحرب.

بعد مرور بضعة اشهر، طرد مير مهنا الهولنديين من الخرج، علماً انه كان على وشك ان يهرم، لو لم يتخلل عرب بوشهر عن الكابتن برايس والسيد ناثر. وضع الهولنديون مئة رجل لحمايتهم، فضلاً عن خمسين بحراً على متن سفنهم الحربية، ولكن كان ينقصهم ضباط ماهرون، فالصايغ الوحيد الذي كان يرافقهم، مات منذ فترة طويلة. عند عودة السيد بوشمان الى بوشهر، حل محله السيد هوتيغ، الذي احضر معه ضابطاً جديداً، ثم بنحرف في السلك العسكري من قبل، ولم يلق حظوة لدى الجنود. وكان من المفترض ان يحارن الوالي الجديد امين سر يدعى السيد تيم ولكنه قتل قبل بضعة ايام من وصول السيد هوتيغ، ولما كان هذا الاحير، يحهل لغة البلاد وعادات حرب الخليج الفارسي، لم يحسن ادارة هذا المنصب الموكل اليه، علماً انه لم يحط باشخاص حكماء، يستطيع الاعتماد على نصائحهم. لاحظ مير مهنا ذلك، وعلم ان السيد بوشمان اقل من منصبه وان الكابتن برايس هاد الى الهند، فبدأ يعيق اعمال الهولنديين التجارية. فتحالف هؤلاء الاخرون مع شيخ برشهر، وعطلوا سفن العدو الحربية، وانزلوا رجالهم في خويريه في تشرين الاول/اكتوبر. ولما انفصل الهولنديون عن صحفائهم، فجاهم مير مهنا بشن هجوم معاكس عليهم.

فأنزل رجاله في المخرج واستولى على القصر، وبالتالي على الجزيرة كلها وعلى كمية من البضائع القادمة حديثاً من بنايا. فانسحبت الجيوش الفارسية من بندر، ليستولي عليها لاحقاً مير مهنا.

لعلني اطلت الحديث عن حرب الخليج العربي، التي شهدتها بأم عيني، ولكسي أردت أن أعلم قرائي، أن الأوروبي لا يستطيع الاعتماد على تحالفه مع مسلم ضد مسلم آخر في هذه المناسبة، كان شيخ بوشهر يثنى هزيمة مير مهنا، ولكنه لم يعد أوامر صريحة لرباهة منه. وكان ضباطه يتحاشون دوماً المحارك إما خوفاً على حياتهم، أو أن أحدهم حاول أن يرشيقهم. وفي هذه الأثناء، وجد الانكليز، ومن بعدهم الهولنديون، أنفسهم لوحدهم.

كان الهولنديون يفتخرون كل الفخر بتوليهم الحكم في هذه الجزيرة، واستيلائهم على حصص في الخليج الفارسي، حتى أنهم لن يتقبلوا بسهولة مسألة خسارة المخرج^(٥).

تقع مدينة المخرج، التي بناها الهولنديون منذ بضع سنوات، شمالي - شرقي الجزيرة. على ارتفاع ٥٢٩، ٦٥ من القطب. وقد أشرت إلى موقعها ومساحتها في النوحة XXVIII. تشير الصورة (A) إلى الحصن الذي بناه البارون كينوس، كان مقر الحاكم، يقع قديماً في هذه البقعة. أما غرفة الضابط البحري، فتقع خلف الباب المقابل. علاوة على ذلك، تكثرت الشقق الفاخرة التي عاصمها الحاكم لصيوقه. في الجهتين الشمالية والجنوبية شاهد متجرب كبيرين، غير انهما لا يتسمان لحصول المركبين اللذين يصلان سنوياً من بنافيا، لذلك بقيت متاجر أخرى في المدينة. نشاهد في الصورة (B)، حديقة جميلة، هي عند طرفها، المطبخ أما في الصورة (C)، فوجد خائناً للقوافل. كان موظفو البعثة الهولندية في الهند الشرقية، من أرمن وبنائيين يقطون في الصروح الحجرية الأخرى، أما تجار الخردوات والصيدون، والحرفيون، من عرب وفرنس، فيقيمون في أكواخ صغيرة، خلف تلك الصروح، وهي تطل على الباراز أو سوق التجار. واتخذ البرونستات والكاثوليك أماكن خاصة بهم، ليمارسوا فيها شعائرتهم دون أن يسمح لهم بتعيين كاهن لهذه الغاية، غير انه غالباً ما كان يحضر راهب كرمني من بوشهر لترؤس قداميسهم. يملك الأرمن خارج البلدة قرب الصورة (D) كنيسة صغيرة، يعلوها جرس، وهذا أمر نادر في هذا البلد، احتفظ شعب كافر الأرميني، الذي كان أفرادهم يباعون كعبيد في خارج، بديانتهم الأصلية. فبنا منزلهم قرب الصورة (C) تكريماً لنيهم العظيم الشيخ فرج. تتضمن شعائرتهم الدينية بالرقص على وقع الطبول، وعبرها من الآلات الموسيقية الصاخبة.

(٥) في السنة التالية، أرسل الانكليز عدداً هائلاً من الجنود من بومباي الى المخرج لطرد مير مهنا، غير أنهم عادوا لدرابجهم دون أن يعملوا شيئاً. في نهاية المطاف سمع رهايا مير مهنا من طابعه، فقرر ان البصرة، حتى لا يقع اسمهم العرم. عبر ان المتسلم Mutallib أرسل رأسه الى بانها بخداد ورمى جثته في حفرة، عندئذ اعيدت المخرج الى العرب.

علاوة عن ذلك، كانوا يعلقون سلسلة من بزور فاكهة المانعا الهندية، حول أرجلهم حتى يصرخوا أوصاً، محدثين بذلك ضجة كبيرة، تدل على قوة إيمانهم وهم يقيمون هذه الاحتفالات عند موت احدهم أو سفره، أو زواجه، أو ولادة طفل له...

ينقسم مسلم هذه الجزيرة إلى سنة وشيعة، وهم يرزرون جميعاً مسجد الأمير المدون هنا^(*). ويقال ان مركباً كان ينقل تجاراً كفاراً، تحصم على الصخور وقضى كل من فيه، بعد أن ابتهل هذا القديس إلى الله، راجياً منه ان يفصل ذلك. ويزعم ايضاً أن الكلاب كانت تخشى الاقتراب من هذه الجزيرة بسببه، ولكن منذ ان استقر الهولنديون فيها، راحت تنقل فيها على هراها

ان الفرق الاساسي بين أهل الشيعة وأهل السنة هو أن هؤلاء الآخرين قدموا بكثرثون لمسألة تسلم عائلة بيهم الحكم، واحتفاظها به، بحسب اعتقادهم، شاء الله ان يمين المسلمون أنها بكر وحمر وعثمان خلعاء، وانهم وصلوا إلى الحكم قبل صهر محمد وأولاده من بعده. ولكن أهل الشيعة يكرهون هؤلاء الخلعاء الثلاثة لأنهم استلموا دفة الحكم قبل علي، ولكن الحسين قتل في إحدى المعارك، على يد جيوش قهرمذا، أحد الخلعاء اللاحقين، لأن رفض الحضور بالحكم، مطالباً بالخلافة لنفسه. ولهذا السبب يحتفلون كل سنة بعيد الحسين لمدة ١٠ أيام احباء لهذه الحادثة. أما في بلاد فارس حيث المذهب الشيعي هو السائد، فتراهم يندمجون في هذه المسألة إلى حد بعيد، فيسعون إلى قتل الحسين، أو المسلم، الذي يستحق الخلافة؛ لهذا السبب، يفصل على اتباع المذاهب الأخرى، لزوم مبارتهم خلال الاحتفال بهذا العيد. في المخرج، يسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية، دون الامترسال في حماستهم، فعند أهل السنة يعوق عندهم، كما وأن حاكمهم هولندي حظر الحاكم عليهم البكاء والشعيب بموت مرتفع في المدينة خلال العيد، حتى لا يزعمجوا اتباع الديانات الأخرى. فكانوا يمارسون عاداتهم، خلال الأيام التسع الأولى خارج المدينة. ولما كنت أجهل هذه الأمور، سمحوا بهم بدخول المدينة في اليوم العاشر (٢٩) ثمر/يوليوس، ليمثلوا مأساتهم في الساحة العامة، فقصده مسلم المخرج كنهم المكان للتمرح عليهم. فكان من السهل التعرف على أهل السنة وعلى أهل الشيعة من خلال هيتهم الخارجية، إذ بدأ واضحاً ان بعض أهل السنة تأثروا بهذه التمهيد حول ابن بيهم المسكين، رغم انهم حافظوا على رباطة جأشهم بينما كان أهل الشيعة يصرخون صدورهم أو يمزجون عن ألمهم بطريقة أو بأخرى، حتى أن بعضهم كان يكي بمرارة، ودموعهم تسيل على غددودهم، وهم يصرخون حسناً حسيراً بما من يلعب بيهم دور اتباع الخليفة يزيد؛ تحت إمرة القائد شمر، فكانوا يركضون شمالاً وبيماً،

(*) لم يكن ابن فاحسة بل ابن امرأة اخرى، وقد نقله الكتاب المسلمون بحسبة راجعوا

حاملين سيوفهم، وكأنهم يحثون عن العدو. عندئذ وصل الحسين برفقة عدد من أصدقائه، حيث هوجموا بصورة وحشية هذا حتى وجرمهم البأس، وقد مسمر على عدم التضحية بحياتهم بسهولة، فراحوا يدافعون عن أنفسهم ببسالة. أما المدعو القاسم بينهم، فقد طرح أرضاً عدة مرات، وكلما حاول أن يمتطي حصانه ثانية، توصلت إليه بهالة^(١) أن لا يفعل وهم يسرفن دموماً حارة.

ولعب أحدهم أيضاً دور العباس، أخو الحسين، الذي بقوا له يديه، بينما كان يشرب من السم، وكانت بعض الشخصيات تمتطي الأحصنة، وبعضها الآخر يلعب دوره سيراً على الأقدام: إذ لا تتوفر الحياد والجمال بكثرة في هذه الجزيرة، لأن المجتمع يتألف من طبقة من العقراء، يرتدون ثياباً رثة. أما الموسيقى التي كانت تصدر في المكان، فكانت تصدر عن أوعية معدنية، تطرق بعضها البعض. أرغم جيش الحسين الصغير العدو على التراجع عدة مرات، إلى أن صرع بعدها الصباط، الواحد تلو الآخر، أرضاً، ومن بينهم الحسين، وأخذوا رميته، وعلفوا بعدها قطعاً خشبية كبيرة يمتد أصصال الحسين، وطلبوا من جلاد يرتدي ثياباً مريخة أن يفودهم للمثول أمام العدو الأعظم: واحتفظ البعض منهم بكبريائه وشموعه أمام الغرابة. عندها، أصدر الأمر بقتلهم، وبكى الجلاد كان قد فعل ذلك مسبقاً^(٢)، مما أثار غضب القائد فأمر بقتله أيضاً.

من المعروف أن الحسين قد قتل في ساحة كربلاء، المجاورة لمدينة بابل القديمة وكان الخليفة يريد بئيم حبسها في دمشق. وجسد ههنا، جالساً على كرسي أوروبي الطراز، حاملاً صوطاً في يده. استناداً إلى تاريخ النسمين، وافق سفير لامبراطور اليوناني، أفراد عائلة الحسين، الذين بقوا على قيد الحياة للمثول أمام يزيد، وقد بدأ هنا مرتدياً ملابس أوروبية، ومعتزلاً قبعة مطررة بخيوط ذهبية، غير أنني لا أظن أن اليونانيين قد اعتصموا يوماً هذا الزي، وسجل أهل الشيعة، كانوا يحاولون محاربتهم من خلال هذا التصرف، بقية اثبات الصداقة الوطنية التي كانت تربط الحسين بالمسيحيين.

فصدا اقتيد علي بن الحسين، الذي لقب لاحقاً بزين العابدين للمثول أمام الخليفة، اقترح عليه هذا الأخير الحصوع له. أو كما يدعي الشيعة، الارتداد عن دينه، فأجابه بالرفض بشموخ وكبرياء فتدخل السفير مرتين ليهدد عنه عقوبة الاعداء. ولما اقتيد لسرة الثالثة أمام الخليفة، وإلى السفير عليه، أمر الخليفة بقتل الاثنين معاً^(٣). والجدير ذكره أنهم لعبوا أدوار شخصيات متعددة، لم أحفظ أسموهم، أو قصة حياتها.

(١) لم يكن للقاسم بنات ولا عييل ولكن هنا خلط بسير أمره مقدرة مع ما تقدم (الانتشار).

(٢) لم يقتل أحد من أسرى كربلاء بعد الواقعة (الانتشار).

(٣) لم يأمر يزيد بن معاوية بقتل علي بن الحسين أو سواه بعد كربلاء (الانتشار).

سأنتدو عنكم في ما يلي مثلاً عن تطير سكان هذه المدينة: لسنوات خلت، قتل جدي الصايط المسؤول عنه بعضي ناري من بندقية، فأمر الحاكم بقطع يده وبشفه لاحقاً. وبعد أن بترت يده نجسعت حوله بعض السوسة، لجمع دمه المهدور، فحرّس بتنازع حول الرمال التي تصرخت بدمه. وبعد أن قطع رأسه، وقفر جميعاً تحت المشنقة ظناً منه أن ذلك قد يساعده على الحمل.

تقع جزيرة الحرج على بعد أربعة أو خمسة أميال من المحيط، ولما كانت قديماً معطاة كلياً بالمياه، تتألف الجبال والهضاب الوامعة وسط الجزيرة من الحجارة المرجانية والصدف. وتكثر هنا بقايا أعمال السكان القدامى التي لا توازي بقايا نقشي رستم أهمية رغم أنها منحوتة في الصخر. ويقال أن قصة رستم قد حفرت على أحد الجدران رغم تعرضها للتلف بفعل مرور الزمن، ومحاولة بعض الساسة المتعصبين تشويهها.

وأكثر ما يلفت انتباهنا بين هذه البقايا، هي قناة للمياه، فنقل عبرها مياه أحد الشيايح، لري البساتين المجاورة. تعلو هذه القناة ثوب محمورة في الصخر، شبيهة بالمواقف، وبقوات المياه في فارس. والجدير ذكره أن مياه هذه الجزيرة صالحة للاستعمال، مما يعني أن السفن المارة من هنا، تزود بكمية وافرة منها.

لا تضم هذه الجزيرة الا قرية واحدة. قبل وصول الهولنديين، كان سكان القرية يتمتعون بحماية والي يدريخ لهم. ولما راح يسمى كن ميند، في الخليج الفارسي إلى نيل استقلاله، وإعلان الحرب على جاره، عانى سكان الخرج الفقراء الأمرين من قراصنة هذه المنطقة، ولوثوا الهجرة من الجزيرة. فأدى ذلك إلى تحول تلك الأراضي الخصبة إلى مناطق قاحلة، إذ كانت تكثر فيها دوالي العنكب، وأشجار التين والبلح وغيرها من العواكه المثمرة. ورغم أن اللاك، تتوفر في هذه الجزيرة، إلا أنها تكثر في قاع البحار، واستخراجها بتعب أموالاً طائلة. والجدير ذكره أنني أرسلت شجرة مسائلة إلى كوبنهاغن، وهي خالية من الأوراق، وتغطي الأصداف، حيث ترقد اللاك، أغصانها. عندما فتحت الصدف الأولى، وجدت لؤلؤة متوسطة الحجم، غير أنني لم أستطع فتح الأصداف الأخرى، لأن ذلك يقتضي انتزاعها عن الأغصان.

ترتفع درجات الحرارة في الخرج في فصل الصيف، غير أن الحر ليس شديداً على السواحل المقابلة. ففي شهري حزيران/يونيو وتموز/يوليو، هبت الرياح الشمالية - الغربية، المنعشة والجافة ومصدرها الصحراء، وهي تحول الأجسام الصلبة كالزجاج والحديد والحشب، إلى كتل منتهبة، حتى وإن وضعت في الظل، بينما تزيد برودة المياه خاصة أن وصفت في أوعية فخارية في الهواء الطلق. لكن إن هبت الرياح الجنوبية الشرقية، الآتية من البحر ارتفعت نسبة الرطوبة، خاصة عند

المساء، ويقال ان هذا الندى ليس مضرأ ابداً بالمصحف، علماً اننا كنا ننام في العراء. والجدير ذكره انني اصببت يدي العيون، السائد في هذه المنطقة.

بنى الهولنديون تحت منازلهم، عروفاً صيدية، شأنهم في ذلك شأن اعيان بلاد فارس، وبعداد والبصرة. وجدت تحت المنزل الذي اعده لي السيد يوشمان غرفة مجهزة بمروحة لتطيف الهواء، غير انني نادراً ما كنت استعمل هذا المكان، حتى ابقى معتاداً على الجو الحار، ولا اظن ان المروحة تختلف كثيراً عن المدفأة، إلا بكونها مفتوحة من احدى الجهتين، ليدخل منها الهواء في الفصل الحار.

الرحلة من الخرج إلى البصرة

في ٣١ تموز/يوليو، عاشرت الخرج عند المساء، وبلغت مصب شط العرب بين الاول والثاني من آب/أغسطس. يطلق العرب هذا الاسم على النهر الكبير الممتد من القرنة، حيث يندمج الفرات، ودجلة إلى الخليج الفارسي. ولا يزال العرب يطلقون على المنطقة الواقعة فوق القرنة، اسم الفرات الاول والجل الأخير، المذكورين في الكتاب المقدس. ينقسم شط العرب، قرب البصرة، إلى عدة رواقد^(٥).

والملاحظ ان الجسر المحيطة بهذا النهر، تقع على مستوى منخفض جداً، مما يتعدى بالتالي على الاشخاص القدامين بحرأ رؤية مصبات الشط، شأنها في ذلك شأن مصبات النيل، وحده الرافد الغربي المعروف بشور حالتا، يستعمل احياناً للملاحة، فغالبا ما نجد امام المصب رصيفاً عالياً، يتعدى على السفن الكبيرة اجتيازها، خلال ارتفاع نسبة المياه أو عند اكتمال القمر^(٦). نجد النهر من الجهتين بساتين الخيل والقرى الصغيرة والمنازل المتناثرة هنا وهناك، أما أكثر القرى تحيراً فهي قرية حسان ابن الحنفية، حيث دفن المدعو حسان، شقيق الامير محمد، الذي اتيت على ذكره في سياق حديثي عن الخرج، ويقال انهما ابنا علي وحفيدا محمد. واطن ان المكان الذي دفن فيه حسان، كان مغطى بالمياه قبل ١١٠٠ عام تقريباً، فالشاطيء منخفض جداً في بعض الاماكن، إلى حد ان السكان اضطروا لبناء السدود كي يحموا بساتينهم من الفيضانات. وشاهد

(٥) يسمى احيان هذا النهر ستر، وليس ينسب لا يطلق عليها بعض اليونانيون، اسم باميريس، تعودون في اللوحة XL الخريطة التي رسمتها استناداً لما شاهدته، وزوايات بعض سكان البصرة، واطن انها تعني القاري، فكرة عن مصب هذا النهر.

(٦) استناداً الى تقرير البحارة، يبدأ المد هنا، عند ظهور القمر في الافق، مما يعني انه عند اكتمال القمر، يبلغ المد ذروته شهراً أو عند منتصف الليل.

في كافة الانحاء، قنوات محفورة في الأرض تنقل بواسطتها المياه إلى بساتين الخيل، حامله معها كمية كبيرة من التراب. دمرت قرى جزيرة محروى منذ بضعة سنوات، حين استولى عليها سليمان، شيخ قبيلة كعب، وشاهد بالتالي انقاص قرية تعرف بسراي غير ان أحد التجار الأوروبيين في البصرة أكد لي انها انقاص «بصرة» التي بناها الحليفة عمر. والجدير ذكره ان بعض الرحالة يسمون في مؤلفاتهم، البصرة القديمة سراي ولكن مدينة البصرة التي بنت في عهد الحليفة عمر تقع في مكان آخر. تتألف انقاص جزيرة محروى من اسوار من الصلصال مما يثبت انها ليست بقديمة.

لم أستطع ان ادون على خارطة اللوحة XI اسماء كل القرى الواقعة على ضفاف شط العرب، من الخليج الفارسي إلى البصرة، معظمتها صغير للغاية ولا يستحق ان يوليه عالم الجغرافيا اهتماماً. في مطلق الاحوال، سأذكر عديكم فيما يلي اسماء القرى كلها، رغم ان بعضها قد يبدو لتقارء غريباً بعض الشيء، والجدير ذكره ان هذه القرى تخضع لحكومة البصرة. رغم انها لا تقع كلها بمحاذاة النهر.

تجد في الجهة الغربية لشط العرب، اقليم دولسر، الذي يضم جوييند وجابند، وكوة ابن حلف، وكوة خليفة، وكوة غانم، وتليها قرى سباح وريز وقاووس، وكليسيا، وشمرت، ومطوعة صميرة، ومطوعة كبيرة، وسلم علي، وحسيات، وبلد حان، وعامية، (ابو مفيح وعيادة، وباب كنكي، وباب العريضة، وباب الصويين وباب الدباع وابو الحصص، وعيبة، ونهر خور، وابو معيرة وسليات، ونهر حباب، والبند، وبهودي، وحجة وكوة ابن فامر وعلي احمد ابن كوة، وكوة ابن الكومرلي، جزيرة علي، وبلد ابن سبيع، وباب السجدي، وبلد وبوسعان، وحمدان وكربة وبلد السيد، وبلد محرم، وبلد ياس، ومهيمران، وعجه مصبح وبو سلال وعويسيان، وصراجي، وميتان، وبراصمة، وأم النعاج، ومناوي

وتجد على جزيرة محروى، قرى منوحى، غصير ابادان وباردة، وكوب بن اسماعيل، وصويح الكبير، وصويح الصغير، وحوش، وكوة ابن بلول، ورأس الحدة، ومحيلله، ومحروى ونهر الشيخ وكوة عامر، وكوة السعفي، وكوة عيسى وكوة الملا وجزيرة السحة.

تقع القرى التالية على الضفة الشرقية لنهر وتخصص لحكومة البصرة، عبد، سانية، حفار، قلعة المحروى، قلعة الحفار، كوة شيخ يعقوب، معمرية، درين، ابو جديع، خبي، ثمار، حمرناب، دصجي، كوة الرناد، جزيرة البارين، كوة الجوع، ثومة، شريعة، كردلان، وكوب الحلابة، ونهر يوسف، وجيسي، وكوت انجانة، وريان، وحوطه، وشيبان، وجاجي، رحسانه، ومماره، وحلاف، وام الزبط وشله، ومصطفاوية، ورميلية، وام التوت، وكوة الدرجة، وحلط، وسويب، ومرفأ حفيظة، وشسلي.

ملاحظات حول بوصلة الشرقيين

أكد لنا الرحالة الآخرون ان العرب لا يستعملون اسماً آخر لبوصلة، غير ان العرب، الذين لم يشاهدوا هذه الآلة إلا صدفة على إحدى السفن، لا يعرفونها جيداً. علماً ان علماءهم لا يستطيعون الاستثناء عنها ابداً، محال الصلاة يدبرون ووجههم صوب الكعبة، مما يقتضي عندهم ان يتأكدوا من موقع مكة، قبل بناء المساجد، لتحديد المكان الذي يجب ان تبنى فيه القبلة. كان أحد علماء القاهرة يستعمل لهذه الغاية، ابرة ممغنطة تعرف بالمشاطيس، غير ان الشيخ المذكور لم يسمح قط، بسألة انحراف الابرة أو تبدل وجهتها سنوياً، فضلاً عن ذلك، سمعت العرب يسمون البوصلة، ديرة أو بيت الابر. بينما سكان الخليج الفارسي يسمونها قبله نماء أو راس نعمة. بقي هذه البلاد يسمي السكان اقطار العالم استناداً إلى ظهور بعض النجوم أو غروبها، الشمال، «باب الجنوب» و«يل» الشرق «متلا» العرب مريب الشمالي شمالي شرقي متلا حسن. الشمالي شمالي غربي مريب حسن، الشمالي شرقي متلا - نعل، الشمالي - غربي - نعل مريب نعل، الشرقي - شمالي شرقي متلا شمالي، الغربي - شمالي - غربي، مريب سمك، الشرقي جنوبي شرقي متلا عقرب، الجنوبي غربي، مريب عقرب^(١). رغم التسميات التي تستعملها الامم الاخرى لخطوط البوصلة لا تثير اهتمام القراء كمنهم، إلا اني سأثقل عليكم تلك التي يستعملها الهنود والآثراك وسكان ماليزيا، والسيامين.

يطلق الآثراك على الجهة الشمالية اسم بلدر والجنوبية قبله، والشرقية كوندوعروسي والعربية باطي، والشمالية - شرقية فوريار. والجنوبية - غربية كششلمة، والجنوبية شرقية لودوس والشمالية غربية قاريل.

يطلق الهنود على البوصلة اسم موكة Hokke ويقسمونها إلى ٣٢ خط أو شان Chan، تطلق الواحد منها ١١ ٥٢/١، ولها ١٧ اسماً علماً ان خطوط الجهة العربية من خط الطول الاساسي تعمل الاسماء نفسها كخطوط الجهة الشرقية منه.

(١) النعل، هو عبارة عن مجموعة نجوم الدب الكبير، سمك، والعرب وريو.

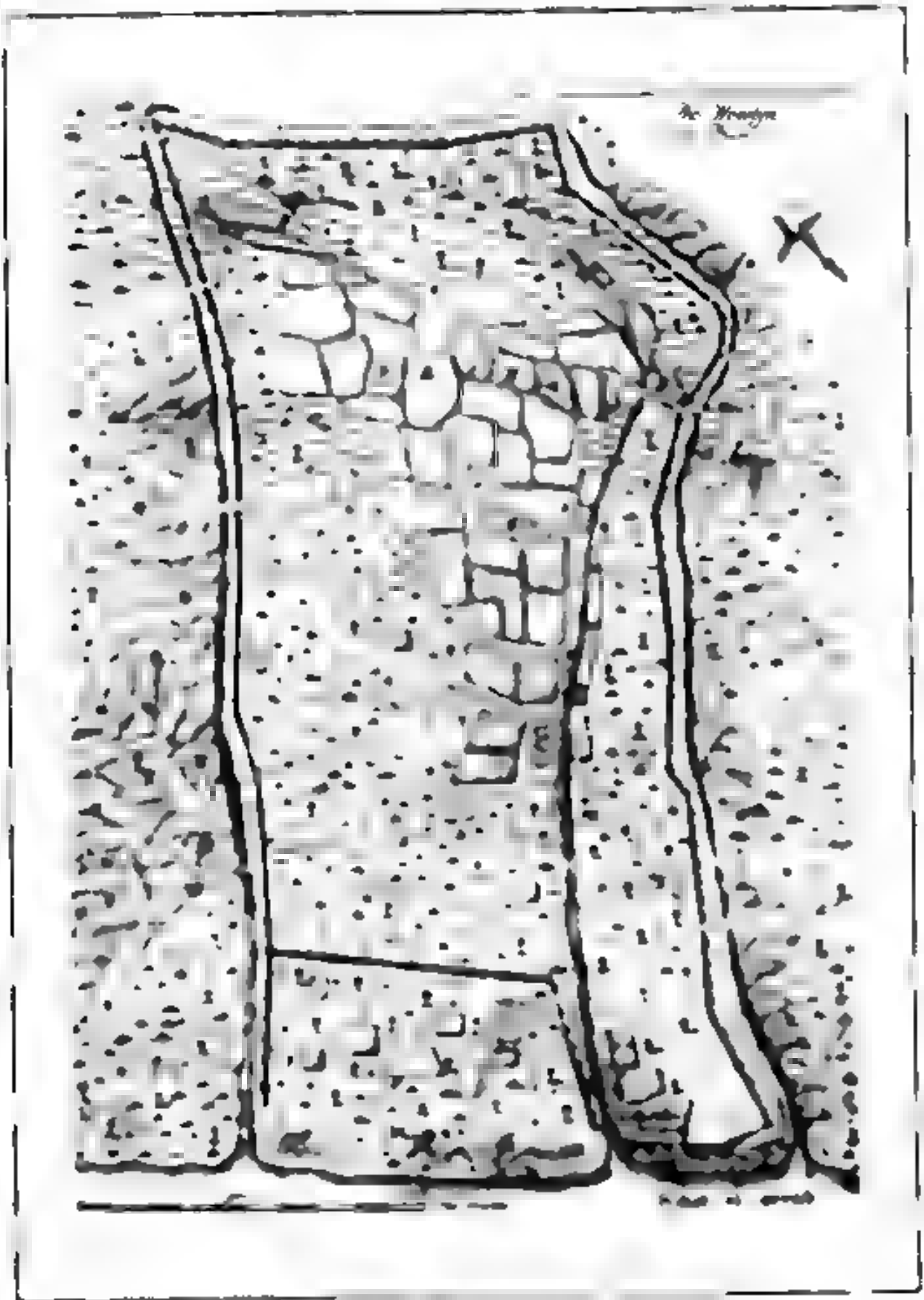
من الجهة الغربية		من الجهة الشرقية	
دور	الشمال	دور	الشمال
دور	الشمال غربي	دور	الشمالي / الشرقي
ساتيسار	الشمالي الشمالي غربي	ساتيسار	الشمالي / شمالي شرقي
اونسي	الشمالي غربي شمالي	اونسي	الشمالي / شرقي
بو ايس	الشمالي غربي	بو - ايس	الشمالي / شرقي
عوسعير	الشمالي غربي غربي	عوسعير	الشمالي / شرقي شرقي
شتر	الغربي شمالي غربي	شتر	الشرقي شمالي شرقي
كاتيسار	الغربي شمالي	كاتيسار	الشرقي شمالي
اون	الغربي سارا	اون	الشرقي سارا
حاران	الغربي الجنوبي	حاران	الشرقي جنوبي
لودا	الغربي جنوبي غربي	لودا	الشرقي جنوبي شرقي
دجيت هول	الجنوبي شرقي غربي	دوجيت هول	الجنوبي شرقي شرقي
كاعرا	الجنوبي غربي	كاغرا	الجنوبي شرقي
توران	الجنوبي غربي جنوبي	توران	الجنوبي شرقي جنوبي
تشوكي	الجنوبي جنوبي غربي	تشوكي	الجنوبي الجنوبي شرقي
اعاس	الجنوبي غربي	اغاس	الجنوبي شرقي
تم	الجنوبي	تام	الجنوب

أعطاني برتغالي في بومباي، بوصلة سكان ماليزيا وسيام، كان هذا الأخير قد عمل في خدمة الأوروبيين واليهود كريان مفس، كما وإن خدم في جيش امام عمان، ببشارة أخرى يدا لي اسماً جوالاً بكل معنى الكلمة، ولكنه كان يحسن استعمال البوصلة ويعرف الكثير عنها.

فستاداً لمعلوماته، وضع السياميون ثمانية خطوط على بوصلتهم يسمونها استناداً لرياح التي تهب في هذه الاقطار: الشمال، واو، الشمال - الشرقي اوترا، الشرق، نيبا بود، الجنوب - شرقي تاب هار، الجنوب سلاتان، الجنوب - غرب، برشا، الغرب، تيان نوك، الشمال - غرب، برات لوان، اما سكان ماليزيا، فلا يستعملون الا ثمانية أسماء لهذه الخطوط، الشمال اوتارا، الشمال - شرق تيمور لافاد، الشرق تيمور، الجنوب شرق سلاتان دجا، الجنوب، سلاتان، الجنوب غرب برادجا، الغرب باراد، والشمال غرب بارا لافاد غير ان بوصلتهم تصم ٣٢ خطاً، يحمل كل واحد منها تسمية طويلة جداً في لغتهم، مثلاً، من الشمال إلى الشرق، اوتارا دي كانان يارون بندي، من الشمال إلى الشمال شرق، اوتارا دو كانان يارون بانجان، ومن الشمال شرق إلى الشمال تيمور لافاد يارون دو كوري يارون باندي^(٥)..

حاول بعض الرحالة اقناعاً ان العرب البدو يستعملون باليوصلات خلال رحلاتهم في الصحراء غير انني لم أجد ما يثبت ذلك. فحين رأوني احمدها سألوني عن سبب استعمالهم له. فأجبهم انها ساعة تحدد موقع القبلة، اي مدينة مكة، ولهذا السبب، كانوا يقصدون سري للاستعلام عن وجهة القبلة كلما أرادوا الصلاة. والجدير ذكره ان هؤلاء العرب، يتنقلون دوماً في الصحراء ويعرفون الطرقات جيداً، ويستعملون ليلاً بالتجوم، ولهذا السبب لا يحتاجون للبوصلة ابداً

(٥) تعني كلمة كانان في لغتهم، الجهة اليمنى، وكوري الجهة اليسرى وبارون، الربع



ملاحظات حول البصرة

تقع مدينة البصرة على ارتفاع ٣٠°، ٣' من القطب، على الجهة الغربية لشط العرب، وامتداداً لدخاظة التي رسمتها في الدوحة XXXIX يبلغ طول سورها حوالي الميل تقريباً، وتكثر فيها بساتين النخيل وحقول القمح، التي تزيد من نقاط التشابه بينها وبين مدينة بابل القديمة. والجدير ذكره ان هذه المنطقة لا نسم صحوراً منقوشة، إلا تلك التي نشاهدها فوق عتبة الجوامع، فمعظم الابنية مصنوعة من الخشب الثمين الذي ينقل من المناطق الاخرى، يعطي الحجارة بعض الاسوار بينما يستعمل الصلصال بناء المنازل وسور المدينة الكبيرة، مما يعني ان انفاص هذه المدينة، لن توازي انفاص مدينة بابل لاهية.

يبلغ عرض الشط في هذه المنطقة، حوالي ربع فرسخ، تكثر في البصرة القنوت الصغيرة، المتفرعة من النهر الكبير، والتي تساعد على الحفاظ على نظافة المدينة، غير انني لم أدخل مدينته اكثر قدارة من هذه اذ يستعمل معظم الناس المياه الملوثة في مطابخهم، كما وانهم ينصمون بها شوارعهم غير المرصوفة.

تصمم المدينة خمسة أبواب (١) دراوره أو باب الرباط (٢) دراوره بغداد (٣) دراوره الربير (٤) دراوره الصراجي (٥) دراوره المجموعة تقع قرب الصورة ٦ من اللوحة، دار النقيب باشا، وقرب الصورة ٧ دار المفتي، وقرب الصورة ٨، ثكنة الانكليز. وقرب الصورة ٩ ثكنة الفرنسيين. ونشاهد في المدينة مسجداً له مارتين، وثمانية آخرين لكل واحد منها مدارة واحدة، وهي تعرف بالجوامع، ويقال ان هذه المدينة تضم ٤٠ مسجداً صغيراً. ولكني حانها أقرب إلى المصلى منها إلى الجامع.

لما كانت البصرة مدينة حديثة، سأتلو عليكم بي ما يلي اسماء احيائها كافة، خاصة وانما قد لا نحظى ابداً بترجمة واعية لوصف هذه المنطقة، مع الإشارة إلى تسمياتها القديمة، ساح، مشارف، دنايك، ابن عبيد، عبايه، ميدان العبيد، الدوع، ام البلايل، ام البزازير، شيخ هادي، شيخ قنير، شيخ جوهر، ام الطنوق، قبلة، شيخ عمر، مديفة، نهر البسات، شيخ حبيب، جسر اللوح، مكول، معدان، محمد تحت حمام كوت، محبة القاصي، محلة المرساة، محلة سيد رمضان، محبة الافغان، حكاكه، حداده، خليلية، شريباتيه، محلة اليهود، محبة مرجانة، حسن دادة، كوار، بستان قصب، كوارخين،

عر الدين، محبة خان ركار، العطانة، سيف حوش الباشا، جسر العريان، المجموعة، مقبرة، صنفونية، محمد جواد، عروة، عمقة، بحاربه، جسر العبيد، بلد السيام، الدوع، حلب، مقام، محلة الجديدة، نظران، صبة، معصرة، المحصر، محلة الساعي، ساوي، بديهة، عباس، حصير جبه، مرسي صيبر، خضراوية، فنانة، كوث الكرمني، جسر الحور، محصنه، خشابه.

لم تعرف البصرة الأردهر إلا في عهد المدعو سياب، الذي كان نبيلاً من البلاد. استلم دفة الحكم من الأتراك، كان هذا الأخير، يشجع الأجانب على الإقامة في هذه المدينة، وتأسيس مشاريع تجارية فيها، خاصة وأن موقعها مؤات للغة. استلم ابنه علي باشا الحكم من بعده، ليحلفه في ما بعد حسين باشا، ابن علي باشا^(٥). وكانوا جميعاً يعتبرون البصرة، والقرى التابعة لها، ملكاً لهم. فحول علي «العرة» إلى مكان يلتقي فيه العرات ودجلة، وإلى حدود حصينة، عررها حسن «بهاء» سور ثانٍ لها. ووسع هذا الأخير مدينة البصرة، إذ بلغ السور الذي بناه نهر شط العرب، رعم بعد المدينة عنه. وساهم بالتالي في رفع عدد بساتين الفاكهة وحقول القمح كما وانه حصن قرية ساوي، واستوى على القصر وأقام فيه. علاوة على ذلك، بنى جامعاً في البصرة، ومسح المسيحيين حرية ممارسة دينهم، حتى يعربهم بالبقاء في هذه المدينة، والمساهمة في ازدهار التبادلات التجارية فيها. معظم شأن حسين باشا بعد أن وضع يده على قرى عديدة كانت تابعة لحاكم بعده، وبعد أن صد الأتراك الذين حاولوا مرة اقتحام البصرة، وبما سطر عليه احتضار الباشوات المحاورين لنعوده، أرسل أحد أفراد عائلته إلى «قسطنطينية»، حاملاً هدايا ثمينة للسلطان، فوعده بأن يدع به سنوياً، مبدعاً من اسان، شرط أن يسلمه دفة الحكم، فوفق السلطان على إرسال جيش صغير لمساعدته على بسط نفوذه، علماً أنها الطريقة الأسهل ضم البصرة لاحقاً إلى امبرطوريته. وبدلاً من أن يقف سكان البصرة والقرى المجاورة إلى جانب حسين باشا، ارتأوا، الالتفاف حول عدوه الجديد.

أدرك أن فواه العسكرية قد ضعفت، ووجد نفسه مرعماً على الانغلاق على نفسه في مفره، وبعد أن تضاعفت قوة عدوه في المدينة، فصل الانسحاب إلى ساوي، ومنها إلى بلاد فارس. بعد مرور بضع سنوات، احتل الفرس البصرة، ولكنهم لم يشوا أن طردوا منها على يد الأتراك، ومنذ ذلك الحين والسلطان يعين باشا من باشواته حاكماً على المدينة. ولكن حسام باشا، والد أحمد باشا الشهير، استغل القبائل العربية الكبيرة لمهاجمة الباشوات الجدد في الطريق وقتلهم أو اغتالهم على العودة إلى حلب.

(٥) تعرف بيار دولا غالي وثاقبه على هذين الباشوات الآخرين.

وبعد ان رضى الجميع تسلم هذه المهمة، عزم حسان باشا دفع التصرية العادية، لضم هذه المنطقة إلى بغداد وخضوعها لتفريدها^(٥).

خلال الفترة التي كان السلطان يرسل فيها الباشاوات من القسطنطينية إلى البصرة، كان يعين فيها رباتاً من لاعباد، على رأس ٥٠ أو ٦٠ سمينة حربية، بمنح وصول سفن القراصنة إلى الفرات ودجلة والخليج العربي يرمته. وفي سبيل اعالة هذا الاسطول خصصت له إيرادات المناطق الكبيرة في بغداد والبصرة. وبعد ان بسط باشا بغداد نفوذه، وضع يده على إيرادات المناطق المحيطة به ليرى ان تمنح السلطان الباشا حرية تسهيل الاعمال التجارية بحراً. وعين الريان موظفاً عنده، تعيينه حاكماً على مناوي وأوقف سفنه الحربية على النشاط معصياً الأمر لقادتها بإطلاق بران مدافعهم على الحاكم، ان مر في مركبه غير ان هذه السفن ليست صبة الباء، عنماً انها مطية بالرفق الذي يستورد من مدينة هيت Het الواقعة على ضفاف الفرات على بعد بضعة أيام شمالي الحلة. ان السفن الصغيرة، التي تنقل بين بغداد والحلة والبصرة، ليست أكثر صلابة، وان التزمت يتلام مع المياه الحوة، ولكن يقال انه يذوب في المياه المالحة، وبهذا السبب لن تخاطر سفن الريان الحرية بالابحار في الخليج الفارسي. ورغم تكاثر عمليات القرصنة في الفرات ودجلة، قنما يوليها الريان اهتماماً^(٦)، غير انه يستدعي الصابط الاعلى، والدفتردار والآجال، وشيخ البسر والفاصي، إلى السور، ليعالج المسائل الطارئة.

الدفتردار هو أمين الخزانة، ويخضع في المدن الاخرى لأوامر السلطان مباشرة. أما في البصرة، فهو مجرد موظف في خدمة باشا بغداد يعين سلطان القسطنطينية القاضي أو يقيله من منصبه، ليختار بديلاً عنه. ويقال ان معظم القضاة يشتركون شهادتهم (أو قومان) من غيرهم ويقتبسون اسمه ايضاً. لهذا السبب لا يسعنا القول ان رجلاً زهياً شغل يوماً هذا المنصب، وفي انتظار تعيين قاضي جديد، يحل نائبه محله، علماً ان هذا الأخير يجيد العربية ويعرف البلاد جيداً، فالقاضي الآتي من القسطنطينية لا يحسن إلا التركية يسكن البصرة لا يتكلمون الا العربية.

(٥) في نيسان/أبريل ١٧٧٦، تسلم كريم خان حاكم بلاد فارس، زمام السلطة في البصرة بعد ان حاصرها لمدة طويلة.

(٦) يستعمل سكان البصرة سلاسل مستديرة، تعرف بالقمة، ويطلقونها من الخارج بالزق، وهي سفينة الاستعمار، خاصة في المياه القليلة العمق، عنماً انها لا تعرض كثيراً، وتدور بسهولة، غير مريحة بالنسبة للأشخاص الذين لم يعتادوا السفر في هذه السلاسل، بما ان البحار الذي يدفعها، لا يستطيع ان يمنعها من الدوران في وسط النهر، تختلف سفن البصرة عن السفن الحربية، من حيث بنائها، وهي تستعمل لنقل البضائع من البصرة إلى بغداد والحلة.

يعرف نبلاء البلاد بالأجلاء، أما أكثرهم احتلالاً فكان في تلك الحقبة الشيخ درويش القوسي، من سلالة عالم شهير، يدعى قوس، في جامعاً جديلاً في هذه المدينة.

ينتمي المفتي الحنفي إلى هذه الطبقة من النبلاء، ويقال إن هذا المنصب لا يشغله إلا العلماء. غير أن ذلك ليس ضرورياً، إذ قد يحل محله نائياً أو وكيلاً. من ناحية أخرى تخضع لسلطة نقيب الشرفاء، أو رئيس عشاء محمد كلهم، المقيمين في هذه المنطقة. لسنوات عشت، اختار سليمان باشا أحد الأعيان، كمفتي شافعي، فحضر له رئيس الأجل، المدعو سعيد درويش ابن سعيد طالب، الذي كان أجداده يرافقون قديماً القوافل إلى حنب، وهو يشغل اليوم منصب قائد للقوافل. علماً أنه الأكثر شهرة بين الشيوخ الذين تفرغوا منهم في هذه المنطقة ويدعون الجزية له.

يتمتع الأجل بامتيازات كثيرة، علاوة على أخذ المحاكم بنصائحهم قبل اقتدائه على أي عمل كان. فهم لا يدفعون شيئاً من أرباح أرضهم، خلافاً للرعايا الآخرين الذين يرغمون على دفع الجزية على بساتين البلح، مع العلم أنها تشكل مصدر ثروتهم. ويحق لهم أيضاً معاقبة الملاحين، رغم أنهم ليسوا عبيداً عندهم. يخضع رجال الدين، ومن بينهم ناظر المدرسة والاسخ، لسلطة المفتي القضاة، كما يخضع الأمراء والشرفاء لسلطة نقيب الشرفاء القضاة، وهذا بملاك محجوراً خاصة بهاء يزجان فيها الرعايا الذين يخالفون القانون. عندما يسي أحد الأعيان جاسماً، تحتفظ ذريته بحق إدارة هذا الجامع وصيانته، مع اعلام المحاكم بذلك. وتعين رجال الدين في الجامع، لكن إن نفس عائلة ياتي المسجد، أو يطالب أحدهم بحقه في هذا الصلح، حتى يتسلم المفتي الأيرادات والمصاريف وينحول بالنائي إلى متولي. كان لي معلم اللغة، الذي كان ناسحاً أيضاً، أن من يقدم التقارير ومن يراجعها من بعده، يجيان امولاً عائلة إذ يتفاسمان جزءاً من الأرباح. سمعت المتولين يشكون من هذا الأمر في مدن تركية أخرى، حيث الجوامع تهدمت جزئياً، إذ من الصعب صيانة الجوامع إن لم تنفق دوماً مساعدات اضافية.

يتمتع الانكشاريون في البصرة كما في المدن التركية الاخرى، بامتيازات كثيرة، منها عدم معاقبتهم أو حبسهم عند افتراءهم الجرائم، كبار ضباطهم يلامون القوة برفقة قادتهم، بينما يعين صغار الضباط في مرفقهم، عناصر منحلّة، ممن يمارسون النصوصية وغيرها من الأعمال المنحلة بالأمس، والتي تسيء للمحاكم ولرعاياها من الطبقة الكلدحة. علاوة عن ذلك، لا يتخلى المتطوع عن عمله، ويتقاضى راتباً شهرياً، ومبلغاً آخر اضافياً لسهرة على الأمس العام. غير أنني لا أحيان الانكشاري يغالي إلى هذا الحد إلا في عياب باشا بغداد. عند وفاة سليمان باشا لم يستطع المحاكم منع الانكشاريين من مهاجمة منازل المسيحيين، والمسلمين الذين لم يهدوا الحماية منهم. وعالياً ما يشتتم أعضاء إحدى الفرق، المسلمين أو أتباع المذاهب الاخرى، الذي طلبوا

الحماية من فرقة أخرى، وأدى ذلك إلى نشوب خلاف بين الانكشاريين، وانذاع معارك حادة بينهم.

وعالماً ما كان يسقط في اليوم الواحد من ٨ إلى ١٢ قتيلاً، من بينهم اشخاص لا علاقة لهم إطلاقاً بالانكشاريين. وحدث هذا الامر الناس على الانحراط في فرقتهم، تمادياً لوتوعهم ضحية سحق هؤلاء الحثالة، ولهذا السبب، عرف مسلمو البصرة، جميعاً بالانكشاريين^(٥).

ولما كان الأجل والانكشاريون يتمتعون بامتيازات كثيرة، يخيل اليها ان الحاكم لا يتمتع بصلاحيات عالية، لكن ان كان نبيهاً استطاع الحفاظ على نفوذه.

عالمياً ما يشن الاعيان الحرب على بعضهم البعض، فيهيون القرى التابعة لنفوذ واحد منهم الآخر، ان أراد الحاكم ان يدر أحد معارضيه، إما عدواً في الديوان أو في أي مكان آخر، يصير عليه حتى يمالي في تصرفاته. ولكن الأتراك يعضمون شأن اخطاء الأترياء أكثر من الحرائم التي قد يرتكبها الفقراء. فيشتقون الفاعل ويصادرون جزءاً من أمواله.

ولا يسع ذوو المشوق إلا التذمر سراً من حبيبات لاتراك. قدم الحاج يوسف مولاً طائلة لعلها باشا، الذي منحه في المقابل الحق في اشرار مبالغ كبيرة من التجار الآخرين، والادعاء انها لحساب الآخر. فأقيل عندئذ حاكم بغداد احمد كحيا وعين مكانه حاكماً آخر. ولكنه ما لبث ان أعيد إلى منصبه، حيث بدل قصارى جهده لكسب صداقة الرجل الذي تسبب في المصافي في اقالته. ولكن يوسف لم يضع يده ثقته، وفضل ان يحس مرافقته خاصين، لإغاثة عندما تدعو الحاجة. غير انه اضطر في أحد الأيام للتماس مع التمسكي باشا (او قائد فيلق من المشاة) الذي كان يكن له صداقة عميقة. فأعطاه هذا الأمير الامر الصادر بشقه. ضم اصدامه في الحال. ورميت جثة هذا التاجر الذي نال حظوة لدى الباشا، وتمنع بحماية رجال الدين له، خاصة بعد أن حج إلى مكة، في كربلاء، واستطاع احمد باشا كخيا جمع الالباتات ضد الحاج يوسف، وتبرير تصرفاته للشعب، أما علي باشا، فكان يشعر بسرور عظيم، خاصة وأنه استعاد المعنى الف قرش التي كان يدين بها للحج يوسف، فضلاً عن استيلائه على جزء كبير من أموال هذا المسكين.

ابتز الحاكم نفسه مبلغاً كبيراً من المال، من تاجر أرمني، لإقداحه على خطوة نالت اعجاب حكام أوروبا كلهم. واليكم ما جرى: بنى الأرمني على حسابه جسراً من الحجارة، فوق إحدى القنوات المجاورة للمدينة، ورسم الطريق العام، الذي كان يتعذر سلوكه في الشتاء نظراً لإهمال

(٥) عرفوا أيضاً بالبيكجاريين، ولكن بلفظة *Janitz* عتيبة وسهلة الحفظ. ولهذا السبب استعملت أيضاً عبارة *Mosquée*. فالمسلمون يسمون معابدهم الصغيرة مساجد، والكبيرة منها جامع.

الحكومة له. وكان قد طلب مسبقاً الإذن من الحكومة، ولما لم يلقَ فرماً، دفع ثمناً عالياً ثمن تصرفاته. ففي تركيا، غالباً ما يحبر الأشخاص الذين يشيدون أضرحة جديدة، على أقرص الحكومة مبلغاً من المال، دون أن تعيده لهم لاحقاً. فلا عجب إذن أن سم يظهر الاثرياء من الأتراك كرماء بالغا. من جهة أخرى، يتميز جهاز الشرطة في البصرة بمعاينة: فرغم أن أكوام القمح لا تعطى بالحصائر في السوق، لم نسمع ابداً عن عملية سرقة من أي نوع كانت.

من الصعب الحصول على رقم محدد لعدد السكان في بلاد الشرق، وخاصة وأنهم لا يضعون فيها لوائح بالولادات والوفيات. فإن حاولنا الاستعلام عن الموضوع من السكان، أجابوا أن عددهم يبلغ الملايين. غير أن عدد السكان ليس كبيراً جداً، كما يسري الاعتقاد في أوروبا، تضم البصرة حوالي ٧٠ محلة أو حي. بعضها يضم ٣٠٠ أو ٤٠٠ منزلاً. وبعضها الآخر ١٠ أو ٢٠ منزلاً أما المحال الأخرى، فتضم بيوتاً نخيل ومقابر كبيرة. أكد لي سكان المدينة، أن كل محلة تضم حوالي ١٠٠ منزل فإن حسينا أن كل منزل يحوي سبعة أشخاص، بلغ عدد السكان الاجمالي أكثر من ٥٠ ألفاً. لكن إن حاولنا احصاء السكان لما تجاوز عددهم الأربعين ألفاً. يصير المذهب السني المذهب المهيمن في هذه المدينة. خلال الحرب الأهلية في بلاد فارس، وصل عدد كبير من أهل الشيعة إلى المدينة، ولما كان السني يكرهون هؤلاء الآخرين شديد الكره، عرف معظم الشيعة بالسنة. ويبدو أن مسلمي هذه المنطقة لا يدفنون كثيراً في مسألة الواجبات الدينية. ولا يتوانى الاثرياء عن الصلاة خمس مرات في النهار، كي لا تنتههم الحكومة بإهمال دينهم، ان لم تجد تهمة أخرى توجهها إليهم. والجدير ذكره انه قلما يهتم أمر ممارسة الفقير واجباته الدينية أو إهمالها لها. من بين مسيحيي الشرق كنهم، تعد رعية الأرمن الأكثر عدداً، علماً أن معظم أفرادها اتوا إلى هنا من بلاد فارس. أما عدد الصابئة فمشيل جداً، ولا أحد يعيرهم اهتماماً. اعطاني أحد الحداثين نسخة عن ايجديتهم (النوحة II قرب (ط)) يسهم^(٥) نجد في البصرة أيضاً عائلات يانانية وهندية. ومن بين الأمم الأوروبية كلها، يمارس الانكليز تجارة الجوخ الأوروبي، والسبيج البنغالي والآنمشة على أنواع من سورات. يقيم في هذه المدينة مستشار انكليزي من بومباي، يرافقه عدد من رجال الدين، أما المستشار الفرنسي فقد رحل عنها بعد أن تولفت حكومته عن إرسال أجر محترم له. والجدير ذكره ان الهولنديين لم يقيموا أبداً في هذه المدينة، علماً أن التجار يجلبون التوابل والعقاقير من خارج. نجد في البصرة عدداً كبيراً من الايطاليين، الذين يمارسون الاعمال التجارية عبر حلب باتجاه البندقية ولبعورن. فضلاً عن كاهنين كاثوليكين ورومانيين، بتيا

(٥) في كتاب وصف رحلات غربية الصادر من باريس، نجد ايجديتي الكلدانيين والصابئة أو مسيحيي القديس يوحنا، التي لا تختلف عن تلك التي نقلها. اما نسخة كاسير، فمختلفة تماماً ويبدو تماماً عن الصفحة.

كنيسة صغيرة، شبيهة بثلاث التي شيدت في ظل حكومة حسين باشا، والتي انهارت كنياً
تمتد الصحراء الكبيرة من سفح اسوار البصرة، وتمتاز تربة هذه البقعة بخصوبتها شأنها شأن
التربة التي تعطي صغتي النهر، حيث تكثر بساتين المحيل، وحقول الأرز. ولا يفتقر في هذه البقعة،
سوى قنوات المياه، التي نشاهد مثلاً عنها جنوبي عربي المدينة. ثلاثين أو أربعين سنة حلت،
كانت تقع في هذه المنطقة قرية كبيرة، لم يبق من الهوم الا صرحاً صغيراً يعلو ضريح وبي مسلم
ويغطي المنطقة المستدة إلى الزبير، الملح الذي يستعمل في الأكل، محاصرة في البقع التي يبس فيها
سلود صغيرة، لجمع مياه الأمطار وتبخرها.

موقع مدينة البصرة القديمة

تقع مدينة البصرة القديمة، التي اشتهرت في ظل حكم الخلفاء الأولين، على بعد ميسر جنوبى غربي المدينة التي تحمل اليوم هذا الاسم، وفي منطقة وحية شاسعة، وتبعد عنها بقايا سور من أسوار المدينة، يبلغ محيطه فرسحين، فصلاً عن أسوار جامع علي البرمكي وسفرائ، وأصرحة الحسن البصري الشهير، والريز، وابن صوان وطلحة، وابن عبيد، وغيرهم من الحكماء الذين دفنوا في البصرة.

يكره أهل الشيعة هؤلاء العرب الشهيرين، لأنهم حرقوا عهد الوفاء مع إمامهم الكبير، وحاربوه من أجل عائشة. أما أهل السنة، فيكنون لهم كل احترام، لأنهم تصرعوا كصاع في جيش محمد، وندموا كثيراً، قبل وفاتهم، لمقاومتهم علي، صهر محمد، والخلفاء الذين جاؤوا بعده. تعلقوا بأصرحة هؤلاء العرب منازل حجرية شبيهة بتلك التي تعلق أصرحة الأتباء الآخرين، ويقال إن الفرس دمروا هذه المنازل، زمن الهجرة (١١٥٦)، حين حاصر نادر شاه مدينة البصرة التي تعرفها اليوم. وبكى أهل السنة أعادوا بناءها بعد انسحاب العدو من المدينة. ومما لا شك فيه أن العجائب التالية، حصلت في ما بعد، استفاداً لكلام رجل دين مسلم من الزبير، أصاح رجل حماره خلال سفره من البصرة الجديدة إلى البصرة القديمة، فشكا همه لبعض العمال قرب ضريح ضحكة، عندما أنه جباب الصحراء كلها دون أن يتمكن من العثور على حماره. فحربوا الأمر. وراحوا يشاركونه الصلاة، والدعاء، حتى يعيد الولي له حماره. عندئذ، رآوه آتياً صوبهم يعجلة، وكان أحدهم يسحق به حاملاً موطاً في يده. انهزمت القبة الجديدة، التي هبت فوق ضريح الحسن البصري، للمرة الثانية. فظهر أثر ذلك الولي لأحدهم في الحلم وأكد له أنه لا يريد قبة فوق ضريحه، بل برجاً صغيراً، على أن يوضع رأسه قرب الجدار، حتى يتمكن الناس من الدوران حول الضريح^(٥). دفن الزبير قرب جامع جميل تموء مقبرة. وأكد لي إمام هذا الجامع، الذي أخبرني هذه القصص كلها، أن الزبير رد عليه مرة الثانية. فسألت الشيوخ الآخرين، إن رد عليهم الأولياء السلام، فأجابوني بتواضع وخشوع. إنهم عطفة ولا يستحقون هذه الممة. وأراني الإمام الشجرة الذي فقد تمحيها الزبير حياته، استفاداً لتاريخ العرب. وعلى مقربة من هذه المدينة القديمة نجد ضريح المدعو عبد

(٥) شاهد قرب هذا الضريح، قبة تعلق قبر المدعو محمد بن سيرين الذي يجله المسلمون كثيراً.

الله بن عباس، الذي كان والده يراى محمد^(٩).

لما كان المسلمون يفضلون أن يذهبوا قرب أوليائهم، تنفل جنث الموتى من البصرة الجديدة إلى البصرة القديمة. كانت المدينة مهندمة كلياً، إلى أن أعيد بناء بعض المنازل قرب صريح الزبير، منذ ٣٠ أو ٤٠ سنة. ومنذ ذلك الوقت عرفت البصرة القديمة بالزبير منذ ثمانتي أو عشر سنوات، ثمركز في هذه المدينة عدد كبير من السسة، الذين طردوا من نجد على يد عبد الوهاب مؤسس إحدى الديانات الجديدة، ولهذا السبب تمتد الزبير مدينة صغيرة، خاصة بعد أن بني فيها مسجد جديد علاوة عن ذلك الذي تحدثت عنه آنفاً.

لم استطع أن أعرف في الزبير متى دمرت البصرة القديمة وهي أي طرف. يقول الامام الذي تحدثت عنه أعلاه، أن عاصفة قوية اقتلعت المنازل والجوامع، فأعاد السكان بناء البصرة الجديدة. لكن يبدو لي أن انحطاط هذه المدينة كان ثمرة سوء حكم المسلمين، الذي دفع بسكان بلاد الكلدان إلى الفروج معها. نشاهد في البصرة القديمة، مجرى نهر جاف، أو قناة مجفوة، يسميها العرب جاري زاد أو حائزاد. كانت مياه هذا النهر تنبع من بلدة هيت Hīt، التي تقع على بعد ستة أيام شمالي الحلة، ومن الفرات في الكوفة، ليصب على بعد ثلاثة أميال في حليج غورابديلا (اللوحة XI) يقول العرب ان ضعتي القناة كانتا محدبتين بالأشجار، ون مياهها مياهت في تحويل هذه الأرض إلى بقعة خصبة. ولكن مياه القناة جفت منذ عدة سنوات وتحويل هذا البند المخصب إلى لرض قاحلة لا يقطن فيها إلا العرب البدو. فلا عجب إذن، أن يرحل أهل البصرة عنها، عندما جفت مياه النهر، كما وأن سكان القرى المجاورة انتقلوا إلى خفاف الفراء، حيث المياه غزيرة جداً^(١٠).

(٩) هذا من الخلط المستشري عبر الكتاب. (الانتشار).

(١٠) مما لا شك فيه أن قناة جاري زاد هي نهر بالاكوباس اليوناني، الذي اجنازه الاسكندر الكبير ليصل إلى بابل، قبل وفاته بوقت قصير، وقد أتى آريان على ذكر هذا الأمر في كتابه السابع.

كم يسري أن يجمع أهالي هذا البند ليحفروا قناة طولها يوازي مسيرة عدة أيام، كي تحول هذه الصحراء إلى لرض خصبة. ومما لا شك فيه أن عدد سكانه كان مرتفعاً جداً، إذ لا يحفل بحر نهر بالاكوباس. قبل انتهاء عصر بلاد ما بين النهرين. عند وصول المسلمين إلى هذه المنطقة، كان النهر في حالة جيدة خاصة وأن مدينتي الكوفة والبصرة الشهيرين كانتا تقعان على ضفافه، ولما دمرنا منذ عدة قرون، اضل أن حكومتها قد أهملت الاعتناء بهما، كانت مياه الفرات تنصب في بحر باهر، عبر نهر بالاكوباس. وبعد بين المساواة والحكمة مستفصات كثيرة تفرقها مياه الفرات، ويبدو أن الاسكندر قد سلك هذا النوب في طريق العودة كان الناس إذن يغسلون بين نهر الفرات والبالاكوباس، وبعد موعد عدة تمر في وسط البحر الأبيض المتوسط القديم، قرأت في مذكرات انكيزي سامر من حلب إلى البصرة، أنه شاهد على بعد ٤٤ فرسخاً جنوبي شرقي هيت، نوبة مهجورة تماماً، يبلغ ارتفاع أسوارها ٥٠ قدماً وسماكتها ٤٠ أما الجهات الأربع، فيبلغ-

استناداً إلى تاريخ كربلاء، وقعت المعركة الشهيرة بين علي وعائشة، على مقربة من البصرة ولكن سكان الرير، لم يحددوا ساحة المعركة بدقة. رغم أنهم يدعون أنها وقعت في وادي سعيد سان بين البصرة وحبل مسام، حيث نجد قرية كوييدة، التي يسميها العرب «يوم خرية».

تتميز البصرة بتنوع جسد النمر التي تنمو فيها ويقسمها العرب إلى نوعين^(٥) نوع بارد، معيد للصحة ونوع حار مضر بها. وهذا يعني أن النوع البارد طعمه نديم رغم أن سمره مرتفع بعض الشيء، بينما النوع الحار، متوفر بكميات كبيرة، ويشكل غذاء الطبقة الفقيرة الأساسية أما النمر المحتوي فهو الأفضل بين كافة الأنواع، إذ لا يصير أبداً بالمعدة، حتى وإن تناولنا كمية كبيرة منه.

أما النمر الرهدي، الذي يعد من أشد أنواع النمر في البصرة، فهو يرمى للمواشي أو يصنع منه شراباً مسكراً. وحدهم الفقراء الذين لا يستطيعون تأمين طعام أفضل، يتناولون هذا النوع من نمر غير أن سكان بغداد لا يحتقرون هذا النوع من النمر، لأنه ينمو بكثرة في أراضيهم، وذكر من أنواع النمر الأخرى التي تنمو في هذه المنطقة، الحلاوي والاستعمران والشكر، والجوري، والسدي والحصاب، والحصراوي والأشرفي والبريمي، والكتوم (بعضه أحمر وبعضه أصفر) انقطار، الأواوي، تمر بنت السبع، الخيري، أصابع العروس والدقل (بعضه أحمر وبعضه صفر)، الجوري الأشكر، الشيب، المعصود، البمكي، القصب، الأبرهيمي. يستعمل هذا النمر لصنع «دبس» الذي يأكله العرب مع الحبز. والجدير ذكره، أن الحلاوي هو الأفضل لصنع هذا الشراب المسكر. أما لب النمر فيرمى للعاشبة قرأت في أحد الكتب أن عرب البصرة، يزرعون في الأرض لب نمر بشكل هرمي، ولا أظن أن أحداً يلجأ اليوم إلى هذه الطريقة لزراعة الأشجار. تكثر في هذه المنطقة بساكن العاكهة، علماً أنها تعاني من نقص في الحشيش.

في الفصل الحار، ترتفع الحرارة في هذه المنطقة ارتفاعاً شديداً، حتى أن البعض يقعون أرضاً في الشوارع من شدة الحر، كما وأن الهواء ليس منعشاً نظراً للمستنقعات التي تحيط بالمكان، والاقطار المتتالية في المدينة معها. خلال شهر آب/أغسطس، هبت الرياح الجنوبية الشرقية لمدة

^(٥) طول كل منها ٧٠٠ قدم. علمت لاحقاً أن العرب يطلقون على هذه القرية المبهجرة اسم «الحصر» لأنها تقع على بعد عشرة فراسخ من مشهد علي، وأن أهلها يرحو عنها بسبب اعتقادهم إلى المياه ولما كانت تبعد كثيراً عن القرى والمدن المحيطة بها، لم يستطيع أحد نقل حجارها واستعمالها في تشييد لأبنية الجديدة، كما حصن في البصرة والكوفة. يبدو أن بليبيوس وغيره من المؤرخين قد أسموا نهر بالاكوباس الفرات.

^(٥) سمعته في بغداد يتحدثون عن النمر الشمتاوي والرهدي، وأصابع العروس والدقل، والإبرهيمي والسدي والأواوي، والسعدي، والبريان، وكومي الشرمسي، وأم قائل ومراس، والمكاري.

خمس أو ستة أيام بينما استمرت الرياح الشمالية أو الشمالية الغربية خلال الأيام الأخرى، بتأثير الجسم البشري بالحر عند هبوب الرياح الجنوبية الشرقية، لأنه يتعصب حينها عرقاً أما في النصف الأخير من شهر تشرين الأول/أكتوبر، فكانت الرياح شديدة التقب، ففي السابع من تشرين الأول/أكتوبر، ظهرت بعض الغيوم، التي تكاثرت في ٢٧ منه، حاملة معها فصل الشتاء.

تقيم قبيلة كعب العربية، التي تحدثت عنها في وصف شبه الجزيرة العربية شرقي شط العرب، وتنولي زمام الأمور في المنطقة، ولا يقيم أفرادها في الخيم، كما يفعل عرب الصحراء بل في مدن وقرى شأنهم شأن عرب شرقي الخليج الفارسي، كان الشيخ سليمان، الحاكم الحالي للمنطقة، سيداً على مقاطعة صغيرة، تخضع لعمود بلاد فارس، لكن بحلال الحرب الأهلية، استطاع أن يضع يده على مقاطعات صغيرة أخرى وبعد أن اجتاحت منطقة البصرة، تابع تقدمه باتجاه الشط ليبلغ مصفاة دواس، على الجهة الغربية للنهر، بعبارة أخرى، استطاع بسط نفوذه على إقليم فارسي شاسع، وعلى جزر ومصبات شط العرب، التي كانت خاضعة في السابق لحكومة البصرة. ولكنه لم يدفع شيئاً لكریم خان لأن كان يقيم في منطقة بعيدة جداً عنه. ولما طال به هذا الأخير بدفع الجزية، ادعى أنه لا يملك مالاً، لأن الأتراك، يمترونه، ولما طال به بدشاً بغداد بالمال، تدمير أيضاً من الفرس: فقد كان يرشو أعيان مدينة البصرة، حتى يحصوا الطرف عن استيلائه على القرى، الواحدة تلو الأخرى. من جهته، رفض الحاكم من الحرب على سليمان، خاصة وأن هذا يدفع له مبالغ طائلة، ولا يحاله قد يدفع قرشاً واحداً للحاكم الجديد إن لم يسلم له بعض القرى أو يعلن الحرب عليه.

شن باشاوات بغداد حملة عليه، فارتأى دفع الجزية وإعلان نفسه تابعاً للأتراك أو رشوة الشيوخ العرب، وإنهاء الباشا. واتخذ قبان (مدينة صغيرة على الساحل الشرقي للشط) مقراً له، وبسبب صلابته على الساعد الأخرى، لتحويل مياه النهر وجعلها ملاحية للملاحة. العام ١٧٦٥، كان يملك عشر سفن حربية و٧٠ مركباً صغيراً للاستيراد والتصدير. في المقابل، كان نفوذ حاكم البصرة يقتصر من صوة إلى أخرى؛ وخلال إقامته في تلك المنطقة، كان عاجزاً عن مواجهة هذا الشيخ الصغير.

قرر كريم خان الذهاب بنفسه لجلب جزيرة الشيخ سليمان، فدخل تلك السنة، على رأس جيش كبير، إلى مناطق نفوذه، دون أن يحقق أي انتصار يذكر، على غرار قائده الأمر كتميع خان، خلال مواجهته مبر مها. كان سليمان يتنقل من جزيرة إلى أخرى، على متن سفن مخففة وريه مدناً وقرى خالية كلياً. وكان من الصعب على كريم خان الوصول إلى الجزيرة، وبعد أن بذل جهداً كبيراً، تمكن من الوصول إلى أحدها ولكن بعد أن هجرها سليمان وفي نهاية المطاف انسحب إلى غربي شط العرب، في ظل حكومة البصرة.

أبلغ كريم خان حكومة هذه المدينة انه من الأفضل لها مد يد العون له، والقضاء على ثروات الشيخ سليمان. فوعده الحاكم بتبعية عليه، رغم انه كان يحنج دوماً بانتظاره وصول السفن والجيوش من بغداد. مما لا شك فيه ان سليمان نجح في استمالة حكومة البصرة ورشوتها، او لعلها كانت تعتقر لئمال اللازم لنس الحرب عليه. ولما لاحظ العرس ان الاتراك لا يسعون لمساعدته، سحوا جيوشهم، تاركين لعرب عماء اسرجاع مناطقهم.

بعد ان أقدم كريم خان هذه السبه على طرد متعربين من مناطق نفوذهم سمح لهما بالعودة اليها عندما انها في حالة يرثى لها، اد نرح عنها اهلها. وتوقعت الاعمال التجارية فيها. وبعد ان ترك كريم خان حامية من الجند في مدد الشيخ سليمان، اضطر لتزويدها بالمؤن والدحائر اللازمة لمتابعة هذه الحرب المستديرة والتي لن يحس منها شيئاً. ولا شك ان سليمان دفع مبلغاً كبيراً للفرس، حتى لا يلحقوا به ضرراً لا يعرض.

حروب بين اهل البصرة والعرب

ادعى الأتراك انهم قادرون على استعادة الاراضي التي سبها منهم الشيخ سليمان، وعلى تدمير جيوشه كلها، فسوا عليه هجوماً بالانفاق مع كريم خان؛ ولكن عقائدهم الدينية، تفرص عليهم تنفيذ الحروب للعربي المصطليد، وابوائه هو وجيوشه، في ارضهم ولكن سليمان رفض الانسحاب من اراضي البصرة، وفضل ان ينتظر جي التمر، فأصدر باشا بغداد الامر لسكك البصرة، بإعلان الحرب على هذا العربي الحائن، والاستيلاء على مناطق نفوذه. كان الحاكم يمدك فوجاً من الخدم، وفوجين من المشاة (براتورلي ونامشكي)، ولكنه ارتأى ان يجمع مجموعة أخرى من الرجال، قبل بدء المعارك؛ بهيابة أخرى جمع الحاكم أربعة أو خمسة الاف رجل، ليهاجم سليمان المقيم في دواسر، الواقعة عربي شط العرب، برفقة ١٤ أو ١٨ رجلاً. (يرجى مراجعة اللوحة XL)

عند خروجهم من المدينة، كان الجند يظهرون شجاعة بالغة، ولكنهم بدلوا جهداً بالغا ليقطعوا عشرة أميال أو اثني عشر ميلاً، عندما ان الحاكم كان يبعد عن جيوشه حوالي العرسحين كان اسطول القائد باشا، يتألف من عشر سفن حربية، ومراكب صغيرة أخرى لنقل الجنود والمؤن وكان الأتراك يعتمدون على مركب تحاري انكليزي، اعاره لهم الممستشر الحالي، وعلى سفينتين حربيين يفودهما ربانان انكليزيان. حطت الفرق الامامية رحالها على الضفة العربية شط العرب، قبالة الرأس الشمالي لجزيرة محروري، وألقت بعض سفن الاسطول مراسيها على شواطئ الجزيرة نفسها، علماً ان سفن العدو الحربية كانت راسية قرب رأس الجزيرة المذكورة. كان الحاكم قد نصب خيامه على بعد عرسحين من المدينة، بينما ألقى القائد باشا المرساة على مقربة منه. ثم

كان الأتراك يعترضون بأسطولهم البحري وقرى المشاة التابعة لهم، ناموا في الليلة الأولى ملء جفونهم، ولكن عندما دقت الساعة منتصف الليلة، تسلمت سفن سليمان إلى وسط اسطول القائد باشا فاستيقظ الأتراك مدعورين، وغادروا معهم بسرعة البرق. استغفرت قوى المحاكم في المحييم، دون أن تتاح لها فرصة الاستعداد لمراجعة، أو انسحبت سفن سليمان، وأخذت معها المراكب الحربية الثلاث. في اليوم التالي اجتازت هذه السفن الاسطول التركي، ونهبت القرى المجاورة لبصرة، واستولت على بعض المراكب الصغيرة، ولكن سليمان كان يتردد في الذهاب بعيداً في حربه مع البصريين، فعقد اتفاقاً معهم يقضي بأن يدفع لهم مبلغاً كبيراً من المال، وعادت على أثره الجيوش إلى البصرة، بعد مرور ١٨ أو ٢٠ يوماً على رحيلها عنها.

استناداً إلى سياسة الوكيل الانكليزي، لن يسيء الشيخ سليمان الظن بأهل أمته، علماً انه أعبر البصريين إحدى سفنه وأرسل لهم عدداً من رجاله ليقودوا مراكبهم الصغيرة.

وفي المقابل، يقول سليمان ان الانكليز والأتراك حددوا سلامته وحاولوا شن هجوم عليه، وانه تصالح مع الأتراك وليس مع الانكليز، الذين لم يأت عسى ذكرهم في لاتفاق الذي وقعه معهم. ارسل الوكيل يخته الصغير من الخرج إلى الشيخ سليمان، دون أن يتعرض له رجال سليمان، ولكن في منتصف شهر سوز/يوليو، وصلت سفينة من عدراس إلى الشط، وشاهد الريان مراكب صغيرة كثيرة تجتاز النهر ولم يحظر في باله انها تابعة للعدو. لاحظ رجال سليمان ان الانكليز ليسوا مستعدين لمراجعة، فهاجموا عسى السفينة ووضعوا يدهم عليها. قيل ان يتمكن الريان من معاداة حجرته^(٥). كانت السفينة الانكليزية، التي رافقت اليخت من الحرج قد بلغت مصب النهر، وصادف رجال الشيخ سليمان، الذين ارادوا نقل السفينة إلى مرفأ قبان عسى الساعد الشرقي، اليخت الذي يسبق السفينة، فاستولوا عليه ايضاً. ولما شاهد الريان الثالث هذين المركبتين الانكليزيتين مصحوبتين بالسفن الحربية، خطر له نهما وقعا في الاسر، ففضل العودة إلى الخليج الفارسي، حيث يستطيع التحكم بمركبه بصورة افضل، ولكن لسوء حظه وقع على الرصيف الذي يطل على المصب فانتظر العرب عدة طويلة حتى ينخفض مستوى المياه، وينقضوا على السفينة، ويمسكوا البحارة، وبنقوا الاسطول كله إلى قبان. ثم يتوقع الوكيل الانكليزي ان يقدم سليمان على هذا التصرف. فأجرى مقاضات طويلة لاستعادة هذه السفن، وفي نهاية المطاف وضع نص اتفاق رفض سليمان التوقيع عليه، إلا بعد موافقة حكومة بومباي عليه. وفي هذه الاثناء أرسل ربانة السفن إلى البصرة، بعد مضي ثلاثة أسابيع على احتجازهم، أما البحارة فأطلق سراحهم لاحقاً.

(٥) وحدهم الضباط كانوا من الأوروبيين أما البحارة فهم من الهنود

بروي الانكليز قصصاً عديدة تثبت جهل العرب للعادات والتقاليد الأوروبية. ومنها القصة التالية: لاحظ صابط من صباط سليمان ان أحد الربابنة ينظر إلى ساعته. فطلب منه أن يريه هذه الآلة الغريبة، ولما لاحظ أن شيئاً ما يحرك في داخلها، رصعها في دلو ماء ليحرق هذا الحيوان. وبعد أن أدرك أن الساعة لا تزال تعمل، رماها أرضاً. فراحت تنفك قطعها كلها، فخاف العربي منها ورمها في الماء.

بعد ظهر ٢٤ آب/أغسطس، شاهدنا ثمانين سفينة حربية تابعة للشيخ سليمان، تجتاز السهر فوضعت المدينة في حالة تأهب. ولما كان الحاكم يحشى أن يرسي العرب السفن الحربية امام منزل القائد باش، أو أن يرلوا جيوشهم في المدينة، انتقل ليلاً برفقة رجاله إلى سدوي. في اليوم التالي، عملنا أن رجال سليمان نهوا قرنين صغيرتين، تاهتين لشيخ قبيلة المنتفق، وأصرموا الدار فيها. كان هؤلاء العرب يقيمون حالياً بين البصرة وعرجة، وهم يدفعون حالياً الجزية لباشا بغداد، ويعيشون بسلام مع البصريين. أظهر عبد الله، شيخ القبيلة الحالي، استياءه من تصرف سليمان، وأصعد للانقضاء على بلاده. مدعى الحاكم بالمشاركة في حملته هذه، وقيل أن يصله رد الحكومة التركية، تمركزت جيوشه امام المدينة، وكان بعض العرب يعبرون النهر في روافق صغيرة، برفقه سائهم وأولادهم، بينما يمر البعض الآخر امام المدينة على ظهور الجمال، حاملين أكياساً فارغة، ومتوجهين نحو بستان النخيل الواقع على الطرف الجنوبي، من البصرة.

عاد سليمان برفقة سفنه الحربية إلى المدينة، يساعده تراجع الحاكم، إلى مناوي، ولكن سليمان لم يكن ينوي انزال جيوشه حيث يتوقع أن يلقي معارضة، فبدأ يجمع الثمر من القرى المجاورة، إلى أن بلغ أقصى الجنوب؛ في المقابل، كان عرب قبيلة المنتفق يجمعون الثمر من الجنوب إلى الشمال، في البصرة. في ١٠ تشرين الأول/أكتوبر، تابع عرب قبيلة كعب الطريق، يساعده عاد عرب المنتفق إلى ديارهم، فلاحق بهم البصريون، ليجتمعوا الثمر الذي تركه جيرانهم. فبدأ لنا واضحاً أن الشيخين عبدالله وسليمان قد اتفقا بين بعضهما، على جمع ثمر الرعايا الأتراك، رغم أن عرب قبيلة المنتفق أرادوا أن يشتروا صداقتهم للبصريين وكان يصل يومياً إلى المدينة أسس يتحدثون عن المناوشات التي وقعت بينهم وبين عرب كعب، لمنعهم من نهب بساتين النخيل. حتى أن الشيخ عبدالله أرسل إلى الحاكم وأمين كان سكان البصرة يعتجزان بهما كثيراً. لم يتجرأ أهل المدينة على التعبير عن رأيهم في الحرب، فهم يعتقدون أن العرب اقتطعوا رأسي رحبين مريضين. في هذه الأثناء، كانت الحكومة التركية راضية كل الرضى عن النجاح الذي حقق، لأنها كانت تحشى أن تهاجمها قبيلة المنتفق من جهة وقبيلة كعب من جهة أخرى. في نهاية الامر تقابل عربي من المنتفق مع جمدي من جمود الحاكم وأرداه قتيلاً، فأبى السكان أن يقبلوا بهذه الاهانة في عقر

دارهم، فاجتمع الفرق العسكرية كلها كافة، وتعاونت في ما بينها بطرد العرب من المدينة.

يذكر الأريبيون أندين يمارسون تجارده في البصرة ثلاثة بالمشة من رسم المرور على لبصائع التي يستوردونها من الهند، أما تجار الدول الشرقية فيدفعون ٦٠ بالمشة علاوة عن الضرائب التي يدفعونها لضباط الجمر على بضائعهم. وهذا يعني أن الحكومة خسرت الكثير من المال نظراً لعدم وصول هاتين السفينتين القادمتين من الهند، فبدلت قصارى جهدها لإرغام سليمان على إعادتهما لها فتقدم سيد من أعيان بغداد، قبض منذ بضعة أشهر ٦٠٠ ريال من سليمان بنوسط له أمام الباشا ليلعب دور السفير. فوصل إلى البصرة في أواسط شهر تشرين الأول/أكتوبر وتابع رحلته دون توقف باتجاه قبان. لكن سليمان ادعى عدم معرفته به. ولما ذكره السيد بالخدمة التي أداها له، وبالبلغ الذي قبضه منه، رفض العبء الثقيل التي أرسنها له الباشا، تعبيراً عن سلامة يته. وقال أن العبء تديق بالشيخ العربي أكثر من الخادم التركي، خاصة أن كان مرسلها شخص يعمل في خدمة السلطان. بعبارة أخرى، كان استقبال سليمان للسيد شيئاً للفاية؛ إلى حد أن هذا الأخير اضطر للعودة على الفور إلى البصرة في ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر وصل سفير آخر للباشا، ويدعى عبدالله بك، وهو عربي الأصل، كريم السب، يعمل في خدمة باشا بغداد، ويحبه العرب أجمعين في بداية الأمر. بعث رسولاً إلى قبان ينعن سليمان بوصول له، وفي ٢٨ منه، انطلق برفقة الشيخ درويش، أحد أعيان مدينة البصرة، لاستقبالهما الشيخ سليمان بكل حمارة؛ دون أن ينالا منه أكثر من الأطراء.

لما كان الباشا قد عظم من شأن سليمان، بإرساله ضابطين كرهي السب لمقابته، طلب من مستشاره الخاص أن يرافعهما إلى بغداد على أمل أن يتفاوض مع سيدهم للتوصل إلى اتفاق واطى أن هذا الأمر يعد اهانة كبيرة للباشا الذي يحكم بلداً يعوق كافة الممالك الأوروبية مساحة، هذه هي نقاط ضعف الحكومة التركية في المقاطعات النائية

عم الحزن البصرة هذه السنة، وفي فصل الحريف كانت تستقبل عادة حوالي ٥٠ مركباً من مراقبي عمان كافة، محملة كلها بالبن من المخ والحديدية. وأرغمت السفن الأولى على دفع رسوم مرور باهظة للشيخ سليمان، كي يسمح لها بمتابعة رحلتها إلى البصرة، كما وإنها أرغمت على شراء القصر في طريق العودة. وعندما بلغ خبر الأحداث التي وقعت على شط العرب مسامع سكان مسقط، أقرعت المراكب الصغيرة البن، الذي حمل بي سفينة حربية تابعة لاسطول الامام ورغم أنها تمكنت من الوصول بسلام إلى بوشهر، لم تجرؤ على المضي في رحلتها. في السنة التالية، علمت أن السفينة المذكورة أرغمت حملتها كلها في أحد مخازن الحرج، لتقع بعدها أسيرة مير مها.

الطرق المؤدية من البصرة إلى حلب عبر الصحراء

إن أقصر طريق من البصرة إلى حلب يمر في الصحراء، غير أننا نصادف في الطريق قبائل عربية كثيرة، تدعي كل منها السيادة، والحق في المطالبة بهذا من الرحالة؛ لهذا السبب لا يجتاز أحد هذه الطريق إلا برفقة قافلة كبيرة، خلال أيام في البصرة، كانت الأعمال التجارية ضعيفة للغاية، وعدد التجار الذين يسافرون في القوافل ضعيفاً للغاية، لذلك اضطررت لسلوك طريق آخر، ولما أتيت لي فرصة التعرف على بدوي قطع عدة مرات الصحراء من البصرة إلى حلب، سأذكر لكم المناطق الواقعة على هذه الطريق، كما سمعتها منه.

يبدأ الطريق بمنطقة زهير، كويده شكر، الخفة، الفصير (قصر متداع) وادي أبو العريس عيون صيد، وهي عبدة عن بركة ينشأ زوجة أحد الحلفاء، الفصاري، جرتسي، القايم أو الألتة، رهانة، في جوار مشهد علي، الطلقانة، أو الحياصة، الحسبي، الأخيصر (حصن قديم تحدث عنه سابقاً) رأس العين، تمبل، الكيسة، عقلة، حوران، تعب الحاموس، المانعي، الرتقة، البردان، رشبا، (حصن قديم على العرات) جب غنم، الحمص، جبل بشير، العرم، الطيبة، (دمرت القرية التي تحمل هذا الاسم منذ ٢٠ أو ٣٠ سنة)، قصر الشوان، قاع، أبو الفياض، عز الرثة، صهرج، جبل شبيبة، لحاس، حلة عين سفيرة، أو عين ذهب، حلب^(٥).

وإذا كان هذا الطريق محفوفاً بالمخاطر سلكت القوافل طريقاً مختلفاً، على أن تنزود بكية كانية من المياه، فتمر بعد مغادرتها البصرة، الزهير، وكويده، وشكرة، والحنة، والكوس، وسلمان والألتة، وقطري، والبيدي، وحجرة، محبور والفهر، وحراب، والصرايم، والصخنة، وبيد قديم، ورو الفياض والحمام، وجبل الأحص، وحقة وسفيرة وحلب في طريقها من بغداد إلى حلب، تمر القوافل في غرقوق، وسهيس، والصوغة، والوحلة، وأم الروس، صينديج، هيت، المعصيرة، عين الأرقب وعقنة حوران.

(٥) يشاهد منه الطريق على خارطة السيد كادريشال، وهي الجزء الثاني من كتاب «رحلات» لألف، وهي تضم إيسلر (بدلاً من الربري) وكيسة (كويده) وشاعارا (شكرة) وكانما (الحنفة) بطن قصر (بطر قطان) عبدة موريس (أبو العريس) جرس (جرتسي) ركسة (رحمة) تكدمالا (الكنتان) القادر (الشادر) عويل راسلين (رأس المني) تامل (تامل) كيسي (قيس) اغت حوران (أكلة حوران) توباك جاموس (تبع جاموس) مانوفال (المني) جبل شارن (جب غانم) جبل بشير لهوس (لحاس) ماغلا (حنفة) من ذهب (عين ذهب).

مما لا شك فيه ان الرحلة في الصحراء ليست مزعجة أو محفوفة بالمخاطر، خاصة ان كان السلام يسود بين القبائل العربية، أو بينها وبين الأتراك، وان كان قائد القافلة رجلاً شريفاً وان كان المسافر يفهم لغة البلاد، ويحيد طريقة عيش الشرقيين. لاحظ العاربي، في الصفحات السابقة، ان الحروب تنشب بسرعة في هذه البلاد، وتنتهي احياناً بالسرعة نفسها. حين نصادف احدي المدن، يحظر لنا ان نحملنا آمنة تماماً، وغالباً ما نصادف في منتصف الطريق اعداء على خلاف مع الشيوخ المقيمين في الجوار أو مع العشائر الأتراك، ويتوجب حينها على قائد القافلة ان يتص مع العرب بطريقة ملائمة حتى نمر بسلام. مما لا شك فيه ان أكثر الرحلات أماناً هي تلك التي نقوم بها مع عرب بني كلب، الذين ينفون كل سعة عدداً كبيراً من الجمال إلى حلب، بهدف بيعها. كما وان السفر برهة قوافل التجار، التي يترأسها أحد اعيان البصرة، ليس محفوفاً بالمخاطر، فهناك الاخير مسافر كثيراً في صباه، وتعرف على شيوخ القبائل كافة، مما ساعده على تأمين الحماية الكاملة للمسافرين. أما القوافل التي يقودها أحد الأتراك، وخاصة تلك التي تذهب من بغداد إلى دمشق وإلى مكة فهي مكعبة وشديدة الخطورة. غالباً ما يبيع الباشا منصب قائد القافلة إلى الشخص الذي يدفع أكثر، ففي تلك السنة، دفع احداهم ٤٠ ألف ريال لتسلم قيادة قافلة حجاج بلاد فارس، الذين يقودون السفر من بغداد إلى دمشق بعد مرور ثلاثة اسابيع، دفع شخص آخر عشرة آلاف ريال، وحظي بالمنصب المذكور. يتوجب على هذا الشخص ان يجد عدداً كبيراً من الرجال، وتقديم الهدايا للقبائل العربية، التي يصادفها في طريقه، اما المسافرون، فيشاركون في هذه الاعباء، علاوة عن دفعهم مبلغاً محترماً لفائدة القافلة. ويرى ان بعض قادة القوافل، يتفقون مع العرب ليهاجموا القافلة ويهيموا. وأكد لي كبار التجار ان قادة القوافل الأتراك يتسبون في معظم الاحيان بتمريض القوافل للنهب، على يد العرب، وقد اصبحت مثلاً على هذه الاعمال في كتاب وصف شبه الجزيرة العربية. أخبرني شخص سافر في قافلة مائة، ان التجار اجبروا على دفع مبلغ كبير من المال، قبل انطلاق القافلة، وبعد القافلة في المقابل، بأن يوصلهم إلى وجهتهم بسلام. غير انه شاهد بعض العرب من بعيد، واسرع للقائهم مع عدد من رجاله في هذه الاشياء، كان يحلو بنا الانتصار دون ان نتجرأ احد على اطلاق النار على العرب، رغم انهم كانوا يقتربون من القافلة ويهددون بيهبها. دامت المناقشات بين القائد والشيخ وقتاً طويلاً، فكانا يتبادلان التهديد بحمل السلاح، وكافة انواع الشنائع وفي نهاية المطاف، توصلنا إلى اتفاق في ما بينهما، واجبر قائد القافلة كس مسافر على دفع مبلغ من المال لمتابعة الرحلة. والجدير ذكره ان الرحلة في الصحراء شديدة الخطورة على اهل الشيعة، إذ تفرص عليهم شريرة أكبر من اهل السنة، ويسوء الملحدون معاملتهم إلى اقصى حد.

أتى بعض المسافرين على ذكر مركز الحمام الذي كان يستعمل قديماً في البلاد الشرقية^(٩) وهي بكثرة في مدن مختلفة، ولكن من الصعب أن يصدق أننا نستطيع إرسال الحمام إلى كافة المناطق شأنها شأن أي رسول آخر؛ ولما كانت هذه المنطقة تفتقر إلى مراكز بريد محددة، درّب التجار الحمام لإبلاغ عائلاتهم بعودتهم سالمين من سفرهم. قبلت في البصرة تاجراً من بغداد، اعتمد على استعمال مراكز الحمام هذه في رحلاته كافة. لقد تعرّع حمام في مرله واعتمد على تناول طعامه في مكان محدد، كما وأنه كان يشغل على حرفته، من مكان إلى آخر ويتعرف على المناطق المجاورة. في رحلته الأولى، اصطحبه معه إلى الحلة، وفي الثانية إلى لحسم، وهي الثالثة إلى ارج، وأخيراً إلى البصرة، حيث أرسله إلى سره بعد أن عنق رسالة صغيرة بقوائمه والجدير ذكره أن الحمام الذي يترك صغاره في المنزل يعود مباشرة إليه. ويرغم أن أصل نوع حمام هو البغدادي، ونكسي لا أشك أن الحمام الأوروبي أهل لتدريب على هذه المهمة. وقد قيل لي أن أحد الإيطاليين كان يستعملها ليعرف الأرقام التي استعمالها مواطنوه في الانصيب. وما لا شك فيه أننا لا نحتاج مطلقاً لهذا النوع من الحمام، لأننا نستطيع بعث الرسائل إلى أي بقعة في الأرض، وبأقل كلفة ممكنة.

يقول الكسندر هاملتون^(١٠) أنه تكثرت في منطقة البصرة شرقي وعربي الفرات، العربان السوداء والبيضاء التي تتدافع وتتقاتل. وقد شاهدت بأم عيني عرباناً سوداء ورمادية عبي صغتي البهو، ولكن العرب لا يعتقدون أبداً أن الفريان السوداء والبيضاء قد انحذت من الفرات حداً لها.

(٩) رحلات بيترو ديل فاللي، الجزء الأول، ٢٨٤ عاريال تربيته، جغرافية السودان، ص ٢٩

(١٠) وصف جديد للهند الشرقية، الجزء الأول ص ٧٨.

الرحلة من البصرة الى تلوم ومشهد علي، ومشهد الحسين، والحلة، وبغداد

للانتقال من البصرة إلى بغداد، هناك طريقان، الأول عبر دجلة والثاني عبر الفرات، ولا يستخدم المسافرون الطريق الأول عادة، لطول المسافة بسبب تفرجات النهر الكثيرة، في حين أن الفرات لا تفرجات فيه، فضلاً عن أننا نصل على هذا النهر حتى الحلة ومنها يسفل المسافر مباشرة إلى بغداد براً، مما يجعل الدرب أقصر، ويجد على الفرات محطات أو منازل، فحين يود المسافر أن يرتاح يظهر إحد الحاكيم الذي يحمله، ويمكنه أن يتن مع أناس في محطات مختلفة ليسحبوا مركبه، بأسعار معقولة، فيصل إلى الحلة بهذه الطريقة في عشرة أيام على الأكثر.

ويجب أن يتمتع المسافر بصحة جيدة ليقوم برحلة كهذه في الشتاء، وبما أن قطاع الطرق يكثرون على هذا الدرب، لا يستخدم هذه المحطات إلا رجال الحكومة الذين لا يتجرأ العرب على المساس بهم، فضلاً عن أناس على عجلة من أمرهم ولا يحملون معهم سوى حاجاتهم الضرورية. أما أنا فانتظرت وصول مركب صعب يقبل بضائع إلى الحلة واستأجرت المنصورة لنفسني وغرفة صغيرة لخدمتي.

حين صعدت على متن المركب، وجدت في الغرفة المذكورة، ضابطاً من الإنشكاريس يعاني سكرات الموت ويريد الوصول إلى الحلة، وهي رفة لم أكن أتمناها في رحلتي صبيحاً وأني لا أعرف المرض الذي يعاني منه. لكن صاحب المركب كان قد قبض ماله سلفاً، وأقع خادمي، وهو مسلم من البصرة، بالتنازل عن مكانه والبقاء على سطح المركب، وكفي لا أكون أقل إنسانية تجاه هذا البائس من المسلمين الذين كانوا ليكرهوسي لو طردته، سررت لقرار خادمي وقررت أن أسلم امرئ للقدر.

كانت للرحلة شاقة بالنسبة لجاري المريض، وبما أنني اعتدت العيش بين العرب، لم أفسح للقرار الذي اتخذته بشأن السفر على متن هذا المركب^(١). استغرقت الرحلة ٢٦ يوماً أي من ٢٨

(١) إذا أراد أحد ما معرفة المصاعب التي يتعرض لها الأجنبي في هذه المناطق عليه قراءة الجزء الثاني من رحلاتي إلى الهند وبلاد فارس، عانيت من مصاعب ومشاكل عدة أثناء هذه الرحلة، لكنني لمكنت من تجنب العديد من العقبات التي تحدث عنها لوب لاني أعدت السفر مع المسلمين.

تشرين الأول/أكتوبر إلى ١٩ كانون الأول/ديسمبر حيث وصنا صوم وعادرت المركب، وهي رحلة صعبة لكنها اتاحت لي فرصة القيام بدراسات ملكية عدة، ساعدني خلالها المسافرين الآخرون إذ تحلقوا حولي بنوايهم الطويلة لرد الهوء حين كنت أصعب ساهتي الشمسية على الشاطئ.

سجلت ارتفاع القطب في أماكن عدة مرت بها وهي:

في البصرة كما أوردت سابقاً ٣٠° ٣٠'

في الأول من كانون الأول/ديسمبر قرب المنصورى ٣٠° ٥٢'

في الثاني من كانون الثاني/يناير في أبادا ٣٠° ٥٥'

في الرابع من كانون الثاني/يناير في كمد ٣٠° ٥٨'

في السادس منه في أوجة ٣٠° ٥٩'

في ١٢ كانون الثاني/يناير في غريم ٣١° ١٧'

في ١٦ كانون الثاني/يناير قرب السماوة ٣١° ١٨'

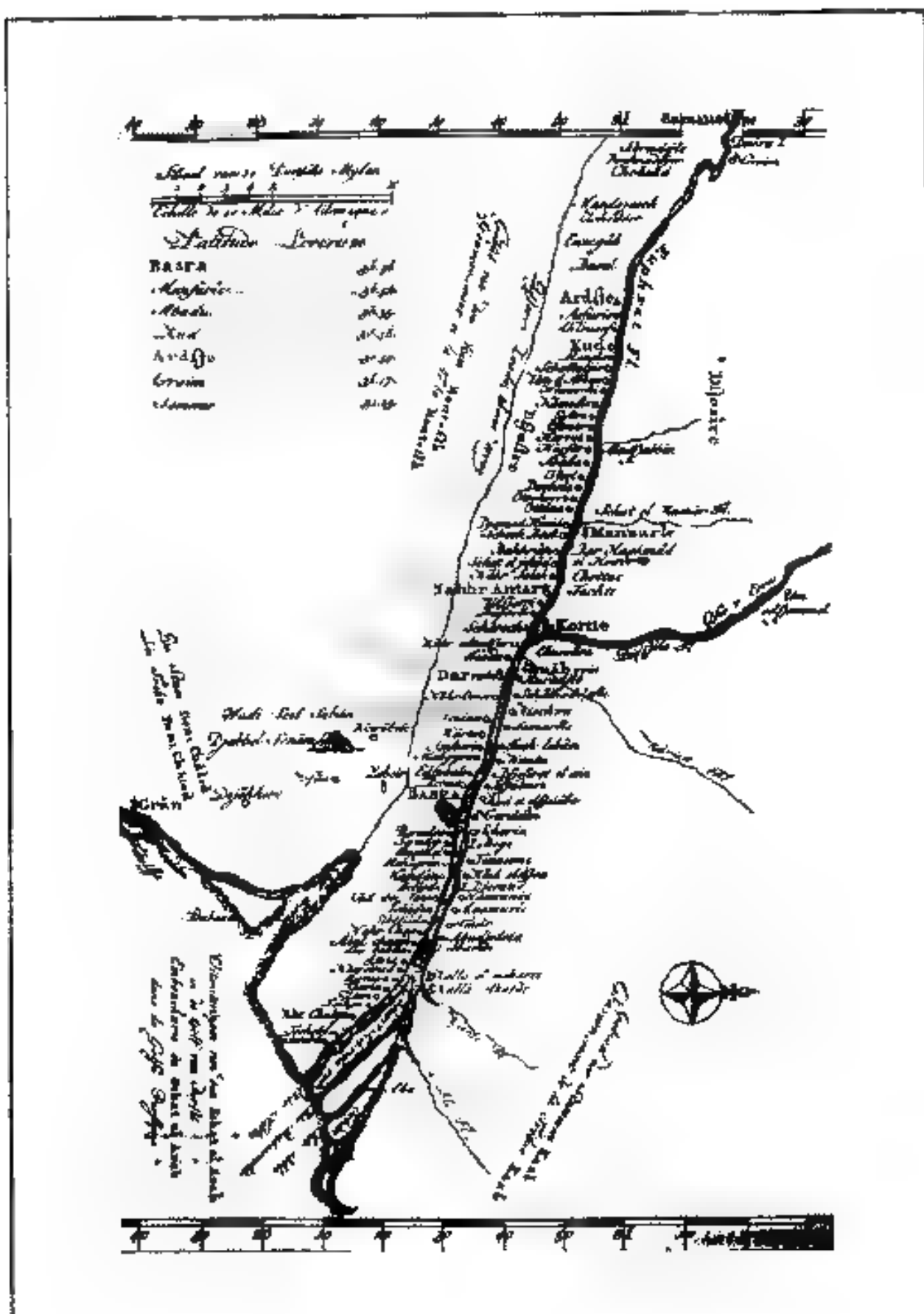
في ١٨ كانون الثاني/يناير في منطقة أبو حرق (Abu Haruk) ٣١° ٢٨'

في ١٩ كانون الثاني/يناير قرب لصوم ٣١° ٤٣'

ثم في الحلة ٣٢° ٢٨'

وبما أن الفرات لا يجري في هذه المنطقة مباشرة من الشمال إلى الجنوب إنما من الغرب إلى الشرق، يصعب تحديد طول المسافة لا سيما حين نساخر بعكس التيار حيث يدفع الجوز غالباً إلى الأمام، والمدة أو انزاح المعاكسة إلى الخلف^(٥) رد على ذلك، أنا اضطررنا إلى سحب المركب لأن مسوب المياه منخفض للغاية فلمسا القاع، فسم يز البحارة المسكين بدأ من النزول إلى المياه والعمل جاهدتين لتحليص المركب. وفي إحدى المناطق لتابعة لقبيلة بني الحكيم (Hackkem)، وضع السكان سداً لتحويل المياه لري مزروعاتهم فلم نجد سوى ممر ضيق للغاية يعظم فيه التيار فأصبنا نصف نهار حتى تمكنا من المرور بمركبنا. ولم أتمكن من تحديد المسافة بدقة إلا استناداً

(٥) نجد على المرات مدناً وجزراً حتى أوجة أي على مسافة ١٤ ميلاً بعد القرية (Kone)، وعلى بعد حوالي ٢٨ إلى ٣٠ ميلاً من الخليج الفارسي، لكن لا نلاحظ وجود مد وجزر على دجلة بعد اسر (Oser) وهي قرية تحمل اسم اسراء (Esra)، ونزور فيها اليهود اليوم قرراً للتزيك.



إلى المحطات التي نجد فيها أناساً يسحبون المراكب وهي ١٢ محطة من البصرة إلى القرنة (Korne)، ٧ من القرنة إلى المنصورى، و ١٢ من المنصورى إلى كعب، و ٢ من كعب إلى المرجاء، و ١٤ من المرجاء إلى السماوة، و ١٨ من السماوة إلى لملوم، و ٧ من لملوم إلى الديوانية، و ١٤ من الديوانية (Diwane) إلى الحلة، واستناداً إلى ملاحظاتي، تبعد المحطة عن الأخرى دقيقتين ونصف إلى ٣ دقائق أي حوالي ٤/٣ الميل، وانطلاقاً من هذا ومن تسجيلي لارتفاع القطب، وضعت خرائط خط السير على اللوحين XL و XL١ التي يمكن مقارنتها أن يعبر عليها مجرى الفرات من الحلة وحتى الخليج الفارسي.

نجد بين البصرة وبغداد العديد من القبائل العربية، تدفع كلها ضرائب للباشا، أما أولها فقبيلة المنتفق (Montefik) التي ذكرتها سابقاً في وصفي لشبه الجزيرة العربية. وبما أن القرى والمدن الصغيرة الواقعة إلى غرب شط العرب والفرات من البصرة وحتى المرجاء ملكها فضلاً عن تلك الواقعة إلى شرق هذا النهر انطلاقاً من القرنة في الشمال، تقوم القبيلة لأشهر في نهر عترة، وفيهم في الصحراء مع قطعانها قسماً كبيراً من السنة، حيث تعيش في الحياء كثيراً من البدو. وعالياً ما جعلت هذه القبيلة الدرب على الفرات وفي الصحراء غير آمن، حتى أنها حاصرت بغداد أحياناً، لكنها تسحب إلى عمق الصحراء حيث لا يتجرأون على ملاحقتها ما أن تعلم أن الباشا أرسل الجيش لمقاتلتها.

ولم يعاقبوا يوماً وعاقبهم سليمان كحبا (Kichja) الذي أصبح في ما بعد باشا بغداد، والذي اعتاد وعنه أحمد باشا الشهير اصطليد العرب، إذا صبح التميمية، أي أنهما يهاجمان القبائل بعثة للذ كانت الطرقات آمنة أثناء حكمهما. أمر أحمد باشا يوماً الشيخ سعدون أخ الشيخ عبدالله، الحاكم الحالي، لكنه عاد وأطلق سراحه مع تضييقه بوجوب دفع الضرائب والابتعاد عن المشاكل. وبعد فترة وجيزة، ثار ثانية، فأرسل أحمد عنده صهره سليمان كحبا لقتاله مع بعض الرجال، فشن هذا الأخير هجوماً مفاجئاً عليه وأسر. ولا زال العرب يمدحون العنقوان الذي أظهره شيخهم في هذا الموقف، إذا دافع عن نفسه طويلاً برمح ثم بسيفه وبمعداه بالدهوس (سلاح يشبه المطرقة يحمله العرب في سرجهم) وأخيراً بسهام جواده وركابه، لكن من دون جدوى. وكان سليمان قد تنقذ الأمر بإعادة سعدون أسيراً إلى بغداد، وبصفته معصراً طالب العلوب ببعض الاحترام والخصوع، لكن العربي الأبي، المولود حراً رفض الخصوع، وأحصى سلالة أسلافه وسأل الكحبا كيف يمكن لشخص مثله لا يهرب أباه (أنه جيورجي، بيع في حياء كعب) أن يطلب من سيد عربي أن يذل نفسه؟ وأغضب هذا الكلام سليمان فقصع رأس الشيخ وأرسله للباشا كدليل انتصاره، ورأى المشايخ الآخرون أن من القطة المخصوع له. وفي يوم من الأيام، قصد حوالي ١٨ شيخاً من هذه

القبيلة الياسا ظناً منهم انهم تصالحوا معه، ورأى هذا الأخير ان الفرصة لن تتكرر فأمر بقطع رؤوسهم جميعاً^(١)، وهكذا ضعف نفوذ قبيلة المنتفق ولم تتجرأ حتى اليوم على العصيان. ويقال إن أحمد باشا الذي يقتل القيمة الشخصية حتى لأعدائه غضب من تصرف صهره، لكن غالبية الأتراك تعتبر حملة سليمان هذه دليلاً على شجاعتهم في حين أن العرب يظنون اليها كعمل جبان ووحشي.

وتسيطر قبيلة بنو لام على دجلة، ونسب متاعب عدة لياشوات بغداد. حين أضحى أحمد باشا على بغداد للمرة الأولى، شنّ حملات عدة على هؤلاء العرب لكنه لم يتصكك من إلقاء القبض عليهم، لكثرة جواميسهم في المدينة فما أن علموا بأن الجيش سيخرج حتى تراجعوا إلى مناطق نائية. وعندما وصل إلى الحكم للمرة الثانية، صرب ورجال الخيام امام المدينة، وقدم بتحضيرات كثيرة كما لو أنه يستعد للدخول المدينة في أبهى حلة، وبقي عرب بني لام، الذين علموا بالأمر، آصين، ظناً منهم أنه لن يهاجم طالما لم يسيئوا اليه أولاً أو أنه سيدخل المدينة أولاً، لكنه رفع الخيام في الليل وهاجمهم بسرعة حتى أنهم لم يهربوا بسخططه. وكسب في هد الهجوم عدة غنائم من إبل وجياد وأبقار وخراف، وقطع رؤوس المشايخ فأضعف القبيلة التي لم تعد تفكر بالعصيان.

ويلجأ الياشوات العرب المقيمين في مناطق حكمهم بهذه الوسائل، ويمكننا أن نتصور بسهولة أن البدو في الصحراء لا يهتمون قد يحكم السلطان والياشوات.

ويطلق على المنتفق وبني لام والقبائل العربية الحبيبية الأخرى اسم أهل البعر (Ahhl el baar) أو البدو. ويعملون في تربية الجمال وتدريبها، ويقضون معظم الوقت في الخيام ويتركزون أمر الزراعة للعلاحين، ويأتي السادة العرب في أوقات معينة من السنة لجمع الضرائب مستخدمين العنف والقسوة أحياناً. وتسمى قبيلة كعب المشيخة على مصب النهر أي على شط العرب وغيرها من القبائل التي تقيم دائماً في القرى والمدن، العرب الحضر.

وتصادف عرباً آخرين، يعملون في تربية الجياد والأبقار والجواميس، فضلاً عن الزراعة ويقلون أكواحهم الحقيبة من مكان إلى آخر كما يفعل البدو مع حياهم، ويطلق على هؤلاء اسم المعتدان (Moadan). وتقيم في شرق العراق قبيلتان من هذه القبائل، وهما بني حاكم (Beni Hakam) وحزعل وتبعان المذهب الشيعي. أما القبيلة الأولى فتصغرة العدد ولا تسبب مشاكل للأتراك، لكن

(١) كما غلب بالبريديين المقيمين في جبل سجد، إذ اتفق شيوخ الجيل المهمين بزيارته وحلب المفتوح على عمليات النهب التي قاموا بها، لكن ما إن وصلوا إلى خيمته حتى أمر بقطع رؤوسهم.

بيده حزرع التي يقيم شيخها في لمدوم، وتتصرف أحياناً بمظاهرة وتسبب المتاعب لباشاوات، وقد مرمت قوات علي باشا مد سوات، حين سنت الباشا نفسه أمسى أباؤها متعطرسين، عمتوا أي مركب من المرور على الفرات قبل ان يدفع حرية وقبيل وصوبي، نقر عمر باشا هذه القبيلة درساً حيث قطع رؤوس مشايخها، وعين شيخاً جديداً حاكماً بها، لكن الحاكم السابق الفار وسمه حمود، عاد بعد انسحاب الأتراك، وبما ان الباشا لم يشأ القيام بحملة أخرى، سلمه الحكم من جديد. ولا يتجرأ هؤلاء العرب حالياً على ابداء المركب، لكن الأتراك الذي يحرقون على الفرات يضطرون إلى سماع الشيعة بمنعوتهم بالمسحدين ويمسكون كرههم للتحلفاء الثلاثة الأوائل أي أبي بكر وعمر وعثمان.

إن ضفة الفرات مخخصة جداً في المناطق الحاضنة لقبيلة حزرع، لا سيما في المنطقة المسماة أم الحنيز حيث يكثر الأسل وبالتالي الحصارير الريه، ولا بد أن لسهر سواد عدد اد لا يتعدى عرضه احياناً ٤٠ إلى ٥٠ قدماً^(٥)

ويجد في شمال المناطق التابعة لهذه القبيلة، مرسى كبيراً يسمى حسكة، يحكمه آغا تابع لباشا بغداد يقيم في ديوانه، ويعتبر أكبر مرسى. في نقطة حكم الباشا، يملك هذا الآغا فرقة كبيرة من الخيالة تساعد على السيطرة على العرب، لكننا لاحظنا أن هؤلاء لا يكثرثون به أحياناً لما أهم المناطق التي تصادفها بين البصرة وعلوم وهي:

- مناوي، محل إقامة الباشا النقيب، وهي في البصرة كما ذكرت سابقاً واشترت إلى ذلك على اللوحة XXXIX ويعتبر هذا المكان مميراً بالنسبة للمسافرين اد يضطرون إلى دفع ضريبة للباشا. وفي الجهة الأخرى لشط العرب وثيالة مناوي، نجد قلعة مهدمة كلياً وتعرف باسم كردلان

- دير، قرية كبيرة جنوب الشط، وعلى بعد يوم من البصرة ويوجد هنا تلالاً كبيرة هي عبارة عن بقايا مدينة شيدده البرتغاليون اسعاداً إلى رأي ريان رحلتي، لكن لم يبق من الابنية القديمة سوى مناره جميلة وهي الوحيدة التي تصادفها بين البصرة والحنة (باستثناء القرنة).

- سوب، تقع إلى شمال الشط وعلى نهر يتبع في حويرة وتدل الآثار الكبيرة على أن مدينة كبيرة كانت تقوم في هذا المكان في ما مضى. إن النهر الذي يصب في الشط عند نهر حاسر (Haser) هو نهر حواسيس (Chos pis) الذي ذكره علماء الجغرافيا القدماء.

(٥) يبدو انه المكان الذي مر به الاسكندر عائداً حين قام برحلة من بابل الى بالاكوباس (Pallacopas) فيبين وناه

الرحلة من البصرة الى املوم ومشهد علي، ومشهد الحسين، والحلة، وبغداد

- القرية تقع عند ملتقى دجلة والفرات، وهي مدينة سيقة البناء يحيط بها من جهة اليابسة سور مزدوج من الآجر، وهو بناء حديث، اذ علمت في البصرة ان الياسا علي والياسا حسين شيئا لصدا الاثراك والفرس.

ونجد هنا خمس فرق من الانكشاريين، أما التجارة في المدينة فمحدودة بالرغم من موقعها الجيد، لكن السفن التي تمر بها، تصطر إلى التوقف لتدفع ضريبة للانكشاريين. ولم اتحكم من قياس ارتفاع القصب في هذه القلعة، اذ سلمت ضابطاً رفيع الشأن رسالة الترقية، فأظهر الكثير من اللياقة ودعاني إلى العشاء في منزله فلم أرعش دعوته. وحين علم بأنني اريد التوجه إلى الضفة عند الثانية عشرة لقياس ارتفاع الهاجرة، اضطرت إلى جلب ساعتني الشمسية، التي أريتها إياها للإسماع، لكنه لم يملك بطلب مني ان اصح له بالنظر غير المسطر المغرب، وتكاثرت الطلبات فأصبح عملي من دون جدوى.

- مهر عتر وهو محل إقامة شيخ قبيلة الممتفق كما أشرت سابقاً، وتدفع له السفن ضريبة في تحته (Tachte) حيث لا نجد سوى المنزل الذي يقيم فيه ضباط الجمارك. ومد مستين، كانت المركب الصغيرة المحملة بالتمر تدفع مسلمين (نصف روية) أما اليوم فتدفع ٥ رويات.

- المنصورة وهي قرية كبيرة، تدفع رسوم المرور فيها لأغا انكشاري القرية، لكن المركب القادم من البصرة في القرية يكتفي بإبرار الوصل. وفي قرية كوت أو كوت معمر تدفع الرسوم لبائنا النقيب في البصرة. أما في العرجة فتدفع لآل صالح إحدى أبرز عائلات قبيلة الممتفق. وكان هناك مركز لدفع الرسوم في غرام، لكن منذ أن فرغ المكان من سكته، تجمع الرسوم في السمارة لأغا الحسكة وبالتالي للاتراك، لكن شيخ قبيلة خزعل يقبض هذه الرسوم حالياً.

وبعدت في جمارك العرجة والسمارة شيوعاً وقبحاً، لأن جاور بأنعمهم لرؤيتي، ولم يهتموا بجواز المرور الذي زودني به متسلم البصرة كما استأثروا حين أردت اظهر فرمان السلطان الذي أحمله، فارتأيت أن أرحمهم بأي وسيلة كانت، فإن تشاجر مسيحي مع اناس من هذا النوع، وقال كلمة ما اعتبروها إهانة لهم، يجبرونه أحياناً على دفع عشرة اشعاف ما يتوجب عليه، فضلاً عن أنهم يسخرون منه. وتبنى المساكن في السمارة من الطين المجفف في الهواء الطلق وهي بالتالي سيقة البناء، لكنها تبدو قسراً مقارنة مع أكوخ العلاحين في هذه المنطقة ومد سوات، مات معظم سكان المدينة بسبب الطاعون الذي تفشى بينهم. وتكثر النمر والاسود وبسات آوى في الصحراء قرب هذا المكان، كما نجد فيها الكثير من الملح.

ونصادف الكثير من الثرى على ضفتي شط العرب وعلى ضفتي الفرات، من القرية ومن العرجة، وبعيداً عن النهر، بقيت هذه لارض الحصبة غير مروعة لقلة السكان والأقية فيها، وتقوم

ألقى بعبداً بعض الشيء عن المهر، وهي سيفة العمران مما يدل على أن المشايخ لا يتركون للسكان ما يكرههم، وقد بنيت المنازل والاكواخ من الأسل، باحتصار، لم أر أكواخاً بحجارة تلك الموجودة في هذه المنطقة التي انعمت عليها الطبيعة بالحصب والتي دافع صيتها واكتظت بالسكان في ما مضى. أما الأراضي المحيطة بين العرجة والسماوة فغير مزروعة أيضاً، ولا تعتبر الأسماء الواردة على اللوحة XL أسماء قرى. تدعى المنطقة على صفتي الفرات الجريرة، ولعل السبب يعود إلى كثرة الأبنية الموجودة والتي جعلت من البلاد في ما مضى مجموعة من الجزر.

ويتميز سكان قرى الفرات بمهارتهم في السباحة كسكان ضفاف النيل، كما يعرف عنهم أنهم لصوص بارعون، أما البحارة فمهمدون، كما في مصر، ولا يحرمون أثناء الليل، لذا يستغل اللصوص الفرصة، ويصعدون على من المركب ليلاً، فإن وجدوا الركاب نياماً جمعوا ما يجدون على ظهر المركب وقفروا بما طالت أيدىهم في الماء.

وفي أحد الأيام حاولوا الأمر نفسه على مركبنا، لكن الانكشاري المريض فشل محاولتهم، إذ لم يكن نائماً، وفي يوم آخر، جازوا في قوارب خفيفة وصغيرة من خيف مركبنا، وسرقوا لي حوضاً للاغتسال وبعض الأشياء الأخرى الثمينة، لكنني استيقظت عندها فلم يتمكنوا من سرقة أشياء أخرى إذ اطلقت عياراً ناريّاً أرعبهم وجسمهم يقفرون من قوربهم إلى الماء.

وكان مستوى المياه بين العرجة والسماوة منخفضاً للغاية حتى أن المركب لاس القاع عدة مرات، وبما أن الرياح وحركة المذ والجور عاكستنا اضطررنا إلى سحب المركب، وأوقفنا العرب مراراً. جلست على سطح المركب مسلحاً، وقد اعتمرت عصابة الانكشاري المريض، وفي بعض التجار من بعدد على مقربة مني وكأنهم ينظرون أومري، وحين يسأل العرب عن علي متن المركب، اعتاد القبطان أن يجيب أنه آغا من بعدد مع ستة شكدار (Tschokadars). ولا أعلم إن كان العرب قد صدقوا هذا الادعاء، لكنهم التزموا حدود الأدب ولم يطلقوا سوى بعض النمر الذي قدمته لهم عن طيب خاطر بصفتي الآغا ومنذ ثلاثة أسابيع، تم نهب مركب محمل بالنمر في هذه المنطقة، وقتل المسافرون الذين رفضوا إعطاء ما يطلبونه. وبعد ذلك، لاس مركب آخر القاع فأخذ العرب يترجون حموته، عندها أصبح المركب أحف فعام وأبحر القبطان كما أمر بقتل العربيين اللذين بقيا على متن مركبه وأرادا سلبه ما تبقى. ولن يلوم أي أوربي المسافرين على فعلتهم، لكن عقوبة العرب مختلفة ونظرتهم للأمور مغايرة، كانوا يسمون أن علي متن هذه المراكب أناس من القرنة ومن السماوة، فطالبوا بالدية من هائيس المدينتين، وطالبوا أيضاً بهذا الادعاء سرصبيهم. ولو أنني قتلت أو جرحت هربياً خلال هذه الرحلة، لطالب أعز القبطان الذي بدوره سيطلبني، ولكنني دعيت أكثر من المسممين لأنني مسيحي أراق دم مسلم. نستنتج بالتالي أن الأسلحة السارية الجديدة ضرورية

للمسافر الأوروبي في هذه البلاد ليشير دعر العرب لا يستخدمها عملياً

في ١٩ كانون الأول/ديسمبر، وصلنا ليلوم، وهي قرية كبيرة يقيم فيها شيخ قبيلة خزعل، لكنه لا يعيش في منزل أبيه من منازل رعائيه بل في كوخ حفير من فصب. أما الضابط المريض الموجود امام عرقي، فتم يتوفه الله، ولم تتحسن صحته وكنت قد مللت رفقته في هذه الرحلة، وعلقت أن الدرب آمن نوعاً ما عبر الرماحية إلى مشهد علي، وهي مدينة قررت المرور بها من الحلة، فقررت ترك المركب. ووجدت شيخاً مسلماً من بغداد بالسعر معي مجاناً إلى مشهد علي ومشهد الحسين، فأبدى استعداداً لمرافقتي، ونزلت عند رغبته ورغبة خادمي، وهما من أهل السنة إلى قرية بائسة على الضفة الأخرى لنهر تدعى ماشويرة (Mashwira). حضر بي الشيخ كوخاً حفيراً بالكاد يتسع لثلاثة اشخاص، ولم يكن مرنه انصل حالاً أو أكبر لذا لم اشك منه، لكن الجياد التي وعدني بها لن تصل في اليوم التالي فاضطرت للبقاء ليلة أخرى عنده. ولم يعجني هذا الرجل لأنه رديء للغاية ولأنه يفتحص كل ما أحمله معي بدقة، وساورني الشكوك حول، فقررتا للقيام بحراسة المنزل كل بدوره، وتركنا القديبل مضاً طوال الليل، لكن خادمي لم يكن متتاداً على السهر فندم، ولاحظ اللص ذلك، وبما كان يسرق التي الطابعة، استيقظت وأثرت جلبيه فسارع الشيخ وأظهر غضباً شديداً من تصرف كهذا في ثيبي. وركض في الحقول وراء اللص كما أرسل الملاحين إلى نقاط أخرى لكن الجميع عاد خالي الوفاض، ولا أشك أبداً ان الشيخ واللص واحد، لكن الفطنة تقتضي شكره على سعيه وتقديم هدية صغيرة به. وبما أنه لم يعد يأمل أن ينجحنا أثناء نومنا، ثم تحضير الجياد للرحيل في اليوم التالي.

وفي ٢١ اجتزنا سبعة فراسخ ونصف أو حوالي خمسة أيال ونصف نحو الشمال الغربي حتى الرماحية. ولم أر على هذا الدرب أي مسجد لكن الكثير من القباب أو الصروح الصغيرة التي تعلو قور الاولياء المزعومين، ويحيط بها ما يدعى على أن بعض القرى كانت تقوم في المكان. إن كافة الأراضي خصبة، لكن العديد من القنوات الصغيرة التي كانت تروي المنطقة جافة حالياً وقلما يصادف قرى فيها، لكن ترى قطعاناً كبيرة من النعم والجياد. وقرب الرماحية، هناك قناة كبيرة تطلق مياهها من الفرات يبعد عنها ميلاً ونصف المير، ثم تعود وتصب فيه قرب المساوة (راجع اللوحة XXI)، وكانت هذه القناة صالحة للملاحة منذ سنوات، لكن المياه لا تجري فيها حالياً إلا إذا بلغ منسوب المياه في الفرات اعلى ارتفاع له، وألفيتها أنا جافة تماماً.

بنيت مدينة الرماحية في سعة، وتقال من حوالي ٤٠٠ منزل، يحيط بها سور عال لكنه شديد من الآجر غير المشوي كما في البصرة وفي القرنة، ولا يعمل احد على تصليحه وميائته فيمكن العبور من خلاله من جهات عدة. ونجد في المدينة مسجداً عظيماً وحماماً مفتوحاً جميلاً للعبادة،

وقد بنيت معظم المنازل من الآجر غير المشوي. يعيش السكان من الزراعة ومن حقائق البلح. ويقال انهم أثرياء مقارنة على ما أظن مع فلاحى القرى المجاورة. ويجمع شيوخ قبيلة خزعل رسم مرور في الرماحية، فيبدو بالتالى ان الشيعة يسيطرون هنا.

أقمت في الرماحية عند رجل مسي وقد سررت بإقامتنا، وفي مصيبي وهو إمام المسجد وبالتالى زميل لريتي في غرفة مفتوحة من الامام، ولاحظت ان عادات المسلمين تختلف كثيراً عن عاداتنا. كانت حماته تجلس امام المنزل، وامرأته تعمل على تحضير الطعام على مسافة مشى، وانجبرته ان الاوروبي حين يزوج ابنته لا يتلقى المال من الزوج، وإن كان الاب ثرياً، يعطيه مبلغاً من المال يسمح له بالعيش ورواحته عيشة لائقة. وأعجبت هذه العادة مضيبي، فسأل حماته اذا ما سمعت ما قلته، وأصاف: لم تنصرفي معي بهذه الطريقة، يا أماء، وجيرثي على دفع المال قبل ان تعطيني ابنتك، الخ. وبعد أن استفاض الروح على هذا السؤال، قالت الام: «آه يا بني! كيف كنت سأعيش وابنتي إن اعطيتك حصي ونسري؟» ثم أخبرته أنه لا يسمح للرجل بأن يتزوج اكثر من امرأة واحدة، تحت طائلة التعرض لعقوبة الموت، وأن أملاكه تعود لأولاده، فاهبت العجوز تقول «هل سمعت يا بني ما قاله هذا السيد؟ لا بد أن العدالة تسود في البلد الذي يتحدث عنه!» وتدخلت المرأة، التي بدت وكأنها لم تكن تسمع حديثنا، فقالت: «آه يا روجي، كيف يمكنك ان تعلب من أمي إن تمسحك منزلها. كنت لتمطيه بروجاتك الاخرى فانت تعبهن أكثر مني وأن نادراً ما أراك». وتابعت المرأة وأنها حديثهما على السؤال نفسه، وأخيراً سألت مضيبي عن عدد روجاته، فأجابني أربع، ولكن يكففته الكثير، إذ لكل منها منزلها وحديقتها حيث تعيش واولادها. أم هو فلم يكن له منزل محدد، لأنه يجد عند كل منهن الطعام والمأوى والمبيت. وحين سألته إن كان يعيش بسلام اكبر من تزوج أربع نساء، فلم يصدقني الجواب، شأنه في ذلك شأن كافة المسلمين الذين يشهدون بتعدد الزوجات.

في ٢٢ كانون الأول/ديسمبر، قمنا سبعة فراسخ أو حوالي خمسة أميال من الشمال الغربي نحو غرب مشهد علي، وشاهدت على هذه الطريق العديد من الأقنية الجافة والقبب الصغيرة، ويستخدم العقراء هذه الأخيرة بدلاً من المصليات في عياد المساجد الجديدة، لكن نجد هنا حقولاً مرووعة أكثر مما نجد في الجهة الأخرى للرماحية. أخذت مدينة مشهد علي اسمها من مسجد رائع بني تكريماً لملي، رابع خلفاء المسلمين، ويزوره الشيعة من كافة البلاد كما يزور المسلمون كلهم مكة. ويؤد الشيعة حتى بعد وفاتهم الحج إلى هذه المدينة التي يعتبرونها مقدسة، إذ يعمل اليها الموتى من الرماحية ولعلوة والحلة وبغداد وغيرها من المدن المجاورة فضلاً عن بلاد فارس وحتى الهند.

سمعت في الريير أو البصرة القديمة عن ميت دون سمة كاملة، ثم يمش قبره ونقل إلى هذه

المدينة. وصادفت على الدروب بين الرماحية ومشهد علي أربع جوائر، ومن الأخيرة إلى الحدس خمس جوائر، وحسب سألته أن كان العدد لا يبعدى صبع جوائر تقص من مساطق أخرى إلى هنا، أجيبت أن هذا الرقم قليل لنعابة، إذ يدفن هنا سنوياً ما يفوق الألفي ميت عرب ويحصل من يدفع جيداً على قبر قرب مسجد امامهم، ومن يدفع أقل يدفن داخل أسوار المدينة، أما ذلك الذي يتعذر عليه الدفن فيعين له مكان خارج المدينة، ولا أضل أن السوني يدفنون داخل حرم المسجد، أو على الأقل في مساجد المسلمين الأخرى، لا نجد سوى قبر مشيد المسجد وأحياناً قبور لولاده ونسائه وبشكل عام، لا يحب المسلمون أن تكون المدافن داخل حرم المدينة.

أكد لي علماء سنة أن قبر علي، صهر النبي، لا يعرف مكانه، ويبدو أن عائلتها حاولت أن تحفيه عن أمهاتها^(٥)، لكن الشيعة يؤكدون أن علي دفن في هذا المسجد، ويقولون إنه أعطى الأمر بوضع جثمانه بعد وفاته، على ظهر ناقه، وبدنه حيث تبرك بعد إخراجها من الكوفة. ويبدو هذا الأمر غريباً من سيد عرف بدكائه كمعدي، لكن هذا القبر السرهم سمع ببسوء مدينة، تقع هذه المدينة في منطقة جرداء قاحلة كالسويس وحدة كما تفتقر للمياه، وتجز تلك المستعمنة للعسل في أنابيب جوية، أما المياه الصالحة للشرب فتتقل على ظهر الحمير من مكان يقع على بعد ثلاثة فراسخ. ويكثر الكلس في إحدى جهات المدينة، فيكفي بالتالي جرف بعض الرماد والربل الجاف لصنع كلس جيد لئسائه، وبما أن سعر الحشيش مرتفع، تبنى غالبية المنازل من الحجر المشوي المطلي بالكلس وبشكل مقبب مما يجعلها منيعة وفي الجهة الأخرى للمدينة، تظاها منطقة مخففة يكثر فيها الملح، ويطلق عليها العرب اسم البحيرة (El Buheire) واسم النجف، ويدعون أنها بحيرة سرقة (Buheiret Sarve) التي جمعت عند ولادة محمد.

ويجمع قسم من سكان المدينة المذهب السني، فيما يتبع القسم الآخر المذهب الشيعي، ويكره اتباع هذين المذهبين بعضهم البعض حتى أن السني حين يزور بلاد فارس يضرع للصلاة وفقاً لعادات البلاد كي لا يسمى إليه الشعب شأنه في ذلك شأن الشيعي الذي يقصد بعض المدن التركية. أما في مشهد علي ومشهد الحسين فتعائشون قدر المستطاع، ويضطر السنة إلى الخضوع لإرادة الشيعة لأنهم يعملون عندهم، ويجب على الشيعة تجنب المشاكل إلا أفسحوا المجال امام الرياشا ليحمل الفرس يدفعون عالياً لمن زيارة امامهم الأول. ويقصد حوالي ٥٠٠٠ شخص قبري علي والحسين، ولا يحتجون في أوقات معينة كالذين يقصدون مكة، لكن الشيعة يعتقدون أن صلواتهم تستجاب في أشهر معينة، لذا يأفون المكان في ٢٧ رجب، وفي شهر رمضان وفي

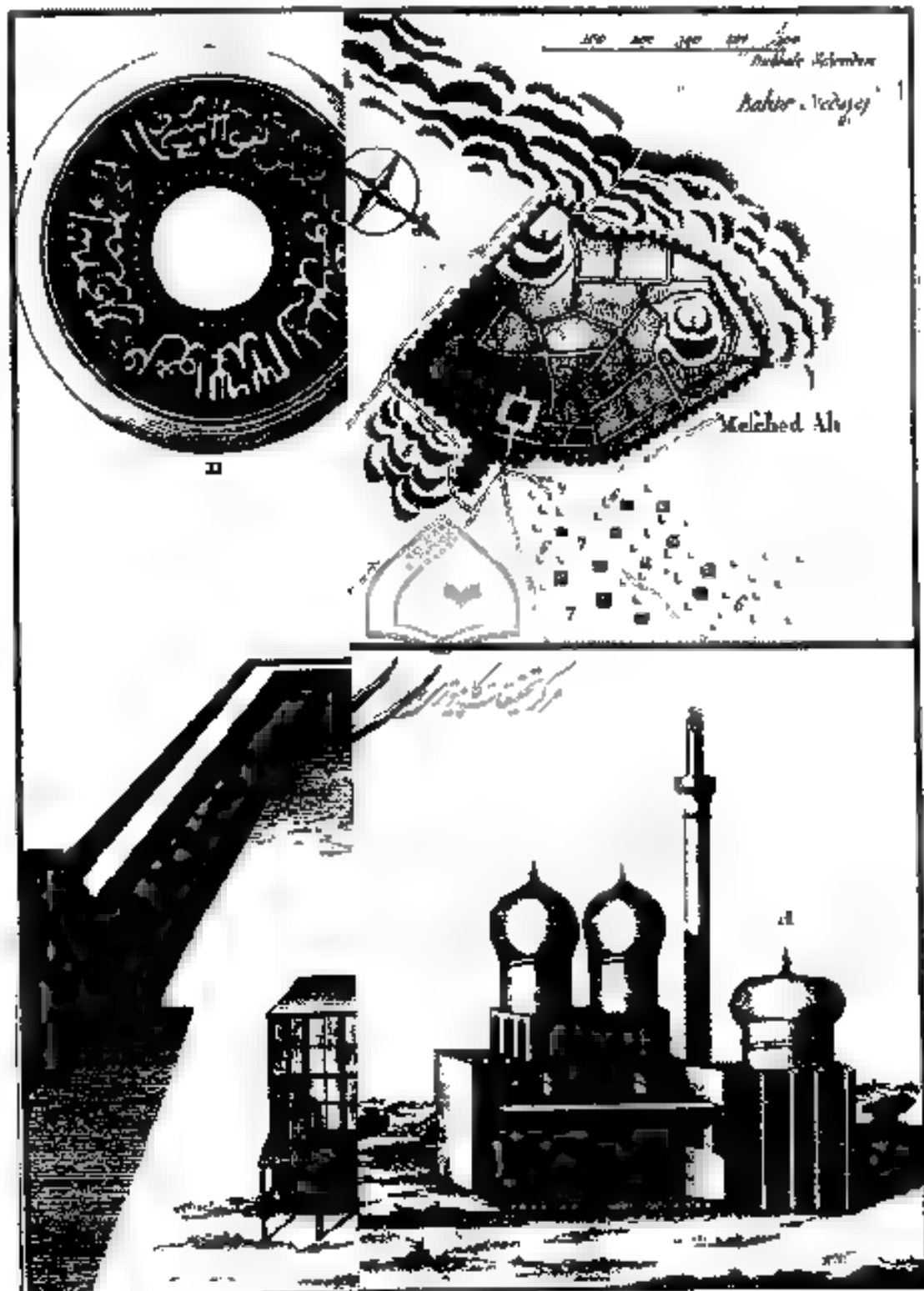
(٥) نلاحظ أن مكان دفن علي لم يكن معروفاً في أيام العلماء الأسوس (بالتالي منذ حوالي ١٠٠ عام) في العام ٣٦٦ للهجرة، تم بناء مسجد على هذا القبر.

العاشر من محرم. وتنادراً ما يسمع احداً هنا يستعين باسم الله ليؤكد كلامه، إذ يقسمون كتبهم باسم علي، وباسم الحسين في مشهد الحسين، وباسم الشاهدي في المشهد. ونسمعهم غالباً يصرخون: «واعلي! واشهيداه، واحسيناه واشهيداه، كرم الله ذكراهما»

إن المنظر الخارجي لمدينة مشهد علي يشبه إلى حد بعيد محيط القدس اليوم، وهي تمتد على المساحة نفسها تقريباً، وقد رسمت الخارطة على اللوحة XLII. يحيط بالمدينة سور، فيه بابان، باب المشهد قرب الرقم ١١، وباب النهر قرب الرقم ٢، أما الباب الثالث الذي يحمل اسم باب الشام قرب الرقم ٣ فمسدود، وقد انتهت السور من أماكن عدة حيث يمكن للمرء أن يدخل المدينة من خمسين فتحة، ونجد في المدينة ثلاثة مساجد صغيرة فضلاً عن المسجد الرائع الذي يضم قبر علي قرب الرقم ٤، وتكوّنت التلال قرب الرقم ٥ من أفنار الشوارع التي تستعمل على ظهور الحير. وجمعت المدائن المشتركة قرب الرقم ٦. أما الرقم ٧ فيدل على المنطقة التي تجر منها المياه إلى المدينة عبر اقنية تحت الأرض.

وبلغت الانظار في المدينة المسجد المنبثق فوق قبر الخليفة والامام علي، وقد رسمته بقدر ما سمحت لي الظروف قرب الحرف (A) على اللوحة XLII. أظن أن ما من صرح في العالم يعلوه سقف لحين كمسجد الشيعة هذا وقد دفع كلفته نادر شاه الشهير في بلاد فارس، لكن الطاعة كهذا الأخير يفعلون المستحيل ليهيرو أنظار الشعب، إن طلاء القبة الكبيرة وسطح المذبتين بالنحاس ليس بالأمر العجيب، لكن هذا النحاس كله مذهب، وقد استعمل لكل ٨ بومبات ونصف مربعة طومان ذهبي أي عشرة دراهم المانية^(٥). وبشكل هذا المسجد مشهداً رائعاً، لا سيما حين تسطع عليه أشعة الشمس، وبما أن الصرح والمدينة بشكل عام مرتفعان، يمكن أن نرى القبة على بعد خمسة أو ستة أميال. ويرتفع فوق القبة، حيث نرى عادة في المساجد التركية هلال أو عصا طويلة، كفاً سدودة لا بد أنها تمثل كفّ علي. وتحيط بالمسجد ساحة مفتوحة يقام فيها السوق يومياً، ونجد امامه ثراً بفنادق عدة، ويقوم حول هذا كله مبانٍ يقيم فيها بعض المسؤولين

(٥) بورد محمد مهدي خان، في تاريخ نادر شاه من ١٧٢٤، ما يلي: «ودعت التقوى نادر شاه إلى طلاء سطح المسجد المقدس بالذهب (مسجد مشهد علي أو النصف الشريف كما يسمى الكتاب الفارسي المكان)، وقد تكلفت كلفة هذا العمل بمبالغ طائلة، وتم ترميم جدران هذا الصرح المبارك على نفقة الإمبراطورة الشهيرة كوهمرشاه البيهجوم (Cohershad Begum) التي أرسلت مئة ألف نادري (على ما يبدو روبية وبالتالي حوالي ٦٦٦٦٦ درهم الماني) من حسابها الخاص. كما وهبت ميخنة مرصعة بالأحجار الكريمة، وأثناء من الذهب الخالص لسرق البحور في البيوت المقدسة وودعت السلطنة رعية البيهجوم (Raza Begum) ابنة الشاه حسين عشرين ألف نادري (حوالي ١٢٢٢٢ درهم)



عن خدمة المسجد، ولا يحكى أن يقيموا فيها كلهم، إذ أن عددهم يتجاوز المئة، يحسب ما أكدوا بي، ومن ضمنهم العديد من الدراويش الذين يعيشون لشدة فقرهم عند مدخل المسجد ويعرضون صلواتهم على المحجاج لقاء مبالغ صغيرة، وقد قدمت حين علمت بالطريقة التي يقرأون فيها الصلوات لقاء صدقة أو على الأصح لدفع الشعب الفقير المتطير إلى التصديق عليهم.

وتجرت على الاقتراب من مكان يعتبره السنة والشيعة على حد سواء مقدساً، ولو تصرفت بنهوض ودخلت المسجد، لربما أجبروني على اعتناق الدين الإسلامي ولم أشأ لوصاء حشرتي بهذا الشأن. لكن رفيق رحلتي والعديد من الشيعة أكدوا لي أن المسجد يحوي ثروات طائلة، بالقيمة مذهبة وقد كتبت عليها آيات من القرآن بأحرف من عرشف، كما كتب على الجدران بأحرف ذهبية كبيرة، ونجد أيضاً العديد من التسميمات من الفضة والذهب المرسعة بالاحجار الكريمة. ويكثر الحديث عن سحر عتبر، كذلك الذي يحمله الهندو في أحرامهم، معلق على قبر علي المسوّر، ويقال أنه مرصع بأحجار كريمة باهظة الثمن، وأن اورنث زيب (Aureng Zeb)^(٥) أهدها للخليفة الذي اعتل منذ قرون عدة. ووصفوا لي قطعاً أخرى كثيرة في المسجد حتى أنني أكاد لا أشك بما يروى عن صربي، بهرته هذا الأمور، وحين ذكره بوجوب الصلاة، أحاب حقاً، إن الأشياء الفاخرة التي زينت القبر استقي ذكر الله.

ويهتم بهذا الكنز الكبير المتولي (المشرف على المسجد) والحاكم، كما يرسل يائسا بغداد مسوياً مسزولاً كبيراً للتأكد من وجود كافة المحتريات. لكن بما أن هؤلاء هم من أهل السنة ومن الأتراك، الذين يعرفون قيمة الذهب والاحجار الكريمة أكثر من أن يتركوها في أماكن مماثلة حيث تلهمهم عن صلاتهم، يعتقد الشيعة أنهم يعملون على إبدال القطع الحقيقية بقطع مزيفة.

وتقع مدينة الكوفة الشهيرة، على بعد خمسة أرباع الميل من مشهد علي إلى الشمال الغربي، في منطقة منخفضة وعصبة، وسجد هنا مجرى كرى سعده (Dejaro Zaade) (أو بالاكوباس) لكن المياه لا تصل إليه حالياً.

دخلت المدينة ومحيطها من السكان، أما أبرر س نجده فيها فهو المسجد الكبير حيث نعتيل علي، كما لم يبقَ عنها سوى الجدران الأربعة التي رسمتها مع الخارطة على النوحة XLII. قرب الحرف (ب) B) ويسمى الباب ١، باب الفيل، ورسمت قرب الرقم ٢ صرحاً حقيقياً في الأرض وغير مرتفع، يبدو وكأنه عزان مياه ويسميه العرب المدينة. وقد ذكر الدليل، وهو من سكان

(٥) بورنك زيب هو أسراروور الممول الذي حكم عام ١٥٢٩ وتوفي عام ١٧٠٧ وهو نفسه شاه جهان المعروف في كتب التاريخ. (الانتش).

A

بسم الله الرحمن
 الرحيم قل هو
 الله ... احك الله
 الصمت لم يك
 مبولك و لم يك
 لم يكفوا لا احك
 هك القبر حفر
 بر منظر حفر
 الله و عفر
 لم ك الله ع
 عكم و ع
 ار حكم

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٥٦ من «سورة الثابتة» في «قرآن وفقاً لتقسيم ماراقيوس (Maraccius)، وبما أن السيد ريسك ردّ ن أحمر كافة الكتابات الكوفية التي سمعتها من أجل الذين يودون معرفة هذه الحروف. لم اكتب بهذه الكتابة بل اضفت كتابات أخرى صغيرة قرب الحرفين (ج C) و(د D) وسجد في بعدد حالي، أمشة عدة عن طريقة برين المارل بالكتابات العربية بالأحرف الكوفية كما في هذه الكتابات الأخيرة.

أمرت عاذلة حاتون (Adila Chatun)، زوجة سليمان باشا، ببناء جزء من الجدار الشمالي العربي للمسجد وترميم الجزء الآخر، كما أمرت بتشيد صرح صغير مع قبة بكرها لابنة نوح، وأشار الدليل إلى المكان الذي غسل فيه عثمان الحليفة علي. وإلى عرفة صغيرة في هذا الصرح سمعت فيها ابنه نوح الحبر يحسب ما يزعم ويرى صرحاً صغيراً مخصصاً لبسات علي الثلاث، ولمنهن دفن هنا. وعلى بعد حوالي ربع فرسخ إلى الشمال العربي من المسجد الكبير، أشار الدليل إلى مسجد آخر هو مسجد صاحب الرماح المهدي، وروى لي حكاية طويلة لم أفهم معناه. ولا يصادف حتى الكوفة إلا بعض التلال الصغيرة والمكونة من بقايا بعض الابنية، ويبدو أن المارل كانت تبني من الحجارة وبالتالي لا تهدم بسهولة كما في البصرة كما نجد بين هذه البقايا، عملات قديمة لا قيمة لها اليوم، وبما أن المسلمين لا يجمعون أموراً كهذه، وبما أن الأوروبيين لا يزورون مشهد علي (علي حدّ علي، لم يرها أي أوروبي)، لا يمكن للمسلم ان يتوقع شراء أي شيء منها.

ولم يثر اهتمام خادمي في الكوفة سوى بقايا عمود حمله علي بنفسه إلى المدينة، وهو قرب السفينة داخل المسجد الكبير، ويتميز بأنه لا يمكن لأمرىء، لم تكن أمه ودية لوالده ان يحصيه تماماً وأرد الموجدون من عامة الشعب القيام بهذه التجربة للتأكد من هوية والدهم الحقيقي، وسوّوا جميعاً بالنتيجة باستثناء سائس واحد، واولوا اتهامه بأن العمود يتمدد بسببه، فقام الرجل المسكين بمحاولات بائسة لحصنه كلياً وبظفر العفلاء من المسلمين إلى هذه التجربة على أنها نسبية لعامة الشعب.

في ٢٥ كانون الأول/ديسمبر، سافرت من مشهد علي إلى كفيل (Kefil) وقطعت بالتالي أربعة فراسخ ونصف نحو الشمال، ثم اجتريت المسافة نفسها إلى الشمال شرقي فوصلت إلى الحلقة، ستنتج من ذلك أن المساحة بين المدينتين هي تسعة فرسخ أو سبعة أميال. وتحوي كفيل قبر حريقال الذي يؤمنه اليهود سوي، لكن هذا النبي لا يملك كنوراً، ولا قصبة، ولا دهاً، ولا أحجاراً كريمة، حتى وإن أراد اليهود تقديم هذا كهده له، لما تركها المسلمون طويلاً، لذا يكتفون بإذن الحج، ولا ترى في مصلى النبي سوى قبر مسوّر تحت برج صغير، أم مالكة المكان أو حارسته

الرحلة من البصرة إلى تكوم ومشهد علي، ومشهد الحسين، والحلة، وبغداد

عائلة عربية، ست في المكان مسجداً جميلاً صغيراً تعلوه مئذنة. ولا يدفع هذه العائلة اية ضريبة للتراث، حياً بالنبي وحسب، كما تكسب الكثير من المسافرين الذين يحسرون لهم الاقامة هنا

ويحيط بقبر حرقيا، وبالمسجد وبمازل العرب الصغيرة سور متين وعال، تبغ مساحتها ١٢٠٠ قدم، ويقال إنه بني على حساب يهودي من الكوفة يدعى سليمان، ويبدو أن اليهود يقومون بجرمهم حالياً. وفي موعد صبح اليهود، يؤم البلاد عرب يأتيون لتبغتهم أو على الاصح لمطالبتهم بالهدايا، ومن الأفضل أن يتفقوا معهم بالحسنى، لكن اليهود جساء وخجولون. ويخيمهم عدد قليل من المسلمين وإن كانوا هم أقوى منهم مما يجعل العرب وقحاء متمطرسين، فيكتمى اليهود بالبقاء محبوسين في قلعهم الصغيرة أو حانهم كما يسمونه. ولا يتجرأ اليهود على اطلاق النار على أعدائهم ولو لمرة واحدة، حتى وإن حملوا أسلحة نارية، لأن الدم الإسلامي الذي سيرينوب سيدعرون ثمة غالياً، ولن يتوانى العرب عن ترقب قاتلتهم المقبلة ومهاجمتها وسلبها. لذا يحب أن ينفى المحتاج من حانهم حتى يحنسهم حاكم الحلة، أو يشا بغداد، إن كان عدد العرب كثير، ويكنسهم هذا أكثر مما يطلبه العرب. وبما أن هؤلاء الاخيرين يضطرون إلى الاستحاب حالهم الوفاض تقريباً، يشكل هذا تنبيهاً لهم بعدم التعرض مرة أخرى لليهود.

وبصادف بين كميل والحلة العديد من الأنهار الصغيرة الجافة خلال هذه الفترة من السنة، ولا نرى ما يشير الاهتمام على هذه الدرب سوى بعض منازل العلاحين المتفرقة وعدداً من القباب فوق قبور اولياء المسلمين.

في ٢٦ استرحت في الحلة، وفي اليوم الثاني توجهت إلى مشهد الحسين المبني في المكان المشهور بين المسلمين والمعروف باسم كربلاء، وهي تقع على بعد حوالي سبعة فراسخ أو خمسة أميال إلى الشمال الغربي من الحلة. ولا تصادف على طول هذه الطريق (اللوحة XLI) إلا الطهارة (Tomasie) وهي قرية كبيرة بناها الشاه عباس ويوجد فيها العديد من حدائق الخيل.

لم تكن منطقة كربلاء أهلة بالسكان حين قتل فيها الحسين وبعض أهله واصحابه، لكن هذه المعركة اتاحت لمسطقة فرصة الاستفادة، فتم جز المياه إليها من العرات وري فيها اليوم غابة من اشجار النخيل^(٥)، أما المدينة فأكبر من مشهد علي وأكثر سكاناً، وقد بيت المساكن فيها بطريقة متينة لكن معظمها من الآجر كما في البصرة والحلة. يتخلل سور المدينة خمسة أبواب، وهو مبني من الطين والآجر المجفف في الهواء الطلق، بما قد انهار بأكمله.

(٥) يسمي محمد مهدي شاد هذا المكان مكان الجنائن، تاريخ نادر خاني، من ١٣٧٤، الترجمة الألمانية

وبلغت الانظار في هذا المكان مسجد كبير فيه مصلى يطلق عليه الشيعة اسم مذبح الحسين ويقال انه يقوم في المكان الذي دلت فيه الحيل جسد سعيد محمد والذي دفن فيه لكن السنة يشكون في امكانه تحديد مكان مقتل الحسين ودفنه بهذه الدقة، وإن كانوا لا يسكرون في المعركة دارت في هذه المنطقة. ورأيت أن رسم هذا المسجد أنظر من رسم مشهد علي، حتى أنني لم أجروا على الظهور في هاته أضاء النهار، لكنني قصدت ليلاً متمراً عمامة تركية، يوافني رفيق رحبتي، وبما أنه كان مضاًء بسبب احتفال كبير، رسمت مسطراً عند عودتي على اللوحة XLII قرب الحرف (ج C) مما يعطي القارئ فكرة عن بناء هذا الصرح. تكثر النوافذ في الجدار الامامي، وهو أمر مألوف في بلاد لا تعرف الزجاج ابدأ، ويعتبر هدية من بعض العرس الذين ارسلوها من مصنع شيراز ونجد وراء الصرح الامامي، قبة عالية يقال إن الحسين دفن تحتها، وتحيط بها أربع مآذن، ويرى على مسافة قريبة منها قبة أخرى أعرض من الأولى وأقل منها ارتفاعاً، فلم اتسكن من اظهارها على الرسم من هذه الجهة. ويقوم كل هذا في مساحة كبيرة تحيط بها من الجهات الأربع منازل الشيوخ والدرابيش، وتلاحظ أمام المدخل الرئيس للمسجد وجود شمعان كبير من النحاس كذلك الموجود في مشهد علي، وبمب الذهب من الخارج، ولكن يقال إن هناك أشياء ثمينة فوق قبر الحسين لكنها لا تقدر بكنوز صريح عني.

ويشير الشيعة هنا إلى قبور العديد من أهل الحسين واصحابه الذين قتلوا في معركة كربلاء ويحبرونهم شهداء، كما بنوا مسجداً كبيراً داخل المدينة تكريماً لشقيق الحسين العباس، وقد روى في الكثير عن هذا الأخير لكنني لم أورد إلا ما يلي: كان الحسين يعاني من ظمأ شديد، فحفر العباس الأرض في مكان يسمى حما قاع (Hema Kaa)، سألني عني ذكره لاحقاً، لكن لم يجد ماءً، فتقدم حوالي فرسخ إلى الشمال وملاً زبنته، وفي طريق العودة، هاجمه الاعداء، وحاولوا الوصول إلى الماء، وقطعوا يده فأخذ القربة بيده الأخرى فمطعها، عندها التقطها بأسنانه لكن أحد الاعداء سؤب سهماً بحر القربة وخرقها فسالت المياه منها، وعاد العباس من دون أن يتمكن من إرواء ظمأ أخيه.

ومن بين الامكنة التي يقصدها الحجاج هنا، المكان الذي وقع فيه جواد الحسين وخياله، وهو خارج المدينة، على الدرب المؤدية إلى مشهد علي، وقد تم بناء مصلى صغير هنا. وقصص عني الدليل بالتفصيل ما قاله الامام لعائلة في هذا الموقع، وما أمر به قادته، لكنني لم أجد داع لذكر هذه الامور هنا. ويصعب الحسين خيمته للمرة الأخيرة قرب حربة قاع (hema Kaa)، وقد تحوّل هذا المكان حالياً إلى حديقة كبيرة في الجهة الأخرى للمدينة. ويرى في المكان الذي لم يجد فيه العباس الماء بئراً عظيماً، امتلأ بالماء بفضل أعجوبة وذلك استناداً إلى رأي الشيعة، الذين يحبرونه

الرحلة من البصرة إلى ملوم ومشهد علي، ومشهد الحسين، والحلة، وبغداد

مقدساً، فيقصدونه أناس من بلاد فارس ليغرقوا فيه حباً بالحسين، ظناً منهم أنهم سيقتلون شهداء. ونرى في الحديقة صرحاً مهتماً من المكان الذي ضربت فيه خيمة الحسين، كما يرى بالقرب منه صرحاً آخر منخفضاً فيه قبر قاسم العريس وغيره من الشهداء. وسعدت مصيبتني، وهي أرملة عجوز وشيعة متحمسة، حين علمت أنني زرت قبر القاسم. إذ أنه وليها المفصل، وروث لي وقد غرورقت عيناها بالدمع، أن هذا القبر الشجاع كان قد عقد قرانه أي أن عقد زوجه قد تم أمام القاضي بحضور شهرد، لكن ليلة زواجه الفعلي، قتل مع الحسين وغيره من الشهداء. وتحفظ هذه العجوز حرفياً ما قاله الزوجان لبعضهما قبل بدء المعركة.

وبأني بعض السنة إلى مسجد الحسين لأداء صلاتهم بحديثهم الممهور، في حين أن الشيعة يطلقون صرخات برثى لها وكث في المدينة عند اكتمال القمر في شهر رجب، حين يتوافد الحجاج لتسوية الليلة قرب قبر الحسين، وبما أنهم لا يمكنون تقريباً مطبرعاً، وبالتالي لا يتأكدون تماماً عن أيام اعيادهم، يمضي العديد منهم ليلتي في المسجد بنية عدم تفويت اللحظة الحقيقية. وتفاجأت حين رأيت هؤلاء الناس المتطهرين يقتلون باب الفناء بحضور فضلاً عن باب المسجد، ويقال أنهم يكتمون بتقيل البلاط داخل المسجد، بل إن بعضهم يضرب رأسه بالجدر والقصبان الحديدية ناكماً على مقتل الحسين. كما يروى أن بعضهم يلج تأثيره النرزة ما تقدم على قتل نفسه قرب قبر امامهم الكبير ظناً منهم أنهم سيقتلون شهداء وأنهم سيدخلون الجنة لأنهم صحتوا بأنفسهم حباً بالحسين. وأعترف أنني لم أسمع شيئاً بكآبة ما يقوم به الشيعة في مسجدهم، إذ يصرخون ويكفون ويتأثرون كما لو كان الحسين أباهم أو أنه توفي لقره، ولم يكن هذا بدور بلعونه أو حزن يذعره كما تفعل الباكيات في الحاتم اللواتي يكنين مقابل بعض المال، بل نشعر أن الحزن حقيقي وصادق، فتراهم محمري العيون عند خروجهم من المسجد، وأظن بشكل عام أن الشيعة أكثر إخلاصاً وتشدداً في هذه المدينة منهم في مشهد علي، ولو أن الحكم لهم في هذه المدينة، لما رأيت سباً واحداً فيها، وتمنحهم الحكومة التركية حرية أدب واجباتهم الدينية على طريقتهم في كافة الأماكن التي يعتبرونها مقدسة لأنها تحني فؤاد عدة من ذلك، ولا يافضهم السنة المقلد حين يسترون الحسين اماماً وشهيداً، لكنهم لا يتجرأون هنا على لس الحلفاء الثلاثة الأوائل، وهو أمر قاس بالنسبة لشبي متطرف سيما في هذين المكانين المقدسين.

ويبني أن يتبعه المسافرون عامة، والشيعة خاصة من المجموعة من الانكشاريين المنتشرين التي طردت من بغداد بسبب سوء تصرفها والتي تحارل التعرف على الفرص الأغصاء. يروي الانكشاريون للفرس اخباراً مقلبة عن الحكومة التركية وعن السنة بشكل عام، وما إن يبادلهم الغرب اطراف الحديث حتى يتشاجرون معه، ويتهمرنه بأنه اساء إلى الحكومة أو الدين، ويجدون

أولاً شهوداً على حديثه، وإذا أراد الفارسي تجنب الوقوع في يد العدالة اضطر إلى دفع المال بسحاء وأراد أحدهم، وكان يبدو أنيق المظهر، التعريف الذي في أحد المقاهي، طناً منه أنني ساجر ارمي، وحين علم أنني أوروبي مرّ أكثر، وأحد بمدح الخدمات الجليلة التي قدّمها له الأوروبيون في حب والقسطنطينية، وسعى بعض الأوروبيين الذين يعرفهم بأسمائهم، وأعطني باستعداده لتقديم أي خدمة بي في بلاد أنا أعرب عنها كفاً، ولا يهتم سكانها بالأوروبيين وبالمسيحيين الشرقيين. وعالياً ما سمعت اطراعات كهذه في بلاد فارس، وهي لا تعني شيئاً لكنني سمعت تلقى عروصات كهذه من عرب أو أتراك، فالتزمت الحذر وحسرت علمت هوية محدثي تجسست الرفقة بشكل عام.

تحتل الإشارة إلى أن الكعبة ليست المكان الوحيد الذي يعتبر ملحقاً بالحمام عند المسلمين، فلا يظفرونها من الجامعين فوق قري عني والحسين، والجامع الرئيس في المحلة وهي مدن أخرى.

وبما أنني تحدثت عابثاً عن الشيعة، سأذكر هنا نقاط التباين بينهم وبين السنة^(٥): يعتبر كلا الطرفين القرآن كتاب شريعتهما ونظامهم، ويؤمنون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. ويقال إن الشيعة يظهرون اجسادهم ويصنّون خمس مرات يومياً ويمسحون لكثير من الحسرات، ويصومون شهر رمضان، ويحجّون إلى مكة مرة على الأقل، لكنهم يفسرون فقرات عدة من القرآن بطريقة مماثلة لتفسير السنة. وبما أنهم انفصلوا عن السنة لأن عائشة بيّهم لم تحصل على الخلافة، جعلوا من هذا الأمر فعل إيمان يرفضه السنة، وأهمه أنهم يكرهون الحلفاء الثلاثة الأوائل أي أبا بكر وعمر وعثمان، وقد جعل هذا الأمر الكراهية تستشري بين الطائفتين.

ويجب أن يؤمن الشيعة بالاثني عشر اماماً الذين كان يسمى أن يحكموا برأيهم، الواحد تلو الآخر، لكنهم تعرضوا للاضطهاد عن قبل الحلفاء. والامام الأول هو علي، صهر محمد الذي ذكرته سابقاً، وأصحاب الشيعة إلى شهادتهم ما يني 'لا إله إلا الله، ومحمد رسول الله، وعلي ولي الله، ويؤكد بعض الكتاب الأوروبيين أنهم يصنّون علي على محمد، لكن هذا الكلام غير صحيح وإن كان لذكرى علي احترام واجلال بينهم. أما الامام الثاني فهو الحسن، الابن البكر لعلي وباطنة، وقد دفن في مكة. والامام الثالث هو الحسين (الذي ذكرته سابقاً) أخو الحسن، والرابع يدعى علي، والحسن محمد ويلقب بالباقر، والسادس هو جعفر الصادق وقد دفن هؤلاء الثلاثة في المدينة. وامام الشيعة السابع هو موسى الكاظم الذي سألني علي ذكر قبره عند الحديث.

(٥) في الترجمة الألمانية لهذا التاريخ العام للأزمة المعاصرة لسير، وفي الجزء الأول. صفحة ٥٣٨، يقول الكاتب: «يستخدم السنة كلمة شيعة ككنية أو كصفة اختيارية ويسمي أتباع علي العبدية ثم اسمع بطائفة في بلاد فارس تدعى العبدية، ولا يعتبرون كلمة شيعة اهانة. ويطلق الأتراك على الفرس اسم كوفيالباش (Kufibash) للسخرية»

عن بغداد، والثامن هو علي الرضا المدينون في مشهد في خراسان، وقد دفن محمد الحواد وهو الامام التاسع قرب جدة موسى في مسجد في مدينة بغداد القديمة ويعتبر علي الهادي والحسن العسكري الامامين العاشر والحادي عشر، ويرى صريحيهما في سامراء، وهي مدينة على نهر دجلة شمال بغداد. ويحس الامام الثاني عشر اسم محمد، وقد تعرض للاضطهاد من قبل الحليفة عند بعد يظهر علناً ويقال إنه عاش بعثة طويلة في كهف في سامراء، وبعد هلاك قبره. ويعتقد الشيعة ان الله أنقذاه من الارض وانه سيعود يوم القيامة تحت اسم المهدي وسيدعو الناس إلى مذهب الشيعة. إن المسجد قرب الكوفة الذي ذكرته سابقاً والذي يحمل اسم صاحب الزمان المهدي، قد بني تكريماً لهذا الامام.

ويزر الشيعة قبور الامام الاول والثالث والسابع والثامن والتاسع لأنها الاثرب ابيهم، ويحج بعض منهم إلى سامراء، لكن لا يقال احد لقب حج ما سم يرر الكعبة في مكة ولو لمرة واحدة. ولا يقصدون زيار الشهاد من اصحاب محمد إلا في المناسبات، وقلما نجد قرية شيعية أو سية تفتقر إلى قبر وبي ماء، لكن الغرباء من المسلمين لا يهتمون بها ويكتفون بصلاة قصيرة فيها من دون الاكتراد حتى لاسم هذا الولي

ويصلي السنة عامة في الاوقات المحددة للصلاة، أي بهم يؤدون صلاة الظهر ما بين الساعة الثانية عشرة والثالثة بعد الظهر، وصلاة العصر بين الثالثة بعد الظهر والمغرب، الخ... وإن تقاعسوا عن الصلاة في الوقت المحدد، لا يعتقدون أن الله يقبل من الانسان ان يصلح عطاء بأداء هذه الصلاة في وقت لاحق. ويجعل بعض الشيعة (لهم من الجعفرين) الذين سافرت معهم في بلاد فارس صلاتهم اسهل اذ يكتفون بالصلاة عند المساء عن النهار بأكملها، ولا يؤدي هؤلاء صلاتهم بخشوع كالسنة، فقد لاحظت ان بعضهم يتوقف أثناء صلاته للاستماع للاحاديث ويشارك فيها احياناً. لكنهم يقتضون قبل الصلاة، ويمتشون سجادة أو عباءة كي لا يتسخروا أثناء سجودهم. ويضعون قرصاً من الارض التي قتل عليها الحسين والتي يعتبرونها مقدسة في المكان الذي يلصق به جبينهم الارض لأنهم يظنون أن صلاتهم ستعتبر كما لو أنهم أذوها قرب قبر امامهم عند انتهائهم من الصلاة، يحملون سحبة مصنوعة من التربة ذاتها، ويكررون بعض الكلمات حتى انتهاء الحبات، ثم يمشون لحاهم.

وتصنع السجدة والسبعة اللتان ذكرتهما في مصع في مشهد الحسين تملكه عدد منوات عائلة تدعي تحدرها من محمد أي إنها من السادة (السياد)، وتبع المذهب الشيعي، لكنها تدفع منوياً مبلغاً كبيراً لياش بغداد لقاء هذا الامتياز. وياع هذه الاعراض في مبنى صغير قرب مسجد الامام، وطلبت من الشيخ شراء بعضها، ورسمت اشكالها واحجامها المختلفة على البوحة XII قرب

الحرفين (د D) و(هـ K)، نستنتج منها أنها محفورة بشكل جميل. كما اشترت مدرجاً يبلغ طوله ستة أقدام وثلاث بوصات، وعرضه نمادية أقدم، عليه صور للكعبة وقبر محمد وقبور الأئمة الأولين وأمور أخرى يرورها الحجاج، كرس الرسم سييء للغاية ومليء بالألوان فضلاً عن الذهب والعصا. ورسم على هذه الورقة البراق الذي امتصه محمد في رحنه إلى السماء، وجعل يحمل الوشاح الثمين الذي يرسل سنوياً من القاهرة إلى مكة، واسد (ربما يمش علي)، وجواد علي الحبرقش الشهير دبل^(٥)، وعبد لهوفي فير، وحسامه الدائع الصيت دو الفقار، وأخيراً الختم النبوي الذي يقل إن محمداً يحمله على ظهره. ولن يروق لفارني أن أحمر هذه الصور بحجم متوسط، لكن بما أن ذكر دو الفقار يرد غالباً في قصص العرب، رسمته قرب الحرف (و F)، وهي صورة هريفة وكبيرة للعبادة، لكن لا بد أن رجلاً شهيراً كعلي وقوباً مثله، اعتاد أن يحمل حساماً فريداً وعظيماً. ويبلغ حجم السيف المرسوم على هذه الورقة ستة أقدام ونصف مقاربة مع حجم الصور الأخرى. وسجد الأوروبيون هذه الصورة غريبة للعبادة، لكن إذا اعتبرنا أن المسلمين يجعلون سيف علي ذا حدثين، وألهم حالياً لا يعرفون سوى الحسام، لا يمكن أن نسمي الرسامين الشرقيين الذين يجمعون مخيلتهم ويرسمون ذا العنار بحدثين. ألا يرسم الأوروبيون أشياء من الشرق لم يروها بأنفسهم بطريقة غريبة أيضاً؟

ورى على اللوحة نفسها قرب الحرف (ر R)، أثر ختم الرسالة الذي يحمله محمد، وقد كتب عليه بالعربية، لكن أكد لي أحد رجال الدين السنة أن العلماء غير متعفين حول طبعه هذا الختم. ويدعي أن محمد عيان تخليقات في هذا الختم يرى من خلالها ما يدور حله. ورسم البراق على الورقة على شكل جواد مسرج، له رأس امرأة بشعرها الطويل، وحناحيص صغيرين ودب عريض.

تعرض المذهب الشيعي المسيطر في بلاد فارس منذ أكثر من مئتي عام، والذي انتشر خارج حدود هذه المملكة، منذ سنوات عدة، لخطر الإبادة على يد نادر شاه. وحاول هذا الأخير ذلك بما عجزه وإما تفاخراً، كي يدعي أنه أسس مذهباً جديداً، ولعله اعتمد أن سلالته من تصاهبه وظن أن المذهب الجديد سيقبها على عرش بلاد فارس. وقد نجح الشاه سماعيل في عمل كهذا في ما مضى، لكن نادر لم يكن مطمئناً على القرآن وتفسيراته المختلفة، وإن أظهر قيمة عظيمة وحبرة كبيرة حتى أنه لم يكتب لإحصاء بلاد فارس كلها والهند أيضاً، لكنه افتقر إلى الميراث الأساسية التي تجعل منه مؤسس مذهب جديد، لذا نساء إلى الدين بالمعيرات التي أدخلها، وقيل إن أخص

(٥) في الحقيقة دبل ليس اسم حصان علي وبكته اسم البعل الذي كان يركبه النبي ﷺ وقد أعده إياه مع جملة هدايا المقومس حاكم مصر قبل الفتح (الانتشار).

في الحديث عن محاولة هذا البطل الفارسي الكبير، سأتي على ذكر بعض الأمور المتعلقة به كأصله وشخصيته

يتحدر نادر شاه من عائلة كيركمو (Kirklu) وهي من قبيلة أشار (Aschares)، من سلالة التركمان التي أقامت في تركستان سابقاً، لكنها عادت وسكنت بلاد فارس كبعض قبائل التركمان والأكراد والعرب الأخرى.

إذاً هو نبيل تركماني ولد في بلاد فارس، وليس هولندياً كما شاع في أوروبا^(١)، ويمكن مفارته من حيث ولادته بشيخ عربي صغير وصعت عائلته نفسها تحت حماية قبيلة كبيرة^(٢)، لكنه تمكن من الاستفادة من المشاكل القائمة آنذاك في بلاد فارس. وثارت معظم المملكة ضد الشاه، لا سيما بعض الأمراء في إقليم خراسان البعيد الذين اختلفوا عندما حاول نادر شاه مع بعض الرجال أن يصبح حامي بعض القرى، وازدادت أمواله بسبب المساهمات والبحري وأخذ يجمع الرجال حوله ويطرد الذين اختلفوا. وإن صادف جار أقوى منه معنى إلى كسب صداقته ووعد، بمساعدته في مواجهة جار آخر، وإن غلب هذا الأخير، عرف نادر شاه كيف يتخلص من الآخر إما بالحيلة وإما بالقوة، وكيف يستميل معظم رجاله الذين يبحثون عن ثأر سهل لهم عمليات النهب والسلب، وهكذا، أمسى قائداً لآلاف من الرجال، وميضاً أنديم كبير فيه حصون عدة صغيرة، خلال هذه الحروب الداخلية في بلاد فارس، يبرر العديد من هؤلاء الجسورين، وأنشعوا أسياد مستعمرين لمناطق شاسعة، حتى أن كريم خان الذي يسيطر على قسم كبير من المملكة الفارسية لا يتحدر من نسب أفضل من نسب نادر، إنما هو كردي من عائلة مسد (Sand) البدوية التي تعيش من نتاج الأعيان. وضع نادر أسس العظمة التي وصل إليها، حين عرف كيف يستدعي الخدمات الضرورية لظهور شاه (Thamas)، الذي حصر مملكته بسبب الأفغان والمتمردين أمثال نادر نفسه، إذ قدّم لملك الإقليم الذي سببه منه وخدماته لمواجهة متسرد قوي، فنال عفوه حين استسلم جهشاً صغيراً.

كان ظهمار شاه سيداً صغيراً، غير قادر على قيادة الجيش القمبل العدد الذي تركه له المتسردون، واتكل في هذا على قائده، وهو رجل شريف لكنه ليس باجندي الماهر والماكر أو على الأصح لم يكن خبيراً بقيادة الرجال كسادر. وكان بإمكان هذا الأخير أن يواجه جيش الشاه الصغير ويهزمه، لكنه فضل تسليم الحصن الذي سلبه من صاحبه الشرعي ولم يطلب من ملكه

(١) تاريخ توماس كولي خان، مخادع بلاد فارس.

(٢) انظر وصف شبه الجزيرة العربية

سوى شرف مساعدته، مع رجاله، وتحت إمرة القائد المذكور آنفاً على طرد المتمردين. وخضع نادر في بادئ الأمر لأوامر هذا القائد، وتغلبوا على جدره وعدوه الذي لم يتمكن من مقاومته وحده. أحب الفرس ملكهم، ولم يتخلوا عنه إلا لأنه غير قادر على قيادة جيش بنفسه ولا يملك ضابطاً كفواً يمكنهم من مواجهة المتمردين.

اشتهر نادر في خراسان، وازدادت قوة جيش الملك يوماً بعد اليوم، وشخصت السيف كنهها به، لكن البطل الشاب لم يكشف بذلك، ومع انضواء المتمردين وطردهم، شرع يتقرب من الشاه، وأقبحه بإعدام قائد جيشه العجوز والرمي. وهكذا، أصبح نادر قائداً لجيوش سيده، وكثرت الإشاعات حول القائد القديم واتهم بالحيانة، في حين أن نادر الذي خضع للملك بإرادته، والذي سعى إلى نيل سمعة من لم يحاول الحصول على السلطة لنفسه بل مكن سيده من السيطرة على خراسان، اعتبر بخادماً وفياً. والنحقت أعداد هائلة بجيش الملك الشرعي الذي يرأسه قائد شجاع وحذر، واتخذت المناطق تحضض له الواحدة تلو الأخرى، وخشي نادر أن يتمكن أحدهم من التقرب من سيده فيلجئه إلى التحصن به كما فعل هو بالدي سيده. وللمحزون دون ذلك، أخذ يجعل من الملك أضحوكة العصاب السهيم، وعمل على خنعه في جلسة عامة، وتم تعيين أحد الأمراء، وهو ولد مريض، شاهاً وأصبح نادر بالتالي حاكماً للمملكة. بعد وفاة نادر شاه، اتبع المتمردون السياسة نفسها، فحاول العديد منهم إيجاد أحد أفراد العائلة المالكة (أي مصدر من إحدى الأميرات. لأن الأمراء كلهم قتلوا) بحجة بصلته إلى العرش، وحصل هؤلاء على عون أكثر من المتمردين الذي صرحوا عن رغبتهم في الوصول إلى سدة الحكم. كما وصل كريم خان إلى مبتغاه بهذه الطريقة أيضاً، إذ استقدم نسي اسمه اسماعيل وهو ابن السيد مصطفى وابنة الشاه حسين، وأطلق عليه اسم اسماعيل شاه وعنده معاملة المدرك، وأعلن أنه لا يسعى للحصول على الحكم لنفسه إنما لأحد أفراد العائلة المالكة القديمة، لكنه لم يعد يحشي المتمردين، فترك اسماعيل شاه في إحدى القلاع يتمتع بأسياد الملك التي تقدم له، في حين لا يحمل هو سوى لقب وكيل أو حاكم، ويحكم فعلياً كطاعية^(٩).

حكم نادر كوكيل للمملكة حتى وفاة الملك الشاب، فدعا إلى اجتماع الفرس في سهل موعان (Mogan)، وأخذ يعدد الخدمات التي أداها للمملكة، وترك لكبار الأمة حرية تقرير ما إذا كانوا يفضلون إعادة طهماز شاه (الذي لا يزال حياً) إلى العرش. أو اختيار ملك آخر، ورافقه إلى الاجتماع جيش يتألف من مئة ألف رجل مخصصين له لأنهم انتصروا تحت امرته وجسموا غنائم

(٩) في الترجمة الألمانية لتاريخ نادر شاه الذي كتبه محمد مهدي خان، أعطيت تفاصيل كاملة عن كريم خان وعمره عن المتمردين الذين اشتبهوا في بلاد فارس بعد وفاة نادر شاه.

عدة عندئذ، قام أحد حلفائه، وهو رجل واسع النفوذ وبيع، وأعلى أن ما من أحد يستحق حكم هذه المملكة أكثر من القائد الذي خلصها من الأعداء، وأيد الجيش هذا الاقتراح، فلم يتجرأ أحد الأعيان على الاعتراض. يقال إن نادر شاه لم يكن يأبه أن عيني شاهاً، حتى أنه أراد أن يعكر العرس ملياً بهذا الأمر العظيم كي يخساروا أكثر الناس كمائة كملك عليهم. كما أنه اعترض قائلاً به لا يتم حالياً، بعد أن استتب الأمن في بلاد فارس، سوى أن يستريح في إحدى مناطق حراسان التي سيحتفظ بها لنفسه.

أعاد نادر للمملكة معظم الأراضي التي انتطعتها الدول المجاورة وسببها المتمردون، وبالتالي قدم خدمات جسام للبلاد. فإن استتب العرش، تحافظ بلاد فارس على عظمتها، لكن إن أعيد الحكم لشاه شرعي أو تم اختيار أحد الحانات الذين يحضرون لنادر، قد لا يعجب الأمر الجيش وينفرق فيتقاسم القادة الذين يقودون قبائلهم الخاصة وجندهم المقاطعات في ما بينهم، فاضطر الفرس إلى تسليم العرش لنادر. وبما أنه لم يكن يأبه بحيرهم، تبنى الفرس أن يتمتع من الحرب، وأن يبحث عن السلم بصفته شاهاً، حياً برعاياه، وبانتظار أن يتحد نادر قراره حول قبول الحكم أو رفضه عيش الجيش والجموع في قلق.

ولم يكن نادر وحده من اتباع المذهب السني، بل القسم الأكبر من جيشه الذي يضم العديد من الأمعاء والتركمان والاكتراد والعرب. ويقال إن القائد كان يفصل هؤلاء على أبناء البلد من الشيعة. وكان هذا الأمر يستحق الانتباه عند اختيار ملك من مذهب مختلف، يحيط به العديد من أبناء دينه في جيشه يرأسهم قادتهم الخاصين، لكن هؤلاء لم يهتموا يوماً بالدين، وظن الناس أن نادر يقصدهم لأنهم اعتادوا على العيش في الحيام مد دعومة أظفارهم وبالتالي هم جنود أشجع وأفضل من الفرس الذين يعملون العمل بالزراعة والتجارة، والعيش في ترف ورفاه. ولم يظهر نادر، حتى ذلك اليوم، أي تعلق بالدين أو أي تطرف، وجل ما فعله هو اقتلاع كراهية الدين من جيشه وترسيخ الوحدة بين أفرادها، وأمل الفرس أن يبقى متسامحاً وهو شاه كما كان وهو قائد لجيش. وأخطأ الفرس في اعتقادهم هذا، إذ إن نادر، وبعد أن جعلهم ينتظرون قراره جمع كبير المملكة وأظهر بهم نتائج فرقة الدين اللوحية، وذكرهم بالحرب الدامية التي دارت بين الأتراك والفرس بسبب هذا الأمر، وبوجود العديد من التركمان الشجعان والاكتراد والعرب السنة في الجيش الذي اضطر المتمردون، وأشار إلى أنه لا يجوز أن يحتقر محررو مملكة الفرس وأن يعتبروا كمارأ؟، وأن يسمعوا الإهانات والبعسات

(هـ) ساد الاعتقاد نفسه بين السورغيين الذين اعتبروا أن ملك الحبشة ورعاياه يمكن أن يصبحوا كدوليكاً إلى الأبد، لأن البرتغاليين سألوه مرة في مواجهة حيرانه من المسلمين رحمة الأب جيروم لوبو إلى الحبشة بقسم لونغران.

التي يطلقها الشيعة على الخلفاء الثلاثة الاوائل ابي بكر، وعمر وعثمان، وقال إن السنة لا يعبدونهم إنما ويحجونهم ويحترمونهم لأنهم من صحابة محمد ولأن الله اختارهم ليكونوا خلفاء وذلك على يد المسلمين الذين لم يكونوا سنة أو شيعة، فضلاً عن أنهم لن يسيثروا إلى إنسان يعد مرور أكثر من ألف عام على وفاتهم. ولن يصبح علي وهو الخليفة الرابع، الخليفة الأول أو الثاني أو الثالث، وبالتالي فإن لعن الخلفاء الاوائل وصحابة الرسول صرب من الجور والتطير، وإذا ما اجتمع الشيعة والسنة سيمسكون سيفك الدماء ويخصعون لإرادة الله الذي أمر المسلمين الذي يؤسسون بآله واحد أحد وبنيته بالعيش سوية كالأخوة. اتبع الاثراك مذهب ابي حنيفة، والمصريون مذهب الشافعي، والافارقة مذهب مالك، وغيرهم مذهب ابن حنبل، نكهم جميعاً من أهل السنة ويعتبرون بعضهم بعضاً مؤمنين وأخوة. وأصاب إن المذهب الشيعي جديد، حين انفصل عن السنة جزاً على الأمة الكثير من الاخران، فإن كنتم مسعين اصحاء، عليكم اعادة اللحمة بين فرقة دين نبيكم، لكنكم لستم مضطرون لاتباع أحد مذاهب السنة الأربعة، فأنتم تجتوبون جعفر الصادق، وتعتبرونه أحد أكبر أئمتكم، وتقبلون بتفسيره للقرآن بالرغم من أنه أقدم من مذهب الشيعة! اكتفوا بذلك، واحملوا اسم الجعفرين، خامس مذاهب السنة، وإن رفضته ذلك، والترسم مذهب الشيعة، واستمرىتم في كره غيركم من المسلمين، فلا تريد حكم بلاد فارس. بعد هذا الاقتراح حول تغيير الدين، انسحب نادر ليترك للجمع الوقت الكافي للاتفاق حول العظرة التي ينبغي اتخاذها، وهل يضعونه على العرش، صمماً أن جيش المؤلف من مئة ألف رجل كان جاهزاً.

وكثر البلعاء الذين أشادوا بالقائد وبالخدمات التي أسداها للأمة، فضلاً عن تقاء وحماسه للدين، ووجدوا أفكاره حول الدين هم من غير دينه عادلة لعمامة، وتصرفاته عادلة، واعتقدوا بضرورة التنازل وتفقد ما طلبه هذا القائد الجسور والمنصف والذي لا يهسه سوى راحة الامانية، لكن بعض الحصور الذي يعرف مكان من نفس نادر، اقترح التروي في أمر بهذه الاهمية، وطلب رأي شيخ الاسلام (المنفي) فأشاد هذا الاخير بإنجازات القائد، وبعين ان ما من احد يمكنه اقرار السلم والامن في البلاد أكثر من نادر شاء الذي اغضض الاقلية كافة. أما في ما يتعلق بتغيير الدين، فرجا الشاه الجديد ألا يتسرع في ذلك وأن يسم هذا الموضوع لمهم لرجال الدين كي يدرسوه لاحقاً. عندها، علت أصوات تندد بوقاحة رجال الدين وإيثارهم لمصالحهم الخاصة، مهم يشربون التزاعات بين المسلمين ويمارسون الاصعهاذات كافة الخ، وقتل هذا الرجل المعجوز على يد الرجل الهادي الذي كان يتحدث منذ لحظات إنسانية ومحبة عن أبناء الديانات الاخرى، عندئذ لم يعرض أحد تغيير الديانة وأعلن نادر شاهاً، فحرر عقداً يعلن فيه أنه يقبل بحكم بلاد فارس بناء على طلب الفرس أنفسهم ولأنهم أعربوا بحل ارادتهم عن استعدادهم للاتحاد مع السنة، ثم أرسل فرماناً إلى

كانة الاقاليم يجمع فيه السكان من لحن الحلقة الثلاثة الاوائل ولهمهم بذكرهم باحترام، كما يجمعهم من الاحتفال بذكرى الحسين، باختصار لم يبقوا شعبة انما سيشكلون المذهب الخامس للسنة تحت اسم الجعفرين.

وهكذا، أعلم نادر شاه الفرس، مد بدء حكمه، ما ينبغي أن يتوقعونه منه، ووجد العديد من رجال الدين أفكار الرعوم الجديد حول الدين متشعبة، فتولوا ماصب ربيعة، وكثر الحديث عن التسامح والمحبة ازاء الديانات الاخرى فضلاً عن النصاء على التطهير الخ ووصف الشيعة بالحيثاء الجاهليين، الذين يسعون تصيير القرآن وبسارسون شعائر عربية، ويظنون أنهم يتقربون من الله ببيكائهم وحبهم على موت الحسين لكن مهما حاول الجعفريون السخرية من أتباع المذهب القديم، انتشرت دعاتهم ببطء شديد، لأنهم لم يمسكوا من شرها بالطباعة، ولم يؤمنوا وظائف لأتباعها لأن عائلة مؤسس أي مسجد، تُمنح المسمات فيه. وحاولوا جاهدين، دعوة الشيعة لعدم لحن الحلقة الثلاثة الاوائل، وعدم اليكاء على الحسين، لكن هؤلاء اعتادوا منذ سنوات سب أي بكر وعمر وعثمان، فيستحيل عليهم حالياً اعتبارهم اناس شرفاء، وبما أنهم وجدوا العراء في اليكاء على حميد نبيهم رفضوا ترك هذه العادة. وتبين بعد مراقبة تصرفات الجعفرين انهم غيروا دينهم ولم يبدلوا طباعهم، وادما ما انهم رجال الدين الشيعة بانطسوح، تبين أن الجعفرين يبحثون عن المكاسب ويسعون وراء النفوذ وان اتهم رجال الدين بالتطهير، انهم الجعفريون بالتشكيك اذ لوحظ أن رجال الدين لا يمسكون المسجد إلا لقاء أجر وأن العلمانيين لا يكرنون بالدين ثناً منهم أنهم يمتدنون بذلك عن التطهير، وينهم الشيعة بأنهم اعداء لميرهم من المسلمين، ويدان الجعفريون بالتهمة نفسها، اذ يظهرون الاحترام والرفق في تعاملهم مع غيرهم من المسلمين علماً أنهم يكون اعداء لأتباع مذهب اجدادهم وهذا لا يتناسب ومبادئهم. ووصف نادر شاه بالمشكك والكافر ومضطهد عائلة مدكهم الشرعي الذي كان على الدين الصحيح وتبل إنه وصل إلى العرش بالخداع وبفوة السلاح، فثار الرعايا عليه كلما اثبتت لهم الفرصة. ومن جهة أخرى، استعرب نادر الذي يحترمه محلي الفرس من نهر الطلعة (ولا يحتسب وحده بينهم) من اعدان واتراك وروس، والذي اراد أن يكسب صيت من سم يعمل بالسلطة إلا بناء على رغبة الفرس أنفسهم، بكرائهم للجميل، فأخذ يعاقب المتمردين، وبالرغم من ذلك، استمرت الثورات واستمر في قمعها، فأسس طاغية متجبراً. وبو لم يحمل نادر شاه على تغيير الديانة، لأحبه شعبه، ولتمكن من خلع السطان الركي ونهب القسطنطينية، كما عمل بالسعولي وبمدينة دلهي، لكن حياته كلها عدت حرباً متواصلة اذ توجب عليه مقاتلة اعدائه الخارجيين وقمع رعاياه الثائرين، واخيراً، وبعد أن أتعب البلاد وقتل الكثير من سكانها، وبالرغم من انتصاراته، اغتيل في خيمته.

ولم يكن نادر شاه يهتم بالدين بحد ذاته، ولم يكن يتبع سوى أهوائه أي عجزه، وطموحه وبحله. ويدعون أنه حول إرساء أسس ديانة عالمية مستوحاة من ديانة المسلمين والمسيحيين واليهود، لئلا أمر راهياً كاثوليكياً بترجمة الانجيل إلى اللغة الفارسية، واليهود بترجمة التوراة، وكل من علماء مسيحيين بوصف أسس ديانة جديدة من هذه الكتب ومن القرآن. ولا يمكن أن أعرف مدى صحة هذا الأمر، لكنه عمل جدياً على توحيد السنة والشيعة، وقد أعطى محمد مهدي حاد معلومات واسعة حول هذا الموضوع. وعند وصوله إلى العرش، وثقته بأن السلطان لن يعارض قيام مذهب سني خامس، لأن جعفر وأب حيفة وغيره من أصحاب المدارس، عاشوا قبل قيام مذهب الشيعة، أرسل إلى المصنعية رسوماً يحمل التعليمات التالية^(١).

(١) وبما أننا نخلينا عن رأينا القديم واتبعنا مذهب أهل السنة. وبما أننا نعترف بمقام جعفر الصادق السامي (سلام الله عليه)، نرجو أن يؤكد علماء الأئمة تحولنا وان يعتبرونا المذهب السني الخامس.

(٢) وبما أننا في الكعبة، أربعة مساجد للمذهب الأربعة^(٢)، ليس مسجد آخر باسم جعفر.

(٣) وحين يرسل سنوياً أمير حاج، أو قائد للحجاج بلاد فارس، يرافقه امرأ من مصر وسوريا للدفاع عن الحجاج العرب، لينضم أمير الباب إليهم بهدف نفسه^(٣).

(٤) ليطلق سراح السجناء من المملكتين، ولتقام تجارة حرة بين الامتين

(٥) يرسل حاكما المملكتين سفره كل إلى بلاد الآخر، ليهتموا بشؤونهم، ويمرروا السلام بين لامتين.

وقبل السلطان أولاً بالمادتين الأخيرتين، لكنه اعتذر عن القبول بالاقتراح الأول حول المذهب الجديد والاقترح الثاني حول بناء مسجد جديد في مكة أما بالسنية للحجاج، فاقترح ألا يمرزوا عبر سور بل أن يسافروا مباشرة عبر مشهد علي والنصحر إلى مكة، ويؤمن بأشياء بعداد حمايتهم أي أنه يوفر لهم قائداً للمقابلة. سمعت في بغداد أن الأتراك خشوا أن يحلوا لنادر شاه أو أحد خلفائه على عرش بلاد فارس، أن يحج وجيشه فيهب بهم المراسية للحجاج السنة والكعبة وغير محمد ويستولي على سوريا، وكان لحوفهم هذا أساساً من الصحة. وأرسل العديد من السفراء

(١) تاريخ نادر شاه. بقلم محمد مهدي حاد، صفحة ٢٣٧ من الترجمة الألمانية

(٢) النظر وصف شبه الجزيرة العربية.

(٣) وبما أن لقادة الأتراك وافقوا سنوياً للحجاج من سوريا ومصر، بحق لسانك فارسي بمراقبة الحجاج من بلاد فارس.

أفارس إلى المملطنة، وسفره أترك إلى بلاد فارس للبحث في هذين الأمرين، كما كتب تاجر بلسلطان: وأنه قرر التوجه شخصياً إلى تركيا، تدفعه إلى ذلك مشاعر الصداقة والأخوة. لأنه يرجو أن ينهي هذه المسألة بما يرضي الطرفين خلال لقاء وحده. لكن الأمور بقيت على حالها، إنما أرسل قائد قافلة تركي مباشرة من بغداد إلى مكة غرافته الحجاج العرس

وبما أن الأتراك رفضوا اعتبار مذهب الجعفرين من بين مذاهب المؤمنين السنة الصحيحة، حج شخصياً (في العام ١٧٤٣) إلى مشهد علي، وجمع هناك علماء الفرس، وهم من الشيعة أصلاً، فضلاً عن علماء الأفغان والبلقان وبحاري، وهم من أهل السنة، وكلفهم بجمع الأسباب التي تدفعه إلى إيداع المذهب الشيعي، فضلاً عن مناقشاته مع السلطان وباصافة مبادئ الدين الجديد^(٥) فكتب العلماء الموجودون كل ذلك، ووضعت نسخة في المسجد فيما نشرت النسخ الأخرى علناً في بلاد فارس، لكن بالرغم من محاولات نادر شاه بقي الفرس وسكان مشهد علي ومشهد الحسين على المذهب الشيعي، وهم حالياً أسوأ مما كانوا عليه من قبل.

بعد هذا الاستطراء حول نادر شاه وصفته في تغيير دين رعاياه، أعود إلى وصف رحلتي الخاصة. عدت في ٣٠ كانون الأول/ديسمبر برفقة حوالي ٢٠٠ حاج من مشهد حسين أو كربلاء إلى الحلة، وسافر حالياً العديد من الذين لم يتمكنوا من الوصول إلى مشهد علي قبل اكتمال القمر، وتوجه آخرون مباشرة من كربلاء إلى بغداد. وبعد مشهد الحسين عن مشهد علي سبعة فراسخ أو خمسة أميال.

ولا نرى على مسافة ميل من المدينة التي ذكرتها أولاً سوى بلح، ثم يصبح غروب رملياً، ولا نجد مبانٍ سوى حاد كنتز (Knesa) الذي لا يبعد كثيراً عن الكفل، وهذا الغروب غير آسٍ لمن يسافر وحيداً. حين كنت في البلاد، تعرض بعض الناس للمهيب في صرين عودتهم من مشهد الحسين، وفي اليوم التالي، تعرض غيرهم للسلب أيضاً على يد خيالة الباشا أنفسهم المكلفين السهر على أمن الطريق، وقد أعطى المسافرون ما يملكونه فضلاً عن أسلحتهم فتركوهم يمشون بسلام. تبعد كربلاء عن بغداد ستة عشر فرسخاً أي أنها تبعد خمسة فراسخ عن مسب (Mustab) وهي قرية على الفرات، وأربعة فراسخ عن خان يدعى بهر الانس، ومنه إلى الحلة التي تبعد ستة فراسخ عن بغداد.

تقع مدينة الحلة على ارتفاع القطب ٢٣° ٢٨' ٣٠" من الجهة الغربية للفرات، وهي مدينة كبيرة، تكثر فيها بساتين النخيل، وقلما نجد فيها منازل مبنية من الآجر المشوي إذ أن معظمها

(٥) تاريخ نادر شاه، صفحة ٣٣٧، الترجمة الألمانية.

مبني من الآجر المجفف في الشمس. وتقع داخل المدينة على مسجد واحد تعلوه مقعدة، أما خارجها فيقوم مسجداً أحدهما سُني مسجد النُس وهو شهير بين الشيعة، ويقال إن علياً لم يتمكن يوماً من أن يؤدي صلاة الصبح، فأشرق الشمس متأخرة تمكنه من ذلك، كما يقال إن علياً سُني في المكان الذي يقوم فيه مسجد الشمس. ويرعون أن أي شيعة مؤمن بلغة، يوجه دعاءه إلى علي، تتحرك مقعدة هذا المسجد لتشير إلى أن عدواً يتقبل الدعاء هذا ما أكدته لي العديدون، وحين سألتهم عما إذا قاموا بهذه التجربة بأنفسهم، أظهروا تواضعاً وحشمة حين أجابوا أنهم غير جديرين بذلك ولا يتجرأون على العلم بتحريك المقعدة استجابة لدعائهم. يرتفع حاكم هذه المدينة باشا بغداد، ويكلف هذا الأخير موظفاً بإدارة مراكز دفع الرسوم، وهو يجني الكثير مما لأن تجار البصرة وبغداد يفضّلون إرسال بضائعهم برّاً من مدينة إلى أخرى على أن يسلوها عبر دجلة. يبدو أن مهمة القاضي وراثية، لأن من يشغل المنصب حالياً استلمه منذ سنوات عدة وهو بن القاضي السابق. يبلغ عرض الفرات في هذه المدينة حوالي ٤٠٠ قدم، يقطعه جسر سبي، ربه فيه ٣٢ مركباً صغيراً، أما مستوى المياه فيه فينخفض، نكس اعتباراً من أواخر كانون الأول/ديسمبر اتخذ منسوب المياه يرتفع.

ولا شك أن بابل كانت تقوم في منطقة الحلة لأن السكان يستقون البلاد اليوم رص بابل كما نجد بقايا مدينة قديمة لا يمكن أن تكون سوى بابل. واستناداً إلى هذه الآثار، يبدو أن الحلة تقوم في حرم سور مدينة بابل، لكن عند الحديث عن الآثار البابلية، لا ينبغي أن يتوقع المرء رؤية صروح رائعة كتلك الموجودة في مصر أو في بلاد فارس نجد في بربسيبوليس أجمل رحام قرب المدينة وعلى التلة التي شهد عليها المعصر الشهير. وتكثر الاحجار الكلسية التي بيت منها الاهرام الكبيرة، قرب القاهرة، كما يرى في الجوب، وقرب النبل، جبلاً من الاحجار الكلسية، وري في القسم الجنوبي من مصر قرب النهر جبلاً من الغرانيت، في حين أننا لا نجد على صعااب دجلة والفرات سوى أراضي منخفضة عن السديج المدرسي حتى الحلة وبغداد وأبعد من ذلك نحو الشمال. وإذا أراد أهالي بابل بناء منازلهم وصروحهم من الحجارة المصقولة لاضطروا إلى انبث عنها بعيداً، مما يجعل كلفتها عالية، بدأ بنوا منازلهم من الآجر بمسماكة ما نستعمله نحن بأفضل طريقة رأيناها يوماً. ولو بنوا أسوارهم من هذا الآجر مع الكلس لوجدنا اليوم المزيد من الآثار، لكنهم استخدموا مادة لا تلتصق جيداً، لذا انهارت هذه المنازل القديمة تدريجياً لتبقى منازل جديدة في المدن المجاورة والقرى الواقعة على الفرات. حتى أن الخاد الجليل الذي أقمت فيه في الحلة بي عدة سنوات قليلة من هذه البقايا.

أما في ما يتعلق بالفلحة وبالحدايق المتعلقة الشهيرة الواقعة قرب الفرات وفقاً لما ذكره سترابون

الرحلة من البصرة إلى المنوم ومشهد علي، ومشهد الحسين، والحلة، وبغداد

وغيره من الكتاب اليونانيين، مسجد بقايا منها على بعد ثلاثة أرباع الميل إلى الشمال الغربي من الحلة قرب الضفة الشرقية للنهر، ولا تتعدى هذه البقايا كونها تلالاً كبيرة محفورة.

إن الجدران التي ترتفع فوق الأرض قد استخدمت منذ زمن، لكن الركائز موجودة، ورأيت بنفسي اناساً يعملون على نبش هذه الاحجار بنقلها إلى الحلة وفي حين لا نجد في المنطقة الممتدة من الخليج العارسي وحتى كربلاء سوى اشجار البلح، تصادف بين التلال اشجاراً متفرقة تبدو معثرة. كما نرى في هذه المنطقة، وعلى صفتي الفرات، تلالاً صغيرة محفورة مليئة بكومات الآجر.

نجد على بعد ميل وربع إلى الجنوب الغربي من الحلة، وبالتالى إلى الغرب من العرات بقايا أخرى لمدينة بابل القديمة، ومنها تلة كاملة من هذه الحجرة الجميلة التي ذكرتها، يعلوها برج مليء بهذه الاحجار، لكن الخارجية منها ضاعت مع الوقت في هذا الحدل العريض أو على الاصح في كومة الاحجار الكبيرة هذه. وتظهر هنا وهناك قمم صغيرة من جهة إلى أخرى، تسمح بلا شك بمرور الهواء وتسمع بالتالى الرطوبة التي تصدر بالمبنى. وفي زمن اردغار بابل، حيث كانت المنطقة مبنية باسنازل، لا بد أن موقع هذا البرج كان رائعاً إذ يشاهد عند اقداامه مشهد علي وهو مسجد يبعد عنه حوالي ثمانية فراسخ. وقد رأيت هذا البرج خلال رحلتي الأولى إلى الحلة وظلنته مرقباً، وأطلق عليه الدليل الذي يرافقني اسم برس أو نمرود، وروى لي أن ملكاً يحمل الاسم نفسه بنى في هذا المكان قصراً رائعاً وكبيراً، وقد اعتاد هذا الملك عند اشتداد الرعد أن يطلق السهام في الهواء معلماً الحرب على الله، وتنجح يوماً بأنه جرحه وأظهر سهماً سقط من الاعلى مضرباً بالدماء، فعاقبه الله وارسل عليه حشرات، لم يأمن منها حتى في قصره فلاحقته حتى قتله، الخ، الخ.

ولم أتمكن من التعرف هنا على علماء مسلمين، باستثناء القاصي الذي لا يعرف عن برس والقصر سوى الحكاية التي أوردتها آنفاً، لكن، بعد أن قرأت ما أوردته هيرودوتس في كتابه الاول صفحة ١٧١ حول بلوس (Belus) وبرجه، بدا لي أنني وجدت بقاياهما، لذا أرجو أن يقوم من سيأتي بعدي إلى هذه البلاد بأبحاث دقيقة وعظيمة وصعاً لها. قست بهذه الرحلة وحدي مع الدليل، لكن ما إن وصلت إلى المكان ونصحت بعض الحجارة حتى رأيت قرساناً عرباً يقري، فاعتقدت أن من الحكمة أن أعود إلى المدينة. ولو علمت أن هذا البرج هو برج بابل لحاطرت قليلاً، لكن لجهلي الامر، لم أجد داعياً للتعرض لسهب والحجر بسبب كومة حجارة كما لم أر ضرورة القيام برحلة أخرى إلى المكان.

ونقع في محيط هذا البرج على قبتين بنيتا منذ حوالي ٤٠٠ عام، لكنهما انهارتا جزئياً، وبعد

كتابات صغيرة مثيرة للاهتمام. تعلم أن البابليين نقلوا إلى الأجيال اللاحقة دراساتهم الفلكية على الأجر، فاستنتج العلماء الأروريون أنهم لم يهتموا بالعلوم^(٥)، لكن إن استخدموا الوسائل المذكورة أعلاه، فربما مخالف تماماً رأي علمائنا. ففي بغداد وفي مدن أخرى من هذه المنطقة حيث الأحجار المصقوفة نادرة للغاية ومكلفة، وحتى في بلاد فارس حيث نجد الرخام بأسعار رخيصة، نجد كذلك كتابات على الأحجار، ولا يمكن أن ندعي أن العرب والعبرانيين لم يعرفوا وسائل أخرى للكتابة لأنهم لم يكونوا صبيحين بالعلوم، بل يمكن أن نستنتج أن البابليين قصروا شوطاً بعيداً في الكتابة وفي العلوم. إذ إن أمة يمكنها تقطيع الحروف وتشكيلها وشويها بهذا الشكل البسيط، ووضع الحرف قرب الآخر في الجدران (كما يصنع صاحب المطبعة الحرف) حتى أنه يمكن قراءتها بشكل واضح بعد مرور ٦٠٠ إلى ٧٠٠ عام عليها (وجدت كتابات بهذه القدم كتبت بهذه الطريقة) لا تعتبر أمة جاهلة في فن الكتابة. وإن تسهيل البابليون لملاحظاتهم حول الظواهر الطبيعية المهمة بهذه الطريقة، يتطلب عدماً وبراعة أكثر من الكتابات التي تهدف إلى اعلام الحلف بهوية مشيئة هذا المصريح أو ذلك. وعمل برعية المواد العادية المستخدمة للكتابة ليست جيدة في بابل وبالتالي لا تدوم طويلاً، وعمل علماء الفلك عندهم لاحظوا، واستندوا إلى تجربة طويلة، أن دراسات هامة صاغت أو تعيدت بسبب السح المسكرة، فرأوا أن من الحكمة وضعها على الجدران، لأن كتابات كهذه، إن تعرضت للهواء لا تحتاج إلى التجديد، إلا كل ٥٠٠ أو ٦٠٠ عام، وإن تم الاعتناء بها في صرح ما لما احتاج للتجديد إلا بعد ألف عام أو أكثر.

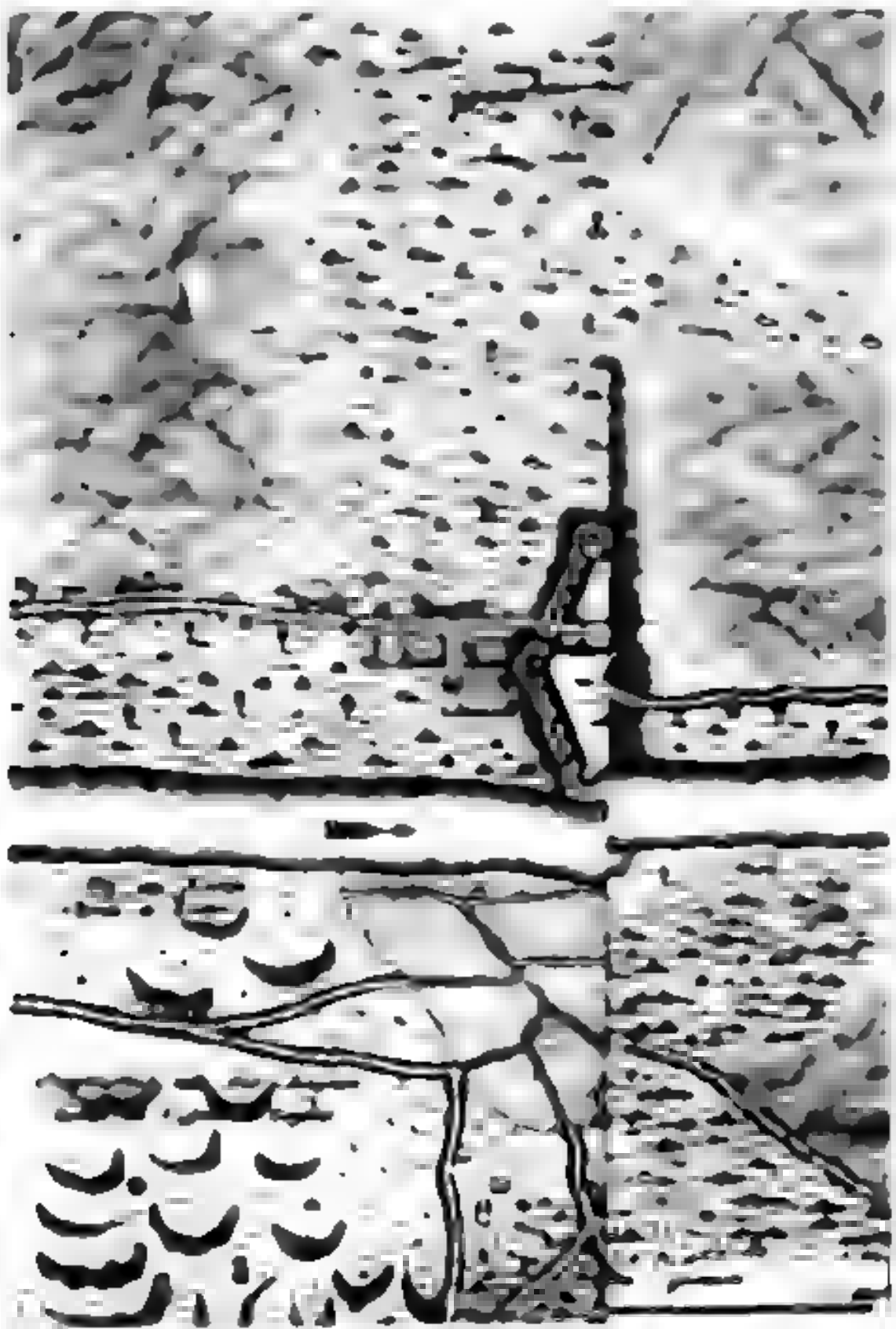
بني مسلم في هذه المنطقة قبة صغيرة، تكريماً للنبي ايليا، ويطلق عامة الشعب أن هذا النبي دفن في هذا المكان، لكن هذا غير مؤكد، كما يقال إن أيوب أقام هنا، قرب سح على بعد نصف فرسخ إلى الجنوب من الحلة، ولا يزور اليهود القبة القائمة فوق القبر المزعوم للنبي ايليا، كما لا يزورون نبع النبي أيوب.

في ٥ كانون الثاني/يناير ١٧٦٦، غادرت الحلة وتوجهت مباشرة نحو الشمال نحو بغداد (اللوحة XLI)، أي أنني قطعت أربعة فراسخ حتى مهاوية (M'have) وسه أربعة فراسخ حتى امكندرية (Scandrie)، ثم اجتزت ثلاثة فراسخ لأصل إلى بيرالانس ومنه إلى حان اسعد على بعد ثلاثة فراسخ ثم سرت أربعة فراسخ حتى بغداد. وسجد في كل من هذه الامكنة خدناً كبيراً بآه تاجر قري عند سنوات، فضلاً عن جسر قرب بغداد.

(٥) يقول العالم بريانت (Bryant) لا يمكن أن اتبع نفسي من اطلاق حكم على عدم شعب ما انطلاقاً من الوسائل التي يستخدمها لشراء وحفظه، وأظن أن العدم غير كافية أو غير موجود على الاطلاق حيث تسهل الوسائل المذكورة اعلاه الخ

إن رجلاً كهذا يكثُر في أوروبا بسبب الخدمات التي قدمها لراحة العامة، أما سليمان باشا فقد أجبره على تسليمه مبالغ طائلة لم يردّها يوماً ويقوم قرب كل حان عدد قليل من الأكوج، ونصافد شرق مهاجيد، قرية تحمّل الاسم نفسه، ونجد بين بيرالاس وحان امعد قرية الصحمدي التي أسست منذ سنوات قليلة على يد عائلة خاتون، زوجة سليمان باشا. وثبتت المساحات الأخرى غير مزروعة علماً أن التربة خصبة للغاية ويمكن ريها بسهولة من دجلة والفرات لو لم تعترض البلاد لسكان والقلّة التي تقيم في المنطقة لا تملك الأماكن الكافية لذلك ويقرب السهراء من بعضهما البعض في هذه المنطقة، وقد أكدوا لي أنهم لا يعملان عن بعضهما سوى ستة فراسخ وذلك على بعد أميال إلى الشمال من بغداد

يمكن للمسافر أن يقطع الأربعة عشر ميلاً التي تفصل الحلة عن بغداد خلال يومي سفر في الصيف وثلاثة أيام في الشتاء، لكن تساقطت الأمطار بمرارة ولم أكن على عجلة من أمري فاستغرقت رحلتي أربعة أيام. ولم يرافقني خلال هذه الرحلة سوى بعض المكاريين الذين يتقنون البصائع إلى بغداد. ويلعب هؤلاء بكنيات بذينة للغاية لم اسمعها من مسلم من قبل خلال رحلتي. وفي حين أن غيرهم من العرب لا يذكرون سماءهم ربانهم، يتصمى هؤلاء لبعضهم البعض أن تفتصب سماءهم، ويطلقون على الأم والحلة والسلف أسماء مفرزة وذلك على سبيل المرح وهؤلاء المكاريون هم من الحلة أو من بابل القديمة حيث العادات متعلّقة مد عابر الرمان، لذا يمكن أن نستنتج أنهم لم يتركوا عادات أسلافهم، لكني لم أجِد سكان الحلة مختلفين عن غيرهم من المسلمين، ولا يمكن أن نحكم على أخلاق مدينة بأكملها استناداً إلى أخلاق المكاريين الذين يعتبرون من أدنى طبقات المجتمع



ملاحظات وضعها في بغداد

تقع مدينة بغداد في ولاية خالص على ارتفاع ٢٠٠ ٥٣٣ من القطب على الضفة الغربية سهر دجلة وتشكل مكان إقامة باشا من الدرجة الأولى يحيط بها سور من العرميد. إن جزءاً من الأراضي داخل السور خالي من السكان وغير مزروع. إلا أن القسم المسكون فيه الكثير من المباني خاصة من جهة النهر وسراي الباشا حيث نجد الجزء الأكبر من المحال التجارية أو البازار.

وبالتالي فإن بغداد كثيفة السكان بالمقارنة مع باقي المدن الشرقية حيث تكثر البساتين. إلا أن شوارعها ضيقة والأسواق الرئيسية فيها مسفوفة نجد فيها كما في القاهرة شوارع تغلق كل مساء تتألف عالية المنازل من العرميد وهي عادة شديدة الارتفاع. لا نرى فيها نوافذ من جهة الشارع وذلك وفقاً للهندسة المعمارية الإسلامية. في الداخل هناك باحة مربعة الشكل تطل عليها العرف الأكثر أهمية. إن طريقة البناء الشرقية هي في نظري السبب الكامن وراء الحرّ الذي يذتر منه السكان. فعندما ترتفع الشمس تصبح هذه الباحات المربعة بمثابة افران ترتفع فيها الحرارة كثيراً لأن الهواء لا يدخل إليها. لهذا السبب يملك السكان الممزيون سردياً في منزلهم أي جناحاً مسقوفاً ومرتفعاً سقفه يقع في القبو وبه ما يشبه المروحة أو فنل الموقد، فيه فتحة من أعلى من الجهة الشمالية لأن الهواء هنا تماماً كما في القاهرة والشافقة يأتي في فصل الحرّ من الشمال.

في فصل الشتاء لا يساقط البرد كثيراً في بغداد كما في بلادنا لكنها رأينا بعضاً منه في بداية شهر شباط/فبراير وكان ارتفاعه يبلغ نصف اصبع. كان السكان يقولون في هذا الطقس أنه شديد البرد ويعزمون أن عشرين شخصاً تجمدوا في الليلة هذه. إلا أن هذا الكلام ليس مغلوفاً بكامله إذ أن العقراء في هذه المدينة يمشون شبه عراة ويأمن جزء منهم في الشارع.

لإعطاء القارئ فكرة واضحة عن وضع هذه المدينة وكبرها، أحيلته إلى الخريطة المرسومة في اللوحة XLIV لهذه المنيحة ثلاثة أبواب من جهة البلد، بالقرب من الرقم ١ هناك باب المعصم (Moaddem) وقد أخذ اسمه عن أبي حنيفة الذي يطلق عليه أهل السنة اسم آدم والذي يوجد قبره عن هذا الباب مسافة نصف ساعة. هناك أيضاً الباب الوسيط أي باب الوسط بالقرب من الرقم ٢، وبالقرب من الرقم ٣ نجد القلعة الكبيرة المسماة بالطليسم (El Talism) وكان لها باب لكن بعد أن انتزع السلطان مراد بنهاد من أيدي الفرس ودخل من هذا الباب إلى المدينة قام بإحصاءه نهائياً ولم

يفتح منذ ذلك الوقت^(١). تقع كارولوغ كابي (Karolog Capi) بالقرب من الرقم ٤ وبالقرب من الرقم ٥ أمام الجسر هناك باب آخر هو باب الجسر، على كل من البروج العشرة التي تجدها في سور المدينة تقع ستة إلى سبعة مدافع لكن مصعبها ليس لديه ركانتر إن حجم هذه البروج صغير جداً لتقف عليها المدافع. لا يرى أي مدافع على كارولوغ كابي وظليمسم والباب الوسطاني وربما هذا هو السبب الذي جعل أحمد باشا يصع سريسي مدعية بالقرب من الرقم (٦)، من بين هذه البروج لكثيرة هناك أخرى صغيرة لا يمكن حمايتها إلا بواسطة أسلحة صغيرة هي السور نفسه هناك من الجهة الداخلية عند من القناطر الموزعة في صفيين، الواحدة فوق الأخرى وهناك أيضاً كوتات رمي لحماية الحندق بواسطة أسلحة نارية. إن السور شديد الضعف والحندق جاف ولا يجد أي تعزيرات في الخارج. وبالتالي يمكن لأي عدو أوروبي أن يسيطر على المدينة بسهولة تامة. لكن في هذا البلد تعتبر مدينة قرية جداً إذ إن نادر شاه حاول دائماً الاستيلاء عليها دون أن ينجح.

في الراوية الشرقية من المدينة هناك قلعة صغيرة تدعى اتر كلا (Yis Kalla) تستخدم كمستودع لبيع البارد لكنها ليست ذات فائدة كبيرة. ولا يمكن هذه القلعة الإنكشاريون. في أوروبا لا يسمح للأجانب بالدخول بسهولة إلى قلعة كهذه. هنا دخلت إليها لكن أحداً لم يستوقفني لا في الدخول ولا في الخروج ولا حتى عند أبواب المدينة حيث يقف عدد من الإنكشاريين لحراستها لأن الحدود الأتراك يبالغون في تسهيل واجباتهم فهم لا يقدمون السلاح لأحد ولا يأخذون أسماء الدخلاء إلى المدينة أو الخارجين منها. وإذا كان الطاقس سيئاً يمكنهم في مراكز حراستهم أو أمام الباب فيدخلون أو يلعبون الشطرنج. باختصار فهم لا يأبهون بشيء شرط أن يقفوا في مراكزهم للجهاز في حال حدث أي شغب في الشارع، تقع السرايا أو قصر الباشا أمام القلعة وتطل على نهر دجلة بالقرب من رقم ٧. هي كبيرة جداً تتألف من عدة مباني غالبيتها رديئة الصنع تقع مدرسة المستنصرية (Madrasse el Mostanserrie) التي كتب العرب عنها الكثير بالقرب من الرقم ٨ إلا أن هذا المعنى لم يعد للعلماء. تحول مطبخ هذا المبني إلى عرفة يدفع الضرائب أما العرف الباقية فتحوّلت إلى قروان سراي (Karwanseray) يسمى اوتمداني حان (Otmédani chan) أو خدمت. على

(١) نقلت فيما يلي كتابة طويلة يبدو من خلالها أن الحليفة الناصر انهي تشييد هذه القلعة عام ٦١٨ من الهجرة (١٢٢١م). فيضاد إدا مدينة قديمة جداً، والكم الكتاب. وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين ﴿وَأَن يَرْجِعَ إِلَى مَن لَّدُنْهُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَنِيَّةِ وَيَسْتَبِيلَ رُكْنَ تَقْبَلُ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. أمر بهمارته سيدنا ومولانا الإمام المفترض لطاعته كافة الأنام أبو العباس أحمد الناصر لدين الله المؤمنين خليفة رب العالمين ورحمة الله عز وجل على الخلق أجمعين صلوات الله وسلامه على آله الطاهرين ولا زالت دعوة المدعي على اتباع الحق منازلة والخلايل لها الهاماً والصاراً وطاعته المفترضة المؤمنين اسماعاً وبهذاراً. وافق القراع سنة ثمان عشر رستمائة

امتداد المبنى من جهة النهر يرى كتابة طويلة يظهر من خلالها أن الخيمة المستنصر بناها سنة ٦٢٠ هـ (١٢٣٢م). ولأن نقل هذه الكتابة استحالة عني بسبب مرور جماهير غفيرة على الجسر، طلبت من الملاك أن يقلها لي. قارنت كتابته بالكتابة الأصلية وأرفقتها بهذه الوثيقة^(١).

بعد ثلاث سنوات بنى المستنصر مسجداً رائع الجمال في حي سوق الغاسل (Suk el Gassel) قرب الرقم ٩ لكن لم يبق منه إلا المثانة والجدار الخارجي ومدخلين جديدين بنيت عليهما قهوة قبيلة المظهر. فوق هذا المدخل نرى الكتابة^(٢) التي أرفقها لكم وقد وضعها باني المسجد، أم المدرسة التي تعتبر رئيسية. اليوم في بغداد فقد شيدت عام ٧٥٨ هـ على يدي المدعو مرجان وهي لأصحاب المذهب الحنفي والشافعي.

بالإضافة إلى ذلك بنى مرجان مسجداً ومبانٍ عامة أخرى وكان يقال إنه يوسع أبحاثه في علم الخيلاء، أي علم صناعة الذهب وقد حكم بغداد بسواب عديدة في عياد حاكمها الأصلي وبعد أنه قام بتشييد كل هذه المباني فلا بد أن يكون قد جمع ثروة كبيرة إن الكتابة التي جعلت الملا ينقلها موجوده في المدرسة السابقة الذكر. لكني لم أستطع مقارنتها مع الأصلية بسبب الناس الذين يجتمعون دائماً في هذا المكان إذ خفت ألا يعجبهم ما أعمل^(٣) في أخذ النسخات المسقاة زغال (Dsjezal) والمشييد عام ٩٩٩ هـ (أو ١٥٩٠ م) في عهد السلطان مراد ومن أموال بيتان باشا، وجدت كتابة طويلة باللغة التركية، وتحتها سطرين باللغة العربية. فكتبت بنسخها وأرفقتها عليها^(٤).

نجد في بغداد ما يعرف بالتيكية (Takke) وهي أديرة لمختلف مذاهب الدراويش كالفادرية

(١) قد أمر بإنشاء هذه المدرسة الشريفة لطلاب العلم وتسمى المدرسة النظامية دولة المر واسعد الخلائق المحجة البيضاء عند الله وعليه في أرضه الخليفة أبو جعفر المستنصر بالله أمير المؤمنين نفع الله المسلمين بأغزاز سلطانه وأيد دولته بطول حياته وذلك سنة ستماية وثلاثين.

(٢) أمر بعمته سيدنا ومولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين على أنه تعالى معالم الإسلام بهمة مليه وأزمى دعائم الإيمان بأمانه له وذلك في سنة ثلاث وثلاثين وستماية

(٣) بسم الله الرحمن الرحيم ربنا تقبل منا أنك أنت السميع القعوم أوقف هذه المدرسة الشريفة على طلاب العلم على الإمام الأعظم محمد بن إدريس الشافعي المصلي والإمام الأقدم النعمان بن ثابت الكوفي. هذه وقفت المدرسة دار الشفاء المولى الأمير صاحب الأعظم ملكت أعظم الأمراء في العالم مشير السلاطين مرشد الخواص مشيد قواعد الخير باني مباني المبرات المفتقر إلى مغفرة الملك النعمان مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن السلطاني الأولجاني تقبل الله عنه في الدارين طاعاته وصلى الله على سيدنا محمد وعليه وآله وأصحابه الطيبين الطاهرين وسلم وذلك سنة ٧٥٨ هـ.

(٤) عمر هذا الخائن وما فيه من البناك في أيام دولة السلطان ابن السلطان مراد خان خلد الله ملكه وسلطانه وانقض على كافة العالمين هذه واحسانه سنة ٩٩٩.

والنقشبندية والرامعية والفنيرية... إن تكية القنصرية هي بمثابة نزل يقصده اليهود المسمون الغبراء بغرض الحج. إن مؤسس المذهب القادري هو الشيخ عبد القادر الكيلاني المولود عام ٥٦٠ هـ والذي عاش ٩١ عاماً ودفن في بغداد في المنطقة ١٠ (خريطة اللوحة XLIV) تحت قبة كبيرة. ولشدة ما تكثر عائلات مقامه يعتاش منه ٣٠٠ شخص ويام فيه بعضهم مجاناً إن هذه التكية بعيدة عن النهر لذا لديها قناة خاصة بها تدر إليها مياه دجلة. عندما كنت أأمل القبة الكبيرة على المسجد ومرح عبد القادر الذي لم يبد لي أكبر حجماً من قصر المين على النيل قرب القاهرة أتى درويش ودعاني بتهديب فائق للدخول إلى منزله ثم حكى لي عن إحدى معجزات شيوخه. فيما كان عبد القادر يخطب يوماً من مبره أمام عدد كبير من الناس توقف فجأة وحمل قبعائه الخشبي (راجع الصور أ، ب، ت. من اللوحة II من كتاب وصف شبه الجزيرة العربية) ورماه على الحائط فاختفى القبقاب. بعد دقائق رمى قبعائه الثاني الذي اختفى بدوره. لم يهم الحضور ماذا يجري ولا كيف اختفى القبقابان وإليك تفسير ما حدث. كان بعض التجار في طريقهم إلى بغداد لإنجاز بعض الأعمال ولزيارة الشيخ عبد القادر عندما اعترضتهم مجموعة من اللصوص العرب فما كان منهم إلا أن استجدوا بالشيخ في صلاتهم فألقى بقبعائه الذي أصاب رأس أحد رؤساء العصابة. ظن اللصوص في بادئ الأمر أنه قبقاب أحد التجار فصاروا يمالئونهم بحزب من الصف والقسوة لكن ما إن رأوا القبقاب الثاني يطير نحو رأس عربي آخر حتى اقتنعوا بوجود أحد الأولياء العظماء الذي يحمي المسافرين فأعادوا إليهم أموالهم وأعراضهم وتركوهم يكملون طريقهم بسلام. بعد أربعة أسابيع وصل التجار إلى بغداد فأعادوا إلى الولي قبعائيه وشكروه على نجاتهم ونشروا خبر المعجزة حيثما ذهبوا.

يبلغ عرض نهر دجلة بالقرب من هذه المدينة من ٦٠٠ إلى ٦٢٠ قدماً. هناك جسر يصطف تحته ٣٤ مركباً صغيراً ربط الواحد منها إلى الآخر بواسطة ثلاث سلاسل ضخمة. عندما يكون الخلق جيداً والنهر قليل الهيجان يصلح الجسر للاستخدام لكن عندما يهب الهموم بعكس اتجاه المياه يصبح الجسر غير آمن على الإطلاق. وعندما يرتفع مستوى المياه في النهر فجأة دون أن نكث السلسلة على الشاطئ كثيراً ما تتحطم هذه الأخيرة. رأيت مثلاً على ذلك في كانون الثاني/يناير ١٧٦٦ عندما هبت ريح هوجاء من الجنوب الشرقي. في بداية هذا الشهر كان الجو هادئاً فدابت الثلوج على الجبال وانحدرت المياه لتصب في دجلة فأرتفع مستوى المياه في النهر في منتصف شهر كانون الثاني/يناير وتحطمت السلاسل وجرف التيار السفن الصغيرة والجسر. كما نفقت بعض المواشي أب البشر فرموا أنفسهم داخل السفن حفاظاً على حياتهم ولشدة ما سارت نسبة المياه في النهر يرتفع خرجت عن حدودها وطالت المدينة بكامنها في الأيام ١٩ و ٢٠ و ٢١.

في اليوم ٢٠ بدأت الأمطار بالهطول لكن منسوب المياه لم يرتفع كثيراً وذلك إلى شهر آذار/مارس حين بدأت الثلوج بالذوبان وصار النهر يفيض شيئاً فشيئاً في الموصل وبالتالي في بغداد. يقال إن الفرق بين المستويين الأعلى والأدنى لمياه نهر دجلة يعدل ٢٠ قدماً تقريباً.

لم أستمتع تحديد مكان الضاحية من الجهة الشرقية لدجله بسبب انخفاض مستوى المياه وفيضان الماء عليها عندما كنت هناك. هناك عدد كبير من البساتين في هذه الضاحية لكن عدد سكانه أقل من عدد سكان المدينة. يقع طرفها الشمالي على جزء من بغداد القديمة التي كانت تمتد من هنا إلى موسى الكاظم. إذ لا يزال يرى هنا آثار مبان ومسجد وقبور مسلمين ذاتي الصيت ماتوا في المدينة بالقرب من الرقم ١١ على المحارطة (المرحلة XLIV) نجد تكية البكتاشيين، وهي قديمة البناء وشديدة الارتفاع. فوق المدخل هناك كتابة تأدت كثيراً بفعل الزمن ربما لكن يمكن أن نقرأ ما جاء تحتها^(١). أما باقي التكية فهو قلج أرسلان ابن الملك مسعود من طائفة سلجوقي عام ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م). حول هذا المبني من الأعلى نجد آيات من القرآن بأحرف كوفية من الفخار. إن الجزء الأكبر منها قد أُلِف بفعل الزمن، كيف لا وقد مرت عليها ٦٠٠ سنة لكن لإعطاء القارئ فكرة عن هذه الكتابة وعن الرينة الموجودة فوقها نقتطع بدايتها لأنها أقل تأذي من غيرها وهي موجودة في اللوحة XLIII قرب الحرف (هـ) (B).

إن هذه الأحرف قريبة جداً من الأحرف الموجودة في اللوحة IX من وصف شبه الجزيرة العربية والتي نقلتها في اليمن. نس هنا يمكننا أن نعرف أن العرب عملوا على تزيين ابجديتهم عندما كانت العلوم مزدهرة عندهم. وبما أنهم تابعوا على هذا النحو لتكبد علماء أوروبا الكثير من المشقة لعك رموز كتاباتهم. إن النفس على غطاء آية من حجار وجدته بالقرب من تحت كسرى وبرى صورة له في كتاب أسنار إيف (Ives) هو من الصف نفسه. ولقد أكد الناصر لفنيسافر الذي وجدها أنها كتابة فارسية.

بالقرب من الرقم ١٢ هناك قلعة صغيرة دفنت تحتها السيدة ربيعة الشهيرة عند العرب وهي زوجة الحليفة هارون الرشيد التي توفيت عام ٢١٦ هـ (٨٣١ م) عام ١١٢١ هـ (١٧١٨ م) دفن حسن باشا زوجته عائشة ابنة مصطفى باشا بالقرب من ربيعة السابقة الذكر ووضع على ضريحها شاهداً نقش على كتابتها أنقلها لاحقاً^(٢) كما وحسن البناء وشيد أبنية أخرى للمسافرين. على مقربة من هذا

(١) الملك العدل قلج أرسلان ابن الملك مسعود ابن العدل قلج أرسلان من طائفة سلجوقي وذلك في سنة أربعة وثمانين وخمسمائة.

(٢) هكذا يكتبها العرب اليوم: ﴿وَالشَّيْءُ الشَّيْءُ ① أَوَّلُهُ الْقَوْنُ ② فِي حَتَّى الْخَيْرِ ③ ثُمَّ بَيْنَ الْأَوَّلِينَ ④ وَبَيْنَ الْآخِرِينَ ⑤ عَلَى سُرْمِ تَرْسُوقٍ ⑥ تُكَلِّبُونَ بَيْنَ مُتَكَلِّبِكَ ⑦﴾ (الواقعة).

المكان (بالقرب من الرقم ١٣) نجد قبر يهلون صانه وهو من أقارب هارون الرشيد وأحد مهرجه ترك هذا المهرج كتاباً فيه نكات لا يزال بعض الشيوخ يرددونها في المقاهي في الكتابة التي أرفقها لاحقاً^(١) والتي نقشت على قبره بعد موته بكثير عام (٥٠١) بنقش بسلطان المحاذيب لكن وفقاً للأخبار التي تحكى عنه يبدو أنه لم يكن سادجاً، وإليك إحدى هذه الحكايات. في عهده قامت مراهنة بين شخصين، فعهد أحدهم بدفع مبلغ من المال للآخر إذا استطاع أن يعبر دجلة سباحة. فحس الحظ استطاع الرجل أن يعبر النهر لكن مع كانت له أعدت له ناراً من الجهة الأخرى كي يحرق ثيابه وجسده بواسطة فتشاً الخلاف بين الاثنين لأن الأول اعتبر أن الشرط لم تنصص مساعدة أم الثاني له ورفض القاضي إعطاء ربيع الرهان ماله. لم يعجب هذا الحكم بهلول صانه فوضع في بيتان القاصي صحناً فيه لحم ورومحه إلى أقصى شجرة النخيل ثم أصرم ناراً على الأرض سحر القاضي من فكرة يهلون صانه الذي سأله كيف لا يمكن شواء هذه اللحمية ويمكن أن تجفف الأم ولدها الذي قطع النهر سباحة؟ عندما استعصم الحليلة عن هذه القصصة مر الطرفان بالمشول أمامه وطلب من خامس الرهان أن يدفع رايحه المبيع المتفق عليه بالقرب من يهلول صانه يمكننا رؤية مبنى صغير (قرب الرقم ١٤) مع قبر يهودي يقصده اليهود للزيارة.

ففي هذه المنطقة غير المروعة نجد مسجداً صغيراً مع برج صغير ذو تحتة ولقي مسلم شهير يدعى معروف الكرخي أبو صاهر. بني البرج الصغير عام ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) وذلك وفقاً لما يقوله الكتابه يقول المسلمون أن معروف هذا ولد من أبوين مسيحيين وأنه لم يقبل ابدأ تلاوة وباسم الأب والابن والروح القدس بل إنه قال عوضاً عن ذلك بسم الله الرحمن الرحيم. ويرغم البعض أن أمه حبيسته في قبر مظلم بسبب ذلك ولم تمنعه طوان أربعة أيام إلا الماء والحبر بعد هذه الفترة رأت حوون ولدها حالة فريدة من نوعها ثم بحثت داخل القبر ووجدت كافة الطعام الذي رودته به في سحبه. بعد ذلك رأت الأم أن روحاً شريرة تسكن ولدها فطرده من المنزل إلا أنه توجه إلى موسى الكاظم ثم اعتنق دين المسلمين وأصبح عالماً شهيراً ثم حصل عائلته تعتنق لاسلام

ما بين صريحي زبيدة والشيخ معروف هناك مكان يجتمع فيه كبار القوم في بغداد مرة في

- (١) هذا قبر المرحومة المعمورة الموقفة للمبرات الحجرية ست ويده بنت جعفر بن منصور الدرايني رروجة هارون الرشيد من خنداء بني العباس توفيت في سنة مائتين وسب عشرة إلى روحها العاتحة هذا قبر المرحومة المعمورة الصالحة العقيمة الساعية إلى الاعمال المرضية والاعمال اللاتي تشجلب مرمده الآلهة عائشة خانم بنت المرحوم مصطفى باشا صاحب السلطان محمد خان عليه الرحمه والفرحان رروجة دستور الحرام والوزير الامهم والي بغداد دار السلام ابو الحيراث حسن باشا يسر الله به الخير كما يجب ويوصى وبشاه توفيت في شهر رمضان سبعة عشرين ليلة القدر في سنة واحد وثلاثين ومائة والف
- (٢) هذا قبر سلطان المجذوبين والنسي المطبقة سنة خمسماية وواحد.

الاسبوع ويتدربون على رماة القوس قام مرتضى باشا الذي كان مسلحاً (أي يحمل السيوف) عند السلطان ببناء عامودين صغيرين كتب عليهما بالتركية ليُسجَل المسافة التي يقطعها قوسه بالقرب من العامودين هناك قبتان لكنهما حديثا المهد لو كان صحيحاً ان اليشا رمى القوس من عمود إلى آخر لكان يتمتع بقوة خارقة لأن المسافة تبلغ ٦٠٠ خطوة مزدوجة أي ٢٧٠٠ قدم إلا ان مرتضى كان من باشاوات بغداد ويمكن ان يكون قد أبعد الممردين عن بعضهما عمداً حتى يتباهى بقوة الخارقة نجد قرب حلب مكاناً مماثلاً فيه عمودين مثابهن. في حلب أيضاً طُلبت من نخادمي قياس المسافة وكانت ٣٢٥ خطوة مزدوجة. نجد الكثير من هذه العمود على آق ميدان (Okmeidan) وهي تلة تقع خلف ترسانة القسطنطينية. ولقد ذكرت في الجزء الاول من هذا الكتاب ان سكان القاهرة المهمين يتدربون أيضاً على رمي القوس.

تقع قرية الكاظم الكبيرة شمالي بغداد وغربي دجلة. في القرية هناك المسجد الكبير (ح) الموجود في النوبة XLII وضريح إمامين هما موسى الكاظم وحسينه محمد الجواد الذي ذكرته آنفاً. يبدو أن هذا المزار الإسلامي كان رائع الجمال في السابق لأن القبتين والمئذنة كانت مغطاة بحجارة مقلية على الطريقة الفارسية لكن هذه الاحجار تتساقط شيئاً فشيئاً. إن موقع هذا المسجد يذكر بموقع مشهد علي ومشهد الحسين إلا ان هناك مازل من الجهنين. أعلم موسى الكاظم عام ١٨٥ هـ بأمر من الخليفة الذي كان يشك في أن عبداً كبيراً من مناصري أهل بيت علي يجتمع في منزله. يقول الشيعة إنه شهيد بسبب ذلك ولا يزالون يذهبون لزيارة قبره. إن غالبية سكان هذه القرية من الشيعة وبما أن شيعة بغداد لا يستطيعون ممارسة شعائر دينهم بحرية في بغداد فهم يتوجهون إلى هذا المسجد كل يوم. كما وأن غالبية الشيعة من سكان هذه الانحاء الذين لا يريدون أو لا يستطيعون دفن موتاهم في مشهد علي يدفعونهم بالقرب من موسى الكاظم. إن هذا كله يعود على القرية بالكثير من الاموال.

إن بغداد هذه التي بناها الخليفة المنصور كانت تقع غربي دجلة في الجزء الشمالي من الصحابة الحالية ومن قبر موسى الكاظم. عند شرق النهر كان هناك برج لكن لم يبق منه شيء ولا نجد اليوم الا قرية المعظم (Maadom) المقابلة لموسى الكاظم والتي تبعد مسافة نصف فرسخ عن بغداد الحالية. إن ضاحية بغداد المتينة هذه مدينة يبعثها لأبي حبيبة المدفون هنا. كان أبو حبيبة عالماً مؤمناً يجلد أبناء دينه لكن بالرغم من ذلك زجه الخفاء في السجن لأن ضيقه لم يسمح له بتولي مهام القاضي. بعد وفاته ازدادت محبة الناس له ولقبوه بالأعظم (El Azem). إن أهل السنة من أصحاب المذهب الحنفي والدين يشكل الاثراك غالبيتهم يتبعون أبي حنيفة وقد بنوا مسجداً جميلاً مع مئذنة على ضريحه وأحاطوه بحصن وبست قلاع وبخندق واحد وأهل الشيعة

يكرهون أبي حبيفة كرهاً شديداً تماماً كما في مؤسسي المذهب السنية الأخرى وهم لا يكتفون بإهمال قبره بل ويعتبرونه مفسداً وحدث بالتحديد عندما كان نمرس يحكمون بعداد. وقد كان هذا هو المصيب الذي جعل السلطان مراد يشن هجوماً على بعداد عام ١٦٣٨ ليستريح المدينة من أيدي النمرس في هذا الإطار إليكم الحكاية الثانية في أحد المساجد الأساسية وهي حضرة السلطان وبما أن أحداً لم يكن يرقاب في أمره، أعطي له الأذن بسهولة. حيث أن عمر وضع المسلمين الحقيقيين المؤسف في بعداد وينتد بأعمال الارناص أو الكفار الذين يمثلون مقام الامام الاعظم بالأقدار وفان إنه من العيب على سلطان يدعي انه من بيت عثمان وعلى مذهب أبي حبيفة الا يثار لما يحصل ويظهر بعداد من غير الكفار.

كان ضريح أحمد بن حنبل أحد الائمة الاساسيين عند أهل السنة يقع بين الكاظم والمعظم (Moaddem) لكن مياه دجلة حرمت. تقع عقرقوف على بعد فرسخين ونصف عربي بعداد وهي قلعة على اتصال مثنى بقعة هالة (Helle) وهي ذكرت أنها إلا انها ليست مبنية من الفرميد بل من الصلصال المجموع تحت أشعة الشمس. وبعد كل ثمانى طبعات من الصلصال هناك طبعه من الاسل سماكتها لإصبعين. في هذا المبنى نجد ثقوباً صغيرة سدت حالياً إن ارتفاع الجدران يبلغ سبعين قدماً. الجهة الشمالية عمودية تقريباً ويبدو انه كان لها مدخل بكنه عالٍ جداً ويصعب الدخول منه من دون سلم في الجهات الأخرى حيث جمعت أشعة الشمس الأرض نرى قطعاً من هذه البناء حمها لهواء عنه كما نرى الاسل لأنه أطول عمراً من الصلصال وأخف وزناً. ظن الكثير من المسافرين ان عقرقوف هي برج بابل مع العلم ان هذه الأخيرة قريبة من القراب بينما عقرقوف قريبة من دجلة لا يمكن ان تحدد اليوم الغاية التي شيد هذا البناء من اجلها ربما كان أحد حلفاء بعداد الأولين قد بنى مسكنه الصيفي على قطعة الارض نفسها ناعم بالهواء البارد والقي في الجوار نجد تلالاً عديدة عليها آثار منازل ومساكن وربما آثار مدينة عبرية أو حتى من آثار بعداد القديمة

كانت المدائن في الناصبي مدينة رائعة الجمال وبقيت بعد وفاة النبي محمد بسنوات مكان إقامة الملوك الفرس. وهي تبعد مسافة أربعة فراسخ جبري شرقي بعداد وتقع قرب دجلة لم يبق اليوم من هذه المدينة الا بقايا قصر كبير يدعى نحت كسرى. يتألف هذا القصر من الفرميد والكلس ولا يقرأ عليه اي كتابة وربما أني لم استطع الذهاب لرؤيته لن ضيف على هذه المعلومات شيء آخر إلا ان أحد التجار أكد لي ان الذي قاس مدخل القصر قدّر عرضه ب ٨٨ قدماً وارتفاعه ب ١١٠ أقدام إذا قابله ولا ريب كبير جداً^(١)

(١) هناك صور لنحت كسرى وعقرقوف (Agar Kaf) في اسفار ايف لكتي بدا في ان عقرقوف في الرسم اصغر منه في الحقيقة خاصة من حيث الارتفاع

في هذه المدينة التي أصبحت مهجورة اليوم دلت بعض أصحاب السي محققون. إن أكثر هؤلاء شهرة هنا سلمان باك المعروف في التاريخ العربي والذي يسمى في بده مسكان الفارسي. يقال إن أهله كانوا من ذوي الشأن وإنه كان من عبدة النار لكنه أراد أن يصبح مسيحياً عندما كان في سوريا لولا أن أحد الكهنة نصحه بالتوجه إلى شبه جزيرة العرب لملاكاة السي الذي ينتشر من جديد بين إبراهيم. ولكي يجتنب هذا الكاهن الوقوع في أيدي الدجالين قال له إن لم رسول علامة فارقة في ظهره. وربما رأى سلمان هذه العلامة الرسولية علماً أن محمد لم يحجر شيئاً عن هذا الموضوع ولا تزال آراء العلماء المسلمين إلى اليوم متصارعة حول طبيعة هذه العلامة. كما وتختلف آراء مسلمي بغداد حول سلمان فيقول البعض إنه مات حاكماً بينما يقول آخرون إنه مات بصعته قاضي المدائن. إلا أنه معروف بحقائق محمّد وهو لا يزال إلى اليوم شيع الحقائق المسلمين. وإلى اليوم يزور قبره أهل بغداد كل عام ويحصلون معهم الهدايا ويصنعون الشموع. وبهذه المناسبة نفسها يزورون قبر كل من الجماني وعبد الله بن سلام وهذا ولا شك من الرجال الكرام عند المسلمين.

هناك أكثر من عشرين جامعاً مع مآذن في بغداد، هذا إذا لم نأخذ بعين الاعتبار المساجد الصغيرة. وسجد في المدينة نفسها اليوم أو بالأحرى في صواحيها ٢٢ مسجداً وأربعة خانات. أما ما تبقى فيمنبر صنير الحميم. كما وهناك عدد كبير من الحمامات العامة بالإضافة إلى مستشفى أو قل هي مكان خنجر صحي فيه عدد من الأكواخ البائسة يحبس فيها المصابون بمرض البرص والأمراض الزهريّة.

بالإضافة إلى التمور تشتهر ولايات البصرة وبغداد الكبيرة بالأرز والملح والفسح والدواب واحصنة الحروب وكلها منتوجات تسمى إليها البلدان الأخرى. إن موقع هاتين المدينتين استراتيجي إذ تقعان في الوسط بين الهند وبلاد فارس وتركيا بما تزدهر فيهما التجارة. بسبب الاضطرابات الداعية في بلاد فارس هاجر عدد كبير من الأرمن إلى هاتين المدينتين وأنشأوا فيهما مصانعهم. ومع أن العنوم كانت تحتل مرتبة رفيعة في أيام الخلفاء إلا أنها ما عادت تؤخذ بعين الاعتبار اليوم وذلك حتى في اليمن والقاهرة. ولقد التقيت بأقلية تجيد القراءة والكتابة. في القاهرة لا يزال نجد متجراً يبيع كتباً قديمة أما في بغداد فلا وجود لمتجر مماثل. إذا أراد أحدهم هنا أن يجمع بعض الكتب وأن يقرأها بنفسه أو بواسطة شخص آخر عليه أن ينتظر موت أحدهم إذ تنقل كتبه ويتجول بها المنادي في كافة أنحاء المدينة كما لو كانت ثياباً قديمة ثم تعرض للبيع في الممرات العلني. إذا أراد أحد الأوروبيين شراء مخطوطات عربية وتركية وفارسية فحير ما يفعل هو التوجه إلى القسطنطينية حيث يجد دكاكين فيها كتباً يمكن أن يشتريها المسيحيون الشرقيون.

ليست تجارة الأوروبيين في بغداد واسعة. كان لشركة الانكليزية لبلاد الهند عميلاً من بومباي لكنه استدعى إلى بلده في أيامي لأن التجارة لم تكن مزدهرة. بالرغم من ذلك كان هناك تاجر من البندقية وكاتب أعماله مزدهرة جداً مع أنه لم يكن يشدد على ترويجها وتسويقها كما تفعل الشركات التجارية الكبرى. وقد اعطاني السيد بيوي وهو تاجر ايطالي في البصرة رسائل توصية لتاجر البندقية فلنيسي هذا الآخر بكثير من التهذيب. يعيش هما رجلا دين مسيحيان كرمليان احدهما مطران من بلاد ما بين النهرين وقبصل فرسي في بغداد. كان محبوباً جداً من قبل المسلمين والمسيحيين على السواء. ترك الكوشيون المدينة منذ زمن بعيد. إن كافة رجال الدين الذين يأتون إلى المدينة يعرفون شيئاً عن الطب مما يجعلهم يحطون بحماية الأتراك وهم جميعاً من أصحاب البعثات التي لا تهدف إلى هداية المسلمين لأن في ذلك ععراً على حياتهم بل إلى إقناع مسيحي الشرق بالاعتراف بالبابا كرئيس لكنيسة المسيحية. وكثيراً ما يشكو رجال الدين المسيحيون الشرقيون نظراً لهم الأوروبيين مما يؤدي بالحكومة التركية إلى جعل هؤلاء الآخرين يدمون ضريبة من المال خاصة إذا كانوا أغنياء. بالرغم من ذلك استطاع الرهبان الكرمليون في بغداد ان يجتذبوا أكبر عدد ممكن من المسيحيين الشرقيين الموجودين. أما النمساوية وهم المسيحيون القدامى فقد أجبروا على التخلي عن كنسبتهم إلى هؤلاء المسيحيين الجدد. هناك الكثير من اليهود في بغداد لكن لا نجد فيها عبدة النار أو البانايان.

سبق وذكرت ان معرفة الطب تؤمن للأوروبيين حماية الأتراك لكن الأطباء لأوروبيين يجنون ثروة بصعوبة عاتقة من جراء مهنتهم. يحكي عن طبيب يدعى اربل (Erbel) سافر إلى القسطنطينية مع السفير الامبراطوري ثم أراد ان يوسع أسفاره لرؤية العالم فتوغى في أعماق آسيا معه وبعثي ولو مصريه رحلته ثم جاء إلى بغداد. في هذه المدينة أصبح في البدايه الحكيم باشي أي صبيب الياشا وكان يعمل على شفاء أهم شخصيات المدينة لكنه كان يبعثي القليل حتى ان الياشا لم يكن يعطيه أي شيء بالرغم من ثلمره. وفي النهاية مرر ان يكسب عيشه عند الانكليز في بلاد الهند. وصل إلى خارج المدينة للتوجه إلى حاله لكنه أجبر على الرجوع بأمر من الكرخيا الذي ادعى ان الياشا كان يحارب العرب وان كثيراً من الجرحى سيسقطون في هذه المعركة لذا فعليه ان يبقى لسمالجتهم. في هذا الوقت أرسل الطبيب بمساعدة الانكليز كل ما لديه إلى البصرة ثم حصل يوماً على إذن بزيارة مريض هم في مشهد عني عذهب إلى البصرة ولقد التقيت به هناك وكان يستعد لركوب سفينة انكليزية متجهة نحو بومباي والسعال، ثم عاد إلى أوروبا ولربما اعطانا وصف رحلته يوماً ما.

كبت قد ذكرت ان السلطان مراد انتزع مدينة بغداد من الفرس عام ١٦٣٨ م اي ١٠٤٨ هـ منذ ذلك الحين حكمه الباشاوات التالية اسماؤهم^(١).

الاسم	الوصول إلى الحكم	المدة
١ - كوجك (الصغير) حسن باشا	١٠٤٩	١
٢ - هرويش (الراشد) محمّد باشا	١٠٥٠	٢
٣ - كوجك حسن باشا	١٠٥٢	٢
٤ - دلي (العريب الاطوا) حسن باشا	١٠٥٤	١
٥ - كوجك موسى باشا	١٠٥٥	١
٦ - محمد باشا	١٠٥٦	١
٧ - المقنول ابراهيم باشا	١٠٥٧	١
٨ - ارسلان باشا	١٠٥٨	١
٩ - شاطر حسين باشا	١٠٥٩	١
١٠ - الملاك (أو الوسيم) أحمد باشا	١٠٦٠	١
١١ - قرّة (الاسود) مصطفى باشا	١٠٦١	٤
١٢ - سلحدار مرتضى باشا	١٠٦٥	٣
١٣ - آق محمد باشا (الكريم)	١٠٦٨	١
١٤ - خاصكي محمد باشا (بال لقب خاصكي لأنه خدم في الفسطنطينية في الوحدة المسؤولة عن مهاجمة طاعني العراق)	١٠٦٩	٣
١٥ - كنبور (الاحدب) مصطفى باشا	١٠٧٢	٢
١٦ - قسن (الشديد البياض) مصطفى باشا	١٠٧٤	١
١٧ - سلحدار قرّة مصطفى باشا	١٠٧٥	١

(١) ليس للشرقيين شهره (اسم عائلة) كما وعالية الباشاوات ينحدرون من اصل مسيحي قدموا وهم صغار السن الى تركيا. ومع ان لقب المحمدي (المسلم) يصاب الى اسمهم الا انهم يلقبون دائماً لتتميز بينهم. لقد ذكرت الاكباب لأحييكم علماً بلوق الاراك في هذا الموضوع.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها

الاسم	الوصول إلى الحكم	المدة
١٨ - ابراهيم باشا	١٠٧٦	٢
١٩ - قرة مصطفى باشا	١٠٧٨	٤
٢٠ - السلحدار (حامل سيف السلطان) حسين باشا	١٠٨٢	٤
٢١ - عبد الرحمن باشا	١٠٨٦	١
٢٢ - قتلان باشا	١٠٨٧	٢
٢٣ - عمر باشا	١٠٨٩	٤
٢٤ - ابراهيم باشا	١٠٩٣	٢
٢٥ - سلحدار عمر باشا	١٠٩٥	٢
٢٦ - سرهوش (السكين) احمد باشا	١٠٩٧	٢
٢٧ - عمر باشا	١٠٩٩	١
٢٨ - حسن باشا للمرة الاولى	١١٠٠	٢
٢٩ - يازركان (التاج) احمد باشا	١١٠٢	١
٣٠ - كنفدا احمد باشا	١١٠٣	٢
٣١ - قبي احمد باشا	١١٠٥	١
٣٢ - علي باشا	١١٠٦	٢
٣٣ - اسماعيل باشا	١١٠٨	٢
٣٤ - دلبان (الذي لا يرتدي سروالاً) احمد مصطفى باشا	١١١٠	٢
٣٥ - يوسف باشا	١١١٢	١
٣٦ - علي باشا	١١١٣	١
٣٧ - حسن باشا للمرة الثانية	١١١٤	٢٢
٣٨ - احمد باشا للمرة الاولى	١١٣٦	١١
٣٩ - حاجي اسماعيل باشا	١١٤٧	١
٤٠ - توبال (الاهرج) محمد باشا	١١٤٨	١

الاسم	الوصول إلى الحكم	العدد
٤١ - أحمد باشا للمرة الثانية	١١٤٩	١٢
٤٢ - الحاج (الذي حج إلى مكة) أحمد باشا	١١٦١	
٤٣ - رجب باشا		
٤٤ - ألشي باشا		
٤٥ - محمد باشا نريمانجي السهيج (هؤلاء الأربعة حكموا جميعاً ومعا لمدة سنتين)		٢
٤٦ - سليمان باشا	١١٦٣	١٣
٤٧ - علي باشا الأعرجي (القارسي)	١١٧٦	٢
٤٨ - عمر باشا	١١٧٨	١١

بقيت بغداد حتى عام ١١١٤ (١٧٠٢م) أي السنة التي تولى فيها حسن باشا للحكم للمرة الثانية بحالة سيئة لأن الباشاوات قبل ذلك لم يحكموا إلا بفترات وجيزة وصورياً وحسب. كان الانكشاريون هم أسيد المدينة الفعليين والعرب عارجه. ولم تكن التجارة محمية في هذه الولاية. لهذه الأسباب صار التجار الأتراك والسوريون يسافرون إلى أصفهان حيث يلتفون بشجار من مختلف البقاع وخاصة من الهند. بقي حسن باشا مدة طويلة في الحكم، وكافية ليس لإدلال الانكشاريين وحسب بل العرب أيضاً فثبت الأمن على أراضيه لكنه لم يكن باشا إلا على بغداد وعلى الأقاليم التابعة لها. كان على رأس مقاطعة شهر أسول (Schahr essul) التي تشكل الجزء الأكبر من كردستان يحكمها باشا من الدرجة الأولى وكان هناك باشا آخر في البصرة وكان السلطان يعين مباشرة المسؤول عن ماردین. بما أن الحروب الداخلية الفارسية بدأت في عهده ولأن الأتراك حاولوا استغلالها لانزعاج بعض الولايات من الفرس. طُلب العون من حسن باشا الذي بدأ يضم ماردین إلى حكومته. وصار يسطر سلطته أكثر فأكثر وكان يعرف كيف يوقف العرب أو يهدد الباشاوات الجدد أدراجهم عندما كانوا يأتون من القسطنطينية إلى البصرة. أحياناً عندما كان بعضهم يصر إلى البصرة سرعان ما كان يتحلى عن الحكم لدى رؤيته يؤس سكانها والديون التي تعرض فيها من جراء الحرب مع العرب، في ألوت نفسه كان حسن يسعى لإعطاء هذا المنصب لابنه أحمد وحصل عليه بصعوبة بعد أن تعهد بدفع مبلغ من المال للسلطان كل عام علماً أن مدفوعات السلطان في البصرة كانت أكثر من مداخيله. ثم توفي حسن باشا من جراء مرض ما في كرمشاه في قرية من قرى همدان بعد أن حكم بغداد ٢٢ سنة فمرية متتالية.

أما أحمد فكان يرافق والده بصعته باشا البصرة إلى القرية السابقة الذكر بعد توسع باتجاه همدان واستولى على المدينة في وقت قليل. بعد ذلك دأب صيته فسعى باشا علي بعدد ثم استولى على البصرة وماردين معاً زاده نوة لیتابع الحرب ضدّ العرس. وفي عهده حاصر نادر شاه مدينة بعدد مدة ٢٨ شهراً عام ١٧٣٢ م. قام أحمد باشا بنهضة عدد الاتراك اللدود هذا فترة له المدافع التي كان قد أحدها من همدان في المرة الأولى حكم مدة ١١ سنة قمرية هو ووالده ولشدة ما انتدت العبرة بالوزير الذي كان في ذلك العهد عندما سقطت همدان طلب تعيين وزير آخر مكانه، واعتقد الناس أن أحمد لن يترك الحكم بسله إرادته. في هذه الحال كان الوزير صيته بالعميان ويطلب برأسه لكن أحمد سرعان ما حصص لأوامر السلطان. في مدة صيته أرسل السلطان باشاوت عدة لكنهم أصبحوا بالحرر على السكان وعلى العرب. كانت الموصى سيطر على الحكم وبما أن القسطنطينية كانت تحاف من أن يوسع نادر بأث نفوذه في بغداد طلبت من أحمد باشا أن يعود إليها فعاد هذا الأخير وراح يوسع أراضيه. لكنه لم يرغب قط بسط نفوذه في فارس خوفاً من نادر شاه ثم أصبح قائد الجيش التركي فاستولى على كردستان وعلى أقاليم الدولة الأخرى، ولم يبقَ لها إلا كركوك وبعض القرى التي أرسل إليها السلطان باشا من الدرجة الثانية. يزعم البعض أن نادر شاه قال في أحمد أنه أذكى منه ومن السلطان لأنه في كل مرة يحاول السلطان إبعاده عن بغداد كان يستخرج العرس للاستيلاء على البصرة فيعيد السلطان إلى منصبه ولا يكفي بذلك بحسب بل ويرزده بالمال والمدافع من القسطنطينية وبكل ما شاء لحماية الولاية. ويقال أن السلطان أرسل مراراً ما يعرف بالعبديجي باشا إلى بغداد لقتل أحمد باشا لكن هذا الأخير كان لديه عميل في القسطنطينية بالاضافة إلى علاقات وثيقة مع الوزير فكان يعلم بأمر هذا الباشا قبل وصوله بل وبأمر كل ما يدبر ضده. وكان لديه اصدقاء يقومون بقتل هؤلاء العبديجي وهم على الطريق بل وقبل وصولهم إلى الحدود. إلا أن أحدهم استطاع أن يأتي بسرية تامة ولم يعرف أحمد بأمره إلا قبل ساعات من وصوله حيث امتطى حصانه مع ضباطه الرئيسيين وعيبيه بحجة رمي الجريدة. إن هذه اللعبة العسكرية التركية معروفة جداً في أوروبا. لكل فارس مساعد يركض إلى جانبه حاملاً على ظهره القضبان التي يبلغ ارتفاع كل منها أربعة أقدام. عند الوصول إلى النقطة المعينة يتمجلس المسنون قرب الماء لارتشاف القهوة والتدخين بينما يشجول الشبان اثنين اثنين مطلقين العنان لحيلهم منتظرين الفرصة التي تسمح لهم بتوجيه ضربة إلى خصومهم. انتهى أحمد باشا بالعبديجي باشي قرب المدينة واستقبله بهتذيب فائق على أنه مبعوث رسمي من قبل السلطان. ولأن لعبة الجريد هي لعبة شائعة في صفوف ذوي الشأن من الاتراك دعى أحمد باشا ضيعة لمشاركته لها. لدى وصولهما إلى مكان معين من قبل أحمد باشا طلب هذا الأخير من ضيفه أن يدعيا معاً ولم يستطع القابديجي رفض هذا الشرف فجاء خادم دونه قصياً مما كان من أحمد إلا

ان احد عصا من مرافقه الخاص ولحق بالقادحي وضعه به طعة واحدة. ثم ترحل عن حصانه مسرعاً وركض إلى محتجاً بأن مرافقه أعطاه القصيب الحاطي، فا الرأس الحديدي وأنه لا يصبر له اي شيء. إلا أن مبعوث السلطان فارق الحياة بأمر أحمد باشا الأوراني التي كان يحملها إلى القسطنطينية مع وابل من الاعتذارات

لم يترك أحمد باشا إلا اثنين من روجو واحدة. وقد وعد بترويح البكر عادة لأحد الأشخاص في مناسبة خاصة. كما وكان من محبي صيد الأسود ولقد صرع أكثر من أسد على يديه وإذا حاول احدهم مساعدته غضب منه غضباً شديداً لا يثق في قدرته على مصارعة أكثر من ٤٠ شخصاً من بينهم صباط وحرس لكن أحداً منهم لم يتحرأ على مد يد العون له فبقوا جميعاً في الحلف ما هذا سليمان الجيورجي الذي اشتراه أحمد باشا وهو صغير واشرف على تربيته والذي كان يلاحق سيده من بعيد فبصر أحمد باشا على الأسد وصربه برمح لكن الرمح كسر فأحبر الباشا على الهرب. عندما رأى سليمان ما حدث هب لمساعدة سيده فصرع الأسد وانقل حياة الباشا. وهكذا وعده هذا الأخير بتروجه ابنته البكر وومي بوعده فتحول سليمان من صاحب مهمة عديدة إلى أمين الحزبية ثم صار يتدرج في المناصب الجيدة إلى أن أصبح كحياً وهو منصب بالنسبة للبغداديين يشبه وزير السلطان في القسطنطينية.

بعد أن حكم أحمد باشا ٢٣ سنة قمرية في بغداد مات في حمى شفا على الأكراد لأهمل أبوا ان يدعموا الخراج المعتاد. إن حكاهم غالبية المقاضات والمدن مدينون بثروتهم لأحمد باشا وحسن باشا. وكان الجميع رضي بسليمان كخيا بسبب والد رجبته وجدها اما في القسطنطينية فلم يكرهوا يرغبون بترك الحكيم في يدي هذا العائلة خاصة في ولاية مهمة كهذه. فأرسل السلطان باشا جديد إلى بغداد ولإرضاء وعيائه عين سليمان باشا على البصرة.

إلا ان صعوبات كثيرة قد واجهت الباشاوات الجدد. هاجم العرب احدهم وهو في طريقه إلى بغداد لتسببه امواله مما جعل أهل المدينة يسحرون منه منذ بداية عهده، وهناك باشا ثان مات أثناء رحلته إلى بغداد. وكانت التذمرات تصل إلى بغداد وتقول بأن هؤلاء الاسياد ليسوا اكفاء لتحمل مسؤولية مهمة كهذه. باختصار أرسل أربعة باشاوات إليها في مدة سنتين ولم يرض السكان عن اي منهم في النهاية جاء سليمان باشا مع جيشه من البصرة إلى السماوة (Semaue) أمره الباشا المعين بأن يعود أذراجه لكنه راصل تقدمه حتى الديوانية التي كان يحكمها علي آغا الذي تنرد على الباشاوات السابقين والذي كان من مؤيدي سليمان باشا. إلا أنه سرعان ما هرب إلى بغداد ونقل إلى الباشا أخبار سليمان التوسمية فألف الباشا جيشاً من ١٤ ألف رجل وشره وسار به لمواجهة سليمان فوجده قرب الحلة مع ٨٠٠ شخص ودهش لرؤيته ينتظره مع هذا العدد القليل

من الرجال لكن أثناء إقامة علي أعم في بغداد حشد رؤساء القبائل لصالح سليمان باشا رجع العدو مع جيشه باتجاه الباشا مباشرة كما كان متفقاً مع علي أعم، فهرب الباشا بعد فترة وجيزة واستسلمت العرق البعدادية إلى الريح. لدى عودة الباشا إلى بغداد وُجدت أبواب كلها موصدة، أما سليمان فقد لقي ترحاباً شديداً، بسى السكان ديواناً كبيراً تجمعت فيه أهم شخصيات بغداد، ثم أعدوا لائحة شكاوى ضد الباشاوات الذين حكموا بغداد في هاتين السنتين ووقعها كافة الاعضاء لتقديمها إلى السلطان وقرر الجميع ان لا أحد يمكنه انتشال المدينة وسكانها من الحالة السيئة التي وقعت فيها منذ وفاة أحمد باشا إلا سليمان باشا. باختصار لم يحظ سليمان علي موافقة الباشا على توليه بغداد وحسب بل وعصى كافة الولايات والاقاليم التي كان أحمد باشا يصنع يده عليها.

حكم سليمان باشا مدة ١٢ سنة فمرة ولشدة ما تأثر العرب عند وفاته نظموا اصيبت محزبه لراثته وصاروا يرددونها إلى اليوم في المقاهي وفي شوارع بغداد ولا بد من القول ان العرب لم يكونوا يوماً نظاميين في هذه المنطقة كما في عهده وعهد حميه في الماضي لم يكن أحد يتجرأ على السر من الحلة إلى البصرة دون ان يأخذ معه ديلاً يدفع له موالاً طائلة لكن بعد ذلك صار بإمكان كل فرد ان يسافر وحده دون ان يخاف من السرقة على اراضي سليمان باشا سواء عن طريق البر أو عبر دجلة أو انهرات. ولأن التجار كانوا غير مطمئنين للذهاب إلى بلاد فارس تحولت التجارة الهديئة من عبرون واصمهان إلى البصرة وبغداد فازدهرتا.

ولم يكن سليمان يتساهل مع العرب، كان كثيراً ما يهاجمهم بغتة أثناء الليل غير تارك لهم فرصة الهروب إلى الصحراء. لا يزال البدو يسمونه ابو الليل لأنه كان يهاجم دائماً في الليل ولا يهدأ له بال الا بعد ان ينال منهم. اما في بغداد فكان يدعى سليمان الاسد وقد أكد لي البعض انه ذهب إلى دمشق واستطاع ان يسلبها في تسعة ايام لأن العرب الخاصصين لباشا دمشق كانوا قد نهبوا قافلة كبيرة من بغداد. وكان يحاسب باشاوات الاراضي المجاورة عندما لا يصحون جداً لقبائل العربية التي تتحول على اراضيهم. قد يتفاجأ أي اوروبي لدى سماعه هذه الاخبار لأن دمشق وبغداد حصصتان للسلطان كلتاها إلا انه من المعتاد ان يشن الباشاوات معارك على بعضهم.

ومع ان أحمد باشا كان يقدر الشجعان حتى لو كانوا اعداء إلا ان سليمان باشا كان عكسه تماماً فكلما كان عدوه المهزوم مهزوماً يباسه كلما رآه ذلك محراً علماً ان اعداءه لا يمكن ان يلقوا من طرفه اي رحمة حتى ولو دافعوا عن انفسهم بشجاعة صلبة. ويُلوم اناس سليمان باشا لأنه غاصص كثيراً لزوجته. فعادلة خاتون أي السيدة عادلة ابنة الياس من الزوجة الاولى لم تنس ان زوجها كان في صفه عديداً عد والدها لذا فقد كانت وقعتة وشديدة الصموج كانت تحلّد اباماً في الامسح يزورها فيها الناس لطلب خدمه م. وبما انها سيده مسدده لم يكن يسمح لها بالتواجد

مع دكور فكان العلام المخصصي يستقبلهم في عرفة على حدة ثم يخبرها بطبائهم وكانت أحياناً تتخذ قرارات تناقض كلاً القرارات التي يأخذها زوجها ووريثه بعد تمكير وتمحيص وكانت عادلة خاتون تعرف كيف تدر على نفسها بعض المناجيل وجديراً بالذكر أنه عندما يكذب الباشا آغا ما بمهمة وينعدها هذا الأخير يعطيه الباشا عبادة مبطلة بالفرو. أما شيخ القبيلة العربية فيحظى بالسياسة نفسها عناية.

في البداية أمدت زوجة سليمان باشا للأعصاب الكبير الذين خدمو عند والدها وجدها عصية من الحرير يلقونها حول رؤوسهم ويتميزون بها عن باقي صباط الباشا في الأعياد والاحتفالات ومع الوقت صار الباقون يسعون للحصول على العصية نفسها بواسطة الهدايا ثم جرت العادة أن يعطى منفذ المهمة بعصية مماثلة ليست ذات شأن إلا أن شهادتها كان غائباً. وكانت عادة خاتون على علاقة سبلة بشقيقتها. فقد تزوجت هذه الأخيرة من أحمد آغا وهو آغا أباً عن جد يحبه الجميع وخاصة سليمان باشا. يقال إن الوزير عرض يوماً على أحمد آغا ولاية عديلة إلا أنه رفض ذلك باحتقار. ما إن عرفت عادلة خاتون بما جرى حتى نقلت الخبر إلى زوجها مدعية أن أحمد آغا هو صاحب العرس فما كان من الباشا إلا أن قتله. وهكذا ازدادت عداوة الشقيقتين إلى أن أقع سليمان باشا نعت زوجته بالزواج من عمر الكعب النحاس به.

ولم يكن سليمان مستعداً لإرخاء الحبل لأي قابطجي باشا تماماً كحكماء ويقال أن السلطان حاول أن يرسل أشخاصاً لقتله بالسر. كما ويقال أنه كان هدفاً لعدة صلقات نارية ولربما كان الوزير هو المحرض، في حالات كهذه لا يجرى أي تحقيق في الموضوع لكن إذا عرفت هوية مطلق النار يعلم مباشرة.

كنت قد ذكرت آنفاً أن أحمد باشا مات في حمة صيد الباشاوات في كردستان ومع أنه مات ميتة طبيعية إلا أن عادلة خاتون لم يهدأ بالها لأن زوجها لم يثر لأبيها. ومع أن سليمان باشا ذهب عدة مرات إلى كردستان إلا أنه لم يثر يوماً على القاتل الذي كان يهرب إلى الجبال في النهاية حاول القاتل الاعتذار والتودد وكان صادقاً في ما يفعل فأرسلت له عادة خاتون عصية ثمينة جداً من الحرير كدليل على عفوهم عنه^(٥). فاقنع الكردي بذلك وجاء إلى بغداد لكن ما إن وصل حتى ربح في السجن وقتل في اليوم التالي.

لم تسمح هذه السيدة العظيمة لزوجها بالافتراء بساء أخريات ولا باتخاذ جور. وهي لم يورق بأولاد فعندما مات سليمان كانت وريثه الوحيد ولا تزال إلى اليوم تعيش في بغداد وتعتبر من

(٥) يحكي ابن إسهاب قصة هذا الكردي في أسفاره إلى الهند وبلاد فارس الجزء الثاني ص ٩٩

أكثر الناس ثراء. بنت في هذه المدينة مسجداً وخاناً اتحدتا اسمها وشيدت أبيه مماثلة في مدي أخرى.

عندما توفي سليمان باشا كان علي آغا يحتل منصب المسلم في البصرة^(٥). وكان علي آغا قد شغل عدة مناصب مهمة في هذه الحكومة وكان الشعب يحبه ويحترمه فأُمل بتعيينه باشا وسرعان ما مال فرمان الباشا الذي يكلفه بهذا المنصب إذ أن توصيات عديدة وهدايا قيمة رُسلت من الديوان إلى القسطنطينية مرشحة اسمه إلا أنه لم يحكم إلا ٢٢ شهراً وبشكك في أن عادلة خاتون هي السبب في ذلك. ولم يكن أصل علي آغا عبداً بل كان أهله من المسلمين الفقراء في بلاد فارس. في صباه عمل عند رئيس خدم أحمد باشا ولشدة ما كان حس السوكر وضعه باشا في حمايته وعلمه كافة الأمور التي يجب أن يعينها أي تركي يجدر من عائلته عريقة ثم رُفاه إلى عدة مناصب. وكانت عادلة خاتون تأمل في الحفاظ على حصتها من الحكم بعد موت زوجها باعتبار أن علي باشا من نسل لوالدها في منصبه وماله إلا أنها لم تحظ بمتعتها أراد علي باشا أن يحكم وحده ويحزم. كان الانكشاريون شديدي النفوذ في تلك الأيام في بغداد خاصة لأن الباشا قد مات والباشا التالي لم يستلم رمام الحكم بعد. أراد علي باشا أن يضعف الانكشاريين لكن عدداً من اليهود حواريين كان حائزاً على لقب انكشاري فقدمت ثورته نظمت بالثشاور مع جيش السلطان مما أجبر علي باشا على ترك المدينة. إلا أنه ما لبث أن عاد وساعده في ذلك عدد من كبار رجال بغداد ومن القبائل العربية الرئيسية فقطع رؤوس بعض الانكشاريين بعد ذلك بقليل انتفض بعض الباشاوات في كردستان بالإضافة إلى قبيلة خزاعل (Chasael). لكنه أنصاع الأتراك إلا أن قبيلة خزاعل مرتته فظم الشمران العرب اعينهُ حول مصر «معدن» هذا صارت يني حتى في بغداد. ولم تستطع عادلة خاتون احتمال همال الناس بها وعدم استشارتها بشيء وكانت تسمع أن علي باشا يريد إبعادها عن بغداد فقرر أن نقله وكان يقال أن علي باشا كان يهني سراً إلى المذهب الشيعي وكان يحب الفرس وبذلك عني ذلك أنه تعامل بقساوة بالغة مع الأكراد والانكشاريين وهم من أصل السنة بينما ترك قبيلة خزاعل تهرم جبرش السلطان عملاً أنها قبيلة شيعية. وصار الشعب يتذكر حالات أخرى كان فيها علي باشا مع الشيعة ضد السنة، وقرر الجميع أنه كافر وأنه يتحيز العرصة لجعل الحرم يستولون على بلاد السلطان.

من بين كبار رجالات بغداد هناك خمسة أسياد اشتروهم الباشاوات السابقون كعبيد وورثهم على الديانة الإسلامية. شغل هؤلاء بالدور أهم المهام في المدينة وفي مكان إقامة الباشا أو من

(٥) هو نفسه علي آغا الذي التقى به إمام من رسله من البصرة والذي كان فائق التهديف في تعامله مع الانكشاريين إلى الهند وفارس الجزء ٢ ص ٥٥.

الولايات الاخرى، كانوا يعيشون كإخوة ويعرفون علي جيداً لأنهم ساعدوه على أن يصبح باشا دون أن ينتهوا إلى الضجة التي حلت مؤخرًا في الوقت نفسه كانوا يجلبون عادة خاتون لأنها حفيذة وبنة ثم روجة المحسبين إليهم السابقين مع أن سلوكها لم يكن دائماً محببهم ثم مات أحد هؤلاء الخمسة فجأة فأرادت عادة خاتون يهنئهم أن الباشا هو الذي سمعته وأنه طلب من القسطنطينية الإذن بالقضاء عليهم جميعاً. فظنوا أن الأول قد أن لتأمين استمرارهم علماً أنهم كانوا في السابق أكثر من يعتمد على الباشا وهم الذين أعادوه إلى الحكم بعد أن طرده الانكشاريون من المدينة فتحولوا إلى رؤساء ثورة لم يعرف الباشا عنها شيئاً إلا عندما تجددت المدينة بكاملها ضيقه. لم يجد علي مفرأ من الهرب متكرراً بثياب امرأة. بعد مرور بضعة أيام ألقى القبض عليه وهو يسعى إلى الخروج من المدينة لطلب النجدة من العرب فاقيد إلى السرايا وأعدم فيها.

بعد موت علي اجتمع الديوان لاختيار باشا بين الاميد الاربعه الباقين. اتان منهم رفضا هذا الشرف معتبران عمر كخيا هو الاحق بالمنصب لأنه زوج ابنة احمد باشا الثالث وهو محمود كان عائلاً لأنه كان يحتل منصب المنسب في البصرة لكن كان حاضراً. ولم يكن هذا الاخير رجلاً ذا شخصية ملدة أو ضابطاً بارعاً بل اختاروه بسبب روجته وهي امرأة رقيقة يحبها الشعب عانت من مقتل زوجها الاول ظلماً ومن غرور احتها. وهكذا اقترح الديوان بكامله عمر الكخيا ثم اعذ الجميع رسالة إلى السلطان كتبوا فيها ان علي باشا كماؤ كان يريد تسليم المدينة للفرس وان الشعب ثر عليه ثم قتله وان العرب والاكراد ناروا هم أيضاً وان عمر باشا وحده قادر على إرجاع الامن إلى المدينة لذا فقد رجاء الديوان ان يتحمل مهام الحكم على أمل ان يوافق السلطان على ذلك. وهكذا سقي باشا في صيف ١٢٦٤.

في السنة التالية سار عمر باشا إلى الجبال لمواجهة قبيلة خرغل. فأضرم النار في لموم مكان إقامة الشيخ وقطع رؤوس ستة أو سبعة من الشيوخ الرئيسيين ثم أرسلها إلى القسطنطينية كرسالة تقول إنه لشدة ما أدل العرب، ان يضابقوه أبداً في المستقبل. بهذه المناسبة حصل على تهاني الوير. في هذا الوقت عاد الشيخ الحاكم الذي كان قد هرب لدى قدوم الباشا فأجبر الشيخ الجديد على إرجاع الحكم له، ولم يرغب الباشا في ش حملة جديدة فتركه في مصبه. كنت قد ذكرت سابقاً ان قبيلة كعب هي الاخرى نزاع الباشا ولما تمر سنة دون ان يحمل فيها باشا بغداد على العرب أو الاكراد يكن الباشاوات كانوا يتأكدون من ان السلطان لا يعرف شيئاً أو يعرف القليل مما يحصل في الحكم.

لم تكن روجة عمر باشا قد سمحت له باتخاذ زوجات اخريات أو حاربات ولم يحصل منها على أي ولد. وكان الامراك الكيدي من التخلص من عائلة احمد باشا عندما يموت عمر باشا الا

إن أهل المدينة قد اعتادوا منذ سنوات عديدة على اختيار رئيسهم بنفسهم مما يضطر السultan مراراً إلى الموافقة على خيارهم حفاظاً على هذه الولاية الجميلة وكى لا تسقط في أيدي الغرب^(٥) إن شكل الحكم في بغداد يشبه الحكم في القسطنطينية يوزع الباشا المهام على ذوقه لكن الأمور الهامة تحصى للديوان. أما الأشخاص الذين يحتسب صوتهم في الديوان فهم

- جميع المسيحيين الذين خدموا بصفة كحيا باشا ولتمسلمين في البصرة واليود^(٥) في عاردين والذين حكموا المدن أو الأقاليم والوجوديين في بغداد

- الباشا آغا أو رئيس فرقة الحياة.

- الآغا أو رئيس الانكشاريين.

- رئيس العلماء. لا أحد يظن إعطاء هذا اللقب إلا يكتسبه مباشرة الذين يشتهرون بعلمهم ومعارفهم. إن هذا اللقب نادراً جداً في تركيا^(٥).

- قاضي المدينة ويكون ملأ ويعتبره مهي القسطنطينية كل عام.

- مفتي المذهب الحنفي

- مفتي المذهب الشافعي.

نسب الشرف أو رئيس سلالة محمد في هذا الباشا لك يكون هذا في الوقت نفسه (المتولي) أو مفتش مسجد الشيخ عيد القادر ومقامه.

- الخطيب للشيخ وهو خطيب مسجد الشيخ عيد القادر.

(٥) عندما حاصرت جيوش كريم خان البصرة عام ١٧٧٥، اعتقدوا في القسطنطينية أن عمر باشا هو الذي اتاح لهم الفرصة. ظن البعض أن الغرب لم يردوا فعلاً إعلان الحرب على السultan لكنهم أرادوا اصحاب باشا بعدد لأن سلوكه لم يكن يعجبهم. ويقول البعض أن عمر باشا رجا كريم خان أن يرسل جيشه إلى البصرة كي يعظم شأنه أمام السلطان (اتهم أحمد باشا بالهبة نفسها عند حاصر نادر شاه البصرة مما أجبر السلطان على إعادة أحمد إلى بغداد كي لا يخسر البصرة) جاء جيش نوري مع عدة باشاوات إلى بغداد وسيطر على المدينة في بداية سنة ١٧٧٦ بعد أن وعدوا عمر باشا بالذهاب إلى أورعه (Orfa) بصيغة باشا لكنهم لم يعمروا بعدد فقص رأس عمر باشا وأرسل إلى القسطنطينية. ثم عين السلطان باشا على بغداد لكن بعد ذلك بفترة قصيرة سقطت البصرة في بداية عام ١٧٧٧. كتب إلي أحد اصديائي من حسب وخبرني أن المدعو عبد الله الذي كان كحب في عهد عمر باشا لا يرس إلى اليوم باشا بغداد إذا فلا بد أن أهالي بغداد هم الذين اختاروه وصلى السلطان على اختياره

(٥٥) وبما كان رئيس العلماء مستاد مدرسة المدينة.

- الخطيب زرمشاب (Zermashab) أو خطيب المسجد الذي دفن فيه ابو حبيبة.

الضابط الاساسي لباشا هو الكخي ويكون في الوقت نفسه الورير تماماً كوزير السلطان. وللباشا بعضاً مجموعة من المستشارين ويجب ان يكونوا من شغل مناصب هامة. في أبياسي كان في البلاد رجل يدعى عبد الله بك أخ شيخ قبيلة عبيد (Obed) وكان البابك باشي أو قائد الخيالة يكن لشدة ما كان محترماً كان الباشا يستشير في كافة الامور وخاصة تلك المتعلقة بالعرب. بالإضافة إلى ذلك نجد الدفتردار أو أمين الخزينة^(١). وأقندي الديوان أو أمين سر الدولة. يحل محل الكخيا عندهما يغيب القابدي قحجاري (Kehajasi) هناك ايضاً الحريم الحجاري أو المسؤول عن بلاط الباشا. السلام أغاسي هو رئيس التشريعات، المير أهور Ahor هو قائد السلاح. هذا بالإضافة إلى رئيس ضباط العدالة أو الشويش قبحاسي. يبقى هذا الأخير إلى جانب الباشا كالشاريش الأمين الذي يبقى إلى جانب الكخيا لتلقي أوامره، يلزم باشا بغداد القائد باشا المذكور في القسم الذي يتناول البصرة. أما المسؤولون عن جباية الضرائب والمخراج (وما يدفعه المسيحيون واليهود) فهم يقيمون من قبل الباشا.

لكل الباشاوات وخاصة باشاوات بغداد عدة أغاوات إن هؤلاء بمثابة حرس ويخدمون الباشا بأنفسهم عندما يخرج الباشا على ظهر الخيل يسرون خلفه حتى خيل رائدة وقد ارتدوا أيدي ثيابهم ولكل منهم خادم يهتم بفرسه يحضرون جميعاً لأمين صدوق الباشا والسلحندر أو حارس السيف إلا ان الأول يعطيهم الاوامر في المدينة بينما الثاني يلقى

الضابط الثالث الاساسي هو التشوقدار باشا. ان ٢٤ من الانس أغاسي (Isagasi) من المكلمين يساهم خاصة يحيطون دائماً بالباشا ولن أذكر منهم إلا التالية أسماءهم:

- الكستجي المسؤول عن تميش الخزانة.

- الابريقدار الذي يحمل للباشا الماء حتى يتنفس.

- السدجي باشي الذي يحمل له الماء ليشرب.

- المهورجي باشا الذي يهتم بتحضير القهوة.

- الانس قرجي الذي يحفظ المرتي.

- الرشتوان الذي يهتم بالخيل.

(١) يخضع الدفتردار في الولايات الأخرى للسلطان مباشرة ان باشاوات بغداد يختارون الدفتردار او يرابعهم بأنفسهم.

- الإنس معشر باشي الذي يهتم بالسجاد.

إن أحد هؤلاء الإنس أعاسي هو أيضاً لالا أو رئيس لعمعان يراقب هؤلاء الشباب الصغار والعتيان وهم بماليتهم مسيحيون من جيورجيا أو من مناطق أخرى يباعون كعبيد إن قسماً منهم يتخذون من أبوين مسيحيين بحسب الاهتمام بتربيتهم على الأصول التركية وتعليمهم القراءة والكتابة وركوب الخيل وحمل السلاح على الطريقة التركية. إن الأدكباء والمهريين من بين هؤلاء يرقون إلى منصب إتش أعاسي وغيره من المناصب المتشرفة من غير أخذ أصلهم بعين الاعتبار أما الباقون فأمهم ضعيف في الوصول إلى مرتبة رفيعة في هذا البلد. يسمح لحمله لقب إتش أعاسي بإطاعة شاربهم لكن إذا بصر صاحب أربع يصبحون صفلي أعاسي أو سقيلي أعاسي ويسمح لهم بإرخاء حبيبتهم من جهة ذنبتهم. يعمل عند الباشا ما يقارب ١٥٠ من هؤلاء الآخرين

وهناك أيضاً المنشوقدار أو المختار من بين الإنس أعاسي وهؤلاء لا يمتطون الحرس في خدمتهم. إن رئيس الفريق الأول هو المنشوقدار باشا ويكون الفريق مسؤولاً عن نقل أوامر الباشا إلى الولايات أما المختار فهم مسؤولون عن تميش الحريم في القرى ويقومون بمهام مخبرية أحياناً

إن ذهب الباشا إلى المسجد يكون بمثابة احتفال يحيط به من جهة التمسكجي باشي ومن جهة أخرى المطردجي باشي وبسبقة عدة موسيقيين وعدد من الإنس أعاسي على ظهر الخيل هذا بالاصابة إلى عدد من الضباط الآخرين الذين يرافقونه كاللواتسوس والسراخ باشي والقواس والشاطر لكنني لا أعرف ما هي مهامهم

يؤلف الإنس أعاسي الفرق العسكرية الأهم ولباشا بغداد من المشاة فهم ما يقارب ٨٠٠ رجل أما الكحميا والاسياد الباقون في بغداد فعددهم ٢٠٠ رجل

إن خيالة الباشا المسماة بوند والتي تكثر في كوك الحلة لصيغ العرب تتألف من ١٠٠ بندق كل واحد من ٢٥ رجلاً عندما يكون كاملاً لكن في المطلق يصل عددها إلى ١٥٠٠

المشاة وبسبب هذا الفريق يرتولي بتألف من ٣٠ فرقة كل واحدة من ٤٠ رجلاً

في إمامي كان مجموع المشاة يوزي ٨٠٠

يقدر عدد التمسكجي أو الجنود في خدمة الباشا بـ ٢٠٠

إن جيش الباشا النظامي والمدرّب على الطريقة التركية يتألف من أقل من ٣٥٠٠ شخص.

إلى جانب ذلك هناك فرق من الانكشاريين ومن رجال المدفعية إلا أنه خاصص للسلطان أي أنه لا يحق للباشا أمره بالتوجه بمقاتلة الثوار من العرب والاكراة يعبر الانكشاريون رجال المدفعية

انهم يقومون بأعمال تزيد عن اللازم لأنهم يحمون المدينة والقلعة من اعداء السلاطنة ومن البيت شخصياً وهم يحصون للآغاوات المسؤولين عن قطعهم في القسطنطينية والتي ترسل لهم الضباط يكون جنودهم من اصل البلد ومن انصار الباشا خاصة اذا اغدق عليهم شرف السماح بهم بالانضمام إلى هذه القطعة. لم استطع معرفة عدد الانكشاريين الموجودين في بغداد بدقة اذ قال البعض انهم يبلغون عشرة آلاف بينما اصر آخرون ان عددهم يصل إلى ٦٠ ألفاً. ان الرقم الاول يمثل العدد الرسمي لدى السلطان، أما العدد الثاني فيتألف أيضاً من السكاذ والآغاوات المسجلين عند الانكشاريين للتمتع ببعض الامتيازات ولحماية انفسهم اذا تعرض لهم الغير بتميز اعطاء كل قطعة بقعانهم الخاصة التي تميزهم عن القطع الاخرى. أما من حيث اللباس فكل شخص يرتدي ما يشاء.

في ولايات اخرى لا وجود لكلمتي لوند أو برتولي لكن ينال لخيالة الباشا دلي (Delh) ولشمشة تفنكي وسفمان.

عندما يحتاج الباشا إلى مزيد من الفرق العسكرية في حملاته ضد العرب والاكراد ينفق مع بعض الضباط فيجند كل واحد اشخاصاً يكون مسؤولاً عنهم. تسمى هذه القطعة المستحدثة سردجستني. يقب جميع الاشخاص المستطوعين ويقدون مباشرة إلى المعركة دون تدريب يذكر على السلاح الذي يعطى لهم. بعد عدة أشهر وهي المدة التي تستمر فيها الحرب، يطلق سراح هؤلاء. في ايامي جندت عشرة بيارق كل واحد مؤلف من ٤٠ رجلاً أرسلوا إلى البصرة بحملة قيلة كعب. وحتى تعادني انخرط في الصفوف وأصبح سردجستني ليدخر المال الذي اعطيته اياه ويعود به فاضطرت إلى استبداله بماروسي من حلب. بما ان البيرقدار كان يطلبه عدة مرات، سأله ما إذا كانت المرق قد تمزنت فأخبرني ان الضابط تلا الماتحة معهم ثم كذبهم على التحضيرات اللازمة لنسفر واعطاهم المال اللازم لذلك ثم طلب منهم ان يكونوا شجعاناً وشرفاء وبعد ذلك فر منهم. عند الحاجة يمكن للباشا تجنيد ٣٦٠٠٠ شخص آخرين في ولايات البصرة والحسكة وماردن وكردستان ومن العرب المتجولين في اراضيه لكن عدد الفاعلين منهم في الحرب لا يكاد يصل إلى ١٠٠٠٠ رجلاً والباقيون يسيرون إلى الجيش أكثر مما يهيئون.

من أهم مدن الحكم: البصرة، أربيل، الحلة، رمحية، مشهد علي، كربلاء، الطاق، النون كبري، قره طاغ، مندلي، بصرة، خراسان، مهران، بهروز، قون رباط، شانقيي، قصر شيرين، (بجوار بلاد فارس) شهرمان، حرانية، بنكجة، برة دان، دجيل، تكريت، (على دجلة) سامراء، (على دجلة)، دور، ونكبد، دروزين، خرببات، عاب (هذا المكان والاماكن التالية تطل على الفرات) جبة، هيت، حديد، الروس، كيسة.

أثناء سفري لم أزل ألقب من هذه المدن والضواحي والقرى لذا لا أستطيع تحديد مكان الباشا، إلا أنني بقلت سمعها لأنها تستحق أن ينظر فيها الجغرافيون فربما استطاع المسافرون من همدي أن يعرفوا من أين حصلت بلاد دروزين على اسمها هل يوجد فيها دروز حالياً أم هل كانوا فيها في السابق؟ ولست متأكداً من الكتابة العربية لبعض هذه الأسماء لأن المال الذي كتبها لي كان غصه سيئاً فكتبها بأحرف المانية وفقاً لطريقة لفظها بالعربية.

لا يرسل الباشاوات أي حاكم تركي للأكراد والبدو إذ يجب أن يكون رؤسائهم من القبيلة نفسها فيعين الباشا الشخص الذي يختارونه. كنت قد دوت أسماء القبائل العربية الأساسية في هذا الحكم في هذا الكتاب وفي كتاب اوصف الجزيرة العربية هناك قبائل تسمى قرى كثيرة لقاء مبلغ سنوي تدفعه للباشا.

ومع أنني لم أكن في كردستان إلا أنني سأقول المعلومات التي تنفيها في إطار الحكم في بغداد لأن جزءاً كبيراً من كردستان يخضع لباشا بغداد.

إن كردستان بلد جبلي خصيب يشتهر بالعفص الذي تصدر منه كل سنة كميات هائلة إلى حلب ومنها إلى أوروبا واليمن الذي يستعمل بدلاً من السكر في هذه الأنحاء وبالعفص والأرز والنبغ والعنب والتين. كما وتشتهر هنا زراعة الكراب (أو القوة) والعفص وهي أنواع من التحرير الذي يظهر على الشجر والعلك بكمه كبير جداً كما عدت جزيرة شيوخ لأن سكان هذه الأنحاء الجبلية قد حفظوا دائماً على حاكم منهم فقد استطاعوا بالتالي الحفاظ على لغتهم التي يرغم أن بها ثلاث لهجات. إن لهجة إقليم قلعة جولان قريبة جداً من اللغة الفارسية ولغة إقليم كوى منجاق قريبة من العربية ومن اللغة الكلدانية أما الجزء الشمالي من كردستان فله لغة قريبة من التركية.

تشكل قلعة جولان أو قرية جولان الولاية الكبرى في بلاد كردستان وهي تابعة للسلطان. تحكم الولاية عائلة صوران المنحدرة من قبيلة بوب (Bobbe) ويدعى رئيسها باشا. إن هذا الباشا والباشاوات الأكراد على حد سواء لهم طوق واحد يتفقونه من باشا بغداد فهم بالتالي لا يتساوون مع البكوات الأتراك الذين يلقون طوقهم مباشرة من السلطان. يكثر عدد أبناء العائلة الحاكمة وكلهم يودون الاستئثار بالحكم والتحول إلى رتبة باشا لذا يحملون على بعضهم إلا أن باشا بغداد يمين باشا على قلعة جولان الشخص الذي يدفع أكثر ولا شك أن شعب هذه الأمة يعاني بالاضافة إلى ظلم الأتراك من طموح العائلة المالكة لذا لا نجد مدناً في هذا البلد حتى قلعة جولان مكان إقامة الباشا ليست الا قرية متواضعة جداً.

لو أردنا بكلمة واحدة أن نحدد طبيعة الأكراد لقنا إنهم ذوو طابع انتقامي فقبل وصولي إلى

الموصل بعثرة وجيرة قتل الملا باشا قنعة جولان وهو في سريره أثناء الليل لأنه كان قد قتل أخاه. في الجزء الجنوبي من كردستان وعلى أراضي باشا قنعة جولان هناك إقليم شهري رور وهو اسم كان يتحده أحد الباشاليك القديمة. أعتقد أن قرية عالمبور الواقعة بين سنجاق وكركوك كانت في السابق مكان إقامة الباشاوات. ولم أسمع عن سردار وديسان ومرجي وسعانا وأعجلر إلا أنها قرى من كردستان.

يقال إن لمرديست قلعة صغيرة.

الباشا الكردي الثاني الخاضع لباشا بغداد والذي يدفع له صريفة أو قل جريفة يسكن في كوي سنجاق وهو مكان معروف يبعد عن أربيل مسافة ثلاثة أيام وعن التون كوبري مسافة يومين. إن القرى الوحيدة التي سمعت بها في أراضيها هي روش وموران، ودوين وحرير، تبعد القرية الأخيرة مسافة ستة فراسخ عن أربيل أما دوين فهي مسقط رأس أيوب والد صلاح الدين.

تقع بلباس على جبل عالٍ وتبعد مسر أربعة إلى خمسة أميال عن الموصل. يعلق اسم بلباس أيضاً على قبيلة متجولة. إن عند هذه القبائل البدوية الكردية كبير في بلادها وهي لم تكن بذلك بل انتشرت أيضاً في سوريا وبلاد فارس.

وفقاً للموصف الذي وصلني، تقع لوندوس في وادي صغير على جبل عالٍ ومتعرج لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال طريق واحد ضيقة كثيراً. يقال إن سكان هذا الإقليم يدفعون أحياناً لباشا كوي سنجاق مبلغاً رهيداً بكر الحكيم هنا لا يبقى في العائنه نفسها كما والسكان لا يسمحون لأي حار مجاور أقوى منهم أن يرسله لهم رئيساً من قبله. لكن يقال به عند موت الرئيس تجري مهازرة (أو ربما حرب داخلية هي أكثر شيوعاً عند المسلمين من المبارزة) ويقرر من جزائها من هو الحاكم الجديد.

إن الباشا الكردي الثالث الخاضع لباشا بغداد يدعى (وفقاً لاسم العائلة) باشا درة وهو يحكم في شاور، إنهم يقع عند الحدود الفرنسية.

إن المقاطعات الصغيرة في كردستان التالية اسمائها لا تخضع لباشا بغداد وتكون إما مستقلة أو تدفع جزية لباشاوات المنتصين على المناطق المجاورة.

عميدية هي قلعة صغيرة واقعة على جبل مسعر يصعب اليل منها في هذا الإقليم تبعد عن الموصل مسافة ١٨ فرسخاً أو ١٣ أو ١٤ ميلاً المائياً، يدعى حاكمها الحالي بهرام وهو يتحضر من عائلة البلنديوس (Baldinous) التي حكمت هنا في أيام الحنفاء العباسيين. يدقّب باليك

وبالباشا ويريد أن يستقل كياً لكن عندما تصل جيوش الباشوات المجاورين إلى هذا الاقليم عليه أن يعشق عليهم الهدايا وإلا يهدمون قراه الواقعة في السهل. نكثر اعاكته في أراضيها بالأصاغة إلى ما جرم الرصاص التي تدر فيه أربحاً طائلة. يملك باشا عميدية مدينة عكر الصغيرة التي تبعد سبعة أو ثمانية أميال عن الموصل. كانت هذه المدينة شهيرة منذ أيام الحلفاء ولا تزال حتى اليوم دائرة الصيت لأنها تزود المدن المجاورة بالأرز.

راحو هي مدينة صغيرة في هذا الاقليم. أما الاسماء التالية فهي لقرى جزيرة، عكر، شاه، شان، صحوك، ربار، واسماعيل. القرية الأخيرة مع عند نهر دجلة وعلى الطريق التي يسلكها اليزيديون من جبل سنجار إلى قبر شيخهم الكبير عدي

جكارية في إقليم في كردستان يقع شرقي مقاطعة عميدية وبالقرب من وان، إن هذا الاقليم جيني ويمسكه السطوريون ولديهم بطوك حاص يدعى شمعون إن هذا الاقليم مستقل تماماً عن الكوش. يقال إن باشا وان يرسل أحد البكارات يعطر في قرية قريه إلا أن السكان لا يكثر ثول به وهم يتحبون أي اتصال بالمسلمين خوفاً من الحصوص ليرهم. ولا يسمح الناطر في صفاري لتجار المسلمين بالعدوم اليهم كما ولا يسمحون لأي مسلم بالسكن عندهم.

يقال إنه في ييلزید وهو إقليم آخر قريب من وان، هناك باشا كردي بالوراثة حكمت عائلته الاقليم لسنوات عديدة بالإضافة إلى إقليمين آخرين هما جولمرك وبديس في هذا الاقليم الأخير تشكل منطقة موش المكان الرئيسي أما راروب وهي قرية صغيرة^(١)

عندما كنت أستعلم في الموصل عن عملات قديمة رومانية ويونانية وفارسية، أكد لي الناس أنني يمكن أن أجد مثلها في كردستان إذ يتعامل بها الشعب لأن العملة تنقص فيه. وقد وجدوا في البلد نفسه كميات من هذه الاموال كانت مدفونة تحت الأرض إلا أن الجزء الأكبر منها قد أرسله تجار الموصل ونصيبين وماردين وديار بكر إلى مدن أخرى مقابل المفص إذ عندما يكتشف باشا أو قاضي تركي أن أحدهم يريد عملات قديمة يرجه في السجن وتسحب منه كل ممتلكاته أو يهرج ضرباً لجعله بعيد الكنوز التي لم يجدوها بعد. إن العملات والقطع النقدية القديمة العربية ليست مائدة في الشرق لأن العادة تجري على أن توضع سلاسل من حول رؤوس الاولاد وأعناقهم وهم يعضلون القديم منها لأنها مقرونة بآيات قرآنية ليست موجودة على الجديدة إذ استبدلت عليها الآيات بأسماء الحكام ومناصبهم لا يزال سكان هذه المناطق الكثيرة الاضطراب

(١) قبل زازون في (وان) التي وردت في الترجمة الألمانية سيمر Semler عن التاريخ العالمي للأمة الحديثة، الجزء الثالث. وجاء في الترجمة أن زازون كان فيها مرج

إلى اليوم يدفعون أشياءهم الثمينة حصصاً عليها لأنه يصعب عليهم تشغيلها بأمان كما في أوروبا كما يصعب عليهم حفظها لأن خزاناتهم وبيوتهم سيئة الصنع والبهاء وغالباً ما يرفض حتى المريض أن يروح لأهله بالمكان الذي دس فيه أشياءه الثمينة كي لا يشعلوه قبل الأوان ويحكى منذ سنوات قليلة أن كردياً من قبيلة كيكي وقع عن حصانه ورفض إخبار أبيه بالمكان الذي دس فيه ماله، وعندما تأكد من أن أمه في الحياة صئبلُ جداً كان قد بقد الفترة على السلق ولم يستطع أن يقول إلا وعلى تلهه مقام الابن بالبحث على عدة نلال لكنه لم يجد شيئاً.

سمر رحلتي عن بغداد إلى الموصل

خلال اقامتي في بغداد، سم نمر بعثات كبيرة، لأرافقها إلى حلب عن طريق الصحراء، كما وان السمر وحيداً محفوف بالمخاطر. في هذه الاثناء، كانت إحدى القوافل نستعد للذهاب إلى دمشق، فاستعمل معظم التجار، الذين يهجون السمر إلى حلب، هذه الفرصة، وارتأيت ان احوو حدودهم.

وقبل انطلاق القافلة، عشت ان القبيلة العربية في سوريا، قد تحاصمت مع باشا الانراك، وان احد اعيان المنطقة يدل رأيه، وعدل عن مرافقة القافلة المذكورة فأحسننت فملاً بالبقاء برفقته في بغداد، اذ تعرضت القافلة لنهب عنى مقربة من دمشق، وسرقت الخزانة التي ارسلتها إلى حلب.

ان الطريق المؤدية إلى الموصل، عبر كركوك وأربيل، حالية من المخاطر، ويمكن سلوكها دون انتظار مرور القوافل الكبيرة؛ اختيار احد المسافرين سلوك هذه الطريق، خاصة ودا تصادف عيها مدناً كثيرة، خلافاً للطريق المؤدية من بغداد إلى حلب، حيث لا تقع الا عنى قرينين أو ثلاث. ولما استعلمت عن القوافل الصغيرة المتجهة إلى الموصل، علمت ان بعثة مؤلفة من ٢٥ أو ٣٠ يهودياً تستعد للانطلاق، كان هؤلاء الآخرون ينتطون الحمير، ويستعمونها لنقل بضائعهم؛ وهم يمسرون ملابس رثة، ولا يحملون لاسلحة. والتجدير ذكره ان سكان هم الشرق يحتفرون اليهود شأنهم شأن الاوروبيين، فخذت بالتالي اسوأ صحة للسمر برفقتها. ولكن قائد القافلة كان تاجراً عجوراً من الموصل، قام برحلات كثيرة في هذه الاقاليم، وخاصة في كردستان، ويسكنه ان يرودسي بمعلومات وافية عنها. وقد أكد لي ان الطريق امة جداً. ولا داعي للحواف ابداً، ولما أدركت انه يجلس في انتظار وقت طويل حتى تمر بعثة اخرى، قررت متابعة رحلتي برفقته كسب احمل معي فرمان السلطان، الذي حصلنا عليه عند انطلاقنا من القسطنطينية، فضلاً عن جواز سفر من باشا بغداد رغم ان القصة ورجال الحكومة لا يسألون المسافرين عن جوازات السفر هذه، الا اسي فصلت ان احمله معي، لأن عامة الشعب يحترمون حامله فاستأجرت حصاناً بي وبعلين لحاذي وامعني وغادرت بغداد في ٣ آذار/مارس.

اتجهت مباشرة من بغداد إلى هانكشا (النوحتان XLI و XLV)، ووصلنا إليها مساء السابع من آذار/مارس. في الطريق، لم ألحظ شيئاً مثيراً، خلال الايام لحصنه الاولى ولا حتى خلال الايام

الثلاثة الأخيرة. غير انما شاهدنا في هذه الصحراء، هضاباً من التراب والصلصال على ارتفاع ٥٣٣^{٥٧} من القطب، في بقعة كانت تقع فيها قديماً مدينة قرقه، التي بن يثيق منها الا اسوار مريح عالي بناء خليعة، اتحدت مع سماره مفرأ له؛ ومما لا شك فيه ان طريق قرية دريلا، تصمم انقاضاً مثيرة للاهتمام، فمسوات حلت عشر في حان مصبح، على قبة كبيرة، وأصرحة حجرية، تعود إلى زمن الاشوريين أو الفرس القدامى.

عند اليوم الاول، لاحظت حين مصابي؛ فقد تعارك عدد من البغالين المسلمين، وأثاروا ضجة كبيرة، فاضطرب اليهود من جراء ذلك، رغم ان عددهم يبلغ أربعة أضعاف عدد المسلمين، وحشوا ان يصب هؤلاء الآخرون جام غضبهم عليهم ويسلبوهم مالهم. فوسل الي احدهم ان اعيره مسدسي، وسأله ان كان يتجرأ على اطلاق النار فأجابني انه يريد رضعه على خصره، دون تلقيه، كي يخيف من يحاول سبه فأخرجت مسدساتي لأرغها من الرصاص، ونجس حولي اليهود، متوسلين الي ان لا أثير سخط البغالين، وان لا اطلق النار وألفت انتباه النصوص الينا. وتدل هذه القصة على مدى خوف اليهود من المسلمين، مما يعني انهم لن يحاولوا قط حمل السلاح وعلان الحرب على الأتراك وغزو أرض المهاد، مهما ازداد عدد رجالهم. فقد حسبوا في تلك الساعة، ان الخطر يحدق بهم رغم ان الوضع لا يدعو للخوف. وبعد ان تعارك البغالون، عادوا وتصالحو، وتابعنا رحلتنا بسلام.

تقع قرية بانكشا على ارتفاع ٥٣٤^{٥٢} من القطب وكانت في هذا الفصل شبه خالية من السكان، لأن معظمهم انتقل إلى الخيم ليرعوا ماشيتهم وخاصة النعاج.

قرب دوس حارموت، على مقربة من بانكشار، مناجم ملح ورمث معدني ونقط.

تكثرت مناجم الزفت المعدني في هذه المنطقة، وهو يستعمل في (هيت) لطلي السمن من الخارج. أما النفط فهو يادر الوجود؛ ويستبدله السكان بالزبل وريت الحيتان لإشعال تناديلهم. غير انه نفوح من هذه التربة الصمغية، خاصة في الفصل الحار، رائحة كريهة تمتع الفلاحين من استعمالها في منازلهم. أما المشاعل التي نجدها في منازل باشاوات بغداد وبعياها، فهي عذرة عن حرق صغيرة تبلل بالنقط وتجفف لاحقاً. والجدير ذكره ان الجبال تفرك بهذا النفط، في فصل الربيع، عندما يسمو وبرها الحديد. ويقال ان هذه المنطقة غنية بالنقط الأبيض الذي يستعمل كدواء للإنسان. فقد أكدوا لي، ان هذا النفط يتغلغل إلى الجسم، ان سكب على رأس الإنسان، ويخرج بعدها من الأصابع والأرجل.

في ٩ آذار/مارس، وبعد ان احتفل اليهود بالنسبت قطعنا أربعة أميال ونصب من بانكشا لنصل

إلى قرية طروق، التي غالباً ما تظهرها مياه النهر شاطئ الطريق، مروجاً وحقولاً في غاية الجمال، ويقال إن سوق كانت تعرف قديماً بـ"داكوك"^(٥)، وقد بقي منها اليوم نواة كبيرة، وجامع رحب، مبني من الآجر المشوي. كما إن معظم المنازل مبنية من الطين والصلصال. شاطئ على مقربة من القرية، ضريح وني مسم، يدعى ربي العائدين، يقال إنه بعيد كل سنة، إلى أحد العميد بصره فلا تحب أن يزور ضريحه الملايين من المسلمين، وعلمت أن أبيه، إسماعيل محمد، دفن أيضاً في هذه المنطقة، وإن تربة ضريحه، ستعمل لنشاء من كافة أنواع الأمراض.

في ١٠ آذار/مارس، سرنا خمسة أميال لصل إلى كركوك، وفي الطريق شاهدنا سلسلة جبال منخفضة تحمل اسم رجل يدعى الإسكندر، مدفون فيها، ولا أحال بدأ به الإسكندر الكبير (دو القرنين)، كما أخبرني رفاقي في الرحلة. سمعنا في طروق روايات عديدة حول اللصوص الذين يزعجون الخوف في نفوس اليهود بغية الحصول على حزية منهم. سألت أحد الذين قصت القيل في منزله، عن بدقيته وسيفه، فأجابني أن رحالة لا يحسنون استعمالها، قد قدموها هدية له، يوم كان يحمل جندياً ورافق القوافل.

تقع كركوك في وادٍ جميل وغصب، على ارتفاع ٥٣٥، ٢٩ من القطب. غير أنه لم يتبق إلا بعض الآثار من المدينة نفسها، الواقعة على سطح هضبة متدرجة، بقيت عندها حامية لأنكشاريين، وحصن معين، شديد القدرة. وشاهد في هذه البقعة ثلاثة جوامع تعلوها أبراج شاهقة، ويضم أحدها أضرحة الأنبياء، دانيال، وميخائيل، وحشيا، والمعرور والجدير ذكره أن اليهود لا يشكون بدأ أن هؤلاء الأنبياء قد دفنوا فعلاً في هذا المكان. غير أن المسلمين لا يسمحون بهم بالدخول إلى الجوامع ومنازلهم الدينية.

في كركوك انضم، حوالي ٤٠ كلدانياً أرمنياً إلى كنيسة الرومانية، وعندما علموا أن أوروبا وصلت إلى البلدة، جؤوا لزيارتي، معربين عن فرحهم بمقابلة رجل من أرض القديس بطرس، وطلبوا مني بإلحاح أن أضعي معهم بضعة أيام وكم تدمروا من تضرع رأي مسيحيي الشرق، ورفضهم تصحيح أخطائهم السابقة والاعتراف بالذنب كحير أعظم فصحت هؤلاء الناس الطيبين بالتخلي بالصبر، دون أن ألفت انتباههم إلا أنني لا أشاركهم الرأي. بصورة عامة، لاحظت أن مسيحيي الشرق، يبادلون الاحترام، ولا يطبقون الكاثوليكية، رومان أما المسيحيون الذين ارتدوا إلى الذين على يد الكهنة الأوروبيين فهم أعداء المسيحيين المحافظين اللدودين.

(٥) ظهر أنها كانت تحمل اسم داكوك، استأذناً لترجمة الألمانية لتاريخ العالم المعاصر، لستمر، الجزء الثاني من ٢٨. ولأحفظ أن الأسماء التي بقرأها على خارطة بيان الرحلة، في النحتين XL و XLV. وسها أبو الفرائض، الوهاب، عديدي. هي أسماء القبائل العربية والكردية التي تجوب هذه المناطق.

تعد كركوك مقر إقامة الباشا، وهو يفصل الإقامة على الضفة الأخرى، قبالة المدينة، ويحضر أقدم شهر الصول الممتد من طوف إلى أربيل، لحكومة بغداد، كما أشرت أعلاه، إذ استطاع باد شاه بسهولة قافلة الاستيلاء على المدينة وعلى الحصن المجاور لها. ولكنه لم يستمتع بإقامته في الموصل، وفصل الانسحاب منها على الفور وحساره كل شيء. وشاهدت على الصريق عدداً هائلاً من القبائل التي تركها الفرس خلفهم منذ ٢٠ سنة تقريباً.

تكثر في هذه المنطقة الطواحين التي تعمل على المياه، لهذا السبب تنقل كميات وافية من الطحين إلى بغداد، التي تعتمد في المعامل التمر وغيره من البضائع. ويرغم أن المناطق المحيطة بكركوك غنية بمناجم النفط والزيت المعدني. تشير منطقة بابا شرغر بترتها الساخنة، التي يمكن استعمالها لصهي الطعام. وأكد لي بعض الأشخاص الذين زاروا هذه المنطقة، أن الذهب يتصاعد منها ليلاً، عطر لي، أنه قد يحسن لي الوقت لزيارة هذه المنطقة لأن مسلمي القافلة، كانوا يتنرون قصاء يومين في كركوك للاحتفال بالبيرم. ولكن صباح ١١ آذار/مارس وصلت قافلة أخرى متجهة إلى أربيل، فقرروا السفر يرفقتها. لم يصادف في طريق أي قرية أو مدينة، حتى بلغت الطون كوبري مساء ١٢ آذار/مارس؛ غير أننا التقينا بعائلات كردية زعي ماشيتها في تلك الحقول الخصبة.

تتألف مدينة الطون كوبري (أو جسر الذهب) من ٤٠٠ أو ٥٠٠ منزل، وهي تقع في جورة، شاسعة تستمد اسمها من جسر عظيم مبني على ساعد اسهر. ولأحظت أن الجسر القديم، الذي تداعى منذ عدة سنوات، كان كثير الارتفاع، لأن المهندس المعماري لم يحسن تشييده على علو منخفض. في ذلك المساء هطلت الأمطار بعزلة، حتى بلغتنا وانتهكت قوتنا. غير أن القافلة اجتازت المدينة، وحطت رحالها على الجهة الأخرى من النهر، في وسط الريف. ونصحني الجميع بالبقاء بالقافلة، لأن منسوب مياه النهر كان مرتفعاً، والعبور بقرية مخوف بالمخاطر.

لم يخالف نصيحة سكان البلاد حتى تلك الساعة، ولكني كنت أبحث عن منزل دائم أجدف فيه ملابس وأحد قسماً من الراحة. فطلبت من البعل أن يأخذ الحقائق ويسقي، بينما بقيت في الحدف برفقة عادمي. كان سكان العيون كوبري يحتفلون بعيد البيرم، ويتباهون بوسائل التسلية نفسها التي شامتتها في القاهرة، ومنها الأراجيح التي يركب عليها الصغار والكبار على حد سواء، وحليات المصارعة التي يتبارز فيها المتصارعون بالعصي^(٥).

تقع قرية كرى سجاج، مقر الباشا الكردي علي بعد ١٢ فرسخاً شمالي شرقي هذه المنطقة وكانت لأربيل والطون كوبري تابعتين لنعوذ الباشا المذكور.

(٥) الجزء الأول، الفقرة ٢٠٧، المصوب، ج، د، الصفحة ١٣٦. يلجأ المصريون القديم إلى هذا النوع من وسائل الترفيه في الأعياد. أبحاث طسمة حول المصريين والصينيين، الجزء الثاني، ص ١٥٧.

أما اليوم، فيرسل باشا بغداد حاكماً إلى بغداد، ويعين هذا الأخير آغا على الطول كوبري صباح ١٣ آذار/مارس، كان مسوب مياه النهر مرتفعاً للغاية، وخشيت أن أعبره وأحارف بحياتي ولكسي اضطرت للحاق بالمافلة لأسى ارسيت امتعتي وساعتي الشمسية مع أنقال وسما كان رفاقي في السفر قد سيقوني بحوالي ساعة، عبرت النهر برقعة خادمي، الذي كان شديد الخوف، ولحققت بالمافلة في قوس تاب في الطريق، أقبل شيخان نحوي، وفي يدهما بهي، وسما أدركا أنني أحمل أسلحة نارية، وأجيب بحساسة على استنهم حول رحلتي، دون أن تظهر على وجهي بؤادر الخوف، لم يتجرأ على توقعي. شاهدت عربي يضرب جمل كار جوف الشاهق الذي تكثر فيه بقايا مدن وقرى قديمة، عبر أن طريقه محفوف بالمحاضر، لأن سكان هذه الجبال لا يكرثون للحكومة التركية.

أخذت قرية قوس تاب اسمها عن هضبة صغيرة، ولأول مرة في رحلتي، شاهدت على رأس الهضبة المذكورة مسجداً يتلو صلاته. كان العلماء الأوروبيون، يتساءلون أن كانت النساء المسلمات، مرغبات على الصلاة، وأن كن يأمعن بدخول الجنة. فأكد لي الشيوخ المسمون، الذين لاحظوا اهتمامي في هذه المسألة، أن النساء يصين خمس مرات في اليوم، ولا يتراصن بدأ عن تأدية هذا الفرض.

تعرف قرية قوس تاب، بحان عدل فقد تحولت هذه المنطقة الخصبة، إلى صحراء قاحلة، يفضها الأكراد الرحل

ولكن أحمد باشا، حمر بئر، في هذا المكان وبني قرية مراً محصناً براحة سعة البريد. ولكن ابنته عادة خاتون شجيت خاناً للمسافرين، ووعدت العلاحين بمنحهم امتيازات كثيرة أن أقامو بي جواره، في ظهور قرية كبيرة خلال وقت قصير. وهذا يعني أنه من السهل جداً على باشاوات الأتراك أن يهملوا مناطقهم الخصبة، ولكنهم لا يقيمون في المناطق إلا لفترة قصيرة ويحاولون إنشاءها استغلالها قدر المستطاع، فيعصرون صرائب عالية، دون أن يحاولوا حماية العلاحين الفقراء من العرب والأكراد الرحل. فلا عجب إذن أن تحول أقاليم الامبراطورية التركية إلى مناطق قاحلة ومهجورة

في ١٤ آذار/مارس قطعنا ثلاثة أميال ونصف لنصل إلى مدينة أربيل، التي دأع صيتها بعد معركة الاسكندر وداربوس. حكم الأمراء المسمون الورثة هذه المدينة سنوات طويلة، وامتدت منطقة موذهم إلى طوروس في بلاد فارس. ولكن المدينة كانت شاسعة للغاية، وتضم قصراً مباً على هضبة مرتفعة. أما اليوم فلم يتبق منها سوى ذلك الحصن المسور، ومنازل مبنية من الصلصال^(٥) من جهة

(٥) يعتبر محمد مهدي خان أربيل حصناً مبنياً تاريخ نادر شاه (الطبعة الألمانية) ص ٣٦٤

أخرى لا تشاهد في هذه المنطقة بقايا جديدة بالاهتمام باستثناء انماض جامع كبير، بناء السطبان «مسافره». أما المنارة التي شيدت إلى جباية، فهي مصنوعة من الصخر والطير، ويمكن الوصول إليها عبر باين وسلمين متقابلين.

تقع مدينة أربيل على ارتفاع ٣٦° و ١١° من القطب. وهي تخضع اليوم لحكومة بغداد، وتضم حامية من انكشاري القسطنطينية. تقع مدينة قرميا الفارسية على بعد خمسة أيام منها. أخبرني اشخاص عدة ان جبل بستان، الواقع بين قرمشان و همدان (يدعي يهودي من الموصل انه يقع بين حلوان، و همدان) يضم رسومات ونقوش مختلفة، غير ان هذا المكان بعيد جداً عن طريقي. لكن ان قصد احد الأوروبيين اصفهان، يمكنه ان يسلك هذه الطريق لتقل نقوش جبل بستان، ويبدو لي انها كتبت بالانجليزية نفسها التي استعملت في نقش رسم والتي نقلتها في اللوحة XXXIV^(٥)

لا تفدي مياه الانهر بلاد مقاطعة أربيل، كما في بغداد والبصرة، غير ان القمح الذي ترويه مياه الامطار فحسب، يعطي طحياً افضل ومغذي أكثر. ولجدير ذكره ان القمح يحصل هنا ١٥ مرة مقابل ٢٠ مرة في بغداد، لأن المناطق التي ترويه مياه الامطار تزرع فيها البذور بكمية أكبر، ويحرص بعضها للحفاف أو تأكلها المصافير.

كانت القاعة التي انضمما إليها في كركوك تتجه إلى أربيل، وعلمنا حينها ان قاعة اخرى ستعادر المنطقة في ١٦ آذار/مارس، فانطلقنا برفقتها عند طلوع النهار، وسرنا نسع ساعات أو خمسة أميال وصعد لتصل إلى زعب (أو زوب باللغة التركية) التي تصب فيها مياه اقليم حاكري في كردستان. بقا ان منسوب مياه هذا النهر ينخفض جداً في العصور الحارة. لكن عند مرورنا بقرية، كان منسوب المياه مرتفعاً ومجرى النهر قريباً.

ملاحظات حول اليزيديين

لم نلق في طريقنا من أربيل إلى زعب إلا على قرية واحدة. أما على الضفة الأخرى للنهر، فتقع قرية عبد الحفيظ، التي ينتمي فيها اليزيديون. ولما كان الاتراك يحظرون ممارسة الشعائر الدينية، على الشعوب التي لا تملك كتاباً مقدساً، مثل المسلمين والمسيحيين واليهود، اضطرو اليزيديون لحفاظ على سرية مبادئهم الدينية. فهم يحترمون القرآن والانجيل، والحرامير، وكتب موسى الخمسة؛ وان اتهمهم احدهم بالانتماء لمذهب اليزيديين، رعمو انهم من اهل السنة. ويدعي البعض انهم من عبدة الشيطان، الذي يسمونه شلي أو السيد. ويرغم البعض الآخر انهم يبدلون الشمس والدار، وانهم من

(٥) يقول دودور في كتابه الثاني ان سيرايس حفر في هذه المنطقة رسومات ونقوش مختلفة ويبدو ان لوثر قد شاهدها كلها ولم ينقل منها شيئاً. رحلة في تركيا وبلاد فارس الجزء الاول، ص ١٨٢ - ١٨٨.

الوثنيين القُطَينَ وأتباعهم يقيمون شعوساً مريمة. ولعلمهم ينتمون إلى مذهب البعريين في عماد. ولما كان عدد البعريين مرتفعاً في رعب وسوريا وأرمينيا ومعظم سكان المدن المجاورة بهموتهم جيداً، سأعرض عليكم في ما يلي رأي السنة ومسيحيي الشرق في أعمالهم وخطباتهم. فهم يرفعون من المدعو شاه عدي أسس ديانهم وأتباعهم ذرية العرب الذين قتلوا، بناء على أوامر الشمر، الحسين، حفيد محمد، واضطهدوا عائلة علي، في ظل حكم الحليفة يزيد. بهذا السب يقول أن البعريين يعتبرون شمر هذا ولياً عظيماً، ولما كان الحسين شهيد أهل الشيعة الأكبر، يقتل هؤلاء الآخرون أشد العجز يقتل أحد أتباع هذا المذهب. وهم يحتفظون بصور الأفعى، والدعز وغيرها من الحيوانات، فلا تسمى تذكرهم بوقوع حواء ضحية الأعداء، والماعز بطاعة إبراهيم العمياء، حين كان مستعداً لتضحية بابنه في سبيل الله. وقد أكدوا لي أن البعريين، لا ينتهون أبداً إلى الشيطان، ويعبدون الله وحده، لأنه خالق البشر وولي نعمتهم، وهم يرفضون الكلام عن الشيطان أو حتى سماع اسمه كما أنهم يفصلون أن يقف البشر على الحياد أن وقع خلاف بين الله، وملاك من العالم السفلي وأن لا يحتقر القلاحون ضابطاً غضب عليه الباشا وهم يؤمنون أن الله لا يحتاج إلى مساعدتنا لمعاقبة الشيطان على عصيانه، لأن علي عنه يوماً ما، قد نشعر بالحنين في محكمة الله، أن كنا قد أسأنا إلى أحد ملائكته دون أن نستحيث بها أحد. فلا داعي إذن لأن يولي الشيطان اهتماماً، بل يجدر بها أن تبذل قصارى جهدها حتى لا تثير غضب الله علينا. عند وصول البعريين إلى الموصل، لا تصدر الحكومة أمراً بإلغاء القبض عليهم رغم أنه من السهل التعرف عليهم. ولكن الشعب يحاول بحياً خداعهم، فحين يعرضون البيض والزبد للبيع، يبدأ السكان بتوجيه الشتائم للشيطان، بحجة أن الأسعار مرتفعة أو أن البضائع باسدة فبعض حينها البعري أن يعيد البضائع إلى مكانها بدلاً من أن يسمع هذه الشتائم السريمة. والجدير ذكره أن لا أحد يتجرأ على إطلاق شتائم صائفة، في مناطق نفوذ البعريين، إلا إذا كان مستعداً للمجازفة بحياته.

يخشى البعريون على غرار المسلمين، ويحتسبون الحمر وغيره من الكحول، ولكنهم يمسكون الكأس بيديهم الأثنتين محافظة أن يقع الخمر أرضاً وتطأه الأرجل. هو أوحى محمد لاتباعه باحترام الخمر إلى هذا الحد لما حظر عليهم احتساءها، إذ أن البعري لا يشعل أبداً، علماً أن السي كان يسمى لتفادي ذلك. يرتدي رجال الدين البعريين الثوباً سوداء مختمة كذاً عن تلك التي يرتديها المسلمون. ويقال أنهم يصومون ثلاثة أيام في السنة، ويحجون إلى ضريح شاه عدي الذي دفن بين عكر والموصل، والجدير ذكره أننا شاهدنا قرب هذا الضريح خزان مياه يرمي فيه البعريون المال والذهب أكراماً لوليهم. حاول أحد السطوريين، المقيم في الجوار، الدخول ليلاً إلى المستنقع لجمع هذه الثروات، وفي تلك الليلة، كانت ابنة المحتش تملأ جرتها ماء من الخزان المذكور فشاهدت السطوري في قسب الخزان، فخطر لها أنه شاه عدي، خاصة وأنها لم تتوقع

رؤية من في هذا المكان المقدس، وأسرعت إلى والدها تخبره أن وليهم ظهر في الحراك فانتشر الخبر بين اليزيديين الذين شعروا بهرح عظيم، بينما احسن المسطوري استعمال الكنوز التي عثر عليها

يظن المسلمون ان سكان جبل سنجار، الذين يتبعون المذهب اليزيدي، يحتفظون بكثرة ثمين في بئر أو مستقع اكراماً للشاه عدي. وبعد تعرض بعض المسافرين من بغداد للمهيب والسرقة، اضطهد سليمان باشا قبائل اليزيديين، واحتاج جبل سنجار، ونكل بالبعض، وقتل البعض الآخر دون ان يقبل احدهم الكشف عن مكان الكنز.

اشهر اليزيديون بأعمالهم المريعة بين اهل السنة حتى ان العلامة الشافعي كان يحتقن الاعدل لكل مسلم يقتل احد اتباع ذلك المذهب. وما لا شك فيه ان كل عثماني، كريم النسب، يسافر في قلاتنا، يسم امره لهؤلاء الاشخاص، خلال مروره في رعب، منسوب مياه النهر كان مرعباً للغاية، ومن الصعب اجتيازه على ظهر الحصان، ورحلها روارق اليزيديين، الراسية قرب قرية عبيد الحفيظ تستطيع نقلهم إلى الضفة الاخرى.

لم اشاهد في حياتي روارق اسوأ من روارق اليزيديين، فهي مصنوعة من جلود الحمار (٤) بالطول (٨ بالعرض) المعلقة بسياج شائك^(٥) في الطريق طلب منا الامتناع عن اطلاق الشتائم أو ذكر اسم الشيطان، في حضور اليزيديين، حتى لا يقلبوا الرورق معرضين حياة المسافرين للخطر. ورغم اضطراب مياه النهر، وادعاء اليزيديين القوة، خاصة وانهم يثيرون قلق رفاقي في السفر، لم تظهر عني بوادر انخوف مطلقاً كان عدد الزوارق صليلاً جداً ولا يكفي لنقل ركاب القافلة كنهم دفعة واحدة، فسارع الجميع لتصعد اولاً، رغم انهم رفضوا ان يدفعوا المال لليزيديين، فأدى ذلك إلى نشوب خلافات قوية بينهم، وإلى اطلاق الشتائم ضد اليزيديين، مع العلم انهم اسياذ هذه المنطقة، في هذه الاثناء فصلت الوقوف عني الحياء، وتجنب المراكب مع هؤلاء الاشخاص، فدمعت لأحد البحارة اجره وطلبت منه ان ينقلني زورقه إلى الضفة الاخرى. فأمر بالتالي رجائه بنقل امتعتي إلى الزورق.

ولما لاحظ احد اعيان الانراك ان اليزيدي فضلني عليه، وجه لنا افطع الشتائم. في هذه الاثناء كانت امتعتي كلها قد نقلت إلى الزورق، عندما ان سحري المياه كان قوياً للغاية، ويهدد بأن يصر الزورق في جوفه، ولكن بعد عناء شديد، بلغنا الضفة الاخرى بسلام.

(٥) في كتاب الرحلات لادوارد ابيد، الجزء الاول من ١٦٨، يعطينا المؤلف فكرة خاطئة عن روارق اليزيديين فهو يقول انها تعمل بواسطة عجلتين.

كانت الدواب تقطع النهر سباحة، فوضع أحد اليزيديين جند ماعز مشفوخ، على صدره، وقاد ثلاثة أو أربعة أحصنة وبعث إلى الضفة الأخرى، أما الحمير فعلقته جلود الماعز على ظهرها، وعاونها بعض الرجال على العبور إلى الماعد الآخر. وبعد أن غرق حمار أحد المسلمين، راح يهلق الشتائم عشوائياً، دون أن يراعي خاطر أحد. عبر أن اليزيديين سرقوا حماره، الآخرين في البيلة الثانية، وتركوه يندب ويكي قلدراً ما يشاء.

رحلتي من بغداد إلى الموصل

في ١٧ آذار/مارس قطعنا أربعة فراسخ نصل إلى كرمليس، مروراً بنهر شافر، الذي ارتفع منسوب المياه فيه بفعل هطول الأمطار الغزيرة^(٥)؛

تكثر على الطريق المؤدية من شافر إلى الموصل حقول القمح والقرى الصغيرة. وعلاوة على ذلك التي اشترت اليها في اللوحة XLV، نجد أيضاً قرى شاه امير، امسيدان، بار خرنان، وهار شهرة؛ تقع هاتان القرى في الاخرى على جبل عين صفر، الذي أخذ اسمه^(٦) من ينبوع مياه، لونها اصفر، وتستعمل في الشفاء من عدة امراض.

تضم مدينة كرمليس ٦٠ أو ٧٠ منزلاً، مبنية من الطين والحجارة، والجدير ذكره ان سكان كرمليس كانوا قديماً من النسطوريين.

عند وصولي إلى المدينة، استقبني اكثر سكانها ثراء، ودعاني للاقامة عنده فوجدت في منزله ١٢ أو ١٣ شخصاً. يرتدون ثياباً انيقة. وبعد ان استمعوا عن حالي وعن رحلتي من بغداد، سألتني احدثهم ان كان البابا رئيس الكنيسة المسيحية ام لا؟ ولما كنت اجهل ان كان الرجل المذكور كلدانياً أو نسطورياً، أو خلاصه، أجبت أنه رئيس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بحسب، علماً ان الارمن واليونان والاقباط، يتتبعون بطريركاً لهم، شأنهم شأن النسطوريين، يعترف بالبابا كرئيس له. ولكن اكد لي خصمي ان البابا ليس ورث القديس بطرس رغم ان المسيح قال له انت الصخرة وعلى هذه الصخرة سأبني كنيتي، فأثبت لي هذا الكلام انه كلداني وليس نسطورياً فأجبت قائلاً ان القديس بطرس بشر بالانجيل في روما، حيث كل بابا رعيهم روحي، وغير انه بشر بتعاليم المسيح في مدن اخرى، والانجيل لم يذكر ابداً ان رئيس الكنيسة في روما، هو رئيس المسيحيين اجمعين، ولما بهمني ان يعترف الناس بالبابا رئيساً روحياً لهم على الأرض، فالمسيحيون يؤمنون

(٥) مما لا شك فيه ان الإسكندر الكبير تغلب على داربوس في هذه المنطقة، فقد قطع الاسكندر أربعة ايام ليصل من أرييل إلى معنوس، حيث تكثر مناجم الزفت المعدنية. تقع كركوك عن بعد ٢٠ فرسخاً من أرييل، ودور خاموث على بعد ٣٥ فرسخاً منها، مما يعني ان أرييل هي معنوس القديمة؛ لأننا حيث تبعد كثيراً عن أرييل ولا يستطيع الاسكندر الوصول اليها في ظرف أربعة ايام، علماً انه كان يترأس جيشاً كبيراً واغلب ان اثتر حطوا رحالهم على ضفة نهر شافر، في السنة ٦٣٣ هجرية.

(٦) في المؤلفات الاخرى، يعرف هذا المكان باسم جور قوس؛ اذ لا يقيم فيه الا المسيحيين.

بالانجيل، وبتهاليم يسوع المسيح التي بشر بها القديس بطرس، وإن بدلتنا جهداً بسيطاً لاتباع هذه التعاليم لن نغرق الله ابداً بين انسطوري والكلداني وغيرهم من المسيحيين فعلى حينئذ حسبنا يونانياً فأكدت له أنني أوروبي، وأسمى للمجموعة المسيحية التي لم تعرف بسيادة البابا إلا منذ ٢٠٠ سنة. ورغم أن باقي أعضاء البعثة اكتفوا حتى الآن بالاستماع. بدأ بعض الانسطوريين بالمشاركة في الحديث. فقال أحدهم كان من الأمثل لك أن تحافظ على ديانة أسلافك ولا تحرص صداقاتك وأهلنا على أن يحدو حدودك، صاريس بعرض الحائط ببطاركتنا، ومفضلين عندهم رعباً روحياً أوروبياً. وكم أسأت لأمسكار العريفيين هذا الحديث، فأكدت لهم أن نصف الدول الأوروبية تخضع للكنيسة الكاثوليكية الرومانية بينما نصفها الآخر يرفض الاعتراف بالبابا، مع الاحتفاظ بدينه المسيحي شأنه شأن مسيحيي الشرق، في لامبراطورية التركية الواسعة النطاق. وطلبت منهم أن يدعوا لكل فرد منهم حرية اختيار دينه دون أن تمس صداقتهم بالسوء. ثم يرق هذا الحديث لنفس، وأكد أن المبشرين الأوروبيين في الموصل، أحيوه أن الدول الأوروبية كافة اعترفت بسيادة البابا وأخرج من صدره كتاباً لاتينياً، ترجم إلى العربية والسريانية، يذكرني بعول المسيح أنت الصحرة وعلى هذه الصحرة اسمي كنيسة، فقلت له أنا قد تحدثنا عن حد المقطع الورد في كتب الديانة المسيحية كافة، وأنه جرى نقاش حاد بين رجال الدين حول هذا الموضوع، دون التوصل إلى نتيجة حاسمة به.

حازلت بعدها أن أغير محرى الحديث، وأتناول موضوع حصونة الحفول، التي تفوق محاصيلها محاصيل مصر وغيرها من المقاطعات الشريفة. بعد ١٥ مرة شجر رجل الدين بحية الأمن، خاصة وأنه وجه الدعوة لبعثة على أمل أن يوافقه الأوروبي الرأي عبر آسي وحدثت صداقتي بأفراد البعثة كلهم، ولما حاد موعد صلاة المساء توجهنا جميعاً إلى المسجد، حيث اعتاد مسيحيو الشرق أن يؤدوا شعائرتهم الدينية. تحمل هذه الكنيسة اسم القديسة بربارة، حيث دفنت تلك الشهيدة المرمومة وعدمها، رغم أن المسيحيين لا يفقدوا قبر هذه الأخيرة ليطهروا إليها.

تعد القرية هضبة مرتفعة، يرغم أنها كانت تصمم قصر والد القديسة بربارة، وهي تطل على منظر جميل للوادي المجاور وعلى بعد ثلاثة فرسخ شمالي شرقي كرماليس، يقع جبل القديس متى، وقرية مسورة يقيم فيها المسيحيون البقويون، ويرغم أنا نجد في هذه البقعة آثاراً قديمة عبر جديرة بالاهتمام وعلى بعد فرسخ ونصف شمالي شرقي كرماليس، تقع قرية باشاشا، حيث دمر القديس دانيال، وتقع قرية باشاشا على بعد ثلاثة فرسخ شمالاً، وقرية باراتول، حيث يقيم البقويون، على بعد فرسخ شمالي - غربي كرماليس.

نجد غربي كرماليس، قرية شامسا طوبى المأهولة بالمسلمين أما قرية ميسار التي تبعد فرسحاً

ونصف عن كرمليس، فكانت قديماً مأهولة بالمسيحيين، ولكنها انضم اليوم عدداً من المسلمين، بينما لا نجد في قرية قراقوش، الواقعة على بعد ميل جنوبي غربي كرماليس، إلا اليعاقبيين.

يتكلم مسيحيو قرى هذا الاقليم السريانية، ولكن النصارى السريانية والكلدانية تحتلان كثيراً عن اللغات التي وضعت فيها الكتب المقدسة. ولما كان المسيحيون يحسبون الكردية والفركية والعربية، تسعمل كلمات كثيرة من هذه اللغات، في السريانية الحديثة.

واشير إلى أن بطريرك السطوريين، يقيم في قرية القوش، المجاورة للموصل، ويدعي أنه إلهيا ويؤمن أن مناطق تقوده تشمل ٣٠٠ قرية، بعضها مأهول بالمسيحيين، ذكرت سابقاً أن بطريرك حكاوي لا يحترم أبداً أوامره. يقيم بطريرك اليعاقبيين في ديار بكر، كما سأذكر لاحقاً. تتميز قرية القوش بقبر النبي ناحوم، الذي ولد ودُفن فيها كما وأن اليهود يحجون إلى ضريحه. ولعل القوش هي مدينة القواشي المذكورة في تاريخ العالم، والتي كانت تتميز بحصنها في القرن السابع من الهجرة.

في ١٨ آذار/مارس قطعت ثلاثة أميال من الحقوق المحروقة لأصل إلى الموصل، تقع شمالي الطريق قرى باشيا، ويسوا وخجيلي، وجوبه، فريت ملرة وكوجاف.

قبل بدوغا الموصل، مررنا في مدينة نينوى التي يدعي مسيحيو الموصل أنها تمتد من قرىتي قاصي كند وينجاء اللتان تبعدان عن بعضها البعض حوالي الميلى، وتقعان على ضفاف نهر دجلة. غير أن اليهود، يرعمون أن طولها يوازي مسيرة ثلاثة أيام. لم أدرك أنني بلغت منطقة شهيرة إلى هذا الحد إلا بعد اقترابنا من النهر المحاذي لحجيلي. مشاهدت على هضبة مرتفعة، قرية مية التي دفن داخل مسجدها النبي يونس غير أن اليهود يتهللون إليه من الخارج إذ لا يسمح لهم المسلمون بالدخول إليه. ولا أظن أن هذه الحجة مقنعة أبداً، لأنه يسمح لمسيحيي الموصل بزيارة صريح أحد القديسين المذنبون في كنيسة تحولت لاحقاً إلى جامع. ولعل اليهود يرفضون الدخول إلى معبد اتباع ديانة أخرى. نشاهد في هذه المنطقة هضبة أخرى تعرف بقده مية أو حصن بيسف، أرشدني سكان الموصل إلى أسوار نينوى التي حسبتها هي البداية سلسة هضاب، فرسمت لاحقاً سطرأ عاماً للمكان. ونقلته على لوحة XLVII. ١) الجامع حيث دفن النبي يونس (٢) قرية مية (٣) أسوار نينوى المزعومة (٤) جبل عين صفرا.

هي من نينوى إلى الموصل جسر شبيه بالجسر الذي يصل بغداد بالحلة. ولكن عرض النهر لا يتجاوز ٦٠ قدماً مزدوجة (حوالي ٣٠٠ قدماً) ولا يعوق عدد مراكبه العشرين. وبعد مطول الانظر الغزيرة، أو بعد ذوبان الثلج عن الجبال المجاورة، يرتفع منسوب المياه، ويعصل الجسر عن الضفة، حتى لا يجرفه التيار، فقد حصل ذلك في ٢٣ آذار/مارس، للمرة الثانية أو الثالثة هذه السنة ولكن

منسوب المياه لم يرتفع ارتفاعاً شديداً، واعيد الجسر إلى مكانه في الاول من نيسان/أبريل لسنوات خلت بنى الهاشمي سدّاً أو جسراً إلا ان قناطره كانت ضيقة ومنخفضة المني فحرفها التيار عند ارتفاع منسوب المياه؛ مما زاد الطريق المؤدي إلى الحسر وعورة.

لا يتذكر المسافر ابدأً من رسوم المرور المرومة في هذه المقاطعات. ففي بانكشا وكركوك وانطون كوبري واريل، ونهر زعبي، تفرض عليه ضريبة رمزية تعرف بالباج. في الموصل، بلغت امتعتي إلى الجمارك، ولم ادفع للموظفين الا بعض الحبوب حتى يشحنوها لي.

يدفع التجار على حمولة الجمال، من حرير أو قمشة فطية أو أقمشة ناعمة، عشرة قروش، وعلى حمولة القهوة، سبعة قروش ونصف، وعلى حمولة البهر وغيره من البضائع ستة قروش وربع. وإن كانت البضائع محملة على الحمير أو على البغال، تزداد ويدفع الباج نسبة للوزن.

للانتقال من الموصل إلى بغداد، يمكننا السفر عبر نهر دجلة غير اننا لا نجد لها الا مراكب الكيكت التي يستعملها التجار لتسيير بضائعهم. وإن شأؤنا السفر مع البضائع، هو عرفة صغيرة على متن المركب، لمحتسماً من الأمطار ومن حرارة الشمس. في فصل الربيع، وبعد ارتفاع سرعة مجرى النهر، يمكننا السفر في غضون ثلاثة أو أربعة أيام بينما في الفصول الأخرى، يتعصب السفر ١٥ يوماً. وإن سافرنا برّاً، يمكننا التوقف في مدينتي تكريت وسامراء، كانت تكريت قديماً مدينة شهيرة. ولم يتبق منها اليوم الا بعض الانقاض. أما سامراء، فكانت مقر عدة خلفاء وثلاثة أمم من الشيعة، يزور الفرس اليوم اضرحتهم. ويقال انها تضم برجاً عالياً، يمكننا الوصول اليه، عبر منحدر وعمر من جهة أخرى، تكثر في سامراء وعلى الضفة نهر دجلة، من هنا إلى بغداد، بقايا الاضرحة القديمة، غير انها لا تستحق عناء تفحصها حاصه وبها بنيت كلها في عهد المسلمين. نشاهد قرب حصن نسرود لمتداعي على بعد ثمانية فراسخ من الموصل مساً بري الأرباب المجاورة لا أخال ان هذا السد قد بني على يد المسلمين، لأنه صمد في وجه التيار أكثر من ألف سنة. ونجد قرب فتح، حيث يتابع دجلة مجراها عبر جبل حامير، شلالاً لمياه خطيراً لنعابة خاصة ان كان منسوب المياه منخفضاً ولكن ان كان البحار يحسن قيادة الكليك، لن يخشى شيئاً على الاطلاق. والجدير ذكره ان هذه الشلالات تكثر في نهر دجلة، بين ديار بكر والموصل، حيث تستعمل زوارق الكليك أيضاً.

ان الملاحة صعبة للغاية بين بغداد والموصل، ولكن البحار يتقل جدد الماعز إلى المناطق الأخرى على ظهر الحمير بينما يبيع ما تبقى منها، مع اسياح الخشبي الذي عثقت فيه. عالياً، تسلك القوافل المسافرة من بغداد إلى الموصل، طريق الصحراء، فهو اقصر من الطريق الذي يمر عبر كركوك واريل، ولكن الأوروبي لا يجد سلك هذه الطريق خاصة وأنه من يعادف فيها الا قرية تكريت.

لما كنت أحمل رسائل توصية إلى البعثات الربيعية في الموصل، توجهت فور وصولي إلى الموصل لمقابلتهم، آملاً أن يؤمروني مسراً في الحي المسيحي. كانت البعثة تضم راهبين دومينيكين، عير واحد منهما طبيباً للباشا، ولما علما أنني ديمقراطي وبروتستانتي، رفضوا مساعدتي، فاضطرت لاستئجار غرفة في خان أو مسكن عام من جهة أخرى، استطعت أن أوطد صداقتي مع الكهنة الأوروبيين كافة ورغم المحاولات التي بذلها أحدهم لتحويلني عن معتقداتي، بقيت علاقتنا متينة، علماً أن الجميع كان مسروراً بمعاينة رجل أوروبي عير أن وجودي في الموصل أثار سخط الرهبان الدومنيكيين. ففي زمن الصوم يمنع السطوريون واليهوديون عن تناول اللحم والحليب والبيض والزبد، فتضعف صحتهم ويصابون بالمرض. فهم يتمتعون عن لاكل ولشرب وتدخين السجائر من طلوع الشمس إلى الظهر والحدير ذكره أن الرهبان الدومنيكيين يبعون صيماً قاسياً، لأن مكان البلاد يعتبرون ذلك فرضاً أساسياً من فروص اديانة المسيحية ولو أخبرني هؤلاء الرهبان ذلك، عند البداية، بصحت معهم، ارضاء لهم فحسبت أن مسألة صيامي قلما تهمهم. ولكنهم ما لبثوا أن ادركوا أنني لا أصوم ابدأ فسأل بعض الكهنة السطوريين، الذين تحولوا عن دينهم على يد هؤلاء الدومنيكيين، ويحاولون أن الأوروبيين يتبعون جميعاً الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، أطيعهم عني، فوصفوا لهم البروتستانتي بطريقة مريحة للغاية، حتى أن جميع المسيحيين اعتبروني ملحداً، باستثناء بعض التجار الذين وطئوا علاقاتهم بالأمم في حلب حتى المسلمين بدأوا يظفرون الي بطريقة غريبة، منسائين عن سبب الخلاف بيني وبين المبشرين الأوروبيين؟ وفي سبيل تفادي احتقار الجميع لي، حاولت أن اكسب صداقة طبيب الباشا أو الحكيم بشي، لاشترت به عملات قديمة، دفعت ثمنها عالياً ولما قدمتني له، راح يتحدث عن مسيحيي الشرق بالسوء، كما كان يحدث عني من قبل؛ بشارة أخرى، تمكن هذا الرجل من تحويل عدد كبير من مسيحيي الشرق عن دينهم، مؤدياً بذلك خدمة عظيمة للكنيسة؛ ولكن رأيه، بالمسيحيين الآخرين، ليس مسيحياً ابداً.

وفي سبيل محو الفكرة التي زرعتها الرهبان في ذهن السكان، خاصة والتي وصلت إلى المدينة برفقة اليهود، حاولت أن اتهم العرض لأحسن صورتي أمام الباشا، رغم أنني كنت أتمادى ذلك في المدن الأخرى فساعدني صديق بي يدعى ايليا، في بلوغ غايتي، دون أن يأخذ مني قرشاً، فقال للكخب، أنني قادم من الهند، واسي ردت بلاد فارس وأحسن العربية، وحتى يعقل ذلك للباشا وقمت أيضاً بزيارة المعني، واستقبلت عدداً من المسيحيين، من سطوريين ويهوديين، بعبارة أخرى، كانت لقائتي في الموصل مرضية ومريحة.

ملاحظات دونتها في الموصل

تقع مدينة الموصل على الضفة الغربية نهر دجلة قبالة مدينة بئري القديمة، وعلى ارتفاع ٣٦ و ٢٠ من القطب. يدعي اليهود أنها كانت تدعى قديماً عطور، وأن النبيين عادي ويصح الجلعادي مدفونان فيها، ولكنني اظن انهما يخلعان عن السييس المذكورين في انكسب المقدس، لأن يحتاج الجلعادي مدفون في مدينة جلعاد (سفر القضاة الفصل ٢١، ٧) غير أنني لم استطلع جمع معلومات وافية عن تاريخ هذه المدينة، ولا عن تاريخ سمينها كاللاني. ولكن يقال بها دمرت ثلاث مرات. وأظن انها مدينة قديمة للغاية، لأن مفتي الموصل زعم ان المسلمين استولوا عليها منذ فترة صويبة

حكم الامراء المسلمون (الصحابة) مدينة الموصل، كما حكموا هذه المقاطعة كلها، حيث ازدهرت اشهد الاردهر.

نقلت على اللوحة XLVI موقع المدينة الحالي ومساحتها. يحد المدينة من الجهة الجنوبية الغربية سور وبرج حديدين، والجدير ذكره ان جزءاً كبيراً من المدينة حالي من السكان. يقال ان عدداً من المزارع يتراوح بين ٢٠ و ٢٤ ألف مزرعة، ولكنني اظن ان هذا العدد مبالغ فيه. أما شوارعها فمضيقة ومتعرجة، ولها سفدان، أما مزارعها فمضيقة من الطين والصلصال ولها عدة قبة. في فصل الشتاء تنخفض درجات الحرارة انخفاضاً شديداً، حتى ان نهر دجلة، عظمي ل عشر سنوات غلت بالجديد عدة ايام. يعيش سكان هذه المدينة طويلاً، نظراً لقاوة الهواء وبطاقة المياه. تكثر قرب نهر دجلة، يبيع المياه المعدنية، التي تضي على مياه النهر طعم الكبريت. غير ان هذا الطعم يحف تدريجياً تحت الجسر، في الجهة المقابلة للمدينة. على بعد أربعة فراسخ جنوبي المدينة، نجد نبع مياه ساخنة يعرف بمحمام عبي، يعطى عليه طعم الكبريت. ويقال ان هذا النبع يفد كمية كبيرة من الزيت المعدني.

اشرت إلى ابواب الموصل واصرحتها على خارطة هذه المدينة بالتسلسل العددي.

١ - باب الحاصي، سد هذا الباب يوم حاصر نادر شاه المدينة، ولم يفتح مثلك، والجدير ذكره ان هذا الباب مذكور في تاريخ العالم، رسم الحملات الصليبية، مما يعني ان موقع المدينة، لم يتغير من هذه الجهة.

٢ - باب سنجار

٣ - باب الياق

٤ - باب الحديد

٥ - باب الجيش

٦ - باب الطيب

٧ - باب الجسر

٨ - باب القلعة، أو الحصن الداخلي، يقع هذا الحصن على جزيرة صغيرة مستطيلة، في نهر دجلة، وهو يستعمل اليوم كمخزن للأسلحة. ولم أجد أحداً فيه سوى مفتش المخزن، الذي كان يدعى الغليون على باب المدخل ولم يحاول اعتراض طريقي، ودعاني للقيام بجولة في المكان غير أننا لا نجد في المخزن سوى بعض القذائل التي ندفنها بافر شاه على المدينة. خلال حصاره الأخير لها. أما المدافع فمعظمها مهترى، ومعطى بالصدا. أما الصروح فمعظمها متداعٍ وابوابها كلها مفتوحة، وهي تضم مخزناً للغيز يعود إلى ٢٠ سنة. في القسم ٩، شاهد المرابي أو قصر الباشا، الذي يتألف من عدة اجنحة. وفي القسم ١٠، شاهد الجامع الكبير الذي يباه نور الدين، وإلى دمشق^(٥) غير أنه لم يبق من الجامع سوى منارته وجزء من سور. والملفت للنظر، أن هذه المنارة، شاهقة للعبادة، مقارنة بمنارات الموصل اتسعت، غير أنه تكثر في المدن الإسلامية الأخرى المنارات الشاهقة، علماً أن الأوروبي لا يجد لها غير عادية. شاهد في وسط المكان القبلة، التي تذكر المسلمين بصراحة أن يستديروا صوب مكة^(٦)، لأداء صلاتهم، وهي مبنية من الرمرر ومعصاة بكافة أنواع الزينة. والجدير ذكره أن أعمدة هذا المسجد مبنية بشكل مستطيل، ومعصاة بالحجارة المسحوتة. يتميز جامع النبي جرجس بحران البهاء الذي يعلوه، والذي يرغم أنه يجذب حيوان السمسموغ، الذي يأكل الجراد^(٧) كان هذا الجامع قديماً كنيسة مسيحية، ويقال أن القديس جورج مدفون هنا، غير أننا نجد قبره في عصر الحقيقة، في منطقة راناء وفي الأراضي المقدسة وفي مقاطعة كسروان في جبل لبنان

خارج المدينة، نشاهد قرب الرقم ١١، جامعاً قديماً يعرف بجامع الأشعر، الذي بني عام ٥٧٦. ورغم أن اسم بانيه غير واضح، إلا أنه يقل أن مجاهد الدين قد شيده، ويبدو أنه مجاهد الدين كيمار نفسه المذكور في تاريخ العالم. مما يعني أن الجامع قد شيده بناء على طلب سيف الدين غازي بن محمود الذي قضى في تلك السنة. ونشاهد في هذه البقعة بقوفاً مختلفة، بعضها كومي، شبيهة بثلاث التي نشاهدتها في اللوحة XLIII قرب الصورة (E)، وبعضها عربي حديث،

(٥) Semiers, Uebertragung der allgemeinen welt-ehre des neuen Zeitalters الجزء الثالث، القسم الأول

(٦) حين نقل في هذه البلاد أمام القبلة تستدير غرباً، وفي بلاد اليبر شرقاً، وفي شبه الجزيرة العربية شمالاً، وفي سوريا جنوباً. غالباً ما يحطى العلماء الأوروبيون في هذا السموموغ، ودون أن يأخذوا بعين الاعتبار موقع السكان الجغرافي، يربطون عادة الأقاليم الجنوبية بمباراة قبلة.

(٧) انظر وصف شبه الجزيرة العربية

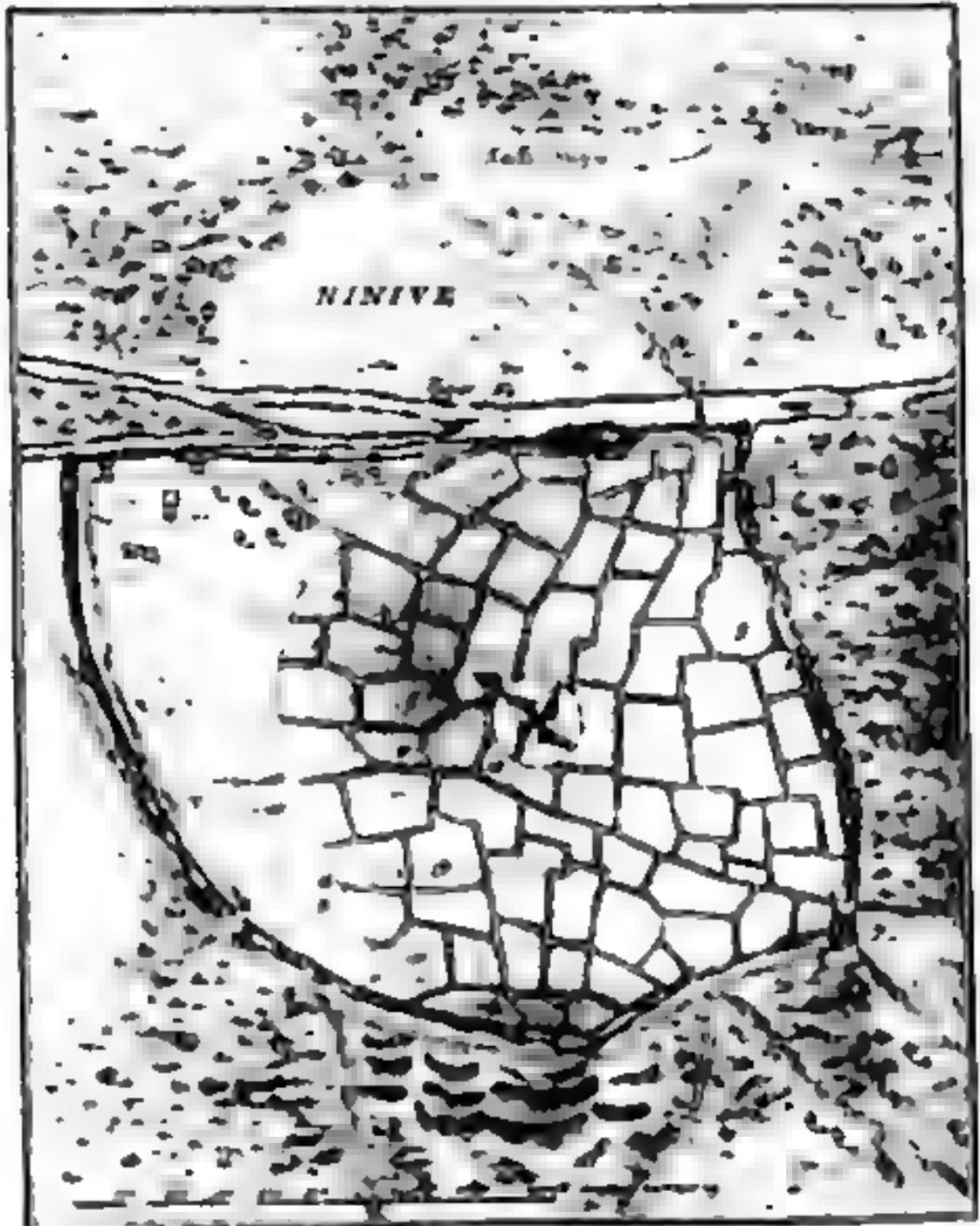
مأخوذ من القرآن. والمنصبت للنظر ان معظم النقوش والرخمرات قد حطرت على جذران الجامع بالكلس. ويقال انه في غابر الازمنة، شيدت كنيسة في وسط المدينة، وجسر للمراكب على نهر دجلة.

سم يدع صيت اي امير مسلم مثلما دأب صيت الامير لؤلؤ الذي حكم في المرون لمسيح الهجري، والذي بنى السراي الكبير، قرب الرقم ١٢. شهدت في هذا القصر الإسلامي ٨٠ أو ١٠٠ صورة بشرية، علماً ان رأس معظمهم مقطوع أو مثلع، وهم مكتفوا الابهدي، ومتشابهون إلى حد بعيد، وكأن النحات نقشها عمداً بشكل متشابه. ربي لؤلؤ ايضاً، المدرسة (١٢) علاوة عن صرح كبير على ضريح المدعو يحيى بن الحسين. أو كما يدعوه البعض ابو الحسين (١٤). يسمي المسيحيون يحيى، حنا العسكري، مار جرجس ويعتبرونه قدسياً عجائبياً، وقد سد قبره من الجهتين الجنوبي والغربية - والشمالية - الشرقية، ويرسم ان الامير لؤلؤ شيد سلسلة من الأصرحة، بدءاً من المدرسة ووصولاً إلى سور المدينة، مستولياً في طريقه، على ضريح هذا القديس المسيحي، دون ان يحظر على اتباعه زيارته، داخل المسجد شاهدت حول السور الداخلي صفاً من حجارة المرمر، تعلوها زخرفات محترقة بشكل جميل، فضلاً عن مجموعة من النقوش، حطرت حرقها بالطين، ولا عجب ان يستعمل الطين في بغداد وبابل، حيث المرمر وغيره من الحجارة، مادة الوجود، غير انني فوجئت برؤية هذا العدد انوار من المرمر دخل هذا الصرح وغيره من اصرحة الموصل القديمة.

يمالك مسيحيو الموصل حوالي عشر كنائس صغيرة وبعد ان شاركوا في الدفاع عن المدينة خلال حصار عام ١٧٤٣، سمح لهم الياسا بيتاء بعض الكنائس الجديدة، وترميم القديمة منها. عني النسطوريون عندئذ كنيسة جديدة، قرب الرقم ١٥، واليمثوريون، قرب الرقم ١٦، واطن انني لم اشاهد في بلاد الشرق كنائس تضاهيها جمالاً وبعد ان طلبت من احد المسيحيين ان يشرح لي النقوش المسحوتة على جدرانها، علمت انه العام ١٧٤٤ ميلادية، و٢٠٥٥ بعد وصول الاسكندر إلى الحكم، بنيت هاتان الكنستان، ولهذا السبب يستعين مسيحيو هذه المقاطعة بهذين التاريخين، في نقوشهم، وفي وثائقهم المهمة، علماً ان الفرق بينها يوازي ٣١١ سنة، فالترتيب الرسمي الاسكندراني، يتوافق مع ترتيب سطوس الزمني حيث يعتبر تشرين الأول/أكتوبر، أول شهر في السنة^(٥).

تصم مدينة الموصل ١٥ شاماً، يزل فيها الاجناب، خمسة منها صغيرة وقذرة، والعشرة الباقية

(٥) انظر وصف شبه الجزيرة لمرية.



شاسعة ونظيفة كما وانها تحوي ماء عامة، وحمامات، واسواناً شعبية يعود معظمها لعائلة عبد الجليل، اي اقارب امين باشا، حاكم المدينة الحالي، كان عبد الجليل سطورى الاصل وبعد ان تكاثرت درثه في الموصل، ازداد نفودها، واجبر السقوط على تعيين احد افراد عائلتها في منصب الباشا، خاصة بعد ان تسلم الحكم في السنوات الاخيرة حاكم اجسي من القسطنطينية. ففي اغلب الاحيان، كان سكان المدينة، والعرب واليريدون المقيمين في الارياف، يشربون من الباشا الذي كان مجبراً على حشد عدد وفير من الجند، غير ان هذا الامر كان يكلف اموالاً طائلة، ويحول دون جمع السلطان ايرادات هذا الاقليم، يدفع الباشا للتسليم عن منصبه، ولكن حين غيّر باشا من عائلة عبد الجليل، وقف الاعيان إلى جانبه، وايدى سكان المدينة اجمعين، وما احتاج بعدها لحشد الجند، وومر بالتالي المال لدفع الجرى. ولما كان سلطان القسطنطينية يصنع هذا البند في المقام الاول، استطاعت العائلة المذكورة من بلوغ غايتها دون ان تتكبد اي عاء يذكر، ووما لا شك فيه ان الرعايا هم المستفيدون، لأن الباشا يسعى لكسب حبيهم وثقتهم خاصة ان كان ينوي البقاء في منصبه طويلاً حياته. وكما الاجسي يسعى لجمع المال، لتقديم الهدايا لسلطان القسطنطينية، خاصة وانه لن ينسى طويلاً في هذا المنصب.

ينقسم سكان الموصل إلى ستة وحيين وشافيين، وعلى رأس كل منهم يعين معني بخصم لمعني القسطنطينية. ويبلغ عدد منازل المسيحيين ١٢٠٠ منزل، وهم ينقسمون إلى سطوريين وكلدانيين ويعقوبيين ومن بين المسيحيين السولودين في هذه المدينة، نادراً ما يصادف شخصاً يحسن اللغة السريانية المستعملة اليوم في القرى. تعد العربية اللغة الام في الموصل، سيما يكتب السحار والكهنة اللغة الكرشوية اي العربية بأحرف سريانية غير ان كتبهم الدينية، موضوعة باللغة العربية القديمة^(٥).

لا اظن ان المسيحيين يعيشون بوثاق مع المسلمين في اقاليم الامبراطورية التركية الاخرى، باستثناء الموصل، فهم يرتدون الارياء الإسلامية، ويعمل بعضهم في خدمة الباشا، حتى طباط روجة الباشا، كان مسيحياً، شغل والده المنصب نفسه، لدى والد الباشا منذ سنوات طويلة.

تجد في الموصل ايضاً حوالي ١٥٠ منزلاً يهودياً مما لا شك فيه ان هذا الشعب يتمتع في بلاد الاثراك بحرية العمل اكثر منه في اوربا حيث تصنوا جميعاً من مهتهم. غير انهم عرصة للاحتقار في بعض المدن اكثر منه في بلادنا.

(٥) لاحظت في ما بعد ان اغريق ماثولي يكتبون التركي بالاحرف الاعريقة، ويظنون عليها اسم اللغة الكرشوية ولكنني لست خري ان كانت تستعمل كلمات تركية او اقريقية اخرى للدلالة على هذه الطريقة في الكتابة، بهذه اللغة هو ذلك.

وحتى في مدن هذه المقاطعة، حيث بعض عدد هائل من المسيحيين، لا يحرّو اليهودي على الظهور في الشارع، حتى لا يسيء الصبية معاملته، في حصور الوالي المسمم سأتو عليكم في ما يلي حادثة وقعت في الموصل مع بعض اليهود ذات يوم، وفي ضريق عودتهم من الحج إلى قبر النبي نمرود القوش. صاع أحد الأطفال في القرى المسيحية، لمجازرة وبعد بحث طويل عثر عليه في بئر، وقد قطع لسانه، وتعرض لضرب مبرح، فاتهم اليهود بحطه وارعموا على دفع ألف درقيه للبشاش، لإنهاء القضية. ويدعي مسيحيو الشرق أن اليهود يحطفون أولادهم، وأنه ثم العثور في حبس، على طفل مسيحي مصاب بجروح طفيفة، ومزمي في كهف يهودي، فأرغم البشاش اليهود على دفع مبلغ كبير من المال، لحفظ القضية.

يبلغ طول مدينة الموصل جرباً تسعة فراسخ، وشمالاً ثمانية فرسخ، ويدفع عدد القرى التابعة لعمودها ٣٠٠ قرية. في الفصول المحطرة، بكثرة القمح، والعدس، والبقول، والسمسم، والفص، ولكن مد عدة سنوات، ساد الجفاف البلاد، فمرف السكان المجاعة، خاصة في ديار بكر، مما دفع المسيحيين ببيع أطفالهم للمسلمين^(٥)، في الواقع، أعاد البعض شراء أولادهم، بينما فصل بعضهم الآخر تركهم في منازل المسلمين أثرياء. عندما هزلاء الآخرين رفضوا إعادتهم بهم، فأدى ذلك إلى اصحاب المجموعات المسيحية تكثر في هذه المدينة، مصانع السيج، وانمصانع والمطابخ، التي تشكل من المسيحيين لاسيما. فضلاً عن التبادلات التجارية.

يملك باشا الموصل عادة ثلاثة أذئاب حيل أو أطواق، ولكن امين باش كان يملك طوفين فحسب ويأمل أن يصبح باش من الطراز الأول. فقبل لي أنه يدفع مئتي ٢٥ أو ٤٠ كيساً (صره نقدية) يحوي كل واحد منها ٥٠٠ قرش^(٦) أي ما يعادل الألفي قرش، أو ١٣ ألف ريال علاوة على ذلك، يقال أن السلطان يحيى من هذه المقاطعة حوالي ٢٠ كيساً من صربية (العناق، تعرف هذه الصربية بالخراج، وهي تعرض على اليهود والمسيحيين يدفع الثري أربعة أكياس، والمتوسط الحال كيسين، والفقير دوقية، ويأخذ كل واحد منهم، في المقابل، وصل أمانة، يحتفظ به حتى لا يضطر لدفع الصربية من جديد. لست أدري أن كان يعرض علي اليربنديين المقيمين في القرى. دفع الخراج، غير أنني أخال ذلك ممكناً، علماً أنهم كانوا في الأصل مسيحيين، ورتدوا عن دينهم. وحدهم المسلمون يعفون من هذه الصربية.

(٥) رار أيف هذه البلاد، بعد حصور هذه المجاعة ووصف وضع السكان المأسوف، وأخيره راهب كيوشي من ديار بكر أن شتاء ١٧٥٦، وجراد ١٧٥٧، سببا هذه الكارثة العريضة ولكن لو حاربت الحكومة بناء معارن للأعداء لما ولست هذه المصيبة في هذه البلاد.

(٦) توازي صرة النقود في المقاطعات التركية كلمة ٥٠٠ قرش، بينما توازي الصرة بمسها في بغداد ٢٥٠ قرشاً تركياً، يوازي الواحد منها ٣/٢ ريال.

يعمل في خدمة باشا الموصل حوالي ٢٠ مقاتلاً عربياً أو ضابطاً، يتولون مناصب مهمة ويقودون الجيش بالتعاون مع اليزيديين والعرب. يبلغ عدد الجنود المشاة حوالي المئة، والخيالة ١٢٠، والبحارة ١٢٠ موزعين على ثماني سفن حربية، والغرسان ١٢٠. يملك هؤلاء الآخرون أرضاً في إمبراطورية السلطان، وغالباً ما يخلع الفارس والده. والجدير ذكره أن هذه المدينة ليس لها حدود معينة، لذلك لا نجد فيها كشنة، أو مقراً عاماً لفريق من الإنكشاريين ورغم ذلك، يكثر في المدينة، الصباط الإنكشاريين، الذين يجندون كل مواضع يطلب الانخراط في صفوفهم، على أن يتمتع بكافة الامتيازات التي وعد السلطان الإنكشاريين بها. لا يحق للمسيحيين الانخراط في صفوف الإنكشاريين أو التمتع بامتيازاتهم، غير أنهم يدفعون مبلغاً رهيداً من المال، لينضموا إلى المقاتلين بصفة خدم فحسب، فلا يخشون حينئذ أن يتعرضوا لهيب أو العرب من الإنكشاريين، أن تدمورت الحالة الأمنية في المنطقة. وإن احتاج الباشا لعدد أكبر من الجنود، أنشأت في الموصل وبغداد والبصرة، فرقة من السردانفتي تضم عدداً كبيراً من المسيحيين.

العام ١١٥٦ هجرية (أي ١٧٤٣) قصف نادر شاه مدينة الموصل^(٥) بالمدايع لمدة ٤١ يوماً، وكاد أن يستولي عليها، حين اندلع ثور حديد في بلاد فارس، فاضطر حينها نادر شاه إلى العودة إلى دياره. من خلال الروايات الكثيرة التي سمعتها، أدركت أن هذا البطل الفارسي، الذي كان يحشاه أعداؤه في وسط الأرياف، لم يكن يحسن فعلاً محاصرة الحصون، مما يدل على جهل الفرس بسلاح المدفعية فقد شن هجوماً من الجهة الشمالية، الغربية للمدينة، في حي باب المعادي، حيث السور منيع للغاية، والمدينة شبه مهجورة من السكان. فأضرم النار بمخيم الباشا، خلف السور، وكان حسين باشا والد الباشا الحالي، ينتقل إلى الدخائر الحربية كافة، ولا يستطيع مقاومة المدافع التي تحيط بمدينة عماد سريعاً إلى قصره. تاركاً للعرب حرية قصف الخيم الفارغة، قدر ما يشاء.

يؤكد سكان الموصل أن نادر شاه ألقى حوالي ٤٠ ألف قنبلة على المدينة ولكنني أظن أن كلامهم هذا مبالغ فيه. ومما لا شك فيه أن القصف كان عيباً رغم أن المدينة لم تتضرر كثيراً، فمعظم المنازل مبنية ومبنية من الحجارة والطين. وغالباً ما كانت تنفجر القنابل في الهواء أو بين الخيم الفارغة. ولما كانت المدافع تحدث فجوة في الأسوار، كان السكان يسارعون إلى سدها، والجدير ذكره أن المسيحيين لعبوا دوراً فعالاً في هذا المجال، لم ينسحبوا أبداً المسلمون كما وأنهم اظهروا شجاعة بالغة، علماً أن عدداً منهم أقام ليلاً على سرقة مخيم الفرس.

اتجهت لي الفرصة في الموصل للحصول على أسماء القرى التابعة للباشا، وسأدرجها كلها في

(٥) قصة نادر شاه، لمحمد مهدي خان (في الأملية)، ص ٣٦٥، الجزء الثاني.

ما يلي. صحيح أن معظمها صغير جداً، ولكن العدماء قد يحدون بين هذه الاسماء، أسماء قديمة أتت على ذكرها المؤلفون، في منطقة نهري.

مجد شرقي النهر وجنوبي الموصل، قرية بوبيا أو بي، حيث دفن لبي يونس، يارمحا، شمس الدين، قوس صخرة، قره كوتلي مصعبا، كيريدني، سولامي. سرود، تحدثت سابقاً عن أسوار هذه المنطقة، على ضفاف نهر دجلة، ويقال أنه تكثر فيها أيضاً انقاص المنزل، التي قد تثير اهتمام المسافرين مثل خوسديس، باردني، خضر انيس، وهو دير لليعقوبيين، تل يعقوب، فاني حرامي، قرية يانا، عبد الحفيظ، جو دليدا، قرقانه، تل الدين، حام كرم محمد، دغر يارمحا، صحرة حاتون، بدنا، طرجلة، كرمليس، قراقش، بعداد، قراشور. نهريسي، قرابولي. قابر، شاه قوسي، قرايلي، دار مله، قبة، عيدور دورماس، بانكشا صغلا، آغا شير، برحنتي، السابا، قمشيش، باس بدماس، علي ريش، عمر خان، منارة، ثري، لعلك دراسي، جلوخان، ثور طوب، خمس طوب، برتوب، باش يتا، لعلك فشرا، قره شوبان، عشق، ساري يولاك، أو عين الصغرا، اسقف، شيخ امير، كاتون، قصر سويد، قبان، عجي سحقي، بير بوك، بير هلاز، باش حسن. بهشيك، طاب سوي، طاس شراب، قره طوب، قولان طوب، عرطه شراب، بيلار، وادي سمغ، عمر لبيجي، امم نصنه، عباسي، علامش، قبلي، هاشمي، عربي، بين طوب، بواسيه، حانوع، أو قبة بوبيا (اللوحة XLVI)

مجد شرقي نهر دجلة وشمال الموصل قرى ناهي كست، رشيدني، شيري خد قره خوان ايليا، شيخ محمد، جمالي، برناجيت، حيل، مله، عوبه، قعريق، مسركند، بوسا، بيسان، دوسا، جديق، عملها مشرف، دار يويوسف، ام توتا، يونا، جريسي، تعمت، تل ميان، ثور، باتد، باب بير، خراييك، كسريك مشريها، دار حال، تل قبست، سوط، مشاد، دار الجدي، اعاحا، قلعة، قره بوع، فاني شريم، قرى (بدعي شعب الموصل، ان يربان رمي على الشاطئ وقد هه الحوت من الخليج الفارسي إلى نهر دجيه) حانق، علق، رية، قيسي، سر، قره مشك، خد بركان بهاف (ويقطع فيها اليريدون والمسلمون)، عز، برشان، عيري (وعيا عدد من اليريديين) دار سون. بيبوس، قصر باهدا (وهو مكان قديم للغاية يصم عدداً من اليريدون، ويقع قرب القوش مقر البطريك ايليا) بدري، فرنجي، حنار (حيث يقيم اليريدون والمسلمون) قرى هاتورا، قريق، شراب واند، شراب كابر، زي محال، تل شاخ، كجش هرا، رايلك، بيير، مناره، تل عدس، خان نسرين، تل رين، مسك علاذ، فلما، قر اسحاق، قل اسقف (حيث يقيم السطوريون) باقعا، بعداد، شرش حان، شعتبان يقيم في القرى الاربع الاحيرة المسلمون واليريدون في ونام وسلام قرية نصري، حيث نجد مسلمين، ومسيحيين ويزيديين، قرية بطنه، التي تصم عدداً من المسيحيين الذين اعترفوا بالديار رعيماً روحياً لهم، ونجد قربها دير مار ورايا القديم التابع لسطوريين، قرية تل

كيف، التي يزعم أنها تضم ٤٠٠ منزل، وينبع نصف سكانها إليها، بينما ينبع النصف الآخر المذهب النسطوري بيت قره، حسان الجيلان، قره شراب، شيخ حي، شيخ علي، شراب بيت، قلنجا، حوش عمير، نجمة، بيبوش، لعبث قره، قيم، رساء سماقي، شو كالي، غريان، قلعتا، نصري، مسدناق، كتيك، كيس قلعة، عمو، دس، قلطان، عيس بكارة، عرموه، رقصة، حسين، برسوا، شرايوك، المان، شفشري، قر شال، قلطان، محمدان، (حيث نجد يريدين ومسلمين) قر مبارك، شعتة بعد، عيس السعة، بعدري، وشرفان، بسا، جرابي، قمويه، عيس رال، الواقعة غربي دجلة، سيد كند، التي تضم سلاله محمد، قر قرآن شنكشي، دارك.

نجد غربي دجلة، جندر، كواسير، شكارى، شطه، بدوش، اسماعيل، علي بعد ثلاثة فراسخ، من الموصل، على طريق حلب. دمرسي، هلاله، دار محابل، آغا كند، قنطرة، كاهور، قيس شولي، مهرجان، حجر صفين، شرار، مالك احمد، حمام عبي (معجم زفت معدني)، جهانه دعرمان الدسي، منبره، صيف السودة، صناديق، كمن كسكي، قره.

ونجد شرقي دجلة، قلعة قعشاش لهديمه، وقرية حمار، على نهر شافر، وحسن بركان، وعرداق، شرشي

الرحلة من الموصل إلى ماردين

يمكن أن نثبت من الموصل إلى ماردين طرقاً عدة وبغير الدرب الذي يمر عبر الجزيرة أطولها، فضلاً عن أنه جبلي وصعب، ويتطلب الوصول إلى نصيبين عبر هذا الطريق اثني عشر يوماً فقط، ولكنها منطقة آهلة بالسكان، كما يبدو على حارطة السير على اللوحة XLV واللوحة L. وهناك درب آخر يمر عبر الصحراء، وهو أقصر من غيره، أي إن المسافة التقسمة بين الموصل وماردين هي حوالي ٤٠ ميلاً يمكن قطعها بحوالي ٥٣ ساعة مع نافلة كبيرة. ويمر الدرب من الموصل إلى أورفة بحسب قرب ماردين، وتبعد الموصل عن ماردين عبر هذه الطريق حوالي ٨٦ فرسخاً أو ٦٤ ميلاً. وكنت قد قررت السفر عبر الجزيرة للقيام بدراسات جغرافية من تتاح لي الفرصة لقيام بها في الصحراء، لكن بما أن الدرب بين الجزيرة ونصيبين غير آمنة، وبما أنني وجدت قافله يستند للتوجه إلى حلب، قررت السفر معها عبر الصحراء. ولما نجد على هذه الطريق قرى آهلة، لكن لا ينبغي الاعتقاد أنها صحراء قاحلة لا يرى فيها سوى الرمال. فالأرض خصبة للغاية، تكثر بها المراعي الرائعة، وتطعمنا بقايا قرى ومدن تهدمت تحت حكم المسلمين، على يد البدو والأكراد والبربريين وعلى يد الحكام الأتراك الطغاة. ونقع هنا على العديد من الجداول، لكنها تجري اليوم عبر السهول الجميلة من دون أن يستفيد منها، وهي مياه عذبة في معظم الأماكن.

أثنى كنت كيرس (Quinte Curce) على ذك المراعى الجميلة التي يعادها في هذه المنطقة. ويقول في أول كتابه الحامس أن البلاد الواقعة بين دجلة والفرات خصبة للغاية، لذا لا ينبغي ترك المواشي لترعى طويلاً هناك وحلال رحلتنا، عادت بعض الجمال مرهبة من المراعى ثم عقت، لكن لا أخص أنها اكتثرت الأكل، كما أن الجمالين أعطوها عند الصباح بعض الصبح كي تأكل وتشرب أكثر. ويدعي البعض أن الأعشاب فوق عشاش الجراد سامة مما أن تأكلها الجمال والخيول والبغال حتى تموت. وقد رأيت في هذا الموسم قرب تل الهوى قطعة كبيرة من لأرض مغطاة بجراد صغير^(٥)، ولعل المواشي تموت حين تبتلع بعض الحشرات السامة.

وهذا يود البعض معرفة كيف يتحضر برحلة في هذه المناطق عبر الآهلة بالسكان، وماشيرها باحتصار إلى بعض الأمور التي يعتبرها الشرقيون ضرورية، والتي اتبعها ان نفسي. حصلت عدة

(٥) انظر وصف شبه الجزيرة العربية

الصبيخ كاملة في كيس واحد، وهي عبارة عن وعاءين بغطايتين، يوضع أحدهما في الآخر، فصيلاً عن طباخين وأبريق قهوة وكلها مصنوعة من النحاس المطبى بالقصدير، قد لا يعجب ذلك العديد من الأوروبيين الذين يرفضون استخدام النحاس في المطابخ، لكن أؤكد لكم أنه مقصود في البلاد الشرقية بشكل جيد كما في أوروبا، إذ إن الشرطة بتشدة حيان هذا المصنوع، ويقابله النحاس الذي يستخدم قصديراً سيقاً لعللي الأواني بصرامة ويتم طلي الأواني من الداخل والخارج، وبضمها الصباغون بشكل جيد، لذا لا يحس استعمال النحاس في البلاد الشرقية في حين إن الأوروبيين يشكون من استعماله، أما بالنسبة للملح والتوابل فوضعها في علبة خشبية، كل صنف منها على حدة، كما احتفظت بسكين وملعقتين وشوكتين، علماً أن الشرقيين لا يستخدمون هذه الأدوات لأن اللحمة تقصع إلى قطع صغيرة وتقدم مع طبق الأرز المغسل. ولا يصل الشرقيون أبداً الطاولة والكروسي، أما سباطي عبارة عن قطعة قماش مستديرة الشكل تنتهي بحلقات من الحديد يمرر فيها حبل يسمح بحلقها في سرج الجواد. وأحصل نصف دزينة من فجاجين القهوة مصنوعة في جراب من الخشب المطبى بالجند، لذا يمكننا أن نرميه في أي مكان من دون أن نحس تكسرها، كما وضعنا الشموع الصمراء في علبة مائلة نحفظ في كيس جدي، وفي غطاء هذه العلبة أنبوب تثبت فيه الشمعة فيستعمل كشمعدان. وبعد ما يكفي من المياه على هذه الطريق، لما لم أر ضرورة حمل جند الماعز لأصبح فيه مؤنثي من المياه، لكن بحمل كل مسافر جزء من الجلد السميك، يعنفها على سرجه كي يشرب عند الحاجة، كما يحتفظ كل منهم بكوب من النحاس المقصود، يستعمل ليشرب في الآبار والينابيع والأنهار التي يصادفونها. وبعد في المدن التي يعيش فيها المسيحيون ما يكفي من الكحول، فحملت معي مؤنة في جند ماعز مخصص لهذا الغرض، لأن المياه تتغير من منطقة إلى أخرى خلال الرحلات، يعتقد المسيحيون أنه من الأفضل أن يضاف إليها بعض الكحول، لكن هذا الشراب ليس بهدي، ويأكل المسمون الكثير من النوم، إذا ما حصلوا عليه، بسبب هذا الاختلاف في المياه. واقتصرت مؤنثي من الطعام على الأرز والزبدة التي تذوب وتحفظ في قرب جلدية، فضلاً عن البسكويت والمخبز لصناعة الحبر أثناء الرحلة، والفواكه المجففة، واللحمة المجففة والقهوة الخ... وقبل مغادرة أي مقبنة، نترود بالنس حيث يوضع في كيس ويخض، ومع خروج المياه منه يضاف الحليب حتى نحصل على كمية العجين اللازمة، وإذا ما اضيف إليه الماء لاحقاً، حصلنا على شراب معش للعطاش^(٥) والد. م. أكلناه

(٥) أشهرني رجل أرميني أنهم يطحنون الشمير المشوي ويختلطون هذا الطحين مع العسل ويصنعون منه نوعاً من الحوى. خلال الرحلات، يصنعون الحوى في المياه مما يشكل شراباً يدياً ومنعشاً يسمى ساميا (Samia). فضلاً عن ذلك، يمدد الشرقيون طباقاً خاصة للرحلات بحسب على الأوروبيين تفادياً، أنهم يسامون في بلادهم الخاصة، ويرددونهم لعلهم وسأؤمهم بالمؤن، في حين أن الأوروبي يصطبر إلى جعل مدامه يشتري المؤن من السوق حيث لا تجد سوى الأشياء الضرورية.

مع البسكويت اشبع هذا الطبق رجلاً جامعاً. بشكل عام، لا ينبغي أن يكون العرب حساساً إلا تعرض لمشاكل عدة كنت أحسن معي فرجيلة بارسية في كيس جلدي يتلوى من سرج جوادي، ولم تكن عيمني كبيرة كما لم استعملها كثيراً أثناء الرحلة كي لا يكثر روائي من العرب، ما سريري فرائش وغطاء رقيق ومخددة. وبما العرب بملايسهم، لكن الأوروبيين الذين يعبرون ملايسهم غالباً ليسوا أنظف، لأن العرب يقتسلون كثيراً وتعتبر انسجادة في رحلات كهذه أمراً ضرورياً لأنهم يمشونها ايضاً توفعوا، في منزل أو في الهواء الطلق. ووضبت كتيبي وثيابي في حقيتي، فيما وضعت آلاتي في الحلب الخاصة بها، ولم استأجر سري ثلاثة جيايد بها ولي وليخادسي.

وتعم قادتت التي داهه محملة، ١٣٠٠ منها تحمل العقص من الكردستان، ويحمل ١٢٠ جملاً أقشنة محتفة من الهند، وبلاد فارس، وبخداد، والموصل، فصلاً عن ٤٥ جملاً تحمل القهوة، فيما تنقل الجيايد والبغال والحمر خمسمائة أو مئتمائة حمل آخر. لكن هذه البضائع غير متوجهة إلى حلب فقط، فمما ما يرسل إلى ماردن واورفة ودير بكر وحتى إلى ارميسيد. وفي مدن أخرى، يكثف التجار عرب القبائل الكبيرة المجاورة نقل البضائع على جمالهم عبر الصحراء، لكن في رحلتي هذا، أكدوا لي أن أصحاب الدواب المحملة في قافلتنا يقيمون في الموصل والمدن المجاورة، لذا لا يستفيد العرب والاكرد من نقل هذه البضائع.

يبلغ عدد المسافرين، بما في ذلك حراس الجمال والجيايد حوالي ٤٠٠ رجل، اما عدد المرافقة نحوالي ١٥٠ جندياً، سجد معظمهم التجار بأنفسهم لذلك بهمهم الا يتعرض اصحاب عملهم للنهب والسلب، فكنا قادرين برأيي على الدفاع عن أنفسنا ضد أي عدو قد يهاجمنا خلال الرحلة وبما ان اليريديين من جبل سنجار ذهبوا منذ شهر فامه صغيرة قرب رمله (Ramala)، امر الباشا الجسد بمرافقة قافلتنا حتى كاسي كريري (Kassi Kupri)، وهناك انضم اليها ابن شيخ قبيلة صني العربية، ومعه حوالي ٢٠٠ حيال ومئة رجل من المشاة. وصادفنا، قرب رملة، اربعة ييراف (حوالي ١٠٠ رجل) من الخيالة عاصبة لحاكم ماردن، وبدأ العرب يرحلون قرب رجل العباس، لكن التقينا قرب تل الشير التمسكجي باشي من ماردن ومعه حوالي ١٥٠ رجلاً من المشاة ويكثف هؤلاء التجار الكثير من المال، فصلاً عن أن مرافقنا من العرب كانوا رفحين وشكلون عبداً عديداً بحر كمسافرين، لكن باشا الموصل وشيخ قبيلة طلي وحاكم ماردن يحاولون الاستفادة من القادة بحجة تعطية التجاره وحماية القاصه من النهب، فيجبرون التجار على القبول بمرافقتهم وعلى دفع مبالغ طائلة لهم. وتلقى شيخ قبيلة طلي لدى وصوله حمولة كاملة من البس والكثير من التبغ والارز والزبدة والمؤن الاخرى فصلاً عن ٥٠ عبدة وزرع قسماً منها على رجاله والقسم الاخر على شيوخ الاكراد الذين ترددوا علينا خلال رحلتنا.

كان قائد القافلة أحد أهم التجار بين المجموعة، فتولى مهمة دفع رسوم المرور وإعطاء الهدايا للأكراد وللمراققة، وقسمها على الحمولة كلها. وكان للجاليين والمكاريين مسؤولاً خاصاً عنهم، لكن ما من نظام خاص صيغ أثناء الرحلة، فما إن تشرق الشمس حتى يهضم كل شخص حمولته، ويسير في الصليحة من يتسكن من توضع أمراضه قبل غيره. وعندما نختيم، يصوب كل من المسافرين خيمته حيث يحلو له، من دون أن يهتم قائد القافلة أو غيره بذلك. وعند المساء، لا يقوم أحد بالحراسة، أما الموكلون بهذا الأمر فيسحبون عن الراحة قبل غيرهم باستثناء بعض الجود الذين يعملون بخدمة التجار ولا يهتمون إلا بأعراضهم، وأثناء الرحلة، يعرض علينا الأكراد نهراً شراء الماعز والحليب واللبن، ويعود هؤلاء لسرقنا وقد سلب بكل قرب خيمتي، فاستفاق صاحبه وأثار الجلبة، لكن الجود والعرب لم يتحركوا لمساعدته وأكملوا يومهم، ولاحق مع بعض أصحابه السارق، وبعد ربع ساعة، عاد بالداية^(٥). ما إن خيمنا قرب رجل العباس، حتى شعرنا بالحاجة لجودنا ولعرب وجند مارديش الذين التقيناهم، إذ رأينا في البعيد، وراء التلة، سحابة غبار كبيرة ترتفع، واعتقدنا أنهم أعداء يتحضرون لمهاجمتنا. ويسارع أصحاب الدواب إلى إعادة الجمال والجياد والعمال التي نرعى إلى المخيم، وبعد قليل، عاد البعض ليقول أنه رأى ألقي كردي فيما قال البعض الآخر أنه شاهد أربعة آلاف فارس وراء التلة. وتقدم الأتراك والعرب بغير انتظام نحو العدو المزعوم، لكن بعد نصف ساعة، عادوا ليعلمونا أن أربعة خيالة ومعهم زوج كلاب صادفوا قطعاً كبيراً من الأغنام آثار سحابة الغبار هذه وسببت هذا الهلع.

ويمكن الوصول بسنة أيام من الموصل إلى نصيبين عبر الطريق التي سلكتها لكن قافلنا سارت ببطء لأن أصحاب الدواب وجدوا الكثير من المراعي الخصبة على الطريق حيث نرعى مواشيهم من دون مقابل ولأن عرافتنا من عرب وأنراك يحبون العيش طويلاً على حساب التجار.

قطعا في ١١ نيسان/أبريل من الموصل نحو الشمال الغربي ووصلنا ديس (Dubs) بعد خمسة فراسخ ونصف أو أربعة أميال.

في ١٢ نيسان/أبريل من ديس نحو الشمال الغربي وصلنا كاسي مابري بعد أربعة فراسخ أو ثلاثة أميال.

(٥) روى تاجر أنه تخيم يوماً مع قافلة على تلة وعرة، فغصب مخيمته على طرفها قليلاً منه أنه آمن مكان، وراح يحرس أغراضه قبل منتصف الليل لينوب عنه بخادمه بعد ذلك، فنام هذا الأخير، ونראה المعجر، استفاق التاجر، فرأى لصاً يعلق جزمة من بضائمه ويقف نحو منح التلة، فوقف، وأخذ الكلاب الذي استخدمه النص وعلقه في ثياب بخادمه النائم. رشّد النص الحبل، فأخذ الخدم يصرخ دون جدوى، وصاحبه حتى أسفل التلة، فأسى منذ ذلك الوقت أكثر اعتياداً لأغراض سيده.

في ١٥ نيسان/أبريل من دهب نحو الشمال الغربي وصفا هوجن (Hojne) بعد ثلاثة فراسخ أو ميلين

في ١٦ نيسان/أبريل من دهب نحو الشمال الغربي وصلنا افتاد (Avnad) بعد أربعة فراسخ أو ميلين ونصف

في ١٧ نيسان/أبريل من دهب نحو الشمال الغربي وصلنا نل الفترة بعد خمسة فراسخ ونصف أو أربعة أميال

في ١٨ نيسان/أبريل من دهب نحو الشمال الغربي إلى دملة ستة فراسخ أو أربعة أميال ونصف.

في ١٩ نيسان/أبريل من دهب نحو الشمال الغربي إلى رجل العباس ستة فراسخ أو أربعة أميال ونصف.

في ٢٠ نيسان/أبريل من دهب نحو الشمال الغربي إلى قل الشير أربعة فراسخ ونصف أو ثلاثة أميال.

في ٢١ نيسان/أبريل من دهب نحو الغرب إلى مصيبيين أربعة فراسخ ونصف أو ثلاثة أميال.

في ٢٥ نيسان/أبريل من دهب نحو الشمال الغربي إلى ماردين عشرة فراسخ وربع أو سبعة أميال ونصف.

ولا نقع على طول الدرب بين الموصل وماردين على قرية واحدة، بل على بقايا متفرقة لمدن وقرى أشرت إلى موقعها على خارطة خط سوري بصلب صغير، ويبدو أن كاسي كوبري كانت مدينة كبيرة لكن لم يبق منها ما يستحق الاهتمام سوى جزء من جسر وعلى بعد فرسخ ونصف من هذا المكان، أي على مسافة تسعة فراسخ من الموصل، وحيث يصب نهر صغير في دجلة، نجد بقايا مدينة كبيرة تحمل اسم اسكي موصل (Eski)، وكلمة اسكي هي كلمة تركية تعني عجوز أو قديم وبالتالي يعني اسم المدينة الموصل القديمة. ويمتد بعض رفاقي أن مدينة الموصل التي نعرفها اليوم لم تكن إلا بعد تهديم المدينة القديمة بكنهم محطون في ذلك إذ أن الموصل كانت مدينة كبيرة حين استولى عليها المسمون للمرة الأولى، كما أقاموا في اسكي موصل هذه، وبالتالي فهذه المدينة كمدنية برأسوا في المسجر التي لا يعرفها الاثراك اليوم إلا باسم اسكي اسطبول أو اسطنبول القديمة. وبما أن العاقلة توقعت ليوم كامل في كاسي كوبري، فصدت اسكي الموصل علي اكتشف فيها آثاراً مهمة. لكنني وجدت الحشب العالي يغطي المكان، ولم أنا البحث تحت كومات الحجارة خوفاً من أن تقع على أعني إذ يقال أنها تكثر في هذا المكان.

وفي من المدينة جزء كبير من سورها، وبلاحظ على تلة مرتفعة تسمى الحصن، مسرحاً صغيراً مبنياً من حجارة بيضاء وبعض القباب التي بدت بي كسقوف منازل احتضت تدريجياً مع مرور الزمن، وتقع خارج المدينة، على بقايا صروح ظلتها قباباً أو قبور مسلمين، ولم أتوقع إيجاد أصرحه هنا، لأن هذه السائر مغطاة بالمبار وتعلو فوقها الاعتد، ولم أجد بالتالي أي كتابات باستثناء السطر ٥٥ على اللوحة XLIII. وذلك على حجر يبدو وكأنه وقع من بناء ما وهو بالتالي غير مسطح إنما عامودي، وهذه الحروف أقرب إلى الكوفية منها إلى السريقال (التي يستخدمها مسيحيو الموصل حتى اليوم)، وهي بالتالي إسلامية وليست كتابات من سكان البلاد القدامى. وأثار انتباهي هنا، سور بناء السكان القدامى في نهر دجلة لجمع المياه بلزرع^(٥)، ويبدو أن سكان شرق دجلة يستفيدون منه حالياً، في حين أن الصحراء تمتد غرب النهر.

ويبدو أيضاً أن هوجن كانت مدينة، ويجد هنا بمايا أنية على تلة قريبة علتها قلعة في ما مضى وتقع على بعد نصف فرسخ إلى الجنوب من هذه التلة، على مسرح نديم يقوم على تلة أيضاً ويحمل اسم قصر شرح (Kasr Scherridch)، لكن لا يبدو وكأنه قصر، كما يدل عليه اسمه. بل لعله كنيسة صغيرة ولا يتعدى طول الصرح ٣ خطوة مربعة، وعرضه تسع خطوات، وقد بني من الحجارة المصقولة الكبيرة، ولم أجد أي كتابات هنا باستثناء السطرين (ر G) على اللوحة XLIII وذلك على حجر انفصل عن الجدار ولم تمكن من التعرف على هذه الكتابة وتشبه إلى حد بعيد تلك التي نسطها أيف من تلة بين المرات وحلب.

تبدو الآثار الأخرى التي نجدها على الطريق بين الموصل وبصبيي مجرد قرى، وبسبب الأكراد ملة منذ سنوات لكن أمير الجزيرة هدمها كلها.

وتتألف مدينة بصبيي التي اشتهرت في الماضي من حوالي ١٥٠ منزلاً مبنية البياض، لكن نجد في القلعة (كما يسمونها) بعض المباني القديمة المشيدة بالحجارة المصقولة. وتقع المدينة غرب نهر صغير يرتفع مسبب المياه فيه أحياناً بشكل كبير فيصبح بالتالي عريضاً للغاية، تنصب فيه

(٥) أن سدود دجلة التي دمرها الإسكندر، بنيت على ما يبدو كهذه وكذلك الواقعة قرب نسرود من حملة الإسكندر الكبير لآريانس. بسبب الفرس هدم السد، ليس خوفاً من أي قوة بحرية خارجية وحسب إنما لرعي حقولهم كما يفعل عرب بني الحكم اليوم. واجمعوا ما أوردهه سابقاً

(٥٥) يقول الأب ريباد انيراء (Ribad Esicra) الذي كتب سيرة حياة القديس يعقوب، أن نهر دجلة يمر من بصبيي، وإن لم يستطع الوقوف بم يقله عن القديس وبوصفه لمدينة، لن تمكن من تصديق المعجرات التي وصفها والتي قام بها القديس يعقوب، يعرف أن الكتاب اللاتين واليونان يطلقوا على هذه المدينة اسم انطوشيا مقترن بها (Antiochia Magducae)، وقد شككت المدود بين الرومان والاسبارطيين والفرس.

انهار صغيرة أخرى أشرفت عليها على الحارطة، ثم تصب بدورها في الخابور (Khabur) الذي يعود ويصب في الفرات^(٥). وتتميز المنطقة المحيطة بنصيبين بكثرة المستنقعات، وتكثر فيها زراعة الارز. وأهم ما يلفت الانتظار هنا هو جسر على النهر الذي جثت على ذكره آنفاً، وقسم من كنيسة بنيت تكريماً للقديس يعقوب، مطران نصيبين، والمشهور هنا بتعبديه لعقيدة اريوس (Arius) في مجمع القسطنطينية. ويقوم الجسر على اثنتي عشرة قنطرة، ولا يزال في حالة جيدة، إنما لم يبق من البرج الواقع أمام المدينة من هذه الجهة والذي يستعمل لمراقبة الطريق إلا الحائط الرئيس. بنيت كنيسة القديس يعقوب من حجارة مصقولة، لكنها انهارت حالياً، ونجد قربها صرحاً صغيراً حاول أحد الحكام المسلمين استخدامه كمخزن لتقمح لكن القديس يعقوب ظهر له في الحلم وسأله لماذا يذنس بيته، مما دفع المسلمين (بحسب ما يروي المسيحيون) إلى إخلاء المبنى، وبناء مبر فيه. ويستخدم يعقوبيون حالياً هذه الكنيسة الكبيرة نوعاً ما، لكن الرعية صغيرة فلم يحس لها كاهن دائم إنما يستقدم واحد من ماردن عند وفاة أحد المسيحيين أو عند عمادة أحد الأطفال، ويقام الأرمين الذين يتبعون روما قداسهم في الكنيسة الكبيرة. ويري على مقربة من هذا المكان خمسة عواميد منتصبة، لكنها سيئة الصنع، أما بالنسبة للكتابات، فلم أر أي منها في نصيبين، لكن أكدرا بي أن هناك قبر يحمل كتابات اوروبية (لعلها لاتيبة)^(٦).

وقادني الرجل الذي رافقني إلى كنيسة القديس يعقوب إلى قبر هذا الأخير أولاً، فوجدت تابوتاً حجرياً يملؤه غطاء ثقيل، ورأيت في جانب القبر ثقباً كبيراً يمكن تحرير اليد منه. وحاولت معرفة ما إذا كان جسد القديس موجوداً، لكن مرافقي الذي بدا قلقاً من حشرتي أكد لي أنه دون تحب التابوت كي لا يسيء إليه المشركون. وعدمت لاحقاً أن الكهنة الروم أرسلوا منذ زمن جسد هذا القديس وغيره من القديسين الشرقيين إلى أوروبا، وقال لي مرافقي إن هذا الثقب في التابوت يسمح للمسيحيين المؤمنين بأخذ حفنة تراب منه، وإن هذه الحفنة إذا ما خلطت بالماء تشفي من الحمى.

ونصادف على ربع فرسخ من نصيبين بناءً مهتماً، يزوره اليهود باستمرار، ويؤكد سكان المنطقة أن قديساً اسمه أمثا (Amma) دفن فيه، لكن حداثاً من برج، كان في قائلته، أطلق عليه اسم يهوذا بن بناره (Juda Ben Patara) وقال أن التلمود أتى على ذكره، ويعتقد أن الحاخامات القدامى اعتادوا أن يستقروا نصيبين منزيفين (Menziven).

(٥) يقال إن هناك بين نصيبين ودارا، على بعد ثمانية فراسخ من ماردن، شاهدة قبر اوروبي، وأكد لي البعض أنها مجرد كتابات اوروبية أخرى في المنطقة الجبلية قرب ماردن. وقد حاولوا مرد مرافقني برؤية كتابات اوروبية، فوجدتها شرعية لدرجة. وإذا ما وجدنا هنا كتابات لا يمكن أن يقرأها المسلمون أو المسيحيون الشرقيون فهي تستحق أن ننسخ

أما حاكم نصيبين فيلك، يستسم مهامه من والي ماردين، عندما أن هذه المنطقة كانت تتبع في ما مضى باشا ديار بكر، ويدفع المسافرون حالياً رسم مرور لموظف خاضع لوالي ماردين ومكس لعدم الرسوم في ديار بكر ولا يوقف الأول المسافرين طويلاً لأنه لا يحسب المحملة التي يترك أمرها لرجال الجمارك. وأراد خادمي، وهو ماروسي من حلب، أن يتعاخر وأن ينال التقدير في القافلة، فأشاع أنني سيد ثري عائد من الهند، مما جعل رجال الجمارك يعتقدون أنني أحمل معي الكثير من اللؤلؤ، والاحجار الكريمة، فطلبوا مني فتح كافة الصناديق، في حين أن رجال الجمارك في المحطات الأخرى ما أن يروا كتبتي يعتبروني درويشاً لا يحمل بضائع. لكن خادمي هذا لا يعرفني حق المعرفة، بل أنه يجهل اسمي، فقد استخدمته في بغداد بدل أحد المسلمين الذين عاد إلى البصرة. وبما أن العرب ولا تترك يسألونني غالباً عن اسمي ويحددونه غريباً بمسونه على العود، وبما أنهم يطلبون مني شرح معنى «تيسوره» باللغة العربية، ويستفرون كيف لا نحمل أسماء كاسائهم الخ، الخ. اسميت نفسي عبدالله لأن هذا الاسم شائع بين المسيحيين الشرقيين وبين المسلمين فتخلصت بذلك من استئالة واجبة غير مجدية. وسعني خادمي الحالي أقول عبدالله أعاء، فأخذ يدعوني بهذا الاسم ولم يعرف اسمي الحقيقي إلا حين وصلنا إلى حلب.

وحاول خادمي هذا التعرف على كافة المسافرين في القافلة، وعاد قبيل وصولي إلى نصيبين يرافقه يهودي من براغ علم أنني أوروي، وهو حاخام، جاء لزيارة قبور يوسف وحزقيال وغيرهما من الأنبياء والشخصيات الواردة ذكرهم في التلمود، ولاحظت أنه باع كتباً عبرية في هذه البلاد لتغطية نفقة أسرته التي لا اظنها مرتفعة لأن اليهود الشرقيين في المدن مصيافون لأبناء دينهم كالأوروبيين. واشتكى هذا الحاخام من تاجر من أبناء دينه من الموصل، طلب منه تسليمه المال الذي يحمله حتى حسب، لكن الحاخام رفض ذلك. وأضاف أن هذا التاجر يسيء حالياً معاملته، وأن غيره من اليهود لا يحركون ساكناً حين يطالبه المكاري، وهو مسلم لا يمكنه التفاهم منه بفتته، بالمال لسبب أو لآخر وحتى حين ينهال عليه بالضرب أما السبب الحقيقي الذي دفع هؤلاء اليهود الشرقيين إلى ترك هذا اليهودي برأيي، فهو لأنه حاول التفاوض بعلمه ومقامه ولأنه بهيل لتفايه في حين أنه يحمل ما يكفي من المال. ورجاني أن أخبره من أبناء دينه الذين اظهروا تساوياً تجاهه، فأسدبت له هذه الخدمة، وأقننت له مكارياً مسيحياً قسّم أعراسه على بغاله كانه، ويكره المسيحيون عادة اليهود أكثر من المسلمين في هذه البلاد الشرقية، لكنهم لم يقدموا على اهانتته لأنه وضع نفسه في حمايتي، وقد شكرني على ذلك. وبما أن المسيحيين يعلمون أن اليهود لا يسافرون بهار السبت، ابطل المكاري على بعد رميح من ماردين، وبقي مع اليهودي وخادمه، وهو شاب من براغ، لكنها لم تكن سوى حجة بالحصول على المال، وعالجه بقرشين ليكمل السير في ذلك اليوم، واضطر اليهودي إلى دفع المال، وهكذا أوصلته إلى ماردين، بهار الجمعة عند المسيب،

وقابلته مجدداً في حلب، فأخبرني أنه تعرض للسلب بين ديار بكر وحلب، وكان يعلم ان المسيحيين والمسلمين لا يكثر ثوب لليهود الذين يسافرون في قافلهم إن اكملوا الرحلة يوم السبت ام لم يفعلوا، كما يعلم ان الدرب غير آمنة لـمسافر وحيد، لكنه ترك القافلة تتحرك بهار السبت صباحاً، فسعى عليه تركماني بعد ساعات قليلة. وبقي امامه حلان، إما ان يحتفل بالسبت عارياً وجائعاً ويسافر يوم الاحد، وإما ان يتطلق عن الفور. فاختار القرار الحكيم وسارع للحاق بالقافلة. ولم يكن ينبغي ان يظهر ايماناً رائداً بل ان يتأقلم مع الوقت والظروف ويتبع مثل اليهود الشرقيين وعادته الحاس الذي رافق القافلة في ذلك اليوم مسرعاً (ولا يسمى هذا مسرعاً يوم السبت) وحافظ على ثيابه، واشتكى المحام من الشرقيين بشكل عام، ومن سيد اليه سوى نصيحة واحدة وهي تعلم لغة اهل البلاد والتعود على عاداتهم وتقاليدهم عندما يريد السفر.

وتعرضت انا نفسي للمشاكل على الطريق بين الموصل ونصيبين، حين عذّ عرب كاسي كوبري الحمولة كلها، بغية أخذ رسوم المرور المعتادة، وقد نظر خدم الشيخ إلى سريري وسرير نخادمي، وعند المساء جاؤوا لأخذها لستدعم، ولم اتجرأ على الاعتراض لأنهم قالوا انهم يقومون بذلك بناءً على اوامره، وقد رأيت الطريقة التي عامل بها هؤلاء كبار التجار المسلمين. وقصدت أولاً قائد القافلة واشتكيت له ما حصل. فكلم الشيخ في الديلة نفسها لكني لم احصل سوى على سريري ومخدتي. وفي اليوم التالي، قصدت الشيخ بنفسي، فسخر هذا الأخير من قلة تهديتي لأنني لم أشأ مقاسمته سريري لبضع ليل، وهو شيخ قبيلة طلي في حين أنني لست سوى مشرك، وتحت حمايته، أما بالنسبة لنخادمي فيمكنه الاستعفاء برأيه عن السرير. عندها، أبررت فرمان السلطان الذي أحسنه، وأمر ياشا بمداة، علّه يظهر بعض الاحترام لأوامر اسباده، مما راد الامور سوءاً وقال لي انه سألني وسيدي في الصحراء، وأن اورافي لا تنزله مطلقاً، فاضطرت إلى العودة كما جئت، وتناقشت مع كبار التجار حول الفرق في طريقة معاملة الغرباء بين أوروبا وبلادهم. وحين وصل جند والي ماردين الذي يدعى به شيخ طلي ضريبة معينة، استعلمت من الصابط الرئيس اذا ما كان الوالي في محيط نصيبين كما يتروى ويبدو ان حديثي هذا سمح بإعادة كافة اغراضني بعد رحيل الشيخ، وما كنت لأحصل على المعطء الذي احضرته معي من الهدى من دون ذلك، لأنه اعجب الشيخ.

وبما اننا ستوقف مطولاً في نصيبين بسبب رسوم المرور والضرائب، قررت زيارة والي ماردين، الذي ضرب خيامه على بعد ميل ونصف من المدينة الاولى. وفي حين ان الاعيان في أوروبا يمشون الصيف في منازلهم الريفية، يحبو لطريقين الإقامة تحت الخيام، وقد رافق الوالي اعيان المنطقة وفرق الخيالة كلها لكثرة الكد في المنطقة. لكنه سم بمصب خيامه بعيداً عن مدينته طلباً لـلمتعة وحسب برأيه، بل لقبض الجربة من العرب والاكرد واليزيديين الذين يتجولون في هذه المناطق، وليبقى قريباً إن هم تخلموا عن الدفع. واستقبلت احسن استقبال في المخيم، وكان

الحاكم يتناول طعام العشاء في الحرم، فجالست كبار الصباط وقدموا لنا حوالي ١٥ طبقاً، كما ذكرت في وصف شبه الجزيرة العربية حيث وصفت هذا العشاء، ولا يقدم اليدو هذا العدد من الأطباق. وصف بي أرمني من ماردين مأدبة أقامها شيخ من قبيلة طلي لعدد من المشايخ الآخرين يرافقهم الكثير من الناس كما يلي، سلق الشيخ الكبير أو شوى في هذه المناسبة، جملأً بأكمله. وفي حين أن الشرابين عامة والبدو خاصة يقطعون عادة اللحمة إلى قطع صغيرة تغنيهم عن السكاكين عند الأكل، يقدم الجمل في مناسبات كهذه كاملاً، ويقطع كل ضيف منه قطعة كبيرة. ثم يقدم الأرز المعسل في طبق كبير، يتطلب حمله أكثر من ستة أشخاص، ولا يأكل الصوف دعة واحدة ويمسك كل واحد منهم يده إلى الطبق ثلاث مرات فقط. حين يجلسون، يرفعون كسيهم، ويجعلون من الأرز المقلل كتلة كبيرة يقدر ما تنسج لها يدهم اليمنى، ويلصقون الزبدة التي تسيل من يدهم وفراعهم ثم يأكلون لارز بقدر ما يحلو لهم.

انتهى موضوع حياة الرسوم عندهم في ٢٤ نيسان/أبريل، فتركنا القافلة في اليوم التالي، قبل طوع الفجر، ووصلت إلى ماردين في يوم واحد برفقة بعض التجار. سلكنا الطريق الذي يمر بقر البريج حيث وجدنا بعض القرى وحقول مرروعة. ووردت أسماء هذه القرى على الخارطة بـ. كانت سرجا خان أو ساديه كما يسميها البعض، كانت على ما يبدو قنعة كبيرة، هي سور من الحجارة المصقوفة، وبعد خروجها بقايا بناء لكنه مهجور كثيراً. كما في قصر البريج حيث نجد منزلاً حجرياً. وشاهدنا في البعيد دارة أو قره درا التي كانت مدينة كبيرة في الماضي، وقد ورد ذكرها مراراً في تاريخ الخلفاء، ويعيش فيها حالياً القليل من السكان، ويقال أن سور المدينة لا زال موجوداً فضلاً عن آثار أخرى رائعة مبنية من الحجارة الكبيرة، وبعراً عميقاً للغاية حفر في صخرة. ونقع قج حصار (Kodsje Hissar) تحت ماردين على طريق اورفة ويطلق عليها العرب اليوم اسمها الحقيقي وهو صمصر أو دنصر (Gunasser ou Dunasser) التي ورد ذكرها في تاريخ الخلفاء، ويعيش فيها القليل من السكان، لكنها مكان إقامة سنجاق مسلم مهم من والي ماردين، كما يرى فيها خمس مآذن قديمة، وشاهد ديراً قديماً مهتماً على جبل قرب عنصر.

يقال إن هناك تلة قرب عنصر، نجد عليها أحياء قطعاً قديمة وأحجاراً محفورة، وقد يكون هذا الأمر صحيحاً، لكن مسيحي المنطقة يتحدثون أيضاً عن كنوز مخفية، يصدقون فعلاً هذا الأمر، لذا سأورد للقارئ قصتين يروونهما. يقال أن فلاحاً كان يبحث بقرنه في الصحراء، فرأها تنزح نحو تلة فتبعها، ورأى هناك غرفة كبيرة مبنية بالذهب والأحجار الكريمة، لكنه لم يتمكن من لمس أي شيء فيها واكتفى بإعادة القر، ولم يتمكن بعدها من إيجاد الكهف مرة أخرى. رأى شخص آخر في المنطقة الجبلية قرب ماردين غرفة مفتوحة في صخرة، فدخلها ورأى

شخصين جالسين وأمامهما كثر كبير من الذهب والاحجار الكريمة، وأعطاهما أحدهما بعض الكحل وطلب منه فرك عينيه به، ففعل وأصبح اعشى ولم يشف يوماً.

طُيبت أسماء القرى والمدن الواقعة على الطريق بين الموصل وبغبيش عبر الجزيرة، من أباس قاموا غالباً بهذه الرحلة، وسجلت هذه الأسماء على خارطة سيري الجزيرة أو جزيرة ابن عمر (Dsjesiret el Ommera) هي مدينة صغيرة على دجلة، تحكمها سد مسوات عائلته بحصان (Buchtan) الكردية، ويسمى رعيها أمير أو بك، وتقع الأرامبي التابعة لها والتي تصم بحوالي ١٠ إلى ٥٠ قرية بين الموصل، والعمادية ديار بكر ومردين. وكان باشا ديار بكر يثبت الأمير في الحكم لأنه أقوى جيرانه، لكن منذ أن أصبحت مردين تابعة لبعداد، بدخل باشا هذه الأخيرة في حكم الجزيرة حانياً، ينصارع أخوان من عائلة بحطان على الحكم، فيساعد الباشاوات واحدهم ضد الآخر بحسب المصالح الذي يدفعه، فتتفجر المنطقة يوماً بعد يوم. ويستخدم الباشاوات عادة هذه السياسة مع العائلات التي يحق لها الحكم في الأقاليم الصغيرة استناداً إلى سببها، ومع البدو أيضاً. يحاولون دائماً رزع الخلافات بين العائلات الحاكمة. فيستعيدون مادياً ويمنعون هذه العائلات من أن تصبح ثرية وقوية بعدم إبقائها طويلاً في الحكم، كما لا يهتمون أن أُنسب مناطق السلطان وانهارت.

أما غابية سكان جبل مدياد (Midjad) أو جبل طور فص الاكراد والبيديين، ولا يهتم هؤلاء بالحكم التركي المجاور ولا يدعون به أي حرية وأهم لعائلات الكردية التي تتولى الحكم هنا هي دجوري (Dakschorie)، بطغية (Butakie)، اشتية (Aschene) ومهلمية (M'haliemie)، وتحصص لهذه الأخيرة حوالي ٥٠ قرية، وفي حين أن معظم العائلات الكردية حافظت على لغتها خارج لبلاد، نلاحظ أن هذه العائلة اعتمدت اللغة العربية وسم اسمع سوي بقبيلة شلقية (Tshallkie) من بين القبائل البيدية التي تعيش هنا.

يقال أن هناك منطقة صغيرة تدعى طور، شمالي الجبل، يعيش فيها اليعقوبيون، ولهم فيها مقرانهم الخاص المستقل عن مطارنة ديار بكر اليعقوبيين. فضلاً عنه لا يطلب مرماناً من السلطان كمطران من النسطوريين في حكرية (Hakkene) في انكرستان. ويقسم هذا المطران بي دير مدياد على جبل عال للغاية، ويقوم على سماع الجبل دير آخر في قرية معرين (Maarin)، وسجد بالقرب منها قرية تدعى قصر مربية (Kasr Marhaba) أو مريام (Marabaem) وفيها دير يحمل اسم دير السيدة (Dar Esseide) وينقل إليه اليعقوبيون موتاهم من على بعد خمسة أيام سفر ويقدمون نسير

البلد الذي حمل رفات الميت. ويحمل المرمى إلى دير مار ملكي، ويؤمنون أنهم يشعرون بفصل سنوات رهبان هذا الدير. هناك حوالي سبعين ديراً مهدماً حتى هذا الجبل بشكل عام، ويتحدث اليقويون كثيراً عن الآثار الرائعة في المنطقة، منها أديرة ومساكن قرى ومدن، وأشدت بأنها تستحق أن يروها الأوربيون بسبب هندستها المعمارية.

وشاهدنا، جنوب الدرب الذي سلكناه جبل مسجور^(٥)، ويقع في سهل خصب للغاية، هواؤه عليل وصحي للغاية، وتكثر في المنطقة المواكح الشهية، لا سيما نين سسجار الشهير وكان لهذا الجبل في زمن الحلفاء صاحبه الخاص (أمير مسلم) الذي يقيم على سطحه على بعد يومي سير من الموصل، كما نجد، ضمن المنطقة التابعة له، مدينتين أخريين كبيرتين، لكنهما مهدمتان، فلا تصادف اليوم على جبل سسجار كنه سوى قرى بائسة وفي حين كان معظم السكان في زمن الحلفاء من المسيحيين، يتبع معظمهم حالياً ديانة اليزيديين والبقية ديانة المسلمين، ولا يدفعون أي جزية كما يسلطون على التواكل الصغيرة.

وبما أن المنطقة قريبة من الموصل، تختلف درجة وقاحة النصوص باختلاف الباشا، فإن كان جندياً ماهراً، يقتصر عليهم فجأة، ويأسر الرجال والنساء والأطفال ويبيعهم كعبيد، ثم يحرق القمح في حقولهم على سطح الجبل، ولا يسمح لهم ببيع أي شيء في المدينة ما لم يدفعوا أو يعدوا بتأمين طريقة تصرفهم.

ولم يتمكن باشا بغداد من لجوئهم يوماً، فما إن يعلم اليزيديون أن الجيش يتحرك حتى يسحبوا إلى الجبال حيث لا يجرؤ الأتراك على ملاحقتهم.

وأهم قبائل أو عائلات جبل سسجار هي كابارية، شمانية، جنوبية، حركية وديدي. وتتبع أول عائلتين الديانة الإسلامية أما الأخريات فاليزيدية، وتتميز هذه العائلات بأنها تترك شعرها يصبح طويلاً جداً، وتقيم كلها في قرى. ونجد عند سفح الجبل، في السهل، العديد من القبائل اليزيدية التي تقيم في الخيام وتعيش من المواشي كالألبو.

أما أبرز قبائل الأكراد التي تقيم في هذه المناطق مع حياهم، وتدفع جزية لوالي ماردين فهي كيكلي (Kiki)، وميلي (Milli)، وساجلي (Sadjseli)، ومريان (Musesjan) ولا تصادف هنا من البدو سوى قبيلة طلي، وهي قبيلة كبيرة، ويتلقى الشيخ الحاكم فيها بصفته بيك (منطقة حصبة بعد ذاتها، لكنها جرداء حالياً) دسب حصان من والي ماردين^(٦)

(٥) يبدو أنه جبل سسجرا (Singara) الذي ذكره الكتاب اليوناني، كما يبدو الاسم مشابهاً لسينار (Sinear) الوارد في الكتاب المقدس.

(٦) انظر وصف شبه الجزيرة العربية.

وسيوّد علماء الجغرافيا معرفة ما إذا كانت المدن، التي أتى على ذكرها المؤرخون القدماء، لا تزال موجودة حالياً أو أنها تهدمت كلياً، سُورِد أسماء مناطق لم أُررها بمفسي، بل أخذتها عن أناس ربما لم يرووها أيضاً.

رأس العين، وتقع على بعد ١٢ أو ١٤ فرسخاً إلى الجنوب الغربي من ماردن، وعلى مسج يهر الحابور، وهي مدينة مهدمة كلياً.

ويزان شهر، مدينة مهدمة، تقع بين ماردن وأورفة.

حسن كلف (Hassan Kalf)، وهي مدينة اشتهرت في الماضي، ولا تتعدى اليوم كونها مكاناً صغيراً على دجلة، على بعد ١٦ فرسخاً من ماردن.

ونجد إلى غرب سنجار وفي بحيرة، جزيرة صغيرة يسكنها العرب، وتُدعى حاثونية. تتصل باليايسة بسد ضيق للغاية، وجد عليها حرمٌ بي بطريق مائية ويسمح زيارة المسافرين^(٥)

تل عفر، تقع جنوب جبل سنجار، وتقع هذه المنطقتان وحاتونية سوياً جريد معيه شيخ قبيلة طي المريّة.

يقال ان هناك طريق يؤدي مباشرة من جبل سنجار إلى القدس، وتكثر عليها الخانات التي يعد الواحد منها عن الآخر مسافة يوم مسير واحد. ويزعمون ان بقايا هذه الابنية العظيمة المحصنة للمسافرين لا زالت واضحة، كثر وفقاً للمصادر تهدمت القرى الواقعة في هذه المنطقة الحصنة كلياً وبما سب هذا الطريق المسيحي الموصل وماردن الذين يؤدون فريضة الحج إلى القدس، والذين يصطرون إلى المرور بحلب ودمشق، أو الانتقال إلى الاسكندرون ومنها إلى يافا بحراً، لكنه تُسي ساماً حتى اقترح عربي صد سنوات على مسيحي من ماردن، ثم يتمكّن من اللحاق بغيره من الحجاج، أن يوصيه عبر هذا الطريق، ويقال ان هذا المسيحي وصل بعد ثمانية أيام

أكد لي عرب من قبيلة طي ان، على مسافة يومين من الموصل وعلى طريق عتّة (Ana) (مدينة على الفرات)، هناك بقايا مدينة كبيرة وهي الحضرة (El Hoddur)، وتحثها كمية من الجثث المتحجرة^(٦). ويدعون انهم شاهدوا سقن وقصاة وغيرهم، باحتصار رجالاً وساءاً وطعلاً متحجراً، وفقاً لأقوالهم، في ليلة واحدة، ولا عجب في أن يحطى، بدوي بمضي حياته في انصحره ولا يملك ادنى فكرة عن اعمال النحت لأنه لم يره يوماً، كما انه قد لا يعرف المقني والماضي بل

(٥) سمع اوتار (Outer) أيضاً يهرم في هذه البلاد، لكنه لم يره هو أيضاً بأم عينه

(٥٥) لعلها آثار هنرا.

سمع عهنا وبالتالي ظن أن التماثيل العجربة ما هي الا اشخاص تحجروا. ولعل هناك فعلاً بقايا مدينة وتماثيل تستحق أن يدرسها اوروبي يقوم برحلة من الموصل، وعمدت لاحقاً في حلب ان اوروبياً، عائداً من الهند، أكد لمواطنيه المقيمين في المدينة انه رأى بنفسه بقايا مدينة في الصحراء تحجج سكانها كلهم في ليلة واحدة. وأظهر أحد مواطنيه، إذ لم يصدق ما تقدم به الرجل، رغبة في رؤية المكان، فإن تجدد الكل في ليلة واحدة، لا بد ان يقع على نساء ورجال في اوصاف فريدة على حد قولهم وهم يتسكن المسافر من التراجع عن اقواله والا اعتبر كادياً، فأقسم انه بالفعل صادق وصحبات مماثلة، وأكد بالتالي ما رواه لي العرب.

تقع مدينة ماردين في أعلى جبل شاهق ووعر شبة ماء على ارتفاع القطب ٩٣٧ و ١٩٠ ، وكانت في ما مضى حصناً مشهوراً لكن لا نجد حالياً إلا بقايا من سور المدينة بعد ان تهدمت القلعة كلياً. وكانت هذه الاخرة تقع على صخرة عالية ووعرة تشرب على المدينة، وهي صوية وصيفة، ويعتبر الطرف الشمالي منها أكثر ارتفاعاً وتحصيناً من غيره لأن الدرب المؤدي اليه ضيق تحف به بهما أبراج. وقد حفر الدرب المؤدي إلى القلعة الرئيسة جزئياً في الصخر، ونجد حتى اليوم عند مدخلها باباً فضلاً عن بعض التماثيل السعمورة في الحجر من زمن المسيحيين. وتكس مناعة هذه القلعة في أن الصخرة شبه عامودية، رد على ذلك، أنها محاطة بسور من الاعلى، والمنارل المنيعة حول اكثر من نصف الصخرة متراسة ومتلاصقة. ونجد في المنطقة اباراً، لكن يقوم الاهالي بجمع مياه الامطار في بخرانات كبيرة اثناء فصل الربيع. حين يود سكان ماردين وصف مناعة قلعتهم، يروون ان تيمورلنك حاصرها طويلاً، وتمكن من اكل التين والعنب من اشجار زرعها على تلال في أسفل المدينة، ثم اضطر إلى فك الحصار، لكن هذه الطريقة التي يعتمدونها الشربون في الرويات تدخل في باب الكفاية ولا تعني سوى ان القلعة تعرضت للحصار لوقت طويل، لأن التري يمكن ان يطيب له اكل التين والعنب المروع، لكن لا أظن انه فكر يوماً اثناء حصار ما يزرع الاشجار. وقد استولى على المدينة ودمرها، ونجد هنا قلعتين اخريين هما طورخان قلشي (Tarchan Kalsi) وقلعة المرا (Kalla el marra)، وتقع الاولى في حرم سور المدينة، والثانية على جبل منفصل وقد تهدمتا كلياً.

يتكون الجبل الذي تقوم عليه ماردين من حجر كلسي لين، سهل استخدامه، وقد بقيت معظم المنازل لهذا السبب من الحجارة المصقولة وبشكل مقبب، وتعلو احياءها الاخرى، لأن الارض التي بنيت عليها المدينة مهيبة للغاية، فتشكل مسوح بعض المنازل وبعض الشوارع فناء للمنازل التي تعلوها، كما تشكل هذه المسطوح في بعض الاماكن الشارع بحد ذاته. وتغل المنازل كلها على سهل بلاد ما بين النهرين الواسع والخصيب. كان في القلعة ٢٠٠ منزل، أما اليوم فلا يتعدى

عدد السكان الثمانين نسمة، ولا يتجاوز عدد المنازل في المدينة والبلدة الثلاثة آلاف^(٥) ويعيم في حوالي ألفي منزل مسكون من أهل السنة، وفي المنازل الباقية مسيحيون، كتب مسجد في المدينة تربة العشر عائلات يهودية. ويملك المسلمون عشرة جوامع، فضلاً عن المساجد الصغيرة، بعضها قديم وجميل البناء، يعلو اثنين منها فقط مئذنتان، ويحد في المدينة بعضاً مدرسة تمتد على مساحة واسعة، وتحمل اسم مؤسسها وحارم بادشاه العقي (Khassem Padischa Takkie)، الذي تتلقى منه سويلاً عشرة آلاف قرش بعية اعانة بعض الأشخاص فيها والتي أصبحت مهامهم وراثية، لكن يتوجب عليهم الحصول على تثبيت في مهامهم من القسطنطينية. ويعتبر القسوي الذي يهتم بحسابات الطائفة، والذي يشير على الموظفين الآخرين من غير يحصلون على رواتبهم، إما من الأراضي وإما من المنازل، الموظف الرئيس في هذا المسجد. وهناك أربعة مدرّسين فضلاً عن إمام يصلي للشعب وآخر يصلي للسلطان، ومؤذن يدعو الناس إلى الصلاة، وآخر يهتم بالسجاد المستعمل للصلاة، وسرفجي (Sarukdsja) تقتصر مهمته على وضع عمامة نظيفة كل يوم جمعة على حجر عال فوق قبر حارم بادشاه، ربوب، وعمال يظفون الثلج في الشتاء (وهؤلاء هم من المسيحيين)، وكتّال يورع المؤن، وطباخ، وبستاني، وعمال نظيفات ويطلق الطلاب اسوعياً صبعاً معيلاً، لكنهم لا يكتفون حالياً أكثر لأن المدرّسين يقتربون إلى مسجونين ويوجد خارج مدارس بعض التكايا التي يستعمل العيش فيها، لكنها تسمى مردوداً نظيفه من مدرسة في القسطنطينية، وتمطى الافصلية في هذه التكية لاهل موظف متوفى على العرب. ويتبع مفتي مدارس المذهب الحنفي، ويعينه في معبده مفتي القسطنطينية، أما القاضي فيعينه قاضي ديار بكر.

رسمت المتنظر العام لماردين الواقعة على جبل وعمر على (الوحة XLVII)، وتتمطي هذه الصورة بقارىء فكرة عن موقع المدينة، سيما وأن وضع خارطة لها أمر صعب للغاية نجد قرب الرقم ١، القلعة الرئيسة، وقرب الرقم ٢ المنطقة التي ختمت فيها تيمورلنك، وفيها حالياً بستائين فاكية رائعة، قرب الرقم ٣ قلعة قنشي، ٤ قلعة امراء، ٥ بقايا كنيسة كبيرة هي كنيسة مار يوحنا، ٦ دير صفران (Dar Safferan)، محل آدم مطران يعقوبي ويقع في منطقة جميلة، على بعد فرسخ من المدينة. ونجد في مدارس عدداً كبيراً من الكتابات بالعربية الحديثة، ومعظمها للصحابة الدين حكموا البلاد، وإذا ما أراد احد ما ان يكتب تاريخ هذه المدينة، يمكنه ان يستفيد من هذه الكتابات، ولأنني وجدت السكان مشككين ولأن العربان الاوروبيين السفيس في المدينة لم ينظروا بعين الرضا إلى عمل كهنا، لم أسخ أي من هذه الكتابات.

(٥) أكد بي ادهم ان عدد السكان في ماردين تجاوز الستين الف نسمة، لكن يبدو لي هذا الرقم مبالغ فيه



Algorist der Stadt Mardin | Vista da Villa di Mardin



تتمتع ماردن بهواء عليل وصحي، وبما أنها تقع على مرتفع، يبقى صيفها معتدلاً وشتاؤها بارداً إلى حد ما. وحين يشتد البرد، ولا يتمكن السكان من انقائه بعروضاتهم، يشعلون، كما في مناطق أخرى في الشرق، الفحم في وعاء مليء بأرماد يسمى تنور، أو يشعلون الحطب في مدفأة يسمونها «كانون» أو «جاق». وتتدفأ النساء هنا، كما في مناطق أخرى من تركيا، يار يصنعونها تحت طولة غير مرتفعة بقطيع بساط، يشدونه على أقدامهن، بعد أن يجلسن مترهبات حول الطاولة. وتعتبر هذه العريقة في تدفئة المنازل عملية للمعاية واقتصادية لكنها خطيرة أيضاً لأن الأرض حيث يوضع الاناء الذي يحمل النار، والطولة انشي تعلوه مقطبان بالسبط والسجاد مما يسبب الكثير من الحرائق. وعندما يكثر تساقط الأمطار في فصل الربيع يتوقع اهالي ماردن محصولاً غنياً، ومن اواسط شهر أيار/مايو وحتى تشرين الأول/أكتوبر، لا تهطل الأمطار وينام السكان في الهواء الطلق ليلاً. تكثر المياه العذبة في هذه المنطقة، وبعد قريب المدينة وفي الجهة الأخرى للجبل الكثير من البساتين المثمرة، سيما العنب والاحاص والتفاح والسنق الحلي والسق الخ. ويشتهر ماردن بحوضها الذي ترسل كميات منه متوياً إلى بلاط السطاب. ويكثر الكرر البري في هذه المناطق، وتزدهر تجارة خشبه في البصرة وحلب، ويتاجر السكان بالربيب لكثرة الكروم، كما أن أسعار النبيذ والكحول منخفضة بين مسيحيي المنطقة. أشرت في وصف شبه الجزيرة العربية، إلى أن المر يجمع بكميات كبيرة ماء، ويعمل السكان في زراعة الحنطة والشعير، كما نرى الكثير من المراعي الرائعة في سهول بلاد ما بين النهرين، ويشترى اللحم اللذيذ بأسعار بخسة. وبعد في المدينة العديد من المصانع الجيدة، لا سيما للكتان والقطن، فضلاً عن مصنع للزجاج، ويشكل عام تشهد التجارة مع المدن المجاورة ازدهاراً كبيراً.

أشرت سابقاً إلى أن والي ماردن يحمل لقب وبوده، وكان السعدان يعينه فيما مضى، لكنه حالياً يستلم مهامه من باشا بغداد، ويقال ان عدد القرى في منطقة بلاد ما بين النهرين الحاصصة لهذا الحاكم بلغ في ما مضى ١٦٠٠ قرية، بقي منها حالياً ١٥٠٠ قرية وأظن ان الرقم مبالغ به، ويبلغ عدد القرى في المناطق الجبلية ٢٠٠ قرية، ويقال ان السعدان يقبض سنوياً ١٠٠ كيس نفود (٣٣٣٣٣ درهم) من هذا الحاكم، فضلاً عن ٢٧ كيس نفود (٩٠٠٠ درهم) كحزبة من المسيحيين واليهود، لكن باشا بغداد يحتفظ لنفسه بمئتي كيس نفود بعد احتساب المعونات.

وبحضع لوبوده ماردن عدد من الأعوان، والشوكادار وغيرهم من الصباط كما لو انه باشا، فضلاً عن أربعة بيارق مشاة، يتألف كل منها من ١٢٠ رجلاً وكل بيارق بوركباشي (Balukbaschi) وأورباشي (Odesbasgi) وشوس (Tschaus) وبيرقدار، كلهم تحت أمرة تفكجي باشي (Taffenkschi). وتحضع الخيلة لأمرة باش أعاء، وتقسم إلى بيارق، ويعمل الصباط باللقاب

نفسها كضباط المشاة يستخدم الرهود جيشه لقتال العرب والاكرد واليزيديين الذين يتحولون على اراضيهم، وعندما لا تكفيه القوى المتوفرة يقوم بتجنيد غيرها، ويوجد العديد من الناس المستعدين للمقاتلة بالجيش لكسب بعض المائم اذ ان الجمال والاغنام والابقار التي يأخذونها من قبائل البدو أو من السكان المتمردين تصبح ملكاً للرهود، في حين ان الخيول وغيرها من المائم تقسم على الرجال.

يدفع السلطان أجور حامية القنعة، وهي تخضع لأمره دسدار (Desdar) الذي يخضع له عدد من الضباط. وتسمى ميليشا المدينة «عزب» وهي تابعة للسلطان، وتحمل عبلاً كبيراً، في حين أن رجال الرهود لا يحملون سوى دحرف نحاسية.

ويملك الارمن الذين يتبعون الكنيسة الكاثوليكية، فصلاً من الكلدانيين (اليقويون والتسطوريون الذين يتبعون الكنيسة الكاثوليكية) كنيسة خاصة بهم في ماردين، وتتميز كنيسة الفريق الاول بجمالها. كما يملك اليقويون ثلاث كنائس، واحدة داخل المدينة واثنين خارجها، ويملك المطران على بعد فرسخ من المدينة، وفي منطقة جميلة، ديراً تحدثت عنه سابقاً لكنه معظم الوقت في المدينة. ويعتبر الشمسيون (Schemse) من اتباع اليقويين، ويبدو ان هؤلاء حافظوا على ديانتهم التي كانت منتشرة بين المسلمين وبين المسيحيين، وأكد لي رجل عجوز، أنه في شهابه عرف عدة قرى في المنطقة النجبية تتبع هذه الديانة ويظنون ان هذه الديانة اختفت من القرى لكن نجد في ماردين عدة عائلات من اتباعها في حين مختلفين، وكان اتباع هذه الديانة، منذ صواب، يشكلون مجموعة مستقلة بذاتها، لكن السلطان مصطفى أراد إجبار المسيحيين واليهود في مملكته على اعتناق الدين الإسلامي أو مغادرة البلاد، وبما ان الاعيان، وحتى المعني نفسه، رفضوا الحضور لهذا الأمر لأن محمد نفسه منح المسيحيين واليهود حماية لقاء جزية سنوية يدفعونها. ولإرضاء الحاكم، صدر امر بالآ بقاءهم في البلاد إلا أهل الكتاب أي المسلمون والمسيحيون واليهود. أما اليزيديون والفرور والصيريون واتباع الديانات الاخرى الذين يقيمون في المناطق النجبية والذين يخضعون لأمراتهم وشيوخهم فلم يكثرثوا لهذا الأمر، في حين ان الشسيين كانوا ضعفاء ويقيمون في المدن حيث يراقبهم القاصي المسلم، فحاصروا المطران اليقويين في ديار بكر. واصبحوا يعتبرون انفسهم مسيحيين ويتركون بزيمهم. وتقتصر مسيحيتهم على اللباس وعلى تنصير اولادهم، وقلما نجدهم في الكنيسة باستثناء زوج منهم يرسلونه كي لا يتهجروا بعدم ارتياد الكنيسة، كما يستدعون كاهناً يقوياً لحضور دين موتاهم، لكنه لا يدخل المنزل قبل اقبال التابوت، فيسبح الجنازة إلى عداقتهم. باختصار، يعيش هؤلاء بعيداً عن المجموعات الاخرى، ولا يتزوجون حتى من اليقويين. لم أتمكن من معرفة أي شيء انجاني حول مبادئ دينهم، وقال لي المسيحيون في

ماردين أنهم يبنون أبواب متارهم الرئيسية عند شروق الشمس، وأنهم يظفرون باتجاه الشمس عند أداء صلاتهم، وأنهم يحلقون شعور موتاهم ويضعون في أمواتهم دقيقتين. وعند الزواج، يترك كاهن يعقوبي الروح والزوجة، لكنهما يقادان عبر الشوارع، ويقال أنها العادة المتبعة كي يمر أمام حجر كبير معين يعتبرونه مقدساً ويظهرون له الكثير من الأجلال.

الرحلة من ماردن إلى حلب عبر ديار بكر

في ١٠ أيار/مايو صباحاً، عادت ماردن مع قافلة صغيرة، وتوجهت نحو ديار بكر، وتبلغ المسافة بين هاتين المدينتين حوالي ١١ ميلاً نحو الشمال مباشرة، ويمكن قطعها بسهولة في يومين. لكن المرامي المحصنة والرائعة أغرت أصحاب الدواب وتركوها ترعى، وسافرنا ببطء فوصلنا ديار بكر في ١٢ أيار/مايو صباحاً. أما السرب فصعب وجلي، والمناطق المحيطة غير مرروعة ثقلة السكان فيها، ولا يستفاد من التديع المتدفقة التي يسكن ان تجعل البلاد خصبة وعية، إنما يرى في أماكن عدة كروماً مهملة مما يدعو إلى الاعتقاد بأن المنطقة عرفت في ما مضى روعة افضل من اليوم، ثم اجتريا عابة سديان صغيرة يستخرج منها الس برارة وصلنا إلى شيخ خال، وهي قرية يسكنها الاكراد شتاءً فقط، لأنهم يتجولون مع خيولهم صيفاً، وتقع في واد كبير وخصب. وقد أخذت اسمها من حاد حمر كلياً في الصخر، وكلف من دون ذلك مبالغ طائلة، لكنه ليس بجميل أو بمرح لا سيم وأنه لا ينظف ابداً، وهو عبارة عن اسطبل لنحيون، حفر في حدره كؤات تستحلهم كغرف للمسافرين. وهدمت الدعة، التي بدأها السلطان مراد حين قام بحملته الشهيرة على بغداد، منذ فترة طويلة.

ولم اشاهد اثرأ بلغت الانبهاء على هذه الطريق، سوى قصر رزرو (Kasr Zerzaua)، وهو قلعة بيت على قمة جبل، إنما مهجورة كلياً^(١)، وقد نصبا الحيام فيها قبيل الظهر وبالرغم من الحرارة، تسلقت الجبل آملاً ان أقع على بعض المباني الاثرية الحميلة تحت البقايا التي رأيناها من بعيد، لكنني لم أجد سوى جدران المبني السهرة النسية من الحجارة الكبيرة، وحتى ان الصوابق السملية بعض المارل حفر في الصخر ووجدت بعض وجهات المنارل المقترنة مما يؤكد ان سكان هذه المنطقة عرفوا في الماضي السطوح المائلة كم في اوروبا، ولم اكتشف أي كتابات ها. ولا يعرف احد من متى هدمت القلعة ومتى بيت. لكن يبدو من البقايا أنها قديمة للغاية، إذ ان الحجارة صلبة جداً، بالرغم من أنها تعرضت لعموس الطبيعة، ويقال ان سيداً اقام فيها، وقد اعتاد ان يصاب المسافرون بمرض المرور، وبالضرائب، وعالياً ما سطا عليهم.

ويقع الدير الذي يطلق عليه الاسم دير رباط (Dar Rabat)، والاثراك اسم قرية قبيص

(١) يقال ان في ديار بكر اثر تحمل اسم الملك، لكن لا اعلم ان كانت غير قصر رزرو

(Kara Klife) (الكنيسة السوداء) بالقرب من الطريق، عند قرية سرتانل (Surtanel)، وقد بني من الحجارة المصقولة، ويقال إن له أبواباً صدة من هذا الحجر^(١)، ويعيش في الدير مطران وكاهن والشیطان. ويروي، تصدق عامة الشعب من الأرمن هذه الرواية كإنجيلهم، أن مصراً من هذه البلاد، حكم على الشيطان، الذي طرده من جسد أحد الأشخاص، بأن يكس كل ليلة الدير بأكمته، وبأن يزيل الأوساخ، ويؤكدون أن الكنيسة ومساكن الكهنة، والمطبخ تبذر نظيفة كل صباح منذ ذلك الوقت. ويدور الشيطان على رجال الدين الثريخ، أو يجعل من بعض المسافرين شهوداً لهذه المعجزة فيقدم هؤلاء الهدايا للدير. وقد علمت بالامر متأخراً، ولم أشارك رفائي، لا سيما وأنني لا اعتقد أن هذا الشيطان سيجعلني لاحقاً في مأمن من اللصوص، ولا لوددت رؤية دير رباط.

ويصبح الدرب قرب ديار بكر سيحاً نوعاً ما. ونصادف العديد من الأنهار الصغيرة، نعلها جسور جارية، مبنية من حجر أسود سلب. وقد رصف جزء من الدرب امامها، أما اسماء القرى الذي نمر بها في هذه المنطقة، فسجنتها على خارطة سيرى، على اللوحة L.

زودني راهب كرمني من ماردن، برسائل توصية للرهبان الكيوشيين في ديار بكر، وأكد لي أنهم سيستقبلوني على الرحب والسعة، وعند وصولي إلى المدينة، توجهت إلى ديرهم مباشرة، فاستقبلوني بتهذيب فائق، ويعتمد هؤلاء اسماً على راهب واحد، وهو رجل مثقف وطبيب ماهر، يحبه الأعيان في المدينة، حتى إن رفاقه يمارون منه. وعرفني هذا الراهب على كبار التجار المسيحيين، فأضيت وقتي في المدينة بين الدير وبين مسيحيي البلاد، وتمكنت من القيام بدراساتي بالرغم من أن المسلمين هنا ليسوا بتهذيب أبناء دينهم في ماردن والموصل أراء المسيحيين.

واسم ديار بكر ليس بالاسم القديم، فقد عرفت المدينة في ما مضى باسم آمد (Amid)، ويستخدم هذا الاسم حالياً في العقود والوثائق التركية.

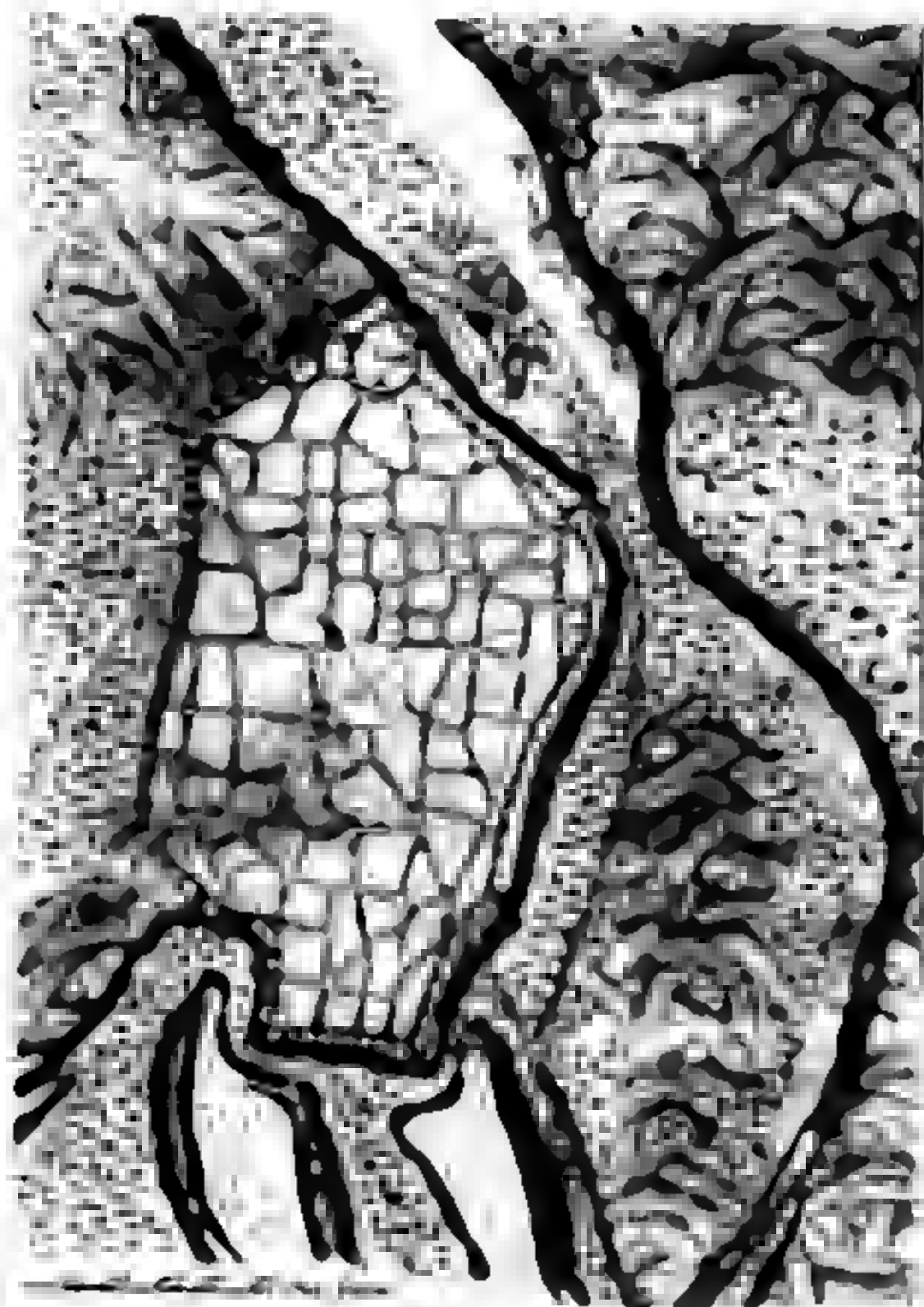
وتقع هذه المدينة على الضفة الغربية لدرجة، وتمتد على مساحة صخرة وعرة بلعابة من جهة النهر (راجعوا الخارطة، اللوحة XLVIII)، ويحيط بها سور عال من الحجارة السوداء والصلبة لذا يسميها الأتراك قرة آمد (آمد الأسود) ويتحلل السور معائل عدة أو أبراج كبيرة توضع فيها المنافع، فضلاً عن أربعة أبواب: (١) ينجي قبوسي (Jengi Kapusi)، (٢) ماردن قبوسي (٣) أرو قبوسي

(١) علمت في الهند أن للمعابد القديمة المحفورة في الصخر أبواباً حجرية، محفورة أحياناً بآلات بالاع على شكل شبائين. وفي قبور ملوك القدس المعروفة أبواب حجرية، وسأشير إلى ذلك لاحقاً.

(Orum) (أ) داغ قبوسي (Dag). ويحيط بالعمدة (أ) A، من جهة المدينة سور عظيم، كذاك المحيط بالمدينة نفسها، لكن المنارل من جهة النهر تقع على حافة الصخرة الوعرة للغاية وكان للعمدة ثلاثة أبواب، لكن اوغروم قبوسي (Ogrum Kapusi) قرب الرقم ٥ مسدود، ويحافظ على دمبر لبوسي (Damer Kapusi) قرب الرقم ٦ مقفلاً، وبالتالي لم يبق سوى باب وحيد هو باب المدينة. ويقوم باشا المنطقة، والذي يملك ثلاثة أصواف، في القلعة فيما اقام اصحاب المدينة أو الامراء المسلمون في قصر على التلة، ثم يبق منه سوى حائط الأساس. وتستخدم هذه التلة حالياً كمريض اذ وجدت عليها بعض المدافع الموضوعة بين الاعشاب، ومن دون مراقب، ويمكن رؤية المدينة بأكملها من هذا المكان. ويبلغ عدد المآذن في المدينة ١٦ مئذنة، معظمها مستدير الشكل كما في المدن الاخرى، وبعضها مربع، ويؤكد المسيحيون انها كانت اجراس كنائس لكن المسلمين انتزعوها، وهذا الامر محتمل بالرغم من اني رأيت بنفسى كتابة عربية تعود لعام ٥٥٠ على إحدى هذه المآذن، ولعل هذه الكتابة تعود إلى مرمم المئذنة. ولا بد أن المسجد الرئيس، وهو مبنى رائع، كان في الماضي كنيسة المسيحيين الأساسية، ولم أتمكن من ريارته لأن المسيحيين لا يتجرأون على الاقتراب من الساحة الخارجية المحيطة به. يبلغ ارتفاع القصب في ديار بكر ٥٢٧ و ٥٥٠ .

يصعب بل يستحيل الحصول على معلومات دقيقة حول سكان المدن الشرقية، إذ لا يتكبد المسيحيون أو المسلمون عناء احصائهم، ويستغربون حين يسألهم اوروبي عن عدد السكان في مدينتهم، وتأتي اجابتهم الاولى أن المدينة عالم بحد ذاته، وحين يضطرون إلى الدخول في التفاصيل، يجعلون مكانها مئات الالاف، وأحياناً مليون نسمة حيث لا أقترص وجود أكثر من مئة ألف. وتبقى أفضل طريقة لحساب عدد السكان في المدن الشرقية، وضع خرائط لها، ونبي أن أكثر المدن اكتظاظاً بالسكان كالقسطنطينية والقاهرة ودمشق وحلب وديار بكر والموصل وبعثك، لا يتعدى عدد سكانها عددهم في المدن الاوروبية التي تشهد ازدهاراً سكانياً. ولتقابل من يهمل معرفة عدد سكان ديار بكر الخارطة التي وضعتها للمدينة مع خارطة مدينة اوروبية ويستنتج بالتالي عددهم.

تكثر المنازل داخل حرم المدينة، وكانت هذه الاحيرة تعج بالسكان قبل المجاعة منذ تسع سنوات، لكن معظم مساكنها خالية حالياً. ويبلغ عدد المنازل المسكونة حوالي ١٦٠٠٠ منزل، يقيم في ربعها مسيحيون. وتتميز منازل المدينة بسلطوحها المصقولة، والطابق العلوي من الطين. ولاحظت ان قيب بعض المساجد والخان الكبير مغطاة بالرصاص، وهذا لم أراه في البصرة وحتى هنا، لكنه امر شائع في سوريا والاصول. كما تتميز بشوارعها المرصوفة وبطاقاتها النسي، ومبانيها



ولا ينبغي أن يستعرب المرء هذا الأمر لأننا في أوروبا حيث يكتب الكثير حول السياسة، لا يمكن أن نحصل على معلومات أكيدة حول مردود أحد البلدان. ويملك المسيحيون أرقاماً دقيقة حول الخراج (Charodsch)، ففي ديار بكر، يتلقى مدير عام الضرائب، الذي يحمل لقب ريوذه، إيراداته من الصربية، ويدعون أنه يدفع منها سنوياً ٥٥.٠٠٠ قرش فضلاً عن ٥.٠٠٠ قرش كهدايا لبعض ضباط السلطان في القسطنطينية. كما يتلقى من من يجمع الجزية في مدينة ديار بكر مبلغاً يقدر بحوالي ١٣.٠٠٠ قرش.

ويقيم في ديار بكر بطريركان، أحدهما لليعقوبيين، ويسمى أيضاً بطريرك انطاكية، والآخر لأرثوذكس المسقون كلدانيين. ويحمل الأول اسم إلهاس وهو بطريرك كافة المسيحيين اليعقوبيين أو السريان في الإمبراطورية التركية كلها باستثناء سكان جبل طور. وهو الذي يعين كاهناً مسيحيي القديس ثوم في الهند. ويدعى البطريرك الثاني يوسف، وهو رئيس النسطوريين واليعقوبيين الشرقيين الذين يحترقون بسلطة البابا. أما البطريرك الحالي فهو الرابع الذي يحمل هذا اللقب الرفيع. فمد حوالي مئة عام، تشاجر أحد الكهنة النسطوريين الكبار مع مطران، فقصده ربما وأعطى طاعته للبابا الذي أعاده. بموافقة السلطان، إلى ديار بكر وهو يحمل لقب البطريرك الأول للنسطوريين واليعقوبيين النابغين للكنيسة الكاثوليكية في روما، ومنذ ذلك الحين، سمع الشعب ببطريرك للكلدانيين. وبما أن المطارنة الجدد كانوا من النسطوريين، ضعفت سلطة بطريرك القوش، فقد كان أحدهم من مواليد تل كهف (Tel Kaf) فابيع عدد كبير من سكان هذه المنطقة البابا، وازداد عدد هذه الجماعة من مستغل رأس كل بطريرك واضطر الأخير إلى ترك البلاد لأنه أجبر غالباً على دفع غرامات إذ جعل المسيحيين يتبعون جماعة غير الجماعات الشرقية. ويجد هنا العديد من الأرمن، وبعض النسطوريين وأتقيل من الشسيين فضلاً عن اليعقوبيين والكلدانيين، وقد التجأ الشسيون، كما في ماردن، إلى جماعة اليعقوبيين، ويعتبر عدد اليهود في المنطقة قليلاً، لكن تبقى الديانة المسيطرة هي الإسلام.

لم استطع الحصول على معلومات وافية حول مختلف سناجق هذه الحكومة؛ لكن يقال أن أرغانا (Argana)، وشرموك (Tscharmuk)، وبهغاربود (Pahurgaspud)، ومعدان (Moadden)، وجيبان (Gibban) هي أماكن مهمة، وتكثر المساجد في منطقتين منها.

واتجهت لي مرحلة السفر إلى حلب مع قافلة صغيرة، غادرت في ١٩ أيار/مايو، يوم عيد الأضحى. ويسافر العرب عادة على طريق سويريك (Suerak) عبر خان شرموك (Chan Tscharmuk)، حيث تصادف قري عدة أدرجت أسماءها على الحارطة على اللوحة L.

توجهنا نحو الجنوب، ولم نقع على قري سوى علي بوار (Par) التي لا تبعد عن ديار بكر إلا

بسم الله الرحمن الرحيم
 الإسلام خير من الدنيا وما فيها
 الله يهدينا إلى ما نريد
 والله يهدينا إلى ما نريد
 والله يهدينا إلى ما نريد
 والله يهدينا إلى ما نريد

بسم الله الرحمن الرحيم
 الإسلام خير من الدنيا وما فيها
 الله يهدينا إلى ما نريد
 والله يهدينا إلى ما نريد
 والله يهدينا إلى ما نريد
 والله يهدينا إلى ما نريد

بسم الله الرحمن الرحيم
 الإسلام خير من الدنيا وما فيها
 الله يهدينا إلى ما نريد
 والله يهدينا إلى ما نريد
 والله يهدينا إلى ما نريد
 والله يهدينا إلى ما نريد

ربع فرسخ، لكن شاهدها في أماكن عدة بغاب قرى دقورها التركمان والاكرد، وربما الحكّام الأتراك، واجتازها غابة صغيرة في منطقة يوجو اوجوك (Joguo Ojuk) إذ الدرب سدي سكهة سبيء نعاية، تتحدده حمر هطول الأمطار، وتكثر عليه الحجارة، لكن المراعي خصبة لده احتار المكاريون المرور عبر الصحراء. وصفا سويريك في ٢٣ أيار/مايو، وتبعد هذه المدينة الصغيرة عن دير بكر حوالي عشرة أميال، ولربما ٢١ ساعة لقطع هذه المسافة.

تقع سويريك في وادي، على ارتفاع القصب ٣٧° و ٤٦°، ويبلغ عدد مزارعها حوالي ٢٠٠٠ مزرعة. يسكن حوالي ١٥٠ منها رمن وسج. في المدينة ثلاثة مساجد تعلوها مآذن وثلاثة حمامات عامة، ولا تشاهد فيها أعمال تحصين، إنما ته مرتفعة من التراب، كما في أرييل وكركوك، تعلوها أسس قلعة. وتصادف خارج سويريك العديد من الجنائز لعميلة لعداء والكثير من الكروم، وقد أشرت في وصف شبه الجزيرة العربية إلى مردود محطة المرتفع في هذه المنطقة.

يمكن سلوك طرق عدة من سويريك إلى البير، (El bir) وودت التوجه مباشرة إلى أورفة لأسي كنت على مقربة من المدينة القديمة الشهيرة، لكن المكاريين أثروا المرور في منطقة قاحلة واضطرت إلى مرافقتهم حتى ملّة سررا (Mullazono)، وهي أول قرية تصادفها على هذه الدرب. في ٢٨ أيار/مايو، أرسلت حادمي مع القافلة، وسافرت مع لمكاري إلى أورفة التي رصبتها سالماً من دون أن تصادف أي قاطع طريق. وتبعد سويريك عن ملّة سررا حوالي سبعة أميال ونصف، وتبعد هذه الأخيرة عن أورفة خمسة أميال ونصف، وفي ليوم الأخير لمرحلة، عبرت منطقة جميلة تسمى جهيان (Dsjuhban) نسبة إلى قرية تقع فيها، ورأيت أنهرأ صغيره عدة نسمو على ضفافها الحدائق والأشجار.

وبما أن وقتي لا يسمح لي بالوقوف طويلاً في أورفة، سارعت إلى دراسة موقع المدينة ووضع خريطة لها تخدمونها على اللوحة ١١. ويشبه موقعها إلى حدّ بعيد موقع مدينة تهر في اليمن، لأن القلعة الواقعة في أحد جوانب المدينة على نلة، يشرف عليها جبل شاهق وبالتالي لا فائدة منها ضد عدو ازروبي لكن أورفة تعتبر محصنة جداً بالنسبة لهذه البلاد. يحيط بالمدينة من كافة الجهات سور مهي من الحجارة الكلسية البيضاء، وتقوم في جهة من جهات المدينة حفرة عميقة في بعض الأماكن، نصب فيها المياه من نبع غريب وبالتالي يمكنها أن تعتبر جدولاً، وقد حمر الحندق المحيط بالقلعة في الصحراء. وهو جاف كثيراً. وللمدينة أربعة أبواب. ١) مستط قبوسي (Samsat)، ٢) جنفي قبوسي (Gengi)، ٣) بيت قبوسي، ٤) حران قبوسي (Haran) ولاحظ في القلعة نرب الرقم ٥، وجود عمودين مستقيمين وبنايين مهاريين، لكني لم أرها إلا من بعيد فضلاً عن الآثار على الجبل خلف القلعة. أما هذه الأخيرة فتحمل اسم مردود ويعتقد الأهالي أن

ممرود الذي ورد ذكره في الكتاب المقدس اقام في قصرها لذا حملت القنعة اسمه، وهي قديمة للغاية وتستحق ان يشاهدها اي زائر يقصد البلاد وفي الجبل غرف عدة محفورة في الصخر لكنها مهجورة باستثناء تلك الواقعة قرب الرقم ٦ فهي مسكونة حالياً.

احصيت في هذه المدينة ١٢ معبد، بعضها مربع الشكل، ويشبه احدها إلى حد بعيد جرس كنيسة مسيحية. أما المنازل فمبنية بشكل جيد ومتين، وجن ما بلغت الارتفاع هو مسحد جميل وكبير، قرب الرقم ٧، بناء على ما يبدو ومسلم مؤمن حتم ان ابراهيم صلى في هذا المكان، وتدفع هذه الاحلام المسلمين إلى بناء المساجد كما يبني اليهود معابدهم، ويطلق عليه اسم خليل الرحمن ومعام ابراهيم. كما نجد عند سفح الجبل بعين عزيز، يرويان البساتين والحقول ويديران الطواحين، وتقوم امام كل من النجيين بحيرة واسعة جميلة تكثر فيها الاسماك ومحكمة لإبراهيم، ويحمي القاصي هذه الاسماك، كما يرون ان الله عاقب من حاول المساس بها، لكن بالرغم من ذلك يقال ان العديدين يستفيدون منها^(٥).

يقع الارض في حوالي ٥٠٠ منزل في المدينة. ويملكون كنيسة كبيرة ورائعة قرب الرقم ٨ على المغارطة. تهدم قسم كبير منها لكن القسم المتبقي رثى بسجاد عجمي جميل، كما يصلون في كنيسة اخرى خارج المدينة قرب الرقم ٩ وتدعى خضر الياس. وللمعقوبيين كنيسة هنا، لكن رعيته لا تتعدى المئة والخمسين منزلاً، وحاول المبشرون الكاثوليك دعوة الناس مراراً في هذه المدينة لكنهم لم ينجحوا في ذلك.

عنمت ان الحكيم باشي (أو طبيب الياشا) اوروبي، لذا اعتبرت أن من واجبي زيارته، ونصورته جراحاً ايطالياً أو فرنسياً فتوجنت حين ألقينه شاباً يونانياً في الخامسة والعشرين من عمره. كانت أرض غرفه معطاة بسجادة جميلة، على الطريقة الشرقية، ووضع قرب الحائط أريكة مريحة، ويتدلى من الحائط حساءه ومسندسائه المطوية بالقضبة مصللاً عن مرجه ولجامه المرهين بالمعدن نفسه ولم يجني على اسلتي بل اكتفى بالحديث عن نفسه، فقد درس سنوات في جامعة ايطالية كبيرة من الاطباء اليونانيين الميسوريين، ويؤمن بعلم الفلك وبالاحلام، وروى لي احلاماً عدة تحققت، فقد حلم على سبيل المثال بسزل (بالايطالية رها) بعدها أصبح سيده بشا هذه المنطقة التي تسمى الرها. وأكد ان منزلته عالية عند الياشا وانه لا ينتظر سوى لحظة يصبح هذا الاخير ثرياً مقتنعاً ان الثروة ستهبط عليه عندها، لكن هذا الامر لم يتحقق في وقت قريب لأن الياشا لم يتزوج

(٥) اشرت سابقاً الى وجود هذه الاسماك المقدسة في شيراز، وأبني بحيرة اسماك مماثلة في ديار بكر ثم في سلحق (Salicho) قرب انطاكي



سوى امرأة واحدة، ولا يملك جوارٍ يكلف غيره من البشارات مبالغ خائلة، لكن زوجته هي أخت السلطان وقد طاب لها أن تبقى في العاصمة، لذا مصاريفها باهظة، وبالكاد يتمكن هو من العيش بطريقة لائقة في مركزه هذا. يقال أنه فلما تتبع هذه الأميرات أزواجهن، ويؤكدون أن أي باشا يتزوج ابنة السلطان، شابة أم عجوزاً، وتقيم على بعد عدة فرسخ لا يتجرأ على الزواج من امرأة أخرى أو على امتلاك الجواري^(١). كما يزعمون أن الباشا يجير على ترك زوجته حين يفضل عليه السلطان بتزويجه من ابنته أو ابنته، وأن إحدى هذه الأميرات روجت مرات عدة قبل أن تبلغ وقبل أن تخرج من قصر السلطان. وروى لي هذا الأوروبي قصة تظهر حماقة الأتراك إذ لم يتمكن أهم ضباط السلطان من الأبحار في مركب بهاء مرتد يوناني، فانقلب فيهم وسط بحيرة وغرقوا جميعاً.

يطلق اليونانيون اسم اديسه (Edessa) على أورفة، ويسمونها الأرمن اديسيه (Edisja)، واستناداً إلى اليهودي الذي ذكرته آنفاً، يسمى كتاب هذه الأمة القداسي، مدينة أورفة أوركاسلوم (Orcasium) لكن الأتراك يدعون منطقة حكمهم هذه الرها لأن مدينته بهذا الاسم، تهدمت بمعظمها كانت محل إقامة الباشا فيما مضى. إن مدن وساطق عدة جميلة وجمعة أصبحت حالياً فاحلة جرداء وتركزت لمدينتيها من عرب واكراد وتركمان تستخدم اللغة التركية خاصة في ديار بكر وأورفة، في حين أن اللغة الكردية شائعة في الريف بين الموصل وأورفة، والعربية في ماردين والموصل. ويتكلم أهل البلاد الذين يسافرون كثيراً، سيما التجار والمكاريون هذه اللغات الثلاث عادة، وإن كانوا من الأرمن فإنهم يتكلمون أيضاً لغتهم الأم.

في الليلة الأخيرة بشف عند كاهن أرمني، خارج المدينة كي يتمكن من السفر في صباح اليوم التالي قبل فتح الباب. وهذا مضيبي مرئياً لأنه غشي كاثوليكيّاً، لكن حين قلت له أنني أنكليري، وقد تعرف لي حلب على هذه الأمة التي أحبها كثيراً لأنها لا ترسل المبعشرين إلى تركيا، أصبح مهذباً ولطيفاً وأمر بتخصير عشاء لذيذ واكلنا معاً تحت شجرة. في الأول من شهر حزيران/يونيو، قطعت ١٤ فرسخاً أو حوالي عشرة أميال حتى البير (المرحلة LII)، وصادفت الكثير من الأماكن المهتمة، ولا تعود كلها لقرى، إذ وجدت في أربعة أو خمسة أمكنة، بقايا أحجار كبيرة وبالتالي فهي بقايا قلاع أو أسوار أخرى كبيرة. ولم تسمح لي الظروف بأن أدرس هذه البقايا باهتمام أكبر، وبما أن مرافقي لا يهتم أبداً بأسماء المدن القديمة المدمرة ولم يسلط هذه الطريق إلا نادراً، لم أتمكن من معرفة اسم واحد من أسماء هذه الأماكن. وفي ذاك اليوم، كنت الدليل أكثر من مرة، فقد استعلمت في أورفة عن موقع البير، ووجدت استناداً إلى البوصلة أنها تقع في الجنوب الغربي، وعد تقاطع الطرق، أخطأ مرافقي مراراً، ولاحظ أن الآلة التي أحصلها تدل على الطريق الصحيح، فأخذ

(١) تاريخ السلطنة العثمانية، الكتاب الأول، الفصل XVI المصنفة ١٧٩ بقلم ريكو (Rico).

يطلب مني عندما يشك بالطريق التي ينبغي سلوكها أن أسأل ساعتني عن هذه الطريق.

وحادث ما بين عدة، تقصدها قنات القرى أو القبائل الرحالة من اكتراد وتركمان لسقي الماشية، ولم يكن يعطين وجوههم كما في المدن، ويتميز بجمال لامت لكن الشمس حرقنتهم، وما ان رمي عليهم التحية وبرزل عن جيادها حتى يحملن اليها الماء ويسقين مطيانيا. وقد عومست بهذا اللطيف في أماكن أخرى، لكن لطلعت بدا لي غريباً، لأن ربيكا التي من دون شك تزعت في هذه المنطقة، أصهت هذا النصف اتجاه المسافرين (سفر التكوين XXIV) ولعني شربت الماء من البع نفسه، لأن حراد (Harad)، وهي حالياً منطقة صغيرة على بعد يومي سفر إلى الجنوب الشرقي من أورفة والتي يزورها اليهود غالباً، وهي على ما يبدو المدينة التي غادرها ابراهيم قاصداً بلاد كنعان (سفر التكوين XII) ولعل عائلة نجيح ناخور (Nachor) بقيت في البلاد^(٥).

وعند المساء وعلى بعد ميل من البر، التفتنا كردياً على جواده، يرافقه ثلاثة أشخاص سيراً على الأقدام، وكنت وحيداً مع المكارى لكنا كما نمتطي جوادينا، وأحمل بدقية صغيرة في سرجي، وسدساً في حزامي وإلى جانبه حزامي، وكنت قد أعرت سدسي الثاني للمكارى الذي يحمل أيضاً سيفاً. بلولة الأولى، اعتبرناهم اناساً قد يسطون علينا ويسبوننا ما نحمل، مما دفعنا إلى التوقف على مسافة منهم حين توجه رئيسهم بالحديث اليها. لم أفهم أي كنمه من كلام الكردي، لكن مرافقي أخبرني لاحقاً انه استغفهم اذا ما كنت ذلك الأوروبي الآتي من أورفة، وانه تاجراً حين علم اننا نود قطع المسافة بين أورفة والبر يوم واحد، الخ، الخ. باختصار، سمع عني في المدينة، ولم يخرج هذه البينة إلا بجمع بعض الناس لسطو علي في اليوم التالي، لكنه لم يكن يحمل سوى رمح وسيف ولم تتسلح جماعته إلا بالسوف، في حين اننا نحمل اسلحة نارية جاهزة نرى انه من الافضل ان يدعنا نكمل رحلتنا بسلام. انهيت رحلتي إلى أورفة من دون أي لقاءات مرعبة أخرى، ولا اتصح غيري من المسافرين بتقيدي، فقد يصادفون في هذه المنطقة اثنائية، مجموعة من اساس يمكن ان تسطو عليهم بفرها أو لوناحتها. ونحصل هذه الامور في أوروبا، فكيف بالآخرى في بلاد لا يسافر فيها المرء وحيداً ولا يتبني ان يسافر الا بصحبي وحيداً، وأن يقطع حوالي عشرة أميال وحيداً في منطقة لا يجد فيها قرية واحدة وتكثر فيها القبائل الرحالة من اكتراد وتركمان. ولا يتعرض للخطر من المجموعات الكبيرة إن لم يكن في حرب ضد الباشا، اد تحتاج القبائل لأعداد كبيرة لتقيام بأعمال كهذه، وقد يتمكن احد افراد القافلة من التعرف على زعيمهم معاقب الباشا القبيحة بأسرها. إن قطاع الطرق في تركيا، ليسوا فقط من التركمان والاكتراد

(٥) ان حراد هذه، هي استناداً إلى بلنبروس مدينة كرس التي اشتهرت بعد هزيمة الروم فيها.

والعرب، فمعظمهم ليس طردهم الحاكم التركي من خدمته ولا يريدون العمل

بحقت بفاعلتنا في البير، وتقع هذه المدينة على جبل عال على الضفة الشرقية للفرات، ويحيط بها من جهة (البايسنة) سور يعلو تلالاً عده بجري بينها جداول صديرة وهي الطرف الشمالي الشرقي للمدينة نجد قلعة صغيرة على تلة وعرة مغطاة بالحجارة المصقولة، قطعت أصراف روابها كالأحجار قرب سطح الهرم الثاني في محيط القاهرة. ولا يمكن لأحد أن يتسلق التلة، لذا اعتبرت هذه القلعة، عندما ما لم يكن هنك مدافع، منبعا، لكنها انهارت كلياً، ولا يمكن للمدينة أو للقلعة اللتين يحكم رؤيتهما من الجبال المجاورة أن تصمدا طويلاً. بيت تحصينات هذه المدينة وشارلها من الطينشور، فإن سطعت الشمس، وهبت الرياح، عانت العيون الأمرين بسبب العيار القوي وبسبب الحجرة البيضاء التي تعكس اشعه الشمس نجد حائلاً حوالي ٥٠٠ صرل في هذه المدينة، نكن بما أن كافة المسافرين المتوجهين من ديار بكر أو غيرها إلى سوريا يصطرون إلى عبور الفرات في البير، يفيم فيها متسلم تابع لباشا أورفة، وآغا للاكشدرين، وصابط يقبض رسوم المرور على البصائع، كما يدفع رعايا السلطان المسيحيين في هذه النقطة جزية معينة.

يقال أنه في القرن الأول بعد أن استولى المسلمون على هذه البلاد، كانت هذه الأموال تدفع للجنود الذين يرافقون القوافل والمسيحيين في رحلاتهم، أما حالياً فلا وجود لهؤلاء الجنود، وإن أرسل الحكام الأتراك مرافقة مع القوافل، يسعى أن يدفع لها المال على حدة، لكن المسيحيين واليهود لا رالو يدفعون هذه الجزية، التي قد تبلغ قيمتها قرشين للشخص الواحد وطُلب من خادمي أن يدفع هذه الضريبة، وبما أني أحمل فرماناً من السلطان، سم أكن مضطراً لدفع المال وإن كان مارونياً ومن رعايا السلطان، لكني لم أشأ التعاوض مع الأتراك من أجل أمر تافه كهذا فأعطيتهم المال، وأبلغت الجباة أنهم طلبوا من خادمي حرية لا يحق لهم طلبها

إن الفرات قرب هذه المدينة أعرض من دجلة قرب الموصل^(٥)، ووجدت المراكب أكثر متانة وراحة مما توقعت في هذه المنطقة، لأن الحمولة لا تزن عن ظهور الجياد والجمال. واجتازت هذا النهر مع القافلة بأسرها في الثاني من شهر حزيران/يونيو، لكننا لم نصل في ذلك اليوم سوى إلى حالة كوي (Hale Koi)، وهي قرية مهدمة على بعد ميلين إلى الجنوب الغربي من البير. وبما أننا وصلناها قبل الظهر، حملت ساعتني الشمسية وقست ارتفاع القطب اشتداداً إلى ارتفاع الشمس فتبين لي أنه ٣٦° و ٧٧' ، وبالتالي يمكن اعتبار ارتفاع القطب في البير ٣٦° و ٥٩'

وقطعنا في الأيام الثلاثة التالية ١١ ميلاً خلال ١٧ ساعة ونصف ووصلنا أحتران (Achteran).

(٥) حوالي ٨٠ خطوة مزدوجة أو ٣٨٠ إلى ٤٠٠ قدم، كالالب (Elbe) قرب ميسن (Meissen).

واشرت إلى أسماء القرى القليلة التي صادفتها على الطريق. والتي تهدم بعضها، على اللوحة LII، ويجدر الإشارة أن لا يرى ما يشير الاهتمام في هذه المنطقة وسجد في الشمري (Tschamurli) كهفاً كبيراً محفوراً في الصخر، يسجأ إليه المسامرون في انعكس الردي، وعشت أن كهفاً كهده تكثر في بير اختران التي تحولت اليوم إلى قرية بائسة. بنيت المنار هنا من الصلصان وتشبه إلى حد بعيد كتلة الحرائيت، وهو نوع من هندسة العمارة شائع في محيط حلب وحتى في صوحيتها. ونشاهد شمال قرية اختران، الكثير من بقايا سور قديم، حول نبع، فصلاً عن خان قديم مقبب، مبني بشكل متين للعبادة.

في ٦ حزيران/يونيو، تركت العاقلة مع بعض التجار، ووصلت في اليوم نفسه إلى مدينة حلب، وقطعت قرية هيلان التي أخذت اسمها بحسب آراء المسيحيين، عن الامبراطورة هيلانة التي أمرت بجر المياه إلى حلب بواسطة قناة لا زالت تغذي المدينة حتى اليوم ثم اجتزنا منطقة جميلة. تكثر فيها البساتين التي يرويها نهر القوق (Kok)، وحيث يحلو لسكان المدينة الإقامة صيفاً.

وتقع مدينة عشتاب على بعد حوالي ١٠ فراسخ إلى الشمال الغربي من البير، قرب الطريق المؤدية من هذه الأخيرة إلى حلب، وهي مدينة كبيرة كطرابلس، ولا يحيط بها سور، إنما نجد في وسطها قلعة مهيبة على جبل وبنيت مدينته اعزاز (Anzar)، المهذمة حالياً والواقعة على بعد سبعة فراسخ إلى الشمال الغربي من حلب، على الطريق نفسه، وتقع بالقرب من مدينة كلس التي لا تزال أهلة بالسكان حالياً. إن قرية منبج (Bambadsh) القريبة من العرات هي مامبي (Mambie) أو بامبيس (Bambyes) القديمة، ويقال أنها نجد في منطقة حلب بقايا تسمى حصرة (Chanasera)، وراونت (Rawant) هي مدينة أخرى تقع على بعد سبعة فراسخ وربع إلى الشمال الغربي من عشتاب.

أوردت المعلومات التي جمعتها حول قبائل العرب البدو في المناطق الصحراوية من شبه الجزيرة العربية والساحل المجاورة في وصفي لشبه الجزيرة العربية. ولم أتمكن خلال رحلتي من التعرف شخصياً على تركمان واكراد، لكن، وبفضل صدقة الطبيب باتريك واسل المقيم في حلب، والذي يعاين زعماء أهم القبائل، حصلت على لائحة عن قبائلهم المختلفة والتي تشيد قرائني من محبي الجغرافيا. إن عدد أفراد العديد من هذه القبائل قليل. واسماؤها جديدة وقد تسمى قريباً. زد على ذلك، أنه لا ينبغي الاعتماد على صحة هذه المعلومات حول كبر هذه القبائل، لكن بعض هذه القبائل قديم وكبير وتكمن أهمية هذه اللائحة في أنها تشير إلى قبائل الاكراد، أو التركمان التي تغير مكان إقامتها.

لائحة بمختلف قبائل التركمان

قبيلة بكداي تملك ١٢٠٠٠ منزل أي حمة وتقيم في منطقة اورمة.

مهملي تملك ٥٠٠ خيمة
بايندر تملك ٣٠٠ خيمة

تقيم في محيط اورمة

بيليواني تملك ١٥٠٠ خيمة وتقيم بين سيواس وانغورة (Angora siwas)

كوجكلي تملك ١٠٠٠٠ خيمة بين سيواس وانغورة

اوشر وملك ٥٠٠ خيمة

جريد تملك ٥٠٠ خيمة

لك تملك ١٠٠ خيمة

في منطقة سيواس وانغورة

بهدياي تملك ١٠٠٠ خيمة

اغجه قبولي وملك ٥٠٠ خيمة

شام ياداي تملك ٥٠٠ خيمة، بين سيواس وانغورة.

براق تملك ١٠٠٠ خيمة
جهر غندلي ٢٠٠ خيمة

صيفاً قرب سيواس (أثناء في الزور)^(١)

ريخالي ٢٠٠٠ خيمة، تقيم صيفاً في منطقة سيواس وشتاء في منطقة حلب.

قزلان ٢٠ خيمة، تقيم شتاء قرب عدن وصيفاً في منطقة فيصري (Kaisari).

داداي ٢٠٠ خيمة، صيفاً في منطقة فيصري وشتاء في مقاطعة اورمة.

اولشلي ٢٠٠ خيمة في منطقة حلب

جالحلي ١٠٠٠ خيمة

قرق ٢٠٠٠ خيمة

منطقة عتاب

داده قرق ١٠٠٠ خيمة

تابلي ١٠٠٠ خيمة

منطقة دمشق^(٢)

قرة قبونلي ٥٠٠ خيمة

(١) تليست هذه اللائحة بعد رحلي عن حلب وس دون ترجمة. كتب التركماني «في الزور»، ولا أعرف نوع هذه التسمية أو القرية ولا أظنها صور لهذا هذه الأخيرة

(٢) يعمل رعاة هذه القبيلة في خدمة الباشا ويقيمون في دمشق.

صوفوز ٥٠٠ خيمة { في منطقة سيواس
مولجيني ٥٠٠ خيمة

بورنك ١٢٠٠٠ خيمة، في منطقة انغور.

ابليكلي ٢٠٠٠ خيمة، يقيم نصف بقاء هذه القبيلة في اقليم سيواس والنصف الاخر في منطقة حلب.

قره جه جنكرد ٥٠٠ خيمة في منطقة قيصري.

شرفلي ٥٠٠ خيمة { في سوريا سيما في منطقة دمشق
ايالي ١٠٠٠ خيمة

ميجلي ٢٠٠ خيمة

ايهر ٥٠٠ خيمة

طوخشارلي ٥٠٠ خيمة

صرة جلر ٥٠٠ خيمة

كبيكلي ٢٠٠٠ خيمة

عزة دملي ٥٠٠ خيمة

عوزراي ١٠٠٠ خيمة

دندشي . .

مومه بيكلي ٥٠٠ خيمة - ديشمي ٢٠٠٠ خيمة، في منطقة عينتاب.

لائحة بقعائل الأكراد الرحالة

قوجوماتلي ٥٠٠٠ خيمة

ماماتلي ٥٠٠٠ خيمة

سبكي ٥٠٠ خيمة

صوري ٥٠٠ خيمة

بيره بادتلي ٥٠٠ خيمة

جماد نلي ١٠٠٠ خيمة

كاسكلي ١٠٠٠ خيمة

واد كلتلي ٥٠٠ خيمة

برازلي ١٠٠٠ خيمة

كورديكليدي ١٠٠٠ خيمة

شفاقي ١٠٠٠ خيمة

كورانلي ٥٠٠٠ خيمة

تقيم هذه القبائل في منطقة قرص (Kars) صيماً،

وفي منطقة روان أو اروان في بلاد غلوس شناء

- ررقفي ٥٠٠ خيمة
باديني ٢٠٠٠ خيمة
شاذلي ١٠٠٠ خيمة
انزولي ١٠٠٠ خيمة
جهابيكلي ١٠٠٠٠ خيمة
والباللي ٥٠٠ خيمة
موريس ١٠٠٠ خيمة، تقيم صيفاً في منطقة أرضروم وفي منطقة أورفة شتاءً،
موسيانلي ٢٠٠٠ خيمة، تقيم في منطقة جبل سنجار
رشوان ١٢٠٠٠ خيمة، تقيم في منطقة سيواس صيفاً، وفي منطقة حلب شتاءً.
مللي ١١٠٠٠ خيمة، تقيم في منطقة أرضروم صيفاً وفي منطقة أورفة شتاءً^(٥)
ظانلة ٢٠٠٠٠ خيمة، تقيم بين سويريك وأرضروم.
بيجانلي ١٠٠٠٠ خيمة، في محيط سويريك.
كورة جكلي ٥٠٠ خيمة، في منطقة جيتاب.
أوقجة عزلي ٥٠٠ خيمة، في منطقة كس
قرة كجلي ٢٠٠ خيمة بين أورفة وديار بكر.
صحبانلي ٢٠٠ خيمة، تقيم صيفاً في منطقة سيواس وشتاءً
كيكي ١٠٠٠ خيمة، في منطقة ماردن.
بيركي ١٠٠٠ خيمة
دوكرلي ١٠٠٠ خيمة، في منطقة أورفة.
كوره جكلي ٥٠٠ خيمة
اطمالي ١٠٠٠ خيمة
حويدلي ٢٠٠٠ خيمة
سبانلي ١٠٠٠ خيمة
قلجني ٤٠٠ خيمة
حقلي ٧٠٠ خيمة
- تقيم كلها شمال جيتاب

(٥) تختلف هذه القبيلة عن قبيلة ميلي المذكورة، سابقاً، وتمتلك هذه حوالي ٢٠٠٠ خيمة

وأعطاني تاجر من ماردین، سافر مراراً بين مدينته وحلب والقسطنطينية الاسماء التالية لقبائل الأكراد.

قبيلة شيخ بلني ١٠٠٠٠ خيمة، وتنجول بين ماردین وهولي

قبيلة شرافاني ٨٠٠ خيمة، تقيم في السهل بين ماردین وورقة

موركجي ٢٠٠ خيمة ومنزل في المنطقة الجبلية لماردین.

باران علي ١٠٠٠ خيمة بين ماردین وصبيين.

دودكي ٦٠٠ خيمة بين ماردین واورقة.

كوم بل ٣٠٠ خيمة بين ماردین واورقة.

بريفي ٤٠٠ خيمة بين ماردین والموصل

هولي ٢٠٠ خيمة بين ماردین واورقة

جركي ٢٥٠ خيمة

علاجة ٣٠٠ خيمة، في منطقة ماردین.

دبلي ٥٠٠ خيمة

درشانلي ٣٥٠ خيمة، في جنوب ديار بكر^(٥).

صوحاني ٧٠٠، ولا تملك هذه القبيصة حالياً أي رعيم لها وقد اختلطت بالقبائل الأخرى المذكورة أعلاه.

كابلور ٣٠٠ خيمة، في منطقة ماردین.

سليفية ١٠٠٠ خيمة، بين أرضروم وبلاد فارس.

اورانلي ٩٠٠ خيمة، في منطقة ماردین الجبلية

كركري ٣٠٠ خيمة، بين مسجار والجزيرة

شخانية ٢٥٠ خيمة، في منطقة ماردین^(٥٥).

(٥) يقيم العديد من هذه القبائل الجبلية، في قرى أثناء الشتاء، كالأكراد في شيخ خان، وكسكان باتكينار.

(٥٥) لعنهم الأكراد شيخ خان الدين «كرتهم».

نجاري ٢٠٠ خيمة، وتقيم كذلك في اقليم مازدين

ورؤيتني التاجر المازدي المذكور بأسماء القبائل العربية التي تقيم في منطقة الخضراء وهي صغيرة مقربة من قبيلة طي، كما تضع نفسها تحت حماية هذه الأخيرة. وهذه القبائل هي
بو كعب ١١٠٠ خيمة.

بككاري ٩٠٠ خيمة.

حجاشة ٥٠٠ خيمة.

ذبابات ٦٠٠ خيمة

شراة حوالي ٧٠٠ خيمة. ويوزع أعضاء هذه القبيلة على القبائل الأخرى.

ويتبع الأكراد والتركمان الديانة الإسلامية. ويعود أصل أهم العائلات الكردية إلى كردستان، والعائلات التركمانية إلى تركستان. يقولون أن العديد من التركمان الذين بقوا في المنطقة، أتوا إليها مع جيوش تيمورلنك، لكن عامة الشعب منهم ومن الأكراد، تتحول أساساً من المناطق التي تجول فيها حالياً وكان قسم كبير منهم يبع الديانة المسيحية. وعندما بهمم الحكام والأثراك أو البدو قرى هؤلاء الناس لا يجدون وسيلة أخرى لبقاء سوى طلب حماية التركمان والأكراد والعرب، وبما أنهم يعتقدون هنا أيضاً بلكناس ولرجال الدين، يسمون تدريجياً ديانتهم ويعتبرهم الأولى، زد على ذلك أن تشدد رجال الدين الشرقيين غير المناسب ساهم أيضاً في تراجع المسيحية وانحطاطها.

ويقال مثلاً أن أبناء قبيلة بهليوانلي كلهم كانوا من المسيحيين، وقد طلبوا من مطرانهم إذن تخفيف صومهم أو على الأقل السماح لهم بأكل الزبدة والبيض وشرب الحليب أثناء الصوم، لكنه رفض ذلك، فما كان من القبيلة إلا أن اعتنقت الإسلام. وهي تعتبر حالياً من قبائل التركمان.

ويطلق لقب آغا على زعيم الأكراد والتركمان. ويقال أن الأخيرين لا يهتمون إطلاقاً بحسبهم ونسبهم. بعكس الأكراد، الذين يعتقدون بأصلهم كشيوخ بدو. وتختلف طريقة تفكيرهم عن طريقة تفكير العرب إذ يحتفلون بولادة الغداة كما يحتفلون بولادة الفتى، ولأنهم مسلمون يحق لهم الزواج من أكثر من امرأة واحدة، ولا يقتن آغا الأكراد بفتاة أوضع نسباً منه. ويرسمون أن الكردي المسحدر من عائلة عريقة يطلب خمسين كيس مال (ما يزيد عن ٦٥٠٠ درهم) حين يزوجه ابنته، ويعطيها مهر صغيراً، في حين أن اعيان العرب والأثراك، يضمنون في المهر كل ما يملكونه من الزوج وأكثر من ذلك، لذا تعتبر بعض الفتيات كتراراً.

وينتأسي الأكراد والتركمان، الموزعين في القرى، زعيم من يسهم. وسمعت، في القرى الواقعة بين دجلة وكرديستان، عن العائلات الكردية النائية باجلان (Badsjelan)، لأك (Lak)، ساريليه (Sarihe) وغيرها ولكن منها كحيا (Kichja)، إلا أنه لا يعتبر حاكماً إنما قلاحاً كبقية عائلته، لكن بما أنه الأقدر على التعاطي مع الحكام الأتراك أو على حلّ الخلافات، يعترض أن من واجبه التحدث باسمهم من دون أن يتفق أجراً على ذلك. فقلنا نجد عائلات كردية وتركمانية أو عربية تحفظ بشجرة عائلتها^(٥).

وبالرغم من أنني لم أقصد بنمسي قيسارية وثوكات (Tokat) وأرضروم ووان (Wan)، سنشير إلى بعض الطرق المؤدية إليها، كما اقترحها علي، أناس يؤجرون الجياد والبغال، وبالتالي يعرفون هذه الطرق جيداً. ويحسبون المسافات بساعات السفر، لكن بما أن الدروب ليست مستقيمة دوماً، وتمرّ عبر جبال يمكن أن تعتبر حفرهاً أن كل ساعة توازي نصف ميل.

الطريق من ديار بكر عبر أرضروم

تبلغ المسافة بين ديار بكر وشيرين خانة ستة فراسخ، وبين هذه الأخيرة وبردنيش خانة ستة فراسخ أخرى. ويسمى قطع ستة فراسخ للوصول إلى أورطلي خان، وأربعة فراسخ منها إلى خانة وثمانية فراسخ حتى باللو، وثمانية أخرى حتى نهي، وثمانية فراسخ حتى جون، وحتى هورهور ثمانية فراسخ، وسبعة فراسخ حتى كوي رمير، وثمانية فراسخ حتى مهلي كان، وستة فراسخ حتى باش كوي، وسبعة فراسخ حتى دوزلي، وستة فراسخ حتى خانجي، وستة فراسخ أخيراً حتى أرضروم (أرزروم). وبالتالي تبعد هذه الأخيرة عن ديار بكر أربعة وتسعين فرسخاً، كما تبعد أرضروم عن قارص ستة أيام سفر.

الطريق من قيسارية إلى ديار بكر ومن ديار بكر إلى قوفاق

تبعد قيسارية عن بارسونما (Barsonma) خان أربعة فراسخ، ونقطع بعدها أربعة فراسخ لنصل إلى سلطان خان، وستة فراسخ أخرى لنصل إلى جمارك (Dsjamerk) وثمانية فرسخ إلى شابر كيسل (Schaber Kisle)، وتسعة فراسخ تفصلنا عن حانة (Chane)، ومن ثم نسير تسعة فراسخ ونصل إلى أولاش (Ulash)، وتسعة فراسخ فنصل إلى كمال (Kangal)، وستة فراسخ إلى الأجي خان (Aladsje chan)، وسبعة فرسخ حتى حسن شليبي (Hassan Schellebi)، وخمسة فراسخ حتى حكيم خان، وستة فراسخ حتى حران (Cherren)، وأربعة فراسخ حتى أوغلي (Oguli)،

(٥) انظر وصف شبه الجزيرة العربية.

وثمانية فراسخ حتى دانيسلي، وأربعة فراسخ حتى معدن، (Maaden) وسبعة فراسخ حتى أربو (Arpaud)، وستة فراسخ حتى هربود (Charpud)، وستة فراسخ حتى حابوسي (Hobusi)، وتسعة فراسخ حتى بازخان (Bas Chan)، وأربعة فراسخ حتى أورطة خان (Orta Chan)، وستة فراسخ حتى بورديس خان، وستة فراسخ حتى شربين خان (Cherbettin Chab)، وستة فرسخ حتى ديار بكر. وتبعد بالتالي قيسارية عن ديار بكر ١٣٩ فرسخاً.

ومن ديار بكر حتى توكات، تسلك الدرب نفسه أي مسافة ٩٩ فرسخاً من ديار بكر أولاً، ثم سجتار سبعة فراسخ حتى ميواس، ٢٠ فرسخاً حتى يكي خان (Jengi Chan)، وستة فراسخ حتى بولوس (Bolu)، وستة فراسخ أخرى حتى توكات. وبالتالي، يقطع المرء ١٢٢ فرسخاً ليصل من ديار بكر إلى توكات.

الطريق من توكات إلى أماسيا (Amasia)

تفصل بين توكات وإيغناخان (Igna Chan) ستة فرسخ، وتبعد هذه الأخيرة عن توربال (Turbal) ثمانية فراسخ، ويبقى قطع ثمانية فراسخ للوصول إلى أماسيا. تصبح المسافة بين توكات وأماسيا بالتالي ٢٢ فرسخاً.

الطريق من وان وديار بكر إلى أرضروم

زودني رسمي، اعتاد السفر خلال شبابه بمعلومات حول هذه الطرق، لذا لا ينبغي الاعتماد على المسافة الفاصلة بين الأماكن، إلا استناداً إلى الطرق السابقة التي جمعت المعلومات عنها من مزجري الحيات والبعال.

تبعد وان عن ميراك (Mirak) ثمانية فراسخ، وتبعد هذه الأخيرة عن أرديش (Ardish) سبعة فراسخ ويجب قطع عشرة فراسخ حتى مالاسغرد (Malasgerd)، وتسعة فراسخ حتى بوستانديبي (Bostandibi)، وثمانية فراسخ حتى يريديكوي (Yasid Koi)، وأحد عشر فرسخاً حتى مييك كوي (Mellik Koi)، وثمانية فراسخ حتى خانيس (Chamis)، وثمانية فراسخ حتى طورطان (Turtan)، وستة فراسخ حتى أرتيف (Ertif)، ومنها إلى أرضروم ستة فراسخ.

على طريق ديار بكر، تبلغ المسافة بين وان ومسطان (Mastan) ستة فراسخ، وثمانية فراسخ من هذه الأخيرة حتى بلية (Pelle)، وعشرة فراسخ حتى نظوان (Tatwan)، وتسعة فراسخ حتى سورب (Surp)، وثمانية فراسخ حتى زعق (Zack)، وأحد عشر فرسخاً حتى سوغورد (Sugurd)، ومنها إلى ديار بكر أربعة أيام سفر.

ملاحظات حول سوريا وسكان جبل لبنان

عند وصولي إلى حلب، قصدت أولاً منزل الفصل الهولندي العام، السيد ماسيك، الذي دعاني في بغداد لزيارته، فاستقبلت بحفاوة بالغة، فمئذ سنوات عديدة لم أجلس في صحبة اناس بهذه اللطافة. حتى انني صادقت اشخاصاً من بلادي ولد السيد ماسيك في هولندا. وهو يعد بانثالي من رعايا الملك الدانمركي أم السيدة ماسيك، وكينها غومرتس، فولدت في هامبرغ. بدل مصبي قصري جهده لجعل اقامتي في هذه المدينة مسلية جداً، فمررت على الاوروبيين المقيمين فيها، ومن بينهم السيد بوري، الذي يعمل في متجر السيد ماسيك، ويقع في منزله، والطبيب باتريك روسيل، شقيق صاحب كتاب وصف حلب (بالانكليزية) والسيد داهيس، رئيس ادارة المصنع الانكليزي، والوالي الحالي، بسيتون، والسيد سميت، والسيد بورت، وغيرهما من التجار الانكليز. فوجدت نفسي وسط مجموعة من الاصدقاء الاوروبيين، وبسيت في حضرم الاحاديث المتاعب التي مررت بها حتى الان. في هذه الاثناء تنقيت في حلب الامر من جلاله الملكة تقصي بالعودة إلى قبرص، وسنخ النقوش التي نقلها السيد بوكوك، والتي يخالفها العلماء الاوروبيون بسنة، وتستدعي بالتالي التوضيح. كان سكان هذه الجزيرة قد فتقوا حاكمهم من قرة ليس ببعيدة، واعينوا الجزيرة مساحة حرب، فقصت الانتظار قليلاً قبل القيام بهذه الرحلة، وبما كان البعض يحاول تعظيم الامور، اسرعت بالذهاب إلى اسكندرون، للانتقال منها إلى قبرص، فور سماعي اخباراً جيدة، تؤكد ان محيط لارنكا، حيث عثر السيد بوكوك على النقوش، اصبح آمناً، وقصدت بعدها يانا، واورشليم وعكا، وصيدا، ودمشق وطرابس واللاذقية، لأعود لاحقاً إلى حلب، بانتظار وصول القافلة التي ستقسي إلى القسطنطينية، مروراً بعدن، وكوتاهية وبورصة، غير اني سأحتفظ بوصف هذه الرحلة لجزء التالي، وسأكتفي بأن أصيب في بعض الملاحظات حول سوريا

تنقسم سوريا إلى عدة مقاطعات، على رأس كل منها حاكم يملك ثلاثة اطواق؛ تعد المناطق التابعة لحكومة دمشق الاكبر مساحة والاكثر ربحاً، لأنها تضم الاراضي المقدسة. تليها المناطق التابعة لباشا حلب، والجدير ذكره ان باشا طرابلس وباشا صيدا، يملكان عدة اقاليم تابعة لعهودهما، علماً ان معظم رعاياهم ينتمون في جبل لبنان، رغم انهم ينتمون لمذاهب وديانات مختلفة، ويتخبرون شيوخاً وامراء من قومهم يستأجرون بعض الاقانيم من البشوات، ويرفضون دفع الايجار إلى ان يستدعيهم الجيش التركي ويرصمهم على دفع ما يتوجب عليهم

حلت اللغة العربية محل اللغة السريانية القديمة، وبرغم أن بعض سكان القرى التابعة لحكومة دمشق، يستعملون اللغة السريانية الحديثة التي تختلف كثيراً عن القديمة منها^(*) يكلم لاكراد والتركمان المعتمدين في جبل الاكراد وهي مقاطعة التركمان، أو في سوريا تحت الخيم، للنغين الكردية والتركمانية المحييتين. ولكن منذ أن خضعت البلاد لحكم الأتراك والذين عيشوا في هذه المقاطعات باشاوات لا يفهمون العربية، أصبحت اللغة التركية، اللغة المستعملة في البلاط، سواء في هذه البلاد أو في المقاطعات الأخرى التابعة لسلطان، غير أن هذه اللغة ليست مألوفة هنا شأنها شأن الفرنسية في ألمانيا.

تعد الديانة الإسلامية، وخاصة المذهب السني، الديانة السائدة في هذه البلاد، وبعد أيضاً يهود ومسيحيين ومناوئة، ودرور وبصيريين واسماعيليين وأتباع مذاهب أخرى لا يوليها السكان اهتمامهم.

يقوم اليهود في المدن، وهم جميعاً من التلموديين، وبرغم أن مصادف في دمشق، بعض الفرائين واسماريين، الذين يقيمون في نابلس ومحم.

يكثر المسيحيون في سوريا وخاصة في جبل لبنان، حيث يتمتع الموارنة في ظل الدرور، بوع من السيادة، أكثر منه في المدن. يعترف الموارنة بالبابا كزعيم روحي لهم، ويشددون على انتمائهم للكنيسة الرومانية^(**). ورغم أنهم يحترقون بطاركتهم بأنفسهم يصلون من البابا مباركة الشخص الذي وقع عليه الخيار وسحه لقب بطريرك انطاكية. غير أنهم قلما يأتون لأمر البابا، إذ يُروى أن الكهنة الأوروبيين في جبل لبنان، اختاروا بطريركاً كان في روما وبنا لحضرة لدى الأوروبيين الكاثوليك، ولكن الكهنة الشرقيون اختاروا بطريركاً آخر صديريين بعرض الحائط رفض البابا سحه بركته. يختار البطريرك الماروني ١٢ مضمناً يعملون في خدمته يستعمل معظم موارنة جبل لبنان اللغة السريانية في قناديلهم، بينما تحلى موارنة حلب عنها، كلياً واستبدلوه باللغة العربية الحديثة

يقوم المسيحيون الأرثوذكس في منطقة جبل لبنان الخصبة والرحية. وقد حلت اللغة العربية

(*) أكد بي أمير من جبل لبنان، أن بعض سكان هذه الجبل، المقيمين في إقليم البصية في قرية القاصي، يتحدثون اللغة السريانية، ولعل الرحالة اللاحقون يستطيعون التأكد من ذلك ومقارنة هذه اللغة السريانية الحديثة بالقديمة منها.

(**) يبدو أن العائلات بقيت مقطوعة بهم وبين الأوروبيين التابعين للديان نفسه حتى العام ١٦٠٠، إذ أرسل إليها البابا موفداً إلى جبل لبنان، للاستعلام عن مطالب الموارنة، فأكدوا له جميعاً أن مطلبهم الأساسي هو الانضمام إلى الكنيسة الرومانية، دون الانفصال عنها بهذا، مهم كانت الظروف، حتى وإن كانت ستذهب إلى الجحيم. رحلت إلى جبل لبنان. لندبي، ص ١٢٢ ١٢٣ منذ تلك الساعة، لم يعد الكاثوليك يحترق الماروني ملحقاً

محل اللغة الرومانية في قناديسهم. وهم يحتارون لهم بطريركاً، يسلمه البابا مهاماً محددة لينال انه عين بطريركاً أرثوذكسياً، في الشرق. والجدير ذكره ان الارثوذكس المقيمين في مناطق نفوذ السروز قلما يأبهون لأمر هذا البطريرك، الذي لا يتمتع بأي صلاحيات تذكر، ونجد أيضاً في جبل لبنان، بطريركاً للأرمن، يعينه البابا ويمسحه صلاحيات محددة. في الواقع، يقيم هؤلاء بطاركة الاروبيين في هناء في ظل الحكم السوري، بينما يعاني البطريرك الكلداني في ديار بكر، وغيره من رجال الدين المرتدين في الشرق، الأمرين، على حد اتباع ديانتهم القديمة والباشاوات، إذ يكثر في المدن السورية، اليونان والأرمن واليعقوبيون، الذين يعترفون بطاركة القسطنطينية، وأج ميازين وديار بكر، كرعاء روحيين لهم، ويسرهم كثيراً ان يمنحهم البابا لقب بطاركة. ومما لا شك فيه ان انصراف الكهنة الأوروبيين وتلاميذهم عن الطقوس القديمة، أدى إلى اشغال الفتن والقضاء على عائلات عريقة. ومما لا شك فيه ان اندلاع الفتنة بين المسيحيين كان في مصلحة الحكومة التركية.

يتبع المناوئة المذهب الإسلامي السهبي في بلاد فارس، وهم بالتالي من اهل الشيعة^(٥). وعلى غرار سكان بلاد فارس، يتمتع المناوئة عن تناول الطعام والشراب مع اتباع الديانات الاخرى، ولا يستخدمون طبقاً اكله من شخص غريب، الا بعد تعذيب جيد، حتى انهم يعتبرون أنفسهم مدسسين ان لمس احبتي ملابسهم. ولما كانوا يعيشون في ظل الحكم التركي، قلما تجرأوا على معارضة أهل السنة بازدياد، والجدير ذكره انهم غالباً ما يدعون كرههم أنتماءهم لأهل السنة. في الواقع، لا يحب السنة والمسيحيون العيش في رسلهم، سيما بحس المودة اسماء من لدى شيوخ المناوئة، ويقبضون بينهم سنوات عدة. ولكن لسنوات خلت، استطاعوا وضع يدهم على اقليم عدة. تقسم عائلة حروفش، التي يعتبر سيدها نفسه اميراً، في بعلبك، وتدفع اجرة هذا الاقليم لسلطان القسطنطينية مباشرة. وفي سير والمناطق المحيطة بها، التي تعرف ببلاد بشري نجد ثمانية شيوخ من عائلة ناصيف، يدفعون الاجرة لباشا صيدا. ويحكم شيوخ المناوئة من عائلة الخنساء، منطقة القرنه والهرمل^(٦)، المنطقة على نهر العاصي، وهم يدفعون الجزية لبك حمص. خلال اقامتي في هذه البلاد، كانت عائلة حمادة تحكم اقليتي جيب بشري الشماليين والواقين ضمن مناطق نفوذ باشا طرابلس^(٧). غير ان الامير يوسف الدرزي طرد هؤلاء المناوئة، كما سأذكر في ما بعد.

يخضع السروز لسلطة شيوخهم الذين يعرفون بالأمراء. يقيم الامير الكبير في دير القمر وتمتد

(٥) يطلق عليهم بركوك اسم صناديق العرب، وكورث سمجاد، عبر التي لم اسمع هذين الاسمين في سوريا.

(٥٥) على مقربة من الهرمل نجد بنتي البوة والراس، اللتين تستندان المياه من نهر العاصي.

(٥٥) يقول بنافس در تردلا (ص ٣٤) انه صادق في هذه المنطقة بجموعة من البشاشين، ويقول ويخرب ان البشاشين يهيمنون في جبال صور، وانهم اخذوا ديانتهم من بلاد فارس. مما يعني ان البشاشين الذين اشتهروا خلال الحملات الصليبية، كانوا من المناوئة، غير انهم لا يقدمون طاعة عملاء بشيوخهم.

مناطق يمدده إلى جزء كبير من جبل لبنان وهو يدفع الجزية بباشا صيدا. يحكمه اعليم راشيا، الأمير علي، ويدفع الأجرة لباشا النسيم في المدينة نفسها. أما في اقليم حاصبيا فيقيم أمير آخر يدعى اسماعيل، والجدير ذكره ان هؤلاء الأمراء الثلاثة ينتمون للمصر الشهابي فضلاً عن ذلك، سمعت الناس يتحدثون عن شيخ درزي، يدعى حسين، ويحكم حوالي ٤٠ قرية في جبل قعطين، الواقع ضمن باشليك حلب. غير ان مكان هذه القرى لا يتبعون الديانة الدرزية بحد فيرف بل يُروى أنهم يقيمون ليلاً اجتماعات سرية ويمارسون عادات الاسماعيليين، التي سأحدث عنها فيما يلي.

أكد لنا الفرنسيون ان دروز جبل لبنان يتحدثون من المواطنين الذين لا يسمون السطحة الجببية في الأرض المقدسة، بعد ان طرد منها الأوروبيون، غير اننا لا نستطيع اثبات العكس لأن بيامس دو بودلا يأتي على ذكر الموضوع في بيان رحلته، ص ٢٦، علماً انه قصد هذه المناطق في الوقت الذي كان فيه الأوروبيون سياد الأرض المقدسة مما لا شك فيه ان الدرور سيرة نيو الأصل، ونكسهم اعتنقوا ديانة محمد أو اسماعيل الدرزي. ندي اثر صحة كبيرة في مصر في بداية القرن الخامس هجري ويدعي بعض المؤلفين اننا نستطيع التعرف عليهم من خلال رؤوسهم المقربة وسألت الموارنة عن هذا الموضوع، أكدوا لي انهم لم يحفظوا اي اختلاف في رؤوسهم كما وانهم بقوا عبادة الدرور للعجل رغم ان المسلمين يطلقون عليهم لقب ابو العجل، ويسما انهم بعض المؤلفين بالرواج من نجاتهم وبناتهم، أكد لي المسلمون والموارنة انهم يقيمون بينهم، ان ذلك غير صحيح.

ينقسم الدرور إلى مشايخ العقل أو رجال دين وجهلة أو علمانيين يتبع التعيين الاول شيوخ العقل الثلاثة الأساسيون، ويقيم الاول في إقليم المرقوب والثاني في إقليم الشوف والثالث في اقليم حاصبيا. يتميز شيوخ العقل عن العلمانيين بشبابهم اليصاء وهم يملكون مارل محم على الهضاب المطلّة على المناطق الجبلية. وساء الحيس، أو عشية الجمعة يجتمعون كلهم في منزل زميل لهم، للتعرف لشعائهم الدينية والصلوة عن بة الأمة كلها؛ نستطيع رجالات رجال الدين حضور هذه الاجتماعات بينما يحضر على الأمراء أو العلمانيين المشاركة فيها. وهم يكرهون مظاهر البر في الدين، غير انني احلهم افاضل كره، لأنهم سيقفون لاحقاً، وبعد عودة حاكمهم لاعتلاء العروش الملكية، والخاصب الوراريه وهم لا يتزوجون من بنات العلمانيين، بل وانهم يشتركون من ثروات الاعيان، ويرفضون تناول الطعام لدى شيوخ وامراء امتهم. ويكتفون بقبول الدعوات لتناول الطعام في منازل شيوخ العقل والفلاحين، الذين يكسبون قوتهم من عرق جيبتهم. وسمعت رجال الدين السنة يقولون انهم يرفضون تناول الطعام مع الباشا أو غيره من الاعيان الاتراك، غير ان البعض ينهمم لهذا السبب بالحيث. والتحذير ذكره ان الدرور العلمانيين يرفضون ايضاً تناول الطعام مع الجميع. كانت روجة احد الشيوخ، نزل في صيافة الفصل الفرنسي في صيدا، وسأ

ارسل لها بعض العاكهة من حديقة منزله، قالت له انها لا تستطيع قبول هدية مماثلة من دُخْرٍ أو باشا، ولكنها تستطيع تناول الطعام في منزله، علماً انه كسب ثروته بخرق جبينه

ومن صفات الدُرور العلمانيين اذكر لكم، حسن الصيافة، الطموح، المساواة التي قد تتحول إلى تهور، واحياناً البخل. يتعلم الشيوخ الشبان العراة والكتابة، دون ان يجتهدوا للاطلاع على اصول ديانتهم، فهم يعتبرون ذلك غير ضروري خاصة وان رجال الدين قد اتخذوا على عاتقهم مسؤولية الصلاة والصوم عن بة العلمانيين كافة فسد صغرهم، يتمرن الشيوخ الشبان على ركوب الحيل، وعلى السباحة بالسيف، وعلى حمل الحراة، واستعمال الاسلحة القارية. وان شوهد احد الشيوخ والسموع في عيبه، سخر منه الجميع، علماً انهم يتميرون برباطة جأشهم، ولا مبالاة في مواجهة الموت، فهم على استعداد بقتل ان وجه لهم احدهم كلمة قد تمس شرفهم. ويسرد عندهم قانون الاقوى، حتى ان مسيحي جبل لسان يرفعون هذا القانون، وتقيد انثار الموروث. ويسمى بالتالي معارضتهم لمصالحاة الفريقين المتخاصمين حتى لا ييسط شيوخ عقل الدُرور بمودهم على مناطق اخرى، وان اقدم درري على قتل مسيحي أو مسلم لا يحاكمه القاضي التركي فحسب، بل يعطي الامير الامر بهب منزله ان امتنع عن دفع الجزية المفروضة عليه، والمخير ذكره ان الامير قدما يفرض عقوبة الاعدام على القاتل. وتنشب بعدها خلافات حادة بين عائلة القنيل وعائلة القاتل، خاصة في الليل، دون الاخذ بعين الاعتبار عدد القتلى الذي قد يتكبده الفريقان يتبع شيوخ الدُرور قانون الاقوى، لأنهم يعتبرون انفسهم في منزلة الامير، الذي لا يحق له قتلهم أو تكليف سواهم بولاية القرى، وان شب خلاف بين شيوخين رهباني المستوى، ارسوا العلاحين إلى قرية خصصهم لقتل السكان وقصع اشجار الخوخ والريثون، عسماً ان الامير نادراً ما يعاقبهم على هذه الاعمال الصعبة. في بعض الاحيان، يعرض على المهاجم مبلغاً كبيراً من المال، ويجبره على قطع الاشجار وحرقها. وان صادف في عائلة احد الاشخاص، قاتل أو قنيل، تعذر عليه العمل مطمئن اليال في الريف، أو النوم بأمان في منزله، قد يمرر البعض التصالح مع اخصائهم غير ان العائلات المعززة تعيش في حالة حرب مستمرة. وقد اكد لي سكان المنطقة ان حوالي ٣٠ شخصاً من الحكومة الدرزية في جبل لسان، يفقدون حياتهم بسبب اعمال العنف هذه.

لما كان الدُرور يتعطلون عند سماع عبارة فظة، يعتمد عامة الشعب الحذر في معاملتهم، فلا يتحدثون بالسوء عن خصمهم في غيابه، بل يثنون عليه وكأنه صديقهم الحميم. وان من حد القنلة، انه صعب لمعاية ولا يستطيع الوقوف في وجه عائلة القتيل، قصد منزل هله عاقداً حول عنقه حبلاً أو سحرة مؤكداً لهم ان القتل من شره بكلامه الجارح، فامطر لقتله، ويعطي بعدها الحرية لأهل القنيل بالقضاء عليه. ويرغم حينئذ الأهل على مسامحته ولكن الامر لا ينتهي عند هذا الحد، اد يستدعي المهات الحقل، ليعلق دقن المهين. لسنوات خلت، اشتكت إحدى الارامل

لغائل روجها، من الشقاء الذي سببه لها. وبعد أن أتى هذا الأخير على المندور أكد لها أنه اسمه
التصرف ووجد له كلاماً جارحاً فاضطر لقتله غير أنه تعهد بعائلة الأرملة وأولادها بقدر ما تسع
له ظروفه. والجدير ذكره أن هذه الجرائم ترتكب في أغلب الأحيان تحت تأثير الحمرة، التي
يحبها الدروز كثيراً.

لما كان القتل سهلاً للغاية بالنسبة للدروز، أعلن أن الأجسي سيظهر بالقلوب الشديد بينهم، غير
أنهم يتمتعون بحسن الضيافة، شأنهم شأن العرب، وباستعدادهم للدفاع، عن كل شخص يطلب
حمايتهم، ضد أعدائه. منذ بضعة سنوات، التجأ رعيم عصابة لموص تركية، إلى منزل شيخ من
بيت للحوق، رغم أنه لم يقابلها قط من قبل. عندما يبلغ باشا دمشق بالامر طالب أمير الدروز أن
يميد اللص وبس كان الأمير وأعيانه يسعون لتجنب الحرب مع الأتراك، أعطوا الشيخ الأمر
بتسليمه، ولكن هذا الأخير رفض رفضاً قاطعاً التحدي عن الرجل الذي طلب حمايته. في هذه
الأناء، انهمك الباشا في مسائل أخرى أكثر أهمية وسي أمر النص المذكور.

أعلن أن الأمثلة التالية ستثبت لكم مسألة الدروز ونهوضهم. في أحد الأيام، حضر لأحد الدروز أن
يذهب في صباح النهار مقر باشا تركي في دمشق، عاصمة سوريا، حتى يتحدث التاريخ عن
شجاعته. فجمع هذه الغاية، ٢٠٠ رجل تقريباً، وقاد ٥٠ منهم إلى السوق الرئيسي بينما ورج
الباقين على الأبواب، والصواحي، وخلف البساتين، وبعد أن أعطاهم الأمانة، فتح رجلاه نيران
مسدساتهم في السوق، وألقوا عدداً من «قتلى والجرحى، ليتسنى لهم، بعد الوقت لذهب
المتاجر المفضحة ولم يتجرأ أي رجل على مغادرة منزله والوقوف في وجههم، وقبل أن يصل جند
الباشا، كان الدروز قد غادروا المدينة، حيث كان رفاقهم بانتظارهم مع الأحصنة، خلف البساتين.

منذ فترة وجيزة، خطر لشيخ من شيوخ بيت بك، بحكم عدداً من القرى الواقعة في جوار
صيداء، أن يقتل أحد صباط الباشا، خلال قيام هذا الأخير برحلة صيدا. طلب الأتراك ترضية من
الأمير، فاستدعى هذا الأخير شيوخ أمته إلى دير العمر وتقرر خلال اجتماعهم حرق منزل العائل
وقطع أشجار حقله. وبعد تنفيذ هذا الحكم، أعلم الباشا أنه عاقب القاتل بشدة فادعى الباشا
الرعى بينما كان يلاحق الشيخ سرّاً (ففي الحالات المماثلة، لا يتم الدروز ليلتين متتاليتين في
الشرل نفسه) بقتله. فجمع شيوخ بيت بك، الذين يبلغ عددهم حوالي ٢٣ شيخاً، على
الانتقام له، مهما كان الأمر. فليسوا أزياء تنكرية وترقبوا الأتراك عدة أسابيع في العابات والبساتين
المحيطة بصيدا، دون أن يصل أحد منهم.

وفي أحد الأيام، ابتعد الباشا عن المدينة برفقة ٥٠ رجلاً تقريباً، فانقض عليه السرور وقدره مع
عدد من كبار صباطه. ولكن الأتراك عقدوا الحرم على الانتقام لموتهم فأعطى السعدان الأمر
لباشاوات المنطقة بهاجمة الدروز بواسطة جيش كبير. فمسي الطرفان بخسائر بشرية فادحة دون أن

يلحق الأتراك ضرراً كبيراً بالعدو. فالدروز، الذين اهتموا الزراعة، سلموا من هذه الحرب بعد مرور شهرين على اندلاعها وأرغموا عائله نكده على الاحتماء بالمناولة، والصالح معهم. وبعد أن عجز الأتراك عن إلحاق خسائر كبيرة بالعدو، اظهروا استعدادهم لوضع حد لهذه الحرب، فقبضوا ١٠٠ صرة (تحتوي كل منها ٣٣٣ ريالاً) لدفع تكاليف الحرب، ولما رفض الدرّوز دفع أكثر من ٥٠ صرة، غصوا الطرف عن مطلبهم الأول، ورحلوا بالقليل. فعاد شيوخ بيت نكد إلى قرهم، دون أن يتزعج الأتراك من جراء ذلك.

لما كان الدرّوز يفضلون الحفاظ على سرية معتقداتهم الدينية، أمام الأتراك، ادعوا الانتماء للديانة الإسلامية، حتى أن الأمير وغيره من الأعيان، الذي تربطهم علاقات عمل بالباشا وغيره من الأتراك، سجدوا للحتاء، وتعلموا الصلاة والطقوس الدينية حتى يشتروا انتماءهم للمسلمين، غير أنهم قلما يأبهون بالديانة الإسلامية، صحيح أنهم شيدوا حماماً في دير القصر، إلا أنه كان محصصاً لاستقبال الصوف، فإن أبلغ الأمير بوصول أغا تركي، أمر بتنظيف الجامع، وإقامة الطقوس الدينية، خلال إقامتهم بينهم، أما في الأيام العادية، فهو يقف خالياً كنياً، ولا تستعمل المائدة لدعوة الناس للصلاة، بل للإعلان عن وفاة أو ميل ضائع، أو عن سعر اللحم أو غيرها من المواد الغذائية، في السوق. يحسب الدرّوز الخسرة، وغيرها من الكحول، ويشاؤون لحم الحنزير وسواه، وإن أقاموا في قرى مسيحية، حضروا القداس، خاصة النساء منهم، وإن طلب أحد المطارنة المورنة أن يمسك ابن أو ابنة الأمير، منح هذا الشرف دون تردد. ويقال أن بعض الشيوخ والحجوة يؤمنون أن ذريتهم قد تستفيد من صداقة المسيحيين لهم، فيطلبون مسيحهم على فرش الموت رغم أنهم قصوا حياتهم كلها جهة، دون أن يهيموا الديانات كافة، اهتمامهم في بعض الأحيان، يعتكف الشيخ أو الأمير في شيخوخته، في دار مشيخة العقل، كي يقضي أيامه الأخيرة في سلام. وتتوفر لديها اشقة كثيرة، عن دروز أقاموا في دمشق، وحلب وصيدا، وارتدوا إلى الإسلام، ولكن الدرّوز لا يعبلون أبداً المهتدين حديثاً إلى الدين، كما سنرى لاحقاً.

بيح القاتون أو العرف تعدد الزوجات، غير أن الدرّوز لا يتخذون لهم أكثر من زوجة، ونادراً ما يتزوج الأعيان من اثنتين. فيعقد قبل الزواج، اتفاقاً مع أهل العروس، أمام شيخ العقل، كما يفعل المسلمون أمام القاضي، لتحديد المبلغ الذي ينبغي أن يدفعه الزوج في حال طلق امرأته، وقيل لي أن الطلاق سهل للغاية لدى الدرّوز، فإن طلبت الزوجة الأذن بالذهاب لزيارة أهلها. يقال أنها تعد طالقاً، إذا اكتفى الزوج بالقول أدهي، دون أن يصيب «دهي وعودي».

خلال وداع أهلهم، يحضر الدرّوز الجندرة على الاحصنة، ويقدمون لهم السلاح^(٥)، كما وأنهم

(٥) سمعت أن البو يمارسون هذه العادة أيضاً

يحملون معهم غلبة قش، أو قطعة خشب، ويرتدون ملابس الفقيد، لمدة سبعة أيام، ليبرمها بعده، فوق صريحه في الواقع، يجتمع عدد كبير من الناس لحضور الفرح واتراح اعيان الدرور، ويقتضي ذلك إقامة مآدب فخمة، وحرف مبالغ طائلة.

رودني مواربة جيل بيان، بهذه المعلومات كلها عن عادات وأعراف الدرور، والجدير ذكره أن هؤلاء المواربة كانت تربطهم بعناسي الدرور علاقات وثيقة، خلافاً لرجال الدين لذلك لم تتوفر لديهم معلومات وافية عن ديانتهم وعن الطقوس التي تمارس خلال اجتماعاتهم الدينية. كما رأت لا يستطيع الحكم عليها من خلال البيانات الأخرى، أو من خلال بعض الطقوس، أو استناداً لأقوال جيرانهم، علماً أنهم غالباً ما ينشازعون، فيحاولون تسليط الضوء على سيئاتهم، محاولت الحصول على الكسب التي وضعها الدرور، لأكون مكرة واضحة عن ديانتهم فرودني انطون بيطار، مترجم السيد ماسيك، بالكتاب الأول ويرغم أن يسرعياً بتفن العربية، حل صيغاً في سرل احد الدرور، وعثر على هذا الكتاب، في ركن العرف، وعنه في الليلة نفسها، واليكم الملاحظات التي استخلصها من هذه السفطرة.

يتبع الدرور عقيدة محمد بن اسماعيل ويعبدون حاكم، (الحاكم يأمر الله) الذي يجسد الله^(٥) وهم يطلقون على انفسهم لقب الموحدين، ويؤمنون انه العام ٤٠٠ هجرية (١٠٠٩ ميلادية)، حيث الألوهية في الحاكم، ولم تظهر ليس الا العام ٤٠٨، حين راح محمد بن اسماعيل يبشر بعقيدته الجديدة. ويعتبر الدرور العام ٤٠٩، عاماً مشؤوماً لألله الألوهية هجرت حاكم خلاله ولكنهم يرجعون انه منذ بداية العام ٤١٠ وحتى بداية العام ٤١٢ (تاريخ وفاته) حل الله فيه ثانية.

استناداً إلى هذا الكتاب، ظهر الله ست مرات، في صورة انسان، (١) في الهند، في مدينة جيل ماشين، تحت اسم (علي ٢) في اصفهان، تحت اسم (البار، ٣) في اليمن، تحت اسم (عيا ٤) في بلاد البربر، تحت اسم (الملا، ٥) في مهدي في بلاد البربر، تحت اسم (القائم ٦) تحت اسم الصخر (٧) تحت اسم القسيس (٨) تحت اسم ابو ركريا (٩) تحت اسم المنصور (١٠) تحت اسم الحاكم، كملك مصري.

أما أهم رسل محمد بن اسماعيل، فهم

(١) حمزة.

(٢) محمد الكلمة

(٥) كان الحاكم هذا خليفة مصرياً، وقد شتهر بأعماله الشريرة، خاصة في كتاب مراي «تاريخ منوك مصر»

(بوشنيخ، «المخازن» الجزء ٥، ص ٣٨٤) وفي تاريخ العالم، المجلد ٢٠، ص ٢٩٢. وقد أتى هذا

الكتابان على ذكر مله محمد بن اسماعيل الجديد

(٤) ابو الشعر

(٥) بهاء الدين أو علي بن محمد السماكي

لا يأتي هذا الكتاب على ذكر محمد بن اسماعيل، كمؤسس لديانة الدرزية، غير ان الكاتب يتحدث غالباً عن حمزة بن علي رسوله الاول واستناداً بهذا الكتاب، يبدو انه ظهر سبع مرات في العالم (١) زمن آدم، تحت اسم شعنا (٢) زمن نوح، تحت اسم بيتاغوروس (٣) زمن ابراهيم، تحت اسم هارد (٤) زمن موسى تحت اسم شبيب (٥) زمن يسوع المسيح، تحت اسم ليبار (٦) زمن محمد تحت اسم سلمان العارسي (٧) زمن سيد تحت اسم صالح. وهو مؤلف كتاب القوانين الدرزية الاساسي، الذي يوارى مؤلفي اسماعيل وبهاء الدين أهمية، بهما يحترمان العهد الجديد اكثر من كتب الديانات الاخرى، ويعتقدان ان حمزة هو الذي وضعه، مما يعني ان المدعو حمزة هو المسيح الحقيقي وقد تجسد في صورة رسول، وعلم العارون ليسوع المسيح، الذي يسميه الكاتب المسيح الدجال. كما وانهما يدعيان ان روح الرسل الدرور الاخرين قد حلت في جسد تلاميذ يسوع المسيح ورسله.

غالباً ما يستعمل الدرور عبارتي الملائكة والنبصين، الاولى بملدالة على اتبع حاكم والثانية على الكفار. أما الملائكة الخمس الذين يحملون عرش الله، فهم ٥ رسل (١) جبرائيل، ويعني حمزة (٢) ميكايل ويعني محمد بن وهاب (٣) اسرافيل، سلاحة بن عبد الوهاب (٤) عررايل، بهاء الدين (٥) سطورم، علي بن احمد. والجدير ذكره ان كل واحد منهم يحمل لقباً مبرماً كالفديم والشارب، والبق وغيرها.

وهم يؤمنون ايضاً ان الحاكم سيظهر مرة اخرى في شكل انسان، بعد ان يتصور المسيحيون على المسلمين، فيحكم بعدهم الحاكم العالم بقوة السيف. ويرفع الديانة الدرزية فوق الديانات الاخرى، عيرين بذلك فرح المسيحيين ونعاسة المسلمين.

في سبيل الكشف عن حقيقة هوية كل من يدعي انه درزي علماني (علماً ان ذلك قد يحصل بسهولة بالغة، لأن العلماني بجهل تعاليم دينه) بطرحون عليه السؤال التالي: هل ترزع العلاحون في بلادك العدى؟ فإن اجاب نعم نزرعه في قلوب المؤمنين، وذلك يدل على انتعاشه لمدتهم^(٥)، علماً

(٥) نعم مسيحيون حسب ان الانكيز القبيح فيها يعتقدون اجتماعات سرية. وينادون بعض الاشارت لتعرف على جماعتهم. مخاطر لهم ان الدرور هم من الماسوبيين. واتير هنا الى أن سكان حلب لم يكونوا فكرة سيرة عن الماسولية كما فعل سكان بعض المدن الأوروبية، فقد ارسل الماسوبيون المجهز الى السجن، وزرعوه على المسلمين والمسيحيين واليهود، دون ان يكشفوا عن هويتهم. وبعد ان كشف امرهم، ذاع صيت هؤلاء الأوروبيين الذي يعتقدون اجتماعات سرية، شأنهم شأن الدرور والاسماعيليين، الذين يخيرون بسرهم الحسنة، وبأعمالهم الخيرة، قد يمارسون اعمالاً شيطانية خلال اجتماعاتهم.

انهم لا يقيمون ابداً بالمرتدين حديثاً إلى الدين، إذ يعتقدون ان العربي الذي برع باعتناق ديانتهم، يعود بعد مماته إلى ديانته الأولى.

وفي ما يتعلق بواجبات الدرري، اليكم ما قرأته في المخطوطة نفسها، يعني عليه عباده انحاكم بصفتهم الله، وتصدق ادعاءات شيخ العقل حول دينه دون القيام بأبحاث لاحقة والايمان بأن روح الميت تنتقل إلى جسد مولود جديد، والامتناع عن القسم، والاكتماء بالاجابة نعم أو لا، والكشف عن اسرار ديانته لامرائه، دون ان يفشي بحكمته لأي شخص عربي. ويجب عليه ايضاً الدعوة إلى الوحدة، وتقديم الصدقات لإخوانه، والايمان بأن اتباع الديانات الأخرى، وخاصة الاعيان منهم، الذين يعتمدون على اموال وعيائهم يعرضون أنفسهم لاحتقار الحاكم (الله) بهم، ويحظر عليه بالتالي تناول الطعام في منازلهم، والاكتماء باحترام شيخ العقل، والايتماء، وكل من يقتات من ذكوة الحقول والبساتين، خاصة وبها املاك شرعية يحرم على الدرري ارتكاب الرى. يقول الكاتب انه اذا ارتكب شيخ العقل الرى واراد ان يكفر لاحقاً عن دينه عليه ان يتقدم عن مائمه خلال سبع سنوات أمام شيخ العقل الاخرين، ولكن ان رفض التكفير عن دينه، حلت روحه بعد مماته في جسد رجل كافر.

يعتق النصيريون ديانة خاصة بهم، يجهلها اتباع الديانات الأخرى، غير ان وعاءهم، الذين تربطهم علاقات عمل بالأتراك يدعون انهم من اهل السنة^(٢٠). وهم يكثرون بين جبل لبنان وانطاكية. ويقوم احد المقدمين^(٢١) في بعلبكي، على مقربة من بلاد الدنية وهو الاكثر نفوذاً بين النصيريين كافة. ويقوم مقدم آخر في سمري، في بلاد الشواب، في اقليم صغطا، ومقدم ثالث في جبل كلبية وهم يدعون احزية لباشا طرابلس. علماً انهم يصدرون الشيع الذي تنتجها قاليمهم، إلى كافة انحاء البلاد. غير ان عددهم لا يوازي عدد الدروري، واتباعهم لا يقطعون ابداً في أعالي الجبل، بما يعني انهم يجمعون كيباً لسلطة الأتراك^(٢٢). سمعت احد الموارنة يثني عليهم، ويرحمهم، طيب المعشر وحسن السيرة. فقد اصطحبوه إلى معبد نظيف ومرتب يتميز بتواضعه الشديد، حيث

(٢٠) صادف شولتز في انطاكية وعلى طريق حلب، اشخاصاً يرتدون ملابس شبيهة بملابس المسلمين ولكنهم يدعون انهم من المسيحيين النصيريين، واصحابهم من السامريين وانظر انهم من النصيريين أو من اتباع المذهب الاخرى المذكورة اعلاه.

(٢١) ان المقدم هو «علي من الشيخ واقل مرتبة من الامير. كما وان لقب جمدي، هو ايضاً لقب شرف لدى النصيريين»

(٢٢) في هذا السياق، يمكنكم مراجعة كتاب بوكوك Specimen History Arabum، من ٢٦٥ - ٢٥ وكتاب ريكرو، تاريخ الامبراطورية العثمانية (ص ٢٢٧).

انه لم يلاحظ فيه سوى قنديل مشتعل. وعلمت منه ايضاً ان النصيريين يحتفلون بثلاثة اعياد في السنة، يلجأون خلالها إلى الرقص بالعبير عن ذرعهم غير ان مسيحيي الشرق، لم يستطعوا ان يزودوني بمعلومات وافية عن الديانة النصيرية، علماً ان المسلمين يعتبرونهم من اتوبيس الذين يعبدون الشمس والحوم، واض ان مرد ذلك إلى احترامهم الشديد للزمرة التي تدل على كوكب فوس وعلى قاطمة ابنة محمد في آن معاً

سلاحظ في ما بعد ان هؤلاء النصيريين الذين سألني على ذكركم في «المقالة التمهيديّة»، هم من المسلمين.

يقول مؤلف الكتيب المذكور اعلاه حول الديانة الدرزية، ان النصيريين كانوا قديماً من الدرور، ولكن المدعو نصير أغروهم، وحشهم على بكران ألوهية الحاكم واستبداله بعلي بن أبي طالب (مهر محمد)، واخبرهم هذا المفضل ان الألوهية حلت في اثني عشر اماماً من سلالة علي، لتختفي مع ظهور محمد المهدي (آخر الأئمة)، وتستقر في الشمس. يقول الدرزي نفسه ان النصيريين يؤمنون بالنفس وان روح المؤمن تنتقل بعد الموت إلى جسد نصيري آخر. لتدخل بعدها في إحدى الجرم. لكن ان تصرف احدهم بفظاظة ورنص الامتثال لتوصيات علي، انتقلت روحه إلى جسد يهودي أو سني أو مسيحي لتشهد بعدها تنبؤات كثيرة، وتظهر وتنتقل في نهاية المصاف إلى إحدى الجرم. أما الكمار، الذين لا يعبدون علي بن أبي طالب، فتنتقل ارواحهم إلى اجساد الجمال أو البغال أو الحمير أو الكلاب أو غيرها من الحيوانات.

تتوافق هذه الروايات، مع روايات أخرى قرأتها في كتيب حول الديانة النصيرية زودني به انطون بيطار. ويقال ان حرس القاضي التركي، عثرو على هذا الكتيب في غرفة نصيري فاجأوه ليلاً وافتاده إلى السجن. ورغم انها النسخة الاصلية، الا انها غير كاملة ومكتوبة بخط رديء، وبغاير مبهم، حتى ان المؤلف يقول في أحد الاماكن ان النصيريين اخذوا سوراً من بلاد مأجوج ومأجوج أو أنهم كانوا يستعيون في كتبهم بالتماثيل المبهمة لإخفاء اسرارهم عن الكفار، ووحده النصيري بينهم ما يقصده الكاتب بالملاك جبرائيل. وبالغراب، وبالسفينة، وبالحنقة وبلقيس، وبمصا موسى، وبسام صالح، وببيرة الاسرائيليين، وغيرها والحديث ذكره ان هذه العبارات ترد في كل صفحة دون ان نعرف معناها الحقيقي أو ما تدل عليه، غير انني سأذكر في ما يلي الملاحظات التي استنتجتها:

يعرف النصيري بالمؤمن، وهو يتحدث عن وحدة الله، أي عن علي الذي سيخرج من عين الشمس ليحكم العالم، وعن الاشخاص المحمسة المجتمعين، وهم، (١) المعصي (٢) الاسم (٣) وهو يتمتع بالعكمة الحقيقية (٤) باب (٤) ايّام (٥) حسين وكسي اعترف بأنني لم أهتم شيئاً من هذه

الخماسية، خاصة وأنني كنت خبيراً في هذه المدينة. ورغم أنني لم أفهم شيئاً من الأمور التالية، إلا أنني أردت أن أنقلها لكم لأنها تشكل أركان العقيدة الصيرية

ظهر الله ٧ مرات في العالم، في المرة الأولى: ١ - معنى كان أهل ٢ - اسم كان آدم ٣ - باب، جبرائيل ٤ - الأيتام كانوا ٥ - أشخاص أ - ميخائيل (أو رئيس الملائكة) ب - إسرائيل (ملكه الملاك الذي يسمى عليه المنع في الصور يوم الحساب، حسب اعتقاد المسلمين) ج - عزرائيل (ملاك الموت) د - مالك (بواب الجحيم) هـ - رمون (بواب الجنة) ٥ - حسين، الذي كان يدعى ناش بن مغلوش. أما عذراء الله في الظهور الأول، فكانوا، ١ - قبيل ٢ - عاق (أخت قابيل) ٣ - يابلو (ورير قابيل) ٤ - الأضي ٥ - الطاروس.

في الظهور الثاني ١ - معنى كان سيد، ٢ - واسم نوح ٣ - باب، وائل بن فاطمة ٤ - والأيتام أ - عنقيل ب - أفراكون ج - كنعان د - أربكاكيل ٥ - أربكان ٥ - الحسين، حوش. أما أعضاء الله كانوا ١ - حام بن نوح ٢ - والشيخ حسا ٣ - بوك ٤ - يوغوت ٥ - نصر.

في الظهور الثالث ١ - معنى يوسف ٢ - اسم يعقوب ٣ - باب حام بن فوش ٤ - والأيتام هم أ - يهود ب - حاشور ج - مالك د - سمث ٥ - عنقيل ٥ - حسين، ماب بن منصور - أما أعداء الله فهم ١ - خاجبول ٢ - سيما ٣ - منك الهند ٤ - حيطار ٥ - نائل

في الظهور الرابع ١ - معنى كان يوسف ٢ - اسم، موسى ٣ - باب، دان بن صبيد ٤ - والأيتام هم أ - يهداد ب - حارون ج - عبد الله د - سراتين هـ - عمراني، ٥ - الحسين، رويل بن صالح. أما الأعداء فهم ١ - فرعون ٢ - حسا ٣ - كريم.

في الظهور الخامس ١ - معنى، عساف ٢ - اسم، سليمان ٣ - باب عبد الله بن سمعان ٤ - والأيتام هم أ - شهيرة ب - شادلي ج - حراثش ٤ - مصقول - عصير هـ ٥ - الحسين، بانطور دكن. والأعداء هم ١ - مرود ٢ - عاد - ثمود.

في الظهور السادس ١ - معنى، سمعان ٢ - اسم، يسوع ٣ - باب، رزوبا بن مريان ٤ - والأيتام هم أ - حسا قم الشهاب ب - حسا دمي ج - بولس د - بطرس هـ - متى ٥ - الحسين، أوش بن مانكيجا والأعداء هم ١ - هيرودوس ٢ - ياس ٣ - توس

في الظهور السابع، ١ - معنى علي ٢ - اسم محمد المهدي (المنتظر) ٣ - باب، سليمان بن بحيرد الشور ٤ - والأيتام هم أ - مدداد بن الأسود الكندي ب - هو الدور يمداد بن ينادا المعري

(٥) كان عساف ورير الملك سليمان، يعني اليوم الأتراك الرير الشجاع والماضل بصاف تيمناً به

ج - عبد الله بن ربي المصاري د - عثمان بن ماذن مجاشي هـ - كسبار بن كاسم دوفي
 هـ - الحسين، حمدان. اما اعداء الله فهم ١ - ابو شامل ٢ - سجد ٣ - سحوق.

ويصنف الكاتب أيضاً ان النصيريين يؤمنون ان محمداً، وفاطمة، وحسن والحسين ومحسن
 يشكون وحده مكاملة تجسد علي. ويعتقد المؤمن انه لمة ٥ ايام، و ١٢ نقيباً (أو فائد من سلالة
 محمد) و ٢٨ مختاراً ومختصاً ومخلصاً ومنجياً. كما وعليه ان يعترف بأربع سنائر، ١ - سائر
 الامام أو سلسل الائمة من ابل إلى علي ٢ - ستر الائمة، ي الاسياد من حسن الاول إلى حسن
 الاخير ٣ - ستر الرسالة أو تسلسل الرسل، من ادريس ونوح، حود. ٤ - ستر النبوة، أو تسلسل
 الانبياء، من عوش، واسحاق، ويعقوب...

يمين الكاتب آدم، وابراهيم وموسى والمسيح ومحمد انبياء، وواثل وحمردان وعبد الله،
 وسلمان، وابو الشنن، ومحمد ومفصر، وابو الشايب، رسلاً. ويدعي ان المدعو اسحاق هو اكبر
 عدو للنصيريين لأنه لواد ان يقتل سعيد ابو الشايب^(٥).

تدخل روح النصيري المؤمن الجنة، بعد ان تستقر بين عدد بسيط من الابدان. ولكن ارواح
 الاخرين تمكث في ٨٠ بدناً (هذا ما يعرف بالجهنم)، تمر روح الكافر في خمس مراحل مريضة.
 (نح، وبع ومع ووج ورج) تستقر بعدها في جسد ناصع حتى عرفة الصخرة (فاطمة). فمن بخار
 ان مؤسسي ديانة مسائلة قد يجدون لهم اتباعاً؟.

ويفيد كتاب النصيريين ان المحتى يحظر عليهم تناول لحم الجمال والارانب والحكييس؛
 ولاسم، يمنعهم من تناول لحم الخنزير، والحيوانات التي لا تذبح شرعاً؛ والباب يهيبهم عن سبك
 الزلور الاسود الذي يكثر في العاصي، وعن كل الطعام المحروق. علاوة عن ذلك، يقرض الكاتب
 على النصيريين ان يتكلموا عن تعاليم ديانته امام العرب وان يحبوا اخوتهم، وان يحتسوا سوء
 السرقة، وعن القسم، وعن قطع الوعود، وان يتصبروا على فقرهم وان يتحسوا سوء معاملة نسايتهم
 لهم.

لم أجمع معلومات وافية عن الديانة الاسماعيلية، ولم اطلع على اي من كتبهم. يروي مسلمو
 ومسيحيو الشرق ان نساء الاسماعيين تجتمعن ليلاً في شقة مظلمة، وينعهن لاحقاً عدد مساو من
 الرجال، وينشأ بينهم كل واحد منهم مع اول امرأة يقع عليها، يقرأ احد رجال الدين مقطعة من

(٥) يتحدث سائر عن مذهب شعبي يستمد اسمه عن رجل يدعى اسحاق، هل هو اسحاق نفسه المذكور اعلاه؟
 وهل يعرف المتأولة اتباعه بالاسحاقيين؟ سأترك لمرحالة اللاحقين عناء التحقق من هذا الامر

كتبهم المقدس، في غرفة أخرى. وهم يعتقدون أيضاً أنه يحق للأب ممارسة الجنس مع ابنته، كما يأكل لبستاني فاكهة الأشجار التي زرعتها بنفسه ويصيب اليمص به خلال هذه الاجتماعات، يشمر أحدهم ثيابه، ويقف في مكان مرتفع. لتأمل المجموعة جسده. وهم يعرفون بالتالي بأنهم الفرع. ولكن كم من حماقة رويت حول عقائد وطقوس قوم لا تربطهم بهم علاقات وثيقة ولا اطلعوا على أي من كتبهم.

إن عدد اتباع المذهب الاسماعيني ليس كبيراً، وهم يقيمون في كيليس، بين شعر وحما. وفي جبل كلبه، الذي يقع قرب اللاذقية، بين حلب وانطاكية وهم يعرفون بالقسطون، تيمناً بأحدى قرى هذه المنطقة. أما في سواحي الموصل فيعرفون بسطعني الشمع، وفي المناطق الكردية (التركية)، يعرفون ببيت داستي (امبياد الصحرة)، ويستمتعون بطقوسهم الدينية المريعة، ولكنني لم ألق على أي شخص حصر هذه الاجتماعات أو قرأ كتاباً من كتبهم لذلك أرجو أن لا يكون إختلافهم فاسدة بقدر ما يشاع عنهم.

هذه هي المعلومات التي جمعتها عن أقاليم البشورة والصيريين والاسماعيين، غير أن هذه الجماعات صغيرة للعبه ولا تقوى على الوقوف في وجه الباشاوات الأتراك، أما الدور فهم أسياد الجزء الأكبر من جبل لبنان، وأقوى سكانه عوداً. يرأس هذه الجماعات عدد من الشيوخ الورثة الذين يختارون من كل عائلة قائداً عاماً، يحمل لقب أمير، يوكلون اليه مهمة الدفاع عن قومه بموجب على هذا الأمير أن يجدد كل سنة العقد المبرم مع الباشاوات من أجل دفع جريه الأقاليم المختلفة، وأن اقتضى الأمر، دعا قادة القوم للاجتماع في دير القصر، لتحديد المبلغ الذي يجدر بكل شيخ أن يجمعه من اقليمه، أما لتسديد جريه الأتراك أو لدفع النفقات الأخرى.

يتفق الشيوخ في ما يسهم على حجم بصريه المسوية التي يجدر بهم دفعها لتحتاشي سحق الباشاوات عنهم. فكان الأمير حيدر يدفع سنوياً ١٦ كيس نقود (حوالي ٥٣٠٠٠ ريال) والأمير مدحم، الذي يخشاه الأتراك ٧٠ كيساً (حوالي ٢٢٠٠٠ ريال) ويوضع مبلغ من المال جانباً لإعانة الأمير الحاكم ولتأمين نفقات الاجتماعات، والمآدب من أرز وزبدة وحيز ريس وشموع وعلف للاحصنة.

تحدد الحريات التي يدفعها الرعايا بشكل دقيق. فكل ١٦ أو ٢ سنة، تجمع مذكرة على كافة أنحاء البلاد، يحدد فيها قدر العله التي يحصدها الشيخ أو البيل أو العلاح من حقوله وبساتينه ووداليه وشجر الزيتون، وشجر التوت، وشجر البسوم وغيرها، حتى يدفع سنوياً صريية محددة، إما نفداً أو بالمواد البدائية، إلى أن تظهر ضرائب جديدة بحيثي تجار بيروت وصيدا جرياً من هذه الصريية، حين يرودون الأمير الحاكم بالأرز أو غيره من المواد البدائية يكلهم هذا الأخير، بحماية

ضريبة هذا الاقليم أو ذاك، أو زيتاً أو خمر أو غيرها من السلع

يتعاقب افراد العائلة بعضها على الحكم في المقاطعات الدرزية، غير ان الابن لا يحلب دوماً اياه في الامارة. ولكن كبار الشيوخ يختارون اكثر افراد العائلة كفاءة ويعيونه خلعاً للامير الراحل، فيرسل له الباشا، كل سنة، هراً كتعبير منه عن تأييده له كأمر حاكم.

ويسمح للحاكم الدرزي رعاباه، من دروز ومسلمين ومسيحيين ومناولة الحرية في بيع الاراضي والهجرة من البلاد، عندما انهم جميعاً من الجند. ويرحم ان هؤلاء القوم يستطيعون ان يجهزوا جيشاً مؤلفاً من ٤٠ الف رجل رغم ان خريضة الدولة لا تدفع الرواتب الا لمئتين أو ثلاثمائة منهم، يعرفون في أوروبا بالمأمورين القضائيين. من جهة اخرى، يمد الشيخ قائد هؤلاء الرعاباه، والامير الحاكم قائدهم العام.

ومن خلال تعيينهم للامير، كان الدرور يحبون دون تعيين الاتراك قائداً غريباً عليهم، شأنهم في ذلك شأن البسوة. ويرحم ان إحدى العائلات، اعلنت نفسها رعيمة على الدروز، بمساعدة الباشا، الذي قادها على رأس جيش كبير إلى دير القمر، وحرصها على سكانها. ولكن تصرفه هذا أثار سخط كبار الشيوخ، فاضطروا للنخعي عن منصبه.

غير ان هذه المسألة ولدت الاشتباكات، فحرص الاتراك بالتالي على اثاره لتعس بين القبائل المريبة، التي تعيش في الخوم، قرب القرى الكبيرة.

داع عصيت الدرور في أوروبا لي عهد الامير فخر الدين المعني الكبير. إذ لم يكشف ببسط نفوذه على جبل لبنان من عكا إلى اللادقية، من استولى ايضاً على المدن الساحلية التركية، وسها صيدا، وطرابلس، ونهب دمشق مرة واحدة. ولكن في عهده، انقسمت البلاد إلى فريقين: عرف الفريق الأول بالقيسي، وعلمه احمر، ويساند الامير فخر الدين، بينما عرف الفريق الثاني باليحيى وعلمه اخضر، وهو يقاوم الامير، وبعد ان حظي الفريق الثاني بمساندة الاتراك له، استطاع ان يرغم فخر الدين على التحلي عن منصبه لابنه البكر علي، ومفاداة البلاد إلى ايطاباه، حيث قضى بعض الوقت في فلورنسا. بعد مرور فترة وجيزة، عاد الامير إلى سوريا، علماً ان الفريق اليمني كان يتمتع بمساندة البشاور له، فأرسل الاتراك اسطولهم إلى صيدا، فحصر ابيه علي حياته في إحدى الممراك، وحاصر والده فخر الدين من جميع الجهات واضطر للفرار إلى جرجس ولاحتشاء في إحدى المغاور. وفي نهاية المطاف استسلم للاتراك، شرط ان يعاد للمثول امام السطوط في القسطنطينية. ويقال انه كان سيعاد إلى الحكم لو لم يمين ابن ابيه ملحم اميراً خلال هذا الوقت، لأن الاتراك يقصدون فخر الدين، ويحبذون فصائله فهو انسان حكيم وكريم، اعدى على

القسطنطينية الهلالية، وخاصة على كبار صباط السلطان. وبعد توقيعه، كان من المقرر أن يسلم الأمانة ثانية. ولكن الأمير ملحم نجح الأتراك بقتله عدداً كبيراً منهم مما أثار سخط السلطان الذي أمر بقتل فخر الدين علي المور.

لم نستطع أن نعرف كم من الوقت استمر حكم المعنيين. يقول لوفيو أن الأميرين أحمد وقرقماز، بني الأمير ملحم، تسلموا الأمانة، وحكموا البلاد معاً، وتزوجا فتاتين من عائلة شهاب. ولكن الأمير قرقماز قتل بطريقة وحشية على يد الأتراك. بقول لاروك، في كتابه «رحلة إلى سوريا وجبل لبنان» الجزء الثاني من ٢٧٥، أن المدعو أبو موسى ابن علاء الدين، خلف الأمير أحمد في الحكم، غير أنني لم أعرف ابداً أن كان أبو موسى هذا من المعنيين أم لا.

يحكم الشهابيون اليوم الجماعات الدرزية، يدعي الموردة أنه بعد وفاة معظم أفراد عائلة مع، لم يشأ الأمراء والشيخو تعيين واحد منهم، لأنهم منسبون جميعاً، ولا يقبلون باختيار واحد منهم زعيماً عليهم، فوقع بالنائي الحبار على الأمير حيدر من آل شهاب، وكان حاكماً على حاصبيا وتربطه بالمعنيين علاقة وطيدة سمعت أن عائلة شهاب، الحاكمة حالياً في جبل لبنان، تتألف من ٢٠ أو ٢٥ مرداً محسوب كان الأمير حيدر ابن الأمير منصور، وشقيق الأمير شهاب، ووالد الأمير قاسم، الذي عُقد وُحش رعم اتمائه للطائفة الدرزية، ويقع اليوم في مدينة عرير المارونية..

اتجب الأمير حيدر من روجاته الثلاث، أحمد، ملحم، منصور، علي، مع، يونس، وحسين وقاسم، وانجب هذا الأخير ابناً اسمه علي، فأنجب بدوره صبيّاً اسمه بشير. بعد موت الأمير حيدر استلم ملحم الحكم رعم أنه سني، من دمشق. وأنجب أميراً اسمه يوسف، أما أبناءه الآخرون فهم، محمد، علي (وكلاهما أكبر من يوسف) قاسم، عمر والأمير افيدي. خالف الأمير ملحم الحفظ في حملاته كلها، ونم يحصر المعارك التي حاصها ضد المتأولة والعرب والباشوات الأتراك. وبعد أن حكم البلاد ٢٥ سنة، طلب ابن الشيخ صاهر مه العون، هذا ابنه وحما شعر بضرورة تسمية الداء، دعا إلى اجتماع لمناقشة هذه المسألة. ولكن الشيخ الدروز رفضوا تقديم العون لهذا الابن العاق، فأعاد حيدر الأمير ملحم حكم الأمانة وانضم إلى شيخو العقل ولكني لا اظن أن هذه القضية وحدها دفعت لاتحاد هذه الخطوة الجريفة. وبعد تصميمه على الاستقالة، اختار الدروز (سنة ١٢٥٤) الأميرين أحمد ومنصور، شقيقي الأمير ملحم، ليحلا محله، وبعد موت الأول، استلم منصور دة الحكم لوحده. وبقي حياً حتى العام ١٢٧٢ وأنجب صبيّاً اسمه سمعان.

ينقسم عيون الدروز إلى جبلاطين وبريكيس، ورغم أن عددهم كبير إلا أنهم يحكمون مقاطعة صغيرة، والتي اعني بكلامي هذا العائلات التي تختار الأمير الحاكم، أو عقد الصلح. أما أهم

العائلات التي تجتمع في دير القمر لبحث في هذه القصايا فهي^(٥):

١ - شيوخ آل جبلاط

٢ - شيوخ آل بوهروش

٣ - شيوخ آل شمس

٤ - شيوخ آل عيد

٥ - شيوخ آل بو نكد

٦ - شيوخ آل شويحات

والجدير ذكره ان هذه العائلات كلها موالية للشيخ علي جبلاط بينما العائلات التالية موالية للشيخ عبد السلام البركي:

١ - شيوخ آل مزبك

٢ - شيوخ آل بوعطوان

٣ - شيوخ آل تلموق

٤ - شيوخ آل عبد الملت

٥ - شيوخ آل أبي الملع

يحمل المراد بعض العائلات، لقب امير. كآل شويحات وآل أبي الملع ويقال ان العائلة الاولى اكتسبت هذا اللقب منذ عدة قرون. غير ان معظم امرائها متوسطو الحال، لأن الابن الاصغر يرث والده شأنه شأن الابن البكر. أما عائلة أبي الملع فسم تكتسب هذا اللقب الا بعد ١٥٠ سنة^(٥٥) علماً ان هذه العائلة تملك قرى عديدة. على خلاف شيوخ هذه المنطقة، يحق لهاتين العائلتين ان ترتبط بمائلة شهاب بالزواج، اذ ان الامراء لا يقتربون بنات الشيوخ، ولا يتحد الشيوخ لهم زوجات من الطبقات الادنى مستوى. وفي المقابل، يحق للشيخ التصويت في الاجتماعات شأنهم شأن امراء آل شويحات وأبي الملع

(٥) في هذا القسم تصحيف وخط ولذا فإن مؤسسة لانتشار العربي تحيل على وأخبار الأعيان في جبل لبنان، بطوس الشدياق ويوقرف على الموضوع ونوفاً سليماً وصحياً (الانتشار)

(٥٥) نجل مرد دلت التي رواج احد المراد العائلة من ابنة شيخ او امير. فيحظى ابناء هذه السيدات بقب امهاتهم انظر وصف شبه الجزيرة العربية.

يشوع السباح في الأقليم الدرزي. معنى الساحل ترتفع درجات الحرارة بينما يعطي النبع جبل ساء في الشتاء. ويبحث هذا الأمر الدروز على تغيير مكان إقامتهم بشكل دائم، كي يتمتعوا بربيع دائم يتميز مناخ جبل ساء ببطانة هوائه، حتى أن معظم الناس ينامون في الصيف على سطوح منازلهم. أما الأمطار فتتساقط بمرارة وتعدي السايح والأهـر التي تروي الوديان المجاورة بشي السبي يوضع في الأصحاح الرابع على بيد جبل ساء. ويؤكد به في غابة الجردة

يُزرع السكان أشجار التوت والریتون، ويتجرون بالحرير والریت. كما وأنهم يصنعون القصب، والصوف، والس والمص وهر السمرن، والصابون والحطلة. وهم يقطعون مواكبه مستارة، ويسكنون حقولاً عمية. أما التبغ فيزرع بكمية قليلة في المساطق الدرزية بينما يمد تبغ اللادنية الذي يزرعه جيرانهم الصيبريون من أجود أنواع التبغ في المنطقة. بعبارة أخرى، تنمو في هذه البقعة الصميرة من الأرض، كل ما يحتاجه الإنسان في حياته اليومية إلـكـم المعنومات التي جمعتها عن الأقاليم والغرى، والصواحي التابعة لهذه المقاطعة.

١ - إقليم الشوف، الذي يضم:

أ - وادي الماصف، دير القمر، الواقعة في جوار نهر الدمر، على بعد يوم من عيدا، يقيم في هذه المدينة الأمير الحاكم، وهي تضم اصرحة كبيرة بعضها ملك للدولة، وبعضها ملك لشيخ والأمراء، الذين يعقدون فيها اجتماعاتهم أو يحضون بها فترة الصيف، وتوجد فيها أيضاً جامعاً كبيراً له مئذنة

بلدة بعقبي، التي يقطن فيها الدروز والمسيحيون، وهي تمتاز بجودة دواليها. نرى كفر قطرا، دير دوريت، مشغني، بستان الدوير (كداء)، عين المعاصر، بتدين، وترينا كفر محمد والباعنة، الخاضعتان لنفوذ آل بو نكد، حيث نجد دهرين للموارنة.

ب - الشوف الحثي، يقيم في هذه المنطقة أحد مشايخ العقول، وهي تضم، بلدة المحنارة، مقر الشيخ عني جتلاط، وعهم الحزب الذي يحاول الحد من نفوذ الأمير الحاكم.

قرى بحدران، عماطور، عين قنية، المررعة، نبحا، التي تضم اغلبية درزية، وأقلية مسيحية، وشاهد قرب قرى مشوشى وقيتولة، أدبره للموارنة، تحصن لعودة آل جتلاط

٢ - إقليم العرقوب، الذي يضم بلدة الباروك، حيث يقيم الشيخ عبد السلام من آل يريث وهو زعيم الحزب الموالي للأمير الحاكم.

٣ - إقليم الجرد، وهو يضم قرى عين رحلتا، عين دار، رشمية، وتضم هذه القرية الاخيرة ديراً للموارنة، يحصن لنفوذ آل شهاب.

٤ - اقليم جرّين، لم أجمع معلومات وافية عن هذا الاقليم باستثناء انه يصمم المعاراة التي حوصر فيها فخر الدين.

٥ - اقليم الشحر، وهو يصمم بلدة كمرمتي.

٦ - اقليم الخروب، الواقع بين دير القمر وصيدا، وهو يصمم قرى برجا، وشحيم، وعين مربود، وعانوت، حيث نجد دروراً ومسيحيين ومسلمين. غير ان هؤلاء الآخرين يقيمون في قرى معصلة، حيث هموا لهم جوامع. كان المسلمون راضين من حكم الدروز اكثر من حكم الاتراك. بذلك، ألبسوا قراهم امهي حلة، اد كانت تكثر فيها العاكهة على انواعها، واشجار الزيتون، التي تعطي لاجود انواع الزيت.

ونجد في اقليم الخروب على بعد ثلاثة فراسخ من صيدا، دير المخلص، حيث يقيم بطريرك الروم الذين انضموا إلى الكنيسة الرومانية.

٧ - اقليم التتاج، الواقع على حدود قرى المتارلة. من جهة منطقة صرر، يتألف سكانه من الاغلبية السنة وهو يصمم قرى جبع الحلاوي، كمرحونه.

٨ - اقليم سوق الغرب، ويصمم قرى عين السبع وبشامون والشريفات. يملك الروم ديراً في هذا الاقليم تابعاً لفرد آل تلحوق، والموارنة ديرين خاصين بسطة امير من آل شهاب.

٩ - اقليم صليما، ويضم بلدة صبيد، ومقر امير من آل ابي اللمع، وديراً للروم وديرين للموارنة، يقيم مطران في واحد منهما.

١٠ - اقليم الراس، ويصمم بلدة الراس ومقر اقامة درري من الاعيان يحمل لقب امير.

١١ - اقليم برمانا، ويضم بلدة برمانا، ومقر اقامة احد الامراء وديرين للموارنة، وآخر في نهر الكلب.

١٢ - اقليم القاطع، الواقع في كسرزاد وهو يضم عليبة مارونية، بيت لها ثلاثة اديرة خاصة لحكم الامير ابي اللمع. وتذكر من قرى هذا الاقليم قرنتي بكفيا وبيت شباب. تنتج هذه المنطقة افضل واجود نبيذ في جبل لبنان فهو يحفظ في جرار كبيرة، كان يحفظه يهود اليس وأرمن بلاد فارس، وسكان الاراضي المقدسة، في زمن يسوع المسيح. ويشتري السكان البراميل الصغيرة من قبرص ليصنروه منها إلى الخارج

١٣ - اقليم بسكتا، ويصمم اغبية مسيحية وخمس كنائس ومقر الامير، فصلاً عن دير للموارنة.

١٤ - اقليم المتين، ويضم دروراً ومسيحيين ومسلمين، يحصون لسلطه لأمير المقيم في بلدة المنين. يمدت الموارنة ديرين في هذا الاقليم، كما وان الرزم يملكون ديراً قرب قرية الشوير ومعية شهيرة، عالياً ما نشاهد كتبها في المكتبات الأوروبية^(٥)

١٥ - اقليم حمانه، لم نجع معلومات وافية عن هذا الاقليم باستثناء انه يضم بلدة ومقر مقدم

١٦ - اقليم الشبانية، الذي اطلق عليه هذا الاسم تيمناً بإحدى القرى.

١٧ - اقليم عين دار الذي يحكمه عدة شيوخ، ويحمل اسم قرية صغيرة.

١٨ - اقليم كسروان، ويبلغ طوله وعرضه مسافة يوم سير، ويمتاز بغناه بالعاكة وخاصة التوت والنصب والزيتون.

حكم هذا لاقليم في عهد الأمير فخر الدين، مسلم يقيم في عزيير ويدفع الجزية لباشا طرابلس. غير ان الأمير المذكور تعاون مع الموارنة، بصرده عائلة المسلم، وبسليم الحكم لهم. اما اليوم فلا يقيم في هذه المنطقة سوى درري واحد من آل شهاب. ولا يدفع سكانها سوى ٣٠ كيسة للامير الحاكم في دير القمر. وان اعلن الدرور الحرب على جيرانهم، يحبر الموارنة على إرسال جيش لهم بقيادة شيوخهم ويسمح لهم بارتداء ملابس الحضر وباعتبار عمدة حضر، علماً ان هذا الشرف لا يسمح، في المقاطعات التركية الا بقرية محمد ويتسع هؤلاء القوم بثقة الدرور ويسمح الشيوخ والامراء للموارنة بتربية اولادهم شرعاً ان تصي النساء بالعتيات والرجال بالعصية

وبعهدون اليهم كافة اعمالهم، ويستجندونهم كأبناء سر وورراء. بعبارة اخرى، يشغل الموارنة لدى الدرور المناصب التي تتطلب حكمة ووهاء ولكن شيوخ العقل الدرور يرفضون ان يتزعزع اولادهم في مارل شيوخ الموارنة، حتى انهم يرفضون تناول الطعام معهم. وان أراد سيد ما ان يحاقب درزياً على خطأ ارتكبه، تسعى عائلة هذا الاخير للانتقام. بينما يحضر المسيحي وعائلته الطرف عن كل ما يعمله به سيد.

سيطرة الموارنة على جبل لبنان

يعتقد الموارنة ان البابا هو رئيس الكنيسة، نجد من بينهم يسوعيين وفرنسيسكان وكوشيين لذا فإن علاقتهم بالاروبيين تعتبر اوثق من علاقة اي امة شرقية بهؤلاء الاخرين إلا انهم لا يهتمون

(٥) شاهد اتيان شولتز هذه المطبعة بمسح يرجى مراجعة كتاب رحلاته الجزء ٥، ص ٤٥٢، وهو يسمي الدرور المذكور دير حنا الشوير.

كثيراً بأمور العلم والحق كجيرانهم الدروز والعرب والأتراك. ولا يحيد الموارنة تربية أولادهم في أوروبا لأن هؤلاء لا يأخذون عن الأوروبيين إلا عاداتهم وهم يؤدون بذلك بلدتهم أكثر مما يفقدون^(١). وقد أكد لي الناس أن ٣٠ شاباً مارونياً يمكن أن يتلقوا العلوم والمعارف مجاناً في مدرسة الموارنة في روما إلا أن أربعة أو خمسة شبان فقط يذهبون إلى روما لأن الفقراء الموارنة يحشون من أن يتشرب أولادهم العادات الأوروبية، وهكذا فإن أحد الموارنة الذي تعلم في أوروبا كاد أن يموت من الجوع في بلده لأنه لم يجد أي عمل يعتاش منه غير الانضمام إلى رجال الدين علماً أن عائدات رجال الدين الشرقيين ليست جيدة كمعدات نظراتهم الغربيين.

إن مشايخ مسيحيي الشرق يخدمون شعبهم كواجب مفروض عليهم. ومع أنهم من حباة الصرايب إلا أن الدروز لا يدفعون لهم شيئاً ويحرص باقي الشيوخ وعامة الشعب على عدم إعطائهم من المال ما يريد عما عليهم دفعه للدروز هؤلاء الشيوخ انفسهم يصبحون الرؤساء في أيام الحروب. ولأن طريقتهم في القتال تختلف كثيراً عن طريقتنا فإن أي ماروني عمل كصايغ في أوروبا سيجد الناس يستخرون منه ويستبعدونه عن المعارك خاصة إذا أراد أن يعلم الملاحين طرق القتال الأوروبية. إن المحاكم عند الموارنة تدرء أكثر منها عند الأتراك. عندما يشأ خلاف بين الموارنة يذهبون إلى المطران أو البطريرك على أنه رئيس امتهم كما ويختارون حكماً آخرين يمكن أن يكونوا مسيحيين ودروز ومسلمين.

عام ١٦٠٠ عندما كان دنديني (Dandini) في جبل لبنان لم يسمع شيئاً عن الأمراء الموارنة وكان يسميهم بواب الكهنة^(٢)، ولا بران نجد في كسروان وفي اقليم باشا طرابلس ثلاث عائلات يعتبرها المسيحيون من العائلات العريقة وهي: حبيش والماقوري والخورن. برعم أبناء عائلة حبيش أن أسلافهم كانوا دائمي الشهرة منذ سبعة إلى ثمانية قرون وأنهم كانوا يملكون عدة قرى في جبل لبنان. حالياً هناك أكثر من مئة شخص من حامي اسم هذه العائلة يلقب بالأعياء منهم باسم شيخ

(١) من المأذون جداً أن يعصب الشرقيون بأوروبا خاصة إذا لم يتركوا بلادهم منذ الطفولة. وهم لا يستطيعون الحفاظ على ألقاب الشرف فيها. اليكم مثلاً على ذلك ترك أرمني شديد الثراء اصمها في أيام الحروب لداخلية وحمل معه ثروته إلى البندقية حيث أصبح كونتاً ثم بقي في أوروبا لأن التنقل صعب عليه وهو في سن متأخرة. إلا أنني وجدت ابنه في البصرة يعيش على الطريقة الشرقية، ولا يهتم حتى بمحادثة الأوروبيين الذين يلتقون إليها أن صديق رحلتي إلى فارس الذي ذكرته آنفاً كان قد أرسل من قبل الوالد وكذلك الفاجر إلياس الذي عمل والده كمترجم في مدريد لم يطلب له العيش في إسبانيا.

(٢) رحلة إلى جبل لبنان قام بها الأب جيروم دنديني، بعد رؤود ترجمتها المرسية بالملاحظات رجل الدين لراسوا ريتشارد سيمون

من قبل باقي المسيحيين الذين يحتاجون لمعونتهم. وبما أنه في هذا البلد لا يميّز الأبناء عن بعضهم وتوزّع الأراضي بالتساوي عليهم له نجد الكثير من أبناء هذه العائلات الذين يجدون أنفسهم مضطرين للعمل كموظفين أو كمعلمين عند الدور وأحياناً يمارسون مهناً بالسة دون أن يهتم بهم الموارنة الآخرون أو أبناء الديانات الأخرى^(١)

انقسمت عائلة حيش إلى أربعة فروع.

١ - ولاد بو بريك وهو فرع كبير يسكن اهله في غزير وغوسط والساحل ويبروت

٢ - ولاد بو شديد

٣ - ولاد عادل ويسكنون في غزير.

٤ - ولاد بو رار ويسكن جزء منهم في غزير والجزء الآخر في الساحل^(٢).

تقيم عائلة العاقوري في أراضي باشا طرابلسي وهي عائلة قديمة لكنها فقيرة وبالرغم من ذلك فهي متمسكة جداً بعراقتها وتفصل الا فتروج بانها أبداً على أن يتزوج من موارنة لا ينسبون إلى العائلات المرفقة. في هذه العائلة ٢٠ شخصاً تقريباً.

إن عائلة الخازن هي الأكثر ثراء لكن عمره لا يزيد عن ١٥٠ عاماً إن وإن شخص من هذه العائلة صار مشهوراً في جبل لبنان هو بو نادر. شغل منصب وزير عند الأمير فخر الدين أي كان مستشاره الشخصي وأمين خزانة وفي الوقت نفسه صابغاً شجاعاً. كان أبه يدعى بدر المحزون لكنه غيّر اسمه وصار يكتفى باسم أمته: أبو نوفل.

كان الوالد قد جمع ثروة كبيرة من جزء خدمة الأمير فخر الدين واشترى رخص عديدة ثم قرى بأكملها في كسروان صار الشيخ أبو نوفل يضاعف ثروة والده لأنه وولاده خدموا الأمراء التاليين وهذا هو الشيخ الذي كان أول من سمح للرهبان الأوربيين ببدء أديرتهم في جبل لبنان كما وأعطاهم بيوتاً. كان ذلك كافياً لذبوع صيت هذا الشيخ في أوروبا صار رهبان يكتبون في رسائلهم إلى روما وباريس عن أمير كبير محسن يحمي الديانة الكاثوليكية من الكفار الذين يحيطون بها. لذلك نصّب البابا هو وابنه فارسين.

أما منك فربما فعقته قنصلاً له في بيروت وكان هذا قد أعطى نفسه لقب أمير الموارنة فصار

(١) يقال أن واحداً منهم كان حلاقاً وهي مهنة يحقرها أهل الشرق (راجع وصف شبه جزيرة العرب)

(٢) يدعى بعض الشيوخ العرب بني بريك وبني شديد. يمكن أن يقرر فقهاء اللغة ما إذا كان الموارنة يسمون أنفسهم بأولاد كندا أو أبو كندا يسميوا بذلك عن المسلمين أو لأنها عادة قديمة عند السوربيين

الرهبان يسمونه هكذا في رسائلهم من كان من البابا وملك فرنسا الا ان صاروا يحاطبون بهدا
اللقب إذن سمى ابو نوفل اميراً من قبل الاوروبيين في الوقت الذي كان فيه مشايخ عائلي حبيش
والعاقوري لا يعتبرون عائلة عازن عائلة عريقة.

ترك الشيخ ابو نوفل قصة حياة الامير فخر الدين يكن يشكك في انه لم يكتبها بنفسه بل
ساعده في ذلك الرهبان الاوروبيون لحمله كاتياً دائع الصيت. لقد عرفه أرميو (Arvieux) وروك
(Roque) شخصياً وحكموا عنه مطولاً كان الاخير مسافراً والتقى به عبد الرهبان الذين تلقوا
حسرات كثيرة منه وكانوا ينتظرون المريد. وقام بطبع الرسائل التي ارسلها اليه ملك فرنسا وورثوه
كي لا يترك اي سبيل للاوروبيين لشك في ان الشيخ كان شخصية مهمة أما ارفيو الذي عاش
عدة سنوات في السيده (Seide) والذي قام بأعمال كثيرة مع أبي نوفل وصفه عكس ذلك تماماً
كما أنخيل اي شيخ ماروني في موطنه وقد اتعب الرهبان رأسه بألقاب الامارة والقسولية

تورع عطف أبي نوفل إلى فروع خمسة هي:

١ - اولاد بو كنرو والمقيمون في عوسطا

٢ - اولاد بو ناصيف في عجشون

٣ - اولاد بو نوفل في عوسطا وعجشون

٤ - اولاد موسى في ذوق مكيل

٥ - اولاد بو شديد في ساحل النش

لو أن الرهبان الاوروبيين لم يبقوا في جبل لبنان لما كما سمعنا المريد عن الامراء المتوالة.
لكنهم إلى اليوم يذكرونهم دائماً. وغالباً ما يرسلون اباء محسنين، أفقرتهم الحروب الداخلية أو
قطاع الطرق المتوالة إلى أوروبا باسم امرء جبل لبنان أو امراء فلسطين، يعطون انشيخ رسائل
توصية إلى روما. وبما انه كاثوليكي يحرص من في روما على اعطائه رسائل اخرى للامبراطور.
لدى وصوله إلى فيينا يقدم اليه مسكن مجاني ويحصل كل شهر على مبلغ من المال يعايش منه
كما يعطيه مدير المحطات بطاقة مرور تحوله الثقل مجاناً ليس في بلداً الامبراطور وحسب بل
وايضاً في كافة الامبراطورية الرومانية، ويعطيه وزير الخارجية رسالة توصية إلى كافة السلوك
والامراء، وهكذا يشهد سيادة الامير حيثما ذهب راعماً ان الاتراك والعرب والمثولة والصيريين
وباختصار كل الكفار قد سلبوه اراضيهم وان حتى روحه واولاده الامراء والاميرات اصحوا في
السجن وهو لا يتسهران في سمرهم الا إلى أسماء المدن التي يحرون بها ونوع العملات

المستعملة في كل بلد والحسنات التي يحصلون عليها والمقاهي التي يدفعون لهم فيها والأموال التي دفعوها للجحش. وهم يبالغون في لا يعودون إلى بلادهم إلا بعد أن يكونوا قد جمعوا المال الكافي لشراء بستان فيه شجر زيتون ونخيل وبعض الأراضي. حينئذ يحضرون أهلهم بالحفاوة التي استقبلهم بها الملوك والأمراء الأوروبيون ويسحرون منهم لأهم دعوتهم إلى مائدتهم بصفتهم مرء وسرعان ما ينمي أحد اصداقائهم لقيام برحلة مماثلة ليس رغبة بالدين المسيحي بل لجمع المال. فيأخذ حارطة الطريق ويستعلم عن المدفوعات ونمداخيل التي يمكن أن يحققها أمير الزيتون (هكذا يسميهم أبناء بلدهم على سبيل السخرية) معائد ويأخذ رسائل توصية إلى روما يكتبها له بعض البطارقة والرهبان الأوروبيون (نقاء بعض المال أو لقاء بعض الهدايا) ثم يشتري سباً جسيلاً وحنجرًا رائعاً ويسافر حادماً نام بهذه الرحلة من قبل ثم يتجه نحو أهم بلدان ومدن أوروبا حيث يقص صديقه الأمير المترف أكثر مما دفع.

لقد اغدقت هذه المهمة أموالاً طائلة على الأمراء الموارنة الذين قاموا بالأسفار أما الأسباط الأوروبيون فلم يرغبوا قط في معرفة الحقيقة. لقد كان يحصلون بتسليمهم هم رسلات البلاط لثعروف على أمير عربي أو على أمير من جبل لبنان أو من فلسطين ولم يكونوا يكتفون بالاستماع إلى أقواله بل ويدعونه إلى ولائهم ومتى اشتدت الروابط معه يرسلون إليه الهدايا. لكن هذه المهمة لم تعد تدرّ الكثير من الأموال على أمراء الزيتون بسبب الأعداد الكبيرة التي تعد منهم إلى أوروبا. عرفت عدداً من أمراء الزيتون في أوروبا وكانوا يتدبرون من أن الملوك والأمراء لم يعودوا مدسسين كما في السابق إذ أنهم لا يسمحون لهم بالتجول مجاناً في كافة المدن والقرى كما كانوا يفعلون في السابق ويجنون الهدايا من الناس ويطلبون المال من الفلاحين الذين يدفعون لهم دون تردد لأنهم طردوا من بلدهم على أيدي الكفار. ولأن الفلاحين يحسون رؤية الأسراء العرب في نبيهم الشرعية (التي يزينها هؤلاء الأسراء الشحذون بالذهب والفضة على طريقة الشرقيين) كما لو أنه حيوان عربي في السوق أو غنوس سحري لكن نظراً لكثرة هؤلاء الأمراء الوافدين بدأ مسؤولو القرى والفلاحون يسأمون منهم لهذا السبب لم يعد الأمراء الأوروبيون يسمحون لهم بالتعب والدوران بل صاروا يعطوهم هدية نقدية ويدفعون كمفأة أقامتهم في المنزل أحياناً ثم يرسلوهم في أسرع وقت ممكن. وهكذا فإن لأمراء الموارنة هم أسرع من يوم بأسفار. أنا شخصياً لم أحس بالشفقة على أي من هؤلاء الأمراء المرعومين الذين اتفقت بهم في أوروبا سوى المدعو عبود بن شديد فليد كان ينتمي فعلاً إلى إحدى الفروع العربية من عائلة جيش وكان يحمل رسالة توصية إعطاهم منك فربما هي الماصي إني ولده ثم إليه. كان رائده يملك قرى في منطقة الصووح بالإضافة إلى أراضي واسعة وبساتين وبيوت في عزير لكنه أصبح فقيراً بسبب الحروب الداعية مع

المتأولة. وقد كان لبدو علاقات كثيرة مع دروز من طبقات راقية. وكان يعرف بلده جيداً لذا فأن مدني له بالكثير من المعلومات الجغرافية والبشرية التي ذكرتها في هذا الجزء وكان يتمتع بكثير من الطموح وعزة النفس ليؤدي دور المتسول في أوروبا لهذا فقد منعه صفاته من جمع الكثير من الاموال. يقول البعض ان قسماً من أبناء هذه العائلة قاموا بالسفيرة مرة اولى على انهم خدم ومرة اخرى على انهم امراء. اظن اني رأيت واحداً منهم في كوبنهاغن كان يرافقه ماروني شاب يرتدي ثياباً اوروبية وكان يسميه امين السر وكان في الوقت نفسه خادماً ورفيق سفره وربما يرافقه لتعلم المهنة.

إن الموارنة مصيافون جداً في بلدهم. لأن الصادق العامة قليلة عندهم وعند الدروز والعرب والاثرياء. هناك غرفة شاخرة في منزل كل شيخ لاستقبال الضيوف والمسافرين مجاناً. ومتى كان في المنطقة نفسها اكثر من شيخ يكون دور كل منهم في شهر واحد وعليهم التسه إلى حسن استقبال الضيف ومعاملته. احياناً يستغل الناس حسن استقباليهم. كان هناك ماروني ولد في حلب لكن عمل كمخادم في فيينا فاجاء إلى غزير بلباس الاوروبيين واصطحب معه مترجماً استقبله شيخ غزير استقبالياً جيداً على انه سيد ألماني وجعلوه يزور كافة الشيوخ الاخرين ودعوه إلى رحلات صيد وعملوا المستحيل لجعل اقامته في لبنان لائقة جداً بعد ستة أشهر عاد إلى دياره سعيداً بعد مضي بضع سنوات سافر إلى فيينا ابن احد الشيوخ الذين استقبلوه بحفاوة بالغة وكان منكرراً يزي امير فخر على ضيف والده لكن بدلاً من ان يجده سيداً ألمانيا وجده مارونياً يعمل كتاجر في فيينا.

في شهر عام ١٧٧٧ وصل إلى كوبنهاغن رجل من عائلة حبيش ادعى انه امير من فلسطين وكان اكثر مهارة في ناحية دوره من كافة زملائه السابقين. بالاضافة إلى اللغة العربية كان يتكلم الايطالية والفرنسية وبعض الالمانية والانكليزية ولم يكن يعرف بلده جبل لبنان جيداً. اعتقد انه ابن احد الامراء الحزبيين الذي سافر إلى أوروبا مع ابنه والذي مات في ألمانيا. اذا سم اكن مخطئاً فإن هذا الامير المزعوم قد عاش عشرين عاماً في أوروبا. فمن غير العربي اذا ان يتكلم لغاتها. وهذا انه تعلق بشمط الحياة الأوروبية ولم يجد يرغب بالعودة إلى سوريا فقرر التجول في أوروبا فمر ما استطاع وطالما هناك اسياذ يوافقون على مده بالمال الا انه انسد هذه المهنة فما عاد خلعاًؤه يستطيعون الاستفادة منها من بعده.

إذا اردت القراء معرفة رأي باقي المسافرين في امراء جبل لبنان فما عليهم الا مراجعة كتاب بوكوك وصف بلاد الشرق، الجزء الثاني القسم الاول، ص ٩٦، وكتاب يوناك كورنيس وستيمان شولتز الجزء الخامس. يقول الاخير ان العائلة الحبيشية العربية تقسم إلى قسمين: لا قسم يحيش

يشرف فيمضي امرده يشغلون مناصب وزراء في الدولة أو ضباط عند أمير جبل لبنان أو أمراء القضاة بين يمين القسم الثاني خمس كافة أمواله في القمار والميسر واستحل عليه استمادتها فصار على أمره أن يعيشوا بقر كفلاحين... من هذا القسم الثاني وفد الأمراء إلى أوروبا. إذ قارنا هذا بما سبق نجد أن شولتز لم يجمع الكثير من المعلومات الصحيحة حول العائلة الحبيشية وإن حكمه كان جائراً. إن عيود بن شديد الذي التقيت به لم يكن أبداً من هؤلاء الأشخاص الذين يتكلم شولتز عليهم. لقد زار مركز أحد هؤلاء الأمراء في عزر واليكم ما جاء به فإن شيخ الموارنة يتكلم الإيطالية وأمضى ثمانين سنوات في أوروبا. هناك شخصان أو ثلاثة أشخاص زاروا أوروبا أيضاً ولا شك أنهم رافقوه إليها وكان أحدهم قد زار بريطانيا^(١) أعتقد أنه سافر مثكراً بشخصية أمير من جبل لبنان لأن الذين يسافرون إلى أوروبا بهذه الصفة هم غالباً أبناء الشيوخ الذين يتمكنون قرى بكاملها وأبناء أمراء دروز. ونظراً إلى أنهم محرمون جداً في بلدتهم، يستطيع الرهبان رسائل توصية إلى أوروبا على أنهم أمراء من جبل لبنان. غالباً ما يعرّضون أعيانهم لأنهم يشغلون بطريقة مهذبة حاجتهم في ذلك أن الموارنة مصطفون من قبل الأتراك لأنهم مسيحيون. سأل كوش أحد رجال الدين من جبل لبنان عن هؤلاء الأمراء الذين يسافرون غالباً من جبل لبنان إلى أوروبا فصححت هو والأربع الذي كان معه وأشار بأصبعه إلى فلاح يمر على حصانه ويحمل رمحاً على كتفه ويقول أنه على سبيل السحرة يسمى أمير كل عربي عبي يستطيع امتطاء الحبل ويحمل رمحاً على كتفه. ويحكى دولاروك في رحلته إلى سوريا وجبل لبنان قصصاً كثيرة يمدح فيها الأمراء الموارنة من غير المسافرين لأنهم في ذلك الوقت لم يكونوا قد سافروا بعد بل كانوا لا يزالون يحيطون الرهبان بمعاملة خاصة.

إن أهم مناطق كسروان هي التالية:

غزير، وهي مدينة صغيرة فيها نهر يدعى المعامتين ويصب في البحر في الشتاء. في الصيف تستهلك مياهه كافة في الحقول والبساتين إن مكان هذه المدينة هم جميعاً مسيحيون وبغالبيتهم من الموارنة. يمتلك شيوخ عائلة حبيش غالبية البساتين والحقول المجاورة. يجمع أربعة شيوخ يتأسون هذه العائلات الضرائب المفروضة والتي تدفع لأمر الدررز وفي أيام الحروب يصبحون قادة على السكان. لا يوجد حاكم أو قضاة في هذا القطر. هناك خمس كنائس في غزير والقرب من المراسي هناك دير للموارنة وآسر للأرمن الذين انتصروا إلى الكنيسة الرومانية.

(١) المصري لا يأخذ معه الكثير من المخدم في أوروبا، ربما كان هؤلاء مخدم عند غيره أو أنهم سافروا إلى أوروبا بصفة أمراء مزعومين (الجزء ١١).

إن قصر الأمير المسلم الذي طرد من هنا صار منذ بضع سنوات ملكاً لأبي شندول من عائلته حبش. ولشدة ما كان هذا الأخير كريماً مع راهب كيوشي فرسي، أراد له يهديه القصر لكن الراهب كان واعياً فلم يوافق على أخذه مجاناً فاشتره سورياً بقيمة ٣٣ قرشاً، وهكذا تأكدت جماعة الكيوشيين من أن ورثة هذا الشيخ لن يصابوا بالقصر أبداً لأن عقد الشراء بحوزتهم. إذاً فانكيوشيون يسكنون اليوم في قصر أمراء كسروان السالقيين بينما شيوخ الموارنة الذين يرسلون أولادهم إلى أوروبا بصفة أمراء مزعومين يسكنون المنازل البائسة. لا يزال محد في عزير مسجداً كبيراً مع مشرفة يعود لأيام الأمراء المسميين، ويستعمل مسيحيو المنطقة هذا المسجد أحياناً كزريبة للمواشي.

في جوار عزير هناك إقليم يدهى المتوح فيه القرى التالية
الصفراء، اليوار، كفر حباب، فتقة، عدراس، كفر شريف، حالات، الحصين، غباله، العينة، والكفور.

الجديدة هي قرية تقع بالقرب من نبع النهر الصغير الواقع قرب عزير وهناك كنيسة في القرية وخارجها دير للموارنة.

عمرسون هي قرية فيها كنيسة وخارجها هناك دير للموارنة، دير مار عبدا، ودير سيدة الحفل للرهبان والراهبات. من غير الضروري الإشارة إلى أن النساء يعشن فيه على حدة. شحتول هي قرية في المنطقة نفسها ووطى الجور تعتبر مكاناً رائعاً بشكل مريب للعائلات العريقة الدرزية والمارونية.

لا تشترك قرىنا دلبا وشعير إلا بكنيسة. هناك ثلاث كنائس في ساحل علما وبحوارها دير للموارنة. بالقرب من هنا نجد المقر أو برج جوبه قرب نهر الكلب حيث يطلب الموارنة عشر بارات ضريبة من المسلمين الذين يحرون في المنطقة في الماضي كانت هذه الضرائب تعود إلى عائلة حبش لكن سير الدروز وضع يده عليها ثم أعطاهم لمائلة الحازن كما الأتراك والاكشاريون والمسمون المتكثرون لا يعطون كسوة صدق للموارنة عندما يطالبونهم بهذه الضريبة، وحدهم التجار الصغار يعتقدون أن هذا المال الضئيل لا يستحق أن يؤدي إلى عراك مع الموارنة من هنا فإن هذا المال لا يكفي لإعطاء الجاني راتبه. أضف إلى ذلك أن الموارنة مخزون بأنفسهم لأن المسلمين يدفعون لهم الضرائب.

حارة صخر هي قرية فيها كنيسة وخارجها يوجد دير للرهبان الموارنة. هناك كنيسةان في عزير ودير كبير للراهبات.

في الباصي كانت صرباً مدينة كبيرة فيها قلعة أما اليوم فقد تحولت إلى قرية بائسة. أما صمشت فلا يوجد فيها إلا كنيسة واحدة.

نجد ثلاث كنائس في ذوق مكبل وحارجها دير سرور احدهما للرهبان والاخر للرهبيات

ذوق مصبح هي بلدة فيها اربع كنائس لا تبعد كثيراً عن نهر الكلب. بالقرب منها يوجد دير للموارنة فيه ذكور وإناث. أحد نهر الكلب اسمه عن كلب كبير محفور في الصخرة. في الماضي كان الكلب مشنوداً إلى الصخرة اما اليوم محده عند مصب النهر وقد فقد رأسه. نجد في هذه المنطقة كتابات عربية ولاتينية قديمة جداً ربما يجدر بي نقل هذه الكتابات^(١) هناك العديد من المعابد المحفورة في الصخور بالقرب من نبع النهر ويغال ان فيها كتابات قديمة جداً.

نجد كنيسين في ذوق الخراب وفي جوارها ثلاثة اديرة للموارنة اما جعنا فهي قرب منبع نهر الكلب وفيها كنيسة واحدة.

في عيشورة هناك كنيسة واحدة ودير للرهبان المارونيات وآخر لليسوعيين.

في الحراش هناك كنيسة ودير للرهبان المارونيات.

درعون هي قرية فيها كنيسةتان بالقرب منها نجد دير الشرقي للرهبان والراهبات ودير مار شبطا للرهبان والراهبات ايضاً ومكان إقامة احد مطارنة الموارنة.

حريصا هي قرية فيها دير للرهبان اما كهنة كنيسة الدير فهم جميعاً من الموارنة.

عوسطا هي مدينة صغيرة تقع على تلة وتبعد عن عزير مسافة مرسحين وعن البحر مسافة ثلاثة فراسخ. يسكن في عوسطا شيوخ عائلة الحارث الرئيسيون. في عوسطا ثلاث كنائس وبالقرب منها ثلاثة اديرة احدها دير للارمن والاخر للموارنة يسكن فيه بطريركهم احياناً. اما الثالث فهو ايضاً للموارنة ويسكن فيه احد المطارنة.

معراب هي قرية فيها كنيسة. بالقرب منها آثار برج قديم نجد فيه احياناً عملات نقدية قديمة هناك كنيسة في كل من قرى بعلبا ورعشين والقبالة اما عشفوت ففيها كنيسةتان

في بزمار هناك دير يقيم فيه بطرك الارمن الذين التحقوا بالكنيسة الكاثوليكية^(٢).

وسجد في ريفون كنيسة وبالقرب منها دير للموارنة.

في بلدة عجالتون هناك خمس كنائس وحارجها هناك دير للموارنة. اما القليعات فهي قرية

(١) تحدثت بركوك عنها في «وصف الشرق المجرة الأول» القسم الأول وقد طبع برندال (Mondral) كتابه لاتينية وجددها هنا (كتاب: رحلة من حلب إلى القدس)

(٢) يقول آخر ان بطرك الارمن يسكن في دير الكرم القريب من عوسطا

صغيرة فيها كنيسة والقرب منها يقع دير رومية. وهر دير كبير للموارنة.

تقع القرى التالية في اقليم يسمى جرد كسروان:

فيطرون وهي قرية كان سكانها جميعاً في الماضي من المسلمين لا يزال بعض المزارعين يعتقدون الدين الإسلامي إلى الآن لكنهم يخصصون لشيخ مسيحي. هناك كنيسة للمسيحيين في هذه القرية.

في السامي وحدهم المتأولة كانوا يسكنون حراجيل وميرويا وفاربا أما اليوم فلا نجد فيها الا المسيحيين ولديهم كنيسة في كل واحدة من هذه القرى.

يقعون والغلاي وبقعاتا وزبوعة هي قرى صغيرة في كل واحدة منها كنيسة. نجد دير للروم قرب كل منها.

تقع المزرعة في الجزء الاعلى من جرد كسروان وفيها خمس كنائس. ان مناخها عذب جداً في فصل الصيف لذا يقصدها ذوو الشأن من الدرور والسوارنة من سكان اسفل جبل لبنان الا انها شديدة البرودة في فصل الشتاء لدرجة انه يستحيل على السكان الخروج من منازلهم بسبب كميات الثلج الهائلة علماً ان الثلج لا يصبح قاسياً بما فيه الكفاية حتى يتمكن الناس من السير عليه. بالقرب من المزرعة (أو كما يقول البعض من حراجيل وفاربا) نجد آثار مدينة كبيرة هي فقرا وقد أكد لي الناس ان تحت الآثار نجد حجارة كبيرة عليها كتابات ونقوش.

ان الجزء الاعلى أو قل رأس جبل لبنان بين كسروان وبعبك لا يزال خالياً عن السكان تشتد فيه البرودة في فصل الشتاء ويغطي الثلج كل شيء اما في الصيف فتجد حقولاً جميلة وقطعاناً كبيرة من الماعز والحراف يمتلك جزءاً منها الدرور والجزء الآخر يعود إلى بعض قبائل التركمان.

لا ينفى هؤلاء الاخيرة الا شهراً واحداً هنا ثم يعودون قطعانهم إلى دمشق والمدن المجاورة. وعليهم دعم ضريبة بسيطة إلى امير الدرور الا ان اتباع الامير لا يدفعون شيئاً لقاء حطب قطعانهم من هذه الاراضي.

يسيطر الدرور ايضاً على بيروت^(١). تقع هذه المدينة في منطقة جميلة جداً على البحر بين صيدا وطرابلس. وفيها مرفأ جيد، تنشط التجارة فيه وتخصصاً الحرير والريوت والقطن وبضائع اخرى يشتهر بها جبل لبنان. من جهة الجبل، هناك الكثير من البساتين ومن جهة البحر هناك

(١) بعد رحلي سيطر على بيروت أثناء الحرب بين روسيا وتركيا كل من الأتراك ثم الدرور ثم الشيخ صاهر العمر وحتى الروس في نهاية عام ١٧٧٣. في النهاية أعيدت بيروت إلى الدرور.

برجان يقعان على الصخر ويهدمان إلى حمأة العراء إلا أن حالتها يرثى لها. تشكل هذه التلويحات الوحيدة لدى الدرور إذ ما استثنى الجبال المحصورة. إن بيوت المدينة جميلة جداً خاصة الخانات منها^(١) والمحال التجارية التي يؤجرها الأمير بأسعار مرتفعة للمسلمين. في بيروت مساجد كثيرة، ويختار أهل هذه المنطقة مفتيهم وقضاةهم بأنفسهم. يقيم الأمير الحاكم في مهتم عدم دفع ضرائب المهنة وجدير بالذكر أن قضاة بيروت لا يكسبون الكثير من المال كقضاة المدن الأخرى. عدم يرى مسلمو بيروت أن القاضي أصدر حكماً متحيزاً يشكوه إلى الأمير الذي يعاقبه أولاً. إن أهل بيروت أو قائدها لا يكون درياً بل مسلماً يولد في المدينة لكنه يخضع كلياً لأمر الأمير. إن الموارنة هم أكثر الطوائف نفوذاً من بين المسيحيين في بيروت ولديهم كنيسة في المدينة. في بيروت يهبط روم وبعض اليهود. إن الدرور لا يحبون اليهود كثيراً لذلك لا يجد أي يهودي في جبل لبنان إذ يحصرون في بيروت. لكنهم يتجولون في أراضي الأمير الأخرى بسبب تجارتهم كما في أيام بنينا هو تولادا. لم يبق من التجار الأوروبيين إلا فرنسي واحد موجود في الشرق. إن تجار مرسيديا الذين يصادفهم في كافة مرافئ هذا الشاطئ قد حاولوا كثيراً التركيز في بيروت لكنهم غالباً ما كانوا يتركون المدينة ويسحبون إلى صيدا لأنهم يستطيعون دائماً فيها إجبار الدرور على الدفع لقاء المضاع التي يبيعونها أياد وذلك بمساعدة الباشا أما في بيروت فيشتري الدرور بالدين بضائع كثيرة ولا يستطيع التجار استرداد ثمنها منهم حتى بواسطة العدالة.

إن القرى التالية تقع في جوار بيروت وهي تابعة للأقاليم الدرزية القريبة منها الغيني، التحويلة، الاشرفية، الضيعة البوشية، الشياح، برج البراجية، حرش الصنوبر، الباعة والنميمة.

على بعد ربع فرسخ من بيروت نجد دير المحصر من جرجس وهو مكرس لمار جرجس. يعتقد الموارنة أن مار جرجس هذا قتل اثنين المدفونين هنا على مسافة غير بعيدة من بيروت تقع كنيسة انطلياس يعتقد الموارنة أنها لا تزال تحتوي حتى اليوم على الكثير من الذهب والاحجار الثمينة المدفونة التي لم يستطيع الدرور والمسلمون حملها كلها.

تقع الأقاليم التالية أما في جبل لبنان أو على الجبل نفسه ويمكن الموارنة جراً منها إلا أنها لا تتبع أراضي الدرور بل أراضي باشا طرابلس:

١ - جبة بشري، وهي إقليم مهم في شرق طرابلس. إن غالبية سكانه من الموارنة لكن العائلات ليست مهمة كما في كسروان. يعين الباشا جاني الضرائب من بين الضباط الموارنة أو

(١) في بيروت تسمى هذه الخانات تيمرية وفي القاهرة تسمى عقال.

من بين الأشخاص الذين يدفعون له لقاء ذلك يسمى هؤلاء شيوخاً، ان اهم القرى في هذا الاقليم هي: بشري، المحدث، عنطوري، حدشيت، بلوزا، حصرون، كمرشعنا، برعو، قرقاشا، كمرصارون.

لمسيحي هذه القرى اديرة كثيرة قريبة منها. الدير الاكثر شهرة هو دير قنوي، مكان اقامة احد البطارقة المواربة. ان هذا الدير مرتفع بعض الشيء وبه مظل خلاب اما عائداته فهي مهمة لكن يصرف منها على الفقراء كما يصاب باشا طرابلس البطريرك بصرائب كثيرة مما يجبره الى الانسحاب الى دير تريب من عوسطا فيبقى في حماية الدور ومسيحي كسروان هناك ايضاً دير قرحيا في هذا الاقليم وهو محفور داخل الصخر ويقال ان الاشخاص المضطربين يقعون فيه ثلاثة ايام ثم يشعون. كما ان للكرملين دير قرب شجر الار الشافق وبعد بالقرب من قرية اهدن وفي الجزء الاسفل من بشري هناك دير مار ليشع.

٢ - الزوية وهي اقليم صغير

٣ - النرون وهي اقليم صغير يطل على البحر مجد في هذه المنطقة الكثير من الاديرة التي تحولت الى آثار.

٤ - العاقورة وهي اقليم فيه قرية تحمل الاسم نفسه يعيش بها أهم شخصيات عائلة العاقوري بالإضافة إلى مطران ماروني بالقرب من العاقورة وفي الانتم المستوى اليريج يمكن ان نجد كتابات قديمة جداً محفوظة على صخره.

٥ - الفتوح. يقع هذا الاقليم جنوبي المعاملتين وشماله نهر ابراهيم وعربي جبل وتمتلك عائلة حيش غاليته.

عندما كنت في هذه المناطق كان السكان يعدون كثيراً من جيرانهم المتأولة الحاكمين في جبل لأنهم لم يكونوا يكتفون بهب بيوت السوارنة بل وكانوا يحرقون اشجار التوت فيحرقونهم من تربة دود القز، لكن في تلك الفترة طرد المتأولة من هذا الاقليم كما سرى لاحد.

تقع القرى التالية في إقليم الفتوح وكلها صغيرة الحجم: كمر ياسين، الصفراء، البوار، كمرشعنا، فتنا، غدراس، كمر صور، حالات، الحصين، العبال، العيني، والكفور.

٦ - تشكل الكورة اقليماً مهماً يسكنه مسيحي الروم الكاثوليك. لهؤلاء العديد من الاديرة الكبيرة منها عنطورة والبلند والنورية.

٧ - القصبة هي إقليم يسكنه المتارلة والمسيحيون.

٨ - جبيل هي بلدة رقيقة يسكنها الموارنة الجزء الأكبر منها لكنهم يحصون اليوم للمناولة. من أهم الأماكن في هذا الإقليم جبيل، معاد، غبيون، البيشة، حاقن، مشمش، لحمد، أشيدش، وادي معاد، يتنازل، يقال أنه يمكن أن نجد كتابات عديدة في القصور والأديرة بين المدفونين وفيبار على مسافة ستة فراسخ.

جبة المسيطرة هي إقليم مهم كان الجزء الأكبر منها في أيامي يخصص للحكم المتناولة. في هذه المنطقة يتبع نهر إبراهيم. يقال أنه عند المسيح هناك أثر لمبان قديمة. بالإضافة إلى مكانة واسعة محفوظة في الصحور كمغارة أفا. ويحكى أيضاً عن آثار بروج قديمة ومعابد وعن كتابات حول جبل موسى وهو الجبل الواقع بين بلدة المسيطرة والمناورة.

من رحيلي من سوريا طرأت تغييرات كثيرة في الإقليم الأخير (جبيل) إذ أن دورياً يدعى يوسف طرد المتناولة من هنا مع أنهم كانوا يملكون المنطقة منذ أكثر من ٢٠ عام وكان باشا طرابلس قد تنازل لهم عنها. وقد عذمت بهذا الخبر من عبود بن شديد وميخائيل مما أذ كان الأول في كوبنهاغن من عام ١٧٧١ والثاني في عام ١٧٧٤. إن هذا الحدث سيثير دهشة الكثير من الأشخاص الذين يجهلون شكل الحكم في بلاد الشرق.

كان والد يوسف دورياً يدعى الأمير ملحم لكن أمه لم تكن ذرية بل كانت ابنة أحد الشرفاء المهمين. كان لا يزال صغيراً عندما تولى الحكم عنه الأمير مصور وكان الحاكم السابق مارونيا يدعى صالح وكان رجلاً ذكياً يدل كل ما استطاع لزج روح الحكم في قلبه وكان يظن أنه سيجعل أكثر من كافة أبناء الأمير ملحم لأنه أعدّه فتلقي تنشئة جيدة. تعرض الأمير يوسف لحدثين شأن شأن كافة أبناء العائلات المرموقة من الدرور حتى يظن الأتراك مسلماً. وبما أن موارنة جبل لبنان كانوا كثيري العدد ومن حلفاء الدرور ضد الأتراك والمناورة، حاول الشيخ صاوح كسب محبتهم بسيدته الصغير لهذا قام بهميده وكان يأخذه أحياناً إلى الكنيسة معه كاد لا يزال صغيراً جداً لأسلاء الحكم كما كان عمه شديد النفوذ. في البداية صر بمني فكرة طرد الأقلية المتناولة الحاكمه والتي تكره المسيحيين من جبيل ومن غيرها من الأقاليم في ولاية طرابلس الأقلية المتناولة الأكثر نفوذ والتي تكره المسيحيين. لتنفيذ هذه الخطة كان لا بد أن يستعمل باشا طرابلس مسؤولية هذه الأقاليم وأن يجمع المال الكافي لدفع الجيوش وتدريب جيش صغير بطرد الأمياد القداسي والسيطرة على المنطقة. كانت تلك مهمة كبيرة جداً بالنسبة لشباب صغير في السن لا يمتلك من أموال العائلات بعض القرى المعدودة

لم يجد الأمير منصور ان يكون ابن اخيه محبوباً من الدرور والمسيحيين كان يحاول ان يسد الطريق في وجهه يشتي الحجج حتى انه احرق له بعض القرى التي كان قد ورثها عن ابيه الا انه بذلك اعطى الأمير الشاب جهة للشك في عليه. لجأ يوسف إلى باشا طرابلس ابن باشا دمشق والذي كان لا يزال شاباً هو كذلك، فشأت صداقة بينهما. بسما حاول الباشا مصالحة الطريين ذهب يوسف إلى دير القمر ومكث فيها بعضة أشهر وصار يدعي صداقة عمه لكنه كان يتامر مع علي جنبلاط على الانقلاب عليه. بعد ان وثق صداقته مع عدة شخصيات درزية هامة ترك دير القمر فجأة بحجة انه يحشى على حياته وغادر مع سائقه وحادم واحد إلى دمشق^(١) فقصده خاله الشريف والذي كان مرموقاً جداً في المدينة. وجد باشوات سوريا وجود مفاشات بين العائلات الدرزية الحاكمة. وهكذا ارسل باشا دمشق بطلب الأمير يوسف وأغدق عليه ألقاب الشرف وعامته معاملة الأمراء. في هذه الأثناء كان باشا طرابلس ينقل إلى هذه شكوى علي عائلة حمادة وهي عائلة من المتأولة تعيش في اقليم جبيل وكان السكان مستائين من حكم آل حمادة مد سبي الا ان احداً لم يستطيع طردهم من الحكم لعدم ثور حد يلجأ المرعة ويستطيع الدفع عنها صدّ الأسياد السابقين. بما أن عالية مكان جبيل كانوا من المسيحيين ومن اصدقاء الأمير يوسف، ظنّ هذا الأخير انه يستطيع التصدي للمتأولة. وهكذا كتب الباشا لابيه باشا طرابلس انه سيمضي جبيل ليوسف لمدة سنة واحدة (كما تجري العادة). عندما سمع الأمير بالخبر اتجه من دمشق إلى اللادقية حيث كان الباشا وجمع في طريقة ما يعارب ٥٠٠ رجل غاليبتهم من الحوارة وما ان حصل الباشا على الفرمان حتى عاد من اللادقية وصعد جيشه لدى وصوله إلى حدود جبيل انهم اليه ألف ماروني مستعدين لمحاربة المتأولة. ترأس يوسف الجيش المؤلف من ٢٠٠٠ شخص واخبر الشيخ الحاكم اسماعيل بن سرحان ان الباشا كلفه حكم هذا الاقليم وبما ان شيوخ المتأولة لم يكونوا يعلمون شيئاً عن الموضوع جيروا على التحلي عن منصبهم والانسحاب إلى القرى التي يملكونها شخصياً.

بعد مضي اشهر، سافر الأمير يوسف إلى جبل لبنان لتفقد مشاريعه المثبقة مع اصدقائه الدرور وخاصة علي جنبلاط استغل المتأولة غيابهم لتكسیر اشجار الحوح والذين الحاصلة بالموارة ثم احصروا مواشيهم اليها فسيبوا لهم بذلك اصراراً جسيمة. الا ان ما حصل شكل فرصة جيدة عرف الأمير يوسف كيف يستعملها قام في البداية بصرد الشيخ اسماعيل من ارضه وصادر كافه القرى والاراضي التي لم يستطيع انتزاعها منه كلياً طالما انه يتصرف جيداً. وكان الموارنة والدرور من

(١) هذا هذه العادة فإن عائلة شهاب او العائلة الدرزية الحاكمة مشهورة لأنها لم تقتل ابداً اي فرد منها

اتباعه وجيرانه الذين عاثوا كثيراً من ظلم المتأولة يسرعون للانضمام في صفوفه كما ساعده علي جنيلاط أيضاً. هاجم يوسف جيرانه المتأولة الذين كانوا يملكون منذ سنوات أقاليم البترون والفضية وجبة بشري. قاوم المتأولة في البداية لكن سرعان ما أجبروا على التخلي عن أراضيهم والانسحاب عند أهل دينهم في صبر وعكس. أما الأمير يوسف فحصل على موافقة كافة الأقاليم على حملها وأصبح سيداً على ولاية مهمة.

عندما جاء إلى طرابلس باشا جديد، خاف من سلطة الأمير يوسف التي تنضاعف يوماً بعد يوم فأبى أن يجعله يسيطر على كافة الأقاليم وأعطى بعضاً منها إلى المتأولة لقاء الكثير من المال وكان هؤلاء قد جمعوا جيشاً صغيراً إلا أن يوسف قرر عدم التخلي عن أي إقليم. جاء على رأس جيش كبير إلى طرابلس وهزم دفاع الباشا وهند بنهب المدينة. وبما أن ضاهر عمر كان يهاجم في تلك الفترة الباشاوات المجاورين له كتب باشا دمشق حامي الأمير يوسف سابقاً إلى باشا طرابلس يقول له أنه من مصلحة السلطان ترك الأمير يوسف يستولي على كافة الأقاليم التي ملحت له سابقاً. وهكذا حصل يوسف على دعم جديد فترك ولاية طرابلس. ومرة أخرى هاجم المتأولة ولشدة ما برع في المعارك بالقرب من الحدث لم يتصدوا له منذ ذلك الحين. في هذا الوقت هاجموا أقاليم أخرى في منطقة بعلبك وطردوا منها إسيادها القدامى تماماً كما طردهم يوسف.

بعد معركة الحدث سار الأمير يوسف على رأس جيش إلى بعلبك لمحاربة الأمير حيدر المتوالي. وكان هذا الأخير يدفع منذ أعوام الأموال إلى شيخ الدرور وبأخذ لقاء ذلك ما يعادل الألف شخص لمعاونته. لكن عندما اقترب يوسف وجيشه من المدينة رفض الدرور الخروج منها كما رفضوا محاربة دروز آخرين. قاد حيدر الخيالة لمواجهته لكن أخاه تخلى عنه مما أجبره على الهروب عند المتأولة في ولاية عكا. لم يستطع الأمير يوسف المحافظة على بعلبك لأنه كان عليه دفع الضرائب مباشرة إلى القسطنطينية فسلم الحكم لأخ الأمير حيدر. لكن بعد أشهر نصالح الاعوان وعاد الأمير حيدر إلى الحكم بعد أن تعهد بدفع جزية سنوية إلى الأمير يوسف (وقلما بقي هؤلاء بعهودهم لمدة طويلة) وبعدم التعرض للدرور والمسيحيين في المناطق المجاورة. بعد ذلك طرد الأمير يوسف المتأولة من الهرمل.

كثيراً ما تنشأ حروب صغيرة مماثلة في الولايات التركية بين مستأجري مزارع السلطان، وقلما يهتم بها الباشاوات لأن ما يهمهم قلاً هو قبض الامتياز. كما أن باشاوات سوريا دائماً مشغولون بحماية المدن الهامة في هذه المنطقة ضد الثوار الكبار. فعلى بك الذي استقل في مصر والذي استولى على دمشق أجبر على التخلي عن المدينة الأخيرة ثم طرد نهائياً من مصر على يدي منافسه محمد أبو الذهب لكنه حمل معه أموالاً طائلة وتابع شن الهجمات على الباشاوات الأتراك

بمساعدة ضاهر العمر. في هذا الوقت كان السلطان يحتاج إلى جيوش كثيرة ضد الروس فلم يستطع إرسال الدعم إلى سوريا. ولم يكن الباشاوات قادرين وحدهم على التصدي لجيش شديد القوة فأجبروا على طلب العون من دروز جبل لبنان. كان الأمير منصور قد حصل على الكثير من الاموال من الاتراك وكان قد انضم اليهم اكثر من مرة على رأس جيشه لكنه كان دائماً ينسحب قبل بداية المعركة. لكن بما ان يوسف مدين بالكثير للبشاوات الاتراك قرر الجميع ان الدروز سيحاربون جيلاً لو ترأسهم بنفسه. وهكذا تبنى باشا دمشق ان يسمي فعلياً اميراً بدلاً من منصور واستغل الفرصة للقيام بذلك.

توجه الأمير يوسف إلى دير القمر للاقتراع بأمرة من آل شهاب وبهذه المناسبة اجتمع الشيوخ البارزون وخاصة من اهل العريس كما وجاءت شخصيات تركية رفيعة المستوى مصحوبة بحشود غفيرة بحجة المشاركة في الفرح. كان الأمير منصور يعرف ماذا يخطط العثمانيون وكان يعرف المرتبة التي يحتلها يوسف بين الدروز ومحبتهم له فقرر ان يأخذ دور الانسان الشهم. فتزع الخاتم المزود بالختم من اصبع الأمير الحاكم وقدمه إلى ابن اخيه على انه الوحيد القادر على تولي الحكم في الظروف الراهنة. وختاماً اقنع الاتراك والدروز الموجودون الأمير بقبول الخاتم وبالتالي بتولي الحكم. وهكذا تراجع الأمير منصور إلى اراضيه.

حالياً يحكم الأمير يوسف بلداً يقارن بمملكة صغيرة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار مساحته وعدد سكانه الكبير. ان للاتراك فيه ضابطاً شديد الاخلاص. عام ١٧٧١ أو ١٧٧٢ سار على رأس جيش كبير إلى منطقة عكا للاستيلاء على قلعة جون وهي قلعة صغيرة تطل على نهر الفاسمية كان الشيخ ضاهر وعلي بك يسيطرون عليها وكانت محاصرة من قبل جيش كبير ارسله باشا دمشق. كان ينتظر وصول مئات من الدروز من حاصبيا ليبدأ الهجوم لكن الأمير منصور كان له مناصرون في الجيش هم اليزيكيون. كان هؤلاء يظنون ان دروز حاصبيا من مؤيدي الاتراك فلم يكونوا يريدون انتظارهم بل صاروا يقتنعون الأمير يوسف بمهاجمة القلعة أولاً. لكن ما ان هجم عليهم الشيخ ضاهر حتى هرب اليزيكيون ثم هرب الدروز الآخرون الذين لم يعرفوا عدد الذين جاؤوا لمساندة رئيسهم كما عمت الفوضى في الجيش التركي الذي كان يظن ان العدو يلاحق الدروز. باختصار، تراجع جيش الاتراك والدروز الكبير منذ اليوم الاول مسافة ١٢ فرسخاً. تتبع ضاهر العمر، وعلي الدروز حتى اراضيه ودمروا العديد من القرى الموالية للأمير الجديد.

جازف باشا دمشق والأمير يوسف بهجوم جديد واجبروا جيوش الشيخ ضاهر وعلي على الانسحاب لكن هؤلاء الاخيرين تلقوا مدافع صغيرة من الزوارق الروسية التي كانت تتواجد في

الجوار في هذا الوقت، فحملوها إلى المعركة وشتتوا بها الأتراك والسوريين والدروز الذين لم يكونوا معتادين على التصدي للمدافع. في المرة التالية التي عاد بها يوسف إلى دير القمر قرر أنه من الحكمة إعادة الحكم للأمير منصور.

لكن الأمير يوسف حافظ على جليل وعلى الأقاليم الأخرى التي طرد منها المتأولة ومن المحتمل أنه سيصبح أمير الدروز الحاكم إلا أن ذلك لن يفرح الدروز كثيراً. إن الأمير الحاكم يخضع كثيراً للشيوخ البارزين. وفي عائلة شهاب الكبيرة يوجد أشخاص آخرون أذكىاء يتوقون إلى تولي الحكم. هناك دائماً فريقان يقسمان الشعب سواء إلى قيسيين ويمنيين أو إلى جنبلاطيين وبزكيين. سيظل الدروز منقسمين في ما بينهم أو سيشتتون معارك على الباشاوات الأتراك.



هذا الجزء الثاني من وصف شبه الجزيرة بعد وصفي لرحلتي . وأرجو ألا يلومني هواة التاريخ الطبيعي ، لأنهم جمعوا ، منذ صدر الجزء الأول من هذا العمل ، ثماراً أخرى من الرحلة وذلك من «شبه الجزيرة» ، ومن «وصف الحيوانات والنبات في مصر وبلاد العرب» ، شرف مساعدته ، وطلب مني العمل على نشر الكتب المذكورة أعلاه ، فقامت بهذه المنحة انطلاقاً من راجبي وفرح لأحيي ذكرى رفاق رحلتي الذين أصبحوا ضحايا العلم .

وبما أنني عدت وحيداً من الهدى عبر البصرة وحلب ، لا يتوقع مني عشاق التاريخ الطبيعي ملاحظات من هذا النوع في بلاد زرتها وحيداً وينبغي أن يستعملوا نتائج هذه الرحلة التي أمر بها عامل الدائم لك . لكنني رائق من أن الجغرافيا جنت الكثير ، وترتدي هذه الملاحظات الجغرافية طابعاً من الأهمية سيما وأن البلد الذي زرته هو أقدم بلد نعرفه . حاولت في كافة الأمكنة وضع خرائط للمدن التي صادفتها كي يتمكن العلماء من تحديد مساحتها ، وعدد سكانها .

مركز تحقيقات كامبيوتري علوم إسلامي



١٣١-٠١-٢٢٠٢٥

9 789953 476834